

الحرف الصليبية

في شمال إفريقية
وأثرها الحضاري

سنة ٦٦٨ - ١٩٢ / هجرية ١٢٧٠ - ١٣٩٠ ميلادية

الأكتور مسدوح حيدر

لقد

الأكتور شاكرا

الأكتور شاكرا

الأكتور شاكرا



دار عمار

الحُرُوفُ الصَّلَيبِيَّةُ

لِشِكْلِ الْاَرَمِيَّةِ

وَلِشِكْلِ الْاَرَمِيَّةِ



محمود الطبع محفوظ للنشر

الطبعة الأولى

١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م

مواصفة دارة المطبعات وال نشر
رقم الاجازة للتسلسل ١١٣/٦/١٩٩٨ م

رقم التصنيف : ٩٥٦.٠٣١

للكولف ومن هو في حكمه : مملوح حنين علي حنين

عنوان الكتاب : الحروب الصليبية في شمال افريقية والرها

الحضاري (سنة ١٢٧٠ - ١٣٩٠)

الموضوع الرئيسي : ١ - التاريخ والجغرافيا

٢ - الحروب الصليبية

رقم الامانة : ١٩٩٨/٦/٨٤٣ م

ملاحظات النشر : عمان / دار عمار للنشر

٥ - تم اعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية



عمان - صاحبة الجامع الحسيني - سوق البصراء

تلاخيص ٤٦٥٢٤٣٧ . ص . ب ٩٢١٦٩١ عمان - الأردن

طابعون

جميعه عمال المطابع التعاونية

هاتف ٢ - ٤٦٣٢٧٧١ - فاكس ٤٦٣٢٧٧٣

ص . ب ٨٥٧ - عمان ١١١١٨ الأردن

الحُرُوفُ الصَّالِيَةُ

في سَمَالِ إفْرِيقِيَّةِ

وَأَشْرَافِ الْخَصَائِرِ

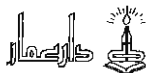
سنة ٦٦٨ - ٧٩٢ هجرية ١٢٧٠ - ١٣٩٠ ميلادية

الدُّكْتُور مَمْدُوحُ حُسَيْن

أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة المساعد
كلية التربية - جامعة السَّامِيعِ مِنْ أَبْشِيرِيلِ

الدُّكْتُورُ شَاكِرُ مَصْطَفَى

أستاذ كرسي التاريخ الإسلامي
وَرِئِيسُ قِسْمِ التَّارِيخِ الْإِسْلَامِيِّ بِجَامِعَةِ الْكُوَيْتِ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الإهداء

إلى كل من استشهد في بلاد الإسلام
دفاعاً عن عقيدته وأرضه

هذا الكتاب

شيء كسعادة الأوبة يشعر به الإنسان وهو يشهد عملاً يبدأ أمامه فكرة ثم ما ينفك يتكامل جهداً ويتكامل تكوناً حتى يبلغ درجة العمل السوي ويخرج إلى الناس مشروعاً سوياً... هذا ما شعرت به وأنا أقلب صفحات هذه الرسالة الجامعية في شكلها الأخير.

لهذا يسعدني أن أشارك صاحبها في تقديمها للناس والباحثين... ولو لم يكن لي فيها إلا ما لضوء المصباح من الإنارة في الغابة البعيدة. وأعترف أنني لم أكن أقدر - والرسالة فكرة بعد - أنها سوف تكون بهذه الضخامة، وهذه الغزارة في التفاصيل، وبهذا العدد من الحاجة إلى التعب والسفر وسهر الليل... ولكنها احتاجت ثم احتاجت، وأتعبت صاحبها بحثاً وراء المصادر، وتعقياً للحقائق ومتابعة للسابقين في دروب التاريخ حتى امتوت عملاً متكاملًا. ولم يخجل صاحبها عليها بشيء. لم يقصر. بل ركض في كل درب على تباعد دروب عمله عن دروب علمه. وكانت النتيجة هذه الرسالة لا بل هذا الكتاب الضخم القيم.

وقد يكون من الصعب أو من الفضول أن أضيف إلى هذه الصفحات - على ضخامتها - مقدمة أو نحواً منها فليس على طالب المعرفة أن يتوقف عند هذه الكلمات، ولكن عليه أن يبحر فكل المرافئ مفتوحة للأثرعة... كل ما يجب أن يعرف ليس أكثر من بضعة أفكار تفتح الطريق.

أولها : أن هذه الملحمة الصليبية لن ينقضي الكلام عنها مهما كثر الكلام وتواترت الأبحاث والكتب. إنها واحد من أربعة أو خمسة أحداث تملأ وحدها التاريخ العالمي كله : غزو الإسكندر المقدوني للعالم المتمدن كله. الانسياح الروماني على بحر الحضارات، الفتح العربي. الصليبيات، الغزو المغولي. حركة الاستعمار الأوروبي للعالم - هذه الأحداث تلخص كل تاريخ الدنيا - وتتميز الصليبيات بالذات بكثرة ما يكتب عنها. لأنها تكتب

وسوف نظل نكتب على الجبهتين اللتين اصطفتا بناهما وسفحتا الدماء والأشلاء والجماجم والجهد والمال فيها... جبهة العرب المسلمين وجبهة الغرب المسيحي...

على أن الصليبيات كانت تكتب دوماً بأقلام غربية ومن وجهة النظر الغربية. ولخدمة أغراض غربية. حتى بعض كتابنا المسلمين ما انفكوا يعتمدون دراسات الغرب فيسقطون في الفخ... وتتضح لديهم الرؤية الغربية أكثر بكثير من الرؤية العربية الإسلامية. والتاريخ - رغم ادعائه استهداف الحقيقة - كان دوماً وجهات نظر ورؤية متأثرة بألوان النظارات التي يضعها المؤرخ أمام عينيه، أو في خلفيته الفكرية. وسيمضي وقت طويل قبل أن تكتمل لدينا وجهة نظرنا نحن. ومثل هذه الرسالة إنما أرحب بها لأنها جهد على هذا الطريق الطويل. إنها لا تضع أوروبا في المركز ولكنها تضع العرب والإسلام بدلاً منها في المركز...

ولم يكن التوفيق الذي حققه صاحب الرسالة في هذا الأمر فحسب ولكنه كان في مواقف أخرى ليست أقل شأنًا. فقد اعتبر الصليبيات في شمال إفريقيا جزءاً من الملحمة الصليبية الشاملة، وبعضاً من الحرب التي شنها الغرب على امتداد حدوده مع العرب المسلمين من الأندلس حتى المشرق. فأحداث تونس جزء من أحداث الشام وأحداث الأندلس، كما أن هذه الأحداث جزء منها. ثم أن صاحب الرسالة كشف أن العرب المسلمين في ذلك العهد كانوا يعتبرون الاعتبار نفسه وقد يتعاونون بين مشرق ومغرب لدفع العدو المشترك...

ومن العدو المشترك وما هو؟ إنه أوروبا كلها. وقد كانت تتأرب الهجمات على العالم الإسلامي في المغرب تماماً كما تتأربها في المشرق. وقد فشلت في المشرق ولكنها في الواقع حققت الكثير من النجاح في المغرب. ألم تسلب الأندلس وصقلية؟ وهذا التأرب تعاونت عليه شعوب أوروبا كلها بعد أن نشلت في الشرق فتارة نورمان صقلية وتارة فرنسا لويس التاسع وتارة ثالثة لويس دي بوربون وراعبة أساطيل المدن الإيطالية جنوة والبندقية وخامسة ممالك أرغونة وإسبانيا وسادسة مملكة البرتغال... وقد يستخدمون الخونة المحليين أيضاً كما يجري إلى اليوم. وقد ينزلون ويحتلون ويقتلون يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم! لكنه دوماً التكالب نفسه والحد الصليبي الأسود نفسه... وفي الأعماق المصالح الاقتصادية

الحركة نفسها!

ومن باب التوفيق في منظور هذه الرسالة أخيراً أنها تناولت الصليبيات الوسطى وأعني تلك الصليبيات التي وقعت جغرافياً بين المشرق والمغرب لتظهر بأثرها بما يجري على الطرفين على حد سواء. كانت تلك الصليبيات في الشمال الإفريقي لسان الميزان في الحركة الصليبية كلها. حين فشل لويس التاسع في مصر نفث غله الصليبي كله في تونس! وحين لم يجد الغرب سبيلاً إلى المشرق بعد أن طرد منه طرداً وبعد أن استولى على معظم الأندلس جعل همه في احتلال إفريقية والمغرب. وفي محاولة تنصير إفريقية والمغرب وعينه ترنو إلى ما وراء هذه المنطقة من ذهب غينيا والتيجر والسودان الغربي!...

إن هذا الكتاب فصل من فصول الملحمة الصليبية الكبرى وفيه ملامح من فصولها المشرقية ومن فصولها المغربية والأندلسية على السواء. ولعله يؤدي المعنى الكبير من كتابته إذ استطاع أن يفتح الأعين العربية المسلمة أكثر فأكثر على أن الغرب غرب والشرق شرق ولن يلتقيا...

لأن يلتقيا ما دام الحقد الصليبي معشاً في النفس الغربية كبعض الأفاعي السامة. وما دام الشرق الإسلامي يجتر أحلامه الذهبية ويحلم بالأمس الغابر... ناسياً الأمر الإلهي :

﴿وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْحَيْلِ تَرَاهُمْ بِهِ عَدُوَ اللَّهِ وَعَدُوَكُمْ﴾!...

فهل يذكر أولو الألباب؟

د. شاكِر مصطفى

﴿قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا
وما أنزل من قبل﴾.

[سورة المائدة : آية ٥٩]

المقدمة

اللهم إني أحمذك بما أنت أهله، وأصلي وأسلم على نبيك محمد بن عبدالله خاتم الأنبياء والرسل، وأعوذ بك من خطأ القول وخطأ الرأي، وبعد، فقد اتخذ الصراع بين الشرق والغرب صوراً متعددة عبر عصور التاريخ، وتنبأ الحركة الصليبية مكانة فريدة في هذا الصراع ليس في العصور الوسطى فحسب، بل في تاريخ البشرية جمعاء نظراً لدوافعها العديدة المتشابكة ونتائجها التي مست مختلف نواحي الحياة البشرية من قريب أو بعيد. ونظراً لذلك فقد شغلت هذه الحركة الباحثين والدارسين منذ زمن طويل، فتناولوها بالدراسة والتحليل من زواياها المختلفة. وقد اختلفت نظرة المؤرخين إلى تلك الحركة تبعاً لاختلاف ميولهم ومفهومهم لها، وتشعبت آراؤهم حول أسبابها وماهيتها وبدايتها ونهايتها والبيادين التي شهدت نشاطاتها والنتائج التي ترتبت عنها، ولا زالت الدراسات تطالعا بين الفينة والأخرى بآراء جديدة، مسلطة بذلك مزيداً من الضوء على بعض زوايا تاريخ هذه الحركة. ولا يتسع المجال في هذا المقام لاستعراض الآراء التي ظهرت حول أسباب هذه الحركة وماهيتها ونتائجها^(١)، فهي ميسورة في العديد من كتب التاريخ يمكن للمستزيد الرجوع إليها^(٢)، ومع ذلك فإنني أرى أنه لا بد من التعرض لموضوع بدايتها ونهايتها لما لذلك من علاقة مباشرة بهذه الدراسة.

(١) عن هذه الآراء انظر د. سعيد عاتور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٢٢ وما بعدها.

(٢) من أهم هذه الكتب : د. سعيد عاتور : الحركة الصليبية.

ستيفن رنيمان : الحروب الصليبية.

ارنست باركر : الحروب الصليبية.

A. Atiya : The crusade in the later middle ages

A. Atiya : The crusade, old ideas and new conceptions.

K. Setton : A history of the crusades.

H. E. Mayer : The Crusades,

René Grousset : Histoire des Croisades et du Royaume France de Jerusalem.

فقد درج مؤرخو المدرسة الأوربية القديمة ابتداء بولكين (Wilken) سنة ١٨٠٧م وانتهاءً إلى هانس ماير (Hans Mayer) عبر سلسلة طويلة منهم على تحديد المدى الزمني للحركة الصليبية بالفترة الممتدة بين سنتي ٤٨٨ - ٦٩٠ هـ / ١٠٩٥ - ١٢٩١م، ولكن هذه النظرية أخذت تهتز بقوة منذ أواخر القرن التاسع عشر الماضي نتيجة لجهود العديد من الباحثين الذين رأوا أن جذور هذه الحركة تمتد إلى ما قبل سنة ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥م بكثير، كما أن ذيلها وبقاياها استمرت إلى ما بعد سنة ٦٩٠ هـ / ١٢٩١م بوقت طويل، وبعبارة أخرى فإن التحديد الزمني للحركة الصليبية بين سنتي ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ - ٦٩٠ هـ / ١٢٩١م هو تحديد خاطئ كما يقول الأستاذ الدكتور سعيد عاشور، فهو (لا يقوم على أساس سليم ولا يعتمد على دراسة الحركة الصليبية دراسة شاملة، وإنما يكتفي بعلاج مبتور يشمل جزءاً من تلك الحركة، ولا يعبر عن جذورها وأصولها من ناحية، ولا عن ذيلها وبقاياها من ناحية أخرى)^(١). والذي أراه، هو أن الحركة الصليبية هي رد الفعل المسيحي تجاه الإسلام، تمتد جذورها إلى بداية ظهوره، وخروج العرب المسلمين من جزيرتهم واصطدامهم بالدولة البيزنطية، وأن هذه الحركة تتطور كالكائن الحي على مدى القرون ما تكاد تخرج من طور إلا لتدخل في طور جديد، وما كانت الفترة الزمنية الممتدة بين سنتي ٤٨٨ - ٦٩٠ هـ / ١٠٩٥ - ١٢٩١م إلا أحد أطوارها فقط، وأن بروز هذا الطور بهذا الشكل الذي كاد أن يغطي على باقي أطوارها يعود إلى عوامل عديدة معقدة ومتشابكة يستطيع الباحث أن يتلمسها في الدوافع والأسباب التي أدت إلى إطلاق الموجة الصليبية العاتية من عقالها في هذه الفترة.

وبصرف النظر عن هذه الأسباب، إلا أنه يبقى سبب هام لا بد للباحث من أن يضعه في اعتباره هو تبدل ميزان القوى في حوض البحر الأبيض المتوسط منذ أواسط القرن الخامس الهجري (الحادي عشر للميلاد) لصالح الغرب الأوربي مركز الحركة الصليبية، فضعف الدولة البيزنطية وترنحها تحت ضربات الصلافة القوية جعلها تسارع إلى الاستجداء بأوروبا الغربية من ناحية، ثم اختلال أوضاع المسلمين في الجناح الغربي من العالم

(١) د. سعيد عاشور: الحركة الصليبية ج ١ ص ٢٦

الإسلامي خاصة في الأندلس وصقلية، وما قابل ذلك من تيسير أسباب القوة والظهور لدى أعدائهم، مما جعل الغرب الأوروبي يرفد النصارى الإسبان بشتى صنوف الدعم والمساندة في صراعهم مع مسلمي الأندلس، وتبسيط النورمان على صقلية، الأمر الذي أجبر مسلمي الأندلس على الاستنجاد بالمرابطين، ومسلمي صقلية على الاستنجاد بإفريقية من ناحية ثانية كل ذلك أدى إلى دخول الحركة الصليبية في طورها الجديد الذي اتخذ صفة العالمية بعد أن كان الصراع الإسلامي المسيحي يتسم عادة بالمحلية.

ومع أن بعض المؤرخين يحاولون استثناء الهجوم الإسباني المسيحي على مسلمي الأندلس وهجوم النورمان على صقلية من الحروب الصليبية تبعاً لمفهومهم للحركة الصليبية ككل، فيحاول ماير (Mayer) مثلاً تضعيف رأي أردمان (Erdman) الذي يعتقد أن حروب النورمان في صقلية واستيلائهم عليها هي حروب صليبية، إلا أن الأدلة التي قدمها ماير لا تعتبر مقنعة ولا تثبت للنقد، ويبقى رأي أردمان هو الأقرب إلى الحقيقة والمنطق، ويستطيع الباحث أن يستشف الدليل على بعد ماير عن الصواب من أقواله نفسها، إذ أنه بعد أن يستعرض الجهود التي بذلها البابا نقولا الثاني (١٠٥٨ - ١٠٦١م) لحل مشكلة الوجود النورماني في جنوب إيطاليا، حيث تم الاتفاق بين هذا البابا والأميرين النورمانيين ريتشارد الكابوي (Richard of Capua) وروبرت جيسكارد (Robert Giscard) في ملفي سنة ١٠٥٩م على أن تكون الأراضي التي احتلها في جنوب إيطاليا إقطاعاً لهما من البابوية وأن يكونا أفضالا إقطاعيين للكنيسة وبالتالي يضاعف قواتهما في خدمتها، يقول : (هذه القوة التي يمكن أن تستعمل في أغراض حرب مقدسة، وقد عرف النورمان من جانبهم فوائد الحرب المقدسة مثل رجال الدين، وقد نقل روبرت جيسكارد (١٠٦١ - ١٠٧٢م) فوجاته إلى شمال صقلية كنوع من الحرب المقدسة ضد الكفار!!)، وقد أعلن عن غرضه هذا في ملفي سنة ١٠٥٩م وهكذا نال موافقة الكنيسة على هذا المشروع... ولكن في الحقيقة إن عنصراً جوهرياً للحروب الصليبية كان مفقوداً في هذه الحرب، فليس ثمة دليل على اشتراك فعال للبابوية بالرغم من أنه من الصعب تصديق أن البابوات قد تجاهلوا ذلك^(١).

=H. E. Mayer : The Crusades, p.19

فالملاحظ هنا أن ماير قد أوقع نفسه في التناقض، فكيف يمكن لروبرت جيسكارد التابع الإقطاعي للبابوية أن يعلن عن مشروعه المتعلق بشن الحرب ضد مسلمي صقلية وينال موافقة البابوية على هذا المشروع ثم تعتبر أن ذلك كان مجرد غض طرف من البابوية ليس إلا، وأن تلك الحروب ليست حروباً صليبية لأن البابوية لم تشارك فيها بشكل فعال، فإذا لم تكن هذه حروباً صليبية فما هي الحرب الصليبية إذن؟ فهل اشتركت البابوية في الحروب الصليبية التالية لتلك الحرب بأكثر من الموافقة والتوجيه والدعاية والدعم المعنوي؟ وكل ذلك قد توفر في حروب النورمان في صقلية، فهل اشتركت قوات بابوية ذات فعالية عسكرية في أية حملة صليبية تالية؟ فإذا كانت الحروب التي شنت ضد المسلمين بتشجيع البابوية وزعامتها الروحية هي حرب صليبية، فمن باب أولى أن تعتبر الحروب التي شنّها تابع إقطاعي للكنيسة وبتوجيهها وموافقتها هي حروب صليبية، وما ينطبق على صقلية ينطبق على الأندلس ثم إفريقية بعد ذلك. ومن هنا نخلص إلى نتيجة هامة هي أن الهجوم الذي شنته قوى العدوان على هذه الأقطار الإسلامية الثلاثة ما هي إلا حروب صليبية متقدمة على إعلان البابا أوربان الثاني بدء الزحف الصليبي إلى المشرق سنة ١٠٩٨هـ / ١٠٩٥م.

وتقودنا هذه النتيجة إلى موضوع آخر هو تحديد مكانة إفريقية كميدان من الميادين الهامة التي شهدت صراعاً إسلامياً صليبياً مبروراً بدءاً من القرن الخامس الهجري. فالملاحظ أن الجزء الأكبر من جهود الباحثين في الحركة الصليبية قد انصرف إلى معالجتها في ميدانها الرئيسي في الشام ومصر، بحيث طغى ذلك على ميادين أخرى هامة لنشاط هذه الحركة عانت منها وذاقت من ويلات حروبها الكثير. وتعتبر إفريقية بمدلولها التاريخي إحدى هذه الميادين. فقد كانت الجبهة الإفريقية ميداناً نشطت فيه قوى العدوان الصليبي لعدة قرون، يمثل ذلك غي حملات عديدة وجهت إليها الواحدة تلو الأخرى ولم تقتصر للصليبيين في ذلك همة ولم يوهن الفشل لهم عزيمتهم. فكما أن بلدان المغرب العربي كانت أول من أكتوى من البلاد العربية بنار الاستعمار الأوروبي الحديث، كانت بلدان الجناح الغربي من العالم الإسلامي ومن ضمنها إفريقية هي التي تلقت الضربات الأولى للصليبيين، والسبب في ذلك

وعن الاتفاق بين البابا نقولا الثاني وهذين الأميرين النورمانين انظر أيضاً :

Bernard Guillemin : The Early Middle Ages, p. 70-71.

يعود إلى عدة اعتبارات جغرافية وتاريخية من أهمها قربها الشديد من غرب أوروبا مركز الحركة الصليبية، ومعرفة الأوروبيين الواسعة نسبياً لأوضاع المسلمين في هذه المنطقة سياسياً واقتصادياً واجتماعياً لسهولة الاتصال بين الطرفين، ثم الحقد الشديد الذي كان يكنه الأوروبيون للمسلمين المغاربة ^(١) بالذات لكونهم هم الذين تولوا عبء الجهاد في أوروبا أكثر من غيرهم من المسلمين، وما كان يشعر به الأوروبيون من خطر هؤلاء إذا تهيأت لهم الوحدة والقيادة المخلصة. لكل ذلك كانت أوروبا تترقب بمسلي هذه المنطقة الدوائر وتمتحنز للوثوب عليهم منتظرة الفرصة المناسبة، وأخذت هذه الفرصة التي طالما انتظرها محركو قوى المدون الصليبي تهيأ منذ أواسط القرن الخامس الهجري (الحادي عشر للميلاد)، إذ أصاب الجناح الغربي من العالم الإسلامي من التمزق ما جعله يسير بخطى حثيئة نحو التردّي إلى الهاوية، ولم يكن وضع إخوانهم في المشرق بأحسن حال منهم، فكان هذا التمزق واقتراق الكلمة هو السبب الأهم في البلاء الذي نزل بالمسلمين في المشرق والمغرب على حد سواء، وما أثب اليوم بالأمس، لقد كان ولا يزال تفرق العرب والمسلمين هو الباب الواسع الذي يدخل إليهم أعداؤهم منه لضربهم في عقر ديارهم. فكان أن انطلقت القوى الصليبية في موجة عاتية تضرب المسلمين في ثلاث جهات في آن واحد، في الأندلس وصقلية وإفريقية.

فقد شهدت الجهة الأندلسية منذ أواسط ذلك القرن نشاطاً ملحوظاً تمثل في شن هجوم قوي مستمر من قبل النصارى الإسبان بزعماء مملكة قشتالة على مسلمي الأندلس ^(٢)، حيث أخذت المدن والمعاقل الإسلامية تسقط في أيديهم تباعاً، وأحرزوا النصر على المسلمين في معارك عديدة وتوجت تلك الانتصارات بسقوط مدينة طليطلة سنة ٤٧٨هـ / ١٠٨٥م في يد ألفونسو السادس ملك قشتالة، تلك الكارثة التي روعت العالم الإسلامي بأسره،

(١) كانت كلمة المغاربة في العصور الوسطى تطلق على سكان المغرب الإسلامي بأسره والذي يضم الأندلس والجزر الإسلامية في غرب المتوسط إلى جانب أقطار المغرب العربي، وليس كما درج في العصر الحديث بقصرها على أهل المغرب الأقصى، وسترّد في هذه الرسالة بالملول القديم ما لم يرد تخصيصها.

(٢) عن هذا الموضوع انظر: B. Guillemin : Op. Cit., p. 68-69.

وحيال هذا الضغط المتواصل من النصارى الإسبان اضطر مسلمو الأندلس إلى الاستنجاد بالمرايطين في العدو المغربية، فكانوا يرسلون الاستغاثة تلو الأخرى لهذه القوة الفتية، حتى إذا ما قضى أميرها يوسف بن تاشفين على جيوب المقاومة لدولته في العدو المغربية، عبر البحر إلى الأندلس بجموع غفيرة حيث التقى بألفونسو السادس في معركة الزلاقة سنة ٤٧٩هـ / ١٠٨٦م التي سطر المرابطون ومن ساعدتهم من الأندلسيين بانتصارهم الرائع فيها صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد الإسلامي، وانتصار المسلمين في تلك المعركة أوقف المد المسيحي الإسباني مؤقتاً حتى تهيأت له ظروف أخرى فيما بعد.

وأما الجبهة الصقلية، فقد أدى ظهور النورمان كقوة جديدة في ميدان السياسة الدولية إلى تغير ميزان القوى في غرب المتوسط لصالح القوى النصرانية، إذ ما كاد هؤلاء القادمون الجدد يجدون موطنهم في جنوب إيطاليا ويحصل روبرت جيسكاردي أكبر زعمائهم على اعتراف البابا نقولا الثاني به في مؤتمر ملفي سنة ١٠٥٩م كما أسلفت القول، حتى أعلن عن مشروعه في توجيه قواه ضد مسلمي صقلية لإرضاء للبابوية التي كانت ترى في ذلك تحقيقاً لأهدافها الصليبية من ناحية، وإبعاداً للخطر النورماني عن ممتلكاتها من ناحية أخرى، فشجعت هذا المشروع، وكدليل على موافقتها وتشجيعها أرسل البابا إلى جيسكاردي راية مقدسة لينال هو وجنده بيركتها النصر على المسلمين، وأصر على أن الفتوحات المرتقبة من أجل المسيح (عليه السلام) هي أكثر أهمية من إرسال الهدايا إلى روما، وينقل نورمان دانيال (Norman Daniel) عن المؤرخ النورماني مالاتيرا (Mallaterra) قوله: إن البابا أراد مكاسب دائمة في صقلية^(١)، وساعد ما كان يجري في الجزيرة روبرت جيسكاردي ورجار الأول على تنفيذ مشروعاتهما، فانتهزا الفرصة الذهبية التي قدمها لهما ابن الثمنة حينما استنجد بهما ضد منافسه ابن الحواس وعبراً مضيق مسينا سنة ٤٥٢هـ / ١٠٦٠م متعللين بهذه الزريعة، وحيال هذا التدخل النورماني استنجد مسلمو صقلية بالمعز بن باديس أمير إفريقية، ولكن إفريقية كانت في تلك الآونة تعاني من الحزق والضعف ما لم تعرفه في طور آخر من تاريخها في ظل الهجرة الهلالية إليها، ومع ذلك فإن المعز عمر أسطولاً كبيراً

وأرسله لنجدتهم ولكن قدر لذلك الأسطول أن لا يصل إلى صقلية إذ هبت عليه عاصفة بحرية في عرض البحر أغرقت معظم سفنه، وقد حاول ابنه وخليفته تميم معاودة الكرة في إغاثة مسلمي صقلية فأرسل حملة عسكرية بقيادة ابنه أيوب وعلي أقامت في الجزيرة أربع سنوات ولكنها اضطرت للعودة إلى إفريقية كما سيذكر في موضعه، ووجد الغزاة النورمان موطنهم قدم لهم في الجزيرة وبدلوا في الاستيلاء على معقلها، وبمقتضى معاهدة سنة ٤٦٨ هـ / ١٠٧٥ م بين تميم بن المعز ورجار الأول، فتح المجال أمام الأخير لمواصلة خطته في الاستيلاء على الجزيرة باطمئنان حتى استكمل ذلك في سنة ٤٨٤ هـ / ١٠٩٠ م، ثم وثبت قواته على مالطة في العام التالي واحتلتها وأخذ يتحين الفرصة للانقضاض على إفريقية.

وأما الجبهة الإفريقية، فقد نالت حظها هي الأخرى من العدوان الصليبي في تلك الآونة بفعل قوة ناشئة هي المدن البحرية الإيطالية، فقد استغلت هذه المدن غياب القوى البحرية القديمة المتمثلة في الأسطولين الإسلامي والبيزنطي عن مياه البحر الأبيض المتوسط منذ أوائل ذلك القرن لانشغال كلا الطرفين بمشاكله الداخلية، وأخذت تعمل على بناء قوة بحرية بهمة ونشاط، ولم تكد تمضي سنوات قليلة حتى أخذت أساطيلها تخمر مياه ذلك البحر القريبة من الشواطئ الأوروبية أولاً خوفاً من أسطول مجاهد العامري صاحب دانية الذي استطاع تجميد نشاطها لفترة من الوقت حتى إذا ما تمكنت من إزالة ذلك الخطر بدأت منذ أواسط القرن المذكور تجوب مياه البحر الأبيض المتوسط شرقاً وغرباً، وقد وضعت هذه المدن قوتها البحرية في خدمة الأهداف الصليبية منذ البداية لتحقيق مكاسب خاصة بها. فبتشجيع البابا لاون التاسع استولى تحالف من جنوة وبيزا (بيشة) على جزيرة سردينيا الإسلامية سنة ٤٤٢ هـ / ١٠٥٠ م، ثم على قورسقة (كورسيكا) بعد ذلك بقليل، وهاجم أسطول بيزا مدينة بلم صقلية سنة ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م حيث خرب أرباضها ومينائها وغنم غنائم كبيرة، وكما اشتركت هذه الأساطيل في حروب الجبهة الصقلية اشتركت في حروب الجبهة الأندلسية، فأسهمت في مطاردات المسلمين الأندلسيين عن طريق البحر وأخذت نصيبها من الغنيمة، وفرضت حصاراً بحرياً على المرية حتى دفعت لها تلك المدينة فدية ضخمة تقدر بمبلغ ١١٣ ألف دينار ذهبي، كما أجبرت بلنسية على دفع أتاوة مماثلة

تقدر بمبلغ ٢٠ ألف دينار ذهبي لتفتدي نفسها بذلك من النهب والسلب^(١)، وهاجمت الجزائر الشرقية (جزر البليار) عدة مرات.

ونتيجة لذلك، أصبحت القوة البحرية الإيطالية هي المتحكمة في مياه البحر الأبيض المتوسط، مما دفعها إلى مزيد من المغامرة، فوجهت نشاطها إلى إفريقية التي كانت لا تزال تحتفظ بقوة بحرية أخذت في النمو حتى تنفرد بالسيطرة على ذلك البحر من ناحية، والحيلولة دون قيام مسلمي إفريقية بمد يد المساعدة لإخوانهم في صقلية أو غيرها من ناحية ثانية، ثم لتحقيق أهداف الحركة الصليبية في إفريقية من ناحية ثالثة، فقامت قوة بحرية ضخمة مكونة من أسطولي جنوة وبيزا مدعومة بفرق من مدينة أمالفي وقوة عسكرية أخرى أمدتها بها البابا بمهاجمة مدينة المهديّة سنة ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م أي بعد الاستيلاء على طليطلة بعامين وقبيل الاستيلاء الكامل على صقلية واستولت عليها باستثناء قلعتها، وظلت في يدها إلى أن دفع صاحبها تميم بن المعز للقرى المتحالفة فدية مالية ضخمة وعقد مع الغزاة معاهدة نصّ أحد بنودها على تعهّد تميم بعدم التعرض للسفن الإيطالية في المياه الإفريقية ومنحهم امتيازات تجارية في بلاده كما سيذكر في موضعه.

فما تقدم يتضح أن هذا الهجوم الصليبي على القسم الغربي من العالم الإسلامي منذ أواسط القرن الخامس الهجري (الحادي عشر للميلاد) والذي كانت تدير دخه البابوية قد احتدم في ثلاث جبهات كانت إفريقية إحداها، ولا ينكر إلا مكابر أن هذا الهجوم إنما كان وجهاً من أوجه الحركة الصليبية، وإن تطرق الشك إلى دور البابوية في الصراع الإسلامي المسيحي في الأندلس وصقلية، فإنه لا مجال لهذا الشك في دورها في الهجوم على إفريقية بدليل اشتراك قوات تحت لوائها في هذا الهجوم. وهذا يؤكد ما ذهبنا إليه في أن الحروب الصليبية بدأت في إفريقية قبل الزحف الصليبي إلى المشرق، ويؤكد هذه الحقيقة ما ذكره ابن الأثير في حوادث سنة ٤٩١هـ إذ يفهم من النص الذي أوردته أن تلك الحوادث كانت مترابطة بحركها محرك واحد وأنها كانت بداية لموجة الحروب الصليبية في ذلك الطور من أطوار الحركة الصليبية إذ يقول : (كان ابتداء ظهور دولة الفرنج واشتداد أمرهم وخروجهم

(١) أرشبالد لويس : القوى البحرية والتجارية في البحر المتوسط ص ٣٧٢.

إلى بلاد الإسلام واستيلائهم على بعضها سنة ثمان وسبعين وأربعمائة فملكوا طليطلة وغيرها من بلاد الأندلس... ثم قصدوا سنة أربع وثمانين وأربعمائة جزيرة صقلية وملكوها... وتطرقوا إلى إفريقية فملكوا منها شيئاً وأخذ منهم - ثم ملكوا غيره على ما تراه - فلما كان سنة تسعين وأربعمائة خرجوا إلى بلاد الشام^(١).

لقد كانت إفريقية محط أنظار القوى الصليبية قبل تطلعهم إلى المشرق، وقد فطن ابن الأثير لهذه الحقيقة حتى إنه اعتبرها هي المقصودة بالزحف الصليبي إلى أن تمكن صاحب صقلية من تحويل هذا الزحف إلى المشرق فيقول في ذلك : (فلما كانت سنة تسعين بعد الأربعمائة خرجوا - أي الفرنج - إلى بلاد الشام، وكان سبب خروجهم أن ملكهم بروديل جمع جمعاً كثيراً من الفرنج، وكان نسيب رجار الفرنجي الذي ملك صقلية، فأرسل إلى رجار يقول له : قد جمعت جمعاً كثيراً، وأنا واصل إليك وسائر من عندك إلى إفريقية أفضحها وأكون مجاوراً لك. فجمع رجار أصحابه واستشارهم في ذلك فقالوا : وحتى الإنجيل، هذا جيد لنا ولهم، وتصبح البلاد بلاداً نصرانية... (فاستخف رأيهم) وقال : إذا وصلوا إليّ أحتاج إلى كلفة كثيرة ومراكب تحملهم إلى إفريقية وعسكر من عندي أيضاً، فإن فتحوا البلاد كانت لهم، وصارت المؤونة لهم من صقلية، ويتقطع عني إليهم ما يصل من المال من ثمن الغلات كل سنة وإن لم يفلحوا رجعوا إلى بلادهم وتأذبت بهم، ويقول تميم : غدرت بي، ونقضت عهدي، وتقطع الصلة والأسفار بيننا. وبلاد إفريقية باقية لنا متى وجدنا قوة أخذناها، وأحضر رسوله وقال له : إذا عزمتم على جهاد المسلمين، فأفضل ذلك فتح بيت المقدس تخلصونه من أيديهم ويكون لكم الفخر، وأما إفريقية فيني وبين أهلها أيمان وعهود، فتجهزوا وخرجوا إلى الشام^(٢)). وبصرف النظر عما يمكن أن يوجه لهذا النص من نقد، إلا أنه يثبت أن تطلع القوى الصليبية إلى إفريقية قد برز منذ بداية هذا الطور من أطوار الحركة الصليبية، وقبل تطلعها إلى المشرق وما منعهم من الاتجاه إليها بكل قواهم إلا صد النورمان لهم الذين كانوا يريدونها خالصة لهم وحدهم دون غيرهم من تلك القوى

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ١٠، ص ٢٧٢.

(٢) ابن الأثير : المصدر السابق ج ١٠، ص ٢٧٢.

وأنتهم سيقومون باحتلالها متى وجدوا في أنفسهم القوة وتهيأت لهم الظروف.

وعلى الرغم من اتجاه معظم قوى الحركة الصليبية إلى المشرق، إلا أن ذلك لم يمنع من بقاء فكرة احتلال إفريقيا ماثلة في أذهان ذوي الأفكار الصليبية وبقي تطلع النورمان للاستيلاء عليها قائماً حتى تم لهم ذلك في عهد رجار الثاني حيث استولى على معظم سواحلها من طرابلس شرقاً إلى قرب مدينة تونس غرباً في سنة ١٠٤٣هـ / ١١٤٨م، فكانت الحرب الصليبية مشتعلة في الجبهة الإفريقية أثناء احدها في جبهة المشرق، وبقي الوجود النورماني ماثلاً فيها حتى قام عبد المؤمن بن علي خليفة الموحدين الأول بطردهم من المهديّة آخر معاقلم فيها سنة ٥٥٥هـ / ١١٦٠م كما سيذكر فيما بعد، وحينما دب الوهن في جسم الدولة الموحدية منذ أوائل القرن السابع الهجري (الثالث عشر للميلاد) عادت القوى الصليبية لممارسة نشاطها في جبهتها من جديد بصور مختلفة حتى إذا ما انهارت تلك الدولة وجهت إليها حملة صليبية ضخمة هي التي قادها الملك الفرنسي لويس التاسع سنة ٦٦٨هـ / ١٢٧٠م والتي عرفت في التاريخ بالحملة الصليبية الثامنة. وبالرغم من أن تلك الحملة لم تحقق معظم أهدافها، إلا أن ذلك لم يصرف القوى الصليبية عنها بل كان العكس هو الذي حدث إذ أنها أخذت تشهد ضغطاً صليبيّاً متواصلاً.

ومنذ طرد الصليبيين من المشرق، اتجهت الحركة الصليبية إلى إفريقيا باهتمام أمتد، فتارة يهاجمها قراصنة الصليبيين، وتغير عليها جيوشهم تارة أخرى، وتحاك المؤامرات ضدها تارة ثالثة، حتى قيل إن الحروب الصليبية انتقلت من المشرق إلى المغرب، ولعل في ذكر حملة الجنويين على طرابلس الغرب سنة ٧٥٥هـ / ١٣٥٤م وحملة لويس البوربوني على المهديّة سنة ٧٩٢هـ / ١٣٩٠م ما يكفي للدلالة على صحة هذا القول. وزادت ضراوة الهجوم الصليبي عليها في القرنين التاليين التاسع والعاشر للهجرة (الحامس عشر والسادس عشر للميلاد)، حينما حمل النصارى الإشبانية لواء الحركة الصليبية وبدأوا يضرّبون سواحل المغرب العربي الشمالية من بركة إلى طنجة في حين تولى البرتغاليون مهاجمة سواحل المغرب الأقصى المطلة على المحيط الأطلسي، وقد استمر هذا الهجوم طوال بقية العصور الوسطى، وظلت إفريقيا ميداناً للصراع بين المسلمين والصليبيين الإشبانية حتى أواسط القرن العاشر

الهجري (السادس عشر للميلاد) حينما انضوت إفريقية تحت لواء الدولة العثمانية.

وبالرغم من أهمية جبهة إفريقية في تاريخ الحركة الصليبية وضراوة الصراع الإسلامي الصليبي فيها، فإنها لم تلق العناية الكافية من الباحثين، الأمر الذي جعلني أحسار دوراً من أدوار نشاط الحركة الصليبية في هذه الجبهة موضوعاً لهذه الدراسة لبحث الحوادث التي جرت خلاله وتسلط مزيد من الضوء عليها، وهو ذلك الدور الذي غطى الفترة الممتدة بين سنتي ٦٦٨ هـ - ٧٩٢ هـ / ١٢٧٠ - ١٣٩٠ م لعلني بذلك أسهم في سد النقص في المكتبة العربية عامة والتاريخية بصفة خاصة التي تخلو من الدراسات العلمية لنشاط الحركة الصليبية في هذه الجبهة، وأضع علامة واضحة على الطريق لدراسات متخصصة تالية تغطي جميع أحوار هذا النشاط. وتكمن أهمية هذا الدور في أن بدايته ونهايته تمثلان منعطفين هامين في تاريخ الحركة الصليبية، فقد شهدت سنة ٦٦٩ هـ / ١٢٧٠ م قيام لويس التاسع بحملته على إفريقية والتي كانت آخر الحملات الصليبية التي قادها أحد ملوك أوروبا العظام ضد العالم الإسلامي، وعقدت عليها الآمال العربية لتحقيق أهداف صليبية هامة، ولكن فشلها كان له أثره الفعال في تطور الحركة الصليبية ودخولها في طورها الجديد الذي ظهر به في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر للميلاد)، في حين تمثل سنة ٧٩٢ هـ / ١٣٩٠ م منعطفاً آخر في تاريخ تلك الحركة، إذ بفشل حملة لويس الثاني دي بوربون على المهدية التي قام بها في ذلك العام، وما تلا ذلك من سحق الأتراك العثمانيين للحملة الصليبية في نيقوبوليس سنة ٧٩٨ هـ / ١٣٩٦ م أي بعد ذلك بست سنوات فقط، أقل نعم فرنسا من سماء الحركة الصليبية، تلك الدولة التي كانت بمثابة العمود الفقري للحركة المذكورة واضطرت للتخلي عن دورها الهام في نشاطها لتكتفي بدور المشجع الأمر الذي كان له بلا شك أثره القوي على تلك الحركة. لقد لبست الحركة الصليبية في هذا الطور الذي بدأ منذ أواخر القرن السابع الهجري وشمل القرن الثامن الهجري (الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين) ثوباً جديداً مما جعله طوراً مميزاً عن سواه من أطوار تلك الحركة. أما أسباب هذا التطور الذي جد على الحركة الصليبية في هذا الطور فععود إلى أن كلا العالمين الإسلامي والمسيحي بدأ منذ أواخر القرن السابع الهجري (الثالث عشر للميلاد) يشهدان تبدلاً في أوضاعهما السياسية

والاجتماعية والاقتصادية، إذ اختفت قوى كان لها دور بارز في السابق وظهرت بدلاً منها قوى جديدة، وتلاشت قيم ومثل لتحل محلها أخرى جديدة، فكان ذلك سبباً وفي الوقت نفسه نتيجة لهذا التطور.

فمنذ منتصف القرن السابع الهجري (الثالث عشر للميلاد) أخذت البابوية تسيير نحو الضعف بخطوات حثيثة، فما كاد ذلك القرن يشارف على الانتهاء حتى أصبحت شبه عاجزة، إلى أن انتهى بها الأمر إلى نقل مقرها من روما إلى أفينون بفرنسا، لتبدأ فترة من تاريخها نزلت فيها من عليائها وأصبحت رهينة رغبة ملوك فرنسا، تلك الفترة التي عرفت في تاريخ البابوية بالأسر البابلي والتي امتدت من سنة ١٣٠٥م إلى سنة ١٣٧٨م^(١). وتلا الأسر البابلي حدث آخر كان أفد نكاهة عليها من الأول هو الانشقاق الديني الأكبر (سنة ١٣٧٨ - ١٤١٧م) والذي كان في حقيقته كارثة حلت بها^(٢). وقد أدى هذا الانشقاق إلى انقسام أوروبا الغربية إلى معسكرين، وأخذ كل من الفريقين يسف الآخر ويدي معايه ويظهره بمظهر عدم اللياقة وقلة الصلاحية ويستصدر ضده قرارات الحرمان، مما ترك أسوأ الأثر في نفوس المعاصرين^(٣) الذين بدأوا يعيدون النظر في حقيقة منصب البابا ومصدر سلطته، فظهر عدد من المفكرين المعتدلين والمتطرفين ينادون بتحرير الفكر من القيود التي فرضتها البابوية^(٤). وكان لكل ذلك أثره على البابوية فقد اهتزت مكانتها السامية في النفوس وتزعزعت ثقة الناس بها، فأثر ذلك بكون شك على الحركة الصليبية، إذ بضعف

(١) لمزيد من التفصيل عن هذا الموضوع انظر د. سعيد عاشور: أوروبا العصور الوسطى، ج ١ ص ٥٠٩ وما بعدها، د. عبد العزيز الشناوي: أوروبا في مطلع العصور الحديثة، ج ١ ص ٢٩ حاشية ٢.

A. Atiya: The Crusade in the later Middle Ages, p.48.

(٢) عن الأسر البابلي والانشقاق الديني انظر د. سعيد عاشور: أوروبا العصور الوسطى، ج ١ ص ٥٠٩ وما بعدها، د. عبد العزيز الشناوي: المرجع السابق ج ١ ص ٢٩٨.

(٣) د. سعيد عاشور: أوروبا العصور الوسطى ج ١ ص ٥١٥.

(٤) من المفكرين المعتدلين الذين ظهروا في القرن الرابع عشر: مارسيليو دي بودا (١٢٧٠ - ١٣٣٤م) صاحب كتاب دي فنسن باسيز، ومساعدته الفرنسي جين دي جوندن، ثم ولیم وجون من ويسل وغيرهم. أما المتطرفون فمنهم جون ويكلف (١٣٢٧ - ١٣٨٤م) وأتباعه في إنجلترا ثم جون هيس وأتباعه في بوهيميا. انظر د. سعيد عاشور: أوروبا العصور الوسطى ج ١ ص ٥١٠ وما بعدها، د. عبد العزيز الشناوي: المرجع السابق ص ٢٩٨ وما بعدها. A. Atiya: Ibid, p.9.

البابوية فقدت تلك الحركة زعامتها الروحية الفعالة، حتى إن المحاولات التي قام بها بعض بابوات القرن الرابع عشر للدعوة لحملة صليبية أدت إلى نتائج هزيلة إذا ما قورنت بالدور الذي كانت تقوم به البابوية في السابق^(١).

أما الامبراطورية الرومانية المقدسة التي قذفت بآلاف المحاربين في ساحات القتال أثناء الحملات الصليبية الأولى، فقد انحلت وازداد نفوذ الأمراء الإقطاعيين على حساب السلطة الأمبراطورية^(٢)، واكتفى ذرو النزعة الصليبية من الألمان بتوجيه جهودهم ضد الوثنيين في شرق أوروبا لتتصيرهم بالقوة ومنهم من ارتكب أبشع الجرائم في حق البروسيين باسم التنصير إرضاءً لزععتهم تلك^(٣). وقد شعر هؤلاء أنهم بذلك إنما يكونون قد أدوا ما عليهم في خدمة المسيحية وبالتالي شغلوا عن التفكير في الاشتراك في أية حملة صليبية جديدة ضد المسلمين؛ اللهم إلا حينما أخذ الأتراك العثمانيون يذقون أبواب أوروبا الشرقية حينئذ اتجهت جهود الكثيرين منهم إلى العمل لمواجهة هذا الخطر. وأما فرنسا وإنكلترا اللتين كانتا فيما مضى عماد الحركة الصليبية - وبصفة خاصة فرنسا - فزيادة على المشاكل الداخلية التي واجهتها كل منهما^(٤)، اشتبكنا معاً في حروب مريرة غطت فترة طويلة من أواخر العصور الوسطى هي الحرب التي عرفت في التاريخ باسم حرب المئة عام والتي استنزفت جزءاً كبيراً

(١) من هذه المحاولات الجهود التي قام بها البابا كلمنت الخامس (١٣٠٥ - ١٣١٤م) الذي كان أول بابا في حقبة الأمر البابلي، إذ جمع مبلغ ثلاثمائة ألف فلورين ذهبي لتمويل حملة صليبية، وعندما توفي تركها في عهدة قريبه برتراند دي جوت، وحاول خلقه البابا يوحنا الثاني والعشرين تنفيذ وصيته بتسيير حملة صليبية لكن جهوده باءت بالفشل. انظر عن ذلك :

A. S. Atiya : Op. Cit., p13

A. S. Atiya : Op. Cit., p4

(٢)

(٣) من هؤلاء جماعة الفرسان التبتون الذين نقلوا نشاطهم من الديار المقدسة بعد سقوط عكا في يدا المسلمين سنة ٦٩٠هـ / ١٢٩١م إلى شرق أوروبا.

(٤) من أهم المشاكل الداخلية التي واجهتها فرنسا في القرن الرابع عشر، المشاكل الاقتصادية والاجتماعية التي خلفها وباء الموت الأسود الذي أنشأ أظفاره في مناطق واسعة من العالم القديم (١٣٤٧ - ١٣٥٠م) وكان أكثر المتضررين الفرنسيين منه هم طبقة العمال والفلاحين فجئوا يطالبون بحقوقهم الأمر الذي أدى إلى إصدار الميثاق الكبير سنة ١٣٥٧م ولكن ملكها شارل الخامس نقضه في العام التالي خارت ثائرة هذه الطبقة وانفجر الوضع في شكل ثورة عارمة -

من طاقات كل منهما وجمدت نشاط فرسان كلا البلدين للحرب على الأرض الفرنسية، مما جعل الحركة الصليبية تخسر الكثير بتقييد هذه الحرب لهاتين الدولتين، ومما يدل على أهمية هذا الصراع بالنسبة للحركة الصليبية أن فترة التقارب بين الدولتين التي تمت في عهد شارل السادس ملك فرنسا قد تمخضت عن حملة لويس الثاني دي بوربون على المهدي سنة ٧٩٢هـ / ١٣٩٠م وإسهام كل منهما بنصيب وافر في حملة نيقوبوليس الصليبية سنة ٧٩٨هـ / ١٣٩٦م هذا المجهود الذي لم يكن ليتِم لو بقيت الحرب مشتتة بين الطرفين في تلك الفترة.

وأما المدن البحرية الإيطالية التي كانت دائما لا تهتمها الحركة الصليبية إلا بالقدر الذي تحقق لها هذه الحركة مصالحها، فقد بقيت تقوم بدور المحرك لقوى العدوان الصليبي وتوجيه ذلك العدوان حيثما يمكنها من إحراز مكسب لها، إلا أنه جد أمر جديد عليها في هذا الطور إذ اشتد التنافس فيما بين المدينتين اللتين كانتا أكبر هذه المدن وهما البندقية وجنوة، وتحول هذا التنافس إلى صراع مرير خرجت منه البندقية ظافرة فالتت تبعا لذلك نصيب الأسد من تجارة الشرق بينما أخذت جنوة زعيمة مدن ليغوريا تحاول تعويض خسارتها بإيجاد مراكز لها في المغرب العربي عامة وإفريقية بصفة خاصة، مسخرة كافة الوسائل المشروعة وغير المشروعة لتحقيق هذا الهدف، بمساعدتها في ذلك حليفها يزا. فكانت جنوة تمارس نشاطها العدواني لوحدها أو بمعونة يزا لنيل المكاسب التي تبتغيها، ولكنها إذا أحسّت أن تنفيذ أحد مشاريعها تلك هو فوق طاقتها كانت تستعين بالقوى الصليبية الأخرى. وأما مملكة

عاشت سنة ١٣٥٨ هي التي عرفت بثورة الجناك (الفلاحين). أما بالنسبة لإنجلترا فقد أدى فشل ريتشارد قلب الأسد في حروبه الصليبية إلى يقظة الشعب الإنكليزي فبدأ الصراع بينه وبين ملوكه مما اضطر الملك يوحنا إلى إصدار الميثاق الأكبر Magna Carta في ١٥ يونيو ١٢١٥م واستمر نضال الشعب الإنكليزي في عهد خلفه هنري الثالث الذي كرهه الشعب لاعتماده على الفرنسيين في إدارته وخضوعه للبابا فأعلن الشعب قيام البرلمان سنة ١٢٣٩م واستمر نضال الشعب طوال القرنين الثالث عشر والرابع عشر إذ كان النزاع بينه وبين الملك يتجدد كلما حاول الملك تجاهل مكاسبه أو التحدي على حرياته.

عن هذا الموضوع : انظر د. سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ج١ ص ٤٧٤ وما بعدها
كذلك فيشر : تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ج٢ ص ٢٩٤ وما بعدها.

الصقليتين، فمخذ سقوط أسرة هوتفيل التورمانية التي أسهمت بنصيب كبير في نشاط الحركة الصليبية في ميادين المشرق والمغرب على حد سواء، أخذ دور تلك المملكة في هذا النشاط في التراجع، وما أن سقطت أسرة هوهنتاوفن في أواسط القرن الثالث عشر حتى أصبحت هذه المملكة ذاتها موضع تنافس بين فرنسا وإنجلترا وأرغونة، وخرجت إنجلترا من هذا التنافس ليستمر بين الدولتين الآخرين، وغاز شارل صاحب أنجو برعشها مما مكنه من القيام بدور بارز في حملة أخيه لويس التاسع على تونس، وزادت وفاة شارل أنجو سنة ١٢٨٢م من حدة هذا التنافس بين هاتين الدولتين، ولما كان لكل منهما أسلوب يغاير الآخر في تنفيذ مخططات الحركة الصليبية فقد ترك ذلك أثراً سيئاً على دورها في النشاط الصليبي وزاد الطين بلة انقسامها إلى مملكتين إحداهما صقلية التي خضعت للملك أرغونة والثانية مملكة نابلي التي ظلت تحت حكم الأسرة الأنجوية، مما أدى إلى تقليص هذا الدور إلى حد كبير واكتفائها بدور المساند طوال القرن الثامن الهجري (الرابع عشر للميلاد). وأما بالنسبة لشبه جزيرة إيبرية، فقد سيطر النصارى على الجزء الأكبر منها بينما حصر المسلمون في رقعة صغيرة في ركنها الجنوبي الشرقي هي مملكة غرناطة، وظل هؤلاء النصارى طوال القرن الثامن الهجري (الرابع عشر للميلاد) يحاولون انتهاز أي فرصة تسنح لمواصلة الضغط على المسلمين لطردهم من شبه الجزيرة مما كان يجعل هؤلاء لا يكفون عن استصراخ مسلمي العدو المغربية، فكان لذلك أثره القوي في إبقاء جلوة الروح الصليبية متقدة في نفوس النصارى الإسبان، حتى أصبح منهم من يرى أن الصليبية الحلقة هي تلك التي تبنى طرد المسلمين من الأندلس وضرهم في العدو المغربية حتى لا يعاود هؤلاء تجميع قواهم والوثوب إلى البر الأندلسي من جديد.

إن هذه التطورات السياسية بالإضافة إلى التطورات الاجتماعية والاقتصادية والدينية التي استجدت في الغرب الأوروبي في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر للميلاد) والتي تمثلت في ازدياد شعور الولاء لدى الشعوب الأوروبية للوطن الكبير، ومساندة تلك الشعوب للملكها على حساب أمراء الإقطاع نظراً لاتفاق مصلحتها مع مصلحة هؤلاء الملوك وإحساس تلك الشعوب بأن الملكيات القوية هي التي في استطاعتها توفير الأمن

الداخلي وحماية المواطنين من المظالم والابتزاز الذي كان يتعرض له هؤلاء من الأمراء الإقطاعيين، والدفاع عن الوطن ضد العدوان الخارجي، ثم تحرر الفكر الأوروبي من القيود التي فرضتها عليه الكنيسة، ثم ازدهاد حجم التبادل التجاري بين الشرق والغرب وما صاحبه من اتصال حضاري كبير بينهما، كل هذه التطورات أدت إلى دخول الحركة الصليبية في هذا الطور الجديد.

ولاستكمال توضيح الصورة، تجدر الإشارة إلى التغيرات التي شهدتها العالم الإسلامي في ذلك القرن أيضاً والتي أثرت بدون شك في الحركة الصليبية من قريب أو بعيد، فقد انهارت امبراطورية الموحدين في سنة ٦٦٨هـ / ١٢٦٩م في المغرب الإسلامي بعد فترة طويلة من الضعف والاعتلال لتقوم على أنقاضها أربع دول يتفق بعضها حيناً وتتخاصم أحياناً، هي دولة بني الأحمر في غرناطة، والدولة المرينية في المغرب الأقصى والدولة الزيانية أو العبادوية في المغرب الأوسط، والدولة الحفصية في إفريقية، وكانت تتاب هذه الدول في ذلك القرن فترات من الضعف والقوة، ولكن انشغال كل منها بمشاكلها الداخلية من ناحية، وبمنازعاتها مع شقيقاتها من دول المغرب الإسلامي الأخرى من ناحية ثانية، أدى إلى ضعفها جميعاً وأبقى الأمل قوياً لدى الحركة الصليبية في تحقيق أهدافها في الأندلس وإفريقية. أما في المشرق، فقد أخذت المشاكل الداخلية ترهق دولة المماليك التي ضمت قسماً كبيراً من الشرق الأوسط الإسلامي، بعد أن كانت قد حملت لواء الجهاد الإسلامي منذ النصف الثاني من القرن السابع الهجري (الثالث عشر للميلاد)، فطردت الصليبيين من معاقلمهم في الشام، كما أوقفت المد التتاري شرقي نهر الفرات واجتاحت مملكة أرمينيا الصغرى التي كانت بمثابة رأس حربة موجهة إلى قلب العالم الإسلامي، كما ربطت مملكة النوبة المسيحية بعمليتها، ولكن عدم وجود نظام ثابت لولاية عرش هذه الدولة فت في عضدها، فكانت هذه المشكلة هي أهم المشاكل التي شغلت بال أمرائها ففترت همهم عن الجهاد لا سيما بعد طرد الصليبيين من عكا، واعتناق تار فارس الإسلام، فركزت هذه الدولة جل نشاطها على كونها الوسيط الرئيسي للتجارة بين الشرق والغرب، وفقدت دورها القيادي في جهاد أعداء الإسلام، لتتولى رفع رايته قوة إسلامية أخرى هي دولة الأتراك العثمانيين التي بدأت

عندها إمارة صغيرة من ضمن الإمارات التركية العديدة التي قامت في الأناضول لكنها سرعان ما نمت ووسع أمراؤها رقعتها على حساب جيرانهم بالحرب تارة وبالمصاعرات السياسية تارة أخرى، وما كاد ذلك القرن ينتصف، حتى وثبت جيوشها إلى البر الأوروبي حاملة لواء الجهاد في شرق أوروبا، وقد أرهبت هذه القوة الإسلامية الفتية الممالك الأوروبية وشدت انتباهها، فأخذت توليها قسماً كبيراً من اهتمامها وهرعت للعمل على مواجهتها وتحطيمها مسخرة في سبيل ذلك جزءاً كبيراً من إمكانياتها وكان ذلك بالطبع على حساب الميادين الأخرى، حتى وجهت ضدها في أواخر ذلك القرن حملة صليبية ضخمة عدتها مائة ألف جندي كانت آخر حملة صليبية كبيرة في العصور الوسطى، ولكن السلطان بايزيد الأول الملقب بالصاعقة تمكن من سحقها في معركة نيقوبوليس سنة ٧٩٨هـ / ١٣٩٦م كما أسلفنا القول، فكانت هذه النهاية كارثة كبرى حلت بأوروبا، ولولا اضطراب العثمانيين للمبادرة إلى مواجهة خطر تيمورلنك الزاحف على بلادهم من الشرق بعيد هذه المعركة لمضوا في تقدمهم غرباً إلى قلب أوروبا.

كل تلك الظروف طبعت الحركة الصليبية في هذا الدور بسمة خاصة مميزة، أما ماهية هذا التطور فتتمثل في أن الحملات الصليبية الموجهة ضد العالم الإسلامي اتخذت صفة الغارات السريعة جاعلة من القول المأثور (اضرب واهرب) شعاراً لها، فلم تكن لها القدرة على الاستقرار، ثم بروز الصليبية السلمية أي الدعوة إلى استعمال الوسائل السلمية لتحقيق الأهداف الصليبية وقد اتخذ العديد من صليبي هذا القرن من الدعوة لتنصير المسلمين بالإقناع شعاراً لهم. لقد برزت حركة التنصير هذه إلى سطح الحوادث لا لتحل محل الدعوة لحوب المسلمين، وإنما لتقف إلى جانبها وتكون مكملتها. صحيح أن فكرة التنصير لم تكن بالشئ الجديد على الحركة الصليبية، إذ منذ أوائل القرن الثالث عشر اتجهت جهود البابوية إلى دعوة الحكام غير المسيحيين إلى اعتناق الديانة المسيحية، ووجدت في رهبان منظمي الدومنيكان والفرانيسكان جيشاً من المنصرين الذين كانوا على أهبة الاستعداد للذهاب إلى آخر مكان في العالم حاملين لواء التنصير، فيذكر لنا التاريخ عدة محاولات جرت في هذا الاتجاه منها مقابلة فرانسيس الأسوزي (القديس فرانسيس) مؤسس منظمة

الفرانسيسمكان للسلطان الكامل الأيوبي إبان الحملة الصليبية الخامسة على مصر بهدف إقناعه بالتنازل، ثم محاولات البابوية ولويس التاسع مع خانات التتار، ثم محاولات البابوية مع الخليفة المرتضى الموحدي، ولكن الجهد في الأمر أن حركة التنصير منذ أوائل الدور الذي نبحث فيه (أواخر القرن السابع الهجري / الثالث عشر للميلاد) اتجهت إلى الشعوب بدلاً من الحكام ولعل أكثر ما يتجلى ذلك في جهودها في المغرب العربي وبخاصة إفريقية.

لقد اتجهت جهود القوى الصليبية لتنصير مسلمي إفريقية منذ وقت مبكر، ويمكن للباحث أن يستشف ذلك من رسالة البابا جريجوري السابع التي وجهها إلى الملك الناصر ابن علناس الحمادي سنة ١٠٧٦م كما سنذكره في موضعه، ثم حقد البابوية على الامبراطور فردريك الثاني لأنه لم يسمح فيما زعمت للأمير عبد العزيز الحفصي الذي كان لاحقاً سياسياً لديه بالسفر إلى روما لتعميده، ويبدو هذا الأمر أقصد وضوحاً في أقوال لويس التاسع لسفراء المستنصر الحفصي عشية الإعداد لحملة على تونس بالإضافة إلى أن تنصير مسلمي إفريقية كان من أهم أهداف تلك الحملة، ثم أخيراً ما يستفاد من الرسائل المتبادلة بين ملوك أرغونة وابن اللحياني الحفصي كما سيذكر في موضعه، ولما بايت تلك الجهود مع الحكام بالقتل، نظراً لعدة أسباب أهمها ما كان يتمتع به معظم هؤلاء من الثقافة الدينية بحيث صعب على المنصرين إن لم يكن استحالة إقناعهم بالهجوم التي كان يسوقها هؤلاء على صحة المسيحية وبطلان الإسلام في زعمهم، ثم يقط الشعب ومدة تمسكه بعقيدته الإسلامية بحيث كان من المستحيل أن يمر موضوع تنصير الحاكم بسلام لو حدث، ثم ارتكاز الحفصيين إلى ركيزة دينية في وصولهم إلى الحكم هي المبادئ الموحدية من ناحية والنسب العمري^(١) من ناحية ثانية، فلم يكن من السهل على هؤلاء هدم أهم ركن من أركان وجودهم ليعتقوا المسيحية، حتى لو تعهد لهم ملوك أوروبا بالمحافظة على عروشهم لأن الشعب سيطردهم إن أجلاً أم عاجلاً، لكل ذلك اتجهت حركة التنصير في إفريقية إلى الشعب مباشرة عاقدة الأمل على أنها باتصالها به تستطيع جذب أبنائه إلى المسيحية، وعندئذ

(١) استند بنو حفص في نسبهم إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، في حين استند بنو زيان في نسبهم إلى النسب النبوي الشريف، أما بنو مرين فقد وصلوا بنسبهم بمقيس عيلان.

سينقلب الوضع في المنطقة لصالح المسيحية وبالتالي ستتحقق أهداف الحركة الصليبية فيها بطريقة أسهل. ولعل جهود رامون لول في هذا المجال تعتبر خير دليل على هذا الاتجاه.

ويبرز حركة التنصير بهذا الشكل تكون قد اكتملت الأركان الثلاثة للحركة الصليبية في إفريقية التي اعتمد منها الاستعمار الأوروبي الحديث نظريات وجوده. فالاستعمار الحديث قام على ثلاثة أركان هي : الجندي الاستعماري والقسيس والمستوطن (المعمر)، وتبدو هذه الأركان الثلاثة متمثلة بوضوح في نشاط الحركة الصليبية في إفريقية، فالجندي الصليبي والمستوطن سائرا بعضهما إلى إفريقية منذ الهجوم النورماني عليها، إذ ما كاد (رجار الثاني) يحتل ما احتله من مواعيلها حتى وجه الدعوة لرعاباه في جنوب إيطاليا وصقلية للهجرة إلى إفريقية والاستقرار فيها واستغلالها، وقد لبى العديد منهم هذه الدعوة كما فعل أحفادهم حينما دعاهم موسوليني في القرن العشرين لنفس الغرض. ومنذ اتجاه إفريقية إلى الانفصال عن الدولة الموحدة عادت الجماليات الأوروبية للاستقرار فيها من جديد لتنهب خيراتها بشكل أو بآخر على أمل استيطانها إلى الأبد، وكان مما شجعهم على ذلك تردي الأوضاع فيها إبان عصر الفوضى والاضطراب الذي أظلمها عقب وفاة المستنصر الأول، ثم جاءت حركة التنصير برهبانها وقساوستها لتكتمل بها هذه الأركان الثلاثة.

ولعل فيما تقدم ما يكفي لتوضيح أهمية هذا الدور الذي اختصت به هذه الدراسة بالنسبة لتاريخ إفريقية من ناحية والحركة الصليبية من ناحية أخرى، والتي جعلتُ عنوانها (الحروب الصليبية في شمال إفريقية وأثرها الحضاري) سنة ٦٦٨هـ - ٧٩٢هـ / ١٢٧٠م - ١٣٩٠م، والتي قسمتها إلى مقدمة وتمهيد وخمسة أبواب وخاتمة.

أما المقدمة، فقد بينت فيها أهمية هذا البحث والسبب في اختياره وألححت فيها إلى أوضاع العالمين المسيحي والإسلامي في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر للميلاد) والتطورات التي استجدت على الحركة الصليبية في ذلك القرن، ثم بينت منهج الدراسة وقمت بتحليل أهم المصادر الأساسية التي اعتمدت عليها والتلميح إلى معاناتي في جمع المادة والمنشقات التي كابدتها في سبيل ذلك، وأشرت فيها أخيراً إلى النتائج التي توصلت إليها في هذه الدراسة.

وأما التمهيد، فقد تعرضت فيه لجغرافية إفريقية طبعياً وبشرياً وأثر تلك الجغرافية في تاريخها، ثم تناولت تاريخها قبل الفتح الإسلامي لها بإيجاز شديد حيث ركزت على تبين أهميتها بالنسبة للكثيصة والعالم المسيحي، هذه الأهمية التي جعلتها محط أنظار القوى المسيحية المناهضة للإسلام وموضعاً لتطلعاتها الدائم للاستيلاء عليها وإعادتها إلى المسيحية، وإن استهداف الحركة الصليبية لها إنما كان حلقة في سلسلة الصراع الإسلامي المسيحي العام، ثم تتبعته بإيجاز شديد أيضاً مراحل الفتح الإسلامي لها ودور مسلميها في الجهاد منذ استقرار الفتح في ربوعها. وأخيراً أشرت إلى أهم الحوادث التاريخية التي مرت بها في القرون الأربعة الأولى للهجرة مبنياً ما كان لقيام الدولة الفاطمية فيها في أواخر القرن الثالث الهجري (العاشر للميلاد) من أثر في "خبر" جذوة هذا الجهاد في نفوس مسلميها.

وخصصت الباب الأول لمعالجة الحركة الصليبية في إفريقية منذ أواخر القرن الخامس الهجري (الحادي عشر للميلاد) إلى أواسط القرن السابع الهجري (الثالث عشر للميلاد) وقسمته إلى ثلاثة فصول، أشرت في الفصل الأول إلى الهجوم الصليبي على المسلمين في كل من الأندلس وصقلية، وبينت ما أسهمت به إفريقية من جهود في مساندة مسلمي هذين البلدين ومساعدتهم في مواجهة هذا العدوان والتصدي له. وتعرضت في الفصل الثاني للهجوم الصليبي على المشرق في أواخر القرن الخامس الهجري (الحادي عشر للميلاد) وبحث الصدى الذي أحدثه هذا الهجوم في المغرب العربي بشكل عام وإفريقية بصفة خاصة مبنياً أن رد فعل مسلمي إفريقية تجاه هذا الهجوم اتخذ ثلاثة اتجاهات أولها : الدفاع عن بلادهم وصد الهجوم النورماني عليها، وثانيها : مساعدة مسلمي الأندلس بما تيسر لديهم من إمكانيات للوقوف في وجه الهجوم الصليبي المسعور الذي كانوا يتعرضون له. وثالثها : مساعدتهم لإخوانهم مسلمي المشرق في مواجهة الصليبيين في تلك المنطقة، كما أشرت إلى الاتصالات التي كانت تجري بين حكام إفريقية ونظرائهم من حكام المسلمين في المشرق والمغرب في تلك الفترة بغية توحيد الجهود لمواجهة العدوان الصليبي على العالم الإسلامي مبنياً أهمية تلك الاتصالات وما حققته من نتائج. وخصصت الفصل الثالث لدراسة العدوان النورماني على إفريقية مبنياً ماهيته ومراحله والأسباب التي أدت إلى نجاح رجار الثاني في احتلال ساحل إفريقية في أواسط القرن السادس الهجري (الثاني عشر

للميلاد)، كما أشرت إلى وضع إفريقية في ظل هذا الاحتلال، ثم تبعت ثورات مدن إفريقية على التورمان وزحف عبد المؤمن بن علي الموحدى إلى المهديّة آخر معاقل النورمان في إفريقية وتحريرها.

وأما الباب الثاني الذي قسمته إلى ثلاثة فصول أيضاً، فقد درست فيه حملة لويس التاسع ملك فرنسا على إفريقية، فبحث في الفصل الأول النشاط الصليبي لهذا الملك بعد فشل حملته على مصر، وبينت أثر فشل مخططاته العدوانية وجهوده طوال إقامته في الديار المقدسة في اتجاهه بحملته الجديدة إلى إفريقية، ثم الأسباب والدوافع التي أدت إلى قيامه بتلك الحملة والجهود التي بذلت في الإعداد لها والظروف التي أحاطت بها وأهدافها والآمال التي عقدت عليها. وتبعت في الفصل الثاني مسيرة هذه الحملة منذ خروجها بحراً من جنوب فرنسا ونزولها في قرطاجنة ثم المقاومة الإسلامية التي واجهتها وموت لويس التاسع والصلح الذي عقد بين الصليبيين والمستنصر الحفصي ثم انسحاب الصليبيين عائدين إلى بلادهم، ودرست في الفصل الثالث النتائج التي أسفرت عنها تلك الحملة في ضوء تحليل وثيقة الصلح المبرم بين الطرفين.

أما الباب الثالث فقد تعرضت فيه لمبحث التآمر الصليبي على إفريقية في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر للميلاد) بصوره المختلفة، وقسمته إلى فصلين، يثبت في الفصل الأول أثر طرد الصليبيين من بلاد الشام في تحويل أنظارهم إلى إفريقية، وتخصيص قسم كبير من جهودهم لمواصلة نشاطهم في جبهتها، ثم أشرت إلى مشاريع الدعاة الصليبيين التي تعرضت لإفريقية في ذلك القرن، وسلطت الضوء على وجود الجند الصليبي في البلاط الحفصي كحرس للسلطين مبنياً أن هؤلاء ما كانوا إلا مشروراً صليبياً له خطورته. وخصصت الفصل الثاني لدراسة حركة التنصير في إفريقية في تلك الفترة كوجه آخر من وجوه الصراع الإسلامي الصليبي في جبهة إفريقية، حيث تعرضت فيه للجنود تلك الحركة ثم لجهود المنصرين في إفريقية في القرن السابع الهجري (الثالث عشر للميلاد)، ثم في القرن الذي يليه مركزاً على جهود رامون لول كمثال على جهود هؤلاء المنصرين، وأشرت بعد ذلك إلى دور مملكة أرغونة في هذه الحركة، ثم بينت فشل الحركة المذكورة وانتصار

المسلمين فكرياً بالإضافة إلى انتصارهم العسكري.

وقعت في الباب الرابع بدراسة الحملات التي شنّها الصليبيون على إفريقية في أواخر القرن السابع الهجري (الثالث عشر للميلاد) وطوال القرن الثامن الهجري (الرابع عشر للميلاد) وقسمته إلى ثلاثة فصول، خصصت الفصل الأول منها لدراسة نشاط مملكة أرغونة العسكري في هذه الجبهة، حيث أشرت إلى اضطراب أوضاع إفريقية عقب وفاة المستنصر الأول كعامل مشجع لأرغونة لإلقاء ثقلها في إفريقية، ثم تناولت محاولة بطرس (بيبرس) الثالث احتلال قسنطينة، ثم قيام أسطول أرغونة بمهاجمة جزيرة جربة واحتلالها وفشله في احتلال المهديّة بعد ذلك، وتعرضت لحركة ابن أبي دُبوس التي كانت مدعومة من تلك المملكة، وأخيراً أشرت إلى هجمات قراصنة أرغونة وصقلية على شواطئ إفريقية كوسيلة لتحقيق أهداف ملوكهم فيها. وبحثت في الفصل الثاني الحملات التي شنتها أساطيل المدن الإيطالية على إفريقية في النصف الثاني من ذلك القرن مبنياً أثر النزاع بين جنوة والبندقية على الصراع الإسلامي الصليبي في جبهة إفريقية، ثم تعرضت لحملة الجنوئين على طرابلس الغرب سنة ٧٥٥هـ / ١٣٥٤م مبنياً دوافعها ومتبعاً حوادثها، ودرست أخيراً حملة هؤلاء وحلفائهم على جزيرة جربة سنة ٧٩٠هـ / ١٣٨٨م واحتلالهم لها. وخصصت الفصل الثالث لدراسة حملة لويس الثامن دي بوربون على المهديّة سنة ٧٩٢هـ / ١٣٩٠م حيث أشرت إلى أهم دوافعها وتبعات حوادثها ونتائجها.

وأما الباب الخامس فقد خصصته لدراسة أهم مكسب أحرزته الحركة الصليبية نتيجة لنشاطها الصليبي في جبهة إفريقية وأعني به تسرب مؤثرات الحضارة العربية الإسلامية من إفريقية إلى أوروبا من خلال الاتصال الطويل والمستمر الذي تم بين الأوروبيين والمسلمين فيها، فأشرت إلى نشأة الحركة العلمية في القيروان وتطورها كأول مركز لإشعاع الحضارة العربية الإسلامية في الغرب، ثم ما آل إليه أمر تلك الحركة في ظل الهجرة الهلالية إلى إفريقية وبيئت دور القيروان في نشأة وتطور الحركة الحضارية في كل من الأندلس وصقلية بصفتها أهم معبرين للحضارة العربية الإسلامية إلى أوروبا الأمر الذي جعل من إفريقية معبراً حضارياً غير مباشر له أهميته، ولم يقتصر دور إفريقية الحضاري على ذلك فحسب، بل حاولت أن

أبرز دورها كمعبر مباشر لهذه الحضارة خلال ذلك العصر، ولعلني بذلك أكون قد أضفت معبراً رابعاً للمعابر التقليدية الثلاثة التي تسربت منها هذه الحضارة إلى أوروبا.

ثم اختتمت هذه الدراسة بخاتمة قصيرة ضمنتها النتائج التي توصلت إليها خلالها، وأشرت فيها إلى أن الحروب الصليبية في جهة إفريقية لم تنته بانسحاب حملة لويس الثاني دي بوربون وعودتها إلى أوروبا، وإنما كان الذي انتهى هو دور من أدوار تلك الحروب ليبدأ دور جديد آخر تلاه مباشرة تولى مهمة العلوان الصليبي فيه كل من الإسبان والبرتغاليين الذين أخذوا منذ مطلع القرن التاسع الهجري (الخامس عشر للميلاد) يهاجمون سواحل المغرب العربي ومن ضمنها سواحل إفريقية، والذي لا زالت آثاره باقية إلى يومنا هذا متمثلة في إصرار إسبانيا على الاحتفاظ بسبته ومليلة المدينتين المغربيتين جغرافياً وتاريخياً.

هذا وقد حرصت أثناء دراستي للحوادث التاريخية التي تعرضت لبحثها على مقابلة الروايات الواردة في المصادر التاريخية الإسلامية بما ورد عنها في المصادر والمراجع الغربية محاولاً بذلك الوصول إلى الحقيقة التاريخية وتسجيلها، ولذلك عانيت مشقة كبيرة في جمع مادة هذه الدراسة إذ أن مصادر تاريخ المغرب العربي قليلة كما هو معروف، سواء المنشور منها أو الذي لا يزال مخطوطاً إذا ما قيس إنتاج المغاربة في كتابة التاريخ بإننتاجهم في باقي فروع المعرفة الأخرى مثل الفقه والنحو والتوحيد والتصوف^(١)، وحتى هذا القليل لم يصلنا منه إلا الجزء الأقل نظراً لعدة أسباب أهمها قلة اهتمام المغاربة على المستوى الشعبي بالتاريخ واستنساخ كبه والمنافسة في اقتنائها مما أوجد الفرصة لضياح الكثير منها، ثم تبدل الدول المذهبية في المغرب العربي إذ كانت كل دولة تقوم تحاول طمس تاريخ الدولة التي سبقتها لمخالفتها في المذهب، ولعل خير دليل على ذلك هو تاريخ المرابطين الذي لا زالت جوانب عديدة منه مجهولة نتيجة لجهود خلفائهم الموحدين في هذا المجال. وتنفرد إفريقية عن بقية دول المغرب العربي بسببين آخرين، أولهما : إهمال بعض سلاطين بني حفص في الكتب مثل السلطان ابن المصنعي الذي بدد مكتبة القصر السلطاني التي كانت تضم أكثر

(١) انظر عن هذا الموضوع المقدمة التي وضعها عبد الوهاب بن منصور لكتاب روضة الآس للمعري، ص (و) وما بعدها.

من ثلاثين ألف مجلد وذلك بعرضها للبيع عشية رحيله إلى المشرق متعللاً بأن ذلك يعمم فائدتها مع أن هدفه الحقيقي من ذلك كان هو اكتناز ثمنها مما تسبب في ضياع الكثير من نفائس كتبها^(١)، وثانيهما: يد الصليبي الإسباني الحاقدا التي عثت ببقية تراث إفريقية العلمي إبان احتلالهم لتونس سنة ٩٨٠هـ / ١٥٧٢م وعرضته للضياع. يقول ابن أبي دينار في ذلك: (وفي تلك الأيام أهدى المسجد الأعظم - جامع الزيتونة - ونهبت خزائن الكتب به ودرست بأرجل الكفرة معالم المدارس وتفرق ما جمع فيها من دواوين العلوم، وتبددت في الشوارع حتى قيل إن المار من شرقي الجامع حيث النواويرين الآن إنما يمر على الكتب المطروحة)^(٢)، وأخيراً جاء المستعمر لينهب كل ما وصلت إليه يده من نفائس الكتب في شتى أنواع المعرفة لتستقر في المكتبات الوطنية في الدول الأوروبية.

وعلاوة على ما تقدم، تصادف الباحث في تاريخ المغرب العربي - ومن ضمنه إفريقية - صعوبات أخرى أهمها إغفال كثير من المصادر العديدة من الحوادث التاريخية، بالإضافة إلى الإيجاز الشديد بالنسبة لما تعرضت له منها، فحدث مثل حملة لويس التاسع على تونس بالرغم من أهميته تناوله ابن خلدون في ما لا يزيد عن الصفحة الواحدة من تاريخه، وأقل من ذلك كل من ابن السمعان وابن القنفذ، وأما الزركشي فقد أغفله تماماً، ولا ينتظر من مؤرخي المشرق أن يولوا تاريخ المغرب اهتماماً أكثر من اهتمام أبنائه به، فجاءت مؤلفاتهم خلواً من التفصيل والتعليل، لذلك فلا خيار أمام الباحث في أن يكون اعتماده على المصادر الأجنبية أكثر من اعتماده على المصادر الإسلامية، وثمة صعوبة أخرى تواجه الباحث هي تفرق كثير من المصادر الإسلامية المخطوطة في المكتبات الأوروبية للسبب الذي ذكرناه آنفاً، مما يحتم عليه تنجيب هذه المخطوطات ليتيسر له الاطلاع عليها واستقاء مادة بحثه منها.

وتبعاً لذلك، كان عليّ أن أرحل إلى أوروبا ودول المغرب العربي لجمع مادة هذه الدراسة، فقامت بعدة رحلات علمية، الأولى في شهر كانون الثاني (يناير) ١٩٧٨ زرت

(١) انظر عن هذه المكتبة: ابن السمعان: الأدلة البيئية التوراتية ص ٤٦ - ٤٧، كذلك محمد الهادي العامري: تاريخ المغرب في سبعة قرون ص ١٦٥ وما بعدها.

(٢) ابن أبي دينار: المؤنس في تاريخ إفريقية وتونس ص ١٧٥.

فيها باريس ولندن، والثانية في شهر آذار (مارس) سنة ١٩٧٨ زرت فيها روما وتونس، والثالثة في شهر تموز (يوليو) من نفس ذلك العام زرت فيها إسبانيا والمغرب، والرابعة في نيسان (أبريل) سنة ١٩٧٩ زرت فيها تونس مرة ثانية، كما أتيت لي الفرصة لزيارة إسبانيا مرة ثانية في أيلول (سبتمبر) سنة ١٩٨٠ وزيارة تونس للمرة الثالثة في تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٨٠ أيضاً أثناء مشاركتي في أعمال المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ المغرب العربي وحضارته، يضاف إلى ذلك كله رحلاتي المتكررة إلى القاهرة. وقد اطلعت خلال هذه الرحلات على محفوظات المكتبات الوطنية للدول التي زرتها سواء المخطوط منها أو المطبوع مما له صلة بهذه الدراسة وصورت منها ما دعت الحاجة إليه، وكنت أحرص عند وصولي لكل بلد من هذه البلدان على الاتصال بالعلماء المتخصصين في الدراسات التاريخية والحضارية، وقد يسر لي الله سبحانه وتعالى الالتقاء بالعديد منهم فله الحمد والمنة.

وأول من أذكر منهم أستاذي، الأستاذ الدكتور بدوي عبد اللطيف عوض الذي أنجزت هذه الدراسة تحت إشرافه، والذي كان لي نعم الأستاذ والموجه والمرشد طيلة مدة العمل فيها، كما ربطتني صلة قوية بالأستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور الأستاذ بجامعة القاهرة، وبيروت العربية، والكويت، الذي خصني عن طلابه المنتشرين في أرجاء العالم الإسلامي بعنايته ورعايته الأبوية اللتين هما موضع اعتزازي وتقديري، فأفدت كثيراً من توجيهاته وإرشاده. وفي مدريد أتيت لي فرصة تجديد العهد بأستاذي الأستاذ الدكتور السيد عبد العزيز سالم الذي وجهني لكل ما ينفعني من المصادر والمراجع الموجودة في إسبانيا وأرشدني إلى المكتبات المحفوظة فيها وقدمني للممشرق الإسباني فرناندو لاجرانخا الذي أفدت أيضاً من توجيهاته، أما في الرباط فقد حظيت بمعرفة كل من الأستاذ الدكتور عبد الهادي القازي الأستاذ بجامعة الملك محمد الخامس، والأستاذ محمد إبراهيم الكتاني رئيس قسم المخطوطات في الخزنة العامة، والأستاذ محمد المنوني قيم المخطوطات بالخزانة الملكية، وفي تونس كان لي عدة لقاءات مثمرة مع كل من الأستاذ الدكتور محمد الطالبي والأستاذ الدكتور البشير التليلي والأستاذ الدكتور الحبيب الجنباني والأستاذ الدكتور عبد الجليل التميمي والأستاذ الدكتور إبراهيم شيوخ، والأساتذة عبد الحميد الشرفي، وسعد

غراب، والمنجي الكمي.

كما أفدت كثيراً من توجيهات كل من أستاذي الأستاذ الدكتور أحمد مختار المهدي ، والأستاذ الدكتور شاكر مصطفى، والأستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد، والأستاذ الدكتور حسين مؤنس، والأستاذ الدكتور عبد اللطيف أحمد علي، الذين أتاح لي وجودهم في الكويت الفرصة للاتصال بهم باستمرار، وفي القاهرة تيسر لي أكثر من لقاء بأستاذي الأستاذ الدكتور عبد العزيز محمد الشناوي، والأستاذ الدكتور عبد المقصود نصار اللذين أفدت كثيراً من إرشاداتهما، ثم الأستاذ الدكتور محمد حسنين ربيع الذي حظيت بالكثير من نصحه وتوجيهه، وغيرهم، ومن كل أفدت، ومنهم من تفضل مشكوراً بترجمة ما لزمني من المصادر والمراجع التي كتبت بلغات لا أحسنها، ومنهم من أعارني بعض المصادر والمراجع من مكتبته الخاصة هي في حكم المفقود حيث قمت بتصويرها، لذلك فلكل أدين بالعرفان والتقدير لما قدموه لي من توجيه ومساعدات لولاها لما أنجزت هذه الدراسة على النحو الذي تلبو فيه، ولا يسعني إلا أن أوجه جزيل الشكر لموظفي المكتبات التي زرتها على مساعداتهم وأخص بالذكر الأستاذ سعيد بن سعيد قيم المخطوطات في المكتبة الوطنية بتونس، والأستاذ حسين لييب مسؤول المكتبة بمعهد الدراسات الإسلامية بمدريد على مساعداتهم القيمة التي قدموها لي.

وقد اغتتمت فرصة زيارتي لتونس لمعاينة المواقع التي تردد ذكرها في هذه الدراسة على الطبيعة، وكان مرشدي وموجهي في ذلك الأستاذ الدكتور إبراهيم شبوح، مدير المعهد القومي للآثار، بالجمهورية التونسية، فزت موقع قرطاجة حيث نزلت حملة لويس التاسع، كما زرت مدينة المهدية فطفت بها لمعاينة جغرافيتها لما لهذه المدينة من أهمية خاصة في هذه الدراسة، ثم زرت سوسة والمنستير والقيروان وغيرها، وكنت أثناء رحلتي الآفة الذكر أحرص على زيارة المتاحف الوطنية في عواصم تلك الدول للاطلاع على محفوظاتها بما له علاقة بهذه الدراسة من قريب أو بعيد.

وكانت حصيلة هذه الرحلات هي أنني استطعت الحصول على المصادر والمراجع العربية والأجنبية التي اعتمدت عليها في هذه الدراسة، ومن أهم المصادر العربية التي

استندت إليها (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر) لمؤلفه ولي الدين أبي زيد عبد الرحمن بن خلدون. يقع هذا الكتاب في سبعة أجزاء بما في ذلك المقدمة والسيرة الذاتية التي ذُهل بها المؤلف كتابه، وابن خلدون نظراً لمعاصرته لمعظم الحوادث التاريخية التي تعرضت لها هذه الدراسة من ناحية، وقربه من مركز السلطة في دول المغرب الإسلامي وتقلده بعض المناصب فيها ومشاركته في بعض الحوادث التي تتعلق بها من ناحية ثانية، يعتبر تاريخه أهم مصادر التاريخ المغربي في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر للميلاد). فقد تيسر لابن خلدون ما لم يتيسر لكثير من مؤرخي ذلك العصر من الاطلاع على الوثائق والمصادر التاريخية من مظانها والاتصال بشيوخ عصره لكثرة تجواله في أقطار المغرب الإسلامي، يضاف إلى ذلك ما تمتع به من ثقافة واسعة وحس تاريخي مرفه مكّنه من ناصية التاريخ، وما يزيد في أهمية هذا المصدر بالنسبة لهذه الدراسة أنه يغطي الحوادث التي تتصل بها والتي سبقت مولده برواية أخبارها عن شيوخه الذين تبوؤوا مكانة علمية ممتازة وكانوا شهود عيان للعديد منها كآلبلي وغيره، أو عن آل بيته وهم الذين احتلوا مكانة رفيعة في ميداني العلم والسياسة في الدولة الحفصية كأخبار حملة لويس التاسع التي يرويها عن أبيه عن جده.

ويعتبر ابن خلدون أميناً في معظم ما كتب، إلا أن دخوله المعترك السياسي في عصر مضطرب كثرت فيه الدسائس والمشاكل السياسية جعله يضطر أحياناً للمداراة فهو يمر سريعاً على بعض الحوادث التي لم تكن توافق هواه، أو يمزج غمزاً خفياً في خصومه مما يوجب على الباحث التنبيه لمثل هذه الأمور، ولما كان قد انتقل إلى مصر منذ سنة ٧٨٤هـ / ١٣٨٢م^(١)، وبالتالي ابتعد عن مجرى الحوادث في المغرب العربي واعتمد على روايات المغاربة القادمين إلى مصر لمعالجة أخبار ما كان يجري في المغرب العربي جعل القيمة التاريخية لما كتبه عن حوادث تلك المنطقة أقل من سابقتها نظراً لما قد يدخل الروايات من تحوير أو إغفال لبعض الأمور وما يتفاوت فيه الرواة من الثقافة والصدق والقرب من مركز الحوادث أو إضفاء الميول الشخصية، فهو مثلاً لم يشهد حملة الجنويين وحلفائهم على

(١) ابن خلدون : كتاب العبر ج ٧ ص ٤٥١ .

جزيرة جربة سنة ٧٩٠هـ / ١٣٨٨م وحملة لويس دي بوريون على المهديّة سنة ٧٩٢هـ / ١٣٩٠م وإنما استقى أخبارهما من هؤلاء القادمين المغاربة، كما يؤخذ على ابن خلدون توزيع وقائع كثيرة من الحوادث في أماكن متعددة من كتابه مما يضطر القارئ للرجوع إلى أكثر من موضع للإلمام بالحادثة الواحدة ثم التكرار والاستطراد في مواضع متعددة. ويؤخذ على طبعة بولاق من الكتاب وهي التي اطلعت عليها سوء التحقيق والطباعة مما اضطرني للاستعانة بطبعة دار الشعب للمقدمة وطبعة دار الكتاب اللبناني للسيرة الذاتية لأبن خلدون، الأمر الذي يوجب إعادة تحقيق هذا الكتاب الهام لاسيما المجلدين السادس والسابع منه وإعادة نشره بطباعة وإخراج جديدين.

ثم كتاب (الأدلة البيئية النورانية على مفاخر الدولة الحفصية) لأبي العباس أحمد بن الشماخ (ت سنة ٨٦٩هـ / ١٤٦٤م) الذي استعرض فيه تاريخ الدولة الحفصية منذ تأسيسها حتى سنة ٨٣٩هـ، وهذا الكتاب مقسم إلى مقدمة تشتمل على خمسة أبواب أولها : في حد المغرب وإفريقية وما ورد في فضلها، وثانيها : في التعريف بمدينة تونس، وثالثها : في ذكر رادم، ورابعها : في التعريف بمن غزا إفريقية من الصحابة وما يتصل إلى ذلك، وخامسها : في وجوب طاعة ولاية الأمور، ويقلو المقدمة كتاب سلاطين بني حفص ويقف فيه عند أبي عمرو عثمان يذكرهم ويعدد مزايا كل منهم والحوادث التي جرت إبان حكمهم. ثم خاتمة في بابين أحدهما : في الحرابة^(١) وذكر بعض أحكامها والثاني : في دخول العرب إفريقية وسبب ذلك. كما أُلحق الناصر بالكتاب ثلاث ضمائم أولها : شرح قصيدة الدمايني في مدح الساطن أبي عمر عثمان الحفصي وبيان مناقبه، والثانية : نف من فهرست الرصاع، والثالثة : وصية محمد الظريف. وللكتاب تكملة تدعى (تكميل التاريخ المسمى الأدلة البيئية النورانية) استدرك فيها المؤلف بعض الحوادث التي فاتته ذكرها في الكتاب، وهي لا تزال مخطوطة تحتفظ بها المكتبة الوطنية بتونس تحت رقم ١٠٣٨.

كان ابن الشماخ على صلة وثيقة بالدولة الحفصية وتولى منصباً رسمياً فيها إذ كان أحد قضاتها مما أتاح له فرصة الاطلاع على الوثائق الرسمية لتلك الدولة والرجوع إلى

(١) الحرابة هي قطع الطريق وإفساد السبل.

المصادر المحفوظة في مكتبة القصر السلطاني إذ يقول : (وألفت ذلك بخزانة الحضرة العلية الإمامية المجاهدة المتوكلية - أدام الله نصرها - وثيد على المنابر ذكرها)^(١)، كما أن كونه تلميذاً لابن القنفذ القسنطيني جعله يستمد من شيخه هذا الكثير من المعلومات والوقائع التاريخية التي جرت في إفريقية التي قد تكون خفيت على غيره، لكل ذلك فإن المعلومات المستقاة من هذا المصدر في غاية الأهمية. ولكن يؤخذ على ابن الشماخ أنه بحكم منصبه في الدولة الحفصية قد طبع كتابه بالطابع الرسمي حتى إنه يبدو في بعض المواضع وكأنه تعبير عن وجهة النظر الرسمية للدولة، فهو يبرز محاسن سلاطين بني حفص ويتغافل كثيراً عن مساوئهم، ويكاد الباحث يشعر أنه ما وضع كتابه هذا إلا لغاية سياسية هي إقناع الناس بوجود طاعة السلطان نظراً للاضطراب السياسي الذي ساد في الدولة الحفصية في تلك الآونة كما يظهر ذلك بوضوح في الباب الخامس من المقدمة الذي سماه (في وجوب طاعة ولأه الأمور) والذي أقصمه إقحاماً على الكتاب مما يفرض على الباحث وضع ذلك في اعتباره، وكان هذا الكتاب مصدراً هاماً من المصادر التي اعتمد عليها المؤرخون من بعد ابن الشماخ مثل ابن أبي دينار في المؤنس والوزير السراج في الحلل السندسية وغيرهما، والكتاب بالرغم من أنه مطبوع في تونس إلا أنه يعتبر في حكم النادر.

ثم كتاب (الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية) لأبي العباس أحمد بن حسين بن علي ابن الخطيب بن القنفذ القسنطيني الذي يعرف بابن القنفذ أحياناً، وبابن الخطيب أحياناً أخرى. ولد ابن القنفذ في فسنطينة سنة ٧٤٠هـ / ١٣٣٩م في أسرة اشتهرت بالعلم والجاه في تلك المدينة وتولى العديد من أبنائها منصب القضاء فيها، فنشأ تبعاً لذلك في بيئة علمية، وبعد أن أخذ عن آل بيته وعلماء بلده رحل في طلب العلم عدة رحلات إلى مختلف بلدان المغرب العربي التقى فيها بشيوخ عصره وأخذ عنهم، ومن أشهر شيوخه ابن مرزوق صاحب المسند، والشريف التلمساني، وابن عرفة فقيه المغرب المشهور ومنافس ابن خلدون المؤرخ، ثم لسان الدين ابن الخطيب الوزير الغرناطي المعروف، فكسب حصيلة علمية طيبة، وقد اتصل بالبلاط الحفصي حيث تولى قضاء بلده قسنطينة^(٢). ويعتبر ابن القنفذ من

(١) ابن الشماخ : الأذلة البينة التوراتية ص ٣.

(٢) انظر مقدمة الفارسية، كذلك ترجمته في ابن القاضي : درة المجال ج ١ ص ١٢١ . الوزير السراج :-

مؤرخي الدولة الحفصية البارزين، ساعده في ذلك ثقافته الواسعة وصلاته بالعديد من صانعي حوادث عصره. فمركز أسرته وجاهاها العريض في قسنطينة، وصلته بأستاذه ابن مرزوق كاتب الدولة المرينية في عهد السلطان أبي الحسن، ثم اتصاله بلسان الدين بن الخطيب أثناء إقامته الأخير في المغرب الأقصى، واتصاله بالشريف التلمساني عالم تلمسان حاضرة بني زيان (عبد الواد) وصلته هو بالبلاط الحفصي، كل ذلك جعله على علم ودراية بأوضاع المغرب الإسلامي في عصره، ومكّنه من الاستقاء من أفضل المصادر ولذلك كانت مؤلفاته التي زادت عن ٣٣ مؤلفاً منها المطبوع ومنها الذي لا يزال مخطوطاً ومنها ما لم يصلنا منه إلا اسمه، في غاية الأهمية لا سيما التاريخية منها.

أما كتاب الفارسية، فقد ألفه ابن القنفذ للسلطان أبي فارس عبد العزيز ابن أبي العباس أحمد الذي كان ولياً لعهد أبيه وقائداً للجيش الإسلامية إبان حملة لويس الثاني دي بوريون على المهدية، وباسمه دعاه، وهو عرض لتاريخ سلاطين الدولة الحفصية منذ تأسيسها حتى عهد هذا السلطان حيث توقف فيه عند حوادث سنة ٨٠٦هـ، ولا يتوقع من ابن القنفذ بحكم صلته بالدولة الحفصية أن يسجل الحقيقة التاريخية كاملة فهو يشيد بمناقب هذه الدولة ويغض الطرف عن كل ما يشينها مع إيجاز شديد في سرد الحوادث وإغفال لبعضها. وقد نشر هذا الكتاب في تونس سنة ١٩٦٨ بتحقيق محمد الشاذلي النيفر وعبد الحميد التركي^(١)، والنسخة التي اعتمد عليها المحققان هي تلك المحفوظة في مكتبة الأسكوريال والتي حذف منها ناسخها عمداً الأشعار التي لها علاقة بالحروب الصليبية وحملات الأوروبيين على إفريقية، وقد نشر قسم من تلك الأشعار في المجلة الأسبوية ضمن ما نشره شربونو من الفارسية. وقد ضاع لابن القنفذ كتاب اسمه (الكتاب الكبير المتوكل)^(٢) فصل فيه أخبار حملة لويس التاسع على تونس والذي لو وصلنا لأمدنا

= الحلل السندسية ج ١ ق ٣ ص ٦٥٧. عجاج نويهض، معجم أعلام الجزائر ص ٢١.

(١) نشر المستشرق شربونو Cherbonneau قسماً من الفارسية يعادل ٥٢ صفحة من نسخة الأسكوريال في السلسلة الرابعة من المجلة الأسبوية، كما طبعت منها طبعة أخرى على الحجر في باريس سنة ١٨٤٧م في ١٢٣ صفحة. انظر الفارسية: المقدمة، ص ١٢ وما بعدها.

(٢) ابن القنفذ: الفارسية ص ١٣٢.

بمعلومات جديدة عن هذه الحملة. وقد اعتمد كثير من المؤرخين المغاربة الذين جاؤا بعد ابن القنفذ على الفارسية في مؤلفاتهم مثل ابن الشماخ في تاريخه الآنف الذكر.

وكانت (رحلة التجاني) من مصادر الدرجة الأولى التي اعتمدت عليها أيضاً. ومؤلفها أبو محمد عبدالله بن محمد بن أحمد التجاني وكما هو معروف سليل أسرة علمية عريقة في تونس^(١)، وقد خدم السلطان ابن اللحياني الحفصبي فكان كاتبه ومستودع أسرارها، وقد رافقه في رحلته التي قام بها في الأقاليم الشرقية للدولة الحفصية حينما كان ابن اللحياني لا يزال شيخ الموحدين ومدير الدولة، والتي كان الهدف الأساسي منها هو الابتعاد عن تونس العاصمة لاضطراب الأحوال فيها وتربح ما تتمخض عنه الحوادث التي كانت تجري فيها، فطوف معه في بلاد شرق إفريقية، وحينما توجه ابن اللحياني إلى الشرق لأداء فريضة الحج قتل التجاني عائداً إلى تونس، وسجل أخبار رحلته هذه في كتابه الآنف الذكر، وهذا الكتاب هو عرض ممتاز لتاريخ المدن التي مر به التجاني في رحلته تلك، فهو لم يقتصر على وصف تلك المدن وما كان فيها من مدارس ومعاهد ومعالم مشهورة بل تعداها إلى التعريف بالناخبين من أبنائها ما بين فقهاء وقواد وأدباء وصلحاء قدامى ومعاصرين له، وبذلك أمدنا بمعلومات قيمة عن إفريقية قلما نجد لها شبيهاً في مؤلف آخر من هذا النوع من المؤلفات، كل ذلك بلغة سهلة وأسلوب منسج، يضاف إلى ذلك أنه حفظ لنا أقوال كثير من المؤرخين الذين لم تصلنا مؤلفاتهم مثل الرقيق القيرواني وغيره، وبالتالي لم تقتصر المعلومات التي أمدنا بها التجاني على الحوادث التي عاصرها، وإنما تعداها لما سبق عصره منها، فكانت رحلته من أحسن ما كتب في تاريخ إفريقية، حتى أصبحت من المصادر الهامة التي اعتمد عليها كثير من المؤرخين من بعده مثل ابن خلدون في تاريخه، ويؤخذ على هذا الكتاب مأخذين أولهما : كثرة إسناده بمآثر الدولة الحفصية ومناقب سلاطينها لا سيما مغلومه

(١) يقول العبدري في حديثه عن مدينة تونس : (... ولقيت بها الشيخ الأديب الكاتب البليغ ذا الفضائل المعروفة والمآثر المأثورة شيخ الأدباء وواحد البلغاء وزين الناظمين الشعراء أبا الحسن علي بن إبراهيم التجاني له بيت عريق في العلم والأدب، قال لي بمسجد إفراته أنا الثاني عشر مدرساً من آبائي على نسق كلهم قد قعد هنا للإقراء ويتهجم بالعلم شهير وقل من نسائهم من لا يقول الشعر...) العبدري : الرحلة المغربية ص ٢٥٧ .

إشادة تصل إلى حد المبالغة وصمته عن مثاليها بحكم صلته بتلك الدولة، وثانيهما : كثرة الاستطراد حتى ولو كان هذا الاستطراد نافعا في بعض الأحيان. وقد طبعت هذه الرحلة بتحقيق الأستاذ حسن حميني عبد الوهاب في تونس سنة ١٩٥٨.

وأفدت من مصدر آخر هو (البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب) لمؤلفه أبي عبد الله محمد المراكشي المعروف بابن عذارى المراكشي، وهو يتضمن أخبار المغرب والأندلس منذ الفتح حتى سقوط الدولة الموحدية، وتكمن أهمية البيان المغرب في أن مؤلفه كتبه في حدود سنة ٧١٢هـ^(١) أيام الدولة المرينية مما جعله بعيداً عن المؤثرات التي كثيراً ما تبعد المؤرخين عن الحقيقة التاريخية وبالتالي تزيد من ثقة الباحث فيما أورده من معلومات لا سيما عن الدولة الموحدية، ويقول المؤلف إنه جعل لكتابه هذا صلة^(٢) لم يُعثر عليها بعد، والتي لو وصلتنا لجلت كثيراً من الغموض الذي يكتنف بعض جوانب تاريخ المغرب الإسلامي في أواخر القرن السابع الهجري (الثالث عشر للميلاد)، والكتاب في ثلاثة أجزاء نشر الجزأين الأول والثاني منه أكثر من مرة^(٣)، آخرها صدرت عن دار الثقافة ببيروت سنة ١٩٦٧ وهي التي اعتمدت عليها في هذه الدراسة، المجلدين الأول والثاني بتحقيق ج. س. كولان وإ. ليفي بروفنسال، والثالث بتحقيق إ. بروفنسال أيضاً والرابع علق عليه الدكتور إحسان عباس. أما الجزء الثالث فقد نشرته كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة الملك محمد الخامس تحت إشراف معهد مولاي الحسن بتطوان سنة ١٩٦٣م بتحقيق أمروسي هويسي ميرانده ومشاركة محمد بن تاويت ومحمد إبراهيم الكتاني، وأخيراً عثر الأستاذ محمد إبراهيم الكتاني على الأوراق الأخيرة من الجزء الثالث التي كانت مفقودة ونشرها في العدد العاشر من مجلة تطوان سنة ١٩٦٥، وقد أفدت من هذا المصدر في التمهيد والباب الأول من هذه الدراسة بصفة خاصة.

ومن مصادر الدرجة الثانية التي اعتمدت عليها كتاب (فيض العباب وإفاضة قدامح

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٣ ص ٤٥٤ .

(٢) ابن عذارى : المصدر السابق ج ٣ ص ٤٠٢ .

(٣) انظر ابن موده : دليل مؤرخ المغرب الأقصى ص ١٥٩ - ١٦٠، كذلك مقدمة الجزء الثالث من الكتاب، انظر أيضاً د. سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربي ص ١٢ وما بعدها.

الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب) لمؤلفه إبراهيم بن عبد الله بن إبراهيم النميري المعروف بابن الحاج. ولد ابن الحاج سنة ٧١٣هـ وأخذ العلم عن شيوخ عصره في المغرب وتدرج في مناصب الدولة المرينية حتى أصبح كاتب السلطان أبي عنان المريني ومن المقرين إليه، وقد توفي سنة ٧٦٨هـ، وهذا الكتاب هو تسجيل لحوادث الحملة التي قام بها أبو عنان على إفريقية سنة ٧٥٦هـ وهي آخر محاولات توحيد المغرب العربي في العصور الوسطى. وقد اتبع ابن الحاج في تأليفه طريقة المذكرات اليومية، يسجل فيها أخبار الحملة أولاً بأول، ويزيد في أهمية هذا المصدر أن ابن الحاج كان مرافقاً لأبي عنان في حملته هذه ومطلعاً على خفايا سياسته، فجاء كتابه هذا معبراً عن وجهة النظر الرسمية للدولة المرينية، كما إنه يمدنا بمعلومات هامة عن أوضاع إفريقية في أواسط القرن الرابع عشر السياسية والاجتماعية والاقتصادية، يضاف إلى ذلك وصفه للمدن والنواحي التي كانت تمر بها الحملة. ولكن يؤخذ على ابن الحاج أنه يضيف حالة من التقديس على الدولة المرينية ويكبل المدح لخدمته يصل إلى حد المبالغة، ويتنقص مخالفه ويصفهم بأنهم الصفات من ناحية، ثم إغراقه في الصناعة اللفظية شأنه شأن الكثير من كتّاب الدواوين لدى سلاطين المسلمين في ذلك العصر، حتى إن المعلومات التاريخية كثيراً ما تكاد تختبئ خلف ستار المحسنات البديعية، ويشعر القارئ بالملل في أكثر من موضع قبل وصوله إليها من ناحية ثانية. وهذا الكتاب لازال مخطوطاً تحتفظ الخزانة الملكية في الرباط بالنسخة الوحيدة - فيما أعلم - منه تحت رقم (٣٢٦٧)، وتوجد منه نسخة مصورة بالميكرو فيلم عن الأصل في معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية تحت رقم (٣٤٥ / ٥)، والنسخة الأصلية تقع في ٣٥٢ صفحة من الحجم المتوسط ٢٠,٥ × ٢٥ سم مسطرتها (٢٠) سطراً، وهي بخط المؤلف الذي هو فوق مستوى الجيد وبها بعض الصفحات الملونة. وقد أفدت من هذا المصدر في الباب الرابع من هذه الدراسة.

وأخيراً أفدت في الباب الثالث من كتاب (تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب) لمؤلفه عبد الله الترجمان. ومؤلف هذا الكتاب كان راهباً (frair) من مبرة إحدى الجزائر الشرقية (جزر البليار) ويدعى (Anselmo Turmeda)، ويقول في ذلك الكتاب في ترجمته لنفسه إنه تلقى علومه الأولية وكانت دينية في مجملها في بلده ثم رحل إلى لارده، والتحق

بجامعتها، وبعد تخرجه تصدر لتدريس الإنجيل في تلك المدينة، ثم رحل إلى بولونا لامتكمال دراسته في جامعتها المشهورة حيث التقى بنقولا مارتل أحد أساتذتها المشهورين فلازمه مدة طويلة، وبالرغم من الثقافة الواسعة التي اكتسبها والتي قصد بها إعداد نفسه ليكون أحد رهبان حركة التصير، مع أنه لم يتعرض لهذا الأمر في كتابه كما سيذكر في موضعه، إلا أن تلك الثقافة أخفقت في توفير الاطمئنان الروحي له، فعاد إلى بلده ثم رحل منها إلى تونس في زمن السلطان أبي العباس أحمد الحفصي حيث أسلم على يده وتسمى بعد الله وعاش في كنفه وكنف ابنه أبي فارس عبد العزيز من بعده، ولقب بالترجمان كما سيذكر في موضعه أيضاً. وتمثل أهمية كتاب تحفة الأريب في أن المؤلف يكشف كثيراً من التحريفات التي جرت في الإنجيل ثم يسرد الأدلة والبراهين المستقاة من التوراة والإنجيل على نبوة سيدنا محمد ﷺ، ويفند الكثير من ادعاءات المسيحية، فهو يورد الادعاء ويفنده بالحجة تلو الحجة دون الرجوع في حججه تلك لغیر التوراة والإنجيل، أعانه في ذلك سعة اطلاعه على الدين المسيحي بحكم نشأته وثقافته الدينية، وكل ذلك بلغة سهلة وأسلوب جيد، وقد طبع هذا الكتاب مرتين الأولى بمطبعة التقدم بالقاهرة سنة ١٩٠٤ وقد ذيله الناشر بقصيدتين للشیخ أحمد علي المليجي في نفس موضوع الكتاب، والثانية صدرت في روما سنة ١٩٧١ بتحقيق وتقديم المستشرق الإسباني ميغيل دي ابلزا (Miguel de Epalza) مع ترجمة للنص العربي للغة الإسبانية.

وهناك مصادر أخرى ثانوية منها (الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية) المنسوب للسان الدين ابن الخطيب، وكتاب (أعمال الإعلام فيمن بوع من ملوك المسلمين قبل الاحتلال) للسان الدين ابن الخطيب أيضاً، وكتاب (الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس) وكتاب (الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية) وكلاهما لأبي زرع، وكتاب (تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية) للزركشي، ثم (المونس في أخبار إفريقية وتونس) لابن أبي دنبار، و (الحلل السنية في الأخبار التونسية) للوزير السراج، وغيرها كثير مما هو مذكور في ثبت المصادر والمراجع.

ومن أهم المصادر الأجنبية التي اعتمدت عليها رسائل بير دي كوندبي (Pierre de

(Le Duc de) Condet المنشورة في كتاب (Saint Louis Roui de France) بإشراف (Le Duc de) Levis Mirepoix ونشر جيرار وولتر (Girard Walter). وسيردي كوندية كان راعي الكنيسة بقصر لويس التاسع ملك فرنسا وقد رافقه في حملته على تونس، وقد أمدتنا تلك الرسائل التي كانت أغلبه بتقارير رسمية متلاحقة يبحث بها إلى فرنسا بمعلومات هامة عن حوادث تلك الحملة وما كان يجد عليها من تطورات، مما لا توجد في مصدر مسيحي آخر فكانت هذه المعلومات من الطراز الأول لا سيما فيما يخص نزول الصليبيين في قرطاجة وموقفهم أثناء وجودهم في ذلك الموقع، ثم ما يتعلق بمفاوضات الصلح بينهم وبين المسلمين وشروطه، وما زاد في أهمية هذه الرسائل أن بير دي كوندية ابتعد فيها عن المبالغات والتعجيد التي تحفل بها العديد من المصادر والوثائق المسيحية، وهي أربعة رسائل الأولى والرابعة وجههما إلى رئيس كنيسة (Argenteuil) والثانية إلى المسؤول المالي في كنيسة (Saint - Franchour) ووجه الثالثة إلى رئيس دير القديس دينيس (Saint - Denis)، وقد اعتمدت عليها في الباب الثاني من هذه الدراسة.

وقد أقدت في البابين الثالث والرابع من مصدر هام آخر هو كتاب (Los Documentos Arabes Diplomaticos del Archivo de Aragon) أي الوثائق الدبلوماسية العربية في أرشيف مملكة أرغونة، ويحتوي على مجموعة من رسائل سلاطين المسلمين في مملكة غرناطة ودول المغرب العربي ومصر التي كانوا يكتبون بها إلى ملوك أرغونة، قام بترجمتها إلى الإسبانية ونشرها (Maximiliano A. Alaracon) وآخرون وصدر الكتاب في مدريد سنة ١٩٤٠، وتقدم لنا رسائل ملاتين بني حفص المنشورة في ذلك الكتاب معلومات في غاية الأهمية عن علاقات إفريقية بأرغونة في فترة نشاط أرغونة في جبهة إفريقية والتي امتدت من أواخر القرن السابع الهجري (الثالث عشر للميلاد) حتى أواسط القرن التالي بالرغم من كثرة عبارات التهاملة الواردة فيها والتي تكون أحياناً تورية عن المقصود الحقيقي بها.

واعتمدت في الباب الرابع أيضاً على حولية كبايه دورفيل (Cabaret d' Orville) المسماة (La Chronique du Bon Duc Loys de Bourbon) أي (حولية لريس الطيب دوق بوريون) وقد وضع دورفيل حوليته هذه باللغة الفرنسية القديمة اعتماداً على المعلومات التي أمده

بها جان دي كاستيليوس شاتو مورا Sire Jeun de Chastelus Chateau Morand الذي يعتبر المؤلف الحقيقي لها والذي كانت تربطه بالدوق لويس الثاني دي بوربون صلة قرابة ويبدو أنه كان قريباً منه أيضاً أثناء حملته على المهديّة، وبما يؤخذ على هذه الحولية أن مؤلفها قد أغرق في تمجيد الدوق لويس كما أنه وقع في أخطاء عديدة في التواريخ والتفاصيل الدقيقة نتيجة الإدلاء بها من الذاكرة بعد حوالي أربعين عاماً من حوادث تلك الحملة.

ثم حولية جون فرواسار (John Froissart) التي كُتبت باللغة الفرنسية القديمة أيضاً وترجمها إلى الإنكليزية توماس جونز Thomas Johnes وصدرت في لندن في مجلدين سنة ١٨٣٩ تحت عنوان (Chronicles of England, France, Spain and the Adjoin-) of Henry IV. (أي حوليات إنجلترا وفرنسا وإسبانيا والبلاد المجاورة من أواخر عهد إدوارد الثاني حتى تترىج هنري الرابع). وقد قدّم المترجم لهذه الحولية مقدمة طويلة ضمنها نبذة عن حياة فرواسار وأهم أعماله، فيقول: إنه ولد في هينولت (Hinault) بفرنسا حوالي سنة ١٣٣٧م لأب كان يعمل في تجارة الأسلحة وأغلب الظن أن فرواسار توفي بعد سنة ١٤٠٠م. وقد وضع حوليته هذه بناء على رغبة صديقه لورد بوفورت (Lord Beauforte) الذي طلب منه أن يضع تاريخاً للحروب الصليبية المعاصرة له. وقد أمدتنا هذه الحولية بمعلومات هامة عن حملة لويس الثاني دي بوربون على المهديّة سنة ٧٩٢هـ / ١٣٩٠م حيث أفرد فصلاً قائمة بذاتها عنها فزودنا بتفاصيل كثيرة قلما توجد في مصدر آخر، ولكن يؤخذ عليه أنه كان كثير التحامل على لويس الثاني دي بوربون قائد الحملة، ثم سرده لنص المحادثات التي كانت تدور بين مختلف الأطراف بصورة تفصيلية وذكره لأسماء المسلمين بطريقة يصعب - إن لم يكن من المستحيل - الاهتداء لاسم واحد منها في المصادر الإسلامية الأمر الذي يوحي أن هذه التفاصيل لم تكن تستند في معظمها إلى الحقيقة، وإنما لعب خياله دوراً كبيراً في اختلاقتها لاضفاء نوع من الأهمية والمتعة على حوليته.

ومن مصادر الدرجة الثانية الأجنبية كتاب (حياة القديس لويس) The Life of Saint Louis لجوانفيل (Jean Joinville)، والحوليات المسماة Annali della Republica de

(Geneva) أي (حوليات جمهورية جنوة) مؤلفها أغسطينو جيمتنيانو (Augustino Guis-tiniano) وكتاب (Vita Sancti Ludovici Regis Franciae) أي (فضائل القديس لويس وأعماله) لوليم دي نانجي (Guillaume de Nangis)، وكتاب (La via et les Miracles de Monseigneur Saint - Louis) أي (حياة القديس لويس ومعجزاته أو كراماته) مؤلفه وليام دي سانت باثوس (Guillaume de Saint Pathus) وغيرها.

كما رجعت إلى الكثير من المراجع العربية والأجنبية. أما المراجع العربية فتصدرها كتاب (الحركة الصليبية - صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي) للأستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور، ويقع في جزأين صدرت الطبعة الأولى منه سنة ١٩٦٧ وأعيد طبعه عدة مرات، وهو الكتاب الوحيد - فيما أعلم - الذي عالج الحركة الصليبية كموضوع متكامل من وجهة النظر العربية الإسلامية، وبالرغم من أن الكتاب لم يتعرض للحروب الصليبية في المغرب الإسلامي بالتفصيل حسب ما تقتضيه خطته، إلا أنني أفدت منه في تتبع نشاطات الحركة الصليبية وتياراتها المتشابهة واتجاهاتها من مختلف نواحيها. فضلاً عن أنني أفدت أيضاً من مؤلفات الأستاذ الدكتور سعيد عاشور الأخرى وبصفة خاصة كتابه المسمى (أوروبا العصور الوسطى).

كما أفدت من كتاب (البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس) للدكتورين أحمد مختار العبادي والسيد عبد العزيز سالم، اللذين تناولوا فيه نشأة البحرية الإسلامية في الجناح الغربي من العالم الإسلامي وتطورها منذ الفتح حتى نهاية العصور الوسطى وما أسهمت به الأساطيل الإسلامية في تلك المنطقة من مجهودات كبيرة في الفتوحات الإسلامية في جنوب غرب أوروبا وجزر القسم الغربي من البحر الأبيض المتوسط، وهو كتاب عظيم الفائدة في موضوعه وبصفة خاصة فيما يتعلق بالصراع البحري بين المسلمين والصليبيين في عصر الحروب الصليبية.

ثم كتاب (ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية) لمؤلفه الأستاذ حسن حمسي عبد الوهاب، ويقع في ثلاثة أجزاء ويضم مجموعة من البحوث والمخاضات التي أعدت لمناسبات مختلفة، وقد تضمن هذا الكتاب معلومات مفيدة كثيرة نظراً لما عرف عن مؤلفه

من الصبر على البحث وسعة الاطلاع على تاريخ إفريقية في عصرها الإسلامي وبصفة خاصة في العهد الأغلبي، وقد نشر هذا الكتاب في تونس وكانت طبعته التي اطلعت عليها هي الطبعة الثانية التي صدرت عن مكتبة المنار سنة ١٩٧٢ .

وأما المراجع الأجنبية فيأتي في مقدمتها كتاب : *The Crusade in the Later Middle Ages* للأستاذ الدكتور عزيز سوريال عطية الذي صدر في لندن سنة ١٩٣٨ ، وقد استعرض فيه مؤلفه جهود الدعاة الصليبيين في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر للميلاد) ثم أهم الحملات الصليبية التي وجهت ضد العالم الإسلامي في المشرق والمغرب في ذلك القرن. ويعتبر هذا الكتاب فريداً في موضوعه، ولا يزال مرجعاً هاماً للدارسين والباحثين في تاريخ الحركة الصليبية وتطورها، ولكن يؤخذ عليه أن مؤلفه اعتمد اعتماداً يكاد يكون كلياً على المصادر والمراجع الأجنبية، ولم يطلع على كثير من المصادر الإسلامية لتاريخ المغرب الأمر الذي كان له انعكاس على ما ورد فيه من معلومات، فبدأ القصور واضحاً في مواضع عديدة منه في عرض وجهة النظر العربية الإسلامية بالنسبة للحركة الصليبية فيما يخص المغرب العربي على الأقل، كما أنه أحياناً يورد المعلومات التي استقاها من المصادر والمراجع الأجنبية على أنها هي الحقيقة دون العناية بمقابلتها بالروايات الإسلامية لتمحيصها أو نقدها. كما أفادت من كتاب :

(La Berberie Orientale Sous les Hafsides des Origines a la Fin du XV Siecle)

لمؤلفه روبر برنشفيك (Robert Brunschvig) ويقع في جزأين صدرتا في باريس، الأول منهما سنة ١٩٤٠ والثاني سنة ١٩٤٧ وهو عرض لتاريخ الدولة الحفصية السياسي والحضاري منذ تأسيسها حتى نهاية القرن التاسع الهجري (الخامس عشر للميلاد)، وهو كتاب عظيم الفائدة بلا شك لا غنى للباحث في تاريخ إفريقية في هذه الفترة عنه، وقد بذل فيه مؤلفه مجهوداً ضخماً، وما أعانته على ذلك سعة اطلاعه ومعرفته باللغة العربية فضلاً عن لغات أجنبية أخرى، ويؤخذ عليه ما يؤخذ على مؤلفات كثير من المستشرقين من محاولة طمس بعض الحقائق وإلقاء ظلال من الشك على بعض آخر منها، ثم التعليل الخاطيء المتعمد لبعض الأمور سببه الكره الدفين المتمكن من قلوب هؤلاء لكل ما يمت للإسلام والمسلمين بصلة.

ثم كتاب (Saint Louis de France) لجان لارسينا (Jean Larcena) وكتاب راندولف دانيال (E. Randolph Daniel)، وكتاب (The Norman Fate) لندافيد دوغلاس (David C. Douglas) وكتاب (The Two Italies, Economic Relations between the Norman Kingdom of Sicily and the Northern Communes) لمؤلفه (David Abulafia) وكتاب (Saint Louis Roi de France) لمؤلفه (Paul Guth) وكتاب (Saint Louis et son Royaume) لمؤلفه (Albert Garreau) ومن الكتب المعربة (تاريخ إفريقيا الشمالية) لشارل أندري جوليان، وكتاب (القوى البحرية والتجارة في البحر الأبيض المتوسط ٥٠٠ - ١٠٠٠م) لأرشيالد لويس، وكتاب (تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين) ليوسف أشباخ وغيرها كثير مما هو مذكور في ثبت المصادر والمراجع.

وبعد، فقد قادني البحث إلى التوصل إلى نتيجة هامة تلخص في أن الحركة الصليبية قد وجدت في إفريقية ميداناً آخر من ميادين صراعها مع القوى الإسلامية مستهدفة بذلك تحقيق أهداف دينية وسياسية واقتصادية واجتماعية في نطاق الإطار العام لتلك الحركة وهو ما حاولت عرضه في هذه الدراسة. والله الموفق.

د. ممدوح حسين

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ
وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

[سورة يونس : آية ٥٧]

تقديم

(جغرافية إفريقية وأثرها في تاريخها - أهمية إفريقية بالنسبة للكعبة والعالم المسيحي في العصور الوسطى - فتح المسلمين لإفريقية - دور إفريقية في الجهاد)

جغرافية إفريقية وأثرها في تاريخها :

إفريقية ^(١) هي القسم الأول من أقسام بلاد المغرب العربي مما يلي إقليم برقة

(١) تقرأ إفريقية بفتح الياء الثانية وتشديدها، كما تقرأ بفتح هذه الياء دون تشديد، ويرى فليشر أن النطق الثاني أصح من الأول (مادة إفريقية في دائرة المعارف الإسلامية ج٢)، ولعله اعتمد في رأيه هذا على أن أصل هذه الكلمة لاتيني هو (Africa) وأنه مادام الأصل بدون تشديد فالعرب جرى بدون تشديد أيضاً، فإن كان الأمر كذلك فإن الحجة مع ذلك لا تكون معه، ذلك أن العرب سلكوا مسالك عدة في تسميتهم لما يسمونه من ألفاظ ربما خرجت باللفظ عن أصل وضعه، أو لعله اعتمد في رأيه هذا على ما قاله بعض المؤرخين المسلمين مثل ابن خلكان وعنه نقل الناب الأنصاري (المنهل العذب ص ١٩) الذي ضبطها بكسر الهزة وسكون الفاء وكسر الراء وسكون الياء المثناة التحتية وكسر القاف وفتح الياء المثناة التحتية وبهذا آخر الكلمة، وأما كان الأمر فإن الشائع هو نطقها بكسر الهزة وتشديد الياء الثانية حسب ما ضبطها ياقوت (معجم البلدان ج ١ ص ٢٢٨)، وتكتب الكلمة حالياً على وجهين بالهاء أو بالألف، فالمكتوبة بالهاء هي المألولة على القسم الأول من أقسام المغرب وأما التي بالألف فهي المألولة على القارة بأكملها وبهذا المدلول يرد هلمين اللفطين في هذه الدراسة. ويبدو أن اشتقاق هذا اللفظ من الأصل اللاتيني قد مر بأطوار قبل أن يتخذ شكله المذكور، إذ يتضح من الرسالتين المتبادلتين بين عمرو بن العاص وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما بشأن فتحها أنها عرفت إفريقيا أولاً (انظر نص الرسالتين في فروع إفريقية والأندلس لابن عبد الحكم ص ٣٣)، وإفريقيا كما يظهر على قطعة نقود ضربت سنة ١٤٢ هـ. إذ ورد في النقش الذي عليها (ضرب هذا القلنس بأفريقيا)، (انظر حسن عبد الوهاب : وقات ق ١ ص ٤٢٥) ثم تطور بعد ذلك إلى أن وصل إلى الشكل الذي سبق ذكره. أما كلمة (Africa) اللاتينية فهي بدورها مشتقة من كلمة (Aphri) التي أطلقها الفينيقيون على سكان أوتيكا (Utica) وقرطاجنة، وقد عجم اليونانيون هذه التسمية فيما بعد على سكان شمال القارة من حلود مصر الغربية حتى المحيط، وأصبحت هذه التسمية بذلك شاملة لسكان ليبيا أو ليبيا التي كانوا يطلقونها على البلاد التي سكنتها العناصر البيضاء من شمال القارة تمييزاً لها عن القسم الصحراوي الذي أطلقوا عليه بلاد الأحباش السود، ولما جاء الرومان اشتقوا منها كلمة (Africa) وقصروها على الجزء الشمالي الشرقي من جمهورية=

غرباً، والواضح أن هذه التسمية قد اشتهرت من كلمة (Africa) التي أطلقها الرومان على الجزء الشمالي الشرقي من الجمهورية التونسية الحالية، ولكن مدلول هذا الاسم قد اتسع في العهد البيزنطي فشمّل كل ما دخل تحت نفوذ البيزنطيين من أراضي المغرب العربي من برقة شرقاً إلى طنجة غرباً وبهذا المعنى استعمله الجغرافيون المسلمون الأوائل، ولكن هذا المدلول لم يلبث أن أخذ يضيق شيئاً فشيئاً ويحل لفظ المغرب محله حتى أصبح المغرب هو الذي يدل على الإقليم الممتد بين برقة وطنجة ومن البحر الأبيض المتوسط شمالاً إلى الصحراء الكبرى جنوباً، في حين أصبح لفظ إفريقية يدل على أحد أقسام هذا الإقليم الثلاثة التي جرى التعارف عليها في العهد الإسلامي ألا وهو المغرب الأدنى.

وقد اختلف الجغرافيون والمؤرخون المسلمون في تعيين حدود ثابتة متعارف عليها لإفريقية كما اختلف نظراؤهم من الرومان في ذلك من قبل، فالجغرافيون المسلمون الأوائل جعلوا حدودها من برقة شرقاً إلى طنجة غرباً كما كانت في العهد البيزنطي كما أسلفت القول، وجاراهم في ذلك من نقل عنهم من المتأخرين^(١)، في حين جعلها البعض الآخر^(٢) من حدود طرابلس الغربية شرقاً إلى طنجة غرباً مخرجاً منها طرابلس الغرب^(٣)، وبقي هذا

خونس الحالية، ولابن أبي دینار تفسير طريف لهذا الاسم فهو يقول (المؤنس ص ١٩) : (إفريقية أوسط بلاد المغرب وخير الأمور أوسطها وقد سميت إفريقية لأنها فرت بين المشرق والمغرب ولا يفرق بين الاثنين إلا أحسنهما، وقيل سميت إفريقية باسم أهلها الأفارقة، والأفارقة من ولد فارق بن مصرام) ومع طرافة هذا التعليل إلا أنه لا يمكن الأخذ به إذ لا شك أنها مشتقة من اللفظ اللاتيني الآتف الذكر. انظر لمزيد من التفصيل د. سعد زغلول : تاريخ المغرب ص ١٠، طاهر راغب حسين : الدولة الحفصية، ص ٢، الحسن الوزان : وصف إفريقيا ص ٣٥، مجهول : ذكر بلاد إفريقية، ورقة ١ . (١) مجهول : كتاب الاستبصار، ص ١١١، مجهول : ذكر بلاد إفريقية ولم يسميت بهذا الاسم. ورقة ١ . (مخطوط الخزنة العامة بالرباط رقم D787).

(٢) الرقيق الفيرواني : تاريخ إفريقية والمغرب ص ٦١، ابن السماع : المصدر السابق ص ٦، ابن أبي دینار : المصدر السابق ص ٢٠ .

(٣) طرابلس : أطلق عليها الجغرافيون المسلمون الأوائل اسم أطرابلس بفتح الهزمية وسكون الطاء وضم الباء واللام وكان ذلك ترميزاً للفظ اللاتيني (Tripolis) ويعني ثلاث مدن (انظر ابن عبد الحكم : المصدر السابق ص ٣٣، مجهول : كتاب الاستبصار : ص ١١٠، ياقوت : المصدر السابق ج ١ ص ٢١٧، النقيب الأنصاري : المصدر السابق ص ١٩) ثم حذفت الألف للتخفيف.

الخلاف قائماً في القرنين السابع والثامن للهجرة وهو العصر الذي اقتصت به هذه الدراسة، ففي القرن السابع الهجري قال عنها ياقوت : (وحد إفريقية من طرابلس الغرب من جهة برقة والإسكندرية إلى بجاية، وقيل : إلى مليانة، فتكون مسافة طولها شهرين ونصف)^(١)، في حين يقول ابن سعيد الأندلسي عنها إنها تمتد (من جبال نفوسة إلى جبال الوئشريس)^(٢) أي من قرب طرابلس إلى وهران، وأما في القرن الثامن الهجري فقد أخرج ابن خلدون بجاية وقسنطينة منها وجعلهما من المغرب الأوسط^(٣)، بينما جعلهما ابن فضل الله العمري تابعين لها وقال عن بجاية إنها ثانية تونس والحاضرة الثانية لإفريقية^(٤)، ويؤيده ابن رشيد السبتي في كون قسنطينة من إفريقية في معرض ترجمته لأبي بكر عمر القسنطيني^(٥)، في حين جعل ابن مرزوق حدّها الغربي جزائر بني مزغان^(٦) أي مدينة الجزائر الحالية، ويرى الحسن الوزان أن نهر النيل هو حدّها الشرقي وأعمدة هرقل - مضيق جبل طارق - حدّها الغربي وتذهب غرباً من هذا المضيق حتى نون الواقعة في جمهورية موريتانيا حالياً وهي آخر موقع من ليبيا على المحيط فتشمل بذلك الصحراء الإفريقية^(٧)، وحيال هذا الاختلاف في تعيين حدودها، يصعب على الباحث الوصول إلى نتيجة محددة في هذا الموضوع، والذي أراه هو أن إفريقية في القرنين السابع والثامن للهجرة كانت تشمل ممتلكات الدولة الحفصية بقرعها التونسي والبيجائي والممتدة من خليج سرت شرقاً إلى تاهرت غرباً وتشمل إقليم طرابلس الغرب من الجماهيرية الليبية ثم الجمهورية التونسية والقسم الشرقي من الجمهورية الجزائرية في وقتنا الحاضر، وبهذا المفهوم يرد مدلول هذا اللفظ في هذه الدراسة^(٨).

(١) ياقوت : المصدر السابق ج ١ ص ٢٢٨ .

(٢) انظر ابن الصماخ : المصدر السابق ص ٥٥، حاشية ١ .

(٣) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ١٠٢ وما بعدها .

(٤) ابن فضل الله العمري : وصف إفريقية من المسالك ص ٢، انظر كذلك عادل نويهي : معجم أعلام الجزائر ص ١٦ .

(٥) ابن رشيد السبتي : ملء البية، ج ٢، مخطوط الأسكوريال رقم (MSS 1737) ورقة ٣٥ .

(٦) ابن مرزوق : المسند الصحيح الحسن، مقتطفات منه، نشرها بروغسفال في مجلة (Hesperis) عدد ٥، سنة ١٩٢٩، ص ٣١ .

(٧) الحسن الوزان : المصدر السابق، ص ٣٥ - ٣٦ .

(٨) على ضوء هذا التحديد يتضح أنني عانيت في عنوان الرسالة الإقليم وليس القارة، وكان ما قصدت بقولي في ذلك العنوان (شمال إفريقية) هو مزيد من الدقة في تحديد ميدان الصراع الإسلامي الصليبي في تلك الجبهة .

وتؤلف إفريقية مع باقي أراضي المغرب العربي وحدة جغرافية وسكانية مستقلة عن باقي أجزاء القارة الإفريقية مما جعل الجغرافيين في القرن التاسع عشر يطلقون عليها اسم إفريقية الصغرى، فهي شبه جزيرة تحيط بها مياه المحيط الأطلسي من الغرب، ومياه البحر الأبيض المتوسط من الشمال والشمال الشرقي ورمال الصحراء الكبرى من الجنوب. وتمتد سلسلتا جبال الأطلس في أقطار المغرب العربي الثلاثة من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي، وتدرجان في الانحدار في هذا الاتجاه حيث تنتهيان في جمهورية تونس الحالية أولاهما في جبال خمير والثانية في جبل زغران، وتحصران بينهما هضاباً متفاوتة الارتفاع تدعى في الجزائر وتونس بالمشطوط وأهمها مشط الغرسة ومشط المجريد. ويطل المغرب العربي على البحر بواجهتين بحريتين، غربية على المحيط الأطلسي وشمالية على البحر الأبيض المتوسط، والسهول الساحلية المطلة على البحر الأبيض المتوسط ضيقة بصفة عامة تقطعها الصخور المطلة على البحر مباشرة في عدة مواضع، إلا في شرقي البلاد حيث يتسع هذا السهل الساحلي ليشغل النصف الشرقي منها بطول يبلغ ٣٠٠ كلم وعرض يتراوح ما بين ٢٠ - ٨٠ كلم. ويقسم خليج قابس هذا السهل إلى قسمين يعرف القسم الشمالي منهما باسم الساحل ويعرف الجنوبي باسم الحفارة، وتتخلل الساحل بعض السبخات الواسعة مثل سبخة سيدي الهاني وسبخة المكنين وسبخة المستير، أما الحفارة فيعتبر من أكبر سهول قارة إفريقية إذ تبلغ مساحته ثلاثمائة وسبعين ألف كيلومتر مربع نصفها في تونس ونصفها الآخر في ليبيا الحاليين، وفي المغرب العربي عدة سهول داخلية هامة مثل سهل فاس ومكناس في المغرب الأقصى وسهل مكنة وسهل وادي شليف في المغرب الأوسط وسهل وادي مجردة في إفريقية، يضاف إلى ذلك سهول الواحات مثل تلك التي حول نفطة وتوزر وقفصة في إفريقية والمعروفة كلها باسم بلاد قسطنطية وواحتي فزان وودان جنوبي طرابلس.

وقد تعددت في الساحل المطل على البحر الأبيض المتوسط المراسي الآمنة مثل مراسي طرابلس وقابس وسفاقس وميت المياه والمهدية وسوسة ورايس (مرسى تونس) وبنزرت وبونه والقل وجيجيل وبجاية في إفريقية ومثلها في المغربين الأوسط والأقصى^(١)، كما

(١) لمزيد من التفصيل انظر الإدريسي : وصف إفريقية الشمالية والصحراوية من نزعة المشتاق في اختراق الآفاق، نشر هنري بريس، ص ٩١ - ٩٢

توجد قبالة هذا الساحل عدة جزر متفاوتة المساحة والأهمية، مثل جزيرة جربة بين قابس وصبره، ويتصل بها من الشرق جزيرة زيزو، ويقابل قابس جزيرة رازوا، وقرقنه (المقابلة لقصر زياد ومفاس)، وتقع قبالة المهدية جزيرتان تشق السفن طريقها من وإلى المهدية بينهما، وجزيرتي الزرقاء الكبيرة والزرقاء الصغيرة أمام رأس قبويدة، وجزيرة مليطمة وجزيرة قورية (المقابلة للمنستير)، وعلى مقربة من بنزرت جزيرة قملارية وجزائر الكراث، ثم جزيرتي الجامور الكبير والجامور الصغير قبالة مرسى بونه، وجزيرة جوبة تجاه مرسى بجاية^(١)... إلخ.

ومناخ أقطار المغرب العربي الثلاثة شأنه شأن مناخ بلدان البحر الأبيض المتوسط، معتدل الحرارة جاف صيفاً، معتدل البرودة مطر شتاءً، لذلك فإن الزراعة السائدة في هذه الأقطار هي الزراعة الشتوية التي تعتمد على المطر، وأما الزراعة التي تعتمد على الري النهري والبنائيع فهي قليلة نسبياً، وأهم الحاصلات الزراعية الحبوب والزيتون والخمضيات والفواكه والتمور والخضر، ويتذبذب الإنتاج من عام لآخر تبعاً لتذبذب المطر، وترى الأغنام والمواشي في الهضاب، في حين تربي الإبل في المناطق الحنوية المتاخمة للصحراء، وتكثر الأشجار الحرجية في الجبال المرتفعة مما كان يوفر للسكان الأخشاب اللازمة لهم للوقود وأعمال البناء وصناعة السفن.

وتشكل سلسلتا جبال الأطلس باعدادهما من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي حاجزاً طبيعياً لبلدان المغرب العربي حيال المؤثرات الخارجية في حين أنها لم تمنع اتصال أقطار المغرب العربي الثلاثة بعضها ببعض، ولما كان أقصى ارتفاع لهما في المغرب الأقصى، كان ذلك القطر أميد بلدان المغرب العربي عزلة، بينما كانت إفريقيا أكثر جهاته انفتاحاً على العالم الخارجي نظراً لانخفاض هاتين السلسلتين ثم تلاشيها في أراضيها. وتبعاً لهذه الجغرافية المتميزة للمغرب العربي كان لطبيعة هذه البلاد أثر قوي في تاريخها إذ فسحت المجال أمام تكوين جماعات بشرية محافظة على تقاليدها وتراثها الاجتماعي والأدبي تأبى

(١) د. أحمد مختار العبادي، د. السيد عبد العزيز سالم : تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، ص ٥٥ وما بعدها.

التنازل عنهما بسهولة، مما ساعد على القضاء على وحدة المغرب العربي السياسية^(١).

وإذا كانت الطبيعة الجبلية هي السمة الغالبة على أراضي المغربين الأقصى والأوسط، فإن السهول هي الغالبة على أراضي إفريقية بحيث لم يتجاوز الحقيقة من وصفها بالخضراء لكثرة الزروع والأشجار في سهولها الخصبة الأمر الذي كان له بالإضافة لسهولة اتصالها بباقي أقطار المغرب العربي من ناحية وبالعالم الخارجي من ناحية ثانية انعكاس قوي على تاريخها. فقد جعلها هذا الموقع بمثابة قلب المغرب العربي وأهلها لتكون مركزاً وحاضرة لحكمه في فترات تاريخية مختلفة، ثم إن قربها الشديد من جنوب أوروبا حيث لا يفصلها عن صقلية إلا مضيقاً لا يتعدى عرضه (١٣١) كلم وهي ليست بالمسافة البعيدة على المؤثرات الحضارية، جعلها تتلقى هذه المؤثرات بسهولة ويسر، كما أن الناظر إلى الخريطة يمكنه أن يتخيل خطأ ماراً بإيطاليا وصقلية فيجد إفريقية على امتداد هذا الخط جنوباً ويمكنه أن يرى بوضوح أن هذا الخط يقسم البحر الأبيض المتوسط إلى قسمين شرقي وغربي، إفريقية في موقع متوسط في شواطئ هذا البحر الذي كان مركز الحركة التجارية في العالم القديم، وكان على السفن التي تخترقه شرقاً وغرباً أن تمر بهذا المضيق الذي تشكل إفريقية إحدى عدوئيه، كل هذه العوامل مجتمعة جعلت إفريقية محط أنظار مؤسسي الأباطوريات في المناطق القريبة منها، فظلوا إليها للتمركز فيها وبسط نفوذهم منها على باقي أقطار المغرب العربي غرباً وليبيا شرقاً، فليس من قبيل الصدفة أن تقوم فيها أباطورية قرطاجنة، أو أن تكون قاعدة حكم المغرب العربي بأسره في العهد الروماني والوندالي ثم البيزنطي، وفي العصر الإسلامي أسست فيها دون غيرها من بلاد المغرب العربي مدينة القيروان لتكون مركزاً لحكم المنطقة بأسرها، وعليها وقع اختيار الفاطميين لتكون مركزاً لدولتهم التي امتدت منها شرقاً وغرباً. ثم ليس من قبيل المصادفة أيضاً أن تكون هي الهدف الرئيسي من بين أقطار المغرب العربي للهجمة الصليبية الشرسة طوال عدة قرون، وإنما كان كل ذلك عن معرفة تامة بإمكانياتها وأهميتها وموقعها الاستراتيجي الفريد.

والملاحظ أن هذا الموقع فرض على الدول التي قامت في إفريقية أن تتبع في علاقاتها

(١) انظر شارل أندري جوليان: تاريخ إفريقيا الشمالية، ج ١ ص ١٥.

الخارجية أسلوبيين بغير كل منهما الآخر، صراع مرير دائم مع جنوب أوروبا، وسلام وولام مع قلب القارة الإفريقية، ولكل من هذين النوعين من العلاقات أسبابه ومبرراته، فبالنسبة لصراعها مع جنوب أوروبا فكما أسلفت القول إن إفريقية هي العدو الجنوبي للمضيق الهام الواقع في وسط البحر الأبيض المتوسط والذي يمثل الباب الهام لهذا البحر فيقف على قدم المساواة مع مضيق جبل طارق إن لم يفقه في الأهمية نظراً لكونه المتحكم الرئيسي في حركة الملاحة في وسط هذا البحر بين نصفه الشرقي والغربي، في حين تمثل صقلية عدوته الشمالية، ولذلك كان لا بد لكل قوة تسيطر على إحدى هاتين العدوتين من العمل على السيطرة على العدو الأخرى لإحكام سيطرتها على هذا المضيق الهام. ولعلنا في ضوء هذه الحقيقة نستطيع فهم الأسباب الحقيقية لمحاولات قرطاجنة التمركز في صقلية ثم للحروب البونيقية التي دارت رحاها بين روما وقرطاجنة في القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد والتي انتهت باستسلام الأخوية لعدوتها روما بعد فضال مجيد وبالتالي لإحكام قبضة روما على هذا المضيق. وبقي هذا المضيق منذ ذلك الوقت تحت سيطرة الأمبراطورية الرومانية حتى انهيار القسم الغربي منها أمام ألاريك القوطي الذي دخل روما سنة ٤٧٦م، والذي حينما أدرك أهمية العدو الإفريقية بالنسبة لدولته التي أنشأها في إيطاليا وأن تلك العدو خارجة عن نطاق سيطرته عمل على إحياء سياسة روما تجاه إفريقية من جديد، فشرع في إعداد العدة لغزوها، ولكن المنية عاجلته وحالت دون تحقيق هذا المشروع^(١)، ومن هذا المنطلق تفسر هجمات الوندال على صقلية وإيطاليا، فما أن تمركز هؤلاء في إفريقية وتم لهم إنشاء امبراطوريتهم فيها حتى أخذوا يعملون جاهدين للاستيلاء على العدو الصقلية الإيطالية، وسجل أسطولهم القوي الذي كان يخرج من قواعده في إفريقية عدة هجمات موفقة على هذه العدو لتحقيق هذا الهدف، ولكن انحلال امبراطورية الوندال السريع بعد وفاة ملكهم جنسريك حال دون تحقيق طموحاتهم في العدو الشمالية، وجعل من إفريقية نفسها هدفاً للامبراطور البيزنطي جستنيان الذي كان يعمل جاهداً على استعادة أملاك الامبراطورية الرومانية التي اقتطعها البرابرة الجرمان وأسسوا ممالك لهم فيها، وكان يدرك أن استعادة إفريقية لحظيرة الدولة البيزنطية إنما هو في حقيقته دعامة قوية لتثبيت نفوذه في إيطاليا

(١) د. إبراهيم علي طرخان: المسلمون في أوروبا في العصور الوسطى ص ١٢٤.

وصقلية، وأثبتت الحوادث التالية صواب هذه النظرة، فما أن قضى قائده بلزاربوس على امبراطورية الوندال وبسط النفوذ البيزنطي على إفريقية حتى خضعت إيطاليا لسلطانه، وجرى نفس الأمر في العهد الإسلامي، فمنذ أن تم للمسلمين فتح إفريقية حتى اتخذتها جيوشهم قاعدة لعملياتها العسكرية وبدأت تخرج منها رافعة لواء الجهاد في جنوب غرب أوروبا، وإن كانت قوة الأسطول البيزنطي قد حالت دون فتح صقلية في وقت مبكر، وتأخر فتحها عن فتح الأندلس وجنوب فرنسا، فإن ذلك لم يصرف نظر المسلمين عنها فقد سبق فتحها في العهد الأغلب عدة محاولات بدأت منذ وقت مبكر، حتى إذا ما أصاب الأسطول البيزنطي الضعف في تلك المنطقة نجح الأغالب في فتحها. وحينما تراخت القبضة الإسلامية عن هذا المضيق منذ العهد الزيري، بدأت القوى المعادية في العودة الشمالية ممثلة بالمدن البحرية الإيطالية والنورمان تعد العدة للاستيلاء على العدو الإفريقية، وهكذا كانت علاقة إفريقية بجيرانها في الشمال تتسم بطابع العداء منذ العصور القديمة حتى العصر الحديث ما يكاد هذا الصراع يبدأ حتى يبدأ من جديد ولكل دور من أدواره إضافة إلى ما ذكرناه أسبابه وعوامله الخاصة به. وقد لاحظ ابن خلدون ذلك الأمر قيدا جليا في قوله : (فكانت هذه عادة لأهل البحر - البحر الأبيض المتوسط - الساكنين حفافيه، معروفة في القديم والحديث)^(١).

وعلى العكس من ذلك، كانت علاقات إفريقية بقلب القارة منذ العصر القديم علاقات سلمية طيبة محورها التجارة، فمنذ أن وصل الفينيقيون إليها وأنشأوا مراكزهم التجارية فيها وفي باقي أقطار المغرب العربي واتصلوا بقلب القارة بغية الحصول على منتجاتها من الذهب والعميد وريش النعام وغيرها، وضعوا أسس هذه العلاقات التي استمرت في العهود القرطاجية والرومانية والوندالية والبيزنطية ثم الإسلامي، وكانت الحكومات المتعاقبة على إفريقية تبذل كل ما في وسعها لتدعيم هذه العلاقات الطيبة وتنشيطها لجني ثمارها، ولم يحدث أن قامت علاقات عدائية بين الطرفين. ومع التجارة كانت تسرب المؤثرات الحضارية منها إلى قلب القارة، إذ لم يحدث في التاريخ أن قامت في قلب القارة حضارة أرقى من تلك التي كانت

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٦٢٧ .

تتواجد في إفريقية، ولذلك كانت إفريقية هي المصدر الرئيسي لهذه المثرات الواصلة إلى قلب القارة، ويبرز دور إفريقية الحضاري بالنسبة لتلك المنطقة في العصر الإسلامي بالذات، إذ منذ استقرار الفتح فيها بدأ الإسلام يشق طريقه منها إلى قلب القارة مع القوافل التجارية، وكلما توثقت العلاقات بين الطرفين على مر السنين انعكس ذلك إيجابياً على انتشار الإسلام في بلدان وسط القارة، فقد أثبت التاريخ أن إسلام مملكة مالي وما يجاورها من البلدان الواقعة حول بحيرة تشاد إنما حصل بفعل تجار إفريقية في وقت مبكر^(١)، وكان لهجرة عرب التنجور من إفريقية إلى دارفور في السودان الشرقي في القرن الثامن للهجرة (الرابع عشر للميلاد) أثر كبير في بذرة الإسلام في تلك المنطقة حتى جاء إخوانهم العرب الذين قدموا من المشرق فاستكملوا ما كان قد بدأه عرب التنجور وبنوا الإسلام في تلك النواحي^(٢).

أهمية إفريقية بالنسبة للكنيسة والعالم المسيحي في العصور الوسطى :

لا تقتصر أهمية إفريقية بالنسبة للكنيسة والعالم المسيحي على ناحية بعينها، وإنما تشمل النواحي الدينية والسياسية والاقتصادية والامراتيجية، فأما بالنسبة للناحية الدينية فقد جاءت هذه الأهمية نتيجة لأمرين هما : نضال إفريقية الطويل في سبيل نصرته المسيحية بعامة والمذهب الكاثوليكي بصفة خاصة، ثم المكانة التي بنوأتها كنيسة بين الكنائس المسيحية، وليبيان ذلك لا بد أن نتعرض لهذا الموضوع بإيجاز.

وصلت المسيحية إلى إفريقية في وقت مبكر يعود إلى أواخر القرن الأول للميلاد، ولكنها برزت كحقيقة تاريخية منذ أواخر القرن الثاني بجلاء في خطابات القديس تيرتيانوس (Tertullianus) الذي ألقاه سنة ١٩٧م حين يقول : (نحن لم نخلق إلا البارحة، ومع ذلك

(١) حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق ١ ص ٤٣٥ . ولزيد من التفصيل عن هذا الموضوع انظر د. إبراهيم علي طرخان : امراطورية غانة الإسلامية ص ٤١ وما بعدها، وعن تطور العلاقات بين المغرب العربي والسودان الغربي ودور مسلمي المغرب العربي في نقل الحضارة الإسلامية إلى قلب القارة، انظر د. محمد محمد أمين : تطور العلاقات العربية الإفريقية في العصور الوسطى (بحث)، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية، ص ٧٣ .

(٢) توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ٣٥٩ .

أصبحنا نملأ كل مكان^(١)، ويبدو أن كنيسة قرطاجة قد تأسست في تلك الآونة أو قبل ذلك بعهد قصير. وقد تعرض مسيحيو إفريقية الأوائل لما تعرض له المسيحيون في شتى أنحاء العالم الروماني من صنوف الاضطهاد كالقتل والتعذيب والسجن والتفني لا سيما في عهد الامبراطورين دكيوس وفالريانوس، وكان من بين الذين لاقوا حتفهم آنذاك القديس سييريانوس أو سييريان (Saint Cyprien) أسقف قرطاجة الذي نفى أولاً ثم أعدم في قرطاجة في يوم ١٤ أيلول (سبتمبر) سنة ٢٥٨^(٢)، كذلك أسهمت إفريقية في الخلافات المذهبية التي ظهرت في العالم المسيحي غداة اعتراف الامبراطور قسطنطين الأول بالمسيحية^(٣)، الأمر الذي ترك أثراً ميثاً على المسيحية فيها إذ ارتدت جموع غفيرة من منتصرة البربر عن المسيحية وعادت إلى وثنتها، أما من بقي فيها على مسيحيتها فقد تعرض لامتحانات صعبة في عقيدته، فمع أن المذهب الأثناسيوسي (الكاثوليكي) هو الذي ساد فيها شأنها في ذلك شأن الغرب الروماني، إلا أن هذا المذهب تعرض فيها لهزات قوية من البدع والنحل والحركات الهرطقية التي كان منها ما تسرب إليها من الخارج مثل المونتانية (Montanisme) التي كان من معتنقيها القديس ترتليانوس في أول حياته ثم نبذها والماركونية (Marcionisme) والمانونية التي اعتنقها القديس أوغسطين أول الأمر ثم نبذها

(١) أحمد صفر : مدينة المغرب في التاريخ ص ٣٦٢ .

(٢) أحمد صفر : المرجع السابق ص ٣٦٤ .

(٣) ظهر هذا الخلاف بادئ ذي بدء على طبيعة السيد المسيح عليه السلام في الإسكندرية بين اثنين من قسماوسها هما أثناسيوس وأريوس، إذ قال أثناسيوس إن للمسيح طبيعتين هما الطبيعة الإلهية والطبيعة البشرية، وقال أريوس : إن له طبيعة واحدة هي البشرية، ونفى أن يكون للمسيح أي صفة إلهية، ولم يلبث هذا الخلاف أن انتشر بين المسحيين مما أدى إلى انقسامهم إلى معسكرين كبيرين : الأريوسيون أو (المروحدون) والأثناسيوسيون أو (الكاثوليك)، وبينما كان المذهب الأريوسي يستند إلى المنطق كان المذهب الأثناسيوسي يقوم على أساس عاطفي روحي. ولذلك ساد المذهب الأول في الشرق المتأثر بالثقافة اليونانية بما عرف عن اليونان من صفى بالجدل ودراية بالفلسفة والحكمة، بينما ساد المذهب الثاني في الغرب. وقد عقدت عدة مجامع دينية لتسوية الخلاف بين الفريقين دون جدوى وظل قائماً إلى وقتنا الحاضر. فزيد من التفاصيل انظر د. سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ج ١ ص ٥٧ .

أيضاً^(١)، ومنها ما نبت في إفريقية نفسها مثل الحركة الدوناتية (Donatisme)^(٢)، وبالرغم من ذلك فقد خرجت الكاثوليكية في إفريقية من هذه الأزمات ظافرة، وبقيت على ولائها لهذا المذهب ومستنداً قوياً لكنيسة روما، وصمدت للاضطهاد المرير الذي مارسه الوندال على مسيحيها الكاثوليك أولاً ثم البيزنطيون بعد ذلك لخالفتهما لكلا الطرفين في المذهب الأمر الذي عزز مكانة مسيحيها في عالم غرب البحر الأبيض المتوسط.

وأما بالنسبة لمكانة كنيسة إفريقية في العالم المسيحي، فإن هذه الكنيسة تبوأَت

(١) أسس المرتانية، متانوس القريجي حوالي سنة ١٧٠م، وتلخص معتقدها في القول باستمرار تدخل ونوسط روح القدس (البارقليط Paraclet) وانتشرت في إفريقية وجنوب إيطاليا، أما الماركونية فتنسب إلى الفيلسوف ماركيرن. من سينوب بآسيا الصغرى وتقول بأن العالم من صنع الصانع أو الإله العادل وهو الذي اصطفى بني إسرائيل وفضلهم على الناس وأنزل عليهم التوراة ولكن قدرته انتهت بظهور الإله الخير الذي تجسد في المسيح وبمنح البشرية هبة الخلاص والغناء. وقد انتشر هذا المذهب في إيطاليا وإفريقية ومصر. وأما المانوية فتنسب إلى (ماني) من بلاد فارس الذي يقول مبدأً التنوية. لمزيد من التفصيل انظر أحمد صفر: المرجع السابق ص ٣٦٤ وما بعدها.

(٢) تنسب الدوناتية إلى زعيمها ومؤسسها (Donatus) وقد نشأت في إفريقية في أوائل القرن الرابع الميلادي نتيجة لأوضاع إفريقية المتردية في ذلك الوقت فكانت في حقيقة أمرها ثورة سياسية واجتماعية اتخذت من الدين وسيلة للتعبير عن نفسها، سياسية لأنها هفت للحرر من المستعمر الروماني الذي كان مدعوماً من رجال الدين الكاثوليك في إفريقية فتادت بهذا المستعمر والمذهب الكاثوليكي معاً، واجتماعية لأنها احتوت الطبقة المحرومة القائمة على طغیان طبقة النبلاء المتحكممة في مقدرات الشعب. أما السبب المباشر والرئيسي لنشوء هذه الحركة فكان نقمة الكثير من مسيحي إفريقية على رجال الدين الذين تخاذلوا إبان موجة الاضطهاد في عصر دقلديانوس في مطلع القرن الرابع وفرطوا في الكذب والآثار القديمة الموجودة لديهم وسلموها للوثنيين الرومان لإحراقها وإتلافها، ثم تخاذلهم وعجزهم عن شد أزُر الشهداء والفق كثير من المسيحيين حول دوناتوس الذي ترعّم هذه الحركة والذي سخر قوة بيانه للتهديد برجال الدين الكاثوليك ونادى بإبعادهم عن الكنيسة واصفاً كنيستهم بأنها كنيسة أبناء الإثم والحطية (Les Fils des Pechurs) في حين قال عن كنيسة حركته بأنها هي الكنيسة الحقّة وكنيسة القديسين الأظهر (L'eglise des Saints) وصمدت هذه الحركة للكاثوليكية طوال القرن الرابع، ثم أصيبت بالضربة القاصمة نتيجة للقرارات التي صيغت عن مجمع قرطاجة الذي عقد سنة ٤١١م، إذ منذ ذلك الوقت بدأ مسيحيو إفريقية يتفوضون عنها، وأخذت تسير نحو الانحلال حتى ثلاثت وبذلك انتصرت الكاثوليكية في إفريقية من جديد. لمزيد من التفصيل عن هذه الحركة، انظر شارل أندري جوليان: المرجع السابق ج ١ ص ٢٩٥ وما بعدها، فيشر: المرجع السابق ق ١ ص ٩، أحمد صفر: المرجع السابق ص ٣٦٦ وما بعدها.

مكانة سامية في ذلك العالم، ويعود ذلك إلى أسباب عديدة أهمها أنه بالإضافة إلى نضالها الطويل في سبيل نصرته المسيحية ضد الوثنية بصفة عامة ونصرة المذهب الكاثوليكي ضد الهرطقات والبدع والنحل الأخرى بصفة خاصة والذي سبق أن ألقينا إليه وما ارتبط به هذا النضال من ذكرى الشهداء والقديسين الذين لاقوا حتفهم أثناءه، فقد كانت هذه الكنيسة هي إحدى الكنائس الرئيسية الأولى الست التي تأسست في العالم^(١)، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية نظراً لما قدمته للمسيحية من فقهاء ومفكرين كانوا من أبرز آباء الكنيسة الأول، وما أثرى به هؤلاء الفكر المسيحي من آراء ونظريات ظلت تؤثر في هذا الفكر طوال العصور الوسطى، الأمر الذي أكسبها احتراماً كبيراً في نفوس المسيحيين الغربيين.

فمنذ حدوث الخلاف المذهبي واعتناق مسيحيي الغرب للمذهب الكاثوليكي أخذت كنيسة روما وقرطاجة تتنافس على زعامة المسيحية في هذا الغرب، ومع أنه لم يكن في إمكان كنيسة قرطاجة إحراز سبق على كنيسة روما لعدة أسباب أهمها مكانة روما في نفوس سكان العالم الروماني لكونها عاصمتها وما كانت تتمتع به في أذهان الناس من مجد كبير، ثم ارتباطها ارتباطاً أبدياً بذكرى القديس بطرس مؤسس كنيستها الذي قيل عنه إن السيد المسيح عليه السلام اتخذ منه الصخرة التي بنى عليها كنيسته^(٢)، وأنه أعطاه مفاتيح

(١) هذه الكنائس الست، أربعة منها تأسست في المشرق هي : كنائس بيت المقدس والإسكندرية، وأنطاكية، والقسطنطينية، واثنان في الغرب هما كنيسة روما، وكنيسة قرطاجة.

(٢) كان الاسم الأصلي للقديس بطرس هو سمعان فسماه المسيح بطرس (Petrus) أي الصخرة، فقد ورد عنه أنه قال : (استدع سمعان الملقب بطرس) (إنجيل متى، سفر أعمال الرسل، إصحاح ١١، ١٣) وقوله : (وأنا أقول لك أيضاً أنت بطرس وعلى هذه الصخرة أبني كنيستي) (إنجيل متى، إصحاح ١٦، ١٨ - ١٩)، ولعل هذا القول كان سبباً هاماً في استعلاء كنيسة روما على غيرها، إذ أن الكاثوليك يفسرون هذا القول بأن المسيح قد اعتبر بطرس أساس الكنيسة المسيحية الخين كالصخرة وعلى باقي الكنائس أن تتبع كنيسته، في حين يقول أصحاب المذهب الأخرى بأن الكاثوليك حملوا هذا القول من المعنى أكثر مما يحصل، إذ أنه لا يعني في نظرهم إلا أن بطرس صلب في عقيدته كالصخرة، وسيكون له شأن في نشر المسيحية، وأن المسيح لم يكن يعني ما ذهب إليه الكاثوليك. لمزيد من التفصيل انظر د. سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ج ١ ص ٦٧، كذلك فيشر : المرجع السابق ق ١ ص ١٠٧.

ملكوت السماوات فضلاً عن ذكرى القديس بولس الذي ضمت كنيسة روما رفاته مع رفات القديس بطرس، هذا فضلاً عن عامل آخر لا يقل عن العوامل السابقة في الأهمية هو عدم مقاومة كنيسة روما للهجمة الجرمانية على الامبراطورية الرومانية في القرن الخامس للميلاد الأمر الذي جعلها تحتفظ بكيانها، بل إن تمكنها من الانفصال بسرعة عن الامبراطورية الشرقية حينما خضع القسم الغربي للجرمان، وخلو هذا القسم من امبراطور أوجد فراغاً فيه لم يتعوده الناس الأمر الذي جعل تلك الكنيسة تسارع إلى سد هذا الفراغ وبسط هيمنتها الروحية على هذا الغرب المضطرب، مما جعل الناس ينظرون إلى أسقف روما نظرتهم الاحترامية إلى الامبراطور، في حين أن كنيسة قرطاجة قاومت هجمات البربر أولاً ثم الهجمة الوندالية حيث تصدت لها بكل ما أوتيت من قوة حتى إن القديس أوغسطين مات وهو يقاوم الوندال، مما جعلها هدفاً للضغط الشديد والتجميد في الوقت الذي كانت فيه كنيسة روما تعمل جاهدة على استقطاب الغرب الأوروبي وجمع المسيحيين فيه تحت سيطرتها، كل تلك الأسباب مجتمعة جعلت كنيسة روما تتفوق على كنيسة قرطاجة، ومع ذلك فإن هذا التنافس الذي قام بين الكنيستين إنما يدل دلالة واضحة على أنه كان هنالك قدر كبير من الندية بينهما وأن كنيسة قرطاجة كانت ترى نفسها ومثلها الكثير من مسيحي الغرب أنها مساوية لمنافستها في المكانة إن لم تكن تفوقها سيما وأن هذه الزعامة التي أحرزتها كنيسة روما لم يجر الإجماع على الإقرار بها^(١)، وعلى أية حال فقد بقيت كنيسة قرطاجة محتفظة بمكانتها السامية في نفوس مسيحي الغرب وكانوا يعتبرونها الثانية بعد كنيسة روما حتى إن بعض البابوات مثل جريجوري الأكبر كان يعتبرها ابنة كنيسة روما^(٢).

وإن كانت كنيسة قرطاجة قد تخلفت عن كنيسة روما في إحراز زعامة المسيحية في الغرب، فإنها فاقتها في أثرها في الفكر المسيحي، إذ أنها أنجبت من المفكرين الذين أثروا في هذا الفكر بما قدموه من نظريات وآراء دينية على مدى عدة أجيال ما لم تعرف كنيسة روما

(١) فيشر : المرجع السابق ق ١ ص ١٠٦، د. سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ج ١ ص ٦٧.

(٢) يحيى بو عزيز : الموجز في تاريخ الجزائر ص ٣٧٩.

مثلهم^(١). فمن المعروف أن مراكز الفكر المسيحي خلال القرون الأربعة الأولى لظهور المسيحية كانت هي أنطاكية والإسكندرية وقرطاجة ولم ينشأ في الغرب الأوروبي مفكر واحد ذا بال في تلك الفترة عدا إيريناوس أسقف ليون (ت سنة ٢٠٢) وهو مشرقي الأصل، وأمبروز (St. Ambroise) وبيس أساقفة ميلان الذي عاش مطلع حياته في إيطاليا ثم انتقل إلى فلسطين حيث قضى بقية حياته فيها (ت سنة ٣٩٧م). وكل ما يهمنا في هذا الموضوع هو الإشارة إلى أولئك المفكرين العظام الذين أنجبته إفريقية، والذين تبدأ سلسلتهم بالقدس ترتليانوس أسقف قرطاجة (١٥٥ - ٢٤٥م) والذي يعتبر من أوائل مفكري المسيحية، والذي أبلى بلاءً حسناً في الدفاع عنها ضد الوثنية، وكانت حياته سلسلة من التضال المجيد في سبيل نصرتها حتى لاقى حتفه في سبيلها أثناء موجة اضطهاد المسيحيين كما سبق أن ذكرنا، أما مكانته الفكرية فقد اكتسبها بالإضافة إلى فضاله الأنف الذكر من كتابه المسمى «الدفاع عن المسيحية» (Apologetique) الذي تعمق فيه في بحث أصل الخلاف بين الوثنيين والمسيحيين واستنكر الاضطهاد الذي كان ينال المسيحيين وحدهم من أجل جرائم خيالية لم يتم التحري في أمرها، ومن أجل ازدهارهم بالديانة الرسمية للدولة وامتناعهم عن عبادة الامبراطور^(٢).

(١) أدى انتشار المسيحية بين طبقة المثقفين الذين ألفوا التفكير الكلاسيكي ومرنوا طرق الجدول وأساليب المنطق والفلسفة إلى تطور جديد في الدراسات اللاهوتية إذ أن هؤلاء المثقفين أخذوا يتساعلون عن العلاقة بين الله سبحانه وتعالى والمسيح عليه السلام ويحاولون تحديدها، وكذلك عن ما هو المقصود بالقرآن (ما يعتقد المسيحيون من الصلة بين الحمر والخيز من ناحية ودم المسيح وجسده من ناحية ثانية اعتماداً على ما قاله للحواريين «تلاميذه» عن الحمر أثناء العشاء الأخير هذا دمي فائربوا، وكسر الخيز وناوله لهم قائلاً وهذا جسدي فكلوا، فهم يتناولون القران المكون من الحمر والخيز اعتماداً على هذا الأساس) ثم عن طبيعة الملائكة والمسائل الدينية الأخرى، وسرعان ما أصبحت هذه الأمور تحتل جانباً كبيراً من تفكير المسيحيين خاصة عندما أصبحت ديناً رسمياً في الدولة الرومانية مما استلزم وضع دراسات لا هوتية توضح هذه الأمور، فقام بهذه المهمة نخبة من كبار مفكري المسيحية وهم الذين يطلق عليهم عادة آباء الكنيسة، ومن أشهرهم : كلمنت الإسكندري (عاش في القرن الثالث)، أوريجن (١٨٥ - ٢٥٤م)، جيروم (٣٣١ - ٤٢٠م)، أمبروز (٣٤٠ - ٣٩٧م)، أوغسطين (٣٥٤ - ٤٣٠م). لمزيد من التفصيل انظر د. سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ج ١ ص ٦٥ .

(٢) انظر شارل أندري جوليان : المرجع السابق ج ١ ص ٢٥٨ .

ويتلوه القديس سبيريانوس أسقف قرطاجة أيضاً الذي لاقى حتفه هو الآخر في ١٤ سبتمبر ٣٥٨م في موجة الاضطهاد تلك بعد كفاح طويل في نصرة المسيحية^(١)، وتكمن مكانته الفكرية في الحجج المؤيدة للمسيحية التي امتنبتها للرد على اليهود ضمن مؤلفه المسمى (Testimonia ad Quirinum) الذي وضعه لأحد أصدقائه وامتند في تلك الحجج إلى الكعب السماوية^(٢)، ثم مينوس فيلكس الذي ألف كتاباً موجهاً إلى المثقفين اسمه (Oclavius) والذي هو عبارة عن حوار يرد فيه معيحي على الاعتراضات المألوفة الموجهة ضد المسيحية ويخلص فيه في النهاية إلى إقناع محدثه بصحة المسيحية^(٣)، وكانت مؤلفات هؤلاء المفكرين الثلاثة المرجع الأول لكل الذين جاؤا من بعدهم من مفكري المسيحية في العصور الوسطى الذين تعرضوا لهذا الموضوع، وبصفة خاصة تلك الحجج التي قدمها ثرتليانوس في هجومه على الوثنية إذ استعملوها هي نفسها ولم يزيلوا عليها^(٤). وأهم من كل هؤلاء القديس أوغسطين الذي يعتبر بحق من أشهر أعلام الفكر المسيحي في العصور الوسطى والذي يمثل القمة التي وصلت إليها الحياة الفكرية في إفريقيا المسيحية وبلغ من شهرته أن تسمى عصره بالعصر الأوغسطيني نسبة إليه^(٥).

(١) لمزيد من التفصيل عن حياته انظر شارل أندري جوليان : المرجع السابق ج ١ ص ٢٧٩ .

(٢) انظر شارل أندري جوليان : المرجع السابق ج ١ ص ٢٧٩ .

(٣) انظر شارل أندري جوليان : المرجع السابق ج ١ ص ٢٦٣ .

(٤) انظر شارل أندري جوليان : المرجع السابق ج ١ ص ٢٦٠ وما بعدها.

(٥) ولد أوغسطين في بلدة تاجستة (سوق وراس) جنوب بونة (غابيه) في ١٣ نوفمبر ٣٥٤م من أب وثني وأم مسيحية شديدة التدين تدعى مينيكا (Manique) ورسمت فيها بعد قدسية، وتلقى علومه في بلده ثم رحل في طلب العلم إلى مداوروش ثم منها إلى قرطاجة وبعد أن أكمل علومه بها رحل إلى روما لدرس فيها أعمال شيشرون وغيره من المفكرين الرومان، وكان في هذه المرحلة من حياته وثنياً يعيش حياة ماجة حتى إنه اتخذ لنفسه خليلية في سن الثامنة عشرة وأنجب منها ولداً، ثم أعجبه المانوية فاتبع نهجها، ولكن آراء أمه كانت تؤثر في أعماله، ولما كان في روما قد درس الفلسفة الأفلاطونية الحديثة فإن هذه الدراسة قرنته مراحل من المسيحية، وانتهى به نهجه في إيطاليا إلى الإقامة في ميلان حيث أخذ يقوم بتدريس البلاغة فيها منذ سنة ٣٨٤م، وفيها التقى بالقديس أمبراز فأعجب به وبخطبه الوعظية، وعلى يده تنصر بعد صراع مرير مع نفسه وقبل منه المعمودية سنة ٣٨٧م وكانت سنة آنذاك ٣٣ سنة. وفي العام التالي عاد إلى وطنه خرب بممتلكاته للقراءة وأنشأ ديراً اعتكف فيه وتسامع الناس به فحصلوه لأخذ العلم عنه، وفي سنة ٣٩١م عين أسقفاً لبونة=

وتعود شهرة أوغسطين إلى عدة عوامل أهمها كفاحه ضد مخالفتي المذهب الكاثوليكي ثم شخصيته الفذة المتعددة المواهب إذ كان خطيباً بليغاً وأديباً وواعظاً قوياً الحجة ورجل فكر من الطراز الأول، ثم إلى مؤلفاته العديدة التي تجاوزت المائتي مؤلف كتبها جميعها باللاتينية وإلى الآراء والنظريات التي ضمنها تلك المؤلفات، ويعتبر كتابه المسمى مدينة الله (La Cite de Dieu) أشهر مؤلفاته والذي فاق أثره أي كتاب آخر في العصور الوسطى، وقد بدأ في تأليفه سنة ٤١٣ و فرغ منه في سنة ٤١٧، ومن الواضح أن الهدف الرئيسي من وضعه كان هو الدفاع عن المسيحيين الذين كان خصومهم يحملونهم مسؤولية أفول نجم الامبراطورية، وقد حرص فيه على وجه الخصوص على التمييز بين زيف المجتمعات الدنيوية التي لا يهم زوالها، وبين مدينة الله الأبدية، وتكمن أهمية هذا الكتاب في أن أوغسطين قد وضع فيه فلسفة سياسية ظلت قائمة في أوروبا حتى القرن الثالث عشر الميلادي، وتلور هذه الفلسفة حول محور رئيسي هو أن الكنيسة من صنع الله وأن لها وظيفة مقدسة تبرر سيادتها على السلطة الزمنية في حين أن الدولة من صنع الإنسان ولذلك فهي تتصف بالنقص والشر ولا بد من خضوعها لنفوذ الكنيسة^(١)، وبالرغم من أنه كان قاسياً في حكمه على الدولة، فإنه كان يعتبرها النرع الواقعي من القوضي ويوصي بطاعة رجالها مهما كانت مساوئهم، وكان يميل بطبيعة الحال إلى الدولة المسيحية التي تسخر

ومنذ ذلك الوقت أخذ يعمل بكل ما أوتي من قوة لجمع شمل المسيحيين في إفريقية وتصدى لقمع المناوئين للمذهب الكاثوليكي والهرطقة، فكان وراء عقد مجمع قرطاجة الديني الذي عقد في سنة ٤١١م الذي حضره مئات من الأساقفة الكاثوليك والوثنيين وانتهى باتفاق وقع إثباته في دستور ٣٠ يناير سنة ٤١١م الذي نص على وجوب رجوع المنشقين إلى الكنيسة الكاثوليكية ولا تعرضوا للتعذيب والسجن والنفي ومصادرة الممتلكات فرجع كثير منهم إلى الكاثوليكية. كما قام بإصلاح ذات البين بين الامبراطورة بلاسيدا والكونت بونيفاس الذي كان فساد العلاقة بينهما هو السبب في إدخال الوندال إلى إفريقية، وكان هدفه حماية الكاثوليكية من الوندال الأريوسيين وقاد حركة المقاومة ضد الوندال حتى لقي حظه أثناء ذلك في ٢٩ أغسطس ٤٣٠م، بعد أن قاد المقاومة ١٤ شهراً، وواتته الفرصة للهروب أكثر من مرة فرفض مفضلاً الموت في سبيل عقيدته على الهرب. انظر يحيى بو عزيز : المرجع السابق ص ٣٠٤، عبد الرحمن الجليلي : تاريخ الجزائر ص ٢٠.

(١) د. سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ج ١ ص ٣٣٥ وج ٢ ص ٤٢٥.

قوتها في سبيل الكنيمة وتقاوم البدع^(١). وعلى هذه النظرية اعتمد البابا جريجوري السابع في تدعيم مطامحه في إقرار نظرية الحكم الإلهي، ومن أشهر مؤلفات أوغسطين الأخرى كتابه المسمى الاعترافات (Mes Confessions) وهو ترجمة ذاتية أمينة وضعه سنة ٣٩٧-٣٩٨ وقص فيه تاريخ حياته ونجربته في مسيرة إيمانه بالمسيحية.

ولعل مما يوضح مكانة أوغسطين في الفكر المسيحي هو أنه يكفي أن نعرف أنه مؤسس المدرسة الفكرية الكبرى التي عرفت بالمدرسة الأوغسطينية والتي قلما لم يتأثر بها مفكر أوربي في العصور الوسطى من قريب أو بعيد على اختلاف ميوله وآرائه حتى قال عنه فيشر : (ظلت العقيدة المسيحية في المجتمع الأوروبي الغربي حافظة لما انطبعت به من تفكير القديس أوغسطين حتى مطلع القرن الثالث عشر^(٢)، ثم إن أوغسطين كان الشريان الرئيسي الذي وصلت عن طريقه فلسفة أفلاطون إلى الغرب المسيحي في العصور الوسطى، تلك الفلسفة التي بلغت ذروتها فيما بعد على يد ديكارت والتي تقوم على أساس الإيمان بوجود الفكر : فأنا أستطيع أن أفكر في كل شيء إلا في وجودي لأنني أفكر، وما دمت أفكر فأنا موجود^(٣)، كما أن المذهب الإرادي (Volavtarism) في الفلسفة المسيحية وعلاج مشكلة الشر ترجعان جميعاً إلى أوغسطين^(٤). أما عن المفكرين الذين تأثروا به فمن أشهرهم القديس أنسلم (Anselme) (١٠٣٣ - ١١٠٩) رئيس أساقفة كانتربري سنة ١٠٩٣م الذي كان يعترف بأنه تلميذ أوغسطين وأنه أخذ عنه منهج (تعقل الإيمان)^(٥)، والإسباني أريزوس (Orosius) الذي وضع مؤلفاً سماه (سبع رسائل تاريخية للرد على الوثنية) نال شهرة واسعة في العصور الوسطى^(٦)، ثم القديس بوناڤتورا (Bonaventura) (١٢٢١ - ١٢٧٤م)، وروجر بيكون (١٢١٠ - ١٢٩٢م) ولما كثرت حركات الهرطقة في العصور الوسطى

(١) يحيى بو عزيز : المرجع السابق ص ٣١٤ .

(٢) فيشر : المرجع السابق ق ٢ ص ٢٦١ .

(٣) د. سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ج ٢ ص ٣٥٨ .

(٤) د. سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ج ٢ ص ٣٥٨ .

(٥) د. سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ج ٢ ص ١٦٣ .

(٦) د. سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ج ٢ ص ٤٢٩ .

التأخرة عاد مفكرو الكنيسة الكاثوليكية إلى آراء القديس أوغسطين وحججه في الرد على مناوئي الكاثوليكية واستملوا منها حججهم التي ردوا بها على هؤلاء وعلى الهرطقة^(١).

ولا يتسع المقام لبحث آراء ونظريات القديس أوغسطين وأثرها في الفكر المسيحي بالتفصيل، ولكن يهمننا أن نتعرض لنظرية واحدة منها هي تلك التي اعتمدت عليها الكنيسة في إشعال نار الحروب الصليبية. فمن المعروف أن الديانة المسيحية - شأنها في ذلك شأن كافة الرسالات السماوية - هي ديانة سلام وتسامح، وقد اعتمدت مبدأ الدعوة إليها سلباً، وبذت استعمال القوة حتى للدفاع عن النفس على أساس أن تحمل العذاب هو السبيل إلى خلاص النفس، وقوة المسيحيين في ذلك هو السيد المسيح عليه السلام الذي تحمل عذاب الصلب - على حد قولهم - فداء للبشرية وتخليصاً وإنقاذاً لها. وانطلاقاً من هذا المبدأ حرمت المسيحية على معتنقيها القتال أو حتى الانخراط في ملك الجندية، وما يدعم هذا القول ما قاله القديس تيرتيانوس من (إن المسيحي لا يمكن أن يكون جندياً وإن واجب الجندي إذا تنصر أن يلوذ بالفرار)^(٢)، ويؤكد هذه الحقيقة ما ذكره شارل أندري جولييان من أن شخصاً أضطر ابنه إلى القنصل في تبسه لإحاطه بالجيش فرفض الابن ذلك قائلاً: (لا يمكن أن أخدم في الجندية، إني مسيحي، لن أكون جندياً، اقطعوا رأسي، إني لست جندي الحكم القائم، إني من جيش الله)^(٣) لهذا تحمل المسيحيون الأوائل الاضطهاد وشتى أنواع العذاب بقلوب مطمئنة وصبر عجيب، وقد استمرت فكرة نبذ العنف راسخة في أذهان المسيحيين حتى بعد انتصار المسيحية على الوثنية.

وعندما تحول أوغسطين إلى المسيحية وبدأ نضاله ضد مناوئي المذهب الكاثوليكي الذي كان في نظره يمثل المسيحية الحققة ضُمنَ مجادلاته ومناظراته مع هؤلاء فتوى مغايرة لهذا المبدأ مفادها أنه يجوز للسلطات العامة الالتجاء إلى إرهاب مُجْدٍ لحمل المتدعة على الرجوع إلى المذهب الكاثوليكي ومنع ضعفاء الشخصية والعقيدة من التنكب عنه، وبرر

(١) د. سميد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ج ٢ ص ٣٧٤. ولزيد من التفصيل عن أثر أوغسطين في الفكر المسيحي انظر : E. R. Daniel : The Franciscan Concept of Missions. p13

(٢) شارل جولييان : المرجع السابق ج ١ ص ٢٥٦.

(٣) شارل جولييان : المرجع السابق ج ١ ص ٢٨٧.

ذلك دينياً بقول المسيح عليه السلام : (ادفعوهم إلى دين الله دفعاً)^(١)، كما صرح في كتابه «مدينة الله» بأنه من الممكن القيام بهذا الواجب الحربي بأمر من الله، فطلقت الكنيسة هذه الفتوى وأخذت تستنبط منها التشريعات المتعلقة بمحاربتها لأعدائها، وبدأت تشجع على هذا القتال وتحض عليه حسب ما يخدم أغراضها، وحرصت على الإعراف عليه وتوجيهه الوجهة التي تراها، وأعلنت أن من يموت في سبيل الكنيسة يموت شهيداً ويكتب له الثواب العظيم، ووجهت هذا القتال أولاً ضد الجرمان، ثم بعد ذلك ضد المسلمين غرباً وشرقاً في ما سمي بالحروب الصليبية، وخلاصة القول إن أوغسطون فاق غيره من آباء الكنيسة في تأثيره في العقلية الأوروبية في العصور الوسطى.

ونخلص مما تقدم إلى نتيجة هامة هي أن كفاح إفريقية الطويل في سبيل نصرته المذهب الكاثوليكي، وما قدمه مفكروها للفكر المسيحي الغربي قد عزز الروابط بين مسيحيتها ومسيحي الغرب الأوروبي لوحدة المذهب الديني بين الطرفين. فقد اعتبر الغرب الأوروبي هذا النضال جزءاً من نضاله، وأن أعمال مفكريها جزءاً هاماً من تراثه الفكري مما أوجد التلاحم بين الطرفين، وفي هذا ما يكفي لتفسير ما كانت تشعر به البابوية بصفة خاصة ومسيحيو الغرب الأوروبي بصفة عامة من حنين لأمجاد كنيستها منذ الفتح الإسلامي لها والإصرار على استعادتها للهيمنة المسيحية احتراماً وتقديراً لتلك الأمجاد، وكان لهذا الإصرار أثره القوي بلا شك في نشاط الحركة الصليبية في ميدانها في أدوار تلك الحركة المختلفة، والشواهد التاريخية على ذلك كثيرة من قرون مختلفة، فمنذ وقت مبكر نجد شارلمان يرسل سفارة إلى الأمير إبراهيم الأغليي تطلب منه السماح لها بنقل رفات القديس مبريانوس الذي كان مدفوناً في قرطاجنة، ورفات باقي القديسين وآثارهم من إفريقية إلى أوروبا، فلبى الأمير هذا الطلب حيث تم نقلها بالفعل^(٢)، وإن كانت المصادر التاريخية الإسلامية قد صحتت عن تعليل هذا الطلب الغريب، فإنه ليس من العسير فهمه في ضوء المعطيات التاريخية اللاحقة، فالذي أراه أن الدافع لذلك كان رغبة الغرب الأوروبي في

(١) يحيى بو عزيز : المرجع السابق ص ٣١١ .

(٢) أرشيبالد لويس : المرجع السابق ص ١٧٨، انظر كذلك شكيب أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ١٧٢، أحمد توفيق اللدني : المسلمون في صقلية وجنوب إيطاليا، ص ٥١ .

تحرير هؤلاء القديسين من الحكم الإسلامي ما دام تحريرهم بالقوة كان متعذراً في ذلك الوقت، نظراً لمكانة هؤلاء القديسين السامية في نفوس المسيحيين، فقام شارلمان وهو الذي حمل لقب الصليبي الأول بهذا الأمر لإرضاء لهذه النزعة، ثم جاء العلوان الصليبي المتكرر على إفريقية تعبيراً آخر عن تلك النزعة، ونجد تأكيداً آخر لها في العصر الحديث يصدر عن الكاردينال لافيجري الذي يعتبر من أشهر العاملين على تنصير المسلمين في الجزائر في القرن التاسع عشر، إذ كان يعتبر نفسه أنه جاء إلى الجزائر لإحياء الماضي المجيد لكنيسة إفريقية. فكان يقول عن نفسه إنه الوارث لكرسي القديس سيبريانوس وأن كنيسة تونس ما هي إلا كنيسة قرطاجة التي هي مهد المسيحية في إفريقية (وفيها كرسي الجاثليق المشرف على سبعمائة كنيسة أسقفية، وهي مدينة العديد من الشهداء والعلماء والمعرفين والعلماى المقدسات، وهي مدينة ترتليان وسيبريان، وفولجانوس وفيلستي وبريستو، ومدينة تلك الجماع الشهيرة التي كانت مدة طويلة نور العالم المسيحي)^(١).

ولم تقتصر أهمية إفريقية بالنسبة للفكر الأوروبي في العصور الوسطى على التأثير في الفكر الديني المسيحي فقط، وإنما كان لأبنائها تأثير قوي على الأدب اللاتيني، فقد نبغ منهم كتاب وأدباء وخطباء وشعراء زادوا في ثروة هذا الأدب بما قدموه من إنتاج. وتزيد أهمية هذه الناحية عندما نلاحظ أن التراث اللاتيني ظل يمثل أكبر قوة فعالة في الدراسات الأدبية في العصور الوسطى، وكانت إفريقية قبل الفتح الإسلامي مركزاً هاماً لهذا الأدب لا يقل في أهميته عن إيطاليا نفسها، وعقب وفاة ثيودريك انتقل مركز الثقافة اللاتينية من إيطاليا إلى إفريقية حيث ظهر فيها أدباء مبدعون مثل الأسقف فركندوس (Verecundus) (ت سنة ٥٥٢م)^(٢) الذي كان له دور بارز في حمل مسيحيي إفريقية على معارضة الامبراطور جستنيان إبان فترة الغصول الثلاثة^(٣). ومن إفريقية انتقل مركز نشاط هذه الحركة إلى

(١) د. الحبيب المصباحي: من قضايا الفكر ص ١٤٢.

(٢) د. سعيد عاشور: أوروبا العصور الوسطى ج ٢ ص ٣٢.

(٣) عن فترة الغصول الثلاثة انظر د. سعيد عاشور: أوروبا العصور الوسطى ج ١ ص ١١٩ وما بعدها، د. السيد الباز العريبي: الدولة البيزنطية ص ٩٦ وما بعدها، يحيى بر عزير: المرجع السابق ص ٣٧٣ وما بعدها.

إسبانيا عند الفتح الإسلامي حينما هاجر كثير من رجال العلم من إفريقية إليها حاملين معهم كتبهم وعلومهم^(١)، وانطلاقاً من هذه الحقيقة نستطيع القول بأن إفريقية كونها كانت مركزاً هاماً لهذا الأدب لم تغب من مخيلة دارسيه من الأوروبيين بعد الفتح الإسلامي لها، وكانوا يتمنون استخلاصها من المسلمين واستعادة مجدها في تلك الدراسات التي استقوا منها قسطاً وافراً من ثقافتهم.

وأما من الناحية السياسية فإن إفريقية نظراً لأنها كانت قبل الفتح الإسلامي لها ولاية هامة من ولايات الامبراطورية الرومانية، فقد أسهمت بنصيب كبير في صنع تاريخ هذه الامبراطورية فكان في استطاعة من يسيطر عليها أن يكون له صوتاً مسموعاً في تسير دفة الحكم في العالم الروماني كما حدث أثناء الصراع الذي نشب بعد الامبراطور دقلديانوس، إذ انتهر حاكم إفريقية دوميسوس الإسكندر هذه الأزمة وأعلن نفسه امبراطوراً في سنة ٣٠٥ م، ومع أن ماكسينوس بن مكسيميانوس تمكن من القضاء على هذه الحركة إلا أن ذلك يدل دلالة واضحة على مدى أهمية إفريقية بالنسبة للامبراطورية، تلك الأهمية والإمكانية الكبيرة التي جعلت حاكمها يعلن نفسه امبراطوراً، ويزيد في تلك الأهمية أن حاكم إفريقية كان يستطيع تهديد إيطاليا قلب الامبراطورية تهديداً مباشراً وخطيراً، لذلك حرص أباطرة روما دائماً على إسناد ولايتها للموالين لهم تفادياً لذلك الخطر، وزيادة في توضيح هذا الثقل السياسي لإفريقية في الامبراطورية الرومانية يكفي أن نشير إلى أنها قدمت لعرش هذه الامبراطورية امبراطورين كبيرين هما سبتيم سباروس وأصله من لبده والذي رفعه الجند إلى العرش سنة ١٩٣ م والذي قام بعدة إصلاحات هامة في الامبراطورية لاسيما في بلاده إفريقية، وعندما توفي محارباً في إنجلترا سنة ٢١١ م خلفه ابنه على العرش^(٢).

وفي العهد البيزنطي نرى أن شرارة المقاومة البيزنطية للهجوم الفارسي الكاسح الذي كاد يطوح بالامبراطورية البيزنطية تنطلق من إفريقية، إذ حينما شعر أهالي القسطنطينية بالخطر الفارسي العظيم المهدق بالامبراطورية وعجز حكومتهم عن الوقوف في وجه الفرس

(١) د. سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ج ٢ ص ٣٢ .

(٢) حسن حسني عبد الوهاب : خلاصة تاريخ تونس ص ٣٢ .

أخلوا يستنجلون بهراكلْيوس والي إفريقية الذي كان نائراً على الامبراطور فوقاس منذ أن اغتصب العرش من الامبراطور موريس سنة ٦٠٢م عارضين عليه عرش الامبراطورية ليخلصهم من امبراطورهم العاجز عن التصدي للفرس ولينقذهم من الكارثة المرتقبة. ولكن هراكلْيوس نظراً لكبر سنه شعر أن ابنه هرقل أقدر منه على تحمل هذه المسؤولية الجسيمة فأرسله على رأس جيش إفريقي إلى تسالونيك وأرسل جيشاً آخر إلى مصر بقيادة حفيده ناثاناس ليبدأ منها الزحف إلى الشمال باتجاه القسطنطينية، وكان بعد ذلك ما هو مبسوط في كتب التاريخ التي تعرضت لهذا الموضوع من تولي هرقل العرش وانتصاره على الفرس. يضاف إلى ذلك كفاح البيزنطيين الطويل ضد المسلمين في ساحتها منذ أن وصل هؤلاء إلى أطرافها الشرقية لصدّهم عنها أولاً ثم لاستعادتها منهم بعد الفتح كما ستشير إليه فيما بعد، الأمر الذي يدلّ دلالة واضحة على أهميتها بالنسبة لتلك الدولة، وكل ذلك يؤكد أن بلداً له هذا الوزن السياسي في منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط لا بد وأنه كان دائم الحضور في أذهان سياسيين الغرب الأوروبي الذين ورثوا عن الدولة البيزنطية بعد اضمحلالها كافة مشاريعها السياسية، وأن نواياهم كانت دائماً تتجه للعمل على استعادتها للهيمنة الأوروبية.

وأما بالنسبة للناحية الاقتصادية فإن إفريقية بموقعها المتوسط في عالم البحر الأبيض المتوسط مركز النشاط والحركة في العالم القديم، ثم منتجاتها الوفيرة اللذين سبق أن أشرنا إليهما قد ساعداها على أن تسهم بقسط كبير في الحركة الاقتصادية العالمية في العصور الوسطى، فقد كان جنوب غرب أوروبا كثير الاعتماد عليها في تزويده بما كان يحتاجه من خلال خاصة في العهد الروماني حتى سميت بمطامير روما ^(١) وكذلك الزيت والخمور وغيرها، وليس أدل على أهميتها الاقتصادية بالنسبة لروما مما ورد في خطاب عضو مجلس الشيوخ الروماني (السناتور كاتون Caton) الذي ألقاه في مجلس الشيوخ بروما بعد عودته من زيارة قام بها لإفريقية يحرضهم فيه على احتلالها عارضاً عليهم تيناً طرياً أحضره معه منها بقوله لهم إن هذا التين يعد عن روما ثلاثة أمّام فقط وإن أرضاً تنتج مثل هذه الخيرات يجب أن تكون لروما، وبعد خضوعها للرومان كان تدفق الغلال منها إلى روما شغل الأباطرة الشاغل،

(١) انظر فيشر : المرجع السابق ق ١ ص ٣٠ .

وقد سبب احتلال الرندال لها ومنعهم تصدير غلالها لإيطاليا مشاكل عديدة للإيطاليين. وبقيت هذه الأهمية على حالها في العهد البيزنطي إذ تحولت شحنات غلالها إلى القسطنطينية وقد كان لقطع هراكليوس لهذه الشحنات عن القسطنطينية إبان ثورته على الامبراطور فوقاس أثر قوي في تدمير سكان العاصمة واستدعائهم له لتولي العرش كما سبق أن ذكرنا.

وقد كان جنوب غرب أوروبا يعتمد عليها إلى حد كبير في حصوله على حاجته من زيت الزيتون الذي كان بالإضافة إلى أنه مادة ضرورية للطعام، يستعمل في الإضاءة والعديد من مستحضرات التجميل، حتى أصبح هذا الزيت عماد اقتصاد إفريقية في العهد البيزنطي ويؤكد هذه الحقيقة ما رواه ابن عبد الحكم من أن عبد الله بن أبي السرح حينما افتتحها (كان يوضع بين يديه الكوم من الورق فيقال للأفارقة من أين لكم هذا، قال : فجعل إنسان منهم يدور كالذي يلتمس الشيء حتى وجد زيتونة فجاء بها إليه فقال من هذا نصيب الورقة قال وكيف قال إن الروم ليس عندهم زيتون فكانوا يأتوننا فيشترون منا الزيت، وتأخذ هذا الورق منهم^(١)، وبالرغم مما يمكن أن يوجه لهذا القول من نقد، إلا أنه يدل دلالة قاطعة على مدى أهمية إفريقية في تصدير هذا الزيت إلى أوروبا، ومدى اعتماد أوروبا عليه، ولم تقل هذه الأهمية بعد الفتح الإسلامي كما ستشير إليه فيما بعد.

وكانت إفريقية هي المنفذ الهام لمنتجات قلب القارة لأوروبا مثل الذهب والعاج وريش النعام وخشب الأبنوس والصندل والرقيق والحيوانات لا سيما الضارية منها اللازمة لحفلات التسلية والترفيه، تلك الحفلات التي كانت تعتبر من ضروريات الحياة في المجتمع الروماني، واستمر هذا المنفذ يقوم بدوره هذا بعد الفتح الإسلامي، ويتصدر الذهب هذه القائمة إذ كان يشق طريقه بواسطة القوافل البرية عبر الصحراء إلى موانئ طرابلس وقرطاجة وبونة ثم المهدية التي حلت محل قرطاجة بعد الفتح حيث كان يحمل من تلك الموانئ إلى أوروبا. ولم يتوقف تدفقه إليها عبر هذا الطريق إلا لفترة بسيطة إبان الفتح ثم عاد إلى التدفق من جديد. ومع أنه وجدت طرق أخرى بعد الفتح لتجارة الذهب مثل تلك التي كانت تمر

(١) ابن عبد الحكم : المصدر السابق ص ٣٩، انظر كذلك التجاني : رحلة التجاني، ص ٦٥ - ٦٦، ابن السماح : المصدر السابق ص ٢٨.

بالمغرب الأقصى والتي زادت أهميتها إلى حد كبير في عهد المرابطين، إلا أن طريق إفريقية بقي محافظاً على أهميته. وقد تأسست في العهد الإسلامي مدن هامة على الطرق التي كان يمر بها الذهب في رحلته من قلب القارة إلى الخارج مثل مدينة سجلماسة التي أثرى أهلها من الاتجار به وتصنيعه^(١)، فكانت إفريقية تقوم بدور الوسيط النشط في هذه التجارة الأمر الذي أضفى عليها أهمية خاصة بالنسبة للاقتصاد الأوروبي في العصور الوسطى.

وأما مكانتها الاستراتيجية بالنسبة لأوروبا الغربية، فانطلاقاً من المبدأ الذي سبق أن قررناه من أن إفريقية هي العلوة الجنوبية للمضيق الهام في وسط البحر الأبيض المتوسط، وأن من يسيطر على إحدى عدوتي هذا المضيق لا بد وأن يعمل للسيطرة على العدو الأخرى، فإن إفريقية هي عورة أوروبا الغربية وخط الدفاع الأول عنها، ولذلك لا يمكن أن تقبل التنازل عنها والتفريط بها بسهولة أو السماح لقوة معادية بالسيطرة عليها عن طيب خاطر، لأن في ذلك الخطر الأكيد عليها، والاحتمال كبير في أن تصاب منها بمقتل، ولو أعدنا إلى الأذهان أن في العدو الشمالية لهذا المضيق توجد روما مركز المسيحية الكاثوليكية، لتبين مدى أهمية إفريقية بالنسبة للعالم المسيحي في العصور الوسطى.

فتح المسلمين لإفريقية :

كانت إفريقية قبيل الفتح الإسلامي قد انسلخت عن الامبراطورية البيزنطية انسلخاً يكاد يكون تاماً نتيجة لوقوفها موقفاً عدائياً من بدعة مرجيوس (Sergius) بطريرك القسطنطينية^(٢)، فقد أدى ذلك إلى تمرد حاكمها جريجوريوس الثاني^(٣) على الامبراطور وأخذ يصرف أمور

(١) لمزيد من التفصيل عن هذا الموضوع انظر د. الحبيب الجناحاتي : تاهرت عاصمة الدولة الرستمية (بحث).

(٢) تلخص هذه البدعة في أن مرجيوس أنكر أن تكون للمسيح عليه السلام طاقة خاصة في كل حالة من حالات طبيعته وكان يقول إنه ليس له إلا إرادة واحدة إلهية وبشرية معاً، وكان مكسيموس (Meximus) كبير رهبان كريتوبوليس (Chrysopolis) أقصد المعارضين لهذا القول وهو الذي ترعّم حركة المعارضة في إفريقية وألهب حماس الناس بها واشتد هاجهم، وعقدت مجامع دينية في قرطاجة استنكرت هذا القول واعتبرته بدعة ووجهت رسائل إلى البابا والامبراطور تندد بآراء مرجيوس، ولم يتردد أهل إفريقية في الدعوة لإسقاط الامبراطور، فركب حاكمها هذه الموجة من السخط وشق عصا الطاعة على الدولة.

(٣) هو ابن تيكتاس حفيد هراكليس حاكم إفريقية إبان الهجوم الفارسي على الامبراطورية البيزنطية=

البلاد دون الرجوع إلى القسطنطينية. وكان سكانها آنذاك عبارة عن خليط من العناصر البشرية قلما وجد بينهم التمازج والانسجام وينقسمون إلى ثلاث فئات رئيسية هي :

١ - البربر : وهم غالبية السكان وكانوا يقطنون المناطق الداخلية وينقسمون بدورهم إلى أرومتين كبيرتين هما البربر البتر، والبربر البرانس^(١).

٢ - الأفارقة : أو الأفارق وهم بقايا شعب قرطاجة وخليط من المستعمرين اللاتين والوطنيين الذين تأثروا بالحضارتين الرومانية والبيزنطية وكانوا يعملون في الزراعة والصناعة^(٢).

٣ - الروم : وهم البيزنطيون وكانوا يوجدون في شكل حاميات في المدن والمعسكرات الهامة أو كبار الملاك والنبلاء ويكثرون الطبقة العليا في المجتمع.

وأما ديانتهم فكانت المسيحية وقد تركزت في المناطق الساحلية والمدن، كما احتفظت بعض قبائل البربر في الداخل، في حين كانت الوثنية هي ديانة قسم كبير من البربر، وقد وجدت اليهودية في بعض نواحي إفريقية ولكنها بقيت محصورة في نطاق محدود.

تم فتح المسلمين لإفريقية والمغرب على عدة مراحل، وليس المقصود هنا أن نستعرض حوادث هذا الفتح، فذلك أمر يطول بحثه ويخرجنا بطبيعة الحال عن الحطة الأساسية لهذه الدراسة، وتلك الحوادث مبسطة في العديد من كتب التاريخ يمكن للراغب في الزيادة الرجوع إليها^(٣)، ولكن ما تجدر الإشارة إليه في هذا المقام هو بضع ملاحظات على هذه

= وابن عم الاسباطور هرقل وتسميه المصادر الإسلامية (جرجر).

(١) عن البربر وأصلهم وقرعاتهم ومساكن قبايلهم انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ١١٤ وما بعدها، ابن أبي زرع : الذخيرة السنية في النولة للمرتبة ص ١٤ وما بعدها، مجهول : ذكر الباقوة الحلية، مخطوط المكتبة الوطنية بمدرسة رقم (MSS. 5180) ورقة ١ وما بعدها، د. سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربي، ص ٢١ وما بعدها.

(٢) لمزيد من التفصيل عن هؤلاء الأفارقة انظر د. سعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق ص ٥١ وما بعدها، كذلك حسن حسني عبد الوهاب : وراقات ق ٣ ص ٢٠٦، الحسن الوزان : المصدر السابق ص ٤٣ وما بعدها.

(٣) انظر على سبيل المثال لا الحصر: د. حسين مؤنس : بعد فتح العرب للمغرب، د. السيد عبد العزيز

الحوادث التي استغرقت فترة زمنية طويلة تقارب السبعين سنة، امتدت منذ أن قام عمرو بن العاص بغزو أطراف إفريقية الشرقية سنة ٢٠هـ / ٦٤٠م بعد فتح مصر مباشرة، وفتح في تلك الغزوة طرابلس، حتى سنة ٩٠هـ / ٧١١م حينما قضى موسى بن نصير على كل مظاهر المقاومة ضد الإسلام في الغرب العربي بأسره، ولم تستعص عليه إلا مدينة سبتة لمناعتها وتوالي وصول الإمدادات إليها من إسبانيا، وعدم وجود بحرية لديه لإحكام الحصار عليها من البر والبحر، فكلّف مولاة طارق بن زياد واليه على طنجة بمراقبتها واعتنام الفرصة لفتحها، وما تبع ذلك من إجراءات هامة قام بها موسى لتثبيت أركان هذا الفتح، أبرزها العمل على إضعاف العصية القبلية لدى البربر، تلك العصية التي كانت سبباً هاماً في الثورات التي أعاققت عملية الفتح وما نتج عنها من كوارث، حيث قام بتغيير مواطن العديد من هذه القبائل فنقلها من مواطنها الأصلية إلى مواطن جديدة^(١) ليباعد بينها فيضعفها، ثم اهتم بنشر الإسلام بين البربر معتبراً أن إسلامهم هو وحده الكفيل بإقرار الفتح فأمر العرب في جيشه بتعليمه للبربر وتفتيهم فيه^(٢)، وآتت هذه السياسة الحكيمة أكلها إذ لم تلبث أن فتحت قلوب البربر للإسلام وتسابقوا إلى اعتناقه، بل لم تكد تمضي فترة وجيزة حتى جردوا سيوفهم لنصرته والعمل على نشره، وهو موقف يكاد يتفرد به المغرب العربي عن باقي الأقطار التي فتحها المسلمون، أي تبدل الوضع بهذه السرعة من المقاومة إلى الحماس الشديد لنصرة الدين الجديد^(٣)، وقد عزز الخليفة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه فيما بعد

سالم : المغرب العربي الكبير - العصر الإسلامي، د. سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربي وبحث : فتح العرب للمغرب بين الحقيقة التاريخية والأسطورة الشعبية (لنفس المؤلف)، الطاهر الزاوي : تاريخ الفتح العربي في ليبيا. وغيرها فضلاً عن المصادر.

(١) الرقيق القيرواني : فتح إفريقية والمغرب ص ٦٨ .

(٢) ابن عذاري : البيان للمغرب ج ١ ص ٤٢ .

(٣) يكرر شارل أندري جوليان مزاعم العديد من المؤرخين الغربيين والمستشرقين الذين دأبوا على ترديد القول بأن الإسلام قد فرض على البربر بالقوة فيقول : (ولقد فرض موسى الدين الإسلامي في حزم شديد على هذه القبائل المسيحية أو اليهودية المنصرفة غالباً إلى عبادة الطبيعة) وكذلك توماس أرنولد والدعوة إلى الإسلام ص ٤٩، والحقيقة أن مرعة استجابة البربر للإسلام قد أذهلت هؤلاء فلم يجدوا أمامهم لتبريرها إلا هذه التهمة الباطلة لإلصاقها بالإسلام والمسلمين، وتسوا أو تناسوا أن إفريقية بصفة خاصة والمغرب العربي بصفة عامة كانا يعيشان قبيل الإسلام في فراغ روسي للعدة=

هذه السياسة، فاستكمل ما بدأه موسى في هذا المجال إذ أرسل عشرة من أجراء التابعين رضي الله عنهم إلى إفريقية والمغرب لتعليم البربر الإسلام كما سيذكر في موضعه، وكانت أثناء ذلك قد أسست مدينة القيروان^(١) لتكون قاعدة للجيوش الإسلامية في المغرب العربي بأسره والتي ستصبح منطلقاً هاماً للفكر الإسلامي والحضارة العربية الإسلامية إلى أوروبا فيما بعد كما سيذكر في موضعه، كما كان قد تم إنشاء دار الصناعة في تونس^(٢)، التي

= النكبات التي توالى على المسيحية الكاثوليكية فيها حتى أصبحت هذه الديانة لا تلي حاجة الإنسان فيها من الإيمان، فقد قصرت كل من المسيحية بانحرافاتها الشكوك واليهودية بتقوقعها على نفسها وطوقها المقدسة ومن باب أولى الوثنية عن تقديم الطمأنينة الروحية التي كان يشدها هذا الإنسان والتي قدمها له الإسلام ببساطة متناهية خالية من كل تعقيد، هذا بالإضافة إلى مبادئه السامية كالتسامح والمساواة، والحرية والإخاء فجذبه كل ذلك إلى هذا الدين. ولو كان الإسلام فرض على البربر بالقوة لما ظلت بقايا المسيحيين في إفريقية والمغرب إلى القرن السابع الهجري (الثالث عشر للميلاد) كما يقول توماس أرنولد نفسه (الرجع السابق ص ١٤٣).

(١) كان أول من فكر في إنشاء القيروان هو معاوية بن حديج إذ اختطها في موضع يقال له القرن، ولما ولي عقبة بن نافع ولايته الأولى على إفريقية ترك ذلك الموقع واختط القيروان الحالية ولكن خليفته أبا المهاجر دينار تركها واختط مدينة أخرى بالقرب منها، ولما ولي عقبة ولايته الثانية أمر الناس بالعودة إلى قيروانته الأولى. وأما السبب في إنشائها فكان لتبديد الفتن إذ قال عقبة لأصحابه حينما عزم على إنشائها: (إن إفريقية إذا دخلها أمر تحرم أهلها بالإسلام، فإذا خرج منها عادوا إلى الكفر، وإنني أرى أن اتخذ بها مدينة تجعلها معسكراً وقيرواناً تكون عزاً للمسلمين إلى آخر الدهر). انظر ابن الشباط: صلة السطوط ص ١٧٩، كذلك الدباغ: معالم الإيمان ج ١ ص ٨، وعن اشتقاق اسمها انظر ابن الشباط: المصدر السابق ص ١٩٠.

(٢) اختلف المؤرخون المسلمون في اسم الذي أنشأ دار الصناعة في تونس وشق القناة ليصلها بالبحر، فذكر الرقيق القيرواني (المصدر السابق ص ٦٦) أن الذي أنشأها هو حسان بن النعمان وقويده في ذلك كل من البكري (مسالك الأبصار ص ٣٩) والتجاني وابن خلدون (المقدمة / طبعة دار الشعب ص ٢٢٥)، في حين ذكر ابن الشباط (المصدر السابق ص ١٨٥) وعنه نقل ابن أبي دينار (المصدر السابق ص ١٥) أن موسى بن نصير هو الذي فعل ذلك وخرق البحر إلى دار الصناعة، أما ابن الشماخ (المصدر السابق ص ١٧) فيقول إن الذي أنشأها هو عبدالله بن الجحباب سنة ٧٨ هـ وهذا وهم منه بالطبع لأن ابن الجحباب تولى إفريقية سنة ١١٠ هـ، ويذكر الوزير السراج (الخلل السندية ج ١ ص ٣٦٥) كلا القولين دون ترجيح أحدهما على الآخر، وحيال هذا الخلاف يصعب على الباحث التوصل إلى رأي محدد حول هذا الموضوع، ومع ذلك فإني أميل إلى ترجيح رأي الدكتورين أحمد مختار العبادي والسيد عبد العزيز سالم (الرجع السابق ص ٣١ وما بعدها) والذي مفاده أن حسان بن النعمان شرع في إنشائها وأن موسى بن نصير أكملها. وأما الهدف من إنشائها=

كانت نواة للبحرية الإسلامية في وسط وغرب البحر الأبيض المتوسط، فاكتملت بذلك العناصر اللازمة للنهوض بحبب الدور الكبير الذي قدر لإفريقية أن تقوم به في الجهاد، والذي سأعرض له بعد قليل.

وأما بالنسبة لما يلاحظه الباحث على حوادث الفتح، فإن أولى تلك الملاحظات هي أن الكثير من المؤرخين والمستشرقين ومن جاراتهم من الباحثين العرب يعللون أسباب الفتوحات الإسلامية، ومن ضمنها فتح إفريقية والمغرب، بأسباب كثيرة اقتصادية وسياسية وعسكرية ويتغافلون عن الهدف الرئيسي لهذه الفتوحات ألا وهو الدعوة إلى الإسلام، ذلك أن الله سبحانه وتعالى أرسل نبيه الكريم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم برسالة الإسلام للبشرية جمعاء كما جاء في قوله تعالى: ﴿تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً﴾^(١). وقوله تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً﴾^(٢)، ثم قوله سبحانه وتعالى: ﴿إنها لإحدى الكبر نذيراً للبشر﴾^(٣)، والآيات الدالة على عالمية الإسلام في القرآن الكريم كثيرة، وبهذه الرسالة خرج العرب المسلمون من شبه جزيرتهم، ونشرها كان هدفهم الأول والأسمى، وما يعلل به هؤلاء لهذه الفتوحات^(٤) ما هو إلا من قبيل صرف الأذهان عن هذا الهدف لتقليل دور الإسلام فيها بل ومحوه إن أمكن.

وهناك ملاحظة أخرى على هذا الفتح هي طول المدة الزمنية التي استغرقها قبل استقراره إذا ما قورن بفتح الشام ومصر والعراق وفارس الأمر الذي يستلقت النظر، وقد عزا العديد من المؤرخين السبب في ذلك إلى شدة مقاومة البربر للمسلمين^(٥) وحقيقة الأمر في

= فكان لجهاد الروم إذ يقول ابن خلدون (المقدمة / طبعة دار الشعب ص ٢٢٥) إن عبد الملك بن مروان أوعز إلى حسان بن النعمان عامل إفريقية باتخاذ دار صناعة بتونس لإنشاء الآلات البحرية حرصاً على الجهاد ويقول البكري (نفس المصدر ص ٣٩) إن عبد الملك (كتب إلى ابن النعمان يأمره أن يني لهم القبط دار صناعة تكون قوة وعدة للمسلمين إلى آخر الدهر وأن يجعل على البربر جر الأخشاب لإنشاء المراكب ويجهاد الروم في البر والبحر) ويذكر الرقيق (المصدر السابق ص ٦٦) نحو هذا القول.

(١) سورة الفرقان آية (١). (٢) سورة مائدة آية (٢٨).

(٣) سورة المائدة آية (٣٦).

(٤) عن هذه التعليقات وأرد عليها أنظر د. سعيد عاشور: أوروبا العصور الوسطى ج ١ ص ١٤٤ وما بعدها.

(٥) انظر مثلاً الفرد بل: الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي ص ١٠٥.

رأينا هي غير ذلك، فمقاومة البربر كانت شيئاً ثانوياً، ويعود السبب الرئيسي في طول هذه المدة إلى عدة عوامل أهمها الفتن والثورات الداخلية التي كانت تحتاج الدولة الإسلامية الأمر الذي كان يشغل المسلمين عن مواصلة الفتح كالفتنة الكبرى في زمن عثمان بن عفان رضي الله عنه والحروب بين علي ومعاوية وثورة عبد الله بن الزبير رضي الله عنهم، فكانت هذه الفتن والثورات تحول دون مواصلة عملية الفتح وتحرم المسلمين من الاستفادة من الانتصارات التي كانوا يحرزونها، ثم إن المسلمين في الشام والعراق وجدوا من إخوانهم العرب الذين كانوا يقيمون في كلا القطرين قبل الفتح مساعدة كبيرة في حروبهم ضد الفرس والروم، وينطبق نفس الأمر على مصر وإن لم يكن أهلها آنذاك عرباً أقحاحاً، فقد كانوا يرحلون تحت نير الاضطهاد الديني البيزنطي ويتمنون ساعة الخلاص فوجدوها في الإسلام القادم إليهم مع العرب المسلمين فساعدوهم بقدر ما سمحت به إمكانياتهم، وأما فارس فإن الضربات القوية التي تلقاها الفرس في العراق كانت قاتلة فانهارت على أثرها دولتهم المتداعية ولم يعد في إمكانها النهوض ثانية، وأما بالنسبة لإفريقية والمغرب فلم يكن للعرب المسلمين فيها إخوة ينصرونهم^(١)، يضاف إلى ذلك بعدهما عن مركز الدولة الإسلامية بحيث كانت الإمدادات تستغرق زمناً طويلاً قبل وصولها، كما كانت طبيعة البلاد الجغرافية وانحسار المسلمين إلى أسطول لحماية ما كانوا يفتحونه منها إذ كانت سواحلها مكشوفة للأسطول البيزنطي، تشكل أسباباً أخرى في إعاقة الفتح، ومع أهمية هذه الأسباب في تلك الإعاقة، إلا أنه كان هنالك ثمة مسبب هام ورئيسي في ذلك تجلر الإشارة إليه هو نشاط الدولة البيزنطية، إذ أن الاحتفاظ بإفريقية كان أمراً حيوياً بالنسبة للبيزنطيين للدفاع عن ممتلكاتهم في حوض البحر الأبيض المتوسط الغربي. لذلك فقد ألقوا

(١) يرى بعض المؤرخين المسلمين أن البربر من العرب يتصلون في نسبهم إلى بر بن قيس عيلان هاجروا من فلسطين إلى المغرب العربي، ويؤيدهم في ذلك بعض نسبة البربر (انظر مثلاً ابن أبي زرع : الذخيرة السنية ص ١٤ وما بعدها، كذلك مجهول : ذكر الياقوتة الحلبية، ورقة ١ وما بعدها) ويرى بعض آخر أن صنهاجة تنسب إلى حمير، ولكن ابن خلدون ينفي هذه الصلة بين البربر والعرب، وأياً كان الأمر فإن صلة النسب بين العرب المسلمين الفاتحين والبربر إن كان هنالك ثمة صلة بينهما، حتى لو أضفنا إلى ذلك اعتباراً آخر هو وجود بقايا شعب قرطاجة الفينيقي الأصل في إفريقية، فإن هذه الصلة لا يمكن أن ترقى إلى صلة النسب المبرح والقوي التي كانت تربط عرب شبه الجزيرة بحرب الشام والعراق.

بتقلهم في الجبهة الإفريقية في حرب مكشوفة تارة، والتآمر والدم وإثارة الفتن تارة أخرى.

فالصراع في الجبهة الإفريقية لم يكن إسلامياً بربرياً في حقيقته كما يصوره هؤلاء المؤرخون وإنما كان صراعاً إسلامياً بيزنطياً وقف منه قسم كبير من البربر موقفاً محايداً في معظم مراحلها، ودليلاً على هذا القول أن أكبر حركتين بربريتين في مقاومة الفتح وهما حركتا كسيلة^(١) والكاهنة^(٢) كان للبيزنطيين اليد الطولى فيهما، فقد مثلوا في كلا الحركتين دور الخضر والمخطئ. فقد كان كسيلة نصرانياً قبل إسلامه شأنه في ذلك شأن قبيلته أوربة التي كان يتزعمها لم أسلم لا عن اقتناع بهذا الدين وإنما عن رغبة في مكسب دنيوي كما دلت الحوادث التالية أو ربما نكاهة في البيزنطيين الذين كانوا يضطهدون قومه لمخالفتهم لهم في المذهب، لأن من دخل الإيمان إلى قلبه وذاق حلاوته لا يمكن أن يتحول عنه إلى الضلال من جديد، ثم ارتد ليس نتيجة لإساءة عقبة بن نافع إليه كما تعلل بعض المصادر التاريخية ذلك^(٣)، لأن عقبة وهو الصحابي الجليل لا يمكن أن

(١) تذكر العديد من مصادر التاريخ الإسلامي أنه كان من سياسة أبي المهاجر دينار الذي عزل به عقبة بن نافع عن ولاية إفريقية في المرة الأولى مصانعة البربر لتأليف قلوبهم واستطاع بهذه السياسة أن يكسب كسيلة بن لزم زعيم قبيلة أوربة المشهورة فاعتنق الإسلام، وأسلم بإسلامه الكثير من قومه، ولكنه عاد فارتد في ولاية عقبة الثانية نتيجة لإساءة عقبة إليه كما زعم بعض المصادر فقطع على عقبة الطريق أثناء عودته إلى إفريقية من الغرب مما اضطر عقبة وأصحابه لقتاله فاستشهدوا جميعاً بالقرب من (تهود) وحُف كسيلة عمراً حتى دخل القيروان ودحر المسلمين إلى برقة فأقاموا بها حتى وصلهم المدد من الخليفة فرحبوا بقيادة زهير بن قيس البلوي وقضوا على كسيلة. وقد اختلف المؤرخون في ضبط اسمه فيذكر الرقيق القيرواني (المصدر السابق ص ٤٦) أن اسمه كسيلة بن ليوم، أما ابن عذارى (ج ١ ص ٤٥) فيسميه كسيلة بن لزم، ويسميه صاحب كتاب الاستبصار (ص ١٧٥) كسيلة بن أنفم، في حين يدعوه ابن الأثير (ج ٤ ص ١٠٧) كسيلة بن كوم.

(٢) هي زعيمة قبيلة جروالة الزناتية وملكة الأوراس وقد التف حولها جمع من البربر بعد مقتل كسيلة، وتزعمت المقاومة ضد المسلمين وبقيت تعيث في إفريقية فساداً حتى تمكن حسان بن النعمان من القضاء على فتنتها وقتلها في موقعة بئر الكاهنة، وكان اسمها دامية بنت مائة بن تيفان، وسميها ابن أبي دينار (المؤنس ص ٣٤) دامية بنت ينفاق، ويدعوها ابن أبي الضياف (تخلف الزمان ص ١٠٤) دها، ولقبها جورج مارميه بالدبورة البربرية (Debore Berbere) (شارل أندري جوليان: المرجع السابق ج ٢ ص ٣٥).

(٣) انظر مثلاً ابن الأثير: المصدر السابق ج ٤ ص ١٠٧، ابن خلدون: المصدر السابق ج ٤ ص ١٨٦.

يحاول إيقاع الظلم بمسلم وإن كان ضعيفاً فكيف بكسيلة الذي كان يعرف مكانته حق المعرفة لخبرته الواسعة بشؤون إفريقية، ولكن الأمر في رأيي أن عقبة إن صح أنه قد أغضب كسيلة، فهو إنما كان يريد أن يحطم نخوة الجاهلية في نفسه التي لا بد أن يكون قد لمسها فيه، والمؤمن الحق لا يمكن أن يتخلى عن إيمانه مهما بلغ غضبه من سلطانه فيرتد عن دينه، وحقيقة الأمر في اعتقادنا أن ارتداده كان نتيجة للإغراءات التي قدمها الامبراطور البيزنطي قسطنطين الرابع له ولقبيلته، إذ حينما أدرك هذا الامبراطور أن نفوذ البيزنطيين في إفريقية صائر إلى زوال، رأى ردم الهوة التي كانت تفصل بين دوله وأهل إفريقية ورأب الصدع بين الطرفين والعمل على إرضائهم وجعلهم يلتفون حول دوله من جديد، لذلك عقد مجتمعاً دينياً سنة ٦٨٠م لجمع في وضع حد للخصومات المذهبية في تلك الدولة^(١)، ثم كانت الخطوة التالية التي خطاها في سبيل تحقيق هدفه هي اتصاله بقبيلة أوربة التي كان يتزعمها كسيلة نظراً لكثرة عددها وشدة بأسها إذ كانت مضاربها تنتشر من جبال الأوراس إلى القيروان^(٢) من ناحية، ثم لأن الكثير من أبنائها كان لا يزال على نصرانيته من ناحية ثانية، يضاف إلى ذلك أنها كانت تبسط نفوذها على العديد من القبائل الأخرى مثل هوارة وجراوة ونغوسه وعدة بطون من زناته. ونجح قسطنطين في إثارة الفتنة وإشعال ثورة كسيلة تحت المظلة البيزنطية وكان ما كان من أمرها والقضاء عليها. فكسيلة في حقيقة أمره لا يعدو أن يكون عميلاً يزنطياً، ويؤكد هذه الحقيقة ما ذكره الرقيق القيرواني من أن جيشه كان يضم الكثير من الروم إلى جانب البربر^(٣)، كما يقطع ابن الأثير الشك باليقين في هذا الأمر حين يقول (... ولما رأى الروم قلة من مع عقبة أرسلوا إلى كسيلة وأعلموه حاله، وكان في عسكر عقبة مضمرأ للغنر، وقد أعلم الروم ذلك وأطعمهم، فلما راسلوه أظهر ما كان يضممره وجمع أهله وبني عمه وقصد عقبة^(٤)، يضاف إلى ذلك أنه لو كانت

(١) د. إبراهيم العدوي : المرجع السابق ص ٩١ .

(٢) د. إبراهيم العدوي : المرجع السابق ص ٩١ .

(٣) الرقيق القيرواني : المصدر السابق ص ٤٦، انظر كذلك الدباغ : المصدر السابق ج ١ ص ٥٦ ابن أبي دبنار : المصدر السابق ص ٣٢ .

(٤) ابن الأثير : المصدر السابق ج ٤ ص ١٠٧ . آثار انفراد عقبة بن نافع عن الجيش الإسلامي بنفر قليل من الجنود بما أدى لاستشهاده، عدة تساؤلات لدى المؤرخين، والذي أراه في هذا الموضوع أنه إما أن =

حركة كسيلة حركة بربرية خالصة لما اشترك البربر في الجيش الإسلامي الذي زحف للقضاء عليها حتى بلغ عددهم ثلث هذا الجيش، إذ يقول الدباغ في ذلك : (فاعتد زهير هو ومن معه وكانوا ستة آلاف : ألفان من البربر وأربعة آلاف من العرب) ^(١)، وثمة دليل آخر على هذه الصلة القوية بين كسيلة والبيزنطيين، أن الأخيرين إثر انتصار كسيلة على عقبة بن نافع وتراجع الجيش الإسلامي إلى برقة عادوا إلى قرطاجة ومواها من مدن ساحل إفريقيا التي كانوا يتركزون فيها قبل الفتح.

ولم تكن الكاهنة في وضع مغاير لوضع كسيلة، ومع أن الغموض يكثف دياتها الحقيقية، إذ يقول بعض المؤرخين إنها كانت يهودية اعتماداً على أن هذه الديانة كانت معروفة في قبيلتها جراوة ^(٢)، ويرى آخرون أنها كانت وثنية لانتحالها الكهانة، إلا أنني أرى أنها كانت تمت إلى النصرانية بصلة قوية إن لم تكن نصرانية بحق هي الأخرى، والدليل على ذلك ما ذكره ابن عذارى من أنه كان لها ولدان أحدهما يوناني والثاني بربري ^(٣)، فكون أحد ولديها يونانياً يعني أنها كانت قد تزوجت من نصراني، ثم إن قبيلتها جراوة كانت تلور في فلك قبيلة أوربة النصرانية، ولعل انتحالها الكهانة ما كان إلا من قبيل المحاولة لإقناع البربر بقوتها المخارقة للالتفاف من حولها نظراً لما فطروا عليه من طبيعة متدينة تؤمن بالخوارق فكانت تبهرهم الأعمال المخارجة عن المألوف فيصدها قوتها، يؤكد ذلك أن العديد من مؤسسي الدول في المغرب العربي مارموا مثل هذه الأعمال حتى في العصر الإسلامي حيث كان لها أثر كبير في اجتذاب البربر إليهم. فهل من المستبعد أن يكون البيزنطيون قد أسندوا إليها الدور الذي فشل كسيلة في أدائه خاصة وأنها كانت تتحلل الزعامة وتوصف بأنها ملكة الأوراس؟ وأن المصادر التاريخية لم تشر إلى زعيم بربري آخر معاصر لها سوى كسيلة؟

= يكون قد شعر بتحركات البربر والروم وأن جيشه لم يمكن له قبل بحشود العدو فقصده بعمله ذلك القيام بخدعة حرية للتمويه ليفسح المجال لمعظم الجيش الإسلامي للنجاة، أو أنه خرج في ذلك الغر للاكتشاف فاصطدم بالعدو ليصرفه عن باقي الجيش بدليل ما ذكره صاحب الاستبصار (ص ١٧٥) الذي يقول : (فلما رجع قال أمر على مدينة تهودة وبادس وأعرف ما فيها من القوة والجيش).

(١) الدباغ المصدر السابق ج ١ ص ٥٦ .

(٢) الطاهر الزاوي : المرجع السابق ص ١٠٢ .

(٣) ابن عذارى : المصدر السابق ج ١ ص ٣٧ .

يضاف إلى ذلك أن المساعدات البيزنطية كانت تتوالى عليها هي الأخرى فقد كان جيشها الذي قابلت به المسلمين يضم هو الآخر أعداداً غفيرة من الروم إلى جانب البربر^(١)، فلو كانت حركتها هي الأخرى بربرية خالصة لترجم ولذاها هذه الحركة بعد مقتلها ولما اعتنقا الإسلام وانضما إلى الجيش الإسلامي بعد انتهاء المعركة التي قتلت فيها أمهما مباشرة، أو حتى قبل بدء تلك المعركة على حد قول ابن الأثير^(٢) ليصبحا من قادة هذا الجيش^(٣)، ولا تفسير في رأينا لهذا الأمر أقرب للمنطق من أن الكاهنة قد أدركت تورطها في حرب لن تجني من ثمرتها إذا انتصرت فيها إلا القليل في حين سيستأثر البيزنطيون بنصيب الأسد من تلك الثمرة، أما إذا هزمت فيها فستحل الكارثة بها ويقومها دون البيزنطيين الذين قد يستطيعون إيجاد البديل عنها لتنفيذ مآربهم، فأمرت ولديها بالانضمام للمسلمين، وإلا فما معنى احتفاظها بخالد بن يزيد التيمي بعد انتصارها على حسان بن النعمان في معركة نهر البلاء ومؤاخاته بولديها^(٤) لولا أنها كانت لا تريد لهما نفس مصيرها وأن يكون خالد شقيقاً لهما عند حسان بن النعمان؟ فالمقاومة إذن كانت بيزنطية تسترت بالبربر ولا يتناقض هذا القول مع ما رواه ابن خلدون عن أبي زيد من (أن البربر ارتدوا بإفريقية والمغرب اثنتي عشرة مرة وزحفوا في كلها للمسلمين ولم يثبت إسلامهم إلا في أيام موسى بن نصير وقيل بعدها)^(٥)، إذ أن أصابع البيزنطيين كانت لا تكف عن الدس والوقعة لإثارة المشاكل والفتن في وجه المسلمين ولو تتبعنا هذه الثورات لوجدنا أن للبيزنطيين علاقة بها من قريب أو بعيد.

وثمة ملاحظة أخرى يلاحظها الباحث هي المزاعم التي يرددها بعض المؤرخين من أن

(١) ابن أبي ديار : المصدر السابق ص ٣٤ .

(٢) ابن الأثير : المصدر السابق ج ٤ ص ٣٧١ .

(٣) يقول الرقيق القيرواني (المصدر السابق ص ٦٤) إن حسان بن النعمان عقد لكل منهما لواء القيادة على ستة آلاف من البربر ويؤيده في ذلك ابن أبي ديار (المصدر السابق ص ٣٥) ويقول ابن الأثير (ج ٤ ص ٣٧٢) إن حسان شرط على البربر أن يكون منهم عسكر مع المسلمين عدتهم اثنا عشر ألف جندي يجاهدون العدو، فأجابوه إلى ذلك فجعل على هذا العسكر إني الكاهنة، أما النائب الأنصاري (المنهل العذب ص ٧٩) فيقول إن حسان عقد للأبرار على قومه جرارة وأغفل ذكر الأصغر، وأياً كان الأمر فإن هذه النصرة تؤكد انضمامهما لجيش المسلمين.

(٤) ابن الأثير : المصدر السابق ج ٤ ص ٣٧٠ .

(٥) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ١١٣ .

الفتح الإسلامي كان هو السبب في خراب إفريقية التي كانت في رأيهم مزدهرة وخضراء متصلة الأشجار من طرابلس إلى طنجة قبل الإسلام حتى جاء المسلمون فكانوا السبب في خرابها، والحقيقة في رأينا هي غير ذلك، إذ أن حالة إفريقية كانت قد تدهورت قبل الفتح الإسلامي، فتورات البربر المتكررة ضد طغيان الرومان ومحاولاتهم نيل استقلالهم، والصراع المذهبي بين الطوائف المسيحية الذي سبق أن أشرنا إليه، والموجة الوندالية المدمرة وأخيراً سياسة الدولة البيزنطية في جباية الضرائب والتي ألحقت الضرر بالمزارعين مما جعلهم يهجرون مزارعهم، كل هذه العوامل مجتمعة كانت هي السبب في هذا التدهور الذي شهدته إفريقية قبيل الفتح الإسلامي، ولعل في ما نقله توماس أرنولد عن جيبون ما يدعم ما ذهبنا إليه إذ يقول : (وهكذا تم خراب إفريقية حتى إن الغريب كان يطوف في أنحائها أباماً كاملة دون أن يصادف وجه صديق أو عدو)^(١). ويؤكد ذلك ما ذكره ابن الشباط في شرح القصيدة الشقرابية حين يقول : (ووقع في التاريخ المنسوب إلى الفقيه الحافظ أبي الطاهر رحمه الله تعالى أن معاوية بن حديج غزا إفريقية وكانت خرابات كلها وذلك في سنة خمس وأربعين زمن معاوية بن أبي سفيان)^(٢)، فالتاريخ وخصوصاً علم الآثار كما يقول حسن حسني عبد الوهاب يكذبان هذه الدعوة الملققة^(٣)، وما هي إلا تهمة باطلة يروجها المؤرخون الغريون ليشيعوا أن ماضي إفريقية الروماني الزاهر أصبح بعد الفتح أثراً بعد عين. حتى إن أعمال التخريب التي جرت أثناء الفتح لم يكن للمسلمين يد فيها^(٤)، والأصح من ذلك أن إفريقية انتعشت في العهد الإسلامي انتعاشاً فاق ما كانت عليه في عهودها السابقة.

(١) توماس أرنولد : المرجع السابق ص ١٤٦ .

(٢) ابن الشباط : صلة السمط، شرح القصيدة الشقرابية، مخطوط المكتبة الوطنية بتونس رقم ٣٢٠٨ ورقة ١٧٤أ.

(٣) حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق ١ ص ٤١ - ٤٢، انظر كذلك عبد العزيز المنسوب : الصراع المذهبي بإفريقية ص ٢٢٧ وما بعدها.

(٤) يذكر الرقيق القيرواني (المصدر السابق ص ٦١) أن الكاهنة كانت تقول : (إن العرب إنما يطلبون من إفريقية المداخن والذهب والفضة، ونحن إنما نطلب المزارع والمراعي فما نرى لكم إلا خراب إفريقية حتى يأسوا منها، ويقطع قطع الأشجار وتخرب المزارع وتعت في =

دور إفريقية في الجهاد :

يمثل دور إفريقية في الجهاد في القرون الأربعة الأولى للهجرة في وجهين رئيسيين أولهما تخفيف حدة الضغط البيزنطي على المسلمين في جبهة الصراع التقليدية بين القوتين في بلاد الشام ومصر في البر والبحر على حد سواء، وثانيهما أنها أصبحت منذ فتحها قاعدة للفتوحات الإسلامية في حوض البحر الأبيض المتوسط الغربي بأسره، وقامت بنفس الدور الذي قام به العراق في فتوحات المسلمين في المشرق مع حفظ الفارق الذي يكمن في حقيقة هامة هي أن انهيار الدولة الفارسية المبكر منذ السنوات الأولى للفتح الإسلامي خلص العراق من المقاومة الفارسية وأتاح له حرية العمل، في حين أن بقاء الدولة البيزنطية متماسكة بالرغم من الضربات القوية التي تلقتها من المسلمين وانتزاعهم لأقاليم هامة من ممتلكاتها، جعل خطر هذه الدولة قائماً سواء على إفريقية والمغرب أو الشام ومصر، وبقيت ممتلكات هذه الدولة في غربي المتوسط مراكز خطر على المناطق المفتوحة في غرب العالم الإسلامي لمدة طويلة الأمر الذي ألقى على كاهل إفريقية مسؤولية كبيرة فرض عليها أن تقوم ببذل مجهود مضاعف في الدفاع والهجوم في جهادها للقوى المعادية.

فبالنسبة لتخفيف الضغط البيزنطي عن الجبهة الشرقية، فإن فتح المسلمين لجبهة جديدة في الصراع الإسلامي البيزنطي حينما أخذوا يهاجمون إفريقية، قد جعل البيزنطيين يشعرون بالخطر الأكيد والجسيم الذي يعنيه فتح هذه الجبهة، فخسارة إفريقية كان يعني بالنسبة لهم مقدمة لفقدانهم كل ممتلكاتهم في غرب المتوسط وتطويق امبراطوريتهم ثم خنقها، لذلك حتم عليهم هذا الوضع توزيع قواهم بين الشرق والغرب بعد أن كانت منصبة على الشرق وحده، وبالتالي فرض عليهم أن يتحولوا من سياسة الهجوم في الشرق إلى سياسة الدفاع في الشرق والغرب على حد سواء، وتسخير جل طاقاتهم لتقوية سبل هذا الدفاع خاصة عن الغرب، وقد ظهرت هذه السياسة بوضوح في عهد الامبراطور قسطنطين الثاني الذي نقل مقر

= إفريقية الفساد وتدمر كل مظاهر الحضارة والعمران فيها مما جعل البربر والأفارقة يستصغرون حسان بن النعمان لإنقاذهم من هذا البلاء. انظر أيضاً الدباغ : المصدر السابق ج ١ ص ٦٤ - ٦٥، التجاني : المصدر السابق ص ٥٨، ابن الأثير : المصدر السابق ج ٤ ص ٣٧١، ابن أبي دinar : المصدر السابق ص ٣٤ .

حكمه من القسطنطينية إلى صقلية سنة ٤٢ هـ / ٦٦٢ م لشرف بنفسه على تقوية وسائل الدفاع عنها، وعن إيطاليا قائلاً إن حماية الأم أولى من حماية البنت أي أن الدفاع عن روما أم الملك ومركزه أوجب من حماية القسطنطينية^(١)، حيث كرس باقي حياته، ولم تخف هذه الحقيقة عن المؤرخين المسلمين فقد أشار إليها ابن الأثير في معرض حديثه عن صقلية بقوله: (وعمرها الروم من جميع الجهات وعمرها فيها الحصون والمعقل، وصاروا يخرجون كل عام مراكب تطوف بالجزيرة وتذب عنها...) (٢). ويضيف في موضع آخر (وأنشأوا فيها أسطولاً، وكانوا يهاجمون به مراكب المسلمين ويقطعون البحر عنهم) (٣)، وما لا شك فيه أنه كان لهذه السياسة الجديدة التي اتبعتها الدولة البيزنطية بتحويلها من الهجوم إلى الدفاع انعكاس قوي على الصراع الإسلامي البيزنطي شرقاً وغرباً.

وأما بالنسبة للوجه الآخر لدور إفريقية في الجهاد وكونها أصبحت قاعدة لهذا الجهاد في غرب حوض البحر الأبيض المتوسط، فقد ارتكز على دعامتين هامتين أولاهما الدفاع عن نفسها ضد هجمات القوى المعادية المتكررة، وثانيتهما العمل على نشر الإسلام في تلك المنطقة من العالم. فالنسبة للشطر الأول، فإن ولاتها في بداية عهدها الإسلامي ساروا وفق الخطة الدفاعية العامة الإسلامية التي وضعت منذ أن أطل المسلمون على شواطئ البحر الأبيض المتوسط الشرقية والتي كانت تدور حول محور واحد هو الإكثار من إنشاء الحصون التي عرفت بالرباطات (٤) في النقاط الهامة من السواحل وشحنها بالمقاتلين لأنها كانت الوسيلة الوحيدة المتيسرة في ذلك الوقت للدفاع عن هذه السواحل نظراً لقلة خبرة

(١) انظر أرفيئال دلويس : المرجع السابق ص ٩٤، د. أحمد مختار العبادي، د. السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ٢٠ وما بعدها، د. السيد الباز العربي : الدولة البيزنطية ص ١١٦، ابن الخطيب : أعمال الأعلام، ج ٣ ص ١١٠ حاشية ١.

(٢) ابن الأثير : انظر المكتبة العربية الصقلية ص ٢٢٠.

(٣) ابن الأثير : انظر المكتبة العربية الصقلية ص ٢٢٠.

(٤) الرباطات أو الأربعة أو الربط جمع مفرد رباط، وهو شبه حصن أو ثكنة عسكرية تضم مسجداً وغرفاً لإقامة المجاهدين ومناراً عالياً لمراقبة البحر وكانت هذه الرباطات تتناقل أخبار تحركات العدو فيما بينها والإنذار به بإشارات معينة كالتيوير ليلاً والتدخين نهاراً، وأطلق على المجاهدين الذين كانوا يقيمون فيه لقب المرابطين نسبة إليه، وغالباً ما كان العلماء الذين يقيمون في الرباط يتولون تدريسي الطلاب مختلف العلوم في المسجد، وكان المقيمون فيه ينقطعون للجهاد والعبادة.

المسلمين بشؤون البحر في ذلك العهد المبكر وعدم وجود أسطول لديهم يستطيع مواجهة الأسطول البيزنطي المتمرس في شؤون البحر وخلق القتال فيه لا سيما وأن البيزنطيين كانوا وريثة الأمم البحرية التي سبق أن سيطرت على هذا البحر. لذلك تركز اهتمام المسلمين في الدفاع عن إفريقية على الرباطات وتحصينها وشحنها بالمجاهدين طوال فصل الصيف الذي كان موسم الغارات البحرية، ثم الإكثار منها فيما بعد لكثرة ما كانت تتعرض له من هجمات معادية لا سيما وأن قربها الشديد من قواعد الأسطول البيزنطي في صقلية والجزائر الشرقية (جزر البليار) وريجيو (Reggio) وباري (Bari) في قلورية (كلابريا) بإيطاليا، كان يفسح المجال أمام هذا الأسطول للاطلاع على نقاط الضعف في وسائلها الدفاعية بسرعة وبالتالي الانقضاض عليها في غارات مفاجئة.

لذلك، كان الدفاع عن إفريقية شغل المسلمين الشاغل في المشرق والمغرب على حد سواء، حتى إن العديد من علماء المسلمين ساووا في الأجر مرابطة يوم في إفريقية للجهاد بأداء فريضة الحج، فقد ذكر الرقيق القيرواني أن علماء المشرق كتبوا إلى أهل إفريقية يقولون لهم : (من رابط عنا يوماً برادس حججنا عنه حجة) ^(١)، كما أقيمت عدة أحداث نسبت إلى النبي صلى الله عليه وسلم تحت على المرابطة في إفريقية وتبين الثواب العظيم الذي يناله كل من فعل ذلك ^(٢). لهذا أقيمت الرباطات في كافة أنحاءها وبأعداد تفوق الحصر في

(١) الرقيق القيرواني : المصدر السابق ص ٦٥، انظر أيضاً ابن أبي دينار : الملوس ص ١٥، التجاني : المصدر السابق ص ٦.

أما رادس فقد كانت مرسى تونس، وتبعاً لذلك كانت من أهم مواضع المرابطة نظراً لموقعها الاستراتيجي الهام، وهي الآن إحدى ضواحي مدينة تونس.

(٢) أوردت مصادر التاريخ الإسلامي لا سيما المغربية منها عدة من هذه الأحداث مثل : فإن المنسبر باب من أبواب الجنة من دخله فاز بالبركة ومن خرج منه نال المغفرة ذكره الوزير السراج (ج ١ ق ١ ص ٢٤٠)، سليمان زيبس (المنسبر ص ٥)، ثم وإن من رابط بالمنسبر ثلاثة أيام نال الجنة ذكره التجاني (ص ٣١)، سليمان زيبس (ص ٥)، والوزير السراج (ج ١ ق ١ ص ٢٤٠ - ٢٤١) بتحريف بسيط. ثم وليأتى أناس من أمتي من إفريقية وجوهم أفضل نوراً من القمر ليلة البدر ذكره كل من ابن عذارى (ج ١ ص ٧) وابن أبي دينار (ص ٢١) والوزير السراج (ج ١ ق ١ ص ٢٣٦ - ٢٣٧)، ثم وإن البرد الشديد والأجر العظيم لأهل إفريقية ذكره الوزير السراج (ج ١ ق ١ ص ٢٣٨)، ثم «ينقطع الجهاد من البلدان كلها فلا يبقى إلا في موضع في المغرب يقال له إفريقية فهنا تقوم بإزاء»

عهود مختلفة حتى إنها كانت تعتبر بأسرها رباطاً كبيراً يؤمها المجاهدون من جميع أنحاء المغرب العربي للمرابطة نظراً لأنها كانت دائمة التعرض للغارات البحرية المفاجئة حتى وبعد ظهور البحرية الإسلامية في غرب المتوسط وسيطرتها على المنطقة، فقد توسع ولايتها لحلفاء بني العباس خاصة المهالبة في إنشاء تلك الرباطات، ولكن الاهتمام بها بلغ ذروته في العهد الأغلبي، حيث لم يترك الأمراء الأغلبية موضعاً هاماً في إفريقية إلا وأنشأوا فيه رباطاً حصيناً حتى إن أحدهم وهو الأمير أحمد أبو إبراهيم الأغلبي شيد وحده عشرة آلاف رباط بالحجارة والكلس محكمة البناء والصنعة^(١)، ولم يقتصر إنشاء هذه الرباطات على الدولة، وإنما كان الموسرون والمتعبدون من الأهالي يقومون بذلك أيضاً. فقد ذكر القاضي عياض أن عبد الرحيم بن عبد ربه الربيعي المعروف بالزاهد بنى الرباط المعروف بقصر زياد وأنفق في بنائه اثني عشر ألف دينار نصفها من عنده ونصفها الآخر من إخوانه^(٢)، وتبعاً لذلك غصت سواحل إفريقية بهذه الرباطات حتى كان المسافر في نواحيها لا يكاد يسير أكثر من

«عنهم نظروا إلى الجبال قد سرت فيخرون لله سجداً فلا ينزع عنهم أخلاقهم - يعني ثيابهم - إلا خدمهم في الحفة» ذكره الوزير السراج (ج ١ ق ١ ص ٢٣٧) وقد أورد كل من التجاني (ص ٣١ - ٣٢)، وابن عذاري (ج ١ ص ٦ وما بعدها) والوزير السراج (ج ١ ق ١ ص ٢٣٦ وما بعدها) عدة من هذه الأحاديث بروايات وأسانيد مختلفة، وهي وإن كانت بلا شك أحاديث موضوعة (انظر عن ذلك ابن أبي دينار : المصدر السابق ص ٢٠)، إلا أنها تدل دلالة واضحة على مدى اهتمام المسلمين بالمرابطة في إفريقية للدفاع عنها.

أما المستير التي ورد ذكرها أعلاه، فهي من أشهر رباطات إفريقية بل والمغرب العربي وأقدمها، وقد ضبط ابن الشباط (صلة السقط - شرح القصيدة الشقرافية ورقة ٧١) لفظها بضم الميم وضم النون وسكون السين المهمل وكسر التاء المثناة وبعدها ياء أنثت الواو وآخرها راء مهمل، ويقول البغدادي (المصدر السابق ص ٢٣٧) : «المستير بضم الميم هكذا سمعت أهل إفريقية يلقونها»، وتطلقها العامة في عصرنا الحاضر بحلف النون. وتقع على شاطئ البحر بين المهدية وسوسة، والرباط فيها لا زال قائماً عابته أثناء زيارتي لتلك البلدة، كُريد من التفصيل عن هذا الرباط انظر سليمان زبيس : المرجع السابق.

(١) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٤ ص ٢٠١، انظر كذلك حسن حسني عبد الوهاب : بساط العقيق ص ٥١ - ٥٢، حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق ٣ ص ٤١٦ .

(٢) القاضي عياض : ترتيب المدارك، مقتطفات منه بعنوان (تراجم أغلبية مستخرجة من المدارك) تحقيق د. محمد الطالبي ص ١٦٣ .

عشرين كيلومتراً دون أن يجد أحدها^(١)، ولشدة عناية أهل إفريقية بها ألفوا فيها المؤلفات لنشر فضائلها وبيان أجر من يرباط فيها مثل كتابي (أحمية الحصون) و (فضائل المستير والرباط) لسحتون^(٢)، وكتاب (فضائل المستير والرباط) أيضاً ليحيى بن عمر^(٣)، وكان من أشهر هذه الرباطات، رباط المستير الآنف الذكر ويضم القصر الكبير الذي أنشأه هرثة بن أعين سنة ١٨٠هـ / ٧٩٦م^(٤) أثناء ولايته على إفريقية لهارون الرشيد، ثم رباط موسم ومحرس بطوية الذي كان يضم مناراً مفرطاً في الارتفاع يرقى إليه في ١٦٦ درجة، ومحرس حبلية ومحرس أبو الفصن ومحرس مقدمانة ومحرس اللوزة ومحرس الريحانة ومحرس راحس ومحرس جراح ومحرس سلقطة^(٥).

هذا عن الرباط، أما بالنسبة للمرابطين الذين كانوا يقيمون فيه فكانوا فئات مختلفة من المسلمين، علماء وفقهاء وعباد وزهاد وطلاب علم وغير ذلك جمعت بينهم جميعاً نية الجهاد، وقلما وجد عالم أو فقيه أو متعب زاهد من أهل إفريقية لم يرباط في هذه الرباطات فترات من حياته، ومن يطالع كتب الطبقات مثل رياض النفوس للملكي، والمداكر للقاضي عياض، ومعالم الإيمان للديباغ والديباغ المذهب لابن فرحون يجد أمثلة كثيرة تؤكد هذا القول. وكان هؤلاء ينقطعون للعبادة وجهاد العدو طوال فصل الصيف ويتصفون بالزهد مكثفين بالزور القليل من الطعام الذي كان قوامه دقيق الشعير الملتوث بالزيت، ومع أن ميسوري الحال كانوا يساعدونهم بالطعام والنفقة إلا أن كثيراً منهم من كان يرفض هذه

(١) حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ج ٣ ص ٤١٥ .

(٢) القاضي عياض : المصدر السابق ص ١٦٧ .

(٣) ابن فرحون : الديباغ المذهب ج ٢ ص ٣٥٥ .

(٤) الرقيق القيرواني : المصدر السابق ص ٢٠٤، ابن الأثير : المصدر السابق ج ٥ ص ٩٦، ابن عذاري : المصدر السابق ج ١ ص ١٠٩، ابن الخطيب : أعمال الأعلام ج ٣ ص ١١، ابن أبي دينار : المصدر السابق ص ٤٨، ابن أبي الضياف : المصدر السابق ص ١٢٣ . وكل هذه المصادر ذكرت أن هرثة أنشأ هذه الرباط سنة ١٨٠هـ ولا ندري على أي مصدر اعتمد الأستاذ سليمان زيس (المستير ص ٤) حينما ذكر أن سنة إنشائه كانت سنة ١٧٩هـ .

(٥) د. أحمد مختار العبادي، د. السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ٤٣، كذلك حسن حسني عبد الوهاب : بساط العقيق ص ٥٠ وما بعدها .

المساعدة ويعف عنها. ولم تقتصر المراقبة على هؤلاء بل كانت تشمل القادرين على الجهاد من الأمالي فقد ذكر المالكي أن القرويين كانوا يأتون من النواحي إلى موسم كل ليلة جمعة ليرابطوا بها^(١).

وبقيت هذه المكانة السامية للرباط والمرابطين حتى العهد الفاطمي، فأخذت مكانتهما في التراجع لأن الخلفاء الفاطميين كانوا يوالون الضغط على المرابطين نظراً لأن الغالبية الساحقة من هؤلاء كانوا على المذهب المالكي حتى (كان حمى قصور زياد - المرابط بساحل إفريقية - يسمى دار مالك لكثرة من فيه من العلماء والعباد والصالحين من أصحاب مالك)^(٢)، وكان هؤلاء بطبيعة الحال يمتنون الدعوة الشيعية، وحيث إنهم كانوا قد بلغوا من الكثرة حداً كبيراً حتى إن سعدون بن أحمد الحلواني كان يخرج للرباطة في أربعة آلاف مرابط^(٣)، فإن ذلك كان يثير مخاوف الفاطميين وقلقهم، لذلك لم يكتفوا بمؤالة الضغط والتضييق عليهم، بل عملوا على إجلاء العديد منهم عن هذه الرباطات^(٤) وذلك حتى لا تصبح مراكز لمقاومتهم والتحريض على الثورة عليهم الأمر الذي كان له أسوأ الأثر على الرباط والمراقبة فقل الاهتمام بهما طوال العهد الفاطمي والشرط الأول من العهد الزيري. ويبدو أنه قد عادت للرباط بعض أهميته السابقة منذ ظهور الخطر الصليبي على إفريقية^(٥)، ولكن هذه الأهمية لم ترق إلى ما كانت عليه في السابق، مما كان سبباً في ضعف مقاومة إفريقية ضد الهجمات الصليبية المعادية.

وأما بالنسبة لكونها أصبحت قاعدة الفتوحات في القسم الغربي من حوض البحر الأبيض المتوسط، فإن منها خرجت الجيوش الإسلامية رافعة لواء الجهاد في تلك المنطقة، فمنذ وقت مبكر من وصول الإسلام إليها وحتى قبل استقرار الفتح فيها كانت

(١) للمالكي: رياض النفوس ج ١ ص ٣٩٢.

(٢) القاضي عياض: المصدر السابق ص ٢٩٤؛ كذلك التجاني: المصدر السابق ص ٦٧.

(٣) القاضي عياض: المصدر السابق ص ٤٠٨.

(٤) القاضي عياض: المصدر السابق ص ٤٠٧.

(٥) يذكر القاضي عياض نصاً يرويه عن ابن العربي من (سراج المريدن) أن ابن العربي دخل رباط النضير سنة ٤٩٤ هـ فروى له مشايخ ذلك الرباط أنهم صنعوا غارة للروم. انظر القاضي عياض: المصدر السابق ص ١٦٧ حاشية ١٣.

الحملة توجّه منها إلى الأفطار المجاورة لها لإيصال الإسلام إلى شعوبها. فقد ذكر ابن الشباط أن معاوية بن حديج أثناء ولايته عليها أغزى جيشاً في البحر إلى صقلية في مائتي مركب، وقد مكث فيها شهراً ثم عاد محملاً بالغانم^(١)، كما أرسل في سنة ٤٧هـ / ٦٦٧م حملة أخرى بقيادة ربيعة بن ثابت الأنصاري عامل طرابلس غزت جزيرة جربة^(٢)، وأرسل واليها أبو المهاجر دينار سنة ٥٦هـ / ٦٧٤م حملة في عهده غزت شواطئ إسبانيا^(٣). والذي يسترعي الانتباه هو من أين لإفريقية بهذا الأسطول الذي أقل هذه الحملات ولم تكن دار الصناعة قد أنشأت فيها بعد؟ فإن كان ذلك الأسطول لها فإن ذلك يدل دلالة واضحة على أنها بدأت دورها في الجهاد في عهد مبكر جداً عما هو معروف، وإذا كان جزءاً من أسطول الشام أو مصر فإن ذلك يؤكد مدى أهميتها في عملية الجهاد الإسلامي ككل، إذ أنها أصبحت رأس الحربة الموجه إلى الممتلكات البيزنطية في غرب المتوسط، فلولاً وجود المسلمين فيها لكان من الصعب على أساطيلهم المشرقية غزو تلك المناطق النائية نسبياً عن المشرق، ولكان ذلك الغزو مجازفة غير مأمونة العواقب خاصة لأن الأسطول البيزنطي في تلك المنطقة علاوة على تمرسه بشؤون البحر كان قريباً من قواعده العديدة فيها بعكس الأسطول الإسلامي الذي كان بعيداً عن قواعده في المشرق.

ولم يلبث ولاية إفريقية أن أدركوا مدى أهمية وجود أسطول مستقل لها حتى تقوم بدورها كاملاً في الجهاد، لذلك تم إنشاء دار الصناعة في تونس التي كانت أول دار صناعة

-
- (١) ابن الشباط : المصدر السابق ص ١٨٣، انظر كذلك ابن عذاري : المصدر السابق ج ١ ص ١٦ - ١٧، ويجهل ابن أبي الضياف (المصدر السابق ص ٩٩) هذه الغزوة سنة ٤٥ هـ أما ابن الخطيب (أعمال الأعلام ج ٣ ص ١٠٨) فيذكر أن أول من غزا صقلية هو معاوية بن حديج في سنة ٣٤هـ أو سنة ٣٥هـ من قبل عثمان بن عفان رضي الله عنه، فلم تزل تغزى بعد ذلك، ولزيد من التفصيل عن هذه الحملة وتحقيق السنة التي تمت فيها، انظر د. أحمد مختار العبادي، د. السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ٢٢ وما بعدها، كذلك د. مارتينو مورينو مارينو : المسلمون في صقلية ص ٦.
- (٢) المالكي : رياض النفوس ج ١ ص ٥٣، انظر أيضاً أبو الهاسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٣٢، ابن أبي دينار : المصدر السابق ص ٢٤، د. أحمد مختار العبادي، د. السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ٢٤.
- (٣) د. إبراهيم طرخان : المسلمون في أوروبا ص ١٢٦.

أسست في الإسلام^(١)، وبين الرقيق القيرواني بوضوح أن الهدف من إنشائها كان للجهاد ومشاغلة الروم، فيذكر أن الخليفة الأموي أمر حسان بن النعمان (أن يخرق البحر إلى تونس وأن يجعل بها دار صناعة وأن يعمل المراكب ويستكثر منها، ويجاهد الروم في البر والبحر، وأن يغير على سواحل الروم، ويشغلهم عن بلاد الإسلام)^(٢)، وإنشائها تكون إفريقية قد استكملت اعتمادها على نفسها في جهاد العدو فكان على هذا الأسطول الذي بني فيها أن يخل يد الأسطول البيزنطي المتواجد في غرب البحر الأبيض المتوسط والتي كانت طليقة في الإغارة على سواحل إفريقية، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى تم استكمال الخطة الإسلامية الشاملة لمواجهة القاطعات البحرية للدولة البيزنطية الخصم الرئيسي للمسلمين، تلك القاطعات التي كانت توزعها المحكم تتيج لها حرية أكبر في العمل^(٣). ولم تكن تغطي فترة وجيزة على إنشاء دار صناعة تونس حتى سارت البحرية الإسلامية في إفريقية بخطى حثيثة في سبيل الهدف الذي وجدت من أجله، وقد ساعدها في ذلك وفرة المواد اللازمة لها في إفريقية، فالأخشاب والزفت والقطران الجيد كان متوفرًا في جبال بجاية وأوديتها^(٤)، والقنب اللازم لصنع الحبال كان يزرع بكثرة في نواحي

(١) عبد الرحمن الجيلالي : المرجع السابق ج ١ ص ١٩٠ .

(٢) الرقيق القيرواني : المصدر السابق ص ٦٦، ويذكر أن الخليفة الوليد بن عبد الملك كتب إلى عمه عبد العزيز بن مروان والي مصر يأمره بمد حسان بن النعمان بألف قبضي بأسرهم لإنشاء دار صناعة تونس، وهذا وهم من الرقيق في اسم الخليفة، فقد كان هذا الخليفة هو عبد الملك بن مروان وليس الوليد، وعبد العزيز كان ولياً لعهد أخيه عبد الملك لكنه توفي في زمنه فأخذ عبد الملك البيعة لابنه الوليد بدلاً منه.

(٣) كان الأسطول البيزنطي في أواخر القرن السابع وأوائل القرن الثامن الميلاديين مكوناً من أسطول مركزي وأربعة أساطيل إقليمية، فالأسطول المركزي كان مقره القسطنطينية وقد خصص لحمايتها. أما الأساطيل الإقليمية فكانت اثنان منها في الشرق هما أسطول بحر ليجه، وأسطول كبير هايوت، والآخرين في الغرب أحدهما مقره صقلية والثاني في رافنا. لذلك وضع الأمويون خططهم البحرية بتقسيم مشابه لمواجهة هذه الأساطيل، فأنشأوا أسطولاً في مصر وكانت مهمته مواجهة الأسطول المركزي ثم آخر في بلاد الشام لمواجهة أسطولي بحر ليجه وكبير هايوت في آسيا الصغرى، وكان لا بد من إيجاد أسطول آخر لمواجهة أسطولي الغرب، فتم إنشاء أسطول في إفريقية للنهوض بهذا العبء (لزيد من التفصيل انظر أوليفالد لوبس : المرجع السابق ص ١١٣).

(٤) الشريف الإدريسي : المصدر السابق ص ٦٣ .

سوممه، والكثبان اللازم للقلوع والشراعات كان يزرع في نواحي تونس وبونة، والحديد في بونة ومراجعة^(١)، والأهم من كل ذلك توفر القوة البشرية التي كانت تنفذ حماساً للجهاد. فمع أن أقباط مصر هم الذين أنشأوا دار الصناعة في تونس، إلا أن أهل إفريقية أبناء القرطاجين وأحفاد الفينيقيين هم الذين ركبوا متن البحر وخاضوا عبايه يجاهدون العدو وينشرون رسالة الإسلام أينما حلوا^(٢).

ولما تولى موسى بن نصير إفريقية أولى بحريتها الناشئة عناية كبيرة، فاشتد عودها في عهده، وما أن قضى على تمردات بعض قبائل البربر، حتى أخذ يرسل الحملات البحرية الواحدة تلو الأخرى إلى الأقطار المجاورة من أوروبا، ففي سنة ٨٥هـ / ٧٠٤م أرسل حملة لغزو صقلية بقيادة ابنه عبد الله، وكان يرغب في قيادتها بنفسه فأمر أن لا يشترك فيها إلا (أهل الجلد والنكاية والشرف)^(٣) فسميت غزوة الأعراف بذلك، وقد تمكنت من اقتحام عدة مواقع في الجزيرة وعادت محملة بالغانم. وفي السنة التالية عقد لعياش بن أخيل على أسطول إفريقية فشتا في البحر وغزا صقلية فأصاب مدينة مرقومة وقتل عائداً إلى إفريقية سنة ٨٦هـ / ٧٠٥م^(٤)، وفي سنة ٨٨هـ / ٧٠٧م أرسل حملة بقيادة عبد الملك بن قطن الفهري غزت جزيرة قوصرة (بنطلازية)^(٥). وفي سنة ٨٩هـ / ٧٠٨م أرسل حملة إلى

(١) الشريف الإدريسي: المصدر السابق ص ٨٦.

(٢) الشريف الإدريسي: المصدر السابق ص ٨٦، كذلك حسن حسني عبد الوهاب: وقات ق ٢ ص ٣٠ وما بعدها، أرشيبالد لويس: المرجع السابق ص ٢٤٩.

(٣) ابن الشباط: المصدر السابق ص ١٨٦ انظر كذلك ابن سعيد المغربي: المغرب في حلي المغرب ج ٢ ص ٤٦٦، ابن عذاري: المصدر السابق ج ١ ص ٤٢، ابن أبي دينار: المصدر السابق ص ١٦، د. أحمد مختار العبادي، د. السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق ص ٣٥ وما بعدها، د. مارتينو مارينو: المرجع السابق ص ٦-٧.

(٤) ابن أبي الضياف: المصدر السابق ص ١٠٥ (ويسمى جيش)، كذلك د. أحمد مختار العبادي، د. السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق ص ٣٥.

(٥) يقول ياقوت الحموي (المصدر السابق ج ٤ ص ٤١٣) إن جزيرة قوصرة فتحت أيام معاوية بن أبي سفيان وبقيت في أيدي المسلمين إلى أيام عبد الملك بن مروان ثم خربت، والراجح أن أول من غزاها من المسلمين هو عبد الملك بن قطن الفهري أثناء ولاية موسى بن نصير على إفريقية سنة ٨٨هـ / ٧٠٧م. انظر البحث المستفيض الذي كتبه حسن حسني عبد الوهاب عن فتحها وتاريخها في العهد=

الجزائر الشرقية فقدت مظفرة ومحلة بالغنائم والأسرى كان من بينهم ملكها نفسه^(١)، وفي سنة ٨٩٩هـ / ٧٠٨م أيضاً عقد لعبد الله بن مرة على بحر إفريقية فغزا سردينيا وافتتح مدنها وغنم غنائم كثيرة^(٢)، وفي قول آخر إنها فتحت سنة ٩٢هـ / ٧١١م، ونظراً لهذا النشاط البحري المتزايد أصبح بحر إفريقية منذ سنة ٩٣هـ / ٧١٢م عملاً يتولاه أمير كان في تلك السنة محمد بن أوس الأنصاري^(٣)، وتوج أسطول إفريقية نشاطه في هذه المرحلة من تاريخه بعملين هامين هما اشتراكه في فتح الأندلس، إذ تشير العديد من المصادر التاريخية الإسلامية إلى أنه ساهم بنصيب كبير في نقل الجيش الإسلامي عبر بحر الزقاق (مضيق جبل طارق) إلى العدو الأندلسية^(٤). ثم اشتراكه في حصار القسطنطينية أيام سليمان بن عبد الملك الذي حشد لهذا الحصار إمكانيات هائلة، ومع أن نتيجة هذا الحصار كانت كارثة على الأسطول الإسلامي بوجه عام إلا أن ولاية إفريقية تمكنوا من تعويض خسارتهم بسرعة وأعادوا بناء أسطول بديل.

وتابع ولاية إفريقية بعد موسى بن نصير تسيير الحملات البحرية إلى أرض العدو، ففي سنة ١٠٢هـ / ٧٢٠م غزا إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر صقلية، ثم غزت من جديد

الإسلامي (ورقات، ق، ٢ ص ٢٨١ وما بعدها) انظر كذلك د. أحمد مختار العبادي، د. السيد العزيز سالم : المرجع السابق ص ٣٥ وما بعدها، كذلك أرشيبالد لويس : المرجع السابق ص ١٢٢، د. إبراهيم طرخان : المسلمون في أوروبا ص ٩٨.

(١) يقول د. حسين مؤنس (رحلة الأندلس ص ٢٧٩) إن عبد الله بن موسى كان هو أول من غزاها وذلك في سنة ٩٠هـ / ٧٠٨م، في حين يقول شكيب أرسلان (تاريخ غزوات العرب ص ٢٤٤) إن فتحها تم سنة ٨٩هـ / ٧٠٧ - ٧٠٨ اعتماداً على تاريخ الخلفاء للسيوطي، ولكن ابن الشباط (المصدر السابق ص ١٨٦) يرى أن هذه الغزوة تمت سنة ٨٥هـ ويسميتها غزوة الأفراف، وأعتقد أن هذا وهم من ابن الشباط وأنه خلط بين هذه الغزوة وغزوة عبد الله بن موسى لصقلية كما خلط بينهما كل من الذهبي وأبي الخاسن.

(٢) ابن الأثير : المصدر السابق ج ٤ ص ٢٣٢ وما بعدها، انظر كذلك د. أحمد مختار العبادي، د. السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ٣٥ وما بعدها، شكيب أرسلان : المرجع السابق ص ٢٤٤ (ويرى أن فتحها تم سنة ٨٧هـ) والأرجح ما ذكرناه.

(٣) د. أحمد مختار العبادي، د. السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ٤٢.

(٤) د. أحمد مختار العبادي، د. السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ٣٦ وما بعدها.

في السنوات ١٠٩ هـ / ٧٢٧ م، ١١١ هـ / ٧٢٩ م، ١١٢ هـ / ٧٣٠ م، ١١٥ هـ / ٧٣٣ م^(١)، كما تعرضت كل من سردينيا وجنوب إيطاليا ونواحي عديدة أخرى من شواطئ جنوب غرب أوروبا في تلك الآونة إلى غزوات مشابهة. ولا يسعنا في هذه العجالة تتبع كل هذه الغزوات والجهود بالتفصيل والتي كان من نتائجها بدء انتشار الإسلام في الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط، واستمر نجم المسلمين في صعود في تلك المنطقة حتى أصاب إفريقية والمغرب داء الفتن والمشاكل الداخلية الويل الذي أخذ يمزق وحدة المسلمين فيها نتيجة للسياسة الحافظية التي مارسها بعض ولاة إفريقية في أواخر العصر الأموي^(٢). فكان أن أدت تلك السياسة إلى تدمير البربر، الأمر الذي جعل منهم تربة صالحة لأصحاب المذاهب والأحزاب المناوئة لبني أمية كالحفاج فأنجذبوا إليهم بسرعة وانفجر الوضع في ثورة عارمة هي ثورة ميسرة المدغري الحارجي. وتحولت نقمة البربر على الدولة الأموية إلى كره متبادل بينهم وبين العرب امتدت ذبوله إلى الأندلس بسرعة وأشعلت فيه نار الفتنة، وزاد من سوء الوضع بروز العصبية القبلية بين العرب أنفسهم، فارتدت الأحقاد بين العرب الجمانية الذين كانوا قد استوطنوا إفريقية فعرفوا تبعاً لذلك بالبلديين، والشاميين القيسية، فاجتاحت البلاد بالفتن التي لولاهما لمضى المسلمون قدماً في فتوحاتهم التي كان من الممكن أن تغير وجه التاريخ، ذلك أن هذه الفتن حالت دون استمرار حركة الفتح لا سيما وأنه لم يكن في أوروبا في تلك الفترة دولة قوية قادرة على الوقوف في وجه المسلمين. ودليلاً على هذا القول هو أنه نتيجة لثورة ميسرة الحارجي سنة ١٢٢ هـ / ٧٣٩ م اضطر عبيد الله بن الحبحاب والي إفريقية إلى استدعاء حبيب بن أبي عبدة من صقلية بعد أن كان قد توغل فيها وأخذ يستعد لاستكمال فتحها^(٣)، لمواجهة هذه الثورة، حتى إن شكيب أرسلان عزا هزيمة المسلمين في معركة بلاط الشهداء (تور - بواتيه) سنة ١١٤ هـ / ٧٣٢ م لثورة البربر^(٤)،

(١) د. أحمد مختار العبادي، د. السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ٣٨ وما بعدها. انظر كذلك

أرفيالد لويس : المرجع السابق ص ١٠٧ وما بعدها.

(٢) عن هذا الموضوع انظر د. السيد عبد العزيز سالم : المغرب العربي الكبير ص ٢٩٣ وما بعدها.

(٣) الرقيق القيرواني : المصدر السابق ص ١٠٨ وما بعدها، كذلك د. مارتينو مارينو : المرجع السابق ص ٦ وما بعدها، شكيب أرسلان : المرجع السابق ص ٣٦٨ .

(٤) شكيب أرسلان : المرجع السابق ص ١٤٣ حاشية ١ .

وبذلك أخذت حركة الفتح في التراجع، وكلما زادت حدة هذه الفتن ضعفت حركة الفتح حتى توقفت عند انهيار الدولة الأموية وقيام دولة بني العباس، إذ لا يتوقع من والي إفريقية أن يقوم بنشاط جدي في سبيل مواصلة الفتح في ظل وضع داخلي غير مستقر.

ولم يتمكن العباسيون في بداية عهدهم من فرض سيطرتهم على قسم كبير من المغرب الإسلامي الذي كان يدار من إفريقية، وكان أمر استقرار إفريقية المنطلق الطبيعي لغرب العالم الإسلامي من أكبر مشاغل أبي جعفر المنصور الذي كان (عالمًا بالمغرب خائفًا عليه، وكان لا يبعث إليه إلا أهل ثقته من ذوي الرأي الأصيل والخطر الجليل)^(١)، إلا أن الحرق اتسع على الواقع، فانفصلت الأندلس أولاً بمقدم عبد الرحمن بن معاوية إليها وتأسيسه دولة الأموية فيها، ثم تبعها معظم المغرب الأقصى في الانفصال عن الدولة العباسية حينما تمكن إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن الذي نجا من موقعة فخ سنة ١٦٩هـ / ٧٨٦م^(٢) من الفرار إليه وتأسيس دولته العلوية فيه، كما قامت للخوارج دول أخرى في بعض نواحي المغرب العربي، وبذلك ضاعت وحدة هذا المغرب التي كانت من أهم العوامل التي ساعدت على الفتوحات. وقيمت الأمور مضطربة على بني العباس في تلك المنطقة، بالرغم من أن عمالهم عليها كانوا عادة من أعظم رجالات دولتهم وأكثرهم خبرة وحنكة مثل هرثمة بن أعين والأمراء المهالبة، إذ لم يقلح هؤلاء في إعادة الهدوء والاستقرار إليها، وحيال هذا الوضع لم ير الخليفة الرشيد بداً من قبول ما عرضه عليه إبراهيم بن الأغلب في أن يتولى إفريقية على أن يتمتع بقدر من الاستقلال الذاتي وأن تبقى إمارتها متوارثة في عقبه. ويتولى إبراهيم بن الأغلب إمارتها سنة ١٨٤هـ / ٨٠٠م يبدأ عهد جديد في تاريخها.

تمكن ابن الأغلب من قمع الشر من إفريقية وضبط أمورها وإعادة الهدوء إلى ربوعها^(٣)، ثم وجه عنايته - وتبعه خلفاؤه في ذلك - إلى الأسطول لأهميته البالغة في

(١) الرقيق القيرواني : المصدر السابق ص ١٥٩ .

(٢) وقعت معركة فخ في اليوم الثامن من ذي الحجة سنة ١٦٩هـ حيث قضت فيها جيوش الهادي العباسي على ثورة الحسين بن علي العلوي (انظر ابن أبي زرع : الأنيس المغرب ص ١٧)، ولزود من التفصيل انظر د. السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ص ٦٥ وما بعدها.

(٣) الرقيق القيرواني : المصدر السابق ص ٢٢١ .

حركة الفتوحات فجددوا دار صناعة تونس كما أسسوا دار صناعة جديدة في سوسة^(١) اللتين أخذتا تعملان بنشاط كبير لإعادة بناء هذا الأسطول، وقد بلغ من اهتمام الأمراء الأغالة بهذا الأسطول أن أحدهم أمر بهدم الأضرحة في القيروان لاستعمال خشبها في بناء السفن^(٢)، ولم يدخروا جهداً في توفير كل الإمكانيات المتاحة وتسخيرها في سبيل النهوض به وتدعيمه، وملحوه بأحدث الأسلحة وأكثرها فاعلية في ذلك الوقت، فضموا إليه عدداً كبيراً من السفن قاذفات اللهب (الحراقات)^(٣) التي كانت قبل ذلك وقفاً على الأسطول البيزنطي، والمجانيق التي (لم يكن قد رُوي حينئذ مثلها في بعد مرماها وضخم الحجارة التي تقذفها)^(٤)، كل ذلك لإعداده للور الكبير الذي سيقوم به في الجهاد في عهد دولتهم، وما أن تم لهم ذلك حتى استؤنفت حركة الفتوحات من جديد بعد توقف دام حوالي نصف قرن.

ففي سنة ١٩٠ هـ / ٨٠٥ م أغار هذا الأسطول على البلبونيز^(٥)، وفي سنة ١٩٤ هـ / ٨٠٩ م غزا جزيرة سردينيا التي كانت قد خرجت من سيطرة المسلمين، كما غزا في تلك الآونة أيضاً صقلية وبعض نواحي شواطئ أوروبا الجنوبية، ويدل أن نشاط الأسطول الأغلي خاصة إغاراته على صقلية أثار القوى الأوروبية في ذلك الوقت فحالفت كل من لوتي ويزا وانضمت إليهما قوة كارولنجية من توسكانيا وربما قوة بيزنطية وشكلت أسطولاً هاجم مدينة بونة (عنابة) في سواحل إفريقية بقيادة بونيفاس (Boniface) أمير كوريسكا، في حين بقي الأسطول البندقي مرتبطاً في المياه الصقلية لحماية الجزيرة^(٦)، ولكن هذه الحملة لم تحقق نتيجة ملموسة، إذ أن الأسطول الأغلي أعاد الكرة على جزيرة سردينيا بقيادة أسد بن القرات حتى

(١) حسن حسني عبد الوهاب : بساط العقيق ص ٤٩ .

(٢) القاضي عياض : المصدر السابق ص ٢٦٧ .

(٣) أرشيبالد لويس : المرجع السابق ص ٢٤٢ .

(٤) د. مارتينو مورينو : المرجع السابق ص ١٢ .

(٥) أرشيبالد لويس : المرجع السابق ص ١٦٥ .

(٦) انظر أرشيبالد لويس : المرجع السابق ص ١٦٦، ص ٢١٢، كذلك شكيب أرسلان : المرجع السابق

W. Heyd . Histoire du Commerce, du Levant, Vol. I, p. 121.

ص ١٩٣ - ١٩٤ .

إنه أشراف على فتحها، فحصد بعض من كان معه فتظاهر بالهزيمة الأمر الذي أضعف الروح المعنوية لدى جيش المسلمين مما أجبر أسد بن الفرات على الانسحاب منها، وعندما علم الأمير زيادة الله الأغلب بحقيقة ما جرى طلب من أسد أن يسمي له ذلك الشخص فأبى^(١).

وفي سنة ٢١٢هـ / ٨٢٧م شرع الأغلب في فتح صقلية^(٢)، ثم لم تلبث جيوشهم أن انتقلت إلى برتبة الجزيرة الإيطالية قبل أن يستكملوا فتح تلك الجزيرة مفتحين فرصة نشوب النزاع بين أمراء الإقطاع في تلك المنطقة وأخذوا يفتحون الجزء تلو الآخر من أرضها. وفي سنة ٢٢٢هـ / ٨٣٦م نجح الأسطول الأغلبى وهاجم روما نفسها واتحمت الفاتيكان وغنم ما في كنيسها، وأقام رجاله هناك حوالي الشهرين أنشأوا خلالها رابطاً على مصب نهر التير لا تزال آثاره باقية إلى الآن^(٣). وفي سنة ٢٢٤هـ / ٨٣٨م قام هذا الأسطول بالتعاون مع أسطول مسلمي إقريطش (كريت) بالهجوم على برنديزي وفتحها، واشتبكتا مع أسطول البندقية الذي قدم لنجدتها في معركة حامية قرب كروتوني على خليج تارنت انتهت بتحطيم الأسطول البندقي، وقد أدى هذا الانتصار إلى فتح البحر الأدرياتيكي أمام البحرية الإسلامية^(٤)، كما غزا جيلة مولى الأغلب مدينة باري فلم يقدر على فتحها، فغزاها خلفون البربري من بعده ففتحها، وقام بعده المفرج بن سلام فتوسع في نواحيها وأسس إمارة باري الإسلامية^(٥)، وتحطيم الأسطول البندقي في معركة كروتوني قنطت أوروبا الغربية معظم قوتها الدفاعية البحرية الذاتية، وأصبحت شواطئها مفتوحة للمسلمين فلم تجد بداً من الاستجداء بالأسطول البيزنطي للوقوف في وجه مسلمي إفريقيا الذين أخذوا يتقدمون فاتحين في جنوب غرب أوروبا. وكان هذا الأسطول قد مني بهزيمة شنيعة أمام أسطول صقلية الأغلبى بالقرب من جزيرة إقريطش (كريت) في عهد الأمير أبي إبراهيم أحمد

(١) القاضي عياض : المصدر السابق ص ٦٧ .

(٢) لمزيد من التفصيل انظر د. السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ص ٣٨٥ وما بعدها.

(٣) حسن حسني عبد الوهاب : خلاصة تاريخ تونس ص ٨٢ - ٨٣، كذلك أحمد توفيق المدني : المسلمون في صقلية وجنوب إيطاليا ص ١٤٧، حسن حسني عبد الوهاب : وولات ٢٢ ص ١٠٤ وما بعدها.

(٤) أرشيبالد لويس : المرجع السابق ص ٢١٤ - ٢١٥ .

(٥) شكيب أرسلان : المرجع السابق ص ١٩٧ .

الأغلبي^(١)، مما أوجد حافزاً آخر للصدام بينه وبين أسطول الأغالبة. فلما تولى الأمير أبو الغرائق محمد الثاني الأغلبي الإمارة، قلد خفاجة بن سفيان ولاية جنوب إيطاليا وأخرجه في سنة ٢٥١هـ / ٨٦٥م لفتح جنوة، فحاصرها حتى فتحها ثم تقدم قائماً في اتجاه جبال الألب، وقد دامت حملته تلك حتى نهاية سنة ٢٥٢هـ / ٨٦٦م. وحال ذلك أسرع الأسطول البيزنطي إلى مياه غرب البحر الأبيض المتوسط ليحول دون استمرار تقدم المسلمين في جنوب غرب أوروبا، واشتبك في سنة ٢٥٣هـ / ٨٦٧م مع خفاجة في معركة دارت رحاها بالقرب من شواطئ جنوة انتصر فيها خفاجة وألحق بالأسطول البيزنطي خسائر فادحة^(٢). وفي سنة ٢٥٥هـ / ٨٦٨م غزا الأسطول الأغلبي مالطة وفتحها^(٣)، ولما تولى الأمير إبراهيم بن أحمد بن محمد الأغلبي الإمارة قلد الحسن بن رباح ولاية جنوب أوروبا وأمره بمواصلة الفتح فتقدم باتجاه مرسيليا وفتح إقليم بروفانس مما أجبر الفرنجة على الاستنجاد بالدولة البيزنطية فأرسلت أسطولاً مكوناً من ١٤٠ قطعة لنجدتهم فاشتبك هذا الأسطول مع الأسطول الأغلبي في معركة مروعة، وبالرغم من انتصار الأسطول البيزنطي فيها إلا أن قوات المسلمين البرية استمرت في التوغل في جنوب فرنسا من سنة ٢٦٦ - ٢٧٢هـ / ٨٧٩ - ٨٨٥م فاحتلت كولونا وامتلكت بعض شواطئ الرون، وقد حاول البيزنطيون إعادة حملتهم البحرية وقطع خطوط الاتصال بين أوروبا وإفريقية فاحتل أسطولهم مدينة سبييره، لكن مقاومة المسلمين العنيفة لهم منعتهم من التقدم وثلث حركتهم. ولم يسكت الأغالبة على هذا النشاط البيزنطي فجهزوا في سنة ٢٧٥هـ / ٨٨٨م أسطولاً ضخماً لتعقب البيزنطيين وتطهير المياه الغربية منهم، فاشتبك هذا الأسطول مع الأسطول البيزنطي وضربه ضربة قاصمة^(٤) كان من نتيجتها إبعاد الخطر البيزنطي عن غرب المتوسط وبالتالي تثبيت أقدام المسلمين في المناطق التي فتحوها في إيطاليا وفرنسا ثم مواصلة

(١) شكيب أرسلان : المرجع السابق ص ٣٦٩ .

(٢) شكيب أرسلان : المرجع السابق ص ٣٦٩ .

(٣) شكيب أرسلان : المرجع السابق ص ٣٦٩، كذلك حسن حسني عبد الوهاب : خلاصة تاريخ تونس ص ٨٧ .

(٤) شكيب أرسلان : المرجع السابق ص ٣٦٩ وما بعدها.

فتوحاتهم في تلك الجهات. وبذلك أصبح الأسطول الأغلبى سيد الموقف في وسط البحر المتوسط، ويعلق أرشيبالد لويس على ذلك بقوله : (وكان أبلغ الحملات أثراً على معبر سيادة البيزنطيين الحربية تلك التي قامت بها الأساطيل الإفريقية في بحر صقلية وإيطاليا وتلك التي قامت بها أساطيل كريت الإسلامية في بحر الأرخبيل والبحر اليوناني، على أن الحملات التي وقعت في البحار الغربية ترتب عليها نتائج أخطر مما ترتب عليه في البحار الشرقية)^(١). وهكذا عاد الإفريقية في عهد بني الأغلب مجدها السابق في الجهاد.

وبما لا شك فيه أن الوازع الديني المتمثل في الرغبة في نشر الإسلام كان العامل الرئيسي في جهاد إفريقية المجيد في ذلك العهد كما كان الأمر في السابق، يدل على ذلك كثرة العلماء والفقهاء والعباد والصلحاء من أهالي إفريقية الذين ساهموا في هذا الجهاد، مثل أسد بن الفرات فقيه إفريقية وعالمها المشهور الذي قاد حملة الفتح في صقلية وقلها حملة سردينيا كما سبق أن ذكرناه، ثم أبو زكريا الهرقلي وصاحبه المرباط أبو إبراهيم الخراساني اللذان استشهدا أثناء غزوة روما^(٢)، وعمر بن يوسف بن عامر الكنانى والد يحيى بن عمر فقيه إفريقية المعروف والذي لزم جزيرة إقريطش للجهاد^(٣)، وسعدون بن أحمد الحلواني الذي اشتهر في غزوات عديدة حتى قال عن نفسه : (غزوت بضعا وسبعين غزوة لطلب الشهادة)^(٤)، وغيرهم كثير ممن ذكرت أسماؤهم في كتب التراجم والطبقات. وكثيراً ما كان الأمراء الأغالبة يشارون بالجهاد بأنفسهم مثل الأمير إبراهيم بن أحمد بن الأغلب الذي تنازل عن الإمارة لابنه أبي العباس وتصدق بجميع أمواله وخرج إلى صقلية مجاهداً (فجهاد في الله حق جهاده، وفتح الفتوحات العظيمة)^(٥)، وانتقل إلى جوار ربه مجاهداً عند كوسنته (Cosenza) بإيطاليا سنة ٢٨٥ هـ^(٦)، وبقيت جلوة الجهاد في سبيل الله

(١) انظر أرشيبالد لويس : المرجع السابق ص ٢١٢ .

(٢) حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق ٢ ص ١٠٩ .

(٣) القاضي عياض : المصدر السابق ص ٢٧١ .

(٤) القاضي عياض : المصدر السابق ص ٤٠٦ .

(٥) ابن أبي ديار : المصدر السابق ص ٥٢، انظر كذلك ابن عذارى : المصدر السابق ج ١ ص ١٣٢ .

(٦) زاماور : معجم الأنساب والأسرات في التاريخ الإسلامي ج ١ ص ١٠٦، ويذكر ابن خلدون (المصدر السابق ج ٤ ص ٢٠٤) أن المدينة التي توفي عندها هذا الأمير اسمها كسنة، في حين =

متقدمة لدى مسلمي إفريقية طوال العصر الأغلي حتى ظهرت الدعوة الفاطمية فيها فشتغلوا بها مما جعل تلك الجبلوة تخبو من جديد^(١).

ورث الفاطميون دولة الأغالية إلا أنهم نظراً لكرهية مسلمي إفريقية وتوابعها المالكية للدعوة الشيعية واجهوا صعوبات كبيرة في سبيل المحافظة على ما كان قد أحرزه الأغالية من فوحدات، فلم تلبث الولايات الأوروپية أن أعلنت انفصالها عن إفريقية، وانتخبت أحمد بن زيادة الله بن قرحب والياً عليها، فاتصل هذا الأمير بالمقتدر العباسي معلناً تبعيته له طالباً منه تقليده أمر هذه الولايات، فبعث إليه بالتقليد والخلع^(٢)، ولكن المهدي الفاطمي لم يسكت على ذلك، فلقباً إلى الدس والوقعة وإثارة الفتن حتى نجح أخيراً في إشعال الثورة ضد ابن قرحب في صقلية مما اضطره للتنازل عن الإمارة وكانت نهايته أن أعدم في المهدي سنة ٣٠٣هـ / ٩١٥م، وعند ذلك لم ير المسلمون في صقلية وما حولها بدءاً من الإتصال بالمهدي لعلمهم بعجز الخليفة العباسي عن نصرتهم إذا ما تعرضوا للخطر، طالبين منه أن يولي عليهم من يشاء من الولاة وأن يمدحهم بجيش يدافعون به عن أنفسهم ضد القوى الأوروپية التي أدركت مدى حرجة موقف مسلمي الولايات الأوروپية فبدأت تتحرك للانقضاض عليهم، إلا أن المهدي لم يغفر لهم اتصالهم بالدولة العباسية فبدلاً من أن يقبل خضوعهم إليه طائعين أرسل إليهم أسطولاً بقيادة سعيد بن المضيف لإخضاعهم بالقوة لسلطانه، فقام هذا الأسطول بمحاصرة صقلية عدة أشهر حتى تمكن أخيراً من النزول فيها واستباحها وفعل جنده من بربر كتابة الأفاعيل المنكرة بالمسلمين فيها من قتل وتعذيب وهتك أعراض، ثم أمر سعيد بن المضيف بهدم أسوار المدن وجرد حاميتها من السلاح وغرض على أهلها المغارم الكبيرة، ثم رلى عليهم أحد طغاته ويدعى سالم بن أبي راشد الذي أفحش هو وجنوده الكتايمون فيها.

= يذكر ابن أبي دينار (المصدر السابق ص ٥٢) أنه توفي بالدرج وحمل إلى القيروان، يشاء يرى ابن عذري (ج ١ ص ١٣٢) أنه توفي بأرض الروم فحمل إلى صقلية ودفن بها والأرجح أن جثمانه حمل إلى القيروان ودفن بها. لمزيد من التفصيل انظر د. السيد عبدالعزيز سالم : المغرب الكبير ص ٣٩١.

(١) عن هذا الموضوع انظر البحث الذي كبه عبدالمزيت العالبي في تاريخ غزوات العرب لشكيب أرملان ص ٣٦٧ وما بعدها.

(٢) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٣ ص ٣٦٦.

فانقبضت النفوس وفترت الهمم وخارت العزائم عن الجهاد والفتح حتى طمع في المسلمين رعاياهم من الإيطاليين والفرنسيين. وأسند الخليفة الفاطمي الثاني القائم بأمر الله بن المهدي أمر الولايات الأوروبية إلى طاغية آخر هو خليل بن إسحق الذي ارتكب خلال حكمه الذي استمر أربع سنوات من الجور والفساد ما لم يسبقه إليه أحد حتى كان يفاخر بأنه قتل أثناء فترة ولايته تلك ألف نفس^(١) مما زاد في سوء أوضاع المسلمين في تلك الولايات حتى فر من جوره وطفياه كثير من المسلمين إلى بلاد النصارى وتنصروا.

ومع أن الفاطميين قبل انتقالهم إلى مصر قاموا ببعض الجهود في سبيل التوسع في أوروبا، إلا أنها كانت محدودة النتائج والأثر، ذلك أنهم بعد أن ثبتوا سلطانهم في صقلية سنة ٣٠٥هـ / ٩١٧م بدأت جيوشهم تغير على الأراضي الإيطالية، ففي سنة ٣٠٦هـ / ٩١٨م هاجمت قلورية، وعادت لمهاجمتها في سنة ٣١٠هـ / ٩٢٢م بقيادة مسعود الفتى الذي غزاها في أسطول من عشرين سفينة واستولى على مدينة أغاثي (Sante Agata) واستباحها^(٢)، وتجدد غزو قلورية مرة أخرى سنة ٣١٢هـ / ٩٢٤م، وفي سنة ٣١٣هـ / ٩٢٥م قاد أبو أحمد جعفر حملة عسكرية على جنوب إيطاليا من صقلية حيث افتتح عدة مدن منها مدينة (واري Oria) وغنم غنائم كثيرة^(٣)، كما قام صابر الفتى الصقلي في سنة ٣١٥هـ / ٩٢٧م بغزو السواحل الإيطالية في ٢٤ سفينة وعاد محملاً بالغنائم، وقام في العام التالي بغزو قلورية في ثلاثين سفينة ففتح تارنت وزحف منها حتى وصل إلى أدرنت وحاصرها وخرب كثيراً من مبانيها واستمر في تقدمه حتى وصل إلى سالرنو فصالحه أهلها على مال ودياج، ثم قصد نابلي فصالحه أهلها على مال وثياب أيضاً^(٤). وفي سنة ٣١٧هـ / ٩٢٩م غزا صابر غزاة الثالثة في أربع سفن، فالتقى في البحر بسبع سفن بيزنطية بقيادة السردغوس، فانهزم البيزنطيون أمامه، وقد نجح صابر في اقتحام مدينة ترمولة (Termoli) في تلك الغزوة وغنم غنائم كثيرة^(٥)، وحيال هذه الهجمات الفاطمية المتكررة

(١) لشبيب أرسلان : المرجع السابق ص ٣٧١ - ٣٧٢ .

(٢) ابن عشاري : المصدر السابق ج ١ ص ٢٦٤ .

(٣) ابن عشاري : المصدر السابق ج ١ ص ٢٧٠ .

(٤) ابن عشاري : المصدر السابق ج ١ ص ٢٧٣ .

على جنوب إيطاليا اضطر حاكم قلورية إلى تهديد دفع الجزية البالغة أحد عشر ألف قطعة ذهبية للخليفة الفاطمي ليكفه عن بلاده، وحذت حذوه كل من سالرنو ونابلي.

وعندما شعر الفاطميون بمعاودة الأسطول البيزنطي لنشاطه في البحار الغربية بمهاجمته لمقل فراكنستيم الإسلامي في بروفانس، أرسلوا أسطولهم سنة ٣٢٣هـ / ٩٣٥م لتثبيت سلطانهم في البحر التيراني، فأغار هذا الأسطول على جزيرتي سردينيا وكورسيكا^(٢)، كما وجه القائم بأمر الله في تلك الآونة مولاه جوهرأ بأسطول إلى جنوة ففتحها واستباحها^(٣)، إلا أن توجهه الفاطميون اهتمامهم إلى المشرق من ناحية، وصراعهم مع أمويي الأندلس من ناحية ثانية، والثورات الداخلية التي واجهوها والتي كادت تعصف بدولتهم ككرة أي يزيد مغلد بن كيداد الخارجي والثورة التي اشتعلت في صقلية بين سنتي ٣٢٦ - ٣٢٩هـ / ٩٣٧ - ٩٤٠م من ناحية ثالثة، ثم كراهية أهالي إفريقية والمغرب ومسلمي الولايات الأورورية للفاطمين ودعوتهم الشيعية كما أسلفنا القول وبالتالي العزوف عن الجهاد تحت لوائهم حتى إن من فقهاء إفريقية من اعتبر أن جهاد هؤلاء أولى من جهاد النصارى من ناحية رابعة، كل هذه الأسباب مجتمعة قلصت دور إفريقية في الجهاد في العهد الفاطمي إلى حد كبير.

وبانتقال الفاطمين إلى مصر سنة ٣٦٢هـ / ٩٧٣م تضاعف هذا الدور أكثر فأكثر، إذ أنهم نقلوا معهم معظم أسطولهم - الذي كان أداة الجهاد الفعالة - إلى المشرق، ولم يتركوا لوالدهم على إفريقية والمغرب يوسف (بلقين) بن زيري إلا عدداً قليلاً من السفن ليس للجهاد وإنما لحماية ولايته من أمويي الأندلس^(٤)، ومع أن بلقين حاول تعويض هذا النقص ببناء أسطول مستقل، فكلف عبد الله بن محمد الكاتب عامله على المهدي بذلك، فشرع هذا في بنائه في ذي الحجة سنة ٣٦٥هـ / ٩٧٦م، إلا أنه واجه صعوبة كبيرة في جمع البحارة

(١) د. أحمد مختار العبادي، د. السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ١٣٨ .

(٢) أرشيبالد لويس : المرجع السابق ص ٢٣٤ وما بعدها.

(٣) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ج ٣ ص ٥٣، شكيب أرسلان : المرجع السابق ص ١٨٢ حاشية ٢، د.

أحمد مختار العبادي ود. السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ١٣٩

(يذكر أن هذا الأسطول كان بقيادة يعقوب بن إسحق). W.Heyd : Op. Cit., I, p.121

(٤) أرشيبالد لويس : المرجع السابق ص ٣١٢ .

اللازمين له مما اضطره إلى حشدهم من أنحاء البلاد بالقوة وزج بمن امتنع منهم في السجن، وفي أول المحرم سنة ٣٦٦ هـ خرج هذا الأسطول من المهدية للغزو، فتعلزت عليه الرياح وأقام البحارة في سفنهم حتى فرغت أزوادهم فذهبوا ما في المراكب من عدة وسلاح وهربوا إلى الساحل^(١)، وشغل الولاة من بني زيري عن الجهاد بما دهمهم من الفتن والمشاكل الداخلية فتوقفت حركته من جديد. وليت سوء الوضع وقف عند هذا الحد إذن ليهان الأمر، ولكن تلك الفتن أنهكت قوى إفريقية مما جعلها هي نفسها تصبح هدفاً للقوى المعادية التي استغلت الأوضاع المتردية فيها وأخذت تتحفز للوثوب عليها وهو ما سنبحثه في الباب الأول من هذه الدراسة.

ولربما يقال إنني قد استعطرت في هذا التمهيد إلى حد قد يكون أبعدني قليلاً عن موضوع البحث، ولكنني رأيت أن هذا التمهيد هو خلفية تاريخية لا بد منها لأبين أن اهتمام الحركة الصليبية بإفريقية لم يخلق فجأة في أواخر القرن الخامس الهجري (الحادي عشر للميلاد)، وإنما كان له جذور تضرب في أعماق التاريخ لتصل إلى أيام الفتح، وأن مكانة إفريقية السامية في نفوس مسيحيي الغرب وبالتالي شعورهم بالأسى لفقدانها وتلاشي المسيحية فيها، ثم الإحساس بالخطر الذي يأتي منها إلى أوروبا إذا بقيت في أيدي المسلمين وهو ما أكدته الحوادث التي تلت فتحها والتي سبق أن أشرت إليها، كل ذلك كان حافزاً هاماً لهذا الاهتمام وعاملاً رئيسياً في التنبه الدائم لنزعة العدوان عليها وتحريكها في نفوسهم باستمرار.

(١) ابن عذاري : المصدر السابق ج ١ ص ٣٢٧ .

مجلد اول

إفريقية والحروب الصليبية
حتى منتصف القرن السابع الهجري
(الثالث عشر للميلاد)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً
وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ .

[سورة التوبة : آية ١٢٣]

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي
عَمَلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ .

[سورة الروم : آية ٤١]

إفريقية والهجوم الصليبي

على غرب العالم الإسلامي

(انقلاب ميزان القوى في غرب البحر المتوسط - بنو زيري وضياع وحدة المغرب العربي

- الفصل إفريقية عن الدولة الفاطمية - هجرة الأعراب الهلالية إلى إفريقية وآثارها -

بدء الهجوم في الغرب : أ - الأندلس. ب - صقلية. ج - إفريقية)

انقلاب ميزان القوى في غرب البحر الأبيض المتوسط :

بالرغم من الصراع الحاد الذي احتدم بين الفاطميين حكام إفريقية والمغرب وأموي الأندلس، ظلت كفة المسلمين هي الراجحة على القوى المسيحية في غرب المتوسط، بحيث إن تلك القوى لم تكن تجرؤ على مهاجمتهم بل وفي أحيان كثيرة لم تكن قادرة على حماية نفسها منهم. ولكن انتقال الفاطميين إلى مصر بغالبية قوتهم البرية والبحرية سنة ٣٦٢هـ / ٩٧٣م، وانشغال أمراء بني زيري ولايتهم على إفريقية والمغرب بالمشاكل والفتن الداخلية والثورات القبلية والمذهبية العديدة التي واجهتهم والتي ستعرض لها شيء من التفصيل فيما بعد، وما واكب ذلك من ضعف مسلمي الأندلس إثر انقضاء عهد الدولة العارمة وانهيار الخلافة الأموية في مطلع القرن الخامس الهجري وقيام دول ملوك الطوائف، كل ذلك فسح المجال لمسيحيي غرب أوروبا لالتقاط أنفاسهم والبدء في تجميع قواهم للمكرّة على العالم الإسلامي.

وجاءت الظروف المواتية لتقدم لهم مساعدة كبيرة في سبيل تحقيق هدفهم المنشود، إذ أنهم تمكنوا منذ أواخر القرن الرابع الهجري (العاشر للميلاد) من تنصير عنصرين بشريين جديدين هما النورمان والمجريون الذين طالما أزعجهم بهجماتهم الخيرية واستنزفوا الكثير من جهودهم، ولم تقتصر أهمية تنصير هذين العنصرين على لإراحة مسيحيي غرب أوروبا من شرهم، بل لإنهما أمدًا أوروبا الغربية بمقاتلين جلد متحمسين لقتال أعداء الكنيسة الكاثوليكية. حدث ذلك في نفس الوقت الذي بدأت فيه المدن البحرية الإيطالية في تطوير قواتها البحرية نظراً لما انتاب الأسطولين الإسلامي والبيزنطي من ضعف، وقد لمت مدينتا بيزا وجنوة بصفة

خاصة أن ثمة مقامات كبيرة يمكنهما جنيها لو غامرتا في البحر، فبدأت أساطيلهما تخترق القرصنة وتعرض للسفن التجارية الإسلامية وتنهيبها، وكان قسم من مقامات هذه القرصنة يخصص لتدعيم هذه الأساطيل وزيادة عدد قطعها، وشجعهما ذلك فتجراتاً وخططاً خطوة أخرى في مغامراتهما البحرية وهي بدء مهاجمة المدن الساحلية الإسلامية كلها واتتهما القرصة المناسبة بفرض نهيبها، ومن أمثلة ذلك تلك الحملة التي قامت بها على مدينة بونة (عنايه) سنة ٤٢٦هـ / ١٠٣٤م الأمر الذي يقدم دليلاً واضحاً على بدء انقلاب ميزان القوى في تلك الآونة لصالح القوى الأوروبية إذ أن هذا الهجوم يعني تحول أوروبا الغربية في صراعها مع المسلمين من الدفاع إلى الهجوم. ولم يفلح مجاهد العامري صاحب أكبر قوة بحرية إسلامية في شرق الأندلس في وقف المد البحري الأوروبي، كما فشل البيزنطيون في ذلك أيضاً، والذين كانوا يحاولون منذ انتهائهم من حروبهم في المجهتين السورية والبلغارية في أوائل ذلك القرن إعادة فرض سيطرتهم على وسط وغرب البحر الأبيض المتوسط، فوجهوا حملة كبيرة للاستيلاء على صقلية سنة ٤٢٩هـ / ١٠٣٨م وأخرى إلى مالطة سنة ٤٣١هـ / ١٠٤٠م ولكن فشلها أكد سيادة المدن البحرية الإيطالية على تلك المنطقة، وكان لذلك أهميته البالغة إذ أنه في نفس الوقت الذي وفر لبلدان غرب أوروبا القرصة التي كانت لازمة لها لتجميع قواها بعد أن أمنت من هجوم المسلمين عليها، وضع في يدها سلاحاً هجومياً فعالاً وأداة ضغط قوي على المسلمين في الجناح الغربي من العالم الإسلامي. وجاء هذا التحول في ميزان القوى مصحوباً ببقعة دينية شملت أوروبا الغربية في تلك الآونة علاوة على عوامل عديدة أخرى هامة ومتشابهة كانت تؤثر بقوة في مجتمعات الأمر الذي يوضح أبعاد الخطر الذي كان قد أخذ يهدد المسلمين. ويؤدي بنا ذلك بالضرورة إلى إلقاء نظرة أشمل وأعمق على أوضاع المسلمين في إفريقية بصفة خاصة والمغرب العربي بصفة عامة كون بلادهم هي العدو المقابل لأوروبا الغربية التي كانت تتحفز للاتقضاض عليهم.

بنو زيوي ونضايح وحدة المغرب العربي :

لم تكد تمضي بضع سنوات على رحيل الفاطميين إلى مصر حتى تفجرت الثورات القبلية والمذهبية في أنحاء عديدة من المغرب العربي، وقد بذل أمراء بني زيري ولائهم على

إفريقية وباقي ممتلكاتهم في المغرب العربي منذ عهد أميرهم الأول بلقين (بلقين) أو (يوسف) بن زيري جهوداً مضنية في سبيل إخماد تلك الثورات التي ما كانت تارها تخبو حتى تشب من جديد، والتي كان من نتائجها أن أخذت قبضتهم تترأخى عن جزء من أرض المغرب في عهد كل أمير من أمرائهم الأربعة الأول. وكانت زناته القبيلة البربرية المشهورة هي ألد خصوم بني زيري الصنهاجيين لما بين القبيلتين من عداوة (في قديم الزمان وحديثه...) وحروب عظيمة وأضرار متصلة وحسائف ظاهرة وكامنة^(١)، فأشعلت الثورة على بلقين والتي استغلها بنو خزرون ملوك مغراوة الزناتيون في نواحي طرابلس، وعندما اشتدت وطأته عليهم ارتحلوا إلى المغرب الأقصى واستأنفوا ثورتهم من جديد، ولما رأى بلقين أن المغرب الأقصى الذي ظل ساحة للصراع الفاطمي الأموي لمدة طويلة قد أخذ يمزج بالفتن زحف إليه زحفه المشهور في سنة ٣٦٩هـ / ٩٧٩م على أمل إعادة بسط نفوذه عليه، ومع أنه في زحفه قضى على العديد من الثوار ودخل فاس واضطر مغراوة إلى اللجوء إلى ساحل سبتة^(٢) وتمكن من إعادة الهدوء النسبي إلى المغربين الأوسط والأقصى بعد عامين قضاها في حروب مستمرة ضد الحلف الأموي الزناتي، إلا أنه مع ذلك لم يتمكن من اجتثاث جلور التمرد والعصيان، فما كاد نبأ وفاته في طريق عودته إلى إفريقية سنة ٣٧٢هـ / ٩٨٢م يصل إلى مسامع خصومه حتى عادوا إلى شق عصا الطاعة فرجع بنو خزرون وبنو يفرن إلى مواضعهم الأولى^(٣) وأشعلوا نار الثورة في كلا المغربين الأوسط والأقصى والتي كان يذكيها أمويو الأندلس، وبذلك ضاعت جهود بلقين عبثاً الأمر الذي أدى إلى انحسار الظل الزيري عن المغرب الأقصى وتركه نهياً للطامعين.

ولم يكن حظ المنصور بن بلقين الذي خلف أباه في الحكم سنة ٣٧٣ - ٣٨٦هـ

(١) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ق ٣ ص ٦٢-٦٣ .

(٢) عند لجوء هؤلاء إلى سبتة استصرخوا المنصور بن أبي عامر في الأندلس فحضر إليهم بنفسه ليستطلع أمرهم، ثم أرسل إليهم عند عودته إلى الأندلس جيشاً كبيراً يقوده جعفر بن يحيى لشد أزهم في حربهم مع بلقين، كما انضم إلى هذا الحلف عدة بطون أخرى من زناته أشعلت نار الثورة في المغرب الأوسط ثم أعلنت نيتها للدولة الأموية في الأندلس سنة ٣٧٠هـ / ٩٨٠م.

(٣) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٧ ص ٣٩ .

(٩٨٣-٩٩٥م) بأفضل من حظ أبيه، فقد استمرت ثورات زناته في كلا المغربين الأوسط والأقصى، ونشبت في عهده عدة ثورات خطيرة مثل ثورة أبي الفهم الكتامي سنة ٣٧٧هـ/٩٨٧م^(١)، وثورة أبي البهار حاكم تاهرت سنة ٣٧٩هـ/٩٨٩م^(٢)، ثم ثورة أبي الفرج الذي ادعى انتسابه إلى الخليفة الفاطمي القائم سنة ٣٧٩هـ/٩٨٩م أيضاً، قضى الشطر الأكبر من سني حكمه في مكافحة الثوار، وبذل أخوه حماد الذي تولى مهمة إخماد عدد من هذه الثورات جهوداً مضنية في سبيل ذلك، ولكنه لم يحقق إلا نتائج جزئية، ومات المنصور في سنة ٣٨٦هـ/٩٩٥م ولما تستقر الأوضاع في إمارته بعد. وبوفاته زادت الثورات حدة وخطورة وامتدت في عهد ابنه وخليفته باديس (٣٨٦-٤٠٦هـ/٩٩٥-١٠١٥م) إلى إفريقية نفسها حتى اضطربت بالفتنة على حد تعبير ابن خلدون^(٣)، وأخذ العديد من زعماء القبائل في المغرب العربي كل يحاول أن يؤسس لنفسه ملكاً يحد سيفه وكان من أشهر هؤلاء زيري بن عطية الزناتي^(٤) وقلل بن سعيد الزناتي^(٥) أيضاً الذي انقلب على باديس وثار عليه في أشير

(١) انظر ابن عذارى : المصدر السابق ج ١ ص ٢٤١ وما بعدها.

(٢) انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج ٧ ص ٤٤ وما بعدها.

(٣) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٧ ص ٤٠ .

(٤) كان زيري بن عطية مصافياً للمنصور بن بلقين وقد أسهم بنصيب وافر في القضاء على ثورة أبي البهار، ثم انقلب على بني زيري وحالف أمويي الأندلس، وأصبح رجلهم القوي في المغرب الأوسط، ولكنه عاد وانقلب على المنصور بن أبي عامر متعللاً بأنه ناصر الخليفة الأموي المؤيد الذي كان المنصور قد فرض ما يشبه الحجر عليه، فأرسل إليه المنصور جيشاً بقيادة واضح الفتي لإخضاعه ثم أوقفه بجيش آخر بقيادة ابنه عبد الملك المظفر بن المنصور الذي انتصر على زيري واضطره إلى اللجوء إلى الصحراء حيث لحقت به فلول جيشه وبعض بطون زناته، وعندما رأى اختلال أوضاع باديس زحف على تاهرت وبها يطوقت بن بلقين، ولما علم باديس بذلك وجه إليه جيشاً بقيادة محمد بن أبي العرب كما أوعز والي قلقل بن سعيد والي أشير لمساندته وانضم إليهما حماد بن بلقين عم باديس ولكن زيري انتصر عليهم واستولى على ميسكرهم فقتل شوكتهم، وانضم إليه بعض أعمام باديس وبدأ يقض مضجع الأمير الزيري، ثم كتب إلى المنصور بن أبي عامر يسترضيه ويعين ولأه له ويطلب منه أن يولييه المغرب الأوسط فقبل، واشتد بذلك خطر حركته على باديس، وزحف إلى أشير ومات أثناء حصاره لها وسار ابنه المعز على نفس سياسته، وبقي على اتصاله بالأمويين حتى انهيار دولتهم في الأندلس فاستقل بأمره. انظر: ابن خلدون : المصدر السابق ج ٧ ص ٣١ وما بعدها.

(٥) قلقل بن سعيد بن خزرون هو من بيت زيري بن عطية كان أبوه قد لجأ إلى المنصور بن بلقين=

وهزم الجيوش التي أرسلت لإخضاعه وهدد القيروان نفسها، فلم ير باديس بداً من الخروج لقتاله بنفسه في حين عهد إلى عمه حماد بن بلقين بالقضاء على ثورة أصمامه ماكس وزيري وغرم ومقتين التي انفجرت في تلك الآونة لتزيد من حراجة موقف باديس. والتقى باديس بفلل بن سعيد بالقرب من مرماجة - تقع حالياً على الحدود الجزائرية التونسية - في أواخر سنة ٣٨٩هـ / ٩٩٩م وانتصر عليه وأسرع بإرسال البشير إلى القيروان ليطمئن أهلها الذين (كان الإرجاف أخذ منهم المآخذ وفر كثير منهم إلى المهديّة وشرعوا في عمل الدروب بما كانوا يتوقعون من فلل بن سعيد)^(١)، ولكن هذه الهزيمة لم تقض على ثورة فلل بل كانت له مع باديس وقعات عديدة^(٢) حتى استطاع أخيراً أن يملك طرابلس ويستقر فيها^(٣) حيث أخذ يقض منها هو وخلفاؤه من أهل بيته مضجع الدولة الزيرية.

وأما حماد بن بلقين الذي كان قد اشترط على ابن أخيه باديس أن يوليه على كافة البلاد التي ينتزعها من الثوار ووافقته باديس على ذلك^(٤)، فإنه زحف إلى المغرب الأوسط وأحمد الثورات فيه^(٥)، كما قضى على ثورة إخوته قتل ماكس وأرغم زاوي على الرحيل إلى

مغاضباً للحسن بن عبد الوحد والي المنصور بن أبي عامر على المغرب نظراً لتفضيله مقاتل وزيري ابني عطية عليه، فأكرم المنصور وفادته وعقد له علي طبة، وعندما توفي من سته في القيروان أمر المنصور بإعداد جنازة فخمة له وكفنه بسبعين ثوباً مبالغاً في إكرامه ووفد ابنه فلل بن سعيد على المنصور بعد ذلك فأكرمه وعقد له على عمل أبيه ووصله بثلاثين حمل من المال وزوجه من ابنته، وعندما تولى باديس الإمارة أقر فلل على عمله، وبقي كذلك من المنزلة الرغمية لدى باديس إلى أن ثار قريه زيري بن عطية وهزم جيش باديس، ودبت الكراهية والريبة بين الصنهاجيين قوم بني زيري وقبيلة زناتة في إفريقية قوم فلل وبدأت الشكوك تثار حول كل منهما تجاه الآخر حتى انتهى الأمر بإعلان فلل لثورته. انظر ابن خلدون: المصدر السابق ج ٦ ص ١٥٩ و ج ٧ ص ٤٠ وما بعدها.

(١) ابن خلدون: المصدر السابق ج ٧ ص ٤٠-٤١.

(٢) ابن أبي دينار: المصدر السابق ص ٨٠.

(٣) ابن خلدون: المصدر السابق ج ٧ ص ٤٠-٤١، انظر كذلك ابن أبي دينار: المصدر السابق ص ٨٠-٨١، محمد بوراس الجري: مؤنس الأحية ص ٦٢-٦٣.

(٤) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ج ٣ ص ٦٩-٧٠.

(٥) يزيد من التفصيل عن هذه الثورات انظر ابن خلدون: المصدر السابق ج ٧ ص ٤٦ وما بعدها ابن عذاري: المصدر السابق ج ١ ص ٢٤٩ وما بعدها.

الأندلس سنة ٣٩٠هـ/ ١٠٠٠م^(١)، وبدأ يعيد الهلع إلى المغرب الأوسط، ولكن باديس كان مع عمه حماد هذا كالمستجير من الرمضاء بالنار، إذ لم يلبث حماد أن شرع في التأهب للاستقلال بولايته الأمر الذي أثار شكوك باديس، وعندما تبين نية عمه نشبت الحرب بين الطرفين، ولما هزم حماد جيشاً أرسله باديس لحربه بقيادة هاشم بن محمد بالقرب من مدينة الكاف، قطع حماد كل صلة له مع باديس^(٢)، ولم يكتف بذلك بل خلع طاعة الفاطميين وأعلن تبعيته للدولة العباسية، فكان ذلك بداية لعداوة بين الفرعين الزيريين دامت حتى انقضاء عهد الدولتين، ويصف ابن الأثير هذه العداوة بقوله عن بني حماد: (... وفي نفوسهم من الضغائن والحقود من باديس ومن بعده من أولادهم، يرثه صغير عن كبير)^(٣)، وبذلك انسلخ المغرب الأقصى والأوسط عن إفريقية، وعلى هذا يمكننا القول بأن المغرب العربي قبيل وفاة باديس أي منذ مطلع القرن الخامس الهجري (الحادي عشر للميلاد) قد فقد وحدته وتمزق إلى كيانات عديدة متناحرة، إذ أصبح المغرب الأقصى مقسماً بين عدة متفلسين تغلب (كل منهم على موضعه كما فعل ملوك الطوائف بالأندلس)^(٤) وأسس بنو يعلى إمارة لهم في تلمسان^(٥)، واستأثر الحماديون بباقي المغرب الأوسط، بينما انفرد بنو خزرون الزناتيون بظرابلس ونواحيها^(٦) واقتصر سلطان باديس على ما تبقى من إفريقية، ومات في سنة ٤٠٦هـ/ ١٠١٥م بالمحمدية أثناء حروبه مع عمه حماد^(٧) بعد حياة لم يعرف فيها الراحة

(١) يحيى بو عزيز : المرجع السابق ص ١٠٥ .

(٢) انظر ابن خلدون : المبرج ٦ ص ١٧٢ وما بعدها، ابن الخطيب : أعمال الأعلام ق ٣ ص ٧٢، ابن أبي الضياف : المصدر السابق ص ١٦٨، حسن حسني عبد الوهاب : خلاصة تاريخ تونس ص ١٠٨، شارل أندري جوليان : المرجع السابق ج ٢ ص ٩٠ .

(٣) ابن الأثير : المصدر السابق ج ١٠ ص ٤٤-٤٥ .

(٤) ابن عذاري : المصدر السابق ج ٢ ص ١٠، د. عبدالله العروي : تاريخ المغرب محاولة في التركيب ص ١٤٢ .

(٥) عن هذه الإمارة انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج ٧ ص ٤٤ .

(٦) عندما امتلك فلعل بن سعيد ظرابلس ونواحيها اعترف بأمومي الأندلس وأرسل بطاعته إلى الخليفة محمد بن هشام وضرب الدنانير باسمه ولكنه مات سنة ٤٠٠ هـ قبل عودة رسله من قرطبة فخلفه أعوه (ورو) فسار على نفس سياسة أخيه حتى انهارت الخلافة الأموية في الأندلس.

(٧) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ق ٣ ص ٧٢ .

والاستقرار قضاها في مكافحة الأعداء على حد تعبير ابن أبي دينار^(١).

وخلف باديس في الحكم ابنه المعز الذي كان طفلاً لا يتعدى عمره الثمانية أعوام، فزادت الثورات والفتن في عهده حدة فكان عليه أن يحارب في جبهتين في آن واحد عمه حماد في الغرب وبني خزرون في الشرق، وكثر القائمون عليه حتى إن زناته هددت الوجود الزيري نفسه تهديداً خطيراً مرتين زحفت فيهما على القيروان إحداهما في سنة ٤٢٠ هـ / ١٠٢٩ م، يقول ابن عذارى في حوادث تلك السنة (زحفت جموع زناته تريد حضرة القيروان طمعاً منها في الملك)^(٢) فخرج المعز إلى المهاجمين بنفسه وهزمهم بعد قتال مرير، وثانيتها في سنة ٤٢٧ هـ / ١٠٣٥ م حينما زحفت جموعها مرة أخرى وهزمت جيش المعز ووصلت في هذه المرة إلى ما بين المنصورة والقيروان^(٣) وثبتت أمام جيش المعز حتى كاد يكون الفناء بين الطرفين، ولم يتمكن المعز من إبعاد خطرهم عن القيروان إلا في العام التالي حيث انتصر عليهم انتصاراً حاسماً في سنة ٤٢٨ هـ / ١٠٣٦ م وقتل منهم عدداً كبيراً^(٤)، ولكن ذلك الانتصار لم يمنع زناته من معاودة الثورة، إذ تجددت ثورتها في نواحي طرابلس سنة ٤٣٠ هـ / ١٠٣٩ م وكانت من الحدة بحيث اضطرت المعز للاستنجاد بعبدالله ابن حماد حيث كانت العلاقات بين الطرفين تمر آنذاك في فترة وئام بعد أن تزوج عبدالله بأم العلو أخت المعز فحضر عبدالله بنفسه نجدة للمعز ولكن الزناتين انتصروا عليهما وقتلوا عبد الله وأسروا زوجته أم العلو^(٥)، وكلف إخماد تلك الثورة للمعز كثيراً من الجهد، وعادت زناته للثورة ثانية سنة ٤٣٣ هـ / ١٠٤١ م فأرسل المعز ابنه نزار على رأس جيش كبير تمكن من إخمادها، وقتل كثيراً من الثوار حتى أفضح في سفك الدماء^(٦). أما علاقته بالحماديين فبعد فترة الوئام القصيرة التي أشرنا إليها آنفاً تجددت الفتنة بين الطرفين سنة ٤٣٢ هـ / ١٠٤٠ م فخرج المعز لقتالهم بنفسه وحاصر القلعة مدة ستين دون أن يتمكن من دخولها

(١) ابن أبي دينار : المصدر السابق ص ٨٢ .

(٢) ابن عذارى : المصدر السابق ج ١ ص ٢٧٤ .

(٣) ابن عذارى : المصدر السابق ج ١ ص ٢٧٥، انظر كذلك الشجاني : المصدر السابق ص ١٩ .

(٤) انظر ابن عذارى : المصدر السابق ج ١ ص ٢٧٥ .

(٥) حسن حسني عبد الوهاب : فهارس التونسيات ص ٧٩ .

(٦) ابن عذارى : المصدر السابق ج ١ ص ٢٧٦ .

فاضطر للعودة عنها^(١).

أما الفتن المذهبية التي واجهها المعز فقد استهلت بثورة أهل القيروان بالشعبة في أوائل عهده (لأنهم كانوا يتجاهرون بمذهبهم الحبيث فقتلت نساؤهم وأولادهم وكانت فتنة بالقيروان)^(٢) وامتدت هذه الفتنة إلى المهدية وتونس وباجة وغيرها من مدن إفريقية فكانت معجزة عظيمة راح ضحيتها عدد كبير من الشيعة في إفريقية قدر من قتل منهم في القيروان وحدها بما يزيد عن الثلاثة آلاف نفس^(٣)، ولم يكف أهل إفريقية بعد ذلك عن تبرمهم بالمذهب الشيعي (حتى قطع أهل القيروان صلاة الجمعة فراراً من دعوتهم وتبديعاً لإقامتها بأسمائهم - خلفاء الفاطميين - فكان بعضهم إذا بلغ المسجد قال سرأ اللهم اشهد، اللهم اشهده ثم ينصرف فيصلي ظهراً أربعاً إلى أن تنأى الحال حتى لم يحضر الجمعة من أهل القيروان أحد فقطعت الجمعة دهرأ)^(٤)، وكانوا يثورون بالشيعة كلما سنحت لهم الفرصة. كما قام الخوارج بالثورة أكثر من مرة، فيذكر الوسياني أنهم ثاروا في جبل نفوسة فأرسل المعز إليهم جيشاً تمكن من إخضاعهم بعد مقاومة شديدة^(٥)، كذلك يذكر ثورة أخرى قام

(١) ابن عذاري المصدر السابق ج ١ ص ٢٧٥ .

(٢) ابن أبي دينار : المصدر السابق ص ٨٢ .

(٣) تزعم هذه الحركة كبار فقهاء المالكية في إفريقية مثل الشيخ الحسن بن خلدون البلوي في القيروان والشيخ محرز بن خلف في تونس ونظرائهما، وقد عالج المعز هذه الفتنة بأن دبر اغتيال الشيخ حسن بن خلدون حيث هجم عامل القيروان وشرطه عليه في مسجده وقتله، فندبت الفوضى في القيروان إثر ذلك، وبخرج العبيد العامة في المتصورة ونهبوا حوانيت التجار، وألقيت النار في الأسواق الكبيرة ففعل الناس بأنفسهم عن مقتل الشيخ حسن بن خلدون، ثم تفاقت الفتنة فاضطر عامل القيروان إلى الإصرار لتهذبة الوضع فأبى برجلين زعم أنهما هما اللذان قتل الشيخ ابن خلدون وقتلها حتى هدأت الفتنة. لمزيد من التفصيل انظر الدباغ : المصدر السابق ج ٣ ص ١٥٣ وما بعده، ابن عذاري : المصدر السابق ج ١ ص ٢٦٨، ابن أبي دينار : المصدر السابق ص ٨٢، ابن مقديش الصفاسي : نزهة الأنظار، مخطوط المكتبة الوطنية بتونس رقم (10380) ورقم ١٣١ .

(٤) ابن عذاري المصدر السابق ج ١ ص ٢٧٧ .

(٥) الوسياني : كتاب السير، مخطوط دار الكتب المصرية رقم (٩٠٣٠) (خ) ورقم ٨٠-٨١، انظر تعريف الدكتور سعد زغلول عبد الحميد بهذا المخطوط في بحثه (هامش على مصادر تأريخ الأئمة الأباضية في المغرب)، أعمال المؤتمر الأول لتاريخ المغرب وحضارته، الجامعة التونسية، مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية، تونس سنة ١٩٧٩، ج ١ .

بها بنو درجين في القلعة فأرسل إليهم المعز قائده ابن قطلو ققضى عليها وقتل ما يزيد عن (١٥٠٠) رجل من التوار كان من بينهم الشيخ أبي يعقوب أحد زعمائهم البارزين^(١)، وتجددت ثورة الخوارج سنة ٤٣١هـ / ١٠٣٩م حيث ثاروا في جزيرة جربة فأرسل المعز أسطولاً إلى الجزيرة قضى على الثورة وقتل العديد من زعمائها مثل أبي عمرو النيلي الزواغي، وأبي محمد كموس، وأبي صالح البهراسني، وأبي موسى بن السمح^(٢).

وخلاصة القول أن هذه الثورات والفتن مزقت المغرب العربي وأفقدته وحدته، وأنهكت قوى إفريقية بصفة خاصة واستنزفت طاقاتها وحدت من مقاومتها للخطر القادم من الشرق والمتمثل في هجرة الأعراب الهلالية إليها والتي زادت من تردي الأوضاع فيها.

انفصال إفريقية عن الدولة الفاطمية :

لم تكن فكرة انفصال إفريقية عن الدولة الفاطمية التي نفذت في مطلع الأربعينات من القرن الخامس الهجري (الحادي عشر للميلاد) فكرة مرتجلة أو بنت ساعها، بل تعود إلى ما قبل إعلان المعز بن باديس لها بوقت طويل قد يرجع إلى زمن انتقال الفاطميين منها إلى مصر، ودليلاً على ذلك ما رواه ابن عذاري من أن المنصور ثاني أمراء بني زيري قال لأعيان القيروان الذين وفدوا عليه لتهنئته بالإمارة : (... وما أنا في هذا الملك ممن يولى بكتاب ويعزل بكتاب، لأنني ورثته عن آبائي وأجدادي، وورثوه عن آبائهم وأجدادهم حمير)^(٣) وإذا كان هذا

(١) الوسياني : المصدر السابق ورقة ٨٤

(٢) الوسياني : المصدر السابق ورقة ١٢٥، انظر كذلك التجاني : المصدر السابق ص ١٢٥، محمد بوراس الجربي : المصدر السابق ص ٦٤-٦٥، د. سعد زغلول عبد الحميد هاشم على مصادر تاريخ الأئمة الأباضية في المغرب، ص ٥٩ .

(٣) ابن عذاري : المصدر السابق ج ١ ص ٢٤٠ . وأما ذكر أجداده حمير الذي ورد في النص، فإن صنهاجة التي ينتمي إليها أمراء بني زيري قد ادعت أنها عربية نسبها في حمير ملوك العرب في الجاهلية، وكان بنو زيري يفاخرون بهذا النسب سواهم من البربر، وقد مدحهم الشعراء به، فقد قال ابن رشيق بمدح المعز بن باديس :

يا ابن الأعره من أكابر حمير وسلالة الأملاك من قحطان

(انظر أحمد بن عامر : الدولة الصنهاجية ص ٨٣). وقد ذكر العديد من المؤرخين نسب بني زيري=

الانفصال لم يتم قبل عهد المعز فإن ذلك يعود إلى عدة أسباب أهمها أن الدولة الفاطمية كانت لا تزال في طور القوة وليس في إمكان بني زيري الوقوف في وجهها، ثم إن الدولة الأموية في الأندلس كانت تمر هي الأخرى في دور صحوة في عهد المنصور بن أبي عامر وابنه المظفر، وأطماعها في المغرب العربي لم تكن خافية على أحد خاصة وأن قبيلة زناتة العدو اللدود لبني زيري كانت تقوم بدعوتهم في المغرب، فليس من الحكمة أن يضع بنو زيري أنفسهم بين نارين إذا انفصلوا عن الفاطميين في وقت كانوا فيه يجابهون الأمويين وأحلافهم، ولم يكن في نيتهم الاتصال بالأمويين لأنهم كانوا لا يريدون استبدال سيد بآخر، هذا بالإضافة إلى احتمال استمرار فقدانهم تأييد شعبيهم السني لهم إذا قاموا بذلك لأن الخلافة العباسية كانت في نظر هذا الشعب هي الخلافة الشرعية التي أجمع عليها جمهرة السنة وليست الأموية في الأندلس.

أما في عهد المعز بن باديس فقد تغير الوضع، فالخلافة الأموية كانت قد انهارت وتمزقت الأندلس إلى دويلات الطوائف، وبالتالي زال خطرهما عن الزيريين، ثم إن الخلافة الفاطمية كانت هي الأخرى قد دخلت في طور الضعف والانحلال، ولم يكن بإمكانها المغامرة بإرسال حملة عسكرية إلى إفريقية لإعادة بسط نفوذها عليها، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية فإن الفتن والثورات التي استنزفت قوى الدولة الزيرية خاصة في عهد باديس وابنه المعز قد فرضت على الأخير العمل على تدعيم جبهته الداخلية بتحقيق رغبة معظم شعبي في نبذ الدعوة الفاطمية. وينبغي أن لا يتبادر إلى الذهن أن الانفصال كان بدافع الخلاف المذهبي فقط، بل هو بالأحرى كان خطوة سياسية كان هذا الخلاف أحد مبرراتها، بدليل أن المعز بن باديس أراد ركوب موجة السياسة إلى أبعد الحدود ففكر في إعلان نفسه خليفة ثالثاً في العالم الإسلامي يقف على قدم المساواة مع خليفتي بغداد والقاهرة^(١)، ولم يثنه عن عزمه إلا أحد مستشاريه الذي نصحه بصرف النظر عن هذه الفكرة لضعف الاحتمال في وجود

سفي حمبر، مثل العماد الأصفيهاني في الحريئة، وعنه نقل ابن خلكان (وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٧١-٢٧٣)، وعن ابن خلكان نقل الوزير السراج (المصدر السابق ج ١ ق ٤ ص ٩٤٠)، كما ذكره أبو المصنف (المصدر السابق ج ٥ ص ١٩٨)، وقد أنكر ابن خلدون وغيره صلة صنهاجة بحمبر كما أنكروا صلة نسب زناتة بقيس عيلان.

(١) محمد بن عبد الجليل : كيف قاومت الملكية الطبع من أول عهد الدولة الزيرية إلى عهد المعز بن =

التأييد الكافي لها. كما أنه لو كان هذا الانفصال مذهبياً ونتيجة لاحتجاج المعز برأي أهل السنة بتأثير من أبي الفضل عبد الواحد بن عبد العزيز التميمي البغدادي كما يقول الضبي^(١)، أو من مؤدبه ثم وزيره ابن أبي الرجال الذي دله على مذهب مالك وعلى السنة والجماعة كما يقول ابن عذاري^(٢)، لما دبر اغتيال الشيخ الحسن بن خلدون الذي تزعم حركة قتل الشيعة في القيروان ولما أمر بقتل الشيخ محمد بن عبد الصمد الواعظ المعروف الذي كان يحرض على قتل الشيعة^(٣)، وأخيراً وليس آخراً لما أعاد حفيده يحيى بن عجم اعترافه بالتبعية للدولة الفاطمية فيما بعد كما سيذكر في موضعه.

وأما متى حدث هذا الانفصال فذلك موضع خلاف بين المؤرخين، فابن عذاري يروي عن هذا الأمر ثلاث روايات مختلفة يقول في الأولى أنه حدث سنة ٤٣٣هـ / ١٠٤١م^(٤) ويذكر في الثانية أن المعز قطع الخطبة للخليفة الفاطمي وأمر بالدعاء للخليفة العباسي على منابر إفريقية سنة ٤٤٠هـ / ١٠٤٨م^(٥)، ومفاد الثالثة أنه لبس السواد شعار العباسيين وكساه رجال دولته ودعا للقائم العباسي في سنة ٤٤٣هـ / ١٠٥١م^(٦) في حين يذكر ابن خلدون أن المعز قطع أسماء الخلفاء الفاطميين من الطرازات والرايات وبايع للقائم العباسي (وخطبه ودعا له على منابر سنة سبع وثلاثين وبعث بالبيعة إلى بغداد)^(٧) ويقول في موضع آخر إن المعز قطع دعوة الفاطميين سنة ٤٤٠هـ / ١٠٤٩م^(٨)، بينما يذكر ابن الأثير أن ذلك كان سنة ٤٣٥هـ / ١٠٤٣م^(٩)، وجعله ابن الخطيب سنة ٤٤١هـ / ١٠٤٩م^(١٠)، ويروي أبو المحاسن

=بإدريس الصنهاجي، بحث منشور ضمن أعمال الملتقى التونسي الإسلامي، ص ١٤-١٥.

- (١) الضبي: بقية الملتقى ص ٩٧-٩٨.
- (٢) ابن عذاري: المصدر السابق ج ١ ص ٢٧٣.
- (٣) انظر الدباغ: المصدر السابق ج ٣ ص ١٩٠ وما بعدها.
- (٤) ابن عذاري: المصدر السابق ج ١ ص ٢٧٥.
- (٥) ابن عذاري: المصدر السابق ج ١ ص ٢٧٧.
- (٦) ابن عذاري: المصدر السابق ج ١ ص ٢٨٠.
- (٧) ابن خلدون: المصدر السابق ج ٦ ص ١٤.
- (٨) ابن خلدون: المصدر السابق ج ٦ ص ١٥٩.
- (٩) ابن الأثير: المصدر السابق ج ٩ ص ٢١٧ وص ٢٣٦.
- (١٠) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ج ٣ ص ٧٣، انظر كذلك ابن أبي الضياف المصدر السابق=

روايتين عن ذلك دون أن يرجع إحداهما على الأخرى فيقول أن المعز قطع الخطبة للفاطمين سنة ٤٤٣هـ / ١٠٥١م (وقبل سنة خمس وثلاثين)^(١)، أما الدباغ فيذكر أن المعز تبرأ من الدعوة الفاطمية وصرح بذلك على المنابر في مستهل شهر صفر سنة ٤٣٨هـ / ١٠٤٦م^(٢)، وحدد المؤرخ الإنجليزي لين بول (S.Lane Poole) تاريخ الانفصال بسنة ٤٣٨هـ / ١٠٤٦ - ١٠٤٧م معتدلاً في ذلك على آخر عملة نقدية تحمل اسم الخليفة الفاطمي ضربت في مدينة المنصورة^(٣)، ويرجع الدكتور أحمد مختار العبادي بأن ذلك كان في سنة ٤٤٣هـ / ١٠٥١م اعتماداً على ما ورد في النسخة الخطية من كتاب (اتعاظ الخنقا) للمقرئ المحفوظة في مكتبة أحمد الثالث في استانبول (لوحة رقم ٨٨)^(٤).

وحال هذا الاختلاف يصعب على الباحث التوصل إلى رأي محدد حول هذا الموضوع، والذي أراه هو أن قول برنجفك في أن هذا الانفصال قد تم بالتدريج هو الأقرب إلى الصواب مع أنه لم يقدم الأدلة التي استند إليها في هذا الرأي^(٥) مع وجود عدة منها سأتعرض لها بعد قليل، لقد استغرق هذا الانفصال التدريجي في اعتقادي مدة تقارب السبع سنوات تبدأ من سنة ٤٣٥هـ / ١٠٤٣م، والدليل على ذلك هو أنه يتضح من روايات عديدة أن المعز كان يرأس أبا القاسم أحمد بن علي الجرجاني الوزير الفاطمي ويلمح له بتميره وضيقه بالفاطمين ويمتيله إلى جانبه ليشير شكوك الخليفة الفاطمي في وزيره فيوقع به لما كان يخشاه من شره نظراً لأنه كان (أحد رجال الدنيا سيامة ودهاء وبعد غور ونفوذ فكرة) على حد تعبير التجاني^(٦)، وينبؤ أن الجرجاني فهم ما كان يعتزم المعز القيام به

= من ١٧٢، الباجي المصعدي: الخلاصة النقية ص ٤٦.

(١) أبو الحسن: المصدر السابق ج ٥ ص ٢، و ص ٥٠.

(٢) الدباغ: المصدر السابق ج ٣ ص ١٧٨.

(٣) S. Lane Poole: A History of Egypt in the middle Ages, p. 18.

(٤) د. أحمد مختار العبادي: أعمال الأعلام لابن الخطيب ق ٣ ص ٧٣ تعليق ٢، انظر كذلك د. أحمد مختار العبادي: سياسة الفاطمين في المغرب والأندلس، بحث في صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمرسيد عدد سنة ١٩٥٨.

(٥) M.M.A. Basset: Initiation a la Tunisie, p. 87

(٦) التجاني: المصدر السابق ص ٢١.

فكتب إليه يحثه على الاستمرار في الطاعة^(١)، ولما كان الجرجاني قد توفي سنة ٤٣٦هـ / ١٠٤٤م^(٢)، فإن من المفروض أنه تكون تلك المراسلات التي كانت استهالة الانفصال قد تمت قبل تلك السنة ولا يستبعد أن يكون قد بدأ في نفس ذلك الوقت بمراسلة الدولة العباسية، ولا بد أن يكون الفاطميون قد بدأوا يرتابون في المعز وعلموا باتصاله بالعباسيين فحاولوا خلق المتاعب له للتخلص منه أو لإعادته إلى جادة الصواب على الأقل، فأرسلوا أحد دعائهم إلى قبيلة كتامة استطاع أن يحرضها على المعز فأعلنت عليه الثورة، ولكن المعز أنقش هذه الخطة بأن قمع تلك الثورة بسرعة، ولما عادت للثورة بعد ذلك بقليل قضى عليها بعنف ملحوظ، ويؤكد ابن خلدون ما ذهبنا إليه بقوله : (... وقتل دعاة الرافضة يومئذ فامتعض لذلك خلفاء الشيعة بالقاهرة وخاطبه وزيرهم أبو القاسم الجرجاني - الجرجاني - محذراً وهو يراجع بالتعريض لخلفائه والمزج فيهم حتى أظلم الجو بينه وبينهم إلى أن انقطع الدعاء لهم سنة أربعين وأربعمائة على عهد المستنصر وأحرق بنوده ومحا اسمه من الطرز والسكة^(٣)، ويؤيد ذلك ما ذكره ابن السمع بقوله : (فكان المعز لا يزال ينحي على بني عبيد وبلعنهم خفية ويؤذي أشياعهم ثم آل أمره إلى أن صرح بلعنهم على المنابر وقتل أشياعهم المرة بعد المرة)^(٤)، ثم ابن أبي دينار بقوله : (وفي سنة خمس وثلاثين وأربعمائة أظهر الدعوة لبني العباس وورد عليه عهد من الإمام القائم بأمر الله العباسي وفي سنة أربعين وأربعمائة قطع خطبة بني عبيد وقطع بنودهم وأحرقها بالنار)^(٥). وأما عن سنة إعلان الانفصال النهائي فلنأتي أرجح أن تكون هي سنة ٤٤٣هـ / ١٠٥١م أي بعد تولي الحسن بن عبد الرحمن اليازوري منصب الوزارة في الدولة الفاطمية والذي تولاها سنة ٤٤٢هـ / ١٠٥٠م، ذلك لأن اليازوري هو الذي كان وراء الهجرة الهلالية إلى إفريقية، هذه الهجرة التي مثلت رد الدولة الفاطمية على هذا الانفصال كما سيأتي ذكره، ومن المستبعد أن

(١) التجاني : المصدر السابق ص ١٩ .

(٢) التجاني : المصدر السابق ص ٢١ .

(٣) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ١٥٩ .

(٤) ابن السمع : المصدر السابق ص ١٨٤ .

(٥) ابن أبي دينار : المصدر السابق ص ٨٣ .

تمسكت الدولة الفاطمية وتغفل الرد على المعز لو تم انفصاله النهائي عنها قبل تلك السنة لحين تولي اليازوري الوزارة، ولذلك فإنني أرى أن الروايات التي ذكرت أن ذلك الانفصال تم سنة ٤٤٣هـ / ١٠٥١م والتي أشرت إليها آنفاً هي الأقرب إلى الصواب.

ويحلل ابن مقديش الصفاقسي سبب هذا التدرج في الانفصال بقوله : (ولم يبق المعز من آثار بني عبيد إلا أسماءهم على السكة والبنود فسأله أبو عمران الفاسي عن ذلك فاجتذر بالخوف على الحجاج لبيت الله الحرام والمسافرين يعني لو أزال ذلك من السكة، إما يقتل أو أخذ مال أو منع الطريق أو غير ذلك)^(١). وكانت طوال تلك الفترة تدور حرب باردة بين الطرفين تتمثل في رسائل التهديد من قبل الفاطميين للمعز، ومحاولة إثارة المتاعب في وجهه، وردود تفاخر واستعلاء من المعز^(٢). ولم يتأخر رد الفاطميين على المعز فرموه بالأعراب الهلالية^(٣).

(١) ابن مقديش الصفاقسي : المصدر السابق ورقة ١٣١ .

(٢) من ذلك ما ذكره ابن مقديش (المصدر السابق ورقة ١٣١) والوزير المراج (ج ١ ق ٤ ص ٩٤٠) من أن المستنصر الفاطمي أرسل إلى المعز رسالة جاء فيها : (هلا اقتضيت أثر آباءك في الطاعة والولاء) فرد المعز عليها برسالة جاء فيها : (إن آباءي وأجدادي كانوا ملوك المغرب قبل أن يملك أسلافك ولهم عليهم من الحرم أعظم من التقديم ولو أخروهم لتقدمهم بأسيانهم).

(٣) أطلق على هؤلاء الأعراب اسم الهلالية من باب تسمية الكل باسم الجزء لشهرته والحقيقة أنهم كانوا ينتمون إلى قبيلتين من قبائل الحجاز هما هلال التي كانت تسكن جبل زغران بالقرب من الطائف وسليم التي كانت تقيم بالقرب من المدينة. وأغلب الظن أن الصفات المشتركة كانت تجمع بينهما وعززت ذلك أواصر المصاهرة بينهما بحيث تحولت إلى تماسك حيوي ومصيري فكانتا معاً في الحل والترحال حتى نسبهما العديد من المؤرخين إلى أصل واحد. وقد انضمنا إلى القرامطة في أوائل القرن الرابع الهجري وارتحلنا مع قواتهم إلى الشام، وحينما وقع الصدام بين القرامطة والفاطميين والذي انتهى بهزيمة القرامطة، أعجب الخليفة العزيز بالله الفاطمي بشجاعة الهلالية فرغهم في الإقامة بمصر ليستفيد منهم في حروبه فأسكن قسماً منهم في الصحراء الشرقية والقسم الآخر في الصعيد، ولكنهم لم يخلدوا للسكنية والعيش بسلام فكانوا كثيراً ما يعتدون على جيرانهم ويعيثون الفساد في النواحي المجاورة لهم حتى تسبوا في كثير من المتاعب للفاطميين وكان بعد ذلك ما كان من أمر هجرتهم إلى إفريقية (انظر د. عبدالله هلام : الدولة الموحدية في عهد عبد المؤمن بن علي، ص ٢٠٢ حاشية ١)

هجرة الأعراب المالكية إلى إفريقية وآثارها :

كان أسلوب الفاطميين في الانتقام من المعز بن باديس أسلوباً فذا حيث إنهم حققوا أكثر من هدف دون أن يكلفهم ذلك شيئاً، فقد أشبعوا رغبتهم في الانتقام، كما تخلصوا من شر هؤلاء الأعراب الذين طالما أزعجهم بإعائتهم الفساد في صعيد مصر، ولعل ذلك كان هو المكسب الرئيسي للفاطميين، فأغلب الظن أنهم كانوا يعلمون مسبقاً أن هؤلاء الأعراب لن يعيدوا إفريقية لهم، وأغلب الظن أيضاً أنهم كانوا يعلمون ما ستؤول إليه الحال فيها من التسيب والفوضى لما عرفوه عن هؤلاء من عدم الانضباط وتعلقهم بالزراعة الاستقلالية. ومن أهم ما يلاحظه الباحث حول موضوع هذه الهجرة هو اختلاف المؤرخين في الوزير الفاطمي الذي كان وراءها، إذ يذكر ابن عذاري أن هذا الوزير كان الجرجاني الأنفي الذكر الذي ينسب إلى بلدة جرجاريا بالعراق^(١)، ويؤيده في ذلك كل من ابن الخطيب^(٢)، وابن الشماخ^(٣)، في حين يستبعد ابن خلدون أن يكون الجرجاني ويرى أنه الحسن بن عبد الرحمن البازوري^(٤)، ويؤيده في ذلك ابن مقديش الصفارقي^(٥)، بينما يذكر التجاني اعتماداً على رواية ابن بسام في الذخيرة أنه الجرجاني ولا يستبعد في نفس الوقت أن يكون البازوري اعتماداً على أن الجرجاني توفي في سنة ٤٣٦ هـ / ١٠٤٤ م أي قبل تلك الهجرة بحوالي سبع سنوات^(٦)، ويؤيده في ذلك الوزير السراج ويكرر نفس القول تقريباً^(٧)، وهنالك روايات أخرى وردت في بعض المصادر التاريخية تحمل في طياتها التناقض مثل رواية ابن أبي دبنار الذي يعتقد أنه البازوري ولكنه يضيف أنه قد قال يوماً لجلسائه أثناء فترة تردد الرسائل بين المعز والوزير الفاطمي : (ألا تعجبون من صبي بربري

(١) ابن عذاري : المصدر السابق ج ١ ص ٢٩٧ .

(٢) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ق ٣ ص ٧٤ .

(٣) ابن الشماخ : المصدر السابق ص ١٨٤ .

(٤) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ١٤ .

(٥) ابن مقديش : المصدر السابق ورقة ١٣٥ .

(٦) التجاني : المصدر السابق ص ٢١ - ٢٢ .

(٧) الوزير السراج : المصدر السابق ج ١ ق ٤ ص ٩٤٣ .

مغربي يحب أن يخذع شيخاً عربياً عراقياً^(١)، ويذكر ابن أبي الضياف رواية مشابهة لها^(٢)، والتناقض في هاتين الروايتين - إن صحتا - واضح، إذ من غير الممكن أن يصدر مثل هذا القول عن اليازوري لأنه ليس بعراقي، فيازور التي يتنسب إليها هي بلدة بفلسطين قرية من الرملة^(٣)، والذي أراه واستناداً إلى ما سبق أن رجحناه أن انفصال المزع عن الفاطميين كان تدريجياً، أنه ليس من المستبعد أن يكون كلا الوزيرين قد اشتركا في دفع الهلالية للهجرة، بأن يكون المجرعائي قد فكر في الخطوة وربما شرع في إجراء الاتصال مع الأعراب الهلالية لتنفيذها فحالت وفاته دون ذلك فنقلها اليازوري من بعده.

وثمة ملاحظة ثانية على هذه الهجرة هي تحديد الزمن الذي وصل فيه الهلالية إلى إفريقية، فقد ذكر أبو الفدا أن ذلك كان في سنة ٤٤٢ هـ / ١٠٥٠^(٤) في حين يرى ابن عذارى^(٥)، وابن خلدون^(٦)، أن ذلك تم في سنة ٤٤٣ هـ / ١٠٥١، ومع أنني أرى القولين الأخيرين هما الأصح لأن اليازوري تولى منصب الوزارة سنة ٤٤٢ هـ / ١٠٥٠ كما سبق أن ذكرناه، إلا أن علاقة العرب الهلالية بإفريقية تعود إلى ما قبل هذا التاريخ بكثير، فقد كان قسم منهم موجوداً في برقة منذ أواخر القرن الرابع الهجري كان قد بعث بهم الحاكم بأمر الله مع يحيى بن علي بن حمدون حينما أرسله والياً على طرابلس، وعندما عاد علي إلى مصر استقر هؤلاء ببرقة، ثم لم يلبثوا أن انقلبوا على الدولة الفاطمية فاشتركوا في ثورة أبي ركونة سنة ٣٩٥ هـ / ١٠٠٥ وكان ممن اشتهر من بطونهم في تلك الثورة بنو قرعة^(٧) الذين شاركوا أيضاً في الهجرة الهلالية إلى إفريقية فيما بعد. ومنذ استقرار هؤلاء في برقة أخذوا يغيرون على أطراف إفريقية الشرقية كلما واتتهم الفرصة فيعتشون فيها الفساد، وقويت شوكتهم فثاروا على والي برقة الفاطمي وتمكنوا من طرده منها، وعندما استنجد بهم لفلل

(١) ابن أبي دثار : المصدر السابق ص ٨٤، انظر كذلك التجاني : المصدر السابق ص ١٩ .

(٢) ابن أبي الضياف : المصدر السابق ص ١٧٣ .

(٣) انظر ياقوت : المصدر السابق ج ٥ ص ٤٢٥ .

(٤) أبو الفدا : المختصر في تاريخ البشر ج ٢ ص ١٧٠ .

(٥) ابن عذارى : المصدر السابق ج ١ ص ٢٨٨ .

(٦) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ١٤ .

(٧) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ١٧ .

ابن سعيد لمساعدته في حروبه ضد بني زيري أنجدوه، وتجرأوا في سنة ٤٠٥هـ / ١٠١٤م على نهب هدية كان قد أرسل بها باديس إلى الحاكم بأمر الله، وظلوا على هذه الحال من عدم الانضباط حتى قدم إخوانهم الهلالية من مصر عليهم في طريقهم إلى إفريقية فانضموا إليهم وكان من رؤسائهم في تلك الفترة ماضي بن مقرب^(١)، وليس من المستبعد وجود اتصال بين هؤلاء وقومهم حينما كانوا في مصر وربما كانوا قد أطلعوهم على أوضاع إفريقية وزينوا لهم الهجرة إليها. وأياً كان الأمر فإن هذه الهجرة كانت على أكثر من دفعة، إذ أن الدفعة الأولى وصلت إلى حدود إفريقية الشرقية وأقامت بها ريثما تستطلع أحوالها وكتب زعمائها لإخوانهم في مصر يستدعونهم للحاق بهم^(٢)، فلبى قسم كبير منهم هذه الدعوة، ويبدو أن موجات منهم أقل عدداً من الموجتين الأولى قد توالى على إفريقية بعد ذلك، خاصة بعدما ظهروا على الدولة الزيرية إذ يذكر ابن عذاري أنه في سنة ٤٦٨هـ / ١٠٧٥م وصلت دفعة منهم إلى إفريقية ونزلت حول القيروان وما والاها^(٣).

أما الملاحظة الثالثة فهي مبالغة العديد من المؤرخين القدامى والمحدثين في إبراز الدور السلبي لهذه الهجرة^(٤) وإغفال الدور الإيجابي لها. فهم يعزون خراب إفريقية وما شاع فيها من الفوضى لهذه الهجرة حتى شبههم حسن حسني عبد الوهاب بقبائل الهون^(٥) التي اجتاحت أوروبا في القرن الخامس الميلادي، والحقيقة كما أراها أنه كان لهذه الهجرة آثار سلبية وأخرى إيجابية، أما بالنسبة لسلبيتها فإنها وإن كانت عديدة، إلا أن مسؤوليتها لا تقع على كاهل الهلالية وحدهم، فالفوضى السياسية والاجتماعية والتدهور الاقتصادي كانت

(١) الظاهر الزاوي : المرجع السابق ص ٢٠٩ .

(٢) ابن السماع : المصدر السابق ص ١٨٥ - ١٨٦ .

(٣) ابن عذاري : المصدر السابق ج ١ ص ٣٠٠ .

(٤) انظر على سبيل المثال ابن خلدون (ج ٦ ص ١٤) حيث يقول : إنهم كانوا (كالجراد المنتشر لا يمحون شيء إلا أتوا عليه)، ويقول (ج ٦ ص ١٥٩) : (وانتري البوار بالبلاد) ويكرر مثل هذين القولين في عدة مواضع من تاريخه، ثم ابن الخطيب (أعمال الأعلام ق ٣ ص ٧٥) الذي يقول عنهم : (وحسبك بدخول القيروان شهرة وروعة فتنة)، وابن السماع (ص ١٨٣) الذي يقول عنهم : (... لأن هذه المفسدة بلاد إفريقية فائسة منتشرة من هؤلاء الأعراب الذين ليس لهم في الإسلام إلا مجرد القول والاسم والله حسيب من كان السبب في دخولهم إفريقية).

(٥) حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق ٣ ص ٢٥٩ .

كلها موجودة في إفريقية قبل دخول الهلالية إليها، وخير دليل على تلك الفوضى السياسية التي كانت فيها هي تلك الفتن والثورات التي أفرنا إليها فيما مضى والتي شملت نواحيها والتي لا يمكن أن تكون دليل صحة، ثم إن الموجات البشرية التي تهاجم دولاً قائمة ليس من السهل أن تغلب عليها إذا كانت تلك الدول متماسكة قوية البناء، أما إذا كانت الآفات قد نخرتها فلا يتعدى دور مهاجميها كونهم السبب الظاهر في انهيارها فقط، وتنطبق هذه القاعدة على إفريقية إبان الهجرة الهلالية إليها، إذ أن عدد محاربي الهلالية الذين اشتبكوا مع جيش المعز في موقعة حيدران ثاني أيام عيد الأضحى سنة ٤٤٣هـ / ١٠٥٢م^(١) والتي كانت أكبر المعارك التي دارت بين الجانبين لم يكن يتجاوز الثلاثة آلاف محارب فقط، في حين تذكر معظم المصادر التاريخية أن جيش المعز كان يتألف من ثلاثين ألف جندي^(٢)، ومع ذلك انتصر الهلالية فيها على المعز انتصاراً حاسماً، فلم يغلب هذا الجيش من قلة وإنما للخور والضعف الذي كان قد استحکم في الدولة وفي جيشها وقد عبر علي بن رزق الرياحي عن ذلك أصدق تعبير بقوله :

وإن ابن باديس أفضل مالک
لعمري ولكن ما لديه رجال
ثلاثون ألف منهم قد هزمتهم
ثلاثة آلاف وذاك ضلال^(٣)

وقد أدت هذه الفوضى السياسية إلى تدخل اجتماعي واضح في إفريقية، إذ اتسعت الهوة بين الطبقة الحاكمة المتحالفة مع المشاركة الشيعية والطبقة الوسطى التي كانت تسعى لتحسين وضعها فوجدت أنه من الأفضل لها التحالف مع عامة الشعب، لذلك لم تكن الثورة على الشيعة في مطلع عهد المعز ثورة مذهبية فقط، وإنما كانت أيضاً مظهراً لثورة الطبقة

(١) انظر ابن عذري : المصدر السابق ج ١ ص ٢٩١، أما التجاني (المصدر السابق ص ١٨) فيقول : إن تلك المعركة جرت سنة ٤٤٤هـ / ١٠٥٣م.

(٢) انظر التجاني : المصدر السابق ص ٢٠ . وينفرد ابن عذري (ج ١ ص ٢٩١) عن المصادر الأخرى التي أجمعت على هذا العدد برواية جاء فيها أن عدد الفارين من جيش المعز بعد المعركة فقط كان (٨٠) ألف جندي وأعتقد أن في ذلك مبالغة واضحة.

(٣) انظر التجاني : المصدر السابق ص ٢١، ابن عذري : المصدر السابق ج ١ ص ٢٠٠ ويورد البيت الثاني باختلاف طفيف، ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ١٥، ابن السماع : المصدر السابق ص ١٨٥ - ١٨٦ .

الوسطى وعامة الشعب على الطبقة الحاكمة (الأرستقراطية)^(١) نظراً للجور الاجتماعي الذي كانت تعاني منه، بدليل أنها استغلت تلك الثورة لتعمل النهب في أملاك الأغنياء وحرق الأسواق في المنصورة كما ذكرنا. ثم إن المؤسسة العسكرية في الدولة الزيرية كانت هي الأخرى في حالة تدهور واضح بعد أن سار أمراء بني زيري خطوات واسعة في سبيل إلغائها وإحلال جنود من العبيد السود محلها حتى بلغ عدد ثماليك المعز من هؤلاء السود ثلاثين ألفاً مما أثار تذمر هذه المؤسسة وجعلها غير راضية عن هذا الوضع. حتى العصبية الصنهاجية التي كان من المفروض أن تكون دعامة الحكم الرئيسية في الدولة الزيرية كان المعز يعمل على إلغائها، يقول ابن عذاري في ذلك: إن المعز كان (كارهاً لإخوانه صنهاجة، محباً للاستبدال بهم، ساقداً عليهم)^(٢)، حتى إنه حينما وصل هؤلاء الهلالية إلى حدود إفريقية عمل على الاستفادة منهم ولحاقهم بخدمته (للاستغلاظ بهم على نواحي بني عمه)^(٣)، فحرب مؤنس ابن يحيى الرياحي أحد رؤسائهم (واستخلصه لنفسه وأصهر إليه)^(٤)، وبالإضافة إلى ما تقدم، فإنه كان من الطبيعي أن تتسبب الفتن والثورات العديدة التي اجتاحت البلاد في كثير من الأمراض والآفات الاجتماعية الأخرى.

أما اقتصاد إفريقية فكان هو الآخر يعاني من أزمات خطيرة كانت تهدد بانهياره، إذ لم يكن من المنتظر ازدهار زراعة أو صناعة أو تجارة في ظل وضع سياسي غير مستقر، وهذا ما تؤكد الوثائق التاريخية المعاصرة للفترة التي سبقت دخول الهلالية، فحركات الجيوش وهجمات التوار في تلك العصور كانت بلا شك تتسبب في إتلاف المزارع وهجر أصحابها لها، كما كانت تتسبب في قطع الطرق التجارية أو عرقلة الحركة التجارية على الأمل، كما أن تدفق الذهب من قلب القارة عبر إفريقية الذي كان يدر عليها مبالغ طائلة كان هو الآخر في طريقه إلى التوقف منذ أن عمل أمويو الأندلس على تشييط طريقه عبر

(١) ج. بونصي: أسطورة الكارثة الهلالية، تقديم المنصف الشنوني، حوليات الجامعة التونسية، العدد الخامس سنة ١٩٦٨، ص ١٣٦.

(٢) ابن عذاري: المصدر السابق ج ١ ص ٢٨٨.

(٣) ابن خلدون: المصدر السابق ج ٦ ص ١٤، انظر كذلك التجاني: المصدر السابق ص ١٨.

(٤) ابن خلدون: المصدر السابق ج ٦ ص ١٤، انظر التجاني: المصدر السابق ص ١٨.

المغرب الأقصى وجعله الطريق الرئيسي له، وبدء إفلات المهور الجريدي الخاضع لنفوذ الحوارج والمنتحكم في الطريق الإفريقي له ثيباً قشياً من السيطرة الزيرية^(١)، لذلك فإن الحياة الاقتصادية في إفريقية كانت في وضع سيئ وهذا ما تؤكدُه وثائق الجينيزا (Geniza) التي عثر عليها في القاهرة، والتي درسها غويتان (S. d. Goitan) ونشر نتيجة هذه الدراسة في عدة مقالات حيث يقول : (أفكر في تلك المقاطع من رسائل القيروان التي تبكي سقوط المغرب الإسلامي العام في ثلاثينات وأربعينات القرن الحادي عشر قبل احتياج الأقوام البدوية الحجازية بزم طويل على حين نستطيع في مطلع القرن الحادي عشر قراءة ملاحظات فخورة عن حالة القيروان المزدهرة)^(٢)، وقد حاول المعز التغلب على الأزمة المالية والاقتصادية التي كانت تمر بها إفريقية قبيل دخول الهلالية باللجوء إلى تخفيض العملة، فعندما انفصل عن الفاطميين جمع العملة التي كانت متداولة والمضروبة باسم الخليفة الفاطمي وأعاد صهرها وضربها من جديد ولكنه خفض قيمة الدينار بمقدار الربع من قيمته الأصلية^(٣) محتفظاً بالفرق لنفسه، ومن المعروف أن تخفيض العملة هو إجراء تلجأ إليه الحكومات إبان الأزمات الاقتصادية. وليست مظاهر الأبهة الزيرية من إنفاق الأموال بسعة والحفلات الفخمة والصلوات الجزيلة التي كان ينفقها الزيريون دليلاً على الرخاء والازدهار، بل كانت كما يقول بونصي تهدف إلى استمالة الانتصار وإبهار العامة واستبدال عناصر الجند البربرية بالعبيد السود^(٤)، وكانت أموال المصادرات تشكل جزءاً هاماً من الدخل الذي كان ينفق في هذه الوجوه.

وأما الخراب والدمار الذي حل بإفريقية من جراء الهجرة الهلالية إليها فلا يتحمل وزره هؤلاء وحدهم، وإنما يقاسمهم في ذلك جلي قواد الدولة الزيرية بل وبعض أمرائها أنفسهم، فإثر هزيمة جيش المعز في موقعة حيدران فضل معظم قواد جيشه اللجوء إلى

(١) ج. بونصي : المرجع السابق ص ١٣٦ .

(٢) انظر د. عبد الله الحروي : المرجع السابق ص ١٥٧ .

(٣) ج. بونصي : المرجع السابق ص ١٣٨، انظر كذلك ابن عفار : المصدر السابق ج ١ ص ٢٧٨ - ٢٧٩، حسن حسني عبد الوهاب : وراثت ق ١ ص ٤٤٦ وما بعدها.

(٤) ج. بونصي : المرجع السابق ص ١٣٧

المغامرة والنهب على العودة إلى الخدمة لديه، وحينما رأى العامة ذلك اقتدوا بهم^(١)، حتى إن المعز نفسه شجع على ذلك أحياناً، يقول ابن عذارى في ذلك: إن المعز بعد تلك المعركة أمر (كافة الناس بانتهاب الزروع والمحيط بالقيروان وصبرة والمنصورية فسرّ المسلمون بذلك وحسبوا من أرزاقهم وكان ما قدر الله من فسادها وأكل البهائم لها)^(٢)، كذلك يذكر أنه كان هو الذي تسبب في خراب صبرة، ذلك أنه حينما اقترب الهلال من القيروان أمر (أن ينتقل عامة أهل صبرة وسوتها إلى القيروان، ويخلوا الحوانيت كلها بصبرة، وأمر جميع من بالقيروان من الصنهاجيين وغيرهم من العسكر أن ينتقلوا إلى صبرة، وينزلوا في حوانيتها وأسواقها، فأرجع البلد لذلك، وعظم الخطب، واشتد الكرب، ومد العبيد ورجال صنهاجة أيديهم إلى خشب الحوانيت وسقائفها، واقتلموها، وخربت العمارة العظيمة في ساعة واحدة)^(٣)، ويذكر في موضع آخر أن تميم بن المعز هو الذي تسبب في خراب أراضي سفاقر الزراعية المعروفة بالغابة حينما حاصرها سنة ٤٧٤هـ / ١٠٨١م إذ يقول (... وعاث عسكره في أجنحتها المعروفة بالغابة، وأفسدوها)^(٤)، ومن يتبع مصادر التاريخ الإسلامي التي تعرضت لهذه الفترة يجد الكثير من الأمثلة على ذلك.

كما أن تردّي أوضاع إفريقية وتمزقها إلى عدة كيانات في ظل هذه الهجرة لم يكن الهلالية السبب الوحيد فيه، إذ أن ذوي الأطماع والنزعة الاستقلالية وكانوا كثيرين استغلوا انهيار الدولة الزيرية أمام الهلالية واستقل كل منهم ناحيته، فمن بين الإمارات العديدة التي قامت في إفريقية في ذلك الوقت لم تكن للهلالية منها إلا إمارة واحدة فقط هي إمارة بني جامع في قابس، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية فإن بعض حكام هذه الإمارات يتحملون مسؤولية كبيرة في خلق هذا الوضع والإبقاء عليه مخيماً على البلاد سواء كان ذلك بوعي منهم أو بلا وعي، ذلك أن هؤلاء الحكام رأوا في الهلالية جنوداً مرتزقة فقط فكان كل منهم وهم الذين أسهموا بنصيب وافر في تمزيق إفريقية أصلاً، يسعى لمخالفة فريق منهم لمساعدته

(١) ج. بونصي: المرجع السابق ص ١٣٩ - ١٤٠.

(٢) ابن عذارى: المصدر السابق ج ١ ص ٢٩١.

(٣) ابن عذارى: المصدر السابق ج ١ ص ٢٩١.

(٤) ابن عذارى: المصدر السابق ج ١ ص ٣٠٠.

في تنفيذ مشاريعه ضد الآخرين فامتعان بنو حماد بفريق منهم على قتال المعز ولما بمحض على دخولهم إفريقية إلا فترة وجيزة، ووضح هذا الإنجاء في عهد الناصر بن علناس الحمادي الذي امتعان بعدة بطون منهم في حربه ضد تميم بن المعز سنة ٤٦٠هـ / ١٠٦٧م^(١)، كما امتعان بهم حمو بن مليل البرغواطي صاحب سفاقس في قتاله لتمييم أيضاً^(٢)، ولم يتورع تميم هو الآخر عن الامتعانة ببعض بطونهم خاصة بني رياح في معظم حروبه وغير هؤلاء الأمراء كثير حتى سرت عدوى داء الفرقة إلى صفوف الهلالية أنفسهم فذب بينهم الخلاف وفرقهم كتلاً بعد أن كانوا قد دخلوا إفريقية وكلمتهم مجتمعة، ذلك أن الهلالية لم يكونوا جيشاً تحكمه قواعد الضبط والربط العسكري وإنما كانوا مجموعة بشرية غير منظمة وبالتالي كان لا بد أن يسيع بين أفرادها بعض الصفات السلبية كما هو الأمر بالنسبة لثلاثياتها من الهجرات البشرية، فقد كان يتحكم في أفرادها الشعور بالندية كل منهم تجاه الآخر، وتهوى نفوسهم الحرية الفردية، فما من قوة تلزم الفرد منهم على القيام بعمل يكرهه أو الامتناع عن عمل يريده، له قسط كبير من حرية الخيار في أن يقبل أو يرفض أي قرار لرئيس عشيرته لا يوافق هواه أو مصلحته، لذلك فلدخول هذه المجموعة التي لم يكن يحكمها الانضباط إلى إفريقية التي كانت أصلاً مهيئة الأوضاع كان عاملاً مساعداً على زيادة تردّي تلك الأوضاع ولم يكن السبب الوحيد في هذا التردّي الذي أصابها في ظل تلك الهجرة.

وبناء على ما تقدم، فإنني أعتقد أن رأي ج. بونصي المتمثل في قوله بأنه ليس لبني هلال يد في الكارثة التي حلت بإفريقية والتي نسبت إليهم خطأ، بل إن هذه الكارثة كانت نتيجة حتمية لانهيار اقتصادي واجتماعي ومياسي ترجع أصوله إلى ثلاثة أرباع القرن قبل هجرتهم إليها وأهمهم انتفعوا من وضع لم يتسببوا فيه^(٣) هو الأقرب إلى الصواب. ويبدو أن بعض المؤرخين المحدثين أخذ بأقوال بعض المؤرخين القدامى مثل ابن عذارى والتجاني وابن خلدون وابن الخطيب وابن الشماخ الواضح التحامل على الهلالية كحقيقة مسلّم بها بدون تمحيص، وقبلوها على علاقتها مع أن أمّا منهم لم يعاصر حوادث تلك الهجرة ومنهم

(١) ابن الأثير: المصدر السابق ج ١٠ ص ٤٤ - ٤٥.

(٢) ابن عذارى: المصدر السابق ج ١ ص ٢٩٩.

(٣) ج. بونصي: المرجع السابق ص ١٤٠.

من نقل عن مؤرخين سبقوه كانوا يتولون مناصب رسمية في البلاط الزيري، ومؤرخون هذا شأنهم ينبغي أخذ أقوالهم بحذر شديد لأنهم يجاملون أمراءهم كثيراً على حساب الحقيقة التاريخية، هذا بالإضافة إلى أن ابن خلدون وابن الخطيب وابن السمعاني على سبيل المثال كانوا متأثرين بأعراب عصرهم، فموقف ابن خلدون من الأعراب معروف، وقد أقحم ابن السمعاني موضوع أحكام الحراية الذي دون فيه آراءه عن الهلالية إقحاماً على كتابه بغية تأييد سلطان أبي عمرو عثمان الحفصي على ما يبدو كما سبق أن ذكرنا، الذي كان يواجه فتناً ومشاكل داخلية عديدة كان الأعراب الهلالية طرفاً في بعضها وتغيير الناس منهم، وحكم هؤلاء لا يتفق وحكم العديد من المؤرخين والرحالة الذين تقدموهم والذين كان منهم من عاصر الحوادث المعنية^(١).

وأما لإيجابيات هذه الهجرة فتتمثل في عدة وجوه أهمها أنها أمدت إفريقية بدماء فنية ومحاربين كانوا لا يزالون يحتفظون بشجاعة وخشونة البادية وكانت في حاجة ماسة إليها في صراعها المقبل مع الحركة الصليبية، فكانت بهم أقدر على مواجهة قوى العدوان، كما أن منهم من أسهم في حفظ النظام في إفريقية في تلك الفترة الحرجة من تاريخها خاصة بنو رياح الذين أصبحوا بعد محالفتهم لجميع بن المعز سنداً قوياً لأمراء بني زيري في وجودهم لحفظ الأمن في إمارتهم بل وفي توسيع رقعتها، ثم إن منهم من أسهم في إعادة النشاط الاقتصادي لبعض مدن إفريقية مثل مدينة قابس التي شهدت في عهد أمرائها من بني جامع الهلالية نشاطاً اقتصادياً ملحوظاً، يقول شارل أندري جولياني في ذلك : «وهضمت قابس أميادها الجدد من بني جامع الهلاليين (سنة ١٠٩٩ م) الذين ساروا حتى غزوة النورمان سيرة رؤساء الحضر همهم ضمان الازدهار الاقتصادي لممتلكاتهم، وغايتهم تحميمها. وظلت زراعة النخيل على عتقائها واستبقت التجارة المحلية حيويتهما»^(٢)، وأخيراً وليس آخراً دورها في استكمال تعريب المغرب العربي^(٣).

(١) انظر ج. بونصي : المرجع السابق ص ١٣٤ .

(٢) شارل أندري جولياني : المرجع السابق ج ٢ ص ١٤١ - ١٤٢ .

(٣) انظر عن ذلك شارل أندري جولياني : المرجع السابق، ج ٢، ص ٩٧ وما بعدها، كذلك

خلاصة القول، إن هزيمة المعز بن باديس في موقعة حيدران ثم رحيله عن القيروان بعد أن أدرك عجزه عن الدفاع عنها ولجؤه إلى مدينة المهديّة الحصينة سنة ٤٤٩ هـ / ١٠٥٧ م وانزوائه فيها (أسقط من الشمس في الميزان، وأهون من الفقير على القيّان)^(١)، ثم وفاته بعد ذلك بفترة وجيزة في سنة ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢ م الأمر الذي أزال بقية هيئة الدولة الزيرية من النفوس إن كان قد بقي منها شيء، حتى إن ابنه وخليفته تميم لم (يكن له إلا ما ضمه السور)^(٢) أي مدينة المهديّة فقط، الأمر الذي خلق في إفريقية وضعا أفسه ما يكون بوضع الأندلس إثر سقوط الخلافة فيها، إذ قام فيها هي الأخرى ملوك طوائف كالأندلس، فغلب حمور بن مليل البرغواطي على سفاقس، وأعلنت موسه حكومة شورى فيها^(٣)، وانفرد بنو غزرون بطرابلس، وبنو الرند بقفصة، وبنو الورد بينزرت^(٤)، واستبد عبد الحق بن خراسان بتونس، وكان قد أرسله الناصر بن علناس الحمادي واليا عليها من قبله فخلع طاعته^(٥). وتغلب بنو جامع على قابس^(٦)، واستقلت جربة وأظهر أهلها الفناد وأنشأوا مراكز يقطعون بها السبل في البحر^(٧)، ومن هؤلاء من ضرب النقود باسمه^(٨)، وحيال هذا الوضع

-
- (١) ابن عذاري : المصدر السابق ج ١ ص ٢٩٧، انظر أيضاً التجاني : المصدر السابق ص ١٨ .
 (٢) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ١٥٩ - ١٦٠، انظر كذلك ابن الأثير : المصدر السابق ج ١٠ ص ١٦، أبو الفدا : المصدر السابق ج ٢ ص ١٨٠، الوزير السراج : المصدر السابق ج ١ ق ٢ ص ٤٧٦ .
 (٣) التجاني : المصدر السابق ص ٢٨ - ٢٩، الوزير السراج : المصدر السابق ج ١ ق ٢ ص ٣٠١، ابن مقديش الصفاقسي : المصدر السابق ورقة ١٣٦ .
 (٤) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ١٦٩، كذلك حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق ١ ص ٤٤٩ - ٤٥٠ .
 (٥) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ١٥٩ .
 (٦) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٤٢٠ - ٤٢١ .
 (٧) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٣ ص ٢٠١، انظر كذلك البكري : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، جزء من كتاب المسالك والممالك، تحقيق البارون دي سلا، ص ١٩ و ٨٥، ابن عذاري : المصدر السابق ج ١ ص ٣٠٦، محمد بوراس الخوري : المصدر السابق ص ٦٦ وما بعدها .
 (٨) من هؤلاء حمور بن مليل البرغواطي وخليفته وتوجد تماذج لعلتهما في متحف باردو بتونس، كذلك رشيد بن كامل أمير قابس من بني جامع والذي عرفه نقوده بالرشيدية ويوجد نموذج منها بأحد متاحف إسبانيا (انظر حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق ١ ص ٤٤٩ - ٤٥٠، كذلك أحمد بن عامر : المرجع السابق ص ٣٨ - ٣٩).

رأى أمراء المهديّة الزيريين أن الاتجاه إلى البحر أسلم عاقبة لهم، فبدأوا في إنشاء بحريتهم، ولكن ظروف البحر الأبيض المتوسط كانت قد تغيرت لصالح القوى الأوروبية وكان ذلك التغير هو التذير ببدء الهجوم الصليبي على الجناح الغربي من العالم الإسلامي الذي بدأ منذ أواسط القرن الخامس الهجري (الحادي عشر للميلاد) ممزق الأوصال معدوم الترابط ومهيض الجناح، كل قطر من أقطاره لديه من المشاكل ما يكفيه وهذا ما كانت تنتظره الحركة الصليبية لبدء هجومها الكبير.

الهجوم الصليبي في الغرب :

بدأ هذا الهجوم الثلاثي الاتجاه منذ أواسط القرن الخامس الهجري (الحادي عشر للميلاد) في ثلاث جبهات هي الأندلس وصقلية وإفريقية في آن واحد تقريباً، وقد توزعت القوى التي قامت به الأدوار في هذا الصراع ولكن مع الإبقاء على قدر كبير من التنسيق فيما بينها ومساندة بعضها البعض كلما دعت الحاجة إلى ذلك، وكانت البابوية الزعيم الروحي للحركة الصليبية تسهم بنصيب وافر في هذا التنسيق وتوفير الدعم المعنوي وأحياناً المادي لهذه القوى في صراعتها مع المسلمين، ويدعو للمرء للوهلة الأولى أن كلاً من هذه القوى كانت تعمل منفردة وحسابها الخاص، ولكنه عندما يلقي نظرة أعمق لكشف مواطن الأمور يتبين له مدى الترابط الوثيق بينها وأنها كلها وضعت نفسها في خدمة الحركة الصليبية يحدوها هدف رئيسي واحد هو ضرب المسلمين أينما وجدوا والاستيلاء على ما يمكن الاستيلاء عليه من بلادهم، فكانت في وضعها ذاك أئمة بروافد تصب في نهر واحد، وهذا يقودنا إلى حقيقة هامة هي وجوب الربط بين مختلف التيارات والقوى والاتجاهات الصليبية في كافة جبهات الصراع الإسلامي الصليبي عند دراسة أحد أدوار هذا الصراع في أي جبهة منها لأنها لا تعدو كونها صوراً لأصل واحد وإن اختلفت أحياناً في التروش على عكس ما يحاول بعض مؤرخي الغرب من تجريد الهجوم في بعض هذه الجبهات من صفته الصليبية. وبناء على ذلك تجدر الإشارة إلى الهجوم الصليبي على كل من الأندلس وصقلية كمدخل للهجوم على إفريقية كون هاتين المجهتين سبقتا إفريقية في تلقي الضربات الصليبية.

أ - الأندلس :

كان انهيار الخلافة الأموية في أوائل القرن الخامس الهجري (الحادي عشر للميلاد حدثاً خطيراً في تاريخ المسلمين في الأندلس، وزاد من خطورته أن ذلك تم في وقت كان فيه الوجود المسيحي القوي في شمال شبه جزيرة إيبيريا قد أصبح حقيقة فقد كانت للمسيحيين هنالك أربع دويلات ^(١) يتقد شعبها حماساً لقتال المسلمين تدعمه أوروبا الغربية بأسرها وترفع من معنوياته وتنفخ فيه الروح الصليبية، وقد آلت زعامة هذه الدويلات في مطلع ذلك القرن إلى مملكة نفارة التي استطاع ملكها سانشو (سانچو) Sancho (سنة ٩٨٠ - سنة ١٠٣٥م) توحيد قسم كبير من إسبانيا المسيحية ويخضعها لسلطانه، وبدأ يتأهب للهجوم على المسلمين أطعمه في ذلك ما آل إليه أمرهم من الضعف والفرقة في ظل ملوك الطوائف، وقد بدأت المساعدات تتوالى من أوروبا عليه وعلى سواه من حكام النصارى الإسبان استعداداً لهذا الهجوم، فقد قدمت في سنة ١٠١٨م مجموعة من المحاربين ومعهم أتباعهم لحرب المسلمين. وفي سنة ١٠٣٣م عبرت جبال البرانس إلى إسبانيا جماعة أخرى بقيادة بعض أمراء برجنديا ^(٢) وهكذا توالى المساعدات على المسيحيين وأخذوا يستعدون لبدء الهجوم، ولكن وفاة سانشو حالت دون ذلك، كما أن تقسيم مملكته بين أبنائه الأربعة والنزاع الذي دب بينهم أنقلد المسلمين من خطر محقق ^(٣)، وكانت قشتالة من نصيب ابنه فردناند الأول الذي كان لا يقل طموحاً عن أبيه فأخذ يهاجم إمارة سرقسطة، وعندما ضم إليه مملكة ليون القديمة بدأ يتوسع وبسرعة كبيرة في حوض نهر دورو ^(٤)، وكانت المساعدات تتوالى عليه من أوروبا خاصة عندما أعلن البابا الإسكندر الثاني (١٠٦١ - ١٠٧٣م) قبول التربة من جميع الذين يخوضون الحرب ضد مسلمي الأندلس وكاد أن يمنحهم القفران ^(٥)، فعبرت

(١) هي مملكة ليون ونفارة وكوتيتا برشلونة وقشتالة.

(٢) د. سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ج ١ ص ٧٢ - ٧٣، انظر عن هذا الموضوع أيضاً ابن الكردوبوس : تاريخ الأندلس ص ٦٨ وما بعدها.

(٣) لمزيد من التفصيل انظر يوسف أنشباخ : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والمرحدين ص ٩ وما بعدها.

(٤) د. سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ج ١ ص ٥٤٣.

(٥) James A. Brundage : Holy War in the Medieval Ages, p.119.

(٥)

مجموعة ضخمة من الحارين إلى إسبانيا من فرنسا سنة ١٠٦٣م، وفي العام التالي جاءت حملة أخرى من إقليم نورمانديا بتحريرى البابا المذكور لإنقاذ مملكتي أرغونة ونفارة من الخطر الإسلامى بعد معركة جرادوس (Gradus) سنة ١٠٦٣م التي انتصر فيها المقدس بن هود أمير سرقسطة عليهما فكانت تلك المعركة كارثة على كلا الملكين، وقد استولت هذه الحملة على قلعة برىستر (Barbastro) سنة ٤٥٦هـ / ١٠٦٤م وأرتكبت في مسلميها أشنع القذائع^(١)، وبدلاً من أن يتبني ملوك الطوائف لهذا الخطر الذي أخذ يحدق بهم فيوحدا جهودهم لمواجهة، أسرع كثير منهم لانتقاله بدفع الجزية إلى فردناند مثل ابن هود صاحب سرقسطة وابن ذي النون صاحب طليطلة^(٢) والمتعهد بن عباد صاحب أمبيلية، وقد كانت وفاة فردناند في سنة ١٠٦٥م وتقسيم مملكته هو الآخر بين أبنائه وانشغالهم بخصوصياتهم ومحاربتهم بعضهم البعض^(٣) فرجاً للمسلمين ولو بصفة مؤقتة^(٤)، وبعد صراع مرير بين هؤلاء الورثة تمكن ألفونسو السادس من التغلب على باقي إخوته وإعادة توحيد القسم الأعظم من مملكة أبيه تحت سلطانه.

كان ألفونسو (الغنىش أو الادفونش) لا يقل طموحاً عن أبيه وجده، فيعد أن فرغ من حروب الوراثة ضد إخوته، بدأ في شن هجومه الكبير على المسلمين بمساعدة في ذلك أمران هما دعم أوروبا الغربية والبابوية له من ناحية، ووضع ملوك الطوائف المزري من ناحية ثانية، وكانت خطته التي وضعها لتحقيق هدفه تقوم على دعائم ثلاث رئيسية، أولها : إذكاء نار الفتنة بين ملوك الطوائف ومساعدة كل منهم في نزاعه مع الآخر فربطهم كلهم بعجلته حتى كانوا يتسابقون في التقرب إليه^(٥)، وثانيها : ابتزاز أموالهم مقابل تلك المساعدات التي كان

(١) ابن الكردبوس : المصدر السابق ص ٦٩ حاشية ٢، ابن حبارى : المصدر السابق ج ٣ (القسم الخاص بالموحدين) ص ٢٢٥، ابن الأبار : الحملة السيرة ج ٢ ص ٢٤٧ .

(٢) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٤ ص ١٨٢، ولزيد من التفصيل انظر محمد عبد الله عنان : دول الطوائف ص ٧٢ وما بعدها.

(٣) لزيد من التفصيل انظر يوسف أفباخ : المرجع السابق ص ٢٠ وما بعدها، كذلك ابن الكردبوس : المصدر السابق ص ٧٦ حاشية ٢ و ٣ .

(٤) انظر ابن الكردبوس : المصدر السابق ص ٧٣ - ٧٤، كذلك ابن الأثير : المصدر السابق ج ١٠ ص ١٢٢ .

(٥) يقول ابن الكردبوس في ذلك : (فلبلوا للغنى ما يحبه من الأموال ليعينهم على ملوتهم بأنجاد=

يقدمها إليهم علاوة على الجزية السنوية التي كانوا يدفعونها إليه^(١)، اتقاء لشربه حسب اعتقادهم وهدفه من ذلك إضعافهم وتدعيم قوته بتلك الأموال، وثالثها : تخريب أراضيهم وانتساف زروعهم ومحاصيلهم وأقوات رعاياهم بالغارات الغزوية الناهية حيث يقوم بعد ذلك باقطاع حصونهم ومدنهم الواحدة تلو الأخرى بعد أن يكونوا قد عجزوا عن الدفاع عنها^(٢). وكانت إمارة طليطلة هي هدفه الأول فبدأ في مهاجمتها حتى أنهك قواها، وفي سنة ٤٧٨هـ / ١٠٨٥م زحف إليها بجيش ضخم ضم جمعاً غفيرة من الفرنسيين الذين قدموا إليه في حملة صليبية جديدة بقيادة بعض الأمراء البرجنديين وكانت تولوز^(٣) وحاصر مدينة طليطلة حتى استولى عليها ودخلها في ٢٧ محرم سنة ٤٧٨هـ / ٢٥ مايو ١٠٨٥م، وقد أحدث سقوطها في يده ضجة كبرى في العالم الإسلامي، وألقى الخوف والفرع واليأس في قلوب الكثير من مسلمي الأندلس^(٤)، وجاء بعد طليطلة دور إمارة

الرجال، والذين في أثناء ذلك لما بينهم من الفتنة مسرور، وهم في ذلك مشتغلون بشرب الخمر، واقتناء القيان، وركوب المعاصي وسماح العيدين، وكل واحد منهم يتنافس في شراء اللخائر الموكية، متى طرأت من لشرق، كي يوجهها إلى الفئش هدية ليقرب بها إليه، ويحظى دون مطالبه لديه، إلى أن ضعف من أولئك الطالب والمطلوب، وذلل الرئيس والمرؤوس، وافترقت الرعية، وفسدت أحوال الجميع بالكلية وزالت من النفوس الأنفة الإسلامية، وأذعن من بقي منهم خارج الدمة إلى أداء الجزية وصاروا للفئش عمالاً يجبون له الأموال لا يخالف أمره أحد، ابن الكردبوس : المصنوع السابق ص ٧٧ .

(١) الضبي : المصدر السابق ص ٣١ .

(٢) لمزيد من التفصيل عن هذا الموضوع انظر ابن خلدون : المصنوع السابق ج ٦ ص ١٨٦، محمد عبد الله عنان : المرجع السابق ص ٧٤ وما بعدها، د. عبد الله العروى : المرجع السابق ص ١٦٧ .

(٣) د. سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ج ١ ص ٥٤٢ .

(٤) يقول الأمير عبد الله الزيري في ذلك (مذكرات الأمير عبد الله ص ١٠٠) : إن سقوطها في يد ألفونسو أحدث (في الأندلس رجة عظيمة حتى أشرب أهلها خوفاً وقطع رجاء في استيطانها). ويعبر الشاعر الطليطلي أبو محمد عبد الله بن فرج اليحصبي المعروف بابن العمال عن هذه الروح الانهزامية بقوله :

شئنا دواحلكم يا أهل أنطلس فما المقام بها إلا من الشلط

اللوب ينسل من أطرافه وأرى ثوب الجزيرة متسولاً من الوسط

ونحن بين عدو لا يفارقنا كيف الحياة مع الحيات في سبط

(ابن سعيد المغربي : المغرب في حلي المغرب ج ٢ ص ٢١، انظر كذلك د. محمد الطالبي :-

إشبيلية فأرسل يتهدد المحدث بن عباد صاحبها، وحيال ذلك رأى ابن عباد هو وبعض ملوك الطوائف الآخرين وكبار فقهاء الأندلس ضرورة الاتصال يوسف بن تاشفين سلطان المرابطين في العودة المغربية والاستغاثة به لإنقاذ بلادهم من هذا الخطر، فلى يوسف داعي الجهاد وعبر البحر إلى الأندلس في جيش ضخم والتقى بالقبائل في معركة الزلاقة بالقرب من بطليوس في يوم الجمعة ١١ رجب سنة ٤٧٩هـ / ٢٣ أكتوبر ١٠٨٦م حيث انتصر المسلمون انتصاراً حاسماً كان من نتيجته إيقاف المد المسيحي وإنقاذ مسلمي الأندلس من فناء أكيد مما أكسبهم حياة جديدة في بلادهم.

ب - صقلية :

أخذت أوضاع المسلمين في صقلية في التردّي منذ مطلع القرن الخامس الهجري (الحادي عشر للميلاد) وقد حاولت الدولة البيزنطية الاستفادة من هذا الوضع للاستيلاء على الجزيرة ولكن محاولاتها التي كانت تُهدد خطراً تلك الحملة التي وجهتها إليها في سنة ٤٣٠هـ / ١٠٣٨م بقيادة أحد أئمة قوادها هو جورج منياص (George Maniaces)^(١) بايت كلها بالفشل. وبجزل الحسن الصمصام آخر أمراء الأسرة الكلبية من الحكم سنة ٤٤٤هـ / ١٠٥٢م^(٢) اضطربت أحوال المسلمين في تلك الجزيرة (واستولى الأرادل، وانفرد كل

الهجرة الأندلسية إلى إفريقية ص ٤٨).

- (١) عن هذه الحملة انظر أرشيبالد لويس : المرجع السابق ص ٣١٠ وما بعدها.
- (٢) تولى الحكم في صقلية أمراء من الأسرة الكلبية ولاية للدولة الفاطمية، لكنهم كانوا يهتمون بفنر كبير من الاستقلال الذاتي وكانوا كلما أحسوا باشتداد وطأة خلفاء الفاطميين عليهم لوجوا لهم بالانفصال عنهم والاحراف بأموبي الأندلس (انظر عن ذلك ما ذكره ابن الخطيب في أعمال الأعلام ق ٣ ص ١٢٧ - ١٢٨ عن ما جرى بين جعفر بن محمد الكليبي والعزير الفاطمي) وفي سنة ٣٨٨هـ أصيب الأمير أبو الفتح يوسف بن عبد الله الكليبي بالنالغ فشل جانبه الأمر وضعف عن الحركة فأناوب عنه ابنه جعفر في الحكم فسار في الناس سيرة حسنة وضبط الأمور، وفي سنة ٤٠٥هـ ثار عليه أخوه علي بمساعدة بربر كرامة الذين كانوا قد جاؤوا مع ولاية الفاطميين في السابق، قفض جعفر على الثورة بنف وقيل أعماه، وكانت تلك الثورة نقطة تحول في سياسته فنش كثيراً من الثوار إلى إفريقية فكان ذلك أول أسباب ضعف المسلمين في الجزيرة إذ قل فيها الخند (انظر عن ذلك ابن الأثير المصدر السابق ج ١، ص ١٩٤ - ١٩٥) وأساء معاملة الناس فثاروا عليه وحاصروه في قصره ولكن أباه يوسف الذي كان لا يزال حياً خرج إليهم لتهدكهم فطلبوا منه=

إنسان بيلد^(١) وبدأ فيها هي الأخرى عهد ملوك طوائف شبيه بما جرى في الأندلس، فاستقل عبد الله بن منكوت بمازرة وطرابنش وغيرهما، والقائد علي بن نعمة المعروف بابن الحواس بقصر يمانية وجرجنت (كركت) ونواحيهما، والقادر بالله محمد بن الثمنة بمسرقومة وقطانية ونواحيهما، وابن المكلاطي بناحية أخرى^(٢). وهكذا تفرقت كلمة المسلمين وشغلوا بأنفسهم عن ما كان يجري في العدو الإيطالية، فلم ينتبهوا لعدو جديد اتصف بالشراة والحبث والمغامرة والمهارة في انتهاز الفرص، استطاع في غفلة منهم تثبيت أقدامه في جنوب شبه الجزيرة الإيطالية على حساب البيزنطيين والحكام المحليين والبابوية والمسلمين على حد سواء وبدأ يتطلع إلى بلادهم يعين طامعة ألا وهو النورمان^(٣). وقدم ابن الثمنة أحد ملوك

= عزل جعفر وتولية ابن آخر له بدلاً منه يسمى أحمد ويعرف بالأكحل فقتل، وأخرج جعفر إلى مصر وتبعه هو بعد مدة وهجرة حيث بقي فيها حتى وفاته، ولكن الأكحل اتبع سياسة خرقاء هي التفریق بين الصقليين والأفارقة وإثارة الخلافات بينهم أي سياسة فرق تسد، تقرب الأفارقة واضطهد الصقليين مما أحفظهم عليه فخرج بعض رجالهم إلى المعز بن باديس وشكروا إليه ما حل بهم وقالوا له نحب أن نكون في طاعتك، ولا سلمنا البلد إلى الروم (انظر ابن الأثير: ج ١ ص ١٩٤) فأرسل ابنه عبد الله في حملة عسكرية إلى الجزيرة لمواجهة البيزنطيين الذين كانوا يهددونها وإعادة الهدوء إليها ولكن بعد فشل حملة جورج منياس عليها، اتفق أهلها على جند المعز الذين قدموا لتجديدهم مما اضطر هؤلاء للعودة إلى إفريقية. بعد ذلك ولّى الصقليون عليهم الحسن الصمصام أخو الأكحل الذي لم يكن أفضل من أخويه فثار عليه الناس وعزلوه سنة ٤٤٤ هـ / ١٠٥٢ م، (انظر ابن الأثير: المصدر السابق ج ١ ص ١٩٤ - ١٩٥، أبو الفدا: المصدر السابق ج ٢ ص ٢٠٠، ابن أبي دinar: المصدر السابق ص ٨٨، د. مارتينو مورينو: المرجع السابق ص ١٧، حسن حسني عبد الوهاب: رواق ق٣، ص ٤٤٥ وما بعدها، أحمد توفيق المدني: المرجع السابق ص ١٤٤ وما بعدها).

(١) ابن الأثير: المصدر السابق ج ١ ص ١٩٤، انظر أبو الفدا: المصدر السابق ج ٢ ص ٢٠٠.
(٢) ابن الأثير: المصدر السابق ج ١ ص ١٩٤، انظر أبو الفدا: المصدر السابق ج ٢ ص ٢٠٠، د. أمبرتو ريتشيانو: العلاقات بين النورمانيين وبني زيري ص ٣.

(٣) تعود بداية الوجود النورماني في جنوب إيطاليا إلى القرن الحادي عشر حيث سادت الاضطرابات تلك المنطقة ووصلت الأنباء إلى نورمانديا بفرنسا بذلك فتشجع صيادو الخط من شباب النورمان على الهجرة إلى تلك المنطقة والتحقروا كجند مرتزقة في جيوش أمراءها، وفي سنة ١٠٣٠ م فتح دوق نابلي جصاعة منهم مقاطعة أفرسا مكافأة لهم على خدماتهم له فكان ذلك بمثابة موطئ قدم لهم، ولكن خطر النورمان لم يظهر بشكل جدي إلا بقنوم جماعة كبيرة منهم يتزعمها أبناء المغامر النورماني الكبير تانكرد هونفيل الاتشي عشر والذين كان من أشهرهم روبرت جيسكار ورجار فبدلوا في جمع قسمل النورمان وتقديم خدماتهم لكل من يطلبها لقاء أموال وأراض عازمين على تأسيس ملك لهم وفي فترة

الطوائف في صقلية الفرصة الذهبية لرجار الذي عرف في التاريخ برجار الأول أحد زعماء النورمان في العدو الإيطالية وذلك بلجونه إليه بعد هزيمته أمام خصمه ابن الحواس^(١) يستعدي عليه هذا الخصم، إذ أخذ يغريه بدخول صقلية ويهون عليه أمرها فوافق هذا بعد

= وجيزة تمكن رجار من السيطرة على إقليم فلورية (كلابريا) واتخذ لقب كونت في حين نجح أخوه الأكبر روبرت في السيطرة على إقليم برليا (أبوليا)، بعد أن طردا البيزنطيين من كلا الإقليمين واتخذ هو الآخر أيضاً لقب دوق، ولم يكنيا بذلك بل أخذتا يتقدمان في أملاك البابوية مما أفرعها وجعلها تستجد بالأميراطور البيزنطي (انظر فصول من رسالة البابا ليو التاسع إلى الامبراطور بهذا الشأن في أحمد توفيق المدني : المسلمون في صقلية وجنوب إيطاليا ص ١٣١) ولكن الامبراطور لم يقدم للبابوية المساعدة المرجوة فالتفتت إلى الألمان لمساعدتها، ولما فشلت في ذلك لم ير البابا بداً من مواجهة النورمان قتاد جيشاً بنفسه لكنه هزم ووقع في الأسر ولم يطلق سراحه إلا بعد دفع فدية كبيرة. وأخيراً رأت البابوية ضرورة التفاهم مع النورمان لتسخيرهم لتحقيق أهدافها فنقلوا الثاني اجتماعاً مع زعمائهم في ملفي سنة ١٠٥٩م والذي اعترف البابا بموجبه روبرت جيسكارد وريتشارد الكابوي أميرين على الأراضي التي كانا قد احتلها ووافقا هما بدورها على أن تكون تلك الأراضي إقطاعاً لهما من البابا أي أصبحتا إقطاعين للكنيسة، وفي نفس الوقت أعلن روبرت عن عزمه بنقل الحرب إلى صقلية لطرد المسلمين منها ووافق البابا على ذلك وعلى أن يكون رجار نائباً للبابا عليها، حدث ذلك قبل دخول النورمان للجزيرة مما يدل دلالة واضحة على صليبية هذه الحرب.

(انظر د. مارتينو مورينو : المرجع السابق ص ١٨، قيسر : المرجع السابق ق ١ ص ١٣٣ - ١٣٤، آرليبالد لويس : المرجع السابق ص ٣٧٣ وما بعدها، أحمد توفيق المدني : المرجع السابق ص ١٣٢،

(H. Mayer : Op. Cit., p.19)

(١) تنسب الخلاف بين ابن الثمنة وابن الحواس بسبب ميمونة أخت ابن الحواس التي كان قد تزوجها ابن الثمنة بعد انتصاره على زوجها السابق ابن المكلاحي وقتله، وحدث أن تنسب خلاف بعد ذلك بينها وبين زوجها ابن الثمنة وكان سكراناً فأمر بفصلها في عضديها حتى تموت. ولما علم ابنه إبراهيم بما حدث أحضر الأطباء وعالجوها حتى شفيت، وقد اعتذر لها زوجها عن ما بدر منه بسبب سكره فأظهرت قبول عذره، وعندما تم شفاؤها طلبت من زوجها أن يسمح لها بزيارة أمها فوافق وزودها بالهدايا فقضت على أمها ما حدث لها فأقسم أن لا يميدها إلى زوجها، ولما أرسل ابن الثمنة يطلبها رفض ابن الحواس إعادتها إليه، فجمع ابن الثمنة جيشه وكان قد ملك معظم الجزيرة وسار إلى ابن الحواس في قصره حيث اشتبك في معركة انتصر فيها ابن الحواس، فهرب ابن الثمنة إلى رجار. (انظر ابن الأثير : المصدر السابق ج ١٠ ص ١٩٦، د. أمبرتو ريمستيانو : المرجع السابق ص ٤ وما بعدها، د. أحمد مختار الصبادي، د. السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ٢٠٧، انظر كذلك رواية المؤرخ النورماني مالاتيرا Malaterra في :

(Norman Daniel : The Arabs and Medieval Europe, p.144 - 145.)

تردد^(١)، حتى إن بعض المصادر الإيطالية تقول : إن ابن الثمنة وضع ابنه رهينة عند روبرت جيسكارد أخو رجار الأكبر وزعيم أسرة هوتفيل مبالغة منه في إظهار حسن نيته^(٢)، حدث ذلك بعيد عقد معاهدة ملفي بين البابوية وزعماء النورمان سنة ١٠٥٩ والتي تعهد روبرت جيسكارد عند إيرامها أنه سينقل الحرب إلى صقلية لاستعادتها من المسلمين فوافق البابا وشجعه على ذلك، فجمع روبرت ورجار قواتهما وعبرا مضيق مسينا ليلاً وبصحبتهما ابن الثمنة سنة ٤٥٢ هـ / ١٠٦٠م بعد أن قام البابا بمباركة الحملة وزودها برأية مقدسة لتساعدوا في تحقيق النصر على المسلمين على حد تعبيره، كما أصر على أن تكون الفتوحات في صقلية باسم المسيح وأنها يجب أن تكون دائمة فذلك أهم بكثير في نظره من إرسال الهدايا إلى روما^(٣) مما ينفي أي مجال للشك في صليبية هجوم النورمان على صقلية، وقد تمكن الغزاة من مفاجأة مسينا واحتلالها كما احتلوا حصن رمتا (Remeta) أيضاً ثم زحفوا واشتبكوا مع ابن الحراس في شهر رجب من ذلك العام في معركة حامية أمام قصريانة هزم فيها ابن الحراس وانتجأ إلى المدينة، فتركه النورمان وشأنه رشا يبيتون أقدامهم في المناطق التي احتلوها، وبعد هذه المعركة عاد روبرت جيسكارد إلى أبوليا تاركاً لأخيه رجار مهمة استكمال الاستيلاء على الجزيرة^(٤).

(١) د. أمبرتو ريتشيتانو : المرجع السابق ص ٥، ابن الأثير : المصدر السابق ج ١٠، ص ١٩٦ - ١٩٧، ابن خلدون : المصدر السابق ج ٥ ص ٢٠٤.

(٢) د. أمبرتو ريتشيتانو : المرجع السابق ص ٥ - ٦، انظر كذلك د. أحمد مختار العبادي، د. السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ٢٠٧.

(٣) Norman Daniel : Op. Cit., p.146.

(٤) تعود علاقة النورمان بصقلية إلى ما قبل بدء احتلالهم لها بزمان طويل، ففي حوالي سنة ٣٠٠ هـ / ٩١٢م كانت جماعة منهم قادمة من الديار المقدسة في طريقها إلى بلادها نورمانديا، فتصادف أن وجدت أثناء مرورها بالجزيرة نشوب قتال بين المسلمين والمسيحيين في بعض نواحيها فاستنجد المسيحيون بهؤلاء فألنجدوهم حيث كسبوا لهم النصر، وبعد المعركة طلب المسيحيون من هؤلاء الغناء لمساعدتهم في حربهم ضد المسلمين، ولكنهم اعتذروا ووعدهم بأن يرسلوا إليهم جماعة أخرى من مواطنيهم لهذا الغرض، وعند رحيلهم زودهم المسيحيون ببعض رواتع ما أنتجت الحضارة العربية الإسلامية في صقلية من منسوجات حريرية وثمار شهية كالبرتقال وسواه والسكر والتي كانت كلها سبجولاً في أوروبا وقتئذ، فأسلت هذه المنتجات لعباب نورمانديا فهدأوا يخرجون في جماعات مجبرون بحار صقلية ويحترقون القرصنة وينهبون الإيطاليين واليونانيين والمسلمين على حد سواء =

فزع المسلمون من دخول النورمان إلى بلادهم ومنهم من أخذ يغادرها إلى إفريقية ثم سافر وفد من أعيان الجزيرة إلى المعز بن باديس يستصرخونه لإغااثتهم، وبالرغم مما كان يعانيه المعز في ذلك الوقت من الهلالية فإنه حشد أسطولاً من أربعمائة سفينة أرسله إلى صقلية ولكن عاصفة بحرية هبت عليه بالقرب من جزيرة قوصرة دمرت معظم سفنه^(١) فكانت تلك فرصة للنورمان لتثبيت أقدامهم في الجزيرة أخذوا يتقدمون بعدها فيها ببطء نتيجة للمقاومة الإسلامية ولكن في ثبات، ولم يلبث ابن التينة أن اغتيل بيد أحد أصحابه سنة ١٠٦٢م جزاء على خيانتة لدينه ووطنه. وقد أثار ما كان يجري في الجزيرة مطامع عدو آخر هو مدينة بيزا التي حاولت انتهاز الفرصة والزج بنفسها في حوادث الجزيرة للمشاركة في الغنمة، فعرضت على رجار عقد اتفاق معه لمساندة قواته البرية بأسطولها من البحر وقد أرسلت أسطولها بالفعل إلى المياه الصقلية لهذه الغاية، ولكن رجار بالرغم من شدة حاجته لتلك المساعدة رفض التعاون معها لأنه لم يكن يرغب في وجود شريك له في الجزيرة، فما كان من ذلك الأسطول إلا أن شن هجوماً منفرداً على بلرمة (بالرم، بالرمن) سنة ١٠٦٣م محاولاً الاستيلاء عليها، ولما لمس صعوبة تحقيق ذلك لافتقاره لمساندة القوات البرية عمد إلى النهب والتخريب فأحرق البساتين المحيطة بها ودمر السفن الراسية في مينائها ثم انسحب محملاً بالأسرى والغنائم حتى إنه سلب السلسلة الضخمة التي كانت تسد باب ميناء تلك المدينة^(٢).

وأما رجار فقد استمر في تقدمه في الجزيرة خاصة بعد أن عقد مع تميم ابن المعز معاهدة الصداقة وحسن الجوار سنة ٤٦٨هـ / ١٠٧٥م كما سنذكره فيما بعد وكان آخر ما صمد من مدنها في وجهه مدينتي جرجنت وقصبريانة فحاصرها شديداً حتى اضطر أهلها لأكل الحيف والجلود، ولما لم يبق لدى أهل جرجنت ما يأكلونه استسلموا له، وبقيت قصبريانة

= ويتحينون الفرصة للنزول في الجزيرة وقد تمكنت جماعة منهم أخيراً من إنشاء مركز لها في بعض نواحيها تحصنت فيه وجعلته مركزاً لعملياتها ولكن إقامتهم لم تطل إذ على ما يبدو أن المسلمين طردوهم منه سريعاً. (انظر أحمد توفيق المدني: المرجع السابق ص ١١٦).

(١) ابن الأثير: المصدر السابق ج ١٠ ص ١٩٧، د. أمبرتو ريستاتو: المرجع السابق ص ٧، د. مارتينو مورينو: المرجع السابق ص ٨، د. أحمد العيادي، د. سالم: المرجع السابق ص ٢٠٨.

(٢) David Abulafia: The Two Italies, p.52.

تدافع عن نفسها دفاعاً بطولياً ثلاث سنوات أخرى حتى اضطرت للتسليم في سنة ٤٨٤هـ/ ١٠٩٠م^(١) وبذلك استكمل رجاء استيلائه على الجزيرة بعد أن استغرق منه ذلك ثلاثين سنة.

جـ - إفريقية :

كانت إفريقية هي الجبهة الثالثة التي فتحتها الحركة الصليبية على المسلمين في غرب العالم الإسلامي، والتي لم تكن غالبة عن أذهان المخططين لهذه الحركة، ولكن أدوار القوة التي مرت بها كانت تقف حائلاً دون البدء في تنفيذ ما يرغبون، أما وقد تردت الأوضاع فيها إلى الحد الذي أشرنا إليه فيما تقدم، فإن هذه الحركة وجدت أن الوقت قد حان لتحقيق أهدافها فيها، ومثلت المدن البحرية الإيطالية وبصفة خاصة مدينتي بيزا وجنوة القوة الضاربة للحركة الصليبية آنذاك في هذه الجبهة، وتحاول العديد من المراجع الغربية صرف الأذهان عن الهدف الحقيقي للهجوم الذي شنته أساطيل تلك المدن على إفريقية بقصر ذلك على أهداف اقتصادية فقط دوافعها التنافس التجاري أو القضاء على القرصنة لتأمين الطرق التجارية أو لنيل مكاسب وامتيازات تجارية إلى غير ذلك، فيقول (W. Heyd) إن تيم بن المعز دفع بأسطوله للقيام بأعمال القرصنة حتى اشتهر بذلك وامتد نفوذه على كامل البحر الأبيض المتوسط. فنشر بذلك الرعب على المنطقة كلها، كما اتخذ من الأسرى المسيحيين الكثيرين الذين كان يأمرهم رجاله عبيداً له^(٢)، ويقول (K. M. Setton) إن الزيرين حاولوا استعادة ثرواتهم بالانجاء إلى البحر مستفيدين من كون المهدي قاعدة بحرية منيعة، فأرسلوا الحملات إلى صقلية وغيرها وأخلوا يهاجمون السفن الإيطالية، ورداً على هذه القرصنة قامت المدن البحرية الإيطالية بالهجوم على المهدي سنة ٤٨٠هـ / ١٠٨٧^(٣)، كما يقول David Abulafia^(٤) ويؤيده في ذلك كل من W. Heyd^(٥) وشاخت^(٦) إن تميم بن المعز

(١) ابن الأثير : المصدر السابق ج ١٠ ص ١٩٨ .

(٢) W. Heyd : Op. Cit., vol. I, p.121 - 122

(٣) K. M. Setton : A History of the Crusades, Vol, 2, p18.

(٤) David Abulafia : Op. Cit., p.52 - 53 .

(٥) W. Heyd : Ibid, vol.1. p.121.

(٦) شاخت وبوزوث : تراث الإسلام ص ٣٣١ - ٣٣٢ .

سد أبواب المهدية في وجه التجار الإيطاليين وخاصة البيازنة وأساء إليهم، ويتجاهلون تجاهلاً تاماً أن الغرض الحقيقي لهذا الهجوم كان لتحقيق أهداف الحركة الصليبية، ومتناسين أن هنالك عدة أدلة تؤكد هذه الحقيقة.

ومن أهم هذه الأدلة أن هذا الهجوم قد تم بعلم البابوية وبمباركتها ومساندتها المعنوية بل والمادية أيضاً، فقد شاركت في هذا الهجوم بكتائب من قواتها وتحمل رايتها، هذا بالإضافة إلى أن قائد الحملة التي قامت بهذا الهجوم وهو Praesul Benediches قد تم تعيينه من قبل البابا نفسه^(١)، لذلك فإن وجد أدنى شك في صليبية هجوم المسيحيين الإسماع على مسلمي الأندلس، أو هجوم النورمان على مسلمي صقلية، مع أننا فيما تقدم أوردنا من الأدلة ما يكفي في اعتقادنا لإزالة هذا الشك، فإنه ليس هنالك ثمة مجال لهذا الشك في صليبية الهجوم على إفريقية نظراً لمشاركة البابوية الفعلية فيه من ناحية، ثم لكون قسطنطين الإفريقي المعروف بنزعه الصليبية كان الموجه لذلك الهجوم^(٢) من ناحية ثانية، يضاف إلى ذلك دليل آخر هو اشتراك أسقف مودينا نفسه فيه وأخيراً ما أضافه المهاجمون من أنهم في طريقهم إلى المهدية شاهدوا حالة في السماء تمثل القديس بطرس يقودهم نحو النصر^(٣) مما يعطي الانطباع بأن الهوس لدى المهاجمين للعمل من أجل المسيحية قد بلغ بهم حداً - إن صحت الرواية - بحيث يهيا لهم مثل هذه التهيؤات. ويؤكد ذلك ما ذكره Robert S. Lopez من أن المهاجمين كانوا مشحونين بالتعصب الديني ضد الكفرة - أي المسلمين في

(١) W. Heyd : Op. Cit., vol. 1, p.121 - 122. M. M. A.Basset : Op. Cit., p.88.

(٢) M. M. A. Basset : Op. Cit., p.88.

وتعود علاقة قسطنطين الإفريقي بهذه الحملة إلى علاقته القوية بالبابا فيكتور الثامن المسجج الرئيسي لها، ذلك أن هذا البابا كان قبل احتلاله كرسي البابوية رئيساً للدير سانت كاسين الذي كان يقيم فيه قسطنطين وكان اسمه آنذاك ديسيدريوس (Desiderius) وأثناء رئاسته لذلك الدير انتخب بابا سنة ١٠٨٥م لذلك ارتبطا بصلة صداقة حميمة، وكان من الطبيعي أن يقوم هذا البابا عندما بدأ التفكير في توجيه هذه الحملة باستشارة قسطنطين لمعرفة الواسعة إفريقية بحكم مولده ونشأته فيها والذي لم يخل بتزويده بكل ما لزمه من معلومات. (عن العلاقة بين هذا البابا و قسطنطين الإفريقي انظر :
(Thomas Curtiz Van Cleave : The Emperor Frederick II p.289.

(٣) انظر د. سعيد عاشور : بعض أضواء على العلاقات بين بيزا وتونس ص ٣٩.

زعمهم -، وإن حملتهم كانت صورة مصغرة للحملة الصليبية الأولى على المشرق^(١). لكل ذلك فإن هذا الهجوم الذي تعرضت له إفريقية ومدينة المهديّة بالذات في سنة ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م كان هجوماً صليبياً واضحاً، وإن برزت في ثانياً أهدافه بعض الأهداف الثانية الأخرى التي شتت انتباه بعض الباحثين إليها مع أنها لا تتعارض أصلاً مع الأهداف الصليبية بل هي من صميمها. والذي يسترعي الانتباه حقاً هو هذا التوافق الزمني بين سقوط طليطلة في يد النصارى الإسبان سنة ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م وسقوط مرقومة المدينة الصقلية العريقة في يد النورمان في نفس ذلك العام أيضاً، والهجوم على المهديّة سنة ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م، فهل لعبت الصدفة وحدها الدور الأكبر في هذا الأمر؟ إن المرء ليشك في ذلك كثيراً لا سيما وأن البابوية كانت هي القوة المحركة لهذا الهجوم في اتجاهاته الثلاث.

مهاجمة المهديّة سنة ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م :

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي تهاجم فيها إفريقية من قبل قوى أوروبية منذ تحول ميزان القوى في البحر الأبيض المتوسط لصالح أوروبا، ففي سنة ٤٢٦ هـ / ١٠٣٤ م تعرضت بونة (عباية) إلى الهجوم الكبير الذي قاده أمير كورسيكا كما سبق أن ذكرنا، كما يذكر ابن عذاري أنه في سنة ٤٣١ هـ / ١٠٣٩ م تعرضت جزيرة جربة لهجوم مماثل قامت به جيوش قال إنها من مالطة وقلت كثيراً من أهلها^(٢). كذلك ينقل حسن حميني عبد الوهاب عن الذخيرة لابن بسام أن أسطول الروم فاجأ المهديّة ليلاً^(٣) أثناء إقامة المعز بن باديس بها أي خلال الفترة ٤٤٩ - ٤٥٣ هـ / (١٠٥٧ - ١٠٦١ م)، ولكن الهجوم الذي تعرضت له المهديّة سنة ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م يختلف عما سبقه من الغارات بكبر حجمه ووضوح الهدف

(١) Robert S. Lopez : The Commercial Revolution of the Middle Ages, p.65.

(٢) ابن عذاري : المصدر السابق ج ١ ص ٢٧٥ . ولا ننري ما الذي قصده ابن عذاري بمالطة، هل هي ملطية أو مليطو (Malito) التي عناها عند قوله أن ابن التمنية قد ذهب إليها حيث قابل رجار فيها، أم هي مالطة المروقة؟ وإن كنت أستبعد الافتراض الثاني لأن مالطة الجزيرة كانت في ذلك الوقت لا تزال إسلامية، وقد قاومت في سنة ١٠٤٠ م أي بعد ذلك بنام الهجوم البيزنطي عليها، وبقيت إسلامية حتى سنة ١٠٩١ م حينما استولى عليها رجار الأول بعد استكمال الاستيلاء على صقلية.

(٣) حسن حميني عبد الوهاب : بساط العقيق، ص ٩١ .

الصليبي له.

تم الإعداد لهذا الهجوم الذي اشتركت فيه قوات من بيزا وجنوة وألماني والبابوية كما أسلفنا القول بعناية، ويضيف (W. Heyd) أن قوات ألماني ضمت جنوداً من روما أيضاً^(١)، وقد حاول الحلفاء إشراك رجاء الأول في مشروعهم ولكنه رفض^(٢) لا ترفعاً عن العدوان أو تمسكاً بمعاهدة حسن الجوار التي كان قد عقدها مع عميم بن المعز كما ادعى، ولكن لأنه كان يرغب في حصر جهوده في استكمال استيلائه على صقلية فذلك أجدى له من تشتيت قواه من ناحية، ثم لأن إفريقية كانت هي هدفه التالي للاستيلاء عليها ولكن دون شركاء خاصة أن هؤلاء لم يكونوا يثقون عنه طمعاً وخشياً. وقد أبحرت هذه القوات التي قدرتها المصادر الإسلامية بثلاثين ألف جندي تحملهم ثلاثمائة سفينة^(٣)، قاصدة المهديّة التي كانت في تلك الآونة قد بدأت تشهد نهوضاً وانتعاشاً اقتصادياً ملحوظاً منذ أن أصبحت حاضرة الإمارة الزيرية^(٤)، فنزلت في زويلة الربض التجاري للمهديّة واستولت عليها. ثم هاجمت المهديّة نفسها واستولت عليها باستثناء قلعتها، والمستفاد من روايات العديد من المصادر التاريخية الإسلامية التي يبدو أنها استقت من مصدر واحد أن هذه الحملة لم تواجه مقاومة إسلامية، إذ يعلل ابن عذاري سهولة استيلاء المهاجمين على المدينة بسبب (غية عسكر سلطانها عنها، ومفاجأة الروم قبل استقدامه إليها، وأخذ الأهبة للقائهم، وخلو كافة الناس من الأسلحة والعدد، وقصر الأسوار وتهدمها، وتكذيب عميم بخبرهم، وسوء تدبير عبد الله بن منكور متولي أمور الدولة في قصده مخالفة قائد الأسطول في الخروج إليهم للقائهم في الماء ومنعهم من النزول في البر. فكان ذلك كله سبب تغلبهم على المدينتين المهديّة وزويلة، ونهبهم لهما، وقتلهم الناس فيهما، وإحراقهم بالنار)^(٥)، ويؤيده في ذلك ابن مقديش الصفاقسي^(٦)

W. Heyd : Op. Cit., vol. I, p.121.

(١)

D. Abulafia : Op. Cit., p.52.

(٢)

(٣) ابن خلفون : المصدر السابق ج ٦ ص ١٦٠، ابن عناري : المصدر السابق ج ١ ص ٣٠١، ابن الخطيب : أفعال الأعلام ق ٣ ص ٧٨.

D. Abulafia : Op. Cit., p.52.

(٤)

(٥) ابن عذاري : المصدر السابق ج ١ ص ٣٠١.

(٦) ابن مقديش : المصدر السابق ورقة ١٣٦.

والوزير السراج^(١) وغيرهم، والذي أراه أن هذا التعليل ينافي الحقيقة والواقع من عدة وجوه :

١ - كيف يكون أهل المهديّة خلوا من السلاح والعدد وهم المهددون في كل وقت إن لم يكن من العدو الصليبي فمن المناوئين لقيمهم، وكم من طامع منهم زحف على المهديّة لاحتلالها وعاد خائباً كما سبق أن أشرنا إلى ذلك، وينطبق هذا التساؤل على القول بقصر الأسوار وتهدمها وهي للمدينة التي أجمعت المصادر التاريخية الإسلامية وحتى الغربية منها على حصانتها وشدة مناعتها خاصة في تلك الفترة إذ أنها كانت حاضرة الإمارة الزيرية وقاعدة أسطولهم الذي نشر الرعب في كامل مياه البحر الأبيض المتوسط على حد تعبير (W. Heyd)^(٢)، فكلّا الأمرين لا يصدقهما العقل ويفيهما المنطق. وأما القول بغلبة العسكر عن المدينة، فإن أياً من هذه الروايات لم تشر إلى الجهة التي كان ذلك العسكر غائباً فيها، فلو كان الأمر كذلك لأشارت رواية واحدة منها على الأقل لتلك الجهة.

٢ - هذه الرواية ومثيلاتها تتضمن نقضها في طياتها لسببين :

أ - لقد جاء فيها أن تميم قد كذب بخبرهم، ومعنى ذلك أنه قد علم بأمر الحملة قبل وصولها، ولم يكن يمكن تميم من الحكام اللامبالين الذين لا يعدون للأمر عدته ولو من قبيل الاحتياط.

ب - تنسب هذه الرواية أحد أسباب هذا الاحتلال لسوء تدبير عبدالله بن منكور (أو ابن منكوت كما تسميه بعض المصادر الأخرى) لأنه خالف قائد الأسطول عثمان بن سعيد المعروف بالمهر في الخروج للقاء أسطول الأعداء في البحر ومنعهم من النزول إلى البر، فيدل ذلك دلالة واضحة على أن أسطول تميم كان موجوداً في المهديّة أثناء الهجوم، وإلا فبأي شيء يريد قائده أن يخرج إلى البحر لمواجهة أسطول مكون من ٣٠٠ سفينة كما تقول بعض المصادر أو ٤٠٠ سفينة كما تقول مصادر أخرى إن لم يكن لديه القوة المواجهة له؟ وعلى ذلك إن كان هذا الأسطول موجوداً في المهديّة فهل وقف جنده موقف المتفرج من هذا الهجوم؟

لذلك، فإنني أعتقد أن ما جاء في هذه الرواية ومثيلاتها لا يمثل كامل الحقيقة، بل إنها

(١) الوزير السراج : المصدر السابق ج ١ ص ٢٤٧ .

W. Heyd : Op. Cit., vol. I, p.121.

(٢)

أغفلت عنصراً هاماً من عناصر هذه الحقيقة هو المقاومة الإسلامية للمهاجمين، ولما كانت هذه الروايات متأخرة نوعاً ما عن حوادث تلك الحملة فإنه من غير المستبعد أن تكون قد نقلت عن مصدر عاصرها ولم يصلنا، برر احتلال المهدي بهذا التبرير رهبة أو مجاملة لأمر بني زيري، ومحاولة إخفاء الحقائق مداراة للحكام أمر شائع لدى بعض المؤرخين المسلمين.

والأصح من هذه الرواية ومثيلاتها هو ما ورد في بعض الوثائق المسيحية «والفضل ما شهدت به الأعداء» كما يقال، من أن المسلمين واجهوا هذه الحملة بمقاومة شديدة، ولكن المهاجمين تغلبوا عليهم بكثرة عددهم وربما عددهم وبلاستفادة من بعض الأخطاء العسكرية التي وقع فيها المسلمون مثل منع الأسطول من الخروج لمواجهة أسطول العدو في البحر، مما مكن المهاجمين من اقتحام أسوار المدينة ودخولها، ومن هذه الوثائق قصيدة نظمها باللاتينية شاعر من ييزا في أعقاب تلك الحملة تناولت حوادثها وسموها *(Carmen In Victoriam Pisanorum)* أي (قصيدة في انتصار البيازنة) بينت هذه المقاومة بوضوح فقد جاء في الأبيات ٦١ - ٦٥ من أبياتها الثلاثة والسبعين ما ترجمته :

(بينما كانوا - أي الغزاة - واقفين ينظرون إلى الغنائم إذ أبصروا القبائل العربية تدخل زويلة - ويسمىها Sibilia - ففر الجنود المشاة هنا وهناك بسرعة تفوق سرعة الريح، وحارب الفرسان بسرعة تفوق سرعة الريح الشرقية، كان هؤلاء العرب مهرة ومحنكين في فن الكر والفر، كما كانوا يجيدون إصابة مقاتل أعدائهم بينما هم - أي العرب - في حالة الفر، وكانوا أسرع من على وجه الأرض في الالتفاف في دوائر، كانوا يمتطون جياداً نحيفة - أي خفيفة - يوجهونها بأجسادهم، وقد استحوذ مائة ألف من أولئك الأشخاص على زويلة إذ فر منها البيازنة، وزحفوا - أي العرب - نحو الشاطئ الذي اكتظ بهم وأوقعوا هزيمة بالبيازنة الذين كانوا يتولون حراسة الميناء، ولما سمع النبلاء المسكرون في المهديّة - ويسمىها Madia - بما حدث انتظموا في صفوف وخفوا للنجلة بسرعة تفوق سرعة الفهود، وكان الملك تميم - ويسمىه Taminus - يرقب ما يجري من أبراجه الشاهقة، ويتطلع بسرور إلى الأخطار المنقطة بالفتن، إلا أن العرب لم يطمئنا إلى أسلحتهم أو شجاعتهم بل فروا بسرعة مذهلة، وتعرض من بقي منهم للقتال وجهاً لوجه لأسلحة البيازنة

التي كانت تخرق أجسادهم كما ذبحهم البيازنة أيضاً بمسوفهم^(١).

وبصرف النظر عن ماورد في هذه القصيدة من مبالغات، إلا إنه يستفاد منها أن المقاومة الإسلامية للمهاجمين كانت عنيفة إلى حد أنهم أخرجوهم من زويلة كما أنهم اشتبكوا معهم في قتال مرير في شاطئ المهدية مما أجبر أصحابهم الذين كانوا في تلك المدينة على الخروج منها لنجدتهم. ولعل ما ذكره D. Abulafia عن هذه الحملة ما يؤكد هذه الحقيقة إذ يقول : (وفي سنة ١٠٨٧ هاجم الأسطول الإيطالي المهدية على أمل الاستيلاء عليها، وبعد قتال مرير طرد الإيطاليون، ولكن ليس قبل دخولهم المدينة)^(٢).

وقد استباح الغزاة المدينة وأعملوا فيها القتل والتدمير والأسر والنهب حتى ملأوا مراكبهم بالأسرى والأسلاب، أما تميم الذي كان قد لجأ إلى قلعتها، فقد وجد أفضل وسيلة لإخراجهم من المدينة هي مغاضتهم على ما يقنعهم بالانسحاب، ولم يكن هؤلاء أقل رغبة منه في ذلك، إذ أنهم رأوا استحالة بقائهم في المدينة واتخاذها موطن قدم لهم في إفريقية نتيجة لشدة المقاومة الإسلامية وما كانوا يتوقعونه من وصول النجذات إليها من نواحي عديدة من إفريقية وبصفة خاصة من الهلالية الذين كانت بطون منهم قد دخلت المعركة بالفعل فأكثر ما ينطبق الوصف الذي ورد في الأبيات أعلاه عليهم وعلى أسلوبيهم في القتال فضلاً عن جموع المجاهدين من مراكطين وسواهم التي كان من المتوقع وصولها لمجاهدة العدو الصليبي، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية لافتقارهم إلى القوة البرية اللازمة لمساندة الأسطول في عملياته العسكرية، وقد حاولوا التنسيق مع النورمان لزيادة قدرتهم الحربية، فعرضوا المدينة على رجار فرفض^(٣) للأسباب التي ذكرناها آنفاً، فضلاً عن أن المدن البحرية الإيطالية التي قامت بهذا الهجوم كانت تعي تماماً أن إمكانياتها البشرية لوحدها لا تمكنها من المحافظة على نتيجة النصر الذي أحرزته وهي عن التوسع أصعب، ولما فشلت في إيجاد من يؤازرها ويتعاون معها أدركت أن انتصارها هذا مؤقتاً وأنها ستخسر المدينة إن عاجلاً أم آجلاً، لذلك لم تجدد بدءاً من الوصول إلى اتفاق مع تميم، وفعلاً دارت

English History Review, vol. 362, January, 1977.

(١)

D. Abulafia : Op. Cit., p.52.

(٢)

(٣) شاخت وبوزورث : المرجع السابق ص ٣٣١ - ٣٣٢ .

المفاوضات بين الطرفين وتم عقد صلح بينهما فرض الغزاة بموجبه على تميم شروطاً ثقيلة هي أقرب إلى الابتزاز منها إلى الصلح اضطر الأخير لقبولها، وانسحبوا عائدين بغنائمهم إلى بلادهم. وأهم ما يستخلص من شروط هذا الصلح ما يلي :

١ - حصل الغزاة على فدية مالية ضخمة قدرتها المصادر الإسلامية بمائة ألف دينار بين نقد وأواني ذهبية وفضية^(١).

٢ - وافق تميم على فتح أبواب إمارته لتجار المدن المتحالفة لممارسة نشاطهم فيها^(٢)، مما فسح المجال أمامهم لفتح أرباح كبيرة.

٣ - وافق تميم على إطلاق جميع الأسرى المسيحيين الموجودين لديه^(٣)، في حين عادت سفن الغزاة محملة بأسرى المسلمين^(٤).

٤ - تعهد تميم بعدم التعرض لسفن المدن المتحالفة في المياه الإفریقیة^(٥).

ولكن، هل حقق هذا الهجوم أهدافه؟ في الحقيقة أنه لم يحقق إلا جزءاً ضئيلاً منها إذا ما قورن بما كان مقدراً له، ويمثل هذا الجزء بمكاسب اقتصادية فقط، ولعل ذلك كان من بين الأسباب التي حملت البعض على الاعتقاد بأن هذه الحملة لم تكن تنصف بالصليبية، فقد حصلت المدن البحرية الإيطالية على امتيازات تجارية وأمنية لسفنها هذا بالإضافة إلى المبلغ الضخم الذي

(١) انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ١٦٠، ابن الخطيب : أعمال الأعلام، ق ٣ ص ٧٨، ابن مقديش الصفقاسي : المصدر السابق ورقة ١٣٦ . الوزير السراج : المصدر السابق ج ١ ق ٢ ص ٤٦٧ وما بعدها، الباجي المسعودي : المصدر السابق ص ٤٩ . د. سعيد عاشور : بعض أضواء على العلاقات بين ييزا وتونس ص ٣٩، د. أحمد مختار العبادي، د. السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ٢٠٥ .

(٢) W. Heyd : Op. Cit., vol. I, p.122 Robert S. Lopez : Op. Cit., p.65. (٢)

كذلك د. سعيد عاشور : بعض أضواء على العلاقات بين ييزا وتونس ص ٣٩ .

(٣) W. Heyd : Ibid, vol. I, p.122. (٣)

(٤) يستفاد من رواية ابن مقديش الصفقاسي (المصدر السابق ورقة ١٣٦) أن أخذ الأسرى المسلمين معهم إلى أوروبا كان شرطاً في هذا الصلح، إذ يقول : (... إلى أن وقع الصلح بينه - تميم - وبينهم على مائة ألف دينار تدفع لهم ويقلعون بما حصل في أيديهم من المسلمين فدفعتهم لهم وأقلعوا بأموال المسلمين ونسائهم وأبنائهم). انظر عن هذا البند ابن الخطيب : أعمال الأعلام ق ٣ ص ٧٨ .

(٥) د. أحمد مختار العبادي، د. السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ٢٠٥ .

كسبته والذي مكنتها من زيادة قوتها البحرية ببناء سفن جديدة وتجهيد بحارة جلد مما دعم التضخيم في الهيكل الاقتصادي لهذه المدن والذي كان قد حصل منذ بدء مغامرتها في البحر^(١)، كما أدى إلى زيادة رأس المال المستخدم في التجارة والذي وسع بدوره القاعدة التجارية لهذه المدن^(٢)، يضاف إلى ذلك أن هذه الأموال أتاحت الفرصة لهذه المدن لتنفيذ بعض مشاريعها الهامة، فقد مكنت بيزا مثلاً من تشييد كاتدرائيتها المشهورة المسماة بكاتدرائية القديس سيسو (San Sisto) في (Corteverchia)^(٣) والتي بالإضافة إلى كونها أنشئت من هذه الأموال، قيل: إنه استخدم في بنائها وتأسيسها بعض قطع الرخام والتحف والزخارف التي نهب من المهديّة^(٤).

لكن هذا الهجوم فشل في تحقيق أهدافه الأخرى، إذ لم يتمكن الغزاة من الاستقرار في المهديّة واتخاذها قاعدة لعملياتهم المستقبلية لاستكمال احتلال إفريقية، كما أنه فشل في توجيه ضربة قاصمة للبحرية الزيرية، إذ أنها استمرت في تدعيم قوتها بحيث تمكنت في سنة ٤٩٨هـ / ١١٠٤م أي بعد هذا الهجوم بفترة وجيزة من صد هجوم آخر تعرضت له المهديّة قام به هذه المرة أهالي روما^(٥)، كما أنها أرهبت في زمن يحيى بن تميم (٥٠١ - ٥٠٩هـ) سواطي جنوب غرب أوروبا، الذي دأب على ترديد (البعوث إلى دار الحرب حتى اتقته أم النصرانية بالجزيرة من وراء البحر)^(٦).

نستخلص مما تقدم أن الحركة الصليبية منذ أواسط القرن الخامس الهجري (الحادي عشر للميلاد) قد شنت هجوماً كبيراً على المسلمين في غرب العالم الإسلامي في ثلاث جهات هي الأندلس وصقلية وإفريقية، ومع أنها لم تحقق كافة أهدافها في الأندلس نتيجة لتدخل المرابطين، كما أنها صدت في الجبهة الإفريقية، إلا أنها نجحت في صقلية واستطاعت سلبها

(١) Robert S. Lopez : Op. Cit., p.65.

(٢) D. Abulafia : Op. Cit., p.49 - 50.

(٣) D. Abulafia : Ibid, p.52.

(٤) د. سعيد عاشور : بعض أضواء على العلاقات بين بيزا وتونس ص ٣٩ - ٤٠ .

(٥) عن هذه الغزوة انظر ابن عذاري : المصدر السابق ج ١ ص ٣٠٢ وما بعدها، محمد بوراس الجري : المصدر السابق ص ٢٦ حالية ٢، الباجي المسعودي : المصدر السابق ص ٤٩ . د. سعيد عاشور : بعض أضواء على العلاقات بين بيزا وتونس ص ٤٠، د. أحمد مختار العبادي، د. السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ٢٠٥، حسن حسني عبد الوهاب : خلاصة تاريخ تونس ص ١١٥ .

(٦) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ١٦٠، ابن عذاري : المصدر السابق ج ١ ص ٣٠٤ وما بعدها ابن أبي دينار : المصدر السابق ص ٩٠ .

عن بلاد المسلمين، وما كاد ذلك القرن يشارف على الانتهاء حتى فتحت ميداناً جديداً للصراع الإسلامي الصليبي بالإضافة إلى ميداني الأندلس وإفريقية ألا وهو ميدان المشرق، فكانت الحركة الصليبية تدبر دقة الصراع مع المسلمين في هذه الجبهات في آن واحد، وقد أدرك العديد من المؤرخين المسلمين حقيقة الهجوم الصليبي على العالم الإسلامي في تلك الآونة، وأدركوا الصلة والروابط بين الصليبيين المحاربين في الجبهات الأتفة الذكر، وأن هجومهم فيها كلها هو عبارة عن وجوه لأصل واحد، وأشاروا إلى ذلك في مؤلفاتهم، مثل ابن الأثير الذي ربط بين الهجوم على غرب العالم الإسلامي وشرقه بوضوح في حوادث سنة ٤٩١هـ كما سبق أن ذكرنا، كما كان أبو الحسن علي بن طاهر السلمي صاحب (كتاب الجهاد)^(١) المتوفى سنة ٤٩٨هـ / ١١٠٣م أي بعد أقل من خمس سنوات من وصول الصليبيين إلى بلاد الشام يقول أثناء تدريسه لكتابه الأتف الذكر في الجامع الأموي بدمشق بأن الغزو الصليبي لبلاد الشام هو جزء من هجومهم على المسلمين في المغرب الإسلامي، وكان يعتبر أن كلا الهجومين مترابطان وأن كافة جبهات الصراع الإسلامي الصليبي هي فروع لأصل واحد^(٢)، ويؤكد ابن خلدون هذه الحقيقة في عدة مواضع من تاريخه فيقول مثلاً في معرض حديثه عن الصليبيين الذين هاجموا بلاد الشام : (وكانت دولة هؤلاء الإفرس منهم من أعظم دولهم واستفحل أمرهم بعد الروم وصلبراً من دولة الإسلام العربية، فسموا إلى ملك بلاد المشرق من ناحيتها وتغللبوا على جزر البحر الرومي في آخر المائة الخامسة وكان ملكهم لذلك العهد بردويل فبعث رجالاً من ملوكهم إلى صقلية وملكها من يد المسلمين سنة أربع وثمانين وأربعمائة ثم سمحوا إلى ملك ما وراء البحر من إفريقية وبلاد الشام...) ^(٣)، وما دام هذا الترابط بين نشاط الحركة الصليبية في هذه الجبهات كان معروفاً لدى كثير من المسلمين، فهل وجد مثل هذا الترابط بين شرق العالم الإسلامي وغربه لمواجهة هذا الخطر؟

(١) توجد نسخة من هذا الكتاب في المكتبة الظاهرية بدمشق، وقد انتشر في المغرب انتشاراً فاق انتشاره في المشرق لدرجة كبيرة لشدة اهتمام المغاربة بالجهاد وما يتصل به، فكان يدرس في المدارس والجامع والزوايا حتى بات من المعتاد لدى الكثيرين أنه مغربي، وتبعاً لذلك يوجد منه عدة نسخ في المكتبات الوطنية بأقطار المغرب العربي.

(٢) شاخت ويوزورث : المرجع السابق ص ٢١٧، حاشية.

(٣) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٥ ص ١٨٧، انظر كذلك ج ٣ ص ٢٠١ - ٢٠٢.

﴿قاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين﴾ .
[سورة التوبة : آية ٣٦]

الهجوم الصليبي على المشرق وصداه في المغرب

(اتجاه النشاط الصليبي إلى المشرق وأسبابه - أثر نجاح الحملة الصليبية الأولى على المغرب الإسلامي - إفريقيا والدعوة لتوحيد الجهود لمواجهة العدوان - إفريقيا ومواجهة الحركة الصليبية في : أ - الأندلس. ب - صقلية. ج - المشرق)

إنهاء النشاط الصليبي إلى المشرق وأسبابه :

إذا كانت الحركة الصليبية بمعناها الواسع تستهدف ضرب المسلمين في كل مكان يمكن النيل منهم فيه، فإننا لا ننسى أن مكانة بيت المقدس وما حولها من بلاد في تاريخ المسيحية جعلت هذه المنطقة هدفاً أساسياً من أهداف الحركة الصليبية، خاصة وأن انطلاقها في الغرب قد حققت من النتائج قدراً كان كافياً لتشجيعها على المضي قدماً في سبيل تحقيق كافة أهدافها وبرز في أواخر القرن الخامس الهجري (الحادي عشر للميلاد) الحافظ الهام الذي حرك مسيحيي غرب أوروبا وجعلهم يصابون بحمى حرب المسلمين وشد أنظارهم تجاه المشرق بصفة خاصة، ذلك الحافظ هو توالي ورود الأنباء عليهم بتداعي الدولة البيزنطية أمام سلاجقة الروم الذين كانوا يسدون لها ضرباتهم القوية، وفزعت أوروبا لهذه الأنباء لا حرصاً على سلامة هذه الدولة التي لم تكن تكثرت بها بل وكانت تمنى لإزالتها من الوجود نظراً للعداء المذهبي المستحكم بين الطرفين، على أن يكون ذلك بفعل قوة كاثوليكية لا قوة إسلامية، ولكن ذلك الفرع كان حرصاً على سلامتها مي، إذ لو سقطت هذه الدولة لانهار بسقوطها ذلك السد المنيع الذي وقف حائلاً دون وصول المسلمين إلى قلب أوروبا منذ عهد الفتوحات الإسلامية الأولى، ولأصبحت أوروبا في موقف المدافع من جديد بدلاً من موقف المهاجم الذي اتخذته منذ مطلع ذلك القرن، وامتزج هذا العمل بعوامل أخرى عديدة^(١) تضافرت كلها لدفع الصليبيين لغزو المشرق الإسلامي.

وكانت الظروف مواتية لتنفيذ هذا المشروع، فأوضاع المسلمين في المشرق لم تكن

(١) لمزيد من التفصيل عن هذه العوامل انظر د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية، ج ١ ص ٢٨ وما بعدها.

أفضل من أوضاع إخوانهم في المغرب، فكلا الخلافتين العباسية والفاطمية كانتا آيلتين للسقوط، وامبراطورية السلاجقة التي كانت قد جددت قوة المسلمين في المشرق كانت قد تفسخت إلى دويلات وإمارات عديدة، ولم تكن هذه الأمور لتخفى على أقطاب الحركة الصليبية لا سيما وأن الاتصال بين المشرق والمغرب كان قد شهد منذ أواسط ذلك القرن نشاطاً ملحوظاً سواء عن طريق التجارة أو عن طريق تزايد أعداد زوار الديار المقدسة من الأوروبيين، لذلك، وفي اجتماع عام عقد في كليرمونت سنة ١٠٩٥م، أعطى البابا أوربان الثاني إشارة البدء للزحف الصليبي إلى المشرق، وقد حققت الحملة الصليبية الأولى نجاحاً كبيراً بالرغم من المصاعب الكثيرة التي واجهتها في طريقها إلى بلاد الشام، تمثل ذلك في الانتصارات التي أحرزتها وتمكنها من تأسيس أربع إمارات صليبية في الأراضي التي استولت عليها هي مملكة بيت المقدس وإمارات الرها وأنطاكية وطرابلس.

أثر نجاح الحملة الصليبية الأولى على المغرب الإسلامي :

امتدشرت أوروبا وعمها الفرح والابتهاج بالنتائج التي حققتها الحملة الصليبية الأولى على المشرق، ودب الحماس والحمية في نفوس النصارى الإسبان الذين كانوا قد منعوا من الاشتراك في تلك الحملة خوفاً من اختلال الجبهة الصليبية في المشرق والمغرب على حد سواء، إذ رأت الحركة الصليبية أن نقصان المقاتلين الإسبان في ميدان الأندلس يرحلهم إلى المشرق سيؤدي إلى ظهور المسلمين في ذلك الميدان، وإذا سمح لهؤلاء بالعودة للدفاع عن وطنهم فإن ذلك سيضعف القوة الصليبية في ميدان المشرق في وقت قد يكون حساساً مما قد يؤثر على الوجود الصليبي في ذلك الميدان أيضاً، وزاد هذا الحماس بقدم جموع غفيرة من أنحاء أوروبا إلى إسبانيا بعد أن منحت البابوية في سنة ١٠٩٨م الصليبيين الممارين في الجبهة الأندلسية نفس الامتيازات الممنوحة للمحاربين في جبهة المشرق^(١)، فأثرت هذه الجموع التوجه إلى إسبانيا بدلاً من المشرق لقربها من مواطنهم، لذلك صبا النصارى الإسبان لتحقيق انتصارات على مسلمي الأندلس مماثلة لتلك الانتصارات التي أحرزها

Jonathan Raley - Smith : What were the crusades, p.24.

إخوانهم في المشرق، ودعمت البابوية هذا الحماس بأن أعلن البابا باسكال الثاني الحرب الصليبية في الأندلس^(١)، فتشط النصارى الإسبان تبعاً لذلك في مهاجمة المدن والحصون الإسلامية، وكانت المساعدات تتوالى عليهم حتى قيل إن بعض قادة الحملة الصليبية الأولى الذين اشتركوا في حروب المشرق قد قدموا إلى إسبانيا واشتركوا في حصار سرقسطة سنة ٥١٢هـ / ١١١٨م^(٢)، وسرى الوهن إلى دولة المرابطين التي وقفت تصارع تلك القوى وحدها، فلم يزد ذلك القوى الصليبية إلا حماساً، وما أن ظهر الضعف البين على تلك الدولة حتى أخذت المدن والحصون الإسلامية تنهار في أيدي النصارى، ونالت الجبهة الإفريقية هي الأخرى نصيبها من هذا النشاط فشن أهالي روما هجوماً على المهدي سنة ٤٩٨هـ / ١١٠٤م لاحتلالها، ولكن هذا الهجوم قد فشل كما سبق أن ذكرنا.

أما بالنسبة للمسلمين في المغرب الإسلامي فقد أصابهم لأول وهلة ما أصاب باقي أرجاء العالم الإسلامي من الذلول والأسى والشعور بالفجعة لسقوط بيت المقدس في يد الصليبيين، ولكنهم سرعان ما استعادوا رباطة جأشهم وأدركوا أن بذل جهود مضاعفة في صراعهم مع الصليبيين في ميدان المغرب له أهميته وأثره البالغ على الصراع الإسلامي الصليبي في ميدان المشرق للترابط الوثيق بين الغزاة في كلا الميدانين، وانعكس ذلك المجهود في صور شتى، فنبات المرابطين القوي لهجمات النصارى الإسبان في الأندلس وردهم عليها بهجمات عمالة هو إحدى هذه الصور، ومنازلة أسطولهم لأسطولي بيزا وجنوة اللذين احتلا جزيرة يابسة في سنة ٥٠٨هـ / ١١١٤م ثم هاجما جزيرة ميورقة بعد ذلك، وطرد هذين الأسطولين هو صورة أخرى^(٣). أما بالنسبة لإفريقية فقد نشط الأسطول الزيري خاصة في زمن يحيى بن تميم في مهاجمة السفن الإيطالية التي كانت الشريان الرئيسي لإمدادات الصليبيين في المشرق ثم الإغارة على شواطئ أوروبا الجنوبية إذ أنه كان قد صرف همه إلى غزو النصارى في الأساطيل البحرية، فاستكثر منها، واستبلغ في اقتنائها،

(١) يوسف أمصاخ : المرجع السابق ص ١٣٩ .

(٢) د. عبد الله علام : المرجع السابق ص ١٧٦ حاشية ٢ .

(٣) انظر ابن الكردوبس : المصدر السابق ص ١٢٢ وما بعدها.

وردد البعوث إلى دار الحرب^(١)، كما أن جموع المجاهدين المغاربة أخذت منذ بداية هذا الهجوم تقصد المشرق للمشاركة في جهاد الصليبيين كما سيذكر فيما بعد هو تعبير آخر عن الصدى الذي أحدثه نجاح الحملة الصليبية الأولى في المشرق في نفوس مسلمي المغرب.

إفريقية والدعوة لتوحيد الجهود لمواجهة العدوان :

في ظل الهجوم المسور الذي شنته الحركة الصليبية على المسلمين في المشرق والمغرب، لم يجد حكامهم بدأً من العمل على توحيد جهودهم للتصدي لهذا العدوان، فجزت اتصالات عديدة لهذا الغرض منها ما كان على المستوى الشعبي ومنها ما كان على المستوى الرسمي، وتبذلت السفارات بين الحكام لإزالة الضغائن والإحز، كذلك الاتصالات التي جرت بين ملوك الطوائف في الأندلس ويوسف بن تاشفين، واتصالات يوسف بن تاشفين بالدولة العباسية للعمل على تحقيق وحدة شاملة بين المغرب والمشرق^(٢)،

-
- (١) ابن خلدون : للصدر السابق ج ٦ ص ١٦٠، انظر كذلك ابن عذاري : للمصدر السابق ج ١ ص ٣٠٤ .
(٢) ورد في العديد من المصادر التاريخية الإسلامية مثل ابن خلدون (ج ٦ ص ١٨٨)، ابن الأثير (ج ١٠ ص ٤١٧)، ابن الخطيب (أعمال الأعلام ق ٣ ص ٢٥٢)، أبو الحسن (ج ٥ ص ١٩٠) أن يوسف بن تاشفين خاطب المستظهر بالله العباسي وطلب منه تقليداً بالبلاد التي فتحها فأجابته لطلبه، ويبرر ابن الأثير (ج ٨ ص ١٤٢) ذلك بأن علماء الأندلس قالوا له أثناء وجوده فيها بأن طاعته ليست واجبة حتى يخاطب للخليفة ويتسلم منه التقليد، ويرجع د. حسين مؤنس (سبح وثائق جديدة عن دولة المرابطين ص ٦٣) علاقة المرابطين بالدولة العباسية إلى أيام أميرهم الأول أبي بكر اعتماداً على قطعة نقود مرابطية ضربت سنة ٤٥١ هـ نقش عليها اسم الخليفة القائم العباسي، فيكون يوسف بن تاشفين بعد معركة الزلاقة قد جدد الاتصال ولم يكن البادئ به. أما الاتصال الذي جرى بعد الزلاقة وتولى مهمته ابن العربي وأبوه، فيقول د. حسين مؤنس (الجغرافية والجغرافيون في الأندلس ص ١١٩ - ١٢٠) أن هذين الرجلين قاما (بانتداب نفسيهما لهذه المهمة) وهدهما من ذلك (التقرب من المرابطين، والوصول إلى مكانة طيبة في دولتهم)، ومع احترامنا وتقديرنا للأستاذ الدكتور حسين مؤنس ومكانته العلمية نقول : إن الأدلة التي استند إليها للوصول إلى رأيه هذا ضعيفة ولا تثبت للنقد، فكون الرسالة التي رعاها للخليفة العباسي لا تشير إلى أن أحداً كلفهما بهذه المهمة لا ينفي هذا التكليف إذ ربما أوجلا ذكره مخاطبة الخليفة به مشافهة خوفاً من عيون الفاطميين اللذين سهران بأراضيهم في طريق العودة إلى المغرب، ولعل ذلك كان هو السبب أيضاً في عدم حملهما رسالة مكتوبة من يوسف بن تاشفين للخليفة العباسي، وأما المبالغة في إطرأهما ليوسف بن تاشفين في =

ثم لكسب دعم الخلافة العباسية المعنوي له في جهوده ضد المسيحيين من ناحية وضد ملوك الطوائف الذين كانوا بخلافاتهم وتخاذلهم وصلاتهم بالعلو يعرقلون توحيد الصف الإسلامي في مواجهة العدو في تلك الجبهة من ناحية ثانية، ثم اتصالات أهل صقلية بالدولة الزيرية لمواجهة الخطر البيزنطي ثم الخطر النورماني بعد ذلك، كذلك ما جرى من اتصالات أهل الشام بالخلافة العباسية والسلطان السلجوقي من ناحية، وبالدولة الفاطمية من ناحية أخرى، وما جرى بين الخلافة العباسية والسلطان السلجوقي إلى غير ذلك، ولا يسعنا بطبيعة الحال في هذا المقام أن نستعرض كافة هذه الاتصالات لأن ذلك يخرجنا عن خطة هذه الدراسة، ولكننا سنكتفي بالتعرض لدور إفريقية فيها بشيء من التفصيل لإبراز هذا الدور لعلاقته المباشرة بموضوعنا.

سارت سياسة حكام إفريقية منذ بداية العنوان الصليبي في أكثر من اتجاه بغية لإيجاد تعاون أفضل بينهم وبين حكام البلاد الإسلامية الأخرى والعمل على توحيد الجهود لمواجهة هذا العدوان، فقد سار تميم بن المعز على نفس سياسة أبيه في التفاهم مع الخلافة العباسية، وإذا كان أبوه المعز قد خطا خطوة اعترافه بتميته للدولة العباسية لأهداف أخرى غير هدف مواجهة العدوان الصليبي الذي لم يكن قد بدأ بعد، فإن ابنه تميم الذي بدأ هذا العنوان في

= مجلس الخليفة التي اتخذها الدكتور حسين مؤنس دليلاً على انتداب نفسيهما لهذه المهمة، ظلك المبالغة لا تروحي بنفي التكليف إن لم تكن دليلاً ضد رأي الدكتور مؤنس وليس معه، وعلى كل حال فقد جرت العادة أن يبالغ كل رسول في إطرأ مرسله ووصفه بشئ الصفات الممودة والأمثلة على ذلك كثيرة خاصة إذا كان المبعوث من وال إلى خليفة، لذلك فإني أرى أن الأصوب هو ما ذهب إليه الدكتور عبد الهادي التازي من أن ابن العربي قد بعث سفيراً من قبل يوسف بن تاشفين إلى الخليفة العباسي، وكان هدف هذه السفارة هو اطلاع الخليفة على الوضع في الأندلس وأن يستطلع رأيه (في نقاط معينة يهدف بحثها إلى تحقيق مشروع مغربي للتضامن بين حكومة المشرق وحكومة المغرب لصالح الدولة الإسلامية المرتقبة هذا الموضوع الذي كان أول بادرة في العالم الإسلامي لتحقيق وحدة شاملة) (د. عبد الهادي التازي : جولة في تاريخ المغرب الديبلوماسي، ص ٧)، ويقطع ابن خلدون (المصدر السابق ج ٦ ص ١٨٨) الشك باليقين بشأن هذه السفارة، إذ يقول في معرض حديثه عن يوسف بن تاشفين (وخطاب المستنصر العباسي الخليفة لعهد بغداد وبعث إليه عبد الله بن محمد بن العربي للمعالي الإسماعيلي وولده القاضي أبا بكر قاتلها في القول وأحسنها في الإبلاغ وطلباً من الخليفة أن يعقد له على المغرب والأندلس وتضمن ذلك مكتوب الخليفة بذلك منقولاً في أيدي الناس وانقلبا إليه بتقليد الخليفة).

عهده كان يرى ضرورة المضي قدماً في هذه السياسة للوصول إلى هذا الهدف انطلاقاً من حقيقة هامة هي أن كل تنسيق وتعاون بين المسلمين هو زيادة في قوتهم، وبذلك حقق الانسجام مع باقي أقطار المغرب الإسلامي التي أخذت منذ سقوط الخلافة الأموية في الأندلس تنتظم في سلك الدولة العباسية من جديد، والتقت كلها حول هدف واحد هو محاولة إيجاد نوع من الوحدة في العالم الإسلامي وخلافة واحدة هي الخلافة العباسية، وقد عزز ظهور المرابطين هذه الفكرة الطموحة، وأخرج هذا الأمل الذي طالما راود أهل المغرب إلى حيز الوجود، فكان تميم بمواصلة اعترافه بالدولة العباسية قد أزال حاجواً كان يحول دون هذا التماسك، وخطا خطوة محدودة في سبيل وحدة الهدف والمصير لأقطار المغرب، ولربما قيل إن مواصلة تميم السير في هذا النهج لم يكن وعياً منه لهذا الأمر، وإنما أملت سياسته ابتعاده عن الفاطميين، فسواء كان ذلك بوعي كامل منه أو بلا وعي فالنتيجة في كلتا الحالتين واحدة هي تحقيق هذا الانسجام بين المغرب والخلافة العباسية، وإن كنت أستبعد أن لا يمي مثل تميم هذه الخطوة أو لا يقدرها حق قدرها وهو السياسي الواسع الأفق فضلاً عن أن شعبه كان من أشد المتحمسين لوحدة العالم الإسلامي عملاً بالسنة التي كانوا يتمسكون بها أشد تمسك.

ومنذ ظهور دولة المرابطين، انجذبت السياسة الزيرية إلى تحقيق تعاون وتفاهم معها، فسادت العلاقات الحسنة بين الطرفين والتي كانت تعززها القرابة القبلية بينهما من ناحية، والشعور بوحدة الهدف في مواجهة الطرفين للعدو المشترك من ناحية ثانية، ودليلنا على ذلك تلك الرسالة التي أسرع يوسف بن تاشفين بإرسالها إلى تميم عقب انتصار الأول في معركة الزلاقة يعلمه بهذا النصر ويصف لقاءه للعدو في تلك المعركة، وكان يعلم مقدار ابتهاج تميم بهذه البشرى وأثرها في رفع الروح المعنوية لأهل إفريقية الذين كانوا يتوقعون النحر من نفس العدو في كل وقت، يقول ابن أبي زرع في ذلك : (وكتب أمير المسلمين بالفتح إلى بلاد العدو وإلى تميم صاحب المهدي فعمت الفرحات في جميع بلاد إفريقية وبلاد المغرب والأندلس واجتمعت كلمة الإسلام^(١)، واستمرت العلاقات الطيبة وظل

(١) ابن أبي زرع : الأئيس المطرب ص ٥٢، انظر نص هذه الرسالة في محمد عبد الله عنان : المرجع السابق، ملحق رقم ١، ص ٤٤٦ وما بعدها.

التنسيق السياسي بين الطرفين قائماً طوال عهد يوسف بن تاشفين وتقوم بن المعز.

وتطور هذا التنسيق بين الجانبين إلى مرحلة الغيام بعمل مشترك ضد الصليبيين النورمان الذين كانوا يتحينون الفرصة للانقضاض على إفريقية، فجيال تهديدات رجار الثاني لعلي بن يحيى بن تميم كما سيأتي ذكره، تم الاتفاق بين الأخير وبين علي بن يوسف بن تاشفين على مهاجمة صقلية، يقول ابن الأثير في ذلك : إن علي بن يحيى (كاتب أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين بمراكش بالاجتماع معه على قصد جزيرة صقلية)^(١)، وكان هذا الاتفاق كافياً لإعادة الصواب إلى رجار فعزل عما كان ينويه من مهاجمة إفريقية، إذ خشي مفية الانتهاك في حرب سافرة مع كلا المرابطون والزيريون، وبالرغم من ذلك فقد أخذ كل من علي بن يحيى وعلي بن يوسف بن تاشفين في الاستعداد لتنفيذ هذا المشروع ولكن وفاة علي بن يحيى بعد ذلك بمدة وجيزة (ت سنة ٥١٥هـ / ١١٢١م) حالت دون اشتراك الزيريين الفعلي في ذلك للمشروع، واكتفى الأمير الزيري الجديد الحسن بن علي الذي كان طفلاً بتأييد المرابطون في جهودهم ضد النورمان، فمضى علي بن يوسف قديماً في تنفيذته منفرداً حيث أرسل أمير البحر المرابطي المشهور أبا عبد الله محمد بن ميمون^(٢) في أسطول كبير فأغار على مدينة نقوطرة (Nicotra) سنة ٥١٦هـ / ١١٢٢م^(٣) ففتحها واستباحها وعاد محملاً بالأسرى والغنائم، فلم يشك رجار في علاقة الحسن بن علي بهذه الغارة وحمله

(١) ابن الأثير : المصدر السابق ج ١٠ ص ٦١١، انظر كذلك ابن علقري : المصدر السابق ج ٣ ص ٦٧، ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ١٦٠، د. سعيد عاشور : بعض أضواء على العلاقات بين ييزا وتونس ص ٤٠، د. أمبرتو ريتشيانو : المرجع السابق ص ١٤، د. أحمد مختار العيادي، د. السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ٢٤٦ - ٢٤٧، K. M. Setton Op. Cit., vol. 2, p. 20، (ج ١ ق ٢ ص ١٧٠) يذكر أنه الحسن بن علي ويقول في ذلك الباجي المسعودي (ص ٥١) في حين أن ابن الأثير وابن علقري وابن خلدون كما مر آنفاً يذكرون أنه علي بن يحيى والد الحسن، وأعتقد أنه لا تعارض بين القولين وأن الاتصالات بين المرابطون والزيريين كانت مستمرة.

(٢) يرد اسم هذا القائد في المصادر الإسلامية أحياناً باسم محمد بن ميمون وأحياناً أخرى باسم علي بن ميمون، انظر د. أحمد العيادي، د. سالم : المرجع السابق ص ٢٤٦ حاشية ٢، ويقتد (K. M. Setton Ibid, v. 2, p. 20) أنه كان والي المرابطون على الجزائر الشرقية.

(٣) اختلف المؤرخون في موقع مدينة نقوطرة فيذكر ابن خلدون (ج ٦ ص ١٤٠)، د. سعيد عاشور (بعض أضواء ص ٤٠)، الدكتوران العيادي وسالم (ص ٢٤٥) أنها في صقلية، بينما يقول ابن الأثير (ج ١ ص ٦١١)، وأماري (المكتبة العربية الصقلية - الفهرست، مادة نقوطرة) ود. أمبرتو ريتشيانو : (ص ١٤) أنها في قلورية بجنوب إيطاليا.

مسؤوليتها^(١)، وكان ذلك هو السبب في حملة رجاء على المهديّة سنة ٥١٧هـ / ١١٢٣م كما سنذكره فيما بعد، وليس أدلّ على هذا التسميق بين الجانبين مما قاله ابن عذاري عن رجاء من أنه كان كلما شن المرابطون غارة على بلاده نسب السبب فيها للحسن بن علي^(٢).

ولم يهمل تميم بن المعز وخلفاؤه من بعده شأن أبناء عمومتهم أمراء الدولة الحمادية بالمغرب الأوسط الذين كانوا يناصبونهم العداء منذ عهد حماد بن بلقين مؤسس تلك الدولة كما أثّرنا إلى ذلك من قبل، إذ عندما بدأ الخطر الصليبي يهدد الطرفين بدأت الاتصالات تجري بينهما، وتبدلت السفارات، وكان الهدف منها رأب الصدع وتوحيد الصف لمواجهة الخطر المحدق بهما، فقد بذل أبو بكر بن أبي الفتح وزير الناصر بن علناس الحمادي جهوداً طيبة في إصلاح ذات البين وكان يميل إلى تميم، حتى إنه ترأس سفارة إليه من قبل الناصر فرد تميم عليها بسفارة ماثلة برأسها محمد بن البعيج، وقد أسفرت هذه السفارات والاتصالات عن عقد الصلح بين الطرفين، وتبع ذلك الصلح مصاهرة دعمت أركانه، إذ تزوج الناصر بن علناس من بلارة بنت تميم في سنة ٤٦٧هـ / ١٠٧٥م وأمهرها ثلاثين ألف دينار أخذ تميم منها ديناراً واحداً وردّ الباقي، وأصبحها من الخلي والجهاز ما يفوق الوصف^(٣)، وبالرغم من أن النزاع بين الطرفين تمهد أكثر من مرة، إلا أن الجهود كانت تبذل في كل مرة لإزالة أسبابه وبقيت العلاقات بين الدولتين في مد وجزر حتى انقضاء عهدهما.

وما كاد يحيى بن تميم يتولى الحكم (سنة ٥٠١ - ٥٠٩هـ) حتى عاود الاتصال بالدولة الفاطمية، وأعاد الدّعاء على منابر إفريقية للخليفة الفاطمي أبي علي المنصور، وتبادلا الهدايا في سنة ٥٠٥هـ / ١١١١م^(٤)، وسار خلفاؤه من بعده على هذه السياسة في الاعتراف بتبعيةهم للدولة الفاطمية، والذي يستلقت انتباه الباحث هو ما الذي قصده يحيى ابن تميم بمعاودة طاعة الفاطميين؟ لا بد من وجود حافز قوي دفعه إلى ذلك أقوى من

(١) ابن عذاري : ج ٣ ص ٦٧، ابن خلدون : ج ٦ ص ١٦٠ .

(٢) ابن عذاري : ج ١ ص ٣٠٥ .

(٣) ابن الأثير : المصدر السابق ج ١٠ ص ١٠٧، كذلك ابن أبي دينار : المصدر السابق ص ٨٥ .

(٤) ابن عذاري المصدر السابق ج ١ ص ٣٠٥، ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ١٦٠ .

السلبيات التي سيتسبب فيها هذا القرار، فهو بلا شك سيثير حفيظة رعيته التي يتمسك معظمها بالمذهب المالكي، كما أنه قد يثير حفيظة المرابطون الموالين للخلافة العباسية، وقد يجد بنو عمه الحماديون الموالون هم الآخرون للدولة العباسية، في هذا الأمر ذريعة لإثارة رعاياه عليه، وتكون فرصة طيبة لهم للتخلص منه بعد أن يكسبوا رعاياه لجانبهم، وتساور الباحث الحيرة حول هذا الحافز حينما يتفق النظر في أوضاع إفريقية في تلك الفترة، فقد كان وضعه أفضل من وضع أبيه وجده في عهد ما بعد الهجرة الهلالية، بدليل أنه استطاع أن يوسع رقعة إمارته عن ما كانت عليه في عهد أبيه، كما أنه استلک أسطولا استطاع أن يهرب به شواطئ جنوب غرب أوروبا حتى اتقته أم النصرانية بالجزيرة كما تقدم ذكره، ثم إن العاصفة التي أثارها الهجرة الهلالية إلى إفريقية كانت قد بدأت تهدأ وأخذت الأمور تميل نحو الاستقرار، كما أن ظواهر الأمور كانت تشير إلى أن الدولة الفاطمية كانت في ذلك الوقت لا تملك له ضراً ولا نفعاً، إذ كانت أعجز من أن تمد له يد المساعدة فيما إذا احتاج إليها، وأعجز أيضاً من أن تسلط عليه سيف الانتقام لو أرادت ذلك لأنها كانت وقتئذ آهلة إلى السقوط والانهيار، ولم يكن يتوقع منها شراً بهذا القرار إذ أنها كانت قد أطلقت آخر سهم في كنانتها على إفريقية، وتزداد هذه الحيرة حينما لا نجد في المصادر التاريخية أي رد فعل لهذا القرار لا من رعيته ولا من المرابطون، فلا احتجاج من هذه الرعية يذكره أحد هذه المصادر، ولا تدهور في العلاقات مع المرابطون بل ما حدث معهم هو العكس إذ استمرت العلاقات الطيبة بين الطرفين وتطورت إلى الأحسن. ولا يجد الباحث في هذه المصادر ما يجلي هذا الغموض فكل المصادر التي اطلعت عليها أوردت هذا الخبر دون تعليق أو تحليل مما يزيد في الصعوبة على الباحث ليخرج برأي محدد في هذا الموضوع.

والذي أراه، أنه ما دام قطع العلاقات مع الدولة الفاطمية كان لغاية سياسة كما سبق أن ذكرناه، فإنه ليس من المستبعد أن تكون إعادتها لغاية سياسية أيضاً، وعلى ذلك فإنني أعتقد أن تبرير هذا الافتراض ليس بالأمر البالي الصعوبة، إذ ما دام الخطر الصليبي على إفريقية قد برز بشكل واضح، سواء أكان ذلك الخطر من المدن البحرية الإيطالية أو من النورمان، فالأجدر يحیی أن يكسب ثقل الدولة الفاطمية في معترك السياسة الدولية إلى جانبه كقوة ضاغطة

على المتربصين به من الصليبيين، فالدولة الفاطمية كانت ترفع شعار مسالمة الصليبيين بتأثير من مستشاريها من غير المسلمين^(١)، وبناءً على ذلك فقد استطاع يحيى بن تميم بإعلانه تبعية تلك الدولة أن يقنع القوى الصليبية بأنه ملتزم بهذه السياسة التي تنتهجها الدولة المركزية، وبالتالي يعدد المطامع الصليبية عن إفريقيا، ثم إنه كانت تربط نورمان صقلية بالدولة الفاطمية علاقات طيبة بالرغم من وجود بعض المنغصات في بعض الأحيان، وبهذه التبعية يجعل رجاء يفكر أكثر من مرة قبل إقدامه على العنوان على إفريقيا التي تكون رسمياً عبارة عن ولاية فاطمية، وينطبق نفس الأمر على المدن البحرية الإيطالية التي إن فكرت في الاتحاد هي الأخرى على إفريقيا فإن ذلك سيكلفها الكثير لأنه سيحرمها من التجارة الشرقية التي تتحكم فيها الدولة الفاطمية، والحصول على تلك التجارة كان في نظر تلك المدن أهم بكثير من القيام بمغامرة في إفريقية غير مضمونة النتائج. وعلى أية حال فإن ما نتج عن هذا القرار هو أن إفريقية وصلت حبلها بالقوى الأخرى في المشرق، وبذلك تكون قد مدت كلتي يديها للمسلمين شرقاً وغرباً بهدف تقوية الصف الإسلامي في مواجهة الحركة الصليبية.

إفريقية ومواجهة الحركة الصليبية :

قامت إفريقية بدور بارز في مواجهة الحركة الصليبية في جبهات الصراع الإسلامي الصليبي الأربع، فعلاوة على دفاعها عن نفسها، لم تأل جهداً طوال الفترة الممتدة ما بين أواسط القرن الخامس إلى أواسط القرن السابع للهجرة (من أواسط القرن الحادي عشر إلى أواسط القرن الثالث عشر للميلاد) بل وحتى نهاية العصور الوسطى ومطلع العصور الحديثة في سبيل مد يد المساعدة للمسلمين في كل من الأندلس وصقلية والمشرق، أما بالنسبة لدفاع إفريقية عن نفسها ضد مطامع الحركة الصليبية فيها فقد أفردنا لبعثه الفصل الثالث من هذا الباب، وستعرض فيما يلي لمساعدة أهل إفريقية لإخوانهم في جبهات القتال الثلاث الأخرى :

(١) لمزيد من التفصيل عن هذه السياسة انظر د. سعيد عاشور : بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ص ١٩٣ وما بعدها، كذلك د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ١٩١ وما بعدها.

أ - الأندلس :

يعود تطلع مسلمي الأندلس لطلب المساعدة من إخوانهم في إفريقية إلى أيام سقوط طليطلة في يد ألفونسو السادس سنة ٤٧٨هـ / ١٠٨٥م، إذ يروي ابن الأثير أن أعيان قرطبة اجتمعوا إلى القاضي ابن أدهم وعرضوا عليه فكرة استقدام قسم من أعراب إفريقية إلى الأندلس يقاسمونهم أموالهم وأراضيهم ليكونوا لهم عوناً في حربهم ضد النصارى الإسبان الذين أعزّوا بكنسحون بلادهم، ولكن ابن أدهم خشي من حدوث مزيد من الفوضى في البلاد الأندلسية ولذا فضل الاستنجاد بالمرايطين^(١)، وبدخول هؤلاء إلى الأندلس، وما تبع ذلك من توحيدها مع المغرب الأقصى في دولة واحدة، وتولي المرايطون عبء جهاد الصليبيين في ذلك الميدان، ثم بروز الخطر النورماني على إفريقية بعد ذلك بفترة وجيزة، كل ذلك صرف مساعدة إفريقية عن الأندلس، اللهم إلا ما كان من جهود فردية محدودة لم تقدم ولم تؤخر.

ويظهر دولة الموحدين وقيام عبد المؤمن بن علي خليفته الأول بطرد النورمان من المهديّة آخر معانيلهم في إفريقية وما تبع ذلك من توحيد المغرب العربي بأسره والأندلس في دولة واحدة، برز دور إفريقية في الجهاد في ميدان الأندلس بشكل واضح، إذ عمل عبد المؤمن على الاستفادة من الطاقة الكبيرة للهلالية فيها في مشروعاته التالية لمواجهة النصارى الإسبان، لذلك عمل منذ احتكاكه بهم على كسبهم إلى جانبه، ولم يحاول إذلالهم عندما انتصر عليهم في معركة سطيف سنة ٥٤٧هـ / ١١٥٢م، فأكرم نساءهم وأطفالهم الذين وقعوا أسرى في يده في تلك المعركة، وأخذهم مكرمين إلى مراكش، ثم أرسل إليهم يخبرهم بأن هؤلاء الأسرى من ذريتهم في الحفظ والبر وطلب منهم القدوم لاستلامهم، وأطلقهم بأجمعهم حينما وفد عليه رؤسائهم إلى مراكش في طلبهم^(٢)، وتقرب إليهم حتى كان يخاطبهم ببني العم، فلانت له عريكتهم وبدأوا يتقادون إليه لذلك انضموا إلى جيشه حينما زحف إلى إفريقية لتحرير المهديّة، وعندما قفل عائداً إلى مراكش اصطحب معه ألف

(١) ابن الأثير : المصدر السابق ج ١٠ ص ١٥١ - ١٥٢ .

(٢) البليق : أخبار المهدي بن تومرت ص ٧٦ .

أسرة من كل بطن من بطون أعراب جشم^(١) وأسكنهم في المغرب الأقصى، ويقول ابن الأثير أنه صرح لهم برغبته في إرسالهم الأندلس للجهاد قائلاً: (قد وجبت علينا نصرة الإسلام، فإن المشركين قد استفحل أمرهم بالأندلس، واستولوا على كثير من البلاد التي كانت بأيدي المسلمين، وما يقاتلهم أحد مثلكم، فيكم فتحت البلاد أول الإسلام، وبكم يدفع عنها العدو الآن)^(٢) وبالفعل صحبه جماعة منهم في جواره إلى الأندلس سنة ٥٥٦هـ / ١١٦١م. وفي سنة ٥٥٧هـ / ١١٦٢م بدأ في الاستعداد للجواز إلى الأندلس من جديد، فاستنفر الهلالية من إفريقية للجهاد فلبوا نداءه، يقول البيهقي في ذلك إن عبد المؤمن جاز إلى سلا وعسكر بها في انتظار تكامل جيشه، وأثناء ذلك قال (ليوسف بن سليمان، ركب لي العرب، ركب لي منهم أربعة عشر ألفاً وأعطيك الإشارة، فركبها حتى تخاطفت العرب على الحول، ودخل عليه يوسف بن سليمان بالإشارة)^(٣)، ويؤيد ابن أبي دinar رواية البيهقي بقوله عن عبد المؤمن: (واستجلب الأجناد والمطلوعة من سائر عمله يستنفرهم للجهاد فاجتمع له ما لم يجتمع لغيره من بلاد إفريقية والمغرب والقبائل واجتمع له من الموحدون وقبائل زناته ومن العرب أزيد من ثلاثمائة ألف فارس...)^(٤)، وإن كان لم يقدر لهذا الجيش دخول الأندلس نظراً لابتداء المرض بعد المؤمن قبل زحفه ثم وفاته في جمادى الآخرة سنة ٥٥٨هـ / مايو سنة ١١٦٣م، فإن ابنه وخليفته أبو يعقوب يوسف حينما امتدت فتنة ابن مردنش في الأندلس بتحريض من النصارى وهاجم قرطبة، أرسل أخاه أبا حفص سنة ٥٦١هـ / ١١٦٦م في جيش كبير ضم قبائل زغبة ورياح والأنيج^(٥) من أعراب إفريقية حيث التقى بابن مردنش وحلفائه من النصارى في فحص مرسية وانصر عليهم.

وعندما عزم أبو يعقوب على الجواز بنفسه إلى الأندلس وبدأ في حشد جيوشه سنة ٥٦٣هـ / ١١٦٨م، استدعى الهلالية من إفريقية (وخاطبهم بقصيدة يحرضهم فيها على

(١) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص ١٣٩، انظر كذلك البيهقي: المصدر السابق ص ٨٠.

(٢) ابن الأثير: المصدر السابق ج ١١ ص ٢٤٦.

(٣) البيهقي: المصدر السابق ص ٨١.

(٤) ابن أبي دinar: المصدر السابق ص ١١٧م، انظر كذلك ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص ٢٠١.

(٥) ابن خلدون: المصدر السابق ج ٦ ص ٢٣٨.

الجهاد ويستدعيهم إلى الغزو وعلى الاستعداد ويصفهم فيها بما هم فيه من الرحمة والشهامة ويستند إليهم غاية استنداء^(١)، ويبدو أن مرضه الذي دام أربعة عشر شهراً قد أضر تنفيذ هذا المشروع، وفي سنة ٥٦٦هـ / ١١٧١م وصلته رسالة من أخيه أبي حفص يشرح له فيها تكاليف العدو على الأنكلس وكان لا يزال مريضاً، فأمر باستدعاء (العرب من إفريقية وخاطبهم بهذه القصيدة من قول ابن طفيل :

أقيموا صدور الخيل نحو المغارب لغزو الأعادي واقتناء الرغائب^(٢)

ولما أبطلوا في الوصول إلى مراكش خاطبهم بقصيدة أخرى من نظم ابن عياش يستعملهم فيها^(٣)، فلما وصلت إلى العرب هاتان القصيدتان وأوضحوا قراءتهما وتبينت لهما معانيهما وفصاحتهما وما فيهما من التحريض على جهاد الكفار أجابوا إلى الطاعة

(١) ابن عذارى : المصدر السابق ج ٣ ص ٧٦ .

(٢) ابن عذارى : المصدر السابق ج ٣ ص ٨٨ . ومن هذه القصيدة

ألا فابحثوها همة عربية	تخف بأطراف القنا والقواضب
أفرمان قيس من هلال بن عامر	وما جمعت من طاعن ومضارب
لكم قية للمجد شدوا عمادها	بطاعة أمر الله من كل جانب
دعوناكم نبغي خلاص جميعكم	دعاء برهاناً من جميع الشوائب
نريد لكم ما نبتغي لنفوسنا	وئوثركم زلفى بأعلى المراتب
بكم نصر الإسلام بدءاً فنصره	عليكم وهذا عوده جد واجب
نقوموا بما قامت أوائلكم به	ولا تنفلوا إحياء تلك المنائب

(٣) ابن عذارى : المصدر السابق ج ٣ ص ٨٩ . وما جاء فيها :

وقوموا لنصر الدين قيمة ثائر	وشلوا على الأعداء شدة صائل
واسرروا بني قيس إلى نيل غاية	من المجد تجنى عند برد الأصائل
تعالوا فقد شدت إلى الغزوة	عواهبها منصورة بالأوائل
هي الغزوة الغراء والموعود الذي	تنجز في أفق الهدى بدلائل
فطيروا إليها يا هلال بن عامر	ثقلاً خففاً بين حاف ونائل

(انظر ابن عذارى : المصدر السابق ج ٣ ص ٨٩)

بأجل البدار ووصلوا بجمعهم إلى السيد الأمنى أبي زكريا يحيى بن عبد المؤمن ببجاية فحرك معهم إلى مراكش... وكان عدد الخيل الواسلة من إفريقية أربعة آلاف فرس ومائة وخمسون حملاً من المال الصامت^(١).

وقد استبشر الخليفة بقدمهم وكان في ذلك الوقت قد أبل من مرضه فيأثر من فوره في المسير، وخرج من مراكش قاصداً لإشبيلية في يوم السبت الرابع عشر من رجب سنة ٥٦٦ هـ / ١١٧١م ويبدو أن عدد الهلالية في هذا الجيش قد تزايد بعد ذلك حتى ساوى عدد فرسانهم فيه عدد فرسان الموحدين إذ يقول ابن عذارى : (فاجتمع في عسكر الموحدين عشرة آلاف فارس وفي عسكر العرب عشرة آلاف فارس دون المطوعة والناس)^(٢)، ومن الثابت أنهم أقاموا مع أبي يعقوب مجاهدين ما يزيد عن الأربع سنوات وكان لهم أثر محمود في تلك الغزوة التي حقق فيها أبو يعقوب عدة انتصارات، ودعم موقف المسلمين في الأندلس، وتحصنت المصادر التاريخية عن ذكر ما إذا كان قسم منهم قد عاد مع الخليفة إلى المغرب سنة ٥٧١ هـ / ١١٧٦م أم أنهم واصلوا جميعاً إقامة في الأندلس. واستمرت الحرب شديدة بين الموحدين والنصارى بعد عودة الخليفة إلى مراكش، ولم يجد هذا الخليفة بناً من دعم جبهة الأندلس من جديد خاصة بعد الهزيمة التي لحقت بالجيش الموحدى سنة ٥٧٢ هـ / ١١٧٧م بالقرب من قونقة أمام جيوش قشتالة وأرغونة فعزم في سنة ٥٧٥ هـ / ١١٧٩م على معاودة العبور إلى الأندلس وأخذ يعد العدة لذلك فنظر (في استجلاب العرب من إفريقية)^(٣)، فقدمت عليه حشودهم سنة ٥٧٩ هـ / ١١٨٣م بصحبة ابن جامع فنهض بهم وبمن اجتمع عنده من غيرهم في صفر سنة ٥٨٠ هـ / ١١٨٤م^(٤) من فاس قاصداً لإشبيلية ومنها دخل إلى بلاد النصارى غازياً حتى وصل إلى شنترين وحاصرها وكان ما كان من استشهاده بالقرب منها.

وفي سنة ٥٨٥ هـ / ١١٨٩م جاز أبو يوسف يعقوب المنصور الخليفة الموحدى الثالث جوازه الأول إلى الأندلس للجهاد، وقد ضم جيشه عدداً كبيراً من هلالية إفريقية بين فارس

(١) ابن عذارى : المصدر السابق ج ٣ ص ٩١ .

(٢) ابن عذارى : المصدر السابق ج ٣ ص ٩١ وابن خلدون : البر ج ٦ ص ٢٣٩ وما بعدها.

(٣) ابن عذارى : المصدر السابق ج ٣ ص ١١٣ . انظر ابن خلدون : البر ج ٦ ص ٢٣٩ .

(٤) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٢٤١ .

وراجل^(١)، ويفهم من نص لابن عذارى ورد في معرض حديثه عن هذه الغزوة أنه كان هنالك فئات من الهلالية مقيمة في الأندلس للجهاد ضمن الحاميات الموحدية^(٢)، وقد فتح المنصور في تلك الغزوة حصن طرش، وهاجم حصن المنار ومدينة ثلب وارند عنهما، واضطر للعودة إلى المغرب لتجند فئمة ابن غانية في إفريقية، ونظراً لانشغال المنصور ب تلك الفئمة، ووقوع الخلاف بين ملوك النصارى الإسبان في تلك الآونة هدأت الحرب في الأندلس بضعة أعوام. بيد أن تعيين مارتين دي بيسرجا الذي كان شديد الحماس لقتال المسلمين أسقفا لطليطلة أعاد التوتر للجهة الأندلسية من جديد، إذ في العام التالي تعينه قاد بنفسه حملة تخريبية كبيرة إلى بلاد المسلمين مما حفز ألفونسو الثامن ملك قشتالة على معاودة هجومه على المسلمين، وبلغت به الصلافة والجرأة أن أرسل إلى المنصور رسالة يتحداه فيها بشكل استفزازي^(٣)، فأخذت المنصور حماية الإسلام، وبأمر في حشد الجيوش، وعندما استكمل استعداداته جاز إلى الأندلس في سنة ٥٩١هـ / ١١٩٥م في جيش ضخم كان من بين جنده عدد كبير من هلالية إفريقية^(٤) حيث التقى بألفونسو في معركة الأرك وانتصر عليه انتصاراً باهراً لا يقل في أهميته عن انتصار يوسف بن تاشفين يوم الزلاقة وظلت إفريقية تمد الجيش الموحدى كلما عزم على الجهاد في الأندلس بالآلاف المجاهدين اشتركوا في غالبية المعارك التي خاضها الموحدون في الجهة الأندلسية^(٥)، فقد بلغ عدد فرسان هلالية إفريقية فقط في جيش الناصر بن المنصور يوم العقاب على سبيل المثال حوالي عشرة آلاف فارس عدا المشاة والمطوعة^(٦) وما سوى الهلالية.

وعندما أقل نجم الدولة الموحدية وآذنت بمقووط وتكالب العدو على مسلمي الأندلس، وأخذ فرناندو الثالث ملك قشتالة الملقب بالقديس (El Santo) ١٢١٧ - ١٢٥٢م يستولي على نهر الروادي الكبير بما عليه من مدن هامة مثل قرطبة التي سقطت في

(١) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٤ ص ٢٤٥، كذلك ابن عذارى : المصدر السابق ج ٣ ص ١٢٤ .

(٢) ابن عذارى : المصدر السابق ج ٣ ص ١٧٨ .

(٣) انظر ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ص ٢٢١ .

(٤) ابن عذارى : المصدر السابق ج ٣ ص ٢٢٣، كذلك ابن أبي زرع : الأنيس المطرب، ص ٢٢١ وما بعدها.

(٥) شارل أندوي جوليان : المرجع السابق ج ٢ ص ١٦٢ .

(٦) ابن أبي زرع : الذخيرة السنية ص ٤٦ .

يده سنة ٦٣٧هـ / ١٢٣٦م وغيرها، بينما بدأ خايي (جاقمه) الأول Jaime I (١٢١٣ - ١٢٧٦م) ملك أرغونة الذي تلقبه المصادر الإسبانية بالفاتح (EI Conquistador) في الزحف على شرق الأندلس، تطلع الأندلسيون إلى إفريقية فمدوا أيديهم إلى الأمير أبي زكرياء الأول الحفصي، الذي كان قد انفصل عن الدولة الموحدية المحتلة حينما أعلن المأمون الموحدي سنة ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م لإبطاله لمهذوية ابن تومرت^(١) حيث بدأ في إرساء قواعد الدولة الحفصية، مستغنيين به من هذا الخطر الذي دهمهم، فكانت بلنسية من أوائل مدن الأندلس التي استغاثت بأبي زكريا وأرسلت له يبيعتها حينما شرع خايي الأول في مهاجمتها سنة ٦٣١هـ / ١٢٣٣م بتحريض من البابا جريجوري التاسع (Gregory IX) الذي أصدر مرسوماً بإضفاء الصفة الصليبية على حروب إسقاط بلنسية، فأرسل أميرها أبو جميل زيان بن مردنيش كاتبه ووزيره ابن الأبار إثر هزيمة البلنسيين في موقعة أنيشة (أنيجة) Puig de Caballa^(٢) إلى تونس للاستنجاد بأبي زكريا، ولا تمدنا النصوص التاريخية التي بين أيدينا بتاريخ واضح لهذه السفارة فيما إذا كانت تمت قبل الحصار الذي ضربه خايي الأول على المدينة في شهر رمضان سنة ٦٣٥هـ / ١٢٣٨م^(٣) أو أثناء الحصار الذي دام حتى استسلام المدينة له في ١٧ صفر سنة ٦٣٦هـ / ١٢٣٨م^(٤)، وأياً كان الأمر فإن ابن الأبار مثل بين يدي أبي زكريا وأنشده قصيدته الرائعة التي مطلعها :

(١) عن هذا الموضوع : انظر ابن علاري : المصدر السابق ج ٣ ص ٢٦٧ وما بعدها.

(٢) دارت هذه المعركة بين أهل بلنسية ومن ناصرهم من أهل شاطية وجزيرة فقر، وجيش خايي الأول في يوم الخميس الموافق ٢٠ ذي الحجة ٦٣٤هـ هزم فيها المسلمون واستشهد كثير منهم في ساحة المعركة كان من بينهم عالم الأندلس وقيدها المشهور أبو الربيع بن سالم الكلاعي، فضلاً عن سبعين من أهل الصف الأول بجامع بلنسية الأعظم كلهم خرجوا للجهاد فنالوا الشهادة.

انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج ٤ ص ١٦٧، ابن السماع : المصدر السابق ص ٤٨، حاشية ٢، المقرئ : نفع الطوب ج ٤ ص ٤٧٣، د. عبد الرحمن الحجي : التاريخ الأندلسي ص ٤٧٥ . وانظر ترجمة الكلاعي في : ابن الأبار : الحلة السرياء ج ٢ ص ١٠٢، ابن بشكوال : الصلة ج ١ ص ١٩٧ - ١٩٨، الضبي : المصدر السابق ص ٢٨٥ الغريزي : عنوان الدراية ص ٢٧٩، ابن فرحون : المصدر السابق ج ١ ص ٣٨٥ وما بعدها.

(٣) كان جيش خايي الذي حاصر بلنسية يضم جمعاً غفيراً من للفرنسيين بقيادة مطران أربونة، وجمعاً أخرى من جنوة (انظر عبد الرحمن الحجي : المرجع السابق ص ٤٧٥).

(٤) يرجع الدكتور عبد الرحمن الحجي أن هذه السفارة تمت قبل الحصار، انظر عبد الرحمن الحجي :-

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا إن السبيل إلى منتجاتها درسا^(١)

فلى أبو زكريا هذه الاستفاته وعجل بإرسال أسطول مكون من ١٨ سفينة إلى بلنسية محملاً بالموث والأسلحة قدرت بعض المصادر قيمتها بمائة ألف دينار^(٢)، ويضيف ابن عذاري إلى ذلك أنه كان بصحبة هذا الأسطول أبو يحيى الهشاني ومعه مال ناض أيضاً ليُدفعه إلى أميرها ابن مردنيش^(٣) ليتقوى بها، ولكن هذا الأسطول لم يتمكن من دخول المدينة لأن العدو كان قد شدد عليها الحصار، فكتب قائده بذلك للأمير أبي زكريا في ربيع محرم سنة ٦٣٦هـ / ١٢٣٨م فأمره بدفع ما معه لأهل دانية ثم العودة إلى تونس ففعل، ولم يكن تفريغ حمل الأسطول في دانية اعتباطاً بل لأن العدو كان سيهاجمها إن أجلاً أو عاجلاً، فهو بذلك قد قدم الدعم العاجل لتلك المدينة في صراعها المقبل مع العدو ما دامت الظروف قد حالت دون استعادة بلنسية منها.

ولم يصرف سقوط بلنسية في يد العدو مسلمي الأندلس عن التعلق بأبي زكريا، فتوالى وفود كبريات مدنها في الوصول إلى تونس ببيعات تلك المدن، وظل أبو جميل زيان ابن مردنيش على طاعته لأبي زكريا إذ بعد خروجه من بلنسية ذهب إلى جزيرة شقر وأخذ على أهلها البيعة أيضاً لأبي زكريا، وعندما هاجمها العدو غادرها إلى دانية وأخذ على أهلها البيعة أيضاً لأبي زكريا، ويذكر ابن عذاري أن كلاً من مرسية وشاطبة ولورقة وجزيرة شقر قد بايعته^(٤)، وبذلك انتظمت البلاد الشرقية من الأندلس في طاعة الأمير أبي زكريا^(٥) فولى عليها جميعاً أبا جميل زيان بن مردنيش. وفي سنة ٦٤٠هـ / ١١٤٢م عقب وفاة الخليفة الرشيد الموحد قلع ابن الأحمر محمد بن يوسف بن نصر الدعوة للخليفة الجديد

= المرجع السابق ص ٤٧٥ وما بعدها.

(١) ابن الأبار : المصدر السابق ج ٢ ص ١٢٧، ابن عذاري : المرجع السابق ج ٢ ص ٣٤٤، ابن النفذ : المصدر السابق ص ١٢٦ وما بعدها. ابن الشماخ : المصدر السابق ص ٤٨، حمودة بن عبد العزيز : التاريخ البائس، مخطوط المكتبة الوطنية بونس ورقة ٩٩ وما بعدها، محمد بن أحمد العسكري : عجائب الأسرار، مخطوط ورقة ٧٠.

(٢) الزركشي : تاريخ الدولتين ص ٢٧.

(٣) ابن عذاري : ج ٣ ص ٣٤٤.

(٤) ابن عذاري : المصدر السابق ج ٣ ص ٣٥٤.

(٥) ابن عذاري : المصدر السابق ج ٣ ص ٣٤٧، انظر أيضاً حمودة بن عبد العزيز : المصدر السابق، ورقة ٩٩ - ١٠٠.

السعيد الموحدي وبابع أبا زكريا، وقد توجه بيعته إلى تونس أبو بكر بن عياش شيخ مملكة وأبو بكر التزولي فأرسل إليه أبو زكريا أموالاً كثيرة (برسم أن يستعين بها المسلمون على الجهاد)^(١)، ثم تبعت إشبيلية شرق الأندلس في إعلان تبعيتها لأبي زكريا، فأرسل أهلها بيعتهم إليه سنة ٦٤١ هـ / ١٢٤٣ م^(٢) واقتدى بهم أهل المرية وشرش وطريف^(٣)، فولى أبو زكريا على إشبيلية ابن عمه أبا فارس بن يوسف بن الشيخ أبي حفص، وأرسل معه رسالة إلى أهلها يطعنهم ويعددهم فيها بالمساعدة^(٤)، ولكن يبدو أن عمال أبي زكريا لم يكونوا على مستوى المسؤولية (فاشتغلوا بما لا يصلح من الفساد وجرت لهم أمور شنيعة لا يمكن ذكرها فأخرجهم أهل إشبيلية)^(٥) إلى سبتة وأعادوا واليهم السابق ابن الجند، ولكنهم عادوا فخاروا عليه وقتلوه ربما لحبائته واتصاله بالنصارى، وأعادوا أبا فارس والياً عليهم مرة أخرى، وقد استغل فرناندو الثالث ملك قشتالة هذه الحوادث التي كانت تدور في المدينة وبدأ في شن غاراته على نواحيها منذ أواخر سنة ٦٤٣ هـ / ١٢٤٦ م، فأرسل أبو زكريا حينما علم بذلك أسطولاً يحمل الإمدادات إليها لتمكن من الصمود في وجه العدو، يقول ابن عذري في ذلك : «وفي سنة أربع وأربعين وستمائة وصلت الأجفان(*) التونسية إلى سبتة وإشبيلية»^(٦)، ويبدو أن المدد من أبي زكريا لإشبيلية قد توالى بعد ذلك لإدراكه ما بيته العدو لها، فعمل كل ما في وسعه لشحنها بالقوة، وصدق حديثه، إذ لم يلبث أن زحف

(١) ابن القنفذ : المصدر السابق ص ١٠٩، حمودة بن عبد العزيز : المصدر السابق ورقة ١٠٠، أما ابن خلدون (ج ٤ ص ١٧٠ - ١٧١) وابن الشماخ (ص ٥١) فيقولان أن بيعة إشبيلية وصلت أبا زكريا سنة ٦٤٣، والأصح في اعتقادنا هو ما ذكرناه في المتن لأن أبا فارس الذي تولاهما لأبي زكريا قد تولاهما مرتين الأولى سنة ٦٤١ هـ والثانية سنة ٦٤٣ هـ فانحصر أن سنة ٦٤٣ هي سنة البيعة ولكنها في الحقيقة كانت سنة عودة أبي فارس مرة أخرى لولايتها.

(٢) ابن القنفذ : المصدر السابق ص ١٠٩، حمودة بن عبد العزيز : المصدر السابق ورقة ١٠٠ .

(٣) ابن عذاري : المصدر السابق ج ٣ ص ٣٧٩ وما بعدها.

(٤) ابن عذاري : المصدر السابق ج ٣ ص ٣٧٩ وقد أورد نص هذه الرسالة مختصرة، انظر كذلك ابن أبي زرع : الفخيرة السنية ص ٦٧ .

(٥) ابن عذاري : المصدر السابق ج ٣ ص ٣٧٩ .

(٥) الأجفان : جمع جفن وهي سفينة حربية بطيئة الحركة لكبير حجمها. (انظر د. سعد ماهر : البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية ص ٣٣٦).

(٦) ابن عذاري : المصدر السابق ج ٣ ص ٣٨٠ .

فرناندو إليها متعللاً بمقتل ابن الجند، يقول ابن عذارى في ذلك : (ولما قتل ابن الجند رحمه الله كان قتله سبباً في نزول النصارى مدينة إشبيلية لأن أذفونش كان مصافياً لابن الجند ومصالحاً له على المسلمين فلما مات فسد الصلح بينهم فحاصروهم)^(١)، وضيق عليها الخناق برأً وبحراً في جمادى الأولى سنة ٦٤٥هـ / ١٢٤٧م، وتصدت معظم المصادر التاريخية عن ذكر ما قام به أبو زكريا في سبيل نصرتها وإنقاذها من العدو، وطال بحثي في هذه المصادر عن ذلك لاعتقادي بأن لإشبيلية مكانة خاصة في نفس أبي زكريا، ومن غير المعقول أن يقف من حصار العدو لها موقف المتفرج، حتى عثرت على نص أورده حمودة بن عبد العزيز في التاريخ البائسي يدعم وجهة نظري في هذا الموضوع يقول فيه إن أبا زكريا أرسل أسطولاً إليها بالمدد (فوصل إلى وادي إشبيلية وغلبهم أسطول الطاغية على المرسى (فرجعوا)^(٢))، وحالت الظروف دون أن يعاود أبو زكريا إغاثة المدينة من جديد نظراً لأن الخليفة السعيد الموحيدي كان في تلك الآونة يعد العدة لاكتساح إفريقيا والقضاء على أبي زكريا نفسه، حيث كان السعيد قد استعد (لهذه الحركة استعداداً عظيماً لم يعهد به قبله فيما تحرك من الحركات مثله فقد كان يستعد لها من حين ولي الإمارة إلى هذه السنة المؤرخة - سنة ٦٤٦هـ - فتحرك لها)^(٣) حتى إنه لم يتورع عن محالفة الإمبراطور فردريك الثاني (وطلب منه الإعانة بالأجفان الصقلية إذا وصل إلى البلاد الإفريقية)^(٤) وحتى إنه لم يكثر باستغاثات أهل إشبيلية التي كانوا يرسلونها إليه لشدة رغبته في القضاء على أبي زكريا، فلم يسمع الأخير إلا أن يبادر في الاستعداد لمواجهة، ولما أعىي الحصار المدينة الباسلة اضطرت إلى الاستسلام في ٢٧ رمضان سنة ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م^(٥)، ولم يلبث أبو زكريا أن توفي في سنة ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م وخلفه ابنه المستنصر الذي سار على سنة أبيه في مساعدة الأندلس حسب ما كانت تسمح به ظروفه.

(١) ابن عذارى : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٨١.

(٢) حمودة بن عبد العزيز : المصدر السابق ورقة ١٠٠ .

(٣) ابن عذارى : المصدر السابق ج ٣ ص ٣٨٦ .

(٤) ابن عذارى : المصدر السابق ج ٣ ص ٣٨٦ .

(٥) ابن عذارى : المصدر السابق ج ٣ ص ٣٨٥، انظر أيضاً ابن أبي زرع : الذخيرة السنية ص ٦٩ .

أما عن السبب في إخفاق أبي زكريا وابنه المستنصر من بعده في إنفاذ الأندلس من تكاليف العدو عليها منذ هزيمة الناصر الموحد في وقعة العقاب منتصف صفر سنة ٦٠٩هـ / ١٢١٢م^(١) فيعود إلى عدة أسباب منها بعد إفريقية عن الأندلس وعدم وجود البحرية القوية لديها لنقل المدد وسيطرة النصارى على البحر الأبيض المتوسط ثم العداء بين الحفصيين وبنى زيان الذين كانوا في ذلك الوقت يقومون بتأسيس إمارتهم في المغرب الأوسط ثم مع الموحيدين في المغرب الأقصى بعد انفصالهم عن خلافتهم الأمر الذي لم يكن يمنع لإرسال الجيش عن طريق البر فحسب، وإنما كان يهدد الوجود الحفصي ذاته كما حدث بالنسبة للخليفة السعيد خاصة وأن الدولة الحفصية كانت لا تزال في طور التأسيس لا سيما في عهد أبي زكريا، ثم إن العدوان الصليبي على الأندلس كان علواناً منظماً يسير وفق خطط مدروسة وضعتها الحركة الصليبية وسخرت لها جزءاً كبيراً من إمكانيات أوروبا الغربية البشرية والمادية في حين أن الدولة الحفصية كانت محدودة الإمكانيات إذا ما قورنت بإمكانيات العدو، ثم إن لجم بني مرين كان قد بدأ في الصعود، ولم يكونوا يفلتون لا عن الموحيدين ولا عن سواهم حماساً للجهاد ونصرة الإسلام حتى إن أميرهم أبا بكر بن عبد الحق حينما بدأ النصارى في منازلة إشبيلية في أواخر سنة ٦٤٣هـ / ١٢٤٦م عزم على الجواز إلى الأندلس للجهاد وبدأ يستعد لذلك فمنعه ابن خلاص صاحب سبتة ونصحه بالقضاء على دولة الموحيدين أولاً ثم التفرغ بعد ذلك للجهاد في الأندلس^(٢) فقبل النصيحة خشي أن تقطع عنه الإمدادات أو طريق العودة، ولكن خليفته يعقوب بن عبد الحق عبر إلى الأندلس في سنة ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م أي قبل استكمال الإطاحة بالموحيدين بحوالي عشر سنوات (فغزا بلاد الروم ودوخها وملك بالأندلس ثلاثة وخمسين مسوراً ما بين مدن وحصون، وأما القرى والبروج فما يزيد على ثلاثمائة قرية)^(٣)، وبذلك كفى بنو مرين الحفصيين مؤونة الجهاد في الأندلس، ولا تنسى أن بني مرين في تلك الفترة كانوا في طاعة المستنصر الحفصي إذ كانوا قد بايعوا أبا زكريا^(٤) ثم بايعوا

(١) عن هذه المعركة انظر ابن عذاري : المصدر السابق ج ٣ ص ٢٤١ وما بعدها، ابن فرحون : المصدر السابق ج ١ ص ٢٣٣ وما بعدها.

(٢) ابن أبي زرع : الذخيرة السنية ص ٦٧ .

(٣) ابن أبي زرع : الذخيرة السنية ص ٩٠ .

(٤) حمودة بن عبد العزيز : المصدر السابق ورقة ١٠٠ .

المستعصر من بعده، فمنذ ذلك الوقت تولى بنو مرين عبء الجهاد في الأندلس وتعزز دورهم هذا بعد سقوط الدولة الموحدية فكانت معالجة القرحة الأندلسية مسؤوليتهم ومثلهم الشاغل، يضاف إلى كل ذلك أن أمراء الأندلس كانوا كما هي عادتهم دون مستوى المسؤولية وعلى أشد الخلاف فيما بينهم، فلم تعلمهم التجارب التي مرت بها بلادهم مع العدو، فبدلاً من التكتل وتوحيد صفوفهم لمواجهة هذا العدو كان بعضهم يحارب البعض الآخر، فابن مردنيش كان رجل الحفصيين في الشرق، وأعلن محمد بن يوسف بن هود تبعيته للدولة العباسية^(١)، أما ابن الأحمر فكان مصافياً للنصارى حتى إنه لم يتورع عن إعانة فرناندو الثالث ملك قشتالة على إشبيلية^(٢)، فكان ذلك سبباً هاماً في ضعف الأندلسيين وبالتالي عدم فعالية مساعدات إفريقية لهم.

ومع ذلك، فإن سلاطين بني حفص لم يكفوا عن تقديم كل عون ممكن لأهل الأندلس، إذ يقول عبد الله الترجمان عن مخدمه السلطان أبي فارس عبد العزيز الحفصي إنه كان قد رسم لأهل الأندلس منه الإحسان الدائم فقد رتب لهم ألف قفيز من القمح في كل عام لتوزع على أولي الفاقة منهم سوى ما يصحب ذلك من إدام ومال عين وخيل عتاق وكمية من السلاح النفيس وما لا يوجد عندهم من البارود الجيد^(٣)، ويفهم من نص لابن الشماخ أن هذه المعونة كانت ترسل إليهم في كل سنة إذ يقول في معرض حديثه عن مآثر مخدمه السلطان أبي عمرو عثمان الحفصي (٨٣٩هـ - ٨٩٣هـ) : (ومن مآثره - نصره الله - صدقة الجارية في كل عام على أهل جزيرة الأندلس إعانة لهم على ما هم يصدده من جهاد عدو الدين. واتبع في ذلك سبيل آبائه الكرام)^(٤)، ولم تكن مساعدة الأندلس وقفاً على السلاطين، وإنما تعدتها للأمراء وأبناء الشعب، من ذلك ما ذكره ابن القنفذ القسطنطيني أنه في سنة ٦٥١هـ / ١٢٥٣م حينما قضى المستعصر على ثورة أخيه الأمير أبي إسحق خرج

(١) أعلن ابن هود تبعيته للخلافة العباسية ووصله التقليد والراية سنة ٦٣١هـ مع حسن بن علي الكردى

الملقب بالكمال (انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج ٣ ص ١٧٠ - ١٧١)

(٢) حمودة بن عبد العزيز : المصدر السابق ورقة ١٠٠ .

(٣) عبد الله الترجمان : المصدر السابق ص ١٣ - ١٤ .

(٤) ابن الشماخ : المصدر السابق ص ١٦٣ .

الأخير مع من بقي من أنصاره إلى المغرب الأقصى ثم عبر البحر إلى الأندلس (فوقف معه الأمير أبو عبد الله بن الأحمر ورعى له ذمة أبيه، وشهد هنالك الوقائع في علو الدين وأبلى البلاء الحسن، واشتهر اسمه وعلا صيته)^(١).

وبالإضافة لما تقدم، فإن سلاطين بني حفص فتحوا بلادهم للذين هاجروا من الأندلس فراراً بدنيهم وأرواحهم من بطش العدو وتنكيله، فأحسنوا وفادتهم وفتحوا لهم أبواب الرزق والحياة الكريمة، فكان الواقدون منهم يجدون مجالاً واسعاً لاستثمار مواهبهم في مجالات التجارة والصناعة وزيادة عن الحقل الثقافي وميدان السياسة والإدارة، فكانت إفريقية في نظرهم تعتبر الملاذ الأخير لهم^(٢) فقصدها بأعداد غفيرة في أكثر من موجة خاصة في زمن أبي زكريا الأول وابنه المستنصر اللذين كانا يميلان إلى الأندلسيين ويقدران مواهب النابيين منهم حتى أصبح هؤلاء عيون الدولة الحفصية في عهدهما وتولوا فيها أسمى المناصب مثل أبي المطرف المخزومي الذي وفد على أمير بجاية زكريا بن أبي زكريا الأول الحفصي فأكرم مثواه، وأقام أبو المطرف في كنفه يراعى ملوك المسلمين يستنهض همهم لنصرة الأندلس وألف لخدمته رسالة شرح فيها الأرزاء والتكبات التي حلت ببلاده والتي كان شاهد عيان لها، كما ألف كتاباً آخر عن الأندلس نحا فيه منحى العباد الأصقهان في الفتح القسي، ثم ارتحل بعد ذلك إلى تونس وأقام في كنف أبي زكريا الأول وكتب له رسالته المشهورة يستنهضه لإغاثة الأندلس^(٣)، ثم أبي الحسن حازم القرطاجني شاعر البلاط أيام المستنصر الذي وصف مكانته في الدولة الحفصية بقوله :

بلغت آراب المني في دولة أولت يدي أسنى الأيادي والله^(٤)

وابن الأبار الذي عاد إلى تونس بعد سقوط بلنسية في يد العدو وتولى كتابة العلامة لأبي زكريا، ثم أبي بكر بن خلدون الجند الأعلى للمؤرخ الذي تولى الحجابة لأبي فارس بن أبي إسحاق حينما ولي بجاية، والرئيس أبو عبد الله محمد بن أبي الحسين الذي كان المدير

(١) ابن القنفذ : المصدر السابق ص ١١٨ .

(٢) انظر د. محمد الطالبي : المرجع السابق ص ٢٧ .

(٣) محمد الهادي العامري : تاريخ المغرب في سبعة قرون ص ٦٥ .

(٤) د. محمد الحبيب بن الحوجة : قصائد ومقطعات صنعة حازم القرطاجني ص ٢٧ .

لشؤون دولة أبي زكريا الأول وابنه المستنصر^(١) وغيرهم كثير، وهناك نص أورده ابن عذارى يفهم منه أن أبا جميل زيان بن مردنيش أمير شرق الأندلس السابق قد لجأ إلى تونس هو الآخر وكان من خاصة المستنصر، إذ يقول في معرض حديثه عن المؤامرة التي تعرض لها المستنصر في مطلع حكمه : (وبعد سنة وأشهر من ولايته - المستنصر - أراد بعض الموحدين أن يخلعوه واجتمعوا على عمه أبي عبد الله اللحياني فبايعوه بيعة الخاصة وهو قاعد في داوه والموحدون معه يتفاوضون في أمره، إلى أن دخل على المستنصر علجه ظافر الكبير وأعلمه بما وقع في دار عمه من التدبير فأمره باستدعاء بعض الفرسان وحضر ابن أبي الحسين خاصة وأبو جميل زيان بن مردنيش وغيره من رؤساء الأندلسيين...) ^(٢) حيث قاموا بالقضاء على هذه المؤامرة وقتلوا اللحياني. كما يستفاد من هذا النص أيضاً أن الأندلسيين كانوا هم أركان دولة المستنصر وخاصته وموضع ثقته. وأما عند هؤلاء الأندلسيين الذين لجأوا إلى إفريقية فيقدرهم الدكتور محمد الطالبي ببضع عشرات الآلاف^(٣)، وعلى ذلك تكون إفريقية قد قامت بدورها كاملاً غير منقوص في مد يد العون والمساعدة لأهل الأندلس سواء في بلادهم أو على أرضها.

ب - صقلية :

كان لصقلية ومسلميها مكانة خاصة لدى حكام إفريقية وأهلها منذ فتحها أيام الأغالبة، وقد يعود السبب في ذلك إلى أن أهل إفريقية هم الذين نالوا شرف فتحها ونشر الإسلام فيها، أو لكونها ظلت تابعة لإفريقية منذ ذلك الفتح حتى انتقال الفاطميين إلى مصر، أو نظراً لقربها منها مما وثق الروابط والصلات بين البلدين، فلطالما رحل من شاء من أهل إفريقية إلى صقلية إبان الأزمات ولطالما رحل بالمقابل العديد من الصقليين إلى إفريقية لأغراض مختلفة كما سيذكر فيما بعد مما أوجد اختلاطاً في الدم بين الطرفين، وربما كان ذلك نتيجة لهذه الأسباب مجتمعة، مما جعل الحكومات التي تعاقبت على حكم إفريقية

(١) لمزيد من التفصيل انظر د. محمد الطالبي : المرجع السابق ص ٥١ وما بعدها.

(٢) ابن عذارى : المصدر السابق ج ٣ ص ٣٩٨ .

(٣) انظر د. محمد الطالبي : المصدر السابق ص ٥٦ .

تنظر لصقلية هذه النظرة الخاصة وجعلها تقدم كل ما تستطيعه من مساعدات لمسلميها حينما يتعرضون للخطر، وكان أهل صقلية يبادلون إخوانهم في إفريقية نفس الشعور ويتطلعون إليهم كلما ألت بهم الملمات، فحينما بدأ البيزنطيون يتطلعون للاستيلاء على بلادهم منذ أوائل القرن الخامس الهجري (الحادي عشر للميلاد) منتهزين فرصة الاضطرابات والفتن الداخلية التي حدثت فيها في تلك الآونة، حيث أرسل الامبراطور بسيل الثاني حملة عسكرية ضخمة في سنة ٤١٦هـ / ١٠٢٥م للاستيلاء على كل من صقلية وقنورية ووصلت تلك الحملة إلى الجزيرة بالفعل وحاصرت بلرمة، استنجد الصقليون بالمعز بن باديس الذي سارع إلى إعداد أسطول كبير أرسله لنجدهم، ولكن هبوب عاصفة بحرية عليه في الطريق أغرقت معظم قطعه ولم يصل منه إلى الجزيرة إلا عدد قليل كما سبق أن ذكرنا، إلا أن الذي أنقذ الجزيرة من الخطر كان هو موت بسيل الثاني في تلك الفترة ورغبة خليفته قسطنطين الثامن في عقد الصلح مع الفاطميين، ذلك الأمر الذي تم بالفعل في سنة ٤١٨هـ / ١٠٢٧م.

وفي سنة ٤٢٧هـ / ١٠٣٦م جثم الخطر البيزنطي على صقلية من جديد، إذ عمل البيزنطيون على الاستفادة من حالة السلم التي كانت بينهم وبين البغار، ومن الاتفاقية التي عقدها مع الدولة الفاطمية والتي تعهدت تلك الدولة بموجبها بعدم مد يد المساعدة لصقلية إذا ما أراد البيزنطيون غزوها، ومع أن أمير صقلية الأكمحل الكلبي كان قد أدرك مغزى تلك الاتفاقية والنوايا البيزنطية فاستبق الحوادث بإعلانه الاعتراف بسيادة الامبراطور البيزنطي على الجزيرة في سنة ٤٢٦هـ / ١٠٣٥م ليأمن العدوان، إلا أن ذلك لم يثن هذا عن عزمه في احتلال الجزيرة فأرسل في سنة ٤٣٠هـ / ١٠٣٨م الحملة التي قادها جورج منياس كما سبق أن ذكرنا والتي نزلت في شرقها واستولت على سرقومة، فسار جماعة من زعماء المسلمين في الجزيرة إلى المعز بن باديس وأطلعوه على أوضاع بلادهم التي أطمعت العدو فيها، ومع أن المعز كان يعاني آنذاك من الثورات والفتن التي زادت حداثها في إفريقية بشكل كبير، إلا أنه صعب عليه التفريط فيها فأرسل جيشاً بقيادة ابنه عبد الله لنصرتها، الذي تمكن من اقتحام الحصار البحري البيزنطي المتروك عليها، وأن يخلص شلفودة ثم يحاصر

الأكحل والي الجزيرة في الخالصة لتواطئه مع البيزنطيين وأن يقضي عليه، ولكن الصقليين بدلاً من أن يلتفوا حول عبد الله بن المعز لدفع الخطر البيزنطي عن بلادهم، عاد بعضهم إلى بعض وفضلوا الاستقلال بشؤونهم على التبعية للمعز، ونشبت الفتنة بين الصقليين ومنجديهم تطورت إلى قتال هزم فيه ابن المعز وقتل لثمانية رجل من جيشه^(١) مما اضطره إلى الانسحاب والعودة إلى إفريقية، وقد صحبه عدد كبير من أنصارها وعلمائها وصلحائها مؤثرين الهجرة على العيش في ظل المشاكل الداخلية وتهديد الخطر الخارجي^(٢)، ولم ينقذها من البيزنطيين في تلك المرة إلا حسن حظها أيضاً، إذ انسحب مناس منها هو الآخر نظراً للمتعاب التي سببها له فرسان النورمان الذين كانوا يعملون خلف خطوته في جنوب إيطاليا، وكذلك لانعدام التنسيق بين القوات البحرية التي كان يقودها والقوات البرية التي كانت بقيادة القائد ستيفن^(٣)، وبالرغم من انسحاب عبد الله بن المعز من الجزيرة، إلا أن المعز لم يتركها وشأنها، إذ يبدو أن أسطولاً استمر في التعرض للأسطول البيزنطي ومهاجمته في المياه الصقلية فيما بين عامي ٤٣٠ - ٤٣٥ هـ / ١٠٣٨ - ١٠٤٣ م^(٤).

وحينما دخل النورمان الجزيرة سنة ٤٥٢ هـ / ١٠٦٠ م وهزموا ابن الحواس أمام قصر يانة كما تقدم، فرع أهلها وغادرها كثير منهم إلى إفريقية لأنكذين بالمعز واستغاثوا به لإنقاذ بلادهم مما نزل بها، وبالرغم من أن صرخة الاستغاثة هذه جاءت في وقت كان فيه المعز يتعرض للهجمة الهلالية، إلا أنه رأى بذل ما يستطيع لنصرة مسلمي صقلية، فعمر أسطولاً من أربع مائة سفينة شحنت بالجنود والأسلحة والمؤن، وكان الوقت شتاء، فلم يطق الانتظار حتى فصل الصيف خشية أن يقوم النورمان بتثبيت أقدامهم فيها فعجل بإرسال ذلك الأسطول فهبت عليه عاصفة بحرية قرب جزيرة قوصرة دمرت أكثر سفنه ولم ينج منها إلا القليل^(٥)، ويعلق ابن الأثير على هذه الكارثة بقوله : (وكان ذهاب الأسطول مما

(١) ابن الأثير : المصدر السابق ج ١ ص ١٩٤، انظر كذلك أبو الفدا : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٠٠.

(٢) أبو الفدا : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٠٠.

(٣) أرشيبالد لويس : المرجع السابق ص ٣١٠ وما بعدها.

(٤) د. أحمد مختار العبادي، د. السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ١٩٧.

(٥) ابن الأثير : المصدر السابق ج ١ ص ١٩٧، د. سيد عائور : بعض أضرأء على العلاقات بين بيزا =

أضعف المعز، وقوى عليه العرب، حتى أخذوا البلاد منه^(١)، لذلك لم يتمكن المعز من المحاولة مرة أخرى حتى وفاته سنة ٤٥٣هـ / ١٠٦١م وما أن هدأت حدة الموجة الهلالية نوعاً ما وتمكن تميم بن المعز الذي خلف أباه في الحكم (٤٥٣هـ - ٥٠١هـ / ١٠٦١ - ١١٠٧م) من التفاهم مع بعض بطون الهلالية حتى عاد لإحياء مشروع أبيه في إنقاذ صقلية من النورمان، فأرسل إليها حملة عسكرية بقيادة ولديه أيوب وعلي، فنزل أيوب بمعظم الجيش في المدينة بينما نزل علي في جرجنت (كركنت) Girgenti بين مظاهر الاحتجاج والاستشعار، وعندما اتقل أيوب إلى جرجنت أمر ابن الحواس بإزالة في قصره إكراماً له، وحينما لمس أهل تلك المدينة طيبة أيوب وحسن معاملته لهم أجبه، فحسده ابن الحواس الذي خشي على مركزه منه، فكتب إلى أهل المدينة المذكورة بأمرهم بإخراجه من بلدهم فرفضوا، وبذلك يقدم ابن الحواس الدليل على أنه لم يكن أفضل من ابن الثمنا الذي أدخل العدو إلى بلاده، وتطور الأمر بين أيوب وابن الحواس إلى قتال نشب بينهما حيث انتصر أيوب وقتل ابن الحواس، فولى أهل صقلية أيوب عليهم^(٢) الذي أخذ يبدل أقصى الجهود لتوحيد المسلمين في الجزيرة تمهيداً لمنازلة النورمان، وبدأ الأمل في الخلاص يراود النفوس الغيرة، وكان الشعراء يذكرون الحماص في النفوس في تلك الفترة ويستنهضون إليهم بما يقولونه من قصيد أمثال عبد الجبار بن حمديس شاعر صقلية المشهور^(٣)، وأثناء ذلك حدث

= وتونس ص ٣٨، د. أمبرتو ريتشيانو : المرجع السابق ص ٧، د. مارتينو مارينو : المرجع السابق ص ١٨، د. أحمد مختار العبادي، د. السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ٢٠٨، أحمد توفيق المدني : المسلمون في صقلية وجنوب إيطاليا ص ١٥٥، د. إبراهيم طرخان : المرجع السابق ص ٢٤٧.

(١) ابن الأثير : المصدر السابق ج ١٠ ص ١٩٧، د. سعيد عاشور : بعض أضواء على العلاقات بين ييزا وتونس ص ٣٨. (٢) ابن الأثير : المصدر السابق ج ١٠ ص ١٩٧، انظر كذلك د. أحمد مختار العبادي، د. السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ٢٠٩.

(٣) كان مما قاله ابن حمديس في تلك الأونة قصيدته التي جاء فيها :

بنى النثر لستم في الوضي من بني أمي	إذا لم أصل بالعرب منكم على المعجم
دعوا الخوف إنني خائف أن تدومكم	دواء وأتمم في الأمان مع الحلم
فردوا وجوه الخيل نحو كرهية	مصرحة الروم بالثكل واليتم
تهيل مع الثقع الخلق بالضحى	على الشمس ما هالته ليل على النجم ==

ما لم يكن في الحسبان، إذ اندلعت الفتنة بين أهل صقلية والجيش الزيري بسبب خلاف بسيط حدث بين بعض جند أيوب وبعض الأهالي فطور هذا الخلاف إلى فتنة بسرعة مذهلة مما يثير الشك لدى الباحث في أن أصابع أعداء الإسلام لم تكن بعيدة عنها، ونشب القتال بين الطرفين، وحيال ذلك اضطر أيوب وأخوه إلى الانسحاب والعودة إلى إفريقية في سنة ٤٦١ هـ / ١٠٦٩ م^(١) تاركين صقلية تواجه مصيرها التمس، وصحبهما العديد من أعيان البلاد ومنتقياها كان من ضمنهم ابن حديد نفسه، يقول ابن الأثير في ذلك : (وصحبهم جماعة من أعيان صقلية والأمطولية، ولم يبق للفرنج ممانع^(٢)).

ولما وجد مسلمو الجزيرة أنفسهم في مواجهة النورمان دون نصير وأنه لا قبل لهم بشن حرب مواجهة منظمة ضدهم، لجأوا إلى حرب العصابات، وكان أسطول تميم بالرغم مما حدث مع ولديه لا يكف عن الإغارة على مواقع النورمان سواء في صقلية أو في جنوب شبه الجزيرة الإيطالية لمشاغلهم مساندة منه لمسلمي صقلية. فقد أغار في سنة ٤٦٧ هـ /

= وصلوا بيض في العجاج كأنها
فوق بضرب الهام محمرة السجم
فلا عدمت من سلها من غمودها
ظهروا، فقد تخفى الجدول بالرجم
ورق الحسام الرأس من كل كافر
أحب إلى سمعي من الثغر في البم

ومنها :

ولله أرض إن عدتم هواعها
فاهواؤكم في الأرض مثورة النظم
وعزكم يفضي إلى الذل والنوى
من البين ترمي الشمل منكم بما ترمي
وإن بلاد الناس ليست ببلادكم
ولا جاراها والحكم كالجار والحكم
أعن أرضكم تغنيكم أرض غيركم
وكم خالة جلاء لم تغن عن أم
تقيد من القطر العزيز بموطن
ومت عند ربح من ربوعك أو رسم
وليك عنه أن تجرب غربة فلن يستخير العقل تجربة السم

(انظر أحمد توفيق المدني : المسلمون في صقلية وجنوب إيطاليا ص ١٦٠).

(١) ابن الأثير : المصدر السابق ج ١٠ ص ١٩٨، د. أمبرتو ريجستانو : المرجع السابق ص ٨، أحمد توفيق

المدني : المسلمون في صقلية وجنوب إيطاليا ص ١٦٠.

(٢) ابن الأثير : المصدر السابق ج ١٠ ص ١٩٨.

١٠٧٤م على نقوطرة ونواحيها غارة موقفة وعاد إلى إفريقيا غائماً، وأغار في العام التالي على مازرة وحاصرها ولكنها امتنعت عليه مما اضطره للرجوع عنها^(١)، وكانت هذه الغارات من أهم الأسباب التي جعلت رجار يعقد معاهدة سنة ٤٦٨هـ / ١٠٧٥م مع تميم، والتي بموجبها تعهد تميم التكف عن مضايقة رجار في حين تعهد الأخير باستئناف شحن القمح الصقلي إلى إفريقيا^(٢).

وعندما استولى النورمان على الجزيرة بأكملها اشتدت وطأتهم على المسلمين فيها بعكس ما يشاع عن تسامحهم معهم، وإذا كانت هنالك أدلة يسوقها البعض على تسامح ملوكهم، فإن الأدلة على الاضطهاد والتعصب ضد الإسلام والمسلمين كثيرة، وإن تسامحهم المزعوم مع المسلمين لم يكن إلا بقدر حاجتهم إليهم نظراً لتفوقهم عليهم في أعمال الإدارة والزراعة والصناعة وغيرها، فمنذ أن وطئت أقدامهم أرض الجزيرة بدأوا يعملون على القضاء على مظاهر الإسلام فيها بقدر الإمكان^(٣)، وإذا كان نضوج الحضارة العربية الإسلامية فيها قد حدث في عهدهم فإن ذلك أمر لم يكن لهم يد فيه وإنما جرى بحكم طبيعة الاستمرار شأنه كشأن شجرة طيبة غرست في أرض الجزيرة وتمهدها أصحابها حتى أثمرت وبدأ هذا الثمر في التصبج، فكان لا بد أن يتم نضجه، ففي رواية المؤرخ مالاتيرا التي يصف فيها الفظائع التي ارتكبتها الغزاة النورمان في المسلمين ما يدحض القول عن تسامحهم إذ يقول (إن القدر أحياناً أسوأ من الموت، فالعربي الهارب من الهجوم

(١) أمبرتو ريسيتانو : المرجع السابق ص ٩.

(٢) كان الحصول على قمح صقلية أمراً حيوياً بالنسبة لأمرأ بني زيوي خاصة في سنوات القحط والجماعة التي كانت تصيب إفريقيا، ولذلك كثيراً ما اضطروا لقبول شروط النورمان حتى لا ينقطع عن إفريقيا هذا المصدر للقمح

انظر : A. Belkhdja : Les Normands de Sicile en Ifriqiya, p.37 - 38.

كذلك د. أمبرتو ريسيتانو : المرجع السابق ص ١٦، ويؤكد ابن الأثير ذلك بقوله في حوادث سنة ٥٣٦ هـ عن رجار : (ثم راسله الحسن وجدد الهدنة لأجل حمل الغلات من صقلية إلى إفريقيا).

(٣) انظر وصف ولیم الأبرلي (William of Apulia) لاستيلاء رجار على يرمقوتدمير مساجدها وتحويل مسجدها الجامع إلى كنيسة حيث يقول إن رجار أسس تلك الكنيسة للعدراء ليجلس الرب في نفس المكان الذي كان يجلس فيه الشياطين - ويعني بهم المسلمين - ذلك أنها باب يؤدي إلى الفردوس العلوي. انظر : (Norman Daniel : Op. Cit., p.148)

النورماني كان يقتل أخته التي تعجز عن السير ليجنيها الأسر والاغتصاب^(١)، وإن رجاء الثاني الذي تعتبره العديد من المراجع قمة هذا التصامح قد أعدم فيليب المهذوي قائد أسطوله مجرد أنه سمح لبعض التماسك والعباد المسلمين بمغادرة بونة (غابة) عند احتلاله لها في سنة ٥٤٨هـ / ١١٥٣م دون أن يقتلهم مما عرضه لتهمة أنه مسلم في السر وكانت هذه التهمة كافية لقتله حرقاً^(٢)، وليس أدل على هذا الاضطهاد والتعصب مما رواه ابن جبير عن أوضاع المسلمين المؤلمة التي شاهدها وخبرها بنفسه عندما زار الجزيرة إذ يذكر اجتماعه بشخص من وجوه المسلمين فيها اسمه عبد المسيح فعلم منه أنه مسلم في السر ولا يقنر على المجاهرة خوفاً من بطش النورمان فيقول بلسانه : (ونحن كاتقون لإيماننا، خائفون على أنفسنا، ومنتسكون بعبادة الله وأداء فرائضه سرّاً، معتقلون في ملكة كافر بالله، وقد وضع في أعناقنا ربة الرق)^(٣)، وينقل صوراً مشابهة شاهدها عياناً أو قبلت له^(٤)، فكان من الطبيعي أن لا يسكت المسلمون على هذا الاضطهاد وأن تتعدد ثوراتهم، وكان من أكبر هذه الثورات تلك التي نشبت في عهد وليام الأول (غليالم، غليوم، غليام Gulliime).

فقد دب الحماس في نفوس المسلمين للمقاومة والثورة بعد طرد النورمان من المهديّة سنة ٥٥٥هـ / ١١٦٠م مما أثار هؤلاء عليهم فديروا لهم مذبحة بلمرة سنة ٥٥٦هـ / ١١٦١م التي راح ضحيتها العديد من المسلمين^(٥) وغادرها الباقيون واعتصموا بالجبال وأقاموا حكومة خاصة بهم^(٦)، ويشهد المؤرخ فلكاندو (Ugo Falcandus) بنجاح هذه

(١) Norman Daniel : Op. Cit., p.144 - 145.

(٢) انظر ابن الأثير : المصدر السابق ج ١١ ص ١٨٧، ابن خلدون : المصدر السابق ج ٥ ص ٢٠٤، د. حسين مؤنس : الجغرافية والجغرافيون في الأندلس ص ٢٧٥، أما دافيد دوغلاس (D. Douglas Op. Cit., p.60) فيعتقد أن السبب في قتله هو الصراع الذي كان بين رجال البلاط، والأصح هو ما روثه المصادر الإسلامية والتي منها المصدرين الآتني الذكر.

(٣) ابن جبير : رحلة ابن جبير ص ٢٩٩ - ٣٠٠.

(٤) انظر ابن جبير : المصدر السابق ص ٣١٣ وما بعدها حيث يورد العديد من هذه الأمثلة.

(٥) عن هذه المذبحة انظر د. مارتينو مارتينو : المرجع السابق ص ٢١.

(٦) K. Setton : Op. Cit., v. 2, p.32. Norman Daniel : Ibid, p. 149 - 150.

(٦) د. مارتينو مارتينو : المرجع السابق ص ٢٥.

الثورة إذ يقول واصفاً التفكك الذي حدث في صقلية بين المسلمين والمسيحيين معلقاً على وفاة وليام الثاني دون عقب ووصيته للامبراطور الألماني هنري السادس بملك صقلية : (لو توج أهالي صقلية رجلاً مقرأً له بالقدرة، ولو زال النزاع بين المسيحيين والعرب، لتمكن الملك الذي يختارونه من رد حملات الأجانب ومن إصلاح أمور الدولة البادية علام انحلالها، ولكن بعد أن سادت الفوضى وعاد الناس لا يخافون سلطة الملك، قد أصبح وللأسف، من المتعسر أن يكف النصارى عن التعدي على العرب، وأن يكف هؤلاء، وهم مسيو الظن بهم وناقمون ظلمهم، عن التمرد وعن كبس حصن على البحر تارة، وقلعة في الجبال طوراً)^(١)، وقد طالبت مدة هذه الثورة فكانت لا تزال مشتتة في سنة ٥٥٨٦هـ / ١١٩٠م، إذ يذكر أبو شامة أنه في تلك السنة ورد كتاب من المهديّة إلى الإسكندرية جاء فيه أن (أهل صقلية من المسلمين إلى الآن في حرب قائمة بينهم وبين فرنجها ومحتصون بالجبال في أعمالها وأن عسكر الفرنج قد خرج لإنجاد أصحابهم بصقلية والمسلمون بها على توقع ورقة وحذار وخفية)^(٢)، ونتيجة لما تقدم من النصوص، يدور في مخيلة الباحث تساؤل هام هو هل كانت هذه الثورة وما سبقها من مقاومة للاحتلال تنغذي ذاتياً أو أنها كانت مدعومة من قوة خارجية تبعث إليها بالمساعدات وتماندها؟

في الحقيقة، إن النصوص التاريخية المتوفرة لا تقدم الجواب الواضح والشافي على هذا السؤال، ولكن توجد هنالك مؤشرات يستطيع الباحث أن يستشف منها أن عناصر المقاومة الإسلامية كانت تتلقى دعماً خارجياً. فالدولة الموحدية منذ طرد النورمان من المهديّة وتوحيد المغرب العربي والأندلس في دولة واحدة قد اقتربت من صقلية بالقدر الكافي الذي يجعلها تحسّس مشاكل المسلمين فيها ومتاعهم، ومن المستبعد وهي الدولة التي تولّت عبء جهاد الصليبيين في غرب العالم الإسلامي أن تقف موقف اللامبالاة من ثورة إسلامية ضد نصارى غاصبين ودامت وقتاً طويلاً كهذه الثورة، خاصة وأنها عاصرت عهد خلفاء الموحدين الثلاثة الأول العظام، وأن أخبارها كانت معروفة في إفريقيا دليل أن تلك الأخبار قد وصلت إلى مصر عن طريقها كما يقول أبو شامة في النص الآنف الذكر والتي كانت

(١) د. مارتينو مارينو : المرجع السابق ص ٢٤ - ٢٥ .

(٢) أبو شامة : الروضتين في تاريخ الدولتين النورية والصلاحيّة ج ٢ ص ١٧٧ .

ولاية موحدة في ذلك الوقت، ثم إن مملكة النورمان أصبحت لا يخشى بأسها منذ وفاة رجار الثاني. ويلقي ابن جبير بعض الضوء على هذا الموضوع، الذي يمكن اعتبار قوله هنا أحد هذه المؤشرات، فيذكر في حديثه عن القائد أبي القاسم بن حمود الذي كان من الأشراف العلويين أن ملك صقلية قد غضب عليه وألزمه داره وصادره ما تزيد قيمته عن ثلاثين ألف دينار من ممتلكاته لأن أعداءه اتهموه بالاتصال بالموحدين^(١)، ومع أن ما يفهم من رواية ابن جبير أن هذه التهمة باطلة، إلا أن ذلك يدل على رية ملك صقلية برعاء المسلمين فيها بشأن اتصالهم بالموحدين، ومن المستبعد أن تقوم تلك الريبة والشكوك بدون أساس ذلك أنه لا دخان بدون نار كما يقال، ومن المحتمل أن تكون حقيقة هذا الأمر قد خفيت على ابن جبير فلم يشر لها بوضوح، ثم إننا لو افترضنا جدلاً ببطلان هذه التهمة عن ابن حمود فإن ابن جبير لا ينفى عنها غيره، وهناك ثمة مؤشر آخر إلى ذلك هو أنه أثناء الصراع على السلطة بين مستشاري الملك وليام الأول وهما اصطفان ومايو اجتهد اصطفان في تأليب النصارى على المسلمين الذين كانوا يميلون إلى خصمه متعللاً بأن الموحدين بعد أن وصلوا إلى إفريقية يتأهبون لاستعادة صقلية مستعيتين بمن فيها من المسلمين^(٢)، وكانت النتيجة المذبحة التي نفذت في المسلمين في برمة والتي سبق أن أشرنا إليها، فهل كان ذلك محض اختلاق دون استناد إلى دليل؟ إن المرة لبشك في ذلك خاصة وأن أياً من المصادر المسيحية التي اطلعت عليها لم تنفيها أو تشكك بها على الأقل، وما دام احتمال مساعدة المقاومة الصقلية قائماً فلن يكون هنالك من سبيل لهذه المساعدة إلا من إفريقية.

ويزودنا فلكاندو بمعلومات هامة عن تلك الفترة إذ يقول مقبلاً على وضع الصقليين بعد موت وليام الثاني وانضمامها للإمبراطور هنري السادس : (...). فكيف يتمكن الصقليون من مقاومة غزوات العرب بيد، ومحاربة الألمان - والحرب معهم عنيفة - بالأخرى؟ فيا ليت وحد الأشراف والعوام، والنصارى وأهل الإسلام نياتهم، وأجمعوا على اختيار ملك لهم، وبذلوا كل جهودهم في سبيل رد هجمات المعتدين^(٣)، فمن هم العرب

(١) ابن جبير : المرجع السابق ص ٣١٤ .

(٢) د. حسين مؤنس : الجغرافية والجغرافيون في الأندلس ص ٢٨٦ - ٢٨٧ .

(٣) د. مارتينو مورينو : المرجع السابق ص ٢٥ .

الذين تحدث عنهم هذا النص والذين كانوا يقومون بغزو صقلية في ذلك الوقت؟ لو كانت جيوش الدولة الموحدية لذكرتها المصادر بوضوح، ولكنها على الأرجح غزوات صغيرة، والأقرب إلى العقل والمنطق ما دام أن هذا المؤرخ المعاصر قد اعترف بها أن تكون من إفريقية، ولا يتحتم في مثل هذه الغزوات أن يكون هدفها الغزو فقط فقد تكون أيضاً لتقديم العون المادي والعسكري. ثم يأتي ابن عذاري ليلقي مزيداً من الضوء على هذا الموضوع ويؤكد اتصال ثوار صقلية بإفريقية واعتراف هؤلاء بتبعيةهم للموحدين وبالتالي طلب المساعدة منهم إذ يقول في حوادث سنة ٦٠٧هـ / ١٢١٠م (وصلت الأنباء إلى الحضرة بتغليب المسلمين على كثير مما في أيدي الروم من معاقل صقلية ووصول أعيانهم ووجوههم إلى مدينة تونس إلى الشيخ أبي محمد بن أبي حفص وإطلاق الخطبة في بلادهم بالدعوة المهدية الموحدة وإنكارهم ما سواها من المقصورة على العباسية)^(١)، فما بين بدء نشوب هذه الثورة سنة ٥٥٦هـ / ١١٦١م ولحين الإشارة الصريحة بطلب المساعدة سنة ٦٠٧هـ / ١٢١٠م ما يزيد عن الخمسين سنة فهل يمكن أن تدوم جلوة هذه الثورة مشتتة طوال هذه المدة دون مساعدة خارجية؟ إن ذلك أمر من غير الممكن حدوثه على الأرجح، وفي الغالب أنها كانت تتلقى من المساعدات ما أعانها على الاستمرار، وإذا كان الأمر كذلك فلا بد أن تكون إفريقية على الأرجح هي التي قدمت للثوار المساعدات التي مكنتهم من الصمود طوال هذه المدة، وأما ما بعد ذلك، فتمتد مقابلة الوفد الصقلي لأبي محمد بن أبي حفص باخر الأخير إلى إيلاء مسلمي صقلية عنايته فلم يدخر جهداً في مددهم بما استطاع من دعم مادي ومعنوي.

وبعد انفصال إفريقية عن الدولة الموحدية وتأسيس أبي زكريا الأول الحفصي لدولته فيها، كانت الثورة في صقلية لا زالت مشتتة وزادها حدة انشغال الامبراطور فردريك الثاني بنزاعه مع كل من البابوية والمدن اللماردية ومشاكله في ألمانيا^(٢)، فكان أبو زكريا يمد الثوار بالعون سراً حتى لا يثير عليه الامبراطور في وقت كانت فيه دولته في طور التأسيس، ولكن الامبراطور بعد تغلبه على مشاكله زحف على الثوار وأتزل بهم ضربة قاصمة وشنق

(١) ابن عذاري : المرجع السابق ج ٣ ص ٢٣٤ .

(٢) نزيد من التفصيل عن هذا الموضوع انظر د. محمد عائش : أوروبا المصور الرمطي، ج ١ ص ٣٩١ وما بعدها.

قائدهم ابن عباد ونفى معظمهم إلى مدينة لوجارة (Lucera)^(١) الأمر الذي كان له أبلغ الأثر في إضعاف المقاومة الإسلامية في الجزيرة، ومع ذلك فقد كان للمعاهدة التي عقدها أبو زكريا مع الامبراطور في سنة ٦٣٧هـ / ١٢٣٩م أثر محمود على المسلمين فيها، إذ تضمنت شرطاً يضمن لهم حرية دينهم وذواتهم وأموالهم وأن يكونوا شركاء للنصارى في البلاد والضاحية^(٢) فصلحت حالهم وظلوا يتمتعون بهذه الرعاية الحفصية حتى وفاة أبي زكريا سنة ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م، حينذاك تمرد النصارى عليهم ونقضوا العهد، ولجوا في طغيانهم عليهم مما اضطرهم للالتجاء إلى الجبال من جديد حيث نصبوا عليهم زعيماً من بني عيس وأخذوا يذاعون عن أنفسهم، ولكن النصارى كثروهم وحاصروهم حتى اضطرهم للتسليم، فقبضوا عليهم وقتلوا منهم من قتلوا وأجلوا الباقين عن صقلية^(٣).

وكما استقبلت إفريقية اللاجئين إليها من الأندلس، فتحت أبوابها أيضاً للصقليين الذين قدموا إليها في فترات متفرقة كما سبق أن ذكرنا، وقد قدر حسن حسني عبد الوهاب عددهم ما بين العشرين ألفاً والثلاثين ألفاً^(٤)، استقر معظمهم في المدن الساحلية حيث توفرت لهم أسباب الحياة الكريمة، ولا زال أحفادهم لغاية وقتنا الحاضر يعيشون في العديد من مدن الساحل التونسي مثل المنستير، نخبس، هيون، رجيش، ويمكن التعرف عليهم من ألقابهم التي تدل على أصلهم الصقلي، كالصقلي والملازري إلى غير ذلك^(٥).

جـ - المشرق :

وأما في المشرق، فإنه يتعذر على الباحث فرز جهود مسلمي إفريقية من بين جهود باقي إخوانهم المغاربة التي بذلوها في هذه الجبهة، لأن المغاربة في نظر المؤرخين والجغرافيين

(١) د. مارتينو مارينو : المرجع السابق ص ٢٥ .

(٢) انظر ابن خلدون : المرجع السابق ج ٦ ص ٢٨٠، أحمد توفيق المدني : المملوكون في صقلية وجنوب إيطاليا ص ١٨٢، د. مارتينو مارينو : المرجع السابق ص ٢٥ .

(٣) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٢٨٠، أحمد توفيق المدني : المملوكون في صقلية وجنوب إيطاليا، ص ١٨٢ .

(٤) حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق ٣ ص ٢٥٦ .

(٥) حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق ٣ ص ٢٥٧ .

المسلمين هم أهل البلاد المحتلة من حدود إقليم برقة الغربية شرقاً إلى آخر بلاد الإسلام غرباً بما في ذلك الأندلس والجزر الإسلامية في غرب البحر الأبيض المتوسط وليسوا أهل المغرب الأقصى فقط، ومن هذا المنطلق نستطيع القول إن المغاربة ومن ضمنهم أهل إفريقية قد أسهموا بنصيب مرموق في الحروب الصليبية التي دارت رحاها في المشرق، فعند السنوات الأولى لوصول الصليبيين إلى بلاد الشام، انخرط كثير من المغاربة في سلك القوى الإسلامية التي تصدت للغزاة، ولم يكن هؤلاء المجاهدين المغاربة بطبيعة الحال جيوشاً منظمة أرسلتها حكوماتهم لنصرة إخوانهم، ولكنها كانت جهود أفراد وجماعات كانت تأتني إلى المشرق لأغراض عدة أهمها الحج أو طلب العلم أو التجارة أو تخصيصاً للجهاد، فكان هؤلاء حينما يرون احتدام المعارك بين المسلمين والصليبيين تهزمهم الحمية ويلتقون بأنفسهم في أتونها، فركب الحجاج المغاربة الذي كان يصل سنوياً إلى المشرق ويضم الآلاف كان العديد منهم بعد أدائه فريضة الحج يتوجه إلى بلاد الشام إما لزيارة الأماكن المقدسة فيها كالمسجد الأقصى في بيت المقدس أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين والحرم الإبراهيمي في الخليل وغيرهما، أو تجنباً للمرور بمصر خوفاً من التعرض لأذى حكامها الفاطميين أيام دولتهم، يقول ابن الأثير في ذلك : (إن المغاربة كانوا يعتقدون في العلويين أصحاب مصر، الاعتقاد القبيح، فكانوا إذا أرادوا الحج يعدلون عن مصر)^(١)، فكان من تواتره الفرصة من هؤلاء لأن يقرن فريضة الحج بالجهاد لا بدعها تفوته. وأما طلاب العلم المغاربة الذين كانوا يقصدون المشرق لأخذه عن مشاهير شيوخه فكانوا على مر السنين يفوقون الحصر نظراً لرغبة المغاربة إجمالاً في استقاء العلم من منابعه الأصلية في المشرق بالإضافة إلى ما اكتسبوه في المغرب، فكان العديد منهم يشارك في الجهاد ضد الصليبيين، ويؤكد ذلك ما ذكره الدكتور صلاح الدين المنجد نقلاً عن ابن عساكر أن من هؤلاء من كان يجاهد في سبيل الله أثناء مقامه في المشرق^(٢). يضاف إلى هاتين الفئتين فئة التجار التي كانت تغد إلى بلدان المشرق لأغراض التجارة، وأخيراً فئة المجاهدين الذين كانوا يقصدون المشرق بنية الجهاد، فقد وجد من بين

(١) ابن الأثير : المصدر السابق ج ١٠ ص ٤١٤ .

(٢) د. صلاح الدين المنجد : دمشق في نظر الأندلسيين ص ٣٩، كذلك د. صلاح الدين المنجد : المشرق في نظر المغاربة والأندلسيين ص ٢٣ .

المغاربة من كان يقسم عمره في المراقبة سنة في الأندلس وسنة في المشرق يقيم بينهما سنة في أهله، وقد قدم هؤلاء المغاربة لإخوانهم المشاركة مساعدات جلى سجلتها كتب التاريخ.

ونظراً لشدة بأسهم وحسن يلائهم في القتال، رغب حكام المشرق من المسلمين فيهم وعملوا على إلحاقهم بجيوشهم، فقد ذكر ابن الأثير أن بدر الدين الجمالي حاول جهده لاستمالتهم وضم من يقدر عليه منهم إلى جيشه، ولكنه فشل في ذلك لازورارهم عن الدولة الفاطمية (فلما ولي الأفضل أحسن إليهم، واستعان بمن قاربه منهم على حرب الفرنج)^(١)، كما يذكر ابن جبير (أن طائفة من أنجادهم غزت مع نور الدين رحمه الله، أحد الحصون فكان لهم في أخذه غنى ظهر واشتهر)^(٢)، وقد قدر صلاح الدين المنجد عددهم في جيش صلاح الدين أثناء حصاره لمدينة عكا سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م ما بين ألفين إلى ثلاثة آلاف^(٣) اعتماداً على نص أورده عبد اللطيف البغدادي وكرره المقرئ بهرقيته جاء فيه : (وكان في المعسكر أكثر من ألف حمام وكان أكثر ما يتولاه المغاربة، يجتمع منهم اثنان أو ثلاثة ذراعين فيطلع الماء، ويأخذون الطين فيعملون منه حوضاً وحائطاً، ويسبرونه بحطب وحصير، ويقطعون حطياً من البساتين التي حولهم، ويحمون الماء في قدور، وصار حماماً يفسل الرجل رأسه بدرهم وأكثر)^(٤)، وكانت نكابة هؤلاء المغاربة بالعدو شديدة مما أحفظه عليهم وبالغ في الإساءة إليهم حتى إنه فرض على المارين منهم بالبلاد الواقعة تحت سيطرته دفع ضريبة رأس عن كل فرد دون غيرهم إمعاناً منه في القسوة عليهم، وفي ذلك يقول ابن جبير : (وقال الفرنج : إن هؤلاء المغاربة كانوا يختلفون على بلادنا ونسألمهم ولا نرزأهم شيئاً فلما تعرضوا لحرنا وتآلبوا مع إخوانهم المسلمين علينا وجب أن نضع هذه الضريبة عليهم، فللمغاربة في أداء هذا المكس سبب من الذكر الجميل في نكابتهم العدو)^(٥).

(١) ابن الأثير : المصدر السابق ج ١٠ ص ٤١٤ .

(٢) ابن جبير : المصدر السابق ص ٢٧٤ .

(٣) د. صلاح الدين المنجد : المشرق في نظر المغاربة والأندلسيين ص ٢٣ .

(٤) المقرئ به : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ق ١ ص ٩٤ .

(٥) ابن جبير : المصدر السابق ص ٢٧٤ .

ولكن أكثر ما اشتهر به المغاربة في المشرق هو جهادهم في البحر، فقد انخرط قسم كبير منهم في أسطول مصر بصفة خاصة حتى أصبحوا قوام الأسطول الإسلامي في المشرق في العصرين الأيوبي والمملوكي، ويعود ذلك إلى الفكرة التي كانت شائعة في المشرق عن اختصاصهم بهذا العمل لمعرفتهم بمعاناة الحرب والبحر^(١)، يضاف إلى ذلك عزوف الكثير من المشاركة عن الخدمة في الأسطول في عهد خلفاء صلاح الدين من بني أيوب لأنها كانت في نظر البعض أقل مرتبة من الجهاد في البر الذي يعتمد على الفروسية حتى كانت كلمة أسطولي إذا لُقِبَ بها المرء تعتبر شتيمة قبيحة في مصر في تلك الفترة^(٢)، لذلك ألقى معظم عبء الجهاد في البحر على كاهل المغاربة، الذين أثبتوا أنهم ند للصليبيين في البحر وخصم عند لهم بل تفوقوا عليهم في مواقع عديدة، فحينما أجرى صاحب الكرك من أمراء الصليبيين عدة من سفنه في البحر الأحمر لقطع الطريق على حجاج بيت الله الحرام وأخذ جنده يعتدون عليهم ويروعونهم، حتى هموا بما عو أقبح وأقطع من ذلك، إذ أنهم عزموا (على دخول مدينة الرسول، صلى الله عليه وسلم، وإخراجه من الضريح المقدس)^(٣)، أمر صلاح الدين بإنشاء أسطول من عدة قطع (دخل فيها الخاجب المعروف بلؤلؤ مع أنجاد من المغاربة البحرين، فلحقوا بالعدو وهو قد قارب النجاة بنفسه فأخذوا عن آخرهم)^(٤) حيث وزعوا على البلاد وأعدموا بها وسبق نفر منهم إلى منى وذهبوا ذبح الهدى^(٥). ومن ذلك أيضاً ما جاء في رسالة من إنشاء القاضي الفاضل أرسلت عن صلاح الدين للخليفة العباسي يصف فيها غزوة بحرية قام بها الأسطول الأيوبي سنة ٥٧٥هـ / ١١٧٩م وأن ذلك الأسطول كانت (عدته في هذه السنة قد أضعفت وقويت واستفرغت فيها عزائم الجهاد

(١) المقرئ: نفع الطيب ج ٣ ص ١١١-١١٢، د. أحمد مختار العبادي، د. السيد عبد العزيز سالم :

المرجع السابق ص ٢٧٩ .

(٢) للمقرئ: المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ١٩٤، انظر كذلك د. سعيد عاشور : الأيوبيون والمماليك في

مصر والشام ص ١٨٣ .

(٣) ابن جبير : المصدر السابق ص ٣٥ .

(٤) ابن جبير : المصدر السابق ص ٣٥ .

(٥) لمزيد من التفصيل انظر المقرئ : السلوك ج ١ ص ٧٩، انظر كذلك د. سعيد عاشور : الحركة

الصليبية ج ٢ ص ٧٨٤ وما بعدها.

واستقصيت واحتلت به الرجال الذين يعملون في البحر ويفتكون في البر ومن هو معروف من المغاربة بغزو بلاد الكفر^(١)، وظلوا على حالتهم هذه من المداومة على الجهاد البحري طوال جنوم الخطر الصليبي على مصر والشام في العصور الوسطى.

وقد اشتهر الكثير من هؤلاء المغاربة الذين فصلوا المشرق وجاهدوا الصليبيين في ساحات القتال بربرعه، ذكرت المصادر التاريخية الإسلامية أسماء عدة منهم مثل عبد السلام المغربي الذي كان قائداً لأسطول صلاح الدين الذي حاصر مدينة صور^(٢)، والفقيه يوسف بن دوناس المغربي شيخ المالكية في دمشق الذي خرج للجهاد حينما هاجم الصليبيون دمشق سنة ٥٤٣هـ إبان الحملة الصليبية الثانية فحاول معين الدين أنر وزير الدولة البورية في ذلك الوقت ثنيه عن عزمه نظراً لكبر سنه وضعفه قائلًا له : (يا شيخ أنت معذور ونحن نكفيك وليس بك قوة على القتال. قال : قد بعت واشترى فلا تقيه ولا نستقيه يعني قول الله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ الآية وتقدم فقاتل حتى قتل رحمه الله عند الثيرب شهيداً^(٣)، ويذكر ابن فرحون في ترجمته لعبد الله بن نجم بن شاس بن عشار أن هذا الفقيه (توجه إلى ثغر دمايط - لما أخذه العدو المحذول - بنية الجهاد، فوفي هناك أول رجب سنة عشر وستمائة)^(٤)، ومنهم أيضاً عبد الله بن أحمد بن عثمان الهنلي الذي (خرج إلى الحج وجاهد في سبيل الله)^(٥)، والمتبع لكعب الطبقات يجد الكثير من أسماء هؤلاء المجاهدين المغاربة في صفحاتها. ويبدو أن الحركة الصليبية قد أدركت أهمية المغاربة في دعم جبهة المشرق فكان من بين أهداف الحملة الصليبية الثامنة التي قادها لويس التاسع على تونس احتلال إفريقية لقطع الاتصال بين الطرفين كما سيذكر في موضعه.

وقد حفظ المشاركة لإخوانهم المغاربة هذا الجميل، فأنشأ حكامهم وميسوروا الحال

(١) أبو شامة : المصدر السابق ج ٢ ص ١٣ - ١٤ .

(٢) أبو شامة : المصدر السابق ج ٢ ص ١١٩ .

(٣) أبو شامة : المصدر السابق ج ١ ص ٥٣ . انظر أيضاً ابن القاضي : جذوة الاقتباس ج ١ ص ٢١ .

(٤) ابن فرحون : المصدر السابق ج ١ ص ٤٤٣ .

(٥) ابن القاضي : جذوة الاقتباس ج ٢ ص ٤١٩ .

منهم المدارس لطلبة العلم منهم، مثل نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي ومساوئهما، كما أنشأوا كذلك الرباطات والزوايا لإيوائهم، وأوقفوا على هذه المنشآت الأوقاف الكثيرة^(١)، وساعدوا أبناء السبيل والفقراء منهم قدر المستطاع، من ذلك ما ذكره ابن جبير أن صلاح الدين قد عين (لأبناء السبيل من المغاربة خبزتين لكل إنسان في كل يوم بالغاً ما بلغوا، ونصب لتفريق ذلك كل يوم إنساناً أميناً من قبله، فقد ينتهي في اليوم إلى ألفي خبزة أو أكثر)^(٢)، وفتحوا المجال للراغبين في العمل منهم حتى مخاطب ابن جبير الراغبين من أهل المغرب في العلم يحرضهم على الرحيل إلى المشرق دون تردد أو وجل لأن عيشهم مكفول بقوله : (فمن شاء الفلاح من نشأة مغربنا فليرحل إلى هذه البلاد ويتغرب في طلب العلم فيجد الأمور المعينات كثيرة. فأولها فراغ البال من أمر المعيشة، وهو أكبر الأعوان وأهمها، فإذا كانت الهممة فقد وجد السبيل إلى الاجتهاد، ولا عثر للمقصر إلا من يدين بالعجز والتسويق... فهذا المشرق بابه مفتوح لذلك، فادخل أيها المجتهد بسلام)^(٣)، كما بالغوا في العناية بافكاك الأمرى منهم من يد الصليبيين، وفي ذلك يقول ابن جبير : (ومن جميل صنع الله تعالى لأمرى المغاربة، بهذه البلاد الشامية الإفريقية، أن كل من يخرج من ماله وصية من المسلمين بهذه الجهات الشامية ومساوئها، إنما يعينها في افكاك المغاربة خاصة ليعلمهم عن بلادهم وأنهم لا مخلص لهم سوى ذلك بعد الله عز وجل، فهم الغرباء المنقطعون عن بلادهم. فملوك أهل هذه الجهات من المسلمين والحواتين من النساء وأهل اليسار والثرأ إنما ينفقون أموالهم في هذه السبيل)^(٤)، حتى إن نور الدين زنكي نذر حينما أصابه مرض أن ينفق اثني عشر ألف دينار في فداء أسرى المغاربة إذا شفي، وفعلاً وفي بهذا النذر حينما شفي إذ أرمِل في فدائهم، فسبق فيهم نذر ليسوا من المغاربة، فأمر بصرفهم وإخراج عوض عنهم من المغاربة قائلاً إن هؤلاء يفتكهم أهلهم وجيرانهم والمغاربة غرباء لا أهل لهم^(٥)، وقد ذكر ابن جبير أسماء اثنين من تجار دمشق قد نصبا نفسيهما لافكاك

(١) ابن جبير : المصدر السابق ص ٢٥٧ .

(٢) ابن جبير : المصدر السابق ص ١٦ .

(٣) ابن جبير : المصدر السابق ص ٢٥٨ .

(٤) ابن جبير : المصدر السابق ص ٢٨٠ .

(٥) ابن جبير : المصدر السابق ص ٢٨٠ .

الأمري المغاربة هما نصر بن قوام، وأبو الدر ياقوت مولى العطافي^(١).

وقد دعمت إفريقية جبهة المشرق بمادة هامة كانت في أمس الحاجة إليها هي الخشب اللازم لصناعة السفن الحربية، فكما هو معروف أن مصر كانت تنفقر إلى ذلك، وكانت معظم مناطق إنتاجه في بلاد الشام واقعة تحت سيطرة الصليبيين، لذلك كانت مصر تحصل على جزء لا يستهان به من حاجتها منه من إفريقية، وأما الباقي فمن إيطاليا وربما الأناضول، وقد اشتدت الحاجة إليه إبان مواجهة صلاح الدين للحملة الصليبية الثالثة ولهذا طلب من المنصور الموحدى إعانتة بأسطوله^(٢) وحينما لم يسع المنصور تلبية طلبه اتجه إلى إفريقية للحصول على ما يحتاجه من الخشب والملاحين المهرة منها لتدعيم بحريته^(٣)، ولعل ضمان استمرار حصوله على الخشب كان من بين أهداف تدخله في إفريقية من خلال نشاط قراقوش الثقوي مملوك أخيه فيها.

وزيادة على ما تقدم، فإن حكام إفريقية بحكم صلاتهم مع الدول الأوروبية خاصة منذ قيام الدولة الحفصية، كانوا على قدر من الاطلاع على نوايا الصليبيين، فكانوا يمنون سلاطين مصر والشام في العصرين الأيوبي والمملوكي بالمعلومات عما يبيته الصليبيون للمشرق الإسلامي، فقد ذكر ابن القنفذ القسنطيني أن الأمير أبا زكريا الأول الحفصي أرسل للملك الصالح نجم الدين أيوب يعلمه بأنباء الحملة الصليبية السابعة قبل مسيرها إلى مصر بمدة طويلة إذ يقول : (وكان الملك الصالح ابن الملك الكامل بن أيوب صاحب الديار المصرية يعد للأمير أبي زكرياء هذه الفضيلة ويراه أخصاً، فإنه تحقق قصد الفرنسيين إلى الديار المصرية قبل أن يبلغ الملك الصالح فوجه كتابه في ذلك في البر إلى الملك الصالح فدخل عليه الرسول بالقاهرة فجاءه بالكتاب فإذا فيه الإعلام بما عزم عليه العدو - دمره الله - والاعتذار على عدم المبادرة إليه بنفسه وجنده، لما يخشى من علو صقلية المجاورة له، ومن أعراب

(١) ابن جبير : المصدر السابق ص ٢٨١ .

(٢) عن هذا الموضوع : انظر أبو شامة : المصدر السابق ج ٢ ص ١٧٠ وما بعدها، كذلك د. سعد زغول عبد الحميد : العلاقات بين صلاح الدين والمنصور الموحدي ص ٦٩ وما بعدها، عبد القادر الصحرأوي : جولات في تاريخ المغرب ص ٦٩ وما بعدها.

(٣) انظر عبد الحق الميرني : الجيش المغربي عبر التاريخ ص ٢٧ حالية ١ .

إفريقية، فأفاض على ذلك الملك الصالح في شكر الأمير أبي زكريا، وأثنى عليه، وأخذ حينئذٍ في الاجتهاد للقاء العدو، وأتى العدو عقب ذلك ونزل بدمياط^(١)، والمستفاد من هذا النص هو شعور الأمير الحفصي بواجبه تجاه سلطان مصر والشام فبادر إلى تحذيره بما تدبره له الحركة الصليبية، ثم إنه لم يكن ليكتفي بهذا التحذير فقط بل كان سيبادر بالمسير إلى مصر بنفسه وجنده ليشترك في الدفاع عنها لولا خشيته من العدو المترص به في صقلية ثم الفتنة الداخلية التي قد يثيرها الأعراب الهلالية أثناء غيابه.

ومع أن محقق كتاب الفارسية الذي ورد فيه هذا النص يعلق عليه بما يفيد استيعاده لصدور هذا التحذير من أبي زكريا لنجم الدين أيوب، ويعتقد أن ابن القنفذ أحب أن يرفع من مكانة أبي زكريا مؤسس الدولة الحفصية التي كان هو في خدمتها فذكر له هذه المأثرة ويعلم ذلك بأنه ربما كان ذلك مشاعراً فحكاه ابن القنفذ على علاقه^(٢)، معتمداً في ذلك على ما ورد في المواعظ والاعتبار للمقرئ^(٣) ووفيات الأعيان^(٤) لابن خلكان من أن الملك الصالح علم بأبناء هذه الحملة أثناء وجوده في دمشق، وليس أثناء وجوده في القاهرة كما ورد في النص، إلا أن ذلك في اعتقادي لا ينفي وقوعه، فكون الملك الصالح قد علم بأبناء هذه الحملة أثناء وجوده في دمشق فأسرع بالعودة إلى القاهرة^(٥) لا ينقض رواية ابن القنفذ، فقد يكون رسول أبي زكريا قد اجتمع بالملك الصالح في تلك الآونة، وأما بالنسبة للإشارة التي وردت في هذه الرواية والتي تفيد بأن أبا زكريا كان أول من أعلم الملك الصالح بهذا الأمر قبل أن يعلم به من جهة أخرى، فلعل ذلك على الأقل ما كان يعتقد أبو زكريا لأنه بطبيعة الحال لم يكن يعلم باتصال فردريك الثاني بالملك الصالح، الذي دخل رسوله على الصالح في زي تاجر مبالغة في الكتمان، لذلك فإنني لا أستبعد صحة رواية ابن القنفذ لا سيما وأنه كان حسن الاطلاع على وثائق الدولة الحفصية بحكم صلته بالسلطان أبي فارس

(١) ابن القنفذ القسطنطيني: المصدر السابق ص ١١٢.

(٢) ابن القنفذ القسطنطيني: المصدر السابق ص ٢٢٥ - ٢٢٦.

(٣) المقرئ: للمواعظ والاعتبار ج ٣ ص ٣٨٤.

(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٨٥.

(٥) لمزيد من التفصيل عن هذا الموضوع انظر د. سعيد عامر: الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٠٥ وما بعدها.

عبد العزيز الحفصي كما سبق أن أشرنا إلى ذلك، ومما يزيد في ترجيح هذا الاعتقاد في نظري هو تلك العلاقات الطيبة التي كانت تربط سلاطين بني حفص بسلاطين مصر في العصرين الأيوبي والمماليكي والتي لم تتعكر إلا لفترة وجيزة بين الظاهر بيبرس والمستنصر الحفصي عادت بعدها تلك العلاقات الطيبة بين الطرفين من جديد، والتي كان أساسها نظرة الاحترام والإكبار التي كان ينظرها الحفصيون لسلاطين مصر كون الأخيرين هم المشرفون على خدمة الحرمين الشريفين هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية بهدف المحافظة على تسهيل أمور الحجاج إلى بيت الله الحرام من أهل إفريقية نظراً لأن مصر كانت طريقهم الرئيسي في الذهاب والإياب.

ولذلك، ومما تقدم عرضه يتبين بجلاء أن مساندة إفريقية للمسلمين في جبهة المشرق في صراعهم مع العدو الصليبي لا تقل أهمية عن مساندتها لباقي جبهات الصراع الإسلامي الصليبي الأخرى.

﴿أَقْمَنُ أَسَسَ بُنْيَانِهِ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٍ أَمْ مِنْ أَسَسَ بُنْيَانَهُ
عَلَىٰ شِقَاقٍ جُرْفٍ هَارٍ قَانِهَارٍ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ .
[سورة التوبة : آية ١٠٩]

هجوم نورمان صقلية على إفريقية

(العلاقات بين النورمان وبنو زيري حتى مطلع القرن الثاني عشر - ظهور مطامع النورمان في إفريقية - مهاجمة المهديّة سنة ٥١٧هـ / ١١٢٢م - فرض الحماية النورمانية على إفريقية - الاستيلاء على ساحل إفريقية - إفريقية في ظل الاحتلال - الثورة وبداية التحرير - الموحدون واستكمال التحرير)

العلاقات بين النورمان وبنو زيري حتى مطلع القرن الثاني عشر :

كانت معاهدة سنة ٤٦٨هـ / ١٠٧٥م التي عقدت بين رجار الأول وتميم بن المعز نقطة تحول في العلاقات بين الطرفين، فقد استطاع رجار في ظل تلك المعاهدة استكمال استيلائه على صقلية والتغلب على المشاكل العديدة التي واجهته ثم تمكن من الاستيلاء على مالطة سنة ٤٨٥هـ / ١٠٩١م، وبذلك فرض الوجود النورماني في وسط البحر الأبيض المتوسط بشكل قوي، ولم يتنبه العديد من المؤرخين للعلاقة الوثيقة بين النورمان والحركة الصليبية، وبالتالي لم ينتبهوا لحرص هؤلاء إفريقية قبل هجومهم عليها بمدة طويلة، حتى إن الأستاذ الدكتور حسين مؤنس يرى أن هجومهم على إفريقية كان من قبيل الحرب الوقائية الهدف منها تأمين دولتهم في صقلية (لا إضافة شيء من بلاد المسلمين إليها)^(١) ويؤيده في ذلك دانييل دوغلاس (D. Douglas)^(٢)، ولكن الواقع في اعتقادي يناقض ذلك، إذ أن ذلك الهجوم كان المقصود به تحقيق هدف أكبر من مجرد تأمين صقلية، لقد كان وجهاً آخر من أوجه الصراع الإسلامي الصليبي اتخذ من إفريقية ميداناً له.

فحينما لمست الحركة الصليبية إخفاق المدن البحرية الإيطالية في الاستقرار في إفريقية عند غزو المهديّة سنة ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م، أدركت أنه لا بد من إيجاد قوة أخرى تمتلك من القدرات والإمكانات أكبر من تلك التي كانت تمتلكها هذه المدن لتحقيق أهدافها، ولم يكن في مقدور تلك الحركة إسناد هذه المهمة لإحدى القوى الأوروبية الكبرى التي كانت

(١) د. حسين مؤنس : الجغرافية والجغرافيون في الأندلس ص ٢٧١ .

D. Douglas : The Norman Fate, p. 55.

(٢)

تستعد في تلك الآونة لغزو المشرق، فوجدت ضالتها المنشودة في النورمان، ولعل ذلك يقدم لنا التفسير المنطقي لعدم اشتراك رجار الأول في الحملة الصليبية الأولى وسكوت البابوية عنه، إذ لو لم تكن الحركة الصليبية تعدد للنور مماثل لجددت البابوية عليه أسلحتها المعهودة، ولا ينبغي أن يعتبر اشتراك بوهيمند النورماني في تلك الحملة مبرراً لسكوت الحركة الصليبية عن رجار الأول، لأن بوهيمند لم يكن يمثل رجار وله مطامعه وطموحاته الخاصة به التي لم تكن تخفى على تلك الحركة، لذلك فالأمر لم يكن في نظر تلك الحركة إلا توزيع أدوار، بحيث خصصت لكل قوة من القوى الصليبية الجبهة الأكثر ملاءمة لها، فالنصارى الإسيان لجبهة الأندلس، والنورمان لجبهة إفريقية بعد فروغهم من صقلية، وباقي القوى الأوروبية للمشرق تحمياً لما كانت تتوقعه تلك الحركة من دعم كافة مسلمي المشرق لتلك الجبهة.

والأدلة على علاقة النورمان بالحركة الصليبية كثيرة، فكما سبق أن أشرنا أن رجار الأول كان نائباً للبابا في صقلية بموجب المعاهدة التي عقدت بين البابا نيقولا الثاني وزعماء النورمان في ملفي سنة ١٠٥٩م، ومن كانت هذه صفته من المستبعد أن لا تكون له علاقة بالحركة الصليبية، ويعطينا المدح الذي أضفاه بطرس الكولوني (Peter of Cluny) على رجار الثاني حينما أحل معظم ساحل إفريقية دليلاً آخر على هذه العلاقة، فقد وصف ذلك الاحتلال بأنه زيادة في أراضي كنيسة الله من تلك الأراضي التي كان يمتلكها السراينة (المسلمون) أعداء الله^(١)، وقد قوبل هذا المديح بالاستحسان في الأوساط الصليبية، ثم محاولة رجار الثاني تنظيم حملة صليبية على إفريقية بالتعاون مع كونت برشلونة^(٢)، واستجابته لطلب المساعدة الذي وجهه إليه ريموند برنجار الثالث (Reymond Berengar III) كونت برشلونة أيضاً في سنة ١١٢٨م وأعداً إياه بإرسال أسطول نورماني من خمسين سفينة للخدمة الله (in vitium Dei) لمساعدته في حربه ضد مسلمي الأندلس في صيف ذلك العام، ولكن الظروف حالت دون تنفيذ كلا المشروعين^(٣)، ثم محاولته الاشتراك في الحملة الصليبية الثانية^(٤)، فكيف يكون

K. M. Setton : Op. Cit., vol. 2, p.16.

(١)

(٢) شارل أندري جوليان : المرجع السابق ج ٢ ص ١٤٢ .

K. M. Setton : Ibid, vol. 2, p.21., D. Douglas : Op. Cit., p.55.

(٣)

(٤) عن هذا الموضوع انظر د. سعيد عائور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٢٢٢ .

اتجاهه ناحية المشرق صليبياً أما اتجاهه في إفريقية غير صليبي؟ ثم ما يستخلصه الباحث من أقوال المؤرخين المسيحيين القدامى عن الغزو النورماني لإفريقية والذين يؤكدون الصفة الصليبية لهذا الغزو مثل (Robert of Torigny) و (Peter of Venerable)^(١)، هذا فضلاً عن أن هذه الحقيقة لم تخف على العديد من المؤرخين المسلمين كما ورد في أقوالهم التي سبق أن أشرنا إليها، ونعود مرة أخرى إلى نص ابن الأثير الذي أوردناه في مقدمة هذه الدراسة والذي يقدم الدليل القاطع على علاقة النورمان بالحركة الصليبية وبالتالي تربصهم بها لغزوها عندما تحين الفرصة يدل على ذلك قوله كما جاء في ذلك النص (إن إفريقية لنا متى وجدنا في أنفسنا القوة أخذناها)^(٢)، وبناء على ذلك فإن غزو النورمان لإفريقية ثم استيلائهم عليها كان تحقيقاً لأهداف الحركة، وإذا كانت الأهداف الاقتصادية لهذا الاحتلال قد برزت إلى سطح الحوادث بشكل واضح، فإن ذلك لا ينفي صلته بالحركة الصليبية، ألم تقم هذه الحركة لتحقيق أهداف دينية وسياسية واقتصادية واجتماعية؟ لذلك فكل هذه الدلائل تشير إلى أن استيلاء النورمان على إفريقية لم يكن إلا تعبيراً عن إرادة الحركة الصليبية وتحقيقاً لهدف من أهدافها، وإذا كان رجار الأول لم يكن بوسعه الإفصاح عن هذا الهدف فلأن الوقت لم يكن قد حان بعد، نظراً للظروف التي كانت تمر بها دولته في صقلية من ناحية، وإفريقية من ناحية أخرى، فقد وضع خططه لتحقيق هذا الهدف دون استعجال أو استباق للحوادث لما عرف عن النورمان عامة وعنه بصفة خاصة من حذر وروية، لقد كانت معاهدة سنة ٤٦٨هـ / ١٠٧٥م في نظره هي محطة في الطريق لا يلبث أن يتجاوزها، فالصدافة وحسن الجوار اللذين أقرتهما تلك المعاهدة لم تكونا إلا ذراً للرماد في العيون، وصرفاً للذهن تميم عن هدفه في إفريقية الذي كان لا يزال يحتفظ بقوة بحرية تستطيع التصدي لرجار، علاوة على قدرة تميم في ذلك الوقت على خلق المتاعب له في صقلية وجنوب شبه الجزيرة الإيطالية اللتين لم يكن قد ثبت أقدامه فيهما بعد، خاصة صقلية، وما غزوات أسطولها لهما قبيل عقد تلك المعاهدة إلا دليلاً واضحاً على تلك القدرة.

لقد فرضت الظروف عليه عقد تلك المعاهدة التي لم يكن يضر لها في نفسه أي

D. Douglas : Op. Cit., p. 76.

(١)

(٢) ابن الأثير : المصدر السابق حوادث سنة ٤٩١هـ.

احترام، ولم يكن يالي بنقضها إن وجد في ذلك مصلحة له، وإلا فما معنى استيلائه على مالطة سنة ٤٨٥ / ١٠٩١م أي بمجرد استكمال احتلال صقلية وهي التي كانت تابعة للدولة الزيرية؟ ألم يكن من المفروض التقيد بتلك المعاهدة إن كان جاداً في احترامها؟ ولكن هذا التقيد والاحترام كان في نظره شيء والوصول إلى هدفه شيء آخر، فاحتلاله لمالطة كان خطوة أخرى لها أهميتها في سبيل الوصول إلى إفريقيا، إذ أنه باحتلالها يحكم قبضته على المضائق الهامة في وسط البحر الأبيض المتوسط، ثم إنه بذلك يستطيع إبعاد القوى الأوروبية الأخرى التي لو احتلها واحدة منها لربما وقفت حجر عثرة في سبيل تنفيذ مشاريعه المستقبلية في المنطقة أو على الأقل فرضت عليه أن تكون شريكة له في تلك المشاريع لا سيما وأن مالطة تشكل قاعدة ممتازة تتيح لمن يملكها القدرة على المناورة في كافة الاتجاهات، ولم يكن رجار على استعداد للتضحية بكل ذلك من أجل احترام تلك المعاهدة. وعلى ذلك فإن تلك المعاهدة لم تكن سارية المفعول إلا بالقدر الذي تخدم به أغراضه، لهذا فإننا وبناء على ما تقدم نستطيع القول بأن العلاقات بين النورمان وإفريقية في عهد رجار الأول كانت مرحلة إعداد للوثوب على إفريقية، وحينما توفي في سنة ٤٩٥هـ / ١١٠١م ترك لخليفته تنفيذ هذه المهمة.

ظهور مطامع النورمان في إفريقية:

لم يكن سيمون الذي خلف أباه رجار الأول في الحكم في مستوى أبيه كفاية وحكمة، ولم يرث عنه من الصفات ما يؤهله لتنفيذ مشروع كبير كمشروع إفريقية، لذلك كان عهده عبارة عن استمرار لمهد أبيه، وبوفاته وتولي أخيه رجار الحكم سنة ٥٠٦هـ / ١١١٢م والذي عرف في التاريخ باسم رجار الثاني، طويت صفحة في تاريخ العلاقات بين النورمان وإفريقية، لتبدأ صفحة جديدة، فقد ورث عاهل النورمان الجديد عن أبيه العديد من صفاته كحزمه وكفائته الإدارية وأناته وبعد نظره وربما فاقه في طموحاته، ولما كان لا يزال صغيراً عند وفاة أخيه سيمون فقد تولت أمه الوصاية عليه لفترة من الزمن حتى شب واستقل بالأمور، وقد واجهته في مطلع حكمه العديد من المشاكل التي كادت تعصف بدولته، إلا أنه تصدى لها بكل حزم حتى تمكن من التغلب عليها، إذ كان عليه أن يحارب جميع القوى التي وجدت نفسها مهددة بظهور دولة النورمان القوية التي كانت تتحكم في وسط البحر

الأبيض المتوسط، كالدولة البيزنطية والامبراطورية الرومانية المقدسة والمدين البحرية الإيطالية، فاستغلت هذه القوى انقضاء عهد رجار الأول وابنه سيمون ووجود رجار الثاني الطفل في الحكم وأخذت تعمل على القضاء على الوجود النورماني ذاته، لكن رجار الثاني بعزمته وقوة إرادته تغلب على هذا الخطر وتمكن من إحراز انتصارات هامة على أعدائه هؤلاء أعانه ذلك أن التعاون بينهم كان مفقوداً فضرب كلًّا منهم على حدة، وبذلك ثبت أركان دولته من جديد.

كما كانت القوى والاضطرابات التي عمت المقاطعات النورمانية في جنوب شبه الجزيرة الإيطالية تتطلب منه التدخل السريع، لا سيما وأن ثورة البارونات في إقليم أبوليا كانت قد استفحلت بشكل يندر بالخطر، لذلك زحف بجيوشه وأخمد تلك الثورة وبسط نفوذه على معظم ممتلكات النورمان في جنوب إيطاليا، ولكنه لم يكف بذلك، بل أخذ في التوسع مما أفرغ البابوية فهبت تدافع عن نفسها، وتطور الأمر إلى نشوب حرب سافرة بينه وبين البابا هونوريوس الثاني (١١٢٤ - ١١٣٠م)، ولكنه تمكن من إرغام البابا على الاعتراف به وتوجيه ملكاً على صقلية وجنوب إيطاليا سنة ١١٣٠م حيث عرفت تلك المملكة في التاريخ بمملكة الصقليتين^(١). وينبغي أن لا يتبادر إلى الذهن أن حروب رجار الثاني مع البابوية قد قطعت صلته بالحركة الصليبية، ذلك أن أهداف تلك الحركة كانت فوق مستوى الخلاف، إن هذه الحروب التي كانت تشب أحياناً بين القوى الأوروبية كانت نتيجة لخلافات سياسية فقط ولا تمس مصالح الحركة الصليبية، مثل اشتباك فرنسا وبريطانيا في حرب المائة عام - فيما بعد - الذي لم يعد أبداً منهما عن الحركة الصليبية بل دليل مساهمة بريطانيا ولو مساهمة بسيطة إلى جانب فرنسا في حملة لويس الثاني دي بوربون علي المهدية سنة ٧٩٢هـ / ١٣٩٠م وحملة نيقوبوليس الصليبية سنة ٧٩٨هـ / ١٣٩٦م، ومثل ذلك يقال عن صراع البابوية مع الامبراطورية الرومانية المقدسة، والحروب التي كانت تشب بين ممالك النصارى الإسبان من حين لآخر وبين بعض القوى الصليبية في بلاد الشام والتي لم تقطع صلة أي منها بالحركة الصليبية.

(١) د. سعيد حاشور : أوروبا العصور الوسطى ج ٢ ص ٩٦، انظر أيضاً مارل أندري جوليان : المرجع السابق ج ٢ ص ١٤٧. وكذلك :

K. M. Setton : Op. Cit., vol 2, p.7, D. Abulafia : Op. Cit., p.83, D. Douglas : Op. Cit., p.52.

لذلك فإن هذه المشاكل قد شغلت رجار الثاني عن إفريقية، فثبتت أركان دولته كان أولى من فتح جديد، ولكنه مع ذلك كان يراقب كل ما يدور في ساحتها بعين يقظة، ولا يدع أي فرصة للتدخل في شؤونها تفلت من يده، كان وهو في خضم المشاكل التي أضرنا إليها يلوح بمعاهدة سنة ٤٦٨هـ / ١٠٧٥م وفي الوقت نفسه يث وكلاءه وعمونه في المدن الإفريقية، الوكلاء لمحاولة السيطرة على اقتصادها، والعمون لموافاته بأخبارها، فقد ذكر بعض المؤرخين أنه كان له وكلاء في المهديّة سنة ١١١٧م يقومون بتسويق القمح في إفريقية لحسابه^(١)، وكان هؤلاء إلى جانب ذلك يقومون بإقراض الأموال للتجار في المدينة وللأمير الزيري نفسه، وربما وجد له أمثال هؤلاء في مدن إفريقية الأخرى، كل ذلك ليتمكنوا من التحكم في اقتصاد البلاد، وكما لا يخفى أن الاقتصاد هو أفضل نافذة يدخل منها التدخل الأجنبي إلى دولة ما، والأمثلة على ذلك في تاريخ الاستعمار الأوروبي الحديث كثيرة. وأما العمون الذين كانوا يوافونه بالأخبار فقد انبثوا في المدن الإفريقية منذ مطلع عهده على الأقل إن لم يكونوا قد وجدوا في عهد أبيه، يقول الوزير السراج في ذلك : (وكان لروجار جواسيس بالمهديّة)^(٢)، وبالإضافة إلى ذلك كان يعمل جاهداً لاستجلاب الأنصار الذين يساعدونه في تحقيق مآربه، فبذل الأموال الطائلة في محاولة لفرار الذم. وتنتهي هذه المرحلة التي يمكن تسميتها مرحلة التدخل المقتنع بدخول جرجي الأنطاكي في خدمة رجار، لتبدأ مرحلة جديدة من مراحل علاقات النورمان بإفريقية حيث أخذت مطامع رجار في الظهور بشكل واضح.

تجمع المصادر والمراجع التاريخية^(٣) على أن جرجي بن ميخائيل الأنطاكي قد نشأ في

(١) D. Abulafia : Op. Cit., p.40., K. M. Setton : Op. Cit., vol. 2, p19.

(٢) الوزير السراج : المصدر السابق ج ١ ق ٢ ص ٤٧٥.

(٣) انظر على سبيل المثال، ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ١٦١، الوزير السراج : المصدر السابق ج ١ ق ٢ ص ٤٦٩ (ويسميه جرجي) والنائب الأنصاري : المصدر السابق ص ١٢٢ (ويسميه زورزي)، ابن مقديش : المصدر السابق، ورقة ١٧٣ ويسميه جرجير أيضاً، الباجي السعدي : المصدر السابق ص ٥١، د. أحمد مختار العبادي، د. السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ١٢، ص ٢١٣، د. أمبرتو ريتشيتاني : المرجع السابق ص ١٢.

K. M. Setton : Op. Cit., vol. 2. p. 19., D. Douglas : Op. Cit., p.58.

أنطاكية ونهل من الثقافة العربية الإسلامية في بلاد الشام حتى أتقن اللغة العربية والعلوم الرياضية وسواها، ثم غادرها إلى إفريقية طلباً لخطه، فاتصل بالأمير تميم بن المعز الذي أخذه في خدمته، ولم يلبث أن وثق به فعهد إليه بشؤون بيت المال وحكمه (في دخله وخرجه وجعل مصاريف الأموال لنظرة فصارَت أموال المسلمين كلها في يده ويد أقاربه)^(١)، ومن هذا النص والتصوص الأخرى المشابهة التي أوردتها العديد من المصادر التاريخية، نستطيع تقدير مكانة جرجي الأنطاكي في الدولة الزيرية، ومدى سعة اطلاعه على أحوالها، حتى إن ابن خلدون يقول عنه إنه استولى على تميم^(٢). وعندما توفي تميم في سنة ٥٠١ هـ / ١١٠٧م بدأت الرغبة تمدد جرجي للاتحاق بخدمة النورمان، والذي يفهم من رواية الوزير السراج عن هذا الموضوع أن جرجي خاف على نفسه من يحيى بن تميم الذي خلف أباه في الحكم فهرب إلى صقلية^(٣)، ولكن يبدو من رواية ابن خلدون أن مكانته في دولة يحيى بقيت على حالها إذ يقول (وكان يحيى يشاوره)^(٤)، ولما كان من الثابت أن جرجي قد اتصل برجار التافى الذي تولى الحكم في سنة ٥٠٦ هـ / ١١١٢م فإن ذلك يعني أنه قد خدم يحيى ما لا يقل عن خمس سنوات، فلو كان يخشى من يحيى لامتداد يده إلى الأموال في عهد تميم كما تقول بعض المصادر^(٥) لما سكنت عنه يحيى طوال هذه المدة ولما أبقاه في مكانته الرفيعة في دولته، والأرجح في اعتقادي أن جرجي الذي كانت تتحكم في ملوكه النزعة الصليبية من جهة والنزعة الانتهازية من جهة ثانية، قد شعر بطموح رجار ثم طمعه في إفريقية الذي لم يعد خافياً على الكثيرين، أو على شخص مثل جرجي على الأقل، لذلك بادر بالاتصال به عارضاً عليه خدماته.

رحب رجار الثاني بانتقال جرجي إليه، إذ أدرك مدى النفع الذي سيجنيه منه في مشروعه لاحتلال إفريقية، ويروي الوزير السراج كيفية خروجه من المهديّة فيقول: (فوجه

(١) الوزير السراج: المصدر السابق ج ١ ق ٢ ص ٤٦٩، انظر كذلك ابن خلدون: للمصدر السابق ج ٦ ص ١٦١.

(٢) ابن خلدون: للمصدر السابق ج ٦ ص ١٦١.

(٣) الوزير السراج: المصدر السابق ج ١ ق ٢ ص ٤٦٩.

(٤) ابن خلدون: المصدر السابق ج ٦ ص ١٦١.

(٥) انظر مثلاً ابن مقديش الصفهسي: المصدر السابق ورقة ١٧٣، الباجي السعدي: المصدر السابق ص ٥١.

رجار إليه قطعة أظهرت أنها وصلت في رسالة فخرج هذا النصراني وأقاربه في يوم جمعة عند اجتماع الناس للصلاة وتزويوا بزي البحرين فطمعوا إليها وتم لهم أمرهم فلم يقطن الناس لهم إلا وقد أقبلوا^(١)، فابتهج رجار بمقدمه وأحقه بوزيره عبد الرحمن النصراني صاحب الأشغال في دولته حين الحاجة إليه إذ أن ظروف رجار لم تكن تسمح له في ذلك الوقت بتنفيذ مشروع إفريقية، فأسند إليه عبد الرحمن أمر الجبايات فقام هو وأقاربه بهذه المهمة خير قيام^(٢)، وعندما احتاج رجار إلى إرسال سفارة للخليفة الفاطمي في مصر أشار عليه عبد الرحمن النصراني بجرجي لسعة اطلاعه على أوضاع المشرق بحكم نشأته فيه وحسن تصرفه، فأبذى من البراعة السياسية في هذه المهمة ما جعله ينال الخطوة عند رجار، يقول الوزير السراج في ذلك (فصنع وأقبل بذخائر ملوكية حظي بها عند رجار)^(٣).

وفي تلك الآونة حانت الفرصة لرجار للتدخل السافر في شؤون إفريقية، إذ نشب خلاف سنة ٥١٠ هـ / ١١١٦ م بين رافع بن مكي صاحب قابس، وعلي بن يحيى بن تميم الأمير الزيري الجديد (٥٠٩ - ٥١٥ هـ / ١١١٦ م - ١١٢٢ م) بسبب سفينة أنشأها ابن مكي للنقل التجاري، فلم يسمح له علي بن يحيى الذي كان يعمل على احتكار تجارة إفريقية الخارجية بذلك، وأرسل قطعاً من أسطوله إلى مياه قابس لمنعها من الإقلاع وأخذها إن خرجت إلى البحر، فاستنجد ابن مكي برجار الثاني وزعم له بأنه لم يصنع تلك السفينة إلا ليعث بها هدية إليه^(٤) فوجد رجار في ذلك سبباً للتدخل إلى جانب ابن مكي، نابذاً المعاهدات التي بينه وبين علي والتي كانت معاهدة سنة ٤٦٨ هـ / ١٠٧٥ م أساساً لها وتجدد كلما تولى أمير زيري جديد مقاليد الحكم، وكانت ظروف إفريقية التي استفحل فيها عهد ملوك الطوائف وقتل مشيخة، فأرسل في سنة ٥١١ هـ / ١١١٧ م أسطولاً من ٢٤ قطعة

(١) الوزير السراج : المصدر السابق ج ١ ق ٢ ص ٤٦٩، كذلك ابن مقديش الصفاسي : المصدر السابق ورقة ١٧٣.

(٢) الوزير السراج : المصدر السابق ج ١ ق ٢ ص ٤٦٩، ابن مقديش الصفاسي : المصدر السابق ورقة ١٧٣.

(٣) الوزير السراج : المصدر السابق ص ٤٦٩، K. M. Setton : Op. Cit., vol. 2, p. 19.

(٤) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ١٦١، ابن الأثير : المصدر السابق ج ١ ص ٥٢٩، التجاني :

المصدر السابق ص ٩٨، ابن أبي دinar : المصدر السابق ص ٩١، ابن مقديش الصفاسي : المصدر

السابق ورقة ١٧٣، الوزير السراج : المصدر السابق ج ١ ق ٢ ص ٣٥٤.

لنصرة ابن مكّي^(١)، وعندما علم علي بن يحيى بذلك استشار رجال دونه فأشاروا عليه بسحب أسطوله من مياه قابس، والكف عن ابن مكّي حفاظاً في تصورهم على ما بينه وبين رجار من المصالحة، ولكن علياً إدراكاً منه لخطورة الوضع وتأزمه بدخول رجار معترك الصراع، رفض ذلك وأمر بقية أسطوله الماربط في ميناء المهديّة بالتوجه إلى قابس لشد أزر قطعه المتواجدة في مياهها في معركة محتملة مع أسطول رجار لكنه عن التدخل في شؤون إفريقيا، وعندما وصل أسطول علي إلى قابس، وجد النورمان قد خرجوا من مراكزهم لحضور وليمة أعدها لهم ابن مكّي، فلما شاهدوا أسطول علي هرعوا إلى منفيهم، ودارت معركة حامية بين الطرفين انتصر فيها الأسطول الزيري، وانسحب النورمان عائدين إلى صقلية^(٢)، ولم يكف علي بهذا النصر وإنما عمل على قطع صلة رجار بإفريقية واقتلاع جذوره منها بإفساد تدابير التي وضعها لإحكام قبضته على اقتصادها، فصادر أمواله التي كانت في المهديّة، وألقى بوكلائه في السجن^(٣)، فحنق رجار عليه نتيجة لذلك، وزاد من أمهات هذا الحنق أن علياً رفض مصالحة ابن مكّي صنيعة مما جعل الأخير يجمع الجموع ويؤحلف على المهديّة لاحتلالها، ولكن علياً انتصر عليه وطارده حتى ألجأه إلى القيروان، وبعد ذلك أرسل جيشاً احتل قابس^(٤)، فكانت هذه الأمور هي السبب المباشر في الوحشة بين علي ورجار.

وحيال ذلك، وللانتقام من علي ردأ لاعتباره فكر في سنة ٥١١ هـ / ١١١٧م في غزو

(١) K. M. Setton : Op. Cit., vol. 2, p.20.

(٢) ابن الأثير : المصدر السابق ج ١٠ ص ٥٢٩ - ٥٣٠، التاجي : المصدر السابق ص ٩٨، السراج : المصدر السابق ج ١ ق ٢ ص ٣٥٥، ابن مقديش الصفقسي : المصدر السابق ورقة ١٧٣، د. أحمد مختار العيادي، د. السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ٢٢١، د. إبراهيم العنوي : المرجع السابق ص ٢٨٢. K. M. Setton : Ibid, vol. 2, p.20. وقد مدح محمد بن عبد الله الكاتب الأمير علي بن يحيى ذاكراً هذه المعركة بقصيدة منها :

تمتد الأعلاج في بحر قابس وسار إليهم في الخميس العرمم
فولوا على الأديار رعباً وأجفلوا بناب نأ عنها وظفر مقلم

K. M. Setton : Ibid, vol. 2, p.20

(٣)

(٤) التاجي : المصدر السابق ص ٩٩.

المهدية^(١)، ولكن نظراً لظروفه وخشيته من الاشتباك مع المرابطين الذين كانوا يساندون الزيريين في حرب لا يستطيع تقدير نتيجتها عدل عن هذه الفكرة، ولكنه لم يشأ السكوت فلجأ إلى أسلوب الترغيب والترهيب والمراوغة حتى تواتيه الفرصة للانتقام فأرسل في العام التالي (٥١٢هـ / ١١١٨م) رسولاً إلى علي يطلب منه تجديد العقود، وتأكيد العهود، ويطلب أموالاً كانت له موقوفة بالمهدية، وذلك بعنف وغلظة، فرد علي رسوله دون جواب، وجبهه بالقول، فتزايدت الوحشة بينه وبين رجار، فأوسع شراً، وحاول بعد ذلك مكرراً^(٢)، ويقول ابن أبي دينار إن رجار بعث إليه يهدده بغزو المهدية^(٣)، ولكن علياً لم يخضع للتهديد ولم يرهبه الوعيد، بل قابل ذلك بلهجة أشد (ومشت بينهما مراسلات بالتهديد من الجانبين)^(٤)، وحينما شعر علي بأن رجار يفكر فعلاً في غزو المهدية أرسل يهدده بإدخال الهلالية إلى صقلية، وفي مرة أخرى هدده بالمرابطين^(٥)، واتصل بالفعل بعلي بن يوسف بن تاشفين واتفق معه على مهاجمة صقلية^(٦) كما تقدم، ولتحقيق هذا الهدف ياتر في تدعيم أسطوله بإنشاء قطع جديدة ضمها إليه وشمخه بالرجال والأسلحة والمعدات وزاد في تحصينات المهدية^(٧) فارتفعت الروح المعنوية بهذه الاستعدادات واشتد حماسهم للجهاد العدو (فكف رجار عما كان يحتمله)^(٨) من غزوها. ومضى علي في

-
- (١) ابن عذاري : المصدر السابق ج ١ ص ٣٠٧، الوزير السراج : المصدر السابق ج ١ ص ٢٥٥.
(٢) ابن عذاري : المصدر السابق ج ١ ص ٣٠٧، ابن مقديش الصفاسي : المصدر السابق ورقة ١٧٣، ابن أبي الضياف : المصدر السابق ص ١٧٩.
(٣) ابن أبي دينار : المصدر السابق ص ٩١.
(٤) ابن أبي دينار : المصدر السابق ص ٩١.
(٥) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ١٦٠.
(٦) ابن الأثير : المصدر السابق ج ١٠ ص ٥٣٠ وص ٦١١، د. محمد عابد : بعض أضواء على العلاقات بين ييزا وتونس ص ٤٠، د. أحمد مختار العبادي، د. السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ٢١١.
(٧) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ١٦٠، انظر أيضاً ابن الأثير : المصدر السابق ج ١ ص ٦١١، ابن أبي دينار : المصدر السابق ص ٩١، الوزير السراج : المصدر السابق ج ١ ص ٢٧٠.
(٨) ابن الأثير : المصدر السابق ج ١٠ ص ٥٣٠، انظر كذلك الوزير السراج : المصدر السابق : ج ١ ص ٢٧٠، ص ٤٧٠، ويذكر أن الشعراء قد مدحوا علياً على هذه الاستعدادات مثل محمد بن بشير الذي مدحه بقصيدة يصف فيها تدعيم الأسطول منها :
=

استعداداته إلا أن وفاته في تلك الآونة (سنة ٥١٥هـ / ١١٢٢م) مخلفاً ابنه الصبي الحسن بن علي في الحكم حالت دون اشتراك الزيرين الفعلي في هذا الهجوم، فقام الأسطول المرابطي بمفرده بالهجوم على تقوطة في العام التالي (٥١٦هـ / ١١٢٢م) لإعادة الصواب إلى رجار كما سبق ذكره. وهنا بدأ رجار في الاستعداد للهجوم على المهديّة ليس غارة انتقامية كما تقول بعض المراجع الغربية^(١) ولكن للاستيلاء عليها توطئة لاحتلال إفريقية، ويدعم وجهة نظرنا هذه ما ذكره ابن أبي دينار إذ يقول : (ومنته نفسه أن يتأصل إفريقية)^(٢)، ويؤكد ذلك ما قاله ابن حمديس الصقلي يمدح الحسن بن علي إثر فشل تلك الحملة :

فكم قسموا في الظن آميال أرضنا
ولم يطلأوا منها مكاناً هو الشبر
لذلك، دعا إلى حملة صليبية كبيرة لتحقيق هذا الهدف، فأجابت دعوته جموع غفيرة من إيطاليا وسراها، يقول ابن عذارى في ذلك : (فاستفر أهل الروم قاطبة، فالتأم له ما لم يعهد مثله كثرة)^(٣). وعندما استكمل استعداداته وجه بأسطوله حملة على المهديّة.

مهاجمة المهديّة سنة ٥١٧هـ / ١٢٢م :

صاحب سوء الحظ هذه الحملة منذ البداية، فبالرغم من أن رجار بالغ في التكتم عليها

يسير إليهم قاصداً وهو أموج على ثيغ أدماء تردّي وتولج سبال بأكتاف الهضاب وعوسج دخان لظي من نارها يتوهج بمارج نار يستقل ويهرج تحرّق أكباد العداة وتنضج	= وأعددت للأعداء كل مصمص كمثل الرواسي منعة غير أنها كان القنا والنبل في جنباتها يعيد مضىء الجمر أكنم حالكا إذا نضضت من ألسن لهية رأيت صلالاً أخرجت من جهنم
---	--

K. M. Setton : Op. Cit., vol. 2, p.20.

(١)

(٢) ابن أبي دينار : المصدر السابق ص ٩٢.

(٣) ابن عذارى : المصدر السابق ج ١ ص ٣٠٨ انظر كذلك ابن أبي دينار : المصدر السابق ص ٩٢،
الباجي المسعودي : المصدر السابق ص ٥١، د. سعيد عاشور : بعض أضواء على العلاقات بين زيرا
وتونس ص ٤٠.

فمنع السفر إلى سواحل إفريقية^(١) ليمنع تسرب أخبارها كي يستفيد من عنصر المفاجأة، إلا أن الأمير الحسن بن علي الزيري علم بأمرها فأخذ يتأهب للقائها فحشد جيشاً ضخماً واستكبر من الأسلحة ودعم تحصينات المهديّة، كما دعا العرب الهلالية للمساهمة في صد الغزاة فبادرت جموعهم لتلبية داعي الجهاد ونزلت بظاهر المهديّة^(٢)، ويقدر ابن أبي دينار عدد الجيش الذي حشدّه الحسن بمائة ألف رجل وعشرة آلاف فرس^(٣) كانوا يتقنون حماساً لمتازلة العدو، وبذلك خسرت هذه الحملة الاستفادة من عنصر المفاجأة، وزاد الطون بلة بالنسبة لها أنها وهي في طريقها إلى المهديّة هبت عليها عاصفة بحرية أفرقت بعض سفنها وشتتت بعضاً آخر عن بقية الأسطول جنحت لإحداها إلى ساحل إفريقية فوقعت في يد قوات الحسن^(٤) فعرف عن كان فيها قدراً كبيراً من المعلومات التي كانت تهمة معرفتها عن الحملة.

وفي يوم السبت ٢٥ جمادى الأولى سنة ٥١٧هـ / أواخر يوليو ١١٢٣م وصل الأسطول النورماني المقل للحملة المذكورة إلى مياه المهديّة، وكان في طريقه إليها قد مر بجزيرة قوصرة واستولى عليها^(٥)، وقد قدرت المصادر الإسلامية هذا الأسطول بحوالي ثلاثمائة سفينة تقل ثلاثين ألف جندي وألف فارس يقودهم عبدالرحمن النصراني وجرجي الأنطاكي^(٦)، فلم يهاجم المهديّة مباشرة لعلم قائده بمناعتها وصعوبة اقتحامها من البحر، بل

(١) ابن مقديش الصفاقسي: المصدر السابق ورقة ١٧٤، الوزير السراج: المصدر السابق ج ١ ق ٢ ص ٤٧١.

(٢) ابن الأثير: المصدر السابق ج ١٠ ص ٦١٢، ابن عذاري: المصدر السابق ج ١ ص ٣٠٩، ابن مقديش الصفاقسي: المصدر السابق ورقة ١٧٤، الوزير السراج: المصدر السابق ج ١ ق ٢ ص ٤٧١.

(٣) ابن أبي دينار: المصدر السابق ص ٩٢، انظر كذلك ابن الأثير: المصدر السابق ج ١٠ ص ٦١١، ابن أبي الضياف: المصدر السابق ص ١٤٢.

(٤) ابن الأثير: المصدر السابق ج ١٠ ص ٦١٢، ابن خلدون: المصدر السابق ج ٦ ص ٦٦١.

(٥) D. Douglas: Op. Cit., p.57.

(٦) ابن خلدون: المصدر السابق ج ٦ ص ٦٦١، ابن الأثير: المصدر السابق ج ١٠ ص ٦١١، الوزير السراج: المصدر السابق ج ١ ق ٢ ص ٤٧١. د. سعيد عاشور: بعض أضواء على العلاقات بين هبزا وتونس ص ٤١.

(٦) ابن عذاري: المصدر السابق ج ١ ص ٣٠٩، ابن خلدون: المصدر السابق ج ٦ ص ٦٦١، ابن أبي =

نزلت الحملة بجزيرة الأحاسي على بعد عشرة أميال من المدينة^(١). ولدينا وثيقة تاريخية هامة تصف حوادث هذه الحملة هي فصول من إحدى الرسائل التي وجهها الأمير الحسن ابن علي إلى جهات مختلفة بخبرها أوردتها التجاني^(٢) والوزير السراج^(٣) يصف فيها استعدادات الطرفين ووصول أسطول رجار بعد هبوب العاصفة عليه وتشته ثم نزول العدو بجزيرة الأحاسي، وطواف قائد ذلك الأسطول في بعض قطعه في صبيحة اليوم التالي على وصوله حول المهديّة لمعاينتها، ثم يصف إنزالهم للفرسان لصدّ المسلمين الذين تجمعوا قبالتهم بغية تشتيتهم لفتح الطريق لشاة الأسطول للزحف بأسلحتهم ومعداتهم إلى المدينة لضرب الحصار عليها من البر بينما يقوم الأسطول بمحاصرتها من البحر^(٤)، وتجمع المصادر الإسلامية على أن المسلمين أقسّدوا هذه الخطة إذ اشتبكوا مع الفرسان وأجبروهم على التراجع إلى الجزيرة فقيوت معنويات المسلمين بذلك، ولكن العدو استطاع بعد ذلك في ليلة ٢٨ جمادى الأولى أخذ قصر الديّماس الحصين^(٥). نتيجة لخيانة رجل من الأعراب الهلالية ساعدتهم في دخوله، فقتلوا من فيه واستقر به حوالي مائة منهم، ولم يفت ذلك في عضد

= ديتار : المصدر السابق ص ٩٦ الوزير السراج : المصدر السابق ج ١ ص ٤٧٣، أما (K. M. Setton : Op. Cit., v. 2, p.20) فيقول إن هذه الحملة كانت بقيادة كريستودولوس (Christodoulos) وأن جرّجي الأنطاكي كان مساعداً له، ولعل كريستودولوس هو تحريف لاسم عبد الرحمن بن عبد العزيز النصراني.

(١) يرد وصف هذه الجزيرة في رسالة الحسن بن علي المذكورة فيقول عنها إنها جزيرة (ذات أحساء) بينها وبين البحر مجاز متداني البرين، قريب ما بين الشطرين، حين مرّاه، سهل على الفارس والراجل خوضه وأقصاه) انظر التجاني (ص ٣٣٩)، الوزير السراج (ج ١ ص ٤٧٣).

(٢) انظر التجاني : المصدر السابق ص ٣٣٩.

(٣) الوزير السراج : المصدر السابق ج ١ ق ٢ ص ٤٧٢ وما بعدها.

(٤) انظر التجاني : المصدر السابق ص ٣٣٩ وما بعدها، الوزير السراج : المصدر السابق ج ١ ق ٢ ص ٤٧٢ وما بعدها.

(٥) قصر الديّماس : هو حصن متين في وسطه حصن آخر، وهو مشرف على البحر، ويقع بالقرب من قرية البقالطة الحالية في منتصف الطريق بين المهديّة والمنستير حيث ما تزال توجد آثار قصر (رباط) كان قد أقيم على أنقاض مدينة تبة (Thapsa) الرومانية القديمة التي أقيمت هي بنورها على أنقاض مدينة فينيقية. انظر ابن الأثير : المصدر السابق ج ١ ص ٦١٢، شارل أندري جوليان : المرجع السابق ج ٢ ص ١٤٣، حسن حسني عبد الوهاب : وراقات ق ٣ ص ٣٥١.

المسلمين، إذ في آخر ليلة من جمادى الأولى كبروا ودخلوا الجزيرة على الأعداء الذين أصابهم الفزع نتيجة لذلك فلم يكن أمامهم إلا أن يهرعوا إلى سفنهم تاركين أثقالهم وأسلحتهم ومعداتهم وخيولهم غنيمة للمسلمين الذين تبعوهم وقتلوا من وصلت إليه ميوفهم منهم، ثم تحولوا بعد ذلك إلى قصر الدعاس وحاصروه، وبقي العدو في مراكبه ثمانية أيام يرقب الحركة بين المسلمين والمحموريين في ذلك القصر وهو عاجز عن أن يمد لهؤلاء المحصورين يد المساعدة، ولما يس من إنقاذهم أقطع بأسطوله عائداً إلى صقلية تاركاً إياهم يواجهون مصيرهم المحتوم، وقد طلب هؤلاء حينذاك الأمان ويسلموا القصر للمسلمين، ويقول ابن عذارى إن الحسن مال إلى ذلك ولكن الهلاية رفضوا منحهم الأمان^(١)، وفي منتصف جمادى الآخرة خرجوا من القصر بعد أن أضر بهم الحصار محاولون شق طريق لهم للهرب فتخطفتهم سيوف المسلمين وقتلوا عن آخرهم^(٢).

وهكذا فشلت هذه الحملة في تحقيق أهدافها مما زاد في حق رجار على الحسن، ويعلل (K. M. Setton) هذا الفشل بعدة أسباب أهمها أن هجوم المسلمين قد بدأ قبل أن يتكامل أسطول رجار، ثم عدم وجود تنسيق بين القوات البرية والقوات البحرية، كما أن المهاجمين كان يتقصصهم في رأيه الحماس والروح القتالية، في حين أن المسلمين كانوا يعرفون ما يحاربون من أجله وأظهروا أن انتصارهم هو انتصار للإسلام على المسيحية، ويضيف أن الحوليات المسيحية لا تشير إلى هذه الحملة، ويرى أن صمتها هذا يدل دلالة واضحة على مدى الإحساس بالكارثة الذي عم بلاط بلرمة^(٣)، أما المسلمون فقد عهم الفرح بهذا النصر، وطير الحسن أخباره إلى الآفاق، ومدحه العديد من الشعراء كان من بينهم ابن

(١) ابن عذارى : المصدر السابق ج ١ ص ٣٠٩.

(٢) انظر ابن الأثير : المصدر السابق ج ١٠ ص ٦١١، ابن عذارى : المصدر السابق ج ١ ص ٣٠٩، ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ١٦٦، ابن أبي دينار : المصدر السابق ص ٩٢، ابن مقليش الصفاقسي : المصدر السابق ورقة ١٧٤، الهاجي السعودي : المصدر السابق ص ٥١، د. أحمد مختار العبادي، د. السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ٢١٣، د. محمد عاشور : بعض أضواء على العلاقات بين بيزا وتونس ص ٤١.

D. Douglas : Op. Cit., p.57., K. M. Setton : Op. Cit., vol. 2. p.21

K. M. Setton : Ibid vol. 2, p.21.

(٣)

حمديس الصقلي الذي كان من أشد الناس إجهاباً بكل هزيمة تلحق بالنورمان الذين سلبوا وطنه، فمدح الحسن بقصيدة جاء فيها :

أبى الله إلا أن يكون لك النصر وأن يهدم الإيمان ما شاده الكفر
وأن ترجع الأعلاج بعد علاجها خزاها على آثارها الذل والقهر^(١)

فرض الحماية النورمانية على إفريقية :

أدرك رجار حينما فشلت حملته هذه أنه لا زال بإفريقية بقية من قوة فضلاً عن مساندة المرابطين لها الذين ردوا عليها سريعاً إذ قام أسطولهم بقيادة ابن ممون بالإغارة على صقلية إثر ذلك فعادت فيها وعاد محملاً بالأسرى والغنائم^(٢)، الأمر الذي جعله يوقن بصعوبة احتلال إفريقية في مثل هذه الظروف ويبدو أن غارات المسلمين تكررت على صقلية في تلك الآونة فقد هوجمت مدينة باتي ثم مدينة سرقوسة، ومع أن معظم المصادر والمراجع التاريخية تنسب هذه الغارات للمرابطين^(٣)، إلا أن وليم الصوري (William of Tyre) الذي كان حسن الاطلاع على أوضاع جنوب إيطاليا وصقلية يقول إنها كانت تقوم من إفريقية^(٤)، وأياً كان الأمر فإن ذلك أرغم رجار على تأجيل مشروع الاحتلال حتى تواتيه الفرصة، إلا أنه مع ذلك لم يكف عن تهديد الأمير الزيري وغيره من حكام دويلات إفريقية لفرض حمايته عليهم وربطهم بمعجلته. أما الأمير الزيري فكان هو الآخر يفضل إنهاء حالة

(١) انظر أحمد بن عامر : المرجع السابق ص ١٤١، ومن هذه القصيدة :

هناك شفا الإسلام منهم غلبه
بطعن له بير وضرب له هبر
وكانوا رأوا مهديك وفيهما
لجز الهندي أمر فهاهم أمر
فما للعلاج امتد في الفتي جهلهم
أما كان فيهم من لبيب له حجر
فكم قسموا في الظن أميال أرضاً
لم يطؤوا منها مكاناً هو الشبر

(٢) انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ١٦١، الوزير السراج : المصدر السابق ج ١ ق ٢ ص ٤٧٢، ابن مقديس الصفاقسي : المصدر السابق ورقة ١٧٤.

(٣) انظر مثلاً K. M. Setton : Op. Cit., vol. 2, p.21, D. Douglas : Op. Cit., p. 57.

(٤) William of Tyre : A History of Deeds Done Beyond The Sea. v. 2, ch. 13, p.22.

الحرب بينه وبين رجار لشعوره بالعجز عن مواصلة مواجهته عسكرياً وإثارة الدعة والحلود إلى الراحة على تحمله مسؤولية الدفاع عن وطنه ولم يدر بخلده أن عدوه لن يتركه وشأنه كما اعتقد، لذلك دارت بين الطرفين مفاوضات أسفرت عن عقد صلح بينهما، فرض بموجبه رجار على الحسن شروطاً قاسية قبلها الأخير. ولم تخف حقيقة أمر هذا الصلح على العديد من المؤرخين المسلمين فيقول الوزير السراج في ذلك : (وأنشأ في ظاهر الأمر بينه وبين الحسن صلحاً وفي نفسه ما فيها لتتم خديعته ويتمكن من مراده)^(١).

ولم يرض هذا الصلح المهين أهل المهديّة فكتبوا الأمير يحيى بن العزيز الحمادي صاحب بجاية الذي لم يكن أفضل من الحسن لانغماسه في اللهو والصيد والشبهوات، ومع ذلك تعلقوا به وعقدوا آمالهم عليه لإتقاذهم من المهانة ووعده بتسليم المدينة إليه، كما وقد عليه رؤساء بعض بطون الهلالية وأطلعوه على وضع الحسن مع رجار وأشعروه بأنفتهم من ذلك، ووعده هم الآخرون بالنصرة، فأرسل في سنة ٥٢٩هـ / ١١٣٥م قائده الفقيه مطرف بن علي بن حمدون بجيش كبير إلى المهديّة، كما أرسل أسطولاً لمساندة هذا الجيش ومحاصرتها بحر^(٢)، أما الحسن فبدلاً من أن يحاول التفاهم مع ابن عمه يحيى لتوحيد جهودهما ضد العدو المترص بهما معاً، أرسل لرجار يطلب منه المساعدة، فرحب رجار بهذه الفرصة الذهبية التي ستتيح له التدخل في شؤون إفريقية بشكل أقوى عن ذي قبل باسم مناصرة الحسن وما يتوقع أن يكسب من ذلك، فهو بإمكانه فرض الشروط التي يريد على الحسن بعد أن هلك عجز الأخير واضحاً في الدفاع عن نفسه دون أن يستطيع هذا مخالفته خشية من فقدانه كنصر، ثم إنه يستطيع احتلال نواحي إفريقية الغير خاضعة للحسن وهو ضامن عدم تدخله إن لم يقف إلى جانبه، وهو ما جرى بعد ذلك بالفعل كما من ذكره بعد قليل، لذلك أرسل أسطولاً لمساعدة الحسن، وعندما ظهر الأسطول النورماني

(١) الوزير السراج : المصدر السابق ج ١ ق ٢ ص ٤٧٤، انظر كذلك ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ١٦١، ابن أبي دinar : المصدر السابق ص ٩٢، ابن مقديش الصفاقسي : المصدر السابق ورقة ١٧٤.
(٢) انظر عن ذلك ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ١٦١، ابن الأثير : المصدر السابق ج ١١، ص ٣١ - ٣٢، ابن عذاري : المصدر السابق ج ١ ص ٣١٢ (ويجمل ذلك سنة ٥٣٠هـ)، ابن أبي دinar : المصدر السابق ص ٩٢، الوزير السراج : المصدر السابق، ج ١ ص ٤٧٤، ابن مقديش الصفاقسي : المصدر السابق، ورقة ١٧٥.

في مياه المهديّة لم يجد مطرف هذا من فك الحصار عنها والانسحاب إلى بجاية بعد هجوم استمر (٧٠ يوماً)^(١)، وأراد قائد الأسطول النورماني انتهاز هذه الفرصة لإضعاف الحمادين أيضاً بحرمانهم من أسطولهم إذ عزم على إغراقه^(٢) لأن كلا المتخاصمين عدو لرجار، ولكن الحسن منعه من ذلك ربما إدراكاً منه لنوايا ذلك القائد والهدف من ورائها وانسحب الأسطول الحمادي بسلام.

أما أول مقام رجار من هذه المساعدة فكان الاستيلاء على السفن الراسية في ميناء المهديّة بما تحمله من سلع، إذ كان جواسيسه في المهديّة قد أرسلوا يعملونه أن يمرسها مراكب قد استوفت وسقتها فما كان من قائد أسطوله المذكور إلا أن هجم بعد انسحاب الحمادين على الميناء واستولى على تلك السفن وأخذها إلى صقلية^(٣)، مما يدل دلالة واضحة على أنه كانت لديه تعليمات مسبقة من رجار للقيام بذلك، وبدلاً من أن يعتمد الحسن إلى مقاومة هذا الغدر أو يحثج عليه على الأقل، سكّت عنه، ولم يكتف بالسكوت بل سارع إلى شكر رجار على مساعدته له فكتب إليه (يشكره على فعله وأنه داخل تحت أمره ونهيه)^(٤)، ولهذا النص دلالة الهامة إذ أنه يتضمن اعترافاً صريحاً من الحسن بنيهته لرجار، وبالتالي يبدف فرض الحماية النورمانية على إفريقية، فكان ذلك مكسباً آخر لرجار، أما مكسبه الثالث فكان البدء في احتلال نواحي إفريقية الخارجة عن طاعة الحسن، ففي نفس ذلك العام أي سنة ٥٢٩هـ / ١١٣٥م ولم تكن تمضي فترة وجيزة على اعتراف الحسن بنيهته له، أرسل أسطولاً هاجم جزيرة جربة في غفلة من أهلها، وقد تصدى هؤلاء للغزاة يدافعون عن أنفسهم فقاتلوهم قتالاً شديداً حتى قتل منهم خلق كثير ثم كاثروهم العدو، فدخل الجزيرة وارتكب في أهلها الفظائع (فقتل رجالها ومسى حرماً وباعهم في

(١) انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ١٦٢، ابن الأثير : المصدر السابق ج ١١ ص ٣١ - ٣٢، ابن أبي ديثار : المصدر السابق ص ٩٣، الوزير السراج : المصدر السابق ج ١ ق ٢٥ ص ٤٧٥، د. أحمد مختار العبادي، د. السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ٢١٥، د. إبراهيم العلوي : المرجع السابق ص ٢٨٣، عبد الرحمن الجليلي : المرجع السابق ج ١ ص ٢٨٠.

(٢) ابن أبي ديثار : المصدر السابق ص ٩٣، انظر كذلك ابن الأثير : ج ١١ ص ٣٢.

(٣) الوزير السراج : المصدر السابق ج ١ ق ٢٥ ص ٤٧٥، ابن مقديش الصفاتسي : المصدر السابق ورقة ١٧٤.

(٤) ابن أبي ديثار : المصدر السابق ص ٩٣.

صقلية^(١) وبعد فترة عاد إليها من سلم من أهلها من القتل والأسر ودخلوا (تحت طاعة رجار وولى عليها عاملاً من قبله وكتب لهم أماناً من عنده وجعلهم خولاً له)^(٢)، ومنذ ذلك الوقت اتخذ جربة قاعدة لعملياته، وعندما احتج الحسن على هذا الاحتلال، برر رجار ذلك بأنه ما حارب أهل تلك الجزيرة إلا لكونهم غير مطيعين له أي للحسن^(٣)، فسكت ولكن إذا كان ما أصاب أهل جربة لم يحرك نخوة الحسن، فإنه أثار استنكار المسلمين في أقطار عهده حتى إن الخليفة الفاطمي أرسل إلى رجار رسالة يحجج فيها على ذلك الاحتلال^(٤).

واستمرت سياسة الذئب والحمل بين رجار والحسن، مدة ست سنوات أخرى، كان كلما اشتط أثناءها رجار بمطالبه يقابله الحسن بالخضوع وربما التزم في غضون ذلك بدفع أتاة سنوية له^(٥)، ويصف ابن أبي دينار هذا الوضع بقوله: (وتشمخ اللعين - رجار - بأنفه والحسن في غالب أوقاته يداغفه عن نفسه بالتي هي أحسن)^(٦) إلى أن كانت سنة ٥٣٦ هـ / ١١٤١ م حينما غضب رجار على الحسن بسبب مال كان قد استسلمه الحسن من بعض وكلائه وماطل في تسديده، فأرسل جرجي الأنطاكي في أسطول من ٢٥ سفينة فهجم على مرسى المهديّة وأخذ ما به من سفن من بينها سفينة كان الحسن قد أعدها وثائق فيها وشحنها

(١) ابن أبي دينار : المصدر السابق ص ٩٣.

(٢) ابن أبي دينار : المصدر السابق ص ٩٣، انظر أيضاً ابن الأثير : المصدر السابق ج ١١ ص ٣٢، محمد بوراس الجربي : المصدر السابق ص ١٠١، د. سعيد عاشور : بعض أضواء على العلاقات بين بيزا وتونس ص ٤١، D. Douglas : Op. Cit., p.58., K. M. Setton : Op. Cit., vol. 2, p.22

(٣) ابن الأثير : المصدر السابق ج ١١ ص ٣٢، د. أمبرتو ريتشيانو : المرجع السابق ص ١٧.

(٤) د. حسين مؤنس : الجغرافية والجغرافيون في الأندلس ص ٢٦٩ - ٢٧٠.

(٥) K. Belkhdja : Op. Cit., p.38.

(٦) ابن أبي دينار : المصدر السابق ص ٩٣.

(٧) ابن عذاري : المصدر السابق ج ١ ص ٣١٣، الوزير السراج : المصدر السابق ج ١ ق ٢ ص ٤٧٥، ابن مقدش الصفاقسي : المصدر السابق ورقة ١٧٥، د. سعيد عاشور : بعض أضواء على العلاقات بين بيزا وتونس ص ٤١، الباجي المسعودي : المصدر السابق ص ٥١، د. أحمد مختار العبادي، د. السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ٢١٦، د. أمبرتو ريتشيانو : المرجع السابق ص ١٧،

K. M. Setton : Ibid, vol. 2, p.23.

بالذخائر الملكية ليوحيها هدية للخليفة الفاطمي المحافظ كانت تدعى نصف الدنيا^(٧). وحيال ذلك الهجوم بادر الحسن لإرضاء رجار فأرسل إليه رسولاً لمفاوضته أو بالأحرى للاعتذار إليه عما بدر منه، وأهدى إليه عدة أسرى كانوا لديه، ولكن هذا لم يرض إلا أن يكون الحسن (عاملاً من عماله)^(٨)، فوافق على ذلك فضلاً عن أنه أجاز له الاستيلاء على كل ناحية من نواحي إفريقية غير خاضعة له أي للحسن أو قد تثور عليه في المستقبل إجازة صريحة بعد أن كان موقفه في السابق هو السكوت، ومن المحتمل بالإضافة إلى ذلك أن يكون قد حصل على عائذات الجمارك المحصلة في ميثالي المهديّة وسوسة^(٩)، وبذلك يكون رجار قد عزز حمايته على الدولة الزيرية وأحكم قبضته على مواردها، وتذرع بهذا الاتفاق للمعصي قدماً في الاحتلال بعد أن صرح الحسن له علانية بذلك.

وجاءت الظروف لتخدم رجار، فقد كان في تلك الآونة قد فرغ من مشاكله في أوروبا، وأخضع ثورة البارونات سنة ١١٣٩ / ١١٤٠م وعقد مع البابا إنوسنت الثاني سلام ميجنانو سنة ١١٣٩م^(١٠)، وبذلك وجه جل اهتمامه لإفريقية التي كانت الأمور تسير فيها لغير صالح المسلمين، إذ كانت دولة المرابطين التي طالما أرهبت رجار وكفت يده عنها قد أذنت شمسها بمغيب بعد أن استفحلت حركة الموحدين في المغرب الأقصى وأحرزت عدة انتصارات على جيش المرابطين، ففقدت إفريقية بذلك خير نصير، وأما على الصعيد الداخلي فقد ازدادت الفتن حدة بين حكام الدويلات فيها وزاد الطين بلة حدوث مجاعة شاملة فيها منذ سنة ٥٣٧ هـ / ١١٤٢م دامت عدة سنوات ولم تلبث أن شملت كافة أقطار المغرب العربي، وانتشر الوباء (وأكل الناس بعضهم بعضاً وكثر الموت في الناس)^(١١) حتى اضطر كثير من أهلها لمغادرتها إلى صقلية، (فاغتنم - رجار - الفرصة وقدر أنه إن لم يبادر

(١) ابن أبي دينار : المصدر السابق ص ٩٣.

K. M. Setton : Op. Cit., vol. 2, p.23.

(٢)

D. Douglas : Op. Cit., p.53.

(٣)

(٤) ابن مقديش الصفارقي : المصدر السابق ورقة ١٧٥، انظر كذلك ابن عذاري : المصدر السابق ج ١،

ص ٣١٣، ابن خلدون : المصدر السابق ج ٥ ص ٢٠٣، ج ٧ ص ٤٤، ابن أبي دينار : المصدر السابق

ص ٩٤، ابن الأثير : المصدر السابق ج ١١ ص ١٢٤ - ١٢٥، أبو الفدا : المصدر السابق ج ٣ ص ١٩،

K. M. Setton : Ibid, vol. 2, p.23.

الوزير السراج : المصدر السابق ج ١ ق ٢ ص ٤٧٦.

في هذه الشدة لم يتأذى له المطلوب^(١)، وعلى هذا أيقن رجاء أنه قد وصل في لعبته السياسية إلى نهايتها، وأن القرصة قد وقعت في برائه، ولم يبق إلا الإجهاد عليها.

الاستيلاء على ساحل إفريقية :

بدأ أسطول رجاء منذ ذلك العام بهاجم مدن إفريقية الساحلية وجزرها بقيادة جرجي الأنطاكي، ففي سنة ٥٣٧هـ / ١١٤٢م أغار على طرابلس فاستجد أهلها بالمغرب المحيطين بهم فأنجدهم وتعاونوا معهم حتى تم صد الغزاة^(٢)، ولكن الأسطول النورماني عاد في نفس العام فهاجم جيجل التابعة لبني حماد (فأخذها عنوة وسفك دماء أهلها وسبى حرمها وأحرقها بالنار)^(٣) كما أغار على جزيرة قرقة بعد ذلك وفعل بأهلها ما فعله بأهل جربة وجيجل^(٤)، وفي العام التالي عاود الكرة على جيجل واحتلها ثم احتل برشك وشرشال وتنس^(٥)، كما شن غارة مشابهة على بونة^(٦)، وهكذا انفرط العقد ولم يبق إلا أن تسقط كبريات درره أمهات المدن الإفريقية في يده.

(١) ابن مقديش الصفاقسي : المصدر السابق ورلة ١٧٤.

(٢) انظر ابن الأثير : المصدر السابق ج ١١ ص ٩١، ابن خلدون : المصدر السابق ج ٥ ص ٢٠٢، الكاتب الأنصاري : المصدر السابق ص ١٢١ - ١٢٢، د. أمبرتو ريميتانو : المرجع السابق ص ١٧، د. أحمد مختار العبادي، د. السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ٢١٦، الطاهر الزاوي : المرجع السابق ص ٢٢٩ - ٢٣٠.

(٣) ابن أبي دينار : المصدر السابق ص ٩٣، ويقول الشريف الإدريسي (المصدر السابق ص ٩٦) إن أهلها إثر ذلك رحلوا منها إلى جبل على بعد ميل منها وبنا هناك مدينة حصينة، فإذا كان زمن الشتاء سكنوا المرسى والساحل وإذا أتبل الصيف نقلوا أمتعتهم وجعلت بضائعهم إلى الحصن الأعلى البعيد عن البحر وبقي الرجال باليسير من المتاجر. انظر ابن الأثير : المصدر السابق ج ١١ ص ٩٢، د. أمبرتو ريميتانو : المرجع السابق ص ١٧، د. سعيد عاشور : بعض أضواء على العلاقات بين بيزا وتونس ص ٤١، عبد الرحمن الجليلي : المرجع السابق ج ١ ص ٣٨١.

(٤) ابن الأثير : المصدر السابق ج ١١ ص ١٠٦، ابن أبي دينار : المصدر السابق ص ٩٣.

(٥) ابن الأثير : المصدر السابق ج ١١ ص ١٠٢، د. سعيد عاشور : بعض أضواء على العلاقات بين بيزا وتونس ص ٤١، شارل أنطوي جوليان : المرجع السابق ج ٢ ص ١٤١، عبد الرحمن الجليلي : المرجع السابق ج ١ ص ٣٨١.

(٦) ابن عذارى : المصدر السابق ج ١ ص ٣١٣، د. سعيد عاشور : بعض أضواء على العلاقات بين بيزا وتونس ص ٤١.

احتلال سفاقس :

في سنة ٥٣٨هـ / ١١٤٣م هاجم الأسطول النورماني مدينة سفاقس. وتختلف المصادر التاريخية الإسلامية في نتيجة ذلك الهجوم فابن عذارى يقول إن العدو (دخل مدينة سفاقس، ودخلت في عمل رجار صاحب صقلية)^(١)، في حين يقول الباجي المسعودي إن احتلالها كان سنة ٥٣٦هـ / ١١٤٢م^(٢) بينما يذكر الشريف الإدريسي^(٣) ويؤيده كل من ابن خلدون^(٤) وابن مقديش الصفاقسي^(٥) وابن أبي الضياف^(٦) أن ذلك كان في سنة ٥٤٣هـ / ١١٤٨م، إذ يقول الشريف الإدريسي في ذلك : (وافتحها الملك المعظم رجار في عام ٥٤٣ من سني الهجرة)^(٧)، وأما ابن خلدون فيعطي تفصيلاً أكثر عن كيفية هذا الاحتلال فيقول إن جرجي الأنطاكي بعد احتلال المهدي بفترة وجيزة أرسل جيشين أحدهما إلى سفاقس، وكان أهلها قد امتنعوا بمن قدم إليهم من الأعراب الهلالية فحاربوا الجيش النورماني، وحبال ذلك عمد المهاجمون إلى الخديعة فأظهروا الهزيمة فتبعهم المسلمون حتى ابتعدوا عن البلد حينذاك عطف العدو عليهم فهرب قسم من المسلمين إلى البرية وعاد القسم الآخر ممن لجأ من القتل إلى المدينة، فتبعهم النورمان ودخلوا المدينة وملكوها بعد قتال شديد في ٢٣ صفر سنة ٥٤٣هـ وأعملوا فيها النهب ثم نادوا بعد ذلك بالأمان فعاد من سلم من أهلها إليها^(٨)، وللتوفيق بين هذه الروايات وبعد اعتماد رواية الباجي المسعودي لأنها رواية مفردة لم نجد لها تأييداً في مصدر آخر وأعتقد أن ذلك وهماً منه في السنة، نقول إنه لا تعارض بين الرأيين الآخرين، فما أراه أن رجار في المرة الأولى أي في سنة ٥٣٨هـ / ١١٤٣م وكما هو واضح من نص ابن عذارى الآنف الذكر قد فرض

(١) ابن عذارى : المصدر السابق ج ١ ص ٣١٣.

(٢) الباجي المسعودي : المصدر السابق ص ٥٢.

(٣) الشريف الإدريسي : المصدر السابق ص ٧٨.

(٤) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ١٦٢ و ١٦٦.

(٥) ابن مقديش الصفاقسي : المصدر السابق ورقة ١٧٦ - ١٧٧.

(٦) ابن أبي الضياف : المصدر السابق ص ١٨٠، انظر أيضاً جوليان : المرجع السابق ج ٢ ص ٢٤٦.

(٧) الشريف الإدريسي : المصدر السابق ص ٧٨.

(٨) لمزيد من التفاصيل انظر ابن الأثير : المصدر السابق ج ١١ ص ١٢٨.

عليها نفوذها وأجبرها على إعلان تبعيتها له، ومن غير المستبعد أن تكون قد خلعت طاعته بعد ذلك، فأرسل جرجي جيشه في المرة الثانية أي في سنة ٥٤٣هـ / ١١٤٨م لإخضاعها وضماها إلى ممتلكات التورمان الأخرى .

احتلال طرابلس :

كان محمد بن خزرون بن خليفة الزناتي يتولى طرابلس ويؤدي للأمير الزيزي جملًا سنويًا، وكان بنو مطروح ذوي المكانة الرفيعة والنفوذ في المدينة يساندونه في ولايته، وحينما رأى ابن خزرون اختلال أمر الحسن، قطع صلته به، وامتنع عن دفع ما كان يؤديه إليه، وأعلن طاعته المباثرة للخليفة الفاطمي، ولم يأس رجار من احتلال تلك المدينة بعد فشل هجومه الأول عليها سنة ٥٣٧هـ / ١١٤٢م، بل ظل يتحين الفرصة المناسبة للانقضاض عليها من جديد، وفي سنة ٥٤٠هـ / ١١٤٥م اشتدت حدة المجاعة فيها حتى أرمقت أهلها (وظهر اختلال أحوالها وفناء حاميتها)^(١)، وزادت أوضاعها سوءاً بحدوث فتنة داخلية فيها، إذ كان أهلها يكرهون ابن خزرون لقسوته، وزادت الشدة التي أصابتهم من هذه الكراهية، وفشل بنو مطروح في حمله على تغيير سياسته أو التخفيف من وطأته على مواطنيهم، فثاروا عليه، وأخرجوه هو وبعض أنصاره من المدينة، ويدو أن بني مطروح ساروا أيضاً في الناس سيرة سيئة الأمر الذي اضطرهم لطرده هؤلاء أيضاً وتولية أحد أمراء المرابطين الذي تصادف وجوده آنذاك في المدينة في طريقه إلى الحج أميراً عليهم، فانتهز رجار هذا الوضع السياسي المضطرب في المدينة وأرسل جرجي الأنطاكي في أسطول ضخم مكون من مائتي سفينة لاحتلالها. فحاصرها جرجي براً وبحراً وقتلها ثلاثة أيام، وفي هذا الوقت العصيب تجددت الفتنة فيها إذ أن من بقي فيها من أنصار بني مطروح، حينما رأوا انشغال الناس بقتال العدو أعادوا بني مطروح إليها ودار القتال بين بني مطروح وأنصارهم من جهة وبين خصومهم من جهة أخرى وعلت الضوضاء، فأدرك جرجي ما كان يدور في المدينة، فحمل بجنده على من كان على الأسوار وأزاحهم عنها ولم يشعر

(١) ابن خلدون : المصدر السابق ج٧ ص ٤٤ .

الناس إلا والعدو قد دخل عليهم المدينة وأعمل فيهم السيف، قتل من قتل منهم وهرب من استطاع الهرب، واستباح العدو المدينة وانتهبها، ونادى جرجي بعد ذلك بالأمان في الناس فرجع كثير من أهلها إليها، وأقام جرجي فيها ستة أشهر أصلح أسوارها ونظم أمورها ثم ولي عليها أبا يحيى رافع بن مطروح وأخذ رهائن من وجوها معه إلى صقلية^(١).

وكما اختلفت الروايات في السنة التي احتلت فيها سفاقس، اختلفت أيضاً في سنة احتلال طرابلس، فابن خلدون يذكر مرة أن ذلك كان في سنة ٥٤٠هـ / ١١٤٥م^(٢) وفي موضع آخر يقول أنه في سنة ٥٤١هـ / ١١٤٦م^(٣)، في حين يذكر ابن الأثير أن احتلالها تم في سنة ٥٤١هـ^(٤) ويؤيده في ذلك أبو الفدا^(٥) وابن أبي دينار^(٦) والوزير السراج الذي يحدد اليوم تحديداً يومهم بالدقة فيقول إنه كان في يوم الثلاثاء سادس محرم سنة إحدى وأربعين وخمسمائة^(٧)، ولكنني أرجح صحة رواية ابن خلدون الأولى التي تقول إن الاحتلال تم سنة ٥٤٠هـ بدليل ما ذكره الإدريسي في نزعة المشتاق حيث يقول عنها: (... واستفتحها الملك رجار في سنة ٥٤٠ فبسي حرمها، وأقنى رجالها، وهي الآن في طاعته ومعلوذة في جملة بلاده...) ^(٨) ذلك لأن الإدريسي عاصر حوادث هذا الاحتلال.

احتلال قابس :

خضعت قابس إثر فرار رافع بن مكي منها كما سبق أن ذكرنا، لعلي بن يحيى بن تميم،

(١) انظر ابن الأثير : المصدر السابق ج ١١ ص ١٠٨، أبو الفدا : المصدر السابق ج ٣ ص ١٨، ابن خلدون : المصدر السابق ج ٧ ص ٤٤ ج ٥ ص ٢٠٢ - ٢٠٣، الوزير السراج : المصدر السابق ج ١ ص ٦٦٣، النائب الأنصاري : المصدر السابق ص ١٢٢ - ١٢٣، الطاهر الراوي : المرجع السابق ص ٢٣٠ - ٢٣١
K. M. Setton : I Op. Cit., vol. 2. p.23.

(٢) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ١٦٨.

(٣) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٥ ص ٢٠٢.

(٤) ابن الأثير : المصدر السابق ج ١١ ص ١٠٨.

(٥) أبو الفدا : المصدر السابق ج ٣ ص ١٨.

(٦) ابن أبي دينار : المصدر السابق ص ٩٤.

(٧) الوزير السراج : المصدر السابق ج ١ ص ٤٦٣.

ولكن يبدو أن الزيريين لم يستطيعوا الاحتفاظ بها إذ يذكر ابن الأثير^(١)، ويؤيده ابن خلدون في ذلك^(٢) أن رشيد أمير دهمان من بطون الهلالية استبد بها وحكمها حتى وفاته سنة ٥٤٢هـ / ١١٤٣م وكان مولاه يوسف هو المدير لشؤون دولته، وعندما توفي نصب يوسف ابن سيده الصغير محمد خلفاً لأبيه مقصياً بذلك أخاه الأكبر معمر بن رشيد ليس عن الحكم فحسب، وإنما عن المدينة أيضاً، في حين يذكر ابن أبي دینار رواية أخرى مفادها أن يوسف انتهز فرصة خروج رشيد عن قابس لقتال بعض مناوليه مخلفاً ابنه نائباً عنه، فطرد ابن مولاه واستبد بالبلد^(٣)، وأياً كان الأمر فإن يوسف أساء السيرة وأخذ يتعرض لحرم مولاه وكان فيهن امرأة من بني قرة الهلالية، فأرسلت تخبر أهلها فشكوه للحسن بن علي الزيري فكتب إليه يستكفه، ولكن يوسف لم يرتدع بل كتب إلى الحسن يهدده بإدخال النورمان إلى المدينة إن هو حاول التدخل في شؤونهم، وكان رجار في ذلك الوقت قد احتل طرابلس، فأرسل يوسف إليه بطاعته وطلب منه التقليد وتوليته على قابس ففعل، وعلق ابن أبي دینار على ذلك بقوله: (... قلت أعوذ بالله من الخذلان ولا كيف تعد هذه الطائفة من حزب المسلمين وإنما هي من حزب الشيطان لكن حب الدنيا والرياسة ألجأهم إلى هذه الرذائل وحك الشيء يعمي ويصم)^(٤)، فحيزه جهز الحسن جيشاً بحث به إلى قابس، وناصره أعراب بني قرة فحاصروها وكان أهلها حينما علموا بمداخلة يوسف لرجار استأثروا من ذلك، وعندما وصل جيش الحسن ثاروا على يوسف وحصلوه في قصره ثم قبضوا عليه وسلموه لبني قرة الذين قتلوه بعد تعذيبه، وآل الأمر إلى أن ولي معمر بن رشيد على المدينة مكان أخيه الذي فر منها^(٥).

وكان ليوسف أخ يدعى عيسى استطاع الفرار إلى صقلية، حيث أطلع رجار على ما

(٨) الشريف الإدريسي: المصدر السابق ص ٩٠.

(١) ابن الأثير: المصدر السابق ج ١١ ص ١٢٠.

(٢) ابن خلدون: المصدر السابق ج ٥ ص ٢٠٣.

(٣) ابن أبي دینار: المصدر السابق ص ٩٤، انظر كذلك التجاني: المصدر السابق ص ١٠٠.

(٤) ابن أبي دینار: المصدر السابق ص ٩٤.

(٥) ابن الأثير: المصدر السابق ج ١١ ص ١٢٠، ابن خلدون: المصدر السابق ج ٥ ص ٢٠٣ و ج ٦

ص ١٦٧، التجاني: المصدر السابق ص ١٠٠، ابن أبي دینار: المصدر السابق ص ٩٤، ابن مقديش

الصفاطي: المصدر السابق ورقة ١٧٣، الوزير السراج: المصدر السابق ج ١ ص ٢١٦.

حدث، وقال له إنه لم يحصل لأخيه ما حصل إلا لكونه متسبباً لطاعته فغضب رجاء، وصمم على التدخل في الأمر بسرعة، فأرسل أسطولاً إلى قابس فحاصرها مدة ولكنه نظراً لمقاومة أهلها الشديدة من ناحية، ثم انشغاله وقتله بمشروع كبير في اليونان^(١) مما جعله لا يستطيع تعزيز ذلك الأسطول، فشل في احتلالها واضطر لسحب ذلك الأسطول وإعادته إلى صقلية^(٢)، وبقي الرضع في قابس على تلك الحال، إلى أن تم احتلال المهديّة كما منذكره فيما يلي، حيث أرسل جرجي الأنطاكي إليها أسطولاً احتلها وضمها لباقي ممتلكات النورمان في إفريقية، بل إن إعادة محمد بن رشيد إلى قابس كانت الذريعة التي تعلل بها جرجي الأنطاكي عند هجومه على المهديّة كما سيأتي ذكره.

احتلال المهديّة :

بعد ذلك جاء دور المدينة العتيقة المهديّة لتنظيم في سلك ممتلكات رجاء، وكان لديه أكثر من دافع لاحتلالها بالإضافة إلى دوافعه الصليبية منها إدراكه لضعف الحسن التام وعدم قوته على الدفاع عنها، ثم كون أسطولاً قد فرغ من مهمته في ساحل اليونان بتقوية كورفا (Curfa) فضلاً عن تأكده من انشغال الدولة البيزنطية بحربها في شمال البلقان في ذلك الوقت^(٣)، ثم سعيه لإيجاد البديل الجزري له ما دام لم يسمح له بالامتراك في الحملة الصليبية الثانية^(٤) من ناحية، وللحركة الصليبية من ناحية ثانية إذ كانت تلك الحملة قد باءت بالفشل فكانت مكاسبه في إفريقية ومكاسب النصرارى الإسبان في الأندلس في تلك الفترة هي التعويض الذي كسبه الحركة الصليبية عن فشل الحملة المذكورة^(٥)، وعلى ذلك بدأ في حشد أسطول وجنده لهاجمة المهديّة، وكما كانت عادته، تكتم تكماً شديداً على استعداداته ومنع السفر من صقلية إلى إفريقية للمحيطه من

(١) K. M. Setton : Op. Cit., vol. 2, p.24.

(٢) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٥ ص ٢٠٣ و ج ٦ ص ١٦٧، ابن مقديش الصفاقسي : المصدر السابق ورقة ١٧٣، الوزير السراج : المصدر السابق ج ١ ق ٢ ص ٣٥٦.

(٣) K. M. Setton : Ibid, vol. 2, p. 24.

(٤) لمزيد من التفصيل عن هذا الموضوع : انظر د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٦٢٢.

(٥) K. M. Setton : Ibid, vol. 2, p.16.

تسرب الأخبار إلى الحسن، ولكن الحسن حينما توقف السفر بين البلدين أوجس خيفة من شر رجار، فأرسل بعض عيونه إلى قوصرة لموافاته بأخبار تحركات أسطول النورمان بالحمام الراجل.

أقلع أسطول رجار الذي قدرته بعض المصادر الإسلامية بمائتين وخمسين قطعة^(١) وبعض آخر بثلاثمائة قطعة^(٢) من صقلية بقيادة جرجي الأنطاكي، ومر في طريقه بجزيرة قوصرة، وتقضي مشيئة الله سبحانه وتعالى أن يقع جواسيس الحسن الذين كانوا بها في يد جرجي، فسألهم فيما إذا كانوا قد طيروا أي خبر إلى المهديّة، فلما أجابوه بالنفي وأقسموا له بما أَرْضاه وطمأنه من الإيمان على ذلك (أمر الرجل الذي كان الحمام بصحبته أن يكتب بخطه أنه لما وصلنا إلى جزيرة قوصرة وجدنا بها مراكب من صقلية فسألناهم عن الأسطول المخلول فذكروا أنه أقلع إلى جزائر القسطنطينية وأطلقوا الحمام^(٣))، وذلك لتتم خديعة الحسن فيمنعده من عنصر المفاجأة، فاطمأن الحسن بهذه الأخبار، وفي صباح يوم الاثنين الباكر الثامن من صفر سنة ٤٤٣هـ / ٢٢ يونيو ١٠٤٨م^(٤) وصل هذا الأسطول إلى مياه المهديّة، وكان يوم تطويقها قبل أن يتبّه له أهلها، ولكن الريح لم تساعد (فلو تم له ذلك لم يقلت من الناس أحد)^(٥)، ومنعته الريح القوية المعاكسة من دخول الميناء حتى إنه لم يستطيع الحركة إلا بالمقاذيف^(٦)، فأرسل بعيداً عنها ينتظر هبوب الريح المواتية، وأدرك جرجي أن المفاجأة فاتته وأن أهل المهديّة تنبهوا له، فأرسل إلى الحسن يخادعه فأعلمه أنه باق على الصلح وأنه إنما جاء ليرد محمد بن رشيد إلى قابس ويطلب منه عسكرياً لمساعدته في

(١) ابن الأثير : المصدر السابق ج ١١ ص ١٢٥، ابن خلدون : المصدر السابق ج ٥ ص ٢٠٣، ابن مقديش الصفاقسي : المصدر السابق ورقة ١٧٥.

(٢) الوزير السراج : المصدر السابق ج ١ ق ٢ ص ٤٧٥.

(٣) ابن مقديش الصفاقسي : المصدر السابق ورقة ١٧٥، انظر كذلك ابن الأثير : المصدر السابق ج ١١ ص ١٢٥، ابن خلدون : المصدر السابق ج ٥ ص ٢٠٣، د. إبراهيم العلوي : المرجع السابق ص ٢٨٤.

(٤) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٥ ص ٢٠٣.

(٥) ابن مقديش الصفاقسي : المصدر السابق ورقة ١٧٥.

(٦) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٥ ص ٢٠٣، ابن مقديش الصفاقسي : المصدر السابق ورقة ١٧٥،

د. أمبرتو ريسيتانو : المرجع السابق ص ٢١.

مهمته^(١)، فلم تنطل هذه الحيلة على الحسن، لذلك جمع رجال دولته واستشارهم في الأمر، فكلهم أجمع على قتال العدو^(٢) إلا الحسن الذي أسقط في يده سيما وأن جيشه كان غالباً عن المدينة لمساعدة معزز بن زياد صاحب الملققة في قتاله ضد ابن خراسان صاحب تونس، فقال لمستشاريه إنه إن نزل إلى البر حال بيننا وبين الميرة (تؤخذوا قهراً وأنا أرى سلامة المسلمين من القتل والأسر خير من الملك وقد طلب مني عسكرياً لقابض فإن فعلت فما يحل لي معونة الكفار على المسلمين وإن منعت يقول انتقض ما بيننا من الصلح وليس يريد إلا أن يبطنا حتى يحول بيننا وبين البر وليس لنا بقتاله طاقة والرأي أن يخرج الأهل والولد وترك البلد فمن أراد أن يفعل كفعلنا فليبادر وأمر في الحال بالرحيل وأخذ معه من حضره وما خف حمله وخرج الناس على وجوههم بأهاليهم وأولادهم وما خف من حملهم وأثاثهم ومن الناس من اختفى عند النصارى وفي الكنائس^(٣)).

وهكذا خلت المدينة في سويعات ومنعت الريح جرجي من دخولها حتى العصر حيث دخلها وأباحها لجنده بقية ذلك النهار، ودخل هو قصر الحسن فوجده على حاله لم يرفع منه شيء يذكر، مليء بالذخائر الملوكة فخنم عليها، كما وجد فيه بعض معطيات الحسن وبعض أمهات أولاده أعجله الهرب عن اصطحابهم معه، فأحسن إليهم وأرسلهم إلى صقلية^(٤)، ثم نادى في الناس بالأمان فعاد إليها الكثير من أهلها حتى إنه أرسل دواباً لمساعدة الناس بالعودة، وبادر جرجي بعد أسبوع من ذلك اليوم إلى إرسال إسطول إلى سوسة وكان

(١) ابن خلدون: المصدر السابق ج ٥ ص ٢٠٣، ابن مقدش الصفاقسي: المصدر السابق ورقة ١٧٥

الوزير السراج: المصدر السابق ج ١ ق ٢ ص ٤٧٥، الباجي المسعودي: المصدر السابق ص ٥٢.

(٢) ابن الأثير: المصدر السابق ج ١١ ص ١٢٦، ابن خلدون: المصدر السابق ج ٥ ص ٢٥٤، د. أمبرتو ريسيتانو: المرجع السابق ص ٢١.

(٣) ابن مقدش الصفاقسي: المصدر السابق ورقة ١٧٦، انظر أيضاً ابن الأثير: المصدر السابق ج ١١ ص ١٢٦ - ١٢٧، ابن خلدون: المصدر السابق ج ٥ ص ٢٠٤، د. أمبرتو ريسيتانو: المرجع السابق ص ٢٢، الوزير السراج: المصدر السابق ج ١ ق ٢ ص ٤٧٥،

K. M. Seun: Op. Cit., vol. 2, p.24

(٤) ابن الأثير: المصدر السابق ج ١١ ص ١٢٧، أبو القدا: المصدر السابق ج ٣ ص ١٩ - ٢٠، ابن خلدون: المصدر السابق ج ٦ ص ١٦٢، ابن مقدش الصفاقسي: المصدر السابق ورقة ١٧٦، الوزير السراج: المصدر السابق ج ١ ق ٢ ص ٤٧٥ وما بعدها، الباجي المسعودي: المصدر السابق ص ٥٢.

يتولاها علي بن الحسن، وكان قد سمع بما حل بالمهدية فلحق بأبيه وخرج الناس بخروجه فدخلها النورمان ونهبوها ثم نادوا بالأمان فعاد أهلها إليها^(١)، كما وجه أسطولاً إلى سفاقس وقابس واحتلها كما تقدم ذكره، فولى عليهما ولاية من قبله بعد أن أخذ الرهائن منهما كعادته، وقد حاول جرجي مزيداً من التوسع فصار بأسطول إلى قلعة إقليبية، وكانت قلعة منيعة بغية احتلالها، فلما تسامع الهلالية بوصله إليها سارعوا للدفاع عنها وهزموا جرجي وأصحابه بعد أن قتلوا كثيراً منهم^(٢)، وبذلك ملك النورمان ساحل إفريقية من طرابلس شرقاً إلى قرب تونس غرباً فضلاً عن جزرها وما سبق لهم امتلاكه من المدن في غربها، ولولا تجدد الخلاف بين رجار والدولة البيزنطية في تلك الآونة، إذ كان الإمبراطور البيزنطي مانويل يعد العدة لاستعادة كورفا منه ثم غزو إيطاليا^(٣) بعد ذلك، لاستولى رجار على كل إفريقية، يقول ابن الأثير في ذلك: (في هذه السنة - سنة ٥٤٤هـ - اختلف رجار القرطبي صاحب صقلية وملك القسطنطينية، وجرى بينهما حروب كثيرة دامت عدة سنين، فاشتغل بعضهم ببعض عن المسلمين، ولولا ذلك لملك رجار جميع بلاد إفريقية)^(٤)، أما الحسن بن علي الزيري فإنه بعد مغادرته المهدية لجأ إلى محرز بن زياد أمير الملقطة وأقام عنده بضعة أشهر، وعزم على الرحيل إلى مصر ولكنه علم أن جرجي يترصد به للقبض عليه، فعدل عن ذلك ورحل إلى ابن عمه يحيى بن العزيز الحمادي صاحب بجاية، فأمر الأخير بالمدول به إلى الجزائر حيث أقام بها مضيئاً عليه من قبل الأمير الحمادي حتى افتتحها عبد المؤمن بن علي خليفة الموحدين فأكرمه واصطحبه معه إلى المغرب وألحقه بخواصه^(٥)، ثم صحبه معه حينما زحف إلى إفريقية كما سيذكر فيما بعد.

-
- (١) ابن أبي دينار : المصدر السابق ص ٩٥، ابن مقدش الصفاسي : المصدر السابق ورقة ١٧٦.
(٢) ابن الأثير : المصدر السابق ج ١١ ص ١٢٩، ابن خلدون : المصدر السابق ج ٥ ص ٢٠٤، ابن مقدش الصفاسي : المصدر السابق ورقة ١٧٧، د. أميرو ريتيتانو : المرجع السابق ص ٢٢.
(٣) K. M. Serron : Op. Cit., vol. 2, p.24.
(٤) ابن الأثير : المصدر السابق ج ١١ ص ١٤٥.
(٥) ابن الأثير : المصدر السابق ج ١١ ص ١٥٩، ابن أبي زرع : الأئيس المطرب ص ١٩٧، ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ١٦٢، الوزير السراج : المصدر السابق ج ١ ص ٤٧٦.

إفريقية في ظل الاحتلال :

منذ أن احتل النورمان طرابلس، وضعوا عدة تدابير لضمان سيطرتهم عليها من ناحية وللاستفادة من خيراتها من ناحية ثانية، وقد عمموا هذه التدابير فيما بعد على كافة البلاد الإفريقية التي استولوا عليها، وتتمثل هذه التدابير في العمل على إشاعة الاطمئنان فيها، فتركوا أهلها يديرون شؤونهم الداخلية بأنفسهم، فعينوا على كل مدينة منها والوالي والقاضي اللذين ارتضاهما أهلها، ورموا أسوارها وحافظوا على النظام فيها، وشجعوا على عودة الحياة الطبيعية إليها^(١)، ولولا الراهائن التي أدخلوها من كل مدينة، والجزيرة التي فرضوها على غير المسيحيين من أهلها، وحاميات المجدد النورماني التي وضعوها فيها بهدف حمايتها، لصعب على المرء إيجاد الفرق بين وضع هذه المدن قبل الاحتلال وبعده، يقول ابن خلدون في ذلك : (وكان مذهب رجاء ودينه فيما ملك من سواحل إفريقية يقيمهم ويستعمل منهم ويذهب إلى العدل فيهم)^(٢)، ويؤكد ابن مقدش ذلك بقوله إنه بعد الاحتلال (...) وصلت كتب من رجاء لأهل إفريقية بالأمان والمواعيد الحسنة طامعاً في بقاء المسلمين تحت حكمه^(٣)، ولدفع عجلة الحياة وإنعاشها شجعوا على التجارة بين صقلية وإفريقية، وقد أسهمت المدن الإيطالية بنصيب وافر في هذا النشاط لا سيما جنوة خاصة بعد حصولها على امتياز سنة ١١٥٦م من رجاء^(٤)، وقد تحدث كثير من المؤرخين والجغرافيين المسلمين عن ذلك النشاط، فقد ذكر ابن الأثير أن الصقليين والروم (مكان إيطاليا واليونان) قد بدأوا يترددون على طرابلس للتجارة منذ احتلال النورمان لها^(٥)، كما يذكر ابن أبي دينار أن من بين الإجراءات التي قام بها جرجي الأنطاكي حينما احتل المهديّة أنه عمر (المدينتين زويلة والمهديّة ودفع للتجار رؤوس

(١) لمزيد من التفصيل عن إدارة النورمان للمناطق المحتلة انظر : K. Balkhodja : Op. Cit., p.37 - 38.
K. M. Setton : Op. Cit., vol. 2, p.25, D. Douglas : Op. Cit., p.58.

(٢) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ١٦٩.

(٣) ابن مقدش الصفاقسي : المصدر السابق ورقة ١٧٧، انظر كذلك ابن الأثير : المصدر السابق ج ١١ ص ١٢٩، ابن خلدون : المصدر السابق ج ٥ ص ٢٠٤.

D. Abulafia : Op. Cit., p. 108 - 109.

(٤)

D. Abulafia : Ibid, p.109.

(٥)

أموال^(١) مما يدل دلالة واضحة على شدة اهتمام رجار بتنشيط الحركة التجارية في إفريقية وإنعاش اقتصادها، ولزيد من الاستقرار الاقتصادي ضرب في سنة ٥٤٣هـ / ١١٤٨م في المهديّة دنانير شبيهة بالدنانير الإسلامية سواء من ناحية الشكل أو النقوش أو من ناحية الوزن^(٢)، جرى ذلك بعد احتلال المهديّة بقليل، وكان لذلك أثره الحسن على الحياة الاقتصادية بطبيعة الحال إذ أنه وفر مزيداً من الثقة في التعامل التجاري.

ويبرز هنا تساؤل هام عن الدافع لهذه التدابير، وما يلاحظه الباحث حول هذا الموضوع هو المبالغة في الإشادة بهذه التدابير التي يرددها مؤرخو الغرب، حتى إن منهم من يظهر رجار بصورة المنقذ لإفريقية من الخراب والدمار الذي كان قد حل بها، ويكاد يقترب من القول أن ذلك الاحتلال كان نعمة عمّت إفريقية بالخير الوفير دون تقديم تفسير لهذا الأمر، والأمر في نظرنا لا يعدو كونه تعبيراً عن شعور صليبي يستهدف تمجيد الحكم الأوروبي على حساب الحكم الإسلامي. إننا لا ننكر أن هذه التدابير ساعدت على إنعاش إفريقية، ولكن هل نسي أصحاب هذه الأقوال أولاً وقبل كل شيء استنزاف رجار لمقدراتها إبان فترة ما قبل الاحتلال بنهب خيراتها وابتزاز حكامها ثم تدمير العديد من مدنها أثناء الغارات التخريبية التي كان يشنها أمطلوه على تلك المدن كما سبق أن ذكرنا الأمر الذي يجعله السبب الأهم في ما لحق بها من خراب؟ وهل نسوا ما نعمت به إفريقية تحت حكم المسلمين عقب فتحها من أمن واستقرار وازدهار حضاري حتى غدت القيروان مركز إشعاع حضاري في غرب حوض البحر الأبيض المتوسط بأكمله؟ ومهما يكن من أمر، فإن رجار كان هو المستفيد الأول والرئيسي من ثمرة هذه الإجراءات، فقد امتلأت خزائنه بالأموال من عائدات التجارة لا سيما تجارة القمح التي كان يحتكرها، ثم رسوم الموانئ وضرائب الأسواق وعائدات استعانة تدفق الذهب من قلب القارة علاوة على المبلغ الضخم الذي كان يجنيه سنوياً من ضريبة الرأس التي فرضها على غير المسيحيين، وقد كانت هذه الفوائد من الضخامة بحيث أن برغيفيك جعل الغاية من هذا الاحتلال اقتصادية بحتة^(٣)،

(١) ابن أبي دينار : المصنوع السابق من ٩٤ - ٩٥.

(٢) K. Balkhodja : Op. Cit., p. 38. D. Abulafia : Op. Cit., p. 109. M. M. A. Basset : Op. Cit., p. 89.

M. M. A. Basset : Ibid, p. 89.

(٣)

ومع تحفظنا على رأي برنجفيلك الذي تجاهل فيه الأهداف الصليبية الأخرى لهذا الاحتلال، إلا أننا نوافق على أن تحقيق الغاية الاقتصادية كان هدفاً بارزاً من أهدافه.

وخطا رجار خطوة أخرى لها أهميتها في سبيل تدعيم أركان هذا الاحتلال والتي يجد الباحث لها مثيلاً في أسلوب الاستعمار الأوروبي الحديث، إذ شجع على هجرة الصقليين خاصة والإيطاليين عامة إلى إفريقية للاستيطان بها، يقول ابن خلدون في ذلك (... ونادوا في صقلية بالمسير إلى طرابلس فصاروا (فسار) إليها الناس...) ^(١)، ويقول ابن مقديش الصفاقسي إنه بعد احتلال سفاقس ومنع أهلها الأمان ورجوعهم إليها سكن (بالبلد طائفة من النصارى) ^(٢) وقل مثل ذلك بالنسبة لباقي المدن والنواحي المحتلة، ولا يخفى على أحد ما تنطوي عليه هذه الدعوة، فالاستعمار يظل مرعز أركان إن لم يصاحبه المعمر، ذلك أن القوة العسكرية وحدها لا تكفي، فقد تتبدل الظروف في وقت من الأوقات ويحول الانتصار العسكري إلى هزيمة فيقدر من حيث أتى، أما إذا ضرب المعمر جذوراً له في الأرض، حينئذ يصعب اقتلاعه منها، والأمثلة على كلتا الحالتين كثيرة في التاريخ، فموجات التتار مثلاً كانت تبرز انتصارات عسكرية ساحقة وتكسح أقطاراً عديدة، ولكنها كانت تغادرها سريعاً بمجرد تبدل الظروف دون أن تخلف لها ذيولاً، وتعود الشعوب التي كانوا قهرها عسكرياً لممارسة حياتها الطبيعية دون قيود، أما الشعوب التي خضعت للاستعمار الأوروبي مثلاً لأن المعمر كان أحد أركان هذه الاستعمار الثلاثة بالإضافة إلى الجندي والمنصر، صعب عليها التخلص منه واجتثاثه، وعانت الكثير حتى نالت حريتها، وبالرغم من تحررها استمرت ذيول هذا الاستعمار تعاضها لفترة طويلة، فكان رجار بدعته تلك يسمى لتثبيت أركان الاحتلال على أسس راسخة قوية لتحقيق أهداف الحركة الصليبية في إفريقية. ولكن هل خدع أهل إفريقية بالقناع الزائف الذي لبسه رجار واستكانوا للاحتلال؟

(١) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٥ ص ٢٠٢، انظر كذلك الوزير السراج : المصدر السابق ج ١ ق ١ ص ١٢٣، D.Abulafia : Op. Cit., p.85 - 86., N. Daniel : Op. Cit., p.249., K. M. Setton : Op. Cit., vol. 2, p.28

(٢) ابن مقديش الصفاقسي : المصدر السابق ورقة ١٧٧، انظر أيضاً ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ١٦٩.

الثورة وبداية التحوير :

اعتقد رجار أن باحتلاله لإفريقية وبما وضع لها من تدابير قد ضمن بقاءها في ملكه، فأضاف لقب ملك إفريقية (Rex Africa) إلى ألقابه^(١)، ولم يكن يدور بخلده أن صاحب الحق لن يكف عن العمل للوصول إلى حقه، ومات في سنة ٥٤٨هـ / ٢٦ فبراير سنة ١١٥٤م وهو مستغرق في نشوة فتوحاته، ولم يعلم بأن الوضع سيتبدل من بعده، فقد خلفه ابنه وليام الأول الذي لم يكن يتمتع بشيء من صفات أبيه وجده، بل كان (فاسد الدين والتدبير)^(٢)، كما أنه لم يتوفر له أحد من الرجال الأكفاء من ذلك الطراز الذي توفر لأبيه والذين كانوا أركان دولته مثل جرجي الأنطاكي الذي كان قد توفي سنة ٥٤٦هـ / ١١٥١م - ١١٥٢م^(٣)، وعبد الرحمن النصراني وفيليب المهدي وروبرت السليبي (Robert of Salabi) ، ونظراً لضعف شخصيته دب النزاع بين رجالات بلاطه، فقد أثارت تصرفات مايو (Maio of Bari) مدير دولته، سحق قطاعات كثيرة في الإدارة الصقلية لا سيما نبلاء النورمان ورجالات البلاط اليونان واللاتين، ولعل فيما يقوله فيلكاندر الذي صب لعناته على مايو وهجاءه بشتى أنواع الهجاء المقذع وحمله مسؤولية ما حل بالمملكة من كوارث^(٤) يقدم لنا صورة واضحة عن سوء أوضاع دولة وليام، فانتهر أهل جزيرة جربة تلك الأوضاع المضطربة في المملكة وأعلنوا الثورة في سنة ٥٤٨هـ / ١١٥٤م، ولكن وليام أُرسل أسطولاً إلى الجزيرة قمع ثورتها بعنف قتل كثيراً من أهلها وسبى الكثير ليأعوا في سوق الرقيق في صقلية فلم يبق بها إلا الضعفاء ومن لا يلبه بشأنه^(٥)، ولكن ذلك لم يطفئ جذوة الثورة في إفريقية بل بقيت كامنة تنتظر الفرصة، واستمرت أوضاع مملكة النورمان في التردّي، وزاد الحالة سوءاً ظهور مخاطر جديدة تهدد كيانهما، فقد خفت في تلك الآونة حدة التوتر بين الامبراطورين الألماني والبيزنطي الأمر الذي شكل خطراً جسيماً

(١) K. M. Setton : Op. Cit., vol. 2, p.27.

(٢) ابن مقديش الصفاتسي : المصدر السابق ورقة ١٧٧.

D. Douglas : Op. Cit., p.59.

(٣) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٥ ص ٢٠٤، انظر أيضاً

D. Ahulafia : Op. Cit., p.86.

(٤)

(٥) النجاني : المصدر السابق ص ١٢٦، كذلك محمد بوراس الحربي : المصدر السابق ص ١٠١.

على مملكة وليم لأن كليهما كان له مطالب فيها بدأ يعمل للحصول عليها، حتى أشرفت تلك المملكة على الانهيار في سنة ١١٥٥ - ١١٥٦م إذ سيطر البيزنطيون على ساحل الأدرياتيكي من فينسا إلى برانديزي، كما تقدم جيش بابوي في بنفتو (Benvento)، وزاد الطين بلة اشتعال ثورة البارونات في أبوليا من جديد والتي لم تلبث أن امتدت إلى صقلية^(١)، فأدركت إفريقية أن ساعة الخلاص قد حانت فأشعلتها ثورة عارمة على الاحتلال النورماني البغيض.

كانت سفاقس هي السبابة بعد جربة للثورة، ذلك أنه عندما احتلها النورمان ولوا عليها الشيخ أبا الحسن الفرياني^(٢) نظراً لما كان يتمتع به من مكانة سامية في نفوس أهل بلده لسعة علمه ورجاحة عقله وحسن خلقه وصلابته في دينه، فخلوها مدة بسيطة ثم احتزل معتزلاً بكبر سنه، وأشار بتولية ابنه عمر بدلاً منه^(٣)، وفعلاً ولي رجار ابنه عمر وأخذ هو رهينة إلى صقلية من ضمن رهائن سفاقس، ويذكر ابن الأثير^(٤) ويؤيده في ذلك كل من التجاني^(٥) والوزير السراج^(٦) وابن مقديش الصفاقسي^(٧)، أن أبا الحسن قبل مغادرته سفاقس أمر ابنه بالثورة حينما تنهياً له الظروف المناسبة لذلك، وحينما اعترض وأبدى عدم استعداده للتفريط به أجابه بقوله : (يا ولدي أنا كبير السن وقد قارب أجلي فمتى أمكنتك الفرصة في الخلاف على العدو فافعل ولا تراقبهم ولا تنظر إليّ فإنني أقتل واحسب أنني قد مت)^(٨)، وأما ابن خلدون فيروي روايتين عن هذا الموضوع إحداهما تطابق هذه الرواية^(٩)، ومغاد الثانية أن أبا الحسن حينما علم بأن النصارى الذين كانوا يقيمون بسفاقس قد امتدت

(١) K. M. Setton : Op. Cit., vol. 2, 29.

(٢) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٥ ص ٢٠٥، التجاني : المصدر السابق ص ٢٤.
(٣) أما ابن مقديش (المصدر السابق ورقة ١٧٧) فيروي أنه لم يتول سفاقس ويقول إنه عندما طلب النورمان منه ذلك رفض وأشار بتولية ابنه عمر.

(٤) ابن الأثير : المصدر السابق ج ١١ ص ٢٠٣.

(٥) التجاني : المصدر السابق ص ٢٤.

(٦) الوزير السراج : المصدر السابق ج ١ ق ٢ ص ٣٢٢ - ٣٢٣.

(٧) ابن مقديش الصفاقسي : المصدر السابق ورقة ١٧٧.

(٨) ابن مقديش الصفاقسي : المصدر السابق ورقة ١٧٧.

(٩) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٥ ص ٢٠٥.

أيديهم إلى المسلمين وألقوا بهم الضرر كتب إلى ابنه عمر من صقلية بأمره بانتهاز الفرصة
فيهم قتار عمر لوقته سنة ٥٥١هـ / ١١٥٦م^(١).

وأياً كان الأمر فإن عمر أخذ يتأهب للثورة، فأقام مكاناً على هيئة صهريج للماء
شرقي المسجد الجامع كان ينزل إليه الصنائع كل ليلة لصناعة الأسلحة فسمي بعد ذلك
ماجل الصناعة، ووزعت تلك الأسلحة على المسلمين سرّاً^(٢) وفي ليلة الأول من يناير سنة
١١٥٦م وإبان احتفال النصارى في المدينة بالمئنة الميلادية الجديدة، أمر عمر بمهاجمتهم،
وحينما أبدى المسلمون تخوفهم على أبيه قال لهم بأنه هو الذي أمره بذلك (وإذا قتل
بالشيخ ألوف من الأعداء فما مات)^(٣)، فوثبوا من ساعتهم على أعدائهم (فلم تطلع
الشمس حتى قتل الإفرنج عن آخرهم)^(٤)، وتمضي المصادر الإسلامية في وصف ما حدث
بعد ذلك مينة أن وليام حينما علم بهذه الثورة استدعى أبا الحسن وأعلمه بما فعل ابنه
وطلب منه أن يكتب إليه ليردعه ويحثه على الطاعة فرفض الشيخ ذلك قائلاً إن من أقدم
على مثل هذا الأمر لن يرجع عنه بكتاب. فأرسل وليام رسولاً إلى عمر يهدده بقتل أبيه إن
هو استمر في تمرده وعصيانه، وحينما وصل الرسول إلى مفاقر أدرك عمر الغرض من
قدومه فرفض استقباله في ذلك اليوم ولم يمكنه من دخول البلد، وفي صبيحة اليوم التالي
خرج أهل مفاقر بأجمعهم من باب البحر يحملون نعشاً على مرأى من الرسول، فتقدم
عمر وصلى على النعش ثم دفنوه وعزاء الناس وانصرفوا والرسول يشاهد كل ذلك، ولما
طلب الرسول مقابلته قيل له إنه مشغول بالعزاء في والده الذي بصقلية والنعش الذي رأيت
نعشه وقد عزم على موته والسלו عنه^(٥)، فعاد إلى صقلية وأخبر وليام بما حدث فلم يجد
هذا ما يظن به نار غيظه إلا الشيخ أبا الحسن، فسحب إلى المنشقة وشتق وهو يتلو القرآن

(١) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ١٦٩.

(٢) لمزيد من التفصيل انظر التجاني : المصدر السابق ص ٧٤، ابن مقديش الصفاقسي : المصدر السابق
ورقة ١٧٧ وما بعدها، الوزير السراج : المصدر السابق ج ١ ق ٢ ص ٣٣٢.

(٣) التجاني : المصدر السابق ص ٧٤، ابن مقديش الصفاقسي : المصدر السابق ورقة ١٧٧.

(٤) التجاني : المصدر السابق ص ٧٤، ابن مقديش الصفاقسي : المصدر السابق ورقة ١٧٧.

(٥) التجاني : المصدر السابق ص ٧٥، انظر كذلك ابن الأثير : المصدر السابق ج ١١ ص ٢٠٤، ابن
خلدون : المصدر السابق ج ٥ ص ٢٠٥، ابن مقديش الصفاقسي : المصدر السابق ورقة ١٧٧.

حتى فازت نفسه^(١). وبذلك نجحت سفاقس في تحرير نفسها.

كان نجاح ثورة سفاقس (سبباً في انتفاض سائر بلاد الساحل)^(٢) على التورمان، إذ ما لبثت الثورة أن امتدت إلى جربة وقرقة^(٣) وطرابلس سنة ٥٥٣هـ / ١١٥٨م التي تزعم ثورتها وبها أيضاً رافع بن مطروح، إذ يقول ابن خلدون إنه (مضى في وجه الناس وأعيانهم وداخلهم في الفتك بالنصارى فاجتمعوا لذلك وثاروا بهم وأحرقوهم بالنار)^(٤)، ثم ثار محمد بن رشيد في قابس^(٥)، وأخيراً لم يبق تحت حكم التورمان إلا زويلة والمهديّة، فأرسل عمر بن أبي الحسن الفرياني إلى أهل زويلة يحرضهم على الثورة والوثوب (على من معهم فيها من النصارى ففعلوا ذلك)^(٦). وعندما علم الأعراب الهلالية بثورة زويلة قدموا إليها لإعانة أهلها فاشتد مساعد هؤلاء بهم، كما قدم لنصرتهم جمع من أهل سفاقس بعث بهم الشيخ عمر، ففكر عدهم فزحفوا إلى المهديّة وحاصروها في شوال سنة ٥٥١هـ / ١١٥٦م، وقطعوا عنها الميرة وضيقوا عليها^(٧)، وحينما قلت الأقوات بها استنجدت حاميتها بوليام فأرسل إليهم أسطولاً من عشرين قطعة مشحونة بالطعام والجند والسلاح، وبفهم من رواية ابن مقديش الصفاقسي^(٨) أن التورمان استمالوا بعض ضعاف النفوس من الأعراب فبيتوا الغدر بإخوانهم من المسلمين، وحينما اطمان التورمان لاستجابة هؤلاء الحونة

(١) التجاني: المصدر السابق ص ٧٥، ابن الأثير: المصدر السابق ج ١١ ص ٢٠٤ (ويذكر أنه صلب حتى مات)، ابن خلدون: المصدر السابق ج ٦ ص ١٦٩، ابن مقديش الصفاقسي: المصدر السابق ورقة ١٧٧.

(٢) التجاني: المصدر السابق ص ٧٥، ابن مقديش: المصدر السابق ورقة ١٧٧.

(٣) ابن خلدون: المصدر السابق ج ٦ ص ٦٩، ابن مقديش: المصدر السابق ورقة ١٧٧.

(٤) ابن خلدون: المصدر السابق ج ٦ ص ١٦٨، انظر كذلك ابن مقديش الصفاقسي: المصدر السابق ورقة ١٧٧، النائب الأنصاري: المصدر السابق ص ١٢٨ (ويذكر أن ذلك تم في سنة ٥٥٥هـ وهو وهم منه والأصح ما أثبتناه في المتن بدليل باقي الروايات)، الطاهر الزاوي: المرجع السابق ص ٢٣٤.

(٥) ابن الأثير: المصدر السابق ج ١١ ص ٢٠٤، ابن مقديش: المصدر السابق ورقة ١٧٨.

(٦) ابن الأثير: المصدر السابق ج ١١ ص ٢٠٤، ابن مقديش: المصدر السابق ورقة ١٧٨.

(٧) ابن الأثير: المصدر السابق ج ١١ ص ٢٠٤، ابن عناري: المصدر السابق ج ١ ص ٢١٦، ابن خلدون:

المصدر السابق ج ٥ ص ٢٠٥، ابن مقديش الصفاقسي: المصدر السابق ورقة ١٧٨.

(٨) ابن مقديش الصفاقسي: المصدر السابق ورقة ١٧٨.

لهم وأحكموا التدبير، خرجوا من المهديّة لقتال المسلمين، وعندما احتدمت المعركة نفذ أولئك النفر ما تم الاتفاق عليه من الغدر فأظهروا الهزيمة وتبعهم بعض من ذهل من هزيمتهم بينما ثبت الباقون في ساحة القتال، ولما تكاثر النورمان عليهم واستمر القتل فيهم يادر أهل سفاقس إلى مراكزهم وأقلعوا بها عائدين إلى بلدهم، وتراجع الباقون حتى وصلوا زويلة، فعاجلهم النورمان عنها، فأغلق من بها أبوابها خشية دخول النورمان عليهم، فلما وجد المسلمون أبواب زويلة مغلقة ومعظمهم كانوا من أهلها، لم يكن أمامهم إلا الاستماتة في القتال، فقاتلوا النورمان تحت أسوارها قتالاً شديداً فقتل منهم خلق كثير وتفرق الباقون، وشدد النورمان هجومهم على زويلة حتى اقتحموها، قتلوا كثيراً من أهلها ونهبوها^(١)، وبذلك قضت ثورة زويلة وخضعت للنورمان من جديد، ولكن نفراً ممن كبت لهم النجاة من أهلها ذهبوا إلى الخليفة الموحيدي عبد المؤمن بن علي في مراكش وشكوا إليه ما حل ببلدهم وطلبوا منه النصرة^(٢).

الموحيدين واستكمال التحرير :

نلاحظ مما تقدم أن الثورة قد عمت إفريقية وأن معظم الجهات المحتلة منها قد تحررت قبل زحف عبد المؤمن بن علي إليها، لذلك يخطئ من يظن أن عبد المؤمن هو الذي تولى وحده عبء تحريرها، صحيح أن فكرة تحريرها كانت تعتمل في أعماق نفسه، لكن المشاكل التي كانت تواجهه كانت تفرض عليه تأجيل تنفيذها، فقد كان عليه أن يدعم جبهة الأندلس التي كانت أوضاعها لم تستقر بعد برغم الجهود التي بذلها في سبيل ذلك منذ قضائه على دولة المرابطين، فكان التصاري وحليفهم ابن مردنيش وابن همشك لا يزالون يهددون تلك الجبهة ويشكلون خطورة كبيرة عليها، ثم كان عليه أن يتخلص من الدولة الحمادية التي استقبلت فلول المرابطين وأخذت تناصبه العداء لا سيما وأنها كانت تشكل حاجزاً بينه وبين

(١) ابن الأثير : المصدر السابق ج ١١ ص ٢٠٥، ابن خلدون : المصدر السابق ج ٥ ص ٢٠٥، ابن مقديش

الصفاسقي : المصدر السابق ورقة ١٧٨.

(٢) ابن الأثير : المصدر السابق ج ١١ ص ٢٠٥، ص ٢٤٤، ابن عشاري : المصدر السابق ج ١ ص ٣١٦،

شارل أنفري جوليان : المرجع السابق ج ٢ ص ١٤٢.

إفريقية، كما كان عليه أن ينهي تمرد وعصيان الأعراب الهلالية في المغرب الأوسط الذين كانوا يفضلون الحياة المستقلة على الانضواء في نطاق دولته، خاصة وأن رجار الذي كان يدرك مقدار خطورة الموحديين على ممتلكاته في إفريقية حاول التحالف مع هؤلاء الهلالية للتصدي للموحديين، فعرض عليهم أن يمدهم بخمسة آلاف فارس لمساعدتهم على مقارعة عبد المؤمن على أن يعطوه رهائن منهم فرفضوا^(١)، لذلك أثر عبد المؤمن التغلب على هذه المشاكل أولاً ثم التوجه بعد ذلك إلى إفريقية، ومرت بضع سنوات تمكن فيها من تذليل تلك الصعوبات، حيث أعاد الهدوء التسمي إلى الأندلس وانتصر على الهلالية في موقعة سطيف سنة ٥٤٧هـ / ١١٥٢م فلانت له عريكتهم كما سبق أن ذكرنا، كما قضى على الدولة الحمادية وضم المغرب الأوسط إلى دولته، وقد حاول ابنه عبد الله المضني ثمرقاً في فتوحاته إثر ذلك فحاصر تونس التي كان يتولاها ابن خراسان، ولكنه اضطر للارتداد عنها سنة ٥٥٢هـ / ١١٥٧م، ومع ذلك فقد امتدت حدود دولة الموحديين شرقاً إلى قرب تونس.

وفي تلك الآونة وصل إليه أولئك النفر من زويلة يستنجدون به على التورمان وأطلعوهم على أوضاع المسلمين مع العدو (فأثر فيه كلامهم تأثيراً عظيماً حتى دعت عباه وأطرق ملياً وأخذته غيرة الدين وغبضة الإسلام وعزة الله فرفع رأسه وقال أبشروا لأنصركم إن شاء الله ولو بعد حين)^(٢)، وأمر من وقته بالبدء في الاستعداد للمسير إلى إفريقية، ولما كان يدرك طول المسافة بين مراكش والمهدية وحاجة الجيش للزاد والمياه خلال هذه الطريق، فقد أمر عماله بحفظ ما يحصل من الغلات وأن يترك في سنبله ويخزن في مواضعه وأن يحفروا الآبار على طول الطريق^(٣)، فلما تم ذلك وجمعت غلات ثلاث سنوات نادى في أنحاء المغربين الأقصى والأوسط بالجهاد فوافقه جموع المجاهدين من كل ناحية، ولما تكامل هذا الجيش الذي قدرته بعض المصادر الإسلامية بمائة ألف فارس وأما الرجالة فلا يحصون كثرة^(٤)

(١) K. M. Setton : Op. Cit., vol. 2, p.28.

(٢) ابن مقديش الصفاقسي : المصدر السابق ورقة ١٧٧، انظر كذلك ابن الأثير : المصدر السابق ج ١ ص ٢٤١.

(٣) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٥ ص ٢٠٦، ابن مقديش الصفاقسي : المصدر السابق ورقة ١٧٧ - ١٧٨.

(٤) ابن الأثير : المصدر السابق ج ١ ص ٢٤٢، انظر عن ذلك أيضاً ابن عسار : المصدر السابق ج ١ =

خرج من مراكش في صفر سنة ٥٥٤هـ / ١١٥٩م وكان أسطوله في البحر يحاذيه في سيره وقد بلغ عدد قطعه (٧٠) قطعة مختلفة الأحجام والأشكال بقيادة محمد بن عبد العزيز بن ميمون من البيت المشهور في قيادة البحر، وابن الخراط وأبي الحسن الشاطبي وغير هؤلاء ممن هم مثلهم في المعرفة والشهرة^(١)، وقد أثار هذا الجيش إعجاب أهل إفريقيا بحسن انضباطه، إذ كان يمر بالمزارع في الطريق الضيق فلا تقطع سنبلة واحدة، كما كان يصلي الصلوات الخمس بإمام واحد وتكبير واحدة^(٢)، وكان عبد المؤمن كلما مر بحي من أحياء العرب بادروا بالانضمام إليه^(٣) حتى نزل على تونس، وحينما رأى أهلها عدم جنوى مقاومته استسلموا له فأقام بها ثلاثة أيام ثم ارتحل عنها إلى المهديّة.

وصل عبد المؤمن إلى المهديّة ضحوة يوم الأربعاء الثاني عشر من رجب سنة ٥٥٤هـ / ١١٥٩م فنزل في زويلة التي كان النورمان قد أدخلوها وتحصنوا بالمهديّة حينما سمعوا بقدومه^(٤)، وتذكر بعض المصادر الإسلامية أن عبد المؤمن طاف حول المهديّة بأحد مرافقيه يرافقه الحسن بن علي الزيري آخر أمراءها الزيريين وذلك لمعانة تحصيناتها فهاهنا ما رأى من مناعتها، فقال للحسن كيف نزلت من هذا الحصن فأجابه بقوله لقلّة من يوثق به وعدم القوة وحكم القدر^(٥) وتبين لعبد المؤمن أنها لا تؤخذ إلا بالمطاولّة في الحصار، فحاصرها براً وبحراً ونصب عليها المجانيق وأخذ يرأبها القتال ليلاً ونهاراً، وعندما سمعت المدن الإفريقية التي تحررت من رقة الاحتلال بنزول عبد المؤمن على المهديّة أرسلت وفودها إليه

= ص ٣١٦، ابن خلدون : المصدر السابق ج ٥ ص ٢٠٦، ج ٦ ص ٢٣٧، ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ١١٥، ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ص ١٩٨، ابن أبي دينار : المصدر السابق ص ١١٦، الوزير السراج : المصدر السابق ج ١ ص ٤٧٩.

(١) ابن مقديش الصفاقسي : المصدر السابق ورقة ١٧٨، الوزير السراج : المصدر السابق ج ١ ق ٢ ص ٤٨٠.
(٢) ابن الأثير : المصدر السابق ج ١ ص ٢٤٢، ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ص ١٩٨، الوزير السراج : المصدر السابق ج ١ ق ٢ ص ٤٨٠، ابن مقديش الصفاقسي : المصدر السابق ورقة ١٧٨، الباجي المسعودي : المصدر السابق ص ٥٥.

(٣) الوزير السراج : المصدر السابق ج ١ ق ٢ ص ٤٨٠، ابن مقديش الصفاقسي : المصدر السابق ورقة ١٧٨.
(٤) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٥ ص ٢٠٥ ابن مقديش الصفاقسي : المصدر السابق ورقة ١٧٨.
(٥) انظر ابن الأثير : المصدر السابق ج ١١ ص ٢٤٣، ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ١١٥، ابن مقديش الصفاقسي : المصدر السابق ورقة ١٧٨ - ١٧٩، الباجي المسعودي : المصدر السابق ص ٥٥.

بيعتها وإعلان ولائه إليه فأكرمها وبرها^(١)، كما أرسل بعض سراياه إلى النواحي الأخرى المتردة فأنابت إلى الطاعة وبذلك استبرأ إفريقية من داء الفرقة الذي جر عليها الوال.

إما وليام ملك صقلية، فإنه عندما علم بحصار عبد المؤمن للمهدية، أرسل أسطولاً من مائة وخمسين قطعة حربية لتجديتها، ولما وصل ذلك الأسطول إلى مياها خرج إليه أسطول الموحدين واشتبك معه في معركة بحرية هائلة على رأى من عبد المؤمن الذي كان أثناء احتدام تلك المعركة (يعرغ وجهه على الأرض ويكي ويدعو للمسلمين بالنصر^(٢))، وأخيراً ولي الأسطول النورماني هارباً فتيحه الأسطول الموحدى إلى عرض البحر وأسر سبعة من قطعه علاوة على ما كان قد فقده ذلك الأسطول في المعركة، وحينما رأى النورمان في المهدية هزيمة أسطولهم أسقط في يدهم وأيقنوا بسوء العاقبة، ولم يعاود وليام إرسال نجدة ثانية، إذ أنه على ما يبدو أدرك عدم الجدوى من ذلك، وآثر عدم التورط في حرب مع الموحدين في وقت كانت فيه مملكته أحرص ما تكون على الاحتفاظ بقواها لمجابهة فردريك ببروسا امبراطور ألمانيا الذي كان يهدد وجودها بالخطر^(٣)، ومع ذلك فلم تجر الأمور بسهولة على عبد المؤمن إذ أن النصارى الإسبان أثناء حصاره للمهدية أوعزوا لحليفهم وصنيحتهم ابن مردنيش للضغط على الموحدين في الأندلس فخرج من فورهِ على رأس جيش كبير أكثره من نصارى قشتالة ودهم مدينة جيان الموحدة على حين غفلة من أهلها واستولى عليها^(٤)، وكان هدفهم من ذلك إجبار عبد المؤمن على فك الحصار عن المهدية، وهذا يقدم لنا دليلاً آخر على الارتباط الوثيق بين فروع الحركة الصليبية في مختلف جبهات الصراع الإسلامي الصليبي، ولكن ذلك لم يرد عبد المؤمن إلا عناداً وإصراراً على فتح المهدية، فشدد عليها الحصار وأنهك حاميتها بالقتال الشديد حتى أدركت تلك الحامية عيب المقاومة وأنه لا

(١) ابن خلدون: المصدر السابق ج ٥ ص ٢٠٦، ج ٦ ص ١٦٨، الزركشي: المصدر السابق ص ١٢.

(٢) ابن مقدش: المصدر السابق ورقة ١٧٩، ابن الأثير: ج ١١ ص ٢٤٤، ابن الخطيب: الحلل الموفية ص ١١٧، ابن خلدون: المصدر السابق ج ٥ ص ٢٠٦.

(٣) شارل أندري جوليان: المرجع السابق ج ٢ ص ١٤٤، انظر كذلك:

K. M. Setton Op. Cit., vol. 2, p.31., D. Abulafia: Op. Cit., p.123.

(٤) ابن عذاري: المصدر السابق ج ٣ ص ٤٠، انظر كذلك د. عبد الله علام: المرجع السابق ص ١٩٠ - ١٩١.

مفر من التسليم فدخلت معه في مفاوضات لهذا الغرض، وكان وليام أثناءها حسب ما تذكره بعض الروايات الإسلامية يهدد بقتل كافة المسلمين في صقلية إذا قتل عبد المؤمن نورمان المهدي^(١)، ولعل ذلك كان هو السبب الذي جعل عبد المؤمن يقبل بما عرضه عليه النورمان في أن يسلموه المدينة على أن يسمح لهم بالخروج منها بأموالهم، وأياً كان الأمر فقد سمح لهم بالرحيل، بل وزودهم بسفن لتقلهم، إلى صقلية وكان الوقت شتاء فهبث عليهم عاصفة في الطريق دمرت معظم تلك السفن ومات معظمهم غرقاً في البحر^(٢). ودخل عبد المؤمن المدينة صباح يوم عاشوراء من محرم سنة ٥٥٥هـ / ٢٢ يناير سنة ١١٦٠م، بعد حصار دام ستة أشهر وتسعة أيام^(٣) وأقام بها عشرين يوماً ينظم أمرها وولي عليها والياً من قبله ضم إليه الحسن بن علي الزيري أميرها السابق لمساعدته، ثم قفل عائداً إلى مراكش، وبذلك تم توحيد المغرب العربي بأكمله والأندلس في دولة واحدة تحت راية الموحدين. أما نصارى صقلية فكان وقع سقوط المهدي عليهم شديداً فدبروا للمسلمين مذبةحة بلمرة سنة ١١٦٠م كما تقدم ذكره.

* * *

منذ أن انضوت إفريقية تحت لواء الدولة الموحدية هدأت حدة الصراع الإسلامي الصليبي في جبهتها نسبياً، وجمدت الحركة نشاطها فيها خوفاً من سطوة الموحدين، فلم توجه لها حملات صليبية كبيرة على غرار الحملات السابقة، واقتصرت نشاط الصليبيين فيها على غارات كان يشنها قراصنتهم على بعض نواحيها كلما واتتهم الفرصة^(٤)، ولكن

(١) ابن مقديش الصفاقسي : المصدر السابق ورقة ١٧٩.

(٢) ابن الأثير : المصدر السابق ج ١١ ص ٢٤٥، ابن خلدون : المصدر السابق ج ٥ ص ٢٠٦، ابن الخطيب : الحلال الموشية ص ١١٨ - ١١٩.

(٣) الزركشي : المصدر السابق ص ١١ - ١٢، أبو الفتح : المصدر السابق ج ٣ ص ٣٤، ابن عذاري : المصدر السابق ج ٣ ص ٣٩ (ويذكر أن الحصار دام سبعة أشهر)، الباجي المسعودي : المصدر السابق ص ٥٦، انظر كذلك د. أحمد مختار العبادي، د. السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ٢٥١ - ٢٥٢، د. إبراهيم العدوي : المرجع السابق ص ٢٨٩، أحمد بن عامر : المرجع السابق ص ٤٦.

(٤) ذكر ابن عذاري أمثلة عديدة على هذه الغارات مثل الهجوم الذي تعرضت له المهدي سنة ٥٥٨هـ وعرف بكافة السبت لمعوك في يوم السبت، والغارة على سوسة في تلك الآونة والتي تمكن

جبهتها الداخلية لم تخلد للسكينة، إذ نظراً لبعدها عن مركز الدولة بقيت أرضاً طيبة للقتال والفن، والتي كان منها ما هو داخلي^(١) يثيرها بعض الطامعين وبعض الهلاليين، ومنها ما كان بفعل مؤثرات خارجية كتشايط قراقوش التقوى في جهاتها الشرقية، وبني غانية الذين فجروا فيها ثورة دامت مدة طويلة استنزفت قسماً وافراً من جهود وإمكانات الدولة الموحدية. وما زاد في خطورة هذه الثورة التي شملت إفريقيا وقسماً كبيراً من المغرب الأوسط أنه كان لها ارتباط بقراقوش التقوى من ناحية وبعض القوى الصليبية من ناحية أخرى، ولم تكن نارها تحبو حتى تشب من جديد، لذلك فإن هذه الفن التي كانت تدور في أرض إفريقية وضعت الدولة الموحدية بين ناري الأندلس وإفريقية، إذا هدأت الأولى اشتعلت الثانية، وتبعاً لذلك توزعت جهود خلفائها بين القطرين، وكان الأجدر أن توجه كافة الجهود لدعم جبهة الأندلس، ولهذا اضطر بعض خلفاء الموحدين لمسألة النصارى الإسبان أكثر من مرة للتفرغ إلى إفريقية، من ذلك ما ذكره ابن الأثير عن أبي يوسف بن يعقوب المنصور أنه أقام مجاهداً في الأندلس (ثلاث سنين) انقطعت أخباره عن إفريقية، فقوي طمع علي بن إسحق الملثم الميورقي، وكان بالبرية مع العرب، فعاد قصد إفريقية فانيث جنوده في البلاد فخرّبوها، وأكثروا الفساد فيها، فمحيث آثار تلك البلاد وتغيرت، وصارت خالية من الأنيس، خاوية على عروشها، وأراد المسير إلى بجاية ومحاصرتها وأظهر أنه إذا استولى على بجاية سار إلى المغرب، فوصل الخبر إلى يعقوب بذلك فصالح الفرج على ما ذكرناه، وعاد إلى مراكش عازماً على قصده، وإخراجه من البلاد، كما قفل سنة إحدى وثمانين وخمسائة^(٢)، وتوفي المنصور وخطر بني غانية كان لا يزال جاثماً على إفريقية، وتبين للناصر بن المنصور الذي خلف أباه في الحكم أثناء وجوده في إفريقية لمواجهة فتنة ابن غانية عدم فعالية هذه الزخوف، إذ كان من سبقه من الخلفاء ما يكاد يغادرها إلى المغرب الأقصى حتى تنور الفتنة فيها من جديد، فرأى أن من الأفضل

= القراصنة من احتلالها ولم يخرجوا منها إلا بعد أن نهبوا جميع ما فيها، والغارة على المهديّة سنة ٥٧٣ هـ والتي عرفت بكاتنة يوم الجمعة وغيرها. (انظر ابن عذاري : المصدر السابق ج ١ ص ٣١٦).

(١) عن ذلك انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج ٥ ص ٢٠٦ وما بعدها.

(٢) ابن الأثير : المصدر السابق ج ١٢ ص ١١٦.

إسناد أمرها إلى شخصية قادرة تمنح حرية التصرف لمعالجة الأمور من قبل تفاقمها، لذلك وبعد أن ألحق بابين غانية هزيمة ساحقة وألجأه إلى الصحراء ولى عليها سنة ٦٠٣هـ / ١٢٠٦م وقيل سنة ٦٠٢هـ / ١٢٠٥م^(١) أبا محمد عبد الواحد بن الشيخ أبي حفص أحد رجالات الدولة البارزين، الذي استطاع خلال الثلاث سنوات التي أقامها والياً عليها أن يعيد الهدوء إلى ربوعها، عاد بعدها إلى المغرب الأقصى مؤثراً ذلك على البقاء فيها، ولكن ابنه أبا زكريا يحيى هو الذي سيؤسس الدولة الحفصية فيها بعد ذلك بفترة وجيزة.

ذلك أنه عندما دخلت الدولة الموحدية طور الاعتلال إثر الهزيمة التي لحقت بالخليفة الناصر في موقعة العقاب بالأندلس سنة ٦٠٩هـ / ١٢١٢م^(٢) أخذت إفريقية تتجه نحو الاستقلال، ثم جاء إعلان المأمون الموحي بطلان مهدوية ابن تومرت ليقطع آخر الروابط بين إفريقية والدولة الموحدية إذ استنكر واليها أبو زكريا آنف الذكر إعلان المأمون وأعلن تمسكه بالمبادئ الموحدية وقطع آخر ما كان يربطه بالخلافة الموحدية وشرع في لمساء قواعد الدولة الحفصية المستقلة، وكان بنو مرين قد بدأوا آنذاك يظهرون كقوة تضغط على الموحيين في المغرب الأقصى، وانفرد بنو زيان أصحاب تلمسان بالمغرب الأوسط، وتمخضت حوادث الأندلس عن تأسيس دولة بني الأحمر في غرناطة، وبذلك حينما سقطت الدولة الموحدية سنة ٦٦٨هـ / ١٢٦٩م كان قد قام على أنقاضها أربع دول، وتمزق المغرب الإسلامي من جديد، فنشطت الحركة الصليبية محاولة الاستفادة من هذه الظروف، ووجهت إلى إفريقية حملة صليبية ضخمة قادها لويس التاسع ملك فرنسا هي التي ستعرض لها بالتفصيل في الباب التالي.

(١) انظر ابن القاضي : جذوة الاقباس ج ١ ص ٢٠٧.

(٢) عن هذه الموقعة انظر ابن علقري : المصدر السابق ج ٣ ص ٢٤١ وما بعدها.

الكتاب الثاني

حملة لويس التاسع على إفريقية

﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُظِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾.

[سورة آل عمران : آية ٦٩]

﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدَّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

[سورة البقرة : آية ٢١٧]

نشاط لويس التاسع الصليبي

بعد فشل حملته على مصر

(محاولات تدعيم صرح منهار - نذر الكارثة - الدعوة إلى حملة صليبية جديدة -
الظاهر يبرس والحملة الصليبية الجديدة - بين المستنصر الحفصي ولويس التاسع - إفريقية
طريق إلى بيت المقدس)

محاولات تدعيم صرح منهار :

يعتبر فشل حملة لويس التاسع على مصر سنة ٦٤٧ - ٦٤٨ هـ (١٢٤٩ - ١٢٥٠ م) المعروفة بالحملة الصليبية السابعة نقطة تحول في اتجاه الحركة الصليبية، فقد كان ذلك الفشل سبباً مباشراً وهاماً في زعزعة أركان الكيان الصليبي في المشرق، ذلك أن هزيمة لويس التاسع في مصر لم يترتب عليها حرمان ذلك الكيان من النجدة الغربية التي ظل يعني نفسه بها لتدعيم وجوده في المشرق فحسب، بل ذهب ضحيتها أيضاً عدد كبير من فرسان الشام وقبرص ومحاربي الداوية والاستبارية مما جعل الصليبيين في الشام بالذات يعيشون تحت رحمة ما تتمخض عنه الظروف والحوادث^(١)، وكان لويس التاسع من أكثر الصليبيين إحماساً بفداحة هذا الخطب، فعلاوة على أن فضيحة الهزيمة وعار الأسر قد لطمخا سمعته، كان يعتقد أنه المسؤول الأول عما لحق ببلاده خاصة، وبأوروبا الغربية بصفة عامة من الكوارث، لذلك رأى أنه لا بد من القيام بعمل ما، يحقق به مكسباً ولو بسيطاً يعيد إليه ماء وجهه، ولهذا لم يتجه إلى بلاده مباشرة بعد إطلاق مراحمه من الأسر إثر معاهدة الصلح التي

(١) انظر عن ذلك ابن خلدون : المصدر السابق ج ٥ ص ٣٦١، القرطبي : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٣٦٢، د. معبد عائور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٠٨٤، د. جوزيف نهم يوسف : لويس التاسع في الشرق الأوسط ص ٧٠، د. معبد عائور : العصر المماليكي في مصر والشام ص ٥٦.
Rothlin : Continuation de Guillaume de Tyre dite du manuscrit de Rothelin. II, p.622.
R. Grousset : Histoire des Croisades et du Royaume France de Jerusalem.

عقدتها مع المماليك في ٦ مايو سنة ١٢٥٠م / ٦٤٤٨هـ^(١)، بل فضل الاتجاه إلى عكا لتدبير أمره، وليبقى قريباً من الحوادث الهامة التي كانت تلور في منطقة الشرق الأوسط في تلك الآونة؛ وليس في المصادر التاريخية الغربية أو الشرقية ما يدل على الوقت الذي اتخذ فيه ذلك القرار، وإن كانت هنالك بعض الدلائل تشير إلى أنه فكر في هذا الأمر طويلاً إبان أسرته بدليل اتجاه زوجته التي كانت قد غادرت مصر قبله إلى عكا، إذ لولا هذه النية لأبحرت إلى بلادها مباشرة^(٢)، وأما العوامل التي دفعت إلى ذلك فكانت عديدة، منها ضرورة قيامه بأي عمل من شأنه أن يرد إليه ولو جزءاً قليلاً من اعتباره كما سبق أن ذكرنا، ثم ليطمئن على تخلص رجاله وجنده الذين ظلوا أسرى في مصر والذين بلغ عددهم حوالي أربعة عشر ألف أسير^(٣)، ثم شوب نار الفتنة بين المماليك حكام مصر الجند وأمرأ البيت الأيوبي في الشام مما أعطاه الأمل في التدخل لتحقيق مكاسب على حساب الفريقين المتنازعين، هذا فضلاً عن تردي أوضاع الصليبيين في بلاد الشام وشعوره بضرورة العمل على تدعيم كياناتهم الآيل للانهايار، ثم الأمل الذي كان يعلقه على الاستفادة من قوة التار الجبارة التي كانت قد أخذت تكتسح العالم الإسلامي من الشرق، لكل ذلك ما أن أطلق سراحه وغادر دياط في ٨ مايو سنة ١٢٥٠م / ٦٤٤٨هـ حتى اتجه إلى عكا حيث وصلها في ١٣ مايو سنة ١٢٥٠م / ٦٤٤٨هـ^(٤).

كان الصليبيون في بلاد الشام وقتئذٍ أحوج ما يكونون إلى زعيم قوي يجمع شملهم، ويحل مشاكلهم، وينظم صفوفهم، ويث فيهم روح الثبات والعزيمة، لذلك رحبوا بالملك الفرنسي ترحيباً كبيراً^(٥)، وعقدوا عليه الآمال في إنقاذهم مما كانوا فيه من الضعف

(١) لمزيد من التفاصيل عن هذا الموضوع انظر د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية، ج ٢ ص ١٠٨٣، د.

جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ص ٧٠. H. E. Mayer : Op. Cit., p.255.

(٢) انظر د. جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ص ٧٠.

R. Grousset : Op. Cit., Tom III, p.494.

(٣)

(٤) د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٠٨٤، انظر أيضاً :

Nangis : Vita Sancti Ludovici regis franciae, XX, p.383., R. Grousset : Ibid, Tom III, 493.

د. جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ص ٧٠.

(٥) لمزيد من التفصيل انظر Rothelin : Op. Cit., T. II, p.619 - 621 Joinville: The life of Saint Louis, p.266. R. Grousset : Ibid, Tom III, p.493. H. E. Mayer : Ibid, p.264 - 271.

الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٠٨٤ - ١٠٨٥، د. جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ص ٦٩، =

والانقسام واليأس، حتى إن منهم من اعتبر أن عودته سالماً في ذلك الوقت نصراً كبيراً^(١)، وطوال السنوات الأربع التي قضاها في الشام (مايو سنة ١٢٥٠ - إبريل سنة ١٢٥٤م) بذل جهوداً مضنية في سبيل تحقيق أهدافه الصليبية. لقد وقف وسط القوى المتصارعة في المنطقة يصانع قوة ويهدد أخرى ويلوح لثالثة بالاتفاق مع خصومها كل ذلك لتسخيرها لتحقيق أهدافه. وقد سارت سياسته خلال تلك الفترة في أربع اتجاهات تلقي كلها لتحقيق الهدف المنشود هي الاستفادة من الصراع المملوكي الأيوبي^(٢)، وكسب دعم القوى الصليبية الأوروبية المادي والمعنوي في تشكيل حملة صليبية تلحق به في المشرق، والاحتفاظ بالكيان الصليبي في بلاد الشام، وأخيراً السعي لكسب التآزر إلى الجانب الصليبي وإقامة حلف معهم ضد المسلمين^(٣)، ولكن على الرغم من الجدية التي انتصفت بها جهوده في الشرق طوال هذه السنوات الأربع، فإنها لم تسفر عن نتائج إيجابية حاسمة لأسباب خارجة عن إرادته، إذ لم يستطع استغلال النزاع بين الممالك والأيوبيين إلى الحد الذي كان يشتبه بسبب تدخل الخليفة العباسي المستعصم بالله لفض النزاع بين الطرفين، واقتصرت نتيجة جهوده في هذا الاتجاه على إحراز مكاسب محدودة تمثلت في إعفائه من نصف القدية المتبقي عليه وإطلاق سراح عدد من جنده الأسرى^(٤)، كما أنه لم يتمكن من القضاء نهائياً على أسباب النزاع بين الصليبيين في المشرق، وإن كان قد نجح في تهدئة الوضع طوال مدة إقامته في الشام، ذلك لأن أسباب الشقاق والنزاع التي أدت بدورها بهم إلى الضعف كانت أقوى وأعمق جذوراً من أن يستطيع القضاء عليها^(٥)، فضلاً عن أنه أحرز نجاحاً محدوداً في مسيل تنظيم

= د. سعيد عاشور : العصر للمالكي في مصر والشام ص ٥٦ .

(١) Rothelin : Op. Cit., Tom II, p.621., R. Grousset : Op. Cit., Tom III, p.494.

د. جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ص ٦٩ .

(٢) R. Grousset : Ibid, Tom III, p.497.

(٣)

R. Grousset : Ibid, Tom III, p.497.

(٤)

(٤) لمزيد من التفصيل عن هذا الموضوع انظر د. جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ص ١٥٦ - ١٥٧، د.

سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٠٨١، د. سعيد عاشور : العصر للمالكي في مصر والشام ص ٥٧

R. Grousset : Ibid, Tom, III, p.503., H. E. Mayer : Op. Cit., p.256.

(٥) لمزيد من التفصيل عن هذا النزاع وجهود لويس التاسع في القضاء عليه انظر د. سعيد عاشور : الحركة

الصليبية ج ٢ ص ١١٠٥ وما بعدها، د. جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ص ٢٨٦ - ٢٧٨ .

الدفاع عن باقي ممتلكاتهم آنذاك تمثل في تجديد تحصينات بعض مدنها الهامة مثل عكا وحيفا وقيسارية ويافا وصور وصيدا^(١)، وفشلت مساعيها في التحالف مع التتار ضد المسلمين^(٢)، ذلك لأن التتار على ما يبدو كانوا يريدون أن تكون كلمتهم هي العليا فيما يتعلق بالعالم الإسلامي وأنهم بالتالي لم يكونوا يرغبون في القيام بنور التابع للحركة الصليبية في تنفيذ هذه السياسة، ولذلك لم تترجم أفكار لويس التاسع والحركة الصليبية في هذا المجال إلى أعمال وبقيت فكرة هذا التحالف في عداد الأمانى، خاصة بعد أن فشلت بعثات التنصير في جذب التتار للمسيحية ليصبح الدين أساساً لهذا الحلف. ولم يكن من المنتظر أن تسفر اتصالاته مع القوى الثانوية الأخرى في المشرق كإسماعيلية الشام (الحشاشين)^(٣) وسواهم عن نتائج فعالة، ذلك لأن تلك القوى كان من الممكن أن تكون عوامل مساعدة لقوة رئيسية، ولا ترقى لدرجة تمكن لويس التاسع من الاعتماد عليها في تحقيق أهدافه.

وكما فشلت جهود لويس التاسع في المشرق، فشلت كذلك في تشكيل حملة صليبية من الغرب الأوروبي تلتحق به في الشام قبل عودته إلى بلاده في إبريل سنة ١٢٥٤^(٤)، فقد كانت أوروبا الغربية في ذلك الوقت مشغولة عنه بالصراع الذي كانت تدور رحاه بين

W. Heyd : Op. Cit., Tom, 2 p.343 - 44. A. N. Hachette : de Siecle de Saint Louis p.236. =

R. Grousset : Op. Cit., Tom, III p.433 & p.509 - 510, H. E. Mayer : Op. Cit., p. 256.

(١) عن ذلك انظر د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٠٩٣ - ١٠٩٤،

R. Grousset : Ibid, Tom, III, p.505 - 506, H. E. Mayer : Ibid, p.256. K. M. Setton : Op. Cit., vol. 2, p.507.

(٢) انظر د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٠ وما بعدها، د. جوزيف نسيم يوسف :

المرجع السابق ص ٢٤٤ وما بعدها،

A. S. Atiya : Op. Cit., p.233., R. Grousset : Ibid, Tom III, p.519., R. Grousset : Bilan de l' Histoire, p.224 - 6., N. Daniel : Op. Cit., p.234., A. N. Hachette : Op. Cit., p.233.

H. E. Mayer : Ibid, p.257. K. M. Setton : Op. Cit., vol. 2, p.507 - 8.

(٣) عن اتصالات لويس التاسع بإسماعيلية الشام انظر المقرئ : السلوك ج ١ ص ٢٣٧ حاشية ٤،

د. جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ص ٢٢٥ وما بعدها، د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية

ج ٢ ص ١٠٩٧، د. سعيد عاشور : الظاهر بيمرس ص ٨١ وما بعدها،

Joinville : Op. Cit., p.277 - 8., R. Grousset : Ibid, Tom, III, p.516 - 517., A. N. Hachette : Ibid, p.235.

(٤) انظر د. جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ص ٩٠ و ١٠٣ و ١١٤ .

البابوية والامبراطورية الرومانية المقدسة^(١)، وكان اهتمام البابوية بالقضاء على الامبراطور فردريك الثاني وخلفائه من بعده أكبر بكثير من اهتمامها بدعم الملك الفرنسي في الشرق، فبالرغم من إظهار البابا للأسي والتآلم لأخوي الملك حينما قابله وأبلغاه بتفاصيل ما حل بأخيهما، إلا أنه لم يفعل شيئاً يذكر^(٢). واقتصرت مساعداته على السماح للويس التاسع بالاستفادة من ضريبة العشور لمدة ثلاث سنوات، وأما ملك إنجلترا الذي كان قد أظهر رغبته في الاشتراك في الحملة المرتقبة، دلت الحوادث التالية لإعلانه عن ذلك الاشتراك على أنه لم يكن جاداً في الأمر، وأنه اتخذ من ذلك الإعلان وسيلة لابتزاز الأموال من شعبه إرضاء لشعبه، فقد دفع للبابوية مبلغاً ضخماً من المال لتعفيه من العهد الذي ارتبط به، كما حصل على تفويض من البابا أنوسنت الرابع لمنع الإنكليز من الإبحار إلى الشرق، ولم يكف بذلك بل فرض حراسة مشددة على الموانئ الإنجليزية لمنع رعاياه الذين حملوا الصليب من اللحاق بالملك الفرنسي، وكان العون الوحيد الذي تلقاه لويس من ملك إنجلترا هو مراقبته على مد أجل الهدنة المعقودة بينهما لحين انتهاء الحملة وعودة لويس التاسع إلى بلاده^(٣)، وأما الامبراطور فردريك الثاني فلم يقدم للملك الفرنسي أي مساعدة تذكر بل ظل على علاقته الطيبة بأولئ الأسي في مصر، حتى إن جوافيل يتهم رسله الذين أرسلهم إلى لويس التاسع بأنهم ما قدموا إلى المشرق إلا لإثارة مزيج من المتاعب في وجه الملك الفرنسي^(٤)، ومع أن فرناندو الثالث ملك قشتالة كان قد أعلن عن عزمه على مساعدة لويس التاسع، إلا أن وفاته في سنة ١٢٥٠م وبعد استلامه الصليب بفترة وجيزة قضى على أمل الملك الفرنسي في تلك المساعدة إن كان قد أمل فيها بالفعل.

وأما فرنسا فقد نشطت فيها الدعوة للحملة الصليبية، وبرز فيها راهب مسن أطلق على نفسه اسم سيد هتغاريا لأنه كان هتغاري المولد^(٥)، وادعى أن الله أمره بتزعم حملة صليبية

(١) انظر د. جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ص ٩٤، Dr. M. Talbi : Document divers relatifs, a ٩٤, Auguste Bailly : Saint Louis, p.113 - 121.

(٢) د. جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ص ٩٣.

(٣) د. جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ص ١٠٣.

(٤) Joinville : Op. Cit., p.278., R. Grousset : Op. Cit., Tom III, p.294.

(٥) تعددت أسماء زعيم هذه الحركة في المصادر التاريخية فهو تارة روجيه (Rogier) وتارة يعقوب، وتارة =

لإنقاذ الديار المقدسة، فاستجابت له جموع غفيرة من الشعب الفرنسي وحملت الصليب، وعرفت هذه الحملة في التاريخ باسم (صليبية الرعاة) لأن قوامها كان من الرعاة والفلاحين والأثخان، وكان من الممكن لهذه الحملة لو وصلت إلى المشرق أن تشد أزر لويس التاسع، ولكن انضمام الكثير من اللصوص وقطاع الطرق إلى صفوفها وعدم الانضباط الذي شاع بين أفرادها بحيث إنها أصبحت في وقت تجمعها موجهة تخريبية أكثر منها حملة صليبية فرضت على الملكة بلانش (بلانكا) محاربتها حتى قضت عليها وبذلك أجهضت هذه المحاولة^(١)، وبالرغم من أن البعض قد حمل الصليب بعد ذلك ولحق بلويس التاسع، إلا أن هؤلاء لم يزيدوا عدد جيش الملك عن ١٤٠٠ محارب^(٢) كان معظمهم من فلول قواته السابقة، ويأبى سوء الحظ مفارقة هذا الملك، إذ إن الأموال التي جمعها أمه بلانش ولاقت في سبيل ذلك صعوبات كبيرة حتى أن سالمين (Salimbene) سمع في إيطاليا أن الفرنسيين غضبوا على الرهبان الذين كانوا يجمعون هذه الأموال لدعم لويس التاسع وكانوا يسخرون من عاداتهم في استجداء الأموال بأن أخذوا يدفعون الصدقات للفقراء باسم محمد - صلى الله عليه وسلم - وليس باسم السيد المسيح عليه السلام لأنه في رأيهم أثبت أنه أقوى من المسيح^(٣) فإن السفينة التي حملت هذا المال إلى المشرق هبت عليها عاصفة في الطريق فأغرقتها قبل وصولها إلى عكا^(٤).

لذلك، وبعد أن رأى لويس التاسع فشل جهوده، وتبخرت مع هذا الفشل أحلامه وطموحاته، أدرك أن إقامته في المشرق لم تعد مجدية، ولم يلبث أن وصله في تلك الآونة نبأ وفاة أمه بلانش التي كانت قد توفيت في أواخر سنة ١٢٥٢م وحل محلها إخوته في حكم مملكته، والذين كانوا بدائل ضعافاً لها مما تسبب في اضطراب الأمور فيها الأمر الذي دفعه للتفكير جدياً في العودة إلى بلاده ومن المرجح أن يكون الأمراء الصليبيون في بلاد الشام

= جاك. (انظر د. جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ص ١٠٤ حاشية ٤).

(١) لمزيد من التفصيل عن ذلك انظر د. جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ص ١٠٤ وما بعدها.

(٢) د. جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ص ١١٢، Joinville : Op. Cit., p.300.

(٣) N. Daniel : Op. Cit., p.159.

(٤) د. جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ص ١٠٦.

ورجال الدين فيها قد ملوا آنذاك سياسة الحزم والشدة التي أعدهم الملك الفرنسي بها، فعملوا على التخلص منه، وواتهم الفرصة بموت الملكة بلانش فشحجموه على الرحيل^(١)، وأخيراً وبعد تداول الرأي مع أصحابه ومستشاريه وكبار صليبي الشام^(٢) قرر العودة إلى فرنسا، وفي ٢٥ إبريل سنة ١٢٥٤م أبحر من عكا^(٣) يحدوه الأمل في أن ينظم أمور مملكته ويجهز حملة صليبية جديدة يعود بها إلى المشرق لاستئناف جهوده الصليبية ضد المسلمين، ولذلك أبقى حامية صغيرة مكونة من مائة فارس بقيادة جيوفري دي سارجين (Geoffroi de Sar-gines)^(٤) للمساهمة في الدفاع عن الممتلكات الصليبية في الديار المقدسة لحين عودته، كما عبر عن أمله في هذه العودة بقوله حين رحيله عن عكا أن حجه لم ينته، ولذلك يمكن اعتبار أن رحيله عن عكا كان نهاية مرحلة من مراحل جهوده الصليبية وبداية لمرحلة جديدة.

نحو الكارثة :

ولم يخلد لويس التاسع إلى الراحة بعد عودته إلى بلاده، وبالرغم من المشاغل العديدة التي واجهها في أوروبا، إلا أن مشاعره كانت لا تزال مرتبطة بالفرق، وقد تملكته فكرة الإعداد لحملة صليبية جديدة ووله بها إلى حد الجنون^(٥)، لذلك كان شديد الاهتمام بكل ما يجد في ذلك الشرق من حوادث، ولم تلبث أن بدأت تتوالى عليه الأنباء المقلقة، فقد ألحق قنظ سلطان المماليك هزيمة شنعاء بجحافل التتار في معركة عين جالوت في سبتمبر سنة ١٢٦٠م / ٦٥٨هـ^(٦) وتمت مطاردة فلولهم حتى أخرجت من الشام، وكان ذلك في الوقت

H. E. Mayer : Op. Cit., p.257.

(١)

Joinville : Op. Cit., p.318., Nangis : Op. Cit., XX, p.389.

(٢) عن هذا الموضوع انظر

د. جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ص ٣٣٥ .

Joinville : Ibid, p.318.

(٣)

(٤) د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٠٤، د. محمد محمد أمين : (بحث شمال إفريقية

K. M. Setton : Op. Cit., vol. 2, 508.

والحروب الصليبية)، ص ١٥٦،

Auguste Bailly : Op. Cit., p.127., Dr. M. Talbi : Op. Cit., p.247., Paul Labal : La Sicile (٥) de Saint Louis, p. 122., Leon Cristiani : Saint Louis Roi de France, p.178.

(٦) لمزيد من التفصيل عن هذه المعركة انظر د. سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ص ٣٠

وما بعدها، د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٣٧ .

الذي تجددت فيه النزاعات والحصومات بين الصليبيين في تلك البلاد خاصة بين جاليات المدن الإيطالية فيها ثم بين منظمات الرهبان العسكرية خاصة بين الداوية والاسبتارية^(١) دون التنبيه لخطر دولة المماليك الفتية التي ولدت على ضفاف النيل. ويبدو أن خطر التنازل لم يكن يقلقهم أيضاً ليكون عاملاً مهماً في توحيدهم، بل على العكس من ذلك وجدوا أن تهديد التنازل للدول الإسلامية هو في صالحهم، فنظروا إليه بعين الرضى والأمل^(٢) واستمروا في نزاعاتهم التي كثيراً ما كانت تتطور إلى حروب دامية حتى إن لويس التاسع نفسه اضطر إلى التدخل في سنة ١٢٧٠م وقيل حملته على تونس لفض النزاع الذي احتدم بين البندقية وجنوة في الشرق^(٣)، ولن نعدو الحقيقة إذا قلنا أن موقف الصليبيين في المشرق في تلك الآونة كان يتلخص في أن القومونات الإيطالية كانت هي المسيطرة على المدن، بينما كانت منظمات الرهبان العسكرية هي المسيطرة على الأرياف^(٤)، أما معظم البارونات فقد أصابهم الفقر وغرقوا في الديون حتى اضطر كثير منهم لبيع ممتلكاته لمنظمات الرهبان العسكرية^(٥)، وبناء على ذلك فإن السمة المميزة لهذه الفترة في تاريخ الإمارات الصليبية في المشرق كانت غياب سياسة ثابتة متينة وذات هدف محدد، وما يدل على سوء أوضاع الصليبيين في تلك الآونة تلك الانقذادات التي تظهر في كتابات المؤرخين الغربيين الذين عاصروها والتي كانت تنمي على الصليبيين انحرافهم عن المبادئ الصليبية الحقة وعدم تعليمهم بروحها.

وإذا كان مر نجاح الصليبيين في السابق يكمن في عفوية المسلمين وعشوائيتهم كما

(١) انظر د. سميد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٠ وما بعدها، R. Grousset : Op Cit., Tom III, p. 543., R. Grousset : Bilan de l' Histoire, p.224, Leon Cristiani : Op Cit, p.179, H. E. Mayer : Op. Cit., p. 266

د. جوزيف نيسيم يوسف : المرجع السابق ص ٢٨٦ - ٢٨٧ .

(٢) د. سميد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٠، R. Grousset : Bilan de l' Histoire. p.224.

(٣) H. E. Mayer : Op Cit, p.263, R. Grousset : Ibid, Tom, III, p.543.

د. سميد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٠ وما بعدها.

(٤) H. E. Mayer : Ibid, p.264., R. Grousset : Ibid, Tom, III, P.543.

(٥) H. E. Mayer : Ibid, p.267.

يقول رينيه جروسيه (R. Grousset) فقد انقلبت الآية وتقلد إذ أصبحت هذه العشوائية هي سمة الصليبيين^(١) في حين تمخضت الحوادث في دولة المماليك عن اعتلاء الظاهر بيبرس سدة السلطنة في أواخر سنة ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م الذي أعاد وحدة مصر ومعظم بلاد الشام تحت سلطانه وأخذ يسدد ضرباته القوية لمعاقلة الصليبيين وحصونهم حتى أخذت تنهار في يده. فقد بدأ هجماته هذه على الصليبيين في وقت مبكر من عهده، إذ في نوفمبر سنة ١٢٦١م / ٦٥٩هـ هاجم إمارة أنطاكية لمعاينة أميرها بوهيمند السادس على محالفته للنتار، وكرر الهجوم عليها في صيف سنة ١٢٦٢م / ٦٦٠هـ حيث أوكل في هذه المرة على فتح مدينة أنطاكية ذاتها لولا تدخل هيثم الأول ملك أرمينيا الصغرى الذي هب لنجدة صهره أمير أنطاكية وطلب العون من النتار مما أجبر بيبرس على الجلاء عن المدينة^(٢)، ولم يضعف ذلك الانسحاب من عزيمة الظاهر بيبرس بل عاد في السنة التالية ٦٦١هـ / ١٢٦٣م إلى مهاجمة الصليبيين من جديد ففتح مدينتي الناصرة وبيت لحم^(٣).

كانت هذه الأنباء تتوالى على لويس التاسع فتقض مضجعه، لأنه بحكم اطلاعه الواسع على أحوال المشرق كان يدرك أن مع نشاط الظاهر بيبرس بدأت تلوح نذر الكارثة على الوجود الصليبي في بلاد الشام، وأن كلا جيوفري دي سارجين الذي تركه نائباً عنه في الديار المقدسة، ويوحنا الثاني الإبلني أمير يافا والوصي على عرش مملكة بيت المقدس لم تكن لأي منهما الشخصية القوية التي تستطيع فرض احترامها على جميع الصليبيين وتمكنه من النهوض بعهاء المصمود أمام العاصفة التي بدأت في الهبوب مستهدفة اقتلاع الكيان الصليبي من جذوره. أما الظاهر بيبرس فإنه بدأ منذ سنة ٦٦٤هـ / ١٢٦٥م في تشديد هجماته على الصليبيين أو بالأحرى حربه الشاملة ضدهم، ففي أوائل فبراير من ذلك العام زحف بجيش ضخم ففتح قيسارية ويافا وعلبت ثم أرسوف التي استسلمت له بعد مقاومة شديدة أبدتها

(١) R. Grousset : Bilan de l' Histoire. p.227.

(٢) انظر أبو الفدا : المصدر السابق حوادث سنة ٦٦٠هـ، د. سيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ص ٥٩ - ٦٠ .

(٣) Paul Guff : Saint Louis Roi de France, p.231., August Bailly : Op Cit, p.127., Albert

Carreau : Saint Louis et Son Royaume, p.187., Dr. M. Talbi : Op Cit, p.247 .

حاميتها من الاستيارة^(١)، ثم هاجم عكا ولم يتقدم منها إلا تدخل (هيو الثالث) الوصي على عرش قبرص الذي قدم إليها في إبريل سنة ١٢٦٥ م / ٦٦٤ هـ بجيش ضخم للدفاع عنها مما اضطر بيبرس للانسحاب والعودة إلى مصر^(٢). وحيال هذا الوضع لم يجد لويس التاسع بدأ من القيام بمحاولة جادة لإنقاذ صليبي بلاد الشام من المصير التعمس الذي ينتظرهم، وقوى ذلك العزم لديه تلك الامتغالات التي كانت تنوالت على الغرب الأوروبي من هؤلاء وخاصة من رجال الدين الكاثوليك، وتفكير جيوفري دي سارجون في العودة إلى فرنسا^(٣).

الدعوة إلى حملة صليبية جديدة :

لم تكن الحوادث التي أشرنا إليها آنفاً إلا أحد الأسباب المباشرة فقط للدعوة إلى حملة صليبية جديدة، ذلك أن لويس التاسع لم يكف عن التفكير في استئناف جهوده الصليبية ضد المسلمين وهو لم يرحل عن الشرق إلا لتنظيم حملة صليبية جديدة والعودة إليه من جديد كما أسلفنا القول. ولذلك كان ينظر إلى جهود الدعاة الذين اثبتوا بين طبقات الشعب الفرنسي بدعون الناس لحمل الصليب بعين الرضى والأمل، ففي سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م كان القديس سيج (Saint - Sie'ge) يدعو لحملة صليبية^(٤)، وفي أول مايو سنة ١٢٦١ م / ٦٥٩ هـ وبعد استقبال لويس التاسع للسفارة التي أرسلها إليه التار^(٥) انتهز إحدى المناسبات الدينية ودعا إلى اجتماع عام حضره الأمراء والفرسان ورجال الدين واتخذ

(١) انظر أبو الفدا : المصدر السابق حوادث سنة ٦٦٣ هـ، د. سعيد عامرور : العصر المماليكي في مصر والشام ص ٦٠،

Dr. M. Talbi : Op. Cit., p.247., Albert Garreau : Op. Cit., p.187 - 8., Auguste Bailly : Op. Cit., p.127

(٢) د. سعيد عامرور : العصر المماليكي، ص ٦٠، د. سعيد عامرور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٤١ .
Jean Larcena : Saint Louis de France, p.180.

Albert Garreau : Ibid, p.187.

(٣)

Albert Garreau : Ibid, p.187.

(٤)

(٥) كانت هذه السفارة مكونة من ٢٤ مفيراً ومهم راهبين كمنترجمين، وكانت غايتها حمل لويس التاسع على الإقرار بخضوعه وتبعية للخاقان الأعظم، وإلا فإن التار ميمضون في زحفهم قدماً إلى فرنسا، وكان رد لويس رفض مطالبهم بطبيعة الحال، إلا أنه أملاً في كساب التار لصف المسيحيين عاملهم معاملة حسنة ثم أرسلهم لمقابلة البابا.

المجتمعون قراراً بضرورة مراقبة إحياء شعائر الدين وإقامة الصلوات في جميع كنائس المملكة وعدم التهاون في معاقبة المذنبين والفساق ووجوب التقشف في المأكل والملبس، والتوقف عن إقامة الحفلات العامة والمباريات الرياضية لمدة سنتين باستثناء مباريات الرماية كل ذلك لتطهير الأنفس وإعدادها للمهمة الجديدة في خدمة الحركة الصليبية، ويضاف إلى ذلك قرار هام آخر صدر عن المجتمعين هو تكليف رئيس الرعايا (Le Provincial des Freres Precheirs) بالدعوة للحملة الصليبية في فرنسا^(١)، وتواتت الحوادث بعد ذلك بسرعة لتزيد من تصميم الملك الفرنسي على هذا الأمر، ففي التاسع عشر من نفس ذلك الشهر (١٩ مايو سنة ١٢٦١م / ٦٥٩هـ) وصلت إليه استغاثة من بطريك بيت المقدس الذي اعتلى كرسي البابوية فيما بعد باسم كلمنت الرابع (Clement IV)^(٢)، تطلب تدخله السريع لإنقاذ الكيان الصليبي في الشام، وبعد ثلاثة أشهر وفي ١٩ أغسطس سنة ١٢٦١م / ٦٥٩هـ على وجه التحديد أرسل إليه البابا أربان الرابع (Urban IV) يعلمه بأن الظاهر بيريوس قد نقض معاهدة الهدنة مع الصليبيين^(٣) وبدأ يشن هجماته التي سبق أن أشرنا إليها، فكانت هذه الأمور حوافز أخرى له للإسراع في الاستعداد لحملة الصليبية الجديدة، وكإجراء سريع أمر بزيادة الضرائب على الكنائس الفرنسية مقدار ١٪ لجمع مبلغ من المال أرسله إلى جيوفري دي سارجين كمعونة مستعجلة^(٤) زيادة عن المبلغ الذي كان يرسله إليه كل عام.

وما شجع لويس التاسع على المضي قدماً في مشروعه أن ظروف فرنسا كانت في ذلك الوقت أفضل بكثير مما كانت عليه أثناء وجوده في المشرق والتي كان لها أثر كبير في اتخاذ قراره بالعودة إلى بلاده^(٥)، لقد كانت جهوده منذ عودته سواء في مجال سياسته الداخلية أو علاقاته الدولية ليس لها إلا هدفاً كبيراً واحداً هو إعداد حملة صليبية جديدة تساهم فيها أوروبا موحدة بسودها السلام^(٦)، ومن هذا المنطلق تمكن من إنجاز عمل

Albert Garreau : Op. Cit., p.188.

(١) انظر

Albert Garreau : Ibid, p.188.

(٢)

Albert Garreau : Ibid, p.188.

(٣)

Albert Garreau : Ibid, p.188

(٤)

Paul Guth : Op. Cit., p.234., Leon Cristiani : Op. Cit., p.178 - 9.

(٥)

Leon Cristiani : Ibid, p.179., Jean Larcena : Op. Cit., p.133.

(٦)

سياسي ضخم كفل لبلاده الاستقرار والأمن بعقده معاهدة ابفيل (Traite L'Abbeville) مع هنري الثالث ملك إنجلترا في ٢٨ مايو سنة ١٢٥٨م^(١) حيث استتب السلام بين الدولتين وبذلك أمنت فرنسا من تهديد الخطر الخارجي. كذلك أخذ في نفس السنة يقاوض ملك أرغونة لثلى الأمور التي كانت معلقة بينهما^(٢)، كما رحب بعد ذلك بقليل بما عرضته عليه السفارة التي أرسلها إليه امبراطور القسطنطينية البيزنطية ميخائيل الثامن باليولوج (Michel VIII Paleologues) الذي كان قد أعاد تأسيس الامبراطورية البيزنطية على أنقاض دولة اللاتين فيها، من أن يبذل جهوده لدى البابوية للعمل على توحيد الكنيستين الشرقية والغربية^(٣) كخطوة أولى في سبيل إعادة الوحدة للمسيحية للصمود أمام التحديات التي كانت تواجهها، وقد بذل لويس التاسع جهوداً كبيرة في هذا المجال. ونظراً لسعة أفقه وترفعه عن النزاعات الإقليمية ورغبته في إشاعة السلام في أوروبا ولكونه بدا للجميع مسالماً ومحترماً لحقوق الغير، غيوراً على الصالح المسيحي العام، لم يلبث أن حظي باحترام بقية حكام أوروبا^(٤)، وفي ذلك الوقت كان قد انتهى النزاع بين البابوية والامبراطورية وهو النزاع الذي شغل أوروبا لفترة طويلة واستنزف كثيراً من طاقاتها، كما أحب لويس التاسع وما يخدم هدفه الصليبي، ذلك أن البابوية ولكي تتخلص نهائياً من خطر آل هوهنشتاوفن، عرضت عرش مملكة الصقليتين على شارل صاحب أنجو شقيق لويس التاسع، فوافق الملك الفرنسي على ذلك بعد أن أقنعه البابا أريان الرابع بأن هذه الخطوة ضمان لنجاح أي حملة صليبية مستقبلية^(٥)، وأكد هذا الأمر خليفته البابا كلمنت

For more details see : Jean Larcena : Op. Cit., p.132 - 3, 173 - 174. (١)

Jean Larcena : Ibid, p.133. (٢)

Jean Larcena : Op. Cit., p.190., Albert Garreau : Op. Cit., 191. K. M. Setton : Op. Cit., vol. 2, p.507 (٣)

(٤) وما يدل على هذه المكانة الرفيعة التي كان يتمتع بها أنه عندما دب النزاع بين البارونات الإنكليز وهنري الثالث ملك إنجلترا ارتضى الطرفان به حكماً لنقض هذا النزاع فكان أن تدخل بينهما وأنهى حرباً أهلية مريرة أرققت فيها دماء كثيرة، كما أدى تدخله أيضاً بين الكونت دي بار (Comte de Bar) وكونت لوكسمبورج إلى إنهاء الحرب بينهما، ولذلك أطلق عليه لقب حاكم أوروبا. لمزيد من التفصيل عن هذا الموضوع انظر

Jean Larcena : Ibid, p. 180., Leon Crisiani : Op. Cit., p. 181., Auguste Bailly : Op. Cit., p.116 - 118. (٥)

الرابع الذي اعتلى كرسى البابوية سنة ١٢٦٤م، وكلا هذين البابوين كان فرنسيًا، وكانا على صلة قوية بلويس التاسع قبل انتخابهما بابوين وعلى اطلاع على مشاريعه الصليبية، وبالفعل ما أن تم هذا الاتفاق بين البابوية والملك الفرنسي وشقيقه شارل حتى زحف الأخير بجيش كبير إلى إيطاليا في سنة ١٢٦٥م بعد أن كان قد ضم إليه إقليم بروفانس اعتماداً على حقوق وراثية لزوجته في ذلك الإقليم^(١)، واستطاع القضاء على عاهل الهوهنتاوفن وتوزيع نفسه ملكاً على الصقليتين الأمر الذي اعتبره لويس التاسع نجاحاً له أهميته في سبيل تنفيذ مشروعه الصليبي الجديد، كل هذه الأسباب وفرت الظروف الملائمة للملك الفرنسي للقيام بحملته الصليبية الجديدة.

وحانت الفرصة التي طالما انتظرها لويس التاسع، إذ حدث في سنة ٦٦٤هـ / ١٢٦٥م أن قام الظاهر بيبرس بهجومه الشامل على الصليبيين في المشرق كما سبق أن ذكرنا، وعندئذٍ دعت البابوية لحملة صليبية جديدة^(٢)، فكان أن كتب الملك الفرنسي إلى البابا كلمنت الرابع مبدئياً رغبته الشديدة في الاشتراك شخصياً في هذه الحملة ومتنبئاً عليه موافقته على تحقيق هذه الرغبة التي تملكه والتي لم يشأ أن يصرح بها قبل الوقوف على رأيه^(٣)، ولكن هذا البابا بما عرف عنه من ترو وحلر رفض ذلك في البداية لعدة اعتبارات أهمها أن خطر الهوهنتاوفن على البابوية كان لا يزال ماثلاً لا سيما وأن الملك الفرنسي هو الردء الطبيعي للبابوية وحليفها المخلص إذا ما تعرضت للخطر، ثم خشيته من تجديد النزاعات في أوروبا بعد رحيل الملك إلى الشرق نظراً لأنه كان عاملاً فعالاً في حفظ التوازن وإزالة أسباب الخلاف وتهدة الأوضاع فيها، كما أن الحالة الصحية للملك لم تكن تعينه على مشاق السفر وقيادة الجيوش^(٤)، وإذا حدث له مكروه في الشرق فإن معنى ذلك الفشل الأكيد للحملة وكارثة محققة جديدة، وأخيراً فإن اشتراكه شخصياً في الحملة سيعطيه المبرر لفرض ضرائب جديدة على ممتلكات الكنيسة الفرنسية واستشاره بقسم كبير من

(١) ج. كرامب : تراث العصور الوسطى ج ١ ص ٢٢ .

(٢) Albert Garreau : Op. Cit., p.188.

(٣) Leon Cristiani : Op. Cit., p.182, Albert Garreau : Ibid, p.188.

(٤) Leon Cristiani : Ibid, p.182, Albert Garreau : Ibid, p.188.

أموال عائلاتها التي كانت خزانة البابوية بحاجة إليها بعد أن استنزفتها الصراع مع الامبراطورية^(١)، لكل ذلك أرسل البابا إلى لويس التامع في أواخر سبتمبر سنة ١٢٦٦م رسالة يصدده فيها عن الاشتراك بنفسه في الحملة^(٢)، ولكن الأخير أصر في رسالة جديده بعث بها إليه في أكتوبر من ذلك العام على موقفه، فلم يسع البابا إلا الموافقة^(٣) وأرسل إليه نائباً عنه هو الكاردينال رودلف دي البانو (Rodolph d'Albano) ليلسّمه الصليب ثم لمرافقته في الحملة ككاتب بابوي بعد ذلك.

ومنذ حصول لويس التامع على موافقة البابا نشط في العمل على تنفيذ مشروعه^(٤) فأرسل إلى كافة الأمراء والفرسان وكبار رجال الدين وعلية القوم في مملكته وجيرانه من الملوك والأمراء يستدعيهم إلى اجتماع عام يعقد في باريس يوم ٢٤ مارس سنة ١٢٦٧م / ٦٦٥هـ وكان الجميع يدرّك الهدف من هذه الدعوة ولذلك فإن جوافيل صديقه ومرافقه في حملته الأولى تملصاً من رغبة الملك التي لم يفاجم بها أحداً كما يقول (Auguste Bailly)^(٥) اعتذر عن حضور ذلك الاجتماع متملاً بحمي دورية تتباه، ولكنه تحت إصرار الملك الذي أرسل إليه يرد على اعتذاره ذلك بأن لديه أطباء مهرة يستطيعون معالجته من تلك الحمى اضطر إلى القدوم إلى باريس^(٦). وفي صباح يوم ٢٥ مارس سنة ١٢٦٧م / ٦٦٥هـ وفي القاعة الكبرى باللوفر عقد ذلك الاجتماع بحضور نائب البابا حيث أنعرجت الآثار المقدسة للحضور والتي كان من ضمنها قطعة من خشبة الصليب الأصلي^(٧) للتأثير عليهم، وبالرغم من حالة الإعياء والمرض التي كان الملك عليها فإنه اعتلى المنصة وألقى خطبة أفصح فيها عن

(١) Paul Guth : Op. Cit., p.233.

(٢) Albert Garreau : Op. Cit., p.188., Dr. M. Talbi : Op. Cit., 247.

(٣) Albert Garreau : Ibid, p.188., Paul Guth : Ibid, p.233., August Bailly : Op. Cit., p.128.

(٤) انظر المقريري : السلوك ج ١ ق ٣٦٤، ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٢٩١، الباجي المسعودي : المصدر السابق ص ٦٢ .

Albert Garreau : Ibid, p. 188., Paul Guth : Ibid, p.233., August Bailly : Ibid, p.128.

(٥) August Bailly : Ibid, p.128.

(٦) Joinville : Op. Cit., p.345.

(٧) Auguste Bailly : Ibid, p. 128., Paul Labal : Op. Cit., p.122.

رغبته وحث الحضور على الانقياد به والالتفاف من حوله لخدمة الصليب، ثم تلاه نائب البابا حيث ألقى هو الآخر كلمة وعظ فيها الجميع وحثهم على متابعة الملك ثم سلم الصليب إلى الملك، واقتدى أبناء الملك الثلاثة فيليب Philippe ولي العهد (٢٢ سنة) وحن الخزين Jean - Tuisten كونت Nevers (١٨ سنة) وبطرس Pierre كونت Alengoy (١٧ سنة) بأيهم في استلام الصليب من نائب البابا دلالة على رغبتهم في الاشتراك في الحملة، وسرعان ما تبعمهم أخوا الملك شارل صاحب أنجو Charles d'Anjo وألفونس كونت بواتيه Alphonse de Poitiers وابن أخيه روبرت كونت أرتوا Robeir de Artois ابن كونت أرتوا الذي قتل في المنصورة بمصر، وتتابع القوم بعد ذلك على استلام الصليب حيث اقتدى بالملك وأسرته كل من ملوك أرغونة وقشتالة والبرتغال وابني ملك إنجلترا وتيلط (ثيوت) Thibaut ملك نفارة وصهر لويس التاسع، وكونتات أو EU وبريتاني Guy de Dampierre وكونت الفلاندرز Flanders وكونت Marche وكونت Sissons وكونت لوكسمبورغ وكذلك العديد من البارونات والأمراء والفرسان الحضور^(١) حيث انضم إليهم العديد ممن هم على شاكلتهم فيما بعد، كما أن من بين الذين استلموا الصليب في ذلك الاجتماع من لم يشارك في الحملة فضلاً مثل ملوك أرغونة وقشتالة وأرغونة والبرتغال^(٢). أما جواتيل صاحب شامباني Champagne وصديق الملك وتابعه الأمين كما ذكرنا آنفاً فقد اعتذر عن المشاركة في

R. Brunschvig : La Berberia Oriental sous les Hafides, Tom, 1 p.55 - 6., Leon Cristia- (١) ni : Op. Cit., p.182, M. Talbi : Op. Cit., p.248. K. M., Setton : Op. Cit., vol. 2, p.510. Abert Garreau : Op. Cit., p.188., Paul Guth : Op. Cit., p.233.

أما مصادر التاريخ الإسلامية والتي يبدو أنها اعتمدت على ابن الأثير في ذكر المشاركين في الحملة فتورد هذا الأمر باختلاف بسيط، فيقول ابن خلدون في ذلك : (وكان الذين أجابوه - لويس التاسع - للغزو يبلد المسلمين من ملوك النصرانية ملك الأكتار وملك أسكوسا وملك برشلونة واسمه ريدراكون وجماعة آخرون) (ج٦ ص٢٩١) ويقول في موضع آخر (ج٦ ص٢٩٢ - ٢٩٣) : (وكانوا سبعة بعاميب كان فيهم الفرنسي وأخوه جرون صاحب صقلية وصاحب الجزائر والعلجة زوج الطاغية تسمى الرينة وصاحب البر الكبير وتسميهم العامة من أهل الأخبار ملوكاً ويعنون أنهم متباينون ظاهرًا على غزو تونس وليس كذلك وإنما كان واحداً وهو طاغية الفرنجة وإخوته وبطارقه عدل كل واحد منهم ملكاً لفضل قوته وشدة بأسه). انظر عن ذلك أيضاً القريري : السلوك ج١ ق٢ ص٣٦٤ - ٣٦٥.

(٢) لقد تراجع ملك أرغونة عن المشاركة في تلك الحملة وكان السبب في ذلك على ما يبدو أنه حينما علم أنها موجهة إلى تونس لأنه كانت تربطه بالسلطان الحفصي علاقات وقام من ناحية، كما =

الحملة، وقد علل ذلك في مذكراته فيما بعد بقوله : (لقد ألح عليّ ملك فرنسا وملك نقارة في خدمة المسيحية والمشاركة في الحملة الصليبية فأجبت قائلاً : عندما كنت أخدم الله والملك خارج البلاد قسا عرفاء كل من ملك فرنسا وملك نقارة على أتباعي وأرهقهم وعندما عدت وجدتهم في حالة مزرية من الفقر والبؤس حتى إننا جميعاً لم نعد نرى حالة أشدّ تماساً وقرراً مما رأيناه قد ألم بناء، ولهذا أريد أن أقول إنني إذ أردت إرضاء الله لزمني أن أبقى هنا لأساعد أتباعي وأحبيهم، وذلك لأنني إذا هبت نفسي في سبيل مغامرة الحج من أجل الصليب^(١) فإنني أكون بذلك قد أسأت في حق رعيتي وأكون بالتالي قد أغضبت المسيح الرب^(٢) الذي ضحى بجسمه على الصليب من أجل خلاص شعبه^(٣))، ولم يكف جوافيل بهذا الاعتذار وإنما اعتبر أن كل من أشاروا على الملك بالاشتراك في تلك الحملة بأنهم مذنبون متعمدون^(٤).

وقد أثار موقف جوافيل هذا من الحملة الكبير من الجدل بين المؤرخين وتباينت وجهات نظرهم بشأنه، فبينما اعتبر Paul Guth مثلاً جوافيل ذنباً متحايلاً مخادعاً قدم حججاً ملفقة لتغطية عورة حياته^(٥)، عده Auguste Bailly من أولئك الحكماء الذين كانوا يرون أن القيام بحملة صليبية ثانية بعد الفشل الذريع الذي منيت به الحملة الأولى وما أدت إليه من مآسي يعتبر ضرباً من الجنون^(٦)، ولكن الحقيقة، مهما اختلفت وجهات النظر هذه، هي أن جوافيل لم يكن إلا مثلاً فقط لمعارضيه هذه الحملة والذين كانوا كثيرين خاصة من أبناء الطبقة البرجوازية المترفة التي وجدت أنها ستكون أكثر من يتضرر بالفضيحة التي أقرها البابا للاتفاق على الحملة، لذلك نظمت هذه الطبقة عدة اجتماعات أهدت فيها معارضتها للملك ثم تطورت

= كانت له هو الآخر مطامع في إفريقية خاصة به ولذلك لم يرغب في أن يكون له شريك في إفريقية بل أرادها خالصة له وحده. عن علاقته بالمستعمر الحفصي وقتل انظر :

R. Brunschvig : Op. Cit., Tom I, p. 50., S. Clissold : The Barbary Slave, p.19.

Joinville : Op. Cit., p.346. See also : Jean Larcena : Op. Cit., p.181., Leon Cristiani : (١) Op. Cit., p.182., Paul Labal : Op. Cit., p.122 - 3.

Joinville : Ibid, p.346. See also : Paul Guth : Op. Cit., p.234, Albert Garreau : Op. Cit., p.189. (٢)

Paul Guth : Ibid, p.233. (٣)

Auguste Bailly : Op. Cit., p.128. (٤)

هذه المعارضة في السنة التالية إلى اضطرابات عديدة حدثت في كثير من مدن وقرى فرنسا^(١)، هذا بالإضافة إلى أن كثيراً ممن قبلوا الامتراك فيها لم يفعلوا ذلك عن اقتناع وإنما مسaire للملك وكسباً لورده، يدل على ذلك ما ذكره جوفانجيل عن حديث دار بين فارسين على مسمع منه قبيل استلام الملك للصليب حيث قال أحدهما للآخر : (إذا التزم الملك بقيادة حملة صليبية فإن أيام فرنسا ستكون من أنعم الأيام وأشدّها بؤساً. وإذا لم نساير الملك فيما اعترم على القيام به فإننا سنخسر حبه، وإذا وافقناه وعاهدناه على الاقتداء به فإننا سنخسر حب الله وذلك لأننا سوف لن نقاتل حياً في نشر المسيحية وكلمة الله وإنما خوفاً من الملك)^(٢).

ومع ذلك ينبغي أن لا نعتقد أن الدعوة لحملة صليبية جديدة كانت كصرخة في واد، وأنها لم تلق استجابة وحساساً، وأن المناصر الوحيد المؤمن بها كان لويس التاسع فقط، وأن قوة شخصيته ومكانته في النفوس هما اللتان مكنتاه من فرضها على المشتركين فيها، وإنما كان هنالك العديد يتحنون على الملك القيام بهذه الحملة، الأمر الذي يبدو بوضوح في الأشعار المعاصرة وقتئذٍ^(٣). لذلك فإن لويس التاسع لم يكثر كثيراً بصوت المعارضة الذي

Paul Labal : Op. Cit., p.123.

(١)

Joinville : Op. Cit., p.345. See also : H. E. Mayer : Op. Cit., 270., Jean Larcena : Op. Cit., (٢) p.181. Paul Guth : Op. Cit., p.233 - 4, Girard Walter : Saint Louis Roi de France, p.123.

(٣) من ذلك ما جاء في أشعار (Runebouf) الذي كان معاصراً لتلك الفترة، فقد وصف في قصيدته التي يعتبر اسمها دليلاً على معيونه خصام بين صليبي ومعارض Dispute du Croise et du decroise الجدل الذي كان يدور بين المؤيدين والمعارضين لتلك الحملة، ولما كان ذلك الشاعر من مؤيديها فقد أشاد بالإيمان الذي يملأ قلوب جمهرة الناس بالمبادئ الصليبية وأهداف الحركة الصليبية، وكان في قصيدته المسماة (أشودة ما وراء البحر Complainte d' Outmer) يلح على الملك ليسكت الأصوات المعارضة ويقود الحملة الصليبية التي كانت في رأيه ستطهر الدنيا تظهراً أضفى ضرورياً في اعتقاده، ومما جاء فيها :

Mais je dirai et jour et nuit

ولكنني سأقول ليلاً ونهاراً

N' est pas tout or ce qui reluit

ليس ذهب كل ما يلعب

Ah roi de France, roi de France

أه، أي ملك فرنسا، أي ملك فرنسا

La loi, la foi et la croyance,

القانون، والإيمان والمعتقد

Vont presque partout chanciant

ستنشر مغنية في كل البقاع

Jean Larcena : Ibid :, p.182 - 3.

عن ذلك انظر :

ثار في وجهه، وبدأ في الاستعداد لتلك الحملة التي شاع نبؤها في أنحاء أوروبا، ولم يكن يجعل أي فرصة تقلت من يده ليبحث الناس على الاشتراك فيها. ففي ٥ يونيو سنة ١٢٦٧م وكما كانت تقضي العادة أثناء الاستعداد للحرب رسم حوالي (٧٠) فارساً كان من بينهم ابنه وولي عهده فيليب وابن أخيه روبرت كونت أرتوا، وإدمون (Edmond) ابن ملك إنجلترا وأحد أبناء ملك أرغونة، جرى ذلك في احتفال كبير أقيم بساحة نوتردام (Notre Dam) فانتهر تلك المناسبة وألقى في الحضور خطبة حماسية لشحن همهم وحثهم على المشاركة في الحملة وتلاه بعد ذلك العديد من الخطباء في إلقاء كلمات ماثلة مما حدا بالعديد من البارونات والنبلاء لامتلاء الصليب في تلك المناسبة. وفي صبيحة اليوم التالي ذهب الملك والفرسان الجدد في موكب بولغ في إظهار روحته إلى دير القديس دينيس (Saint Denis) راعي ملوك فرنسا حيث أدوا الصلاة أمام آثار السيد المسيح^(١)، فكان ذلك حافزاً آخر لإثارة الحماس في قلوب الشعب الفرنسي.

وكان على لويس التاسع أن يولي موضوع تمويل الحملة جل اهتمامه، إذ كان عليه أن يتدبر أمر الأموال اللازمة لشراء الأسلحة والتموين واستئجار الأسطول اللازم لنقل الجند، هذا بالإضافة إلى المعونات المالية الضخمة التي كان عليه أن يدفعها للكثير من المشاركين في الحملة لمساعدتهم على تجهيز أنفسهم للرحيل، وإذا عرفنا أنه دفع للوق برجنديا منحة مالية قدرها (٧٠) ألف ليبرة (Livres Tournais) لهذا الغرض وهو الذي كان يعد من كبار الأغنياء في فرنسا، لأدركنا أن الأمراء والفرسان المشاركين الذين كانوا أقل منه ثراء، كانوا أكثر منه اعتماداً على الملك في نفقاتهم^(٢) وبالتالي يمكننا تصور المبالغ المالية الضخمة التي كان على الملك جمعها لمواجهة نفقات الحملة، ولذلك أخذ يبحث عن هذا المال في كل سبيل، واتخذ عدة إجراءات هامة تكفل له الحصول على حاجته منه، فعلاوة على استمراره في تحصيل ضريبة (١٪) التي كان قد أقرها البابا أربان الرابع طلب من خليفته البابا كلمنت الرابع الموافقة على فرض ضريبة جديدة فأقر هذا فرض ضريبة العشر لمدة ثلاث سنوات

Albert Garreau : Op. Cit., p.189.

(١)

K. M. Setton : Op. Cit., Vc1.2, p.510.

(٢)

بالرغم من المعارضة والاستنكار الذي وجهت به تلك الضريبة من قبل الكثيرين^(١)، كما أمر بالاقتصاد في النفقات الملكية قدر المستطاع ولم يبق إلا على الضروري منها، ثم فرض ضريبة جديدة على أفضاله الإقطاعيين^(٢)، ورصد كذلك الأموال العائدة من هدايا المدن ورسوم القضايا الجنائية والمدنية لهذا المشروع^(٣)، وأخيراً ألغى القبض على كثير من اليهود في مملكته متعللاً بكثرة شكوى الشعب من جشعهم ومغالاتهم في الربا ولم يطلقهم إلا بعد أن دفع له كل منهم مبلغاً من المال يتناسب مع ثرائه، وضم الأموال المحصلة منهم إلى المبالغ المرصودة للحملة^(٤).

وعلى صعيد آخر في نطاق هذه الاستعدادات دخل في مفاوضات مع كل من البندقية وجنوة لاستئجار الأسطول اللازم له، وقد انتهت هذه المفاوضات أخيراً بعقد اتفاقية مع جنوة لهذا الغرض دون تحديد وجهة السفر مبالغة منه في التحميم على هدف الحملة، وكل ما عرفه الجنويون أن على أسطولهم أن يكون مستعداً للإبحار في ميناء (Aignes - Mortes) في مايو سنة ١٢٧٠م، كما أعطت هذه الاتفاقية للملك الفرنسي الحرية لاستعمال هذا الأسطول أكبر مما كان عليه الحال في سنة ١٢٤٠م، فقد نصت أن للملك الحق في أن يتوقف في أي ميناء أو جزيرة يشاء لمدة لا تتجاوز الشهر، يعود بعده للإبحار وله أن يتوقف به مرة أخرى إذا شاء، وبمكته الاحتفاظ به إلى ما بعد انقضاء فصل الشتاء مقابل دفعة إضافية مقدارها خمس المبلغ الأساسي المتفق عليه^(٥). وبناء على ذلك مرعان ما بوشر في تجديد

(١) Paul Guth : Op. Cit., p.235., Auguste Bailly : Op. Cit., p.130., Leon Cristiani : Op. Cit., p.183.

وقد تعرض كثير من المؤرخين المسلمين لموضوع دعم البابوية للويس التاسع في هذا المجال في مؤلفاتهم، فقد قال المقرئ في ذلك : (وبعث - لويس التاسع - إلى البابا خليفة المسيح برعهم، فكتب البابا إلى ملوك النصارى بالسير معه وأطلق يده في أموال الكنائس يأخذ منها ما شاء). المقرئ : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٣٦٤، انظر كذلك ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٢٩١، حمودة بن عبد العزيز : المصدر السابق ورقة ١٠٣.

(٢) Auguste Bailly : Ibid, p.130., Leon Cristiani : Ibid, p.183., K. M. Setton : Op. Cit., v.2, p.510.

(٣) Jean Larcena : Op. Cit., p.182 - 3., Paul Labat : Op. Cit., p.123. K. M. Setton : Ibid, vol. 2., p.510

(٤) Jean Larcena : Ibid, p.183. Paul Labat : Ibid, p.123.

(٥) K. M. Setton : Ibid, v.2, p.511. Paul Guth : Ibid, p.235. Leon Cristiani : Ibid, p.183.

أسوار مدينة (Aignes - Mortes) وإعداد مينائها ليكون نقطة انطلاق الحملة^(١)، وأخيراً وفي جلسة البرلمان يوم ٩ فبراير سنة ١٢٦٨م أعلن لويس التاسع قراره بأن موعد مغره سيكون في مايو سنة ١٢٧٠م / ٦٦٨هـ^(٢).

الظاهر بيبرس والحملة الصليبية الجديدة :

بالرغم من تكتم لويس التاسع على هذه الحملة فقد تسربت أنبأؤها إلى شرق العالم الإسلامي وغربه، فإن نشاط الصليبيين لم يكن ليخفى على الظاهر بيبرس سلطان مصر والشام اليقظ الذي وضع منذ اعتلائه سدة السلطنة نصب عينيه القضاء على الأخطار التي تواجه المسلمين في هذين القطرين والتي كان أتمدها خطر التتار والخطر الصليبي، فصرف جل سني حكمه في التنقل بين القطرين زاحقاً بجيشه يضرب أعداء الإسلام في شتى الاتجاهات حتى إن الشاعر الذي مدحه بقوله :

يوماً بمصر ويوماً بالحجاز وبالشام يوماً ويوماً في قرى حلب^(٣)

وصف جهوده أبلغ وصف بحيث إنه لم يكن يعدو الحقيقة، ولا تمدنا المصادر التاريخية هذه المرة بكيفية تسرب أنباء هذه الحملة إلى الظاهر بيبرس مثلما كان الأمر بالنسبة لحملة لويس التاسع السابقة (الحملة الصليبية السابعة). وأياً كان الأمر فإن بيبرس كان يدرك أن فتحه لأنطاكية وهي ثاني إمارة صليبية تؤسس في المشرق سيثير أوروبا الغربية ضده مثلما أدى سقوط الرها في يد عماد الدين زنكي إلى تحريك الحملة الصليبية الثانية، فكان لذلك يراقب الموقف بحذر شديد، فما أن علم بأمر الحملة الجديدة حتى شرع في الاستعداد لمواجهةها. وكما كانت عاداته في مواجهة الأخطار لم تقتصر جهوده على مجال واحد وإنما سارت في عدة اتجاهات في آن واحد. فقد بدأ في تحصين الموانئ المصرية المطلة على البحر الأبيض المتوسط وشحنها بالسلاح والرجال والأزواد ليحول دون أي نزول محتمل

(١) Albert Garreau : Op. Cit., p.189., Jean Larcena : Op. Cit., p.183., Leon Cristiani : Op. Cit., p.184. (١)

Auguste Bailly : Op. Cit., p.130.

Albert Garreau : Op. Cit., p.191., Leon Cristiani : Ibid, 183.

(٢)

(٣) المقرئزي : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٦٣٨.

للصليبيين في أحدها كما حدث بالنسبة للحملة الصليبية السابقة، يقول ابن خلدون في ذلك : (فاهتم الظاهر بحفظ الثغور واستكثر من الشواني والمراكب)^(١)، وبالإضافة إلى ذلك اهتم بتدعيم الأسطول وزيادة عدد قطعه كما يفهم من نص ابن خلدون الأنف الذكر. ونشط في نفس الوقت في حشد الجيوش وتنظيمها وتوزيعها على الثغور المصرية والشامية. ولم يغفل أثناء ذلك عن تحصين الحدود الشرقية لبلاد الشام لمواجهة أي هجوم تناري محتمل أثناء انشغاله بقتال الصليبيين. وبالإضافة إلى ذلك اتصل بالبنادقة ووعدهم بمنحهم عدة امتيازات تجارية في شطري سلطنته مصر والشام مقابل امتناعهم عن تقديم المساعدة البحرية للملك الفرنسي، ولما كان البنادقة قد أبدوا خشيتهم من عدة ضغوط تمارس عليهم للدخول في مفاوضات مع ملك فرنسا بهذا الشأن، فإنه أشار عليهم بالمغالبة في مطالبهم والتقدم بشروط قاسية بحيث لا يقبلها الملك^(٢)، وهو الأمر الذي تم بالفعل مما جعل لويس التاسع يستبعد البندقية ويعقد الاتفاق مع جنوة لاستئجار أسطولها.

ولم يكف الظاهر بيمرس بذلك بل أرسل سفارة إلى لويس التاسع تهدده ليشيط عزيمته هو وصحبه عما اعتموه من العدوان على المسلمين، ويصف ابن الشماخ استقبال الملك الفرنسي لرسول الظاهر بقوله : (فكتب إليه صاحب الديار المصرية من نظم كمال الدين بن مطروح أبياتاً، وبعث بها مع رسوله، فلما ورد على الفرنجيين - الفرنسيين - استجلسه، فأبى أن يجلس، فأنشدته وهو قائم بمجلسه :

قل للفرنجيين إذا ما جئته

مقال صدق من قول فضيح^(٣)

ويزيد ابن خلدون على ذلك : (... فلما استكمل إنشاده لم يزد ذلك الطاغية إلا عتواً

(١) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٥ ص ٣٩٠.

(٢) د. محمد محمد أمين : بحث (شمال إفريقيا والحروب الصليبية) ص ١٦٠.

W. Hiyd : Op. Cit., v. I., p. 409.

(٣) ابن الشماخ : المصدر السابق ص ٦٦، انظر كذلك : ابن القنفذ : القفرسية المصدر السابق ص ١١٠.

ابن أبي دينار : المصدر السابق ص ١٣٧، الوزير السراج : المصدر السابق ج ١ ق ٤ ص ١٠٣.

والفرنجيين الواردة في هذا البيت يعني بها الشاعر : الفرنسيين أي ملك فرنسا.

واستكباراً واعتذر عن نقض العهد في غزو تونس بما يسمع عنهم من المخالفات عنراً دافعهم به وصرف الرسل من سائر الآفاق ليومه^(١)، ومع أن السلطان الظاهر يبهرس وكما يستفاد من هذا النص علم أن الحملة لن توجه ضد بلاده، وإنما متوجه ضد الدولة الحفصية، فإن ذلك لم يصرفه عن العمل على مواجهتها، فهو لم يهمل أمر تونس، فبالرغم من فتور العلاقات بينه وبين المستنصر الحفصي^(٢)، إلا أن ذلك لم يمنعه من القيام بواجبه في شد أزور إخوانه مسلمي إفريقية، لقد كان الظاهر يبهرس على مستوى المسؤولية فوضع مصلحة المسلمين العليا فوق مستوى الخلاف، لذلك لم يكذب يعرف بتحريك الحملة إلى تونس حتى يبادر إلى مساعدة المستنصر، يقول المقرئ في ذلك في حوادث شهر محرم سنة ٦٦٩هـ / ١٢٧٠م : (وفيه ورد الخبر بمسير الفرنسيس وسلوك القرنج إلى تونس ومحاربة أهلها، فكتب السلطان إلى صاحب تونس بوصول العساكر إليه فجدد له على القرنج، وكتب إلى

(١) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٢٩٢. وأما نقض العهد الذي ورد ذكره في النص فهو يشير إلى أن لويس التاسع كان قد تعهد للملك بموجب المعاهدة التي عقدت بينه وبينهم والتي عملاً بتصورها أطلق سراحه، أن لا يتزل يهر المسلمين مرة ثانية (انظر عن ذلك ابن خلدون : المصدر السابق ج ٥ ص ٣٧٣، ابن القنفذ : الفارسية ص ١٠.
د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٠٩٠.

Joinville : Op. Cit., p.281., R. Grousset : Op. Cit., Tom, III, p.500.

(٢) يعود سبب هذا الفتور إلى إحياء الخلافة العباسية في القاهرة، إذ عندما أسقط هولاء الخلافة العباسية في بغداد، أصبح العالم الإسلامي بدون خليفة، اللهم إلا ما كان من الخلافة الموحدة في المغرب الأقصى التي كانت في التزعزع الأخير وهو أمر لم يتعده المسلمون، ولما كانت الدولة الحفصية في تلك الآونة في أوج مجدها وتتمتع بمسحة طيبة في المشرق والمغرب أصبحت هي الأمل الذي تعلق به المسلمون، وتطلعون إلى المستنصر الذي اعترف بسيادته معظم المغرب الإسلامي بما في ذلك بني مرين في المغرب الأقصى وبني زيان (عبد الواد) في المغرب الأوسط، كما كانت تربطه علاقات طيبة بمعظم حكام عصره سواء بممالك الصنهاج شمالاً أو قلب القارة الإفريقية جنوباً، فلم يجد المسلمون أفضل منه لتولي منصب الخلافة سيما وأنه كان يدهي النسب العربي، فكان أن بايعه فريف مكة من المشرق فضلاً عن حكام المغرب، ولما كانت دولة للمالك النافذة في حاجة إلى سند شرعي اعترف به يبهرس أيضاً خليفة وأميراً للمؤمنين، يؤكد ذلك قول ابن القنفذ (الفارسية ص ١٢٥) : (وفي سنة تسع وخمسين وستمائة المذكورة قرئ كتاب هزيمة البطار على المستنصر وخطه أهل الديار المصرية في الكتاب المذكور بأمر المؤمنين، وكان هذا أكبر آمال المستنصر وأجها إليه)، ولكن هذا الاعتراف من يبهرس بخلافة المستنصر لم يدم إلا فترة وجيزة، إذ لأحيائه للخلافة العباسية في القاهرة سحب اعترافه بخلافة المستنصر الأمر الذي كان سبباً للخلاف وفتور العلاقات بين العاهلين.

عربان برقة وبلاد الغرب بالمسير إلى نجده، وأمرهم حفر الآبار في الطرقات برسم العساكر، وشرع في تهيئة العساكر، فورد الخبر بموت الفرنسيين وابنه وجماعة من عسكره، ووصول نجدات البرهان إلى تونس وحفر الآبار، وأن الفرنج رحلوا عن تونس^(١)، وقد وصلت جماعات من أعراب برقة إلى تونس بالفعل، وشاركت في التصدي للحملة.

بين المستنصر الحفصبي ولويس التاسع :

وكما أن أخبار هذه الحملة لم تخف عن الظاهر بيرس علم بها المستنصر الحفصبي أيضاً، وبالرغم من أنه هو الآخر شرع في الاستعداد لمواجهة فأمراً كما يقول ابن خلدون : (في مائت عمالاته بالاستكثار من العدة وأرسل في الثغور لذلك بإصلاح الأسوار واختزان الحبوب)^(٢)، إلا أنه اعتمد أسلوباً يفاير أسلوب الظاهر بيرس للاختلاف الواضح بين شخصيتي هذين العاهلين، فأسلوب الظاهر بيرس كان أسلوب الرجل العسكري القوي الذي يؤمن بأن القوة العسكرية هي وحدها الكفيلة بالقضاء على الخطر الصليبي، وأما المستنصر فأسلوبه هو أسلوب السياسي الذي يرى أن العاقبة تكون أسلم بالمفاوضات. ولهذا فقد فضل اعتماد هذا النهج منذ البداية ومنذ علمه بما يدبر ليلاده وحتى النهاية ورحيل الصليبيين من إفريقية، وقد ظهر الفرق واضحاً بين كلا الأسلوبين في بلاط لويس التاسع، فمنذ أن علم المستنصر بما اعتزمه الملك الفرنسي أوفد هو الآخر سفارة إليه يبدو من رواية ابن خلدون أنها سبقت رسول الظاهر بيرس في الوصول إلى بلاط لويس التاسع^(٣)، وقد استقبلها هذا في أواخر أكتوبر سنة ١٢٦٩م / ٦٦٨هـ^(٤)، وقد تصادف أن اجتمعت كلتا السفارتين في بلاط الملك الفرنسي في آن واحد. وبينما وقف رسول الظاهر بيرس يشهد شعراً هو أقرب ما يكون للهجاء والوعيد دون أي اعتبار للكياسة والأعراف الدبلوماسية،

(١) انظر المقرئبي : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٥٩٠، كذلك د. سعيد عاشور : الظاهر بيرس ص ١١٢ -

١١٤، د. سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ص ٣٧٧.

(٢) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٢٩١.

(٣) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٢٩١.

(٤) R. Brunschwig : Op. Cit., Tom, 1, p. 56., Leon Cristiani : Op. Cit., p. 184. (٤)

ويذكره بالعهد الذي كان قد قطعه على نفسه، وإذا بسفارة المستنصر تلجأ إلى أسلوب
المفاوضة واسترضاء لويس التاسع، ويمر ابن خلدون عن ذلك بقوله : (وأوفد السلطان
رسله إلى الفرنسيين لاختيار حاله ومشارطته على ما يكف عزمه)^(١)، كما أن المصادر
التاريخية سواء الإسلامية أو الغربية لم تشر إلى أن رسول الظاهر قد اصطحب معه هدية
للملك الفرنسي مثلما كانت تقضي العادة في تبادل السفارات بين الملوك، في حين بحث
المستنصر مع سفراته هدية قيمة للملك الفرنسي، فضلاً عن أنه زودهم بشائين ألف دينار
ذهبي دفعوها إلى لويس التاسع لامرضائه وكفه عن عزمه ثم (لاستتمام شروطهم)^(٢).

وتبعاً لذلك اختلف موقف لويس التاسع من كلتا السفارتين، فبينما أخذ يعتذر لرسول
الظاهر ويرر نقضه (العهد في غزو تونس بما يسمع عنهم من الخلفات)^(٣) على حد قول
ابن خلدون كما سبق أن ذكرنا، اختلفت معاملته لرسل السلطان الحفصي، فإنه بالرغم من
قبوله الهدايا والمال منهم واستماعه لوجهة نظرهم، لم يعنهم بشيء بل مارس معهم اللعبة
السياسية التي كان يجيدها وأخذ يماطلهم، ويبدو أنهم أدركوا فشل مهمتهم فطلبوا منه المال
كما يقول ابن خلدون، (فاعتل عليهم بأنه لم ياتر قبضه)^(٤)، وبذلك خسر المستنصر
أمواله دون طائل، ومع أن برنجفيك (R. Brunschvig) يستبعد مثل هذا التصرف من
لويس التاسع ويقول إن تدينه وأخلاقه لا تسمحان له بذلك^(٥)، إلا أنه يبدو أن برنجفيك
تناسى أن هذه الصفات التي كان يتصف بها ذلك الملك واحترامه لحقوق الغير كانت تطبق
في معاملاته مع المسيحيين، أما تعامله مع المسلمين فكان يتم بشكل معاكس تماماً، ولذلك لا
نستبعد أن ما ذكرته الروايات الإسلامية عن امتناعه عن إعادة المال لسفراء المستنصر كان
صحيحاً، وأياً كان الأمر، فالمستفاد من تلك الرواية هو أن لويس التاسع لم يستجب لدعوة

(١) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٢٩١.

(٢) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٢٩١، القرطبي : السلوك ج ١ ص ٢٥٣، حمودة بن عبد
العزیز : المصدر السابق ورقة ٢٠٣.

(٣) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٢٩١.

(٤) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٢٩١.

R. Brunschvig : Op. Cit., Tom, 1, p.53.

(٥)

تلك السفارة في السلام، وأما ابن الشماع فيقول في معرض حديثه عن تلك السفارة إن السلطان طلب من لويس التاسع (المهادنة)، فامتنع من ذلك، وأغلظ للرسول، وعرفه أنه متوجه إليه^(١)، فإذا صحت هذه الرواية فإن سياسة الامتراء والملاية التي اتبعها المستنصر قد جاءت بنتائج عكسية، فهي لم تزد الملك الفرنسي إلا غلواً واستكباراً وتصميماً على تنفيذ ما اعتمره، لذلك فإنه كان الأجدر بالمستنصر أن يتبع نفس سياسة الظاهر بيبرس، فكان الأصح عوضاً عن محاولته شراء السلم بالمال من علو حاقده مترهب أعماه التعصب للفكرة الصليبية، أن يستفيد من المبلغ الضخم الذي أرسله إليه في الاستعداد للتصدي للحملة وبصفة خاصة في تدعيم أسطوله الهزيل لحماية سواحل بلاده ببحرية قوية بدلاً من تركها تحت رحمة العدو سيما وأن الطاقات البشرية والمادية التي كانت لديه كانت تؤهله لذلك، علماً بأنه لم يفاجأ بالعدو بل كان لديه من الوقت ما يمكن اعتباره كافياً لحل هذا العمل، فذلك أفضل من أن يقدم ذلك المبلغ لعدوه ليستفيد منه في حربه ضده.

ولم يكنف الملك الفرنسي حينما لمس هذا الموقف من المستنصر بعدم الاستجابة لمرض المسئلة الذي تقدم به الأخير وجهه الرسل بغليظ القول والتصميم على الحرب، وإنما آذى الرسل في مشاعرهم الدينية وأهان سلطانهم بتعبيره عن أمنيته في تصيرهم وسلطانهم، فقد انتهز مناسبة احتفال أقيم يوم ٩ أكتوبر سنة ١٢٦٩م وأثناء وجود كلا السفارتين في بلاطه بتعميد أحد كبار اليهود الذي كان قد تنصر على يده ودعا سفراء المستنصر فقط دون رسول بيبرس الذي يبدو أنه لم يجرؤ على دعوته، وأثناء الحفل توجه إلى هؤلاء السفراء بقوله إنه يتنى تصير سلطانهم على يده وتعميده مثل ذلك اليهودي^(٢)، كما سيذكر فيما بعد، ويزعم (Jean Larcena) أن أحد السفراء وهو كما هو مفروض فيه أن يجيد الجمالة وانتقاء الكلمات الدبلوماسية أجاب بأن ذلك ليس أمراً مستحيلاً^(٣)، وما نعتقد أن هذا القول لا يقبله لا العقل ولا المنطق، ذلك لأن السفراء في تلك الأزمنة كانوا يختارون في

(١) ابن الشماع : المصدر السابق ص ٦٦، انظر أيضاً ابن أبي دinar : المصدر السابق ص ١٣٦، الوزير السراج : المصدر السابق ج ١ ق ٤ ص ١٠٣٣.

(٢) Jean Larcena : Op. Cit., p.187, Albert Garreau : Op. Cit., p.192., Leon Cristiani : Op. Cit., 184 - 5.

(٣) Jean Larcena : Ibid, p.185.

العادة من بين ذوي الخلق الحسن والكماسة والدين القويم والفطنة والثقافة الواسعة التي كانت أغلب ما تكون ثقافة دينية إن لم يكونوا فقهاء أو قضاة، فكيف يصدر مثل هذا القول من فقيه وعلى مسمع من زملائه وفي ملأ من الناس؟ لذلك، فالواضح أن هذا القول هو محض اختلاق وأن صاحبه قد اعتمد فيه على أوهام نانجي (Nangis) التي ستعرض لها فيما بعد. وعلى كل حال فإن إقامة هؤلاء السفراء في بلاط لويس التاسع لم تطل كثيراً بعد ذلك، إذ عادوا إلى تونس يحملون أنباء الغزو القويب. يقول ابن خلدون في ذلك: (فوصل رسل السلطان منذرين بشأنهم)^(١) وعندها أدرك المستنصر فشل معاصيه السلمية فجذ في اتخاذ أهجه للتصدي للفرقة.

إفريقية طريق إلى بيت المقدس :

قرر لويس التاسع الاتجاه بحملته الصليبية الجديدة إلى تونس، والذي يدعو إلى التساؤل هو ما هي الدوافع والأسباب التي جعلته يغير اتجاهه عن المشرق في وقت كان فيه الصليبيون هنالك في أشد الحاجة للمساعدة والدعم؟ في الحقيقة، لقد أثار هذا الأمر كثيراً من الجدل بين المؤرخين المسلمين والغربيين القدامى والمحدثين على حد سواء وعللوه بتعليلات مختلفة، فمعظم الروايات التاريخية الإسلامية التي تعرضت لهذه الحملة لم تسبر غور الحقيقة للوصول إلى الدوافع الحقيقية لهذا الأمر، فابن الشماخ يحلل ذلك بتعليلين مختلفين أولهما أن السبب في ذلك كان استجابة لويس التاسع لطلب بعض التجار من رعاياه الذين ادعوا أن لهم في دمة أحمد اللياني وزير أمور البحر في دولة المستنصر الحفصي^(٢) مبلغ ثلاثمائة

(١) ابن خلدون : المصنر السابق ج ٦ ص ٢٩٢.

(٢) هو الفقيه العالم أحمد بن إبراهيم القيسي اللياني أحد شراح المونة ينسب إلى قرية ليانة من أعمال المهدي، كان أبوه جولي أمور المهدي، وقد نشأ أحمد في طلب العلم فلتزم الإمام أبا زكريا البرقي وأخذ عنه، وبرع في علوم كثيرة فكان فقيهاً عالماً أديباً شاعراً، ثم نهض إلى تونس فولى بها الأعمال الحليفة وبلغ من الرئاسة في الدنيا الغاية القصوى حتى أصبح وزيراً لأمر البحر للمستنصر، غير أنه كان يحدث نفسه بأمر كثيرة وأعمال خطيرة حتى تخشى منه المستنصر، لسماعة أعدائه به بأنه ينوي الثورة بالمهدي فنكبه وأمر المختبب بحماسته وتعليه وطولب بأموال كثيرة وذلك في سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦١ م فكان يلخصها شيئاً فشيئاً حتى استخلص منه مال جليل ثم عذب بعد ذلك حتى مات تحت =

ألف دينار كان قد اقترضها منهم وحينما نكبه المستنصر وصادر أمواله طالبوا الأخير بها الذي نظراً لعدم وجود إبتانات لديهم تدعم مطالبهم رفض دفعها لهم، فكان أن شكوا أولئك التجار للملكهم ما أوقعه المستنصر بهم في زعمهم من ظلم فغضب لهم وجرّد حملته تلك على تونس، فهو يقول في ذلك : (إن ما أدعاه للنزول بتونس فيما زعموا أن تجار أرضه ادعوا على اللياني بعد نكبه أنهم أسلفوه ثلاثمائة ألف دينار فامتنع من إعطائهم. فشكوا ذلك إلى ملكهم، فامتنع لهم... وعمر على تونس^(١)، ويروي كل من ابن خلدون^(٢) وابن أبي دينار^(٣) والوزير السراج^(٤) وحمودة بن عبد العزيز^(٥) روايات مشابهة لما ذكره ابن الشماخ مع تغيير طفيف فيها، ومع أن الاستفادة من هذه الروايات بتريدها كلمة (زعموا) أن ذلك السبب ليس بالأمر القاطع وإنما هو أمر مشكوك فيه، إلا أن هؤلاء المؤرخين باستثناء ابن خلدون الذي مستعرض لقوله فيما بعد، لم يقدموا السبب البديل الذي يعتقدونه صحيحاً ويعبر عن وجهة نظرهم.

وتحاول الرواية الثانية لابن الشماخ والتي ردها كذلك ابن أبي دينار^(٦) والوزير السراج^(٧) أن تضفي على هذا الأمر اعتبارات شخصية هي انتقام لويس التاسع من المستنصر لانتفاضة منه في مجلسه إذ يقول : (... وقيل في حركته على تونس : أن الفرنسيس - الفرنسيين - ذكر عند المنتصر - المستنصر - فقال : هو الذي أسره هؤلاء فأطلقوه؟ - يشير إلى الأتراك الذين كانوا بين يديه - وكان اجتمع له منهم جماعة وافرة - احتقاراً

= العذاب بدار السكة في الحرم من تلك السنة وأخرجت جثته إلى الصبيان فجروها في الشوارع ثم ألقوها في بحيرة تونس. انظر ابن القنفذ : المصدر السابق ص ١٢٥، ابن أبي الضياف : المصدر السابق ص ٢٠٥ - ٢٠٦، محمد النيفر : عنوان الأريب عما تشأ بالمملكة التونسية من عالم أدب ص ٧٣ - ٧٤،
M. Talbi : Op. Cit., p.249 - 50.

- (١) ابن الشماخ : المصدر السابق ص ٦٥.
- (٢) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٢٩١.
- (٣) ابن أبي دينار : المصدر السابق ص ١٣٦.
- (٤) الوزير السراج : المصدر السابق ج ١ ق ٤ ص ١٠٣٣.
- (٥) حمودة بن عبد العزيز : المصدر السابق ورقة ١٠٣.
- (٦) ابن أبي دينار : المصدر السابق ص ١٣٦.
- (٧) الوزير السراج : المصدر السابق ج ١ ق ٤ ص ١٠٣٣.

لأمره. فبلغ الفرنسيس مقلته. فحقدها عليه. وحشد أهل ملتهم واستعان بملوكهم... وشرع في حركته إلى تونس^(١)، وما لا شك فيه أن أصحاب هذه الأقوال قد قصروا في فهم الأسباب الحقيقية لهذا الغزو الصليبي. وإنما تتفق في ذلك مع برنغفيلد مع تحفظنا على وجهة نظره في تعليل هذا الأمر الذي نذكره فيما بعد، في أننا نكون مجازفين كثيراً إذا ذهبنا إلى أن موضوع أموال التجار البروفانسين التي قيل إنها كانت لهم في دمة اللياني هي السبب الرئيسي في تحويل مسار هذه الحملة إلى تونس رغم ما كان للناحية الاقتصادية من أهمية في العلاقات الدولية في العصور الوسطى ورغم مشابقتها الظاهرية لأسباب احتلال فرنسا للجزائر سنة ١٨٣٠م / ١٢٤٦هـ^(٢) ذلك أن لويس التاسع المشهور بتعقله واتزانه من غير المعقول أن يجازف بحملة يتطلب إعدادها أكثر من هذا المبلغ بكثير لحمل المستنصر على تسوية مطالبات هؤلاء التجار، لا سيما وأن المستنصر كان على استعداد لتسويتها بالغاً ما بلغت بالرغم من عدم وجود مستندات تثبت صحتها إذا كان ذلك يكف عزم لويس التاسع عن حربه، كما يمكن اعتبار مبلغ الثمانين ألف دينار التي أرسلها إلى الملك الفرنسي إقراراً منه بهذه المطالبات واعتبار ذلك المبلغ دفعة أولى منها ودليلاً على إمكانية تسويتها عن طريق المفاوضات، ويقوي هذا الظن ما ذكره ابن خلدون من أن لويس التاسع حينما طالبه سفراء المستنصر برد هذا المبلغ إليهم عندما همسوا من إقناعه بكف عزمه عن قصد تونس رفض ذلك متعللاً عليهم (بأنه لم يباشر قبضه)^(٣)، فكيف أخذ منهم الهدايا ولم يقبض المال؟ ومن الذي تولى قبضه منهم؟ ولذلك فإنه ليس من المستبعد في رأينا أن يكون الهدف من إرسال ذلك المبلغ خاصة وأنه لم تجر العادة في المهاداة بين الملوك أن تتضمن الهدايا مبالغ نقدية، إن لم يكن لاسترضاء الملك الفرنسي لتسوية مطالب هؤلاء التجار، الأمر الذي ينفي أن تكون تلك المطالبات هي السبب في اتجاه لويس التاسع بحملته إلى تونس. وأما بالنسبة للقول الثاني فإنه من المستبعد أيضاً إن لم يكن من المستحيل أن توجه حملة ضخمة تتكلف نفقات باهظة تستنزف كثيراً من إمكانيات الشعب الفرنسي وطاقاته ويؤكد الملك مشاق

(١) ابن السماع : المصدر السابق ص ٦٥ - ٦٦.

R. Brunschvig : Op. Cit., Tom, 1, p.56 - 57.

(٢)

(٣) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٢٩١.

السفر من أجل كلمة قيلت - هذا إذا صحت الرواية - علاوة على أن المصادر المسيحية لم تشر إليها، والأصح من كلا القولين أن الأسباب الحقيقية لهذا الأمر أعمق من ذلك بكثير.

أما معظم المراجع الغربية وكذلك العديد من العربية التي اعتمدت عليها فإنها تعزو ذلك لسببين رئيسيين هما جهود شارل صاحب أنجو ملك الصقليتين الذي تحقيقاً لمصلحته الذاتية تمكن من إقناع أخيه لويس التاسع بالاتجاه بالحملة إلى إفريقيا، ثم تحقيقاً للنزعة الدينية القوية لدى الملك الفرنسي التي صورت له أن بإمكانه بهذه الحملة أن يقضي على تردد السلطان الحفصي الذي كما زعم بعض رجال الدين من بطانة لويس التاسع يدي ميلاً نحو المسيحية، ويقوم بتنصيبه حيث كان من المأمول أيضاً اقتداء شعبه به في الارتداد عن الإسلام واعتناق المسيحية^(١)، وتمثل مصالح شارل في رأي أصحاب هذه المراجع في ناحيتين أولاهما إجبار المستنصر على أن يدفع له الأتاوة التي كان يؤديها لأملأه ملوك الصقليتين من أسره الهوهنشتاوفن^(٢)، وثانيهما كف المستنصر عن دعم

(١) انظر على سبيل المثال : Leon Cristiani : Op. Cit., p.131 & p.237., Paul Guth : Op. Cit., p.184 - 5, K. M. Setton : Op. Cit., v.2, p.512, Albert Garreau : Op. Cit., p.191, M. Talbi : Op. Cit., p.257., H. E. Mayer : Op. Cit., p.270., S. Clissoid : Op. Cit., p.19, David O'connell : La propose de Saint Louis, p.82 - 83.

حسن حسني عبد الوهاب : خلاصة تاريخ تونس ص ١٣٠، العروسي المطوي : الحروب الصليبية ص ١٠٠، د. محمد محمد أمين : المرجع السابق ص ١٥٧ - ١٥٨.

(٢) أصل هذه الأتاوة التي فرضها ملوك صقلية على حكام إفريقيا لفترة طويلة يكتشف الغموض، ولا ننري إذا كان ذلك يعود إلى أيام النورمان حينما فرض رجار الثاني أتاوة سنوية على الأمير الحسن بن علي الزيري كما ذكرناه آنفاً، أم أنها تعود كما يقول كل من (D. Abulafia : Ibid, p.124) و(K. M. Setton : Ibid, v.2, p.32 & 42). إلى سنة ١١٨٠م حينما وافق الخليفة الموحد أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن على أن يدفع للخزينة الصقلية مبلغاً سنوياً من المال دون أي احتمال في أن يكون في ذلك أي تبعية سياسية بطبيعة الحال، إنما هو نظير حماية التجار المسلمين من أهل إفريقيا الذين كانوا يصلون إلى صقلية لشراء السلع الصقلية وخاصة القمح حاجة إفريقيا إليه وبصفة خاصة في سنوات القحط والجاعة وذلك بموجب اتفاقية بينه وبين وليام الثاني مدتها عشر سنوات والتي ظل وليام حريصاً على تطبيقها حتى إنه طلب من ابن غانية كما يقول (K. M. Setton : Ibid, v.2, p.33) عدم خلق المشاكل التي قد تكون سبباً في نقضها. أو أن ذلك يعود إلى وقت لاحق حينما عقدت المعاهدة بين الإمبراطور فردريك الثاني والأمير أبي زكريا الأول الحفصي حسب رأي برنجنفيلد (Brunschvig : Ibid, Tom. P.54) في سنة ١٢٣٩م حينما شدد فردريك الثاني الرقابة على تصديره

مناوئي شارل في صقلية وإيواء الهاربين منهم إلى بلاده علاوة على إمكانية الاستفادة من الحملة في تحقيق خطوة هامة على طريق تنفيذ مشاريعه في إنشاء إمبراطورية واسعة في شواطئ البحر الأبيض المتوسط. وأما برنجفيك فإنه يعزو ذلك لسببين رئيسيين هما اعتقاد الملك الفرنسي بأن احتلال إفريقية سيسهل عليه مهمته ضد دولة المالك في مصر والشام، ثم كما سبق أن ذكرنا الأمل في اعتناق المستنصر المسيحية وإن كان هذا الأمل في رأيه كان يسلو واهياً إلا أن لويس التاسع قد تعلق به، ولفهم ذلك يرى برنجفيك أن هذا الأمر يتطلب البحث في عقلية الملك نفسه وأنه ينبغي تذكر عقيدته القوية وجهوده في سبيل تنصير خانات التتار وتأثير المنصرين من الفرائسيكان والدومنيكان البالغ في معتقده والذين كانوا نشيطين في الدولة الحفصية وكان كثير منهم قد شارك في الحروب الصليبية واستطاعوا إقناع الملك منذ السنة السابقة على قيام الحملة بإمكانية تنصير السلطان الحفصي^(١)، وينبغي أن يكون لشارل صاحب أنجو أي علاقة في تحويل اتجاه الحملة إلى إفريقية بل على العكس من ذلك يعتبر أن ذلك التحويل ضد مصلحته لأن

«القمح من صقلية إلى إفريقية، وبعد عقد تلك المعاهدة وفي ربيع سنة ١٢٤٠م على وجه التحديد أمر فردريك ونظير حصوله على مبلغ سنوي من المال من أبي زكريا بإطلاق حرية التجارة بين صقلية وإفريقية ضم وقطع تبعاً لذلك لمحن ألف حمل من القمح الصقلي إلى إفريقية، وأياً كان الأمر فإن ذلك لم يتضمن أي تبعية سياسية من ناحية، كما أنه من الثابت أنها لم تكن تدفع بانتظام من ناحية ثانية، وإنما كما يقول برنجفيك كان للحققيين مقابل واضح لهذا المبلغ يمثل في ممارسة النشاط التجاري البحري ممارسة خالية من كل شرط أو قيد وفي انتفاع الجمارك التونسية من النشاط التجاري للنصارى مما كان يوفر عائدات هامة للخزينة الحفصية. وبترلي شارل عرش مملكة الصقليين اعتبرها حقاً مكتسباً لمملكته فطالب بها حتى كرستها معاهدة الصلح بين المستنصر والصليبيين كما سيذكر فيما بعد. ثم طالب بها ملوك أرغونة بعد ذلك حينما تبجحهم صقلية مما جعل الدولة الحفصية الضعيفة وقبلاً بفرعها التونسي والبيجاني تلتزم بدفعها إلى صقلية منذ سنة ١٢١٤م، وفي سنة ١٢٦٠ اعترف أبو اسحق الثاني الحفصي في المعاهدة التي أمضاها مع ملك أرغونة بأنه مدني له بهذه الأثارة وبقي الأمر كذلك إلى أن ألفاها بعد ذلك بضع سنوات السلطان الحفصي الحازم أبو الصباس أحمد إلى الأبد

عن هذا الموضوع انظر : N. Daniel : Op. Cit., p.142, D. Abulafia : Op. Cit., 124., M. M. Basset : Op. Cit., p.94, R. Brunschvig : Op. Cit., Tom 1, p53 - 4 & 431 - 2, K. M. Setton : Op. Cit., v. 2, p.32 & 42. M. Talbi : Op. Cit., p.246

R. Brunschvig : Ibid, Tom, 1, p.57.

(١)

شارل كان يتطلع إلى الشرق وبصفة خاصة إلى أملاك النوبة البيزنطية ولم يكن له مطامع في إفريقية.

وإننا إذ نتفق مع برنجفليك في وجهة نظره المتشككة في استبعاد أن يكون لشارل علاقة في اتجاه الحملة إلى إفريقية ونعتبر أن الحجج والبراهين التي ساقها للتدليل على صحة رأيه مقنعة^(١)، وإن كان لم يوفها حقها من التوضيح، فإننا نخلف في تحليله لأسباب هذا التحول في مسار الحملة، وبناء على ذلك فإننا نرى أنه ينبغي لتوضيح موقف شارل أن نتعرض لهذا الموضوع بمزيد من التفصيل. فبالرغم من التوتر الشديد في العلاقات بين المستنصر وشارل منذ اعتلاء الأخير عرش مملكة الصقليتين نظراً لأن المستنصر رجع نفسه في الصراع الذي كانت تدور رحاه بين شارل وأمرة الهوهشتاوفن ومساعداته التي قدمها لهذه الأسرة وأنصارها ربما خشية من مطامع شارل وطموحاته وإيوائه لناوئي شارل هؤلاء وبصفة خاصة لإيوائه لكل من هنري (Henri) وفردريك القشتالي (Frederic de Castilla) أخوي ألفونسو العاشر ملك قشتالة اللذين لجأ إليهما هرباً من أنجيها منذ سنة ١٢٦٠م^(٢) وأصبعا فيما بعد من أبرز أنصار الهوهشتاوفن، حيث انضموا إلى قوات مانفريد (Manfred) ملك صقلية الهوهشتاوفن حينما التقى بشارل الزاحف بجيشه إلى جنوب إيطاليا في معركة (Benevent) في فبراير سنة ١٢٦٦م / ٦٦٤هـ^(٣)، وبعد هزيمة مانفريد ومصرعه في المعركة عاد فردريك إلى تونس فضلاً عن عدد آخر من أنصار مانفريد الذين لجأوا إليها وكان من أبرزهم Nicolas Meletta و Fredric Lancia^(٤) والذين انضموا بعد ذلك إلى كونرادين (Conradin) وريث الهوهشتاوفن المطالب بعرش صقلية والذي أرسل في ربيع سنة ١٢٦٧م / ٦٦٥هـ يستدعيهما للانضمام إلى قواته التي يقوم بحشدتها لانتزاع صقلية من شارل، فغادر خمسمائة منهم تونس في أواخر أغسطس سنة ١٢٦٧م / ٦٦٥هـ على سفن قدمتها يزا

R. Brunschwig : Op. Cit., Tom, 1, p.53 - 54.

(١)

(٢) انظر ابن القنفذ: المصدر السابق ص ١٢٣.

M. Talbi : Op. Cit., p.246.

(٣) لمزيد من التفصيل عن الحرب بين شارل ومانفريد انظر :

R. Brunschwig : Ibid, Tom, 1, p.53 - 4., M. Talbi : Ibid, p.247.

(٤)

لكونرادين لهذا الغرض^(١)، وحاربوا شارل إلى جانب كونرادين في معركة (Togliacozza) وعودة هؤلاء إلى تونس ثانية إثر مقتل كونرادين بعد هزيمته في تلك المعركة بشهرين مما جعل شارل يعتبر أن موقف السلطان الحفصي عملاً عدوانياً موجهاً ضده^(٢) الأمر الذي أدى إلى أزمة شديدة بين العاهلين، بالرغم من كل ذلك فقد كانت هذه الأزمة آخذة في الانقراج وبدأت العلاقات في التحسن منذ أوائل سنة ١٢٦٨م / ٦٦٦هـ أي قبل قيام لويس التاسع بحملته بحوالي سنة ونصف على الأقل، والدليل على ذلك أنه في ٢٠ أبريل سنة ١٢٦٨م / ٦٦٦هـ قامت مدينة مرسيليا التي كانت تابعة لشارل آنذاك بتسمية أحد مواطنيها وهو Hugues Borgonion قنصلاً لها في بجاية التي كانت وقتئذ تابعة للمستنصر الحفصي^(٣) وقد استمرت العلاقات بين الطرفين في التحسن وتبدلت بينهما منذ ذلك الوقت عدة سفارات، وليس أدل على التقارب بينهما مما تضمنته رسالة من شارل إلى نائبه في لوجارة (Lucera) مؤرخة في ١٨ أغسطس سنة ١٢٦٩م / ٦٦٧هـ بأمره فيها بمنح المسلمين في صقلية أهم المناصب الإدارية وأعلهاها في حكومة الجزيرة بالرغم من ترمدهم على حكمه - وكان هذا مما يرضي الحفصيين - كما أمره بأن يستقبل سفراء السلطان الحفصي القادمين إليه استقبالا لائقا ومشرفا^(٤)، الأمر الذي يثبت زوال الأحقاد والضغائن بين العاهلين. وإذا كان قد بقي بينهما موضوع الأتاوة لا زال معلقاً والتي يحتمل أن يكون شارل قد طالب المستنصر بها أثناء فترة توتر العلاقات بينهما^(٥)، فإن المفاوضات كانت جارية بين الطرفين في جو ودي لتسويتها وتبدلت عدة سفارات بينهما لهذا الغرض كان من ضمنها سفارة في ٢٢ أبريل سنة ١٢٧٠م ترأسها الراهب Berengar^(٦) أي بعد رحيل لويس التاسع عن باريس في طريقه إلى تونس بأكثر من شهر ونصف. كما يذكر Pierre de Condet في رسالته الثالثة الموجهة إلى Mathew Vandome رئيس دير القديس دينيس Saint - Denis وأحد نائبي لويس التاسع

(١) R. Brunschvig Op. Cit., Tom, 1, p.54., K. M. Setton : Op. Cit., V.2, p.512.

(٢) R. Brunschvig : Ibid, Tom, 1, p.54.

(٣) R. Brunschvig : Ibid, Tom, 1, p.54.

(٤) R. Brunschvig : Ibid, Tom, 1, p.54.

(٥) R. Brunschvig : Ibid, Tom, 1, p.54 - 5.

(٦) R. Brunschvig : Ibid, Tom, 1, p.55.

الذين استخلفهما في حكم المملكة عند رحيله إلى تونس أن شارل كان حتى أثناء وجود الصليبيين في قرطاجنة وقبيل رحيله إلى إفريقية كان لا يزال يفاوض المستعمر بشأن هذه الأتاوة فأرسل رسولاً له من أجل هذا الغرض، وأن المستعمر قد وافق على دفعها عن المدة التي تبدأ باعلاء شارل عرش صقلية ولكن نقطة الخلاف بين الطرفين كانت هي أن شارل كان يطلب بدفعها أيضاً عن السنوات التي لم تدفع فيها في عهد كل من فريدرىك الثاني ومانفرد^(١) اللذين سبقاه في حكم الجزيرة حيث إنها كما ذكرنا لم تكن تدفع بانتظام. وبالتالي فإنه ما دام شارل كان قد حل معظم خلافاته مع السلطان الحفصي وما لم يحل فإن المفاوضات كانت جارية بين الطرفين لعله فإنه لم يكن في صالحه أن يقنع أخاه بتوجيه الحملة إلى إفريقية لأن ذلك سيكون سبباً هاماً ومباشراً في تأزم الوضع بين الطرفين من جديد، كما أن احتلال لويس التاسع لإفريقية سيحرمه من هذه الأتاوة بكليتها، لذلك فإننا نستبعد أن يكون له دخل في تحويل مسار تلك الحملة، وأما تعليل اشتراكه فيها بالرغم من كونها لا تتوافق مع مصالحه فإن ذلك يعود في رأينا لسببين هامين أولهما رغبته في عدم الظهور بمظهر المتخاذل في الحروب الصليبية أو من يؤثر مصلحته الشخصية على مصلحة الحركة الصليبية، لا سيما وأنه كان يدين بعرشه للبابوية الزعيم الروحي لتلك الحركة، خاصة وأن مصير الهوهنشتاوفن الذين خرجوا عن إرادتها كان لا يزال ماثلاً أمام عينيه وأن وصوله إلى عرش الصقليتين لم يكن إلا ثمرة لغضبها على تلك الأسرة، وثانيهما حرصه على أن لا يسيطر الصليبيون على إفريقية بدون مشاركته فيما إذا كتب للحملة النجاح لأن ذلك سيورطه في مشاكل وتعقيدات كثيرة كان هو في غنى عنها، ودليلاً على ذلك تلك الرسالة التي بعث بها لأخيه لويس التاسع أثناء وجود الأخير في قرطاجنة يطلب منه فيها عدم شن هجوم رئيسي على المسلمين أو الدخول مع السلطان الحفصي في مفاوضات لحين حضوره كما سيذكر في موضعه، ولعل فيما قاله كل من شارل أندري جوليان^(٢) و (Jean Larcena)^(٣)، فضلاً عن

Pierre de Condat : Saint Louis Roi de France, presente par le duc de Levis Mirepoix, la (١) memorial des siscles, seri 13, etabli par Girurd Walter, p.229.

(٢) شارل أندري جوليان : المرجع السابق ج ٢ ص ١٨٠.

Jean Larcena : Op. Cit., p.184 - 5.

(٣)

برغمفليك باستبعاد أن يكون لشارل أي دور في توجيه الحملة إلى إفريقية ما يدعم وجهة نظرنا، ويضيف (Jean Larcena) دليلاً هاماً آخر على ما سبق أن ذكرناه حول هذا الموضوع هو أن (Robert Primat) الذي تخصص في التأريخ لشارل لم يشر إلى تدخل الأخير في توجيه هذه الحملة وجهتها الآفة الذكر^(١)، وبما جعل المؤرخين في رأينا يتهمون شارل هذه التهمة الباطلة هو أنه كان المستفيد الرئيسي من نتيجة تلك الحملة مع أنه حقق هذه الفائدة من وضع لم يتسبب فيه، فكان دوره كما يقول بول لابل (Paul Labal)^(٢) ينحصر فقط في أنه حينما لمس أوضاع الصليبيين المتردية استغل وجود الحملة في تونس وقد أصبح المرجح لها بعد وفاة أخيه ليفرض على المستنصر الاستجابة لمطالبه.

وكما استبعدنا دور شارل في اتجاه هذه الحملة إلى إفريقية، نستبعد أيضاً ما ذكره كل من (Paul Guth)^(٣)، و (Leon Cristiani)^(٤)، و (K. M. Setton)^(٥) في تعليلهم لهذا الأمر من أن الملك الفرنسي بغزوه إفريقية ربما كان يهدف إلى إضعاف دولة المالبيك لأنه باحتلالها يحرمها من الحصول على المحاريرين والخيول التي كانت إفريقية في رأي (Paul Guth) أعم مصدر لهما بالنسبة للجيش المالبيكي ذلك لأننا لم نجد في المصادر التاريخية الإسلامية أو الغربية المتيسرة ما يدعم هذا القول، اللهم إلا إذا كان ما ظنه (Paul Guth) بالمحاربين إن صح أن لويس التامع قد اعتقد ذلك هو ركب الحجاج المغاربة الذي كان يتوجه منوياً إلى المشرق والذي لم يكن من إفريقية وحدها وإنما من أنحاء المغرب الإسلامي بأسره. حتى الافتراض الذي قدمه (K. M. Setton)^(٦) لهذا الموضوع من أن لويس التامع ربما كان يجهل جغرافية إفريقية وأنه تبعاً لذلك قد ظنّها قرية جداً من مصر وبالتالي تقدم لها هذا الدعم هو افتراض غير مقبول إذ كل الدلائل تشير إلى أنه كان على معرفة جيدة

Jean Larcena : Op. Cit., p.185. (١)

Paul Labal : Op. Cit., p.124. (٢)

Paul Guth : Op. Cit., p.237. (٣)

Leon Cristiani : Op. Cit., p.187. (٤)

K. M. Setton : Op. Cit., Vol, 2, p.514. (٥)

K. M. Setton : Ibid, Vol. 2, p.514. (٦)

بتلك الجغرافية، فالاتصالات بين إفريقية والممالك النصرانية في العدة الشمالية للبحر الأبيض المتوسط كانت مستمرة وبصور مختلفة وكان أهل كل من العدوتين على اطلاع واسع بطبيعة العدة الأخرى، وحتى لو تطرق إلينا الشك في دور التجار النصراني والسفراء والرهبان الدومنيكان والفرانسيكان الذين كانوا يمارسون نشاطهم بدرجة ملحوظة في الدولة الحفصية كما سيأتي ذكره، يضاف إلى ذلك أعضاء المنظمات الرهبانية الأخرى أمثال منظمة الأخوة ذوي الحمير (Donky Brothers) الوثيقة الصلة بالملك الفرنسي والتي كان أعضاؤها يجوبون أنحاء المغرب العربي بحثاً عن الأسرى المسيحيين للعمل على إطلاق سراحهم^(١) والذين كانوا دون شك يطلعون على المعلومات اللازمة له، فإن هذا الشك لا يبقى له مجال إذا عرفنا أن أندري لونغجيميوه صديق الملك الفرنسي قد قضى في تونس فترة طويلة قبل الحملة اطلع خلالها على ما كان يحتاجه من معلومات كما سيذكر فيما بعد، ثم إن لويس التاسع لم يكن من النوع المتهور بحيث يقوم بحملة على بلد يجهل جغرافيته أو يستند إلى وهم. والدليل على شدة اهتمامه بالناحية الجغرافية أنه كان مزوداً بخرائط ملاحية دقيقة للقسم الغربي من البحر الأبيض المتوسط بحيث إنه كان يستطيع بها وهو في عرض البحر تحديد الموقع الذي هو فيه بدقة^(٢)، وأخيراً هل كان من الممكن للويس أن لا يستفيد من العبرة التي مرت به فيكرر خطأه السابق لتحل به كارثة جديدة كذلك الكارثة التي حلت به في مصر والتي كان أحد أسبابها الهامة جهله بجغرافية الدلتا المصري؟ ولعل في التعليل الثاني الذي أورده (Paul Guth)^(٣) وانتمثل في أن الملك الفرنسي قد هدف بالإضافة إلى افتراضه الأول الأنف الذكر إلى القضاء على القرصنة

(١) تأسست هذه المنظمة سنة ١١٩٨م لاختفك الأسرى المسيحيين من المسلمين والناحية بهم وكان مقرها (Saint Maturin) بباريس، وكان أعضاؤها يلقبون بالقلب الذي ذكرناه في المتن والذي ترجمناه بتصريف ذلك أن ترجمته الحرفية هي (أخوة الحمير) ولقبوا بذلك لامتعالهم الحمير في تغلاتهم، وكانت هذه المنظمة وثيقة الصلة بـلويس التاسع بالذات وكان يصطبغ العديد من أعضائها في حملاته الصليبية كما أنه اختار بعض القساوسة المراقبين له من بينهم. مزيد من التفصيل انظر : R. Bruschvig : Op. Cit., Tom, 1, p.455., S. Clossoid : Op. Cit., p.13 - 4.

(٢) خوان برنيت : بحث (هل هناك أصل عربي لإسباني لفن الخرائط البحرية؟)، ترجمة د. أحمد مختار العبادي، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمطرد، العدد الأول ١٣٧٢هـ / ١٩٥٣م، ص ٧٢ - ٧٣.

(٣) Paul Guth : Op. Cit., p.237.

البحرية التي كان يمارسها مسلمو إفريقية ضد السفن المسيحية المارة قرب سواحل بلادهم تجاوز كبير أيضاً للحقيقة، ذلك أن البحرية الإسلامية في غرب المتوسط كان قد اتانها ضعف شديد منذ زمن طويل بحيث لم تعد تشكل خطورة جدية على السفن المسيحية في تلك المنطقة بل على العكس هو الصحيح فالسيطرة المسيحية على تلك المنطقة من البحر الأبيض المتوسط كانت في تلك الآونة سيطرة شبه كاملة، وإذا وجدت بعض أعمال الغزو البحري من بعض المسلمين فإنها كانت محدودة لا تستحق ولا تتطلب مثل هذه الحملة الضخمة للقضاء عليها.

والآن، وبعد أن استعرضنا تلك الأقوال والآراء والرد عليها نعود إلى التساؤل الذي طرحناه في البداية مرة أخرى وهو ما هي الأسباب الحقيقية التي دفعت لويس التاسع إلى الاتجاه بحملته الجديدة إلى إفريقية؟ إن المدخل الصحيح للوصول إلى معرفة هذه الأسباب في رأينا يفرض علينا العودة إلى تذكر أهداف الحركة الصليبية التي كان الملك الفرنسي يؤمن بها أبداً الإيمان وكرس حياته لأجلها وبذل كل ما استطاع من جهد في سبيل خدشتها والعمل على تحقيقها، إن الملك الفرنسي في رأينا قصد بهذه الحملة تحقيق أقصى ما يستطيع من أهداف الحركة الصليبية الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية، وكل ما يقال عدا ذلك أو يفسر في ضوء تطورات التاريخ الأوروبي فإنه يعتبر في رأينا صرفاً للأذهان عن هذه الحقيقة. ولتوضيح ذلك ينبغي التعرض لهذا الأمر بشيء من التفصيل.

تتمثل الأهداف الدينية للملك الفرنسي في أمر هام هو تنصير مسلمي إفريقية وإعادة بلادهم إلى حظيرة المسيحية. ولعل فيما قاله ابن خلدون المؤرخ المسلم الواسع الأفق ما يؤكد هذه الحقيقة حين يقول في مستهل حديثه عن هذه الحملة : (... وكان ولاية الأغالية ومن قبلهم أيضاً يرددون عساكر المسلمين وأساطيلهم من العدة حتى غلبوه - أي الترنج - على الجزر البحرية ونازلوهم في بساطت عدوتهم فلم تزل في نفوسهم من ذلك ضغائن فكان يخالجهما الطمع في ارجاع ما غلبوا عليه منها)^(١)، فهذا أمر قد جرى التخطيط له بعناية

(١) ابن خلدون: المصدر السابق ج ٦ ص ٢٩٠.

وهدف بذلك الكثير من المجهود في سبيل تحقيقه، ولم يكن جرياً وراء وهم خلقه فجأة في ذهن الملك الفرنسي بطاقته من الفرانسييسكان والدومنيكان، أو شطحة خيالية كما تحاول أن تشيعه العديد من المراجع الغربية، مرددة أن شدة إيمان هذا الملك وتقائه هما اللذان جعلتا ذلك الوهم يصبح في ذهنه كأنه حقيقة، ذلك أن الوهم المفاجئ والشطحة الخيالية شيء والهدف المخطط لتحقيقه بدقة وعناية شيء آخر. ثم إن ما يستلفت انتباه الباحث حقاً هو تلك الهالة من التدين والورع والتقوى التي تحاول المصادر والمراجع الغربية إضفاءها على هذا الملك، وأنه لما يؤسف له حقاً أن العديد من المراجع العربية تردد ما تذكره هذه المصادر والمراجع من تلك الصفات آخذة الأمر على علته دون مناقشته. فهل كان لويس التاسع حقاً يتمتع بهذه الصفات؟ الحقيقة أنه كان صليبياً حقاً وليس فقط مجرد مسيحي كما ينفي للمسيحي المتمسك بمبادئ الديانة المسيحية الصحيحة أن يكون، فالمسيحية الصحيحة كديانة سماوية شيء والصليبية شيء آخر، إن المراجع الغربية الحديثة اعتمدت في إطلاقها هذه الصفات على الملك الفرنسي على سابقتها من المصادر المسيحية التي جعلت التمسك بالأفكار الصليبية هو مقياس التدين والتقوى لدى المسيحي.

ولويس التاسع في رأينا كان نموذجاً ممتازاً للصليبي وليس للمسيحي المتدين، لقد كان صليبياً متعصباً تعصباً أعمى ضد المسلمين، ولعل نشأته أثره القوي على ذلك، فكون أمه بلانش (بلانكا) قشتالية، نشأت في ظل المفاهيم الصليبية الإسبانية وتشيبت بها، جعلها تفرس هذا التعصب ضد المسلمين في نفس ابنها منذ الصغر وتربيه على كرههم فضلاً عما أثر فيه البلاط الفرنسي الوثيق الصلة بالبابوية، فنشأ تبعاً لذلك مفعماً بالروح الصليبية، وإذا أدركنا هذه الحقيقة ووعيناها فإنها تقودنا إلى حقيقة أخرى هي أن لويس التاسع كان يحاول بحملته هذه تنصير مسلمي إفريقيا بالحسنى أو بالقوة فإن ذلك كان لديه سيان، وكان ابن خلدون في تعليقه الآنف الذكر لغزو لويس التاسع لإفريقية من بين المؤرخين المسلمين القلة الذين أدركوا حقيقة هذا الأمر، ولعل فيما قاله برنغتيك في معرض حديثه عن أسباب اتجاه هذا الملك بحملته إلى إفريقيا ما يمكن اعتباره دليلاً على صحة رأي ابن خلدون، بالرغم من أن برنغتيك يحوم حول السبب الحقيقي دون الإشارة المباشرة إليه في محاولة يبدو أنها متعمدة كعادته دائماً في كل أمر مشابه من أن السبب في ذلك يعود إلى الأفكار التي كانت

سائدة في تلك الفترة من العصور الوسطى^(١)، فهل كان شائعاً في تلك الفترة تجاه الإسلام إلا البغض والحقد والتعصب والرغبة في الانتقام لما حل بالمسيحية والكنيسة من انحصار إثر انتشار الإسلام على حسابها^(٢)؟ هذه الأفكار التي جرى تلخيصها كلها في عبارة موجزة شاملة المعنى كانت تلقن للصليبي : عليك (أن تؤمن وتضرب)^(٣)، وهل على هذا الصليبي إلا أن يضرب المسلمين أينما كانوا؟

لذلك، بدأت تطلعات لويس التاسع لإفريقية والعمل على تنصير سلطانها ومسلميها قبل القيام بحملته تلك بوقت طويل، ويمكننا تبين ذلك من نشاط رهبان منظمي الفرنسيين والديومنيكان الكبير فيها^(٤) قبل الحملة والعلاقة بين هؤلاء والملوك الفرنسيين واضحة، وأقل ما يقال في ذلك إنه كان يحيط بنفسه برهبان هاتين المنطقتين فأثروا فيه تأثيراً كاملاً ومباشراً^(٥)، ثم ما يعتقد العديد من المؤرخين من أن سفر أندري لونغجييميه (Andre de Longjumeau) إلى إفريقية كان بإيعاز من لويس التاسع والذي كان أندري أحد أتباعه المخلصين وكاتم أسرار وخبيره لشؤون الشرق^(٦) فضلاً عن أنه كان يشاركه طموحاته الصليبية حيث توجه إليها بعد عودته من المهمة التي أوفده لويس من أجلها إلى قراقورم مقر خاقان التار، وأقام في تونس في وقت غير معروف بين سنتي ١٢٥٤م - ١٢٦٩م / ٦٥٢هـ - ٦٦٨هـ يمارس نشاطاته التقصيرية^(٧)، إذ من غير المستبعد أن تكون مهمته الرئيسية نظراً لعلاقته الوثيقة بالملك الفرنسي هي إجراء دراسة شاملة لأوضاع المسلمين فيها لما كان يتمتع به من معرفة واسعة بالمسلمين لصلته الطويلة بهم في بلاد الشام وفارس وإثفاته اللغوية العربية، ومن الثابت تاريخياً أنه عاد إلى فرنسا قبل سنة ١٢٧٠م / ٦٦٩هـ وأنه لم يرافق لويس التاسع

R. Brunschvig : Op. Cit., Tom, 1, p.57. (١)

(٢) د. سعيد عاصور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٢٣٧، طاهر راجب حسين : المرجع السابق ص ١٩٩.

M. Talbi : Op. Cit., p.245. (٣)

R. Brunschvig : Ibid, Tom, 1, p.454. (٤) لمزيد من التفصيل انظر

Robert Fawtiez : The Capetian Kings of France, p.31. (٥) انظر :

وانظر د. سعيد عاصور : أوروبا العصور الوسطى ج ١ ص ٢٧٦.

A. N. cl. Hachette : Op. Cit., p.233. (٦)

A. S. Atiya : Op. Cit., p.88., Paul Labal : Op. Cit., p.123. (٧)

في الحملة ربما بسبب كبر سنه، ومن المعتقد أنه أطلع الملك على نتائج رحلته التي من الصعب تقدير مدى أهميتها^(١) نظراً لقلة المعلومات عنها في المصادر التاريخية ربما بسبب طبيعتها الآتفة الذكر مما كان سبباً في التعتيم عليها. وبالإضافة إلى جهود أندري لوجمبيويه وغيره من رهبان الدومنيكان والفرانسيسكان في هذا المجال، كان هنالك راهب آخر يقيم في تونس ويمارس نشاطه التصوري فيها بكل حرية هو رامون مارتني (Raymond Martin) أستاذ اللغتين العربية والعبرية في دير الدومنيكان بتونس وصديق المستنصر الحفصني^(٢) كما سيذكر فيما بعد والذي كان على اتصال وثيق بلويس التاسع والذي نظراً لصلته القوية بالعاقلين يعتبر العديد من المؤرخين إصرار لويس على الاتجاه بحملته إلى إفريقية إنما كان بوحى منه^(٣)، وكل هذه الأدلة لا تشير إلى مدى اهتمام لويس التاسع بتحقيق هدف الحركة الصليبية الدني في إفريقية والمتمثل في تنصير مسلميها وبالتالي إعادتها للمسيحية فحسب، وإنما تشير أيضاً إلى الخطوات العملية التي قام بها في سبيل تحقيق هذا الهدف.

ويزيدنا نانجي Guillaume de Nangis أيضاً لهذا التخطيط الذي كان يقوم به لويس التاسع في سبيل الوصول لهذا الهدف بقوله إنه كان هنالك كثير من المحادثات السرية بين ملك فرنسا والسلطان الحفصني تسجل ميل الأخير للتصير مما جعل الملك الفرنسي يردد في أحيان كثيرة الإعراب عن أمنيته في تحقيق هذا الأمل بقوله : (آه، يا إلهي لو أستطيع أن أنصر عدوك وأبعده عن الكفر ليؤمن بك)^(٤) ويمضي نانجي في روايته قائلاً إنه كثيراً ما عزم المستنصر على الذهاب إلى كراكسون (Carcassonne) وناربونة (Narbonne) وكأنه ذاهب لزيارة المشاهد المقدسة فيها حتى يتم تعميده هنالك^(٥). وإنما إذ تتفق مع نانجي في أنه كانت هنالك جهود مكثفة تبذل في سبيل تنصير السلطان الحفصني عبرت عنها اتصالات عديدة جرت بين هذا السلطان والملك الفرنسي سواء عن طريق مباشر أو غير مباشر، ولكننا نختلف معه في قوله إن هذه

A. S. Atiya : Op. Cit., p.88 - 9.

(١)

(٢) شارل أندري جولييان : المرجع السابق ج ٢ ص ١٨٠.

(٣) شارل أندري جولييان : المرجع السابق ج ٢ ص ١٨٠.

Nangis : Op. Cit., XX, 449, See also : Jean Larcena : Op. Cit., p.185.

(٤)

Nangis : Ibid, XX, 449.

(٥)

الاتصالات أظهرت ميل السلطان الحفصي للتصبر، وحقيقة الأمر في اعتقادنا أن القائمين على مشروع تصوير هذا السلطان اعتبروا التسامح الذي كان يتصف به ميلاً منه للتصبر لأن التسامح كان شيئاً غير معروف لدى القائمين على الحركة الصليبية، وكل ما كانوا يعتقدون فيه هو التعصب ضد المسلمين، فكانوا تبعاً لذلك يظنون أن كل تسامح يبدو من مسلم تجاه المسيحية هو ميل منه لاعتناقها، لذلك فإن ما اعتقده نانجي لا يعنوا كونه أمانياً فقط ولا تمت للحقيقة بصلة.

وكان تصرف لويس التاسع مع سفراء المستنصر أثناء الاحتفال بتعميد اليهودي الذي سبق أن أشرنا إليه خطوة عملية أخرى في مسيل تنفيذ هدفه، إذ كان ذلك من قبيل الإغناء النفسي للمستنصر وشعبه لتقبل أفكار لويس التاسع وبالتالي الانصياع لها حينما يصل بحملته إلى إفريقيا، لقد قال لهم حسب روايه نانجي : (أخبروا عني سيدكم بأنني شديد الرغبة في إنقاذ روحه حتى لو قضيت بعد ذلك ما بقي لي من عمر في سجون مسلمي إفريقيا لا أرى فيها النور مقابل تعميد ملككم ورعته تعميداً صادقاً كما نصرت هذا اليهودي لفعلت^(١))، فهل يوجد أبلغ من هذا الدليل على الهدف الديني الذي كان الملك الفرنسي يسعى لتحقيقه؟ ثم يتابع روايته التي تلقى مزيداً من الإيضاح على هذا الموضوع حيث يضيف أن لويس التاسع أُرْدِف للسفراء قائلاً : (إن لويس يريد للمسيحية أن تزدهر في تلك البلاد الإفريقية خاصة قرطاجة، تلك البلاد التي عرفت المسيحية الازدهار فيها أيام القديس أوغسطين وغيره الذين قاموا على رعاية هذه الديانة، أخبروا ملككم أن القديس لويس يرجو لهذه الديانة التي آتت ثمارها في الماضي أن تزدهر اليوم تعظيماً وتمجيداً لإلهنا المسيح^(٢))، وبناء على ذلك فإن لويس التاسع لم يقيم بحملته تلك لتحقيق هذا الهدف مدفوعاً بحمي هوس تعلق به وحرمة من التخطيط السليم لم يقدر عواقبه كما تشيع بعض المصادر والمراجع الغربية محاولة منها لإيجاد المبررات لما نبي به من فشل، وإنما كان يعمل بكل ما أوتي من قوة ووسعه الجهد والتخطيط لتحقيق هدف صليبي لم يرح مخيلة القائمين على الحركة الصليبية، ويمكننا القول تبعاً لذلك أن تلك الحملة قد قامت على دراسات وافية

(١) Nangis : Op. Cit., XX, 449, see also : David O'connell : Op. Cit., p.82 - 3, Paul Guth : (١) Op. Cit., p.237, M. Talbi : Op. Cit., p.250 - 1, Leon Cristiani : Op. Cit., 184 - 5, Jean Iarcena : Op. Cit., p.185., Albert Garreau : Op. Cit., p.192 - 3.

Nangis: Ibid, XX, 449.

(٢)

وإعداد كبير، وقد بنيت خطته على أسس ثابتة وقوية، فبعد مرحلة المسح الشامل لأوضاع المسلمين في إفريقية التي قام بها رهبان منظمتي الفرانسيسكان والدومنيكان وبصفة خاصة لونغجيميوه ومارتي، ثم مرحلة الإعداد النفسي للمسلمين بما قاله للسفراء، وفي كلتا المرحلتين كانت الجهود متركزة على تنصير السلطان الحفصي، بدأت مرحلة ثالثة في تنفيذ هذه الخطوة أيضاً هي العمل على تنصير الشعب نفسه بيت دعاة التنصير بين طبقاته وقد بدأ هذه المرحلة بقوله لبطانتة : (مسيحة الله، لنبحث كيف يمكن نشر الديانة المسيحية في تونس، ومن عسى من الرجال الذين سنرسلهم وعاظاً لينشروا المعتقد)^(١)، فكان لويس بذلك ينفذ خطة محكمة، وبما يدعم وجهة نظرنا هذه ما قاله (Girard Walter) : (وكثيراً ما جرى ترديد أن الحملة إلى تونس لا تهدف أي مبرر سياسي، ولم تكن سوى تنفساً عن شطحة دينية عند القديس لويس الذي كان قد أنجمه وانتفى إلى عالم الروح، بينما هي في الحقيقة تقوم على أساس من التفكير متين)^(٢)، ولا شك أن ما جاء في معاهدة الصلح بين المستنصر والصليبيين بهذا الشأن والذي مستعرض له فيما بعد يعتبر دليلاً آخر على هذا الأمر.

وأما الأهداف السياسية لهذه الحملة فتتمثل في محاولة تزييق العالم الإسلامي بفصل غربه عن شرقه، وبالتالي انقسام بلاد المسلمين في الشرقين الأدنى والأوسط إلى جبهتين يجري الضغط على المسلمين فيهما معاً تمهيداً للقضاء على دينهم في آن واحد، إذ بتمركز المسيحيين في إفريقية سواء بتنصير المسلمين من أهلها أو باحتلالها بالقوة العسكرية ينحصر مسلمو الأندلس والمغربين الأدنى والأقصى بين مطرقة المسيحيين الإسبان ومنذان المسيحيين في إفريقية خاصة وأن الوضع في تلك المنطقة كان وقتئذٍ مشجعاً للملك الفرنسي نظراً لانهايار دولة الموحدين قبيل قيام الحملة وتمزق المغرب الإسلامي الذي لا نستبعد أن يكون لويس التاسع قد أخذ ذلك الأمر في اعتباره وحاول الاستفادة منه، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية وضع دولة المماليك الفتية في مصر والشام بين فكي كمانشة أحد طرفيها صليبيو الشام والقوى الأخرى المناهضة للمسلمين في المنطقة والآخر القاعدة الصليبية الجديدة في

Nangis : Op. Cit., XX, 461., Beaulieu : Vita et Sancta Conversatio piae memoriae, Lu- (١)
dovici noni regis Francorum, XX, 23.

Girard Walter : Saint Louis Roi de France. p.124.

(٢)

إفريقية، ومما يدعم وجهة نظرنا هذه ما يقوله (Albert Garreau) في هذا الموضوع : (فما أراده - لويس التاسع - هو أن ينتصب في قلب البحر الأبيض المتوسط وينصر الدولة الحفصية ولا يكون بذلك قد أقعد مصر سنداً طبيعياً لها وقسم الامبراطورية العربية الممتدة من إسبانيا إلى آسيا الصغرى إلى قسمين فحسب، بل جعل من المستنصر أيضاً حليفاً له ضد بيبرس)^(١). ومتى تمكن من تثبيت أقدامه في إفريقية واتخذها قاعدة له يبدأ منها زحفه شرقاً لاجتياح مصر التي فشل في اجتياحها في المرة السابقة من الشمال، ومما يدعم وجهة نظرنا هذه ما يقوله شارل أندري جوليان في هذا الموضوع : (... فقد تمسك الملك عندما تصور أنه في الإمكان أن تصبح إفريقية قاعدة منيعة للمسيحية أو على الأقل منطلقاً للهجوم على بيبرس سلطان مصر الذي أصبح نشاطه ينذر بالخطر)^(٢). ولم تخف هذه الحقيقة عن العديد من المؤرخين المسلمين مثل ابن أبيك الدوادري الذي يقول في حوادث سنة ٦٦١ هـ : (... وتوجه - لويس التاسع - إلى بلاده بعد إطلاقه، وفي قلبه نار لا تطفأ لما جرى عليه. وأضرع في نفسه العودة إلى الديار المصرية لأخذ ثأره. فجمع جمعاً عظيماً، وأهتم اهتماماً زائداً في مدة سنين إلى هذه السنة عزم على التوجه إلى الديار المصرية. فقال له كبار دولته : وأنت قصدت ديار مصر في الأول، وأنت أخبر بما جرى لك، ومن المصلحة أن تقصد تونس من بلاد إفريقية - وكان ملكها يومئذ محمد بن يحيى بن عبد الوهاب - كذا - ويلقب المستنصر - ويدعى له على جميع منابر بلاد إفريقية - فإذا ملكت إفريقية تمكنت من قصدك الديار المصرية براً وبحراً. فرجع إلى قولهم وقصد تونس في عالم عظيم)^(٣)، ويقول المقرئ أيضاً : (وفيها جمع الفرنسي ملك الفرنج عساكره يريد أخذ دمياط، فأفمار عليه أصحابه بقصد تونس أولاً، ليسهل أخذ دمياط بعدها، فسار إلى تونس ونازلها)^(٤).

(١) Albert Garreau : Op. Cit., p.191, Jean Larcena : Op. Cit., p.187.

د. محمد محمد أمين : المرجع السابق ص ١٥٨.

(٢) شارل جوليان : المرجع السابق ج ٢ ص ١٨٠، انظر أيضاً د. سجد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٢٣٨، د. جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ص ٣٥٧ - ٣٥٨.

(٣) ابن أبيك الدوادري : كنز الدرر وجامع الغرر، ج ٨ (الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية) ص ١٠١ - ١٠٢.

(٤) المقرئ : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٥٠٢.

وبالإضافة إلى ذلك كان للملك هدف آخر بهذه الحملة هو حماية جنوب أوروبا من خطر محتمل من الدولة الحفصية، فانطلاقاً من المبدأ الذي قرره في مطلع هذه الدراسة من أن كل قوة معادية لأوروبا تتمركز في العتوة الإفريقية تشكل خطراً على العتوة الشمالية للبحر الأبيض المتوسط والعكس بالعكس، فإن الدولة الحفصية منذ عهد مؤسسها الأمير أبي زكريا الحفصي قد سارت خطى واسعة في سبيل جعل نفسها قوة إسلامية كبيرة في وسط وغرب البحر الأبيض المتوسط لمد الفراغ الذي خلفه انهيار الدولة الموحدة في المنطقة، حتى أصبحت تلك الدولة معقد آمال مسلمي غرب العالم الإسلامي بأسره وموضع تطلعات الدائم للنصرة، لذلك مد مسلمو الأندلس أيديهم إليها كما سبق أن ذكرنا. وقبل وفاة أبي زكريا كانت قد أصبحت القوة الإسلامية الأولى في الغرب، وبلغت هذه الدولة أوج مجدها وازدهارها في عهد ابنه وخليفته المستنصر^(١) الذي اعترف بسيادته كل من بني زيان حكام المغرب الأوسط وبني مرين^(٢) القوة الجديدة المتزايدة النفوذ في المغرب الأقصى التي كانت وقتئذٍ في سبيلها للقضاء على الدولة الموحدة المحضرة، ثم توج ذلك المجد بمبايعة عدة جهات له في المشرق والمغرب بالخلافة^(٣) مما جعل الكثير من حكام الدول عصرئذ يادرون بإقامة علاقات ودية معه، فتبادل مع العديد منهم السفراء والهدايا^(٤) فاكسب بذلك نفوذاً أديباً كبيراً إلى حد أن السفراء أرسلوا إليه من بلاد بعيدة مثل بلاد كاتم والبرونو من قلب القارة الإفريقية سنة ٦٥٥هـ / ١٢٥٧م^(٥)، والنرويج من شمال أوروبا سنة ٦٦١هـ / ١٢٦٢م^(٦)، وبذلك أصبحت تونس في عهده حاضرة المسلمين في الغرب. وما دامت

(١) عن هذا الموضوع انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٢٩٦، ابن القنفذ : المصدر السابق ص ١١٢ وما بعدها، حمودة بن عبد العزيز : المصدر السابق ورقة ١٠٥ وما بعدها.

R. Brunschwig : Op. Cit., Tom. 1, p.49.

(٢) ابن القنفذ : المصدر السابق ص ١١٩ و ١٣١، حمودة بن عبد العزيز : المصدر السابق ورقة ١٠٣، شارل جوليان : المرجع السابق ج ٢ ص ١٧٩.

(٣) ابن القنفذ : المصدر السابق ص ١٢٠، د. عبد الله العروي : المرجع السابق ص ٢٠٣.

(٤) انظر الباجي المسعودي : المصدر السابق ص ٦٢، شارل جوليان : المرجع السابق ج ٢ ص ١٧٩،

R. Brunschwig : Op. Cit., Tom. 1, p.56.

(٥) ابن القنفذ : المصدر السابق ص ١٢٠، د. عبد الله العروي : المرجع السابق ص ٢٠٣.

(٦) لمزيد من التفصيل عن هذه السفارة انظر : R. Brunschwig : Op. Cit., Tom.1, p.50

الدولة الحفصية هي التي ورثت التمسك بالمبادئ الموحدة الأصيلة التي وضع أسسها المهدي بن تومرت بعد أن تكبر خلفاء الموحدين منذ عهد إدريس المأمون تلك المبادئ مما جعل العديد من المؤرخين يعتبرونها امتداداً للدولة الموحدة، فما المانع في رأي العديد من الناس أن تكون الدولة الحفصية هي الوارثة أيضاً للدولة الموحدة في طموحاتها في جهاد نصارى غرب أوروبا والضغط عليهم واسترجاع ما سلب من بلاد المسلمين في تلك المنطقة؟ سيما وأن الأصوات قد بدأت ترتفع مطالبة المستنصر بالكرة على النصارى والتي كان يزيدها فاعلية التأثير القوي للأندلسيين والصقليين في دولته وبصفة خاصة الأندلسيين الذين كانوا أعينها وكانوا دائمى التحريض على حرب النصارى لاستعادة بلاد المسلمين التي غلبوا عليها منهم كما سبق أن ذكرنا. وأوضح دليل على ذلك قول حازم القرطاجني الأندلسي من قصيدة يمدح فيها المستنصر:

فألغرب باب فتوحه متفتح لك، لم يعق عنه سعودك حاجب^(١)

ويؤكد ابن خلدون ما ذهبنا إليه بقوله عن المستنصر في حديثه عن ازدهار الدولة الحفصية وما وصلت إليه من قوة في عهد أبيه وعهده، إن دولته كانت (أقصد ما كانت قوة وأعظم رفاهية فأمله أهل العلم للكرة وأجفلوا إلى الإمساك بحقوقه)^(٢)، وغير خاف أن المقصود بالكرة هو الكرة على أوروبا، وبناء على ذلك، فإننا لا نعتقد بأن مثل هذا الأمر كان خافياً على القائمين على الحركة الصليبية لتعدد سبل الاتصال وسهولته بين الجانبين، وعلى لويس التاسع بالذات الذي حمل لواء هذه الحركة في عصره، وتبعاً لذلك لا نستبعد أن يكون هدف يحملته تلك إلى اكتساب هذه القوة الفتية إلى جانبه وإن فشل فلا أقل من تعطيلها قبل أن تتعاضد ويزداد خطرهما وتشكل متاعب خطيرة لأوروبا الغربية.

يضاف إلى ذلك هدف آخر هو الاستفادة أيضاً من المكانة الرفيعة التي أحرزتها إفريقية وقتل في غرب العالم الإسلامي، بعد أن أصبحت مقر خلافة يعترف بها ليس معظم مسلمي الغرب فحسب، وإنما بعض مسلمي الشرق أيضاً، فإننا لا نستبعد أن يكون لويس التاسع قد

(١) د. محمد الحبيب بن الخوجة : المرجع السابق ص ٨٨.

(٢) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٢٩٦.

اعتقد أنه يسيطر نفوذه عليها إن سلماً بالتنصير أو حرباً، فإن من المرجح في نظره أن كل الأقطار التي تعترف بسيادتها أو معظمها على أقل تقدير ستبعتها في تقبل الانصياع للتنصر، ولعل فيما يقوله الدكتور عبد الله العروي ما يعدم وجهة نظرنا هذه، إذ أنه يقول في حديثه عن الخطوة الواسعة التي خطتها إفريقيا في عهدي أبي زكريا الأول وابنه المستنصر في سبيل التقدم والازدهار (ولا شك في أن هذه الخطوة هي التي جعلت منها هدفاً لحملة لويس التاسع الصليبية إذ أنه اعتقد أنه بالتغلب عليها أو الحصول على تحولها إلى المسيحية كان سيتغلب دفعة واحدة على الشرق)^(١).

ولعل الأهداف الاقتصادية لهذه الحملة لا تقل أهمية عن الأهداف الدينية والسياسية، ذلك أن الازدهار والاستقرار اللذين شهدتهما إفريقيا في تلك الآونة كما سبق أن ذكرنا صاحبهما رخاء وانتعاش اقتصادي كبير نشطت فيه حركة التجارة المحلية والخارجية نشاطاً ملحوظاً، وازداد حجم التبادل التجاري بين إفريقيا ودول جنوب غرب أوروبا وبصفة خاصة المدن الإيطالية وإقليم بروفانس خاصة مرسيليا ثم مملكة أرغونة زيادة كبيرة، يدل على ذلك كثرة المعاهدات التجارية التي كانت تعقدها تلك الدول مع الدولة الحفصية^(٢)، كما يدل عليه كثرة الفنادق والقياسيات للتجار الأوروبيين التي وجدت في المهديّة وسفاس وقابس وجربة^(٣) فضلاً عن مدينة تونس ذاتها في تلك الفترة، وما قصة اقراض اللياني للأموال من تجار بروفانس التي سبق أن تعرضنا لها - إن صحت - إلا دليلاً آخر على ضخامة المصالح التجارية بين الطرفين، فكان هذا الرخاء والنشاط الاقتصادي سبباً في إثارة مطامع الحركة الصليبية بإفريقية للاستئثار بخيراتها والاستحواذ على تجارتها، كما أنه إذا قدر لتلك الحملة النجاح فإن ذلك بحكم موقع إفريقيا الجغرافي وبحكم القبضة الصليبية على تجارة البحر الأبيض المتوسط وستندفع منتجات قلب القارة إلى أوروبا دون عائق أو وسيط، الأمر الذي سيؤدي إلى استغناء أوروبا عن قسم لا بأس به من التجارة الشرقية التي كانت

(١) د. عبد الله العروي : المرجع السابق ص ٢٠٣.

(٢) عن هذه المعاهدات انظر : R. Brunschvig : Op. Cit., Tom, 1, p.50 - 2

(٣) د. سجد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٢٤١.

تتحكم فيها دولة الممالك، لذلك فقد كانت تلك الحملة حملة استعمارية بكل ما تعنيه الكلمة من معنى حديث كان أحد أهدافها محاولة التوسع والاستعمار^(١). ثم إن مدينة تونس بالذات كانت تثير شهية الصليبيين لما كانوا يسمعون عن ثرائها ونشاطها التجاري وورقي حضارتها مما جعلهم يحلمون بنهبها، يؤكد ذلك ما قاله (Paul Labal) من أن الملك الفرنسي حينما رأى فخور الناس عن الانتماء في الحملة حاول لإثارة حماسهم إغراءهم بالفوائد المادية الكبيرة التي سيحصلون عليها فكان بذلك (بشيري الصليبيين)^(٢) على حد تعبيره بهذه الأمنيات الخيالية. ولذلك سرى التذمر والحقد بين الجنود الصليبيين حينما تم الصلح بين قادتهم وبين المستنصر ولم يسمح لهم بانتهاب تونس كما سيأتي ذكره. يضاف إلى ذلك أن تمركز الصليبيين في إفريقية سيكون له انعكاس قوي على نشاط التجارة للنول المسيحية بعد أن تكون القوى الصليبية قد أحكمت قبضتها على حركة الملاحة وطرق المواصلات البحرية التجارية والعسكرية في البحر الأبيض المتوسط.

وأما الأهداف الاجتماعية للحملة فإنه لما كانت إفريقية تشكو من تخلخل سكاني تواصل منذ منتصف القرن الخامس الهجري (الحادي عشر للميلاد)، وجعل منها منطقة ضغط خفيف، أي قطب جلب بشري لا دفع^(٣)، وكانت أوروبا الغربية في تلك الآونة تعاني من العديد من الأمراض والأفات الاجتماعية الأمر الذي دفع العديد من أهلها إلى التفكير في الهجرة إما طلباً للقامة العيش أو سعياً لاكتساب الثروة بوسيلة أو بأخرى، أو تبرماً وضيقة من قيود مفروضة، أو لتبيل الحرية، إلى غير ذلك من أسباب، فإن ذلك جعل الكثير منهم يفكر في إفريقية عاقداً عليها آماله لتكون مهجره المحتل. ولعل قربها الشديد من موطنه في أوروبا، وعدم وجود اختلاف كبير بينها وبين جنوب أوروبا في المناخ والحاصلات الزراعية التي كانت في ذلك الوقت قوام الحياة البشرية، ثم سهولة الاتصال بينها وبين أوروبا كل ذلك جعل منها أسباباً مشجعة للتفكير في الهجرة إليها واستغلال مواردها

(١) د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٢٣٧.

Paul Labal : Op. Cit., p.123.

(٢)

(٣) د. محمد الطالبي : الهجرة الأندلسية إلى إفريقية أيام الحفصيين ص ٥١.

الكبيرة التي لن تشكو من قلة أو اكتظاظ في السكان، ثم ربطها بأوروبا، وما دامت الآمال كبيرة في إعادتها إلى حظيرة المسيحية فإنها ستكون أفضل بكثير من الشرق بالنسبة لهؤلاء نظراً لما كان يعانيه الصليبيون في ذلك الشرق وقلة من التهديد وعدم الاستقرار، وما كانت هجرة الإيطاليين إلى ليبيا وهجرة الفرنسيين إلى دول المغرب العربي وبصفة خاصة الجزائر في عصر الاستعمار الحديث وما مارسوه من نشاط استعماري فيها إلا تعبيراً عما كان يفكر أسلافهم في القيام به لو كتب محاولاتهم النجاح. ولذلك انضم كثير من أبناء هذه الفئة من الأوروبيين للحملة يحدوهم هذا الأمل.

وبناء على ما تقدم فإن تحقيق هذه الأهداف كان هو السبب الذي جعل لويس التاسع يتجه بتلك الحملة إلى إفريقية، مستغلاً في ذلك، بالإضافة إلى ما تقدم، وضماً طارئاً هو حدوث قحط ومجاعة أصاباها وتسببا في انتشار وباء فيها مما جعلها أضعف عن مقاومتها عن ذي قبل، يقول المقرئ في ذلك إنه (عزم على الحركة إلى تونس من بلاد إفريقية، لما كان فيها من المجاعة والموتان)^(١)، ويبقى تساؤل أخير عن هذا الأمر هو، هل إن لويس التاسع بالتوجه إلى تونس قد أصم أذنيه عن امتغاث الصليبيين بالشرق وضرب بفكرة دعمهم عرض الحائط وبالتالي تناسى هدفاً من أهداف الحركة الصليبية المتمثل في استعادة بيت المقدس خاصة والديار المقدسة بصفة عامة من المسلمين؟ في الحقيقة إن كل هذه الأمور لم تغب عن ذهنه لحظة واحدة، بل إن ذلك كان غايته، ولكنه كان يسعى للوصول إليها بانتهاج أسلوب جديد هو خلق قاعدة ثابتة في إفريقية يكمل بها المثلث الصليبي العدواني (الشام - قبرص - إفريقية) المواجه لدولة المماليك لإحكام الضغط على تلك الدولة ومن ثم اجتياحها، الأمر الذي سيقضي على المقاومة الإسلامية في المشرق، فهو بذلك حاول تدشين طريق جديد إلى الديار المقدسة تكون إفريقية محطة عليه، جاعلاً من فكرته هذه قدوة احتذاها العديد من أصحاب المشاريع الصليبية في مشاريعهم فيما بعد كما سنذكره.

(١) المقرئ: السلوك ج ١ ق ٢ ص ٣٦٤، انظر كذلك ابن خلدون: المصدر السابق ج ٦ ص ٢٩٩، حمودة بن عبد العزيز: المصدر السابق ورقة ١٠٣، ابن أبي الضياف: المصدر السابق ص ٢٠٦، الباجي المسعودي: المصدر السابق ص ٦٢ - ٦٣، حسن حسني عبد الوهاب: خلاصة تاريخ تونس ص ١٣١، محمد الهادي العامري: المرجع السابق ص ٤١.

﴿ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال
وكان الله قوياً عزيزاً﴾ .

[سورة الأحزاب : آية ٢٥]

الصليبيون في قرطاجة

رحيل لويس التاسع من باريس - اجتماع كالياري - نزول الصليبيين في قرطاجة -
المستمر الحفصي ومواجهة الحملة - المقاومة الإسلامية - تفشي الوباء وموت الملك -
الملك شارل ومفاوضات الصلح - عقد الصلح والسحاب الصليبيين

رحيل لويس التاسع من باريس

كانت الأمهر التي سبقت رحيل الملك الفرنسي مكتظة بالأعمال بالنسبة له، فقد كان يشرف على الاستعدادات الجارية للحملة على قدم وساق ويوجه دعايتها ويوزدهم بنصائحه لإثارة حماس شعبه وحميته الدينية لحث أبناء هذا الشعب على مرافقته، ويتابع تنفيذ تعليماته بشأن ضرورة التمسك بالشعائر الدينية وحضور الصلوات والمحافظة على الأمن والنظام في كافة أنحاء المملكة ومعالجة المجرمين والفساق والمارقين وكل من تمسول له نفسه تكبير صفو الأمن، وما أن اقترب موعد الرحيل حتى شرع في تنظيم شؤون أسرته، فزف ابنته بلانش إلى فردناند ملك قشتالة (Ferdinand de Castilla) كما زوج ابنته مارجريت إلى دوق (Brabant)، ثم بدأ في تحرير القسم الأول من وصاياه، فأوصى لابنته الأكبر وولي عهده فيليب بكل ممتلكاته العقارية، ولابنته الثاني حنا الحزين بمنطقة فالوا (Valois)، ولابنته الثالث بطرس (Pierre) بمنطقة (Percha) و (Alangon)، وأما ابنته الرابع روبر (Robert) وابنته إجن (Agnis) الصغيرين فقد أوصى لهما بمبالغ نقدية كبيرة، وحث فيليب على العناية بإخوته الصغار ورعايتهم، كما أوصى لزوجته الملكة مارجريت التي ستبقى في فرنسا هذه المرة بمبلغ نقدي ضخم هو (٤٠٠٠) قطعة ذهبية، ولم ينس في وصيته تلك منظمات الرهبان، فأوصى لمنظمات الفرانسيسكان والدومنيكان والسيستريان بجزء من ممتلكاته الخاصة هذا بالإضافة إلى مكبته الضخمة التي منحها لها ذلك لأن ولي عهده كان في رأيه رجل حرب لا رجل علم، وأخيراً خص الفقراء بمنحه

وعطاياه، وعهد لابنه فيليب بتنفيذ هذه الوصية على أن يساعده في ذلك هيئة مكونة من أسقف باريس (Etienne Tiempiei) وأسقف (Evreux) و (Mathew de Van) (dome) رئيس دير القديس دينيس (Saint - Denis) ورئيس منظمة رهبان المسترشيان (Royaumont) واثنا عشر من أعضاء مجلسه المقربين.

أما شؤون الحكم في المملكة فيال رغم من بقاء زوجته الملكة مارجريت في فرنسا^(١)، فإنه عهد بها إلى هيئة مكونة من (Mathew de Vandome) رئيس دير القديس دينيس الأنث الذكور، والكونت سيمون كونت نزل (Simon de Nesle)^(٢) وأمر مجلس الملك^(٣) باستثناء الأساقفة من أعضائه باستشارتهما في كل صغيرة وكبيرة، وعهد إلى أسقف باريس (Etienne Tiempiei) بشؤون الإيرادات الملكية في المملكة^(٤)، ولتحل نفسه من أي ظلم يكون قد أوقعه عماله بالرعية أرسل مندوبين عنه إلى جميع أنحاء مملكته للاستماع إلى ظلمات الشعب والعمل على إزالة أسبابها، وأوصى بتسديد ديونه، وأخيراً حرر اعترافاته^(٥)، وفي ١٤ مارس سنة ١٢٧٠ م / ٦٦٨ هـ اليوم السابق لرحيله زار دير القديس دينيس يصحبه اثناؤه الثلاثة الذين شاركوا في الحملة وكبار مرافقيه، حيث تسلم من نائب البابا الكاردينال (de Albano) الشارات الصليبية التي كان يتسلمها الصليبي عادةً عند رحيله إلى الديار المقدسة مثل الصليب وعصا الحاج ومواهما. وفي صبيحة اليوم

(١) يقول بول غوث (Puth Guth : Op. Cit., p.235) إن لويس التاسع لم يعهد لزوجته بناته في الحكم أثناء غيابه لأنه كان لا يثق في مقدرتها على تصريف الأمور وتدير المملكة لأنها كانت في نظره فلاحاً ساذجة مثيرة للغضب.

(٢) Albert Garreau : Op. Cit., p.190 - I, Paul Guth : Ibid, p.235., Leon Cristiani : Op. Cit., p.183. Auguste Bailly : Op. Cit., p.130.

(٣) المنصوص بالمجلس هو المجلس الإقطاعي للملك (Curia Reges) وكان يتألف في جوهره من مجموعة من الوزراء الدائمين، ينضم إليهم أفضال الملك الإقطاعيين في حالة الشروع في إعلان الحرب أو زيادة الضرائب أو غيرها من المسائل الهامة، وكان ينقسم إلى عدة لجان مثل الهيئة التي اختصت بالإيرادات الملكية (Chambre des Complexes) المنوه عنها أعلاه. انظر د. سيدعائش : أوروبا العصور الوسطى ج ١ ص ٢٧٥.

(٤) Albert Garreau : Ibid, p.191., Auguste Bailly : Ibid, p.130., Leon Cristiani : Ibid, p.184 - 5.

Albert Garreau : Ibid, p.191, August Bailly : Ibid, p.130. (٥)

التالي مشى حافي القدمين من قصره إلى كاتدرائية نوتردام^(١) حيث أدى الصلاة متضرعاً إلى الله لينصره ويحقق مرامه، عاد بعد ذلك إلى قصره لبيت فيه ليلة الأخيرة ويودع الملكة^(٢) الوداع الأخير الذي لم يكن بعلة لقاء. وفي صبيحة اليوم التالي غادر باريس متجهاً إلى ميناء (Aignes Mortes) في جنوب البلاد.

اجتماع كالياري :

وصل لويس التاسع إلى الميناء المذكور في أوائل شهر مايو من ذلك العام ليجد أن الجنوين لم يوفوا بوعدهم، فلم يرسلوا أسطولهم في الموعد المحدد، فكانت هذه هي الصعوبة الأولى التي صادفته، فقد أضاع عليه تأخر الجنوين وقتاً ثميناً كان في إمكانه الاستفادة منه في القيام بعمل ما قبل توغل الصيف بحرارته، كما أنه حرره من السفر إلى الديار المقدسة إذا أراد ذلك^(٣)، وكان عليه أن ينتظر قدوم ذلك الأسطول شهرين آخرين قضاهما في زيارة المشاهد المقدسة القريبة، والمعتقد أنه جعل إقامة خلال هذه المدة في (Saint - Gills) مبتعلاً بذلك عن Aignes - Mortes التي تحيط بها المستنقعات^(٤). بينما أمضى الجند هنا الانتظار في جو من الكآبة والانفعالات العصبية، فوقع العديد منهم فريسة المرض، كما كثرت بينهم المشاجرات التي كان الملك كثيراً ما يتدخل بنفسه لفضها مثلما حدث إبان النزاع الذي احتدم بين البروفانسيين والقطلان^(٥)، فكان ذلك كله نذيراً بالمتاعب التي ستصادفها الحملة بعد ذلك مما كان له بلا شك أثر سيئ على نفسيات الجند وروحهم المعنوية، حتى إن (Albert Garreau) لا يستبعد أن يكون ذلك سبباً من أسباب فشل الحملة^(٦). وأخيراً، وصلت السفن الجنوبية إلى ميناء (Aignes - Mortes) في أواخر يونيو سنة ١٢٧٠م / ٦٦٨هـ فاستقبلها الجند لا كما ينبغي من النظام وإنما في فوضى واضطراب واستغرق شحن

(١) لا زالت لغاية وقتنا الحاضر تقام مسيرة تذكارية في باريس مشابهة لهذه المسيرة في مثل هذا اليوم من كل عام.

(٢) Albert Garreau : Op. Cit., p.192., Jean Larcena : Op. Cit., p.183 - 4., Leon Cristiani : (٢) Op. cit., p.185 - 6.

K. M. Setton : Op. Cit., vol. 2, p.515. (٣)

Leon Cristiani : Ibid, p.187, Albert Garreau : Ibid, p.192, M. Talbi : Op. Cit., p.249. (٤)

Albert Garreau : Ibid, p.192 (٥)

Albert Garreau : Ibid, p.192 (٦)

السفن بالخيول والمؤن والمعدات بضعة أيام نفذ فيها صبر الجند وزاد في حقهم. وفي يوم الثلاثاء الأول من شهر يوليو سنة ١٢٧٠م ركب الملك سفينته بعد أن خطب في الجند خطبة حثهم فيها على نصرة دينهم والزهد في الحياة الدنيوية من أجل ذلك. وفي اليوم التالي أُلْفِع الأسطول متجهاً إلى ميناء كالياري (Cagliari) بجزيرة سردينيا، حيث كان على السفن التي مستقل من مرسيليا ببقية الجيش أن تلحق به إلى ذلك الميناء، وبعد إبحار شاق تسبب فيه هبوب عاصفة بحرية على الأسطول في خليج ليون شتت سفينه، بدأت تلك السفن في الوصول إلى مياه كالياري في يوم الثلاثاء الثامن من الشهر نفسه^(١).

كانت جزيرة سردينيا وتحتلّ تابعة لمدينة بيزا التي كانت في حالة عداء مع جنوة صاحبة ذلك الأسطول، لذلك ما إن رأى أهل كالياري السفن الجنوية قادمة نحو بلدهم حتى ظلوا الظنون ورفضوا السماح لها بدخول الميناء الأمر الذي استغزى الفرسان الشبان المشاركين في الحملة فجعلهم يطالبون بحقوق تلك المدينة وتخريبها لأنها بدت على حد تعبيرهم أتعنس مدينة وألعن موقع شاهده، ولكن الملك الفرنسي تلمع بالصبر وفضل مفاوضتهم كراهية منه لسفك دماء المسيحيين^(٢)، ويحدثنا (Pierre de Condet) الذي كان مرافقاً للملك في رسالته الأولى الموجهة إلى مقدم دير أرجنتيل (Au prieur de l' Abbaye d' Argen-teuil) عن استقبال أهالي كالياري للحملة فيقول : (... وإني أحب أن أخبرك بأن الملك بعد أن أُلْفِع وعانى من مشاق البحر، وصل ميناء كالياري يوم الثلاثاء التالي، وأرسل مقدم الأسطول إلى المشرف على مراقبة الميناء وبعض الشخصيات الأخرى في البلد يطلب السماح له بدخول الميناء ولكن هؤلاء رفضوا بعناد شديد، كانوا مغالين في عنادهم لأنهم كانوا يخشون على أنفسهم من دخول الجنويين إلى الميناء، ولم يزودوا الجيش إلا بقليل من الماء العذب وبعض الفواكه والخبز، وفي صباح اليوم التالي أرسل إليهم الملك مقدم الأسطول من جديد ومعه عدد من الضباط وبعض المقرين إليه ليطمئنهم ويزيل خوفهم، وبعد أن نجح هؤلاء في إلانة موقفهم وقضوا على مخاوفهم طلبوا منهم السماح لنا بإنزال مرضانا -

(١) Pierre de Condet : Op. Cit., p.221, Albert Garreau : Op. Cit., 193., M. Talbi : Op. Cit., p.249.

Auguste Bailly : Op. Cit., p.131.

Albert Garreau : Ibid, p.193.

(٢)

وكانوا كثيرين - إلى البر لمعالجتهم والعناية بهم حتى يشقوا، فأجابوا أخيراً بأنهم يرغبون في دخول الملك وأقربائه وحاشيته إلى المدينة شريطة أن يحميهم من أعدائهم الجنوبيين إذا فكروا في إصابتهم بمكره لأنهم لم يكونوا يخشون سواهم...^(١)، وإثر هذا الاتفاق أمر الملك بنزول المرضى من السفن إلى البر، وعهد إلى بعض رجاله منهم (Gullaume Breton) و (Jean d' Aubergenville) بمساعدتهم وحمايتهم والسهر على راحتهم وعلاجهم، حيث مات بعضهم فيما بعد في حين ظل الباقي وكانوا حوالي المائة على قيد الحياة كان من بينهم فيليب (Philippe) شقيق كورت (Vendome) و (Jean de Corbeil)^(٢) لحقوا بالحملة فيما بعد.

أما الملك فقد رفض النزول إلى البر وبقي في سفينه في انتظار وصول السفن القادمة من مرسيليا، وفي يوم الجمعة ١١ يوليو لحق به ملك نفارة وكونت فلاندرز وسواهما بهذه القطع وبذلك تكاملتصفن الحملة، وفي صباح اليوم التالي السبت ١٢ يوليو بادر الملك إلى عقد مجلس حربي ضم كبار المشاركين في الحملة وكبار العسكريين والمستشارين للباحث في أمور الحملة، وقد دام هذا الاجتماع يومي السبت والأحد ١٢ و ١٣ يوليو ١٢٧٠م / ٦٦٨هـ^(٣)، وتضمنت المصادر التاريخية عن التمرض لذكر ما دار في ذلك الاجتماع من مناقشات، ومما يستلفت انتباه الباحث حقاً هو ما تشيعة العديد من المراجع الغربية^(٤)، من أن قرار الاتجاه بالحملة إلى إفريقية قد اتخذ في ذلك الاجتماع، وفي اعتقادنا أن هذا القول الذي يبدو أنه قصد به إضفاء صفة المغوية على مسيرة الحملة لتبرير فشلها لا يقبله عقل ويتنافى مع المنطق وفيه نجن كبير على الحقيقة التاريخية، ذلك أن قرار الاتجاه إلى إفريقية كان قد اتخذ قبل ذلك الوقت بمدة طويلة، ويمكن استشفاف ما يؤيد هذا الرأي مما يقوله برنجليك بطريقته المتوترة المعهودة

(١) Pierre de Condet : Op. Cit., p.221 - 222.

(٢) Pierre de Condet: Ibid, p.222.

(٣) Pierre de Condet : Ibid, p.222, Leon Cristiani : Op. Cit., p.188.

(٤) انظر على سبيل المثال :

Albert Garreau : Op. Cit., p.193 - 4, Leon Cristiani : Ibid, p.187 - 8, Paul Labat : Op. Cit., p.123.

التي يعتمد فيها على ما يبدو إلقاء ستار من الغموض والريبة على الأمور، حيث يعتقد أن تجمع الجيوش في كالياري وموافقة الحضور الإجتماعية بما فيهم نائب البابا الكاردينال (Rodolphe de Albano) على قصد إفريقية يعتبر دليلاً على أن لويس كان قد فكر في غزو إفريقية قبل ذلك التاريخ^(١) فهو واضح في دليله الأول غامض في دليله الثاني إذ أنه يكرس فيه فكرة بحث هذا الموضوع وموافقة الحضور عليه، وكان (K. M. Setton) أكثر منه وضوحاً في هذا الموضوع إذ يقول إن قرار الاتجاه إلى إفريقية كان قد اتخذ قبل إقلاع الحملة في صيف سنة ١٢٧٠ بكل تأكيد، وكون كالياري مركز التجمع يؤكد ذلك لأن جزيرة سردينيا ليست على الطريق إلى المشرق، ثم إن لويس التاسع لم يكن يتخذ قراراً هاماً كهذا بشكل ارتجالي، لذلك فإنه من الصعب التصديق بأنه لم يتخذ قراره في الاتجاه إلى إفريقية إلا في ذلك الوقت أو في ربيع سنة ١٢٧٠م / ٦٦٨هـ بل يجب أن يكون قد اتخذ قراره ذلك في أواخر سنة ١٢٦٨م / ٦٦٧هـ أو أوائل سنة ١٢٦٩م / ٦٦٨هـ^(٢) ويعود بعد ذلك إلى القول بأن الذي حدث في كالياري هو إعلان ذلك القرار على الجند والبحارة^(٣).

والحقيقة كما نراها أن هنالك دليلاً واضحاً في أن لويس التاسع كان قد اتخذ قراره ذلك قبل اجتماع كالياري بزمان طويل، بل وإن المشاركين في الحملة كانوا يعلمون بهذا الأمر، والدليل الذي يقطع الشك باليقين هو سفارة المستنصر الحفصي التي أرسلها إلى لويس التاسع، إذ كيف يعلم المستنصر بعزم لويس التاسع على غزو إفريقية ويرسل له سفارة لمفاوضته ومحاولة استرضائه لثنيه عن عزمه تقابله في أوائل أكتوبر سنة ١٢٦٩م / صفر سنة ٦٦٨هـ كما ذكرنا، أي قبل اجتماع كالياري بأكثر من عشرة أشهر دون أن يكون الملك الفرنسي قد اتخذ قراره بعد؟ وكيف تقبل مفاوضاتهم معه في أمر لم يعقد العزم عليه بعد؟ لقد كانت المصادر التاريخية الإسلامية دقيقة وواضحة حول هذا الموضوع وضوحاً لا يدع أي مجال للشك أو الاجتهاد، فلا اجتهاد مع النص، فالعودة لتلك الروايات التي سبق أن

R. Brunschvig : Op. Cit., Tom 1, p. 56.

(١)

K. M. Setton : Op. Cit., vol. 2, p.511 - 512.

(٢)

K. M. Setton : Ibid, vol., 2, p.515.

(٣)

تعرضنا لها تؤكد صحة ما ذهبنا إليه، مثل قول ابن خلدون عن عودة السفراء إلى تونس من بلاط الملك الفرنسي : (فوصل رسل السلطان منبرين بشأنهم)^(١)، وقول ابن الشماخ : (فطلب منه - أي من لويس التاسع - السلطان للمهادنة، فامتنع من ذلك، وأغلظ للرمول، وعرفه أنه متوجه إليه)^(٢)، ثم إن إغفال رسالة (Pierre de Condet) الآتية الذكر لهذا الموضوع مع أنها تعرضت لمواضيع أقل منه في الأهمية يعتبر دليلاً آخر على صحة ما ذهبنا إليه، ولو لم يكن ذلك أمراً مفروغاً منه لما أغفلته، وأما عن موعد اتخاذ ذلك القرار، فإنه ما دام السفراء قد وصلوا إلى بلاط لويس التاسع في أول أكتوبر سنة ١٢٦٩م / صفر ٦٦٨هـ فلا بد أن يكون المستنصر قد علم بعزم لويس قبل ذلك التاريخ بفترة طويلة لا تقل عن الخمسة أشهر وهي المدة اللازمة له لدراسة هذه المعلومات والتباحث مع مستشاريه واتخاذ قرار إرسال السفارة ثم إعداد الهدايا والمدة التي احتاجها السفارة لقطع المسافة الطويلة بين تونس وباريس، وبالتالي كان لا بد أن يكون القرار قد اتخذ قبل ربيع سنة ١٢٦٩م موعد افتتاح سبل السفر البحري بين البلدين الذي فيه فقط يجري تناقل الأخبار، وبذلك لا نستبعد أن يكون ما قاله (K. M. Setton) من أن ذلك القرار قد اتخذ في أواخر سنة ١٢٦٨م / ٦٦٧هـ أو أوائل سنة ١٢٦٩م هو الأقرب إلى الصواب. وأما بالنسبة لمعرفة المشاركين في الحملة به، فإنه لا يعقل أن يكون مسلمو إفريقية قد عرفوا به وخفي عن هؤلاء، خاصة أن ما قيل لسفراء المستنصر - وكانت العادة أن يتم استقبالهم في ملأ من الناس - كان علنياً، يضاف إلى ذلك أن لويس التاسع كان يعني أبناء الشعب الفرنسي بنهب مدينة تونس في محاولة منه لإغرائهم للمشاركة في الحملة كما سبق أن ذكرنا، مما يجعل كلا الأمرين ينفي أي شك في أن الجنود لم يكونوا على علم بوجهة الحملة ولربما كان الوحيلون الذين جهلوا هذا الأمر هم البحارة المنزوعة نظراً لأن اتفاقية استئجار الأسطول لم تحدد وجهة السفر حرصاً من الملك الفرنسي على التعتيم على مقاصده الحقيقية عند عقدها

(١) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٢٩٢.

(٢) ابن الشماخ : المصدر السابق ص ٦٦، انظر كذلك الوزير السراج. المصدر السابق ج ١ ص ٤١

ص ١٠٣٣، ابن أبي دينار : المصدر السابق ص ١٣٦.

في تلك المرحلة المبكرة من مراحل إعداد الحملة.

لذلك فإننا نعتقد أن ما دار بحثه في اجتماع كالياري قد اقتصر على مناقشة الحطة العسكرية للهجوم ووضع اللمسات الأخيرة عليها، وليس ليبحث اتجاه الحملة، وعلى أية حال فبعد انقضاء ذلك الاجتماع يومين أي في يوم الثلاثاء ١٥ يوليو سنة ١٢٧٠ أطلع لويس بجموعه قاصداً إفريقيا بعد إقامة في كالياري دامت ثمانية أيام وجد لديه فيها وقتاً طويلاً للتعبد والتأمل وكتابة القسم الثاني من وصاياه وتوجيهاته لابنه فيليب ولي عهده والتي عهد بها لقسيس اعترافه (Geoffroy de Baulieu)^(١).

نزول الصليبيين في قرطاجة :

وبعد يومين من الإبحار وفي الساعة الثالثة من بعد ظهر يوم الخميس ١٧ يوليو سنة ١٢٧٠م، ظهر الأسطول الصليبي أمام قرطاجة^(٢) ولا تختلف الروايات المسيحية عن الروايات الإسلامية كثيراً في تحديد تاريخ وصول الحملة، فرسالة (Pierre de Condet) الأولى التي تعتبر هي ورسائله الأخرى من أهم المصادر المسيحية لحوادث الحملة نظراً لكونه شاهداً عياناً لها وللمنصب الكبير الذي كان يشغله ولدقته في تفصيل العديد من تلك الحوادث في رسائله التي كانت عبارة عن تقارير ترسل أولاً بأول إلى فرنسا من قرطاجة، تقول إن السفن الصليبية ألقت مراسيها قبالة قرطاجة في الساعة التاسعة من يوم الخميس ١٧ يوليو ١٢٧٠م^(٣)، أما روايات المصادر الإسلامية عن هذا الموضوع فتوافق تقريباً مع هذا

(١) لمزيد من التفصيل عن هذه الوسايا انظر : Leon Cristiani : Op. Cit., p.187. Albert Garreau :

Op. Cit., p.193, Jean Larcena : Op. Cit., p.188 - 90.,

Jean Larcena : Ibid,p.189, Pierre de Condet : Op. Cit., p.222, Leon Cristiani : Ibid, p.188. (٢)

أما برنغفيلك (R. Brunschwig : Op. Cit., Tom 1., p.58) ويؤيده في ذلك (K. M. Setton : Ibid.)

٧. 2, 516 (٣) فيذكر أن وصول الصليبيين كان في يوم ١٨ يوليو ١٢٧٠ ولكن أصبح اعتماداً على

رواية (Pierre de Condet) هو ما ذكرناه في المتن أعلاه.

Pierre de Condet : Ibid, p.222.

(٣)

وهذا التوقيت طبقاً للتوقيت الإفرنجي القديم الذي كان اليوم يبدأ فيه بزوغ الشمس في الساعة الواحدة وبذلك يقابل الساعة الثالثة بعد الظهر بالتوقيت الإفرنجي الحالي.

التاريخ وإن اختلفت في بعض التفاصيل، فابن خلدون^(١) والمقرئزي^(٢) وابن أبي دينار^(٣)، وحمودة بن عبد العزيز^(٤) يذكرون أن ذلك كان في آخر ذي القعدة سنة ٦٦٨ هـ. وأما ابن السمع^(٥) ويؤيده في قوله الوزير السراج^(٦) فقد حدد ذلك يوم ٢٦ ذي القعدة سنة ٦٦٨ هـ، وأما ابن القنفذ فكان أكثر تحديداً إذ يقول إن وصول الصليبيين كان في صلاة الظهر يوم الخميس ٢٦ ذي الحجة سنة ٦٦٨ هـ^(٧) ويقول ابن أبي زرع أن وصولهم كان بعد صلاة العصر يوم الأربعاء وليلة الخميس الخامس والعشرين لذي الحجة من سنة ثمان وستين وستمائة^(٨)، وبمطابقة التاريخ الميلادي على التاريخ الهجري يتبين أن يوم ١٧ يوليو سنة ١٢٧٠ م يوافق يوم ٢٦ أو ٢٧ ذي القعدة سنة ٦٦٨ هـ على احتمال أن أحد شهري ذي القعدة وذو الحجة كان في ذلك العام ٢٩ يوماً وليس ٣٠^(٩)، وبما أن كلاً من ابن السمع والوزير السراج يحددانه بيوم ٢٦ ذي القعدة سنة ٦٦٨ هـ فتكون روايتهما أدق من الروايات الإسلامية الأخرى، إلا إذا أخذ في الاعتبار ما نعتده من الخطأ الذي حدث في رواية ابن

(١) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٢٩٢.

(٢) المقرئزي : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٣٦٥.

(٣) ابن أبي دينار : المصدر السابق ص ١٣٦.

(٤) حمودة بن عبد العزيز : المصدر السابق ورقة ١٠٤.

(٥) ابن السمع : المصدر السابق ص ٦٧.

(٦) الوزير السراج : المصدر السابق ج ١ ق ٤ ص ١٠٣٢.

(٧) ابن القنفذ : المصدر السابق ص ١٣١.

ونعتقد أن الخطأ في اسم الشهر جاء من ناسخ النسخة التي اعتمد عليها المقتان في تحقيق هذا الكتاب، فذكر ذي الحجة خطأ بدلاً من ذي القعدة إذ من الصعب أن يخطئ ابن القنفذ في الشهر بعد أن حدد اليوم والساعة اللذين يتفقان مع ما ذكره (Pierre de Condet) إذا أخذنا في الاعتبار أن صلاة الظهر تقام في معظم مساجد المغرب العربي والجمهورية التونسية بالذات قبل صلاة العصر بحيث لا تزيد المدة الفاصلة بينهما عن نصف ساعة تقريباً فقط، وللمطابقة في ذلك أسانيدهم الشرعية، ودلينا على ذلك أن محقق الكتاب ذكرنا في حاشية (صفحة ١٣١) أن ثلاث نسخ من مخطوط الفارسية قد ذكرت اسم الشهر ذي القعدة.

(٨) ابن أبي زرع : الأيس المطرب ص ٤٠٣ - ٤٠٤.

(٩) تم احتساب ذلك اعتماداً على جدول مقارنة السنوات الهجرية بالميلادية الملحق بكتاب زامبور :

معجم الأنساب والأمراء الحاكمة في التاريخ الإسلامي ج ٢ ص ٥٢٣.

القنفذ المين في الحاشية (٧) في الصفحة السابقة، وفي هذه الحالة تكون روايته هي أصح الروايات الإسلامية لمطابقتها لرواية (Pierre de Condet) الآفة الذكر حتى في تحديد ساعة الوصول، وإلا كان ما ذكره هو وابن أبي زرع أبعد الروايات الإسلامية عن الواقع.

لم يكن نزول الصليبيين من سفنهم دفعة واحدة بل على دفعات، وقد اختلفت الروايات الإسلامية والمسيحية في تقدير عددهم، فبينما تذكر بعض الروايات المسيحية أنهم كانوا مائة ألف مقاتل ووصلت روايات مسيحية أخرى بعددهم إلى مائتي ألف مقاتل^(١)، يرى بعض الكتاب الغربيين المحدثين أنه بإغفال عدد الخدم وأتباع الملك في الحملة فإن عدد المقاتلين لا يتعدى العشرة آلاف^(٢)، أما الروايات الإسلامية، فيرى كل من ابن خلدون^(٣) والمقريزي^(٤) مثلاً أنهم كانوا ستة آلاف فارس وثلاثين ألف راجل أقلتهم ثلاثمائة سفينة مختلفة الأنواع والأحجام، في حين يقول ابن أبي زرع إنهم كانوا أربعين ألف فارس ومائة ألف رام ومائة ألف راجل^(٥)، وبعد استبعاد رواية ابن أبي زرع التي تظهر فيها المبالغة بوضوح، نرى أن الروايات الإسلامية كروايات ابن خلدون والمقريزي الآفنتي الذكر هي الأقرب إلى الصحة. وتوضح رسالة (Pierre de Condet) الأولى الأعمال التي قام بها الصليبيون خلال الأسبوع الذي يبدأ من يوم الخميس ١٧ يوليو سنة ١٢٢٠م / ٢٦ ذي القعدة سنة ٦٦٨هـ يوم وصول الحملة إلى يوم الخميس الذي تلاه ٢٤ يوليو ١٢٢٠م / ٣ ذي الحجة ٦٦٨هـ الذي هو يوم استيلاء الصليبيين على خرائب قرطاجة وتمركزهم فيها بتفصيل كبير أغفلت المصادر الإسلامية مجرد الإشارة إليه ولو إشارة عابرة، فيقول : Pierre de Condet في تلك الرسالة إن الملك أمر مقدم الأسطول بالتقدم لارتداد مكان النزول، وبالفعل اتجه المذكور ببعض القوات إلى مرسى قريب من هضبة قرطاجة المسماة

(١) Leon Cristiani : Op. Cit., p.187

(٢) Leon Cristiani : Ibid, p.187. K. M. Setton : Op. Cit., V. 2, p.515

(٣) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٢٩٢ - ٢٩٣، انظر كذلك الباجي المسعودي : المصدر السابق ص ٦٣.

(٤) المقريزي : المصدر السابق ج ١ ق ٢ ص ٣٦٥.

(٥) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ص ٤٠٤.

حالياً بهضبة بيرصاء، واستولى عليه ونزل إلى البر دون مقاومة^(١)، وقد وجد في ذلك المرسى بعض السفن التجارية الصغيرة فاستولى عليها، وحينما علم الملك فيما بعد أنها تخص بعض تجار النصارى سلمها لأصحابها^(٢)، وكان بعض الجند المسلمين يقفون بين حين وآخر على الرابية المشرفة يراقبون الصليبيين دون أن يحاولوا الاقتراب منهم ثم يخفون، وعندما أرسل مقدم الأسطول للسلك يخبره بالاستيلاء على المرسى وما شاهده من تصرفات المسلمين ويطلب منه قوة إضافية لتعزيز الموقع ونجدته عند الحاجة إذا ما هاجمه المسلمون^(٣) دهش وطمأن في الأمر مكيدة، فعقد مجلس حربه للتباحث في الأمر، وبعد مناقشات طويلة تنازع الحضور فيها رأيين أحدهما يقضي بضرورة الاستجابة لمطلب مقدم الأسطول، في حين كانت خلاصة الآخر أنه إذا كان في الأمر مكيدة فإن هذه الطريقة في النزول إلى البر غير مجدية، وقد وجه (De Pressigny) الذي كان من أصحاب هذا الرأي كلامه إلى الملك قائلاً : «إذا أردت أيها الملك أن ينزل كل منا كما يستطيع أن يفعل، فاترك إذن كل فرد منا ينزل حيث يشاء»^(٤)، قرر الملك أخيراً الأخذ بالرأي الأول فأرسل (Philippe d' Evreux) وأحد قادة الأسطول تصحيحهما القوات اللازمة لدعم قوة مقدم الأسطول، كما كلفهما بالإضافة إلى ذلك دراسة الوضع فإن وجداه مناسباً نزل الجيش ليلاً، وإن تعرضت قواتهما للهجوم انسحب الجميع عائدين إلى السفن^(٥)، فذلك متروك لتقديرهما، وما أن أتبلج صباح يوم الجمعة حتى بدأ الصليبيون يشاهدون القوات الإسلامية تأخذ مواقعها حول الميناء الأمر الذي جعل الملك يعقد اجتماعاً آخر قرر فيه المجتمعون قبول التحدي والنزول إلى البر، فبدأت سفينة الملك تسير نحو الميناء تتبعها سفن الأسطول الأخرى، وبمجرد رسوها فيه بدأ الصليبيون في مغادرتها إلى البر، أما القوات الإسلامية التي تواجدت في المنطقة فيبدو أنها كانت في مهمة مراقبة فقط ولم يكن هدفها الاشتباك مع العدو كما سيأتي ذكره، وإن كان

Pierre de Condet : Op. Cit., p.222 (١)

Paul Guth : Op. Cit., p.237., M. Talbi : Op. Cit., p.252. (٢)

Pierre de Condet : Ibid, p.222., Albert Garreau : Op. Cit. p.193. (٣)

Pierre de Condet : Ibid, p.222 - 3, Auguste. Bailly : Op. Cit., p.132. (٤)

Pierre de Condet : Ibid, p.223. (٥)

لم يخل الأمر من بعض المناوشات بين الطرفين إذ يقول (Pierre de Condet) : (وبلغنا الأرض بعون الله، ولكن النزول كان فرضياً إلى حد أن حوالي مائة مقاتل مسلم حاثوا دون إتمام عملية النزول بنظام وسر، ومع ذلك فلم تجد جيوشنا مقاومة تذكر)^(١).

وكان نزول الصليبيين في لسان من الأرض تمتد في البحر يصفه (Pierre de Condet) بأنه شبه جزيرة طولها حوالي (٤) كيلومترات وعرضها ثلاث غلوات سهم يحيط بها الماء من جهتين ويخترقها طريقان وتبعد عن حصن قرطاجة حوالي (٥) كيلومترات، حيث نصبوا خيامهم بها^(٢)، أما الآبي فيقول إن نزولهم كان بالموقع المسمى بالنصف^(٣)، ولكن ذلك الموقع بالرغم من حصانته كان غلوأ من الماء العذب، فبدا لهم تبعاً لذلك أنه غير صالح للإقامة إذ يقول (Pierre de Condet) في ذلك : (وبدأنا نشعر بقلق وانزعاج أشد مما كنا نشعر به ونحن في عرض البحر)^(٤)، الأمر الذي دفعهم إلى التفكير في التحول عنه إلى مكان آخر، لذلك، تقدمت بعض القوات الصليبية في صباح يوم السبت ١٩ يوليو ١٢٧٠م / ٢٨ ذي القعدة ٦٦٨هـ نحو ربوة قرية يقوم عليها حصن صغير بقية احتلالها، فصدى لهم بعض جند المسلمين واشتبكوا معه، ولكن القوات الصليبية تمكنت من دحرهم واحتلال الحصن حيث وجدت به بضع خزانات مليئة بالمياه، ولكن سرعان ما تجمعت القوات الإسلامية حول ذلك الحصن وكادت تحصر الصليبيين بداخله، فهب الملك الذي كان يراقب الموقف من معسكره لإجماعهم بقوات إضافية قادها (Lancelot) و(Radulphe de Trapani) (وكان من الممكن أن يتبعهم فرسان كثيرون لو كان تم إنزال كافة الحيلول من السفن إلى الأرض التونسية، ولو لم يكن التعب والنصب قد أخذ من البعض مأخذاً شديداً)^(٥)، ولم يمهل المسلمون الصليبيين حتى يتصلوا بأصحابهم فبادروا إلى الانسباك معهم نضجاً بالنبال التي كانوا أكثر ما يصوبونها نحو خيولهم لقتلها وهدفهم من ذلك شل

(١) Pierre de Condet : Op. Cit., p.223, M. Talbi : Op. Cit., p.251, K. M. Setton : Op. Cit., vol. 2, p.516.

Leon Cristiani : Op. Cit., p.188

Pierre de Condet : Ibid, p.223.

(٢)

(٣) انظر محمد الهادي العامري : المرجع السابق ص ٤١ حاشية ١.

Pierre de Condet : Ibid, p.223.

(٤)

Pierre de Condet : Ibid, p.223.

(٥)

حركة الفرسان الذين كانوا دائماً عماد قوة الجيوش الصليبية في الشرق والغرب على حد سواء، وعنصر الصدام فيها، لذلك كان المسلمون في معاركهم التي كانوا يخوضونها ضد تلك الجيوش أكثر ما يأخذون في حساباتهم هو إبطال فاعلية هذه القوة^(١) وهذا ما حدث في هذه المعركة حينما لجأ المسلمون لهذه الحيلة الذكية للتخلص من خطر الفرسان، يقول (Pierre de Condet) في ذلك : (وحدث في هذا اليوم قتال شديد بين جيوشنا وجيوش المسلمين. لقد كانوا ينضحوننا بالنبال يرمون بها فارين أو كارين، وكانوا يصيبون بها الحيل لا الفرسان، ومع أنهم قتلوا العديد من المشاة إلا أن الطرفين لم يفقدا الكثير من المقاتلين، وتم إنقاذ المحصورين في الحصن وأعيدوا إلى المسكن)^(٢)، وهكذا فشل هذا الهجوم. ولما كان اليوم التالي هو يوم الأحد ويوافق ٢٠ يوليو سنة ١٢٧٠م / ٢٩ ذي القعدة سنة ٦٦٨هـ خلد الصليبيون إلى الراحة فلم يخرجوا للقتال.

وفي صباح يوم الاثنين ٢١ يوليو سنة ١٢٧٠م / ٣٠ ذي القعدة سنة ٦٦٨هـ خرجت القوات الصليبية بأعداد كبيرة لمهاجمة ذلك الحصن من جديد ونجحت في لإزاحة المسلمين عن الربوة واحتلالها ونصبت خيامها في الفج الرامع حولها حيث تعددت آبار المياه الصالحة للشرب فيها^(٣)، ولكن مقدم الأسطول وربانة السفن وبعض قواد الجند يبنوا للملك في اجتماعهم به في اليوم التالي الثلاثاء ٢٢ يوليو سنة ١٢٧٠م / ١ ذي الحجة ٦٦٨هـ أن حصانة ذلك الموقع ليست بالمستوى المطلوب، وأن الأفضل منه هو الربوة القريبة التي كانت تقوم عليها مدينة قرطاجة في السابق^(٤). وتمثل ربوة قرطاجة (بيرصا) موقعاً حصيناً بالفعل

(١) كانت الدول المتعاقبة في المغرب العربي تشعر بما تتميز به جيوش النصارى عن جيوشها بقوة الفرسان ذات السليح الثقيل، فعملت على تعويض ذلك بفروق من فرسان النصارى ألحقتها بجيوشها، وكان أول من استخدمهم هو علي بن يوسف بن تاشفين، سلطان المرابطين، ومار حكام المغرب العربي بعده على سنته، ولكن هؤلاء الفرسان لم يكونوا يشتركون في الحروب ضد الصليبيين، وإنما كانت مهمتهم تنحصر في الاشتراك في الحروب التي كانت تنشب بين المسلمين بعضهم ببعض، أو يؤلفون الحرس الشخصي للسلطان.

Pierre de Condet : Op. Cit., p.223 - 4.

(٢)

Pierre de Condet : Ibid, p.224.

(٣)

Pierre de Condet : Ibid, p.224.

(٤)

فهي تواجه مدينة تونس ولا يفصل بينهما إلا البحيرة من ناحية وتطل على البطاح الممتدة على شاطئ البحيرة بحيث يسهل منها مراقبة تحركات المسلمين في تلك البطاح والروابي القليلة الارتفاع المحاذية لها من ناحية ثانية، وليست بعيدة عن البحر مما كان يتيح للمقيم بها الاتصال بالخارج بسهولة من ناحية ثالثة، وعلاوة على ذلك تتوفر فيها المياه الصالحة للشرب من الآبار والخزانات التي كان منها القديم قلم المدينة ذاتها ومنها المستحدث، وكانت المدينة في ذلك الوقت خرائب مائلة الجدران باستثناء حصن كبير تركزت فيه بعض القوات الإسلامية، وصفه صاحب كتاب الاستبصار بقوله : (وليس يسكن منها - قرطاجة - الآن إلا قصر واحد يسمى بالعلقة وبنائه من أغرب ما يكون من البناء، مفرط العظم والعلو، أقباء معقودة بعضها فوق بعض طبقات كثيرة، مطل على البحر، وهو حصن عظيم^(١))، وأبدوا استعذابهم للاستيلاء على ذلك الحصن إذا أمدهم الملك بالقوات اللازمة فراققتهم على اقتراحهم. وفي يوم الخميس ٢٤ يوليو ١٢٧٠ م / ٣ ذي الحجة ٦٦٨ هـ زحفت أربع فرق صليبية يتقدمها كل من (Ceux de Carcassonne) و (De Chalons) و (De Peri-) و (De Beaucaire) ناحية الحصن وسار الملك في إثرها بسبعة عشر فرقة أخرى، قصدى المسلمون لهم على قلنتهم في ذلك الموقع بالنسبة للمهاجمين، واشتبكوا مع فرق الطليعة، ولكن هؤلاء كاثروهم وتسلقوا أسوار الحصن ودخلوه على حاميته^(٢) التي كانت تقدر بحوالي مائتي جندي، وذهل المسلمون الآخرون وكانهم أصيبوا بالحمود، فلم يهبوا لنجدة إخوانهم في الحصن، فقتل من هؤلاء من قتل، وتمكن البعض من الفرار، واحتفى الباقون في مراديب الحصن وأقبائه، أما خمسمائة الصليبيين فكانت طفيفة حصرها (Pierre de Condet) في مقتل أحد القواد^(٣)، وبعد سقوط ذلك الحصن في يد الصليبيين بدأوا في العمل على تطهيره من المسلمين المختفين في الأقباء والسراديب فقتلوا كل من عثروا عليه منهم دون أن يعنوا أنفسهم بأخذ أسير واحد منهم ثم أضرموا النار في تلك السراديب

(١) مجهول : كتاب الاستبصار، ص ١٢٢، انظر كذلك الإدريسي : المصدر السابق ص ٨٢.

Pierre de Condet : Op. Cit., p.224, Paul Guith : Op. Cit., p.238, R. Brunschvig : Op. (٢) Cit., Tom I.p.58 - 9, Leon Cristiani : Op. Cit., p.188.

Pierre de Condet : Ibid, p.224.

(٣)

لإحراق باقي المختفين أحياء، فاحترق منهم من احترق ومات الباقون اختناقاً بالدخان^(١)، كل ذلك جرى بأمر الملك القديس الورع الشديد الدين وعلى مرأى منه!! وبعد أن تم له ما أراد من سفك دم هؤلاء المسلمين بتلك الطريقة الوحشية، لم يستطع البقاء في الحصن لأن رائحة الجثث كانت تزكم أنفه فنصب خيمته في العراء، يقول (Pierre de Condet) في ذلك : (ولو لم تكن رائحة الجثث التنتة تملأ أرجاء الحصن لاتخذ الملك مقرأ لإقامته^(٢)، وضرب الجيش خيامه حول خيمة الملك، أما الحصن فبعد تنظيفه من الجثث اتخذ مقرأ للنساء اللواتي كن يصنعن الحملة ومستشفى لعلاج المرضى والجرحى^(٣)، وشرع الصليبيون بعد ذلك في تحصين معسكرهم فوصلوا (ما فصله الخراب من أسوارها - أي قرطاجة - بالوابع الخشب ونضدوا عثراتها وأداروا على السور خندقاً يعيد المهوى وتحصنوا)^(٤).

المستنصر الحفصي ومواجهة الحملة :

أيقن المستنصر حينما عاد سفراؤه من بلاط لويس التاسع بفشل مسعاه السلمي، ويبدو أن هؤلاء السفراء زودوه بمعلومات هامة عن الحملة وأن مدينة تونس بالذات هي هدفها بذليل أنه ركز جهوده في الدفاع عنها، وربما كان يعلم - أو أدرك ذلك بحذسه - مسبقاً بمكان نزول الصليبيين، وإلا فما معنى قول ابن خلدون حين تعرضه لتحصن الصليبيين بقرطاجة (وندم السلطان على إضاعة الحزم في تخریبها)^(٥) لهذا لم يجد بداً حيال ذلك من بذل كافة جهوده في الاستعداد، فاستنفر أهل إفريقية للجهاد (وكتب إليهم بقوله تعالى ﴿انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم﴾^(٦) فبدأت القوات ترد إليهم من

(١) Pierre de Condet : Op. Cit., p.224, M. Talbi : Op. Cit., p.251.

(٢) Pierre de Condet : Ibid, p.224, M. Talbi : Ibid, p.251.

(٣) Albert Garreau : Op. Cit., p.193. Auguste Bailly : Op. Cit., p.133.

(٤) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٢٩٣، انظر كذلك حمودة بن عبد العزيز : المصدر السابق ورقة ١٠٤، الباجي المسعودي : المصدر السابق ص ٦٣، Leon Cristiani : Op. Cit., p.190.

(٥) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٢٩٣، الباجي المسعودي : المصدر السابق ص ٦٣.

(٦) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٢٩٣، الباجي المسعودي : المصدر السابق ص ٦٣. (٦) انظر محمد الهادي العامري : المرجع السابق ص ٤١ حاشية ١.

شئى نواحيا (وخرج الصلحاء والفقهاء والمرايطين لمباثرة الجهاد بأنفسهم)^(١)، والذين كان من بينهم الشيخ سالم القديدي والشيخ عمار المعروفي الذي توفي بالوباء بعيد رحيل الصليبيين ودفن بقرية إربانة حيث أضحى قبره (ميدى عمار) مزاراً ومحل تبرك إلى يومنا الحاضر^(٢)، حتى امتلأت سواحل رادس بالمرايطين والمطوعة وجند الأندلس، وقد بلغ عدد هؤلاء جميعاً زهاء أربعة آلاف فارس عدا المشاة الذين كانوا يعلنون بالألوف، وقد تولى قيادتهم جميعاً محمد بن أبي الحسين رئيس الدولة^(٣)، كما قدمت إليه جموع الأعراب الهلالية وتبعهم أعراب برقة الذين أمرهم الظاهر بيبرس بالمسير إلى تونس كما سبق أن ذكرناه، وانضموا إلى صفوف المدافعين، هذا علاوة على الجيش النظامي الذي كان يتألف في غالبيته من فئة الموحدين وفرق الرماة من الأغزاز والأندلسيين وأخيراً فئة المطوعة، وكان المستنصر يشرف بنفسه على تنظيم هذه القوات وتوزيعها في مواقعها، كذلك اهتم بالعتاد والأسلحة وتوفيرها للجند ثم إصلاح الأسوار وتحصينها، وقد وجه عنايته إلى الناحية الاقتصادية لا سيما وأن البلاد كانت تمر في تلك الآونة في مرحلة عصبية نتيجة المجاعة والوباء اللذين انتشرا فيها فكانت مجدية شهباء على حد تعبير ابن أبي الضياف^(٤) وزاد الحالة سوءاً انقطاع تجار النصارى عن إفريقية^(٥) كما كانت العادة في الوقت الذي يسبق كل حملة توجه إليها محارم أهلها من استيراد الغلال اللازم لهم، فأمر بتخزين أقصى ما يمكن تخزينه من الإنتاج المحلي من الحبوب^(٦)، والاقتصاد في استهلاكها قدر المستطاع، وحث الرعية على الإكثار من الزراعة فأمرهم (بالحرث الكثير في جميع البلاد)^(٧).

(١) ابن القنفذ : المصدر السابق ص ١٣٢، انظر كذلك شارل أندري جوليان : المرجع السابق ج ٢ ص ١٨٠ - ١٨١.

(٢) الدباغ : المصدر السابق ج ٤ ص ٢٥ - ٢٦، انظر كذلك محمد الحبيب الهبة : الزاوية وأثرها في المجتمع القيرواني ص ١٢٢ - ١٢٨، R.Brunschvig : Op. Cit., Tom, 1, p.66.

(٣) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٢٩٢، حمودة بن عبد العزيز : المصدر السابق ورقة ١٠٤، المروسي المطوي : المرجع السابق ص ١١١، R. Brunschvig : Ibid, Tom, 1, p.60.

(٤) ابن أبي الضياف : المصدر السابق ص ٢٠٦.

(٥) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٢٩١.

(٦) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٢٩١، انظر حمودة بن عبد العزيز : المصدر السابق ورقة ١٠٤.

(٧) ابن القنفذ : المصدر السابق ص ١٣٢.

وعندما تواترت إليه الأخبار بقرب وصول الصليبيين، أرسل إلى نواحي المغرب العربي بالخير يحث المسلمين على الجهاد، فوافته الإمدادات من نواحي عديدة، إذ وصل إليه أبو هلال صاحب بجاية بجندة وجموع ولهافة سكان بسط بونة (غابة) وسلويكش سكان موطن صنهاجة بالبساط الواقعة بين قسنطينة وبجاية، ثم جموع هوار، كما أمده ملوك المغرب من زناته، وخرج إليه محمد بن عبد القوي بعسكر بني توجين وهم سكان حفافي وادي شلف والمرسو^(١)، فتعاظمت قوة المستنصر بهذه النجيدات التي بالغ بعض المؤرخين المسلمين في عددها فوصل ابن القنفذ بعدد الرماة منهم فقط إلى أربعين ألف رام^(٢)، فاختار لقيادتها بالإضافة لابن أبي الحسين ستة قواد آخرين من الموحدين^(٣)، وجعل القيادة العليا لاثني منهم من شيوخ الموحدين هما يحيى بن صالح ويحيى بن أبي بكر^(٤)، كما سير مفرق دوريات في البحر لمراقبة السواحل وترقب وصول الصليبيين^(٥)، حتى إذا ما أطلت سفنهم عادت تلك الدوريات منذرة بهم، فيادر المستنصر إلى عقد اجتماع ضم كبار مستشاريه وأعيان دولته من شيوخ الموحدين والأندلسيين لبحث الطريقة المثلى في مواجهة الغزاة، وكان ما طرحه للبحث هو العمل بأحد رأيين إما التصدي للصليبيين ومقاتلتهم ومنعهم من النزول إلى البر، أو تخليتهم وشأنهم وتمكينهم من النزول، وقد اختلف الحضور في أي الاقتراحين أفضل، فكانت وجهة نظر الذي رأى العمل بالاقتراح الأول أنه ينبغي مقاتلتهم ومنعهم من النزول إلى البر حتى تنفذ ذخيرتهم من الماء والزاد فيضطرون إلى الانسحاب والعودة إلى بلادهم أما الغريق الآخر الذي رأى السماح لهم بالنزول فقد كانت حججه أنه ينبغي نزولهم عند الحضرة ذات الحامية القوية والسلاح والعدد والناس مهيزون

(١) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٢٩٣، انظر كذلك عبد الرحمن الجيلالي : المرجع السابق ج ٢ ص ٣٠، العروسي المطوري : المرجع السابق ص ١٠١، شارل أندري جوليان : المرجع السابق ج ٢ ص ١٨٠ - ١٨١.

(٢) ابن القنفذ : المصدر السابق ص ١٣٢.

(٣) كان هؤلاء القواد هم : إسماعيل بن أبي كلثان، عيسى بن داود، يحيى بن أبي بكر، يحيى بن صالح، محمد بن عيو، وأبو هلال عياد صاحب بجاية. (انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٢٩٣).

(٤) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٢٩٣.

(٥) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٢٩٢.

لقتالهم ومن ثم حصرهم والقضاء عليهم، خوفاً إذا حيل بينهم وبين النزول بقربها أن يطرقوا بعض الثغور الضعيفة ويستولوا عليه ويتمركزوا فيه فيضعب حينذاك إخراجهم منه^(١)، وبعد مناقشة كلا الرأيين تفصيلاً تقرر العمل بالاقترح الثاني.

والملاحظ في هذا المقام أن هنالك مأخذ على كلا الرأيين. فقد فات أصحاب الرأي الأول أن هذه الطريقة في المقاومة غير مجدية ذلك لأن البحر كان مفتوحاً من وراء الأسطول الصليبي ويمكنه الحصول على التموين اللازم له من صقلية القرية أو سواها بسهولة بل قد يجعل ذلك من قدوم شارل ملك الصقليتين بجيوشه مما يضاعف الخطر الصليبي ولن يتمكن المسلمون من الصمود في وجهه لمدة طويلة، ويدل الرأي الثاني على قدر غير قليل من التخاذل على المستوى الرسمي، وبعد الطبقة الحاكمة عن التحلي بروح الفاتحين المسلمين الأوائل الذين ضربوا أروع الأمثلة في الجهاد والبطولة والاستشهاد، فكان ما هدف إليه هؤلاء هو حصر الصليبيين في موقع معين ومضايقتهم ثم بعد ذلك مفاوضتهم واسترضائهم بتنازلات ومنح تفريغهم بالانسحاب الأمر الذي تم بالفعل فيما بعد. وكان الأصح من هذا وذاك والأجدر بالمستنصر أن يكون قد أعد للأمر عدته بإنشاء أسطول قوي كما أسلفنا ومقابلة الصليبيين في عرض البحر وتحطيم أسطولهم وإغراقه ليقوتوا أن بلاد المسلمين ليست لقمة سائغة، حتى لا يعودوا للتفكير في العدوان مرة ثانية، وإذا كان الرأي الذي أخذ به يمثل وجهة النظر الرسمية فإنه لم يكن يمثل كافة قطاعات القوات الإسلامية، فقد كان العديد من تلك القطاعات يتمتع بروح معنوية عالية، ويتطلع لقتال الصليبيين، ويدل على ذلك ما قيل في تلك الآونة من أشعار، فقد قال الشاعر التونسي أحمد بن إسماعيل الزيات متوعداً لويس التاسع :

يا فرنسيس هذه أخت مصر فتها لما إليه تصير

لك فيها دار ابن لقمان قبر وطواغيتك منكرو نكير^(٢)

(١) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٢٩٢، حمودة بن عبد العزيز : المصدر السابق ورقة ١٠٤،

العروسي المطوي : المرجع السابق ص ١٠١، R. Brunschvig : Op. Cit., Tom, 1, p.58.

(٢) ابن القنفذ : الفارسية ص ١١١ - ١١٢، ابن الشماخ : ص ٦٧، المقرئ : السلوك ج ١ ص ٣٦٥.

وعلى أية حال، وبالإضافة لما تقدم ذكره من استدلالات المستنصر، فشكل مجلساً دائماً للحرب برئاسته والترم القعود بإيوانه مع بطاقته وأهل اختصاصه مثل الشيخ أبو سعيد المعروف بالعود وابن أبي الحسين رئيس دولته وقاضيه ابن البراء وأخو العيش وغيرهم^(١) حيث كانت ترد إليه الأخبار ويدير من ذلك المجلس دفة الحرب (وكان ملازماً لبابه ألف فارس من الشجعان يقفون عند باب الغدر)^(٢) وباعتماد هذا الأسلوب في المواجهة تمكن الصليبيون من النزول بقرطاجة والتحصن بها كما ذكرنا.

المقاومة الإسلامية :

بدأت بوادر المقاومة الإسلامية للصليبيين منذ نزول هؤلاء إلى البر كما سبق ذكره، ولكن هذه المقاومة اتخذت في الأسبوع الأول طابع المناوشات فقط دون التورط في اشتباكات كبيرة مع الغزاة، اللهم إلا ما كان أثناء استيلاء الصليبيين على حصن قرطاجة، وإذا كان الصليبيون قد تمرركزوا في قرطاجة ونواحيها، فإن القوات الإسلامية لم تلبث أن طوقتها من كل جانب باستثناء ناحية البحر كما كانت تقضي خططهم^(٣)، وبذلك بدأت الدهشة والرهبة التي شعر بها المسلمون عند وصول هؤلاء في الزوال وأخذت تتبدل بهجرة عليهم زاد فيها تجميد الصليبيين لنشاطاتهم في انتظار وصول شارل صاحب أنجو بجيشه من صقلية والذي كان قد أرسل إلى أخيه لويس التاسع في ٢٤ يوليو سنة ١٢٧٠م / ٦٦٨هـ يطلب منه عدم شن أي هجوم رئيسي أو الدخول في مفاوضات مع المستنصر لحين قدومه، فاستجاب الملك لذلك لأنه كان يشعر بضرورة زيادة قوة الجيش وتدعيمه قبل الدخول في معركة فاصلة مع المسلمين^(٤)، لذلك زادت حدة المقاومة الإسلامية مما أزعج الصليبيين وجعلهم لا يذوقون طعم الراحة كما يتضح من رسالة (Pierre de Condet) إذ يقول فيها :

(١) ابن خلدون : البرج ٦ ص ٢٩٢.

(٢) ابن الشماخ : المصدر السابق ص ٦٨.

(٣) يعتقد برنجهيك (R. Brunschvig : Op. Cit., T. 1, p.60) أن ممسكو المسلمين كان في بلدة العوبنة الحالية في منتصف الطريق بين قرطاجة وتونس.

(٤) Pierre de Condet : Op. Cit., p.229., Leon Cristani : Op. Cit., p.190., R. Brunschvig : Op. Cit., Tom 1, (٤) p.59, Auguste Bailly : Op. Cit., p.133., K.M. Setton : Op. Cit., vol. 2, p.516, Paul Guib : Op. Cit., p.238.

(...) ويقال هنا إن من انتصب سيداً على قرطاجة يصبح قريباً سيد البلاد كلها. إلا أننا لا نؤمن بهذا المثل الشعبي لأن المقاتلين المسلمين يكررون هجماتهم علينا بكثرة، يهاجمونا من كل صوب مما كان يزعم مقاتلينا، ويدفعهم إلى تقلد سلاحهم مرتين في اليوم الواحد^(١)، وفي ذلك يقول ابن أبي الضياف أيضاً : (وضيق عليه - لويس التاسع - الخناق، وقد ظن أنه إذا نزل البر يكون طعمة له)^(٢)، ولكن بالرغم من ذلك، بقيت تلك الهجمات التي كان يشنها المسلمون على أطراف المعسكر الصليبي محدودة النتائج إذ كان الهدف منها الإزعاج والمضايقة فقط وربما لاستدراج بعض الصليبيين للخروج من المعسكر لمطاردتهم فيكون عليهم ويقتلونهم لأن شن هجوم كاسح على الصليبيين لم يكن في خطتهم أصلاً، لما سيطر عليه المسلمون من خسائر كبيرة لضخامة الجيش الصليبي وقوة تسليحه وحصانة موقعه، وفي ذلك يقول (Pierre de Condet) (إن المسلمين لا يتجرأون على الاقتراب من جيوشنا الضخمة، بل يكفون بقتل الجند الذين يتجولون في أطراف المعسكر أو الذين يشدون عليهم لمطاردتهم، ومع ذلك فإننا نعتقد أنهم فقدوا من القتلى أكثر مما فقدنا، وعندما نظاردهم يهربون، وعندما نرجع عنهم يشدون علينا بنبلهم)^(٣)، وبمرور الأيام زادت هذه الهجمات على المعسكر الصليبي حتى بلغت خمس مرات في اليوم الواحد^(٤).

ولكن ما دور الجند النصارى الذين كانوا في جيش المستنصر في هذه المقاومة؟ إن العديد من المصادر والمراجع الغربية تزعم أن المستنصر حينما علم بنزول الصليبيين بقرطاجة قبض على هؤلاء وعلى كل من كان في بلاده من النصارى وغيرهم وهدد بقتلهم إذا بدأ الصليبيون في شن الهجوم على المسلمين، ويقول برنشفيك (R. Brunschvig) في ذلك إن اثنين من القروان القشتاليين الذين كانوا بين هؤلاء فراء إلى المعسكر الصليبي وأخبرا الملك الفرنسي بذلك، وأن المستنصر اتخذهم رهائن^(٥)، وإننا نعتقد أن هذا القول لا يطابق الواقع

Pierre de Condet : Op. Cit., p.225.

(١)

(٢) ابن أبي الضياف : المصدر السابق ص ٢٠٦.

(٣) Pierre de Condet : Op. Cit., p.225., Paul Guth : Op. Cit., p.238., Leon Cristiani : Op. Cit., p.190.

(٤) Le duc de Levis Mirepoix : Saint Louis Roi de France, le memorial des siecles, XIII (٤) siecle les hommes, p.93.

(٥) R. Brunschvig : Op. Cit., Tom 1, p.442. See also Albert. Garreau : Op. Cit., 193.

من عدة وجوه أولها أن أياً من المصادر الإسلامية والتي هي أوسع اطلاعاً من المصادر المسيحية عما كان يدور في الجانب الإسلامي لم تشر إليه، ولو كان ذلك الأمر قد حدث بالفعل لما تواترت عن ذكره، وبصفة خاصة ابن خلدون لقرب عهده بتلك الحوادث وثقة المصدر الذي استقى معلوماته منه وصلة هذا المصدر بالدولة الحفصية وهو جده الذي كان من أعيان الجالية الأندلسية في إفريقية، وكان الأندلسيون أركان دولة المستنصر وبتروؤون معظم المراكز الهامة فيها، ومثل هذا الأمر لو حدث لا يمكن أن يخفى عليه، ولم يكن بالأمر المنكر الذي يمس المستنصر ليحاول إخفاؤه، وينطبق مثل هذا القول على ابن القنفذ وابن الشماخ اللذين كانا على صلة وثيقة بالدولة الحفصية إلى حد يمكن اعتبارهما من مؤرخيها الرسميين، فلو حدث ذلك لما أهملنا ذكره بل لأضادنا به. وثانيها، أن هؤلاء كانوا يمثلون الحرس الشخصي للمستنصر وكان يوليهم ثقة كبيرة فكيف يمكن أن يستشيرهم عليه ويزعزع ثقتهم به وإخلاصهم له، ولو حدث ذلك الأمر بالفعل لكان هؤلاء قد غادروا تونس بعد رحيل الصليبيين حنقاً على المستنصر الأمر الذي لم يحدث مطلقاً، وثالثها، أن معظمهم كان من أرغونة^(١) وأرغونة لم تشترك في هذه الحملة بل على العكس من ذلك فيعد أن قبل ملكها الاشتراك فيها عاد وانسحب وتحمل من وعده. والأصح من ذلك أن هؤلاء ظلوا في مكانهم حول المستنصر وربما كانوا من بين الألف فارس الذين كانوا يقفون عند باب القدر كما ذكرنا على أهبة الاستعداد لحمايته وربما مساعدته على الهرب إذا ما هوجمت المدينة. وقد يكون المستنصر قد تحفظ عليهم من المسلمين كي لا يفتكروا بهم في مثل ذلك الوقت الذي كان فيه النصاري إخوان هؤلاء في الدين يهاجمون بلادهم الأمر الذي فسرت المصادر والمراجع القرية على أنه قبض عليهم، فظلوا بعيدين عن المعركة، مع أن برنغفيك (R. Brunschwig) يحاول خلق دور للنصاري في تلك المقاومة فيذكر أن (Frederic de Castella) و (Frederic Lancia) كانا يقرب المستنصر ويديان بعض التوجيهات الفنية في إدارة دفاعها^(٢) الأمر الذي نستعمله لأن أياً من المصادر المسيحية أو المصادر الإسلامية التي اطلعنا عليها لم يشر إليه.

R. Brunschwig : Op. Cit., Tom 1, p.443.

(١)

R. Brunschwig : Ibid, Tom 1, p.60.

(٢)

وتفنن مسلمو إفريقية في ابتكار أساليب تصيد جند العدو مثلما فعل إخوانهم في مصر قبل ذلك بعشرين عاماً، فمن ذلك أن بعضاً منهم عمل على دغدغة مشاعر الصليبيين والاستفادة من أمنية لويس التاسع في تنصير مسلمي إفريقية، فذهب ثلاثة نفر منهم إلى معسكر الصليبيين وتظاهروا بقبول التنصر وطلبوا تعميدهم، فسر الملك الفرنسي وأمر بالإحسان إليهم والسهر على راحتهم، ثم تبعهم حوالي مائة مسلم آخر أظهروا أنهم قدموا لنفس الغاية، وبينما كان الصليبيون يحفون بالقادمين الجدد وإذا بالمسلمين يشنون الغارة على المعسكر الصليبي، فإذا بهؤلاء الذين تظاهروا بالارتداد يستلون أسلحتهم من تحت عباءاتهم ويفاجئون العدو من داخل المعسكر ويساعدون المغيرين في الإطباق على مجموعة كبيرة منه، ولم يتمكن الجيش الصليبي من صد هذه الغارة إلا بصعوبة بالغة وبعد أن تكبد خسائر كبيرة، في حين خرج المسلمون من المعسكر مع إخوانهم، أما المسلمون الثلاثة الأول والذين كانوا في حقيقة أمرهم طعماً لخداع الصليبيين، فقد واصلوا مخادعتهم وأوهموهم بأنهم يرغبون في العودة إلى قومهم ليعودوا بألفين منهم في اليوم التالي إلى الملك لتنصيرهم فسمح لهم بمغادرة المعسكر وسط احتجاجات البعض الذين أدركوا حقيقة مهمة هؤلاء ونادوا بقتلهم فلم يسمع قولهم، وهكذا خرج هؤلاء من المعسكر ولم يعودوا إليه بطبيعة الحال مرة أخرى^(١).

ولعل من أكبر هجمات المسلمين على المعسكر الصليبي في تلك الفترة كان ذلك الهجوم الذي شنوه عبر البحيرة، لقد كان الصليبيون حينما خندقوا حول معسكرهم قد تركوا الجانب المائل على بحيرة تونس دون خندق اعتماداً على المناعة التي تكسبها لتلك الناحية، ونظراً لأن المعسكر الصليبي كان مشرفاً عليها فإن ذلك كان يتيح الفرصة لمشاهدة تحركات المسلمين فيها والاستعداد لهم قبل وصولهم إلى المعسكر، وبالرغم من ذلك فإن المسلمين عملوا على الاستفادة من ميزة عدم تحصين الصليبيين لتلك الناحية من معسكرهم، فتسلل عدد منهم عبر البحيرة ليلاً ودخلوا إلى المعسكر الصليبي ثم تبعته أعداد غفيرة من

Albert Gurreau : Op. Cit., p.194 - 5., R. Brunschvig : Op. Cit., Tom 1, p. 59.

(١)

Auguste Bailly : Op. Cit., p.133., Paul Guh : Op. Cit., p.238.

الأعراب وكيسوا المعسكر ودارت بين الطرفين معركة أخذ فيها الصليبيون على غرة فحكيدوا خسائر جسيمة، وعندما كثأروا المسلمين انسحب هؤلاء وعادوا أدرأجهم، وفي ذلك يقول ابن خلدون : (وسلك بعض المسلمين طريقاً في البحيرة واتبعهم العرب فأصابوا غرة في العدو فظفروا وغنموا)^(١)، ومنذ ذلك الهجوم تبه الصليبيون لخطورة البحيرة على معسكرهم فشدوا الحراسة من ناحيتها، ولم يكتفوا بذلك، بل سيروا بعض قطع أسطولهم بالرماة فيها لمنع المسلمين من اجتيازها مرة أخرى، يقول ابن خلدون : (فكفلوا بحراسة البحيرة وبعثوا فيها الشواني بالرماة ومنعوا الطريق إليهم)^(٢).

ويستلفت انتباه الباحث في هذا المقام تساؤل هام هو هل عرف مسلمو إفريقيا المدفع وبالتالي استعملوه في مواجهتهم للصليبيين؟ في الحقيقة، إن الإجابة على هذا السؤال ليست بالأمر اليسير، ذلك أن المصادر والمراجع المتوفرة الغربية منها والإسلامية على حد سواء لم تسعنا بدليل قاطع عن هذا الأمر ولكن هنالك بعض الإشارات التي وردت في كتب التاريخ تجعلنا نرجح أنه ليس من المستبعد أن يكونوا قد عرفوه واستعملوه ضد الغزاة، فقد عرفت إفريقيا استغلال القوة الناجمة عن انفجار البارود في قذف قذائف على العدو بواسطة آلات خاصة في العصر الموحدى، والتي يمكن اعتبارها نوعاً من المدافع، وقد استعملها الناصر الموحدي في ضرب مدينة المهدية سنة ٦٠٢هـ / ١٢٠٥م حينما حاصرتها جيوشه، فكانت ترمي قذائف من الحجارة والكور الحديدية تسقط في وسط المدينة^(٣) أي قبل قيام لويس التاسع بهذه الحملة بخمسة وستين عاماً، كما عرف الجيش المصري نوعاً آخر منها فاجأ به جيش لويس التاسع نفسه إبان حملته على مصر سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م والذي وصفه جوافيل بأن له صوت مزعج وأن قذيفته الملتهبة بحجم الدن ولها ذيل طويل من لهب كالخربة، وأن الملك الفرنسي كان كلما سمع صوت قذيفة منها يجثو على ركبتيه ويقول : (يا إلهي ارحمني واحم شعبي)^(٤)، ثم إن أبا يوسف يعقوب بن عبد الحق الرهيني قد استعمل

(١) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٢٩٣، حمودة بن عبد العزيز : المصدر السابق ورقة ١٠٤.

(٢) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٢٩٣، حمودة بن عبد العزيز : المصدر السابق ورقة ١٠٤.

(٣) أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢٩٧.

Joinville : Op. Cit., p.216.

(٤)

هذا السلاح أثناء حصاره لمدينة سجلماسة سنة ٦٧٢هـ / ١٢٧٢م أي بعد سنتين فقط من حوادث هذه الحملة، فيذكر ابن خلدون أنه (نصب عليها آلات الحصار من المنجانيق والعرادات وهندام النقط القاذف بحصى الحديد ينبعث من خزانة أمام النار الموقدة في البارود بطبيعة غريبة ترد الأفعال إلى قدرة بارئها)^(١)، ولم يكن أبو يوسف هو أول من استعمل هذا السلاح من سلاطين بني مرين، بل استعمله أبوه من قبله^(٢)، فهل يمكن أن يكون مسلمو كل من مصر والمغرب الأقصى قد عرفوا المدفع ولم يعرفه إخوانهم في إفريقية ولمدهم في موقع متوسط بينهما والعلاقات بينهم وبين كلا القطرين كانت طيبة؟ لا سيما وأن حضارة إفريقية كانت قد بلغت أوج مجدها في عهد المستنصر، كما أن بني مرين كانوا في ذلك الوقت يعترفون بتبعيةهم للمستنصر فكيف يمكن للتابع أن يملك مثل هذا السلاح الخطير ولا يملكه المتبوع؟ ثم إن يوسف أشباخ يقول بأن الموحدين هم الذين نقلوا استعمال البارود في القرن السابع الهجري (الثالث عشر للميلاد) إلى الأندلس من إفريقية^(٣) مما يدل دلالة واضحة على أن إفريقية قد عرفت المدفع قبل حملة لويس التاسع عليها، وأنها كانت سابقة في استعماله على كل من المغرب الأقصى والأندلس، وتتوافر هذه المعطيات فإننا لا نستبعد أن يكون مسلمو إفريقية قد استعملوا نوعاً من المدافع في مواجهتهم للغزاة. ولعل ما يلقي مزيداً من الضوء على هذا الموضوع إشارة ليون كريستيان (Leon Cristiani) حين يقول إن المسلمين كانوا من مواقعهم يثيرون الرمال ويرفعونها في الهواء بالمجارف لمضايقة الصليبيين^(٤)، والذي نعتقد أن حقيقة الأمر قد غمضت على صاحب المصدر الذي اعتمد عليه (Leon Cristiani) في قوله هذا، وربما ظن أن الدخان المنبعث مع القذائف لبعث المدافع هو رمال يثيرها المسلمون، إذ هل يعقل أن المسلمين كانوا يثيرون الرمال بالمجارف على معسكر أكثر ارتفاعاً من مواقعهم وفي فصل تكون فيه الريح ساكنة في العادة، وإن هبت فإنها في الغالب تهب باتجاه معاكس أي من البحر إلى الداخل، يضاف إلى ذلك أن مواقع المسلمين لم تكن في

(١) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٧ ص ١٨٨، عبد الحق المريني : الجيش المغربي ص ٣٢.

(٢) محمد عبد السلام بن عبود : تاريخ المغرب ج ١ ص ١٨٠.

(٣) يوسف أشباخ : المرجع السابق ص ٢٢٥، انظر كذلك عبد الحق المريني : المرجع السابق ص ٣٢.

(٤) Leon Cristiani : Op. Cit., p. 189.

غالبيتها رملية يسهل تذرية ترابها، وأخيراً، وإلى أي مدى يمكن أن يصل التراب المثار؟ فهل يمكن أن يتجاوز مسافة تقدر بالكيلومترات لتصل إلى معسكر الصليبيين؟

وأياً كان الأمر، فإن هذه المقاومة الإسلامية أثرت في معنويات الصليبيين فأخذوا يفقدون حماسهم ويشعرون بحراجة موقفهم، وبالرغم من أن المدد كان يأتيهم في الأساطيل (من البحر من صقلية والعدوة بالرجل والأسلحة والأقوات)^(١)، إلا أن شعورهم بكونهم محاصرين، وتجميد نشاطهم الهجومي في انتظار شارل ملك الصقليتين الذي تأخر كثيراً في الوصول والانضمام إليهم، وقصر ذلك النشاط على الدفاع عن أنفسهم ضد غارات المسلمين المفاجئة والمتكررة، وبقاتهم في حالة استنفار دائم، وقصدانهم الكثير من جندهم، كل تلك الأسباب خلقت بينهم روح التذمر، وجعلتهم يجأرون بالشكوى للقيادة العليا من بقاتهم سلبين في موقعهم لتلقي ضربات المسلمين، لذلك عمدت تلك القيادة للقضاء على تذمر الجند بتنظيم طلعات عسكرية لبعض الكتائب خلال الفترة من ١٧ إلى ٢٢ أغسطس سنة ١٢٧٠م / ٢٨ ذي الحجة سنة ٦٦٨هـ - ٣ محرم سنة ٦٦٩هـ، ولكنها كانت محدودة الأثر لم تكن تصل إلى حلود معسكر المسلمين الذي لم يكن يبعد عنهم إلا بضعة كيلومترات^(٢)، الأمر الذي أدى إلى نتيجة عكسية إذ حط من معنوياتهم إلى حد كبير، ثم زادت حالتهم سوءاً بنقصان المياه الصالحة للشرب في معسكرهم، فأخذوا يحاولون الحصول عليه من المناطق القريبة ولكن ذلك كان يكلفهم في كل مرة العديد من القتلى، وظهر النقص بيناً أيضاً في الأقوات الطازجة، فما كان يصلهم من تلك الأقوات لم يكن طازجاً فاللحوم كانت مجففة (مقددة) وقل مثل ذلك عن الفواكه وغيرها، مما جعل الكثير منهم يعاني من سوء التغذية، الأمر الذي جعل الملك يحاول التغلب على هذه الصعوبة بإرسال بعض أعوانه إلى صقلية للحصول على اللحم الطازج وما إليه من الأغذية لإطعام المرضى من الجند على الأقل^(٣)، وكانت تلك الأثافي هي تفشي الوباء بينهم.

(١) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٢٩٣.

(٢) R. Brunschvig : Op. Cit., Tom I, p.60., Auguste Bailly : Op. Cit., p.134. (٧)

Albert Gurreau : Op. Cit., p.195, Leon Cristiani : Op. Cit., p.189, le duc de Levis Miropoix : Op. Cit., (٣)
p.124, M. Talbi : Op. Cit., p.252, Paul Gub : Op. Cit., p.239, K. M. Setton : Op. Cit., vol. 2, p.516.

تفشي الوباء وموت الملك :

في أوائل شهر أغسطس ١٢٧٠م / أواسط ذي الحجة ٦٦٨هـ تفشى الوباء بين الصليبيين، أما ماهية هذا الوباء فهي غير معروفة بالتحديد، فالمصادر الإسلامية تشير إليه دون ذكر اسمه أو تبيان أعراضه أو أسبابه، فيذكر ابن خلدون في حديثه عن موت لويس التاسع (... ويقال أصابه مرض الوباء)^(١)، ويعيد حمودة بن عبد العزيز مثل هذا القول^(٢)، أما ابن الشماخ فيقول : (وأرسل الله عليهم وباء فمات كثيراً منهم)^(٣)، ويقول ابن أبي دبنار : (وأرسل الله وباءً على جيشه فمات عدد كثير)^(٤)، ويقول ابن أبيك اللواداري : (فأوقع الله في عسكره وباء عظيماً)^(٥)، ويفرد ابن أبي الضياف برواية تفيد أن ذلك الوباء قد انتقل إلى الصليبيين من المسلمين إذ يقول: (وفضا في المملكة الوباء وانتشر بجند الفرنسيين)^(٦)، أما المصادر والمراجع الغربية فقد اختلفت في تحديد ماهيته، فيذكر (Pierre de Condet) في رسالته الثانية التي أرسلها من قرطاجة إلى أمين الشؤون المالية (- Au Tresorier de Saint Franchour de Senlis) واصفاً حالة الأمير فيليب ولي العهد الذي اعتلى عرش فرنسا بعد أبيه ولقبه بنفيليب الجمور (Philippe le hardi) والذي أصيب بهذا الوباء في ٣ أغسطس ١٢٧٠م / ١٤ ذي الحجة ٦٦٨هـ وظل يعاني منه حتى أوائل أكتوبر سنة ١٢٧٠م : (إن الحمى قد اشتدت عليه ونحن نخشى عليه الهلاك هذه الأيام)^(٧)، مما يفهم منه أنه الحمى، ويقول جوانفيل عن لويس التاسع إنه مات نتيجة لحمى وإسهال^(٨)، ويؤيده

(١) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٢٩٣.

(٢) حمودة بن عبد العزيز : المصدر السابق ورقة ١٠٤.

(٣) ابن الشماخ : المصدر السابق ص ٦٧.

(٤) ابن أبي دبنار : المصدر السابق ص ١٣٦، انظر كذلك الوزير السراج : المصدر السابق ج ١ ق ٤ ص ١٠٣٢.

(٥) ابن أبيك اللواداري : المصدر السابق ص ١٠٢.

(٦) ابن أبي الضياف : المصدر السابق ص ٢٠٦.

Pierre de Condet : Op. Cit., p.227.

(٧)

Jounville : Op. Cit., p.346.

(٨)

في ذلك Le duc de levis Miropoix^(١) ويرى (Leon Cristianj) أن بعض الصليبيين ماتوا بالحمى وذهب آخرون ضحية إسهال شديد^(٢)، في حين يرى (Albert Garreau) أنه حمى وديسونتاريا^(٣)، ويعتقد (Auguste Bailly) أنه ربما كان الهبضة (الكوليرا)^(٤)، وأما (Jean Larcena) فيقول بأنه التيفوس^(٥)، والذي نتقده أنه تفشى في الجند الصليبي أكثر من مرض ترجع أن يكون الديسونتاريا والملاريا وربما غيرهما أيضاً من الأمراض التي يتسبب فيها سوء التغذية وتلوث المياه، ولا ننسى أن الوقت كان يمثل ذروة حرارة الصيف مما يساعد على انتشار كثير من الأوبئة والأمراض في تلك البلاد.

وأما كانت طبيعة هذا المرض فإن أثره على الجيش الصليبي لم يكن بالقليل الذي تصفه به المصادر والمراجع الغربية، صحيح أنه تسبب في وفاة بعض الشخصيات الهامة المشاركة في الحملة مثل الأمير حنا الحزين (Jean - Tristan) ابن الملك وكونت (Nevers)^(٦) الذي مات في ٣ أغسطس سنة ١٢٧٠م ونائب البابا الكردنال (Rodolph d'Albano) الذي مات في ٧ أغسطس سنة ١٢٧٠م و(Bochard de Vendome) و(Hugues de la Marchi) وكونتات (Ars) و(Ecossais) و(Venden) وتقع الأخيرة في دوقية لوكسمبورج، وحكام (Montmorency) و(Brissac)، ومارشال فرنسا (Gautier de Nemours) و(Alphonse de Brienn) ابن امبراطور القسطنطينية وغيرهم^(٧) - أما لويس التاسع فلنا رأي آخر في سبب

Le duc de levis Miropoix : Op. Cit., p.93 - 4. (١)

Leon Cristianj : Op. Cit., p.190. (٢)

Albert Garreau : Op. Cit., p.195. See also : Paul Labal : Op. Cit., p.124, Paul Guth : (٣)
Op. Cit., p.238.

Auguste Bailly : Op. Cit., p.134. (٤)

Jean Larcena : Op. Cit., p.189 - 90. (٥)

(٦) اسمه الأصلي حنا (Jean) ولقب بالحزين (Tristan) لأنه ولد في دمياط في الأسم.

Le duc Levis Miropoix : Ibid, p.124. انظر عن ذلك :

Paul Guth : Ibid, p. 238 - 9, Auguste Bailly : Ibid, p.134.

Albert Garreau : Ibid, p.195, R. Brunachvig : Op. Cit., Tom 1, p.59, Auguste Bailly : (٧)
Ibid, p.134, Leon Cristianj : Ibid, p.191. Le duc de Levis Miropoix : Ibid, p.124, Paul
Guth Op. Cit., p.239, Jean Larcena : Ibid, p.190., M. Talbi : Op. Cit., p.252, K. M. Set-
ton : Op. Cit., Vol. 2, p.516.

موته نمرضه فيما بعد -، إلا أن عدد الموتى بهذا الوباء لا يمكن أن يكون بالحد الذي لم يعد في استطاعة الصليبيين دفنهم لكثرتهم فأخذوا يلقون بجثثهم في الخندق المحيط بالمعسكر كما يقول (Albert Garreau) حتى امتلأ ذلك الخندق بها^(١) فذلك في رأينا مبالغة واضحة شأنها شأن المبالغات الأخرى التي تظهر في أحيان عديدة في المصادر والمراجع الغربية التي تحاول نسبة الفشل الذي يمتنى به المسيحيون إلى كوارث طبيعية للتقليل من أثر أعدائهم في ذلك الفشل، وإذا أخذنا بهذا القول فكم هي الأعداد التي قُلت في المعارك مع المسلمين إذن؟ والذين كانوا كثيرين وربما أكثر بكثير من الذين ماتوا بفعل الأمراض والذين تصمت المصادر والمراجع الغربية عن ذكر عددهم؟ ودليلنا على كثرتهم هو ما قاله ابن الشماخ في ذلك : (وفي أثناء إقامتهم كانت بينهم وبين المسلمين زحوف استشهد فيها من سبقت له من الله الحسنى، ومات في القتال خلق كثير من عظماء النصارى ومن سائرهم)^(٢).

أما لويس التاسع الذي كان عند وفاة ابنه حنا الحزين طريق الفراش يقضي هو الآخر أيامه الأخيرة، فقد كان لنيا وفاة ابنه هذا أثره الفعال في ازدياد حالته الصحية سوءاً، وكان قسيسه يعلم مسبقاً بذلك الأثر على نفسيته لشدة محبته وتعلقه بابنه المذكور، فأخفى عنه خير موته مدة أسبوع ولم يعلمه به إلا في اليوم العاشر من أغسطس تحت إلحاح شديد من الملك بطلب زيارته، ورغم أنه أبدى تهللاً كبيراً حيال ذلك، وكان تعليقه : (إن الله الذي وهبته هو الذي أخذته مني، قله الحمد)^(٣)، إلا أنه منذ ذلك الوقت اعتكف في خيمته لا يقابل أحداً سوى قسيسه وبعض رجال الدين الآخرين المكلفين بالحضور إلى خيمته لتلاوة الصلوات المعتادة، وبقي على حالته تلك إلى أن توفي في الساعة الثالثة من بعد ظهر يوم الاثنين ٢٥ أغسطس سنة ١٢٧٠م / ٦ محرم ٦٦٩هـ^(٤)، وقد أُملى في هذه العزلة القسم

(١) Albert Garreau : Op. Cit., p.195.

(٢) ابن الشماخ : المصدر السابق ص ٦٨.

(٣) Auguste Bailly : Op. Cit., p.134, Leon Cristiani : Op. Cit., p.190.

(٤) لزيد من التجميع عن أيام الملك الأخيرة انظر :

Pierre de Condet : Op. Cit., p.226, Guillaume de Saint Pathus : La vie et les miracles de monseigneur Saint Louis, Tom 11, p.65, Le duc de Levis Mropoix : Op. Cit., p.125, Paul Guith : Op. Cit., p.239 - 40, Jean Larcena : Op. Cit., p.190 - 1, Leon Cristiani : Ibid, p.196, Albert Garreau : Ibid, p.196.

الثالث والأخير من وصاياه وتوجيهاته لولي عهده رسم له فيها النهج الذي رغب منه فيه أن يسير عليه، والذي كان عبارة عن نهج سياسي وإداري مستمد من الفكر المسيحي تتمازج فيه تصوراتهِ لمتطلبات الحياة الدنيوية والحياة الآخرة مدلاً في كل شيء بتجاربه الشخصية^(١)، وكان آخر ما صدر عنه زفرة حرّى نفثها من صدره أودعها كل المرارة والأسى والحزن التي كانت تعتمل في قلبه لتحطم آماله الدنيوية وملأها بالرجاء في مصير أفضل في حياته الأخرى ثم تمخّص قائلاً : (إيه يا أورشليم! هيا إلی أورشليم - ثم شخص بصره إلى السماء داعياً - : إلهي أرحم هذا الجنّد المقيم هنا وأعدّه إلى وطنه حتى لا يقع في أيدي أعدائه فيحمل على إنكار اسمك المقدس)^(٢)، ثم أغمض عينيه إلى الأبد، ولعل في هذا القول ما يؤيد وجهة نظرنا في أن حملته على إفريقيا كانت وسيلة وليست غاية، وسيلة للوصول إلى الديار المقدسة والسيطرة عليها.

وأما السبب في وفاته فهو موضع خلاف بين المصادر الإسلامية والمسيحية، فالمستفاد من المصادر الغربية التي اطلعت عليها أنه وقع فريسة المرض الذي ظل يعاني منه حتى أودى بحياته^(٣)، وكان تركيز تلك المصادر على وصف إيمانه وتقديسه في أيامه الأخيرة، ووصف جلده بالرغم من ضعف جسمه المتواصل دون أن تشير إلى الوقت الذي أصيب فيه بالمرض كما فعلت بالنسبة لابنيه حنا والحزين وفيليب الجسور مما يترك الباحث في حيرة من هذا الأمر، فهل كان موته بفعل ذلك المرض الذي كان يعاني منه قبل إبحاره إلى إفريقيا إلى حد أن جوانفيل حمله بين يديه من قصره إلى مقر الفرانيسكان لأنه لم يكن يقوى على ركوب حصان أو عجلة^(٤) أم أنه كان قد تعافى من ذلك المرض قبل رحيله خاصة وأن الفترة بين الحادثتين كانت نحو ثلاث سنوات، ثم انتقض عليه المرض ثانية حتى أودى

(١) لمزيد من التفصيل عن هذه الوصايا انظر :

Albert Garreau : Op. Cit., p. 201 - 10, Auguste Bailly : Op. Cit., p.135 - 42, Le duc de levis Miro poix : Op. Cit., p.125, Leon Cristiani : Op. Cit., p.190 - 94, Joinville : Op. Cit., p.347 - 49

(٢) Guillaume de Saint - Pathus : Op. Cit., p.95, Paul Guth : Op. Cit., 240, Le duc de Le - (٣) vis Miropoix : Ibid, p.94, Albert Garreau : Ibid, 197 Jean Larcena : Op. Cit., p.191.

Joinville : Ibid, p.346.

(٣)

Joinville : Ibid, p.318.

(٤)

بحياته؟ أم أنه أصيب بمرض جديد في تونس من تلك الأمراض التي أصابت الجيش الصليبي علاوة على مرضه السابق فمات به، أم أن موته كان لسبب آخر؟ كل هذه التساؤلات لا تجيب عليها المصادر المسيحية بنص صريح، أما المراجع الغربية فكل التي اطلعت عليها منها تقول عنه أنه أصيب بالوباء في تونس وكان ذلك سبب وفاته^(١)، وأما المصادر الإسلامية فمنها ما ذكر روايات تتفق مع هذا القول مثل ابن أبيك الدوادري الذي يقول : (فأوقع الله في عسكره وباء عظيماً، فهلك الملعون مع جماعة من الملوك وأكثر جموعه)^(٢)، ولكن العديد من الروايات الإسلامية الأخرى ذكرت احتمالات أخرى لوفاته عدا الوباء مما يلقي ظلالاً من الشك على ما تذكره المراجع الغربية عن هذا الموضوع، فيقول ابن خلدون : (وأصبح ملك الفرنجة ميتاً يقال خنق أنفه ويقال أصابه سهم غرب في بعض المواقف فأبته ويقال وهو بعيد أن السلطان بعث إليه مع ابن حزام الدلاصي - الدلاجي - سيف مسموم فكان فيه مهلكه)^(٣)، ويؤيده في ذلك حمودة بن عبد العزيز^(٤)، ويكرر كل من ابن الشماخ^(٥) والوزير السراج^(٦) نحو هذا القول وتعديل في اسم الذي حمل السيف فيجعلانه أحد شخصين هما سليمان بن حزام أو سليمان الدلاجي، ويضيف أنه مات في العاشر من محرم سنة ٦٦٩هـ، وهو وهم من ابن الشماخ لأن وفاته حسب ما أوردته الوثائق المسيحية هو يوم ٢٥ أغسطس ١٢٧٠م الذي يوافق يوم ٦ محرم ٦٦٩هـ، والوثائق والمصادر المسيحية أدق من رواية ابن الشماخ في هذه الناحية ذلك أن بعضاً من أصحاب هذه المصادر والوثائق كان بصحبة هذا الملك يوم وفاته وبعضاً آخر كان معاصراً لها، في

(١) انظر على سبيل المثال : Le Duc de levis Mirpoix : Op. Cit., p.124, A. Bailly : Op. Cit., p.138.

(٢) ابن أبيك الدوادري : المصدر السابق ص ١٠٢ (مع تحفظنا على قوله : (وأكثر جموعه) كما ذكرناه فيما سبق).

(٣) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٢٩٣.

(٤) حمودة بن عبد العزيز : المصدر السابق ورقة ١٠٤.

(٥) ابن الشماخ : المصدر السابق ص ١٠٤.

(٦) الوزير السراج : المصدر السابق ج ١ ق ٤ ص ١٠٣٢.

(٧) يقول Pierre de Condet في هذا الموضوع وهو ثقة فيما يقوله في هذه الناحية أن لويس التاسع توفي في الساعة التاسعة (الثالثة بعد الظهر بالتوقيت الغربي الحالي) من يوم الاثنين التالي على عيد القديس بارتلميئ الذي يصادف ٢٤ أغسطس من كل عام أي يوم ٢٥ أغسطس سنة ١٢٧٠.

(انظر : Pierre de Condet : Op. Cit., p.226.)

حين أن ابن الشماخ جاء متأخراً عنها بما يزيد عن القرن^(٧)، وقد يكون نبأ وفاته قد تسرب إلى المسلمين في العاشر من محرم أي بعد وفاته بأربعة أيام فاعتقدوا أنه مات في ذلك اليوم فنقله ابن الشماخ على هذا النحو عن المؤرخين المسلمين الذين عاصروا حوادث الحملة. وأما ابن أبي دینار فلا يذكر موته بالوباء مطلقاً إذ يقول : (وفي عاشر محرم سنة تسع وستين مات طاغيتهم قبل بحث إليه السلطان بسيف مسموم وقيل مات حتفه)^(٨). وأما ابن أبي زرع فيورد الخبر بقوله : (وفي الخامس والعشرين من ربيع الثاني من سنة تسع وستين توفي لويس التاسع ملك الفرنسيس المحاصر لثونس)^(٩)، وهو وهم منه في تاريخ الوفاة بطبيعة الحال كما أنه أغفل ذكر السبب، ولذلك نستبعد روايته من المناقشة.

فالمستفاد من رواية كل من ابن خلدون وحمود بن عبدالعزيز وابن الشماخ والوزير السراج أنه مات بأحد أسباب أربعة هي الموت حتف أنفه أو بإصابته بسهم أو بالوباء أو بسيف مسموم، ونفق مع ابن خلدون في استبعاد احتمال موته بسيف مسموم ذلك أن المهاداة بينه وبين المستنصر في مثل تلك الظروف لم تكن ممكنة، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية لم تشر الروايات إلى الكيفية التي أصيب بها الملك بالتسمم من ذلك السيف، فبقى بذلك الثلاثة احتمالات الباقية، أما بالنسبة لرواية ابن أبي دینار فيبقى احتمال واحد هو موته حتف أنفه، وقد أوردت هذه الروايات هذه الاحتمالات دون ترجيح أحدها على الآخر، ولكن حازم القرطاجني يلقى قدراً من الضوء على هذا الموضوع بقوله في قصيدة يمدح بها المستنصر إثر رحيل الصليبيين :

أضحى عماد عميده متعفراً	قد فل غرباه وجب الغراب
وكفى القتال الناس والقوم السرى	سعد، رماء منه سهم صائب
أنحت عليه عصاة والشكم	ونحته من صبر الزمان نواب
لم يشهر الصمصام يوم كرهية	ولاه وغاربه غراب ناعب
ينعي الصليب وحامله وكل من	والأصحتى نفسه هر نادب ^(١٠)

(١) ابن أبي دینار : المصدر السابق ص ١٣٦.

(٢) ابن أبي زرع : المصدر السابق ص ٤٠٤.

(٣) انظر د. الحبيب محمد بن الخوجة : المرجع السابق ص ٨٨.

والواضح أن المعنى بهذا الشعر هو لويس التاسع، وما يستشف منه هو كيفية موته، والتعفير وجب الغارب لا يكون إلا في المعارك، ويتطرق بعد ذلك إلى رميه بسهم صائب، الأمر الذي يقوي الظن في أن القول بأن موته كان بسهم غرب هو الأصح. ويورد الآبي في شرحه على صحيح مسلم رواية نقلها عن أحد معاصري حوادث الحملة لتقطع الشك باليقين في أنه أصيب بسهم كان فيه حقه إذ يقول : (واختلف في سبب موته، فقال الأديب جمعة وهو أحد من أرخ الكائنة والأصح بما قيل في سبب موته، أنه مات بسهم أصابه^(١))، ومن هذا النص الصريح يتبين أن موت الملك الفرنسي لم يكن بالرباء وإنما كان من أثر جرح بسهم أصيب به في إحدى المعارك مع المسلمين فظل يعاني منه المدة التي قضاه طريح الفراش قبيل وفاته وهو ما نعتقد أنه الصواب، وقد تكون المصادر المسيحية أخفت أمر جرحه عمداً حينما أصيب به حتى لا يؤثر ذلك في معنويات الصليبيين المتردية وليس ذلك بالأمر المستهجن فكثيراً ما يؤخذ على المصادر المسيحية إخفاء بعض الحقائق لسبب أو لآخر.

بقي أن نشير في هذا المقام إلى أمر آخر يتصل بهذا الموضوع هو الأساطير الكثيرة التي نسجت حول لويس التاسع بعد موته، فقد نسب إليه الذين كانوا من المقربين إليه في كتاباتهم عنه ومن اعتمد عليهم من المؤرخين الذين جاءوا من بعدهم الكثير من الخوارق والكرامات، حتى أصبح قبره مزاراً لبسطاء العامة في فرنسا يزورونه للتبرك ويستشفون عنده من العلل والأمراض اعتماداً على زعم أشيع بينهم أنه يشفيهم منها، وقد عدد Guil-laume de Saint - Pathus في كتابه عن حياة لويس التاسع خمساً وستين خارقة أو كرامة من هذه الخوارق والكرامات المزعومة^(٢)، وقد ظهرت في القرن الماضي أساطير من نوع آخر مفاد إحداها مثلاً أن لويس التاسع اعتنق الإسلام قبل موته^(٣)، وأخرى مفادها أنه لم يمت أثناء الحملة وإنما اعتنق الإسلام ثم غادر المعسكر الصليبي ليعيش بين المسلمين وليدفن بعد ذلك في زاوية سيدي بو سعيد^(٤) إلى غير ذلك. إن كل ما يقال عن هذه الأساطير

(١) انظر هذا النص في محمد الهادي العامري : المرجع السابق ص ٤١ حاشية ١.

Guillaume de Saint - Pathus : Op. Cit., p95.

(٢)

Le duc de Levis Miropois : Op. Cit., p.125.

(٣) عن هذه الأسطورة انظر :

(٤) سيدي بو سعيد : هو أبو سعيد خلف بن يحيى التميمي الباجي درس الفقه وبرع فيه، وكان شيخاً =

وأما أنها لا تدخل في نطاق التاريخ لتكون جذيرة بالرد عليها وتفنيدها^(١). أما الحقيقة التاريخية فهي أن لويس التاسع توفي في التاريخ الآنف الذكر، وبعد وفاته بوشر في اتخاذ الترتيبات لنقل جثمانه إلى فرنسا، ولكن جنوده رفضوا ذلك، وأصرروا على بقاءه بينهم ميتاً كما كان وهو حي^(٢)، ولذلك وضع جثمانه في ماء مغلي ممزوج بالخمير لفصل اللحم عن العظام^(٣)، ثم أخذت العظام ووضعت في صندوق وغطيت بالملح، في حين أخذ قلبه ووضع بعد تصبيره في صندوق آخر، وقد احتفظ بكلتا الصندوقين لحين رحيل الصليبيين فأخذوهما معهم حيث دفن القلب وحده في كنيسة (Monreale) بالقرب من مدينة بلرمة (بالرم) بصقلية بطلب من شارل صاحب أنجو وتمت إلحاحه، في حين دفنت محتويات الصندوق الآخر في (Saint - Denis) تنفيلاً لوصية لويس نفسه^(٤)، وعندما علم شعبه بوفاته حزنوا عليه حزناً شديداً إلى حد أنهم عبدوا ذكره^(٥) ولم ينتظروا حتى يتم رسمه قديماً من قبل الكنيسة بل أطلقوا عليه هم هذا اللقب، وفي ١١ أغسطس سنة ١٢٩٧م أصدر البابا بونيفاس الثامن (Boiniface VIII) قراراً برسمه قديماً في عداد قديسي الكنيسة الكاثوليكية^(٦). وفي ٨ أغسطس سنة ١٨٣٠م أي بعد احتلال فرنسا للجزائر بأشياء قليلة، فرض قنصل فرنسا في تونس ماتيو دليسيس Mthew de Lesspes^(٧) على باي تونس المشير أحمد باشا الحسيني معاهدة ينص أحد بنودها السرية على تنازل تونس الأيدي لفرنسا عن ريوه برصا

= صالحاً زاهداً مرابطاً، وكانت وفاته في ليلة الاثنين ١٦ شعبان سنة ٦٢٨هـ، ودفن بجبانته المعروفة به قرب المنارة بجبل المرسى القريب من ريوه قرطاجنة (انظر الزركشي : المصدر السابق ص ٢٦)، ولا زال مقامه موضع تبرك، ولشهرته أطلق اسمه على جبل المرسى فأصبح يعرف بسيدى يوسف، الذي هو حالياً ضاحية جميلة من ضواحي مدينة تونس وأحد متنزعات أهلها.

(١) عن هذه الأساطير وتفنيدها انظر : M. Talbi : Op. Cit., p.277 - 280.

(٢) Pierre de Condet : Op. Cit., p.226, Albert Garreau : Op. Cit., p.198.

(٣) Albert Garreau : Ibid, p.198.

(٤) Pierre de Condet : Ibid, p.226, Joinville : Op. Cit., p.350.

(٥) Robert Fewtetz : Op. Cit., p.31, Leon Cristani : Op. Cit., p.197.

(٦) Joinville : Ibid, p.351, Leon Cristiani : Ibid, p.197.

(٧) هو ابن فردناند دليسيس مصمم قناة السويس والمشرف على حفرها.

بقرطاجة^(١) حيث تم إنشاء كنيسة ضخمة فيها في المكان الذي يعتقد أن لويس التاسع نصب خيمته فيه تخليداً^(٢) لذكراه لا زالت قائمة إلى عصرنا الحاضر وهي المعروفة بالسانت لويس الملاصقة لمخلف الآثار الذي أنشأه القساوسة المعروفون بالآباء البيض.

وفي نفس اليوم الذي توفي فيه لويس التاسع وصل أخوه شارل بجموعه إلى قرطاجة قادماً من صقلية، ولكنه لم يقابل أخاه لأنه كان قد مات قبل ساعة من وصوله، ومع أنه جزع لوفاة أخيه فارغى باكياً على قدميه يقبلهما، إلا أنه سرعان ما تمالك نفسه وأبدى تجلداً بعد ذلك فسمح دموعه قبل خروجه من خيمة أخيه^(٣) حتى لا يراها الجند فيضعف ذلك من روحهم المعنوية، ثم باشر في إعداد الترتيبات لتنصيب ابن أخيه فيليب الحسور Philippe Le Hardi ولي العهد ملكاً خلفاً لأبيه^(٤)، ولما كان الملك الجديد لا يزال وقته يعاني من المرض فقد أصبح شارل هو المتحكم في مصير الحملة. وليرفع من الروح المعنوية للجند الذين كانوا في حالة مررية لما كانوا يعانون من الضيق والمرض والحزن، وخشية استغلال المسلمين للموقف الذي نجم عن موت الملك، بدأ في الاستعداد لشن هجوم كبير على المسلمين ففي يوم الخميس ٤ سبتمبر سنة ١٢٧٠م / ١٦ محرم سنة ٦٦٩هـ، بدأ ذلك الهجوم بمحاولته تسريب قطع صغيرة من أسطوله إلى البحيرة المهاجمة المسلمين برأ وبحراً، فتنبه المسلمون للأمر وحاولوا الحيلولة دون ذلك بشن هجوم مضاد على العدو، فاستنفر شارل القوات الصليبية وزحف بقسم منها على المسلمين في حين قاد ابنه (Philippe de Monfort) قسماً ثانياً وابن أخيه كونت أرتوا القسم الثالث وشهد لثلاثهم على المسلمين^(٥)،

(١) انظر د. الحبيب الخنحاني : المرجع السابق ص١٤٢، حسن حسني عبد الوهاب : خلاصة تاريخ تونس ص١٣١ حاشية ١.

(٢) ابن أبي الضياف : المصدر السابق ص٢٠٦.

(٣) Pierre de Condet : Op. Cit., p.226., R. Brunschvig : Op. Cit. Tom, 1, p.61.

(٤) يقول ابن خلدون : (المصدر السابق ج٦ ص٢٩٤) وعليده في ذلك حمودة بن عبد العزيز (المصدر السابق ورقة ١٠٤) إنه لما توفي لويس التاسع (اجتمع النصارى على ابنه ديماط سمي بذلك لميلاده بها قياهمه). وهذا وهم من ابن خلدون لأن الذي ولد في ديماط هو حنا الحزين الذي توفي قبل أبيه في ٣ أغسطس ١٢٧٠م كما سبق أن ذكرنا، وكان الذي نودي به ملكاً هو فيليب الابن الأكبر للويس التاسع وولي عهده.

Pierre de Condet : Ibid, p.227.

(٥)

وقاد الجانب الإسلامي كما يقول ابن خلدون القائد يحيى بن صالح والذي جعل هذا الهجوم في منتصف محرم سنة ٦٦٩هـ^(١)، ودارت بين الطرفين معركة حامية، ونظراً لشدة ضغط الهجوم الصليبي الذي جرى الاستعداد الكبير له مسبقاً بدأ المسلمون في التراجع إلى معسكرهم، وبالرغم من استماتتهم في الدفاع عن ذلك المعسكر إلا أن الصليبيين تمكنوا من اقتحامه بعد العشاء وبعد أن تكبد كلا الطرفين خسائر كبيرة^(٢)، ولكن الصليبيين غادروا معسكر المسلمين خوفاً من الكرة عليهم وفي الصباح عاد المسلمون إلى معسكرهم وبادروا في حفر خندق كبير حوله حتى لا يؤخذوا كالمرّة السابقة، ولشدة اهتمامهم بحفر ذلك الخندق شارك في ذلك العمل كبراء الدولة منهم الشيخ أبو سعيد الذي حفر فيه بنفسه، يقول ابن خلدون في ذلك : (فأصبحت أبنيته مضرورية كما كانت وأمر بالخندق على المعسكر فعاورته الأيدي واحفر فيه الشيخ أبو سعيد بنفسه)^(٣).

وفي ١٢ صفر ٦٦٩هـ / ٢ أكتوبر ١٢٧٠ نشبت معركة جديدة بين الطرفين إذ غار المسلمون على المعسكر الصليبي بأعداد كبيرة انتقاماً للمعركة الآتفة الذكر، ويبدو أن شارل كان مستعداً لهم فاشتبك الطرفان في معركة شبيهة بالأولى ولم يتحاجزا إلا بعد أن فقد كلاهما العديد من القتلى، ويعتقد (R. Brunschvig) أن اقتحام معسكر المسلمين قد حدث إبان هذه المعركة^(٤)، ولكننا نعتقد أن الرواية الإسلامية الآتفة التي ذكرها ابن خلدون وأيده فيها المقريري والتي قالت بأن ذلك الاقتحام كان في منتصف محرم سنة ٦٦٩هـ في الأصح، وعلى أية حال فإن كلا الطرفين بدأ يدرك أن هذه الحرب ليست مجدبة ومن شأنها أن تجر عليه المزيد من الوبال خاصة وأن كليهما كان يعاني من المتاعب فبدأ يميلان نحو التفاوض لإنهاءها.

الملك شارل و مفاوضات الصلح :

فبالرغم من وصول شارل إلى قرطاجة بجموعه، وبالرغم من هذه الجهود التي بذلها

(١) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٢٩٣، انظر كذلك :

Pierre de Condet : Op. Cit., p.227, R. Brunschvig : Op. Cit., Tom, 1, p. 61.

(٢) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٢٩٣، المقريري : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٣٦٥.

(٣)

R. Brunschvig : Ibid, Tom, 1, p.61.

(٤)

فإن الصليبيين كانوا يعانون من متاعب كثيرة كان التغلب عليها فوق طاقة شارل وملك فرنسا الجديد، فقد كان لفشل الهجومين الآتفي الذكر في شل مقاومة المسلمين أثره السيئ عليهم إذ بدأوا يشعرون باستحالة تحقيق الحملة لأهدافها، كما أن قلة الماء الصالح للشرب وسوء التغذية وحرارة الجو والأمراض التي تفشت فيهم كانت أسباباً أخرى لتثبط عزائمهم وفتور حماسهم لا سيما وأنه كان من بينهم من لم يكن أصلاً راضياً عن الحملة، ويصور Pierre de Condet حالتهم تلك بقوله : (إنهم كانوا أقرب إلى الأموات منهم إلى الأحياء على هذه الأرض الملعونة، ولا عجب في ذلك. فالشمس شديدة الحرارة، والغبار يزيد الجو تعكراً وعفناً، والرياح تزيد في الإزعاج، والهواء المسموم ورائحة الموتى تزكم الأنوف، هذا بالإضافة إلى متاعب عديدة أخرى يصعب تعدادها دفعت الجند الأصحاء إلى كره بقائهم أحياء^(١))، يضاف إلى ذلك أسباب هامة أخرى منها قرب حلول فصل الشتاء موعد انغلاق البحر الذي تأتيهم الإمدادات والأقوات عن طريقه، مما يتسبب في عواقب وخيمة لا تحمد عقباها، الأمر الذي جعل الكثير منهم يرغب في الرحيل عن إفريقية قبل ذلك الوقت سواء أكان ذلك للرجوع إلى بلادهم أم إلى صقلية للتأهب للرحيل إلى الديار المقدسة في الربيع المقبل^(٢)) ومنهم من كان يرى أن الملك الجديد يجب أن يكون في مطلع عهده في بلاده ليتحسس مشاكل شعبه وآلامه ويعمل على إزالتها كي يعرف أبناء هذا الشعب مدى حبه لهم وسهره عليهم بدلاً من أن يظل محصوراً في معسكره يواجه حرباً غير معروفة النتائج.

وكان للجانب الإسلامي متاعبه هو الآخر، فقد كان المستنصر يدرك مدى خطورة العدو على عاصمته كونه لا يبعد عنها إلا بضعة أميال، خاصة وأن معركة سبتمبر وأكتوبر الآتفتي الذكر قد أثبتت له هو الآخر مدى صعوبة الصمود في وجه عدو عنيد، ثم إنه كان يخشى من انسحاب الأعراب الهلالية من قوى المقاومة الإسلامية - والذين كان يؤمنون قوة لها وزنها - من ميدان القتال والانصراف إلى مشاتهم في مروج الجنوب كعادتهم في كل

(١) Pierre de Condet : Op. Cit., p.227 - 8, Le duc de Levis Miropoix : Op. Cit., p. 124.

د. سعيد عالور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٠٣٨ - ١٠٣٩.

(٢) R. Brunschwig : Op. Cit., Tom, 1, p.61, M. Talbi : Op. Cit., p.253.

عام^(١)، كما أن البلاد كانت لا تزال تعاني من الضائقة الاقتصادية التي سببها القحط والجماعة والوباء، إذ يصف ابن الضياف ذلك بقوله : (واشد حال الوباء والقحط مع الحرب)^(٢)، هذا بالإضافة إلى أن المستنصر، أصلاً كان يفضل المصالحة مقابل الاستجابة لبعض مطالب الصليبيين، وما زاد الطين بلة على المسلمين وتعتد انتفاخ الشائعات بينهم في ذلك الظرف الدقيق والخرج مما كان له أثره السيئ على روحهم المعنوية، يقول ابن خلدون في ذلك : (وابتلي المسلمون وظنوا الظنون)^(٣) وكان من أخطر تلك الشائعات واحدة منها مفادها أن المستنصر ينوي مغادرة مدينة تونس إلى القيروان ليتخذها مقراً له، وفي ذلك يقول ابن خلدون : (واتهم السلطان بالتحول عن تونس إلى القيروان)^(٤)، الأمر الذي خلق بلبلة كبيرة بين أهالي العاصمة إذ اعتقدوا أن المستنصر لا يقدم على مثل هذا العمل ما لم يكن يشعر بوجود خطر محقق به. أما ابن القنفذ فيذكر أنه قد عزم على ذلك بالفعل لكن ليس إلى القيروان وإنما إلى قسنطينة فيقول : (كان الملك عازماً على سكنى قسنطينة وأراد نقل ذخائره وأهله إليها، واختزن بها أربعين ألف قفيز من القمح وأمثاله من الشعير، وشرع في إصلاح أسوارها)^(٥)، وهي رواية مفردة لم نجد لها تأييداً في المصادر الأخرى، والأصح في اعتقادنا هو ما ذكره ابن خلدون لأن كافة الروايات الإسلامية الأخرى التي أطلعت عليها تؤيدها، هذا علاوة على أن ابن خلدون يرى أنها تهمة اتهم بها السلطان قد تكون صحيحة وقد تكون باطلة، أما ما يفهم من رواية ابن القنفذ هو أنه جعل هذا الأمر يقيناً، والذي أراه في هذه الرواية أنه قد يكون أهل قسنطينة حينما وصلهم أمر المستنصر بالاستكثار من العدة والسلاح وإصلاح الأسوار واختزان الحبوب الذي أصدره لكافة عمالاته كما سبق أن ذكرنا، ظنوا أن ذلك مقصور على بلدهم تمهيداً لانتقاله إليها، فوجد ابن القنفذ الذي جاء

(١) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٢٩٤، انظر كذلك :

R. Brunschwig : Op. Cit., Tom, 1, p.61, M. Talbi : Op. Cit., p.253.

(٢) ابن أبي الضياف : المصدر السابق ص ٦٠٦.

(٣) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٢٩٣.

(٤) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٢٩٣، انظر أيضاً حمودة بن عبد العزيز : المصدر السابق ورقة

١٠٤، مشارل أندري جوليان : المرجع السابق ج ٢ ص ١٨٠.

(٥) ابن القنفذ : الفارسية ص ١٣٢.

بعد تلك الحوادث بحوالي القرن هذا الظن شائعاً بين أهل بلده فنقله على علاته، و خلاصة القول أن كلا الجانبين الإسلامي والصليبي كان لديه من الأسباب القوية ما جعله راغباً في إنهاء الحرب.

ولكن بالرغم من ذلك، فقد برزت معارضة للصلح في صفوف كلا الجانبين، ففي الجانب الإسلامي وجد المستنصر معارضة شديدة لهذا الأمر من أهله وبعض كبار رجالات دولته وقطاعات أخرى من الشعب وبصفة خاصة تلك الفئة التي كانت متمسكة بمبدأ وجوب جهاد النصارى المحدثين مثل المرابطين والفقهاء وأشباههم^(١) فضلاً عن أن هؤلاء كانوا يعلمون أن رحيل النصارى لن يكون بدون ثمن. أما في الجانب الصليبي فكان على رأس المعارضة الملك الجديد فيليب الجسور (Philippe Le Hardi) الذي كان يفضل المضي قدماً في تنفيذ مشروع أبيه ومواصلة القتال ودخول تونس العاصمة وبسط السيطرة المسيحية على إفريقية بأسرها ومن ثم مواصلة الزحف إلى الديار المقدسة^(٢)، وبالإضافة إلى الملك كان هنالك تلك الفئة من الجند التي جرها الطمع في المغنم إلى إفريقية، إذ كانت تلك الفئة ترى ضرورة اجتياح مدينة تونس ونهبها، وإذا كان الملك فيليب قد انصاع لعمه شارل وصهره ملك نفاة بما أطمعاه به من المبلغ المالي الضخم والهدايا الثمينة التي سيحصل عليها من المستنصر ثمناً لهذا الصلح، فإن تلك الفئة من الجند وجدت نفسها متحرم من كل شيء

R. Brunschwig : Op. Cit., Tom, I, p.63.

(١)

وما يذكر في موضوع هذه المعارضة أنه كان من بين العلماء الذين حضروا عقد الصلح عالم عرض عليه منصب القضاة فأباه زهداً فيه هو أبو العباس أحمد بن عثمان بن عجلان القيبي المتوفى في السبعينات من القرن السابع الهجري، وقد مثل هذا العالم عن رأيه في الصلح من الوجهة الشرعية ربما لاستخدام الفتوى التي تصدر منه في إقناع الناس بصحة الصلح لمكانة ذلك العالم الرفيعة في نفوسهم. ولكن أبا العباس حاول التخلص من الإجابة الصريحة وكان ذلك في ديوان السلطان فقال للسائل لا علم لي بالحال وإنما يشهد من يعرف بالحال، وتوالت عليه الأسئلة الملحة من رجال البلاط لقول رأيه بما يدل على وجود معارضة قوية يراد استمالة جوابه في إسكاتها، ولكنه ظل متمسكاً بجوابه الآف الذكر، وكان المستنصر يسمع من وراء حجاب، وظل الإلحاح يتوالى عليه وهو متمسك بقوله إلى أن ضجر المستنصر فنقر نقرة فض المجلس. (انظر الضربني : عنوان الدراية ص ١١٦ - ١١٧، محمد الهادي العامري : المرجع السابق ص ٤٢ حاشية ١).

M. Talbi : Op. Cit., p.267.

(٢)

لذلك صبت لعنتاتها على الملك شارل الذي كان السبب في عقد ذلك الصلح، واتهمته بأنه ضحى بالمصالح العامة في سبيل تحقيق مصلحته الشخصية، وإنه لم يقبل ذلك الصلح إلا من أجل الحصول على الأثاوة التي كانت تدفعها إفريقية لصقلية^(١). ولكن تلك المعارضة في كلا الجانبين تم إسكاتها بسهولة ومال الطرفان لعقد الصلح.

وتذكر المصادر الإسلامية أن الصليبيين كانوا هم البادئين في طلب الصلح، فيقول ابن خلدون : (... واعتزموا الإقلاع وكان أمرهم راجعاً إلى العلجة فرأست المستنصر أن يذل لها ما خسروه مؤونة حركتهم وترجع بقومها فأسغفها السلطان)^(٢)، ومع تحفظنا على هذه الرواية، ذلك أننا لا ندري من التي عناها ابن خلدون فيها بقوله العلجة، فإذا كان يعني الملكة مارجريت زوجة لويس التاسع التي ذكر أثناء تعداده للمشاركين في الحملة أنها كانت ترافق زوجها فقال إنهم (كانوا سبعة يعاسب... والعلجة زوج الصاغية)^(٣)، فإن ذلك وهم منه لأن الملكة مارجريت لم ترافق زوجها إلى إفريقية كما سبق أن ذكرنا، ولكن هذه الرواية تكون أقرب إلى الصحة فيما إذا كان قد عني بها إيزابيلا زوجة الملك الحديدي فيليب أو أخته إزابيلا أيضاً زوجة ملك نفاة اللتين كانتا مصاحبتين للحملة مع أننا نعتقد أنه لم يكن لأي منهما التأثير القوي على مصير الحملة ليدخلهما الدخول في مفاوضات مع السلطان الحفصي نظراً لتحكم الملك شارل في ذلك المصير، إلا أن الاستفادة من تلك الرواية أن الجانب الصليبي هو الذي عرض الصلح، ويؤيد ابن الشماخ ما ذهب إليه ابن خلدون بقوله : (وطلبوا الصلح في أوائل ربيع الأول فصالحهم السلطان)^(٤)، ويدعم ذلك ما ذكره كل من ابن أبي دینار^(٥)، وحمودة بن عبد العزيز^(٦) والوزير السراج^(٧) والباجي المسعودي^(٨)

M. Talbi : Op. Cit., p.267 - 8.

(١)

(٢) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٢٩٣ - ٢٩٤.

(٣) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٢٩٢.

(٤) ابن الشماخ : المصدر السابق ص ٦٧.

(٥) ابن أبي دینار : المصدر السابق ص ١٣٦.

(٦) حمودة بن عبد العزيز : المصدر السابق ورقة ١٠٤.

(٧) الوزير السراج : المصدر السابق ج ١ ق ٤ ص ١٠٣٢.

(٨) الباجي المسعودي : المصدر السابق ص ٦٣.

الذين رووا روايات مشابهة لهاتين الروايتين، أما ابن أبي الضياف فيذكر أن المستنصر هو الذي طلب الصلح إذ يقول : (قدعاهم المستنصر إلى الصلح فأجابوا)^(١) فيتفق بذلك مع الروايات المسيحية التي يعتبر قول Pierre de Condet مثلاً لها حيث يقول في رسالته الثالثة الموجهة إلى رئيس دير القديس دينيس (Au pere Abbe de Saint - Denis) إن سلطان تونس أرسل إلى الملك شارل يطلب الصلح^(٢)، وحيال هذا التعارض بين الروايات الإسلامية والمسيحية باستثناء ما ذكره ابن أبي الضياف، فإنه يصعب على الباحث التوفيق بينها أو التوصل إلى رأي محدد حول هذا الموضوع خاصة وأن كلا الطرفين كان راغياً في الصلح.

وأياً كان الأمر، فقد أرسل المستنصر وفداً من قبله لمفاوضة الصليبيين في أوائل ربيع الأول سنة ٦٦٩هـ / أكتوبر سنة ١٢٧٠م^(٣)، وفي ١٢ ربيع أول / ٣٠ أكتوبر من العام ذاته توصل الطرفان إلى اتفاق مبدئي على شروط الصلح، وبعد ذلك وفي وقت غير معروف بالضبط كتبت معاهدة هذا الصلح وقد يكون ذلك في ١٨ ربيع الأول سنة ٦٦٩هـ / ٥ نوفمبر سنة ١٢٧٠م كما يقول برنغفيك^(٤) وشارل أندري جوليان^(٥)، وقدمت للجانب الصليبي الذي وافق عليها مما جعل المسلمين يمتدحون أن الصلح قد تم فدخلوا محلة الصليبيين (قباعرا واثتروا)^(٦)، وبعد ذلك وفي يوم ٥ ربيع الثاني ٦٦٩هـ / ٢١ نوفمبر ١٢٧٠م واعتمادنا في تحديد هذا التاريخ على ما جاء في وثيقة المعاهدة التي مندرسها في الفصل التالي، قدمت المعاهدة للمستنصر الذي أقسم على التقيد بما جاء فيها بحضور (Geoffroy de Beaumont) قنصل صقلية^(٧) وبذلك تم الصلح بين الطرفين.

(١) ابن أبي الضياف : المصدر السابق ص ٢٠٦.

(٢) Pierre de Condet : Op. Cit., p.229 - 30, M. Talbi : Op. Cit., p.253.

M. Talbi : Ibid, p.253.

(٣) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٢٩٤.

(٤) R. Brunschvig : Op. Cit., Tom, 1, p.62.

(٥) شارل أندري جوليان : المرجع السابق ج ٢ ص ١٨١، انظر كذلك :

K. M. Setton : Op. Cit., V, 2, p.516., H. E. Mayer : Op. Cit., p.270.

(٦) الوزير السراج : المصدر السابق ج ١ ق ٤ ص ١٠٣٣.

(٧) Pierre de Condet : Op. Cit., p.230, R. Brunschvig : Op. Cit. Tom, 1, p.62.

مقد الصلح وانسحاب الصليبيين :

عقب توقيع معاهدة الصلح مباشرة بدأ الصليبيون في الانسحاب تاركين بعض أثقالهم خلفهم، منها بعض المتجنقات التي غنمها المسلمون^(١)، وتختلف المصادر والمراجع الإسلامية والغربية أيضاً في تحديد موعد هذا الانسحاب، فبالنسبة للمصادر الإسلامية فإن ابن خلدون لم يذكر تاريخ انسحابهم وإنما قال إنهم رحلوا بعد إقامتهم (مترسين في تونس ستة أشهر)^(٢)، وفي اعتقادنا أن ابن خلدون قد جانب الصواب في هذه الناحية ذلك أن نزول الصليبيين في قرطاج كان يوم ٢٦ ذي القعدة كما سبق أن ذكرنا، ولما كان توقيع معاهدة الصلح قد تم في يوم ٥ ربيع الآخر سنة ٦٦٩هـ، فإن المدة بين هذين التاريخين تكون أربعة أشهر وتسعة أيام فقط، ومهما تأخر موعد انسحاب الصليبيين فلن يصل إلى ستة أشهر، وكما أخطأ ابن خلدون أخطأ كذلك ابن القنفذ الذي حدد موعد انسحابهم بيوم ٢٤ ربيع الأول سنة ٦٦٩هـ^(٣)، ذلك أن معاهدة الصلح قُبلت بعد ذلك التاريخ بأحد عشر يوماً ولا يمكن أن يكون هنالك انسحاب قبل توقيع المعاهدة، وأما ابن الشماخ^(٤)، وابن أبي دينار^(٥)، والوزير السراج^(٦)، فبالرغم من أنهم لم يحددوا تاريخ الانسحاب إلا أنهم ذكروا أن مدة إقامة الصليبيين في تونس كانت أربعة أشهر وعشرة أيام، ولما كان ما ذكرناه من أن المدة بين نزول الصليبيين وتوقيع المعاهدة كان أربعة أشهر وتسعة أيام وأن الانسحاب بدأ إثر ذلك وربما في اليوم التالي مباشرة فإن هذه الروايات تكون أقرب الروايات الإسلامية إلى الصحة، خاصة وأنها تتفق مع رواية Pierre de Condet حول هذا الموضوع الذي يقول بأن رحيل الملك فيليب من إفريقية كان في يوم الخميس التالي لعيد القديس مارتن الذي يصادف ١١ نوفمبر من كل عام^(٧) أي أنه

(١) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٢٩٤.

(٢) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٢٩٣.

(٣) ابن القنفذ : المصدر السابق ص ١٣٢.

(٤) ابن الشماخ : المصدر السابق ص ٦٧.

(٥) ابن أبي دينار : المصدر السابق ص ١٣٦.

(٦) الوزير السراج : المصدر السابق ج ١ ق ٤ ص ١٠٣٣.

Pierre de Condet : Op. Cit., p.232 - 3.

(٧)

كان في يوم ٢٢ نوفمبر ١٢٧٠م / ٦ ربيع الثاني ٦٦٩هـ حيث تبعه بعد ذلك باقي الصليبيين^(١) بمن فيهم الأمير إدوارد ولي عهد إنكلترا الذي كان قد وصل إلى تونس في ١٠ نوفمبر ١٢٧٠ في ألف فارس وحينما اطلع على تفاصيل المفاوضات وشروط الصلح المبدئي الذي كان قد علم بأنيابته أثناء توقفه في سردينيا في طريقه إلى إفريقيا، لم يعجبه ما جرى، لكنه اضطر إلى الانصراف مع باقي الحملة إلى صقلية حيث قضى فيها فصل الشتاء وفي الربيع التالي غادرها إلى عكا^(٢).

وحرصاً من المستنصر على عدم حدوث ما يعكر صفو الأمن بينه وبين الصليبيين في تلك المرحلة، أرسل كتاباً من قواته من النصارى والمسلمين لحمايتهم أثناء الانسحاب، إذ يقول Pierre de Condet في ذلك أنه بفضل هذه الجهود تم ذلك الانسحاب بهدوء ويسر^(٣). وكان قد جرى الاتفاق بين الصليبيين على الاتجاه إلى مينائي اطرابنش (Trapani) وبلرمة (بالرمو) بصقلية وكان بعضهم قد اعتزم الرحيل منها إلى الديار المقدسة من ضمنهم كونت بواتيه، وبير شامبلون (Pierre Chimbellon)، كما اعتزم بعض آخر على رأسهم الملك شارل على الرحيل إلى اليونان لحرب امبراطور القسطنطينية، وأما الملك فيليب فقد كان عازماً على العودة إلى بلاده^(٤). وفي طريقهم إلى صقلية هبت عليهم عاصفة هوجاء حطمت كثيراً من سفنهم وأهلكت العديد منهم، ويصف Pierre de Condet تلك العاصفة بقوله : (لقد كانت العاصفة شديدة طوال ليلة يوم الأحد وكامل يوم الاثنين والليلتين التاليتين إلى حد أن البحارة أبعدوا حيرتهم ودهشتهم عن هذه العاصفة التي قالوا بأنهم لم يروا مثلها أبداً في حياتهم. لقد تحطمت الصواري وغاصت السفن الكبيرة في البحر كما تنفوس الصخرة، وليس ما نأسف عليه هو الخسائر المادية بل الخسائر البشرية، إذ هلك العديد من الرجال والنساء من مختلف الأعمار قدرهم من شهد الكارثة بحوالي أربعة

(١) وبوصلنا إلى هذه النتيجة يتضح أن برنغفيك (R. Brunschvig : Op. Cit., Tom 1, 62) قد جانب الصواب هو الآخر حينما ذكر أن الانسحاب كان ما بين ١٨ - ٢٠ نوفمبر سنة ١٢٧٠م.

(٢) K. M. Setton : Op. Cit., Vol. 2, p.517.

(٣) Pierre de Condet : Ibid, p.233.

(٤) Pierre de Condet : Ibid, p.231, R. Brunschvig : Ibid, Tom, 1, p.61.

آلاف نفس ومات بعد ذلك ما يزيد عن الألف من الذين نجوا من أثر الرعب والهلع... لقد فقدنا في هذه العاصفة ١٨ سفينة كبيرة عدا السفن الصغيرة^(١).

ولم يكن وصولهم إلى صقلية نهاية المتاعب بل مات فيها الكثير من مرضاهم من بينهم ملك نفارة، وتبعته بعد ذلك بفترة وجيزة زوجته التي ماتت حزناً على مولودها الذي ولدته ميتاً قبل موعده^(٢) نتيجة لفقدانها زوجها، كما سقطت الملكة إيزابيلا زوجة الملك فيليب عن فرس وكانت هي الأخرى في أشهر الحمل الأخيرة، فكان ذلك سبباً في إجهاضها ولم تعش بعد ذلك طويلاً، إذ ماتت هي الأخرى في ٢٨ يناير سنة ١٢٧١م^(٣)، ثم تبعها ألفونس كونت بواتيه وعم الملك فيليب، وكان لهذه الحوادث أثرها القوي على نفسية هذا الملك حتى بات رجاله يخشون عليه من الموت هو الآخر كمداً لفقدته هؤلاء^(٤)، وأخيراً رحل بمن تبقى من جيشه في موكب حزين يتقلعه تاهوت أبيه وتواييت باقي الذين ماتوا من أفراد أسرته فكان ذلك نهاية المطاف بالنسبة للحملة الصليبية الثامنة.

(١) Pierre de Condet : Op. Cit., p.232.

وانظر كذلك ابن الشماخ : المصدر السابق ص ٦٨، ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٢٩٤، حمودة بن عبد العزيز : المصدر السابق ورقة ١٠٤، الوزير السراج : المصدر السابق ج ١ ق ٤ ص ١٠٣٣.

R. Brunschvig : Op. Cit., Tom, 1, p.62.

M. Talbi : Op. Cit., p.254 - 5, Albert Garreau : Op. Cit., p.199.

Pierre de Condet : Ibid, p.234. (٢)

Pierre de Condet : Ibid, p.235.

Albert Garreau : Ibid, p.199. (٣)

Pierre de Condet : Ibid, p.234. (٤)

﴿كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة يرضونكم
بأنفوسهم وتأيى قلوبهم وأكثرهم فاسقون﴾.

[سورة التوبة : آية ٨]

معاهدة الصلح

الوفد الإسلامي في المفاوضات - تعريف بوثيقة المعاهدة - ملاحظات عامة على الوثيقة -
أسس الصلح : أ) الناحية الاقتصادية، ب) الناحية السياسية، ج) الناحية الدينية

الوفد الإسلامي في المفاوضات :

بعد أن تهيأت الظروف لعقد الصلح بين المستنصر والصليبيين كما سبق أن ذكرنا، أرسل السلطان الحفصي (مسيخة الفقهاء)^(١) إلى الجانب الصليبي لإتمام هذا الصلح وتحرير المعاهدة. وأول من ذكرته المعاهدة من هذا الوفد هو محمد بن عبد القوي أمير بني توجين، وقد حثه بالشيخ الأجل الأكرم، ولما كانت المعاهدة قد نصت أن هذا الأمر قد تم على يده، إذ جاء فيها : (هذاما اتفقوا عليه وعقنوه على يد الشيخ الأجل الأكرم أبو زيان محمد عبد القوي)^(٢)، فإنه يفهم من ذلك أنه كان رئيس الوفد الإسلامي للمفاوض. وتجدر الإشارة في هذا المقام إلى أن ابن خلدون أثناء تعدده لأعضاء هذا الوفد أورد اسم ابنه زيان بدلاً منه^(٣) الأمر الذي يتعارض مع ما ورد في وثيقة المعاهدة وهي الأصح بطبيعة الحال، لا سيما وأن اسم محمد بن عبد القوي قد ورد فيها مرتين، فمحمد بن عبد القوي هو الذي قاد عسكر بني توجين إلى تونس وليس ابنه زيان كما يقول ابن خلدون (وسرح إليه محمد بن عبد القوي عسكر بني توجين لنظر ابنه زيان)^(٤)، اعتماداً على نص آخر لابن خلدون في موضع آخر من كتابه جاء فيه : (ولما نزل النصاري والإفرنجية بساحل تونس سنة ثمان وستين وطعموا في ملك الحضرة بعث المستنصر إلى ملوك زناتة بالصربخ فصرفوا وجوههم إليه وخف من بينهم محمد بن عبد

(١) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٢٩٤.

(٢) انظر وثيقة المعاهدة - الملحق الأول.

(٣) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٢٩٤.

(٤) ابن خلدون المصدر السابق ج ٦ ص ٢٩٣.

القوي في قومه ومن احتشد من أهل وطنه ونزل على السلطان بتونس وأبلى في جهاد العدو أحسن البلاء وكانت له في أيامه معهم مقامات مذكورة ومواقف مشهورة وعند الله محاسبة معدودة^(١) لذلك ربما كان الناسخ هو الذي تسبب في هذا الخطأ.

وما يستلفت انتباه الباحث هو إسناده هذه المهمة لابن عبد القوي، ألم يكن في رجاله بلاط المستنصر من يستطيع القيام بها؟ ثم إنه لم يكن من مشيخة الفقهاء التي ذكر ابن خلدون أن المستنصر أرسلها إلى الصليبيين، لقد كان أمير قبيلة وهو للمسكينة أقرب منه للسياسة ولم يكن في عداد الطبقة المثقفة، فما هي الأسس التي تم اختياره لهذه المهمة بموجبها؟ كل هذه التساؤلات لا تسعفنا لا الوثيقة ولا المصادر المتيسرة بإجابات عليها. وما نراه في هذا الموضوع هو أنه ربما كان المستنصر حينما لمس المعارضة من أهله وبعض رجاله دولته البارزين لعقد الصلح كما سبق أن ذكرنا بحث عن شخصية قوية مؤيدة له فيما عزم عليه من الصلح، تدعمها عصبية قوية يستطيع الاعتماد عليها في الوقوف في وجه المعارضة، فوجدها في محمد بن عبد القوي المذكور^(٢)، ذلك أن المعاهدة لم تقصر دوره على أن الصلح عقد على يده، وإنما أعطته دوراً آخر أكثر خطورة من الأول إذ جعلته شريكاً متضامناً مع المستنصر وولي عهده في الالتزام بتنفيذ شروط الصلح، فقد جاء فيها : (وأمر المؤمنين أيده الله تعالى، وولده المبارك الأسعد، والشيخ الأجل أبو زيان بن عبد القوي، وعدوا على دينهم وأمانتهم لتتام ذلك)^(٣)، ومكافأة من المستنصر له على هذه المساندة والدعم أجزل الصلة له ولقومه إذ يقول ابن خلدون أنه عندما (ارتحل العدو عن الحضرة

(١) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٧ ص ١٥٦ - ١٥٧.

(٢) كانت العلاقة بين أمير توجين محمد بن عبد القوي والمستنصر الحفصي قوية، تعود في أصلها إلى أيام والدهما إذ يقول ابن خلدون في ذلك إنه حينما زحف أبو زكريا الأول الحفصي إلى المغرب الأوسط لحرب بني زيان (دخلت في طاعته قبائل صنهاجة ومرت زناته أمامه وردد إليهم الغزو فأصاب منهم وتقبض في بعض غزواته على عبد القوي بن النيباس أمير توجين فاعتقله بالحضرة ثم من عليه وأطلقه على أن يستألف له قومه فصاروا قيمة له ولقومه آخر الدهر ونهض الأمير أبو زكريا بعدها إلى تلمسان فكان عبد القوي وقومه في جملته حتى إذا ملك تلمسان ورجع إلى الحضرة عقد لعبد القوي هذا على قومه ووطنه وأذن له في اتخاذ الآلة فكانت أول مراسم الملك لبني توجين).

(٣) انظر وثيقة المعاهدة.

وأخذ محمد بن عبد القوي في الانصراف إلى وطنه أسنى السلطان جائزته وعمم بالإحسان وجوه قومه وعساكره وأقطعهم بلاد مغراوة وأوماش من وطن الزاب وأحسن منقلبه ولم يزل بعد ذلك محتقلاً بطاعته مستظهِراً على عدوه بالانحياش إليه^(١).

وتحضي الوثيقة بعد ذكر الشروط فذكر أسماء باقي أعضاء الوفد في ذيلها على هيئة شهود على معاهدة الصلح، وهم عبد الحميد بن أبي البركات بن عمران بن أبي الدنيا الصدفى، وعلي التميمي بن إبراهيم بن عمر، وأبو القاسم بن أبي بكر التجيبي، وبمقارنة هذه الأسماء بالأسماء التي ذكرها ابن خلدون نجد أن ابن خلدون أحل أحمد بن الغماز محل عبد الحميد بن أبي البركات^(٢)، وفي اعتقادنا أن هذا وهم من ابن خلدون، فلو كان ابن الغماز من ضمن أعضاء الوفد أو أنه كان في منصب رسمي قاضياً للجماعة بتونس لما أغفلت الوثيقة ذكره، ذلك أنه ولي قضاء الجماعة بتونس نحو سبع مرات وتوفي وهو على ولايته^(٣)، فقد يكون هذا الصلح قد عقد في وقت كان فيه معزولاً عن القضاء لذلك لم يرد اسمه في المعاهدة^(٤)، ويبدو أن عبد الحميد بن أبي البركات الذي قال عنه ابن فرحون أنه ولي قضاء الجماعة بتونس^(٥) كان يحل محله في ذلك المنصب في تلك الآونة^(٦)، وأما علي التميمي فلم أقف له على ترجمة في المصادر المتوفرة وإن كان يبدو كما يفهم من الوثيقة أنه أحد القضاة ولا يقل علماً وفقهاً عن زميله. وأما أبو القاسم بن أبي بكر التجيبي والمعروف بابن زيتون^(٧) فهو مفتي إفريقية وقاضيهما في زمن أبي زكريا وابنه المستنصر ومن أشهر

(١) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٧ ص ١٥٧.

(٢) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٢٩٤.

(٣) ابن فرحون : الديباج المذهب ج ١ ص ٢٤٩ - ٢٥٠.

(٤) انظر ترجمته في الغبريني : عنوان النراية ص ١٢٩ - ١٣٠، ابن فرحون : المصدر السابق ج ١ ص ٢٤٩ وما بعدها. ابن القاضي : درة المجال ج ١، ص ٧٩ - ٨٠.

(٥) ابن فرحون : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦.

(٦) انظر ترجمته في الغبريني : المصدر السابق ص ١٢٢ - ١٢٣، ابن فرحون : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٥ - ٢٦، ابن القاضي : درة المجال ج ٣ ص ١٦١ - ١٦٢.

(٧) انظر ترجمته في الغبريني : المصدر السابق ص ١١٤ - ١١٥، ابن فرحون : المصدر السابق ج ١ ص ٣١٠ - ٣١١. حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق ٣ ص ٦٤. وما بعدها.

تلازمة الإمام المازري وهو الذي تولى كتابة وثيقة الصلح.

ولم يقتصر دور هؤلاء القضاة على المفاوضة وإنما على الشهادة أيضاً (باعتقاد الصلح وصحته وثبوته)^(١)، وتعني هذه الشهادة أن الصلح والشروط الواردة في المعاهدة الخاصة به صحيحة من الوجهة الشرعية وملزمة وواجبة التنفيذ، ذلك أنه كانت قد جرت العادة أن يحضر مثل هذا الصلح الميامي الهام كبار الفقهاء كمستشارين ويشهدون بالإضافة إلى ذلك بأن عقد الصلح وشروطه ملائمة من الوجهة الشرعية والقانونية لمصلحة الأمة وغير مجحفة بها ولا تلحق بها ضرراً^(٢)، فشهادة هؤلاء الذين كانوا نخبة فقهاء إفريقية كانت كافية لإقناع مسلمي إفريقية بصحة الصلح وعدالة شروطه وبالتالي توفير الدعم الشرعي للمستنصر في عقده.

تعريف بوثيقة المعاهدة :

كانت هذه الوثيقة محفوظة بمصلحة الوثائق الوطنية بفرنسا تحت رقم (1 / J / 297) ثم نقلت حيث عرضت في متحف الوثائق بباريس تحت رقم (A E 1114) وقد كتب على ظهرها العبارة اللاتينية التالية :

Letra Rgis Tunicii - rega inita inter dominos Francie et Navarre reges et ipsum.

وتعني : (رسالة ملك تونس المتعلقة بالصلح والمعاهدة بينه وبين سادة فرنسا وملكها وملك نفارة)، وتوجد حالياً صورة شمسية منها محفوظة في متحف قرطاج بتونس، وبالرغم من أن العبارة اللاتينية الآتية الذكر توضح مضمون هذه الوثيقة، إلا أن المؤرخين لم يتنبهوا لها إلا منذ أوائل القرن الماضي حينما نشر Silvestre de Sacy بحثه عنها^(٣) في المجلة الآسيوية سنة ١٨٢٥م بعنوان :

Memoire sur la traite fait entre Philippe le Hardi et le Roi de Tunis en

(١) انظر وثيقة المعاهدة.

(٢) محمد الهادي العامري : المرجع السابق ص ٤٢.

(٣) العامري : المرجع السابق ص ٤٢.

1270 pour l' évacuation du Territoire de Tunis par les Croises

ومنذ ذلك الوقت ظهرت لها ترجمات في مؤلفات عديدة مثل كتاب (De Mas La-) (trie) المسمى :

Traites de paix et de commerce et documents divers concernant les
christians avec les Arabes de l' Afrique septentrionale au Moyen - Age.
الذي صدر في باريس سنة ١٨٦٦م، وكتاب (Mauroy) المسمى :

Precis de l' Histoire et du Commerce d' Afrique septentrionale

كما نشر (Rousseau) ترجمة فرنسية لها في حوليات تونس (Annales Tunisiennes) في الجزائر سنة ١٨٦٤م وكذلك Rouard de Card في كتابه :

(Traites de la France avec les d' pays de d' Afrique du Nord)

اتخذت الترجمة العربية الواردة في كتاب De Mas Latrerie أماساً لها، والذي صدر في باريس سنة ١٩٠٦م^(١)، أما النص العربي فلم ينشر إلا في أوائل هذا القرن حينما نشره قاريو سنة ١٩١٢م^(٢)، وقد أعاد August Bailly نشر الوثيقة المتضمنة لهذا النص في كتابه المسمى Saint - Louis والذي صدر في باريس سنة ١٩٦٥ وعنه صورت النسخة التي أرفقتها بهذه الدراسة، وأخيراً نشرها الدكتور محمد الطالبي مع عدة وثائق أخرى تتعلق بحملة لويس التاسع على إفريقية في كراسات تونس Les Cahiers de Tunisie سنة ١٩٧٧م تحت عنوان :

Document divers Relatifs a la Croisade de Saint Louis contre Tunis (1270)

وبالرغم من نشر هذه الوثيقة أكثر من مرة، إلا أنها لم تدرس الدراسة العلمية الكافية هذا بالإضافة إلى أنها لم تدرس أصلاً من وجهة النظر الإسلامية، وقد اكتفت المراجع الغربية وبعض العربية التي تعرضت لها بذكر بعض التعليقات عليها أو الإشارة إلى بعض بنودها،

M. Talbi : Op. Cit., p.225.

(١) العروسي المطوي : المرجع السابق ص ١٠٢ حاشية ٤.
(٢)

حتى بحث Silvestre de Sacy الآنف الذكر لم يتعرض إلا لزاوية واحدة منها هي ما تضمنته من يتود تتعلق بممارسة النصارى لنشاطاتهم الدينية في إفريقيا. وكل هذه التعليقات اعتمدت على الترجمة الفرنسية وما تضمنته المصادر المسيحية من معلومات حول هذا الموضوع مثل رسائل Pirre de Condet لاسيما رسالته الثالثة الموجهة إلى رئيس دير القديس دينيس التي سبق أن أشرنا إليها والتي تضمنت تلخيصاً لشروط الصلح الواردة في هذه الوثيقة، ثم تاريخ نانجي Guillaume de Nangis والذي كان مصدراً أساسياً لهذه التعليقات. وطالعا De Sacy في بحثه الآنف الذكر برأي غريب حول النص العربي الذي نحن بصدد دراسته مفاده أن هذا النص ما هو إلا ترجمة عربية لنص المعاهدة الأصلي الذي كان قد حرر بالفرنسية في ١١ نوفمبر سنة ١٢٧٠ ولم يعثر عليه وأن هذه الترجمة قد كتبت بعد الأصل الفرنسي ببضعة أيام^(١)، ونعتقد أن في قبول هذا القول، الذي لا يقوم على دليل ملموس، كثير من المجازفة، وعلى أية حال فإن لنا رأي آخر في هذه الوثيقة نعرضه فيما يلي.

ملاحظات عامة على الوثيقة :

إن أول ما يلاحظ على هذه الوثيقة هو الأسلوب الذي كتبت به فهو أسلوب حجة شرعية أقرب منه إلى أسلوب المعاهدات الدولية، ومع أن من المفروض أن يكون الذي كتبها هو القاضي ابن زيتون الذي سبق أن أشرنا إلى مكانته العلمية الرفيعة، إلا أننا نلمح في مواضع عديدة في الوثيقة ضعفاً في الأسلوب لا نعتقد أنه يصدر عن قاض فقيه له مكانته العلمية كابن زيتون، ويظهر ذلك بجلاء منذ الجملة الأولى فيها (هذا ما اتفقوا عليه وعقدوه)^(٢)، والأمر الآخر الملفت للنظر هو كثرة الأخطاء الإملائية التي تظهر في عدة مواضع فيها مثل كلمة (عاله) في السطر الأول، وكلمة (تعلى) بدلاً من (تعالى) في السطر الثالث، وكلمة (طاعطهم) بدلاً من (طاعتهم) في السطر الخامس، وكلمة (يخدمون) بدلاً من (يخدمون) في السطر الخامس عشر، وكلمة (بيد) بدلاً من (يبدل) في السطر العشرين

M. Talbi : Op. Cit., p.256.

(١)

(٢) انظر وثيقة معاهد الصلح.

و(ذلك) بدلاً من (ذلك) في السطر الخامس عشر، وغيرها من الأخطاء التي لا نعتقد أن يقع ابن زيتون فيها، مما يحملنا على الاعتقاد بأن هذه الوثيقة ليست هي الأصلية وإنما هي نسخة عنها قديكون أحد الكتاب في ديوان المستنصر قد نسخها عن الأصل الذي كتبه ابن زيتون حيث ملعت للصليبيين، أما الأصل فرمى حفظ بديوان المستنصر ثم فقد بعد ذلك وأن الناسخ هو الذي وقع في هذه الأخطاء، وبما يقوي هذا الاعتقاد لدينا ما ذكره ابن خلدون عن الملك شارل إذ يقول : (واختص جرون صاحب صقلية بسلم عقده على جزيرته)^(١)، فالمستفاد من هذا النص أن شارل عقد صلحاً مستقلاً مع المستنصر بخص صقلية وحدها أو بالأحرى مملكة الصقليتين، والأقرب للمنطق أن يكون ذلك بوثيقة منفصلة، أو على الأقل ملحق للأولي، فكيف ظهرت شروط الصلحين في وثيقة واحدة؟ إن الأرجح في اعتقادنا أن يكون الناسخ هو الذي قام بذلك وجمع الوثيقتين في وثيقة واحدة، ذلك أن هذه الوثيقة لم تتعرض لموضوع الأتاوة التي ستؤدي للملك شارل والذي هو الأساس الذي بني عليه الصلح بين شارل والمستنصر إلا في بالنهاية وبعد أن كادت الوثيقة تختتم وسجلت شهادة الشهود وقسم المستنصر وولي عهده ومحمد بن عبد القوي على الالتزام بتنفيذها واحترام الشروط الواردة فيها ثم أرخت ولم يبق إلا تسجيل شهادة القضاة عليها لإثبات صحتها من الوجهة الشرعية، وإذا بالنص المتعلق بالملك شارل يبرز فجأة، الأمر الذي يدل على أنه أضيف على الوثيقة بل أُنجم عليها إقحاماً، ولا تخفي الوثيقة إضافته إذ استهل هذا النص بالقول (وبضاف إلى هذا العقد...) ^(٢) مما يجعلنا نشك كثيراً في أن يكون هذا هو النص الأصلي.

ولو كان الأمر على غير ما ذهبنا إليه لكان من المنطقي والأصح أن يجري العرض له في غير هذا الموضوع أي عند ذكر الشروط الأخرى للصلح، ولا يمكن أن يقوم هناك احتمال في أنه قد يكون اتفق على هذا الشرط بعد كتابة باقي الشروط المتفق عليها لأن موضوع الأتاوة كان هدفاً رئيساً للملك شارل الذي كان وراء عقد الصلح، والشخصية

(١) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٢٩٤.

(٢) انظر وثيقة المعاهدة.

المسيطرة على الحملة، وهذا الموضوع هو الوحيد الذي كان قد بقي معلقاً بينه وبين المستنصر دون التوصل إلى حل له، ولا يمكن إغفال مثل هذا الشرط الهام بالنسبة له أو تأجيل التوصل إلى حل له إلى ما بعد الاتفاق على باقي الشروط، بل العكس هو الأصح ذلك أن شارل رأى في الحملة فرصة ذهبية لفرض مطالبه على المستنصر وحمل الأخير على الموافقة عليها، وعندما تمكن المستنصر من استرضاء شارل، وموضوع الأتاوة بطبيعة الحال أول أسباب هذا الرضاء، قام هذا بإقناع ابن أخيه الملك فيليب وباقي زعماء الحملة بالصلح، ويؤكد ذلك ما ذكره (Pierre de Condet) في رسالته الثالثة عن موضوع الصلح حيث يقول : (وعندما وصل - شارل - ووجد أخاه قد توفي حقن بالقوة فيما اعتقد هدفه الذي لم يستطع تحقيقه بالمفاوضات، وإثر ذلك مباشرة أرسل إليه ملك تونس مقترحات تهدف كلها إلى تحقيق السلام، لم تبلغ مسامع الجيوش)^(١)، ولذلك فإن موضوع الأتاوة في رأينا كان هو مفتاح السلام، وتبعاً لأهميته فإنه كان جديراً بأن يتصدر باقي الشروط في الوثيقة إن لم يكن يستحق أن يكتب في وثيقة منفصلة.

ثم إن الأتاوة كانت خاصة بصقلية التي تعتبر مستقلة عن التاج الفرنسي، والأقرب إلى المنطق أن يحتفظ شارل بوثيقة تتضمن الشروط الخاصة بمملكته في ديوان وثائق تلك المملكة للرجوع إليها عند الحاجة بدلاً من الرجوع إلى باريس، وكون العبارة اللاتينية المكتوبة على ظهر الوثيقة والدالة على مضمونها والتي ذكرناها آنفاً لا تذكر اسم شارل إلى جانب اسم ابن أخيه وملك نفارة، مما يعطينا انطباعاً بأن ما في هذه الوثيقة لم يكن يعني شارل وأنه تبعاً لذلك كان قد احتفظ هو بوثيقة أخرى غير هذه الوثيقة، ولعل ذكر ما يخص شارل في نسخة الملك الفرنسي لم يكن إلا من خيل الاطلاع والحفاظ على شعوره، كل هذه المعطيات ترجع وجهة نظرنا في أن هذه الوثيقة ليست هي الأصلية وأن الناسخ جمع نصوص وثيقتين في وثيقة واحدة هي التي نحن بصدد دراستها.

بقي أن نذكر أن هذه الوثيقة قد كتبت على ورقة من الحجم الكبير، وعدد أسطرها ٢٩ سطرًا بما في ذلك سطر البسملة وطر توقيع القضاة، بمعدل ٣٠ كلمة في السطر

الواحد، وختمت بختم أحمر قد شُد بخيوط حريرية حمراء وخضراء وبحمل علامة المستنصر التي يبدو أن De Sacy لم يفتحها فقال عنها إنها (تعريضة عربية)^(١).

أصل الصلح :

وبدراسة هذه الوثيقة يتضح لنا أن الشروط الواردة فيها تدور حول ثلاثة مواضع رئيسية هي :

أ - الناحية الاقتصادية

ب - الناحية السياسية

ج - الناحية الدينية

والتي سنتناولها فيما يلي بالدراسة والتحليل :

أ - الناحية الاقتصادية :

كانت الناحية الاقتصادية أول موضوع تعرضت له هذه الوثيقة وقد خصصتها بقسم كبير من بنودها مما يدل على أهمية هذه الناحية بالنسبة للمتعاقدين، ويشمل ذلك في تنظيم العلاقات التجارية بين كلا الطرفين من ناحية، ثم تأمين الطرق التجارية البحرية من ناحية ثانية، ويتبع ذلك موضوع الغرامة الحرية والأثاوة للملك صقلية من ناحية ثالثة، فأما بالنسبة لتنظيم العلاقات التجارية فقد تعرضت شروط المعاهدة لهذا الأمر بتفصيل كبير يؤكد ضخامة حجم التبادل التجاري بين إفريقية والدول المسيحية والفائدة الكبيرة التي يحصل عليها كل منهما من جراء ذلك، فهي كفلت الحرية التجارية بين الطرفين ليس بحدود بلدانها وقتلٍ وإنما المستقبلية أيضاً، فللتجار المسلمين من رعايا المعتنصر آنذاك والمستقبلين الذين يترددون بتجارهم على بلاد الطرف الآخر في المعاهدة الأمن والحماية (لا يعترض أحد منهم في نفس ولا مال كثير أو قليل)^(٢)، وإذا تعرض أي من هؤلاء التجار لأي عدوان

M. Talbi : Op. Cit., 272.

(١)

(٢) انظر وثيقة المعاهدة.

في نفسه أو ماله من قبل أحد من رعايا ملوك النصارى وزعمائهم المذكورين في المعاهدة سواء أكان هؤلاء التجار في أحد المراسي التابعة لهم أو واردين إليها أو صادريين عنها، فعلى هؤلاء الملوك والزعماء تعويض المسلمين عن هذا العنوان ورد ما أخذ منهم، وكذلك إذا كسر أي مركب للتجار المسلمين أو مركب للنصارى فيه أحد من المسلمين أو أموال تخص المسلمين في أحد الموانئ التابعة لهؤلاء الملوك والزعماء، فإن عليهم كل فيما يخصه حفظ ما يتم إنفاذه من هذه الأموال وردها للمسلمين، ويرتبط هذا البند بظاهرة عامة كانت تتعرض لها الملاحة البحرية في العصور الوسطى، هي كثرة جنوح السفن على سواحل البحر الأبيض المتوسط بسبب تأخر وسائل الملاحة والجهل بمسالك البحار، كما كانت هنالك صعوبة أخرى طالما اعترضت النقل البحري في تلك العصور، سببها المبدأ الذي كان سائداً خلالها، وهو أنه إذا جنح مركب وألقى به الموج أو ألقى بالضائع التي يحملها على الشاطئ، فإنها تصبح غنيمة حلالاً لصاحب الأرض التي جنح المركب إليها، وقد أشار ابن جبير لهذا التقليد في رحلته^(١)، ولذلك دأب سكان الشواطئ أحياناً على وضع عقبات مصطنعة في طريق السفن لاصطيادها وسلبها باسم العرف والتقاليد^(٢)، لذلك حرص الجانب الإسلامي في المعاهدة على التمسك بهذا الشرط للمحافظة على حقوقه وإبطال مفعول هذا التقليد. وفي مقابل ما تقدم، تعهد المستنصر بتوفير الحماية والأمن للتجار النصارى من رعايا هؤلاء الملوك والزعماء وسواهم الذين يرددون على الدولة الحفصية في أنفسهم وأموالهم (محفوظين في تردددهم وإقامتهم)^(٣)، وشرطت لهم المعاهدة ما ملوكهم من الحقوق والواجبات (سوا حرف بحرف)^(٤)، وهذه الحماية المتبادلة التي منحتها المعاهدة للتجار من رعايا الطرفين هي من الشروط الشهيرة التي وردت في معظم المعاهدات التي عقدت بين المسلمين والنصارى في العصور الوسطى، وبصفة خاصة في عصر الحروب الصليبية^(٥).

(١) انظر ابن جبير: المصدر السابق ص ٢٩٥.

(٢) انظر د. سعيد عاشور: بعض أضواء على العلاقات بين يزا وتونس ص ٤٨ - ٤٩.

(٣) انظر وثيقة المعاهدة.

(٤) انظر وثيقة المعاهدة.

(٥) د. سعيد عاشور: بعض أضواء على العلاقات بين يزا وتونس ص ٤٥.

ولكن ما يستلقت انتباه الباحث حقاً في هذا المقام، هو أن نصروح المعاهدة كانت بالنسبة لتجار النصارى أعم وأشمل منها بالنسبة لتجار المسلمين، فقد منحت هذه الامتيازات لغفات أخرى من تجار النصارى، فهي لم تقصر حماية المستنصر والتزامه بتوفير الأمن وحفظ الحقوق وباقي الامتيازات الواردة في المعاهدة على التجار من رعايا هؤلاء الملوك والزعماء، وإنما ألزمت المستنصر أيضاً بمنح هذه الامتيازات لـ (جميع النصارى الذين هم أصدقائهم)^(١) أي بإمكان كافة تجار النصارى الذين يترددون إلى إفريقية الاستفادة منها في حين أنها لم تقدم المقابل للمستنصر، فالمسلمون الذين تعرضت المعاهدة لذكرهم هم رعايا المستنصر فقط، ومعنى ذلك أنه يجوز مثلاً للتجار القطلان والجنوين وغيرهم من الإيطاليين المتمتع بهذه الامتيازات كونهم أصدقاء هؤلاء الملوك والزعماء، ولا يجوز لباقي المسلمين من غير رعايا المستنصر حتى ولو كانوا من رعايا أصدقائه الاستفادة منها، وفي ذلك غبن واضح. يضاف إلى ذلك أن هذه الشروط بالرغم من مساواتها الظاهرية بين التجار النصارى والتجار المسلمين في الحقوق إلا أنها في حقيقتها وعملياً كانت لحماية التجار النصارى، ذلك أن زمام نقل التجارة بين علوتي البحر الأبيض المتوسط الشمالية والجنوبية كان قد انتقل إلى أيدي النصارى منذ وقت طويل، فهم الذين كانوا يترددون على إفريقية بدرجة تفوق كثيراً تردد التجار المسلمين على بلاد النصارى بدليل وجود الكثير من فنادقهم وقيسارياتهم في مدن إفريقية وندره وجود مثيلاتها للمسلمين في المدن الأروبية، الأمر الذي يؤكد أن النصارى هم المستفيدون من هذه الشروط أكثر من التجار المسلمين بنسبة لا تصح معها المقارنة، وانحصرت استفادة الدولة الحفصية في غالبيتها في عائدات الجمارك التي كانت تحصل من التجار النصارى، وهي وإن كانت مبالغ لا يستهان بها، إلا أنها تبقى ضئيلة بالنسبة لما كان يجنيه تجار النصارى من أرباح، ولعل ما يدلنا على ضخامة هذه الأرباح التي كانوا يكسبونها من تجارتهم مع إفريقية هو ضمان هؤلاء التجار للمستنصر بالمبلغ المتبقي عليه من الغرامة الحربية لدى الجانب الصليبي كما جاء في المعاهدة، إذ لولا مصالحهم الكبيرة في إفريقية لما قدموا هذا الضمان، في حين أن التجار المسلمين لم يشاركوا

(١) انظر وثيقة المعاهدة.

في تقديم مثل هذا الضمان مما يدل على ضآلة مصالحهم في بلاد النصارى، وفي موضوع اقتراض اللياني لمبلغ ضخيم قيمته ثلاثمائة ألف دينار كما سبق أن ذكرنا دليل آخر - إن صححت الرواية - على ضخامة هذه المصالح.

كما نصت شروط المعاهدة على أن يلتزم المستنصر للتجار النصارى المقيمين في دولته دون استثناء (من بلاد الملوك المذكورين وغيرها من النصارى)^(١) بالسماح لهم بمعاودة مزاوله أعمالهم التجارية من جديد كما كانوا يمارسونها قبل العدوان وكان ذلك العدوان لم يكن، وليس ذلك فقط، وإنما ألزم نفسه بأن يرد لهم كل شيء قد يكون (أخذ لهم وكل شيء لهم عند الناس وعلى الناس)^(٢) أي كل ماله من ودائع أو ديون كائناً من كان لا يستثنى من ذلك أحداً حتى نفسه إذا كانت قصة اللياني صحيحة، ولم تشرط المعاهدة مثل هذا الشرط للتجار المسلمين فيما إذا كان لهم ودائع أو ديون على التجار النصارى أو أموال في الممالك النصرانية، وفي هذا غبن آخر للمسلمين. وبذلك تكون حقوق النصارى محفوظة ومضمونة الأداء من الدولة، مما يعطينا انطباعاً بأن الامتيازات الأجنبية التي وجدت في إفريقية فيما بعد تعود في أصولها إلى هذه المعاهدة، وكل ما ألزمت به المعاهدة هؤلاء التجار هو عدم تدخلهم في الشؤون الداخلية للدولة الحفصية، فإن لهم هذه الامتيازات والحقوق (ما داموا مقبلين على تجارتهم محافظين على ربوط هذا الصلح)^(٣)، ولعل في ذلك ما يشير إلى أمر هام هو خشية المستنصر من نفوذ هؤلاء في دولته الأمر الذي يمكن أن نستدل عليه من تعليل نكبة المستنصر لوزيره اللياني الذي كان على علاقة طيبة بهؤلاء، فقد ذكرت بعض الروايات أن السبب في نكبته هو أنه كان يعمل على إشعال الثورة على المستنصر في المهديّة^(٤)، وإذا صححت هذه الروايات فإنه ليس من المستبعد أنه كان لأصدقائه من التجار النصارى الذين أقرضوه الأموال يد في الموضوع أو على الأقل علم به ورضى عنه بغية إضعاف الدولة الحفصية بل والعمل على تمزيقها. وربما كان لهم نشاطات أخرى

(١) انظر وثيقة المعاهدة.

(٢) انظر وثيقة المعاهدة.

(٣) انظر وثيقة المعاهدة.

(٤)

فحاول المستنصر بهذا الشرط أن يكفهم عن التدخل في شؤون دولته.

ولضمان حرية التجارة نهت المعاهدة على وجوب محاربة القرصنة فاشتطت على ملوك وزعماء الحملة الصليبية أن (يكفوا عادة كل من يخرج من بلادهم وما هو تحت طاعتهم، وما ينضاف إلى طاعتهم من مسطحات وقطع وشياطي وغيرها من سائر الأجفان كبيرها أو صغيرها، لضرر أو تعد على شيء من بلاد أمير المؤمنين وما ينضاف إلى طاعته وما بينهما من جميع البلاد والجزائر والسواحل والمراسي، أو على أحد من ساكنيها...) (١) ولم تشترط مثل ذلك على المستنصر ليكلف عادية رعاياه على بلاد هؤلاء الأمر الذي يؤكد ما ذهبنا إليه من أن مسلمي إفريقية لم يكونوا يمارسون أعمال قرصنة وقطز ضد بلاد النصارى وسفنههم بل إن العكس هو الصحيح وأن قراصنة النصارى هم الذين كانوا يعتدون على إفريقية، ولو كان الأمر على خلاف ذلك لما أغفلته معاهدة الصلح، لذلك اشترط المستنصر على هؤلاء الملوك والزعماء لا أن يكفوا عدوان هؤلاء على الدولة الحفصية فحسب، وإنما أيضاً ألا يشجعوا أو يعينوا أحداً على هذا العدوان حيث أكدت المعاهدة هذا الأمر في شرط آخر تال.

وتبعاً لذلك، فما أن أقرت المعاهدة بين الطرفين حتى نسي كلاهما العدوان، وعملاً على إزالة آثاره بسرعة مذهلة، وكانت مملكة أرغونة هي السبابة في ذلك فقد سارعت لتوثيق العلاقات التجارية بينهما وبين إفريقية، فعقدت معها في سنة ١٢٧١م معاهدة تجارية هي امتداد للمعاهدات السابقة بينهما، ثم تبعتها بعد ذلك في هذا الأمر كبريات المدن الإيطالية، ففي نفس ذلك العام أي سنة ١٢٧١م عقدت معها كل من بيزا والبندقية اتفاقيات تجارية مماثلة. وفي العام التالي أي في سنة ١٢٧٢م تمكنت جنوة من التوز هي الأخرى باتفاقية مماثلة (٢)، ولعل السبب في تأخر جنوة عن منافستها في عقد تلك الاتفاقية هو الاختلاف في مواقفها من الحملة، فبينما فشلت المفاوضات التي دارت بين لويس التاسع والبندقية لاستئجار أسطول الأخيرة لنقل الحملة كما سبق أن ذكرنا، ووقعت جزيرة سردينيا التي كانت ملتزمة بتنفيذ سياسة بيزا آنذاك لكونها تابعة لها من الحملة موقفاً عدالياً

(١) انظر وثيقة المعاهدة.

(٢) شارل أنثري جوليان : المرجع السابق ج٢ ص ١٨١.

كما ذكرناه أيضاً، وافقت جنوة على تأجير أسطولها للملك الفرنسي، ومثلت دوراً لا يقل عن دور الشريك في الحملة. ولكن تمكنها من عقد هذه الاتفاقية مع الدولة الحفصية بهذه السرعة يدل دلالة واضحة على تنامي الطرفين للعدوان. وتعتبر هذه الاتفاقيات في حقيقتها استمراراً أو تجديداً لاتفاقيات سابقة أكثر من كونها اتفاقيات جديدة، وقد تركزت بنودها على أمور تجارية بحيث لا تختلف في مضمونها عن الاتفاقية المعقودة بين يزا والسلطان ابن اللحياني الحفصي في سنة ٧١٣هـ / ١٣١٣م التي درسها الدكتور سعيد عاشور في بحثه (بعض أعضاء على العلاقات بين يزا وتونس في عصر الحروب الصليبية) والتي يمكن اتخاذها نموذجاً لتلك الاتفاقيات^(١).

ومن الممكن بحث موضوع الغرامة الحربية التي نصت عليها المعاهدة في هذا المقام لعلاقتها الوثيقة بالناحية الاقتصادية وإن كانت من ناحية أخرى تتصل بالناحية السياسية، ولكنها مع ذلك هي بالناحية الاقتصادية أكثر ارتباطاً. فقد بينت المعاهدة مقدارها بوضوح الأمر الذي كان موضع خلاف بين المؤرخين المسلمين، فابن خلدون لم يحدد مقدارها وإنما قال إن السلطان قد أغرم (الرعايا بما أعطى العدو من المال فأعطوه طواعية يقال إنه عشرة أحمال من المال)^(٢)، ويؤيده في ذلك حمودة بن عبد العزيز الذي يكرر نفس هذا النص بحرفيته^(٣)، ومعنى ذلك أن هذه الأحمال العشرة التي لا نعرف مقدارها بالضبط كانت جزءاً من الغرامة التي التزم بها المستنصر للصليبيين، وأما ابن الشماخ^(٤) فيقول إن هذه الغرامة كانت (ألف قنطار ومائة قنطار وعشرة قناطير من الفضة الخالصة)، ويؤيده في ذلك ابن أبي دينار^(٥)، والوزير السراج^(٦)، في حين يقول ابن القنفذ إنها كانت (ألف قنطار من الفضة)^(٧)، وكان من الممكن أن يتسبب هذا التضارب في الروايات في إخفاء الحقيقة لولا

(١) انظر د. سعيد عاشور: بعض أعضاء على العلاقات بين يزا وتونس ص ٤٥ وما بعدها.

(٢) ابن خلدون: المصدر السابق ج ٦ ص ٢٩٤.

(٣) حمودة بن عبد العزيز: المصدر السابق ورقة ١٠٤.

(٤) ابن الشماخ: المصدر السابق ص ٦٧.

(٥) ابن أبي دينار: المصدر السابق ص ١٣٦.

(٦) الوزير السراج: المصدر السابق ج ١ ق ٤ ص ١٠٣٣.

(٧) ابن القنفذ: المصدر السابق ص ١٣٢.

أن المعاهدة يبتها بجلاء حيث نصت على أن مقدار تلك الغرامة كان (مايتا ألف أوقية ذهباً وعشرة آلاف أوقية، كل أوقية منها يقبض عنها من الفضة ما مقداره خمسون درهماً من دراهمهم في الوزن والطيب)^(١)، أي أنها كانت عشرة ملايين وخمسمائة ألف درهم يقدرها (K. M. Setton) بحوالي خمسمائة وخمسة وعشرون ألف لييرة (Livre)^(٢) وليس من اليسير معرفة أي هذه الروايات أقرب إلى الصحة لصعوبة معرفة ما يزنه القنطار من الدراهم مع ملاحظة اختلاف وزن القنطار نفسه من بلد إسلامي لآخر، فالقنطار الشامي مثلاً يختلف عن القنطار المصري وهكذا. وكانت رواية (Pierre de Condet) التي وردت في رسالته الثالثة مطابقة لما نصت عليه المعاهدة في هذا الموضوع^(٣) الأمر الذي يوحي بقسط كبير من الثقة في ما ذكره من أمور تتعلق بنصوص هذه المعاهدة.

وكما توافقت رواية (Pierre de Condet) مع المعاهدة في مقدار هذه الغرامة طابقتها في أمر آخر هو كيفية تقسيطها، فبينما لم يذكر ابن خلدون كيفية هذا التقسيط، ويروي ابن الشماخ أن هذه الغرامة قد قسّطت على مدى خمسة عشر عاماً^(٤) فإن المعاهدة قد نصت على أن يدفع نصف هذا المبلغ معجلاً أي قبل رحيل الصليبيين (والنصف الثاني مقسّط بين عامين ثمسين من تاريخه، نصف المقسط يقبض آخر كل عام من العامين المذكورين)^(٥)، وإذا عدنا إلى النص الذي سبق هذه الجملة والذي حدد مدة المعاهدة بخمسة عشر عاماً شمسية (أولها شهر نوفمبر المتصل بأكثوبر الموافق لشهر التاريخ)^(٦) لتبين لنا أن آخر كل عام تعني بداية شهر نوفمبر من العام الذي يليه وبناءً على ذلك فإن قول Pierre de Condet بأن كل قسط من هذين القسطين يدفع في عيد القديسين الذي يوافق الأول من نوفمبر في كل

(١) انظر وثيقة المعاهدة.

(٢) اللييرة (Livre) هي وحدة نقد ذهبية كانت متداولة في فرنسا منذ عهد لويس التاسع.

Pierre de Condet : Op. Cit., p.230.

(٣)

(٤) ابن الشماخ : المصدر السابق ص ٦٧.

(٥) انظر وثيقة المعاهدة.

(٦) انظر وثيقة المعاهدة.

عام^(١) يتفق مع ما جاء في المعاهدة. على خلاف ما ذكره ابن السمع^(٢)، الذي خلط بين مدة التقسيط ومدة المعاهدة، أي أمد الصلح، فالخمس عشرة عاماً التي قال عنها إنها مدة التقسيط، هي في الحقيقة مدة الصلح وليست مدة التقسيط.

ويتصل بهذا الموضوع أمر آخر هو الأتاوة، فقد كرست المعاهدة الأتاوة التي كانت تدفعها الدولة الحفصية إلى حكومة صقلية وجعلتها حقاً واجب الأداء للملك صقلية أياً كان هذا الملك، وغيّرت مفهومها الأساسي من كونها منحة أمّية ما تكون بتقاسم العائدات وتبادل المنافع لا تحمل في طياتها أي معنى للهيمنة أو حق المطالبة بها إن لم تدفعها تلك الدولة إلى أتاوة لا خيار لها في دفعها. ومما يستلقت النظر أن المعاهدة قد أغفلت ذكر مقدار هذه الأتاوة بخلاف ما جرى بالنسبة للخرامة الحربية التي نصت عليها بوضوح. فكل ما ورد فيها بالنسبة للأتاوة هو أن يؤدي إلى الملك شارل (عن الخمسة أعوام الماضية المتصل آخرها بهذا التاريخ ما كان يؤدي للأنبورور سواء، ويؤدي للملك الأجل المذكور من اليوم رجاء في كل عام ما كان يؤدي للأنبورور مثنياً)^(٣)، أي أن يدفع له عن خمسة أعوام ماضية نفس المبلغ الذي كان يدفع للملك الهوهنتاوفن، ولما كان شارل قد اعتلى عرش صقلية في فبراير سنة ١٢٦٦م وأن المعاهدة عقدت في نوفمبر سنة ١٢٧٠م، فإن معنى ذلك أن دفع تلك الأتاوة قد جرى احتسابه بنفس القيمة السابقة منذ تولي شارل لعرش صقلية تقريباً مقسطاً بذلك مطالباته التي كان يطالب المستنصر بها بنفع هذه الأتاوة عن جميع السنوات التي لم تدفع فيها منذ عهد الامبراطور فردريك الثاني ولحين اعتلائه هو العرش لأنها خلال هذه المدة لم تكن تدفع بانتظام كما سبق أن ذكرنا الأمر الذي تؤكد ذلك الوثيقة التي عثر عليها في قنصلية نابلي والتي تبين أن هذه الأتاوة لم تدفع عن مدة ثلاث سنوات قبل اعتلاء شارل عرش صقلية^(٤)، ومن المرجح أن تكون هنالك سنوات أخرى لم تدفع فيها للخزينة الصقلية،

Pierre de Condet : Op. Cit., p.230.

(١)

R. Brunsechvig : Op. Cit., Tom, I, p.62., H. B. Mayer : Op. Cit., p.270.

(٢) ابن السمع : المصدر السابق ص ٦٧.

(٣) انظر وثيقة المعاهدة.

R. Brunshchvig : Ibid, Tom, I, p.53 - 4.

(٤) عن هذا الموضوع انظر :

ولكن في مقابل ذلك نصت المعاهدة على أن تضاعف قيمة تلك الأتاوة منذ تاريخ عقدها.

وإذا كانت المعاهدة قد أغفلت ذكر قيمة هذه الأتاوة كما أغفلت المصادر الإسلامية الأمر الذي لا نجد له مبرراً، فإن بعض المصادر المسيحية لم تغفله، فقد بين (Pierre de Condet) مثلاً ذلك بوضوح، ولما كانت روايته عن الغرامة الحرية سواء في قيمتها أو كيفية تقسيطها قد طابقت ما جاء في المعاهدة عن كلا الأمرين، فإن ذلك يجعلنا نقبل ما قاله عن قيمة الأتاوة بقدر كبير من الاطمئنان، فهو يقول إن المستنصر التزم بأن يدفع للملك صقلية أتاوة لمدة خمسة عشر عاماً مقدارها (٢٤) أوقية ذهباً سنوياً بدل اللانتي عشرة أوقية التي كان يدفعها في السابق، وسيبدأ في دفعها اعتباراً من السنة المقبلة، وقد دفع هذا الملك أتاوة خمس سنوات ماضية ستون أوقية ذهباً^(١)، وكل ما في هذا النص من هذا الموضوع يطابق ما ورد في نصوص المعاهدة باستثناء قيمة هذه الأتاوة التي لم تعرض لها المعاهدة أصلاً، مما يعتبر دليلاً آخر على صحة رواية Pierre de Condet، وبذلك يتضح أن قيمة هذه الأتاوة التي كانت تؤديها الدولة الحفصية للملك الهوهنتاوفن كانت ١٢ أوقية ذهباً. وبالرجوع إلى نصوص المعاهدة التي حددت قيمة أوقية الذهب بخمسين درهماً فضياً يتضح أنها كانت تساوي ستمائة درهم، وقد قدرها (De Mas Latrie) بأنها كانت في عهد أبي زكريا الأول الحفصي والد المستنصر تتراوح بين (٣٢) و (٣٤,٣٣٣) قطعة ذهبية وهو ما يعادل (١٣٦,٣٢٦) فرنكاً فرنسياً بعملة عصرنا الحاضر^(٢). وعندما تضاعفت أصبحت (١٢٠٠) درهماً.

ولذا كانت نصوص المعاهدة التي تعرضت لأموال التجارة كان الهدف منها تنشيط الحركة التجارية بين الدولة الحفصية والدول الأوروبية مما يعود على كلا الطرفين بالنفع والفائدة، فإن كلا الغرامة الحرية والأتاوة كانتا غنيمة وفائدة خالصة للقوى الصليبية المشاركة في الحملة على حساب مصلحة الدولة الحفصية، إذ أن ذلك المبلغ الضخم الذي دفعه المستنصر للصليبيين استنزف الخزينة الحفصية، وقد عبر ابن السمعاع عن ذلك بقوله : (وكان نزولهم - الصليبيين - على تونس ميباً في إتلاف الأموال التي تركها المولى أبو

Pierre de Condet : Op. Cit., p.230.

(١)

M. Talbi : Op. Cit., p.246.

(٢)

زكريا رحمه الله وغيرها مما جمعه السلطان بعد وفاته^(١)، ومع أن ابن الشماخ حاول تعليل هذا الاستنزاف بأمر آخر غير الأتاوة والغرامة اللتين لم يتعرض لذكرهما في أوجه صرف هذه الأموال فقال إن (جميع الأرزاق للأجناد والأعراب والوفود كلها من بيت المال لانقطاع السبل وأسباب العيش)^(٢) صرفاً منه للأذهان عن الحقيقة مدارة للدولة التي كان في خدمتها، إلا أن هذه الحقيقة هي أوضح من أن يستطيع إخفاءها، فقد كانت الغرامة والأتاوة من الضخامة بحيث إنهما كانتا فعلاً هما السبب الأول والرئيسي في تضروب تلك الأموال.

وقد عمل المستنصر بعد رحيل الصليبيين على تعويض خزيته عن هذا المبلغ الضخم فطالب شعبه بأن يدفع له تلك الأموال، فلدغ له منها عشرة أحمال على حد قول ابن خلدون كما سبق أن ذكرنا، والذي انفرد بهذا القول عن باقي المصادر الإسلامية التي اطلعت عليها، بالرغم مما كان يعانيه هذا الشعب من الضائقة الاقتصادية نتيجة للمقحط والوباء اللذين أظلا إفريقيا في تلك الآونة، الأمر الذي اعتبره شارل أندري جوليان^(٣) خطأ بأنه كان نتيجة لوعي من هذا الشعب، والأصح من قول جوليان أن الشعب في تلك الحقبة كان مغلوباً على أمره استكره على دفعها، وبذلك يكون المستنصر قد امتص دم شعبه وقدمه غنيمة باردة للصليبيين وكان الأجدر به لو أنه كان يتمتع بالروح الإسلامية الحققة أن يقاوم الغزاة حتى يقضي عليهم أو يضطرهم للرحيل أو يأخذهم أسرى كما حدث لهم في مصر ليدفعوا هم له هذا المبلغ أو أكثر منه فدية لهم جزاء لهم على عدوانهم خاصة وأنهم كانوا يعانون من المتاعب أكثر بكثير مما كان يعاني بدلاً من أن يؤدي لهم هذه الأموال ثمناً للسلام ويعطي الدنية في دينه، فقد قال تعالى في محكم كتابه : ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَبْطِلْ عَلَيْهِمُ الْخَبَرُ ﴾ صدور قوم مؤمنين^(٤)، وقال أيضاً جل من قائل : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَتَخْتَمُوا فَضَلُّوا أَلْوَاقَ إِيْمَانًا مَتَّعْتُ بِهِمْ وَإِنَّمَا فَتْنَةٌ ﴾^(٥).

(١) ابن الشماخ : المصدر السابق ص ٦٨، انظر أيضاً الوزير السراج : المصدر السابق ج ١ ص ٤٠٣.

وعن هذا الأموال التي تركها أبو زكريا انظر ابن القنفذ : المصدر السابق ص ١١٣.

(٢) ابن الشماخ : المصدر السابق ص ٦٨، ابن أبي دينار : المصدر السابق ص ١٣٧.

(٣) شارل أندري جوليان : المرجع السابق ج ٢ ص ١٨١.

(٤) سورة التوبة آية (١٤).

(٥) سورة محمد آية (٤).

وبحصول الصليبيين على هذا المبلغ عوضوا خمائزهم المادية التي أنفقوها في الإعداد لتلك الحملة وربما فاقتها على خلاف ما ذكره K.M.Setton من أن ذلك المبلغ كان أقل من التناقصات خاصة وأن الملك شارل أخذ تلك^(١)، ذلك لو أنهم لم يعرضوا خسارتهم لما قبلوا بالصلح خاصة وأن المستنصر كان على استعداد لدفع أي مبلغ يطلبونه، وكان نص ابن خلدون واضحاً في هذا الموضوع حيث يقول: (فراسلت المستنصر أن يبذل لها ما خسروه في مؤنة حركتهم وترجع يقومها فأسعفها السلطان)^(٢)، وبذلك تحولت الحملة ذات الأهداف الكبيرة إلى تحقيق المكسب المادي فأصبحت تبعاً لذلك لا تختلف كثيراً عن غارات القراصنة، ولم يمد هنالك فارق كبير بينها وبين الحملة التي شنّها البيازنة والجنويون على المهديّة سنة ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م أي قبل ذلك بحوالي قرنين، كما أنها أصبحت نموذجاً احتذتها الحملات الأخرى التي شنّها الصليبيون على إفريقيا في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر للميلاد) مثل الحملة على طرابلس سنة ٧٥٥هـ / ١٣٥٤م، وحملة لويس الثاني دي بوريون على المهديّة سنة ٧٩٢هـ / ١٣٩٠م كما سيأتي ذكره.

ب - الناحية السياسية :

تعرضت المعاهدة لعدة أمور سياسية هامة أولها إرساء أسس سيادة حسن الجوار بين الدولة الحفصية والدول الأوروبية المشاركة في الحملة، وأول هذه الأسس كان إلزام ملوك هذه الدول بكف عدوانهم عن إفريقيا طوال مدة المعاهدة بطبيعة الحال، فلا يهاشرون هذا العدوان بأنفسهم أو يمدون يد العون والمساعدة لمن يروم ذلك أو يشجعونه عليه، فعليهم أن (لا يتجندوا لمن يتحرك لضرر أو تعد على شيء من بلادهم)^(٣)، وإغفال المعاهدة لإلزام المستنصر بمثل هذا الشرط بالمقابل يؤدي بنا إلى حقيقة هامة هي أن العدوان كان يشن من قبل الجانب الصليبي على إفريقيا، وهذا ما تؤكدّه العديد من الروايات التي وردت في المصادر التاريخية حيث كان الصليبيون يعتلون عليها كلما وجنوا غرة، وأن الصليبيين لم

K. M. Setton : Op. Cit., Vol. 2, p.517.

(١)

(٢) ابن خلدون: المصدر السابق ج ٦ ص ٢٩٣ - ٢٩٤.

(٣) انظر وثيقة المعاهدة.

يكونوا يخشون من غارات المسلمين على بلادهم، هذا علاوة على أن سياسة المستنصر التي كانت قائمة على مبدأ عدم الاعتداء على النصارى كانت معروفة لديهم، ويبدو أنه نظراً لهذه السبب لم يجد المتعاقدون هنالك ثمة حاجة للنص على هذا الأمر في المعاهدة، ولولا ذلك في اعتقادنا لما أغفلت ذكره.

وثاني هذه الأسس هو عدم إهواء أي من ملوك وزعماء الصليبيين المذكورين في المعاهدة أيّاً من أعداء المستنصر في بلادهم، وفي مقابل ذلك تعهد المستنصر لا بعدم إهواء أعداء هؤلاء في بلاده منذ تاريخ توقيع هذه المعاهدة فحسب، وإنما أيضاً بإخراج الذين كانوا موجودين بالفعل في بلاده قبل توقيع المعاهدة ومنعهم من العودة إليها مرة أخرى (ولا يعاد يقبل)^(١)، وواضح أن المعنى بهذا الشرط أكثر من غيره هو الملك شارل ذلك أن الدولة الحفصية كانت الملاذ لثناوئيه في صقلية من أنصار الهوهنشتاوفن كما ذكرنا، ويتخذون منها قاعدة لممارسة نشاطاتهم المعادية له وإثارة المتاعب في وجهه في جزيرة صقلية أمثال (Fredric de Castella) و (Fredric Lancia) اللذين يعتقد برنغفليك Brunshvig أن هذا الشرط لم يوضع في المعاهدة إلاّ من أجلهما^(٢). وإذا كان عذا هو ما يفهم لأول وهلة من هذه الشروط بوضوح، فإنه يفهم منها كذلك أنها غلت يد مسلمي إفريقية عن مد يد المساعدة لبقايا المسلمين في صقلية الذين كانوا على ما يبدو قد انتهزوا فرصة نشوب المشاكل التي أودت بحياة الملك مانفرد (Manfrid) وأدت إلى اعتلاء شارل عرش الجزيرة فأشعلوا الثورة التي استمرت إلى ما بعد احتلاله ذلك العرش مما جعله يحاول استرضاءهم والقضاء على تمردهم بإصدار أمره إلى نائبه في الجزيرة لإسناد أعلى المناصب الإدارية في حكومتها للمسلمين كما سبق أن ذكرنا، فقصت هذه المعاهدة على آخر أمل لهؤلاء المسلمين في الخلاص، ذلك أن مسلمي إفريقية كانوا هم السند الطبيعي لهؤلاء والمصدر الأكثر احتمالاً للمساعدة التي يلقونها، مما كان له أثر فعال في إطفاء آخر جذوة لثورة المسلمين في الجزيرة، ومنذ

(١) انظر وثيقة المعاهدة.

R. Brunshvig : Op. Cit, Tom1, p.442.

(٢)

ذلك الوقت لم يعد يسمع عن ثورة إسلامية خالصة فيها، وبذلك اطمأن شارل على عرشه فيها وتفرغ لمشاريعه في شرق البحر الأبيض المتوسط المتعلقة بأملاك الدولة البيزنطية والإمارات الصليبية في بلاد الشام.

وقد كشفت المعاهدة عن موضوع هام آخر لم تتعرض له المصادر التاريخية لا الإسلامية منها ولا الغربية، ولم تشر إليه من قريب أو بعيد، وهو إلزام امبراطور القسطنطينية بما جاء فيها وأدخلته في الصلح إذ نصت على ما يلي : (والأنبرور الأجل بادوين صاحب قسطنطينية داخلون في ذلك كله ولازم لهم ذلك)^(١) في حين أنها لم تذكر بعض المشاركين فعلاً في الحملة، فقد أغفلت مثلاً ذكر كونت (Eu) وكونت بواتيه وغيرهما، فما علاقة امبراطور القسطنطينية بهذا الموضوع؟ ومن هو الامبراطور بادوين المعني بهذا النص هل هو الامبراطور ميخائيل الثامن باليولوج Micheal VIII Paleologue الذي كان على عرش القسطنطينية في ذلك الوقت أم هو فيليب دو كوتنيه الامبراطور اللاتيني المخلوع الذي أطاح به باليولوج منهياً بذلك حكم اللاتين للقسطنطينية الذي دام حوالي ٦٠ سنة؟ وللإجابة على هذا السؤال ينبغي العودة مرة أخرى إلى سياسة الملك لويس التاسع، فكما سبق أن ذكرنا أن لويس كان يسعى أثناء الدعوة للحملة الصليبية الجديدة لمجاهدة المسلمين بأوروبا مسيحية موحدة يسودها السلام ليكون بذلك أقدر على تحقيق أهدافه، ولم يكن ليغيب عن ذهنه بطبيعة الحال الدور الذي كان من الممكن أن تقوم به القسطنطينية في مشاريعه الصليبية في الشرق، وفي تلك الأثناء اتصل به امبراطور القسطنطينية ميخائيل الثامن باليولوج الآنف الذكر والذي كان يخشى على دولته من مشاريع شارل صاحب أنجو من ناحية، وربما كانت قد وصلته أنباء الاستعدادات للحملة الجديدة، فخشى من لويس التاسع نفسه أن يعمل على إعادة الحكم اللاتيني للقسطنطينية أثناء وجوده في المشرق ثانية من ناحية أخرى، لذلك أرسل سفارة إلى بلاط الملك الفرنسي مصحوبة بالهدايا النفيسة لكسب وده، والأهم من ذلك أنها عرضت عليه مشروعاً من تلك المشاريع التي تستهوي لويس التاسع في العادة وهو العمل على توحيد الكنيستين الشرقية والغربية، وتطلب منه

(١) انظر وثيقة المعاهدة.

التدخل لدى البابا لتحقيق هذا الأمر^(١)، ومع أن المجمع الديني للكنيسة الشرقية حينما علم بهذا المشروع أبدى معارضته له وحذر الامبراطور من متبة هذا العمل^(٢)، إلا أن هذا الامبراطور مضى قدماً في العمل على التلويح بتنفيذ ذلك المشروع، وعبر عن ذلك بإرساله سفارته الآنفة الذكر. وقد لاقى هذه الفكرة ترحيباً من الملك الفرنسي الذي وجد فيها أنها تخدم مصالحه وأهدافه إلى حد كبير، ذلك أن التقارب مع امبراطور القسطنطينية سيجعل من هذا الامبراطور متناً قوياً له يعرضه عن عدم مشاركة العديد من ملوك أوروبا وأمرائها في الحملة نظراً للفتور الذي لحس منهم في هذا المشروع الأمر الذي كان يخشى منه عدم متابعتهم له فيه، ويزداد هذا السند أهمية بالنسبة له كون هذا الامبراطور صهر أبن هولانكو خان مغول فارس الذي كان متزوجاً من ابنته، وبذلك تكون لدى الملك الفرنسي إمكانية كبيرة لتكوين حلف قوي يضم الملوك الثلاثة يكون قادراً على القضاء على المسلمين.

ولكن لويس التاسع لم يكن بذلك السياسي القصير النظر الذي يجعل سياسته تسير في اتجاه واحد، بل كان من ذلك الطراز من السياسيين الذين يتقنون اللعبة السياسية ويحاولون تسخير كافة الظروف والوسائل لتحقيق أهدافهم، فبالإضافة إلى تقاربه مع ميخائيل بايلولوج كان يتعاطف مع خصمه الامبراطور المخلوع ويبنى قضيته وربما كان يمينه بإعادته إلى العرش ولعل ذلك كان هو السبب الذي جعل ألفونس (Alphonse) ابن هذا الامبراطور يشترك في هذه الحملة التي كان المشرق هو نهاية المطاف بالنسبة لها، والذي مات بفرنس كما سبق أن ذكرنا، ولعل مما يؤكد تعاطف فرنسا مع الإمبراطور المذكور هو أن شارل الثاني دوفالوا شقيق فيليب الرابع (Philippe Le Bel) ملك فرنسا تزوج من كاترين ابنة هذا الامبراطور وكان في أواخر القرن السابع الهجري (الثالث عشر للميلاد) أي بعد حوادث هذه الحملة بفترة وجيزة يسمى لاستعادة عرش حميه بمختلف الوسائل، وتقدم في سنة ١٣٠١م بمشروع صليبي لهذا الغرض^(٣). هو المشروع الذي ستعرض له فيما بعد. ولذلك فإن لويس التاسع

(١) Albert Garreau : Op. Cit., p.191 - 2, Jean Larcena : Op. Cit., p.190.

K. M. Setton : Op. Cit., Vol. 2, p.509.

(٢) Jean Larcena : Ibid, p.183.

(٣) لوثرروب ستودارد : حاضر العالم الإسلامي ج ٣ ص ٢٢٠.

بإعادته هذا الامبراطور إلى عرش القسطنطينية يجعل منه صنيعة له وخاضعاً لإرادته، وبهذا يتضح أن الملك الفرنسي كان يعمل على تسخير كلا الخصمين لخدمة أهدافه، مما يجعل هذا الشرط قد يعني أيّاً منهما نظراً لعلاقتهما القوية بالملك الفرنسي، ولكننا نعتقد أن المقصود به هو الامبراطور اللاتيني المخلوع وليس البيزنطي، ذلك لأنه من المستبعد أن يكون هنالك ثمة خطر يخشى من الأخير على الدولة الحفصية لبعدها عنها من ناحية، وإمكانياته المحدودة التي لا تمكنه من الاعتداء عليها من ناحية ثانية فضلاً عن أنه لم يشارك أصلاً في الحملة من ناحية ثالثة. وأما الامبراطور المخلوع، فبالرغم من أنه لم يملك من القوات والإمكانات ما يجعله يشكل خطراً على الدولة الحفصية، إلا أن سياسته كانت تتوافق مع سياسة شارل ملك الصقليتين الجار الأقرب والأشد خطراً من سواء على إفريقية، ولما كان ابنه قد شارك في الحملة، فإن إلزام المعاهدة له بالتقيد بالشروط الواردة فيها كان من قبيل الاحتياط بالنسبة للدولة الحفصية، وأما بالنسبة له فلربما كان ذكره في تلك المعاهدة يعود بالنفع على قضيته، إذ أن ذلك قد يكسبه مزيداً من تعاطف الحركة الصليبية معه، حيث إن ذكره من ضمن الملوك والزعماء المشاركين في الحملة وفي معاهدة الصلح يوفر له حضوراً في أذهان القائمين على الحركة الصليبية فيعملون على مده بما يحتاجه من دعم لاستعادة عرشه.

وكما ألزمت المعاهدة الامبراطور بادوين بما جاء فيها، ألزمت أيضاً زعيماً آخر غيره بالتقيد بذلك هو الأمير إدوارد ولي عهد إنجلترا، الذي ذكرت أنه لم يكن قد وصل إلى تونس وقتئذٍ بعد، إذ جاء فيها (ومن غيرهم من كل من تحرك بحركتهم أو وصل في صرختهم أو معوتتهم أو يصل بعدهم مثل الملك إدوارد أو غيره كايين من كان)^(١) وأول ما يلاحظ على هذا النص أن المعاهدة قد جعلت إدوارد ملكاً لإنجلترا، والحقيقة أنه كان لا يزال آنذاك ولياً لعهده أبيه، ثم إنها ضربت به مثلاً على من سيصل إلى إفريقية من المشاركين في الحملة بعد رحيل الصليبيين عنها، وهذا الأمير كان موجوداً في تونس بالفعل عند إبرامها، حيث وصلها في ١٠ نوفمبر ١٢٧٠م في حين أن المعاهدة أبرمت نهائياً في ٥ ربيع الثاني سنة ٦٦٩هـ / ٢١ نوفمبر سنة ١٢٧٠م كما سبق أن ذكرنا؛ الأمر الذي يجعلنا نعتقد أن

(١) انظر وثيقة المعاهدة.

الشروط الواردة فيها كان قد اتفق عليها قبل ١٠ نوفمبر وربما أن المعاهدة قد كتبت أيضاً قبل هذا التاريخ ذلك أن يوم ٥ ربيع الثاني سنة ١٢٦٩هـ / ٢١ نوفمبر سنة ١٢٧٠م لم يكن تاريخ كتابة المعاهدة وإنما هو يوم حلف المستنصر على التقيد بما جاء فيها كما يظهر بوضوح فيها، ولهذا يمكن القول بأن وصول إدوارد الذي كان على رأس قوة صغيرة نسيباً لم يقدم أو يؤخر وظلت المعاهدة دون تعديل. كما شرطت المعاهدة أيضاً على جميع من سواه ممن قد يكون في مثل وضعه ويصل بعد إبرام الصلح أن يتقيد ببندوه.

وفصلت المعاهدة بعد ذلك أيضاً الأمور المتعلقة برحيل الصليبيين، شارطة أن لا يبقى أحد منهم في إفريقية، وإذا اقتضت الضرورة تخلف بعضهم أو بقاء بعض أئقاعهم، فقد أقرتهم بالبقاء (في موضع معين لهم من جهة أمير المؤمنين ويكونوا محفوظين منه إلى حين رجوع المراكب إليهم)^(١)، ومن غير الممكن بطبيعة الحال أن يكون ذلك الموضع هو قرطاجة حتى لا يكون في الأمر خدعة وقد التزم المستنصر بحماية هؤلاء في أرواحهم وأموالهم لحين رحيلهم (وإن تعرض لهم عارض في أنفسهم وأموالهم فعلى أمير المؤمنين رد ذلك عليهم)^(٢)، ولكن ما جرى هو أن الصليبيين رحلوا بأجمعهم لم يتخلف منهم أحد، ولم يتركوا من أئقاعهم سوى تسعين منجيقاً غنمها المسلمون كما ذكرنا. ويتصل بهذا الموضوع موضوع آخر هو تبادل الأسرى بين الطرفين الذي نصت عليه المعاهدة بوضوح في بند مستقل.

ج - الناحية الدينية :

وكانت الناحية الدينية هي الموضوع الرئيسي الثالث الذي تعرضت له المعاهدة وجاء ذلك بشرط مفرد قليل الكلمات إذا ما قورن بالشروط التي عالجت الموضوعين الآخرين، ويبدو للوهلة الأولى من هذا الشرط وكأن الصليبيين يوصون المستنصر خيراً بالنصارى الذين في بلاده أو يقدمون إليها، ويحثونه على رعايتهم والسماح لهم بأداء شعائهم الدينية، وتبدو هذه التوصية أمراً طبيعياً في ذلك العصر إذ نجد لها أمثلة عديدة في مراسلات ملوك النصارى إلى حكام المسلمين في العصور الوسطى. ولكن هذا النص في حقيقته هدف

(١) انظر وثيقة المعاهدة.

(٢) انظر وثيقة المعاهدة.

إلى أمور أهم من مجرد التوصية وأعمق بكثير تبدو واضحة بجلالة عند إمعان النظر فيه. لقد نص ذلك الشرط على ما يلي : (وعلى أن يكون رهبان النصارى أو قسوسهم سكاناً في بلاد أمير المؤمنين، وهو يعطيهم موضعاً يعمرون فيه دياراً وبيوت الصلاة، ومواضع لدفن موتاهم والرهبان والقسوس المذكورين يعظون ويصلون مجهرًا في كتابهم ويخدمون الله بما يلزم شريعتهم وبما هم معهودون في بلدهم)^(١). لقد ورد في هذا النص ذكر الرهبان والقسوس ولم يكتف بأحدهما، وجاء فيه (سكاناً) وليس من ساكني، وموضعاً يعمرون فيه دياراً^(٢) وبيوت الصلاة، وليس مواضع، كما جاء فيه (يعظون ويصلون) ولم يكتف بكلمة (يصلون)، ثم أنهى الشرط بجملته تفيد العمومية والشمول.

فذكر الرهبان والقسوس متاليان في النص لم يكن ترادفاً لفظياً دون أن يكن من ورائه قصد كما قد يتبادر إلى الذهن، وإنما هو ذو مغزى هام، وهذه الأهمية تنأت من الاختلاف في مهمة كل فئة منهما عن الأخرى، فمهمة القساوسة في إفريقيا كانت هي الرعاية الروحية للنصارى المقيمين فيها والمتملة في إقامة الصلوات في الكنائس وتعميد المواليد وإتمام عقود الأنكحة وتجهيز الموتى والصلاة عليهم والإشراف على دفنهم حسب ما تنص عليه الشريعة المسيحية وما إلى ذلك، وأما الرهبان فكان لهم مهمة أخرى ليست هي الاعتكاف عن الناس في الأديرة والصوامع والانقطاع للعبادة كما هو المفروض فيهم، وإنما القيام بعمل خطير هو الدعوة للمسيحية بين المسلمين والعمل على تصيرهم، ذلك أن الرهبان في تلك الأونة وبصفة خاصة رهبان منظمتي الفرنسيسكان واللوغيسكان خرجوا عن تقاليد الرهينة المألوفة إلى ميدان آخر هو العمل على تصير غير المسيحيين وقدوتهم في ذلك مؤسسا هاتين المنظمتين. فالقديس فرانسيس الأسوزي مؤسس الفرنسيسكان كرس حياته لهذا العمل وقد وجد في الحملة الصليبية الخامسة التي قام بها حنا دي ييرين على مصر سنة ٦١٨ هـ / ١٢١٨ م فرصة ذهبية له لممارسة نشاطه

(١) انظر وثيقة المعاهدة.

(٢) جاء في المعجم الوسيط أن الديار هو الديراني أي ساكن الدير ومن ذلك يفهم أن الديارة في اللهجة الأهلية بمعنى الدير، وقد جمعت الديارة على صيغة ديارات (انظر الشامي : الديارات في الإسلام، تحقيق كوركيس صواد)، أما في اللغة فقد جمع الدير على أديار، وصاحبه الذي يعمره ويسكنه ديار وديراني (انظر : ابن منظور : لسان العرب).

التصيري بين المسلمين فرافق تلك الحملة وأصر على مقابلة السلطان الكامل الأيوبي ودعوته لاعتناق المسيحية^(١)، ومع أنه فشل في مهمته مع هذا السلطان، إلا أن حلم تنصير غير المسيحيين ظل مسيطراً عليه طوال حياته وعلى أتباعه من بعده، وأما القديس دومينيك مؤسس منظمة الدومينكان فقد بدأ في ممارسة نشاطه بادئ ذي بدء مع الألبجنسيين الذين اعتبرت الكنيسة الكاثوليكية حركتهم التي قامت في جنوب فرنسا حركة هرطقية إلى حد أن البابا أنوسنت الثالث وجه إليهم سنة ١٢٠٨م حملة صليبية كبيرة على غرار الحملات الصليبية التي كانت توجه ضد المسلمين فحاربهم بعنف وقسوة حتى تمكنت من القضاء على حركتهم في سنة ١٢١٦م فاتجه دومينيك بعد ذلك إلى العمل على تنصير غير المسيحيين واقتدى به أتباعه في ذلك من بعده، ولذلك كان رهبان هاتين المنطمتين على درجة عالية من الحماسة للتنصير وكانوا على أهبة الاستعداد للذهاب إلى أي مكان من أجل هذا الغرض، ومن هذا المنطلق تولى رهبان هاتين المنطمتين البعثات التي أرسلت إلى التتار وترددوا على بلاد المسلمين، والملاحظ على جهود هؤلاء الرهبان أنها كانت توجه إما على شكل سفارات كما كان الأمر مع خانات التتار، وإما أن تسير في ركاب القوي العسكرية المسيحية كما حدث بالنسبة لفرانسيس الأسوزي مع السلطان الكامل وبالنسبة لإفريقية في هذه الحملة والتي أصبحت نموذجاً احتل في الدنيا الجديدة في عصر الاكتشافات الجغرافية ثم في عصر الاستعمار الأوروبي الحديث فيما بعد.

وإذا كان نشاط هؤلاء الرهبان المنصرين في النولة الحفصية لم يكن بالشيء الجديد، وإنما كانوا يمارسون هذا النشاط بالفعل منذ وقت سابق على قيام الحملة كما ذكرنا، فإن الجديد فيه هو إعطاء هؤلاء الحرية الكاملة لممارسة هذا النشاط وإضفاء صفة الشرعية عليه بجعله شرطاً في معاهدة هامة حددت مصير حملة صليبية كبيرة، وفرضه على المستنصر بعد أن كان ذلك النشاط السابق يمارس اعتماداً على تسامحه فقط. وعلى ذلك فقد أفلح رهبان هاتين المنطمتين بموجب هذا الشرط الذي لم يوضع في المعاهدة إلا لإرضائهم نظراً لأنهم كانوا يتبوؤون مراكز حساسة لدى زعماء الحملة ومكافأة لهم على جهودهم في الإعداد لها، أفلحوا في جعل إفريقية ميداناً لنشاطهم العلني والحر من كل قيد، وتأكيداً على منزلة هؤلاء وتوافق جهودهم مع أهداف

الحركة الصليبية في إفريقيا كانوا مجهوداً على المعاهدة، وابتداءً من ذلك الوقت أصبحوا يذكرون كطرف شاهد مقارض في كافة الاتفاقيات التي عقدت بين الدولة الحفصية والدول المسيحية^(١).

ثم تعرض النص بعد ذلك لنقطة أخرى هي تحديد هوية هؤلاء، فنص على أن يكونوا سكاناً في إفريقية، وليس من ساكني إفريقية، والفرق بين المعنيين واضح، ذلك أن كلمة (سكاناً) تعني اعتبار ما سيكون وليس ما هو كائن بالفعل، أي أن يكون هؤلاء من سكان إفريقية وليس المقصود بهم أولئك الذين كانوا يقيمون في تلك البلاد فعلاً، وبعبارة أخرى أن المعاهدة شرطت على المستنصر أن يسمح لهؤلاء الرهبان والقساوسة الذين لم تحدد عددهم والذين سيفنون إليها من الخارج إما بانتداب أنفسهم أو يتدبرهم سواهم بالإقامة في إفريقية ويصبحوا من سكانها وذلك لممارسة نشاطهم التنصيري بين مسلميها، دون أن يكون للمستنصر الحق في الاعتراض لا على عدد هؤلاء الرافدين الجدد أو على نشاطهم أو حتى على أسلوبهم في العمل فيما إذا تسبب في إلقاء شعور المسلمين. وبذلك قُحِطت المعاهدة أبواب إفريقية على مصراعيها لهذا الجيش من الرهبان المنصرين.

ولم تكف المعاهدة بذلك بل ألزمت المستنصر أن يعطيهم موضعاً يؤمسون فيه ديراً لهم، وإذا عدنا إلى ما سبق أن ذكرناه من أن رهبان ذلك العصر خرجوا عن مبادئ الرهبنة المألوفة إلى ميدان التنصير، لأدركنا أن الفرض الأساسي من إنشاء ذلك الدير كان هو جعله مركزاً لنشاطات التنصير. وهذا الدير غير الكنائس، لأن الكنائس نصت عليها الجملة التالية (ويوت الصلاة)، أي أن يمنحهم المستنصر مواضع لإنشاء الكنائس فيها، وإذا كان هذا النص لم يحدد عدد هذه الكنائس أو يبين أماكن إقامتها بوضوح مما جعل الغموض يكتنف هذا الأمر، فإن Pierre de Condet في رسالته الثالثة قد سلط عليه الضوء حيث ذكر فيها بأن السلطان أي المستنصر قد أقسم على أن يسمح للنصارى بالإقامة في أحسن المدن بمملكته وأن يملكوا ما شاؤوا من النعم والمقارات... وأن ينشئوا فيها الكنائس^(٢)، والذي يفهم من ذلك كله أن المستنصر قد وافق على أن يقرم النصارى بإنشاء كنائس لهم في كبريات مدن مملكته

R. Brunschvig: Op. Cit., Tom, I, p.460.

(١)

Pierre de Condet : Op. Cit., p.230.

(٢)

فضلاً عن الدبر الأنف الذكر، وفي ذلك مخالفة صريحة وواضحة للعرف الذي كان متبعاً في البلاد الإسلامية منذ زمن الفتح والذي اتخذ من عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أهل بيت المقدس عند استلامه لها أساساً له، والمتمثل في عدم السماح للنصارى بإنشاء كنائس أو أديرة جديدة لهم في البلاد الإسلامية، أما كنائسهم وأديرتهم التي كانت قائمة عند الفتح فلا تمس بسوء ولا تهدم أو تزال وإنما لهم حق الاحتفاظ بها وتجديدها كلما تطلب الأمر ذلك.

ومضى النص فيصف طبيعة عمل الرهبان والقساوسة فيمنحهم حق الوعظ والصلاة جهراً، وما دام قد جرى التمييز بين هاتين الفئتين، فمن الطبيعي أن يتم التمييز أيضاً بين الوعظ والصلاة، لأن الوعظ هنا شيء والصلاة شيء آخر، وينبغي أن لا يتبادر إلى الذهن أن المقصود بالوعظ هنا هو ما يعظ به القسيس المصلين أثناء الصلاة طالت الموعظة أو قصرت، لأن تلك الموعظة هي ركن من أركان الصلاة المسيحية لا تتم تلك الصلاة إلا بها كما هو الحال بالنسبة للخطبة في صلاة الجمعة عند المسلمين، ولكن المقصود بالوعظ في هذا النص هو الدعوة إلى النصرانية، ولو كان الأمر على خلاف ذلك لشملتها كلمة الصلاة، ولو كانت الصلاة وحدها هي المقصودة لم يكن هنالك ثمة داع لذكرها أصلاً في المعاهدة، لأن الحرية الدينية نظراً للتسامح الذي اتصف به الحفصيون كانت مكفولة للنصارى، وكان النصارى في تلك الدولة سواء أكانوا بقايا نصارى إفريقية الذين ظلوا على دينهم منذ الفتح أو الجاليات الأوروبية فيها من تجار وجند في جيش السلطان وسواهم كانوا يقومون بأداء شعائرهم الدينية بحرية تامة^(١)، فالتركيز في النص على الوعظ وليس على الصلاة وما جاءت كلمة الصلاة إلا كمكمل للوعظ وليست مرادفة له. وعلى ذلك فقد شرطت المعاهدة على المستنصر السماح للمتصرين بالدعوة إلى النصرانية بين المسلمين، وقرنت ذلك بشرط العلنية، أي أن يمارس هؤلاء دعوتهم بحرية وعلانية، ويتبع ذلك مباشرة جملة ثانية شاملة المعنى أعطتهم الحق في فعل كل ما يروونه لازماً لمهتهم في إفريقية، وأباحت لهم ربما ما لم يكن مباحاً من قبل مما يلزم شعائرهم كضرب الناقوس علناً أو الاحتفالات العلنية بالمناسبات الدينية كأعياد الميلاد والتعميد وعيد القيامة وأعياد الرسل والقديسين وسواها والتي من الممكن أنها لم تكن تقام بحرية تامة لما يصاحبها في العادة

R. Brunschvig : Op. Cit., Tom1, p.448.

(١) لمزيد من التفصيل عن هذا الموضوع انظر :

من أعمال ينكرها المسلمون نظراً لما تسببه من إيذاء لمشاعرهم كشراب الخمر وما إلى ذلك.
وخلاصة القول، أن هذا الشرط قدفتح أبواب إفريقية لحركة التصهير بالدعوة السلمية
العلمية وبحرية تامة دون أن يكون هنالك مجال لأي اعتراض لا من المستنصر ولا من شعبه.

* * *

وبعد، فإذا ما قارنا ما حققته الحملة فعلاً على ضوء الشروط الواردة في معاهدة الصلح
بين المستنصر والصليبيين بالأهداف التي سعت الحملة لتحقيقها لتبين لنا أن ما حققته من تلك
الأهداف كان قدراً ضئيلاً، الأمر الذي عبر عنه جوانفيل في مذكراته التي كتبها بعد الحملة
أصدق تعبير بقوله : «إنها حملة ذات فائدة قليلة»^(١)، فقد فشلت في احتلال إفريقية
واتخاذها معبراً إلى الشرق، كما فشلت في تحقيق أهدافها السياسية الأخرى وأهدافها
الاجتماعية، ومع أنها حققت بعض المكاسب الاقتصادية والدينية، إلا أن تلك المكاسب لم
تكن تتناسب مع الجهود والتضحيات التي بذلت من أجلها، الأمر الذي عرض لويس التاسع
لنقد الناقدين ولوم اللاتمين من بني جلده فقد قال عنه جوانفيل أنه لو بقي في فرنسا لعاش
وقدم لها إنجازات خيرة»^(٢)، كما أخذ عليه بعض المؤرخين المحدثين تعصبه الأعمى ضد
المسلمين الذي دفعه لوقف حياته واستنزاف طاقات شعبه في سبيل مشروع عقيم لم يعد على
بلاده بفائدة، وإنما أنزل بها أخطاراً وكوارث كبيرة، وكان الأجدر به أن يقف على عرشه
يشارك شعبه آماله وآلامه ويعمل على رفاهيته وإسعاده، وإذا كان ذلك الفشل بشكل منطوقاً
هاماً في تاريخ الحركة الصليبية لأنه كان نهاية لطور من أطوارها الذي اتسم بهيمنة فرنسا
على تلك الحركة الأمر الذي عبر عنه ابن خلدون بقوله : (ورجع الفرنجة إلى دعوتهم وكان
آخر عهدهم بالظهور والاستفحال)^(٣)، وبداية لطور جديد سارت فيه الصليبية المسلحة جنباً
إلى جنب مع الصليبية السلمية، فإن هذه الحملة كانت سبباً قوياً ومباثراً في حضور كبير
لإفريقية في الفكر الصليبي، جعل الطور الجديد من أطوار الحركة الصليبية يظهر فيها
بوضوح أشد من سواها، الأمر الذي متعرض له في الباب التالي من هذه الدراسة.

Joinville : Op. Cit., p.346.

(١)

Joinville : Ibid, p.349.

(٢)

(٣) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٢٩٤.

﴿لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم﴾ .

[سورة : آية]

القامر الصليبي على إفريقية
في القرن الثامن الهجري
(الرابع عشر للميلاد)

﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ * مَبْحَانُ رَبِّ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ عَمَّا يَصِفُونَ * فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى
يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ﴾ .

[سورة الزخرف : آيات ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣]

إفريقية والمشاريع الصليبية

قرب نهاية الصليبيين في الشام وأثره على إفريقية - الحركة الصليبية في طور جديد -
إفريقية في مشاريع الدعاة : مشروع هيثوم، مشروع وامون لول، مشروع بروكاراد،
مشروع فيليب دي مزير - فكرة فرض الحصار الاقتصادي على إفريقية : مشروع
شارل الثاني، مشروع مارينو سانودو، الحرس السلطاني مشروع صليبي

قرب نهاية الصليبيين في الشام وأثره على إفريقية.

أصيب القائلون على الحركة الصليبية بخيبة أمل كبيرة نتيجة للمصير الذي آلت إليه حملة لويس التاسع الآتية الذكر على إفريقية والتي كانوا يعلقون عليها الآمال العريضة، ذلك أنهم أدركوا أبعاد الفشل الذي منيت به تلك الحملة، كما أنه لم يكن من السهل عليهم أن يجعلوا الناس في غرب أوروبا ينسمون الكارثة التي حلت بالجيش الصليبي في قرطاجة بسرعة، فضلاً عن أن الأذهان كانت مشلوبة إلى بلاد الشام حيث كان الوجود الصليبي فيها قد دخل في مرحلة النزاع الأخير، وأصبحت نهايته أمراً مفروغاً منه نظراً للضربات القوية التي أخذت تلقاها من الظاهر بيبرس سلطان المماليك في مصر والشام. ولم تنته متاعب الصليبيين هناك بوفاة الظاهر بيبرس في سنة ١٢٧٧م وتولي ابنه السعيد بركة الحكم، إذ لم تلبث الحوادث في دولة المماليك أن تمحضت عن اعتلاء المنصور قلاوون مدة السلطنة في ديسمبر ١٢٧٩^(١)، الذي سار على نهج الظاهر بيبرس في إنزال أقصى الضربات بالصليبيين ورفع معاقلهم الواحد تلو الآخر حتى توج أعماله بفتح مدينة طرابلس في ٢٦ إبريل ١٢٨٩م^(٢) ثم أخذ يستعد لفتح عكا آخر معاقلهم الكبرى في بلاد الشام، وإذا كانت المنية المفاجئة قد عاجلته قبل أن يحقق

(١) لمزيد من التفصيل عن ذلك انظر المقرئبي : السلوك ج ١ ق ٢ ص ٦٤٢ وما بعدها، أبو الحسن : المصدر السابق ج ٧ ص ٢٩٢ وما بعدها، د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٦٥.
(٢) لمزيد من التفصيل انظر المقرئبي : السلوك ج ٢ ق ٣ ص ٧٤٧ وما بعدها، أبو الحسن : المصدر السابق ج ٧ ص ٣٢١ وما بعدها، أبو الفدا : المصدر السابق ج ٤ ص ٢٣ - ٢٤، د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٧٣ وما بعدها.

هذا الهدف، فإن ابنه وخليفته الأشرف خليل ما إن تولى السلطنة حتى زحف بجيوشه على عكا وحاصرها حتى افتتحها في يوم الخميس ١٧ جمادى الآخرة سنة ٦٩٠هـ / ١٨ مايو سنة ١٢٩١م^(١) منهيًا بذلك وجود الصليبيين في بلاد الشام.

كانت هذه الحوادث تتوالى فتثير دويًا قويًا في أوروبا الغربية مما جعل الحركة الصليبية تترجمه جُلّ نشاطها إلى المشرق في محاولات بالسة للوقوف في وجه المد المماليكي المتزايد الأمر الذي جعل حدة النشاط الصليبي تخف في جبهة إفريقية إلى حد ما، ولكن ليس معنى ذلك أن الحركة الصليبية جمدت كافة نشاطاتها في تلك الجبهة، بل إن انشغال القوى الأوروبية الكبرى عنها، فتح المجال لقوة صليبية أخرى طامعة للظهور وتحتل وممارسة نشاطها فيها هي مملكة أرغونة كما سيأتي ذكره، فضلاً عن أن تلك الجبهة كانت تشهد في تلك الآونة نشاطاً صليبيًا من نوع آخر تمثل في صليبية سلمية يرتبط بطور جديد من أطوار تلك الحركة.

الحركة الصليبية في طور جديد :

برزت في ميدان السياسة الدولية منذ أواخر القرن السابع الهجري (الثالث عشر للميلاد) تغيرات وتطورات هامة كان لها انعكاس قوي على الحركة الصليبية، فبالرغم من بقاء جذوة الفكرة الصليبية متقدة في نفوس الكثير من المسيحيين في غرب أوروبا، إلا أن الظروف التي بدأت تحيط بمجتمع غرب أوروبا في تلك الآونة لم تعد تسمح لها بالتعبير عن تلك الجذوة بالوسيلة التقليدية المتمثلة في استخدام القوة العسكرية كمتنافس وحيد لها، مما جعلها تحاول التوسل بوسيلة أخرى لا تقل أهمية عن الأولى ولا تحمل محلها وإنما تساندها في تحقيق الهدف المنشود. وقد أدت إلى هذه التغيرات والتطورات عوامل عديدة سياسية واقتصادية واجتماعية ودينية أملت بالمجتمع الغربي ومهدت للنقلة إلى العصور الحديثة.

فمن الناحية السياسية أصبحت الامبراطورية الرومانية المقدسة في أوائل القرن الثامن

(١) انظر أبو الفدا : المصدر السابق ج ٤ ص ٢٤ - ٢٥، المقريزي : السلوك ج ٢ ق ٣ ص ٧٦٤ وما بعدها. أبو المحاسن : المصدر السابق ج ٨ ص ٥ وما بعدها، د. محمد عافور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٧٦ وما بعدها.

الهجري (الرابع عشر للميلاد) وليس لها من الموارد البشرية أو المالية فائض يمكنها من المشاركة في الحروب الصليبية، لا سيما بعد أن أنهكها النزاع مع البابوية، وأدى اهتمام أباطرتها بإيطاليا إلى إهمال شؤون ألمانيا ذاتها^(١)، وقد وجد المنشئون بالفكرة الصليبية من الألمان كهيئة الفرسان الثيوتون ميداناً قريباً منهم يمارسون فيه نشاطهم الصليبي فارتكبوا باسم المسيحية في بروسيا أشنع الجرائم في سبيل تنصير البروسيين معتقدين أنهم بذلك أدوا ما عليهم للمسيحية، وبذلك حرمت الحركة الصليبية من قوة عظمى طالما قذفت بالآلاف من المحاربين لخدمة تلك الحركة لا سيما في ساحات القتال بالشرق. واشتبكت فرنسا وإنجلترا القوتان العظمتان الأخريان في صراع مرير هو الذي عرف في التاريخ باسم حرب المائة عام مما أدى إلى استنزاف مواردهما وجهودهما معاً فضلاً عن انشغال كل منهما بمشاكلها الداخلية كما سبق أن ذكرنا، وقل مثل ذلك بالنسبة للمدن البحرية الإيطالية التي كثيراً ما أدى تنافسها إلى نزاع مسلح لا سيما بين البندقية وجنوة كما سبق ذكره أيضاً، وهذا وإذا أضفنا إلى ذلك بداية ظهور الشعور القومي في غرب أوروبا^(٢) ثم انهيار نظام الإقطاع الذي كان أساس الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية فيها منذ أواخر القرن العاشر للميلادي تقريباً ونمو الملكيات الجديدة على أنقاضه وبدء ظهور شخصية الفرد في ذلك المجتمع بعد أن كان ذاتياً في كيان المجموعة^(٣)، ثم فقدان البابوية لهيبتها نتيجة هنة الأسر البابلي وما تلاه من الانشقاق الديني الكبير كما سبق ذكره كذلك، لأدركنا مدى التغير الذي طرأ على المجتمع المذكور بحيث يمكننا القول إن ذلك كان بداية التحول إلى مجتمع أوروبي جديد يختلف في ظروفه ونظراته إلى الأمور عن المجتمع الذي آمن بفكرة الحروب الصليبية، الأمر الذي جعل استمرار الحركة الصليبية في السير في اتجاهها السابق كطريق وحيد أمراً متعلاًراً. وليس أدل على ذلك من موقف أوروبا الغربية من سقوط عكا بيد المسلمين سنة ١٢٩١م، فمع أن ذلك النبأ أحدث دويماً هائلاً فيها لا يقل عن ذلك الذي حدث عند سقوط بيت

(١) د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٨٧.

(٢) انظر عن ذلك د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٨٨ وما بعدها، د. سعيد عاشور

أوروبا العصور الوسطى ج ٢ ص ٢٨٦ وما بعدها.

A. S. Aliya : Op. Cit., p.44.

(٣) د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٢٩.

المقدس في يد صلاح الدين الأيوبي سنة ١١٨٧م، إلا أنها لم تستطع في نهاية القرن السابع الهجري (الثالث عشر للميلاد) أن تمر عن سخطها تعبيراً عملياً بإرسال حملة صليبية كبيرة إلى الشرق مثلما فعلت في أواخر القرن السادس الهجري (الثاني عشر للميلاد) عندما فتح صلاح الدين بيت المقدس، ولم يفلح البابا نيقولا الرابع (١٢٨٨ - ١٢٩٢م) الذي عاصر سقوط عكا في قبضة المسلمين في استئثار غرب أوروبا لإرسال حملة صليبية جديدة بالرغم من الجهود المضنية التي بذلها في هذا السبيل فمات كسيف البال في سنة ١٢٩٢م^(١).

على أنه لم يكن من السهل أن يتخلى الغرب الأوروبي عن الفكرة الصليبية تخلياً تاماً ومفاجئاً، فظلت تلك الفكرة ماثلة في أذهان المتحمسين والمتدينين الذين استمروا يدعون لاستئناف الحرب ضد المسلمين. غير أن هؤلاء الدعاة لم يكونوا خطباء من طراز بطرس الناسك، فلم يحتمدوا على اللسان في تحريك عواطف الناس واستئثار شعورهم الديني، وإنما أخذوا يدنون الرسائل والكتب ويرفعونها إلى البابوات والملوك والأمراء شارحين فيها مشاريعهم الصليبية^(٢) حتى زخر أواخر القرن الثالث عشر والقرن الرابع عشر بأسره بهذه المؤلفات التي غذت السمة المميزة للأدب الأوروبي في تلك الفترة من تاريخ العصور الوسطى. وما يلاحظه الباحث على تلك المشاريع أنها بالرغم من اختلافها في كثير من التفاصيل إلا أنها تلتقي كلها عند هدف واحد هو استعادة الديار المقدسة من المسلمين، هذا من ناحية، ثم يلتقي معظمها في فكرة استعمال الصليبية بوجهها المسلح والسلمي ضد غير الكاثوليك وبصفة خاصة ضد المسلمين، وهي التي دعاها رامون لول بنظرية السيفين. وقد استهل عصر الدعاة هذا بداعية فرانيسكاني هو فيدنزيو (Fidenzio) الذي تقدم في سنة ١٢٩١م بتقرير مطول إلى البابا نيقولا الرابع شرح فيه تاريخ الديار المقدسة، ونوع الجيش اللازم لاستردادها من المسلمين والطريق الذي يرى أنه الأفضل ليسلكه هذا الجيش في زحفه

(١) انظر : د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٩٢.

A. S. Atiya : Ibid, p.44 - 5.

J. N. Hillgarth : Ramon Lull and Lullism in fourteenth century France, p.76 - 7.

(٢) لمزيد من التفصيل عن هذه الجهود انظر :

A. S. Atiya : Ibid, p.34, J. N. Hillgarth : Ibid, 76 - 78.

إلى المشرق^(١)، وفي العام التالي ١٢٩٢م تلاه داعية فرانسيسكاني آخر هو ثاديوس (Thaddeus) فتقدم إلى البابا بتقرير آخر وصف فيه سقوط عكا في يد المسلمين وضمنه مشروعه الصليبي المعروف باسمه^(٢)، ثم أخذت المشاريع الصليبية تتوالى بعد ذلك.

إفريقية في مشاريع الدعاة :

ولا يسمنا بطبيعة الحال التعرض لكافة هذه المشاريع لأن ذلك سيؤدي بنا إلى الخروج عن موضوعنا الرئيسي، وإنما سنكتفي بتناول المشاريع التي تعرضت لإفريقية فقط بالقدر الذي يكشف عن التآمر الصليبي عليها وتدير العلوان على مسلميها، وإذا استثنينا ما كان يطمح إليه لويس التاسع بحملته الصليبية من اكتساحها واتخاذها قاعدة ونقطة انطلاق إلى المشرق، فإن الأمير هيثوم (أو هاتون) Hetoum الأرمني كان من أول أصحاب المشاريع الذين تعرضوا للذكر إفريقية في مشاريعهم.

مشروع هيثوم :

نشط دعاة الحركة الصليبية إثر سقوط عكا بيد المسلمين في العمل لإثارة حماس نصارى غرب أوروبا لتصير حملة صليبية جديدة إلى المشرق، وكان أن رأى فيليب الرابع (Philippe le Bel) ملك فرنسا (١٢٨٥ - ١٣١٤م) ركوب هذه الموجة من الحماسة^(٣) لتحقيق أغراضه الخاصة فأعلن عن رغبته في تشكيل هذه الحملة، وقد حملت هذه الرغبة محمل الجد من قبل العديد من المفكرين الصليبيين، والذين كان من بينهم من خير أوضاع المشرق وأقام فيه فترة من حياته متقللاً بين أقطاره، فرأى هؤلاء اغتنام هذه الفرصة الذهبية ليضعوا خبرتهم وخلاصة أفكارهم في خدمة الحركة الصليبية فتقدموا إلى الملك الفرنسي

(١) لمزيد من التفصيل عن هذا المشروع انظر د. سعيد عاثور : الحركة الصليبية ج٢ ص ١١٩٣م.

A. S. Atiya : Op. Cit., p.36 - 43.

(٢) عن هذا المشروع انظر د. سعيد عاثور : الحركة الصليبية ج٢ ص ١١٩٣م.

A. S. Atiya : Ibid, p.31 - 34.

(٣) انظر : A. S. Atiya : Ibid, p.47 - 50, J. N. Hillgarth : Op. Cit., p.77 - 9.

د. سعيد عاثور : الحركة الصليبية ج٢ ص ١١٩٤ - ١١٩٥، لوفروب سولود : المرجع السابق ج٢ ص ٢١٩.

والى البابوية ثم إلى مؤتمر فينا فيما بعد (سنة ١٣١١ - ١٣١٢م) بخطط محددة عن الحملة المنشودة وكيفية إعدادها وتسليحها وتمويلها والطرق التي يجب أن تسلكها للوصول إلى الديار المقدسة، وكان من هؤلاء بطرس دوبوا (Peter "Pierre" du Bois)^(١)، وليم دي نماري (Guillaume de Nageret)^(٢)، وجاك «يعقوب» مولاي (Jacques de Molay) مقدم الداوية، وفولك دي فيلاري (Foulques de Villaret)، وهنري الثاني لوزجنان (Henry II de Lusignann)^(٣)، وبتر زخاريا (Benito Zaccharia) والأمير هيتوم (Hetoum) ووليام آدم (Guillaume Adam) ووليام ديورانت (Guillaume Durant)، وجالفانو دي ليفانتي (Galvano de Iavanti)، ورامون لول (Ramon Lull)، وغيرهم^(٤)، على أن أياً من المشاريع التي وضعها هؤلاء لم يوضع موضع التنفيذ، اللهم إلا جانباً من مشروع رامون لول كما سيذكر في موضعه، ذلك لأنه تبين للجميع أن الملك الفرنسي لم يكن جاداً في عزمه، وإنما اتخذ ذلك ذريعة للاستفادة من ضريبة العشور، ومصادرة أملاك منظمة الفرسان الداوية (Templars)^(٥)، ومع ذلك فإن تلك المشاريع تعتبر ذات قيمة تاريخية وأدبية كبيرة ومؤشراً واضحاً لدخول الحركة الصليبية في طورها الجديد.

كان الأمير هيتوم Hetoum (أو هاتون Hayton كما تسميه بعض المراجع) من بين الذين أدلوا بدلوهم في هذا المجال، وهو أمير أرميني من (كرشي) وهي ثغر بحري على الشاطئ الجنوبي لآسيا الصغرى بإزاء جزيرة قبرص، وكان عمه ملكاً على أرمينيا الصغرى، وعندما فتحت جيوش المماليك بلاده فر منها بعد أن أهلك في قتال الجيش المماليكي إلى قبرص بصحبة عمه سنة ١٣٠٥م، وفي العام التالي سنة ١٣٠٦م غادرها لاجئاً إلى البابا كلعنت الخامس (Clement V)، وبعد ذلك رحل إلى مدينة بواتيه في فرنسا حيث اعتكف في أحد أديرتها

A. S. Atiya : Op. Cit., p.49 - 52.

A. S. Atiya : Ibid. p.52 - 57.

A. S. Atiya : Ibid. p.58 - 60.

A. S. Atiya : Ibid. p.61 - 2.

(١) عن هذا المشروع انظر :

(٢) عن هذا المشروع انظر :

(٣) عن هذا المشروع انظر :

(٤) عن هذا المشروع انظر :

(٥) انظر د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٩٥.

A. S. Atiya : Ibid. p.62 - 3.

(٦) لوثروب ستروارد : المرجع السابق ج ٣ ص ٢١٢،

إلى أن توفي في سنة ١٣٠٨م. ونظراً لكون هيثوم أحد المختصين بشؤون الشرق والمطلعين على أوضاعه، فقد كلفه البابا كلمنت الخامس الأنف الذكر بإعداد دراسة وافية عن متطلبات الحملة التي أعلن فيليب الرابع ملك فرنسا عن رغبته في القيام بها وطريق سيرها. فقام هيثوم بتأليف كتابه المسمى (Flos Historiarum Terre Orientis) الذي كتبه باللاتينية وضمنه مشروعه لاسترداد الديار المقدسة والذي قدمه إلى البابا سنة ١٣٠٧م^(١)، وبعثنا في هذا المشروع تعرض هيثوم إلى طرق مسير الحملة، إذ رأى أنه ينبغي عليها أن تسلك إحدى الطرق التالية : الطريق البري عبر شرق أوروبا إلى القسطنطينية ومنها إلى آسيا الصغرى ثم إلى بلاد الشام، بينما يسير قسم آخر من القوات الصليبية عن طريق البحر إلى قبرس، ثم يذكر لإفريقية كطريق ثالث لهذه الحملة، ويرى بالنسبة لسلوك هذا الطريق ضرورة استشارة المختصين في شؤون إفريقية لتقديم معلومات وافية عنه نظراً لأنه لم يكن لديه الاطلاع الكافي الذي يتيح له إبداء رأيه في هذا الطريق، وأهم ما في هذا الموضوع أنه يذكره لطريق إفريقية في مشروعه بعث الحياة إلى فكرة لويس التاسع من جديد مما جعلها تظهر في مشاريع صليبية تالية بشكل أوضح.

مشروع رامون لول :

أما رامون لول (أو ريموند لول Raymond Lull كما تسميه بعض المراجع أو رومان لول Roman Lull كما تسميه مراجع أخرى) (١٢٣٢ - ١٣١٦م) فيعتبر من أشهر الدعاة الصليبيين في العصور الوسطى، وقد عاصر فترة ضعف الصليبيين ثم انهيار دولتهم في بلاد الشام، فتسلكته فكرة وضع نفسه في خدمة الحركة الصليبية، فنجد أن اتخذ هذا القرار في سنة ١٢٦٣م كما سيأتي ذكره، ولحين وفاته في أواخر سنة ١٣١٥م أو أوائل سنة ١٣١٦م كان شغلة من النشاط، فقد ألف من الكتب والرسائل والتقارير أكثر من الدين سبقوه أو لحقوه من الدعاة الصليبيين^(٢)، ورحل إلى مراكز الثقافة في أوروبا يلقي المحاضرات

(١) انظر د. محمد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٩٥، لوثرروب ستودارد : المرجع السابق ج ٣ ص ٢٢٢، A. S. Atiya : Op. Cit., p.62

(٢) بلغ عدد الكتب التي نسبت إلى رامون لول حوالي (٤٠٠) أربعة آلاف كتاب ذكر منها برونك (A. Perroquet) ٤٨٨ كتاباً، في حين أعد زويمر (Zwemer) قائمة تحتوي على ٣٢١ كتاباً، أما باربر فأعد قائمة أصغر احتوت على ٢٨٢ كتاباً علاوة على ١٦ كتاباً آخر مفقوداً، واحتوت =

على المثقفين فيها ويناقشهم في مشاريعه كما طوف في أقطار المشرق وسافر إلى إفريقيا ثلاث مرات، وقابل البابوات والكرادلة وحضر المجالس الكنسية واتصل بملوك وأمراء أوروبا، ولم يوفقه شيء عن حماسه في خدمة الحركة الصليبية إلا الموت^(١)، فقال تبعاً لذلك شهرته الواسعة عن جدارة. لقد عكس رامون لول وجهة نظر عصره عن الصليبية بوضوح، فكان نموذجاً ممتازاً للصليبي بوجهيه العسكري والسلمي اللذين أشبها وجهين لعملة واحدة. وبهنا في هذا المقام ذلك الجانب من مشروعه المعبر عن وجهة النظر الصليبية التقليدية المثبتة في ضرورة استعمال القوة العسكرية ضد المسلمين، وأما الجانب الآخر فسنتناوله في الفصل التالي إن شاء الله.

ذلك أنه حدث في نفس الفترة التي كان فيها هيثم يعد مشروعه، أن كان رامون لول يكتب مؤلفه الذي سماه (كتاب النهاية Libre De Fine) الذي فرغ منه في حدود سنة ١٣٠٦م والذي ضمنه مشروعه الصليبي بالإضافة إلى العديد من آرائه ومقترحاته التي امتدحها من تجاربه الطويلة في الشؤون الصليبية. ومع أن العديد من أسس هذا المشروع كان قد سبق له طرحها في مؤلفات أخرى وبصفة خاصة في تلك العريضة التي كان يعترم تقديمها إلى البابا كلمنتين الخامس سنة ١٢٩٤م^(٢)، كما يعتقد أنه تقدم بها إلى البابا بونيفاس

= القائمة التي أعدها بيرز (Peers) على ٣٢٨ كتاباً فقط.

(انظر : A. S. Atiya : Op. Cit., p.74, Note 3)

(١) A. S. Atiya : Ibid, p.74 - 5, J. N. Hillgarth : Op. Cit., p.46.

(٢) ظهر رامون لول في نابلي خلال الفترة من ١٣ / ١٠ / ١٢٩٤ - ١٢ / ١٠ / ١٢٩٤م وكان لديه عريضة اعزم تقديمها إلى البابا كلمنتين الخامس تتضمن آراءه في ضرورة تبني مياسة صليبية جديدة بالإضافة إلى السياسة التقليدية، فكان يرى العمل على اتباع خطة تصير جديدة وبصفة خاصة بين التار لحشيتة من أن يعتقدوا الإسلام أو اليهودية وبذلك يشكلون أعظم الخطر على المسيحية، وكان يطمح في كسب تأييد ذلك البابا لهذه السياسة نظراً لكونه من الفرنسيسكان الذين كانت تربط لول بهم صلة قوية، ومع أن تلك العريضة كانت تتناول في مجملها موضوع التصير، إلا أنها تضمنت إشارات واضحة إلى وجوب استعمال القوة، ولكن تخلى كلمنتين عن منصب البابوية خيب ظن لول، ومع ذلك لم يأس فبع البابا الجديد بونيفاس الثامن إلى روما لكونه هو الآخر من الفرنسيسكان وتمكن من مقابله حيث يعتقد أنه قدم له نفس المقترحات.

انظر عن ذلك : A. S. Atiya : Ibid, p.76, J. N. Hillgarth : Ibid, p.50 - 3, p.66 - 67, & 394

الثامن (١٢٩٤ - ١٣٠٣م) الذي خلف كلمتين الخامس إثر اعتزال الأخير كرسي البابوية للتفرغ للتسك والعبادة، إلا أن كتاب النهاية قد احتوى على مشروع صليبي متكامل هو خلاصة آرائه ومقترحاته، وهو عمل ذو أهمية كبيرة لمؤرخي الحركة الصليبية، وتظهر فيه آراء لول باستعمال القوة ضد المسلمين بوضوح على عكس ما يحاول بعض المؤرخين الغربيين من طمس هذه الناحية من آرائه وقصر تلك الآراء على الصليبية السلمية المثقلة في التنصير مثل (Delavelle Le Rouix) الذي يقول إن رامون لول يثق من عدم جدوى استعمال القوة في النزاع بين الشرق والغرب فتنازل عن فكرة الحروب الصليبية وحاول أن يكسب المسلمين بالمنطق والإقناع، ويعتقد زويمر Zweimer أن لول أراد بفكرة توحيد الفئات العسكرية في مشروعه ليس شن الحرب وإنما خلق مجموعة من الفرمان الروحانيين لتحقيق الأهداف الصليبية بالسلام والمحبة، والمؤرخ الكنيسة نيندار (Neandar) رأي مشابه لهذين الرأيين^(١)، كما يعتقد شاخنت أن رامون لول كان مثل روجر بيكون يرى إحلال الجهود التنصيرية التي تستند إلى فهم عميق للعقيدة الإسلامية واللغات السامية محل المساعي العسكرية^(٢)، وفي اعتقادنا أن هذه الأقوال لا تمثل كامل الحقيقة وأن أي فحص لمؤلفاته كما يقول الدكتور عزيز سوربال عطية يكشف عن رغبته الحققة في خلق صليبية مسلحة ضد المسلمين^(٣)، والنقطة الهامة الأخرى في هذه الناحية هي أنه كان يرى تعميم هذه الحرب لتشمل كافة بلاد المسلمين وليس لاسترداد الديار المقدسة فقط، ويظهر هذان الأمران بجلاء في مشروعه الصليبي الذي تضمنه كتاب النهاية Libre De Fine حيث يقول : (إن الجيوش الصليبية ينبغي أن لا تقف عند حد غزو الديار المقدسة، وإنما أيضاً كافة البلاد الإسلامية يجب أن تغزى بالجيوش)^(٤).

وقد قسم لول كتاب النهاية إلى مقدمة وثلاثة أقسام، فعالج في المقدمة أوضاع العالم الذي يشكل فيه المسيحيون الأقلية بينما يشكل غير المسيحيين (الذين يدعومهم بالكفار)

A. S. Atiya : Op. Cit., p.75.

(١)

(٢) شاخنت وبوزورث : المرجع السابق ق ١ ص ٥١ .

A. S. Atiya : Ibid, p.75 - 6, J. N. Hilgath : Op. Cit., p.6.

(٣)

A. S. Atiya : Ibid, p.89.

(٤) د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٩٣ - ١١٩٤ .

الأغلبية والذين هم في ازدياد ويوسعون رقعة بلدانهم على حساب الأرض التي كانت في الأصل أرضاً مسيحية، ولذلك يرى أنه يتوجب على المسيحيين أن يذلوا قساراً جهدهم من أجل تنصيرهم واتباعهم المذهب الكاثوليكي بالذات. وبين في القسم الأول حججه ضد المسلمين واليهود والتار والمسيحيين المنشقين عن الكاثوليكية كالأرثوذكس والأقباط والنساطرة وسواهم، ولم يفته أن يؤكد على ضرورة تأسيس مدارس خاصة من أجل تعليم الرهبان المنصرين اللغات الشرقية لمساعدتهم في مهمتهم التنصيرية، ويرى أنه منذ ألف عام لم توضع خطة لنشر المسيحية أفضل من هذه الخطة^(١)، وتقوده هذه النتيجة المثقلة في وجوب سير التنصير جنبا إلى جنب مع القوة العسكرية أو نظرية وجوب استعمال السيفين معاً إلى القسم الثاني من الكتاب الذي ضمنه مشروعه الصليبي. وهذا القسم يعتبر وثيقة هامة نظراً لأنها تكشف عن أفكار لول وآرائه الصليبية بوضوح وتقدم الدليل القاطع على أنه لم يكن مجرد مفكر مثالي غير عملي وإنما له آراء كثيرة تنصم بالعمق والواقعية، ويزيد في هذه الأهمية أن لول كان يعكس وجهة نظر المفكرين الصليبيين في عصره. لقد وضع لول تصوراً واضحاً للشكل الذي ينبغي أن تكون عليه الحملة الصليبية التي يقترحها، فهو يقترح أن يقودها أحد الملوك أو من ذري الدم الملكي على الأقل يتم اختياره من قبل البابا والكرادلة وأن يكون أعوانه من أبناء الملوك أيضاً وأن يكون له مجلس استشاري يقدم له المشورة والنصح في الأمور الطارئة^(٢)، ثم يرى وجوب اندماج جميع منظمات الرهبان العسكرية من داوية وامبتارية وتوتون وسواهم في هيئة واحدة تحت إمرة هذا القائد للقضاء على روح التنافس بينها والتي كانت سبباً هاماً في الضعف الذي أصاب الصليبيين في المشرق والذي أدى بدوره إلى طردهم من بلاد الشام، هذا بالإضافة إلى ضرورة اندماج جميع المشاركين في الحملة في جيش واحد يأتمر كله بأوامر ذلك القائد^(٣)، وأما بالنسبة للأموال اللازمة

A. S. Atiya : Ibid, p.78.

(١)

A. S. Atiya : Ibid, p.79.

(٢) لمزيد من التفصيل انظر :

J. N. Hillgarth : Ibid, p.67 - 9.

(٣) انظر : A. S. Atiya : Ibid, p. 79. د. سعيد عافور : الحركة الصليبية ج ١ ص ١١٩٣ - ١١٩٤،

د. محمد محمد أمين : المرجع السابق ص ١٦٣. لوثرورب ستودارد : المرجع السابق ج ٣ ص ٢٢١.

لهذه الحملة لمواجهة مصاريف التسليح والمؤن والنقل وما إلى ذلك، فيرى أن يسمع البابا باقظاعها من ضريبة العشور، واستمكالاً لهذا الموضوع لا يفوته أن يؤكد على وجوب القيام بحملة دعائية كبيرة لهذه الحملة في جميع أنحاء أوروبا يتولاها رجال الدين ليحثوا الناس على المشاركة فيها.

وبعد ذلك يتناول لول موضوع الطرق التي يمكن للحملة سلوكها للوصول إلى الديار المقدسة ويحددها بخمس طرق. الأول هو الطريق البري عبر شرق أوروبا إلى القسطنطينية ومنها إلى أرمينيا الصغرى ثم إلى بلاد الشام، ويرى أن هذا الطريق كثير المخاطر فضلاً عن طوله والتنفقات الباهظة التي ستكلفها الحملة إذا ما سلكته، وأما الثاني فهو الطريق البحري إلى مصر مباشرة وإلى مدينة رشيد بالذات^(١) المجاورة للإسكندرية، ويرى أنه يمكن احتلال رشيد بسهولة، على أن هذا الطريق في رأيه طويل وباهظ التكاليف أيضاً^(٢). أما الطريق الثالث فهو الإبحار إلى قبرس لكنه يبدأ في تعداد المصاعب والمعوقات لاستعماله فيرى أنه فضلاً عن طوله المفرط فإنه يحتم على جنود الحملة أن يتقنوا فن القتال في البحر والبر معاً يضاف إلى ذلك صعوبة أخرى هي عدم توفر مواد التموين اللازمة في تلك النواحي لإعادة تموين الجيش. وأما الطريق الرابع فهو طريق إفريقية، أي الإبحار إلى إفريقية مباشرة واحتلالها واتخاذها قاعدة انطلاق إلى المشرق، ويلاحظ هنا أنه قد تبنى وجهة نظر لويس التاسع بحلها قيرها، وهو لا يخفي ذلك بل يبينه بوضوح حين ذكر وجهة نظره في هذا الطريق، ومع أنه يتفق مع الملك الفرنسي في وجوب احتلال إفريقية، إلا أنه نظراً لأن فشل لويس التاسع كان لا يزال ماثلاً في الأذهان فإنه يقول بأن على الصليبيين أن لا يكرروا تجربة الملك الفرنسي بالإبحار إليها مباشرة^(٣)، ويقوده ذلك إلى تناول الطريق الخامس الذي يراه أفضل الطرق وهو الذي يبدأ بالأندلس، فهو يرى أن إسبانيا المسيحية بلاد خصية وكثيرة الخيول مما يوفر للجيش حاجته منها، كما أنها أقربها من باقي دول غرب أوروبا يسهل على

(١) تعرف مدينة رشيد في المصادر المسيحية باسم (Raycet) وترجمتها المراجع الغربية باسم (Rosetta)

A. S. Atiya : Ibid, p.79. Note 10.

انظر :

A. S. Atiya : Ibid, p.79 - 80

(٢)

A. S. Atiya : Ibid, p.80.

(٣)

جميع القوى الأوروبية الوصول إليها يصر، حيث يبدأ الصليبيون كفاحهم ضد المسلمين بالقضاء على مملكة غرناطة آخر معاقلهم في الأندلس والتي كانت في رأيه في وضع يمكن للمسيحيين معه تحقيق النتيجة المرجوة بسهولة، ذلك أنها كانت على حد قوله محاطة بالبحر من جهة وبمملكتي قشتالة وأرغونة من جهة أخرى مما يجعل الأمر صعباً على مسلمي العدو مد يد المساعدة إليها حينما تتقدم الجيوش المسيحية لاحتلالها، ولذلك فإن جيشاً مسيحياً صغيراً يستطيع الاستيلاء عليها دون عناء كبير قلعة بعد قلعة ومدينة تلو الأخرى^(١)، وباحتلال هذه المملكة تكون الحملة الصليبية المقترحة قد حققت هدفاً هاماً من أهداف الحركة الصليبية المتمثل في طرد المسلمين من الأندلس، وبعد ذلك لا يبقى أمام تلك الحملة إلا عبور مضيق ضيق على حد تعبيره هو مضيق جبل طارق هاربة المسلمين في العدو المغربي والذي لا يشكل اجتيازه أدنى خطورة أو مشقة على الصليبيين حيث تكون مدينة سبتة هي نقطة البداية لهم في تلك العدو، وبعد الاستيلاء عليها تمضي الحملة في زحفها شرقاً إلى إفريقية مجتاحة في طريقها مملكة بني زيان (عيد الواد) في المغرب الأوسط، ثم تكتمح إفريقية وبعد ذلك تنطلق إلى مصر سالكة الطريق البري بمحاذاة الساحل، وبعد الاستيلاء على مصر تعبر منها إلى الديار المقدسة التي ستكون بلا حام أو مانع بعد تحطيم قوة مصر العسكرية، يتم ذلك في نفس الوقت الذي يتخذ فيه الأسطول الصليبي مالمطة ورووس قاعدتين له لمساعدة الحملة البرية في زحفها إلى المشرق^(٢)، ويتعرض في ما تبقى من كتابه إلى أمور متنى خارجة عن نطاق موضوعنا، تهدف كلها إلى خدمة الحركة الصليبية كالمقارنة بين القوات المسيحية والإسلامية في تسليحها وعدتها وخططها العسكرية، ثم موضوع فرض الحصار الاقتصادي على مصر لإضعافها مؤكداً أنه إذا ما نفذت خطته بدقة فإن سلطنة المماليك ستعرض لأزمة اقتصادية الأمر الذي سيجبرها على الاستسلام للجيوش المسيحية في مدة لا تتجاوز الست سنوات، ثم يستعرض بعض المشاكل التي تواجهها الكنيسة والمسيحية ووسائل معالجتها^(٣).

إن أول ما يلاحظه الباحث على مشروع لول أنه يمثل وجهة نظر النصارى الإسماني في

A. S. Atiya : Ibid, p.80 - 81.

(١)

A. S. Atiya : Ibid, p.80 - 81 . كذلك ١١٩٤، كذلك

A. S. Atiya : Ibid, p.82.

(٢) انظر د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢، ١١٩٤، كذلك

(٣) مزيد من التفصيل انظر :

الحروب الصليبية أصدق تمثيل والذين كانوا يرون أن تلك الحروب ينبغي أن توجه أولاً لطرده المسلمين من الأندلس ثم محاربتهم في العدو المغربية للجهولة دون تجميع قواهم والوثوب إلى البر الأندلسي من جديد، وليس هذا الأمر بالمستغرب من رامون لول الذي كان وثيق الصلة بـ بلاط ملوك أرغونة كما سيأتي ذكره، وفي سبيل ذلك تناسى المتعصب التي ستواجهها الحملة في طريقها من الأندلس إلى المشرق، وكان بروكارد أكثر منه واقعية حينما عدد تلك المصاعب في مشروعه وجعله لا يحجز سير الحملة في تلك الطريق. كذلك يؤخذ على رامون لول أنه أساء الظن بالمسيحيين الشرقيين إلى حد كبير، فلم يأخذ في اعتباره تبعاً لذلك محاولة كسبهم والإفادة منهم مطلقاً هذا بالإضافة إلى أنه رأى تحييد فكرة الاستيلاء على القسطنطينية^(١). ولكنه مع ذلك امتاز باتساع الأفق ويمدو ذلك من اهتمامه بموضوع التعاون والتتسيق بين الأسطول والجيش البري، فضلاً عن عنايته بموضوع التموين والأسلحة^(٢). وفي آذار سنة ١٣٠٩م أكمل لول مصنفاً آخر ذا طبيعة دعائية بحثة على أمل أن يسترعي اهتمام البابا كلمنت الخامس لينتجى آرائه، وهو كتابه المسمى Libre De acquisitione Terrac Sanctac والذي ضمنه ملخص الكتاب الأنف الذكر مع تغيير طفيف في الترتيب، وما يهمنا من هذا الكتاب هو أن خططه وآراءه الخاصة بمهاجمة المسلمين في كل من الأندلس والمغرب وإفريقية بقيت على حالها كما كانت في كتاب النهاية دون تغيير^(٣) مع أنه صنفه إثر عودته إلى أوروبا مطروداً من بجاية. وأخيراً وضع خلاصة مشروعه بشقيه العسكري والتنصيري في تقرير تقدم به إلى مؤتمر فيينا (١٣١١ - ١٣١٢م) على أمل أن يوضع موضع التنفيذ كما سيأتي ذكره.

مشروع بروكارد (Brucard)^(٤):

كانت جهود الدعاة الصليبيين في تلك الفترة - أعني بعد طرد الصليبيين من الشام

(١) انظر د. سعيد عاشور: الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٩٤.

(٢) انظر د. سعيد عاشور: الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٩٤.

(٣) A. S. Atiya: Ibid, p.67.

(٤) انظر:

(٤) عرف اسم هذا الداعية في الأدب الفرنسي على النحو التالي: Brocard, Brochart, Brochand أما باللاتينية فهو Brocardus, Brochartus. وتسميه بعض المراجع خطأً Richard.

(انظر: A. S. Atiya: Ibid, p.95, Note 1.)

في أواخر القرن السابع الهجري (الثالث عشر للميلاد) - عاملاً فعلاً في الإبقاء على الروح الصليبية متمكنة في نفوس الكثيرين من مسيحي غرب أوروبا فضلاً عن البابوات والملوك والأمراء، ويتجلى ذلك الأمر بوضوح لدى الملوك الذين اعتلوا عرش فرنسا في العقود الأولى من القرن الرابع عشر، ومنهم فيليب السادس دي فالوا (Philippe de Valois) (١٣٢٨ - ١٣٥٠م) أول ملوك أسرة فالوا الذي كان متحمساً لاستئناف الحرب الصليبية ضد المسلمين على الطراز التقليدي، وعندما لمس البابا يوحنا الثاني والعشرون منه هذا الحماس ورغبته في الإعداد لحملة صليبية جديدة^(١) أصدر مرسومين أولهما في ١٦ يونيو سنة ١٣٣٠ يخوله فرض ضريبة العشر لمدة سنتين من أجل تمويل تلك الحملة، وثانيهما في ٥ ديسمبر سنة ١٣٣١ يمنحه وكافة المشاركين في الحملة جميع الصلاحيات والامتيازات التي كانت تمنح عادة لقادة الحملات الصليبية^(٢)، وعندما شاعت أخبار هذه الحملة في أوروبا الغربية تقدم العديد من المختصين بتقارير إلى الملك الفرنسي ليستفيد منها، كان منهم من له خبرة واسعة في شؤون المشرق، ومن هؤلاء كان بروكارد الذي كان قد أمضى في المشرق مدة أربع وعشرين سنة امتدت من سنة ١٣٠٨م - ١٣٣٢م قضاها منتقلاً بين العديد من أقطاره داعياً للكاثوليكية بين المسيحيين الشرقيين، حيث قدم تقريره المعروف باسم (Directorium ad Philippum Regem "Francia")^(٣).

(١) بلغ من حماس هذا الملك أن أرسل وفداً إلى مصر يطلب من السلطان تسليمه بيت المقدس وسائر مدن الساحل، يقول المقرئ في حوادث شهر جمادى الآخرة سنة ٧٣٠ هـ عن ذلك : (وفي الخامس عشره قدم رسل ريد إفرنس في طلب القدس وبلاد الساحل، وعدتهم مائة وعشرون رجلاً فأمرهم السلطان عليهم وعلى مرملةم، وأمرهم ثم رسم بمودهم إلى بلادهم). المقرئ : السلوك ج ٢ ق ٣١٩.

(٢) انظر د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٩٦، A.S. Atiya : Op.Cit., p.96.

(٣) انظر د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٩٦، A.S. Atiya : Ibid, p.96. د. محمد محمد أمين : المرجع السابق ص ١٦٥.

نظراً لأن المعلومات عن شخصية هذا المؤلف وحياته قليلة فإن هنالك من يخلط بينه وبين شخص آخر يحمل نفس الاسم هو بروكارد جبل صهيون، ومن المؤرخين من ينسب تقريره هذا إلى =

بدأ بروكارد تقريره وحسب المعتاد في ذلك العصر بمقدمة يصف فيها فرح نصارى الغرب وغيظتهم لسماحهم بأن الملك الفرنسي قد قرر أن يحمل راية المسيح ليحارب أعداءه ويسترد الديار المقدسة على حد تعبيره، ثم يقول مع أنه لا يملك شيئاً يمكنه تقديمه إليه لمساعدته في تلك الحرب، إلا أنه يستطيع تقديم المعلومات والنصائح على أمل أن تكون ذات فائدة للملك في حربه المقبلة. وبعد هذه المقدمة يستهل القسم الأول من التقرير بتعداد أهداف الحركة الصليبية كمدخل طبيعي لذلك التقرير^(١). ثم يتطرق بعد ذلك إلى موضوع الدعوة لتلك الحملة بين الناس، فيرى ضرورة تولي رجال الدين هذه المهمة وإعداد الذين سيشاركون في الحملة إعداداً دينياً سليماً بحهم على التطهر ونذر أنفسهم لخدمة المسيح ووجوب إخلاصهم لهدفهم وتمسكهم بالطاعة ثم التحلي بصفات ومبادئ القروسية الحقة.

ويجعل إشاعة السلام في أوروبا شرطاً أساسياً لنجاح أي حملة صليبية ويقول إنه بدون ذلك لا الحماس ولا المهارة في القتال ستكون مجدية، ويضرب مثلاً على ذلك بالنزاع الذي كان قائماً بين ملكي أرغونة وصقلية وبين الجنوئين والقطلان ويولم الجميع على التضحية بحياة العديد من الجنود الممتازين في تلك الحروب التي ينبغي توفيرها لقتال العدو المشترك، ثم يتناول بعد ذلك موضوع تجهيز الحملة واستئجار الأسطول ووجوب تنفيذ الحصار الاقتصادي على دولة المماليك في مصر والشام، ولم يفته بهذه المناسبة حث البابا على تجديده توقيع قرارات الحرمان على كل من يقوم بالاتجار مع الإسكندرية ودمياط،

=داعية آخر هو Guillaume Adam، وقد بين الدكتور عزيز سوريال عطية بأدلة تاريخية مقنعة أن بروكارد صاحب هذا التقرير هو غير بروكارد جبل صهيون الذي كان قد عاش في القرن الثالث عشر وزار مصر وسوريا وأرمينيا وصقلية حوالي سنة ١٢٣٢م واستقر به المقام في رهبانية جبل صهيون ببيت المقدس حيث كتب دليله المشهور لزوار الديار المقدسة في حدود سنة ١٢٨٠م بينما كتب بروكارد صاحب التقرير المشار إليه في المتن أعلاه تقريره في القرن الرابع عشر، كما أثبت الدكتور عطية نسبة هذا التقرير لبروكارد وليس لوليام آدم كما يظن البعض.

A. S. Atiya : Op. Cit., p97 - 9.

انظر :

(١) يحرص بروكارد هذه الأهداف في أربعة أهداف رئيسية هي نشر الكاثوليكية، وحماية المسيحيين من الانقراض والانحراف، ثم استعادة الديار المقدسة من المسلمين، وأخيراً العمل النائم على القيام بواجب حماية هذه الديار التي هي أرض الألباء والميعاد والتي هي في رأيه إرث شرعي للمسيحية.

(انظر : د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٩٢، ٩٩، A. S. Atiya : Ibid, p.99)

ولم يكتف بذلك وإنما أكد على ضرورة تحريم التجارة مع الأسواق الإسلامية الأخرى^(١).

ويتطرق بروكارد بعد ذلك لدراسة الطرق المؤدية إلى الشرق فيعدد أربع طرق رئيسية منها الطريق عبر إفريقيا الذي سبق أن ذكره رامون لول في مشروعه والذي يبدأ بالأندلس فالعنوة المغربية ثم إلى إفريقيا ومنها إلى مصر ثم إلى بلاد الشام^(٢)، إلا أن بروكارد مع أنه ذكر هذا الطريق كإحدى الطرق المؤدية إلى المشرق وتفصيل ملحوظ، كان على العكس من رامون لول لم يحدد استخدامه، فهو يرى أن هذا الطريق طويل جداً ومعروف بالخطار، فقد قدر المسافة بين مضيق جبل طارق وعكا برأ بحوالي ٣٥٠٠ ميل وهي في رأيه مسافة طويلة إذا ما قورنت بغيرها من الطرق التي اقترحها، ولا يقصر من طول هذه المسافة في نظره إبحار الحملة مباشرة إلى إفريقيا لأن ذلك لن يوفر من المسافة إلا مائة ميل فقط. وعلاوة على طول هذا الطريق فإنه يرى أن سلوك الحملة فيه سوف يجرها حتماً إلى الدخول في حروب كثيرة ومريرة ضد الممالك الإسلامية التي تمر منها، وعليها في هذه الحالة أن تواجه قلاعاً منيعة ومدناً حصينة كثيرة في كل من المغرب الأقصى والأوسط وإفريقية، وإذا افترض أن الحملة نجحت في التغلب على هذه العقبة وهو أمر مشكوك فيه كما يقول، فسيكون عليها بعد ذلك عبور الصحراء اللبية القاحلة التي يصعب على المخلوقات تحمل قسوة الحياة فيها، حتى لو نجحت الحملة في عبور هذه الصحراء ووصلت إلى وادي النيل الحبيب فإنها ستجد سلطان مصر قد أعد عدته لمواجهة وسحقها، ولذلك فإنه يعتقد أنه لا أمل لنجاح حملة صليبية تسلك هذا الطريق. وفي ضوء هذه الاعتبارات يرى أنه ليس هنالك ثمة مبرر لحملة لويس التاسع على إفريقيا^(٣).

ويخلص بروكارد من تعاده لهذه الطرق إلى أن أفضلها في رأيه هو الطريق البري عبر ألمانيا وهنغاريا وبلغاريا فالقسطنطينية، وما يلاحظ هنا هو أنه تمسك بفكرة غزو بلاد الصرب واحتلال الصليبيين للقسطنطينية وأورد الأسباب الدينية والسياسية والحربية التي تبرر هذه

A. S. Atiya : Ibid, p.100.

(١)

(٢) لمزيد من التفصيل انظر A. S. Atiya : Ibid, p.101. د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢

ص ١١٩٦ ص ١٢٤٠، د. محمد محمد أمين : المرجع السابق ص ١٦٥.

(٣) A. S. Atiya : Ibid, p.101، انظر أيضاً د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٢٠، -

الفكرة^(١). وأما باقي التقرير فيعرض فيه لمواضيع خارجة عن موضوع هذه الدراسة، ويبدو أن أفكار بروكارد وآراءه أثارت شكوك فيليب السادس في مدى واقعيته وحكمتها والتي كانت تختلط فيها الميول الشخصية بالمصالح الصليبية، فأحال ذلك التقرير إلى لجنة خاصة لدراسته والتي بعد أن درست بعناية رفعت تقريراً إلى الملك الفرنسي تضمن رفضها للطريق الذي اقترحه بروكارد ونصحته باتباع الطريق البحري الذي ملكه لويس التاسع من قبل مع بعض التعديلات الطفيفة^(٢). وما يؤخذ على بروكارد في هذا المشروع أنه بالرغم من واقعيته بالنسبة لذكر مصاعب طريق إفريقية، إلا أن اقتراحاته وافتراضاته الكثيرة الأخرى كانت في معظمها قليلة الأهمية لأنه أظهر عداً نحو طوائف المسيحيين الشرقيين عادل إلى حد ما عداؤه للمسلمين، وجعل غزو بلاد الصرب الأرثوذكس والبيزنطيين في القسطنطينية أركاناً أساسية في مشروعه^(٣). ولعل السبب الرئيسي في تضارب وجهة نظره مع وجهة نظر رامون بالنسبة لمدى صلاحية طريق إفريقية يعود إلى أن رامون لول كان يغلب مصلحة النصرى الإسبان، فرأى الاستفادة من الحملة المقترحة في الحصول على مكاسب كبيرة لهؤلاء، أما بروكارد فلأنه لم يكن إسبانياً فقد تحرر من تأثير هذا المصلحة على أفكاره، ولكن تعصبه الأعشى للكاتوليكية جعله يقع تحت تأثير آخر هو عداؤه للمسيحيين الشرقيين بحيث إن خطأه نتيجة لهذا العداً لم يكن يقل عن خطأ لول وعدم واقعيته.

مشروع فيليب دي ميزير (Philippe de Mezieres) :

إذا كانت أواخر القرن الثالث عشر والعقود الثلاثة أو الأربعة الأولى من القرن الرابع عشر قد تميزت بوجود العديد من دعاة الحركة الصليبية على مختلف فئاتهم وميولهم من منصرين وساسة ورجال دين وتجار وزوار للديار المقدسة قدموا للبابوات والملوك والهيئات عخطاً مختلفة من أجل تحقيق الأهداف الصليبية بحثوا فيها تجهيز الحملات والطرق

= محمد أمين : المرجع السابق ص ١٦٥ - ١٦٦، لوثرروب مفردارد : المرجع السابق ج ٣ ص ٢٢٢.

(١) انظر : A. S. Atiya : Op. Cit., p.108، د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية، ج ٢ ص ١١٩٧.

A. S. Atiya : Ibid, p.110.

(٢)

A. S. Atiya : Ibid, p.110.

(٣) د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١١٩٧،

وإمكانات النجاح، فإن النصف الثاني من القرن الرابع عشر شهد ركوداً بالنسبة لحرب الدعاية والمشاريع نظراً لأن الغرب الأوروبي بدأ فيه في استئناف توجيه حملات صليبية ضخمة ضد المسلمين^(١)، ولأن الأفكار تحولت إلى عمل بدلاً من الخوض عليه من أجل ما اعتبر واجباً مقدماً لإنقاذ إرث المسيحية^(٢)، ولكن من الخطأ الاعتقاد بأن تلك الفترة كانت خالية تماماً من الدعاة، فقد وجد عدة منهم نشطوا في الدعاية لهذه الحرب، ولكن تلك الفترة تميزت بأن حلت المراسلات الدبلوماسية والمناقشات فيها محل التقارير والبحوث والمشاريع التي كثرت في الفترة التي سبقتها^(٣). ويعتبر فيليب دي ميزير Philippe de Mezieres من أشهر الدعاة الصليبيين في الفترة المذكورة أعني في النصف الثاني من القرن الرابع عشر.

ولد فيليب دي ميزير في سنة ١٣٢٦م أو ١٣٢٧م في مقاطعة بيكاردي من عائلة نبيلة صغيرة^(٤) وتلقى علومه الابتدائية في أميان Amiens وأما حياته العملية الحافلة بالنشاط الصليبي فقد ابتدأت بالتحاقه بخدمة لوفينو فيسكونتي (Lucchino Visconti) في سنة ١٣٤٥م^(٥)، ولم يطل به المقام لدى المذكور إذ بعد فترة وجيزة انتقل إلى بلاط أندريه An-dre ملك نابولي. ولما توفي المذكور غيلة في العام التالي أي ١٣٤٦م رحل ميزير إلى قشتالة ومنها عاد إلى فرنسا حيث أقام بها فترة قصيرة رحل بعدها إلى المشرق، وقد ذكر أنه شارك

(١) من أشهر هذه الحملات : حملة جنوة على طرابلس الغرب سنة ١٣٥٥هـ / ١٣٥٤م، حملة بطرس لوزجان على الإسكندرية سنة ١٣٦٥هـ / ١٣٦٥م، حملة جنوة وحليفاتها على جزيرة جربة سنة ١٣٨٨هـ / ١٣٨٨م، حملة لويس الثاني دي بوربون على المهدية سنة ١٣٩٢هـ / ١٣٩٠م، حملة نيقوبوليس ١٣٩٨هـ / ١٣٩٦.

A. S. Atiya : Op. Cit., p.128.

(٢)

A. S. Atiya : Ibid, p.128.

(٣)

(٤) اختلف المؤرخون في أصل هذا الداعي فقال البعض عنه بأنه صقلي وبعض آخر قال إنه من البندقية ولكن الدكتور عزيز سوربال عطية أثبت أنه فرنسي اعتماداً على ما ذكره ميزير عن نفسه أثناء تأييده لصلبيه ومرشد بهير دي توماس.

(انظر : A. S. Atiya : Ibid, p.137)

(٥) هو شقيق غاليزو الأول دوق ميلان وخليفته.

(انظر :

A. S. Atiya : Ibid, p.137

في معركة ضد الأتراك وقعت في آسيا الصغرى بالقرب من أزمير في نفس ذلك العام فكفوا بلقب فارس. وبعد انتهاء تلك المعركة رحل لزيارة الديار المقدسة. وفي طريقه إلى بيت المقدس بدأت تختمر في ذهنه فكرة تأسيس منظمة جديدة من الفرسان تقوم على أساس متين وتعمل على استعادة الديار المقدسة من المسلمين، وهي المنظمة التي أسسها فيما بعد وصفاها (منظمة محبي عيسى المسيح)^(١) Nova Religio Passions Jhesu Christi ثم غادر الديار المقدسة إلى قبرص واتصل بملكها هيو الرابع لوزجنان Hugh IV de Lusignan (١٢٢٤ - ١٢٥٩م) حيث حاول عبثاً التأثير عليه لئيلي آرائه. وفي قبرص التقى ميزير بداعية صليبي آخر هو بطرس (بيير) دي توماس الذي كان له أعظم الأثر في حياته^(٢)، كما تمكن من توثيق علاقته ببطرس لوزجنان Pierre de Lusignan ملك قبرص فيما بعد، وعندما غادر الجزيرة وعاد إلى أوروبا بدأ نشاطه الدعائي في كل من فرنسا وأرغونة، ولكن شهرته لم تبرز إلا عندما استدعاه بطرس لوزجنان ملك قبرص الجديد ليصبح مستشاراً له حيث رافقه بعد ذلك في رحلته إلى أوروبا (سنة ١٢٦٣ - ١٢٦٤م) التي كان الغرض منها الحصول على عون ملوكها وأمرائها في مشاريعه الصليبية^(٣) والتي كانت حصيلتها حملته الصليبية على الإسكندرية سنة ٧٦٥هـ / ١٣٦٥م^(٤). ولم يمكث ميزير طويلاً في قبرص بعد تلك الحملة

(١) A. S. Atiya : Ibid, p.137 & 140 - 3.

حقق الدكتور عبد الحميد حمدي - المخطوط المتضمن قانون هذه المنظمة ونظامها الداخلي ونشره في مجلة كلية الآداب بجامعة الإسكندرية. انظر :

Dr. Abdel Hamid Hamdy : Philippe de Mezieres and the New Order of the Passion.

(٢) كان بطرس (بيير) دي توماس Pierre de Thomas من أشهر الدعاة الصليبيين وقد ارتبط ميزير به بعلاقة وثيقة. حيث يصعب فصل نشاط كل منهما عن الآخر في الطر منوات الأخيرة من حياة دي توماس، وكانت ميزير يعيره أباً روحياً له وكانت المراسلة بينهما متواصلة ليل نهار كما يقول ميزير. والذي فيه العلاقة التي كانت بينهما بتلك التي كانت بين الحوارين بول وبرنابا، ولكن بدون وجود الخلاف الذي كان بين هذين الحوارين، وعندما توفي دي توماس سنة ١٣٦٦م من أثر جرح أصابه في الحملة على الإسكندرية سنة ١٣٦٥م أصبح ميزير هو للنقل الأول لسياسة وأنكاره واستمر على ذلك مدة ٤٠ سنة.

(A. S. Atiya :Ibid, p.136

انظر :

(٣) انظر : A. S. Atiya :Ibid, p.138. د. سعيد عاشور : قبرص والحروب الصليبية ص ٥٦ وما بعدها.

(٤) عن هذه الحملة انظر د. سعيد عاشور : قبرص والحروب الصليبية ص ٥٨ وما بعدها.

إذ عاد إلى أوروبا يبحث عن مزيد من العون للملكة^(١)، ولكنه فوجئ باغتيال هذا الملك سنة ١٣٦٩م ورفض نبلاء الجزيرة السماح له بالعودة إليها مما اضطره للبقاء في فرنسا. وعرف له شارل الخامس ملك فرنسا مكانته فعيّنه في سنة ١٣٧٣م عضواً في المجلس الملكي ومؤيداً لابنه وولي عهده الذي اعتلى العرش في سنة ١٣٨٠م باسم شارل السادس والذي وقع تحت تأثير ميزير^(٢)، والذي وجهت في عهده إلى إفريقية حملة صليبية ضخمة هي تلك التي قادها لويس الثاني دي بوربون على المهدية سنة ٧٩٢هـ / ١٣٩٠م والذي كان هو الآخر على صلة قوية بميزير، إذ كان عضواً في منظمة (محيي عيسى المسيح) الآنف الذكر^(٣). وعند وفاة شارل الخامس في سنة ١٣٨٠م أثر ميزير اعتزال الحياة العامة واعتكف في رهبانية كليستين بباريس يكتب مذكراته ويولي مراسلاته الدبلوماسية على الرهبان^(٤)، ولم يقطع هذه العزلة إلا في سنة ١٣٩٥م حينما طلب منه شارل السادس السعي لعقد الصلح بينه وبين ريتشارد الثاني ملك إنجلترا للفرغ لمواجهة الخطر العثماني الذي بات يهدد هنغاريا وقسطنطينية. فكتب إلى ملك إنجلترا رسالة المسماة (Epistle to Richard II)، وكان أن أثمرت جهوده في ذلك بإسهام الإنجليز بنصيب كبير في حملة نيقوبوليس، كما أنه في سنة ١٣٩٧م كتب رسالة تعزية حزينة يرثي فيها الجنود والفرسان الذين سقطوا قتل في معركة نيقوبوليس ويميزي فيها دوق برغنديا في ابنه الذي قاد تلك الحملة ويحلل أسباب الهزيمة التي لحقت بالصليبيين في المعركة المذكورة، ويحث مسيحيي غرب أوروبا على الأخذ بالثأر^(٥)، وفيما عدا ذلك فقد ظل محتزلاً الحياة العامة حتى وفاته في ٢٩ مايو سنة ١٤٠٥م مخلفاً ثروة ضخمة في أدب الدعاية للحركة الصليبية.

وما يهمنا من مؤلفات ميزير في هذا المقام هو مشروعه الصليبي الذي ضمنه كتابه المسمى (Songe du vieil Pelerin) الذي ألفه سنة ١٣٨٩م حيث تناول فيه طريق

(١) لمزيد من التفصيل انظر د. سميد عاشور: قيرس والحروب الصليبية ص ٧٩.

A. S. Atiya :Op. Cit., p.143.

(٢)

A. S. Atiya :Ibid, p.143.

(٣)

A. S. Atiya :Ibid, p.153.

(٤)

A. S. Atiya :Ibid, p.153.

(٥) انظر :

إفريقية من ضمن الطرق التي يقترح على الصليبيين سلوكها للوصول إلى المشرق. وميزير في ذلك المشروع بحكم خبرته الطويلة في شؤون الشرق بالإضافة إلى المنصب الحساس الذي تبوأه لدى ملك قبرص وصلاته ببلطات ملوك وأمراء عصره كان أوسع أفقاً وأشمل نظرة من كل من هيثوم ولول وبروكارد، فهو يرى أنه ينبغي أن لا تسمير جميع القوات الصليبية في طريق واحد بالرغم من أن الدمار المقدسة هي هدف الجميع، بل على كل أمة من أمم أوروبا اختيار الطريق التي تناسبها^(١) ما دام الكل في خدمة المسيحية، وإذا حققت كل أمة المهام المتوقعة بها في زحفها إلى المشرق فإن الحملة ستحرز انتصارات عديدة وبذلك يمكنها الحصول على مكاسب كثيرة للحركة الصليبية في بلدان عديدة وفي شتى الاتجاهات، ولا يخفى أن هذا الرأي ينطوي على فكرة خطيرة هي إشعال نار الحرب الصليبية ضد المسلمين في عدة جهات في آن واحد لشغل كل بلد إسلامي بما دهمه من خطر صليبي عن الآخر لتشتت قوى المسلمين مما يسهل على الصليبيين الانتصار عليهم جميعاً. ومع أن ميزير لم يستثن بلاد المسيحيين الشرقيين من الاجتياح الصليبي لفرض الكاثوليكية عليهم، إلا أن ذلك لا يغير في الأمر شيئاً من أن المسلمين هم العدو الأول للحركة الصليبية وهم المقصودون الرئيسيون بالمشاريع والمؤامرات الصليبية. وقيل دي ميزير بتبنيه فكرة ضرب المسلمين في عدة جهات في آن واحد، أو توزيع الأدوار على القوى الصليبية كان يود إعادة العمل بالأفكار الصليبية التي شاعت في بداية دخول الحركة الصليبية في طورها السابق الذي ابتدأ في أواخر القرن الحادي عشر للميلاد حينما بدأ الهجوم الصليبي على المسلمين في الجبهات الثلاث كما سبق أن أشرنا إليه.

ومن هذا المنطلق يوزع ميزير جبهات القتال على القوى الصليبية، فيرى أن على الألمان والهنغارين السير في الطريق البري إلى القسطنطينية مباشرة لطرد الأتراك العثمانيين خارج أوروبا فضلاً عن أن الفرصة تكون متاحة لهم لفرض الكاثوليكية على الألبان والبغاريين ثم يقومون بعد ذلك باجتياح الدولة البيزنطية وإعادة تأسيس الإمبراطورية الفرنجية في القسطنطينية، ويمكن للبروسيين والتوانيين عبور روسيا والمناطق المجاورة لبلدانهم لينضموا إلى الألمان والهنغارين في

A. S. Atiya : Op. Cit., p.147.

(١) انظر :

القسطنطينية حيث يقوم الجميع بسحق الأتراك العثمانيين ثم يستأنفون سيرهم جنوباً إلى بلاد الشام. وأما جيوش أرغونة وقشتالة وبنغازة والبرتغال فيرى أن تملك طريق إفريقيا الذي هو في رأيه الطريق المثالي بالنسبة لها، وعليها في بداية زحفها اكتماح مملكة غرناطة ثم عبور مضيق جبل طارق إلى العلوة المغربية حيث تحتاج مملكتي بني مرين وبني عبد الواد في المغربين الأقصى والأوسط ثم تستأنف سيرها إلى إفريقيا فستولي عليها ومن ثم تتابع سيرها إلى مصر^(١)، وأما شارل السادس ملك فرنسا وريتشارد الثاني ملك إنجلترا الذي سيصحبه الإسكتلنديون والإرلنديون، ويرافقهما جنود هولندا وبلندا واللوين وغيرهم من محاربي بلاد ما وراء نهر الراين وشمال إيطاليا فسيسيرون بحراً إلى مصر وسوريا مباشرة لتحطيم دولة المماليك والمساعدة في الحرب التي سيخوضها الألمان ومرافقوهم في آسيا الصغرى، وبذلك يتمكن الصليبيون من استعادة الديار المقدسة من المسلمين بعد أن تكون بلادهم قد اجتاحت.

ومع أن معظم الأفكار التي أدرجها فيليب دي ميزير في مشروعه لم توضع موضع التنفيذ إلا أنه تجدر الإشارة هنا إلى أن فكرة اجتياح إفريقيا بحملة صليبية كبيرة كانت لا تزال ماثلة في أذهان القائلين على الحركة الصليبية في تلك الآونة، وتستجري محاولة تنفيذ هذه الفكرة في العام التالي على وضع هذا المشروع أي سنة ٧٩٢هـ / ١٣٩٠م بالحملة التي قام بها لويس الثاني دي بوربون على المهدية، وتزداد أهمية هذه الملاحظة بمعرفة أن فيليب دي ميزير وضع مشروعه المذكور في سنة ١٣٨٩م أي قبيل الإعداد لتلك الحملة وأن الذي قادها وأعني لويس الثاني دي بوربون كان أحد أعضاء (منظمة محبي عيسى المسيح) التي أسسها ميزير فضلاً عن صلة هذا الداعية القوية بهذا القائد ومملكته شارل السادس الذي تمت الحملة الآتفة الذكر في عهده كونه مؤدبه ومرشد، مما يحملنا على الاعتقاد بأن هذا الداعية الصليبي لم يقب عن تلك الحملة.

وإذا كانت المشاريع الصليبية التي تعرضنا لها ركزت على فكرة اجتياح إفريقيا بالقوة العسكرية، فإن هنالك بعض المشاريع الأخرى تعرضت لناحية أخرى من نواحي الصراع الإسلامي الصليبي في جبهتها هي الناحية الاقتصادية.

فكرة فرض الحصار الاقتصادي على إفريقيا :

إذا كانت دولة الممالك في مصر والشام قد خصت منذ أواخر القرن الثالث عشر بنصيب كبير من المشاريع الصليبية الرامية لفرض الحصار الاقتصادي عليها، فإن إفريقية نالت هي الأخرى نصيبها من هذه المشاريع ضمن الإطار العام لفكرة فرض الحصار الاقتصادي على كافة بلاد المسلمين، نظراً لكثافة إفريقية الهامة في الحركة التجارية في البحر الأبيض المتوسط والتي لم تكن لتخفى على الحركة الصليبية، فظهر من أصحاب المشاريع الصليبية من نادوا في مشاريعهم بتعميم الحصار الاقتصادي ليشمل إفريقية أيضاً لإضعافها كي يتسنى الاستيلاء عليها بسهولة من ناحية، ثم لإحكام طوق هذا الحصار على دولة الممالك حتى لا تصبح إفريقية ثغرة أو منفذاً لتجارة المسلمين إلى غرب أوروبا من ناحية ثانية. وكان من أوائل من فكر في ذلك شارل الثاني سليل الأسرة الأنجوية (Charles II de Anjo) ملك الصقليتين.

مشروع شارل الثاني :

في غمرة الجهود التي بذلها البابا نيولاً الرابع لإعداد حملة صليبية جديدة إثر سقوط عكا بيد المسلمين سنة ١٢٩١م، تقدم شارل الثاني إلى ذلك البابا بالمشروع الصليبي الذي عرف باسمه والذي قام على دعمتين رئيسيتين أولاهما استرجاع إمبراطورية حميه في القسطنطينية كما سبق ذكره، والثانية هي العدول عن قتال المسلمين بالسيف إلى محاربتهم اقتصادياً وتعميم هذه الحروب على كافة البلاد الإسلامية، ذلك أنه في اعتقاده إذا زحفت الجيوش الأوروبية على بلاد المسلمين تركوها تنزل في مواصلهم لتقع تحت تأثير المناخ القاسي الذي لم يتعوده الصليبيون مما يكون له أعظم الأثر في وهن عزيمتهم والذي سيؤدي بنوره إلى فشلهم، ولذلك فهو يرى أن الأجدر والأولى هو قطع الطريق على تجارة المسلمين وإعداد الأساطيل اللازمة لهذا الغرض تكون خاضعة لقيادة موحدة^(١) حتى إذا ما كسدت تجارتهم وانهاروا اقتصادياً، فسوف لن تكون لديهم القدرة على مدافعة الصليبيين عن

(١) انظر لوثرروب ستودارد : المرجع السابق ج ٣ ص ٢١٥.

بلادهم. وإذا كان شارل الثاني لم يخصص إفريقية بالذات في هذا المشروع بل هدف إلى تعميم الحصار على المسلمين، فإنه بمراجعة بسيطة لنوايا حكام الصقليتين تجاه إفريقية ومطامعهم فيها منذ عهد النورمان وحتى نهاية العصور الوسطى، يتبين أنها هي من أولى البلاد الإسلامية المعنية بهذا الحصار حتى ولو تذكر بصراحة في هذا المشروع.

مشروع مارينو سانودو :

كان مارينو سانودو (Marino Sanudo)^(١) أكثر وضوحاً من شارل الثاني في المشروع الصليبي الذي أعده في أوائل القرن الثامن الهجري (الرابع عشر للميلاد)، فكانت إفريقية من ضمن البلاد التي دعا لفرض الحصار الاقتصادي عليها في مشروعه الذي ضمنه مؤلفه المسمى «سر الصليبية المخلص» (Secreta Fidelium Crucis) الذي شرع في تأليفه في سنة ١٣٠٦ وقدمه إلى البابا كلمنت الخامس في سنة ١٣٠٩م، كما أهدى نسخة منه لشارل الرابع ملك فرنسا. كان من الطبيعي أن تستحوذ الناحية الاقتصادية على اهتمام سانودو بحكم كونه من البندقية^(٢)، فحظيت هذه الناحية بأوفر نصيب في مشروعه، فكانت آراؤه مبنية على مستوى عال من هذه الاعتبارات أماعنه على التوصل إليها ثقافته الواسعة التي يدل عليها اتقانه لليونانية واللاتينية لغتي الثقافة في أوروبا وقتئذٍ، ثم رحلاتها العديدة حيث طاف فيها بإيطاليا واليونان وأرمينيا الصغرى وبلاد الشام ومصر وأوروبا الغربية وقابل العديد من شخصيات عصره. لقد عالج سانودو في كتابه الآنف الذكر أمر تشكيل حملة صليبية ناجحة، فوضع مسألة إضعاف

(١) يعرف هذا الداعية باسم مارينو سانودو الثاني الأكبر (Marino Sanudo II Vecchio "The Elder") تميزاً له عن شخص آخر حمل نفس الاسم هو مارينو سانودو الأصغر (Marino Sanudo "The Younger") (١٤٩٦ - ١٥٣٣م) مؤلف كتاب (Diarii) في تاريخ البندقية.

(A. S. Atiya : Op. Cit., p.116.

(انظر :

(٢) ينتمي مارينو سانودو (١٢٧٠ - ١٣٤٣م) إلى أسرة نبيلة من البندقية هي أسرة تورسلو (Torsello) وكان أبوه ماركو Marco ابن عم دوج البندقية أنريكو داندولو (Dandolo) الذي كان له اليد الطولى في تحويل مسار الحملة الصليبية الرابعة عن مصر إلى الاتجاه إلى القسطنطينية. وعند سقوط دولة اللاتين في تلك المدينة قام ماركو هذا بإعداد أسطول من ثماني قطع حربية غزا به جزر بحر إيجه واحتل عدداً منها هي التي تكونت منها دوقية ناكسوس (Naxos) حيث أصبح هو دوجاً لها. وقيل إنه حينذاك تزوج من أميرة بيزنطية ولا يستبعد أن يكون ابنه مارينو ثمره هذا الزواج.

(A. S. Atiya : Ibid, p.116 - 7

(انظر :

دولة المالك اقتصادياً في المقام الأول، ويتأتى ذلك في رأيه بتواجد أسطول قوي أمام سواحلها لفرض الحصار عليها، ولتعزيز هذا الحصار يرى ضرورة تعميمه ليشمل إفريقية ومملكة غرناطة وسلطنة الأتراك العثمانيين^(١)، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية رأى أنه لسد حاجة أوروبا من السلع التي لا توجد إلا في أسواق المسلمين ينبغي اتباع سياسة إنتاج هذه السلع في بلدان البحر الأبيض المتوسط الواقعة تحت سيطرة المسيحيين، فقطن مصر مثلاً يمكن الاستغناء عنه بزرعه في قبرص ورودس ومالطة وصقلية وأرمينيا الصغرى، وقل مثل ذلك بالنسبة للسلع الأخرى التي تستورد من العالم الإسلامي، وأما ما يرد منها من الشرق فيمكن الحصول عليه بتحويل الطريق التجاري من الشرق الأقصى إلى فارس الواقعة تحت سيطرة التتار ثم إلى أرمينيا الصغرى فأوروبا الغربية، وعندما يتم ذلك والذي من شأنه أن يضعف المسلمين حتماً، يصبح الاستيلاء على بلادهم بالقوة العسكرية أمراً سهلاً^(٢).

ومع أن سانودو جعل الحصار الاقتصادي أساس مشروعه، إلا أنه لم يستثن استعمال القوة العسكرية ضد المسلمين، فكان هذا الأمر الركن الهام الثاني في ذلك المشروع، بل بالأحرى جعل الحصار الاقتصادي وسيلة لضمان نجاح القوة العسكرية في تحقيق أهدافها، ولذلك، ففيما يتعلق بإفريقية في هذه الناحية، يتفق سانودو مع رامون لول في أن قسماً من الحملة الصليبية المرتقبة يجب أن يبدأ زحفه من الأندلس براً وبحراً، وبعد اجتياح مملكة غرناطة، يعبر الصليبيون مضيق جبل طارق إلى سبتة، ومنها إلى إفريقية التي تكون قد ضعفت عن المقاومة بالحصار المفروض عليها، ومروراً بتلمسان (حاضرة بني عبد الواد)، وبعد الاستيلاء على إفريقية يتابع الصليبيون سيرهم إلى مصر التي تكون هي الأخرى محاصرة من قبل جانب من الأسطول الصليبي، يتم ذلك في نفس الوقت الذي يكون فيه قسم آخر من القوات قد زحف عبر أوروبا الشرقية إلى القسطنطينية واستولى عليها وتقدم جنوباً إلى أرمينيا الصغرى فبلاد الشام^(٣) حيث تلتقي كافة هذه القوات في الديار المقدسة بعد أن يكون كل فريق منها قد أنجز المهمة الموكلة إليه بنجاح.

A. S. Atiya : Op. Cit., p. 123.

(١)

A. S. Atiya : Ibid, p. 123 - 4.

(٢)

(٣) لوثرروب متودارد : المرجع السابق ج ٣ ص ٢٢٢.

لم يعتمد سانودو إلى الخلود للدعة بعد إصدار مشروعه، بل نشط كثيره من كبار دعاة الحركة الصليبية في الحث على تبني ذلك المشروع، فعندما لمس أن البابا كلمنت الخامس لم يعره الاهتمام الذي كان ينشده اغتتم فرصة وجوده في فرنسا في إحدى جولاته، وسافر إلى أفينيون (Avignon) حيث قابل البابا يوحنا الثاني والعشرين في ٢٤ سبتمبر سنة ١٣٢١ وقدم له نسختين من هذا المشروع، ولما كان سانودو لا يثق كثيراً في اللجان التي كانت تشكل لدراسة مثل هذه المشاريع، فقد طلب من البابا إحاطته إلى لجنة مختصة مخلصه ونزيهة يوثق بها فأكد له البابا ذلك، وحيث إنه لم يكن من ذلك النوع من المفكرين الذي يترك مصير آرائه تحت رحمة اللجان، فقد كتب في ديسمبر ١٣٢٣ رسالة إلى البابا مذكراً إياه بمشروعه، وعندما لم يجد منه التجاوب المطلوب كتب في سنة ١٣٢٥ رسالة أخرى وجهها إلى عدد من الكرادلة حول هذا الموضوع. وفي العام التالي سنة ١٣٢٦ كتب رسالة أخرى عممها على عدد من الشخصيات في أوروبا يذكر فيها الإهمال الذي لحق بمشروعه^(١) ويستحثهم على بذل جهودهم لتنفيذه، كما كتب إلى الإمبراطور البيزنطي أندرونيق الثاني باليولوج Andronikos II Palaeologos في سنة ١٣٢٤م وسنة ١٣٢٦م محاولاً جذب لوجه نظره بالنسبة لشن الحرب الصليبية ضد العثمانيين ويطلب منه العمل على توحيد الكنيستين الشرقية والغربية لأن في ذلك الوسيلة الأجدى لتوجيه كافة الجهود المسيحية ضد المسلمين. وبين سنتي ١٣٢٨م و ١٣٣٠م كتب إلى أسقف كابوا Archbishop of Capua و بطرس دي لافيا Pietro de Lavia ابن أخ البابا وإلى عدة كرادلة يطلب دعمهم لمشروعه، وفي سنة ١٣٣٠ اتصل بروبرت الثاني ملك صقلية ثم في سنة ١٣٣٢م قدم نسخة من مشروعه إلى فيليب السادس دي فالوا ملك فرنسا، وهناك دلائل تشير إلى أنه قدم نسخاً مماثلة إلى إدوارد الثاني ملك إنجلترا وإلى عدد من أمراء ونبلاء فرنسا^(٢) وإلى فيري الرابع (Ferry IV) دوق اللورين، وإلى ملك أرمينيا الصغرى^(٣)، كل ذلك من أجل

A. S. Atiya : Ibid, p.125.

(١)

(٢) كان من بين النبلاء الفرنسيين الذين قدم سانودو مشروعه لهم، لويس الأول دوق بوربون، جد لويس الثاني دي بوربون الملقب بالطيب (Le bon Duc Louis II Bourbonne) الذي قاد الحملة الصليبية على المهدي سنة ٧٩٢هـ / ١٣٩٠م.

(A. S. Atiya : Ibid, p.126.

(انظر :

(٣)

كسب تأييدهم لآرائه والعمل على تبنيها. وظل يعمل بهمة ونشاط في سبيل ذلك حتى وفاته سنة ١٣٤٣م، ولكن دون أن يتحقق له ما صبا إليه من أهداف. وعلى كل حال، فإذا كان مشروعه لم يلق الاستجابة المطلوبة من ذوي النفوذ في أوروبا فإنه كان حجر الزاوية بالنسبة لمشاريع صليبية عديدة تلتها كانت كلها قد بنيت على فكرة فرض الحصار الاقتصادي على بلاد المسلمين.

وإذا كانت هذه المشاريع هي تعبير واضح عن حضور إفريقية القوي في وجدان الحركة الصليبية فإنها بالإضافة إلى ذلك تعرضت لنوع آخر من التآمر لا يقل خطورة عن النوع الأول إن لم يفقه في الأهمية الأمر الذي يؤكد حقيقة هذا الحضور.

الحرس السلطاني مشروع صليبي :

تبدو للباحث في تاريخ دول المغرب العربي في العصور الوسطى ظاهرة هامة هي وجود فئة من الجند النصارى المرتقة في بلاطات حكام تلك الدول كانوا يؤلفون الحرس الشخصي لهؤلاء الحكام. ويعود تاريخ تواجدهم هذه الفئة في تلك البلاطات إلى النصف الأول من القرن السادس الهجري (الثاني عشر للميلاد) وإلى أيام السلطان المرابطي علي بن يوسف بن تاشفين بالذات الذي كان أول من استخدم حرساً من الجند النصارى^(١) اختارهم من بين أسرى الحروب، وسار خلفاؤه من حكام المرابطين على نفس هذه السياسة حتى انقضاء عهد دولتهم وقيام الدولة الموحدية، ولم يجد الخلفاء الموحدون برغم شدة ترمتهم حرجاً في السير على هذا النهج حتى آذنت شمس دولتهم بمغيب فورث عنهم حكام دول المغرب العربي الثلاث التي قامت على أنقاض الدولة الموحدية هذا التقليد، فكان لدى كل منهم فرقة من هؤلاء الجند يقل عددها أو يكثر حسب الظروف تكون مهمتها الرئيسية حماية شخصه وإلى جانب ذلك تقوم ببعض المهام الخاصة التي يكلفها بها.

إن الظروف التي ظهر فيها هؤلاء الجند في البلاط الحفصي وتاريخ ظهورهم يكتنفهما

R. Brunschvig : Op. Cit., Tom1, p.440.

(١)

Eugene Tisserant & Gasen Wiet : Une lettre de l' Almohade Murtada au Pape Innocent IV p.48

الغموض، ومع أننا لا نستبعد تواجد عدد منهم لدى الأمير أبي زكريا الأول مؤسس تلك الدولة، إلا أنه من الثابت أنهم لم يكونوا يتمتعون بتلك المكانة الخاصة التي تمتع بها نظراؤهم فيما بعد، ذلك لأن أبا زكريا اعتمد في شؤونه على فئة أخرى من النصارى تختلف عن هذه الفئة، هي فئة العلوج الذين كانوا يختارون من الأسرى ويصبحون من ممالك السلطان، والذين تبوأ البعض منهم مناصب هامة في الدولة الحفصية^(١) وبصفة خاصة من كان منهم يعتنق الإسلام. أما فئة الجند المكونة من جند نصارى أحرار ظلوا محافظين على أسلوب حياتهم وديانتهم وارتباطهم بمواطنهم ويشكلون الحرس السلطاني فهم يختلفون عن العلوج. وترجع أقدم إشارة لوجود هذه الفئة في البلاط الحفصي إلى أوائل عهد المستنصر ثاني حكام الدولة الحفصية، إذ ورد في وثيقة مع أنها مؤرخة في يناير سنة ١٢٥٨م / ٦٥٦هـ، إلا أنها تشير إلى حوادث قبل سنة ١٢٥٤م / ٦٥٢هـ بقليل، ومضمونها أن القائد (بو عبدل) - لعله أبا عبد الله - طلب عدداً من هؤلاء الجند النصارى للقدوم إلى تونس ثم استبدل هذا القائد المسلم والذي قد يكون نصرانياً اعتنق الإسلام (أي علجاً) بقائد نصراني هو Guillaume de Mancada الذي كان قد قدم من أرغونة وبصحبه (٧٠) فارساً، ومنذ هذا التاريخ لم تشر المصادر التاريخية إلا إلى نصارى كفواد لهذه الفئة من الجند^(٢) حيث أصبح هؤلاء الجند منذ ذلك الوقت يبرزون كقوة متميزة تتمتع بمكانة ممتازة وامتيازات خاصة، وكما اختلفت هذه الفئة عن العلوج، اختلفت أيضاً عن فئة أخرى من الفرسان النصارى الذين كانوا يتواجدون في البلاط الحفصي هي المكونة من اللاجين السياسين الذين كانوا يلجؤون إلى الدولة الحفصية، ذلك أنه نظراً للمكانة الرفيعة التي تبوأها تلك الدولة في عهد المستنصر كما سبق أن ذكرنا، وإلى ما اشتهر به عاهلها من التسامح تجاه النصارى، كانت الملاذ والمأوى للعديد من نبلاء وفرسان النصارى الذين كانوا ينادرون بلادهم لأسباب مختلفة، وقد برزت أسماء عدة مشاهير من هؤلاء النصارى الذين كانوا في بلاط سلاطين بني حفص في النصف الثاني من القرن السابع الهجري (الثالث عشر للميلاد) مثل الأمير هنري (Don Henri) ابن فردناند الملقب بالقدس (Saint Ferdinand) ملك

R. Brunschvig : Op. Cit., Tom1, p.440.

(١)

R. Brunschvig : Ibid, Tom1, p.440 - 1.

(٢)

قشتالة الذي غادر بلاده مغاضباً لأخيه ألفونسو العاشر وأقام في تونس مدة طويلة ولم يعد إلى بلاده إلا في شهر يوليو سنة ١٢٩٤م / ٦٩٣هـ محملاً بهدايا السلطان كما حمل أيضاً مشروع سلام ومودة بين السلطان الحفصي وجاقمة (نخامي) الثاني ملك أرغونة^(١)، ثم كونراد (Conrad Capece) الذي كان كثير التردد على تونس والذي رأيناه في خضم الصراع الذي احتدم بين كونرادين وريث الهوهنشتاوفن والملك شارل بشكل فرقة من الجند النصارى في تونس ويعبر بهم البحر إلى صقلية لمساعدة كونرادين كما سبق ذكره، وفردريك القشتالي (Frederic de Castella) وفردريك لانسيا (Ferdeic lancia) اللذين سبق أن تعرضنا لذكرهما.

ومع أن معاهدة الصلح التي عقدت بين الصليبيين والمستنصر قد شرطت على كل من الطرفين المتعاقدين عدم إيواء أعداء للطرف الآخر، إلا أن ذلك لم يمنع أن يبقى البلاط الحفصي ملاذاً لبعض الشخصيات المسيحية في حالات الضيق والاضطراب في السنين التالية على ذلك الصلح، مثل (Guillaume Marchio) و (de Varazza) وقد حارب الثاني إلى جانب السلطان الحفصي في عدة مواقع كما يتضح من وثيقة ترجع إلى سنة ١٢٨٠م / ٦٧٩هـ، ثم نبيل من البندقية ينتمي إلى عائلة (Giuliani) الذي خدم السلطان الحفصي هو وفرسانه مدة (٤٠) شهراً في أواخر القرن السابع الهجري (الثالث عشر للميلاد)^(٢)، كما كان هنالك في مطلع القرن الثامن الهجري (الرابع عشر للميلاد) شخصيتان هامتان من أرغونة تعيشان منفيتين في إفريقية وتخدمان هما وأبائهما السلطان الحفصي وهما Guillaume Raymond من أسرة (Moncada) الشهيرة الذي هرب إلى إفريقية فراراً من نقمة ملك أرغونة لأنه حمل ضده السلاح في معركة (Cap d' Orlando) البحرية، وأرسل في سنة ١٣٠١م رسالة من تونس إلى ملكه يعذّر إليه ويردّ تصرفه، إلا أنه لم يتل العفو إلا بعد ثمانية عشر سنة من ذلك التاريخ عاشها في إفريقية^(٣)، والثاني هو نابليون الأرغوني (Napoleon de Aragon) ابن الملك نخامي (جاقمة) الثاني الذي طرده

R. Brunschvig : Op. Cit., Tom, 1, p.441.

(١)

R. Brunschvig : Ibid, Tom, 1, p.443.

(٢)

R. Brunschvig : Ibid, Tom, 1, p.443.

(٣)

أبوه فذهب إلى إفريقية وخدم سلاطينها وبقي فيها حتى سنة ١٣٢٢م حيث غادرها إلى فاس والتحق بخدمة السلطان المريني أبي سعيد^(١). يضاف إلى هؤلاء فارس آخر يدعى فردريك مانفرد (Frederic Monfred) الذي كان في تلك الآونة في خدمة السلطان الحفصي وعندما طُلب بإثبات نسبه كتب من تونس في سنة ١٣٠٧ - ١٣٠٨م إلى خايمي الثاني ملك أرغونة يطلب منه تعريف السلطان بنسبه^(٢).

إن وجود هذه الشخصيات في البلاط الحفصي هو أمر غير ذي بال لأنهم كانوا في الغالب يعيشون كلاجئين سياسيين، وهو أمر كان شائعاً في تلك الآونة بين المسلمين والنصارى، فقد لجأ في المقابل عدد من أمراء إفريقية في عهود مختلفة إلى بلاطات حكام نصارى مثل الأمير عبد العزيز ابن شقيق الأمير أبي زكريا الأول الحفصي الذي لجأ إلى الإمبراطور فردريك الثاني، وهؤلاء لم يكونوا يشكلون خطورة على إفريقية وكانوا في الغالب خارج نطاق المؤتمرات الصليبية التي كانت تدبر لها. وأما الذين كانوا يشكلون خطراً عليها فهم تلك الفئة من الجند النصارى التي تألف منها الحرس السلطاني في البلاط الحفصي. لقد كانت هذه الفئة في بداية عهدها خليطاً من الفرسان النصارى ينتمون إلى دول مختلفة، ثم أخذ العنصر الأرغوني يتغلب فيها على غيره تدريجياً حتى إذا ما كانت بداية الربع الأخير من القرن السابع الهجري (الثالث عشر للميلاد) فإذا بهذا العنصر يشكل الغالبية العظمى من هذه الفئة، وهنا بدأت خطورتها تبرز بشكل واضح مما يجعلنا نعتقد بأن إلحاقهم بالبلاط الحفصي كان مشروعاً صليبياً يستهدف سلامة إفريقية وبسط السيطرة المسيحية عليها، ويجدر بنا قبل التعرض إلى نشاط هذه الفئة أن نشير بإيجاز إلى سياسة أرغونة - التي تنتمي غالبية هذه الفئة إليها - تجاه إفريقية وتحتل والتي تدل دلالة قاطعة على مطامعها فيها.

كانت معاهدة الميثرا (Almizra) التي عقدت بين ملكي قشتالة وأرغونة فيرناندو الثالث الملقب بالقدس وخايمي الأول الملقب بالفاتح في سنة ١٢٣٠م عند تكالب النصارى الإسبان على مسلمي الأندلس نظراً لما أحرزته دولة الموحدين من ضعف آنذاك، والتي اتفق

R. Brunschwig : Ibid, Tom, 1, p.443.

(١)

R. Brunschwig : Ibid, Tom, 1, p.443.

(٢) انظر :

فيها هذان الملكان على أن تكون الأندلس طعمة للمملكة قشتالة وهي التي تتولى مهمة حرب المسلمين في البر، بينما أطلقت يد أرغونة في البحر، نقول كانت نقطة تحول في سياسة أرغونة، إذ بدأت تمد بصرها إلى الشرق وأخذت تدعم قوتها البحرية لتعينها على تحقيق مشاريعها، وانطلاقاً من هذه السياسة وثب خايمي الأول ملك أرغونة الملقب بالفاتح على الجزائر الشرقية (جزر البليار) بأسطوله مستغلاً ضعف الموحدين حيث استولى على مبرقة سنة ٦١٧هـ / ١٢٣٠م ثم على بابسة سنة ٦٣١هـ / ١٢٣٥م، وأما الجزيرة الوسطى منورقة فقد ظلت تقاوم حتى سنة ٦٨٦هـ / ١٢٨٧م، كذلك دخل ملوك أرغونة طرفاً في النزاع على عرش مملكة الصقليتين، ومع أن شارل كونت أنجو المدعوم من البابوية استطاع أن ينهي هذا النزاع لصالحه ويتوج نفسه ملكاً على تلك المملكة كما سبق ذكره، إلا أن ذلك لم يسقط مطالب أرغونة فيها، وتجدد هذا النزاع بعد وفاة الملك شارل وظلت أرغونة مصرة على مطالبها حتى تمكنت أخيراً من الفوز بجزيرة صقلية حيث تم تتويج فردريك الثاني شقيق ملك أرغونة ملكاً عليها، وكانت خلال فترة هذا النزاع تضع الخطط للوثوب إلى سواحل المغرب العربي وإلى إفريقية بالذات، وحتى لا تتضارب سياستها مع مصالح مملكة قشتالة، عقدت في أواخر القرن الثالث عشر معاهدة بين الطرفين تقاسما فيها مناطق النفوذ في المغرب العربي، فاختصت قشتالة بالمغرب الأقصى، وهو أمر طبيعي لأن المغرب الأقصى هو الردء الطبيعي لمسلمي الأندلس الذين تعمل تلك المملكة على احتلال بلادهم، في حين كان نصيب أرغونة المغرب الأوسط وإفريقية^(١)، حدث ذلك في فترة بلغ فيها نشاط أرغونة ذروته في سبيل الاستيلاء على إفريقية وهي فترة نصف القرن الممتد من بداية الربع الأخير من القرن الثالث عشر وحتى نهاية الربع الأول من القرن الرابع عشر، وكانت قد أخذت منذ بداية تلك الفترة تتدخل بالفعل في شؤون إفريقية تتدخل مباشرة وتحاول فرض مطالبها مستغلة في ذلك الضعف الذي أخذ يسري وتقلّ في جسد الدولة الحفصية نتيجة للفوضى السياسية التي أعقبت وفاة المستنصر في سنة ٦٧٥هـ / ١٢٧٦م، وكان الحرس السلطاني المذكور ركيزة هامة من ركائز سياسة أرغونة في هذا التدخل.

R. Brunschvig : Ibid, Tom, 1, p.432 - 3.

(١) انظر عن هذه المعاهدة

ومما يدل على ذلك، هو عناية ملوك أرغونة الكبيرة بهذه الفئة وشدة اهتمامهم بالقيام بأنفسهم بتعيين قوادها، ولم يكونوا يكتفون بأن يكون هؤلاء القادة المعيّنين من قبلهم قادة للجنود من رعاياهم في تلك الفترة أي الأرغونيين والقطلان فحسب، وإنما كانوا يقرضون على السلطان الحفصي أن تكون سلطة أولئك القادة شاملة لجميع الجند النصارى من الجنسيات الأخرى أيضاً إن وجدوا، ويظهر هذا الأمر بجلاء في المعاهدة المعقودة بين بيدرو (بطره) الثالث والسلطان عمر الحفصي في يونيو سنة ١٢٨٥م / ٦٨٣هـ^(١)، ولم يتخل خليفته ألفونسو الثالث عن هذا المبدأ ويظهر ذلك بوضوح في المعاهدة المعقودة بينه وبين الأمير عبد الواحد بن الوائلي المطالب بالعرش الحفصي والمؤرخة ١٨ جمادى الآخرة سنة ٦٨٦هـ / ٢٩ يوليو سنة ١٢٨٧م إذ ورد في شرط من شروطها العديدة والتي كان جلها في صالح ملك أرغونة وتنضج بالإلصاح عن مطامعه^(٢) ما يلي : (وكذلك نودع لكم ونريد أن جميع النصارى فرسان كانوا أو أمشقطيرين أو غيرهم من أي موضع أو مملكة كانوا إما أن يكونوا من حكمكم إن عن راتب يرسم سلاح يكونوا في أرضنا يكونوا تحت طاعة وحكم قائدكم الذي يكون عنكم وبأمركم في تونس)^(٣)، وليس ذلك فقط وإنما

R. Brunschvig : Op. Cit., Tom, 1, p.443.

(١) انظر عن هذه المعاهدة

(٢) مما جاء في هذه المعاهدة من الشروط :

١ - تعهد ألفونسو بمساعدة هذا الأمير ضد المسلمين فقط (ونودع لكم أن نكون لكم حسن عون وتنصروكم - نصبركم - بجميع مقدرتنا عناد وضر لجميع المسلمين الذين يكون بينكم وبينهم نفاق وعناد).

٢ - تعهد عبد الواحد بحماية جميع رعايا ألفونسو الذين يكونون في مملكته جنوداً أو تجاراً أو رهباناً ومنصرين ونصرتهم (نصبر رجالكم ونحفظهم ونزاعهم من كل قهر طول ما يكونوا في مملكتنا).

٣ - تعهد عبد الواحد أن يدفع لألفونسو طوال مدة المعاهدة التي هي مدة حياة الاثنين (طول ما نعيش نحن الزوج) مبلغاً سنوياً قدره (٣ / ٣٣٣٣٣) دينار ولاخيه ملك صقلية (١٦٠٠) دينار وهذا يكرس موضوع الأمانة لصقلية.

٤ - الحرية الدينية للنصارى مكفولة في عبادتهم وعاداتهم في أعيادهم ويبيع لهم شراء الخمر وشربه.

٥ - التزام عبد الواحد بمساعدة ألفونسو في حروبه دون تحديد وفي أي وقت يطلب منه ألفونسو ذلك. (انظر نص المعاهدة في Maximiliano. A. Alaracon : Los documentos Arabes Diplomaticos del Archivo de la Corona de Aragon, p.394 - 6.)

(٣) Maximiliano A. Alarcon : Los Documentos Arabes Diplomaticos del Archivo de La Corona de Aragon, p.396.

يتسلمون روايتهم من ذلك القائد، كما (وأن جميع النصارى يتخاصموا تحت حكم المذكور قائدكم وحاكمه وقاضيه خصام مال كانوا أو خصام دية بواجب الشرع في هاؤلائك الأسماء، بأمر... ونوعد لكم أن طول ما يكون قائدكم في أرضنا ليس يكون عندنا ولا يحبس قائد آخر)^(١)، وبذلك أعطت هذه المعاهدة ذلك القائد الذي سيعينه ملك أرغونة لهذا المنصب في حالة نجاح الأمير عبد الواحد في الوصول إلى العرش امتيازات عديدة هامة فضلاً عما تقدم، منها تعيين وإقالة الضباط لهذه الفئة حسب ما يراه ودون الرجوع إلى السلطان، ثم حق طرد قناصل الدول الأوروبية من إفريقية، والسلطة المطلقة على جميع النصارى المقيمين فيها من جند ومواعم، أي أن يكون هذا القائد شبه دولة داخل الدولة الحفصية، وإذا كانت هذه المعاهدة لم تنفذ لفشل عبد الواحد في حركته، فإن موقف ملوك أرغونة من المطالب الواردة في هذه الشروط ظل على حاله، فبعد ثلاث سنوات من تاريخ هذه المعاهدة قام سفير من أرغونة بمناقشة هذه المسائل ذاتها مع السلطان الحفصى، كما أن خايمي الثاني كرر إصراره عليها وألح على تحقيقها في سنة ٦٩٤هـ / ١٢٩٤م وسنة ٧١٣هـ / ١٣١٣م^(٢). إنه من غير المعروف فيما إذا كانت هذه المطالب قد تحققت بكاملها، وعلى أية حال تجدر الإشارة إلى ملاحظتين هامتين أولاهما أنه خلال الفترة الممتدة بين سنتي ١٢٥٠م و ١٣٢٥م قد تم تعيين كثير من القادة النصارى لهذه الفئة كانوا كلهم من القطلان عين ملك أرغونة اثنين منهم بنفسه، وكان ذلك في سنة ١٢٧٢م وسنة ١٢٩٩م وهما (Guillaume Galcerau) و (Berenger de Cardolla)، وتأتيهما أن راية هذه الفئة كانت هي الراية التي فرضها ملك أرغونة^(٣) ولهذه الظاهرة مغزاها الكبير بلا شك، مما يحملنا على الاعتقاد بأن يرغيفيك لم يتجاوز الحقيقة كثيراً حينما قال إن هؤلاء الجند الذين وضعهم سلاطين بني حفص في خلمتهم كانوا قسماً من جيش أرغونة^(٤).

ولم يقتصر اهتمام ملوك أرغونة على شخص قائد أولئك الجند ومسؤولياته ومهام عمله، وإنما

Maximiliano A. Alaracon : Op. Cit., p.396.

(١)

R. Brunschvig : Op. Cit., Tom.1, p.445 - 6.

(٢) انظر عن ذلك :

R. Brunschvig : Ibid, Tom, 1, p.445.

(٣)

R. Brunschvig : Ibid, Tom, 1, p.433.

(٤)

تعداه إلى روايتهم أيضاً، فوثائقهم ومراسلاتهم مع سلاطين بني حفص تشهد على مدى عنايتهم بالمحافظة على نسبة هذه الرواتب والجرافات الأخرى منذ تعيين (Guillaume de Moncada) في أواسط القرن السابع الهجري (الثالث عشر للميلاد)، وتلقي معاهدة سنة ٦٨٦هـ / ١٢٨٧م بين ألفونسو الثالث والأمير عبد الواحد الأتفة الذكر الضوء على هذا الموضوع إذ كان راتب الفارس (٣) دناتير فضية يومياً، والأشقوطير وهو مساعد الفارس دينارياً فضة يومياً، غذا الخيول ودواب الحمل والخيام وغيرها، وأما القائد فراتيه مائة دينار فضة يومياً، وكان الملك أرغونة نسبة ثابتة من هذه الرواتب^(١)، وقد بقيت هذه الرواتب ثابتة تقريباً طوال المدة من ١٢٥٤م إلى ١٣١٣م أو حتى ربما إلى ما بعد ذلك التاريخ^(٢)، وأما عدد هؤلاء الجند فهو غير معروف على وجه التحديد، وإذا كان برغيفيك يستبعد ما ذكره مؤرخ قطلاني بأن عددهم وصل إلى ألفين، ويرى أنهم كانوا بضع مئات فقط^(٣)، فإن الأمر في رأينا ليس كذلك، ففي اعتقادنا أن عددهم كان يتغير حسب الظروف فقد يكونون أحياناً بضع مئات كما ذهب إليه برغيفيك ويزداد عددهم أحياناً إلى أكثر من ذلك بكثير.

وأما بالنسبة للمكانة الرفيعة التي تبوأها هؤلاء في الدولة الحفصية، فإن المصادر التاريخية الإسلامية لا تمدنا بكثير من المعلومات لا عنهم ولا عن مكائتهم، وكل ما ورد فيها كان عبارة عن إشارات عابرة فقط مثل ما يتعلق بتسليحهم وفنونهم العسكرية وتصديهم للثائر ابن أبي عمارة المعروف بالدعي في سنة ٦٨٢هـ / ١٢٨٣م واشتراكهم في مطاردة الأمير أبي فارس سنة ٧٣١هـ / ١٣٢٩م الذي كان ثائراً على أخيه السلطان أبي بكر، واشتراكهم في الحملة الفاشلة التي أرسلت لاسترجاع جزيرة جربة سنة ٧٠٦هـ / ١٣٠٦م التي كانت محتلة من قبل أرغونة وتمحكمها أمرة (De Lauria) باسم ملك أرغونة^(٤)، ومع ذلك، فإنه يفهم من تلك الإشارات ومما جاء في المصادر التاريخية المسيحية

Maximiliano A. Alarcon : Op. Cit., p.396.

(١) انظر :

R. Brunschvig : Op. Cit., Tom, 1, p.445 - 6.

(٢) لمزيد من التفصيل عن ذلك انظر :

R. Brunschvig : Ibid, Tom, 1, p.446.

(٣)

R. Brunschvig : Ibid, Tom, 1, p.446.

(٤)

يقدم برغيفيك ذلك كدليل على أن أولئك الجند كانوا يكلفون بمحاربة النصارى أحياناً لحساب السلطان الحفصي محاولاً بذلك تفنيد رأي ابن خلدون الذي يقول بأنهم لم يكونوا يشتركون في الحرب ضد النصارى، وفي رأينا أن الصواب هو ما رآه ابن خلدون، ذلك أن تلك المرة كانت هي-

أن سلاطين بني حفص أحاطوا هؤلاء الجند بالرعاية الثامة ومنحروهم امتيازات كثيرة، فقد خصصوا لسكانهم حياً مستقلاً في تونس العاصمة عرف بحي النصارى نسبة لهم، وتمتعوا بحريتهم الدينية إلى أبعد الحدود حيث كانوا يمارسون طقوسهم وشعائهم علناً، كما كانوا يديرون شؤونهم بأنفسهم ولا يخضعون إلا لتعليمات قائدهم وأحكامه، ولهم كتابهم الخاص من بني جنسهم^(١) فضلاً عن تمتعهم بثقة السلاطين، ونظراً لهذه الثقة أصبح قادتهم يشاركون في المفاوضات التي كانت تجري بين الدولة الحفصية والدول المسيحية، يدل على ذلك ذكر أسماء بعضهم كمترجمين أو كشهود في العديد من المعاهدات التي كانت تعقد بين الدولة الحفصية وتلك الدول علاوة على بعض المراسلات بين الطرفين، ومن ذلك مثلاً ما جاء في رسالة السلطان محمد الثاني الحفصي إلى خاتمي الثاني ملك أرغونة المؤرخة ١٤ شعبان سنة ٧٠٨هـ / ٢٧ يناير سنة ١٣٠٩م إذ يقول : (... فقد الصلح على صقلية لمدة عشرة أعوام وحضر لهذا العقد من المسلمين والنصارى من عرفت أعيانهم وثبت فيه أسماؤهم)^(٢)، وما جاء في المعاهدة المعقودة بين السلطان إبراهيم بن أبي يحيى أبي بكر على يد وزيره ابن تفرجين وابنبر بن الفونس (بيدرو الرابع) ملك أرغونة المؤرخة ٢٥ صفر ٧٦١هـ / ١٥ يناير سنة ١٣٦٠م إذ ورد فيها : (وحضر... ومن الفرسان فراندو بريس ووقفوا على الكتاب الواصل به النصراني فرنسيس مكوسطة الرسول المذكور من قبل مرسله الملك الأجل الأكبر أنبير المذكور وقرأوه وأمعنوا النظر فيه فذكروا كلهم أنه مقتضى للتفويض التام للرسول فرنسيس مكوسطة المذكور يعقد به الصلح عن مرسله الملك الأجل الخطير أنبير المذكور وأنه يقتضي التفويض التام عنه في ذلك كله وحضر لعقد هذا الصلح... وفراندو بريس المذكور...)^(٣)، فهذا القائد اشترك في تدقيق كتاب اعتماد سفير

= الوحيدة فيما نعلم التي اشتركوا فيها في حرب ضد النصارى ولاستبعد أن يكون اشتركهم هنا هو أحد الأسباب الرئيسية في فشلها فضلاً عن أن تلك الحملة لم تنسم بالجدية وإنما كانت تورية عن هدف ابن اللحياني قائلها كما سيأتي ذكره الأمر الذي لم يكن يخفى عليهم، إذ لا يمثل أن يخلصوا في حرب ضد ملكهم.

R. Brunschvig : Op. Cit., Tom, 1, p.448.

(١)

Maximiliano A. Alarcon : Op. Cit., p.272.

(٢) انظر :

Maximiliano A. Alarcon : Ibid, p.314.

(٣) انظر :

ملك أرغونة المتفوض لعقد المعاهدة مع السلطان ثم حضر عقد المعاهدة وشهد عليها.

وبالإضافة إلى ذلك، كان سلاطين بني حفص يرسلون بعضهم سفراء عنهم إلى ملوك النصارى إما للتفاوض في عقد المعاهدات ومثال ذلك ما جاء في رسالة أبي زكريا بن اللحجاني إلى خايمي الثاني ملك أرغونة المؤرخة ١٨ جمادى الآخرة سنة ٧١٤هـ / ٢٩ سبتمبر ١٣١٤م (وقد عينا خدينا الفارس الأثير الأكرم فراندو جوفن للمسير إليكم والحدث معكم وتكميل هذا الصلح وتتميمه على نحو ما وقع ابتداءه...) ^(١)، أو لبحث بعض الأمور الهامة التي تنسم بالسرية كما فعل ابن اللحجاني الأنف الذكر أيضاً حينما أرسل كاتب الجند النصارى رسولاً من قبله إلى خايمي الثاني للبحث معه فيما وصف بموضوع تنصره، إذ جاء في رسالته التي حملها ذلك الرسول والمؤرخة ٢٩ رمضان سنة ٧١٢هـ / ٢٨ يناير سنة ١٣١٣م ما يلي : (وقد أمرنا عبدنا وقائدنا برناط دفن أن يشرح لكم ما لم نشرحه في كتابنا هذا فصدقوه بحول الله فيما يكتبه، واسمعوا منه ما يقوله. والواصل إليكم بكتابنا هذا د. رنس د. بركة كاتب النصارى لدينا، توجه ليصل بجوابكم ويعود إلينا بكتابكم بما تعتقدونه فيكم) ^(٢)، وما يفهم من هذا النص علاوة على ما تقدم من كون كاتب هؤلاء الجند هو السفير، تلك الثقة المطلقة التي وضعها السلطان في برناط د. فنس مساعد قائد حرسه لينوب عنه في شرح وجهة نظره في موضوع خطير كهذا.

لكل ذلك تمكنت هذه الفئة في فترة وجيزة نظراً لتماماتها وترابطها الوثيق كونهما يجمع بين أفرادها وحدة الجنس والهدف، وجودة تسليحها وارتباطها بقوة خارجية طامعة، والوضع السياسي المضطرب الذي عانت منه الدولة الحفصية بعد وفاة المستنصر سنة ٦٧٥هـ / ١٢٧٦م ، تمكنت من أن تصبح قوة يحسب حسابها، وأصبحت أداة ضغط في يد ملوك

(١) انظر : Maximiliano A. Alarcon : Op. Cit., p.288.

(٢) انظر : Maximiliano A. Alarcon : Ibid, p.282.

برناط د. فنس الذي ورد ذكره في هذا النص هو (Bernat de Fons) مساعد قائد الحرس السلطاني، ودرس د. بركة فهو (Lorenze de Berge) كاتب هذا الحرس.

(انظر : C. E. Dufourcq : L' Espagne Catalane et le Maghrib aux XII et XIV siecles, p.489)
كذلك د. محمد الطالبي : المرجع السابق ص ٩٠ حاشية ٤ و ٥.

أرغونة على سلاطين بني حفص، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل تعداه إلى أن أصبح قائدها يتدخل في شؤون الحكم وتولية بعض السلاطين وخلع بعض آخر وحتى التآمر على بعض ثالث بحسب ما تقتضيه مصلحة أرغونة، ففي سنة ٦٧٩هـ / ١٢٨٠م مثلاً اشترك قائدهم في مؤامرة ضد السلطان أبي إسحق إبراهيم استهدفت التخلص منه وإعادة السلطان المخلوع الواصل إلى العرش، وفي سنة ٧٤٧هـ / ١٣٤٦ - ١٣٤٧م وعقب وفاة السلطان أبي يحيى أبي بكر الثاني ناصرُوا الأمير أبا حفص عمر الثاني ضد منافسيه للوصول إلى العرش، ليس لما بذله لهم من مال فقط كما يقول برنجفك^(١) وإنما لأن من مصلحة أرغونة أيضاً أن يتولى العرش الحفصي سلطان ضعيف يصبح العوبة في يد ملوكها ويخضع لإرادتهم.

ونظراً لذلك كانوا اعتماداً على هذه المكانة والامتيازات الممنوحة لهم لا يتورعون عن إلحاق الأذى بالمسلمين لأنهم كانوا في مأمن من أن ينالهم العقاب، وبلغت بهم الغطرسة حداً جعل البعض منهم لا يكثر بمشاعر المسلمين الدينية حتى إن أحدهم تجرأ ذات مرة وشتم مؤذن المسجد القريب من حبيهم^(٢) بكلمات نابية وعلى مسمع من بعض المسلمين حين رفعه الأذان^(٣)، دون أن يتعرض لأدنى عقوبة أو لوم تكون رادعاً له ولسواه عن مثل هذا العمل الاستفزازي. لذلك، فقد أحفظت هذه الغطرسة المسلمين عليهم. حتى إن بعض الفقهاء والصلحاء لم يخف استنكاره لاستخدام السلاطين إياهم والاستعانة بهم وحتى الجهر بهذا الاستنكار للسلاطين أنفسهم، مثال ذلك حادثة جرت في عهد السلطان ابن اللحياني، إذ بينما كان ذلك السلطان ماراً ذات يوم بباب سريقة بمدينة تونس محاطاً بهذا الحرس، اعترض موكبه الزاهد القروي وكان زميلاً للسلطان في الدراسة وهدف به: أنها الفقيه، يا أبا يحيى، ليس ما تفعله مباحاً فوقف السلطان واستدناه وسأله عما أنكره من فعله، فقال له القروي إن الله حرم الاستعانة بالمشركين. فما كان من السلطان إلا أن أطرق ثم أجابه مبتعداً عنه بقوله: نعم^(٤)، أي أنه يوافق على أن فعله هذا لا يقره الشرع الإسلامي.

(١) R. Brunschvig : Op. Cit., Tom, 1., p.446 - 7.

(٢) يقول الحسن الوزان (ص ٤٤٧) إن هذا الحي كان في الرض الواقع خارج باب المارة.

(٣) R. Brunschvig : Ibid, Tom, 1., p.448.

(٤) R. Brunschvig : Ibid, Tom, 1., p.447.

وقد بلغت نقمة المسلمين على هؤلاء حداً كبيراً حتى إن مشادة حدثت بين أحدهم وبعض المسلمين في حي سيدي محرز بتونس العاصمة تطورت بسرعة كبيرة إلى صدام كبير بين هؤلاء وسكان ذلك الحي كاد أن يؤدي إلى كارثة لولا تدخل جند السلطان الذين سارعوا إلى فض النزاع والسيطرة على الموقف^(١).

لكل ما تقدم كانت أرغونة بصفة خاصة والحركة الصليبية بصفة عامة تعلق أهمية كبيرة وآمالاً عريضة على هذه الفقة لمساعدتها في تحقيق مطامعها في إفريقية، وتعتبرها مشروعاً هاماً في سلسلة خططها التي كانت تضعها لبسط سيطرتها عليها، ذلك أن وجود هذه الفقة المنظمة والمدرّبة والمسلحة بأحسن السلاح وأكثره فاعلية والمكانة الممتازة التي تبوأها في الدولة الحفصية كان من شأنه أن يقدم مساعدة ودعماً قوياً لدعامتين أخرتين زامتا فترة نفوذ هذه الفقة هما القوة العسكرية التي شرعت أرغونة في استخدامها وتحتلّ حيث أخذت تهاجم سواحل إفريقية بصور مختلفة كما سيأتي ذكره، ثم حركة التنصير التي ستعرض لها في الفصل التالي، وعلى هذه الدعائم الثلاث ارتكزت مياسة أرغونة لتحقيق مطامعها في إفريقية. فلم تكن هذه الفقة جنوداً مرتزقة فقط كما تقول العديد من المراجع الغربية^(٢)، وإنما كان وجودها في إفريقية وفي هذا المركز الحساس خطة صليبية خبيثة ومؤامرة من ضمن المؤامرات التي كانت تدبرها الحركة الصليبية لها، وليس أدل على ذلك من موقف البابوية من هذه الفقة، لقد كانت البابوية أولاً وقبل كل شيء على علم تام بأمر هذه الفقة، فكيف لم تستنكر خدمة هؤلاء الجند لسلاطين بني حفص مثلما أنكرت على المدن الإيطالية بيعها المماليك الصغار للدولة المماليك في مصر والشام وأوقعت قرار الحرمان على كل من يقبل ذلك من تلك المدن معللة ذلك بأنه يزيد من قدرة الجيش المماليكي على التصدي للجيوش المسيحية، ثم لا تحرك ساكناً بالنسبة لهؤلاء الجند بل وبالنسبة لنظراتهم الذين كان لدى حكام دول المغرب العربي الأخرى مع أن كلا الطرفين عدو للصليبيين لولا أنها أملت من هؤلاء ما لم تأمله من المماليك الذين كانوا يرسلون إلى مصر؟ بل إن موقف

R. Brunschvig: Ibid, Tom, 1, p.447.

(١) انظر :

R. Brunschvig: Ibid, Tom, 1, p.440.

(٢) انظر مثلاً :

البابوية من هؤلاء لم يكن مجرد السكوت وإنما الرضا عن وجودهم لدى حكام دول المغرب العربي، بل والإقرار بشرعيته أيضاً، وليس أدل على ذلك من تلك الرسالة التي وجهها إليهم البابا نيقولا الرابع، الذي كان شديد الحماس للأفكار الصليبية وتميز بنشاطه الجهم في سبيل تنفيذها كما سبق أن ذكرنا، وذلك في سنة ١٢٩٠م يحثهم فيها على التمسك بدينهم والتخلي بالسلوك القويم الذي يرفع من شأن المسيحية وإخلاصهم في خدمة تلك الديانة لتفخر بهم^(١)، الأمر الذي يدل بوضوح على إقرار البابوية بوضعهم. وغير خاف على أحد أن المقصود بخدمة الديانة المسيحية هو خدمة الحركة الصليبية إذ أن كلا الأمرين كان سيان في نظر نصارى غرب أوروبا وقتئذٍ.

وإذا كان هنالك ثمة شك في هذا الدليل عن رضا البابوية عن وضع هذه اللغة وآمالها التي عقدتها عليها، فإن رسالة البابا أنوسنت الرابع (Innocent IV) التي أرسلها إلى الحليفة الموحدية المرتضى في سنة ٦٤٤هـ / ١٢٤٦م مع لوب فرناندو دابن (Lope Fernando d' Ayn) الذي عين أسقفاً لمراكش والتي ستعرض لها في الفصل التالي، تقطع الشك باليقين. لقد نشط هذا البابا الذي اشتهر بجهوده الصليبية الكبيرة^(٢)، وأرسلت في عهده البعثات التنصيرية المتعددة إلى خانات التتار مثل بعثات حنا الكاريني ولونجيموه ودومينك وسواهم، نشط في توجيه جهوده إلى المغرب العربي مستغلاً الحالة المتردية التي آلت إليها الدولة الموحدية منذ هزيمة العقاب سنة ٦٠٩هـ / ١٢١٢م وأخذت تؤذن بهتيار قريب، فبدأ يرسل خليفته المرتضى الذي كان قد استكثر من هؤلاء الجند^(٣)، آملاً في إعادة المغرب العربي بأسره للسيطرة المسيحية، كان من ذلك الرسالة التي أشرنا إليها آنفاً والتي كشفت عن نوايا البابوية بشأن الجند النصاري الذين كانوا في خدمة حكام دول المغرب العربي بوضوح، فقد بدا فيها راضياً

R. Brunschwig : Ibid, Tom, 1, p.447.

(١)

(٢) يقال إن هذا البابا كتب ما يزيد عن الألفي رسالة تتعلق كلها بأعمال إرسال البعثات التنصيرية إلى البلاد غير المسيحية عنا عن نشاطاته الصليبية الأخرى.

(٣) يقول ابن عذاري في ذلك في حوادث سنة ٦٤٨هـ إن المرتضى وجه (إلى الأندلس يرسم أن يصله جمع من النصاري ليركبهم معه ويكونوا له أعواناً وأنصاراً فوصلوا إليه في هذه السنة). انظر ابن عذاري : المصدر السابق ج ٣ ص ٤٠٢.

عن الامتيازات التي منحها الخليفة الموحدى لهؤلاء الجند والتي تدل على مدى حاجته إليهم وأنه يشجع قنوم جندجند منهم للالتحاق بخدمته، وأنه لتشجيعهم اعترم تجديد الكنائس التي كانت موجودة في دولته وتحسينها وأن ذلك العمل من قبل الخليفة نال امتحسان ذلك البابا وإعجابه، وبين للخليفة في تلك الرسالة أن هذه هي مشيئة الله التي قبضته - أي المرتضى - للمسيحية ليحيد إعلاء شأنها في المغرب العربي، وبعد أن يدعو للتصير^(١) يتناول موضوع الجند النصارى الذين كانوا في خدمته فيقول إنه انتصر على أعدائه بمساعدتهم وأن هؤلاء سيواصلون تقديم تلك المساعدة له بكل طاقاتهم ويحمون دولته من أعدائه - والمقصود هنا بالأعداء منافسيه بطبيعة الحال - وأنه سيجد المساعدة ليس من هؤلاء فحسب، وإنما أيضاً من كل القوى في الكون إذا أصبح موالياً للمسيح وفعالاً^(٢)، ولكنه - أي البابا - يخشى على هؤلاء الجند من انتقام خصوم السلطان منهم إذا ما عوجموا في وقت لا يكونون فيه على أهبة للقتال ولا مستعدين له كما حدث لهم ذات مرة كما يقول حيث قتل عدد كبير منهم، ولذلك ولتجنب وقوع مثل هذا الحادث فهو يطلب من ذلك الخليفة أن يسلمهم بعض المدن والقلاع الحصينة ليتركزوا فيها حتى يأمنوا على أنفسهم من المباغة ويتمكنوا من خدمة الخليفة على أكمل وجه، وأن يتسلموا بالإضافة إلى ذلك بعض الموانئ أو ميناء واحداً على الأقل حتى يتمكنوا من المقاومة وتصلبهم المساعدات من الدول المسيحية عن طريقه^(٣)، ويزين للخليفة هذا الأمر لإقناعه بذلك فيقول إن ذلك هو في مصلحة الجند النصارى كما أنه في نفس الوقت في مصلحة الخليفة لأن كل ازدياد في قوة هؤلاء هو ازدياد في قوة الخليفة ويعود بالنفع عليه على حد تعبيره^(٤).

فالبابا في رسالته هذه يبيد رضاه عن وجود الجند النصارى في خدمة الخليفة الموحدى بل ويساند هذا الوجود ويدعمه هذا من ناحية، كما وأنه من ناحية ثانية يحاول أن يحصل بهم على مكاسب للحركة الصليبية مستغلاً حاجة الخليفة لخدماتهم، فطلب منه أن

Eugene Tisserant & Gason Wiet : Op. Cit., p.43.

(١)

Eugene Tisserant & Gason Wiet : Ibid, p.43.

(٢)

Eugene Tisserant & Gason Wiet : Ibid, p.43 - 4.

(٣)

Eugene Tisserant & Gason Wiet : Ibid, p.44.

(٤) انظر :

يمنحهم مدناً وقلاعاً حصينة وميناء ليسهل عليهم الاتصال بأوروبا أي منحهم قاعدة تكون موهلة للانطلاق منها للتوسع في المغرب فيما إذا أدى الأمر إلى استعمال القوة العسكرية، وكانت مهمة الأسقف لوب فرناندو داي (Lope Fernando d' Ayn) الحقيقية هي إقناع الخليفة بهذا الأمر علاوة على محاولة تنصيره، ثم تنظيم هذه الفتنة وإحكام ربطها بخطة الحركة الصليبية من خلال المهمة المعلنة المتمثلة في الإشراف على شؤون النصارى في المغرب العربي بأسره، وقد أتبع البابا هذه الرسالة برسائل مماثلة لكل من سلطان تونس وأمير بجاية وأمير سبتة يوصيهم بالنصارى الذين في بلادهم خيراً في نفس الوقت الذي كان فيه الأسقف لوب فرناندو داي Lope Fernando d' Ayn يقوم بأداء مهمته لدى المرتضى^(١). ولما لم يستجب المرتضى لمطالب البابا كما يظهر ذلك بجلاء في رسالته الموجهة إليه المؤرخة ١٨ ربيع الأول سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م^(٢). عمد ذلك البابا إلى معاودة هذا الطلب في رسالة أخرى وجهها إلى المرتضى في سنة ١٢٥١م / ٦٤٨هـ - ٦٤٩هـ، حيث ألح فيها عليه للاستجابة لمطالبه، وليس ذلك فحسب، وإنما هدده فيها هذه المرة بأنه إذا لم يستجب لتلك المطالب فإنه سيوعز لهؤلاء الجند لترك الخدمة لديه وسيحول دون قدوم الجند الجدد الذين كانوا يتأهبون وتجهز للسفر إلى المغرب للالتحاق بخدمته، وقرن تهديده بالعمل فأرسل رسائل إلى الجند النصارى في المغرب وإلى أسقف مراكش وإلى الجند الذين كانوا يتأهبون للسفر إلى المغرب آمراً الجميع بالعمل على تنفيذ هذا التهديد في حالة فشله في إقناع المرتضى بالموافقة على مطالبه^(٣). فهل هنالك أبلغ من هذا الدليل على ارتباط هؤلاء الوثائق بالحركة الصليبية، وأنهم ما وضعوا في خدمة حكام دول المغرب العربي ومنهم سلاطين بني حفص إلا لخدمة الأهداف الصليبية.

وإذا كانت البابوية المخطط الرئيسي لهذا المشروع لم تعد منذ أواخر القرن الثالث عشر، التي هي بداية فترة نفوذ هؤلاء في البلاط الحفصي، لم تعد قادرة على المضي قدماً في تنفيذه كما ترغب، فإن ملوك أرغونة تبنا فكرة تنفيذه وأخذوا يعملون كل ما في وسعهم

Eugene Tisserant & Gason Wiet : Op. Cit., p.47.

(١)

(٢) انظر الملحق الثاني لهذه الدراسة.

Eugene Tisserant & Gason Wiet : Ibid, p.53.

(٣)

في سبيل ذلك، ولكن الظروف التي أخذت تمر بها مملكة أرغونة بعد انقضاء الربع الأول من القرن الرابع عشر والتي كان من أبرزها تجدد نزاعها مع مملكة قشتالة فضلاً عما كانت تشهده أوروبا من تطورات سياسية آنذاك هذا من ناحية، ثم ما استجد على الساحة الإفريقية في تلك الآونة خاصة الزحف المريني الأول الذي قاده السلطان أبو الحسن المريني وما تلاه من زحف مريني آخر قام به ابنه السلطان أبو عنان كما سيأتي ذكره واللذين استهدفا إعادة توحيد المغرب العربي من جديد في ظل الدولة المرينية، وما أعقب ذلك بعد فترة وجيزة من تولي السلطان الحازم أبي العباس أحمد العرش الحفصية الذي بدأ يعمل على إعادة وحدة الدولة الحفصية ونفخ روح القوة فيها من جديد من ناحية ثانية، كل ذلك وقف حائلاً دون تمكن أرغونة خاصة والحركة الصليبية عامة من الاستمرار في المضي في تنفيذ هذا المشروع الصليبي، ولذلك أخذت أخبار هذه الفقة منذ أواسط القرن الثامن للهجرة (الرابع عشر للميلاد) تقل في المصادر التاريخية ويكتنفها الغموض إذا ما قورنت بالفترة التي سبقتها، وأخذت سيطرة العنصر الأُرغوني تقل بالتدريج مما جعل قوة تماسكها تأخذ في الانحلال، فبعد أن كان لهذه الفقة قائد واحد كان في سنة ١٣١٤م / ٧١٤هـ هو جاك قريكس (Jacques Garics) أصبح لها في سنة ١٣٥٣م / ٧٥٤هـ قائدان على الأقل، وفي سنة ١٣٩١م / ٧٩٤هـ أصبحوا على الأقل ثلاثة، كما أن هذا المنصب لم يعد وفقاً على القطلان كما كان الأمر في السابق بل وجد من بينهم من كانوا من جنوة، وأغلب الظن أن كل قائد منهم أصبح يترأس مجموعة من أبناء جنسه^(١)، وظلت هذه الفقة في خدمة سلاطين بني حفص إلى ما بعد القرن الرابع عشر بمدة طويلة حيث ذكر الحسن الوزان أنها كانت موجودة في عهده في أوائل القرن السادس عشر حيث يقول : (ولملك تونس ألف وخمسمائة من الفرسان ومعظمهم من النصاري الذين اعتنقوا الإسلام، ولكل واحد منهم مرة بـ لفقته هو ولحصانه. ولهؤلاء الفرسان قائدهم الخاص الذي يعينهم ويسرحهم كما يشاء)^(٢). وما يستفاد من هذا النص علاوة على ذلك أن أفراد هذه الفقة كانوا قد فقدوا صفتهم الأولى المميزة واحتق معظمهم الإسلام، الأمر الذي يؤكد نص آخر له يقول فيه

R. Brunschwig : Op. Cit., Tom, 1, p.448.

(١)

(٢) الحسن الوزان : المصدر السابق ص ٤٥٣.

(ولدى الملك من ناحية مائة من راشقي السهام والكثير منهم نصارى أسلموا، وهم يواكبون الملك عندما يخرج راكباً في المدينة أو في خارجها)^(١)، حيث آل أمرهم بعد ذلك إلى الاندماج في الشعب التونسي.

إن التآمر الصليبي على إفريقيا في القرن الرابع عشر لم يقتصر على هذه المشاريع وإنما واكبها مشروع آخر لا يقل عنها خطورة وأهمية هو ذلك الذي تمثل في جهود حركة التنصير وهو ما ستعرض له في الفصل التالي.

(١) الحسن الوزان : المصدر السابق ص ٤٥٣ .

﴿يا أهل الكتاب لا تغفلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السماوات والأرض وكفى بالله وكيلاً * لن يستكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ومن يستكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً﴾ .

[سورة النساء : آية ١٧١ ، ١٧٢]

نشاط حركة التنصير في إفريقيا

جهود المنصرين في إفريقيا في القرن الثالث عشر - رامون لول داعية تنصير - أرغونة
وحركة التنصير - فشل مخطط التنصير ونجاح الحركة المضادة.

جهود المنصرين في إفريقيا في القرن الثالث عشر :

إن فكرة تنصير مسلمي إفريقيا لم تظهر فجأة في القرن السابع الهجري (الثالث عشر للميلاد) مثلما يعتقد البعض، بل إن جذورها تعود إلى ما قبل ذلك الوقت بكثير، فالبابوية التي هي الزعيم الروحي للحركة الصليبية لم تنس في يوم من الأيام أن المسيحية كانت مزدهرة في إفريقيا قبل الفتح الإسلامي لها وأنها كانت إحدى المراكز الهامة لهذه الديانة كما سبق أن أشرنا إلى ذلك، فكانت تأمل دائماً في إيجاد الفرصة لبعث أمجاد المسيحية فيها من جديد، وإذا كانت ظروف إفريقيا في القرون الأربعة الأولى للهجرة قد حالت دون وجود مثل هذه الفرصة كما أشرنا من قبل، فإن حالة الضعف والقوضى التي سادت فيها في أواسط القرن الخامس الهجري (الحادي عشر للميلاد) في ظل الهجرة الهلالية إليها أخذت تهبط للبابوية الفرصة التي انتظرتها، وإذا أعدنا إلى الأذهان أن البابوية في تلك الآونة كانت في أوج مجدها، وأن الحركة الصليبية أخذت تدخل عندئذ طوراً من أنشط أطوارها، أدركنا أن أي اتجاه من البابوية إلى إفريقيا في ذلك الوقت ما كان إلا لتحقيق أهداف الحركة الصليبية فيها وقد استهل هذا الاتجاه من البابوية إلى إفريقيا برسالتيْن أرسلهما البابا جريجوري السابع (Gregory VII)^(١) في سنتي ١٠٧٣ و ١٠٧٦م إلى مسيحيي بونة (عنابة) Hippo يحثهم فيها لا سيما في الثانية منهما على

(١) عرف هذا البابا في التاريخ باسم جريجوري العظيم، وكانت البابوية في عهده في ذروة مجدها، وقد طرح عدة مشاريع هامة منها نظرية الوحدة العالمية القائلة برجوب أن يكون في العالم سلطة زمنية واحدة هي الامبراطور وسلطة دينية واحدة تهيمن عليه هي البابوية، فضلاً عن أنه كان أول بابا دعا إلى إشعال الحروب الصليبية ضد المسلمين.

التمسك بطاعة كنيسة روما، ويوصيهم بالإحسان لبعضهم وتوزيع صدقات أغنيائهم على فقراهم وأن يكونوا بتمسكهم بإيمانهم القدوة الحسنة والمثال الذي ينبغي أن يحتذى، ثم وهو الأهم يوصيهم بتحريض المسلمين من حولهم على الاقتداء بهم في الدخول في المسيحية لا صدهم واحتقارهم والازدراء بهم^(١)، فهو بذلك يطلب من هؤلاء المسيحيين أن يصبحوا منصرين ويثروا الدعوة المسيحية بين المسلمين. وأما هو من جانبه فقد أرسل مع ثانية هاتين الرمالتين رسالة أخرى مؤرخة في سنة ١٠٧٦م إلى الأمير الحمادي الناصر بن علناس الذي كانت بونة (عنابة) تابعة لإمارته، رداً على توصية هذا الأمير برسم سيرفاندوس Servandus أسقفاً لتلك المدينة بعد أن انتخبه مسيحيوها لهذا المنصب، يلمح فيها بدعوته إياه للتصبر عملاً بالفكرة التي شاعت حينذاك من أنه إذا تنصر الملك فإن الرعية ستقتدي به في ذلك.

لقد استهل البابا رسالته تلك بترقيب الناصر بملك موريثانيا الشطوطية (Mauretania Sit-ifensis)^(٢)، وهو لقب له مغزاه بلا شك، إذ يعني العودة إلى مسميات أقسام المغرب العربي التي كانت شائعة في العصر الروماني^(٣) عهد ازدهار المسيحية فيه، وبعد أن يتمنى للناصر (الصحة والبركة الرسولية) ويعلمه بموافقة على رسم سيرفاندوس أسقفاً حسب توصيته ويشكره على الهدايا التي أرسلها إليه وعلى إطلاقه سراح الأسرى المسيحيين الذين كانوا لديه، يبدأ في التركيز على نقطة هامة ذات مغزى واضح هي نواحي الالتقاء بين الإسلام والمسيحية في محاولة منه لتقريب المسيحية إلى ذهن الناصر فهو تارةً يقتبس من آيات القرآن الكريم ويصفه خاصة من سورة الفاتحة، ويشرح ما يقابلها مما جاء في الإنجيل تارةً أخرى مؤكداً على أن كلا المسلمين والمسيحيين يلتفون في بنوتهم لئبي الله إبراهيم عليه السلام، فيقول : ولئنا نسأل الله بلكستنا وقلوبنا أن يقدرك بعد عمر طويل إلى جنة الخلد حيث تال بركات أيننا الأقدس إبراهيم^(٤)، ويخلص بعد هذا التمهيد إلى غرضه الأصلي الذي هو دعوته إلى التنصر

Norman Daniel : Op. Cit., p.250.

(١) انظر :

Norman Daniel : Ibid, p.250.

(٢) انظر :

(٣) كان المغرب العربي مقسماً في ذلك العصر إلى موريثانيا القيصرية وموريثانيا الشطوطية وإفريقية.

Norman Daniel : Ibid, p.250 - 251.

(٤)

بأسلوب مبطن قائلاً: إن الله - سبحانه وتعالى - الذي لا يمكننا بدون هديه عمل أي شيء طيب أو حتى تصوره، هو الذي يوحى إلى قلبك بالخير، وهو الذي أبدع خلق كل إنسان وجد في هذا العالم، والقادر على كل شيء لهُو القادر على أن يثير عقلك لأنه يرغب في خلاص كل البشر وأن لا يضيئوا^(١)، ولا يخفى أن الخلاص في رأي المسيحيين لا يتأتى للإنسان إلا باعتناق المسيحية، وأن المخلص في اعتقادهم هو المسيح عليه السلام. وهو الفادي أيضاً لأنه في اعتقادهم فدى البشرية بنفسه على الصليب ليخلصها. وبذلك كانت هذه الرسائل وخاصة الأخيرة منها التي يملق عليها نورمان دانيال (Norman Daniel) بقوله إنها تتضمن قدراً من الروح الصليبية^(٢)، نقطة البداية لحركة التنصير في إفريقيا.

وإذا كانت الحوادث التي جرت في العقد التالي على تاريخ هذه الرسالة، ذلك المقصد الذي شهد عتفوان الهجوم الصليبي الكبير الثلاثي الاتجاه على المسلمين في الجناح الغربي من العالم الإسلامي وما تلاه من الزحف الصليبي على المشرق كما سبق أن ذكرناه قد شغل الحركة الصليبية عن الماضي قدماً في تنفيذ هذه الخطوة لفترة من الوقت، فإن الأمر لم يطل بها كثيراً إذ عقدت آمالها على النورمان الذين أدخلوا منذ استكمالهم الاستيلاء على صقلية يتطلعون للاستيلاء على إفريقيا لقيام بتنفيذ تلك الخطوة، ولكن ظهور الموحدين ودخولهم معترك الجهاد ضد القوى الصليبية في غرب العالم الإسلامي، وقيامهم بطرد هؤلاء من المهديّة آخر معاقلهم في إفريقيا جعل الظروف لم تعد مواتية لاستئناف الجهود التنصيرية فيها، حتى إذا ما بدأ الضعف والانحلال يسري في جسد الدولة الموحدية منذ أوائل القرن السابع الهجري (الثالث عشر للميلاد)، عادت الحركة الصليبية لإحياء جهودها التنصيرية في إفريقيا من جديد، وقد وجدت في رهبان منظمتي الفرنسيسكان والدومنيكان خير وسيلة لتنفيذ خططها المتعلقة بتنصير مسلميها، وتبعاً لذلك بدأ هؤلاء يتوافلون إليها غير مباليين بالمصاعب وحتى بالموت في سبيل تحقيق هذا الهدف^(٣).

Norman Daniel :Op. Cit., p.251.

(١)

Norman Daniel :Ibid, p.250.

(٢)

(٣) كانت مبادئ الفرنسيسكان تقول بأن الله سبحانه وتعالى أرسل القديس فرانسيس (مؤسس المنظمة، وأتباعه لتجديد حياة السيد المسيح عليه السلام والحواريين (الرسل)، لذلك فإن على -

وأول إشارة تظهر في المصادر التاريخية عن نشاط هؤلاء الرهبان هي سفر فرانسيس الأسوزي (القديس فرانسيس) مؤسس منظمة الفرانيسكان نفسه من إيطاليا إلى برغش (Burgos) بإسبانيا لمقابلة ألفونسو الثامن ملك قشتالة في سنة ١٢١٣م لمساعدته على السفر إلى بلدان المغرب العربي هو وبعض أتباعه الذين كان من بينهم Bernard of Quintavalle)، وكان فرانسيس يأمل في مقابلة عاهل الدولة الموحدة التي كانت إفريقية وتحت إحدى ولاياتها لإقناعه بالتصير والسماح له ولأتباعه بممارسة نشاطهم التبشيري في أنحاء دولته، ولكن مرضه اضطره لتغيير خططه والعودة إلى إيطاليا^(١). وإذا كان فرانسيس لم يذهب إلى المغرب العربي في تلك السنة، فإن وثائق منظمة الثالث المقدس (The Most Holy Trinity) تذكر أن حنا دي ماتا (Saint Jean de Matha) مؤسس هذه المنظمة^(٢) والذي توفي في أواخر سنة ١٢١٣م قد زار إفريقية عدة مرات ومدينة تونس بالذات في السنوات ١٢٠٤م و ١٢٠٩م و ١٢١٣م قبل وفاته ببضعة أشهر وأنه أسس فيها بحى النصارى كنيسة صغيرة ومستشفى صغيراً، ونظراً لأن مؤرخي هذه المنظمة يبالغون في إضفاء هالة من الخوارق على قديسي منظماتهم فإن برغيفيك يستبعد أن يكون حنا دي ماتا قد

= رهبان هذه المنظمة أن يقتلوا بالمسيح في ماله على حد قولهم كما هو القدوة في الحياة، أي عليهم أن يستهينوا بالموت في سبيل التبشير، ويخبرون ذلك استشهاده.

(E. R. Daniel : Op. Cit., p. XII - XIII

(لمزيد من التفصيل انظر :

E. R. Daniel : Ibid, p.42.

(١) انظر :

(٢) تأسست هذه المنظمة في أواخر القرن الثاني عشر واعتمد البابا تأسيسها في سنة ١١٩٨م، وكان الهدف الرئيسي من إنشائها هو العمل على فداء الأسرى المسيحيين الذين كانوا يوجدون في بلدان المغرب العربي، وأعضاؤها هم الذين كانوا يلقبون بإخوة الحمير (Manurins) أو (Donkey Brothers) كما سبق أن ذكرنا، وقد باشرت هذه المنظمة نشاطها في سنة ١١٩٩م بإرسال بعثة إلى مراكش، ثم أخذت بعثاتها تجوب أنحاء المغرب العربي بحثاً عن الأسرى، وخلال تجوالها كانت تمارس النشاط التبشيري بين المسلمين ولكن بحذر وتحفظ خشية إثارة حفيظتهم عليهم، وقد اتسع نشاط هذه المنظمة خلال القرن الثالث عشر للميلاد، حتى كان لها قبل نهايته أكثر من مائة مركز وكان لها صلة بالعديد من ملوك وأمراء أوروبا فضلاً عن البابوية مثل لويس التاسع الذي كان يصطحب معه عدداً من أفرادها في حملاته الصليبية.

R. Brunschwig : Op. Cit., Tom, 1, p.455.,

انظر :

S. Clissoid : Op. Cit., p.12 - 14.

زار إفريقيا، ومع ذلك فإنه يعتقد أنه من المحتمل جداً أن يكون بعض أعضاء هذه المنظمة قد زاروها حوالي سنة ١٢١٥م وتمكنوا بإذن من الشيخ عبد الواحد واليهما من تحرير ٢١٤ أسيراً مسيحياً كانوا موجودين فيها^(١). وفي سنة ١٢١٩م قسم القديس فرانسيس الأسوزي العالم غير المسيحي إلى سبعة أقسام وزعها على رهبان منظمته للعمل على تنصيرها، وتبعاً لذلك تشكلت خمس بعثات تنصيرية أرسلت إلى كل من إسبانيا والمغرب الأقصى وإفريقية وهنغاريا في حين ترأس هو نفسه البعثة إلى الشام ومصر فرافق الحملة الصليبية الخامسة حيث تمكن من مقابلة السلطان الكامل الأيوبي على أمل إقناعه بالتنصر ولكنه فشل في ذلك كما سبق أن ذكرنا، وأما البعثة التي أرسلت إلى المغرب الأقصى فقد أعدم أعضاؤها جميعاً في مراکش في ١٦ يناير سنة ١٢٢٠م لأنهم أصبروا على دعوة المسلمين للتنصر مما أثار حفيظتهم عليهم^(٢)، وأما البعثة التي أرسلت إلى إفريقية فقد ترأسها الراهب جيلز الأسيزي (Giles of Assisi) وتقول حويلة (The Longer life) إن أعضاء هذه البعثة لشدة حماسهم أفرطوا في الدعوة للمسيحية بين المسلمين ودون أدنى تحفظ، مما أثار المسلمين عليهم فاضطر مسيحيو إفريقية نظراً لذلك لإجبارهم على مغادرة البلاد^(٣). وفي سنة ١٢٢٧م خرجت بعثة فرانسيسكانية أخرى من إقليم تومكانا بإيطاليا فاصلة للمغرب العربي مكونة من سبعة منصرين، وما أن وصل هؤلاء إلى مدينة سبتة حتى بدأوا يدعون للمسيحية بين المسلمين علناً ضارين بنصائح التجار النصارى الذين كانوا في المدينة عرض الحائط، فتم إلقاء القبض عليهم

(١) R. Brunschvig : Op. Cit., Tom 1, p.455 - 456.

(٢) E. R. Daniel : Op. Cit., p.42, R. Brunschvig : Ibid, Tom 1, p.458 - 459.

وقد علق فرانسيس حينما علم بموت هؤلاء بقوله : الآن أستطيع القول إن لي خمسة أخوة حقاً، وقد تداول الناس في أوروبا الغربية أخبارهم وسيرهم إعجاباً بهم وبصبرهم، وأخيراً منع فرانسيس حسب قول E. R. Daniel قراءة سيرهم قائلاً إن على كل أخ (أي عضو في منظمته) أن يفخر بأعماله وليس بالآلام وعذاب الآخرين.

(٣) E. R. Daniel : Ibid, p.42 - 44., Gisele Chovin : A Perca sur les relations de la France avec le Maroc des origines a' la fin du Mayon age, p.280 - 281.

لم يلبث جيلز بعد عودته من إفريقية وعقب وفاة فرانسيس الأسوزي أن اعتزل النشاط التنصيري مكرساً نفسه للتفكير والتأمل والعبادة، وحينما انتقده راهب فرانسيسكاني على ذلك رد عليه بقوله إنه ذهب إلى بلاد المسلمين لأن حبه للمسيح جعله يرغب في الشهادة، ولكنه الآن يرى أنه ما=

وسيقوا إلى مراكز حيث أعلّموا في ١٠ أكتوبر سنة ١٢٢٧م^(١). وأما رهبان اللومنيكان فلا يمكننا تحديد الوقت الذي بدأوا يقدّون فيه إلى إفريقيا. ولكن أغلب الظن أنهم لحقوا بالفرنسيسكان في وقت مبكر، فقد ثبت وجودهم فيها في بداية سنة ١٢٣٥م إلى جانب الفرنسيسكان وذلك من رسالة أرسلها رامون البنيافورتي Fr. Ramon de Penyafort الذي ستعرض لذكره فيما بعد، رداً على رسالة وجهها إليه أحد الرهبان المنصرين من منظّمته الذين كانوا مقيمين في إفريقيا تتضمن فتوى منه بشأن بعض الخطايا^(٢).

وبناءً على ذلك، يمكننا القول إن حركة التنصير في إفريقيا قد استأنفت نشاطها وبذلت جهوداً ملحوظة منذ العقد الثاني من القرن السابع الهجري (الثالث عشر للميلاد)، مستغلة في ذلك تسامح الأمير أبي زكريا الأول من ناحية وفترة الانتقال من تبعية إفريقية للدولة الموحدية إلى الاستقلال عنها وتأسيس الدولة الحفصية بها من ناحية ثانية، وقد أعطى موقف البابوية من موضوع ما وصف برغبة الأمير عبد العزيز الحفصيّ في التنصير، دفعة قوية لحركة التنصير فيها، وبخلاصة هذا الموضوع أنه في سنة ٦٣٣هـ / ١٢٣٦م حرب هذا الأمير الذي هو ابن أخ الأمير أبي زكريا الأول الحفصيّ من إفريقيا إلى صقلية، وتزعم المصادر التاريخية المسيحية اعتماداً على زعم البابوية بأن هذا الأمير كان في طريقه إلى روما للتنصير على يد البابا، ولكن الإمبراطور فردريك الثاني نظراً للعلاقات الطيبة التي كانت تربطه بالأمير أبي زكريا من ناحية، ولكرهه للبابوية ورجال الدين المسيحي من ناحية ثانية، أوقفه

= كان عليه أن يرغب في الموت شهيداً وبقي في عزله حتى وفاته.

(١) E. R. Daniel : Op. Cit., p.43., Gisele Chovin : Op. Cit., p.281

وتصفهم بعض المصادر المسيحية بأنهم رجال وهبوا أنفسهم للعبادة وخدمة الله، توقدت أرواحهم حساسة، متعطشون للعمل بكل طاقتهم لتخليص أرواح المسلمين (أي لنصرهم)، وكان كل منهم على أهبة تامة للموت إذا استطاع أن يقدم لله هذه الثمرة الطيبة من بين الكفرة (المسلمين)، وقد بقي جزء من الرسالة التي كتبها من السجن إلى قسيس من جنوة يدعى (Hugo)، يصفون فيها معاناتهم التي قلدوا فيها آلام المسيح! (انظر هذه الرسالة في E. R. Daniel : Ibid, p.44)، وقد منحهم الخليفة الموحدي الفرصة لإنقاذ أنفسهم بدعوتهم لاحتياق الإسلام، وعندما رفضوا أمر بإعدامهم.

(انظر : E. R. Daniel : Ibid, p.44 - 45)

R. Brunschvig : Op. Cit., Tom 1, p.461

(٢) انظر :

في صقلية وحال بينه وبين متابعة سيره إلى روما، ولم يرض البابا جريجوري التاسع عن هذا التصرف من الامبراطور فأرسل إليه رسالتين أولاهما في ٢٣ يونيو ١٢٣٦ / ٦٣٣ هـ والثانية في أكتوبر من العام ذاته يلح فيهما عليه أن يخلي سبيل الأمير الحفصبي ويسمح له بالذهاب إلى روما، فرد عليه الامبراطور بقوله إن الأمير عبد العزيز الفرقد بهرته البعثة التنصيرية السرية وقد لا يكون لإيمانه بالدين المسيحي عن اقتناع علاوة عن أن الأمير أبا زكريا قد يستاء من ذلك، لهذا فإنه يرى - أي الامبراطور - ضرورة استشارته فإن وافق على تعمد ابن أخيه فحينئذ يتم تعميده، ولكن هذا الرد لم يعجب البابوية التي رأت أن الامبراطور حال دون حصولها على مكسب كبير بتنصير الأمير الحفصبي الذي كما تقول تلك المصادر ما إن أقام في صقلية بعض الوقت حتى صرف نظره عن فكرة التنصير وأقام لاجئاً سياسياً في بلاط الامبراطور^(١)، لذلك فقد وردت الإشارة إلى هذا الموضوع في مبررات قرار الحرمان الذي أوقعه البابا جريجوري التاسع على الامبراطور في سنة ١٢٣٩م، إذ جاء فيه (...). ونوقع عليه قرار الحرمان واللعنة لأنه قبض على ابن أخ ملك تونس ولم يسمح له بالحضور لينصر في كنيسه^(٢)، ومع أن هذا الزعم يمكن اعتباره من ضمن حملة التشهير التي شنتها البابوية على الامبراطور لإثارة الرأي العام المسيحي عليه، أو أنها تصورت أن لجوء الأمير المسلم إلى بلاد النصارى لا يكون إلا للتنصير مع أنه من الواضح أن لجوئه إلى الامبراطور كان لأمر سياسي بدليل أنه أقام لاجئاً سياسياً في بلاطه، إلا أنه يستفاد من هذه القصة أمران أولهما ما كانت البابوية تمتي به نفسها من تنصير مسلمي إفريقيا ففضبت على الإمبراطور مما تصورته أن تدخله أفضل جهود حركة التنصير مع هذا الأمير وبالتالي سيضع عقبة في سبيل جهودها مع الآخرين، وثانيهما أنه يؤكد أن هنالك بعثة تنصيرية كانت مقبلة في إفريقيا في تلك الآونة وتمارس نشاطها باطمئنان، وقد أكدت ذلك وثيقة أخرى هي رسالة أخرى كتبها هذا البابا في سنة ٦٣٣ هـ / ١٢٣٦م^(٣).

(١) انظر R. Brunshvig : Op. Cit., Tom I, p.465 - 466., N. Daniel : Op. Cit., 162.

N. Daniel : Ibid, p.162 - 163 R. Brunshvig : Ibid, Tom 1 p.466.

(٢) عن قرار الحرمان المذكور انظر : د. سعيد عاشور : أوروبا الوسطى ج ١ ملحق ١٤ ص ٧٣٠.

R. Brunshvig : Ibid, Tom 1, p.460.

(٣)

وتلقي الرسالة التي كتبها رامون البيناפורتي Fr. Ramon de Penyafort (١١٧٦م - ١٢٨٠م)^(١) عند استقالته من رئاسة منظمة الدومنيكان في سنة ١٢٤٠م إلى خلفه في رئاسة تلك المنظمة، تلقي مزيداً من الضوء على جهود المنصرين الدومنيكان في تلك الآونة، إذ تبين مقدار اهتمامه بتلك البعثات وتوصيه بإرسال المزيد منها وإصراره على ضرورة تعليم الرهبان لغات الأقوام الذين يرسلون إليهم وخاصة الحرية لمناظرة المسلمين لإقناعهم بالتنصر. ويشير في تلك الرسالة إلى أن المنصرين الدومنيكان الذين كانوا في إفريقية وقصد تمكنوا من كسب عطف بعض رجالات الدولة والأهم من ذلك عطف السلطان نفسه الذي يسميه (Miramolín)^(٢). وفي أواخر العقد الرابع من ذلك القرن أظهر البابا الإسكندر الرابع (Alexander IV) ميله لدعم جهود المنصرين الدومنيكان في إفريقية وذلك في رسالة بعث بها إلى رئيس تلك المنظمة يأمره بإرسال المزيد من هؤلاء المنصرين إليها، وجرت الاتصالات بين الدومنيكان وخايمي الأول ملك أرغونة بهذا الخصوص، فكان أن اتصل هذا بالمنصر

(١) أسبل هذا الراهب قطلاني تلقى علومه الأولى في برشلونة ثم انتقل إلى جامعة بولونا حيث نال شهادة الدكتوراه في القانون سنة ١٢١٦م عاد بعدها إلى موطنه حيث انضم إلى منظمة رهبان الدومنيكان سنة ١٢٢٢م وقد استدعاه البابا جريجوري التاسع إلى روما وبناءً على طلبه ألف كتابه Decretales Gregori IX خلال الفترة ١٢٣٠ - ١٢٣٤م. وفي سنة ١٢٣٨م انتخب رئيساً لمنظمة الدومنيكان فقام بإجراء عدة تعديلات على نظامها، وفي سنة ١٢٤٠م استقال من هذا المنصب للتفرغ لأعمال التنصير، وقد أثر كثيراً في حركة التنصير، ومن أشهر من تأثروا به رامون لول الذي عدّه البعض أنه تلمذ عليه، وكان من أوائل من نادوا باتباع الصليبية السلمية (أي التنصير) بعد بطرس المجل Abbot Peter the Venerable الكولوني (١١٢٢ - ١١٥٦م). وقد ربطته صلة قوية بملك أرغونة إلى حد إنه أصبح مستشارهم ومستودع أسرارهم حتى إنه كان قسب اعتراف الملك خايمي الأول الفاتح.

(انظر عن ذلك : E. R. Daniel : Op. Cit., p.8 - 9.

E. R. Daniel : Ibid, p.9.

(٢) عن هذه الرسالة انظر :

أما بالنسبة لاسم (Miramolín) الذي ورد فيها فهو تحريف كبير لكلمة عربية أو أكثر يصعب معرفة فقد تكون الأمير يحيى أي أبو زكريا أو الأمير محمد أي المستنصر ابن أبي زكريا، أو أمير المؤمنين، وإن كنت استبعد ذلك لأن أول من حمل هذا اللقب من الحفصيين كان هو المستنصر وبعد سقوط الخلافة العباسية في بغداد سنة ١٢٥٨م في حين أن من المنطقي أن تكون تلك الرسالة قد كتبت في سنة ١٢٤٠م عندما استقال من رئاسة المنظمة.

الحفصي وطلب منه السماح للدومنيكان بتأسيس مدرسة في مدينة تونس لتعليم الرهبان اللغة العربية (Studium Arabicum)^(١)، فوافق على ذلك. وفي سنة ١٢٥٠م تم إرسال ثمانية رهبان متصرين إلى تونس حيث أسسوا تلك المدرسة^(٢) التي حظيت باهتمام كبير من القائمين على حركة التنصير، ففيها كان المنصرون يتعلمون اللغة العربية والعلوم العقلية الإسلامية ويؤدون معلومات وافية عن عادات الناس في إفريقية وطريقة تفكيرهم ثم يطلقون إلى ميدان العمل القريب منهم مستفيدين من تسامح السلطان الحفصي. وفي نفس ذلك الوقت كانت البابوية تبذل جهوداً كبيرة في سبيل توحيد مسيحيي المغرب العربي بما فيه إفريقية وجعل مراكش مركزاً أسقفاً لهم جميعاً لتوحيد جهودهم، وقد أرسل البابا أنوسنت الرابع سنة ١٢٤٦م أحد أبرز العاملين في ميدان التنصير ومن أكثرهم نشاطاً هو Lope Fernando d' Ayn الآنف الذكر إلى مراكش بعد أن رسمه أسقفاً لكنيستها، في مهمة متعددة الأغراض منها توحيد مسيحيي المغرب العربي، والإشراف على الجهود التنصيرية التي كانت تبذل في تلك الآونة، ثم محاولة تنصير الخليفة المرتضى الموحد وكذلك إقناعه بتسليم الجند النصارى الذين كانوا في خدمته مواقع حصينة ليتركزوا فيها خشية مباغتتهم كما سبق أن ذكرناه، وتدل الرسائل التي وجهها البابا أنوسنت الرابع في تلك المناسبة إلى أربعة حكام كان من بينهم أمراء تونس وبجاية وسبتة، وإلى تسعة رؤساء أساقفة وأساقفة وإلى مراكز منظمة الفرانسيסקان وسواها من المنظمات الدينية^(٣) وإلى

(١) في سنة ١٢٣٦م أوصى الإخوان المبشرون (Les Freres Precheurs) المجمعون في باريس بتأسيس مدراس في كل المناطق التي يتجاور فيها المسلمون والنصارى فأسست تبعاً لذلك أربع مدراس في : مرسية وشاطبة وبلنسية وبرشلونة في الفترة من ١٢٤٥ - ١٢٥٠م، وفي سنة ١٢٥٠م وبناء على التوصية المذكورة أعلاه اتصل خايمي الأول وبائير من الدومنيكان عامة ورامون البيناغورتي بصفة خاصة بالمستنصر الحفصي يطلب السماح للدومنيكان بفتح مدرسة مماثلة.

R. Brunchvig : Op. Cit., Tom 1, p.461., B. R. Daniel : Op. Cit., p.9.

R. Brunchvig : Ibid, Tom 1, p.461., B. R. Daniel : Ibid, p.10. (٢)

(٣) وجهت البابوية بهذه المناسبة رسائل إلى السلطات الزمنية والدينية في كل من تشالة وجنوة ومرسيليا وبرشلونة ومبرقة وبلنسية وبامبلونة ولاردة وبرغش فضلاً عما ذكرناه في المتن هذا بالإضافة إلى سلطات الموائن التي سيعر بها في طريقه إلى المغرب.

E. Tisserant & G. Wiet : Op. Cit., p.47.

انظر :

جميع مسيحيي المغرب العربي يطلب منهم أن يساعدوا هذا الأسقف بكل ما أوتوا من قوة ونفوذ لإنجاح مهمته، كل ذلك يدل على خطورة تلك المهمة ومدى أهميتها^(١)، وقد تضمنت الرسالة الموجهة إلى أبي زكريا الأول الحفصي حث البابا له على الإحسان إلى البعثة الدينية التي سيوجهها هذا الأسقف إلى إفريقية وشملها برعايته^(٢)، وكان الدافع الرئيسي للبابا على الطلب من الجميع مساعدة الأسقف Lope Fernando d' Ayn في مهمته هو أن البابا المذكور (كان يرى إمكانية ازدهار الكاثوليكية في هذه البلاد الإسلامية)^(٣)، ولدى مرور d' Ayn بإسبانيا في طريقه إلى مراكش شرع في اختيار رجال الدين الذين سيقومون بمساعدته في المهام التي أوكلت إليه متسلحاً برسائل البابا التي كانت بحوزته فضلاً عن ما كان يرد من تلك الرسائل إلى إسبانيا والمتضمنة أوامر البابا بتقديم كل العون لهذا الأسقف ذلك (أن العناصر التي ستساعد الأسقف متقوم بأداء خدمة جليلة وثمينة، لذا فهي جديرة بالاهتمام والعناية والتشجيع)^(٤)، ولكن موقف الأمير الحفصي من ناحية وموقف المرتضى الموحدي كما يتضح من رسالته التي أشرنا إليها سابقاً من ناحية ثانية من مهمة الأسقف المذكور جعل البابوية تشعر بالفشل في ما أمّته من تلك المهمة^(٥).

وإذا كانت جهود الحركة التنصيرية في المغرب الأقصى قد باءت بالفشل، فإن آمال الحركة الصليبية في تنصير مسلمي إفريقية بقيت على حالها، وقد قوى تلك الآمال انتخاب همبرت الرومانسي (Humbert of Romans) في سنة ١٢٥٤م رئيساً لمنظمة الدومنيكان الذي كان من أشد المتحمسين لحركة التنصير وكان يشارك رامون البينافورتي طموحاته في إفريقية^(٦) وكان يأمل أن يتمكن رهبان منظمته تحت رئاسته (من سنة ١٢٥٤م إلى سنة

(١) E. Tisserant & G. Wiet : Op. Cit., p.46.

(٢) R. Brunschvig : Op. Cit. , Tom, 1, p. 460.

(٣) E. Tisserant & G. Wiet : Ibid, p.47.

(٤) E. Tisserant & G. Wiet : Ibid, p.50.

(٥) E. Tisserant & G. Wiet : Ibid, p.49 - 53.

(٥) لمزيد من التفصيل انظر :

(٦) كان همبرت الرومانسي من أنشط مفكري الدومنيكان، وفي سنة ١٢٥٥م وهي السنة التالية

لانتخابه رئيساً لتلك المنظمة كتب كتابه Littera Encyclica الذي ضمنه خلاصة آرائه في ميدان

التنصير، كما قدم في كتابه التالي المسمى Opus Tripartitum الذي كتبه للبابا جريجوري العاشر =

١٢٦٣م) من تنصير كافة المسلمين واليهود وغيرهم فضلاً عن توحيد الكنيستين الشرقية والغربية^(١)، ولذلك ما إن تولى رئاسة هذه المنظمة حتى أوعز إلى أوثك الزهبان بضرورة مضاعفة جهودهم وموافاته بتقارير تفصيلية عن نشاطاتهم أولاً بأول، وأما فيما يتعلق بإفريقية فقد أخذ في تعزيز المنصرين الدومنيكان فيها ببعثات تنصيرية جديدة أرسلها إليها، وكان البابا الإسكندر الرابع من جانبه يدهم هذه الجهود بقوة كما يظهر من رسالته المؤرخة ١٥ يوليو سنة ١٢٦٠م التي أرسلها إلى رامون البيناغورتى بصرح فيها بمساندته لحركة التنصير في إفريقية^(٢)، الأمر الذي زاد في نشاط هذه الحركة في تلك الآونة زيادة ملحوظة. وقد توجت هذه الجهود بظهور منصر آخر يعتبر من أشهر المنصرين في القرن الثالث عشر هو رامون مارتى (Ramon Marti) الملقب بخنجر الإيمان المسلول على المسلمين واليهود Pugio Fidei Adversus Mauros et judacos (١٢٣٠م - ١٢٨٦م)^(٣) القطلاني الأصل والذي انضم إلى منظمة الدومنيكان بين سنتي ١٢٤٣م و ١٢٤٨م، ثم أُرسل إلى مدينة تونس بإفريقية عند إنشاء المدرسة العربية (Studium Arabicum) بها في سنة ١٢٥٠م حيث تعلم اللغة العربية إلى أن أجادها حتى إنه نسب إليه معجم عربي لاتيني^(٤)، وقد أقام في تونس مدة طويلة يمارس نشاطه التنصيري فيها، وقد ربطته خلال تلك المدة بالمستنصر الحفصي صلة صداقة قوية، كما كان على اتصال وثيق بلويس التاسع ملك فرنسا كما سبق

= أثناء إشرأكه في مجمع ليون الثاني تفصيلاً أكثر عن تصويره للإرساليات التنصيرية، وقد بين في ذلك الكتاب أن التهديدات الموجهة للمسيحية تلخص في ثلاثة مصادر هي : الأعداء الخارجيون، الانشقاق الديني، مغامد الكيسة، ولهذا قسم كتابه المذكور إلى ثلاثة أقسام عالج في كل قسم أحد هذه التهديدات حيث تناول في القسم الأول الحرب الصليبية ضد المسلمين ورأى أن التنصير السلمي يجب أن لا يتعدى حدود مملكتي قشتالة وأرغونة، أما في الخارج فكان يرى وجوب اتباع الصليبية بوجهها المسلح والسلمي لذلك أفتح الوسائل وإن كان يميل إلى العملية المسلحة أكثر من الأخرى، ذلك أن التنصير الناجح في رأيه إنما يكون في ظل السيف.

(E. R. Daniel : Op. Cit., p.10 - 11.

انظر :

E. R. Daniel : Ibid, p.11.

(١)

R. Brunschvig : Op. Cit., Tom 1, p.461.

(٢)

(٣) د. محمد الطالبي : المرجع السابق ص ٥٢ حاشية ٢.

(٤) د. محمد الطالبي : المرجع السابق ص ٥٢ حاشية ٢.

ذكره^(١)، وفي سنة ١٢٦٧م غادر إفريقية للمرة الأولى إلى إسبانيا، ثم عاد إلى إفريقية ثانية وأقام بها إلى سنة ١٢٦٩م حيث غادرها نهائياً إلى أوروبا بصحبة مناصر آخر كان في إفريقية وتعدّ هو Cendra ونظراً لصلته القوية بلويس التاسع وبالمستنصر فإن بعض المراجع الغربية تشير إلى أن اتجاه لويس التاسع بحملته الصليبية إلى إفريقية إنما كان بوحى منه طمعاً في تنصيب سلطانهما كما سبق أن ذكرنا^(٢)، وإذا أضفنا إلى جهود هؤلاء، جهود كل من لونغمجيويه ورهبان منظمة الثالث المقدس اللذين سبق أن أشرنا إليهما، فضلاً عن نشاط رهبان منظمة أخرى هي منظمة عذراء الرحمة "Notre - Dame de la Merci" (The Order of our Lady of Mercy)^(٣) الذين كانوا هم الآخرون يجهزون أرجاء المغرب العربي بحثاً عن الأسرى، ويمارسون نشاطهم

(١) R. Brunschvig : Op. Cit., Tom 1, p.462.

(٢) لم تقتصر جهود رامون مارتي بعد عودته من إفريقية إلى أوروبا، فقد اختير عضواً في لجنة من خمسة أشخاص أسندت إليها مهمة تنقيح التلمود من العبارات المتألفة للمسيحية، وفي تلك الآونة ألف كتابه (The Pugio Fide) الذي كان عبارة عن دفاع عن المسيحية ضد الإسلام واليهودية، وقد انتقل إلى مولييه للتدريس في جامعتها حيث أقام بها بضع سنوات، وفي سنة ١٢٨١م عين أستاذاً للدراسات العبرية في جامعة برشلونة، وبقي في هذا المنصب حتى سنة ١٢٨٤م وهي السنة السابقة على وفاته. وتشير المراجع الغربية إلى أنه قد ربطه صلة قوية بكل من رامون البيناغورتي وهيرت اقرومانسي ورامون لول.

(انظر : R. Brunschvig : Ibid, Tom 1, p.462., E. R. Daniel : Op. Cit., p.11.)

(٣) أسس هذه المنظمة فرنسي من كراكسون يدعى بطرس نولاسكو St. Peter Nolasco ربما في سنة ١٢١٨م وكان قد ترك موطنه واستقر في أرغونة واتصل بملكها غايي الأول، وقد وضع نظامها بالتعاون مع رامون البيناغورتي وكانت ذات طبيعة دينية وعسكرية، وكان الغرض الأساسي من إنشائها هو العمل على إطلاق الأسرى المسيحيين اللذين كانوا يتواجدون في دول المغرب العربي، وكان أعضاؤها يرهنون أنفسهم لدى المسلمين مقابل إطلاق سراح هؤلاء الأسرى ويظلوا رهائن حتى تدفع الأموال المقررة للفداء، وفي خلال تجوالهم واتصالاتهم بمسلمي إفريقية والمغرب كانوا يمارسون نشاطات تنصيرية الأمر الذي كان يؤدي إلى إعناهم، ويقل إنهم قاموا في العقود الثمانية التالية على تأسيس منظمهم حتى نهاية القرن الثالث عشر بحوالي سبعين رحلة إلى إفريقية والأندلس والمغرب وقد أعد منهم في هذه الرحلات سبعة عشر عضواً وزاد نشاطهم في القرن الرابع عشر وأعد منهم الكثير في إفريقية في مدن تونس وعناة وبجاية والقل، وكان غالبية أعضائها من القطلان، وفي سنة ١٤٠٣م أعلن مارتن ملك أرغونة حمايته لهذه المنظمة.

(انظر : E. Tisserant & G. Wiet : Op. Cit., p.47, R. Brunschvig : Ibid, Tom 1, p.457)

S. Clisold : Op. Cit., p.14-15).

التصيري، حتى إن بعضهم أعلم في بجاية سنة ١٢٦٦م^(١) لأدركنا مدى نشاط الحركة التصيرية في إفريقية قبيل حملة لويس التاسع الصليبية عليها، وما يدلنا على ذلك هو أن المنصرين اللومنيكان في إفريقية كانوا في سنة ١٢٦٠م يهتتون بعضهم بعضاً على الجهود التي بذلوها في سبيل تنصير المسلمين فيها وعلى ما يترفعونه من لمار طيبة أملوا في جنيها في المستقبل القريب^(٢).

وقد فتحت معاهدة الصلح المعقودة بين المستنصر الحفصي والصليبيين سنة ٦٦٩هـ / ١٢٧٠م المجال أمام القائمين على هذه الحركة لبذل مزيد من الجهود التصيرية وبحرية تامة ودون أدنى اعتراض من السلطان كما سبق ذكره ولذلك أخذت البعثات التصيرية تتوالى على نواحي إفريقية خاصة في عهد الاضطراب السياسي الذي أعقب وفاة المستنصر ٦٧٥هـ / ١٢٧٦م ويتشجع من مملكة أرغونة التي أخذت في تلك الأونة تتدخل في شؤون الدولة الحفصية بشكل سافر، ووصلت تلك الجهود ذروتها بوصول رامون لول إلى إفريقية في أواخر القرن السابع الهجري (الثالث عشر للميلاد).

رامون لول داعية تنصير :

يعتبر رامون لول من أشهر دعاة التنصير في العصور الوسطى، وقد اكتسب هذه الشهرة ليس لأنه أول من عمل في هذا المجال بين المسلمين، ولكن لأنه كان أكثر مجهوداً من الذين سبقوه أو عاصروه. ولد رامون لول في ميورقة إحدى الجزائر الشرقية (جزر البليار) في حدود سنة ١٢١٢م من أبوين هما رامون أيضاً وإليزابيث الذين كانا ينتميان لعائلتين نبيلتين من أرغونة، وكان والداه قد حصلا على أملاكهما في تلك الجزيرة مكافأة لهما من الملك خافيي الأول الفاتح ملك أرغونة نظير المساعدات التي قدمها له في حروبه^(٣). قضى لول مطلع حياته في ميورقة حيث عني أهله بتربيته وتثقيفه ليصبح من رجالات بلاط ملك أرغونة، وفي سنة ١٢٤٦م اختير مرافقاً ومرشداً للأميرين الصغيرين

R. Brunschvig : Op. Cit., Tom1, p.457.

(١)

R. Brunschvig : Ibid, Tom 1, p.465.

(٢)

J. N. Hillgarth : Op. Cit., p.2 - 3.

(٣)

ينفرو وخايحي ابني الملك خايحي الأول. وقد أغرته حياته المترفة على أن ينفخس في الفسق والفجور^(١) وأن يقرض الشعر بالقطلاية على نهج شعراء الترابدور^(٢)، ولم يردعه زواجه أو إغماجه لطفلين ليغير من غط حياته^(٣)، ولكن في سنة ١٢٦٣م حدث تحول هام في معجى حياته إذ قرر ترك التهتك والحلاعة ونذر نفسه لخدمة المسيحية، أما السبب الحقيقي لهذا التحول فهو غير معروف بالضبط^(٤)، ومن غير المستبعد أن يكون قد شعر كأبناء عصره بمرارة الفشل الذي منيت به الحركة الصليبية في تلك الآونة مما جعله يتأثر بما كان ينور من حوله ويدرك أنه لا بد للحركة الصليبية من اتباع أسلوب جديد إلى جانب أسلوبها التقليدي الممثل في استعمال القوة العسكرية كي يتسنى لها تحقيق أهدافها، ما دام ذلك الأسلوب التقليدي لم يؤد إلى الحصول على النتيجة المرجوة، فهذه تفكيره إلى ضرورة تدعيم الصليبية المسلحة المتمثلة في حركة التنصير لا لتحل محل الصليبية المسلحة ولكن لتساندها وتكون مكملتها.

لم يكن رامون لول هو المبتدع لهذه الفكرة، بل سبقه إليها العديد من المفكرين الصليبيين حتى شاعت بين المسيحيين في غرب أوروبا، فقد ظهرت هذه الفكرة لأول مرة أثناء حملة الأطفال سنة ١٢١٢م، عندما قام صبي اسمه نيقولا في حوض الراين وأعلن أن الأطفال الألمان لن يلجأوا إلى غزو الديار المقدسة بالقوة، وإنما سينجحون في تحويل المسلمين

(١) J. N. Hillgarth : Ibid, p.2.

(٢) N. Daniel : Ibid, p.67. J. N. Hillgarth : Ibid, p.2.

(٣) تزوج رامون لول من فتاة تدعى بلانكا (Blanca Picany) في سنة ١٢٥٦م أو ١٢٥٧م وهي سليلة لإحدى الأسر النبيلة أيضاً وأنجب منها طفلي هما درميك وماجدولين.

(٤) انظر : J. N. Hillgarth : Ibid, p.3. E. R. Daniel : Ibid, p.67.

(٤) تزعم العديد من المصادر والمراجع الغربية أن سبب هذا التحول هو أنه بينما كان في إحدى الليالي يكتب قصيدة غرامية لإحدى صديقاته التفت بمحة فرأى هيئة السيد المسيح معلقة على الصليب ففرع وهرع إلى فراشه ينشد الأمان. وفي اليوم التالي شك في الرؤية وأبعدها من خاطره، ولكن حدث أن تكررت نفس الرؤية في الأسبوع التالي في نفس المكان والساعة التي حدثت فيها الأولى حينما كان يعالج الشعر أيضاً، وعندما تكررت بعد ذلك ثلاث مرات أخرى، اعتقد أن المسيح أراد أن يهجر حياته تلك ويترغ لخدمته. وبعد صراع مع نفسه أعلن التوبة ونذر نفسه لخدمة المسيحية.

(انظر : J. N. Hillgarth : Ibid, p.3, E. R. Daniel : Ibid, 67.

جيمعاً إلى المسيحية عن طريق التبشير^(١)، وفي سنة ١٢٤٨م ظهر كتاب (Super Hieremion) أو (Expositio Hieremion) الذي ينسب إلى المفكر الصليبي (Joachim)^(٢) والذي يقول مؤلفه فيه إن الحروب الصليبية تضعف المسيحية وأن السلام يكتسب برهبان المنظمات التبشيرية لا بالحرب^(٣). كما أن توما الأكويني كان يستهدف المسلمين عندما كتب دراسته الكبيرة المسماة (خلاصة ضد الأعاجم) Summa Contra Gentiles حوالي سنة ١٢٦١م - ١٢٦٤م بناءً على طلب رامون البيناغورتي لكي يستخذه في تدعيم جهود بعثاته التبشيرية^(٤) حيث تظهر آراؤه التبشيرية في ذلك المؤلف المشابهة لآراء (Joachim)، كما نادى بهذه الفكرة مفكر آخر يعتبر من أشهر المفكرين المسيحيين في العصور الوسطى وهو روجر بيكون (١٢١٤ - ١٢٩٢م) إذ يقول في كتابه Compendium Studii Philosophia الذي كتبه في سنة ١٢٧١م : (إن المسيحيين قلة، وإن غير المسيحيين أكثر، وكسب غير المسيحيين يجب أن يكون بالوعظ - أي بالتبشير - وليس بالحروب الصليبية، وسيهتدي الكثيرون منهم إذا ما اتبع المنصرون الخطة التي قدمها في ذلك الكتاب)^(٥). كما قال إن الحروب الصليبية غالباً ما أدت إلى كوارث عسكرية كالهزيمة التي لحقت ببلويس التاسع في دمياط، وحتى حينما احتل المسيحيون بلداناً وراء البحار كانت تنقصهم القوة البشرية للدفاع عن أنفسهم. وزيادة على ذلك فإن الصليبيين لم يقوموا بهدأة المسلمين الذين يدعوهم بالكفار إلى الإيمان وإنما كانوا يقتلونهم وبذلك كانوا يحكمون بأرسلاتهم إلى جهنم! لهذا كان الناجون من القتل من هؤلاء الكفرة!

(١) د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٩٥٥ - ٩٥٦، د. محمد محمد أمين : المرجع السابق ص ١٦٢.

(٢) هو مفكر صليبي معروف، وبالرغم من أنه كان أحد دعاة الحملة الصليبية السابعة إلا أنه كان يرى أن استعمال القوة العسكرية ضد المسلمين والهرطقة الذين يسميهم بأتباع الشيطان هي عديمة الفائدة وأن انتصار المسيحيين يجب أن يكون بالتبشير، ليس بالسلاح ولكن بالفلسك بالإيمان والعبر.

E. R. Daniel : Op. Cit., p.9.

انظر :

E. R. Daniel : Ibid, p.21 - 22.

(٣)

(٤) شاخت وبزورث : المرجع السابق ق ١ ص ٤١.

E. R. Daniel : Ibid, p.61 - 62.

(٥)

في أتمد الغيظ وأكثر عدااء للمسيحية عما كانوا عليه من قبل^(١). ولم يقف روجر ليكون في آرائه الصليبية عند هذا الحد بل رأى أن ترصد الأموال التي تصرف على الحروب الصليبية لدعم حركة التنصير، كما حث البابوية على إصدار تعليماتها للمنصرين لدراسة اللغات الشرقية^(٢). وكان ممن نادى باستعمال الصليبية السلمية إلى جانب الصليبية المسلحة في تلك الآونة أيضاً رامون البنيافورتي الذي تعود معرفة لول به إلى عهد مبكر حينما كان لول وصيفاً في بلاط نخايي الأول ورامون البنيافورتي قسيس اعتراف ذلك الملك، وتوثقت العلاقات بينهما حتى أصبح رامون البنيافورتي هو المرشد والموجه لرامون لول في خططه التي كان يضعها لتنصير المسلمين وفي إنشاء كليات تعليم اللغات الشرقية^(٣)، ثم هبمرت الرومانسي (Humbert of Romans) الأنف الذكر، ومعاصره وليم الطرابلسي الذي كان يعتقد أن التنصير هو أفضل السبل لتحقيق الأهداف الصليبية وللتدليل على صحة رأيه كتب إلى البابا رسالة زعم فيها أن عدد أكثر من ألف مسلم^(٤) بالإقناع.

ومع ذلك، فإن رامون لول بالرغم من أن هؤلاء قد سبقوه في المناذاة بالعمل بهذه الفكرة وأنه قد تأثر بآرائهم إلى حد بعيد، إلا أنه فاقهم جميعاً في بذل الجهود المضنية لوضعها موضع التنفيذ. لقد رأى لول حينما اتخذ قراره الأنف الذكر بأنه تنقصه الثقافة الدينية اللازمة للعمل الضخم الذي هو مقدم عليه، كما وتنقصه المعرفة باللغة العربية اللازمة له لمناظرة المسلمين ونقل حججه وآرائه إليهم مباشرة، لذلك اعتكف^(٥) في دير للرهبان المسترشيان فترة من الوقت هو دير (Nestra Dona dela Real) الغريب من بالمّا حاضرة ميورقة للتأمل والعبادة ودراسة الدين على الرهبان^(٦). وفي عزلة تلك توصل إلى الأهداف الرئيسية الثلاثة

R. R. Daniel : Ibid, p.62. (١)

E. R. Daniel : Ibid, p.62. (٢)

E. R. Daniel : Ibid, p.68. J. N. Hillgarth : Op. Cit., p.5 & p.22. (٣)

E. R. Daniel : Ibid, p.12. (٤)

(٥) يقال إنه عندما اتخذ قراره يوقف نفسه على خدمة الحركة الصليبية باع معظم أملاكه ولم يترك منها إلا ما يكفي زوجته وطفله، وتبرع بالثمن لفقراء مدينة بالمّا حاضرة ميورقة.

J. N. Hillgarth : Ibid, p.5. انظر : (٦)

E. R. Daniel : Ibid, p.67 - 68., H. N. Hillgarth : Ibid, p.7 & p.451. (٦)

التي عمل من أجل تحقيقها باقي حياته، وهي تأليف كتب يدحض فيها حجج غير المسيحيين خاصة المسلمين، وإعداد الرهبان الذين يتولون مهمة التنصير إعداداً صحيحاً بإنشاء مدارس خاصة لهذا الغرض، وأخيراً الموت في سبيل المسيح للتكفير عن ذنوبه السابقة^(١). وبعد أن غادر ذلك الدير الذي ظل يتردد عليه بين الحين والآخر، اشترى عبداً مسلماً ليعلمه اللغة العربية والفلسفة الإسلامية حيث أمضى في دراستهما نحو عشر سنين حتى أتقن اللغة العربية وغرف خلالها من الثقافة الإسلامية لا سيما الفلسفة ما أطلق^(٢) وتقول المراجع الغربية إن هذا المسلم انتحر بعد ذلك^(٣). أما لول فقد بدأ حياة التجوال فسافر إلى الشرق حيث زار الديار المقدسة ومصر وغيرها ثم عاد إلى مهورية، وقد عزم بعد عودته على السفر إلى باريس في طلب العلم ولكن والديه وأصدقاءه وخاصة رامون البنيافورتي ثنوه عن عزمه، ويذكر توماس سلاني (Thomas de Celano) في كتابه (Vita Prima S. Francisci) أن لول ألف في تلك الفترة كتابه المسمى (Libre de contemplacio de Deu) الذي كتبه أولاً بالعربية ثم ترجمه إلى القبطانية ويتضمن دفاعه عن المسيحية ضد المعتقدات الأخرى خاصة الإسلام واليهودية، كما ألف في تلك الفترة كتاباً آخر في نفس الغرض هو (Ars Magna) الذي عرف فيما بعد باسم (Ars Generalis)^(٤) ويبدو تأثير رامون البنيافورتي وتوما الأكويني على رامون لول واضحاً في كلا المؤلفين.

E. R. Daniel : Op. Cit., p.66 - 67., A. S. Atiya : Op. Cit., p.74.

(١)

J. N. Hillgarth : Op. Cit., p. 4.

E. R. Daniel : Ibid, p.67 - 68., A. S. Atiya : Ibid, p.74.

J. N. Hillgarth : Ibid, p.5. N. Daniel : Op. Cit., p.310 - 311

(٣) وتذكر بعض هذه المراجع إن السبب في انتحار هذا المسلم هو أنه جرى ذكر المسيح عليه السلام أمامه ذات يوم فقال عنه إنه نبي كباقي الأنبياء تمثيلاً مع العقيدة الإسلامية فيه، فاعتبر الحضور هذا القول منه تمجيداً وقدفاً منه على المسيح لإنكاره ألوهيته فوشوا به إلى سيده الذي ما كان منه إلا أن جلده بقسوة مما أثار حفيظة هذا المسلم على لول فحاول بعد ذلك اغتياله ولكنه فشل بسبب تدخل باقي الحشم الذين سارعوا لإنتقاذ سيدهم، فأمر لول بوضعه في السجن حتى يرى رأي فيه بعد عودته من عزلة كان يحترم وقتل القيام بها في الدير الآنف الذكر، وعندما عاد من تلك العزلة وجده كان قد انتحر. (انظر : J. N. Hillgarth : Ibid, p.450 - 451.

J. N. Hillgarth : Ibid, p.6., E. R. Daniel : Ibid, p.68.

(٤)

وفي سنة ١٢٧٤م أو سنة ١٢٧٥م استدعاه خايي الأول إلى بلاطه في مونبليه، وأثناء وجوده هنالك قدم مؤلفيه إلى هذا الملك فأحالهما هذا بدوره إلى راهب يدعى برنارد برنغار (Bertrand Berenguer) لدراستهما وتقديم تقرير إليه عنهما، وقد أبدى برنغار إعجابه بهما^(١) الأمر الذي شجع لول على أن يطلب من الملك تأسيس مدرسة في ميورقة تعد لتعليم ثلاثة عشر راهباً صغيراً اللغة العربية، وحينما يتم إعدادهم إعداداً جيداً يؤهلهم لتولي مهمة التنصير بين المسلمين يغادرون تلك المدرسة ويؤتى بغيرهم ليحلوا محلهم فيها، فوافق الملك على ذلك، ومع أن خايي الأول قد توفي في تلك الآونة، إلا أن ذلك كان في صالح مشروع لول حيث إن ميورقة كانت من نصيب صديقه خايي لدى اقتسام المملكة بينه وبين أخيه يندرو، الذي وافق على إنشاء تلك المدرسة على نفقته. وفي ١٧ أكتوبر سنة ١٢٧٦م صلب مرسوم فيترو Viterbo من البابا يوحنا الحادي والعشرين بالموافقة على إنشاء كلية ميرامار في ميورقة والتي ظلت تعمل حتى سنة ١٢٩٢م حيث توقفت لسبب غير معروف بالضبط^(٢)، وخلال الفترة من سنة ١٢٨٢م إلى سنة ١٢٩١م أخذ لول يطوف في أوروبا داعياً لتبني آرائه، فحضر اجتماع منظمة الدومنيكان الذي عقد في مونبليه سنة ١٢٨٣م، وزار روما سنة ١٢٨٧م على أمل مقابلة البابا هونوريوس الرابع (Honorious IV) فوجده قد توفي (ت ٣ إبريل سنة ١٢٨٧م) فغادر إيطاليا إلى باريس حيث أخذ يحاضر في جامعتها فترة من الزمن ألف خلالها كتابه (Libre de les besties) الذي قدمه إلى فيليب الرابع ملك فرنسا، ولما لم يجد لديه ما كان أمل فيه من دعم ومساندة عاد إلى مونبليه فحاضر في جامعتها، وفيها ألف كتابه (Ars Ueritatis Inuentius) وفي ٢٦ أكتوبر سنة ١٢٩٠م صافر إلى روما

J. N. Hillgarth : Op. Cit., p.47.

(١) انظر :

E. R. Daniel : Op. Cit., p.68 - 9., R. Brunschwig : Op. Cit., Tom 1, p.461 - 462 (٢)

J. N. Hillgarth : Ibid, p.48 - 9.

ويعتقد (J. N. Hillgarth : Ibid, p.48 - 9) أن السبب في تعطيل هذه المدرسة يعود لعلالة قوية بين لول وخايي ملك ميورقة الذي كان على خلاف مع أخيه يندرو الثالث ملك أرغونة وعندما استولى الأخير على نصيب أخيه من المملكة والذي كانت ميورقة من ضمنه أمر بإقفال تلك المدرسة نكاية بلول.

مزوداً برسالة توصية من رئيس منظمة الفرانيسكان إلى جميع مراكز المنظمة المذكورة في إيطاليا لبذل العون إلى لول^(١)، وكان يأمل من تلك الزيارة جعل البابا يقولوا الرابع الفرانيسكاني يصغي إليه ويقنعه لتبني آرائه، ولكن هذا البابا الذي كان يدعم موقف الأسرة الأيجونية في نزاعها مع أرغونة على عرش مملكة الصقليتين خيب ظنه لكونه على صلة قوية بالأسرة الحاكمة في أرغونة^(٢)، لذلك عاد لول إلى جنوة حيث قرر السفر إلى إفريقية لبدء جهوده التنصيرية فيها، وبعد أن وجد سفينة كانت على وشك الإقلاع إليها خاتنه شجاعته فعدل عن رأيه، حتى إذا ما أقفلت تلك السفينة ندم على جبنه نداماً شديداً مما أوقعه فريسة للمرض، وأخيراً استجمع شجاعته حينما علم بأن سفينة أخرى هي (San Bernardo) على وشك الإقلاع إلى مدينة تونس، فاستقلها وأبحر في سنة ١٢٩٢م في رحلته الأولى إلى إفريقية^(٣).

وأثناء الطريق بدأ يستعيد صحته تدريجياً، كما تمكن من أن يجمع من التجار والملاحين الذين كانوا على ظهر السفينة جميع المعلومات اللازمة له عن مسلمي إفريقية، عن حياتهم وعاداتهم، وما يحبونه ويكرهونه أو يحرمونه وعن آداب السلوك عندهم والطريقة المثلى لجعلهم يصفون إليه، وكان من بين الذين عرفهم على ظهر تلك السفينة تاجرين جنوبيين هما : (Luigi de Pastorga) و (Stephano Colombo) اللذين سيكون لهما شأن فيما بعد، وعند وصوله إلى تونس لم يفصح في البداية عن غرضه، حتى إذا ما اختلط بالناس وعرف ما كان يرغب في معرفته عن الحالة السياسية والاجتماعية والثقافية في المدينة وأسماء المسؤولين في الدولة ومنتديات المثقفين، أخذ يوم تلك المنتديات مدحياً أنه قد درس المسيحية وجاء إلى إفريقية للدراسة الإللام، وإن وجده أفضل من المسيحية فإنه سيحقه دون تردد، وقد مكث هذا الزعم من مناظرة بعض مسلمي المدينة الذين أملوا في إقحامه مبادئ

J. N. Hillgarth : Op. Cit., p.47.

(١) انظر :

J. N. Hillgarth : Ibid, p.52 - 3., E. R. Daniel : Op. Cit., p.70.

(٢)

J. N. Hillgarth : Ibid, p.70 - 3

ولزيد من التفصيل عن علاقة لول بملوك أرغونة انظر

E. R. Daniel : Ibid, p. 70., R. Brunschwig : Op. Cit., Tom 1, p. 463.

(٣) انظر :

J.N. Hillgarth : Ibid, p.22. الذي يرى أن هذه الرحلة كانت سنة ١٢٩٣.

الدين الإسلامي^(١). وتزعم بعض المراجع الغربية أنه في مناظراته مع هؤلاء استطاع أن يفند حججهم الواحدة تلو الأخرى مما أصابهم بالدعشة والارتباك لقوة حججه^(٢)، الأمر الذي جعلهم يعتبرونه خطراً على المسلمين فوشوا به للسلطات^(٣)، ومع أنه من غير المستبعد أن يكون في هذا الزعم المبالغ فيه إلى حد كبير شيء يمت إلى الحقيقة بصلته، ذلك لأنه وكما هو معروف بأن المناظرة تتطلب معرفة تامة بعلم الكلام وهو ما لم يكن مسلمو إفريقية يهتمون به أو بدرامته بقدر اهتمام الأندلسيين والمشاركة، فضلاً عن أن أهل إفريقية كانوا يربوون بأنفسهم عن مناظرة أصحاب الديانات الأخرى احترازاً من وقوعهم في الإثم، يؤكد ذلك ما ذكره الضبي عن الفقيه القيرواني أبي محمد عبد الله بن أبي زيد عندما وصف للفقيه أحمد بن محمد بن سعدي المالكي عند عودته من المشرق مجالس المناظرات بين المسلمين وغيرهم في بغداد وما كان يدور فيها (فجعل أبو سعيد يتعجب من ذلك وقال ذهب العلماء وذهبت حرمة الإسلام وحقوقه وكيف يبيع المسلمون المناظرة بين المسلمين والكفار وهذا لا يجوز أن يفعل لأهل البدع الذين هم مسلمون ويقرون بالإسلام وبمحمد عليه السلام وإنما يدعى من كان على بدعة من متحلي الكلام إلى الرجوع إلى السنة والجماعة فإن رجع قبل وإن أبى ضربت عنقه. وأما الكفار فإنما يدعون إلى الإسلام فإن قبلوا كف عنهم وإن أبوا وبللوا الجزية في موضع يجوز قبولها كف عنهم وقبل منهم وأما أن يناظروا على أن لا يحتج عليهم بكتابنا ولا بديننا فهذا لا يجوز فإننا لله وإننا إليه راجعون)^(٤)، ولعل ذلك كان هو سبب الندرة الشديدة في تسجيل المناظرات في مؤلفاتهم، وقد فسر ابن خلدون هذا الأمر بقوله في المقدمة عن هذا الموضوع : (ولم نر أن نسخم أوراق الكتاب بذكر مذاهب كفرهم، فهي على الحملة معروفة، وكلها كفر كما صرح به القرآن الكريم، ولم يبق بيننا وبينهم في ذلك جدال ولا استدلال، إنما هو الإسلام أو الجرية أو القتل)^(٥)،

(١) N. Daniel : Op. Cit., p.311., J. N. Hillgarth : Op. Cit., p.22 - 3.

(٢) انظر : N. Daniel : Ibid, p.311., J. N. Hillgarth : Ibid, p.23.

(٣) لمزيد من التفصيل عن هذه المناظرات انظر : J. N. Hillgarth : Ibid, p.23 - 5.

(٤) الضبي : بنية الملتصق ص ١٤٦.

(٥) ابن خلدون : المقدمة، طبعة دار الشعب بالقاهرة ص ٢٠٩.

لذلك كان من اختص بهذا النوع من المؤلفات من المسلمين هم الأندلسيون والمشارقة^(١).

أما حقيقة الأمر في اعتقادنا فهي أنه نظراً لشدّة تعصب لول هذا التعصب الذي يمكن الاستدلال عليه من عقوبته لمحوه المسلم الذي علمه اللغة العربية والفلسفة الإسلامية لا شيء إلا لأنه عبر عن معتقده في المسيح عليه السلام، قد أصمت أذنيه وختمت على فؤاده فلم تسمح له بتفهم الإسلام، سواء أكان الذين ناظرهم من العلماء أو من بسطاء العامة قصور أنه دحض حجج المسلمين، وبطبيعة الحال حينما يمس المسلمون منه، ونظراً لتهجمه على معتقدهم لم يستطيعوا الاستمرار في احتمال ذلك منه، فشكروا أمره إلى السلطات بعد إقامة له في مدينة تونس تقارب السنة، وهو أمر يدل على تسامح المسلمين الذين احتملوا تهجمه على الإسلام هذه المدة الطويلة في نفس الوقت الذي لم يكن مسيحيو أوروبا على استعداد لاحتمال أقل من ذلك من مسلم في بلادهم ولو ساعة واحدة إذن لأعدموه فوراً. لهذا قبض عليه وأودع السجن، ثم حوكم حسب الشريعة الإسلامية وأسندت إليه تهمة الشرك والحض على الكفر، فحكم عليه بالإعدام، ثم خفف الحكم ربما بتدخل من النصارى في إفريقية إلى النفي، فنقل من سجنه إلى الميناء تحت وبجل من الحجارة من العامة، وألقي به في مركب جنوي كان يوشك على مغادرة تونس، وبالكاد تم إنقاذه من الجماهير الغاضبة والتي كادت تقتل بشخص أوروبي آخر يشبهه ظناً منها أنه لول، حيث أفلته تلك السفينة إلى نابل^(٢)، وقد صرح فيما بعد أنه نجا من الموت في تونس نظراً لأن علماء المدينة رأوا أن قله سيتسبب في خلق العراقل في وجه المسلمين الذين كانوا وقتئذ يعملون على هداية النصارى للإسلام^(٣).

ولم يوهن فشله في إفريقية من عزيمته، بل حاول مقابلة البابا كليستين الخامس (Celestine V) فنشل أيضاً، لكنه تمكن من مقابلة خليفته البابا يونيفاس الثامن حيث قدم له

(١) انظر قائمة كتب المناظرات التي ألّفها المسلمون (بيلوغرافيا) التي أعدها الأستاذ عبد المجيد الشرفي، ونشرها في مجلة «إسلاميات مسيحيات». Islamochristiana روما، عدد سنة ١٩٧٦، وعدد سنة ١٩٧٨.

E. R. Daniel : Op. Cit., p.70., N. Daniel : Op. Cit., p.311.

(٢) انظر :

A. S. Aïya : Op. Cit., p.90., R. Brunschvig : Op. Cit., Tom 1, p.463.

N. Daniel : Ibid, p. 311.

(٣) انظر :

مشروعه الصليبي وخططه المتعلقة بالتصوير على أمل تبنيها ولكن دون جدوى^(١) كما سبق أن ذكرنا، ولكن ذلك لم يثنه عن عزمه فظل يطوف أوروبا يقابل ملوكها وأمرائها وكبار رجال الدين فيها، ويلقي محاضراته في جامعاتها، ويؤلف الرسائل والكتب والمقالات، كل ذلك من أجل خدمة الحركة الصليبية، حتى إذا ما سمع بأن غازان خان تثار فارس قد زحف على بلاد الشام في سنة ١٢٩٩م بجيش يقدر بمائة ألف جندي، سارع للمفر إلى المشرق على أمل مقابلة هذا الخان وتنصيره، ولكنه عندما وصل إلى الشام وجد أن الخان كان قد قفل عائداً إلى فارس^(٢)، مما جعل لول يشعر بخيبة مسعاه، ومع ذلك فقد حاول إقناع ملك قبرس بمساعدته في السفر إلى العراق ومصر وآسيا الصغرى وبلاد الشام للعمل على كسلكة المسيحيين الشرقيين، لكنه فشل في ذلك أيضاً مما جعله يعود أدراجه إلى باريس بهدف التفاهم مع أساتذة جامعتها فيما يتعلق بخططه التصيرية، والعمل على مناظرة أتباع فلسفة ابن رشد ودرء خطرهم على المعتقدات المسيحية الذي استفحل في تلك الآونة^(٣). ولكن تلك الجهود لم تشغله عن هدفه في إفريقية، إذ ظلت فكرة العودة إليها لتصير مسلميها أو لإنقاذ أرواحهم كما كان يزعم مسيطرة عليه حتى تملكته^(٤)، ويبدو أن الفشل الذي صاده مرات عديدة كان له تأثير قوي على نفسه، حتى إنه لم يخف ذلك في كتابه المسمى «كتاب النهاية» (Libre de Fine) الذي ألّفه في تلك الآونة، والذي ينضج بالمرارة التي كان يشعر بها لتحطم آماله والتي تظهر حتى في عنوانه، مما دفعه إلى المغامرة بالسفر إلى إفريقية من جديد.

وفي سنة ١٣٠٧م أبحر إلى مدينة بجاية في رحلته الثانية إلى إفريقية حيث اتصل فيها

(١) A. S. Atiya : Op. Cit., p. 76.

(٢) زحف غازان بهذا الجيش بقية القضاء على دولة المماليك فالتقى بسرية من الجيش المماليكي بقيادة الأمير كاشاك بسلامية قرب حمص في ٢٣ ديسمبر ١٢٩٩م، ولما رأى المماليك قلة عددهم انضموا إلى غازان الذي زحف حتى وصل أبواب دمشق فاستسلمت له على شرط الأمان، وقد اكفى بهذه النتيجة وعاد إلى فارس في شهر فبراير سنة ١٣٠٠م مهدداً بالعودة ثانية وتدمير كل شيء إذا تجرأ أحد على عصيانه.

(٣) (انظر : A. S. Atiya ; Ibid, p.90., J. N. Hillgarth : Op. Cit., p.73 - 4.

(٤) انظر : A. S. Atiya ; Ibid, p. 91., N. Daniel : Op. Cit., 310.

(٤) انظر : د. محمد محمد أمين : المرجع السابق ص ١٦٥.

ببعض علماء المسلمين وطلب مناظرتهم في أمور الدين، وحدد قاضي المدينة الزمان والمكان لتلك المناظرة^(١)، ولكنه بدلاً من أن يستفيد من تجربته في تونس فيتوخى مزيداً من الحذر في دعوته ولا يحاول إثارة عامة المسلمين عليه، وإذا به يتجه وقبل موعد المناظرة مباشرة إلى جمهور المسلمين ربما مدفوعاً بشعوره بالأس، وبمزيد من الوقاحة والعداء غاطبهم بأعلى صوته قائلاً بأن الديانة المسيحية مقدسة وهي الصحيحة وأن العقيدة الإسلامية زائفة ومبينة على مغالطات^(٢)!!! فارتثت ثائرة المسلمين وهجموا عليه يريدون الفتك به مستحلين دمه، ولم ينقذه إلا تدخل السلطات التي ألقت القبض عليه وساقته إلى قاضي المدينة حيث جرت محاكمته حسب مقتضيات الشريعة الإسلامية، وقد حاول القاضي أثناء المحاكمة إقناعه الدين الإسلامي على حقيقته على أمل إقناعه باعتناق الإسلام، ولكنه أصم أذنيه واستمر في طعنه في الإسلام، مما جعل الناس يطالبون بإعدامه، فتدخل التجار القطلان والجنوبيون الموجودون في المدينة لدى السلطات وتمكنوا من إقناعها بالاكْتفاء بنفيه من بجاية فألقي في السجن ومن ثم طرد إلى بيزا سنة ١٣٠٨م بعد سجن دام ستة أشهر^(٣). وقد ألف في السجن كتابه المسمى (الخلافا بين رامون المسيحي وعمر المسلم) *Disputatio Raimundi Christiana et Homeri Saraceni* الذي تضمن ردوده على حجج المسلمين عليه أثناء وجوده في بجاية وبصفة خاصة شخص يسميه (Homeri) يقول عنه إنه أحد المثقفين المسلمين في تلك المدينة^(٤)، والذي دعوانه (عمر) نظراً لأنه أقرب الأسماء العربية لهذا الاسم^(٥)، وهو كتاب كان من الممكن أن يكون ذا فائدة كبيرة في ميدان المناظرات لو أنه وصلنا بأكمله إذ أنه فقد منه في البحر قبل وصوله إلى بيزا.

(١) انظر : د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٢٣٩. A. S. Atiya : Op. Cit., p.91.

R. Brunschvig : Op. Cit., Tom 1, p. 463., J. N. Hillgrath : Op. Cit., p.26.

(٢) انظر : J. N. Hillgrath : Ibid, p.26., N. Daniel : Op. Cit., p.311 - 2.

(٣) انظر : J. N. Hillgrath : Ibid, p.26., N. Daniel : Ibid, p.311 - 2.

د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٢٣٩. A. S. Atiya : Ibid, p.31.

(٤) J. N. Hillgrath : Ibid, p.26 & p. 99 - 101, A. S. Atiya : Ibid, p.91.

R. Brunschvig : Ibid, Tom 1, p.464.

(٥) ناقش الدكتور عزيز سوربال عطية موضوع هذا الاسم وتوصل إلى أن أقرب الأسماء العربية له هي

عمر أو عمار (انظر A.S. Atiya : Ibid, p.91)

ويستدل من مؤلفات لول الأخرى التي تلت ذلك الكتاب بأنه كان يتكون من مقدمة وثلاثة أجزاء، والثاني منها ذو أهمية دينية كبيرة، وأما الثالث فهو ذو قيمة تاريخية بالإضافة إلى بعض الآراء التي تضمنها في الكيفية التي ينبغي أن تكون عليها المناظرة، وخلاصة ما يقول لول في الجزئين الأول والثاني أن عمر Homer أثناء مناظرته له وضع سبع قواعد أساسية للإسلام وأحد عشر خاصية لله سبحانه وتعالى مبنياً أنه ما من خاصية منها أتت بالمصادقة، كما بين أن القالوث المقدس (الأغانيم الثلاثة) وتجسيد الألوهية في المسيح عليه السلام شيء مستحيل، ثم يتناول عمر هذه القواعد والخصائص ويعالجها الواحدة تلو الأخرى بهدف إثبات وحدانية الله سبحانه وتعالى وبطلان ما يقول به المسيحيون^(١)، ويؤكد لول بأن عمر انتهى في مناظرته إلى عرض المال والنساء عليه إذا هو اعتنق الإسلام فيجيبه لول على ذلك بوعده بالحياة الأبدية إذا قبل النصر ثم يشرح في الرد على أقوال عمر وحججه لإثبات صحة الثالوث المقدس وتجسيد الألوهية في المسيح^(٢) ثم يختم الجدل بأربعين حجة تهدف إلى إثبات أن اليهودية دين جيد وأن المسيحية أفضل منها لأنها أكمل وأشمل، وأما الإسلام فهو على حد زعمه خطأ وكله مغالطات^(٣)، وهذه الحجج الأربعين هي الوصايا العشر، والفضائل السبع، والأسرار المقدسة السبعة، والشرائع الكنسية الأربعة عشر^(٤) وما إلى ذلك. وأما الجزء الثالث فيدور حول محور واحد هو أن أساس المناظرة بينه وبين عمر كان المنطق كما هو المفروض وليس التهديد بقوة السلطة. ثم يصف فيه رحلته إلى بجاية وأيامه في سجنها ثم طرده منها، ويعرج بعد ذلك على ذكر مشروع الحملة الصليبية التي يقترحها وجهوده في ميدان التنصير مبنياً الأخطار المحدقة بالمسيحية حاصراً لهاها في المسلمين والتتار، وآراءه في كيفية انتقاها^(٥). ومن الثابت أن لول استفاد من تجربته ببجاية في صقل بعض آرائه المتعلقة بالتنصير كما يتضح مما جاء في كتابه (الخلاف) إذا ما قورن بمؤلفاته التي سبقت.

وقد ظهر لول بعد عودته إلى أوروبا في مجمع فينا الذي عقد في سنة ١٣١١م /

A. S. Atiya : Op. Cit., p.92.

(١)

A. S. Atiya : Ibid, p.92., J. N. Hillgarth : Op. Cit., p.26.

(٢) انظر :

A. S. Atiya : Ibid, p.92.

(٣) انظر :

A. S. Atiya : Ibid, p.92 - 3.

(٤)

١٣١٢م حيث تقدم بتقريره إلى ذلك المؤتمر والذي سبق أن أشرنا إليه، وقد أسفرت جهوده في ذلك المؤتمر عن تأسيس كرامسي لدراسة اللغات الشرقية في جامعات روما وشملمنقة وبولونا وباريس وأكسفورد^(١)، وعاد بعد اختتام أعمال ذلك المجمع إلى موطنه ميورقة، لكنه لم يمكث بها طويلاً إذ غادرها إلى صقلية على أمل ممارسة نشاطه التنصيري بين المسلمين واليهود فيها تحت حماية ملكها الأرغوني فردريك الثاني^(٢)، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية كسب دعم هذا الملك في مشروعه التنصيري في إفريقية معتمداً في ذلك على الصلة القوية التي ربطته بملك أرغونة، في وقت وصل فيه نشاط أرغونة الصليبي في إفريقية ذروته. ولكن يبدو أن فردريك الثاني أثر التريث مما جعل لول يتردد بين صقلية وميورقة أكثر من مرة خلال الفترة من سنة ١٣١٢م إلى مايو ١٣١٤م^(٣). وعندما وجد أن تجاوب ملك صقلية معه ليس بالقدر الذي كان يشده، قرر العودة إلى إفريقية من جديد، وعلى ما يبدو أنه كان يدرك ما كان ينتظره فيها إذ إنه كتب وصيته الأخيرة في إبريل سنة ١٣١٣م والتي تدل كتابتها على اليأس من نجاح مشاريعه، مما يحملنا على الاعتقاد بأنه ذهب إلى إفريقية هذه المرة وجل همه الموت على يد المسلمين لينال الشهادة في زعمه، حتى يكون بذلك قد حقق الهدف الثالث من الأهداف الرئيسية الثلاثة التي وضعها لنفسه منذ تحوله لخدمة الحركة الصليبية.

وفي أغسطس سنة ١٣١٤م أبحر لول وكان قد تجاوز الثمانين من عمره من ميورقة قاصداً مدينة تونس مزوداً برسالة توصية من خايمي الثاني ملك أرغونة إلى أبي يحيى زكريا ابن اللحياني سلطان تونس^(٤)، ورسالة أخرى إلى قائد حرسه القطلاني^(٥)، حيث سمح له بالإقامة في تلك المدينة، ويبدو أن الوضع الذي كان سائداً فيها وقتئذٍ من اضطراب سياسي وحاجة

J. N. Hillgarth : Op. Cit., p.29. (١)

E. R. Daniel : Op. Cit., p.70 - 1, A. S. Atiya : Op. Cit., p.86. (٢)

J.N.Hillgarth : Ibid, p.128 - 134, R. Brunschvig : Op. Cit., Tom 1, p.463. (٣) انظر :

(٤) ابن القنفذ : المصدر السابق ص١٥٩، ابن أبي دينار : المصدر السابق ص١٤٢ - ١٤٣، د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص١٣٢٩، د. محمد محمد أمين : المرجع السابق ص١٦٤،

A. S. Atiya : Ibid, p.93, R. Brunschvig : Ibid, Tom 1, p.464.

E. R. Daniel : Ibid, p.71.

J. N. Hillgarth : Ibid, p.27 & p.133.

R. Brunschvig : Ibid, Tom1, p.464. (٥)

السلطان المذكور للدعم والمساندة جدد لديه الأمل في نجاح مسعاه، لذلك التزم في بداية الأمر جانب الحيطة والحذر في ممارسة نشاطه، فأخذ يختار من يدعوهم للتصير بعناية، كما حاول إشاعة الاطمئنان منه في نفوس علماء المسلمين في المدينة إلى حد أنه ألف في تلك الفترة كتاباً أهداه إلى قاضي تونس هو *Libre de Majori fine intellectus Amoris et Homoris*^(١) فتركه المسلمون وشأنه ما دام أنه لم يكن يؤدي مشاعرهم، فشحجه ذلك على الكتابة إلى ملك أرغونة يطلب منه التدخل لدى منظمة الفرانسيسكان لإرسال تلميذه سيمون (Fr. Simon de Puigcerda) ليلتحق به في إفريقية بغية مساعدته في ترجمة ما يكتبه هو بالعربية إلى اللاتينية، فما كان من خايبي الثاني إلا أن كتب رسالتين إلى رئيس تلك المنظمة ثانيتهما مؤرخة في ٢٩ أكتوبر سنة ١٣١٥م يطلب فيها تلبية طلب لول^(٢).

كان لول في ديسمبر سنة ١٣١٥م لا يزال في تونس^(٣)، ولكنه فجأة ارتحل إلى بجاية، وما يحير الباحث حقاً هو عودة لول إلى تلك المدينة بعد أن كان بالكاد ينجو من الموت فيها، إذ ليس هنالك ثمة دافع أو مبرر ظاهري لذلك، إذ أنه كان يقيم في تونس وتحت حماية السلطات ويمارس نشاطه التنصيري بقدر كبير من الحرية. وما أعتقد أنه أن لول قد يكون شعر بدنو أجله فأراد أن يموت على يد المسلمين هذا الأمر الذي قد لا يتأتى له في تونس نظراً للعلاقات التي كانت بين ابن اللحياني وملك أرغونة، والذي سيكتفي بطرده إذا ما أثار عليه المسلمين حتى لا يسيء إلى الملك الذي أوصى به خيراً في وقت كان فيه بحاجة إلى مساندة ذلك الملك، فآثر لول تبعاً لذلك الذهاب إلى بجاية في طلب تلك الميعة خاصة وأنه كان كثيراً ما أبدى مخاوفه من أن يموت ميعة طبيعية، لا سيما وأنه لم يحقق ما كان يرجو من نجاح في تونس، ورأى جل جهوده الصليبية مع البابوات والملوك والأمراء ومسلمي إفريقية قد ذهبت أدراج الرياح مما جعله يرغب في إنهاء حياته. وما أن وصل إلى بجاية في أواخر ١٣١٥م أو أوائل سنة ١٣١٦م حتى عرفه أهلها وهجموا عليه يرحمونه،

(١) R. Brunschvig : Op. Cit., Tom I, p.464, A. S. Aliya : Op. Cit., p.93, E. R. Daniel : Op. Cit., p.71

J. N. Hillgarth : Op. Cit., p.133, E. R. Daniel : Ibid, p.464.

E. R. Daniel : Ibid, p.71.

في قول بعض المراجع^(١)، بينما تقول بعض المراجع الأخرى أنه ما أن وصل إلى تلك المدينة حتى قصد المسجد الجامع بها وصعد درجه ووقف بحيث يراه الناس وأخذ يظعن في الإسلام بأعلى صوته على مرأى وسميع منهم فبادروا إلى رجمه بالحجارة حتى فارق الحياة^(٢)، وإن صبح ما تذكره هذه المراجع فإن ذلك يؤكد ما ذهبنا إليه من أنه لم يذهب إلى بجاية إلا طلباً للموت. وعلى أية حال، قام التاجران الجنويان اللذين رافقاه في رحلته الأولى إلى إفريقية واللذين تصادف وجودهما في بجاية وقتله، قاما بنقله إلى سفيتتهما التي أفلعت بهن إلى مبرقة، حيث دفن في كنيسة القديس فرانسيس في بالما حاضرتها^(٣)، وبذلك طويت صفحة صليبي يعتبر من أشهر دعاة الحركة الصليبية في العصور الوسطى.

وبعد، فإن رامون لول يعتبر مرآة عكست آراء عصره عن الصليبية بوجهيها العسكري والسلمي، لقد بنى آراءه ونظرياته على أساس العمل على تحقيق أهداف الحركة الصليبية بوسيلتين متساندتين هما القوة العسكرية والتنصير والتتين عرفتا بنظرية السيفين، وإذا لم يكن رامون لول مجدداً في أفكاره، فإن جهوده قد عممت هذه الأفكار بعد أن كادت تظل حبيسة لا يعلم بها إلا القليل، ولجهوده فقط يعود الفضل في إنشاء كراسي للدراسات الشرقية في الجامعات الأوروبية التي كانت نواة حركة الاستشراق التي ازدهرت فيما بعد. وأما كون جهوده لم تلق النجاح الذي كان يتشده في كلا الاتجاهين المسلح والسلمي، فإن السبب الرئيسي في ذلك كان خارجاً عن إرادته، فبالنسبة للاتجاه الأول وقفت التطورات التي كانت تشهدها أوروبا الغربية عقبة كأداء في سبيل وضعها موضع التنفيذ، وأما بالنسبة لفشل جهوده التنصيرية مع مسلمي إفريقية، فإن ذلك يعود في المقام الأول لقصوره عن فهم الإسلام والمسلمين بالرغم من اطلاعه الجيد على الثقافة الإسلامية، فضعفه الأعمى للمسيحية الكاثوليكية حجب عن ذهنه حقيقة بسيطة وهامة في نفس الوقت هي أن الإسلام قد حصن المسلمين بفكر يتسم بالرفعة والسمو بحيث لن يصمد أمامه فكر آخر.

(١) انظر : A. S. Atiya : Op. Cit., p.94. د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٣٤٠، د.

محمد محمد أمين : المرجع السابق ص ١٦٤ - ١٦٥.

(٢) A.S. Atiya : Ibid, p.94., R. Brunschvig: Op. Cit., Tom I, p.133. (٢)

A. S. Atiya : Ibid, p.94, R. Brunschvig: Ibid, Tom, I, p.434. (٣)

أرغونة وحركة التنصير :

يلاحظ الباحث في تاريخ حركة التنصير في إفريقية ملاحظة هامة، هي أن الغالبية العظمى من المنصرين الذين عملوا في ميدان إفريقية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر كانوا إما من أرغونة وتربطهم علاقات قوية بملوكها أو أنهم تلقوا علومهم وقضوا فترة طويلة من حياتهم فيها فقد كان رامون البيناפורتي ورامون مارتني ورامون لول - وهم أعلام حركة التنصير في إفريقية - كلهم من رعايا مملكة أرغونة، كما أن معظم بعثات التنصير من رهبان منظمي الدومنيكان والفرانسيسكان كانت إما أنها تخرج من أرغونة أو تمر بها في طريقها إلى المغرب العربي بما فيه إفريقية وتتزود بالتوصيات والتوجيهات الأمر الذي يجعل هذه الملاحظة جديرة بالدراسة بغية إلقاء مزيد من الضوء على أبعاد حركة التنصير في إفريقية.

إن اهتمام ملوك أرغونة بحركة التنصير في إفريقية ودعمهم ورعايتهم لها، له مايرره، ذلك أنه منذ أن بدأوا يتطلعون إلى الشرق عملاً بما جاء في معاهدة (الميثاق) التي أشرنا إليها آنفاً، بنوا سياستهم المتعلقة بيسط نفوذهم على إفريقية على ثلاث دعائم رئيسية متساندة كانت أولها الاستفادة من فقه الجند الأرغوني الذين كانوا يشكلون الحرس السلطاني في الدولة الحفصية كما سبق أن ذكرنا، والثانية مساندة حركة التنصير فيها، والثالثة الهجوم المسلح والتي ستعرض لها في الباب التالي من هذه الدراسة. وأما فيما يتعلق بمساندتهم لحركة التنصير فإن الدلائل تشير إلى أن هذه المساندة بدأت منذ وقت مبكر ربما منذ أوائل العقد الثالث من القرن الثالث عشر، ويبدو أن رامون البيناפורتي قام بلور كبير في هذا الأمر حينذاك، فمثل حلقة الاتصال بين حركة التنصير في إفريقية وملك أرغونة، وبمكنتنا الاستدلال على ذلك من تلك الرسالة التي بعث بها إليه أحد المنصرين المقيمين في إفريقية في سنة ١٢٣٥م التي سبق أن أشرنا إليها، وظهرت هذه المساندة بشكل أوضح في منتصف ذلك القرن حينما طلب خايمي الأول من المستنصر السماح للدومنيكان بإنشاء مدرسة في تونس لتعليم الرهبان اللغة العربية، ثم من تلك الرسالة التي بعث بها البابا الإسكندر الرابع إلى رامون البيناפורتي والمؤرخة ١٥ يوليو ١٢٦٠م والذي كان وقعاً قسيس اعتراف الملك خايمي الأول، يطلب فيها تقديم مزيد من الدعم لبعثات التنصير في إفريقية الأمر الذي كان السبب في إرسال عدد من المنصرين الجدد

إليها خاصة من الدومنيكان، وإذا أضفنا إلى ذلك جهود رامون مارتى في تلك الآونة والذي كانت تربطه علاقة قوية بخايمي الأول ورامون البيناغورتى وكان على اتصال دائم بهما إلى حد أنه لم يتخادر إفريقية منذ وصوله إليها في حدود سنة ١٢٥٠م إلا مرة واحدة كانت في سنة ١٢٦٧م وإلى أرغونة بالذات حيث قابل خايمي الأول ورامون البيناغورتى وأطلعهما على ما كان يجري في إفريقية ثم عاد إلى مدينة تونس وأقام فيها عامين آخرين ليغادرها في سبتمبر سنة ١٢٦٩م إلى أوروبا نهائياً وربما بإيعاز من خايمي الأول في انتظار ما تسفر عنه حملة لويس التاسع التي كانت على وشك المسير، ولعل ذلك كان سبباً هاماً في عدم اشتراك خايمي الأول في تلك الحملة لأن احتلال لويس التاسع لإفريقية كان يتعارض مع مصالحه فيها، لأنه أرادها خالصة له وحده بالضبط كما أرادها رجار الثاني من قبل، ثم أخيراً جهود رهبان منظمة عزراء الرحمة التي تأسست في أرغونة وكان مؤسسها على صلة قوية بخايمي الأول كما أسلفنا، نبيين لنا مقدار نشاط ملوك أرغونة في ذلك الوقت.

وفي أوائل الربع الأخير من القرن الثالث عشر نشط خايمي الأول في العمل على الاستفادة من معاهدة الصلح التي عقدت بين المستنصر الحفصى والصليبيين والتي فتحت باب إفريقية على مصراعيه لحركة التنصير فاستدعى رامون لول إلى بلاطه في سنة ١٢٧٤م أو سنة ١٢٧٥م للاطلاع على آرائه بشأن هذه الحركة حيث جرى تقييمها من قبل الراهب بتراند برنجار وأسفر ذلك عن تأسيس كلية ميرامار سنة ١٢٧٦م والتي يقول برنغفيك عنها إنه ما كان الهدف منها إلا تخريج الرهبان المنصرين لإرسالهم إلى إفريقية^(١)، ويبدو أن اهتمام ملوك أرغونة بحركة التنصير في إفريقية كان معروفاً لدى المسلمين أيضاً فضلاً عن القوى الصليبية، ولذلك نجد ابن أبي دبوس للموحدي يلدأ إلى ملك أرغونة بعد مقتل أبيه آخر خلفاء الموحدين، ويقيم في بلاطه، وكان قد سبقه عمه أبو زيد إلى ذلك والذي تنصير على يد هذا الملك في حين سيستخدم خايمي الثاني ابن أبي دبوس هذا في حركة صليبية كبيرة على إفريقية كما ميبأني ذكره، وفي تلك الآونة نجحت حركة التنصير في إغراء أمير حفصى بالتنصير هو الأمير أبو إسحق الحفصى الذي هرب من إفريقية ولجأ إلى بطره (بيندرو

الثالث) ملك أرغونة (١٢٧٦ - ١٢٨٥م) ويبدو أن تنصره ثم على يد الملك المذكور، وقد شوهد في صقلية بصحبة حاميه ومنصره في أوائل سنة ١٢٨٣م^(١). وعلى هذا أصبح كل من يحتاج إلى دعم لتحقيق مطامع سياسية في إفريقية يلجأ إلى ملك أرغونة موهماً بإياه برغبته في التنصر ليحصل منه على الدعم الذي ينشده، ومن ذلك ما فعله أبو بكر بن موسى البراري المعروف بابن الوزير والي قسنطينة الذي استغل حالة الفوضى السياسية في الدولة الحفصية التي أعقبت وفاة المستنصر سنة ٦٧٥هـ / ١٢٧٧م وثار على السلطان أبي إسحاق بن أبي زكريا الأول في سنة ٦٧٩هـ وكتب إلى بيدرو الثالث ملك أرغونة يطلب مساعدته موهماً بإياه بأنه يرغب في التنصر، فما كان من بيدرو الثالث إلا أن قاد بنفسه حملة إلى إفريقية لمساعدة الرالي الثائر كما سيأتي ذكره.

وقد ازداد هذا الدعم من أرغونة لحركة التنصير في إفريقية منذ مطلع القرن الرابع عشر، ذلك أن نشاطها في جبهتها كان وقتئذ في أوجه، فكان أسطولها قد احتل جزيرة جربة وجزر قرقة وأخذ يهاجم نواحي عديدة من سواحلها كما سيأتي ذكره، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية كان نفوذ الحرس السلطاني قد ازداد بشكل واضح، لذلك نجد خايمي الثاني يقدم مساعداته ومساندته لرامون لول كما سبق ذكره، ثم يركز جهوده على تنصير السلطان الضعيف ابن اللحياني الذي اغتصب العرش الحفصي بمساعدة منه ومن أخيه فردريك الثاني ملك صقلية^(٢) مستغلاً في ذلك الأوضاع الداخلية السيئة التي كانت تمر بها إفريقية في تلك الفترة، وقد وجد ابن اللحياني في هذا الأمر فرصة طيبة له للاستمرار في حصوله على دعم هذين الملكين، فأخذ يوجههما بميله للتنصر لعله بمساعدتهما يستطيع تثبيت أركان عرشه المتزعزع^(٣)، وقد شغلت هذه القضية البلاط الأرغوني لمدة تقارب الأربع سنوات. ففي ٢٣ يوليو سنة ١٣١٣م وبعد محادثات أجراها مبعوث مسيحي من

R.Brunschvig : Op. Cit., Tom 1, p.466.

(١)

(٢) انظر عن ذلك الرسالتين (الملحقين الثالث والرابع) اللتين يشير ابن اللحياني فيهما لهذه المساعدة. انظر د. محمد الطالبي : المرجع السابق ص ٨٥.

Ch. E. Dufourcq : Op. Cit., p.488.

ولمزيد من التفصيل انظر :

Ch. E. Dufourcq : Ibid, p.488.

(٣) انظر :

قبل السلطان مع خايمي الثاني، قام الأخير بإرسال (Guillaume Oulomar) في سفارة إلى تونس لتجديد معاهدة السلام التي كانت معقودة بينه وبين السلطان، وقد أمر سفيره هذا بأن يوضح لابن اللحياني أن تنصره حدث عظيم الأهمية ويقدم ختمة جلية للمسيحيين وللمسيحية التي هي دين الله الحق على حد تعبيره وبالتالي فإن الله لن يخذله إذا ما أطاعه باعتناقها، هذا بالإضافة إلى أن إخوانه الجدد في الدين سيقدّمون له كل عون قد يحتاجه، وأوعز إلى ذلك السفير بأن يقدم للسلطان تنازلات كبيرة أثناء المفاوضات لإبرام المعاهدة فيما إذا قبل التنصر^(١)، لكن المعاهدة المبرمة بين الطرفين في ٢١ فبراير ١٣١٤م / ٧١٢هـ كانت تكراراً لنص المعاهدة المنتهية ولم يتضمن أي إشارة لتنازل أو أي بند جديد^(٢) مما يدل على أن السفير لم يفلح في حمل ابن اللحياني على اتخاذ موقف واضح من موضوع التنصر ليكون جديراً بأن يتم تنازل من قبل أرغونة. ومع ذلك، استمر ابن اللحياني في لعبته، فكان يلمح بهذا الأمر في رسائله إلى خايمي الثاني وأخيه فردريك الثاني ملك صقلية تلميحاً دون تصريح واضح ويكلف من يمسلهما تلك الرسائل بإيضاح ذلك لهما، فقد جاء في رسالته إلى خايمي الثاني المؤرخة ٢٩ رمضان ٧١٢هـ / ٢٨ يناير ١٣١٣م ما يلي : (وقد أمرنا عبداً وقائدنا برناط دفن أن يشرح لكم ما لم نشرحه في كتابنا هذا فصدقوه بحول الله فيما يكتبه واسمعوا منه ما يقوله)^(٣)، فهو هنا يحيل الأمر للقائد برناط د. فنس (Bernat de Fons) القطلاني مساعد قائد حرسه ليشرح لخايمي الثاني موضوع تنصره حتى يكون في إمكانه الاتصال من مغبة هذا الأمر في المستقبل إذا ما أخذه بحصمه عليه، ويعود إلى هذا التلميح في رسالته الثانية إلى خايمي الثاني أيضاً المؤرخة ٩ محرم سنة ٧١٦هـ / ٣ إبريل سنة ١٣١٦م والتي أرسلها من طرابلس بعد اضطراره لمغادرة تونس حاضرة دولته إلى أنه قد تنصر في السر ويكلف الراهب بيرو دو من ملن (Pero de Monmolon) مستشار فردريك الثاني ملك صقلية الذي كان في زيارة لإفريقية بتوضيح ذلك لكلا الملكين فيقول : (... وصل إلينا القسيس الحبيب الكبير الثقة الأمين يريد من ملن فتحدثنا معه فيما بيننا

R. Brunschvig : Op. Cit., Tom 1, p.467.

(١) انظر :

R. Brunschvig : Ibid, Tom 1, p.467.

(٢)

(٣) انظر الملحق الثالث.

ويتكلم من الود الصميم والاعتقاد الخالص السليم وشافهناء بما يلقبه إليكم في ذلك فالذي يلقبه لكم نحن أمرناه بالبقاء وهو يلقه لكم على أكمل أتحاته لعلنا بصدقه وأمانته وحسن أدائه ولما نتحققه من انقطاعه إليكم وإلى الأخ الأعز علينا السلطان الحبيب الكبير الشهير الرفيع الأثير الخطير فردريك ملك صقلية...^(١)، وكانت الظروف تفرض على ابن اللحياني زيادة الجرعة للملك صقلية وأرغوة لنيل مساعدتهما بعد أن كان قد غادر عاصمة ملكه شبه هارب من الاضطرابات التي كانت تجري فيها، فادعى أنه تنصر في السر إذ أنه يعني بالاعتقاد الخالص السليم الديانة المسيحية^(٢).

وأما خايمي الثاني فقد بقي هو الآخر متشبهاً بفكرة تنصير ابن اللحياني ففي ٩ يوليو سنة ١٣١٤ مبعث إليه برسالة تتضمن إشارة واضحة عن هذا الموضوع رغم تعمده فيها إضفاء نوع من النعوض عليه، فيموه عنه بسميته (القضية) فيقول إن (القضية) التي دعت انتباهه وأرادها الله هي خير لكلا الطرفين وستحقق، ونظراً للظروف التي كان يمر بها السلطان في ذلك الوقت، يقول بأن مثل هذه الخطوة سابقة لأوانها ويستدعي إعلانها التريث والحذر من قبل السلطان وتتطلب مزيداً من الوقت. وأما فيما يخصه هو فإنه بعد بكتمان هذا السر ويدعو السلطان إلى الاعتراف بفضل الله عليه، فلولا ما كان سلطاناً، وهو بذلك يشير أيضاً إلى مساعدة المسيحيين له في الوصول إلى العرش، ثم يمضي في تلك الرسالة قائلاً إن الله وضعه على رأس دولته ليحقق مبادئه وينشر دياناته بين جميع رعاياه، ويطلب منه في نهاية تلك الرسالة موافاته بكل ما يستجد لديه من أمور^(٣). كما بعث في الوقت نفسه رسالة أخرى إلى قائد الحرس السلطاني الذي كان قتلانياً يوجه فيها إلى بذل جهوده مع السلطان والتأثير عليه لتطمين نفسه بالمسيحية وبعده بأنه لن ينسى له ذلك فيما إذا جمع في مهمته^(٤).

ويواصل خايمي الثاني جهوده مع ابن اللحياني في السنتين التاليتين على ذلك محاولاً

(١) انظر الملحق الرابع.

(٢) انظر د. محمد الطالبي: المرجع السابق ص ٨٥ حاشية ٦.

Ch. E. dufourcq : Op. Cit., p.488 - 94.

ولزيد من التفصيل انظر :

R. Brunschvig : Op. Cit., Tom 1, p.467.

(٣) انظر عن تلك الرسالة :

R. Brunschvig : Ibid, Tom 1, p.467.

(٤) انظر :

دفعه إلى إعلان تنصره، ولكن موقف ابن اللحياني بقي على حاله من المراوغة والتلميح فقط، وقد رأى خاييم الثاني حيال ذلك الجمود أنه لا بد من إطلاع البابوية على هذا الأمر لكسب تأييدها ودعمها، فأرسل في أواخر سنة ١٣١٦م سفيره (Oulmar) إلى البابا الجديد يوحنا الثاني والعشرين ليبحث أمور عديدة كان من بينها موضوع تنصير ابن اللحياني، ويبدو أن البابا قد ساورته الشكوك للطريقة التي عرض فيها السفير هذا الأمر عليه، فلم يشأ التدخل قبل أن يطلع على الموضوع من جميع نواحيه، لذلك أبدى استغرابه في رسالة بعث بها إلى خاييم الثاني مؤرخة ٢٣ يناير سنة ١٣١٧م من التأخير في إطلاعه على هذا الموضوع الهام الذي يجب أن يحتل في رأيه مركز الصدارة بين المواضيع التي كانت مدار بحث بين البابوية وأرغونة، ويبدو أنه يحاط علماً بكل ما حدث وبالفصيل وبكل ما سيحدث في المستقبل بواسطة مبعوثين خاصين يكونون على مستوى هذه القضية الهامة ليتسنى له اتخاذ القرار المجدي، وبذلك عاد (Oulmar) إلى أرغونة دون أن يحصل من البابوية على شيء^(١). وجرى الحوادث في إفريقيا وقتل على غير ما يرغب خاييم الثاني، إذ بعد ذلك بقليل وفي أوائل الشهر التالي على وجه التحديد فبراير سنة ١٣١٧م اضطرب ابن اللحياني إلى مغادرة مملكته والرحيل إلى مصر ليعيش فيها بقية حياته (ت سنة ١٣٢٨).

لقد ظهر الخلاف واضحاً بين المصادر التاريخية الإسلامية والمسيحية حول هذا الموضوع. فإن أباً من المؤرخين المسلمين كابن خلدون وابن القنفذ وابن السمعان والزركني وغيرهم ممن اطلعت على مؤلفاتهم لم يشر لا تصريحاً ولا تلميحاً إلى اتهام ابن اللحياني بالتنصير أو رغبته في ذلك على الأقل، ولكن العديد من المصادر المسيحية وقتت من ذلك موقعاً مختلفاً، فذكرت أنه تنصر بالفعل، فقد زعمت وثائق أرغونية يعود تأريخها إلى سنة ١٣٢٥م أن ابن اللحياني قد تنصر وتم تعميده بالفعل، وأن ملك أرغونة عقد العزم على الاستيلاء على مملكته^(٢). وما نراه في هذا الموضوع هو أن المصادر المسيحية كانت تعبر عن أمانتي ليس إلا، ولا تستند إلى الواقع مما يفرض على الباحث توخي الحذر في ما تقدمه

R. Brunschwig : Op. Cit., Tom 1, p.467.

(١) انظر :

R. Brunschwig : Ibid, Tom 1, p.468.

(٢) انظر :

التصور المسيحية الرسمية، والمصادر الإسلامية أصبح منها فيما يتعلق بهذا الموضوع، ذلك أنه لو كان الأمر على ما تقوله الوثائق المسيحية الآتفة الذكر لما توانى خصوم ابن اللحياني عن اتخاذ وسيلة وفريضة للتشهير به، خاصة وأن الاضطراب السياسي الذي شهدته إفريقية في أواخر عهده كان يوفر فرصة كبيرة لذلك، وبالتالي من غير المعقول أن تجمع كافة المصادر الإسلامية على إغفال الإشارة إليه. بل إن البعض منها يصفه بالتدين، وخير مثال على ذلك أن الزاهد القروي لقبه بالفقيه كما سبق أن ذكرنا. ولا يمكن توجيه التهمة له في دينه لكونه تنكر للمبادئ الموحدية أو لكون أمه نصرانية كما تحاول ذلك بعض المراجع الغربية^(١)، لأن التنكر للمبادئ الموحدية لا يعد ارتداداً عن الإسلام، فالمبادئ الموحدية ليست هي الإسلام، فالإسلام مثلاً لا يقول بعصمة المهدي محمد بن تومرت كما تقضي عقيدة الموحدين، بل العكس هو الصحيح.

فإنكاره عصمة المهدي يكون قد اقرب أكثر من مبادئ الدين الإسلامي الصحيحة، وأما أن أمه نصرانية، فذلك أمر كان شائعاً في الأسرة المالكة الحفصية ولم ينفرد هو به، فالكثير من سلاطين وأمراء بني حفص ولدوا من أمهات نصرانيات، وإذا كانت قد ربطته صلة قوية ببعض ملوك النصارى وبعض أعلام حركة التصير، فإن ذلك كان من مقتضيات السيادة فقط وليس لأمر التصير. ولذلك فإننا نرى أن ما ذهب إليه برنجفك في أن إيهامه للملكي أرغونة وصقلية برغبته في التصير لم يكن إلا خدعة سياسية قصد منها كسب مساندتهما له^(٢) هو الصواب.

وإذا كانت جهود نحائي الثاني مع ابن اللحياني قد خيبت آماله، فإن هذا الأمل قد عاد من جديد بعد ذلك بفترة وجيزة في شخص والي المهديّة الأمير أبي بكر ابن أخ السلطان. فنذكر المصادر المسيحية أنه في أواخر شهر مايو سنة ١٣٢٥م أرسل هذا الأمير رسالة إلى البابا يوحنا الثاني والعشرين يعلمه فيها أنه رأى السيدة العذراء في نومه، لذلك فقد قرر أن يتنصر هو وبعض أصدقائه وأن يحتضروا بملك نصراني يعيشون في كنفه، وقد اهتم البابا

R. Brunschvig : Op. Cit., Tom 1, p.468.

(١) انظر عن ذلك :

R. Brunschvig : Ibid, Tom 1, p.468.

(٢)

بالأمر فرد على الوالي المذكور بأنه على استعداد لتوفير الأمان له ولأصحابه بعد تمديدهم جميعاً، ولكن شرطاً أن يسلم المهدي للنصارى، وفي نفس الوقت بادر البابا إلى الاتصال بخايمي الثاني يعلمه بالأمر، ويوكل إليه مهمة اتخاذ التدابير اللازمة لإتمامه^(١)، ولكن المصادر التاريخية الإسلامية تشير إلى هذا الموضوع بشكل مختلف، فذكر أن هذا الوالي قد ثار في المهدي مما جعل السلطان أبو يحيى أبو بكر الثاني المتوكل بمجرد جيشاً ويقضي على هذه الثورة. وعلى أية حال فإن خايمي الثاني بادر إلى محاولة انتهاز هذه الفرصة للاستيلاء على المهدي القاعدة الحصينة لتكون نقطة انطلاق له إلى باقي إفريقيا - لا سيما وأن جزيرة جربة كانت وقتئذٍ خاضعة له - سواء عن طريق مساندة الوالي الثائر أو تنصيره فكل الأمرين يؤدي إلى نفس النتيجة، ولكن القضاء على هذه الثورة قبل استفحالها بدعم قوى أجنبية قضى على أمل ملك أرغونة من جديد. وللتوفيق بين ما جاء في المصادر المسيحية والإسلامية عن هذا الموضوع، نرى أنه من غير المستبعد أن يكون اتصال الوالي بالبابا - إن صححت الرواية - هو خدعة سياسية أخرى قام بها ذلك الوالي للحصول على مساندة النصارى له في الاستقلال عن الدولة.

وظل هذا الاهتمام من ملوك أرغونة بدعم ومساندة حركة التنصير في إفريقيا على عفوانته إلى أن بدأت المشاكل التي تعرضت لها مملكتهم منذ أوائل العقد الرابع من القرن الرابع عشر لا سيما تمجدد النزاع بينهم وبين ملوك قشتالة فضلاً عن الظروف التي استجدت في أوروبا الغربية وفي إفريقيا والتي سبق أن أشرنا إليها، بدأت تشغلهم عن ذلك الموضوع، ولذلك أخذت منذ ذلك الوقت أخبار البعثات التنصيرية إلى إفريقيا تقل في المصادر التاريخية تدريجياً حتى كادت تتلاشى في أواخر ذلك القرن.

فشل حركة التنصير ونجاح الحركة المضادة :

إن التساؤل الذي يطرح نفسه في هذا المقام هو إلى ماذا أدت جهود حركة التنصير في إفريقيا في القرنين الثالث عشر والرابع عشر، وما مدى ما حققته من نجاح؟ إننا إجابة على

R. Brunschvig : Op. Cit., Tom 1, p.466.

(١) انظر :

هذ التساؤل لن نعدو الحقيقة إذا قلنا إن آمال الحركة الصليبية في تنصير مسلمي إفريقيا قد باءت بالفشل الذريع، ذلك أنه بالرغم من تسامح سلاطين بني حفص تجاه النصارى والنصرين منذ عهد الأمير أبي زكريا الأول مؤسس دولتهم، هذا التسامح الذي أكدته الكثير من الوثائق التاريخية التي سبق أن أشرنا إليها، وبالرغم من الإمكانيات التي وضعت تحت تصرف حركة التنصير والدعم والمساندة التي كانت تتلقاها من البابوية والعديد من الدول المسيحية خاصة مملكة أرغونة، فإنها لم تؤد إلى نتيجة تذكر. ولا يمكننا بطبيعة الحال الوثوق بالمعلومات التي تقدمها الوثائق المسيحية عن هذا الموضوع كسجلات المنظمات التي مارست الجهود التنصيرية والرسائل المتبادلة بين البابوية وملوك الممالك النصرانية وكبار رجال الدين في تلك الممالك أو سير القديسين والنصرين، ذلك لأن هذه الوثائق تحيط من تكتب عنهم بهالة من القدسية المبالغ فيها كثيراً إلى حد الوصول بهم إلى صنع المعجزات والخوارق لإعلاء مكانتهم على حساب الحقيقة التاريخية، وما يؤكد ذلك ما يقوله برنجيفيك في هذا الموضوع من أنه لا بد من الاحتراز قبل كل شيء من المعلومات المبالغ فيها التي قلمها أعضاء البعثات التنصيرية أو المؤرخين الذين عاصروها وكتبوا أخبارها^(١)، إذ لو صدقنا تلك المعلومات لكان علينا أن نصدق أخبار الرهبان الدومنيكان مثلاً والتي تقول إن هؤلاء الرهبان جنوا في أواسط القرن الثالث عشر ثماراً طيبة وهامة لجهودهم بين مسلمي إفريقيا بفضل معاملة السلطان الحفصي لهم وأضحوا يرجون نجاحاً أكبر في المستقبل القريب وكانوا في سنة ١٢٦٠م يهتتون بعضهم البعض على الجهود التي بذلوها لنشر المسيحية في إفريقيا والثمار التي جنوها من وراء ذلك كما سبق ذكره، هذا الأمر الذي لم يحدث مطلقاً بدليل أن المصادر التاريخية الإسلامية لم تشر إليه لا من قريب ولا من بعيد وهو من الأهمية بحيث لا يمكنها أن تجمع على إغفاله لو حدث منه شيء بالفعل، الأمر الذي يقطع بتفاهة نتيجة هذه الجهود هذا إن كانت قد أدت إلى نتيجة أصلاً، حتى رامون لول نفسه والذي تحيط الوثائق المسيحية جهوده بقدر كبير من الإكبار وتؤكد أن جهوده قد أفلحت في تنصير كثير من المسلمين، لم يفلح في رحلته الثلاث إلى إفريقيا في تنصير أحد يذكر.

R. Brunschvig : Op. Cit., Tom 1, p.465.

(١) انظر :

وليس أدل على تجاوز تلك الوثائق والمصادر للحقيقة من موقفها من ابن الوزير الوالي الثائر بقسنطينة والسلطان ابن اللحاني وأبي بكر الثائر بالمهدية حيث إنها تقطع بأنهم قد تنصروا، ولكن الحقيقة هي غير ذلك كما سبق ذكره، حتى إن المنصرين لم يكونوا ينجحون في غالب الأحيان في رد النصارى الذين كانوا يعتقدون الإسلام إلى المسيحية ثانية والدليل على ذلك ما حدث مع عبد الله الترجمان كما سيأتي ذكره. لذلك فإن معظم ما تردده تلك الوثائق ليس إلا مجرد أوهام لا تعبر إلا عن أمانى الحركة الصليبية في تنصير مسلمي إفريقيا.

وأما السبب الرئيسي في هذا الفشل فهو أن الحجج التي كان يقدمها هؤلاء عن المسيحية لم تستطع الصمود أمام الفكر الإسلامي الذي كان يتسلح به مسلمو إفريقيا متقنهم وعامتهم على حد سواء ، فكانت هذه الحجج تسقط الواحدة تلو الأخرى أمام المسلمين، ولا مجال هنا للاحتجاج بأي تعصب من قبل المسلمين، على عكس ما تردده بعض المراجع الغربية من أن المسلمين كانوا لشدة تعصبهم ولشعورهم بالحق على المنصرين كانوا يرمونهم بتهم خطيرة منها فساد السلوك والعادات والتعدي على حرمة المساجد ودعوة المسلمين للتصير بطريقة استفزازية الأمر الذي كان يؤدي إلى ثورة العامة عليهم وضربهم وأحياناً الفتنك بهم وإن نجوا من العامة كانت السلطات تحاكمهم وتعدمهم^(١). والحقيقة هي غير ذلك، فلم يكن هنالك ثمة أدنى تعصب من قبل المسلمين، وإذا تصادف أن تم إعدام بعض هؤلاء المنصرين، فإن لإعدامهم ما يبره. لقد اختلف رد فعل المسلمين تجاه هؤلاء حسب اختلاف الأسلوب الذي كانوا يلجؤون إليه في ممارسة نشاطهم، فمن كان منهم يتبع أسلوب المخاطرة ومحاولة الإقناع بالحسنى كان يجد من بين المسلمين من يناظره دون استعمال أي نوع من الضغط أو الإكراه، ومن اتبع أسلوب الدعوة السلمية كان يترك وشأنه، والدليل على ذلك هو أن بعض أعلام حركة التنصير قد أقاموا فترة طويلة في إفريقيا دون أن يحسبهم أحد بسوء مثل لوغنجمييه، ورامون مارتى حيث أقام الأخير فيها مدة تقارب العشرين سنة كما سبق ذكره، وحتى رامون لول وفي رحلته الثالثة التي أعدهم فيها أقام في تونس يمارس نشاطه دون أن يتعرض له أحد بسوء كما سبق ذكره أيضاً، وأما الذين

R. Brunschvig : Op. Cit., Tom 1, p.456.

(١) انظر على سبيل المثال :

كانوا يلاقون حتفهم من المنصرين فهم مهووسو الشهادة الذين كانوا يهاجمون الإسلام على مسمع ورأى من جمهور المسلمين ويتعنونه بأقبح التعوت ويصفون النبي صلى الله عليه وسلم بأوصاف لا يمكن لأي مسلم السكوت عليها، وليس لهم غرض في ذلك إلا طلب الموت على يد المسلمين لنيل تاج الشهادة على حد تعبيرهم، وهم يعلمون نتيجة هذا التصرف الأخرق سلفاً، فهؤلاء هم فقط الذين كانوا يعدمون عملاً بمقتضى الشريعة الإسلامية، وإذا كان برنغفيك قد ضرب مثلاً على إعدام هؤلاء المنصرين بما تضمنه سجل منظمة الثالوث المقدس من أسماء بعض الذين أعدموا في إفريقية خلال الفترة من سنة ١٢٣٣م إلى سنة ١٢٨٥م^(١) للتدليل على تعصب المسلمين، فهو نفسه يقول إن سجل هذه المنظمة لا يذكر إلا البعثات التي آلت إلى نهاية مأساوية خلال القرن الثالث عشر في إفريقية والمغرب^(٢). إذن فكم هي البعثات التنصيرية لتلك المنظمة التي لم يلاق أعضاؤها حتفهم وهي المنظمة التي كانت من أنشط المنظمات في هذا الميدان؟ إنها لا شك كثيرة وتنفوق الحصر، فلماذا لم تنته منها هي وبعثات المنظمات الأخرى إلى نهاية مأساوية لو كان هنالك تعصب من قبل المسلمين؟

وعلى أية حال، فقد أدى نشاط الحركة التنصيرية في إفريقية إلى نتيجة هامة هي تنشيط الحركة المضادة في تلك البلاد إلى حد كبير والتي أكثر ما تجلت في العمل المتواصل على جعل النصارى الذين كانوا يغدون إليها يعتنقون الإسلام والتي حققت نتائج تفوق بكثير النتائج التي حققتها حركة التنصير إلى حد لا تصبح معه المقارنة بينهما. وقد اعترف العديد من المؤرخين الغربيين بذلك، فيقول برنغفيك مثلاً: (ومن الثابت أن ظاهرة التنصر أقل بكثير من الظاهرة المقاتلة أي دخول النصارى في الإسلام)^(٣)، حتى إن رامون لول نفسه اعترف بوجود هذه الحركة المضادة حينما علل نجاحه من الموت في تونس في رحلته الأولى إليها بخشية القائمين على تلك الحركة من أن يكون إعدامه السبب في عرقلة الجهود

R. Brunschvig : Op. Cit., Tom1, p.456.

(١)

R. Brunschvig : Ibid, Tom1, p.456.

(٢)

R. Brunschvig : Ibid, Tom1, p.469.

(٣)

التي كانت تبذل لهداية النصارى للإسلام^(١). ويحاول برنغفيك قصر ظاهرة اعتناق النصارى للإسلام على الأسرى منهم، زاعماً أنهم كانوا يعتقونه بضغط من أسيادهم^(٢)، إلا أن ذلك ليس هو كامل الحقيقة، ويمكن الاستدلال على قولنا هذا من برنغفيك نفسه إذ يقول في موضع آخر إن الذين اعتنقوا الإسلام من النصارى والذين كانوا يعرفون بالعلوج لم يكونوا كلهم من الأسرى بل كان منهم من النصارى الأحرار ارتلوا عن النصرانية ودخلوا في الإسلام عن طيب خاطر^(٣)، صحيح أن كثيراً من الأسرى والذين كانوا بأعداد غفيرة في عصر تعددت فيه الغزوات واختلطت فيه أعمال القرصنة بالجهاد، كانوا يعتنقون الإسلام، ولكن عن طيب خاطر على عكس ما كان يجري للأسرى من المسلمين الذين كانوا يؤخذون إلى بلاد النصارى أو أولئك الذين ظلوا في بلادهم بعد أن استولى النصارى عليها والذين كانوا يجبرون على التنصر وإلا قتلوا شر قتلة، وما محاكم التفتيش (دواوين التحقيق) إلا دليلاً واحداً على ذلك. لقد كان الكثير من النصارى الأسرى يعتنقون الإسلام طوعاً ويختارون الإقامة في بلاد المسلمين إلى حد أنهم كانوا يرفضون العودة إلى بلادهم، وليس أدل على اختيار الأسرى النصارى الإقامة لدى المسلمين مما جاء في رسالة موسى بن أبي يعقوب العبدواي سلطان تلمسان إلى بيلرو الرابع ملك أرغونة المؤرخة ٢٣ صفر سنة ٧٦٤هـ / ١١ ديسمبر ١٣٦٢م التي جاء فيها أن الأسرى الذين كانوا لديه رفضوا العودة إلى بلادهم وآثروا البقاء في تلمسان^(٤). وقد فتح اعتناق هؤلاء للإسلام أمامهم سبل الحياة الحرة الكريمة والارتقاء إلى أعلى المناصب، فمنهم من حظي بثقة السلاطين وأصبحوا قواداً للجنود وحكاماً وولاة على المدن والأقاليم^(٥)، فقد ذكر الحسن الوزان أسماء اثنين من هؤلاء تولوا قسنطينة في عهد أبي عبد الله محمد أحدهما يدعى فرح والثاني السيد النبيل^(٦)، وكان هنالك العديد من أمثالهم بطبيعة الحال تبوؤوا مراكز هامة في الدولة الحفصية منذ

N. Daniel : Op. Cit., p.311.

(١)

R. Brunschwig : Op. Cit., Tom1, p.449.

(٢)

R. Brunschwig : Ibid, Tom1, p.452.

(٣)

Maximiliano A. Al - Aracon : Op. Cit., p.233.

(٤) انظر :

R. Brunschwig : Ibid, Tom 1, p.451.

(٥)

(٦) الحسن الوزان : المصدر السابق ص ٤٢٩.

تأسيسها وحتى انقضاء عهدها، فضلاً عن أولئك الذين كانوا يمارسون الأعمال الحرة في
ميادين التجارة والصناعة وغيرها.

ولم يقتصر اعتناق المسيحيين الإسلام على هؤلاء فقط، وإنما تعداه إلى العديد من
الفئات الأخرى مثل الكثير من التجار الذين كانوا يترددون على إفريقية ثم يقيمون فيها
بصفة مستمرة بعد إسلامهم، ثم إن كثيراً من الأميرات الحفصيات كن أصلاً مسيحيات
واعتنقن الإسلام وحسن إسلام العديد منهن مثل (عطف) أم المستنصر وغيرها، يضاف إلى
ذلك أن العديد من أولئك الأميرات كن عندما يحظين لدى أزواجهن يستدعين أقاربهن من
أوروبا إلى إفريقية ليعيشوا في كنف أزواجهن^(١) وكثيراً ما كان يؤول أمر هؤلاء إلى اعتناق
الإسلام والاستقرار في إفريقية. حتى إنه وجد من بين الرهبان المنصرين الذين كانوا يغدنون
إلى إفريقية في مهمات تنصيرية من كان يفتح قلبه للإسلام فيعتقه، وكانت هذه الفئة
مكتملاً كبيراً للمسلمين إذ أنهم كانوا عندما يعتنقون الدين الإسلامي يتولون هم مهمة
الدفاع عنه أمام المنصرين يعينهم في ذلك ثقافتهم الواسعة وحسن اطلاعهم على الدين
المسيحي بحكم حسن إعدادهم لمهمة التنصير هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية أنهم يكونون
قد دخلوا في الإسلام عن فتاعة تامة تأت لهم من دراستهم له، ولذلك يكونون مؤهلين
لتفنيذ حجيج المنصرين، ومن هؤلاء الراهب أنسلمو تورميذا Anselmo Turmeda .

كان أنسلمو تورميذا ميورقياً (من جزيرة ميورقة) مثل رامون لول، وقد ولد سنة
١٣٥٣م وكان وحيد أبويه، تلقى علومه الدينية الأولية في الجزيرة ثم رحل منها إلى لاردة
(Lerida) بقطلونية حيث استأنف الدراسة في جامعتها، فدرس بها العلوم الطبية والفلكية
واللغتين اليونانية والعبرية^(٢) فضلاً عن العلوم الدينية، ويبدو أنه خلال دراسته في هذه

(١) انظر ابن الشماخ : المصدر السابق، حسن حسني عبد الوهاب : شهرات التونسيات
ص ١٣١ - ١٢٢.

(٢) عبد الله الترحمان : تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب ص ٤ - ٥، انظر كذلك مقدمة تحفة
الأريب تحقيق ميخول دي أبلتا ص ٨٧ - ٨٨. لقد وضعت عدة دراسات عن أنسلمو تورميذا من
أهمها ما كتبه دي أبلتا عنه، انظر المقدمة التي كتبها لتحفة الأريب للنسخة التي حققها ونشرها، ثم

M. de Epalza : La Tuhfa Autobiografica Y Polemica Islamica Contra et Cristianismo de
Abdullah Al - Taryuman (Fray Anselmo Turmeda).

الجامعة التي دامت ست سنوات قد تعلم شيئاً من العربية حتى ألم بها، وبعد تخرجه من جامعة لاردة تصدر لتدريس الإنجيل ولغته للطلاب في تلك المدينة لمدة أربع سنوات، حيث غادرها بعد ذلك إلى مدينة بنوية (بولونا) Balogne لاستكمال دراسته في جامعتها المشهورة، وهناك التقى بأحد أساتذتها ويدعى نقلا مارتل حيث تقرب منه حتى أصبح من خواصه^(١). ومع أن برنغيفك يحاول أن يثير الشك حول رحيل تورميذا إلى بولونا وتلقيه العلم فيها، فيقول عنه إنه بعد مغادرته لاردة يغلب على حياته الغموض فلا شيء ثبت أنه ذهب إلى هنالك والتقى بنقلا مارتل، ويزعم أنه اختلق ذلك ليخفف من شدة وقع إسلامه على نفوس النصارى^(٢)، إلا أن تورميذا في رأينا كان واضحاً في حديثه عن نفسه ووصفه لإقامته في تلك المدينة^(٣) مما يحملنا على الاعتقاد بأنه وصف معانين، الأمر الذي يجعل شكوك برنغيفك لا تقوم على أساس ميماء وأنه لم يقدم الدليل على قوله، وعلى أية حال، فإن تورميذا يقول عن نفسه إنه أقام في تلك المدينة عشر سنوات تلقى فيها أصول الدين المسيحي على هذا الأستاذ واختص به، حيث يقول في ذلك (صبرني أخص خواصه وأنهيت في خلدستي وتقريي إليه إلى دفع مفاتيح مسكنه وخزائنه أكله إليّ ولم يستثن من ذلك سوى مفتاح بيت صغير بداخل مسكنه كان يخلو فيه بنفسه، الظاهر أنه يبيت خزانة أمواله التي تهدى إليه)^(٤)، ثم يقول في حديث طويل إنه هو الذي وجهه للإسلام^(٥)، وقد عاد بعد ذلك إلى موطنه مبرقة حيث أقام بها سنة أشهر، ثم رحل بعد ذلك إلى صقلية التي أقام بها خمسة أشهر، ومنها وفي سنة ١٣٨٨م سافر ضمن بعثة تنصير فرانسيسكانية إلى مدينة تونس^(٦)، مع أنه تجاهل في كتابه (تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب) أمر هذه البعثة، وقال إنه قصد تونس لاعتناق الإسلام^(٧)، ويدنو أن السبب في عدم ذكره لهذا الأمر هو تلافياً لأي

(١) عبد الله الترجمان : المصدر السابق ص ٥.

R. Brunschvig : Op. Cit., Tom 1, p.469 - 70.

(٢) انظر :

(٣) انظر عبد الله الترجمان : المصدر السابق ص ٥.

(٤) انظر عبد الله الترجمان : المصدر السابق ص ٦ - ٨.

(٥) انظر عبد الله الترجمان : المصدر السابق ص ٨.

R. Brunschvig : Ibid, Tom 1, p.470.

(٦) انظر :

(٧) انظر عبد الله الترجمان : المصدر السابق ص ٨.

إخراج مع حركة التنصير والذي قد يتطور إلى حد الإيذاء، وبعد إقامة في تونس امتدت أربعة أشهر اتصل بالسلطان أبي العباس أحمد وأسلم على يده^(١) وتسمى بعد الله فأكرمه ووهب له منزلاً وأجرى له نفقة مقدارها ربع دينار ذهبي يومياً وهي جرامة كبيرة وقتل، ثم زوجه من ابنة الحاج محمد الصفار أحد رجالاته ووهب له مائة دينار وكمسة وعينه موظفاً في إدارة الحمارك حيث أتقن اللغة العربية، وعندما رزق ابنه الأول سماه محمداً تيمناً باسم الرسول صلى الله عليه وسلم^(٢). وأثناء حملة لويس الثاني دي بوريون على المهديّة سنة ٧٩٢هـ / ١٣٩٠م كان يتولى أعمال الترجمة بين الجانيين الإسلامي والصليبي^(٣) فأطلق عليه لقب الترجمان، ومنذ ذلك الوقت أصبح يعرف بعبد الله الترجمان، وقد قربه السلطان أبو العباس حتى أصبح من خاصته وقيم خزائنه وراققه في بعض حروبه مثل حركته إلى قابس وقصصه، وعندما توفي أبو العباس سنة ١٣٩١م وخلفه ابنه أبو فارس عبد العزيز حفظ السلطان الجديد لعبد الله الترجمان منزله الرفيعة حتى شغل عدة مناصب هامة في عهده^(٤). وفي سنة ٨٢٣هـ / ١٤٢٠م ألف عبد الله كتابه (تحفة الأريب) الأنف الذكر.

(١) يروي قصة إسلامه بقوله: (فلما نزلت بديوان تونس وسمع بي الذين بها من أجناد النصارى أتوا لي بمركوب ورحلوني معهم إلى ديارهم وصحبهم بعض التجار الساكنين أيضاً بتونس فأقمت عندهم في ضيافتهم على أرغد عيش أربعة أشهر وبعد ذلك سألتهم هل يبار السلطنة أحد يحفظ لسان النصارى وكان السلطان إذ ذاك مولانا أبو العباس أحمد فذكروا لي أن يبار السلطان المذكور رجلاً فاضلاً من كبراء خدمه اسمه يوسف الطيب وكان طيبه ومن خواصه ... - فقدمه للسلطان الذي مر به وطلب منه أن يعلن إسلامه ولكن عبد الله الترجمان طلب من السلطان أن يسأل من يؤم مجلسه من الأجناد عن منزلته خشية أن يطعن فيه النصارى بعد إسلامه فأرسل السلطان إلى كبار أجناد النصارى والتجار وأدخله لي بيت قريب من مجلسه، فلما سألهم عنه امتدحوه بقولهم -: (... هو عالم كبير في ديننا وقال ميوخنا إنهم ما رأوا أعلى منه درجة في العلم والدين في ديننا فقال لهم وما تقولون فيه إذا أسلم فقالوا نعوذ بالله من ذلك هو ما يفعل ذلك أبداً فلما سمع ما عند النصارى بعث إلي فحضرت بين يديه وتشهدت بشهادة الحق بمحض النصارى فصلبوا على وجوههم وقالوا ما حمل على هذا إلا حب التزويج فإن القسيس عندنا لا يتزوج فخرجوا مكررين). وهي تشبه إلى حد ما قصة إسلام الصحابي الحصين بن سلام رضي الله عنه. (انظر عبد الله الترجمان : المصدر السابق ص ٩ - ١٠).

(٢) عبد الله الترجمان : المصدر السابق ص ١٠.

R. Brunschvig : Op. Cit., Tom 1, p.470.

(٣) عبد الله الترجمان : المصدر السابق ص ١٠.

(٤) عبد الله الترجمان : المصدر السابق ص ١١.

إن مضمون هذا الكتاب يتضح من عنوانه وحتى من السطور الأولى إذ بعد أن يبين عبد الله الترجمان منهجه يقول : (فكنت شديد الحرص على أن أضع في الرد عليهم - أي اليهود والنصارى - موضوعاً بطريق النقل وحقيقة الإنصاف... وأبين فيه باطلهم وما أسس من القول بالتثليث. والأخذ بذلك المذهب الحبيث. وأذكر مع ذلك أناجيلهم ومن ألفها. وشرائعهم ومن صنفها. وفساد عقولهم. وإبطال كفرهم في منقولهم)^(١)، ويدور أن حركة التنصير نشطت آنذاك من جديد بعد فترة ركود نسبي في أواخر القرن الرابع عشر، فأنبرى عبد الله الترجمان للدفاع عن الإسلام وتفنيد حجج النصارى. والطريف أن اعتماده في ذلك كان على نصوص التوراة والإنجيل مما يجعل هذا الكتاب على صغر حجمه ذا أهمية كبيرة في موضوع المناظرات والمجدل العقائدي بين المسلمين والنصارى، ومع أنه لم يكن المؤلف الوحيد لعبد الله الترجمان إذ صنف قبله مؤلفين آخرين أحدهما (En Tunisie de Barberia) الذي كان شاعراً بالقطانية المزوجة بالمبورقية تضمن آراءه في تشتت الغرب بالإضافة إلى أخبار حملة صليبية وجهت إلى بجاية. والثاني كتبه في سنة ١٤١٧م - ١٤١٨م هو (Disputato de Lase) بالقطانية أيضاً، وهو عبارة عن محاورات بين الكاتب وحمار يتضمن رد عبد الله الترجمان على النصارى بطريق المحاورة ولم يصلنا إلا ترجمة فرنسية له ترجع إلى القرن الخامس عشر أي بعد كتابته بفترة وجيزة، وأما أصله القطلاني فقد ضاع معظمه ولم يصل منه إلا تنبؤات الحمار^(٢)، إلا أن (تحفة الأريب) يبقى هو الأهم في مؤلفات الترجمان.

ولم تسكت حركة التنصير على عبد الله الترجمان، فيكشف لنا في تحفة الأريب عن الجهود التي بذلتها معه لإعادته إلى النصرانية، فيقول إنه في ١٦ نوفمبر سنة ١٤٠٢م وبعد أن يمس منه المنصورون الذين كانوا في إفريقية على ما يبدو، بحث إليه سلطات ميورة إذناً بالدخول إلى الجزيرة صالحاً لمدة سنة ليتمكن من زيارة أهله، وأعلمته أنه بإمكانه العودة إلى تونس بعد ذلك محملاً بالهدايا إذا شاء. ولكنه لعلمه بما كان ينتظره من إجبار على التنصر أو

(١) عبد الله الترجمان : المصدر السابق ص ١ - ٢.

R. Brunschvig : Op. Cit., Tom 1, p.471.

(٢) انظر :

الموت رفض هذا العرض، وفي وقت غير معروف بالضبط حاول برنجفيك تحديده بما بعد شهر يوليو سنة ١٤٠٩م قلم راهب كان زميل دراسة له وصديقاً قديماً، قدم من صقلية إلى تونس خصيصاً لمقابله وإقناعه بالعودة إلى المسيحية، وعندما وصل هذا الراهب إلى ميناء تونس كتب رسالة لعبد الله الترجمان وسلمها إلى أحد الموظفين طالباً منه أن يوصلها إليه ويعود بجوابها، فسلمها هذا إلى مدير الجمارك الذي استدعى أحد التجار الجنويين وطلب منه ترجمتها له، وبعد أن عرف ما فيها أرسلها للترجمان وأخبر السلطان بشأنها، فقام السلطان بامتدعاء عبد الله الترجمان، وسأله عن تلك الرسالة ف ترجمها له فوافق قوله ما أعلمه به صاحب الجمارك فزاد ذلك في ثقة السلطان به وزاد سروره به أكثر حينما رفض ما عرضه عليه ذلك الصديق في تلك الرسالة ثباتاً منه على دينه^(١). ويزعم برنجفيك أن عبد الله الترجمان كان في وقت من الأوقات وقبل تأليفه تحفة الأريب يتننى العودة إلى أوروبا والتصر من جديد^(٢). ولما كنا لا ندري على أي مصدر احتد برنجفيك في زعمه هذا، فإننا نعتبره من قبيل غبار الشك الذي يشره أحياناً حول كل ما يتعلق بالإسلام والمسلمين، ذلك أن موضوع مؤلفه الأول يتعلق بأوضاع أوروبا في عصره وحملة صليبية على بجاية وليس من المقبول عقلاً أن يقحم فيه هذا الموضوع، وينطبق نفس القول على مؤلفه الثاني الذي صنفه للدفاع عن الإسلام والرد على النصارى، فكيف يمكن أن يتننى فيه التنصير؟ وإذا كان قد اعتمد على إحدى المصادر المسيحية فهو نفسه يشك في صحة المعلومات التي تقدمها عن موضوع التنصير، أما إذا كان عبد الله الترجمان قد دلح بالحنين إلى وطنه، فليس معنى ذلك أنه راغب في التنصير، فالحنين إلى الوطن أمر طبيعي لدى البشر حتى إن الحيوان يشارك البشر فيه.

(١) انظر عبد الله الترجمان : المصدر السابق ص ١١ - ١٢.

R. Brunschvig : Op. Cit., Tom 1, p.472.

وكان نص تلك الرسالة كما أورده عبد الله الترجمان في تحفة الأريب كما يلي : (أما بعد السلام من أمييك فرنسيس القسيس أعرفك أنني وصلت إلى هذه البلد برسلك لأحملك معي وأنا اليوم عند صاحب صقلية بمنزلة أن أعزل وأولي وأعطي وأمنع وأمر جميع مملكته بيدي فاسمع مني وأقبل إلي على بركة الله تعالى ولا تخف ضياع مال ولا جاء وغير ذلك فإن عندي من المال والجاه ما يضر الجميع وأعمل لك كل ما تريد). (انظر عبد الله الترجمان : المصدر السابق ص ١٢).

R. Brunschvig : Ibid, Tom 1, p.472.

(٢) انظر :

وتستمر محاولات إغراء الترجمان بالتصبر، وتشارك فيها الأوساط الدينية والسلطات الزمنية، فيكتب إليه أحد القائمين على حركة التصير وهو (Benoit) من مقر إقامته في بنيسكولا (Peniscola) رسالة يطلب منه فيها العودة إلى أوروبا ويعده بغفران ذنوبه وحمايته من أن يطاله أي عقاب إذا ما عاد ابناً باراً للكنيسة^(١)، ولكنه يرفض هذا العرض من جديد، وفي شهر ديسمبر سنة ١٤٢١م كتب إليه القونسو الخامس ملك أرغونة رسالة من نابلي الهدف المعلن منها هو شكره وابن السلطان الحفصي على الجهود والمساعدات التي قدمها لتحرير بعض الأسرى النصارى الذين كانوا في إفريقية^(٢)، ولكنها تتضمن أيضاً إغراء الترجمان بما بذله من الرضا منه لتشجيعه على العودة إلى وطنه. وفي ٢٣ سبتمبر سنة ١٤٢٣م أي بعد أقل من عامين فقط وصلته رسالة أخرى من ملك أرغونة تتضمن الإذن له ولعائلته لزيارة جميع البلاد الخاضعة لمملكة أرغونة مع إذن له بحرية التنقل بين إفريقية وأرغونة لمدة عامين. ولكن كل ما فعله عبد الله الترجمان هو أن فكر الملك على ذلك الإذن الذي لم يفكر أبداً في الاستفادة منه^(٣)، وبقي في تونس وفيما لديه الإسلامي إلى أن وافاه الأجل في وقت غير معروف بالضبط حيث دفن بها قرب باب المنارة، وقبره معروف بها إلى الآن ويطلق عليه العامة في تونس حالياً (قبر سيدي تحفة) نسبة لكتابه تحفة الأريب الذي أكثر ما اشتهر به.

وبعد، فإن حركة التصير في إفريقية فشلت هي الأخرى، مثلما فشل الدعاة الصليبيون في وضع مشاريعهم الصليبية موضع التنفيذ، وإذا كانت هذه المؤامرات الصليبية على إفريقية التي احتدم أوارها في أواخر القرن الثالث عشر والنصف الأول من القرن الرابع عشر قد خفت حدتها في النصف الثاني من ذلك القرن أعني القرن الرابع عشر، فإن ذلك لا يعني أن اهتمام الحركة الصليبية بإفريقية قد تضاعف بل العكس هو الصحيح، إذ إن هذه الحدة قد خفت لتفصح المجال أمام العلوان المسلح من جديد، فقد شهدت إفريقية في النصف الثاني من ذلك القرن حملات صليبية ضخمة هي التي سنتعرض لها في الباب التالي.

R. Brunschwig : Op. Cit., Tom 1, p.472.

(١) انظر :

R. Brunschwig : Ibid, Tom 1, p.472.

(٢) انظر :

R. Brunschwig : Ibid, Tom 1, p.472.

(٣) انظر :

﴿وترى كثيراً منهم يمارعون في الإثم والعدوان وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون﴾ .

[سورة المائدة : آية ٦٢]

كتاب الله

الحملة الصليبية على إفريقيا
في القرن الرابع عشر

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءاً وَلَعِباً مِّنَ الَّذِينَ
أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُتُمَ مُّؤْمِنِينَ﴾ .
[سورة المائدة : آية ٥٧]

أرغونة قوة عدوان جديدة في جبهة إفريقية

إفريقية منذ وفاة المستنصر الأول حتى تولي أحمد الثاني - محاولة احتلال قسنطينة -
احتلال جزيرة جربة - مهاجمة المهدية - حركة بن أبي دبوس - غارات قراصنة أرغونة
وصقلية على إفريقية - فشل خطط أرغونة وتحرير جربة

إفريقية منذ وفاة المستنصر الأول حتى تولي أحمد الثاني :

أعقب وفاة المستنصر الأول الحفصي (ت ١١ ذي الحجة سنة ٦٧٥/١٢٧٧م)^(١) عهد من الفوضى والاضطراب السياسي في إفريقية دام حوالي القرن من الزمن كثرت فيه الفتن والحروب والثورات الداخلية، الأمر الذي أدى إلى إنهاك قواها وانشغالها بنفسها عن ما كان يجري حولها ويدير لها. فلم يكن أبو زكريا يحيى الثاني الوائلي الذي خلف أباه المستنصر في الحكم في مستوى أبيه وجده من الكفاءة والحزم، وتبعاً لذلك سرعان ما ابتدأ الصراع بين رجالات دولته، وهو الصراع الذي أسفر عن استبداد يحيى بن عبد الملك الغافقي الملقب بابن الخير كاتب الوثائق بأمر الدولة بعد أن استطاع التخلص من منافسيه، يقول الزركشي عن الوثائق في ذلك : (غير أنه لم يملك بعنان الملك حق الإمساك حتى استبد عليه ابن الخي)^(٢)، وكان ابن الخير فاسد الرأي مبيح التدبير فاضطربت أحوال البلاد سيما وأنها كانت لا تزال وقته تعاني من آثار حملة لويس التاسع عليها، الأمر الذي أدى إلى ظهور طامع في العرش هو الأمير أبو إسحق إبراهيم بن أبي زكريا الأول عم الوثائق، والذي كان يعيش لاجئاً سياسياً في بلاط بني الأحمر ملوك غرناطة منذ فشل ثورته على أخيه المستنصر وفراره إلى الأندلس^(٣)،

(١) الزركشي : المصدر السابق ص ٤٠ .

(٢) الزركشي : المصدر السابق ص ٤٢ ، انظر كذلك ابن السماع : المصدر السابق ص ٧٦ .

(٣) ثار أبو إسحق إبراهيم على أخيه المستنصر في أوائل عهده، وحينما فشل ثورته هرب إلى المغرب الأقصى ثم إلى الأندلس وأقام في بلاط ملوك غرناطة كما سبق ذكره، وكان المستنصر يخشى من طمع أخيه في العرش فكان يحكم الرقابة عليه ويهادي ملوك بن الأحمر ليمنعوه من العودة إلى =

والذي ما أن وصلته أنباء ما آلت إليه الأمور في إفريقية حتى عقد العزم على العودة إليها وانتزع العرش من ابن أخيه الضعيف^(١). كان أبو إسحق يعتقد بأنه لا بد له من قوة كبيرة تساعد في هذا الأمر، فكان أن اتصل ببيدرو الثالث ملك أرغونة الجديد طالباً منه العون، فلم يتوان المذكور عن اغتنام هذه الفرصة الطيبة التي ستجعل من سلطان إفريقية صنعة له وبالتالي يكون ذلك خطوة هامة في سبيل تحقيق أهدافه في تلك البلاد فأمدّه بالمعونة^(٢)، وعند ذلك عبر أبو إسحق البحر إلى تلمسان حيث تلقاه أميرها يغمراسن بن زيان عاهل الدولة الزيانية (العبودية) بالإكرام ووعدّه هو الآخر بالمساعدة، وتوثيقاً للروابط بينهما أصبح يغمراسن إليه بتزويج ابنه عثمان من إحدى بنات أبي إسحق^(٣)، وكان هدف يغمراسن الرئيسي من ذلك هو وضع سلطان على عرش الدولة الحفصية يكون موالياً له فيؤمن بذلك الحدود الشرقية لبلاده من الخطر الحفصي الذي طالما تهددها منذ تأسيس إمارته إلى حد أنه جرى اكساحها في عهد أبي زكريا الأول واجتياح حاضرتها تلمسان وإقصائه عن العرش، وبذلك تتاح له حرية أكبر لمقارعة بني مرين سلاطين المغرب الأقصى الذين كانوا يطلمعون إلى ضم إمارته لمملكتهم.

ومن تلمسان نشط أبو إسحق في كسب الأنصار، فاتصل بعرب الدواودة الذين اتفقوا معه على نصرته والقيام بدعوته، كما بدأ في استمالة مشيخة الموحدين ورجالات دولة ابن أخيه، حتى إذا ما اطمأن إلى القوة التي تجمعت لديه زحف بها إلى بجاية واحتلها^(٤) ثم زحف على قسنطينة فدانّت له هي الأخرى، وبذلك سيطر على القسم الغربي من الدولة الحفصية وأخذ يستعد للزحف على مدينة تونس، واضطربت الأمور على

= إفريقية، يقول ابن القنفذ في ذلك : (وكان أعوه المستنصر يوجه الهدايا الضخمة لابن الأحمر ويهبط الأموال الكثيرة لممسك ابن الأحمر عنه أخاه، ويوصل المستنصر الأرسال من كبار الموحدين وأحيان الطلبة في السفارة عنه لابن الأحمر، وفي طي ذلك الاطلاع على أحوال أخيه) (انظر ابن القنفذ : المصدر السابق ص ١١٨).

(١) انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٢٩٧، ابن القنفذ : المصدر السابق ص ١١٨، الزركشي : المصدر السابق ص ٤٢، ابن التمام : المصدر السابق ص ٨٧، ابن أبي دينار : المصدر السابق ص ١٣٨.

(٢) شارل أنتري جوليان : المرجع السابق ج ٢ ص ١٨٢.

(٣) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٠١، انظر كذلك ابن القنفذ : المصدر السابق ص ١١٨.

(٤) انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٢٧٩. كذلك الزركشي : المصدر السابق ص ٤٢.

الوائق خاصة عندما وصلته الأنباء بقرب وصول عمه إلى العاصمة، فكان أن خلع نفسه من السلطنة لعمه الذي دخل المدينة وبريع بالخلافة في منتصف ذي الحجة سنة ٦٧٨هـ / ١٢٨٠م^(١)، والذي بالرغم من ذلك لم يطمئن لابن أخيه فكان أن قتله هو وبنوه الثلاثة بعد ذلك بفترة وجيزة في صفر سنة ٦٧٩هـ / ١٢٨٠م بسبب وشاية وشي بها إليه مفادها أنهم يدبرون مؤامرة للتخلص منه^(٢).

وقد فححت حركة أبي إسحق هذه باب الفوضى والفتنة في إفريقية على مصراعيه، إذ أن أبا إسحق أخذ منذ توليه الحكم يتبع رجالات دولة ابن أخيه المخلوع ويمتحنهم بالسجن والقتل ومصادرة الأموال، يضاف إلى ذلك قسوته وشدة وطأته على الناس وانصرافه للهوى، فضلاً عن السيادة غير الحكيمية التي انتهجها مع الأعراب الهلالية بمنحه الامتيازات العديدة لبطونهم التي ساعدته في حركته، فأباح هؤلاء لأنفسهم تبعاً لذلك حرية التصرف كما يشاؤون والاعتداء على أهل المدن والقرى، فحاکاهم في ذلك غيرهم من الأعراب وبعض قبائل البربر حيث أخذ الجميع يعيشون الفساد في نواحي البلاد، وبذلك أفلت زمام الأعراب من يد السلطة المركزة من جديد بعد أن كانوا قد أدخلوا إلى السكنية نوعاً ما في عهد كل من أبي زكريا الأول والمستنصر، ولم تتمكن الدولة الحفصية من فرض سيطرتها الكاملة عليهم ثانية حتى انقضاء عهدها في العصر الحديث^(٣). وزاد من سوء الوضع أنه حدث في

(١) انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٢٩٨، الزركشي : المصدر السابق ص ٤٣ . ابن الشماخ : المصدر السابق ص ٧٧، صالح الكواش : تاريخ تونس، مخطوط المكتبة الوطنية بتونس رقم ٣٢٨، ورقة ١ .

(٢) انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٢٩٨، الزركشي : المصدر السابق ص ٤٣، ابن الشماخ : المصدر السابق ص ٧٧، صالح الكواش : المصدر السابق ورقة ١، ابن أبي دينار : المصدر السابق ص ١٣٨، ابن أبي الضياف : المصدر السابق ص ٢١٠ .

(٣) يصف ابن القنفذ هذا الوضع بقوله عن ذلك السلطان : وكانت فيه غلظة وشجاعة وخفة وغيبة عن مجلسه في لهوه وأتسه، وكان لا ينظر في عواقب الأمور... واستولت العرب في أيامه بتونس على القرى والمنازل ونهبوا الأموال والحريم، وهو أول من كتب البلاد الغريبة للعرب بالظهور، وزاد في الموائد ليجد الراحة في لذاته بعد تقدم غزواته، وقتل المجاني في أيامه وكثر الإخراج والإنفاق. ابن القنفذ : المصدر السابق ص ١٣٩، انظر كذلك ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٠٢، الزركشي : المصدر السابق ص ٤٥، ابن الشماخ : المصدر السابق ص ٧٨ .

السنة التالية على احتلاله العرش مجاعة عظيمة شملت إفريقية وأضررت بالناس والحيوان^(١). وتخص هذا الوضع السيئ عن ثورتين كبيرتين إحداهما في قسنطينة والتي ستعرض لها فيما بعد، والثانية ثورة أحمد بن مرزوق بن أبي عمار المعروف بالدعي لادعائه أنه الفضل ابن السلطان المخلوع والواقى والتي بدأت في ٤ محرم سنة ٦٨٠هـ / ١٢٨١م، وأخذت تتفاقم حتى أدت في النهاية إلى هرب السلطان أبي إسحق من تونس حيث لاقى حقه فيما بعد، واعتلى الدعي سدة السلطنة في ذلك العام أعني سنة ٦٨٠هـ / ١٢٨١م^(٢)، إلا أنه لم يتمكن من

(١) يصف الزركشي هذه المجاعة التي حدثت سنة ٦٧٩هـ بقوله: (أكل الناس القمح فرياً ثم عدم ني سنبه فإذا حصد جمعت الأغمار ولم يوجد فيها شيء فكان البقر الذي أكل ذلك الزرع تلف وكان ذلك في جميع بلاد إفريقية).

الزركشي: المصدر السابق ص ٤٥، انظر أيضاً صالح الكواش: المصدر السابق ورقة ١ .

(٢) أصبل هذا الدعي من السيلة وبها ولد، ونشأ في بجاية واحترف في مطلع حياته الحياطة، وتقول عدة مصادر إسلامية: إن نفسه كانت تطمح للملك، لذلك غادر بجاية ولحق بصحراء سجلماسة حيث اختلط بعرب المعتل (من هؤلاء ومساكنهم وقواهم العسكرية انظر الحسن الوزان: المصدر السابق ص ٦٢ وما بعدها)، وادعى لهؤلاء الأعراب أنه الفاطمي المنتظر عند الأغمار البربر طالباً منهم القيام بدعوته، وزعم لهم أنه يحيل المعادن إلى ذهب بالصناعة، ويمكن من إقناعهم فالتقوا من حوله، ولكنهم عادوا وزهدوا فيه لخصال ظهرت منه لم تعجبهم ولضعف مدعاه فرحل عنهم ضارباً في الأرض حتى وصل إلى نواحي طرابلس، فنزل على دباب الهلالية وكان يقيم بينهم نصير الغنى أحد موالي الواقى السلطان المخلوع، ونظراً للغمه الكبير بينه وبين الفضل بن الواقى اتفق مع نصير على أن يصدقه في زعمه بأنه الفضل على أن يتبع قتلة الواقى وبنه ويأمر لنصير منهم، وفعلوا نفذ هذا الاتفاق وزعم لذهاب الدين كان شيخهم آنذاك مرغم بن صابر بأنه الفضل فقام هو وقومه بدعوته وأخذ بهاجم بهم نواحي إفريقية فهاجم طرابلس وعندما استعصت عليه غادرها إلى بلاد هوارة فلدات له ثم قصد قابس فبايعه صاحبها عبد الملك بن مكى وقاء للذكرى الواقى ثم زحف على قصبة فاطمات، وفي تلك الأونة أرسل أبو إسحق جيشاً بقيادة ابنه أبي فارس لمواجهة الدعي، ولكن هذا الجيش تفرق عن أبي فارس قبل الاشتباك الأمر الذي اضطره للعودة إلى تونس ومنها ذهب إلى بجاية تاركاً أباه يواجه مصيره، حينئذ زحف الدعي إلى القيروان فبايعه أهلها واقتدى بهم أهل لاهدية وسوسة وسفاقس، فاضطرب الأمر على أبي إسحق، وخرج إلى ظاهر العاصمة ليعد جيشاً يعاقل به الدعي الذي بدأ زحفه على العاصمة، ولكن الجيش الذي جمعه تقاعس عن نصرته وأخذ الجند ورجالات الدولة وشيخة المرشحين يتركونه وينضمون إلى خصمه فأيقن أن أمره إلى زوال، فلم يجد بداً من مغادرة تونس بأهله وولده هارباً إلى قسنطينة فسمعه واليها عبد الله بن توفيان المرغبي من دخولها، فزاد ذلك من متاعبه فضلاً عما عاناه من البرد والمطر والجوع -

فرض سيطرته على إفريقية^(١) نظراً لأنه كان سفكاً للدماء وفساد التدبير، فتبع رجالات أبي إسحق بالقتل والتعذيب واستصفاة الأموال، وأودع جميع أمراء البيت الحفصي في السجن وهم يقتلهم ففر الناس منه، ولم تلبث أوضاع البلاد أن ازدادت سوءاً في عهده، إذ ازداد فساد الأعراب وكثرت اعتداءاتهم على الناس حتى جأر هؤلاء بالشكوى، وعندما حاول أن يحد من هذا الفساد الذي استفحل، تحول الأعراب عنه واتصلوا بأمير حفصي كان لاجئاً في قلعة سنان هو الأمير عمر حيث ذهب إليه وفدهم وباهموه بالخلافة في ربيع الأول سنة ٦٨٣هـ / ١٢٨٤م فزحف هذا إلى تونس مدعوماً من عدة بطون من الهلالية من ناحية ومستنداً إلى الاتفاق الذي عقده مع ملك أرغونة كما سبق أن ذكرنا من ناحية ثانية حيث تمكن من دخول المدينة وقتل الدعي وبوع بالخلافة في ٢٥ ربيع الثاني سنة ٦٨٣هـ / ١٢٨٤م^(٢).

ومع أن أبا حفص عمر ظل في الحكم مدة أحد عشر عاماً وثمانية أشهر تقريباً (ت في

= طوال الطريق، فارتحل إلى بجاية ولكن ابنه أبا فارس الأنف الذكر تكرر له ومنعه من دخول البلد، بل وأجبره على التنازل له عن العرش، وبوع أبو فارس في أواخر ذي القعدة سنة ٦٨٠هـ / ١٢٨١م فأخذ يمد جيشاً من رياح الهلالية وبربر سلوكش ليواجه به الدعي.

لمزيد من التفصيل عن هذه الثورة انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٠٢ وما بعدها، ابن القنفذ : المصدر السابق ص ١٤٢ - ١٤٣، ابن الشماخ : المصدر السابق ص ٨٦ وما بعدها، الزركشي : المصدر السابق ص ٤٥ - ٤٦، ابن أبي دينار : المصدر السابق ص ١٣٩ وما بعدها، صالح الكواش : المصدر السابق ورقة ٢ - ٣، الوزير السراج : المصدر السابق ج ١ ص ٤١٠، ابن أبي الضياف : المصدر السابق ص ٢١٠ وما بعدها.

(١) اشتبك أبو فارس مع قوات الدعي في معركة بفع الأغيار قرب مرماجة لكنه هزم وقتل في المعركة، كما أسر بعض إخوته قتلهم الدعي صبراً، ولم ينج من الأمراء الحفصيين إلا أبو حفص عمر الذي لجأ إلى قلعة سنان في ثلاثة نفر من صحبه أحدهم محمد بن أبي بكر بن خلدون الجدل الأقرب لابن خلدون المؤرخ، كانوا يتناوبون حمله أثناء الطريق حتى وصلوا إلى تلك القلعة التي كانت مقفل قبيلة هواره البربرية، أما السلطان المخلوع أبو إسحق فحينما علم بهزيمة ابنه ومقتله هرب من بجاية هو وابنه يحيى. لكن والي المدينة اتبعه بجند قبضوا عليه وقتلوه وأما ابنه يحيى فقد تمكن من الفرار إلى تلمسان.

انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٠٣ - ٣٠٤، الزركشي : المصدر السابق ص ٤٦ وما بعدها، صالح الكواش : المصدر السابق ورقة ٤ .

(٢) انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٠٣ وما بعدها، ابن القنفذ : المصدر السابق ص ١٤٤ - ١٤٥، الزركشي : المصدر السابق ص ٤٩ - ٥٠، ابن الشماخ : المصدر السابق ص ٨٥ - ٨٦، ابن أبي دينار : المصدر السابق ص ١٣٩ - ١٤٠، صالح الكواش : المصدر السابق ورقة ٤ - ٥ .

٢٤ ذي الحجة سنة ٦٩٤هـ / ١٢٩٥م) وهي مدة طويلة نسبياً إذا ما قورنت بالست سنوات التي سبقت اعتلاءه العرش والتي تبدل فيها ثلاثة حكام، إلا أن الأمن لم يستتب ولم تتحسن الأوضاع في عهده عن السابق فقد كان من الضعف بحيث لم يستطع ضبط أمور البلاد، فعندما لمس العديد من الولاة اضطراب الأحوال وضعف السلطة المركزية وعجزها عن أن تظالمهم بهذا بالعقاب أخذوا يطمحون إلى الاستقلال بولاياتهم عنها مثل ابن مكّي صاحب قابس الأمر الذي كان ينذر ببدء عهد ملوك طوائف في إفريقية من جديد . كما حدثت في عهده حوادث جسام أهمها انقسام الدولة الحفصية إلى قسمين أحدهما مركزه تونس والآخر مركزه بجاية، ذلك أن الأمير يحيى ابن السلطان المخلوع أبي إسحق إبراهيم كان قد فر بعد مقتل أبيه وإخوته إلى تلمسان، وعندما رأى اضطراب الأوضاع في إفريقية عاد إليها حيث دعمه بربر سلويكش وبنو زغبة والدواودة من الهلالية واستولى على بجاية وبيع بها بالخلافة، ولم يكف بذلك بل زحف إلى تونس في سنة ٦٨٥هـ / ١٢٨٦م وعندما صد عنها سار إلى قابس فهاجمها وخرب أرباضها ثم ارتحل إلى مسراته فلجأ السلطان أبو حفص إلى عثمان بن يقراسن أمير بني زيان طالباً عونه ليكف أذى أمير بجاية المتمرد عنه، فقام هذا بمهاجمة بجاية مما اضطر أميرها للعودة إليها. وبقي أبو يحيى مستقلاً بالقسم الغربي من إفريقية حتى وفاته في سنة ٦٩٩هـ / ١٣٠٠م. ونتيجة لهذه الحوادث المتلاحقة نشط العدو الأرغوني المتربص بإفريقية في العمل، ففي عهد هذا السلطان استولى الأسطول الأرغوني على جزيرة جربة سنة ٦٨٨هـ / ١٢٨٩م، وظهرت حركة ابن أبي ديبوس المدعومة من قبل ملك أرغونة كما سيأتي ذكره، وازداد فساد الأعواب في عهده إلى حد كبير^(١).

(١) يصف العبدري الذي مر بإفريقية في تلك الآونة في طريقه إلى الحج من المغرب الأقصى في الذهاب والإياب في رحلته التي بدأها في يوم ٢٥ ذي القعدة سنة ٦٨٨هـ / ١٢٨٩م، يصف إفساد الأعراب بإفريقية في معرض حديثه عن مدينة باجة : (إن أهلها لا يفارقون السور خوفاً من العربان، وإنهم يستعملون لدفن الجنائز كما يستعملون ليوم الضراب والطمعان).

(انظر العبدري : الرحلة المغربية ص ٣٧ - ٣٨).

ويقول عن طرابلس : إنه استولى (عليها من مرهان البر ونصارى البحر النفاق والكفس). (انظر العبدري : المصدر السابق ص ٧٧).

ويقول عن إفساد غابة الزيتون المشهورة في إفريقية والتي قطعها في ثلاثة أيام : بأنها (الآن معطلة=

وقد حاول أبو حفص قبل وفاته إستاد ولاية العهد لابنه عبد الله، ولكن مشيخة الموحدين امتصغروا منه فاستشار الشيخ الزاهد أبا محمد المرجاني في شأن من يولي العهد فأشار عليه بإسناد هذا الأمر لربييه محمد المعروف بأبي عصيدة^(١)، فقبل منه ذلك رسماء ولياً للعهد، وبعد وفاته ببيع أبو عصيدة المذكور بالخلافة في ٢٤ ذي الحجة سنة ٦٩٤هـ / ١٢٩٥م، وكانت الدولة الحفصية لا زالت وتعلل على انقسامها إلى قسمين والفساد قد استشرى فيها، فاستهل أمره بقتل الأمير عبد الله بن السلطان السابق أبي حفص عمر (لأجل ترشعه)^(٢) وخوفاً من طمعه في العرش ولم يحفظ بذلك الجميل لأبيه ثم سلم مقاليد الأمور في دولته لحاجيه محمد بن إبراهيم بن الدباغ الذي سار في الناس سيرة سيئة ففقموا عليه، وقد أضر الأعراب ولا سيما الكعوب بالناس وقطعوا السبل الأمر الذي أدى إلى ظهور حركة أحمد بن عثمان بن أبي دحوس كما سيأتي ذكره، ثم إلى هياج العامة في تونس في رمضان سنة ٧٠٨هـ / ١٣٠٩م الذين هاجموا القصة مطالبين بتسليمهم ابن الدباغ لقتله هذا من ناحية، كما ازدادت في عهده جرأة قراصنة أرغونة وصقلية على مهاجمة سواحل إفريقية كما سيأتي ذكره من ناحية ثانية، وقد جرت في عهده محاولة لتحرير جزيرة جربة من الاحتلال الأروغوني قام بها شيخ الموحدين أبو يحيى زكريا بن اللحياني كما سيأتي ذكره أيضاً، وقد

= لفساد البلاد واستيلاء العربان عليها فانقطعت منفعتها رأساً حتى صار الزيت إفريقية مجلوب من جزيرة جربة (العبدري : المصدر السابق ص ٢٣٧، انظر كذلك التجاني : المصدر السابق ص ٦٥ ص ٦٨ .

وبجمل وصفه لوضع إفريقية السيئ وقيل بقوله : (والذي في بلاد إفريقية من عجائب البناء وآثار الاختناء أمر يضيق عنه الوصف... وقد دلت آثار تلك البلدان على ضخامة مملكها في غابر الزمان، على ضد ما هي عليه الآن فإنها شديدة الإهمال غير مبددة الأحوال طامسة المسالك خاسمة كالليل الخالك، عمرانها خراب وغدرانها سراب وعنوانها ياب، بكل عن وصف فاتها لسان النطق ويضيق في تبيان خلاصتها عنان التفتيح، حلت بها الآفات والخنق، وشفي منها الدهر على عقد لها من حقوق راحن لا يسلكها إلا مخاطر ولا يعلم من عرباتها لإلام خاطر قد استوى لديهم الصالح والطالح...) العبدري : المصدر السابق ص ٨٢ - ٨٣، انظر أيضاً التجاني : المصدر السابق ص ١١٩ - ١٢٠ .

(١) هو محمد بن الواثق بن المستنصر الأول، ولدت أمه في زاوية الشيخ المرجاني وكانت قد لثت عند مقتل أبيه وهي حامل به فأواها المرجاني، وقد عتق عليه المرجاني وأطعم الفقراء يوم مولده عصيدة الخنطة فلقب بأبي عصيدة، وبعد ذلك أظهره فربى في قصور الخلفاء. انظر ابن خلدون : ج ٦ ص ٣٢١ .

(٢) الزركشي : ص ٥٤ .

حاول السلطان أبو عصيدة توحيد الدولة الحفصية من جديد فزحف بجيش على قسنطينة، وقد أسفرت هذه المحاولة عن عقد اتفاق بينه وبين أبي البقاء خالد أمير بجاية الذي كان قد خلف أباه يحيى في حكمها على أن من يموت منهما قبل صاحبه يرثه الآخر ويتم توحيد شطري إفريقية تحت سلطانه، ولكن عندما توفي أبو عصيدة في ١٠ ربيع الآخر سنة ٧٠٩ هـ / ١٣٠٩ م دون أن يعقب ولداً نقض أهل تونس هذا الاتفاق وبايعوا أخاه أبا يحيى أبا بكر بن عبد الرحمن الملقب بالشهيد، ويبدو أن أبا البقاء خالد قد علم بنية أهل تونس قبل وفاة أبي عصيدة، فعندما شعر بدنو أجل السلطان المذكور الذي كان يعاني من مرض الاستسقاء خرج من بجاية بجيشه قاصداً تونس، وحينما وصل إلى موضع يقال له قصر جابر بالقرب منها علم بوفاته أبي عصيدة ومبايعة السلطان الجديد، فجد في سيره ولم يصمد أمامه الجيش الذي وجهه السلطان الجديد لقتاله إذ هزمه في معركة السعترية ودخل العاصمة وقتل أبا بكر وبويع بالخلافة في ٢٧ ربيع الآخر سنة ٧٠٩ هـ / ١٣٠٩ م^(١)، وبذلك أعاد توحيد إفريقية من جديد.

ولكن هذه الوحنة لم تعد لإفريقية الاستقرار كما أنها لم تدم طويلاً إذ لم تلبث أن نشبت ثورة على أبي البقاء قادها ابن عمه يحيى بن خالد بن السلطان أبي أسحق الذي جمع جمعاً من الأعراب قصد بهم قسنطينة وحاصرها فلجأ أهلها إلى الشيطان عنه فداخلوا زعيم الأعراب في جيشه منصور بن مزني الذي كان قائماً بدعوته فانصرف عنه إلى بلده، وانفضت جموع يحيى مما اضطره للهرب إلى تلمسان. وما كاد أبو البقاء يتخلص من هذا التأثير حتى ثار عليه أخوه أبو بكر الذي كان قد ولاء على قسنطينة فدعا لنفسه وآزره في دعوته راشد بن محمد أمير مغراوة فاستقل بها ثم سار إلى بجاية واستولى عليها في سنة ٧١١ هـ / ١٣١١ م، وفي أثناء امتداد أبي البقاء للقضاء على ثورة أخيه ظهر مطالب جديد هو شيخ الموحدين الأمير أبو يحيى زكريا أحمد بن اللحياني، الذي كان قد قدم لشوه من

(١) لمزيد من التفصيل انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٢٠ وما بعدها، ابن الفقل : المصدر السابق ص ١٥٤ - ١٥٥، ابن الفصاح : المصدر السابق ص ١٠٢ - ١٠٣، الزركشي : المصدر السابق ص ٥٧ وما بعدها، ابن أبي دينار : المصدر السابق ص ١٤١ - ١٤٢، صالح الكواش : المصدر السابق ورقة ١٠، ابن أبي الضياف : المصدر السابق ص ٢١٥ - ٢١٦ .

الحج وعندما وصل إلى طرابلس ورأى اضطراب الأمور على أبي البقاء خالد دعا لنفسه وصانده في دعوته أعراب الكعوب وملكا أرغونة وصقلية كما سبق ذكره، ولما سمع أبو بكر يحيى الثائر بقسنطينة بأمر ابن اللحياني أوفد إليه حاجبه عبد الرحمن بن عمر بهدية عظيمة ووعده بنصرته ضد أبي البقاء فقوي بذلك أمر ابن اللحياني وآل الأمر أخيراً إلى مقتل أبي البقاء وتولي ابن اللحياني العرش في ٢ جمادى الأولى سنة ٧١١هـ / ١٣١١م^(١). ولكنه هو الآخر لم يتمكن من ضبط أمور البلاد وإعادة توحيدها، إذ بالرغم من أن أبا يحيى المسيطر على قسنطينة وبجاية آزره في دعوته، إلا أنه لم يعترف به سلطاناً على كامل إفريقيا وبقي يسيطر على القسم الغربي منها أي أن الدولة الحفصية تفسخت إلى فرعين من جديد، وليس ذلك فحسب، وإنما بدأ النزاع بين هذين السلطانين، وقد حاول ابن اللحياني كسب مساندة ملكي أرغونة وصقلية ضد خصمه بإيهامهما برغبته في التصبر كما سبق ذكره، ولما رأى أن زمام الأمور بدأ يفلت من يده، وأنه لا قبل له بالصمود في وجه خصمه، عمل على الخروج من العاصمة لعل الأوضاع تهدأ أو لعلها تتاح له حرية أكبر للمناورة بوجوده خارجها، ولما كان لديه احتمال بعدم تمكنه من الرجوع إليها مرة ثانية، عمل على أخذ أكبر قدر ممكن من الأموال معه، فأخذ كل ما كان في الخزينة من (الأموال والذخائر وباع ما كان بقصر الملك مما يحضره من الأواني والفروش وغير ذلك حتى الكتب التي كان المولى أبو زكريا جمعها أخرجت للوراقين وبيعت بدكاكينهم وجمع من ذلك قناطر من الذهب تجاوز العشرين وجولتين بحصا الدر والياقوت)^(٢) وبعد أن تم له ذلك غادر تونس إلى قابس في أوائل سنة ٧١٧هـ / ١٣١٧م (مورياً بمشارفة عملها)^(٣) ومنها رحل إلى طرابلس وأقام بها

(١) انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٢٤، ابن القنفذ : المصدر السابق ص ١٥٩، (وبلذكر أن البيعة تمت في ٩ جمادى الأولى سنة ٧١١)، ابن الشماخ : المصدر السابق ص ١٠٠ - ١٠١، الزركشي : المصدر السابق ص ٦٠ - ٦١، ابن أبي دينار : المصدر السابق ص ١٤٢، صالح الكواش : المصدر السابق ورقة ١٢ - ١٣، ابن أبي الضياف : المصدر السابق ص ٢١٦ .

(٢) ابن الشماخ : المصدر السابق ص ١٠١ - ١٠٢، انظر كذلك ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٢٨، الزركشي : المصدر السابق ص ٦٣، ابن أبي دينار : المصدر السابق ص ١٤٢، صالح الكواش : المصدر السابق ورقة ١٣ .

(٣) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٢٨، انظر كذلك ابن الشماخ : المصدر السابق ص ١٠٢ -

يترب ما تسفر عنه الحوادث التي كانت تجري في إفريقية.

ومع أنه كان قد رتب حمايات بكل من تونس وباجة والحمامات واستخلف نائباً عنه في العاصمة هو أبو الحسن بن وانودين، إلا أن هذا النائب حينما علم باستعدادات أبي أبي بكر بن يحيى للزحف على تونس، أرسل إلى أبي زكريا يطلب منه المساعدة، فكان كل ما أرسله إليه هو بعض الأموال وأطلق يده في الجيش والحماية، فأدرك ابن وانودين أنه لا يستطيع التصدي وحده لأبي يحيى الذي كان قد بدأ زحفه على تونس بجموع زناته وسلويكش وعدة بطون من الهلالية، فاستقر رأي رجالات الدولة على إخراج محمد بن أبي زكريا بن اللحياني المعروف بأبي ضربة من السجن^(١) ومبايعته عوضاً عن أبيه، فخرج أبو ضربة إلى باجة للدفاع عنها فخالفه أبو بكر إلى تونس وأناخ عليها ولكنه لم يتمكن من دخولها فراجع عنها إلى قسنطينة، ثم عاد إلى مهاجمتها من جديد في صفر سنة ٧١٨ هـ / ١٣١٨ م فتمكن هذه المرة من اقتحامها حيث بويغ بالخلافة في ربيع أول سنة ٧١٨ هـ / ١٣١٨ م وأرسل جيشاً لملاحقة أبي ضربة الذي فر منها بنفر قليل من جنده ، وحاول الصمود أمام القوات التي أرسلها السلطان الجديد للملاحقة ، ولكنه هزم في المعركة التي دارت بين الطرفين بموضع يسمى (مصبوب) وقتل كثير من أصحابه، أما هو فتمكن من التوجة وأرسل يطلب العون من أبيه فأمدّه بمال حشد به جيشاً سار به إلى القيروان ولكن أبا بكر هزمه من جديد ففر إلى المهدية وتخص بها، وحينما علم أبو بهزيمته عيّن من أمره فركب البحر بأهله وولده وأمواله إلى الإسكندرية وبقي في مصر في كتف السلطان محمد بن قلاوون إلى أن مات بها سنة ٧٢٨ هـ / ١٣٢٧ م^(٢) وبذلك عادت إفريقية إلى الوحدة مرة أخرى في ظل السلطان الجديد.

١ - الزركشي : المصدر السابق ص ٦٣ - ٦٤ ، صالح الكواش : المصدر السابق ورقة ١٣ .

(١) كان الأمير محمد آنذاك في السجن بسبب جناية كان قد جناها.

انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٢٩ ، ابن الشماخ : المصدر السابق ص ١٠٢ ، الزركشي : المصدر السابق ص ٦٤ ، ابن أبي دينار : المصدر السابق ص ١٤٣ ، صالح الكواش : المصدر السابق ورقة ١٣ .

(٢) انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٢٨ - ٣٢٩ ، الزركشي : المصدر السابق ص ٦٤ - ٦٥ ، ابن القنفذ : المصدر السابق ص ١٦٠ وما بعدها ، ابن أبي دينار : المصدر السابق ص ١٤٣ ، ابن الشماخ : المصدر السابق ص ١٠٢ - ١٠٣ ، صالح الكواش : المصدر السابق ورقة ١٣ - ١٤ ، ابن أبي الضياف : ص ٢١٧ - ٢١٨ .

ومع أن هذا السلطان قد حكم إفريقيا الموحدة مدة تقارب الثلاثين سنة (٧١٨-٧٤٧هـ/١٣١٨-١٣٤٦م)، إلا أن أوضاعها بقيت غير مستقرة وكانت الثورات تنشب في نواحي عديدة منها من حين لآخر، وظل الأعراب يعمثون الفساد فيها، وكثرت حركات المطالبين بالعرش، وليس أدل على ذلك الوضع السيئ من أن هذا السلطان نفسه قد أقصى عن العاصمة أكثر من مرة ووجدت له البيعة عدة مرات منها سبع مرات فقط لغاية شوال سنة ٧٣٢هـ/١٣٣١م^(١) وذلك في حوادث طويلة لا يسعنا التعرض لها في هذه المقالة بطبيعة الحال^(٢)، وما زاد من الأخطار التي أهدت به اهتمامه مع بني زيان حكام المغرب الأوسط في حروب دامت فترة طويلة^(٣) كانت هي التي مهدت للزحف المريني إلى إفريقية، ذلك أن أبا بكر حينما أزهقته الحرب مع بني زيان في نفس الوقت الذي كان قد كثر فيه الثوار وتعددت حركات القاطنين عليه، رأى الاستنجاد بأبي سعيد عثمان عاهل الدولة المرينية في المغرب الأقصى ليكف عنه عدوان بني زيان. فأرسل لهذا الغرض ابنه أبا زكريا وحاجبه ابن تفرجين على رأس وفد إلى أبي سعيد فاستقبلهم بحفاوة، وأكرمهم واتفق معهم على موعد يهاجم فيه كلا الطرفين لتلمسان، كما أصهر إلى أبي بكر إذ زوج ابنه وولي عهده أبا الحسن من ابنة السلطان الحفصي، وتوفي أبو سعيد بعد ذلك بقليل فنهض السلطان المجدد سنة ٧٣٥هـ/١٣٣٤م لتنفيذ هذا الاتفاق مع صهره واجتاح الدولة الزيانية بمساعدة الحفصيين سنة ٧٣٧هـ/١٣٣٦م^(٤) وضمها إلى مملكته، وبذلك امتد ملكه إلى حدود إفريقية الغربية. وبوفاة

(١) الزركشي : المصدر السابق ص ٦٩ ، انظر كذلك ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٣٢ وما بعدها، ابن السماع : المصدر السابق ص ١٠٥-١٠٦ ، ابن أبي دينار : المصدر السابق ص ١٤٤ ، صالح الكواش : المصدر السابق ورقة ١٣.

(٢) انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٢٩ وما بعدها، الزركشي : المصدر السابق ص ٦٦ وما بعدها، صالح الكواش : المصدر السابق ورقة ١٥ وما بعدها، ابن أبي الضياف : المصدر السابق ص ٢١٨ وما بعدها.

(٣) انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٣١ وما بعدها، الزركشي : المصدر السابق ص ٦٨ وما بعدها، ابن السماع : المصدر السابق ص ١٠٧ وما بعدها، صالح الكواش : المصدر السابق ورقة ١٧-١٨.

(٤) انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٤٠ وما بعدها ، الزركشي : المصدر السابق ص ٦٨-٦٩ ، صالح الكواش : المصدر السابق ورقة ١٨-١٩ . ماربا خصوس فيغيرا : أخبار إفريقية في المستد لآبن مرزوق ص ٧٢ .

أبي بكر في ٢ رجب سنة ٧٤٧هـ / ١٣٤٦م، (انحلت أبواب الفتن)^(١) في إفريقية، إذا تنازع أبناؤه وأمراء البيت الحفصى على العرش^(٢)، فرأى أبو الحسن في ذلك فرصة لتحقيق حلم كان يراوده هو توحيد المغرب العربي تحت سلطانه فأخذ يعد العدة للحركة إلى إفريقية مروراً بذلك بمعاينة سلطانها الجديد أبي حفص عمر لتذكيره لمعهد أبيه وقتله لإخوته^(٣)، وبما قوى هذا العزم

(١) ابن الشماص : المصدر السابق ص ١٠٧.

(٢) كان أبو بكر قد سمى ابنه الأكبر أبا العباس أحمد ولياً لمعهده، وأشهد أبا الحسن المريني على ذلك، وعندما توفي أبو بكر قام ابن تفرجين حاجب الدولة بمبايعة ابن آخر لأبي بكر هو أبو حفص عمر ولم تلقت إلى عهد السلطان المتوفى وذلك ليسهل على ابن تفرجين السيطرة على الدولة بسبب صغر سن أبي حفص عمر، فغضب أبو العباس وزحف من قصبة التي كان والياً عليها إلى تونس واحتلها وبويع بها، أما أخوه أبو حفص فقد هرب إلى باجة حيث أهد جيشاً كبيراً وزحف به على تونس ثانية فاحتلها وقتل أبا العباس وباقي إخوته، وقد ظهر في تلك الأثناء عدة مطالبين بالعرش، ففي قسنطينة وحدها ظهر ستة منهم كانوا في مسجدها فخرجوا بسيفهم يظلمون العرش حتى سمي ذلك العام في قسنطينة بعام المتقنين أي المسجونين (انظر : عن ذلك ابن الفنفذ : المصدر السابق ص ١٦٩، ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٥٥ وما بعده، ابن الشماص : المصدر السابق ص ١٣ وما بعده، الزركشي : المصدر السابق ص ٨١-٨٢، صالح الكواش : المصدر السابق ورقة ٢٣-٢٤).

(٣) الزركشي : المصدر السابق ص ٨٢، ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٥٧، ابن الشماص : المصدر السابق ص ١١٦، ابن أبي الضياف : المصدر السابق ص ٢٢٢. ولعل في ما ذكره ابن مرزوق في مسنده عن هذا الموضوع ما يؤكد ما ذهبنا إليه في أن أبا الحسن كان يبيت التية على ضم إفريقية لمملكته وكل ما كان ينتظره هو الفرصة المناسبة، إذ يقول في ذلك إنه دخل ذات يوم على أبي الحسن ومؤذن المغرب يؤذن بالصلاة، فقبل أن يستقر به المجلس دعاه أبو الحسن واستدناه وأخبره بوفاة السلطان أبي بكر الحفصى : (قللت سبحان الله، إنا لله وإنا إليه راجعون، فأنسف هو أيضاً (رضه) وذكره بخير، ثم قلت : يا مولاي، الآن تعهونا الحركة إليها، فقال لي : ولم؟ وله خليفة وهو ولده أحمد ولا يسمنا إلا الترفية له، فأجرى الله على لساني أن قلت : ولعلمهم يختلفون ويصير الأمر إليكم، فقال : الله أعلم أي شيء تقول في هذا؟ قللت هذا والله أحبه من وجه وأكرمه من وجه : وأما الوجه الذي أحبه من أجله فاتصال طريق الحجاز واتحاد البلاد، وأما الوجه الآخر فما في إفريقية من الشغب والبعد عن الوطن وتحمل المشاق فقال لي : نختار هذا إن شاء الله وننعم في الطريق للصلاة. (انظر ماريا خيسوس فيغيرا Maria J. Figuera : أخبار إفريقية في المسند لابن مرزوق ص ٧٣-٧٤)، وقد جرت هذه المحادثة بمجرد أن وصل الخبر إلى أبي الحسن بموت السلطان الحفصى ولم يكن يعلم بموته إلا أبا الحسن وابن مرزوق حتى عزوة ابنة السلطان المتوفى التي كانت قد زفت في تلك الآونة لأبي الحسن وأخيها الفضل الذي كان قد وافقها في رحلتها إلى المغرب الأقصى لم يكونا يعلمان

لديه وصول ابن تفرجين حاجب الدولة الحفصية إلى بلاطه إثر هزيمة أبي حفص عمر أمام أخيه أبي العباس أحمد في المرة الأولى، والذي أخذ يحرض أبا الحسن ويغريه بالحرف على إفريقية.

وعلى ذلك زحف أبو الحسن إليها في صفر سنة ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م في جموع كثيفة (يجر الدنيا بما حملت)^(١)، وحينما تسمع ولاتها الذين كانوا قد استقلوا عن الدولة الحفصية بحركته، قدموا إليه بطاعتهم في وفد واحد ضم (ابن مكّي صاحب قابس وابن يملول صاحب توزر وابن العابد صاحب قفصة وابن أبي عنان صاحب الحامة وابن الخلف صاحب نفطة فلقوه بوهراة وآتوه ببعثهم رغبة ورهبة)^(٢) وأدوا ببيعة ابن ثابت صاحب طرابلس ولم يتخلف منهم أحد إلا من بعدت داره، كما جاء في أثرهم يوسف بن منصور ابن مزني صاحب الزاب ومشيخة الدراودة فبر الجميع وأكرمهم وولى كلاً منهم على بلده^(٣)، وجد في سيره إلى بجاية، ولما وصلها ورأى أهلها عدم جدوى المقاومة خرج إليه أميرها محمد بن أبي زكريا بطاعته فقبلها منه وأرسله هو وإخوته إلى المغرب الأقصى ثم سار إلى قسطنطينة فخرج إليه واليا ابن أبي عبد الله وإخوته بالطاعة وقبلها وأرسلهم هم الآخرون مع باقي الأمراء الحفصيين الذين كانوا بها إلى المغرب الأقصى، وعندما علم أبو حفص عمر بقرب وصول السلطان المريني إلى تونس خرج منها هارباً فاتبعه أبو الحسن بجيش لحق به عند قابس حيث هزمه وقبض عليه وأعدمه، ودخل أبو الحسن تونس في جمادى الأولى سنة ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م فدانت له إفريقية بالطاعة^(٤)، وبذلك تمت وحدة المغرب العربي من جديد بعد تمزق دامت مدته ما يزيد عن قرن ونصف، وجمال أبو الحسن في أنحاء إفريقية ليشيع فيها الهدوء والاستقرار، ولكن جلور الفتنة كانت عميقة بحيث لم

= بموت أبيهما بعد، ناهيك بأن الخلاف بين أمراء البيت الحفصيين لم يكن قد ذر قرنه بعد، الأمر الذي يؤكد أن أبا الحسن كان يبيت النية لضم إفريقية لمملكته، ويؤكد ذلك أيضاً ما ذكره ابن خلدون (ج ٦ ص ٣٥٦) عن هذا الأمر حين يقول : (كان أبو الحسن يحدث نفسه منذ ملك تلمسان وقبلها بملك إفريقية ويترصد بالسلطان أبي بكر ويسر له حسناً).

(١) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٥٧، الزركشي : المصدر السابق ص ٨٢.

(٢) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٥٧، الزركشي : المصدر ص ٨٢.

(٣) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٥٧ وما بعدها، الزركشي : ص ٨٢ وما بعدها.

(٤) لمزيد من التفصيل انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٥٧ وما بعدها.

يقدر على اجتثاثها، فسرعان ما انقلب عليه العديد من بطون الأعراب الهلالية، لحرمانه لهم من الامتيازات التي كانوا يتمتعون بها، كما انقلب عليه ابن تفرجين أيضاً لأنه لم يجد عنده ما كان يأمل فيه من إستاد إفريقية إليه^(١)، فأخذ يهيج الفتنة ضده، فكان أن اصطدم أبو الحسن بالأعراب الهلالية بالقرب من القيروان حينما خرج من تونس لإحضارهم حيث كانوا قد استقدموا أحمد بن عثمان بن أبي دهبوس وبابوهو بالخلافة كما سيأتي ذكره، وجعلوا ابن تفرجين حاجبه، وعند اشتباك الفريقين انهزم بنو زيان (عبد الواد) الذين كانوا مرافقين لأبي الحسن لكراهيتهم له كونه قضى على دولتهم في تلمسان، فتمكن الهلالية بذلك من إيقاع هزيمة شنعاء بأبي الحسن في معركة القيروان في ٢ محرم سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨م ونهبوا معسكره وحاصروه في القيروان، ولم يتمكن من الخروج من ذلك الحصار إلا بمدخله أولاد مهلهل من الكعوب وبعض بني سليم وشرط على نفسه لهم الأموال الكثيرة فأرسلوه إلى سوسة ومنها ركب أسطوله إلى تونس ونزل بها^(٢) وبذلك عادت الفوضى إلى الظهور من جديد ، وزاد من سوء الوضع نقشي البواء العظيم وقتل والذي عرف ببواء الموت الأسود، الذي عم إفريقية كما عم غيرها من أقطار المغرب العربي فضلاً عن المشرق وأوروبا والذي دام حوالي الثلاث سنوات وأودى بحياة الكثير من الناس^(٣) كان من ضمنهم نخبة من أفاضل العلماء الذين كانوا يرافقون أبا الحسن، وصاحب

(١) انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج٦ ص ٣٦٠، ابن التماخ : المصدر السابق ص ١١٥ وما بعدها، الزركشي : المصدر السابق ص ٨٢-٨٣، ابن أبي دينار : المصدر السابق ص ١٤٧، صالح الكواش : المصدر السابق ورقة ٢٥.

(٢) لمزيد من التفصيل انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٥٩ وما بعدها، وج ٧ ص ٢٧٥-٢٧٦، ابن التماخ : المصدر السابق ص ١١٩، الزركشي : المصدر السابق ص ٨٢ وما بعدها، ابن التفتت : المصدر السابق ص ١٧٠ وما بعدها، ابن أبي دينار : المصدر السابق ص ١٤٧، صالح الكواش : المصدر السابق ورقة ٢٤-٢٥.

(٣) أسهب الكثير من المؤرخين من المسلمين والمسيحيين في وصف هلا البواء الذي شمل نواحي عديدة من العالم القديم وبيان آثاره، فقد ذكر علي بن خاتمة (تحصيل غرض المقاصد في تفصيل المرض الوافد، مخطوطة المكتبة الوطنية بمغريد رقم MSS 5067-1 الكراسة السادسة ورقة ١٠) ما يلي : (... فقد بلغنا على ألسنة الثقات أنه هلك في يوم واحد بتونس ألف نسمة). وقال المقرئ (السلوك ج٢ ص ٧٧٧) : (وعم المواتان أرض إفريقية بأسرها، جبالها وصحارها ومدنها،=

هذا الوباء اشتداد الغلاء (حتى بيع قفيز القمح بثمانية دنانير)^(١)، وزاد في حدة المشاكل التي واجهها هذا السلطان السيئ الحظ، وصول الأبحار إليه بأن ابنه أبا عتات الذي كان قد استخلفه نائباً عنه في المغرب الأقصى قد خلعه وبيع بالخلافة، فعزم على العودة إلى بلاده، وركب البحر مغادراً تونس، وفي الطريق هبت على أسطوله عاصفة قوية دمرته ولم ينج إلا هو ونفر قليل من جنده وكانت نهايته أن مات شريداً في جبل هنتانة بالمغرب الأقصى، طريد ابنه وذلك في سنة ٧٥٣هـ/١٣٥٢م بعد أن هزمه في عدة معارك جرت بينهما^(٢)، وبذلك باءت هذه المحاولة الجادة لتوحيد المغرب العربي بالفشل.

وأما إفريقية فقد وقعت بعد رحيل أبي الحسن فريسة مزيد من الفوضى والاضطراب سيما وأنها كانت وقتئذٍ قد خلت من سلطان، وتغلب الأعراب على نواحيها، (وتنازع رؤسائهم بعد أن كانوا سوقة في انتحال مذاهب الملك ومساويه . . . حتى لقد حدثتهم أنفسهم بالخلافة)^(٣) فتقدم الأمير أبو العباس الفضل بن أبي يحيى أبي بكر أمير بونة ليملاً هذا الفراغ، فدخل تونس وبيع بها في ٢٩ ذي القعدة سنة ٧٥١هـ / ١٥٣١م ولكنه لم يستطع ضبط أمور الدولة فلم يحكم تبعاً لذلك إلا خمسة أشهر ونصف تقريباً إذ

= وجافت من المرى، وبقيت أموال العربان سائبة لا تجد من يرعاه، ثم أصاب الغنم داء، فكانت الشاة إذا ذبحت وجد لحمها متناً قد اسود، وتغير ريح السمن واللبن وماتت المواشي بأسرها. . .)، ويكرر أبو المحاسن (المصدر السابق ج ١٠ ص ٢٠٠) نحو هذا القول، أما ابن خلدون (التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً ص ٥٧) فيقول عنه: (. . . إلى أن كان الطاعون الجارف، وذهب بالأعيان والصدور، وجميع المشيخة، وهلك أبواي رحمهما الله . . .) وقال ابن أبي دينار (المصدر السابق ١٤٧): (وكرر الوباء حتى انتهى عدد الأموات ألف شخص كل يوم). لمزيد من التفصيل عن هذا الوباء وآثاره انظر القريري: السلوك ج ٢ ق ٣ ص ٧٧٥ وما بعدها، أبو المحاسن: المصدر السابق ج ١٠ ص ١٩٥ وما بعدها، علي بن خاتمة: المصدر السابق ورقة ١ وما بعدها، صالحي الكواش: المصدر السابق ورقة ٣٠ وما بعدها، فيشر: المرجع السابق ق ٢ ص ٣٠٦ وما بعدها، د. سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى ج ١ ص ٤٩٦، R.S.Lopez: Op. Cit., P.164.

(١) ابن أبي دينار: المصدر السابق ص ١٤٧.

(٢) لمزيد من التفصيل انظر ابن خلدون: المصدر السابق ج ٧ ص ٢٧٨ وما بعدها.

(٣) ابن خلدون: المصدر السابق ج ٦ ص ٣٨٧، الزركشي: المصدر السابق ص ٩١، ابن التمام: المصدر السابق ص ١٢٨.

أطاح به ابن تفرّاجين بالتواطؤ مع عمر بن حمزة شيخ أولاد أبي الليل الهلالية^(١) واستبدله بأخيه أبي إسمحق إبراهيم الذي كان غلاماً صغيراً فاستبد عليه ابن تفرّاجين^(٢)، ومع أن ابن تفرّاجين بذل كل جهده للقضاء على الفتن، إلا أنه لم يفلح، وظلت الأوضاع في تردي متواصل، وفي عهد هذا السلطان كانت حملة الجنويين على طرابلس الغرب كما سيأتي ذكره، كما عاد الخطر المريني يهدد الدولة الحفصية من جديد، إذ زحف السلطان أبو عتّان على بجاية سنة ٧٥٣هـ / ١٣٥٢م واحتلها^(٣) وعندما تمردت عليه في العام التالي عاد إليها وأخضعها في سنة ٧٥٥هـ / ١٣٥٤م، وبعد فترة وجيزة استولى على قسنطينة والزّاب في سنة ٧٥٨هـ / ١٣٥٦م، ويبدو أن ابن تفرّاجين أراد وقّعة مداخلة السلطان المريني بالحسنى فأرسل إليه هدية جليلة مع رسالة يعلمه فيها أنه دخل في طاعته، ولكن أبا عتّان الذي كان عازماً على تنفيذ مشروع أبيه بشأن توحيد المغرب العربي، لم يقنع بذلك من ابن تفرّاجين سيما وأنه كان يدرك أن المذكور إنما كان يخادعه بالكلام المعسول، فأرسل أسطوله إلى تونس لاحتلالها، فأظهر ذلك ابن تفرّاجين على حقيقته إذ أنه تصدى لهذا الأسطول وألحق

(١) انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٦٣ وما بعدها، الزركشي : المصدر السابق ص ٩١، ابن الشماخ : المصدر السابق ص ١٢٨.

(٢) يصف ابن الحاج حال هذا السلطان مع حاجبه ابن تفرّاجين بأنه كان كالحجور عليه إذ يقول : (وأما سلطانه بل محجوره الأمير إبراهيم بن أبي يحيى . . .) (ابن الحاج : فيض العباب وإفاضة قلداح الآداب في الحركة السليمة إلى قسنطينة والزّاب، مخطوط الخزائن الملكية بالرباط رقم ٣٢٦٧ ورقة ٢١٤).

(٣) منهم من روايات بعض المؤرخين المسلمين مثل ابن القنفذ (ص ١٧٤) أن السب في زحف أبي عتّان على إفريقية هو أنه خطب ابنة السلطان أبي يحيى أبي بكر الحفصبي أعت السلطان الجديد، ولكنها رفضته محتجة بأنه بلغها أن فيه قلقاً يمنع من عشرته، فأحفظه ذلك، وبهم من رواية الزركشي (ص ٩٧) أن هذا الرفض حدث بعد هذا الزحف وبالذات عندما أرسل أسطوله لاحتلال تونس، وفي اعتقاده أن قول الزركشي هو الأقرب إلى الصواب، بدليل أن ابن الحاج مؤرخ تلك الحركة لم يشر إلى هذا الأمر في فيض العباب، وإنما علل الحركة بأن أبا عتّان بعد عقده معاهدات سلام مع قسنطالة وأرغونة وصقلية والبرتغال (انظر فيض العباب ورقة ٣٢ وما بعدها) تفرغ لإفريقية، يقول : (ظلم يبق إلا أن نصرف وجوه نصرنا إلى البلاد الشرقية، ونوفي في جبر أهلها المطمحين بالأذمة المرعية ونبتغي رضا الله سبحانه في إنقاذهم من الفتن والأخذ بأصابعهم من نوه الإحسان وإذهاب ما ملأ تلك الأرض من الجور والظلم ودهمها من الخطوب الممضة الكلم).

ابن الحاج : المصدر السابق ورقة ١٧-١٨.

به هزيمة شنعاء ومنعه من دخول البلد، ثم شاع في تونس خبر مفاده أن أبا عنان قد زحف بالجيش البري على العاصمة، فخشي ابن تفرجين من سوء العاقبة سيما وأنه كان يدرك عدم جدوى المقاومة، لذلك أخرج السلطان أبا إسحق مع أولاد أبي الليل، بينما فر هو إلى المهديّة وتحصن بها، حينذاك تمكنت قوات أبي عنان البحرية من اقتحام مدينة تونس^(١)، وفي أثناء ذلك كان ولاية الأقاليم بإفريقية يرسلون بطاعتهم ويبحثهم لأبي عنان، فوصلته بيعة ابن مكّي عن قابس وطرابلس وسفاقس وقرقة مع ابن سلمة الأندلسي^(٢)، كما وفد عليه في قسنطينة شيوخ أعراب مناطق بجاية وقسنطينة والزاب يبيعهم وحرصوه على احتلال تونس^(٣). ولكن الأمر تطور على غير ما كان يشتهي أبو عنان، ذلك أنه عندما عزم على الزحف إلى تونس خالفه جنده الذين كانت هزيمة أبيه لا زالت ماثلة في أذهانهم فاضطر إلى العودة إلى المغرب الأقصى^(٤)، وعندما شعر أهل تونس بعجز أبي عنان عن الزحف على بلدهم، ثاروا بجند أسطولهم الذين كانوا بين ظهرانيهم فخرج هؤلاء إلى سفنهم وغادروا البلد، فعاد السلطان الحفصي وحاجبه ابن تفرجين إليها في ذي القعدة سنة ٧٥٨هـ/ ١٣٥٦م، وبذلك فشلت المحاولة المرينية الثانية لتوحيد المغرب العربي. وظل أبو إسحق في الحكم حتى توفي في ١٢ رجب سنة ٧٧٠هـ/ ١٣٦٩م دون أن يتمكن من حسم الأدواء التي كانت تقف في عضد إفريقية، بل وبلغ من ضعفه وتخاذله أن استسلم لابتزاز ملك أرغونة وأعاد دفع الأتاوة

(١) انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٧١، ابن السماع : المصدر السابق ص ١٣١-١٣٢، الزركشي : المصدر السابق ص ٩٧، ابن أبي دinar : المصدر السابق ص ١٤٨. أما ابن الحاج (المصدر السابق ورقة ٢١٠ وما بعدها)، فيذكر أن أسطول أبي عنان الذي أرسله إلى تونس بقيادة عبد الله بن طائفة عندما وصل إليها وهاجمها حاول ابن تفرجين مقاومته لكنه هزم ودخل المرينيون المدينة مما اضطر ابن تفرجين للفرار إلى المهديّة، فهو بذلك لا يذكر صد ابن تفرجين لهذا الهجوم في بداية الأمر. وما نراه أن ابن الحاج الذي كان كاتب السلطان أبي عنان أخفى حقيقة صد الهجوم مجاملة لسلطانه.

(٢) ابن الحاج : المصدر السابق ورقة ١١٥.

(٣) ابن الحاج : المصدر السابق ورقة ٢٠٠-٢٠١.

(٤) لمزيد من التفصيل انظر ابن الحاج : المصدر السابق ورقة ٣٣٠ وما بعدها. ابن خلدون : المصدر

السابق ج ٦ ص ٣٧٢، ابن القنفذ : المصدر السابق ص ١٧٥. ابن السماع : المصدر السابق ص

١٣٢، الزركشي : المصدر السابق ص ٩٧-٩٨.

السابقة لخزينة صقلية والتي كانت الدولة الحفصية قد منحتها خزانة طويلة، وتولى بعده ابنه أبو البقاء خالد، فولى حجاجته لأحمد الياقي الذي استبد بأمر الدولة ولم يترك منها للسلطان شيئاً يذكر، وانتهب أموال الناس وأهان الأشراف فمظلم ذلك على الناس واضطربت الأوضاع، الأمر الذي جعل العديد من رجالات الدولة يفلتون على أبي العباس أحمد والي قسنطينة يستحثونه على الزحف على تونس^(١). وبالفعل نهض أبو العباس إلى العاصمة، وعندما وصلها فر السلطان خالد وصحبه منها، فلحق بهم جند أبي العباس وقبضوا عليهم حيث وجه به بعد ذلك هو وأخوه إلى المغرب بحرّاً فهبت عاصفة على سفينتهما فماتا غريقين، أما أبو العباس فقد دخل تونس وبيع بها بالخلافة في ١٢ ربيع الآخر سنة ٧٧٢هـ/ ١٣٧٠م. وتولى هذا السلطان العرش يبدأ عهد جديد للدولة الحفصية.

يتضح من هذا العرض الموجز لأوضاع إفريقية منذ وفاة المستنصر الأول ولحين تولي أبي العباس أحمد الثاني عرش الدولة الحفصية، أنها مرت بعهد مظلم سادته الفوضى والقتل والحروب مما أفقدها قسماً كبيراً من قدرتها على المقاومة ضد ما كانت تديره لها الحركة الصليبية المتربصة بها، فتعرضت خلاله تبعاً لذلك لسلسلة من الاعتداءات الصليبية بدأها ملك أرغونة الذي كان الأكثر طمعاً فيها في تلك الفترة من باقي القوى الصليبية الأخرى.

محاولات احتلال قسنطينة :

سبق أن ذكرنا أن سيادة مملكة أرغونة للاستيلاء على إفريقية قامت على ثلاث دعائم رئيسية، هي الاستفادة من وضع الحرم السلطاني في البلاط الحفصي، ثم نشاط حركة التنصير، وكانت ثالثها هي اللجوء إلى القوة العسكرية، وقد سبق أن ذكرنا أن نصف القرن الممتد من بداية الربع الأخير من القرن الثالث عشر إلى نهاية الربع الأول من القرن الرابع عشر شهد أوج نشاط ملوك أرغونة في التدخل في شؤون إفريقية أثناء تعرضنا لبحث الدعامتين الأولين، ورأينا أن ملوك أرغونة قد ساندوا العديد من الأمراء الحفصيين في الوصول إلى العرش ليمولوا عليهم السياسة التي تتفق مع مصالحهم وأهدافهم الصليبية، وقد واكب هاتين الدعامتين، الدعامة الثالثة لتلك السياسة والتي تمثلت في استخدام القوة

(١) ابن أبي دينار : المصدر السابق ص ١٥٠.

العسكرية، وبذلك كان نشاط ملوك أرغونة في إفريقية يقتل يعبر تعبيراً صادقاً عن الأفكار الصليبية التي شاعت في تلك الفترة والتي كانت تنادي بوجود استخدام الصليبية بوجهيها السلمي والعسكري لتحقيق أهداف الحركة الصليبية فكانوا بذلك نموذجاً ممتازاً لما ينبغي أن يكون عليه الصليبي في رأي أصحاب تلك الأفكار، وما يقع تحت هذا النشاط ليس فقط مساندة المطالبين بالعرش في الوصول إلى الحكم، وإنما أيضاً دعم الثوار وذوي الطموحات الاستقلالية عن الدولة الحفصية في ذلك العهد المضطرب على أمل إيجاد موطئ قدم لهم في إفريقية يكون نقطة انطلاق لهم للتوسع فيما بعد. وقد وجدت الحركة الصليبية في ملوك أرغونة خير منفذ لخططاتها في تلك البلاد بعد أن أخفقت حملة لويس التاسع عليها في الوصول إلى الهدف المنشود. ومن هذا المنطلق انبثقت محاولة احتلال قسنطينة.

فعندما احتل الأمير أبو إسحق إبراهيم العرش الحفصي بمساندة بطرس (بيدرو) الثالث ملك أرغونة كما سبق ذكره، أسند المذكور ولاية قسنطينة، وهي من الولايات الهامة في إفريقية^(١)، لشخصية معروفة في ذلك الوقت هو ابن الوزير^(٢) فضبط أمورها، وعندما رأى هذا الوالي اضطراب الأمر على السلطان أبي إسحق وظهور الدعي حدثه (نفسه بالامتناع بها والاستبداد على الدولة)^(٣) فامتدت يده إلى أموال الناس بالغصب والمصادرة دون خشية أو ملل^(٤) مما جعل أهلها يجأرون بالشكوى إلى السلطان. ويقول ابن القنفذ أنهم كتبوا فيه إلى السلطان (عقداً مشهوداً بشهودها أنه ارتد وأكل الخنزير وأنه ظهر منه ما يدل على نفاقه

(١) مدينة قسنطينة كانت من أكثر مدن إفريقية حصانة، وقد أصعب الجغرافيون والرحالة المسلمون في وصف هذه الحصانة، وتبعاً لذلك أصبحت في فترات من عهد الاضطراب الأنف الذكر مركزاً لفرع حفصي ثالث بالإضافة لفرعي تونس وبجاية. انظر وصفها في الشريف الإدريسي : ص ٦٧- ٦٨، ياقوت : ج ٤ ص ٣٤٩، مجهول : كتاب الاستبصار ١٦٥، العبدري : ص ١٣٧، الحسن الوزان : المصدر السابق ص ٤٢٧.

(٢) يقول ابن خلدون : إن اسم هذا الوالي هو أبو بكر بن موسى بن عيسى ونسبته في كومية من يوت الموحدين، كان مستخدماً لابن كلداني في قسنطينة فكان له غناء وصدقة فولاء الوائق عليها واتصلت ولايته في عهد أبي إسحق إبراهيم حيث أقره عليها.

(٣) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٠٠.

(٤) انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٠٠، ابن القنفذ : المصدر السابق ص ١٣٩.

من رد الأوامر السلطانية، وأنه وضع يده في أهل البلد بالنهب^(١) وتاريخ ذلك الكتاب حسب ما يذكره ابن القنفذ هو ٢٧ رمضان سنة ٦٧٩هـ/ ١٢٨٠م^(٢)، ولكن أبا إسحق نظراً لانشغاله في تثبيت سلطانه سيما وأنه لم يكن قد مضى على اعتلائه العرش إلا فترة وجيزة، وخوفه من امتناع ابن الوزير بقسنطينة إذا صدر من السلطان ما يسيء إليه، ثم انشغاله بمواجهة ثورة الدعي بعد ذلك، ثم كتابة ابن الوزير إليه بالاعتذار وإنكار ما رمي به من التهم، كل ذلك جعل السلطان يهمل هذه الشكوى^(٣). الأمر الذي زاد من شدة وطأة ابن الوزير على الناس من ناحية، وقوى عزمه على الاستقلال من ناحية ثانية، إذ ترجع لديه عجز السلطان عن معاقبته سيما وأن ثورة الدعي كانت وقتل قد استفلحت.

لقد تجمعت لدى ابن الوزير عدة عناصر من مقومات النجاح لحركته، في مقدمتها حصانة قسنطينة ومناعتها، وفي ذلك يقول ابن خلدون : (وعلم أن قسنطينة معقل ذلك المصر وحصنه فحدثه نفعه بالامتناع بها)^(٤)، هذا فضلاً عن كثرة الأموال التي تجمعت لديه واللازمة له لاستئلاف الجند من البربر والأعراب من ناحية ثانية، يضاف إلى ذلك الجند النصاري الذين كانوا لديه والذين شرع في الاستكثار منهم ليكونوا له عوناً على ما اعترمه، من ناحية ثالثة، ومع ذلك فقد كان ينقصه عنصر له أهميته البالغة في النجاح المنشود هو العصبية القوية التي لا بد من توفرها لديه ليستند إليها أسوة ببني مرين وبني زيان (عبد الواد) وبني حفص حكام دول المغرب العربي في ذلك الوقت الذين كانوا يستنون لعصبيات قوية، فضلاً عن أن مياسته الغاشمة أحفظت أهل بلده عليه فأصبحوا يتمتعون بالخلاص منه. وهذه تفكيره للتغلب على هذه الصعوبة باللجوء إلى قوة أجنبية تسانده، ولما كان نشاط ملكة أرغونة في إفريقية وقتل أخذاً في الازدياد، فقد رأى أنها هي خير من يعينه على تحقيق هدفه، سيما وأن ملكها الجديد بطرس (بيدور) الثالث قام لثوه بمساندة أبي إسحق في الوصول إلى العرش الحفصبي، لذلك تطلع هو الآخر لمساندته دون أن يدرك على ما يبدو

(١) ابن القنفذ : المصدر السابق ص ١٣٩.

(٢) ابن القنفذ : المصدر السابق ص ١٣٩.

(٣) ابن القنفذ : المصدر السابق ص ١٣٩. انظر أيضاً ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٠٠.

(٤) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٠٠.

الأبعاد الحقيقية لمطامع ملوك أرغونة في إفريقية، ولا يستبعد أن يكون بعض جنده النصارى هم الذين زهتوا له مد يده إلى ذلك الملك، وعلى أية حال، فإنه حينما استقر على هذا الرأي لجأ إلى الوسيلة التي تغري القوى الصليبية عادة ومنها ملوك أرغونة أعني الإيهام بالرغبة في التنصر، فكان أن أوهم بيدرو الثالث بذلك ليدفعه لمساعدته^(١)، واتصل به يطلب منه مساعدته بجيش (من النصارى يكون معه في ثغره يردّ بهم الغزو على أن يكون فيما زعموا داعية له)^(٢) وليهون الأمر عليه لم يشتط في مطالبه فأعلمه أنه إذا ما نزل بمرسى القل الذي لم يكن بينه وبين قسنطينة إلا مرحلتان بجيش من ثمانمائة فارس وألفي راجل فإن طريق قسنطينة سيكون مفتوحاً أمامه^(٣).

لقيت دعوة ابن الوزير هذه اهتماماً كبيراً من ملك أرغونة، فجمع رجالات دولته واستشارهم في الأمر، فأجمعت الغالبية العظمى منهم على عدم تلبية هذه الدعوة وعدم المخاطرة في مغامرة غير مأمونة العواقب، ولكن هذا الملك الطموح لم يشأ أن يترك هذه الفرصة النادرة تفلت من يده، لذلك أصم أذنيه عن نصائح مستشاريه، وأرسل لابن الوزير يعلمه بموافقته على إنجاده وأنه سيحضر إليه بنفسه عند استكمال استعداداته، وبالفعل باشر على الفور في الاستعداد للرحيل. ويقول أحمد توفيق المدني نقلاً عن المؤرخ القطلاني برنارد دسكولوت الذي يرجع إليه الفضل الأول في تسجيل أخبار هذه الحملة تفصيلياً، بأن ملك أرغونة حينما قبل دعوة ابن الوزير وضع في اعتباره أن الجند النصارى الذين كانوا في

(١) لقد سبق أن ذكرنا أن موضوع التنصر كان خدعة سياسية يلجأ إليها من يتطلعون لمساعدة النصارى في تحقيق مطامعهم وطموحاتهم، ومع أن النص الذي ورد في رواية ابن القنفذ من أنه ارتد وأكل الخنزير يكاد يؤكد تنصره، إلا أننا ينبغي ألا نقبل هذا القول كحقيقة مسلم بها بالرغم من سعة اطلاع ابن القنفذ على تاريخ قسنطينة بحكم أنها بلده ولكأنه أسرته فيها، ذلك أن أحداً غيره من المؤرخين المسلمين لم يتعرض لهذا الموضوع والذي يستبعد لوحدث بالفعل أن يغفلوا ذكره، وحتى لو افترضنا أنه اطلع على كتاب أهل قسنطينة الذي أرسلوه للسلطان لكونه هو الوحيد الذي ذكر تاريخه، فإنه يمكن اعتبار ذلك من قبيل التشنيع على هذا الوالي لإثارة السلطان عليه، إذ من غير المعقول أن يجاهر بتنصره في بلد إسلامي حتى لو كان قد تنصر بالفعل قبل وصول لواء أجنبي تحميه من غضب المسلمين.

(٢) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٠٠، انظر كذلك ابن القنفذ : المصدر السابق ص ١٣٩.

(٣) أحمد توفيق المدني : حرب الثلاثمائة عام بين إسبانيا والجزائر ص ٣٥٣.

خدمة حكام دول المغرب العربي في تلك الآونة والذين قدر ذلك المؤرخ عندهم بمائة ألف جندي^(١) سيلتفون حوله عندما يصل إلى إفريقيا^(٢)، الأمر الذي يعتبر دليلاً آخر على صحة ما ذهبنا إليه من أن وجود هؤلاء الجند في بلاطات حكام المغرب إنما كان مشروعاً صليبياً. كما وضع ملك أرغونة في اعتباره أمراً آخر هو أن السلطان أبا إسحق الحفصي لن يقف في وجهه نظراً لمساندته إياه في الوصول إلى العرش.

حشد بيدرو الثالث ثمانمائة فارس وثلاثة آلاف راجل أغلبهم من (الموكارس)^(٣) وعبر بهم البحر إلى جزيرة ميورقة حيث توقف بها بضعة أيام للاستراحة ومراجعة الخطط العسكرية، وقد تسربت أنباء هذه الحملة إلى أمير جزيرة منورقة^(٤) الذي كان يراقب تحركات الأساطيل الصليبية وخاصة أسطول أرغونة دوماً وباهتمام شديد خوفاً من هجوم مفاجئ يشن على بلاده^(٥)، وعندما علم من عيونته الذين كانوا مبشرين في ميورقة بنية ملك أرغونة، أرسل

(١) من الملاحظ أن في هذا الرقم مبالغة واضحة، إذ أن عدد هؤلاء الجند لم يصل في أي وقت من الأوقات حتى إلى خمس هذا الرقم.

(٢) أحمد توفيق المدني : حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا ص ٣٥٣.

(٣) الموكارس : لفظ أطلقه نصارى الإسبان على مواطنيهم الذين أسلموا بعد الفتح ثم تنصروا عند احتلال النصارى لبلادهم إما رغبة وإما رهبة وفراراً من اضطهاد النصارى لهم، ويقول المؤرخ القطلاني دسكلوت عنهم أنهم كانوا قوماً لا يعرفون الحياة إلا بواسطة السلاح، ويتركون حياة المدن والقرى ويسكنون الجبال الشاهقة بين الصخور ويحترقون الحرب ضد المسلمين.

(انظر أحمد توفيق المدني : حرب الثلاثمائة سنة ص ٣٥٤).

(٤) كانت جزيرة منورقة، إحدى الجزائر الشرقية - جزر البليار - لا تزال وتحتل جزيرة إسلامية، إذ ظل أميرها أبو عثمان سعيد بن الحكم الأموي (ت سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م) ثم ابنه الحكم بن سعيد من بعده يقاومان الهجمات الأرغونية على تلك الجزيرة حتى سنة ٦٨٦هـ/١٢٨٧م حينما سقطت في يد ملك أرغونة، بينما كانت لفيقائها ميورقة ويابسة قد سقطتا قبل ذلك بوقت طويل في يد خلعي الأول ملك أرغونة (سقطت ميورقة سنة ٦٢٧هـ/١٢٣٠م، ويابسة سنة ٦٣٣هـ/١٢٣٥م) وعلى ذلك يكون أمير ميورقة الحكم بن سعيد هو الذي أرسل ينذر أهل القل بملحة بيدرو الثالث وليس أمير ميورقة كما يقول أحمد توفيق المدني (ص ٣٥٤) ذلك أنه لم يكن لميورقة وتحتل حاكم مسلم كما يقول بل كان ملكها هو خلعي بن خلعي الأول وشقيق بيدرو الثالث ملك أرغونة.

(٥) مما يدل على يقظة هذا الأمير ما ذكره ابن الخطيب (أعمال الأعلام - ق ٢ ص ٢٧٥-٢٧٧) من أنه كان يقتل شارب الخمر بدلاً من إقامة حد الخمر عليه بالجلد كما يقضي الشرع الإسلامي، وحينما احتج عليه المحدث ابن منوز بأنه تعدى حدود الله أجابه بقوله : (يا فتية هذه جزيرة كثيرة اللعب،=

رسلاً في سفينة خفيفة إلى مرسى القل ليندروا و أهلها بقرب هجوم ذلك الملك على بلدهم ، وأوصى هؤلاء الرسل أن يذلولوا قصارى جهدهم للوصول إلى القل قبل الأسطول الأرغوني وأن يتجنبوا محاذاة ذلك الأسطول أو الاقتراب منه . فأُسرع الرسل إلى القل وأدوا رسالتهم لأهلها ، ولما لم يكن لدى أهل هذا المرسى الوقت الكافي للاستعداد لمواجهة الهجوم المرتقب سيما وأنه لم يكن به من التحصينات والأسوار^(١) ما يساعدهم على المقاومة ، لم يجدوا بداً من الرحيل عن بلدهم حتى إذا ما وصل الأسطول الأرغوني إليها في سنة ٦٨١هـ/ ٢٨ يونيو سنة ١٢٨٢م وجدها خالية تماماً من السكان فنزل بها وشرع في تحصينها لاتخاذها مركزاً لعملياته^(٢).

ولكن كانت هنالك مفاجأة تنتظر ملك أرغونة لم يكن قد وضعها في اعتباره ، ذلك أن ابن الوزير حينما علم بامتجابه ملك أرغونة لمطلبه ، تعجل الأمر وأعلن الثورة في قسنطينة ولم ينتظر وصول منجده ، ويبدو أن السلطان أبا إسحق شعر باتصالات ابن الوزير مع ملك أرغونة فأدرك أبعاد هذه الثورة ، لذلك وبالرغم من انشغاله بمواجهة ثورة الدعي التي كانت وقتل في عتفوانها ، بادر إلى العمل على القضاء على ثورة ابن الوزير فأوعز إلى ابنه أبي فارس والي بجاية للنهوض بسرعة إلى قسنطينة ، فسار أبو فارس إليها وحاصرها في غرة ربيع الأول سنة ٦٨١هـ/ ٩ يونيو سنة ١٢٨٢م ، وحاول ابن الوزير خداع المذكور ومطلوئه ريثما تصل إليه النجدة المرتقبة ، فأرسل وفداً من أهل البلد قابل أبا فارس وحاول ثنيه عن عزمه ولكن دون جدوى^(٣) وظل على تصميمه . ولم يطل الحصار إذ أن أهلها الذين كانوا يعمقون ابن الوزير ساعدوا أبا فارس فاقتحمها وقتل ابن الوزير وأخاه وأعوانها وعلق رؤوسهم على أسوار المدينة^(٤) ، وطير الخبر لأبيه في تونس لطمأنته^(٥) ثم دخل البلد وتمشى في سككها (مسكناً

= والناس يشربون الخمر بها ويسكرون ، فيضيئون الاحتراس فيظهر علينا العدو).

(١) انظر الحسن الوزان : المصدر السابق ص ٤٢٦ .

(٢) أحمد توفيق المدني : المرجع السابق ص ٣٥٤ .

(٣) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٠٠ .

(٤) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٠٠-٣٠١ ، ابن القنفذ : المصدر السابق ص ١٣٩-١٤٠ ،

أحمد توفيق المدني : حرب الفلامنة سنة ٣٥٥ .

(٥) يقول ابن القنفذ : (المصدر السابق ص ١٤٠) أن أبا فارس ضرب عنق ابن الوزير وأخيه يوم الجمعة

٨ ربيع الأول سنة ٦٨١هـ وأرسل برأسيهما إلى تونس.

ومؤناً وأمر برم ما تنظم من الأسوار وبإصلاح القناطر^(١)، ثم عاد إلى بجاية بعد إقامة في قسنطينة دامت ثلاثة أيام. حدث ذلك قبل وصول بيدرو الثالث إلى مرسى القل بتسعة عشر يوماً فقط، فكان ذلك هو السبب الرئيسي في إخفاق المذكور في مسعاه، إذ لو وصل قبل موت ابن الوزير كما كان مقرراً وتم التنسيق بينهما لتمعدت المشكلة واستحال حلها بسهولة.

أدرك ملك أرغونة أن احتمال فشل خطته أصبح كبيراً بموت ابن الوزير، ولكنه لم يرغب في التراجع قبل الحصول على نتيجة تحفظ عليه ماء وجهه، وتغفل المصادر التاريخية الإسلامية ذكر الحوادث التي تلت نزول بيدرو الثالث بمدينة القل، ولولا ما ذكره المؤرخ القطلاني دسكلوت عن هذه الحوادث لظلت مجهولة بالنسبة لنا، فيذكر المؤرخ المذكور أنه عندما نزل الأرغونيون بمدينة القل أحاط المسلمون بها وأخلوا يراقبون تحركات أعدائهم من المرتفعات المطلّة على المدينة دون أن يجازفوا بالاقتراب إلى حد يؤدي إلى الاثنياء معهم، ويبدو أن بيدرو الثالث كان يعي تماماً ما تعنيه هذه الخطة المتبعة في حصره داخل المدينة ومن ثم شن غارات متلاحقة ومفاجئة على جنده في وقت تكون فيه العوامل الجوية وقلة التموين وردائه تفعل فعلها في تثبيط عزائم الجند وهمهم كما حدث إبان حملة لويس التاسع على إفريقية التي لم يكن قد مضى عليها وقت طويل آنذاك الأمر الذي سيضطره في النهاية إلى الانسحاب خالي الوفاض هذا إذا لم تحمل به وبجنده كارثة كلك التي حلت بالملك الفرنسي وجيشه، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية فإن إحرازه نصراً مبكراً ميكسبه عطف الحركة الصليبية ومساندتها لذلك رأى أن يتعجل الصدام مع المسلمين بقلر المستطاع، فأرسل إليهم يقول بأنه قدم لحريهم^(٢)، ويطلب منازلهم، ولكن المسلمين الذين كانوا ينتظرون قلوب النجدات من النواحي التي استفروها عندما نزل العدو بأرضهم بلوا غير متعجلين في أمرهم لذلك ردوا عليه بأنهم لا زالوا يتشاورون في الأمر، وأنهم ينتظرون تعليمات السلطان في تونس إذ إنهم أرسلوا يخبرونه بأمر الحملة، ومع ذلك فإنهم على استعداد للدخول معه في مفاوضات لعقد الصلح بينهم وبينه بحيث يرحل بجنده لقاء مبلغ من المال يدفعونه إليه^(٣).

(١) ابن خلدون - المصدر السابق ص ٣٠١.

(٢) انظر أحمد توفيق المدني : حرب الثلاثمائة سنة ص ٣٥٦.

(٣) انظر أحمد توفيق المدني : حرب الثلاثمائة سنة ص ٣٥٦.

ولم يقتنع يدرو الثالث الذي كان يعلق الآمال الكبيرة على هذه الحملة بهذا الرد الذي يجعل تلك الحملة لا تختلف كثيراً عن غارات القراصنة، فاستقروا رآه على جرهم للحرب، لذلك أرسل سريه من جنده للاستكشاف وتقدير مدى قوة واستعداد المسلمين ومناوشتهم، وعندما رأى المسلمون هذه السرية قادمة نحوهم أدركوا أن الملك الأرغوني قرر البدء في هجومه، فاشتبكوا معها، وحينما علم يدرو الثالث بأمر هذا الاشتباك أوعز إلى فصائل من جيشه للتقدم نحو المرتفعات من طرق جانبية، في حين تقدم هو بفصائل أخرى ليشد من أزر تلك السرية بعد أن ترك عندها كافياً في المدينة لحمايتها ولم يشعر المسلمون إلا وقد أحيط بهم من كل جانب ودارت بين الطرفين معركة حامية غير متكافئة لأن المسلمين كانوا قلة وعلى غير أهبة تامة للحرب، لذلك لم تنفعهم شجاعتهم واستبسالهم فاستشهد القسم الأكبر منهم ووقع البعض في الأسر بينما فر البعض الآخر. أما ملك أرغونة فقد شجعه هذا الانتصار على مواصلة زحفه في أثر المسلمين، وعلى مسيرة ثلاث ساعات من أرض تلك المعركة وجد مدينة أخرى أغلاها المسلمون، وأعجلتهم سرعة الإخلاء عن نقل ما فيها فوجد مخازنها مملوءة بالقمح وأصناف الحبوب والكتان والحرير وغير ذلك، فأباحها لجنده ينهبون منها كيفما شاؤوا إلا الحرير الذي استأثر به لنفسه. وبعد أن نهبوا منها ما قدروا على حمله أمر بإضرام النار فيها وكر راجعاً إلى القل يجرو وراءه غنيمة من السلع والمواشي والأسرى^(١). ولكن نتيجة تلك المعركة لم توهن عزم المسلمين على قتال العدو كما توهم بل بنوا أكثر تصميماً عن ذي قبل على حربه، إذ ما أن عاد إلى القل حتى أخذت جموعهم تحشد في الجبال من جديد وباعداد كبيرة ناهيك عن توالي وصول التجندات عليهم وأخلوا يشنون غاراتهم السريعة والمفاجئة على جيشه فيكبذونه الحساثر ثم ينسحبون إلى الجبال حتى نفذ صبر الملك الأرغوني وقرر الاشتباك معهم في معركة كبيرة أخرى علها تريح جنده من هذه المضايقات المتلاحقة، فزحف بجنده نحوهم، وقد حاول المسلمون التصدي للفرقة، ولكنهم لم يستطيعوا الصمود أمامهم طويلاً لأن أولئك كانوا يتسلحون بالأسلحة الثقيلة ويتقنون حرب الصدام أكثر من المسلمين الذين كانوا يعتمدون أسلوب الكر والفر، فلم يجدوا بداً من التراجع والاعتصام بالجبال مرة ثانية^(٢) الأمر

(١) انظر أحمد توفيق المدني : حرب الثلاثمائة سنة ص ٣٥٦.

(٢) أحمد توفيق المدني : حرب الثلاثمائة سنة ص ٣٥٧.

الذي جعل بيدرو يكف عن ملاحقتهم في تلك الجبال لما في ذلك من خطورة أكيدة على جيشه.

لم يرغب عن ذهن الملك الأرغوني أن متابعة الحرب بهذا الأسلوب لن تكون في صالحه على المدى الطويل، وأن احتلال مدينة واحدة لن يقطع الحركة الصليبية بالتعاطف معه، ولذلك عقد مجلس حربه لتدارس الأمر حيث طرح اقتراحاً بالزحف لاحتلال قسنطينة للبحث، مبنياً للحضور بأنه إذا ما احتل تلك المدينة فإنه يكون قد استولى على جزء هام في إفريقية ومن ثم يمكنه التوسع في المستقبل للاستيلاء عليها بالكامل، وفي ذلك الخير والبركة لمملكته وللمسيحية جمعاء حيث (يكون فيها اسم الرب ممجداً ومشرفاً)^(١)، وأكد لهم بأنه من جانبه سيرسل رسله إلى البابا ليحث ملوك أوروبا على مده بجيش قوي يعينه على استكمال خططه، فوافقه هؤلاء على رأيه وأبدوا استعدادهم للقتال حتى الموت في سبيل المسيحية. وقام بالفعل بإرسال رسول إلى البابا أطلعه على ما جرى بالنسبة لتلك الحملة مؤكداً له بأن ملكه قد احتل مدينة القل وأحرز انتصارات كبيرة على المسلمين ولذلك فهو يطلب عونه لتحقيق المزيد من تلك الانتصارات والاستيلاء على إفريقية بالكامل وإعادتها للمسيحية. ولكن البابا الذي كان وقعاً مشغولاً بأمر دعم الصليبيين في المشرق من ناحية، وللشكوك التي ساورتها في مدى صحة ما قاله ذلك الرسول إلى حد أنه لم يخف تلك الشكوك عن الرسول نفسه إذ قال له بأنه ليس على يقين من أن ملكاً صغيراً كملك أرغونة قد استطاع احتلال شيء من إفريقية أو أنه يستطيع عمل ما لم يقدر عليه ملوك أوروبا العظام^(٢) من ناحية ثانية، هذا غير راغب في قطع أي وعد على نفسه بتقديم أي مساعدة، لذلك عاد الرسول إلى بيدرو خائباً، مما جعل المذكور يفقد الأمل في الحصول على المعونة التي كان ينشدها من أوروبا. وزاد من حرج موقفه أن المقاومة الإسلامية كانت آخذة في الازدياد فأيقن أنه كتب لحملته الفشل.

وتسوق إليه الصدقة حلاً مشرفاً ينقذه من المأزق، إذ في تلك الآونة قدم إليه وفد من

(١) أحمد توفيق المدني : حرب الثلاثمائة سنة ص ٣٥٧ .

(٢) انظر أحمد توفيق المدني : حرب الثلاثمائة سنة ص ٣٥٧ .

نصارى صقلية يطلب منه مساعدتهم للتخلص من الملك الأنجوي وأعدائه الفرنسيين الذين أرهقوا الجزيرة^(١)، ويقدم له مقابل ذلك عرشها، ووعده بأنهم سيقدّمون له كل ما يستطيعون من مساعدات إذا ما قبل ذلك العرض، فرحق ييدرو بهذا العرض الذي كان فوق ما تمنّاه لإنقاذه من وورطته، وشرع في الاستعداد للرحيل. وبعد ثلاثة أيام فقط صعد جنده إلى مراكزهم بعد أن نهبوا ما أمكنهم نهبه من المدينة وأضرموا فيها النار من مائة موضع، وألقوا عنها والنار تشتعل في أرجائها، وعندما جاء المسلمون إليها وجدوها قاعاً صفصفاً^(٢). وبذلك فشل مسمى ملك أرغونة في احتلال قسنطينة والاستقرار في إفريقية، وقد عبر ابن خلدون عن هذه النتيجة بقوله : (وجاء أسطول النصارى إلى مرسى القل في مواعدة ابن وزير فأخفق مسعاهم)^(٣).

احتلال جزيرة جوبة :

بالرغم من فشل ييدرو الثالث في الاستقرار في القل واحتلال قسنطينة، إلا أن ذلك الفشل لم يضع حداً لمطامعه في إفريقية سيما وأن ظروفها الداخلية كانت مشجعة له على مواصلة العمل في سبيل تحقيق تلك المطامع هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية إن ضم صقلية لمملكته جعله يقترب من إفريقية أكثر من السابق وأوجد لديه حافزاً قوياً آخر لبسط نفوذه عليها، ثم اعتقاده بأن أيا حفص عمر السلطان الحفصي الجديد الذي اعتلى العرش بمساعدة منه هو صنيحته فضلاً عن أنه كان أضعف من أن يتصدى له من ناحية ثالثة، ولذلك أخذ أسطوله - الذي كان يعتبر وقته القوة البحرية الثالثة في حوض البحر

(١) سبق أن بينا كيفية اعتلاء شارل أنجو عرش الصقليتين، وكان ينب عنه في حكم صقلية نائباً شبه مطلق الصلاحية يعاونه فرنسيون من إداريين وحامية عسكرية، وقد فرض هؤلاء الفرنسيون على الجزيرة حكماً استبدادياً غاشماً وأخضعوا أهلها للإرهاب الأمر الذي دفع أهل الجزيرة للثورة ودبروا مذبحة كبيرة للفرنسيين في ٣٠ مارس ١٢٨٢م راح ضحيتها العديد منهم هي التي عرفت بمذبحة Vepres Siciliennes وأما سبب اتجاه الصقليين إلى ييدرو الثالث، فذلك يعود إلى أنه كان زوج ابنة مانفريد بن فردريك الثاني. وبهذا الزواج اكتسب حق المطالبة بعرش الجزيرة ودخل محرك الصراع مع فرنسا وإنكثروا على ذلك العرش كما سبق أن أشرنا إليه.

(انظر شارل أندري جوليان : المرجع السابق ج ٢ ص ١٨٢. فيشر : المرجع السابق ج ٢ ص ٤٣٩).

(٢) انظر أحمد توفيق المدني : حرب الثلاثمائة سنة ص ٣٥٨.

(٣) ابن خلدون : المصادر السابق ج ٦ ص ٣٠١.

الأبيض المتوسط^(١) بعد البندقية وجنوة - بهجوب البحر قبالة سواحل إفريقية وجزرها ويشن غاراته عليها كلما واثته الفرصة لا سيما جزيرة جربة التي ألح في هجومه عليها نظراً لأهميتها البالغة كونها هي الأكثر صلاحية لاتخاذها قاعدة لعملياته العسكرية، ويعبر ابن خلدون في معرض حديثه عن السلطان أبي حفص عمر عن ذلك بقوله : (كان من أعظم الحوادث تكالب العدو في أيام هذا السلطان على الجزر البحرية)^(٢). ومن الملاحظ في هذا المقام أن ملك أرغونة أخذ يتبع نفس الخطى التي سار عليها رجار الثاني من قبل حينما استولى على ساحل إفريقية، فكان قائد أسطول رجار دي لوريا (Roger di Loria) يوجه ضربة في ناحية ثم يسارع لتوجيه ضربة أخرى في ناحية ثانية وهو في غضبون ذلك لم يكن يغفل عن جربة، بل كان يقرب فيها الفرقة مثلما كان يفعل جرجي الأنطاكي، لقد هاجمها مراراً ولكن مقاومة أهلها الشديدة كانت تضطره للتراجع عنها^(٣)، وفي سنة ٦٨٣هـ/ ١٢٨٤م هاجم قابس ففشل في احتلالها ولكنه تمكن من أسر عدد من أهلها، وفي سنة ٦٨٦هـ / ١٢٨٧م هاجم مرسى الحزر واحتلها بعد أن ثلم أسوارها ثم نهبها وحمل كثيراً من أهلها أسرى وغادرها بعد أن أضرم فيها النار، ثم حاول مهاجمة ميناء تونس بعد ذلك ولكن يقظة أهلها ومسارعهم للتصدي له فوّتت عليه الفرصة فارتد عنها خائباً^(٤) ليهاجم جربة من جديد وفي نفس ذلك العام إلا أنه أخفق أيضاً في احتلالها، فهاجم مدينة القل وتمكن من اقتحامها فأباحها لجنده الذين انتهبوها وتركوها خاوية^(٥). وفي أوائل سنة ٦٨٨هـ / ١٢٨٩م عاد لمهاجمة جربة ففشل في احتلالها أيضاً، ولكنه عاد في شهر رجب من ذلك العام أي سنة ٦٨٨هـ / ١٢٨٩م لمهاجمتها بأسطول كبير من سبعين قطعة، وهب أهلها للدفاع عن بلدتهم ولكنه هزمهم هذه المرة ونزل في الجزيرة حيث أباحها لجنده^(٦) فانتهبوها وأسروا كثيراً من أهلها عدا عن ما

(١) فيشر : المرجع السابق ج ٢ ص ٤٣٩.

(٢) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٠٥.

(٣) د. عبد الله المروي : المرجع السابق ص ٢٣٣.

(٤) عبد الرحمن الحيلالي : المرجع السابق ج ٢ ص ٣١.

(٥) عبد الرحمن الحيلالي : المرجع السابق ج ٢ ص ٢١.

(٦) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٠٦، انظر أيضاً محمد بوراس الجربي : المصدر السابق ص ١٠٢.

يذكر ابن القنفذ (المصدر السابق ص ١٤٩-١٥٠) أن هذا الاحتلال جرى في سنة ٦٨٣هـ/ ١٢٨٤م

ويؤيده في ذلك الباجي المسمودي (ص ٦٧) وشارل أندري جوليان (ج ٢ ص ١٨٣)، وما نتجده

قتلوه منهم ورموه في آبارها^(١)، ويصف ابن القنفذ ما جرى وقتل بقوله : (وأُسروا من الشاب القوي والشابة الحسنة ثمانية آلاف وقتلوا الضعفاء ونهبوا الأمتعة والأموال والزيت والزبيب فحملوا في سفنهم التي هي نحو السبعين وفي سفن الجزيرة والتي هي نحو الثلاثين . . .)^(٢) وأرسلوا بهذه الغنائم إلى صقلية، فروعته هذه القذائع المسلمين حتى قال ابن خلدون إن تلك الواقعة كانت (من أشجى الوقائع على المسلمين)^(٣).

وبعد أن اكتفى دي لوريا وجنده من أعمال النهب وارتكاب القذائع بأهل الجزيرة فرض عليهم جزية سنوية مقدارها مائة ألف دينار^(٤)، ثم بادر إلى العمل على إعدادها كقاعدة للأعمال المستقبلية فشرع في بناء حصنها الشهير على ساحلها القبلي المعروف بالقشيل أو (قصطيل الواد) كما يسميه محمد أبو راس الجبري^(٥)، وكما هو معروف في وقتنا الحاضر، وتدل آثاره الباقية على أنه كان حصناً منيعاً^(٦)، والذي أصبح مقراً للحماية

= أن الصواب في جانب ابن خلدون الذي ذكر أن ذلك كان في سنة ٦٨٨ هـ/١٢٨٩ م، ذلك لأن ملك أرغونة كان في سنة ٦٨٣ هـ لا يزال مشغولاً بأمر صقلية إذ كان النزاع وقتئذ لا يزال محتدماً بينه وبين شارل صاحب أُنْجُو على عرش مملكة الصقليتين والذي كان لا يزال على قيد الحياة (ت في ٦ يناير سنة ١٢٨٥ م) ذلك النزاع الذي أسفر فيما بعد عن تفتيش تلك المملكة إلى ملكة نابلي التي احتفظ بها الأنجويون، ومملكة صقلية التي فاز بها الأرغونيون. وتبعاً لذلك فإننا نسبعد أن يكون يدرو الثالث قد شغل نفسه بأمر إفريقية قبل وفاة شارل أُنْجُو وتصفية مشكلة صقلية. كما وأتينا لا تنفق مع محقق كتاب الأدلة البيئية النورانية لابن الشماخ الذي يقول (حاشية ١ ص ٩٢) إن دي لوريا كان يمارسه في البحر فعرض على ضباطه احتلال جربة وأعدا إياهم بنغم كبير فاهتزوا لذلك فرحاً، ذلك أنه جعل هذا الاحتلال كأنه صدفة أو فكرة طارئة وليدة ساعتها، والحقيقة كما نراها هي أن ذلك الاحتلال كان يتخطيط وتصميم مسبق وكان من المقرر له أن يكون خطوة أولى في سبيل احتلال إفريقية بأسرها.

- (١) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٠٦.
- (٢) ابن القنفذ : المصدر السابق ص ١٥٠، انظر كذلك ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٠٦.
- ابن أبي الضياف : المصدر السابق ص ٢١٣.
- (٣) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٠٦.
- (٤) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٠٦.
- (٥) محمد أبو راس الجبري : المصدر السابق ص ٧٣، ويسميه مؤرخو الدولة الحفصية مثل ابن خلدون والتجاني وابن الشماخ وابن القنفذ والزرکشي وغيرهم (القشيل) ومن الواضح أن هذا اللفظ اشتق من الكلمة الإسبانية (Castillo) أي الحصن.
- (٦) انظر وصفه في التجاني : المصدر السابق ص ١٢٨، كذلك رشيد غريب : برج الغازي مصطفى بجرية ص ٨٩.

الأرغونية، كما أصبح المرسى القريب منه في الجزيرة قاعدة للأسطولين الصقلي والأرغوني. وما أن علم بيدرو الثالث بأمر احتلال جربة حتى غمرته الغبطة وامتدح بإمكانية نجاح خطته في إفريقية، لذلك أتم على دي لوريا بتنصيبه حاكماً على الجزيرة وأمره بمواصلة جهوده، فقام المذكور بمهاجمة باقي جزر إفريقية القريبة من جربة فاحتل جزر تقيسية وتاوسخت وبين البحرين^(١)، ثم احتل قرقة بعد ذلك، وبذلك سيطر على كامل بحر إفريقية، وأصبح من الطبيعي حينذاك إن يمد بصره إلى برها، فهاجم في العام التالي أي سنة ٦٨٩هـ/١٢٩٠م مرسى القل كما حاصر بونة (عنابة) ولكنه أخفق في احتلال أي منهما نظراً لشدة المقاومة التي واجهته فرجع عنهما ولم يفر بطلال^(٢)، ومع ذلك لم ييأس بل ظل يتابع هجماته التي كان من أهمها مهاجمته لمدينة المهديّة.

مهاجمة المهديّة :

كما أن جزيرة جربة هي أفضل قاعدة بحرية في بحر إفريقية لمن يتطلع للوثوب إلى برها، فإن المهديّة بموقعها المتوسط وحصانها كانت هي أفضل منطلق للتوسع في ذلك البر، ولهذا السبب كانت موضع تطلع القوى الصليبية الدائم لاحتلالها بدليل أن معظم الحملات الصليبية التي كانت توجه إلى إفريقية كانت تتجه إليها، ولم تكن هذه الحقيقة لتخفى على دي لوريا، ولذلك فإنه بعد احتلاله جربة بمدة وجيزة وفي عام ٦٨٨هـ/١٢٨٩م أو العام الذي يليه وكلا القولين لابن خلدون^(٣)، توجه بأسطول كبير لمهاجمة تلك المدينة، وما يفهم من رواية ابن أبي الضياف^(٤) ويؤيده في ذلك الباجي المسموعي^(٥) بأنه هاجمها مراراً قبل هذه المرة دون أن

(١) تدعى الجزيرة الأولى حالياً (التطاعية القليلة) والثانية (التطاعية البحرية).

انظر محمد أبو راس المغربي : المصدر السابق ص ٧٨-٧٩ والحواشي).

(٢) انظر عبد الرحمن الجليلي : المرجع السابق ج ٢ ص ٢١، أحمد توفيق المدني : حرب الثلاثمائة سنة ص ١٤٦-١٤٧.

(٣) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٠٦، أما ابن القنفذ (المصدر السابق ص ١٥٠) فيقول إن ذلك الهجوم جرى سنة ٦٨٦هـ والأرجح في رأينا هو ما قاله ابن خلدون.

(٤) ابن أبي الضياف : المصدر السابق ص ٢١٣.

(٥) الباجي المسموعي : المصدر السابق ص ٦٧.

ينجح في احتلالها، وقد حاول في هذه المرة أن يطردها بختة ليفاجيء أهلها، ولكن غاب ظنه إذ أنه وجدهم على أهبة لحربه، وحينما عاينوا أسطول العدو قادماً نحو بلدهم بادروا لمواجهته، كما أرسلوا يستنجدون بإخوانهم في النواحي القريبة منهم. واستسلوا في الدفاع عن بلدهم، ولم يتمكنوا العدو في الأيام الثلاثة الأولى من الاستقرار في البر. وفي اليوم الرابع ونتيجة لوصل النجذات إليهم شدوا على الأعداء والحموا معهم واضطروهم للتراجع (حتى اقتحموا عليهم الأسطول)^(١)، فأدرك دي لوريا عدم جدوى مواصلة الهجوم واستحالة احتلال المدينة هذه المرة، فانسحب بأسطوله خائباً بعد حصار دام خمسة أيام وبعد أن فقد من جنده نحو المائة في حين استشهد من أهل المهديّة ثلاثة فقط^(٢).

حركة ابن أبي دبوس :

كانت سياسة بيدرو الثالث ومن خلفه على عرش أرغونة تجاه إفريقية تسمير في أكثر من اتجاه ومن هذه الاتجاهات جانب له خطورته هو محاولة خلق الفوضى فيها وحرمانها من الاستقرار على أمل أن تسبب هذه الفوضى في إنهاك قواها فتضعف عن مقاومته، ومن هذا المنطلق تجده هو وخلفاؤه من بعده يساندون عدداً من المطالبين بالعرش الحفصي، فضلاً عن بعض الثوار وذوي الحركات الاستقلالية وما شابهها. وفي سنة ٦٨٨هـ/ ١٢٨٩م واثته فرصة سارع إلى انتهازها هي خلق منافس جديد للحفصيين على عرش إفريقية، فرفع شعار إحياء الدولة الموحدية مستخدماً في ذلك الأمير عثمان بن أبي دبوس وهو ابن آخر خلفاء الموحدين، وكان المذكور قد فر إلى الأندلس بعد مقتل أبيه في سنة ٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م وسقوط دولتهم والتجأ إلى بلاط خايمي الأول ملك أرغونة حيث كان يقيم أثناء عمه أبي زهد الذي كان هو الآخر قد لجأ إلى خايمي الأول وتصر على يده، وبعد وفاته أقام أبنائوه في كتف الملك المذكور، وأصبحت لهم حظوة عنده، فاحتقوا بابن عمهم عثمان الآنف الذكر وإخوته حينما وفدوا عليهم . ووصلوه بخايمي الأول^(٣)، وعند

(١) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٠٦.

(٢) ابن القنفذ : المصدر السابق ص ١٥٠، انظر أيضاً ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٠٦، ابن أبي الضياف : المصدر السابق ص ٢١٣.

(٣) انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٠٨، ج ٧ ص ٢٧٥.

تولي بيدرو الثالث العرش خلفاً لأبيه خايمي الأول في سنة ١٢٧٦م راودته فكرة الاستفادة من هذا الأمير في تحقيق طموحاته في إفريقية، وتأتي الصدفة لتقدم لبيدرو خدمة كبيرة في هذا المجال فيقع مرغم بن صابر شيخ بني ذياب الهلالية أسيراً في يد قراصنة صقلية سنة ٦٨٢هـ / ١٢٨٣م فانتهاز بيدرو هذه الفرصة واشتراه من القراصنة وأكرمه ثم قدمه لعثمان بن أبي دبوس ووثق العلاقة بينهما وقد آل الأمر إلى أن عقد الثلاثة اتفاقاً فيما بينهم يقضي بأن يقوم مرغم بن صابر بمساعدة عثمان بن أبي دبوس وأن يقوم بيدرو بمساندتهما بأسطوله على أن يدفعاً له جميع المبالغ التي سينفقها في هذا السيل^(١)، وغير خاف أن المستفيد الأول من هذا الأمر هو ملك أرغونة، ذلك أنه إذا نجح هذا الأمير في دعوته فإنه سيكون المعبود في إمكانية تحقيق أهدافه من خلاله وإن كان نجاحه جزئياً أي أنه تمكن من يده، وسيظل يشعر بالحاجة إليه لكونه دخیلاً على بلد ليس له فيه جذور، الأمر الذي يقوي الاحتمال في إمكانية تحقيق أهدافه من خلاله وإن كان نجاحه جزئياً أي أنه تمكن من تأسيس إمارة له في إحدى نواحي إفريقية فإن تلك الإمارة ستكون شوكة في جنب الدولة الحفصية ويعني أن ذلك هو مزيد من التمزيق والفتنة في إفريقية، وإن فشل فإن ذلك الفشل سيضع ذياب التي كانت من أقوى بطون الهلالية في مواجهة السلطان الحفصي مما يزيد في الفتنة والفتنة. وهو في كل ذلك لن يخسر شيئاً لأنه سيحصل على كل ما أنفق في تلك الحركة.

لذلك، وبعد عقد هذا الاتفاق دار البحث بين الأطراف الثلاثة عن الموقع الأفضل ليكون نقطة الانطلاق، واستقر رأيهم أخيراً على أن تكون تلك النقطة هي طرابلس الغرب، ذلك أن ذياب تبسط نفوذها على قسم كبير من باديتها، ثم لأنهم أملاوا (الظفر في القاصية لبعدها عن الحامية)^(٢)، وباشر بيدرو الثالث في إعداد أسطوله وشنه بالعدد والرجال والأقوات وما أن تكاملت هذه الاستعدادات حتى أبحر الأسطول ونزل على طرابلس الغرب سنة ٦٨٨هـ / ١٢٨٩م، وتمكن مرغم بن صابر من حشد قومه في طاعة الأمير الموحدي وآزر الأروغيين في شن الهجوم على المدينة المذكورة. حيث هاجموا ثلاثة أيام متواصلة (وساء أثرهم فيها)^(٣) دون أن يتمكنوا من اقتحامها

(١) انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٠٨، ج ٧ ص ٢٧٥ .

(٢) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٠٨ و ج ٧ ص ٢٧٥ .

(٣) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٠٨ .

لاستبدال أهلها في الدفاع عنها، حينذاك شعر جند أرغونة بعدم جدوى مواصلة القتال وقرروا الانسحاب، لذلك طلبوا من حليفهم المال المتفق عليه، ولما لم يكن لدى هذين المبلغ المطلوب اضطررا للمسير بقسم من جيشهما إلى المناطق المجاورة للمدينة لجباية المال المطلوب وتركوا القسم الآخر لمواصلة الحصار بينما تنحى الأرغونيون بأسطولهم عن المدينة وأرسوا في موضع قريب منها ينتظرون المال، وحينما دفع لهم ألقوا عائدتين إلى بلادهم^(١)، وبرحيلهم هبت رياح الفشل على هذه المعركة ففك ابن أبي دبوس الحصار عن طرابلس وأقام يتقلب مع أعراب ذئاب في نواحيها^(٢) إلى أن استدعاه أحمد بن أبي الليل شيخ الكعوب الهلالية في سنة ٧٠٥هـ/١٣٠٥م وبايعه ليناويء به السلطان محمد أبا عاصمة، وزحف به على تونس فوجه إليه السلطان جيشاً بقيادة وزيره ابن يرزكين الذي ألحق الهزيمة بابن أبي دبوس وأتباعه، وجال بعد ذلك في نواحي إفريقية لتسهيل الجهات وتسكين ثائرة الأعراب الأمر الذي جعل ابن أبي الليل يثوب لطاعة السلطان من جديد، فصرف ابن أبي دبوس إلى مكانه بنواحي طرابلس ووجد هو على ابن يرزكين، ويعمل ابن خلدون فشل ابن أبي دبوس بقوله: (... فلم يتم أمره لرموخ دعوة الحفصيين بإفريقية وانقطاع أمر بني عبد المؤمن منها وآثارهم منذ الأحوال العديدة والآماد المتقدمة فمسي أمرهم)^(٣). وقد حاول ابن مكّي صاحب قابس الطامح للاستقلال الاستفادة من ابن أبي دبوس أيضاً فاستدعاه (لأن يشتد به في استبداده فلم يتم أمره)^(٤)، فكانت هذه محاولة الأخيرة، ولما باءت بالفشل ريس من أمره ودخل جزيرة جربة التي كانت وقتئذ تحت الاحتلال الأرغوني وأقام بها إلى أن أدركته منيته^(٥).

(١) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٠٨ - ٣٠٩.

(٢) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٠٩.

(٣) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣١٤، ج ٧ ص ٢٧٥، انظر أيضاً الزركشي : المصدر السابق ص ٥٦.

(٤) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٠٩.

(٥) قام ابنه الأصغر أحمد بن عثمان في سنة ٧٤٨ هـ بمحاولة ثانية شبيهة بهذه المحاولة. ذلك أنه عندما هلك عثمان وتم تحرير جربة انتقل أبناؤه إلى مدينة تونس بعد أن ظنوا أن الناس نسوا أمرهم ولكن السلطان أبا يحيى أبا بكر عرف بأمرهم فاعتقلهم ثم نفاهم إلى الإسكندرية فأقاموا بها، وبعد فترة رجع أصغرهم أحمد إلى إفريقية واستقر بتوزر واحرق الحياطة، وعندما زحف أبو الحسن المريني إلى إفريقية وقصد ما بينه وبين الأعراب (انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٥٩ -

أما لماذا تخطى ملك أرغونة عن الأمير الموحدى، فذلك أمر لا تعيننا المصادر التاريخية المتيسرة على الوصول إلى إجابة محددة بشأنه، فهل كان ذلك بسبب امتناع طرابلس على المهاجمين؟ أو لإدراك بيدرو صعوبة نجاح الدعوة الموحدية في إفريقية للسبب الذي ذكره ابن خلدون وأوردناه آنفاً؟ أو لعدم ثقته بالأعراب القائمين بهذه الدعوة المتقلبي الأوهاء؟ أم أن دور ذلك الأمير في خطط ملك أرغونة كان فقط خلق مزيد من الفوضى في إفريقية وأنه قد أدى هذا الدور ولم تعد هنالك ثمة حاجة إليه؟ كل هذه التعليلات تبقى في عداد الافتراض لعدم وجود الأدلة التي ترجح أحدها أو تعين على تقديم الإجابة الشافية لهذا السؤال.

غارات قراصنة أرغونة وصقلية على إفريقية :

كان نشاط أرغونة العسكري في إفريقية منذ عهد بيدرو الثالث وجهاً آخر لا يقل أهمية عن توجيه الحملات إليها بل هو مكمل ومهد رئيسي لها في نفس الوقت، هو استخدام القراصنة. ويخطيء من يظن أن أولئك القراصنة كانوا يمدون عن الهدف السياسي وأن همهم كان هو السلب والنهب فقط، ذلك أن مجتمعات العصور الوسطى لم تفرق بين القرصنة بمعنى العدوان في البحر للسلب والنهب وبين مطاردة العدو ومهاجمته عن طريق البحر، فالاعتداء على شواطئ العدو وسفنه ونهبها كان يعتبر نوعاً من الحروب الدينية تستهدف ضرب اقتصاديات العدو بخرق تجارتها وأسر من يعمل على سفنه وتخريب موانئه وإثارة الفزع والرعب في شواطئ بلاده، هذا بالإضافة إلى أنها كانت وسيلة يلجأ

= وانفقوا على حربه نظراً فيمن يهاجمون فذكروا أحمد فأتوا به ونصبوه للأمر وجعلوا له ما يحتاجه من مظاهر السلطنة وزحفوا به للقاء أبي الحسن حيث هزموه في معركة القيروان كما سبق ذكره، وصادف أن تمكن ابن تفرجين حاجب الدولة الحفصية المشهور من الفرار من تونس وقتل فأتوا به ونصبوه حاجباً للأمير الموحدى وزحفوا على تونس فامتعت عليهم وأعيروا لها الأعراب إلى مسألة أبي الحسن فقد لهم السلم ودخل عمر بن حمزة شيخ أولاد أبي الليل على أبي الحسن واختلط به، وليشبوا حسن نيهم له قبضوا على أحمد بن عثمان وسلموه إليه فأودعه في السجن وبقي في سجنه إلى أن رحل أبو الحسن إلى الغرب فخرج أحمد من ذلك السجن ثم هاجر إلى الأندلس وبذلك نشلت حركته هو الآخر، وليس هنالك دليل يؤكد أو ينفي ارتباط هذا الأمير بملك أرغونة أو أية قوة خارجية أخرى (انظر ابن خلدون : ج ٦ ص ٣٥٩ وبعدها ج ٧ ص ٣٧٥-٣٧٦، الزركشي : المصدر السابق ص ٨٥).

إليها في كثير من الأحيان للضغط على العدو ومراقبة تحركاته ولزيادة سواحله تمهيداً لاحتلالها، وعلى ذلك فإنها كانت في حقيقتها حرباً غير معلنة على العدو، ولذلك كانت ذات نظم وقوانين ولها تقاليد معروفة لا تحيد الدول ولا القراصنة عنها. ويذكر عبد العزيز ابن عبد الله أنه كانت هنالك معاهدة عقدت بين أرغونة والدولة الحفصية سنة ١٣٢٣م تعتبر القراصنة وسيلة حرية مشروعة سواء عند المسلمين أو المسيحيين^(١). ولهذا ومن هذا المنطلق ارتبط نشاط قراصنة أرغونة وصقلية في إفريقية بالنهج السياسي الذي اتتهجه ملوكهم تجاهها آنذاك برباط وثيق ويؤكد هذه الحقيقة ما جاء في رسالة السلطان محمد أبي عصيدة الحفصي إلى خاليمي الثاني ملك أرغونة المنشورة ضمن وثائق تاج أرغونة والمؤرخة ٤ ربيع الثاني سنة ٧٠٧/٣٠ أكتوبر سنة ١٣٠٧م من أن القرصان (ولد لوجير - Roger -) عمر ببلادكم جهازاً ووصل بأجفانكم وأعلامكم فيها وأخذ للمسلمين زوج أجفان فيهما جملة وماله عندكم ورباعه بأرضكم^(٢) أي إنه بنى سفنه في أرغونة علناً تحت سمع ملكها وبصره ومفصلاً عن الغرض الذي بنيت من أجله، وعلاوة على ذلك ضم إليها قطعاً من أسطول ذلك الملك وهجم بها على المسلمين وهي ترفع أعلام أرغونة وأخذ لهم سفناً تجارية كانت فيها أموال كثيرة لتجار المسلمين وذهب بها غنيمة له.

لذلك، نشط قراصنة أرغونة منذ بداية الربع الأخير من القرن الثالث عشر أي منذ مطلع عهد الاضطراب والفوضى في إفريقية بمهاجمة شواطئ تلك البلاد ينهبون ويقتلون ويأسرون ويدمرون، وقد زادت هذه الهجمات حدة وتلاحقاً منذ احتلال دي لوريا لجزيرة جربة وسواها من جزر بحر إفريقية التي أصبحت أوكاراً لهؤلاء القراصنة وقواعد قرية يديرون عملياتهم منها، ومنذ انضمام صقلية للتاج الأرغوني أصبح قراصنتها هم الآخرون عوناً وردعاً لقراصنة أرغونة واستطاع الفريقان فرض حصار بحري قوي غير معلن على إفريقية فأصبحت كل سفينة إسلامية لا تغادر موانئها أو تقدم إليها إلا على خطر وبمجازفة كبيرة، ولم تقتصر تلك المظاير على سفن المسلمين فقط، وإنما شملت أيضاً السفن التابعة

(١) عبد العزيز بن عبدالله: تاريخ الحضارة المغربية ج ٢ ص ٩٢.

Maximiliano A. Alarcon : Op. Cit., P.255.

(٢) انظر :

لبعض الدول المسيحية الأخرى التي كانت تمارس نشاطاً تجارياً مع مسلمي إفريقية، كما أن اعتداءات أولئك القراصنة لم تقتصر على التعرض للسفن الإسلامية أو غيرها من سفن النصراني الآفة الذكر في عرض البحر، وإنما كانوا يتجربون ويهاجمون موانئ إفريقية ويأخذون ما تصل إليه أيديهم من السفن الراسية فيها بما حملت من ملح. فحقنوا بذلك تجارة إفريقية وبالتالي قطعوا الشريان الرئيسي لاقتصادها في وقت كانت فيه نشاطات مملكة أرغونة الأخرى في إفريقية في عنفوانها. والفريب حقاً أن هؤلاء القراصنة كانوا يمارسون نشاطهم العدواني على الدوام وفي وقت كانت فيه معاهدات السلام وعدم الاعتداء بين صقلية وأرغونة من جهة والدولة الحفصية من جهة ثانية تكون سارية المفعول، تلك المعاهدات التي ما كانت تنتهي حتى يتم تجديدوها فوراً بحيث لن يجازف إذا قلنا إنها غطت تلك الفترة بكاملها، الأمر الذي يؤكد عدم جدية ملوك أرغونة في الالتزام بما جاء فيها لأن ما هدفوا إليه بتلك الأعمال كان في نظرهم أهم من التقيد بتلك المعاهدات، وأنهم كانوا يضربون بها عرض الحائط في سبيل الوصول لهدفهم، ومما يدل على خطورة أعمال القرصنة الأرغونية على إفريقية في تلك الفترة هو أن كافة المعاهدات التي عقدت بين سلاطين بني حفص وملوك أرغونة وصقلية كانت أكثر ما تهتم به هو معالجة وضع حدٍّ لاعتداءات القراصنة عليها بما يرد فيها من شروط تتعلق بهذا الموضوع من ناحية، ثم كثرة الشكاوى من هذه الاعتداءات التي تضمنتها رسائل سلاطين بني حفص إلى ملوك أرغونة من ناحية ثانية.

فبالنسبة للناحية الأولى ورد في المعاهدة المفقودة بين محمد أبي عصيدة وخيايمي الثاني والمؤرخة ١٨ ربيع أول سنة ٧٠١هـ/ ٢١ نوفمبر ١٣٠١م شرط ينص على (أن الملك الأجل الأثير الخطير الشهير جاقمو المذكور يمنع من يريد الخروج من جميع بلاده إلى بلاد الحضرة العلية مهدها الله تعالى بسبب القطع في جفن من الأجفان على أي نوع كان صغيراً أو كبيراً ولا يصل أحد من بلاده ولا ممن هو في عمله وتحت طاعته إلى أحد ممن هو في مرسى من مراسي بلاد الحضرة العلية مهدها الله تعالى مسلمين كانوا أو غير مسلمين وأردين عليها أو صادرين عنها يضرر . . .)^(١)، وكان هذا الشرط مثلاً احتذي في كافة المعاهدات التي عقدت بين الدولة

الحفصية وأرغونة^(١). ولم تكف المعاهدة بهذا الشرط بل شرطت على أهل أرغونة أيضاً الالتزام بعدم شراء أي من السلع التي ينهاها القراصنة من إفريقية إذ جاء فيها عن ذلك : (وعلى أن لا يشتري أحد من أهل بلاده ممن يقطع على أهل بلاد الحضرة العلية شيئاً من سلعهم ولا من أسراهم . . .)^(٢). وأما بالنسبة للناحية الثانية المتعلقة بكثرة شكاوى السلاطين الحفصيين من تعديات القراصنة فإن ذلك يظهر بوضوح في رسالة السلطان محمد أبي عصيدة إلى خاتمي الثاني أيضاً المؤرخة ٤ ربيع الثاني سنة ٧٠٧هـ/ ٣٠ أكتوبر سنة ١٣٠٧م التي سبق أن أشرنا إليها والتي تبين أن قراصنة أرغونة كانوا ينون سفنهم في أرغونة وصقلية ويقصدون بها إفريقية لغزوها^(٣).

ومن الغريب حقاً أن ملوك أرغونة وصقلية كانوا لا يصفون لهذه الشكاوى أو يعيرونها أدنى اهتمام، ولكن إذا بدر من مسلمي إفريقية أي تصرف تجاه مقاومة هؤلاء القراصنة أو القيام بأي نوع من الحرب الوقائية ضد نشاطهم، كان هؤلاء الملوك يادرون إلى الاحتجاج لدى السلطان الحفصي ويتهمونهم بنقض المعاهدات المعقودة بين الطرفين، ويظهر هذا الأمر بوضوح في رسالة أبي عصيدة إلى خاتمي الثاني المؤرخة ٤ ربيع الثاني سنة ٧٠٧هـ/ ٣٠ أكتوبر سنة ١٣٠٧م الآنف الذكر حيث يقول فيها : (وعلمنا على ما يوافقكم من حفظ الشروط التي يقتضيها الصلح وكل من يصل من بلادكم الداخل تحت حكمكم على الرعي والاعتناء والأمان وحديث صقلية ومن يقصدها من رعيتمكم ورجالكم يتصرفون في القرصلة - القرصنة - وفي عمارة الأجفان الغزوانية المضرة للمسلمين فإذا ألحقتمهم أذى من المسلمين مشوا إليكم وتشكوا وقالوا نحن رجالكم ورعيتمكم وضرنا صاحب البحر بحضرة تونس وليس الأمر كذلك)^(٤)، ويؤكد ذلك ما جاء في رسالة أخرى وجهها السلطان المذكور إلى خاتمي الثاني مؤرخة أول صفر سنة ٧٠٦هـ/ ٩ سبتمبر سنة ١٣٠٦م والتي اختصت بالرد على مسائل بير بسوط De Pere Busot^(٥) أي تنفيذ مزاعم ملك

(١) انظر على سبيل المثال المعاهدة للمعقودة بين السلطان إبراهيم بن أبي يحيى أبي بكر وبهذرو الرابع في :

Maximiliano A. Alaracon : Op. Cit., P.311-14

Maximiliano A. Alaracon : Ibid, P. 248.

(٢) انظر :

Maximiliano A. Alaracon : Ibid, p,255.

(٣) انظر :

Maximiliano A. Alaracon : Ibid, p.255.

(٤) انظر :

(٥) بير بسوط De Pere Busot هو سفير لخاتمي الثاني أرسله إلى السلطان محمد أبي عصيدة في سنة-

أرضونة عن تجاوزات المسلمين للمعاهدة الموقعة بين الطرفين والتي تقدم بها بير بسوط De Pere Busot وأول ما تشير له تلك الرسالة هو موضوع أن (صاحب البحر بتونس قد عمر قطاعاً وتوجه بها إلى طرابلس. فوجد في البحر والبر قدر خمسين نسمة قتلهم وأخذ سلورة^(٥) بثمانية مجاديف كانت واصله من أطرابنة إلى تونس وفيها ستة من القطلانيين فأخذها في بحر المعلقة. . . ولما توجه صاحب البحر المذكور إلى جهة طرابلس كان جفن واصلًا لإفريقية موسقاً بالطعام لشخص اسمه جاقمة ذا لبنتن من سكان برجلونة وأخذ أسبايهم وكان فيه ثمانية عشر شخصاً من القطلانيين فلم يبق منهم أحيا غير ثلاثة وهم الآن مثقفون بطرابلس^(٦)، ويرد السلطان محمد على هذا الزعم بتكذيبه أخذ السلورة بقوله إن (أمر السلورة ليس بصحيح)^(٧)، وأما بالنسبة للجفن فإنه يبين أن السبب في أخذه كان لأنه (عمر في صقلية وأوسق منها الطعام وتوجه إلى طرابلس في معونة القطائع التي أخذت الجفن الواصل من الشرق وحرقه وبرسم اشتراء الأسرى المأخوذين منه فصادفهم صاحب البحر فأخذهم وإن صح أن فيه قطلانيين كما ذكر فهم من سكان صقلية ومن عمر فيها من أهل قطلونية الذين تحت إمالة صاحب صقلية ولم يزالوا يضررون بأهل إفريقية وقد كان في الأجفان التي أخذت جفن المسلمين المذكور منهم خلق كثير فمنهم الرمند سليبر وغيره^(٨)).

وعلاوة على أن هذا النص يفند التجاوز المزعوم للمعاهدة الموقعة بين الجانبين ويبين الحقيقة، فإنه يلقي الضوء على عدة أمور هامة، منها أن القراصنة القطلان وهم من رعايا ملك أرغونة كانوا لا يتوقفون عن ممارسة نشاطهم العدواني ضد إفريقية حتى في زمن السلم

= ١٣٠٦ هـ / ١٣٠٦ م ليبحث عدة أمور من ضمنها التجاوزات التي زعم ملك أرغونة أنها حدثت من قبل المسلمين للمعاهدة الموقعة بين الطرفين.

(Maximiliano A. Alaracon : Op. Cit., p.257.

(انظر :

(هـ) السلورة : جمعها ملالير وهي نوع من المراكب متوسطة الحجم تستعمل في الحرب والسلم على السواء، لها ثلاثة شراع وتحتوي عادة على أربعين مجدفًا.

(انظر د. سعاد ماهر : المرجع السابق ص ٣٤٧).

Maximiliano A. Alaracon : Ibid, P. 258.

(١) انظر :

Maximiliano A. Alaracon : Ibid, P. 258.

(٢) انظر :

Maximiliano A. Alaracon : Ibid, P. 258.

(٣) انظر :

المعقود بين الجانبين وتلافياً لإحراج ملك أرغونة كانوا أحياناً يجعلون من صقلية وهي في حقيقتها كانت وتحت تابعة لأرغونة مركزاً لعملياتهم، ففيها يعمرن سفنهم ومنها يخرجون إلى إفريقية حتى يتمحو الفرصة لملكهم للتوصل من جريرة أعمالهم فضلاً عن أنها كانت أقرب إلى إفريقية من أرغونة، ثم إنهم كانوا يتزودون منها بالمؤن واليها يرسلون بغنائمهم وأن مراكب خاصة كانت تحمل إليهم المؤونة وتأخذ تلك الغنائم بينما هم يجوبون البحر قبالة ساحل إفريقية لإحكام الرقابة عليها، وأخيراً أن هؤلاء كانوا كثيري العدد ذكرت الرسالة اسم واحد منهم هو رمند سليبر Ramon Salaver الذي كان معروفاً على ما يبدو، وأن هؤلاء كانوا قد أضربوا بإفريقية وأن الدولة الحفصية حاولت الحد من نشاطهم فكلفت صاحب البحر بالعمل على مراجعتهم بعد أن استغل خطرهم. ولم تكف تلك الرسالة بتنفيذ مزاعم الجانب الأرغوني، بل أخذت تعدد تجاوزات الأرغونيين للمعاهدة المعقودة بين الطرفين فكشفت عن عدة حوادث اعتداء قام بها قراصنة أرغونة على إفريقية منذ عقد تلك المعاهدة في ١٨ ربيع الأول سنة ٧٠١هـ/ ٢١ نوفمبر سنة ١٣٠١م ولغاية تاريخ كتابة تلك الرسالة في أول صفر سنة ٧٠٦هـ/ ٩ سبتمبر ١٣٠٦م كما سبق أن ذكرنا.

ففي القسم الأول من رسالة مسائل بير بسوط الآتية الذكر ورد أنه في شهر شوال سنة ٧٠٢هـ/ ٢٠٢م هجمت ثلاث قطع بحرية غراب^(١) وشيطان^(٢) للقراصنة القطلانيين على مرسى مدينة تونس فأخلوا طريدة^(٣) لأهل مدينة بيزا كانت محملة بالصوف قيمتها جميعاً ثلاثين ألف دينار وشيطي للجنوبيين يحمل سلعاً لتجار مسلمين من بونة قيمتها عشرة

(١) الغراب : جمعها أغربة وغربان وهو نوع من المراكب الحربية وقد سمي بهذا الاسم لأن مقدمه يشبه رأس الغراب أو الطائر ويمثل في الماء الطير في الهواء، وكان الغراب يحمل الغزاة ويسير بالقلع، كما كان يسير يحدد من الجاديف لا يتجاوز (١٨٠ مجداً) ومن خصائصه أنه كان مزوداً بجسر من الخشب يهبط على مركب العدو ويمر على ظهره الحند فيقاتلون بالأساليب البرية. (انظر د. سعاد ماهر : المرجع السابق ص ٣٥٢).

(٢) الشيطي : نوع من المراكب الحربية مهتة كشف العدو وإبلاغ خبره لقائد الأسطول وهو مربع الحركة ويحتوي على ٨٠ مجداً. (انظر د. سعاد ماهر : المرجع السابق ص ٣٥٢).

(٣) الطريدة : نوع من السفن الصغيرة سريعة السير وتستعمل في الحرب والسلام، وفي أيام الحرب أكثر ما تختص به هو نقل الحبوب.

(انظر د. سعاد ماهر : المرجع السابق ص ٣٥٣-٣٥٤).

آلاف دينار وسلورة أخرى لأهل يزا (وفي هذا هنك حرمة المرسى ونقض للمصلح)^(١). وفي نفس ذلك الشهر هجمت سفينة أخرى لأولئك القراصنة على ميناء بنزرت وأخذت جعناً للمسلمين محملاً بالأقمشة والبرانس كان قد قدم بها من بجاية قيمتها أربعين ألف دينار، وسفينة صغيرة لأهل بونة قيمتها مع حمولتها خمسة آلاف دينار وأسروا ثلاثة من المسلمين باعوهم بخمسمائة دينار^(٢). وفي شهر ذي الحجة من ذلك العام هجم قرصان قطلاني تدعوه الرسالة الميرالية (El Amirante) يبدو أنه كان مشهوراً وقطز بسفينة كان قد بناها في أرغونة على منطقة الحمامات واحتل بلداً اسمه (منزل زيد) فقتل كثيراً من أهلها (وأسر آخرين ومبا وحرق ودمدم - دمر - وانفصل عنها بمن أسر وبما أخذ من سبي)^(٣). وفي الشهر التالي محرم سنة ١٣٠٣/٧٠٣م هاجم القرصان المذكور موضعاً يسمى (إيزو) وقتل أهله ثم توجه إلى موضع آخر هو (قصر زياد) فقاتل أهله وحرق حوانيث وانفصل عنه^(٤)، وفي شهر شوال من ذلك العام أغار قرصان آخر هو بير الرباطة Pedro Ribalta على بنزرت فأخذ من مرصاها سفينة للرئيس إبراهيم السومسي كان قد وصل بهامن طبرقة محملة بالعود فأخذها بحمولتها من سلج وركاب وباع الجميع في صقلية وقوصرة^(٥). وفي شهر ذي الحجة من ذلك العام غدر الميرالية الآنف الذكر بأهل بونة إذ طلب منهم التضييف فأخرجوه له، ولكنه كافأهم على صنيعهم بأن أخذ من مرصاها شيطياً لتجار نصارى ثم غادرها إلى بلدة قرية منها تسمى (السكره) فهاجمها وأخذ منها (نحو مائتي عيال ومباها وأبلى أهلها ثم رجع إلى بنزرت فأخذ غراباً للمسلمين على النشار كان فيه للمسلمين عود وقطن وتمر قيمته عشرة آلاف دينار وفيه ثلاثون رجلاً وأربع عشرة امرأة)^(٦).

ونقضي الرسالة في سرد هذه الهجمات فذكر أنه في شهر ربيع الأول سنة

Maximiliano A. Alaracon : Op. Cit., P. 259

(١) انظر :

Maximiliano A. Alaracon : Ibid, P. 259.

(٢) انظر :

Maximiliano A. Alaracon : Ibid, P. 259.

(٣) انظر :

Maximiliano A. Alaracon : Ibid, P. 259.

(٤) انظر :

Maximiliano A. Alaracon : Ibid, P. 259.

(٥) انظر :

Maximiliano A. Alaracon : Ibid, P. 259.

(٦) انظر :

٧٠٤هـ/١٣٠٤م وصلت قطعتان بحريتان إلى بحر إفريقية من برشلونة كان قد عمرهما قرصان يدعى جاقمة د. بروصة (Jaime de Brossa) فأخذتا طريدة للمسلمين بالقرب من طرابلس وأرسل جميع ما فيها إلى صقلية حيث بيع بها بمال جزيل^(١). كما أغار قرصان آخر يدعى القسيس المنزع كان قد خرج من سرقوسة بصقلية في ذلك الوقت على مدينة بونة وأخذ من مرساها سفيتين محملتين بالعود ثم أخذ من البر رأسين من البقر وراعيهما^(٢)، ولا ندري فيما إذا كان إطلاق القسيس على هذا القرصان هو لقب له أم أنه قسيس بالفعل، وإذا كان الأمر على هذا الافتراض أعني الثاني، فإن لذلك دلالة الهامة هي أن رجال الدين من كانوا يمارسون القرصنة ضد إفريقية الأمر الذي يعتبر دليلاً آخر على أهمية القرصنة بالنسبة للحركة الصليبية وارتباطها الوثيق بأهدافها. ولعل في الحادثة التالية ما يؤكد أن أعمال القرصنة هذه كانت تجري بعلم ملك أرغونة وبياراته وخدمة لأهدافه، ذلك أنه في شهر صفر سنة ٧٠٤هـ/١٣٠٤م خرج رسول لصاحب قطلونية التابع للملك أرغونة بطبيعة الحال هو جيسبرت القصبطلوني Gisberto de Castellon في مهمة رسمية إلى صاحب صقلية في غرابين فمر بجزيرة قوصرة ثم بدا له هو الآخر ممارسة القرصنة فاتجه من قوصرة إلى نواحي طرابلس حيث هاجم جفناً للمسلمين فيه (أكسية وسلع بمال كبير ورجع بها إلى قوصرة فباع ما أخذه فيها بقدر خمسين ألفاً)^(٣). وعلاوة على ذلك تذكر الرسالة أنه في شهر شوال سنة ٧٠٤هـ/١٣٠٤م وصل إلى إفريقية رجل يدعى عبد الله الجزري كان أميراً في برشلونة وأطلق سراحه فذكر أن هنالك مراكب عديدة قد أعدت وقتل في مملكة أرغونة لممارسة القرصنة ضد إفريقية اثنين منها من بلنسية (Valencia) وأربعة من طركون (Tarragone) وثلاثة من طرطوشة (Tortose) وثلاثة من بنشكلة (Peniscola) وثلاثة من لفتن (Alficante) وأربعة من قصبطلون (Castellon) وأن من أشهر قواد هذه القطع إنكراو دنفيليه (En Grau de Fonollar) وفرانده وسلت

Maximiliano A. Alaracon : Op. Cit., P. 259.

(١) انظر :

Maximiliano A. Alaracon : Ibid, P. 259.

(٢) انظر :

Maximiliano A. Alaracon : Ibid, P. 259.

(٣) انظر :

(Fernando Uesellet)^(١) الأمر الذي يؤكد ارتباط نشاط هؤلاء القراصنة بسياسة ملوك أرغونة تجاه إفريقيا إذ من غير المعقول أن يقوم هذا العدد من السفن الذي هو في حقيقته عبارة عن أسطول، بنشاطاته دون علم ملك أرغونة وموافقة.

وتعرض القسم الثاني من تلك الرسالة والتي كُتبت في ربيع أول سنة ٧٠٧هـ/١٣٠٧م لذكر عدة حوادث اعتداء أخرى من قبل أولئك القراصنة، إذ تشير إلى أنه في شهر محرم سنة ٧٠٥هـ/١٣٠٥م أفاد الرائد محمد بن زكريا البجائي أنه بينما كان مبحراً بسفينة بالقرب من بنزت خرج عليه قراصنة من بلنسية في شيطان وهاجموا وأخذوا جميع ما كان في سفينة ثم أرسوا إلى البر وهاجموا المسلمين الذين كانوا متواجدين في تلك الناحية وأسروا اثنين منهم في حين لاذ الباقون بالفرار، وكان بعض هؤلاء القراصنة قد هاجموا قبل ذلك قلعة أبي خليفة بالقرب من بنزت أيضاً وأخذوا قوارب كانت متواجدة فيها^(٢). وفي شهر جمادى الأولى من ذلك العام اكترى تجار من أهل تونس ونواحيها جفنأ لشخص قطلاني يدعى جيم ملقادر Yim Melcader فأوسقوه طعاماً وعطوراً وغير ذلك من السلع بما قيمته ثمانية آلاف دينار لنقلها إلى قابس، فلما كان ذلك الجفن على مقربة من جربة خرج عليه شيطان أحدهما من جربة والثاني من إطرانة بصقلية وصاحبه يدعى جيم الطرطوشي Yim Tortusa فأسروا لصاحب الجفن بشيء ثم انصرفوا، وبعد يومين هاجموا ذلك الجفن ليلاً في بحر قبودية ومعهم طريدة أخرى للمسلمين استولوا عليها من مرسى المهديّة استعانوا بها على ذلك الجفن فأحاطوا به واستولوا عليه، وهنالك من وجه التهمة لصاحب الجفن أنه تواطأ مع القراصنة وهنالك من نفاها عنه^(٣). وفي أوائل صفر سنة ٧٠٦هـ/١٣٠٦م هاجم غرابان لقراصنة بلنسية ميناء القصير وأخذوا ثمانية قوارب كانت راسية فيه، ثلاثة منها لأهل سفاقس وخمسة لأهل طرابلس كان فيها من السلع ما قيمته ثلاثون ألف دينار ونحو ستين من المسلمين^(٤).

Maximiliano A, Alaracon : Op. Cit., P. 259.

(١) انظر :

Maximiliano A, Alaracon : Ibid, P. 260.

(٢) انظر :

Maximiliano A, Alaracon : Ibid, P. 260.

(٣) انظر :

Maximiliano A, Alaracon : Ibid, P. 260.

(٤) انظر :

وتكشف رسالة أخرى من محمد أبي عصيد إلى خايمي الثاني مورخه في ذي القعدة سنة ٧٠٧هـ / إبريل - مايو سنة ١٣٠٨م والتي عنوانها جواب الفصول التي كتب بها ملك أرغونة للحضرة العلية بتونس بتاريخ ذي القعدة سنة ٧٠٧هـ عن أن السلطان الحفصي كان قد اشتكى من كثرة اعتداءات قراصنة أرغونة على بلاده. وأن خايمي الثاني حاول التنصل من جريمة أعمالهم ومخادعة السلطان الأمر الذي لم ينطل عليه فيحاول أن يضع ملك أرغونة أمام مسؤولياته التي فرضتها عليه المعاهدة المعقودة بينهما فيقول : (لما عرفناكم أن أجبنا تخرج من قبلكم وجهتكم للقرصنة - القرصنة - والضرر بجهاتنا متجنب من هذه القضية وقتلتم إنكم أمرتم أن لا يعمر أحد في بلادكم لمضرة في جهتنا وأن رجلون - Rogeron - ما عمر في جهتكم وإنما عمر في صقلية قطعين - قطعين - وجاء بهما إلى بنسنة. وجوابنا أنه لا فرق بين أن تعمر في بلادكم أو يخرج رجالكم بأموالهم من بلادكم فيعمرون بها في غير جهاتكم وكان يجب عليكم أن تمنعوه من ذلك وأن تأخذوا أموالهم وتزجروهم عن ذلك وكان يجب عليكم لما وصل رجلون إلى بنسنة أن تقبضوا عليه وتمنعوه مما أراده من ضرر بالمسلمين في جهتنا^(١)). وهذه المراوغة والمخادعة من ملك أرغونة تدل دلالة واضحة على رضاه بل وتشجيعه لهذه الأعمال، ويؤكد ذلك ما جاء في تلك الرسالة عن القرصانيين بير الرباطة Pere Ribalta وجامقة القسطلوني Jaime Casteller اللذين سبق أن اشتكى السلطان لملك أرغونة في رسالته عن مسائل بير بسوط من اعتداءاتهما كما سبق ذكره، كما أن السفير بير بسوط الذي تصادف وجوده في تونس حينما قام هذين القرصانيين بمهاجمة مرسى تلك المدينة وأخذوا منها مركباً كان قد قدم من الأندلس بملع قيمتها مبلغ كبير من المال، تعهد للسلطان بأنه سيرفع الأمر للملكه وأنه على ثقة بأن ملكه سينصف السلطان منهما وتمنعهما من القرصنة بل ويقبض عليهما حتى ينقطع ضررهما، ولم يحرك ملك أرغونة ساكناً بل غض الطرف عنهما كما يفهم من الرسالة الآتفة الذكر^(٢). بل إن بير الرباطة استمر في اعتداءاته، ولو أراد خايمي الثاني منعه لفعل.

Maximiliano A, Alaracon : Op. Cit., P. 267.

(١) انظر :

Maximiliano A, Alaracon : Ibid, P. 267.

(٢) انظر عن ذلك :

كما تلقى وثائق أرغونة الضوء على نشاط قراصنة صقلية في تلك الفترة والتي كان يحكمها آنذاك فريدريك آخر خايمي الثاني، تخين رسالة محمد أبي عصيد إلى خايمي الثاني المؤرخة ١٤ شعبان سنة ٧٠٨هـ/٢٧ يناير سنة ١٣٠٩م أن فردريك تلكاً في توقيع معاهدة السلام البديلة للمعاهدة السابقة التي انتهت آنذاك بالرغم من أن أخاه خايمي الثاني قد أقرها، وذلك لرغبته في استمرار أعمال القرصنة ضد إفريقية، عاد رسل السلطان من صقلية دون أن يظفروا من فردريك بطائل بعد أن أقاموا في بلاطه أربعة أشهر فيقول في ذلك : (... ولا كمل الصلح الذي عقده رجالكم ورجاله ولا أمضاه وأقام عنده أربعة أشهر ثم انفصل على غير شيء والقرصلة بأجفان صقلية ما زالت وأحوال البحر من جهته ما تغيرت عما يعهد منه ولا حالت وقد أنكرت جميع ملوك النصارى هذا الفعل...) (١). وأما دور خايمي في تشجيع القرصنة فعلاوة على ما سبق أن ذكرناه، فقد ورد نص في رسالة من السلطان أبي يحيى زكريا بن اللحياني إلى خايمي الثاني مؤرخة ٢٩ رمضان سنة ٧١٢هـ/٢٨ يناير سنة ١٣١٣م يؤكد هذه الحقيقة ويبين عدم اكتراث ملك أرغونة بالمعاهدة المعقودة بينه وبين السلطان عند تعارضها مع مخططاته، فقد جاء في ذلك النص ما يلي : (وقد اتصل بنا أن النداء شاع ببلادكم بأن من أحب القطع - أي القرصنة - على بلاد المسلمين ما عدى بلاد الأندلس فليخرج، فعبجنا من كونكم لم تستنوا بلادنا مع ما بيننا من الصلح المعقود وبقاء مدة من أمدته) (٢). وإذا كان ذلك قد جرى في عهد السلطان ابن اللحياني الذي كان ملك أرغونة يلاطفه ويسايسه طمعاً في تنصيره، فكيف كان الأمر بالنسبة لغيره من السلاطين الحفصيين الذين لم يكن يطمع في ذلك منهم؟ لا بد أن الأمر كان أدهى وأمر.

ويبدو أن نشاط القراصنة بخاصة حاكم جربة الأرغوني لخير (Roger di Loria) قد بلغ آنذاك حداً لم يستطع ابن اللحياني - على مناراته لملك أرغونة طمعاً في مساندته له كما سبق ذكره - تحمله الأمر الذي جعله يوجه إلى خايمي الثاني رسالة ملوها الوعيد والتهديد مؤرخة في ١٣ مايو دون ذكر السنة وإن كنت أرجح أنها سنة ١٣١٣م يقول فيها :

Maximiliano A. Alaracon : Op. Cit., P. 272-273.

(١) انظر :

Maximiliano A. Alaracon : Ibid, P. 282.

(٢) انظر :

(...) وأعرفكم أنني أمرت بالكتب لكم في أمر المزالمة لجير لتتوه عن التعرض لبلاد إفريقية فإنه قد أقصد فيها في العام الفارط كثيراً وهو عبدكم وعامل على مرضاكم فإن أمرتوه أن لا يتعرض لبلادنا فهو يقف عند أمركم ولا يتعداه... وهذا المزالمة لم يقف عند حده والغرض أن يصل كتابكم له بالارتجاع عن هذه الجهات فإن وقف عند حده فحسن فهو القصد وإن لم يرتجع ويصل بجوابكم ولم يقف عند أمركم فوالله لأنزلن جربة بنفسي ونقطع ثمارها ونهدم ديارها ولا نترك له فيها منفعة^(١). وواضح من هذا النص أن ابن اللحياني كان يدرك أن احتلال أرغونة لجزيرة جربة كان لاتخاذها قاعدة للأعمال العدوانية ضد إفريقية، ولكنه وهو الذي كان يواجه مشاكل وفتن داخلية تكاد تعصف به لم يجد إلا إطلاق هذا التهديد وهو أمر لم يحمله خايمي الثاني محمل الحمد لأنه كان على اطلاع جيد على ما يدور في إفريقية وكان يعرف أن ابن اللحياني أعجز من أن ينقل تهديده، ولذلك غض الطرف عن ذلك التهديد ولم يحرك ساكناً، وهذا ما تؤكد رسالة ابن اللحياني التالية التي تواصل الشكوى من اعتداءات قراصنة أرغونة على بلاده^(٢).

لقد ظلت أعمال القراصنة هذه والتي كانت تسيرها وتوجهها مملكة أرغونة والتي ما كانت إلا تعبيراً عن وجه آخر من وجوه سياستها تجاه إفريقية بغية إضعافها إلى أقصى حد ممكن، ظلت على عنفوانها طوال مدة نشاط أرغونة في جبهة إفريقية، حيث ألحقت باقتصادها أفدح الضرر علاوة على الرعب والفزع الذي أثارته في شواطئها في وقت كانت فيه الفتن والحروب الداخلية تفتك بها، وبذلك وقع أهلها بين شقي رحى هما المشاكل الداخلية ومؤامرات أرغونة ونشاطاتها العدوانية المسلحة، حتى أصبح وضع إفريقية في تلك الآونة أشبه ما يكون بوضعها قبيل الاحتلال النورماني في أواسط القرن السادس الهجري (الثاني عشر للميلاد)، والذي يشير إلى أنه كان من الممكن أن ينجح ملوك أرغونة في فرض سيطرتهم عليها لو استمرت جهودهم تسير بنفس هذه القوة كما لجح رجاء الثاني النورماني في ذلك من قبل.

Maximiliano A. Alaracon : Op. Cit., P. 284.

(١) انظر :

Maximiliano A. Alaracon : Ibid, P. 286.

(٢) انظر عن ذلك رسائله في :

فشل خطط أرغونة ونهجير جوبة :

بالرغم من نشاط أرغونة الصليبي في إفريقية بوجهه العسكري والسلمي طوال فترة نصف القرن الذي أعقب وفاة المستنصر الأول، وبالرغم من أن ظروف إفريقية الداخلية كانت من الممكن أن توفر فرصة كبيرة لنجاح جهود تلك القوة الصليبية في تحقيق أهداف الحركة الصليبية في تلك الجهة، إلا أنها أخفقت بصليبيتها المسلحة كما أخفقت في صليبيتها السلمية في تحقيق تلك الأهداف. ذلك أن الظروف التي جددت على ساحة شبه جزيرة إيبرية منذ أوائل العقد الرابع من ذلك القرن، ودخول أرغونة معترك السياسة جنبا إلى جنب مع قشتالة لمواجهة الخطر المريني في الأندلس ثم الدخول في لعبة الأحلاف والأحلاف المضادة التي مارستها الممالك النصرانية في شبه الجزيرة فضلاً عن مملكة غرناطة والدولة المرينية من ناحية، ثم الأمور التي برزت في ساحة أوروبا الغربية من ناحية ثانية، ثم اشتباكها في نزاع مرير مع مملكة قشتالة فيما بعد من ناحية ثالثة، كل ذلك صرف مملكة أرغونة عن إفريقية وعن مواصلة نشاطها في ساحتها، الأمر الذي جعل السلطان أبو يحيى أبو بكر يعمل على إبعاد الخطر الأرغوني عن بلاده، فكان أن أعد حملة عسكرية بقيادة مخلوف بن الكماد أرسلها إلى جربة سنة ٧٣٨هـ/١٣٣٧م، حيث هاجمت الجزيرة وحاصرت حصن القشتيل، ومع أن هذه الحملة لم تكن الأولى التي أرسلت لتحريرها بل سبقتها حملة أخرى قادها ابن اللحياني سنة ٧٠٦هـ/١٣٠٦م الذي كان وقتله شيخ الموحدين في الدولة الحفصية، وذلك عندما اشتد عدوان قرصنة أرغونة الذين اتخذوا من الجزيرة مركزاً لعملياتهم، حاصر بها القشتيل مدة شهرين ثم ارتد عنه^(١) إذ أن حملته تلك إنما كانت تورية ليخرج من العاصمة بقصد السفر إلى المشرق^(٢) كما سبق ذكره، كما يفهم أيضاً من رواية لابن خلدون أن أهل الجزيرة حاولوا تحرير بلدهم أكثر من مرة ففشلوا^(٣)، إلا

(١) انظر عن هذه الحملة التجاني : المصدر السابق ص ١٢٧ وما بعدها، ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣١٩ - ٣٢٠، الزركشي : المصدر السابق ص ٥٦، صالح الكواش : المصدر السابق ورقة ١٦، ابن الشماخ : المصدر السابق ص ٩٩.

(٢) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣١٩، الزركشي : المصدر السابق ص ٥٦.

(٣) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٧٠.

أن إرسال هذه الحملة كانت المحاولة الجادة الأولى من قبل السلطة المركزية لتحرير الجزيرة، وقد نجح ابن الكماد في اقتحام حصن القشتيل وقتل عدداً من أفراد الحامية الأرغونية، وهرع الباقون إلى سفنهم لاثّمين بالفرار^(١)، ولم يلبث قراصنة أرغونة وصقلية هم الآخرون حينما علموا بفتح ابن الكماد للجزيرة أن غادروا أوكارهم في الجزر القريبة الأخرى وبذلك قل خطرهم على إفريقية، ولعل ذلك يفسر قلة الأخبار عن نشاطاتهم في تلك الجهة في المصادر التاريخية منذ أوائل العقد الرابع من القرن الرابع عشر. وبفقدان أرغونة لقاعدتها في جربة، ونظراً للأسباب التي أشرنا إليها آنفاً، زال خطرها على إفريقية منذ ذلك الوقت إلى حد كبير. وإذا كانت أرغونة قد فشلت في إحراز مكاسب للحركة الصليبية في إفريقية في ذلك الوقت، فإن منتصف القرن السابع الهجري (الرابع عشر للميلاد) أي بعد تحرير جربة بفترة قصيرة شهد محاولة ثانية في هذا المضمار قامت بها قوة أخرى.

(١) انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٧٤ - ٣٧٥، الزركشي : المصدر السابق ص ٧٥، صالح الكواش : المصدر السابق ورقة ٤٠.

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعْماً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ .

[سورة الأنعام : آية ١٥٩]

تجدد هجمات الإيطاليين على إفريقية

التنافس بين جنوة والبندقية وأثره على إفريقية - تطلع جنوة لإفريقية من جديد - هجوم الجنويين على طرابلس الغرب - حملة جنوة وحلفاؤها على جربة

التنافس بين جنوة والبندقية وأثره على إفريقية :

من المعروف أنه منذ بداية انحسار سيادة البحرية الإسلامية عن مياه البحر الأبيض المتوسط في أوائل القرن الخامس الهجري (الحادي عشر للميلاد) وحلول المدن البحرية الإيطالية محلها في السيطرة على ذلك البحر، بدأ التنافس بين تلك المدن بغية انفراد كل منها بتلك السيطرة دون المدن الأخرى والتي ستتمكنها بالتالي من التحكم في حركة التجارة الدولية نظراً لأن ذلك البحر كان هو مركز تلك الحركة في العالم القديم، وكانت أهم هذه المدن المتنافسة هي البندقية وجنوة وبيزا، ولما لم تكن بيزا في مستوى غريمتيهما من حيث القوة والإمكانات، الأمر الذي كان يضطرها لمساكنتهما أحياناً، بل وإلى محالفة جنوة في أحيان أخرى لتنفيذ مشاريع مشتركة فيما بينهما، فإن هذا التنافس أكثر ما كان بين البندقية وجنوة. لذلك أخذتا منذ أواسط ذلك القرن تنافسان في الحصول على الامتيازات لدى مختلف القوى في شرق البحر المتوسط سواء لدى الدولة البيزنطية أو الجانب الإسلامي للاستثمار بأكبر نصيب من التجارة الشرقية التي كانت تدر عليهما أرباحاً طائلة، وتحاول كل منهما حرمان الأخرى من هذه التجارة. وإذا كانت كفة البندقية في أول الأمر ذلك القرن بدأت ترجح على كفة غريمتها في شرق البحر الأبيض المتوسط بما قدمته للدولة البيزنطية من خدمات، فإنها لم تستطع مجاراتها في غربها. ذلك لأن جنوة حرصت منذ أواسط القرن المذكور على بسط نفوذها هنالك، ولذلك كانت هي التي أسهمت بحريتها بنصيب كبير في محاربة المسلمين في الجناح الغربي من العالم الإسلامي منذ بداية الطور النشط للحركة الصليبية الذي بدأ وقتئذٍ، فأُسهمت إلى جانب النصارى الإسبان في حروبهم ضد المسلمين في الأندلس، وتعاونت هي وبيزا في الهجوم على الجزائر الشرقية (جزر البليار)، ثم دشنت الحرب الصليبية في جهة إفريقية بحملة المهدية سنة ٤٨٠هـ/١٠٨٧م التي أسهمت فيها بأكبر نصيب كما سبق ذكره.

وقد شدد الزحف الصليبي على المشرق إبان الحملة الصليبية الأولى اهتمام كل من المدينتين البندقية وجنوة ومثلهما بيزا ولكن على مستوى أقل وحفزهما على محاولة إحراز أكبر قدر ممكن من المكاسب من تلك الحرب، ولذلك كانتا تتسابقان إلى تقديم المساعدات المختلفة للصليبيين في المشرق ولا سيما مساعدتهم بأساطيلهما في الاستيلاء على مدن الساحل الشامي مقابل حصص في الغنائم بالإضافة إلى امتيازات أخرى دائمة، وسرعان ما احدم التنافس بين المدينتين في المشرق وعاد إلى ما كان عليه قبل وصول الصليبيين إلى بلاد الشام، هذا التنافس الذي كان كثيراً ما يتطور إلى نزاع مسلح بينهما غطت حوادثه خيرات كثيرة من القرنين الثاني عشر والثالث عشر، وكان ميباً رئيسياً في سريان الضعف إلى الكيان الصليبي في المشرق والذي أدى بدوره إلى تصفية ذلك الكيان في أواخر القرن الثالث عشر. وإذا كان الوجود الصليبي في بلاد الشام قد انتهى في ذلك الوقت، فإن التنافس والنزاع بين المدينتين قد استمر في النصف الأول من القرن الرابع عشر لا سيما في المشرق إذ عملت كل منهما على التودد لدولة المملوك في مصر والشام للحفاظ على مصالحها التجارية، وجرى نفس الأمر بالنسبة للدولة البيزنطية التي قامت على أنقاض دولة اللاتين في القسطنطينية، وشهد منتصف القرن الرابع عشر تجدد النزاع بين المدينتين، وفي سنة ١٣٥٣م اشتبك أسطولاهما في معركة كبيرة في المياه البيزنطية وقرب القسطنطينية نفسها، ظفرت فيها البندقية بغريمها وألحقت بها هزيمة ساحقة، وبشر المقرزي إلى هذه الحرب في حوادث سنة ٧٥٣هـ/١٣٥٢م بقوله : (وفيه - شهر ربيع أول - قدم الحبر بفتنة الجنوة والبنادقة وكثرة الحروب بينهم، من أول الحرم إلى آخر ربيع الآخر... ثم قدم الحبر أن البنادقة انتصرت على الجنوة، وأخذت لهم واحداً وثلاثين غراباً بعد قتل من بها)^(١)، وكان لهذه الهزيمة التي لحقت بجنوة أثراً بالغ بطبيعة الحال على مصالحها في المشرق، إذ حرمتها من تجارة موانئ البحر الأسود ومحطات الطريق البري عبر بلاد فارس وجنوب روميا لعدة سنين^(٢). ولذلك كان عليها لتعويض الخسارة التي لحقت بها في المشرق أن تعمل على تدعيم نفوذها في الغرب، وكانت إفريقية نظراً لظروفها التي سبق أن أشرنا إليها هي الميدان الأفضل لهذا الأمر.

(١) المقرزي : السلوك ج ٢ ق ٣ ص ٨٦٢.

W. Heyd : Op. Cit., V, 2, P. 49.

(٢) انظر :

كذلك المقرزي : السلوك ج ٢ ق ٣ ص ٨٦٢.

تطلع جنوة لإفريقية من جديد :

إذا كانت الظروف التي أعقبت فشل الحملة الصليبية على المهديّة سنة ١٠٨٧هـ/١٠٨٧م والتي تمثلت في بداية الزحف الصليبي على المشرق ثم ظهور نورمان صقلية كقوة جديدة في قلب حوض البحر الأبيض المتوسط، قد حالت دون استمرار نشاط جنوة العدواني ضد إفريقية، فليس معنى ذلك أنها أغفلتها وفقدت اهتمامها بها. وإنما فرضت عليها تلك الظروف اتباع أسلوب آخر للحفاظ على مصالحها فيها، فاكتمت بدور ثانوي في العدوان الصليبي الذي وجه إليها في القرنين الثاني عشر والثالث عشر هو دور المساند ما دام ذلك يؤمن لها مصالحها، فضلاً عن قيامها ببعض أعمال القرصنة ضدها كلما سنحت الفرصة، هذا من ناحية، كما حرصت خلال هذه الفترة على الارتباط بها بمعاهدات تجارية تكفل لها تدعيم الحركة التجارية بينهما من ناحية ثانية، ولم تفكر خلال هذه المدة في إعداد حملة صليبية ضدها على غرار حملة المهديّة، اللهم إلا ما كان من احتلالها لجيجل سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م. وبروز مطامع أرغونة في إفريقية منذ بداية الربع الأخير من القرن الثالث عشر والتي كانت في حالة نزاع مستمر مع جنوة كان من أسبابه تنازعهما على ملكية جزيرتي سردينيا وكورسيكا كما سبق ذكره، ابتعدت جنوة أكثر فأكثر عن مجرى الحوادث في إفريقية سيما وأن نزاعها مع البندقية في الشرق الصليبي كان يفرض عليها توجيه جل اهتمامها إلى شرق البحر الأبيض المتوسط فضلاً عن أن نشاط قراصنة أرغونة وصقلية قبالة ساحل إفريقية خلق أمامها مصاعب جديدة في علاقاتها بها.

وبخروج جنوة مهزومة من صراعها مع البندقية في الشرق في أواسط القرن الرابع عشر كما سبق ذكره، وما واكب ذلك من انشغال أرغونة عن إفريقية وقتئذٍ جعلها تتطلع إلى إفريقية من جديد. وقد حفزها على ذلك علاوة على ما تقدم عاملان هامين أولهما أثر وباء الموت الأسود الذي انتشر في جزء كبير من أوروبا في منتصف القرن الرابع عشر فضلاً عن أجزاء كبيرة أخرى من العالم القديم ودام مدة تزيد عن الثلاث سنوات مما هدد تجارة جنوة بالكساد فكان لا بد لها من أن تسارع إلى إيجاد متنفس لها ما دامت قد حرمت من متنفس الشرق أيضاً إلى حد كبير، ورأسمال عرضاً عما فقدته في الحرب يدفع بعجلة اقتصادها للحركة من جديد، وثانيهما ظروف إفريقية في أواسط ذلك القرن خاصة بعد

انحسار الظل المريني عنها برجع السلطان أبي الحسن إلى المغرب الأقصى واحتدام الفتن والمشاكل الداخلية فيها التي مزقتها وأنهكت قواها وجعلتها فريسة سهلة لكل طامع، الأمر الذي كان عاملاً مشجعاً لجنوة لبعث أطماعها فيها من جديد.

هجوم الجنويين على طرابلس الغرب :

تعتبر طرابلس الغرب إحدى موانئ إفريقية الهامة، وكان يصدر منها جزء لا يستهان به من منتجات قلب القارة الإفريقية، وكانت علاقتها بالسلطة المركزية في تونس منذ بداية عهد الفوضى والفتن في مد وجزر، يقر ولاتها بتبعيةهم للسلطان الحفصي تارةً وينكرونها تارةً أخرى، وحينما غادرها السلطان ابن اللحياني الحفصي إلى مصر سنة ٧١٠هـ/١٣١٨م، كما سبق ذكره، استخلف محمد بن أبي عمران والياً عليها، ولما تمخضت الحوادث في تونس عن فرار محمد أبي ضربة ومبايعة أبي يحيى أبي بكر سلطاناً، استقل ابن أبي عمران في طرابلس ثم لم يكف بذلك بل لم يلبث أن زحف بجموع من الأعراب إلى تونس في سنة ٧٢١هـ/١٣٢١م طامعاً في السلطنة، وتمكن من دخولها وإخراج السلطان الأنف الذكر منها، وبقي فيها إلى أوائل سنة ٧٢٣هـ/١٣٢٣م حيث عاد السلطان أبو يحيى أبو بكر فأخرجها منها واضطره للعودة إلى طرابلس، ولكنه لم يجد من أهلها الإقبال الذي وجده منهم قبل حركته على تونس، وبلغ من تيرهم به أن ثاروا عليه سنة ٧٢٤هـ/١٣٢٤م وأخرجوه من المدينة حيث لحق بالأعراب خارجها وحاول الاستيلاء على تونس بعد ذلك فاغار عليها أكثر من مرة^(١) وحينما فشل فر إلى تلمسان^(٢). أما أهل طرابلس فقد ولوا عليهم بعد طرده، ثابت بن محمد بن ثابت^(٣) الذي سار في الناس سيرة حسنة وبقي والياً عليها

(١) انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٣٣-٣٣٤.

(٢) قام المذكور بعد ذلك بمحاولة أخرى لاحتلال تونس في سنة ٧٢٩هـ، إذ في تلك السنة ذهب وفد من أعراب ملهم إلى تلمسان واستعملوا أميرها أبا تاففين الزياتي على السلطان الحفصي أبي يحيى أبي بكر فأرسل معهم ابن أبي عمران الذي جمع جموعاً كبيرة من الأعراب وأغار على تونس في أواخر ذلك العام حتى تمكن من دخولها في صفر سنة ٧٣٠هـ وفر السلطان منها جريماً ولكنه عاد وتمكن من استعادتها منه من جديد.

(٣) بنو ثابت هم عرب وشاحيون من بني ملهم الهلالية من الأسر الطرابلسية التي تسكن المدينة ولهم =

حتى وفاته في سنة ٧٣٠هـ/١٣٣٠م حيث تولى حكمها من بعده ابنه محمد بن ثابت الذي نعت طرابلس في عهده بقدر كبير من الاستقرار، ونشطت تجارتها نوعاً ما برغم المعوقات التي سبق أن أشرنا إليها، الأمر الذي وفر لأهلها قنراً من الرخاء. حتى كان وباء الموت الأسود فأصابها ما أصاب غير ها من بلدان إفريقية من كثرة الأموات وتردي الأوضاع الاقتصادية، وتوفي محمد بن ثابت في سنة ٧٥٠هـ/١٣٤٩م فخلفه ابنه ثابت في حكمها، فأعلن استقلاله عن الدولة الحفصية، وفي ذلك يقول ابن خلدون : (... ومرت الأيام إلى أن استبد بها ابن ثابت ووليه من بعده ابنه في أعوام خمسين وسبعائة منقطعاً عن الحضرة^(١)) وفي تلك الآونة، وفي ١٠ ربيع الآخر سنة ٧٥٥هـ/١٣٥٤م على وجه التحديد شنت جنوة عدوانها القادر عليها فما هي الدوافع التي جعلت جنوة تختارها هدفاً لهذا العدوان؟

إن ذلك يعود في اعتقادنا لعدة أسباب أهمها أن استقلالها عن الدولة الحفصية قبل العدوان بفترة وجيزة دون أن تحاول الحصول على قوة تقوم بدورها في المللات حرماً من النصير، وجعلها تعتمد على إمكانياتها الذاتية في الدفاع عن نفسها والتي كانت محدودة بعد أن قطعت باستقلالها آخر أمل لها في الحصول على أي نوع من المساعدة من السلطان الحفصي. صحيح أنه لم يكن من المتوقع من السلطان أن يقوم بمداها بمساعدات عسكرية فعالة تمكنها من صد العدوان في مثل ذلك الوقت العصيب الذي كان هو نفسه يواجه فيه فتناً ومشاكلًا حادة، ولكن كان لجنوة مصالح حيوية كبيرة في إفريقية بدليل حرصها على تجديد المعاهدات التجارية المعقودة بينها وبين سلاطين بني حفص كلما انتهى مفعولها؛ ووجود فنادق لها في العديد من مدن إفريقية الرئيسية^(٢)، ومن المعروف أن جنوة كغيرها

= مكانة رفيعة بين أهلها، وقد حكموا تلك المدينة مدة ٧٩ سنة وكان أول حاكم منهم هو ثابت بن محمد بن ثابت الذي تولاها في سنة ٧٢٤هـ، وآخرهم يحيى بن أبي بكر بن ثابت الذي عزل عنها سنة ٨٠٣هـ.

(انظر الطاهر الزاوي : المرجع السابق ص ٢٦٠).

(١) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٦٨.

(٢) وقد دام النشاط التجاري لجنوة إلى ما بعد القرن الرابع عشر بمدة طويلة يدل على ذلك ما قاله الحسن الوزان في هذا الموضوع في حديثه عن بعض مدن إفريقية، إذ يقول عن أهل مدينة القل (المصدر السابق ص ٤٢٦) : (... وهم يقومون بتجارة طيبة لأنهم يستمدون من جبلهم الكثير من-

من المدن البحرية الإيطالية كانت مصالحها التجارية هي التي تحكم تصرفاتها وتوجهها، فكان بإمكان السلطان الحفصي أن يهددها في تلك المصالح الأمر الذي سيجعلها تفكر أكثر من مرة قبل شروعها في عنوان على ولاية تابعة للسلطان، أما وقد استقلت، فإنه لم يعد في ومع السلطان إشهار سلاح التهديد في وجه جنوة إذ في إمكانها التملص بالتعلل بأنها لم تهاجم أيًا من ممتلكاته وإنما هاجمت بلداً خارجاً عن إرادته بل وتناصبه العداء.

ويضيف ابن خلدون إلى ما تقدم سبباً آخر استهل به حديثه عن هذا الهجوم، لعل له أهميته في طمع القوى الصليبية ومنها جنوة بطرابلس هو جغرافيتها وقلة قبائل الأعراب في ضواحيها^(١)، فوقعها في سيطر من الأرض على ساحل البحر مباشرة حرماً من الحصانة الطبيعية التي تمكنها من الصمود في وجه المهاجمين لمدة طويلة، وأما قلة الأعراب في ضواحيها فقد حرماً من مصدر للمقاتلين الأتداء الذين من الممكن أن يسارعوا لتجديتها وفي وقت قصير ويشدوا من أزر أهلها في الدفاع عنها ضد المعتدين. وعلاوة على ما تقدم فإنها كانت لا تزال وقشياً تعاني من آثار وباء الموت الأسود الذي كان قد تفشى فيها وأهلك كثيراً من أهلها وتسبب في شح الأقوات الأمر الذي أضعفها عن المقاومة إلى حد بعيد. وكل هذه الأمور لم تكن خافية على الجنوين بحكم صلتهم الوثيقة بها، يؤكد ابن خلدون هذه الحقيقة بقوله : (وكان تجار الجنوين يترددون إليها فاطلعوا على عورتها واتهموا في غزوها)^(٢). فكانت تلك الأسباب مجتمعة هي التي دفعت جنوة إلى شن العدوان عليها.

وتجمع المصادر التاريخية الإسلامية التي تعرضت لحوادث هذا العدوان أن الجنوين اتبعوا

= القمع، ولديهم كمية كبيرة من الجلود، ويقاضون هذه المنتجات بالسلع التي يجلبها الجنوين الذين يترددون على موانئهم) ويقول (ص ٤٢٦-٤٢٧) إنه كان يمتد سكة مسالك ومستودعات للجنوين الذين يتأخرون في البلاد ألقاها لهم أمير قسنطينة، كما كان جبل سكة براولون التجارة بكثرة معهم فيقدمون لهم القمح ويأخذون منهم الأقمشة وغيرها من المنتجات الأوروبية. كما يذكر أن الجنوين احتكروا صيد المرجان بالقرب من القل (ص ٤٣٣-٤٣٤).

(١) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٦٨.

(٢) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٦٨، انظر كذلك الثاقب الأنصاري : المصدر السابق ص ١٦٦، محمد بن أحمد بوراس العسكري : عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، مخطوط المكتبة الوطنية بتونس رقم ٢٦٢، ورقة ٥٩.

في غزوها أسلوباً جديداً هو مخادعة حاكمها وأهلها حتى تمكنهم الفرصة من مفاجئتها، فما يفهم من رواية ابن خلدون الذي يقول إنهم تأمروا على غزوها (واتعدوا لمراسها فوافوه سنة خمس وخمسين)^(١) إن خطة الهجوم وضعت في جنوة، وحتى لا يثيروا ريبة أهلها فيهم إذا ما أقبلوا عليها بكامل أسطولهم تواعدوا على أن يكون مرسأها هو نقطة التجمع، وتقول هذه المصادر عن هذه الخديعة بأن الجنويين أظهروا أنهم تجار فصدقهم المسلمون دون أن تعرض للتفاصيل^(٢)، ولولا رواية ابن حجر العسقلاني التي أوردتها في (الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة) لربما بقيت تفاصيل هذه الحيلة مجهولة، فيقول ابن حجر أن الجنويين قدموا في مراكبهم بصفتهم تجاراً وهم في حقيقتهم مقاتلة، وأرسلوا من قبلهم شيخاً مجرباً يتقن اللغة العربية يصفه بأنه ترجمان، وذلك لاستطلاع أحوال البلد من ناحية، ثم للاتصال بمن فيها من النصارى لكسب عونهم على إنجاز مهمتهم^(٣) من ناحية ثانية، وبالفعل تمكن المذكور من إنجاز هذين الشقين من مهمته، فاتصل بالنصارى المقيمين في طرابلس واستمد منهم المعلومات اللازمة له بعد أن أطلعهم على ما اعتزمه صاحبه من الغدر، وعباهم لمساندة المهاجمين حين ساعة الصفر، كما درس أوضاع أهل المدينة حيث تبين له ما كانوا يعانونه من الغلاء لقلة الحب عندهم^(٤)، نظراً لظروف الوباء والجماعة التي كانت آثارها لا زالت ماثلة، فاستغل هذه الظاهرة أحسن استغلال في إنجاز الشق الثالث من مهمته المتمثلة في مخادعة الوالي ثابت بن محمد، إذ أنه سعى لمقابلته حيث نجح في إقناعه ربما بمساعدة تجار النصارى المقيمين في المدينة-بأن الجنويين قد قدموا إلى طرابلس بطعام وبيع ولكنهم متخوفون من النزول من مراكبهم إلى البر، ولذلك فهو يشير على الوالي بأن يجمع الأسلحة من أهل البلد وحتى من الجند ويحفظها

(١) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٦٨، انظر كذلك النائب الأنصاري : المصدر السابق ص ١٦٦.

(٢) انظر على سبيل المثال ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٦٨، الزركشي : المصدر السابق ص ٩٤، النائب الأنصاري : المصدر السابق ص ١٦٦، الوزير السراج : المصدر السابق ج ١ ص ٤١.

(٣) محمد بن أحمد بوراس العسكري : المصدر السابق ورقة ٥٩، حاجي خليفة : تقويم

التواريخ، مخطوط المتحف البريطاني رقم ADD. 23307 ورقة ٥٢.

(٤) ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ج ٢ ص ٦٤، انظر كذلك الطاهر

الزاوي : المرجع السابق ص ٢٦٣.

(٤) ابن حجر العسقلاني : المصدر السابق ج ٢ ص ٦٤.

عنده في القلعة ليطمعن الجنويون وينزلوا بضاعتهم من المراكب، وإمعاناً منه في إقناع ابن ثابت للموافقة على هذا الطلب أثار طمعه فأرهمه أن هؤلاء التجار قد قدموا بسلع كثيرة مما يجعل نصيبه المتمثل في عائدات الخمس مبلغاً كبيراً، وفي نفس الوقت ينتفع أهل البلد من تلك السلع^(١) لا سيما المواد الغذائية التي هم في أمس الحاجة إليها فيعهم الرخاء.

فانطلت الحيلة على ثابت وقام بتجريد أهل البلد والجنود من أسلحتهم ووضعها عنده في القلعة، فلما تأكد الجنويون أن البلد أصبحت عزلاء من السلاح، شرعوا في تنفيذ مهمتهم، وزيادة في حبك هذه الخديعة أنزلوا من مراكبهم بعض السلع لإشاعة الاطمئنان في نفوس المسلمين، فاستبشر هؤلاء بها وأسرعوا إلى شرائها منهم^(٢)، واطمأنوا إليهم وأغفلوا مراقبتهم، الأمر الذي جعل الجنوين ينتشرون في البلد وكأنهم في حوائجهم^(٣) حتى عرفوا عورتها ونقاط الضعف فيها وأخذوا مراكزهم في نواحيها، وفي ليلة العاشر من ربيع الأول سنة ٧٥٥هـ/٧ إبريل سنة ١٣٥٤م صنعوا إلى سور البلد وأهلها نيام حيث تخلصوا من حراسها بسرعة وفتحوا الأبواب واندوا بالحرب، فلم يشعر المسلمون إلا والجنوين قد خالطوهم في البلد يقتلونهم كيفما شاؤوا، فلم يكن همهم إلا النجاة بعد أن حبل بينهم وبين أسباب الدفاع عن أنفسهم بتجريدهم من السلاح^(٤)، فقتل منهم من قتل، وأسر من أسر^(٥)، وفر من قدر منهم على النجاة ولكن ليقع في يد الأعراب الذين لم يكونوا على مستوى المسؤولية هذه المرة، فبدلاً من أن يسارعوا لنجدة إخوانهم والتصدي للعدو المشترك كما فعلوا إبان هجوم جرشي الأنطاكي الأول عليها كما سبق ذكره، وجدوا في الفارين من المدينة غنيمة باردة، فقتلوا وسلبوا الكثيرين منهم. وسيطر الجنويون على المدينة بسرعة واستباحوها

(١) ابن حجر العسقلاني: المصدر السابق ج ٢ ص ٦٤.

(٢) ابن حجر العسقلاني: المصدر السابق ج ٢ ص ٦٤.

(٣) ابن خلدون: المصدر السابق ج ٦ ص ٣٦٨، الثالب الأنصاري: المصدر السابق ص ١٦٦.

(٤) ابن خلدون: المصدر السابق ج ٦ ص ٣٦٨-٣٦٩، الزركشي: المصدر السابق ص ٩٤، الوزير

السراج: المصدر السابق ج ١ ق ٤ ص ١٠٦٢، الثالب الأنصاري: المصدر السابق ص

١٦٦-١٦٧، محمد بن أحمد العسكري: المصدر السابق ورقة ٥٩.

(٥) يقول الزركشي (المصدر السابق ص ٩٤) في ذلك: (وأسر النصارى جميع أهل البلاد)، وهذه

مبالغة واضحة من الزركشي، إذ سقط كثير من أهلها قتل بسيف الجنوين، وفي ذلك يقول

المقريزي (السلوك ج ٣ ق ١ ص ٢١): (وخل عامة أهلها)، كما تمكن آخرون من الفرار.

وأعملوا فيها ملبأً ونهياً. وأما واليها ثابت، فإنه أسقط في يده، وعندما رأى جند الجنود يحاصرون قصره ويضيقون عليه الحناق، لم يكن أمامه إلا العمل على الهرب، ويدوا أن الجنود كانوا يعجلونه حتى عن ذلك، فيقول ابن حجر إنه تدلى من القصر بعصامته^(١)، وخرج من المدينة قاصداً أعراب الجوار وهم من ذياب الهلالية، فقبض هؤلاء عليه وقتلوه هو وأخوه لدم كان قد أصابه فيهم^(٢)، فنال بذلك جزاءه على طمعه الذي دفعه إلى الثقة بعمو غادر مما جعل تلك الكارثة تحمل بيلده، في حين تمكن أخوان أخوان له من الهرب إلى الإسكندرية^(٣).

وتبني الإشارة في هذا المقام إلى اختلاف المصادر الإسلامية في تحديد السنة التي تمت فيها هذه الغزوة، إذ أن المقرئ يذكرها في حوادث سنة ٧٥٦هـ/١٣٥٥م^(٤)، ويؤيده في ذلك ابن أبي دينار^(٥)، والوزير السراج^(٦)، وحاجي خليفة^(٧)، الذين يجمعون أنها كانت في تلك السنة، وأما ابن حجر العسقلاني فيقول إنها كانت في سنة ٧٥٦هـ/١٣٥٥م أو سنة ٧٥٧هـ/١٣٥٦م^(٨)، في حين أن ابن خلدون يقول إنها كانت في سنة ٧٥٥هـ/١٣٥٤م دون تحديد اليوم والشهر^(٩)، ويؤيده في ذلك ابن الشماخ^(١٠) والمسكري^(١١) والنائب الأنصاري^(١٢)، بينما يذهب الزركشي في روايته إلى أبعد من ذلك فيحدد تاريخ تلك الحادثة بدقة فيقول إنها كانت في يوم العاشر من ربيع الآخر سنة ٧٥٥هـ/٧ أبريل سنة ١٣٥٤م^(١٣)، والأصح في رأينا

(١) ابن حجر العسقلاني: المصدر السابق ج ٢ ص ٦٥.

(٢) انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٦٩، الزركشي : المصدر السابق ص ٩٤، النائب الأنصاري المصدر السابق ص ١٦٧.

(٣) انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٦٩، النائب الأنصاري : المصدر السابق ص ١٦٧.

(٤) المقرئ : السلوك ج ٣ ق ١ ص ٢١.

(٥) ابن أبي دينار : المصدر السابق ص ١٤٩.

(٦) الوزير السراج : المصدر السابق ج ١ ق ٤ ص ١٠٦١.

(٧) حاجي خليفة : المصدر السابق ورقة ٥٢.

(٨) ابن حجر العسقلاني : المصدر السابق ج ٢ ص ٦٥.

(٩) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٦٨.

(١٠) ابن الشماخ : المصدر السابق ص ١٣٠.

(١١) محمد بن أحمد المسكري : المصدر السابق ورقة ٥٩.

(١٢) النائب الأنصاري : المصدر السابق ص ١٦٦.

(١٣) الزركشي : المصدر السابق ص ٩٤.

هو رواية ابن خلدون ومن قال بقوله؛ لأن ابن خلدون لم يكن معاصراً لتلك الحوادث فحسب، وإنما كان قد بدأ حياته السياسية أيضاً في بلاط السلطان الحفصي، فلا بد أن يكون قد اطلع عليها ووعاها جيداً وما دام الزركشي يتفق مع ابن خلدون في تحديد السنة، وعاش في عصر ليس بالبعيد عن تاريخ تلك الحادثة ومن عاصروها، فلا نستبعد أن تكون هذه الدقة منه صحيحة، وأما الروايات التي أوردت القول الآخر فكلها كتبت في عصر متأخر باستثناء رواية ابن حجر ورواية المقرئزي وهما من مؤرخي المشاركة، وللتوفيق بين قوليهما والرواية الأخرى نرجح أن الأخبار وصلت إلى مصر متأخرة عن زمنها الحقيقي فمسجلها المشاركة على أنها تمت حين علمهم بها. وعلى أية حال، فإن الجنوين نهبوا المدينة (واحتلوا في سفنهم ما وجدوا بها من الحرثي والمثاع والعقائل والأسرى)^(١) وأرسلوها إلى جنوة وأقاموا في المدينة.

وما يلاحظه الباحث في هذا المقام هو أن الروايات الإسلامية تنتقل بعد ذكر سيطرة الجنوين على المدينة إلى ذكر المفاوضات التي دارت بينهم وبين ابن مكّي دون التعرض للمقاومة الإسلامية، مع أن هذا الاحتلال دام مدة تزيد عن الأربعة أشهر، فهل استكان المسلمون لذلك الاحتلال ولم يحاولوا القيام بأي نوع من المقاومة لطرد الغزاة؟ إن معظم الروايات الإسلامية التي اطلعت عليها تصمت عن هذا الأمر، ولكن يمكن الاستشفاف من رواية الزركشي أنه كان هنالك ثمة محاولات لقتال الأعداء، فهو يقول في وصفه لخروج الجنوين من البلد : (وتركوها خالية خاوية والعرب في أثناء ذلك يردون من أراد قتالهم من المسلمين إلى أن داخلهم ابن مكّي)^(٢)، ويؤيد الوزير السراج هذه الرواية بقوله : (... والعرب في أثناء ذلك يردون من يقدم من المسلمين لفتحها إلى أن داخلهم ابن مكّي)^(٣)، والمستفاد من هذين النصين أنه كان هنالك محاولات من المسلمين لتحرير المدينة، ولكن موقف الأعراب السليبي من هذه المحاولات هو الذي حال دون أن تؤدي إلى نتيجة ملموسة. ولا ينبغي أن

(١) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٦٩، انظر كذلك الزركشي : المصدر السابق ص ٩٤، ابن

الشماع : المصدر السابق ص ١٣٠، ابن أبي دينار : المصدر السابق ص ١٤٩، الوزير السراج :

المصدر السابق ج ١ ق ٤ ص ١٠٦٢، النائب الأنصاري : المصدر السابق ص ١٦٧.

(٢) الزركشي : المصدر السابق ص ٩٤.

(٣) الوزير السراج : المصدر السابق ج ١ ق ٤ ص ١٠٦٢-١٠٦٣.

يفسر هذا الموقف منهم على أنه تعاون منهم مع الجنوئين، بل إن ذلك يعود إلى التنافر الذي كان بين الأعراب وأهل المدن سببهما القوضى والفساد اللذين عمّا إفريقية في ذلك الوقت فالأعراب يتحدثون على المدن، وأهل المدن يمتنعون هؤلاء من الدخول إلى مدنهم، حتى إنهم كانوا في أحيان كثيرة يمتنعونهم من الميرة، بل ويتنهبون أي فرصة تسع لهم ويفتكون بمن قدروا عليه ممن يدخل إلى مدنهم منهم، والأدلة على ذلك كثيرة لا يتسع المجال لذكرها، ولعل تحامل المؤرخين المعاصرين لتلك الفترة الواضح وكلهم من أهل المدن على الأعراب لدليل آخر على هذا النفور، ومع ذلك فإن هذا الأمر لا يعتبر مبرراً لهذا الموقف السلبي الذي وقفه الأعراب الذين إن صححت روايتنا الزركشي والوزير السراج أفضلوا محاولات التحرير.

وبقي الجنوئين في المدينة إلى أن دخل معهم أحمد بن مكى صاحب قابس في مفاوضات لإجلائهم عنها، فاشتراطوا عليه أن يدفع لهم خمسين ألف دينار ذهباً^(١) مقابل انمحابهم من المدينة، فأرسل ابن مكى إلى السلطان أبي عنان المريني (بطرفه بمثوتها)^(٢) بأن يبعث إليه هذا المبلغ، ولكن الجنوئين لم يرغبوا في الانتظار فصعدوا على ابن مكى في دفع المال، فقام المذكور بإخراج ماله منه واستوهب باقي المبلغ من أهل قابس والحامة وبلاد الجريد الذين جمعو له حسبة ورغبة في الخير، ودفعه للجنوئين فسلموه البلد وألقوا عائدين إلى بلادهم في يوم ١٢ شعبان سنة ٧٥٥هـ/٢٦ أغسطس سنة ١٣٥٤م بعد إقامة دامت حوالي خمسة أشهر^(٣)، وبعث أبو عنان بالمال لابن مكى بعد ذلك مع أبي عبد الله

(١) انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٦٩، ابن السمعاع : المصدر السابق ص ١٣٠، الزركشي : المصدر السابق ص ٩٤، محمد بن أحمد العسكري : المصدر السابق ورقة ٥٩، الثاب الأنصاري : المصدر السابق ص ١٦٧، ويجعلها خمسين ألف مثقال من الذهب، في حين أن ابن السمعاع قال خمسين ألف دينار وهو ما اعتمدناه في المكان في حين لم تعد الروايات الأخرى الوحيدة واكتفت بالقول من الذهب المعين.

(٢) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٦٩، انظر كذلك الزركشي : المصدر السابق ص ٩٤، المقرئ : السلوك ج ٣ ص ١ ص ٢١، العسكري : المصدر السابق ورقة ٥٩، الثاب الأنصاري : المصدر السابق ص ١١٧.

(٣) الزركشي : المصدر السابق ص ٩٤، وتجدر الإشارة إلى أنه ذكر أن هذه الإقامة دامت أربعة أشهر، ولما كان قد ذكر في روايته أن احتلال الجنوئين للبلد كان في ١٠ ربيع أول كما سبق ذكره، وخروجهم منها كان في ١٢ شعبان كما يقول في هذا الموضوع، فإن ذلك يعني أن هذه الإقامة=

بن مرزوق وأبي عبد الله محمد بن مبيد الناس وطلب منه أن يرد على الناس ما أعطوه
وينفرد هو بمشورتها وذكرها فامتنعوا إلا قليلاً منهم^(١) فوضع المال عند ابن مكي، ولعل ذلك
كان هو السبب الذي جعل المقريري يقول إن أبا عنان «اشتراه من الفرنج بمال كبير
وعمرها»^(٢) فكان ذلك نهاية حوادث هذا الهجوم الغادر.

والذي يستلفت النظر هو أن الجنوين بالرغم من احتلالهم للمدينة، فإنهم لم يتخذوها
قاعدة للتوسع، بل فاضوا ابن مكي على اقتدالها منهم بالمال مما يعيد إلى الذهن نتيجة الحملة
على المهدي سنة ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م حينما أخذوا عم وحلفاءهم فدية ضخمة من أميرها تميم
بن المعز وانسحبوا منها، فهل كان هدف الجنوين من هذه الغزوة هو الغنيمة فقط؟ أي أنها
كانت عملاً من أعمال القرصنة على مستوى أكبر من العادي، أم أن هدفها كان أكبر من
ذلك ولكن الظروف لم تنهياً لتحقيقه؟ وللإجابة على هذا التساؤل ينبغي أن نبحت في
إمكانات جترة وقدراتها، إنه مما لا ريب فيه أنها كانت تدرك أن إمكانياتها ولا سيما البشرية
لا تمكنها من الاستقرار والتمركز في طرابلس، وهي من باب أولى أعجز عن القيام بأي توسع
مستقبلي في إفريقية، إذن فما الذي دفعها إلى هذه المغامرة؟ إن ما نراه في هذا الموضوع أن
جنوة كانت تأمل في بيع هذا الانتصار لإحدى القوى الصليبية الكبرى التي تملك الإمكانيات
التي كانت تنقصها مقابل أن تفوز هي منها بامتيازات تجارية، أي وبعبارة أخرى أن تحصل هي
على المكاسب التي تبتغيها دون أن تتحمل عبء الحرب المتوقعة مع المسلمين، ولعل في النتيجة
التي آلت إليها الحملة على جربة فيما بعد والتي أسهمت فيها هي بأكبر نصيب وما أملت من
حملة لويس الثاني دي بوربون على المهدي كما سيأتي ذكره خير دليل على صحة هذا القول،
ولكن ظروف أوروبا الغربية في ذلك الوقت لم تساعد جنوة على الوصول إلى بغيتها،
فالقوتين الكبيرتين فرنسا وإنكلترا اشتبكنا وفي ذلك الوقت بالذات في معارك طاحنة في

= كانت حوالي خمسة أشهر وليس أربعة، وبذلك يتفق مع ابن الشماخ (ص ١٣٠)، وابن أبي دبنار
(ص ١٤٠)، والوزير السراج (ص ١٠٦١) الذين قالوا إنها كانت خمسة أشهر، وما نعتقد أن الخطأ
في احساب المدة جاء من النسخ، أما ابن خلدون والمقريري والمعسكري فلم يتعرضوا للذكر الملة.

(١) الزركشي: ص ٩٤ ابن خلدون: ج ٦ ص ٣٦٩.

(٢) المقريري: السلوك ج ٣ ق ١ ص ٢١.

إحدى مراحل حرب المائة عام، علاوة على أنهما كانتا تعانيتان وقتل من أزمات اقتصادية واجتماعية حادة خلفها وباء الموت الأسود^(١)، وينطبق نفس الأمر على مملكة أرغونة التي كان النزاع بينها وبين قشتالة محتدماً في تلك الآونة، فضلاً عن أن النزاع الذي كان قائماً بين أرغونة وجنوة على ملكية سردينيا وكورسيكا كان يفرض على الأخيرة التحفظ في عرض المدينة على أرغونة، وحيال هذه الظروف شعرت جنوة أنها ستغادر طرابلس إن أجلاً أو عاجلاً، فلا أقل إذن من أن تكسب القدية لا سيما وأن ظروفها لم تكن في حساباتها قد بدأت تستجد على ساحة إفريقية وهي تباشر الزحف المريني الثاني عليها إذ كان أبو عنان قد هاجم القسم الغربي من إفريقية واحتل بجاية^(٢) وأخذ يدعم نفوذه في تلك النواحي ويتأهب لمواصلة زحفه الأمر الذي قام به بعد تلك الحملة بفترة وجيزة كما سبق ذكره، فسيطرة أبي عنان على غرب إفريقية ليس في صالح الجنويين، إذ لو استمر في زحفه ووجد إفريقية فإنه سيوجه جهودهم نحوهم ويتترع طرابلس منهم، ولا نستبعد أن يكون أبو عنان قد فكر في ذلك بالفعل، الأمر الذي يفسر تأخره في إرسال المال إذ أنه لم يرسله إلا بعد رحيل الجنويين ولعل هؤلاء شعروا بذلك مما جعلهم يتعجلون ابن مكى في دفع القدية لهم، ومما يدعم هذا القول ما ذكره محمد بن أحمد العسكري حيث يقول : (ثم تعجلوا عليه - أي ابن مكى - لما خافوا من أبي عنان يزيهم)^(٣)، لذلك فإن النتيجة الظاهرة أخفت الأهداف الحقيقية للغزوة.

وثمة ملاحظة أخرى يلاحظها الباحث في هذا الموضوع هي لماذا طلب ابن مكى المال من السلطان المريني أبي عنان ولم يطلبه من السلطان الحفصي؟ وفي اعتقادنا أن ذلك الأمر يعود إلى العلاقة الطيبة التي كانت تربط ابن مكى بالمرينيين إلى حد أننا لن نكون مغالين إذا ما قلنا أنه كان رجلهم الممول عليه في إفريقية، بعكس ما كان عليه حاله مع الحفصيين حيث إن علاقته بهم كانت سيئة إلى حد العداء، وكانت هذه العلاقة السيئة بين الحفصيين وأسرة ابن مكى ليست بالأمر الجديد أو المستحدث، وإنما تعود إلى ما قبل ذلك بكثير، ذلك أن

(١) عن آثار وباء الموت الأسود على أوروبا، انظر د. سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ج ١ ص ٤٩٦ - ٤٩٧.

(٢) انظر الزركشي : المصدر السابق ص ٩٤، ابن التماخ : المصدر السابق ص ١٣٠.

(٣) محمد بن أحمد العسكري : المصدر السابق ورقة ٥٩.

أمرأ هذه الأسرة كانوا يطمحون إلى الاستقلال، ولذلك رأينا علي بن مكّي والد أحمد الأنف الذكر يناصر ابن أبي دُبوس في حركته كما سبق ذكره، وكان أحمد بن مكّي يحاول اغتنام أي فرصة لثقب عصا الطاعة على الحفصيين، ولذلك ما أن علم يعزم أبي الحسن المريني على الزحف على إفريقية حتى أسرع إليه على رأس وفد قسطنطينية وبلاد الجريد حيث لقيه بوهران وتقدم إليه بالبيعة، وحفظ أبو الحسن له هذا الجميل فقابلته هو وصحبه بالير والإكرام وعقد لهم على أمصارهم، وصرفهم إلى أعمالهم إلا ابن مكّي فإنه استصعبه ليكون عوناً له، وفي ذلك يقول ابن خلدون : (وتمسك بأحمد بن مكّي لصحابة ركا به وفي جملة)^(١)، وفعلًا كان خير عون له في إفريقية حتى إنه حينما دخل تونس وفر منها السلطان الحفصي أبو حفص، وأتبعه أبو الحسن بأعراب أولاد أبي الليل الذين لحقوا به وهزموه وقرت فلول جيشه بعد مقتله إلى قابس، قام عبد الملك بن مكّي رديف أخيه أحمد في حكم تلك المدينة بالقبض على أصحاب السلطان الحفصي المقتول مثل أبي القاسم بن عو شيوخ الموحدين وصديق ذلك السلطان، وصخر بن موسى شيخ بني مسكين زعيم قبيلة سديركش وغيرها وأرسلهم مقرنين في الأصفاد إلى أبي الحسن^(٢)، وظلت علاقة الود بين ابن مكّي والمرينيين قائمة حتى بعد رحيل أبي الحسن عن إفريقية حيث اتصلت بعد ذلك بينه وبين ابنه أبي عنان سلطان بني مرين الجديد، في حين ازدادت علاقته سوءاً بالسلطان الحفصي أذكتها الكراهية التي كانت مستحكمة بينه وبين ابن تراجين حاجب السلطان^(٣).

وعند هجوم الجنوئين على طرابلس كان أبو عنان قد بدأ يعد العدة لزحفه على إفريقية كما سبق ذكره، ولا بد أن ابن مكّي كان يدرك عزم أبي عنان، فهو بذلك اتصل بالسلطان الذي يدين له بالولاء من ناحية، ثم إنه أراد تخليص إفريقية من هذا الخطر لتكون خالصة لأبي عنان من ناحية ثانية وهو في غضون ذلك يحقق مطامعه في تأسيس ولاية كبيرة بضم طرابلس ونواحيها إلى ولايته من ناحية ثالثة. وقد تم له ما أراد فقد ضمها أبو عنان إليه وعقد

(١) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٧ ص ٣٧٢.

(٢) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٧ ص ٣٦٩.

(٣) انظر عن ذلك ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٧٤.

له عليها في حين عقد لأخيه عبد الملك بن مكي على قابس^(١)، فانتقل أحمد إثر ذلك إلى طرابلس واتخذها مقراً لإماراته وبذلك خلع معظم شرق إفريقية لأخي عنان في حين أنه كان قد بسط نفوذه على معظم قسمها الغربي ولم يبق منها خارجاً عن طاعته إلا وسطها وجنوبها اللذان سيحاول بسط نفوذه عليهما بعد ذلك بثلاث سنوات أي في سنة ٧٥٨هـ/١٣٥٧م.

وهناك ملاحظة ثالثة حول هذا الموضوع، تتعلق بموقف السلطان أبي إسحق إبراهيم من هذه الغزوة والدوافع التي جعلته يتخذ موقفاً سلبياً منها. لقد سبق أن أشرنا إلى أن هذا السلطان كان صغير السن الأمر الذي جعل حاجبه الداهية ابن تفرجين يستبد بالأمور دونه حتى كانت حاله معه أشبه ما يكون بالهجوم عليه، وكانت الأمور قد اضطربت على هذا السلطان إلى حد كبير، فالفتن الداخلية كانت لا تزال محتدمة، والخطر المريني كان قد بدأ يهدده، وبالإضافة إلى ذلك أصيبت إفريقية في ذلك العام بالقحط الأمر الذي كان يهدد بتفشي المجاعة فيها، وما يصاحب المجاعة من تفشي الأمراض والأوبئة، فارتفعت أسعار المواد الغذائية في تونس على وجه الخصوص ارتفاعاً كبيراً، وفي ذلك يقول الزركشي: (وفي سنة خمس وخمسين ارتفع سعر الطعام بتونس إلى أن بلغ سعر القفيز من التميم أحد عشر ديناراً ذهباً والشعير إلى النصف من ذلك)^(٢). وحيال هذه الظروف عجز السلطان عن بذل أي مجهود مجدي لإنقاذ طرابلس، ومع ذلك فإن أي حكم منصف لا يعفيه من المسؤولية، وكان الواجب يحتم عليه أن يحاول بأقصى ما يستطيع للتصدي للغزاة سيما وأن مسلحي إفريقية على اختلاف ميولهم كانوا على استعداد لدعم أي محاولة جديّة يقوم بها لتحرير المدينة، بذل على ذلك للموقف النبيل الذي وقفه أهل قابس والحامة وبلاد المهرّد حينما دفعوا أموالهم عن طيب خاطر لابن مكي - وهو ما طلب منهم - من أجل اقتدائها، ورفضوا إلا القليل منهم أن يستردوا ما دفعوه جاعلين ما أنفقوه هو في سبيل الله، فكان على هذا السلطان أن يحاول بدلاً من موقف اللامبالاة الذي اتخذه، ولا يعفيه أن طرابلس كانت آنذاك خارجة عليه من هذه المسؤولية أيضاً، ذلك أن خروج وال على سلطانه لا يعطي ذلك السلطان المبرر لجعل جزء من بلاده طعمة للأعداء، يحتلونها ويقتلون

(١) الزركشي: المصدر السابق ص ٩٥.

(٢) الزركشي: المصدر السابق ص ٩٥.

ويأسرون من أهلها كيفما شاؤوا ثم يهبطونها، وأما ابن مكي فكان الأجدر به أن يحررها بعد
سيفه كما يليق بالمسلم الحق أن يفعل بدلاً من شرائها من العدو بالمال.

وعلى أية حال، فقد شهد الصراع الإسلامي الصليبي في جبهة إفريقية بعد هذه الغزوة خزة
من الهدوء النسبي لم يعكره إلا بعض أعمال القرصنة^(١) كان أهمها الهجوم على الحمامات سنة
٧٦٠هـ / ١٣٥٩م حيث تمكن المهاجمون من احتلالها ونهبها، وأقاموا بها يومين ينقلون ما وجدوه
فيها إلى سفنهم ثم انصرفوا عنها^(٢)، ثم توتر العلاقات مع أرغونة من جديد منذ اعتلاء السلطان أبي
العابس أحمد المستنصر العرش الحفصي كما سيأتي ذكره، وقد دامت فترة الهدوء هذه حتى سنة
٧٩٠هـ / ١٣٨٨م حينما وجهت إلى إفريقية حملة صليبية جديدة استهدفت جزيرة جربة.

حملة جنوة وعلقاتها على جربة:

حدثت في إفريقية خلال تلك الفترة تطورات هامة، فقد توفي السلطان الضعيف أبو
إسحق إبراهيم في ٢٠ رجب سنة ٧٧٠هـ / ١٩ فبراير سنة ١٣٦٩م، ولم يتمكن ابنه وولي
عهد الطفل أبو البقاء خالد الذي تولى الحكم من بعده من الوقوف في وجه ابن عمه القوي
أمير القسم الغربي من إفريقية أبي العباس أحمد الذي زحف على تونس، فكان أن فر هو
ووزرؤه منها، فدخلها أبو العباس واعتلى سدة السلطنة في ١٨ ربيع الآخر سنة ٧٧٢هـ /
نوفمبر ١٣٧٠م حيث اتبع السلطان الهارب بعض جنده فقبضوا عليه، فسيره أبو العباس في
البحر متجاً إلى المغرب ففرقت السفينة به في الطريق^(٣)، وبذلك خلص العرش الحفصي لأبي
العباس الذي بدخوله تونس أعاد وحدة إفريقية من جديد. كان أبو العباس أحزم وأقوى حاكم
اعتلى العرش الحفصي بعد المستنصر الأول، وبتوليته انتهى عصر الفتنة والفوضى في إفريقية

(١) عن ذلك انظر على ميسيل المثال ابن الحاج: المصدر السابق ورقة ١٩٥-١٩٦.

(٢) Maximiliano A. Alaracon : Op. Cit., P. 324-5.

(٣) انظر ابن الشماخ : المصدر السابق ص ١٣٣، الوزير السراج : المصدر السابق ج ١ ص ١٠٦٢.

(٣) لمزيد من التفصيل عن هذه الحوادث ، انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٨١ وما
بعدها، ابن القنفذ : المصدر السابق ص ١٧٧ وما بعدها، الزركشي : المصدر السابق ص ١٠٦ وما
بعدها، ابن الشماخ : المصدر السابق ص ١٣٦ وما بعدها، ابن أبي دينار : المصدر السابق ص ١٥٠
وما بعدها
R. Brunschvig : Op. Cit., Tom. I, P. 185-7.

الذي دام حوالي القرن، ذلك أنه كان علاوة على حزمه يتمتع بكفاءة إدارية عالية إلى جانب تسامح كبير حتى معه أعدائه، مما جعل الرعية تحبه وتلتف من حوله، وتفسح له المجال لتحقيق طموحاته في تخليص إفريقيا من العلل التي كانت تنخر فيها، وقد اختار جهازاً إدارياً ممتازاً على رأسه أخوه أبو يحيى زكريا، فكان هذا الجهاز خير معين له في كافة أمور، فاستطاع أن يسير به دفة الحكم وينظم مملكته، الأمر الذي جعله يعتبر المجدد للدولة الحفصية وباعث الحياة فيها، مما جعل المؤرخين المسلمين في المغرب والمشرق على حد سواء يقرضونه في كتاباتهم^(١).

كانت سياسة أبي العباس الداخلية تدور حول محورين رئيسيين هما القضاء على الفساد والوفى وتوفير الأمان والاطمئنان لرعيته، ثم القضاء على النزعة الانفصالية لدى بعض الولاة وحكام الأقاليم، وقد قضى جل عهده يعمل على تحقيق ذلك، فبالنسبة للناحية الأولى اصطدم منذ البداية مع الأعراب الذين بدؤوا في الشغب عليه لأنه حرّمهم من امتيازاتهم وانتزع ما بأيديهم من النواحي وكفهم عن الاستبداد، فكانت له معهم وقائع كثيرة حتى لانت له عريكتهم^(٢)، وكما نجح في هذا المضمار إلى حد بعيد، نجح في القضاء على النزعات الانفصالية مثل حركة ابن ملول في الزاب، وأبناء مكى في قابس وطرابلس^(٣) وسواهم. وأما سياسته الخارجية فقد اتسمت هي الأخرى بالحزم واتباع أسلوب المعاملة بالمثل، فقد قطع

(١) انظر بالنسبة لمؤرخي المغرب، ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٨١، ابن القنفذ : المصدر السابق ص ١٧٧، ابن الشماخ : المصدر السابق ص ١٣٩، الزركشي : المصدر السابق ص ١٠٦ ، ومن فرضه من مؤرخي المشرق شهاب الدين بن حبيب الحلبي حيث يقول : (كان فيما يحكى عنه ملكاً مهيباً، فأنعم للخير أبواباً، عارفاً بتدبير مصالحه وممالكه ومصالحها، صارفاً همه إلى ما يرضي الله عز وجل والناس في غادي الأيام ورالحها. كثير المكارم لقوي الاستحقاق، غزير العلم والأدب والإفراد مسجهداً في قمع أعداء الدين، محمداً على الله في عمل مصالح المسلمين، ولا زال ماشياً على هذا النهج القويم، إلى أن استمرته المنية ودخل في مغفرة الرب الرحيم).

شهاب الدين بن حبيب الحلبي : درة الأسلاك في دولة الأتراك ج ٣، مخطوط أكسفورد رقم DCCXXXIX ورقة ٢٩١.

وقد أنشد العلامة الإسكندر بن بدر الدين الدماميني بخصاله في قصيدة بديعة مدحه بها وأرسلها إليه فأجازه عليها. (انظر عن ذلك ابن أبي دinar : المصدر السابق ص ١٥٢).

(٢) لمزيد من التفصيل انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٨٢ وما بعدها، الزركشي : المصدر السابق ص ١٠٧ وما بعدها.

(٣) انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٩٦، الزركشي : المصدر السابق ص ١٠٧.

الأتاوة التي كان يدفعها سلفه للملكي صقلية وأرغونة^(١)، الأمر الذي خلق توتراً في العلاقات بين الجانبين، كما نشط غزاة البحر المسلمين منذ بداية عهده في الرد على أعمال القرصنة ضد إفريقية، فأعلنوا يهاجمون بسفنهم الخفيفة سفن القرصنة النصارى والسفن التجارية الأوروبية على حد سواء حتى طهروا بحر إفريقية من هؤلاء القراصنة فلم تعد تجد ذكراً لحوادث قرصنة ضد إفريقية في المصادر التاريخية منذ أوائل الربع الأخير من القرن الرابع عشر، ويبدو أن أبا العباس حاول في بداية الأمر فرض السيطرة على هؤلاء، إما التزاماً من جانبه بالمعاهدات المعقودة بينه وبين بعض الدول المسيحية لتثبيط التجارة الخارجية التي توفر لرعيته مزيداً من الرخاء، أو ليسهل عليه توجيهها الوجهة التي تتلهم مع سياسته تجاه تلك الدول. ولم يصل الأمر بينه وبينهم إلى حد الخلاف، بل توصل إلى اتفاق معهم تقوم الدولة بموجبه بحمايتهم^(٢) في حالة تعرضهم لخطر أكبر من إمكانياتهم مقابل ما كانوا يؤدونه لها من خدمات وما يدفعونه لخزنتها من أموال هي خمس الغنائم، ولهذا تفاضى عن نشاطهم إن لم يكن قد شجعهم، نظراً للعبء الذي أراحوه عن كاهله في الدفاع عن سواحل إفريقية فضلاً عما تقدم، وتصامم عن شكاوى النصارى من هؤلاء الغزاة كما كان ملوكهم يضمنون آذانهم في السابق عن شكاوى السلاطين الحفصيين من اعتداءات قرصنة رعاياهم، وفي ذلك يقول ابن خلدون : (وصرخوا على البعد بالشكوى إلى السلطان بإفريقية فصمم عن سماعها)^(٣)، ونتيجة لذلك ازداد نشاطهم كما سبق ذكره زيادة كبيرة، فامتدوا من موانئ إفريقية لا سيما المهدية وبجاية مراكز لعملياتهم، وتجدد الإشارة هنا إلى أن بداية نشاط غزاة البحر المسلمين الأفارقة، لم تكن إلّا ردّاً على نشاط القرصنة النصارى، أو بعبارة أخرى نوعاً من الحرب الوقائية وليس العكس كما تزعم العديد من المراجع الغربية^(٤)، ذلك أن إفريقية تعرضت مدة قرن لهجمات القرصنة النصارى إبان عصر الفوضى دون أن يكون لديها القدرة على الدفاع عن نفسها، ولم يكف هؤلاء القراصنة عن التعدي عليها إلّا حينما بدأ نشاط غزاة البحر المسلمين في عهد

R. Brunschvig : Op. Cit., Tom, I, P. 192.

(١)

(٢) د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ص ١٤٢.

(٣) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٤٠٠.

(٤) انظر على سبيل المثال : شاخت وبوزورث : المرجع السابق ق ١ ص ٣٣٢.

R. Brunschvig : Op. Cit., Tom. I, P. 196.

أبي العباس، والمراجع الأوروبية تحاول بهذا الزعم خلق المبرر للحملات الصليبية التي وجهت لإفريقية في أواخر القرن الرابع عشر، صرفاً للأذهان عن الدافع الحقيقي لتلك الحملات. وعلى كل حال فإن غزاة البحر المسلمين الذين اختلطت في أذهان البعض منهم فكرة الجهاد بالقرصنة أخذوا يتجرؤون ويهاجمون جزر غرب البحر الأبيض المتوسط وشواطئ جنوب غرب أوروبا ويعودون وقد امتلأت أيديهم بالغنائم والأسرى، حتى أثاروا فيها الرعب. وأصبحت بجاية بصفة خاصة والتي تولى القيادة في بحرها أبو عبد الله محمد بن أبي مهدي متولي دار الصناعة فيها^(١) والذي كان يساند غزاة البحر من أهلها، أصبحت أكبر مركز لبيع الرقيق في المغرب العربي بأسره، نظراً لأن أهلها كانوا أمبق من غيرهم من مسلمي إفريقية في الغزو في البحر؛ يقول ابن خلدون في ذلك : (... قمت عزائم كثيرة من المسلمين بسواحل إفريقية لغزو بلادهم - أي الفرغ - وشرع في ذلك أهل بجاية منذ ثلاثين سنة فيجتمع الغير والطائفة من غزاة البحر ويصطنعون الأسطول ويتخيرون له أبطال الرجال ثم يركبونه إلى سواحل الفرجة جزائريهم على حين غفلة فيتخطفون منها ما قدروا عليه ويصادمون ما يلقون من أساطيل الكفرة فيظفرون بها غالباً ويعودون بالغنائم والسبي والأسرى حتى امتلأت سواحل الغور الغربية من بجاية بأسراهم تضح طرق البلاد بضجة السلاسل والأغلال عندما يتشرون في حاجاتهم ويقالون في فدايتهم بما يتعذر منه أو يكاد، فشق ذلك على أم الفرجة وملأ قلوبهم ذلاً وحسرة وعجزوا عن الثأرة به)^(٢).

وتبعاً لذلك، فقد جرّت عليه هذه المياسة الحازمة مع الدول المسيحية نقمة تلك الدول، إذ كان لا يرضيها بطبيعة الحال أن تأخذ إفريقية بأي نوع من أسباب القوة، بل تعمل دائماً على الإبقاء عليها ضعيفة ومزقة ليسهل احتلالها، فخلق ذلك توتراً في العلاقات بين أبي العباس وبعض تلك الدول في حين ظلت قوى مسيحية أخرى تحفظ بعلاقات طيبة مع الدولة الخفصية كالبندقية مثلاً. وكانت أرغونة التي لم تنس أطماعها في إفريقية ولم تكف عن السعي لتحقيق تلك الأطماع إلا مرغمة، هي أول القوى الصليبية التي توترت علاقاتها مع

(١) ابن النفق: المصدر السابق من ١٨٦، انظر كذلك :

R.Brunschvig : Op. Cit., Tom, I, P. 196.

(٢) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ من ٣٩٩ - ٤٠٠.

إفريقية، ويدو أن عدم خضوع أبي العباس لدفع الأتاوة السنوية للخزينة الصقلية كان له أثر مباشر على هذا التوتر، ولذلك ما أن انتهت الحرب بينها وبين قشتالة وعقدت معاهدة الصلح بينهما حتى وجد ملكها بيدرو الرابع نفسه مطلق اليدين لاستئناف نشاطه العدواني ضد إفريقية، فوجه جهوده بلهفة وإصرار إلى جزر البحر الأبيض المتوسط التي تقربه منها مثل سردينيا وكورسيكا وصقلية التي نظراً لانشغاله في الحرب ضد قشتالة تراخت قبضته عنها، فكانت جنوة التي تنازع ملكية كورسيكا وسردينيا قد بسطت نفوذها على القسم الأكبر منهما، كما كانت قد ظهرت مقاومة ضد أرغونة في صقلية، ولذلك باشر في وضع الخطط لإعادة هيئته على هذه الجزر ثم في الاستعداد لتوجيه حملة صليبية إلى إفريقية لنشر المعتقد المسيحي كما كان يقول، حتى إنه في ٢٦ يونيو سنة ١٣٧٣م/ ٧٧٥هـ سمي مسبقاً (Pierre Saula) ليكون حاكماً عاماً على إفريقية عندما يتم استيلاؤه عليها^(١)، عاقداً الآمال لإحراز المكاسب التي كان يتناها بعد تصيب الحاكم الجديد في مناطق ما وراء البحر، ومع أنه أحرز نجاحاً إلى حد ما في القسم المتعلق بسط نفوذه على الجزر الآتفة الذكر^(٢) من خططه، إلا أنه أخفق في القسم المتعلق باستيلائه على إفريقية من تلك الخطط، ذلك أنه بالرغم من أن أرغونة اتفقت مع بيزا^(٣) على شن هجوم مشترك على إفريقية حيث قامت قوة بحرية من أسطوليهما بالإغارة في سنة ١٣٧٩م على بعض نواحيها وتسببت في بعض الخسائر^(٤)، إلا أن تلك القوة اضطرت للانسحاب والعودة من حيث أتت نتيجة للمقاومة الشديدة التي وجهت بها، وفي سنة ٧٨٨هـ / ١٣٨٦م كان بيدرو لا يزال يحلم بالاستيلاء على إفريقية، إلا أن وفاته المفاجئة في ٤ يناير سنة ١٣٨٧م / ٧٨٨هـ بعد حكم دام نصف قرن وضعت حداً لأطماعه، وأعقب

R, Brunschvig : Op. Cit., Tom I, P. 197.

(١) انظر :

R, Brunschvig : Ibid, Tom I, P. 196-7.

(٢) لمزيد من التفصيل انظر :

(٣) كان ليزا مصالح تجارية في إفريقية تحاول المحافظة عليها بالمعاهدات التجارية تارة، كما أنها لم تكن تمنع في الاشتراك في عمل عسكري مع أي من القوى الأخرى ضدها تارة أخرى، فبالنسبة للناحية الأولى في تلك الفترة أرسلت سفارة إلى إفريقية في ١١ سبتمبر ١٣٧٨ ترأسها (Rainier Bulfia de Gualandi) لمعقد معاهدة تجارية مع السلطان للاتجار مع تونس وبونة وبجاية، وفي العام التالي ١٣٧٩م اشتركت مع أرغونة في قمع هذا الهجوم، ثم بالرغم من أنها كانت على عداء مع جنوة لتنازعهما على سردينيا إلا أنها شاركت في الحملة على جربة سنة ٧٩٠هـ/ ١٣٨٨م كما سيأتي ذكره.

R. Brunschvig : Ibid, Tom I, P. 197.

(٤) انظر :

وفاته تغير جلبري في سياسة أرغونة الخارجية إذ كان ابنه جان الأول (Jean I) وخليفته في العرش مسالماً، وعلى الرغم من أن المصادر التاريخية لا تسعنا بمعلومات كثيرة عن علاقة هذا الملك بإفريقية إلا أنها على الأرجح لم تكن علاقة عدواة واضحة نظراً لطبيعته المسالمة^(١).

وكما توترت العلاقات بين إفريقية وأرغونة في هذه الفترة، كذلك فإن نشاط غزاة البحر المسلمين في إقليم بروفانس بجنوب فرنسا أقلق مدينة مرسيليا، وتكشف مناقشات المجلس البلدي لتلك المدينة عن مدى ما سببه ذلك النشاط من خوف وقلق لدى أهلها خاصة وأهالي بروفانس عامة، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل إنها تطرقت إلى البحث عن الوسائل التي من المفروض أن تتخذ للتصدي لغزاة البحر المسلمين، حيث قرر ذلك المجلس وضع حراسة في الموقع البحرية وتعزيز مدخل ميناء المدينة بحراسة شديدة ثم تسليم مراكب حربية للتصدي لهم في عرض البحر وملاحقتهم، وعلاوة على ذلك كشفت تلك المناقشات عن اهتمام المجلس بالبحث في الطرق الكفيلة باسترجاع الأمري من مواطني المدينة من إفريقية^(٢)، وبذلك تلقى هذه المناقشات الضوء على ناحية هامة هي أن علاقات الدولة الحفصية بفرنسا كان يسببها التوتر في تلك الفترة، فكانت هي الأخرى تفكر في القيام بعمل ما ضد إفريقية، وقد يرى البعض أنه لم يكن هنالك ثمة مبرر لهجمات غزاة البحر المسلمين على بروفانس حيث إن علاقة مرسيليا بإفريقية لم تكن تتمتع العلاقات التجارية، ولكن الحقيقة هي غير ذلك، صحيح أن المصادر التاريخية لم تتطرق لذكر فيما إذا كان هنالك نشاطات عدوانية من مرسيليا ضد إفريقية، ولكن الصحيح أيضاً أن قراصنة كل من أرغونة وميورقة وجنوة وصقلية الذين كانوا يحتلون على إفريقية وجدوا من مرسيليا كل مساعدة وعون، فكانت أبوابها مفتوحة لهم للتزود منها وبيع غنائمهم في سرقها، وهو أمر لم يكن يخفى على غزاة البحر المسلمين، فكانت هذه السياسة الخازمة التي انتهجها أبو العباس تجاه الدول المسيحية هي السبب في إثارة تلك الدول عليه.

وعلى أية حال، فإن جنوة التي شعرت بأنها أكثر هذه الدول تضرراً من نشاط غزاة البحر للمسلمين في تلك الآونة، نظراً لأن إفريقية خاصة والمغرب العربي عامة أصبح الشريان الأهم

R. Brunschvig : Ibid, Tom I, P. 197.

(١) انظر :

R. Brunschvig : Op. Cit., Tom I, P. 196.

(٢) انظر :

لنشاطها التجاري بعد أن تضاعف هذا النشاط في المشرق لصالح البندقية إلى حد كبير، أخذت تفكر في وضع حد لنشاط هؤلاء الغزاة الذي بات يهدد مصالحها تهديداً خطيراً. ولكن الظروف الحرجة التي كانت تمر بها في تلك الفترة حالت دون قيامها بعمل عسكري ضد إفريقية يوقف هذا التهديد. ذلك أن الصراع بينها وبين البندقية قد تجدد في سنة ١٣٧٨م، وكانت هزيمتها أمام البندقية في معركة كيوجا (Ghioggia) سنة ١٣٨٠م كارثة عليها، إذ فقدت فيها معظم أسطولها وزهرة شبابها^(١)، الأمر الذي جعل تلك المعركة نقطة تحول في تاريخ جنوة من القوة والازدهار إلى بداية عهد الضعف والانحلال. وزاد الطين بلة تفجر الفتن والمشاكل الداخلية فيها، والتي سببتها الحزبية والنزاع بين العائلات النبيلة فيها إلى جانب البغض والكراهية التي كان عامة الشعب من فلاحين وعمال وبحارة يكونانها للنبلاء الذين كانوا يسيطرون على الأرض ورؤوس الأموال ويستغلون الفئات المذكورة أبشع استغلال^(٢)، حتى تطور هذا الوضع إلى انقسام أهل جنوة إلى معسكرين متعارضين، يضاف إلى ذلك ما سببه الانشقاق الديني الكبير فيها من تمزق إذ وجد كل من بابا روما وبابا أفينيون فريقاً يناصره من أهل المدينة، فضلاً عن نزاعها مع أرغونة الذي أججته طموحات بيدرو الرابع كما سبق ذكره، ثم أخيراً وليس آخراً الخطر الذي أخذ يهدد حدودها الشمالية من قبل دوق ميلان جان جالياتزو فيسكونتي (Gian Galeazzo Visconti) الذي بعد أن فرض سيطرته على إقليم لومبارديا بأسره أخذ يتطلع إلى جنوة بعين طامعة^(٣).

لكل ذلك بدت جنوة عاجزة عن اللجوء إلى القوة العسكرية لضرب المسلمين في إفريقية، فلجأت إلى أسلوب ملاينة السلطان الحفصي ريثما تنهيا لها فرصة أفضل، فأرسلت سفيرا فرديريك ليكافيلو إلى تونس والذي تمكن في ١٦ أغسطس سنة ١٣٨٣م من عقد معاهدة مع محمد بن أبي هلال ممثل أبي العباس^(٤) تتضمن بنودها إلى جانب الأمور التجارية

(١) لمزيد من التفصيل عن هذه الحروب انظر فيشر: المرجع السابق ق ٢ ص ٤٢٥، ص ٤٣١ كذلك محمد عوني يس: حملة لويس البوربونى على المهدية، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية ص ٦٨.

(٢) لمزيد من التفصيل عن ذلك انظر:

Agostino Guistiniani: Annali Della Repubblica di Genova, V. II, P. 160-70.

(٣) محمد عوني يس: المرجع السابق ص ٦٨. وكذلك Leon Mirot: Le Siege De Mahdia, P.9

R. Brunschvig: Op. Cit., Tom, I, P. 197.

(٤) انظر:

عقد السلام بين الجانبين. ولكن هذه المعاهدة وإن كفت غزاة البحر المسلمين عن أراضي جنوة ومنفعتها إلى حد كبير، إلا أنها لم توقف نشاطهم ضد الدول الأخرى، بل زاد خطرهم على حركة التجارة في غرب البحر الأبيض المتوسط، الأمر الذي جعل جنوة صاحب أكبر نصيب في تجارة تلك المنطقة تشعر بأن هذا الخطر لا زال يهدد مصالحها، وحفزها بالتالي على وقف ذلك النشاط بالقوة العسكرية. وهنا التقت مصالحها بمصالح مملكة صقلية التي كانت قد ورثت طموحات بيدرو الرابع في إفريقية بعد أن لمست عزوف ابنه وخليفته جان الأول عن تلك الطموحات وميله للسلام، فأخذت تفكر هي الأخرى في توجيه حملة صليبية ضدها في تلك الآونة، وتبعاً لذلك جرت الاتصالات بينها وبين جنوة للتنسيق بينهما وإعداد حملة من قوات مشتركة لتوجيهها إلى إفريقية، وقد حظيت هذه الفكرة بتأييد وتشجيع كبير من البابا أوربان السادس (١٣٧٨-١٣٩٠م) بابا روما^(١)، فدعا أنصاره لمساندتها الأمر الذي رفع هذه الحملة إلى مستوى الحملات الصليبية، ولم تلبث أن دخلت بيزا شريكاً ثانياً في هذا المشروع، ولم تكن جنوة بذلك بل إنها دعت البندقية علنوها للدودة للمشاركة في الحملة المرتقبة والتي وافقت مبدئياً في سنة ١٣٨٨م على ذلك، ووعدت بالإسهام فيها بخمس قطع حرية من أسطولها^(٢)، وبناءً على ذلك الاتفاق تم إعداد هذه الحملة، فاشتركت جنوة فيها بالثني عشرة قطعة حرية قادها رفايل أدورنو (Raphael Adorno) شقيق الدوج أدورنو، وأسهمت بيزا بخمس قطع قادها فرانسيس أورلاندي (Francois Orlandi)، أما البندقية فعادت وسحبت وعددها ولم تشارك في تلك الحملة، وأما صقلية فإنها اشتركت بثلاث قطع. وأسندت القيادة العامة لهذا الأسطول إلى مانفرد دي كيرمونت (Manfredo di Chiara monte) قائد أسطول صقلية. وفي أوائل صيف سنة ٧٩٠هـ / ١٣٨٨م تجمع هذا الأسطول في صقلية حيث تم الاتفاق على اختيار جزيرة جربة لتكون هدفاً له^(٣)، يقول المؤرخ الجنوي أوبرتي فوليتاي (Uberti Folietae) في كتابه المسمى (Patricii Genvensis Historiae)

R.Brunschvig : Op. Cit., Tom.I, P. 198.

(١) انظر :

R.Brunschvig : Op. Cit., Tom.I, P. 197.

(٢) انظر :

R.Brunschvig : Ibid, Tom I.P. 1978.

(٣)

انظر أيضاً حاجي خليفة : المصادر السابق ورقة ٥٤.

(Genvensium) عن هذا الموضوع بأن رافائيل دي كيرمونت (Rafaello di Ghiaramonte) حاكم صقلية من قبل ملكها ماري أسند إلى أخيه مانفرد قيادة الحملة التي وجهت ضد سلطان تونس والمكونة (من اثنتي عشرة سفينة حربية جنوبية كبيرة تضم كل واحدة منها ثلاث مجموعات من المجدفين، بالإضافة إلى ثلاث سفن كبيرة من صقلية، وخمسن من بيزا، وقد اتجهت إلى شاطئ إفريقية . . .)^(١). وفي يوم ١٨ إبريل سنة ١٣٨٨م/ رجب سنة ٧٩٠هـ أقلع هذا الأسطول متجهاً إلى جربة الهدف الأول لكل من كان يطمع في إفريقية.

كانت جربة منذ أن استخلصها القائد مخلوف بن الكعاد من الأرغونيين سنة ٧٣٨هـ/ ١٣٣٧م كما سبق ذكره قد ترددت بين الاستقلال والتبعية للسلطان، فبعد طرد الأرغونيين منها استضافها أحمد بن مكّي صاحب قابس إلى عمله فأضيفت له، ولكن نظراً لزعته الاستقلالية ولأنه سار في أهل الجزيرة سيرة سيعة الأمر الذي جعلهم يشكونه إلى الحاجب ابن تفرجين والذي كان الخلاف محتدماً بينه وبين ابن مكّي^(٢)، أرسل إليها حملة عسكرية سنة ٧٦٣هـ / ١٣٦١م بقيادة ابنه محمد، وكان ابن مكّي غالباً عنها في طرابلس منذ أن تسلمها من الجنويين، وقد تمكنت هذه الحملة من طرد أتباع ابن مكّي وأخذ الجزيرة، فاستعمل عليها محمد بن الحاجب بن تفرجين، كاتبه محمد بن أبي القاسم بن أبي العيون الذي ظل والياً عليها حتى وفاة الحاجب بن تفرجين سنة ٧٦٦هـ/ ١٣٦٥م، ثم استقل بها عن السلطان بعد أن داخل شيوخها من الوهبة والنكارة، مقلداً في هذا الاستقلال جيرانه الحكام في قابس وطرابلس والجريد، ولم يكشف بذلك الاستقلال بل شرع بدخول أولئك الحكام لتكوين جبهة موحدة تنأى السلطان الجديد أبا العباس. لذلك حينما خرج أبو العباس لإغصاع الساحل في سنة ٧٧٤هـ/ ١٣٧٣م أرسل إلى جربة ابنه أبا بكر على رأس جيش كبير يدعمه الأسطول، فنزل بالجزيرة، فلما ابن أبي العيون بحصن القشتيل محاولاً الامتناع به ولكن أبا بكر حاصره حتى تمكن من اقتحامه على ابن أبي العيون ونقله إلى تونس، حيث أودع السجن بعد التشهير به، فبقي فيه حتى وفاته سنة ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م^(٣).

(١) انظر محمد عوني بس : المرجع السابق ، ملحق رقم ١، ص ٢٤٣.

(٢) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٧٤.

(٣) انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٨٥-٣٨٦، وكذلك .

وبذلك عادت جربة إلى حظيرة الدولة الحفصية. وظلت كذلك يتعاقب عليها ولاية السلطان أبي العباس، إلى أن هاجمتها جنوة وحلفاءها سنة ٥٧٩٠هـ/١٢٨٨م.

وصل الأسطول الصليبي الآنف الذكر إلى مياه جربة بعد بضعة أيام من إقلاعه، وتمكن من مباغته أهلها، فنزل الصليبيون إلى البر وأعملوا السيف في المسلمين، وبعد أن رزوا ظمأهم الوحشي من الدماء بدأت عملية النهب والأسر والسبي المعهودة منهم في مثل هذه الحالة، فنهبوا كل ما وصلت أيديهم إليه، ونقلوا غنائمهم وأسراهم إلى سفنهم حتى امتلأت بها حيث أرسلوها إلى مواطنهم، وبقيت فئة منهم في الجزيرة بقيادة مانفرد دي كيرمونت كحامية لها والذي سرعان ما أعلن ضمها إلى مملكة صقلية، وبارك البابا أوربان السادس هذا الاحتلال، وأتبع هذه الممارسة بتعيين مانفرد حاكماً عليها وعلى كافة الجزر الأخرى في خليج قابس^(١)، والتي لم تكن قد احتلت بعد، الأمر الذي يؤكد المغزى الصليبي لهذه الحملة بعكس ما تزعمه العديد من المراجع الغربية بأن هذا الهجوم لم يكن إلا رد فعل لنشاط غزاة البحر المسلمين دون أن يحمل في طياته أي طابع صليبي^(٢). وقد جنت جنوة صاحبة أكبر قوة في هذه الحملة فوائد كبيرة، فقد حازت على أكبر قسم من الغنائم من ناحية، ثم إنها حصلت من مانفرد على مبلغ ستة وثلاثين ألف فلورين ذهبي مقابل أتعابها وتخليها عن الجزيرة^(٣)، والأهم من هذا وذاك هو أنها ساعدت في إقامة حكومة صديقة لها في الجزيرة تعترف لها بالجميل بحيث ستحافظ لها هذه الحكومة على مصالحها، دون أن تتحمل هي أي عبء في الدفاع عنها.

ولكن ما موقف السلطان الحفصي من هذا الهجوم؟ الحقيقة أن أبا العباس فوجئ بهذا الهجوم المباغت، فلم يكن بطبيعة الحال قد أعد العدة لمواجهة، ولم يتمكن عامله على الجزيرة

(١) انظر : R. Brunschvig : Op. Cit., Tom I, P. 198., A. S. Atiya : Op. Cit., P. 398.

(٢) انظر على سبيل المثال R. Brunschvig : Op. Cit., Tom I, P. 197. والذي يفرض بالإضافة إلى ما ذكر في المتن فرضاً آخر، هو رغبة مانفرد دي كيرمونت في تحقيق طموح شخصي له، حيث إن ذلك يتطابق المطالب التقليدية لصقلية في الجزيرة بل وفي إفريقيا.

(٣) انظر رواية المؤرخ الجنوبي أوبرتي فوليتاي عن هذا الموضوع في : محمد عوني يس : المرجع السابق، ملحق رقم ١ ص ٢٤٣، انظر كذلك :

R. Brunschvig : Ibid, Tom I, P. 198., A.S.Atiya : Op. Cit., P. 398.

إمكانياته المحدودة فضلاً عن ما سببت المباشرة من إرباك للمسلمين فيها، من صد الغزاة، ومع أن العباس لم يكن بالذي يقف موقف اللامبالي من هذا العدوان، إلا أنه لم يكن في استطاعته تهريد حملة عسكرية إلى الجزيرة لتحريرها نظراً لأنه كان وقعد مشغولاً بالقضاء على فتنة خطيرة في نواحي قسنطينة، ذلك أن أعراب الدواودة في تلك المنطقة كانت لهم تطلعات خطيرة منذ بضع سنين سبقت ذلك الهجوم، فكان أحمد بن مزني صاحب بسكرة والزاب في تلك الفترة (مضطرب الطاعة متحيزاً على السلطان)^(١) ويمتنع عن دفع الحماية للسلطان في أكثر السنين محمداً على مساعدة الأعراب له ولا سيما يعقوب ابن علي وقومه الدواودة، وزاد من سوء الوضع في تلك المنطقة ظهور الثائر ابن يملول فيها الذي أعد جيشاً وزحف به على توزر، فاضطر السلطان حيال ذلك للخروج إلى نواحي قسنطينة والزاب بنفسه للقضاء على التمرد فيها، في منتصف سنة ٧٨٦هـ / ١٣٨٤م، وقد انفذ أعراب الدواودة ورياح حول ابن مزني كراهية لأعراب سليم الذين كانوا من ضمن جيش السلطان، ودارالقتال بين الطرفين أياماً حاول السلطان أثناءها مداخلة يعقوب بن علي شيخ الدواودة، ولكن المذكور كان من الدهاء على قدر كبير، فكان يخادع السلطان، وهواه هو وقومه مع ابن مزني، وأخيراً تمكن المذكور من إقناع السلطان، بإنهاء الحرب حتى تتاح له فرصة أخرى أفضل تمكنه من خصمه، فرجع السلطان بمن معه إلى تونس، وبقيت للمشكلة قائمة دون حل جذري^(٢)، وما كاد يفرغ من ذلك حتى نهض إلى قابس التي كان قد عاد إليها عبد الوهاب بن مكّي، في محاولة لإعادة مجده أسرته بها بعد أن كان السلطان قد طردهم منها سنة ٧٨١هـ / ١٣٧٩م، وتمكن عبد الوهاب المذكور من مداخلة بعض أهل المدينة وساعده بعض الأعراب في ذلك فدخل وقتل ابن الأبار عامل السلطان عليها واستقل بها، فنهض السلطان إليه في سنة ٧٨٩هـ / ١٣٨٧م وحاصره حتى أجبره على الخضوع له ووضع ابنه رهينة لدى السلطان^(٣).

ولم يكد السلطان يفرغ من مشكلة ابن مكّي حتى عاد الوضع في نواحي قسنطينة إلى

(١) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٩٦.

(٢) لمزيد من التفصيل انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٩٧ وما بعده، ابن القنفذ : المصدر السابق ص ١٨٧-١٨٨.

(٣) لمزيد من التفصيل انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٩٧-٣٩٨. ابن أبي دينار : المصدر السابق ص ١٥٢.

التردي من جديد في أوائل سنة ٧٩٠هـ / ١٣٨٨م أي إبان الفترة التي وقع فيها الاعتداء الصليبي على جربة، وكان السبب المباشر في ذلك هو قيام أمير قسنطينة بتخفيض المنح المالية التي أقرها السلطان لأعراب الدواودة لقلة العائدات على خزينة ولاية قسنطينة في ذلك الوقت نظراً لأن الأعراب أخذوا يزرعون الأراضي ولا يدفعون أموال الجباية عنها^(١)، الأمر الذي دفع يعقوب بن علي وقومه للثورة واجتياح ريف قسنطينة يقومون (بالنهب وانتصاف الزرع حتى اكتسحوا عامتها)^(٢)، وفي تلك الآونة توفي يعقوب بن علي، فاستأنف ابنه محمد هذه الثورة الأمر الذي اضطر السلطان إلى الخروج إلى قسنطينة والزأب من جديد والاشتباك مع الدواودة وحلفائهم حتى تمكن من طردهم إلى الجنوب بعد أن استغرق ذلك منه صيف سنة ٧٩١هـ / ١٣٨٩م بأكمله^(٣). ولذلك فإن هذه المشاكل الخطيرة حالت دون قيام أبي العباس بإرسال حملة عسكرية تطهر جربة وغيرها من جزر إفريقية من الصليبيين، والتي ما كاد يفرغ منها حتى بدأ يستعد لمواجهة الحملة الصليبية الكبرى التي قادها لويس الثاني دي بوربون على المهدية والتي ستعرض لها في الفصل التالي .

(١) انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٩٨، ابن القنفذ : المصدر السابق ص ١٨٧.

(٢) ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٩٩.

(٣) لمزيد من التفصيل انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٩٨ وما بعدها، انظر كذلك :
R. Brunschwig : Op. Cit., Tom I, P. 190-5

﴿تغلبوا.....﴾.

[سورة : آية]

حملة لويس الثاني دي بوريون على المهديّة

جثة محرك لقوى العدوان الصليبي - الاستعدادات للحملة الصليبية الجديدة - نزول الصليبيين بساحل المهديّة - مواجهة المسلمين للفرقة - متاعب دي بوريون وعقد الصلح - السحاب الصليبيين وفشل الحملة

جنوة محرك لقوى العدوان الصليبي :

كان نجاح جثة وحلفاءها في احتلال جزيرة جربة وما أكسبها ذلك النجاح من فوائد، حافظاً لها على التفكير في القيام بعدوان أكبر لإحراز المزيد من المكاسب، وأن تكون تلك المكاسب دائمة بدلاً من كونها مؤقتة كالتي حصلت عليها، ولذلك أخذت تراودها فكرة شن هجوم واسع النطاق على إفريقية للاستيلاء عليها، ولما كان مثل هذا المشروع يتطلب إمكانيّة تفوق إمكانيّاتها بكثير، كان لا بد لها من اللجوء إلى قوة صليبية كبرى تقوم بتبنيه وتعمل على تنفيذه، وأن تساعدوا هي بأقصى ما تستطيع لقاء ضمان مصالحها. ولم يطل بحثها عن هذه القوة، إذ رأت أن فرنسا هي القوة المنشودة لعدة أسباب أهمها أن القوى الصليبية الأخرى إما أنها كانت وتحتل لا تقوى على ذلك، كما هو الحال للإمبراطورية الرومانية المقدسة الذي لم يعد لديه من القوة المادية أو العسكرية ما يمكنه من فرض سيطرته على أمراء الإقطاع في إمبراطوريته الذين ازداد نفوذهم على حسابها إلى حد كبير ناهيك عن تبني مثل هذا المشروع الكبير، ثم مملكتي نابلي وصقلية^(١) اللتين كانتا أيضاً أضعف من أن تقوم إحداهما به، أو أنها من غير المتوقع أن تتعاون معها في ذلك كالبندقية التي أصبحت

(١) سبق أن ذكرنا أن مملكة الصقليتين انقسمت بعد موت شارل أنجو إلى مملكتين هما مملكة صقلية التي خضعت لأرغون، ومملكة نابلي التي ظلت خاضعة للأنجويين، وقد تفكك البيت الأنجوي الحاكم في نابلي إلى فرعين الأكبر الذي كان في تلك الآونة قد أقام دولة له في المجر والأصغر الذي ظل يحكم نابلي.

(انظر : فيشر، المرجع السابق، ق ٢، ص: ٤٣٩-٤٤٠).

الدولة البحرية الأولى في البحر الأبيض المتوسط للعداوة المستحكمة بين المدينتين علاوة على تجربة جنوة السابقة معها حينما سحبت وعدها بالمساعدة في حملة جربة كما سبق ذكره، وأرغونة التي فضلاً عن نزاعها مع جنوة فإن سيامة ملكها الجديد جان الأول المسالمة كانت تتمعه من الاشتراك في هذا العمل، أو لانتقالها بمشاكلها الداخلية كإنجلترا، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية، فإن جنوة كانت تفضل فرنسا على غيرها من القوى الصليبية للعلاقات الطيبة التي كانت تربطها معاً منذ وقت طويل، ليس فقط فيما يتعلق بالتعامل التجاري بينها وبين العديد من المدن الفرنسية مثل مرسيليا وليون وباريس وإقليم بروفانس، ولكن للتعاون الوثيق بينهما في مجالات أخرى منها المجال العسكري حيث كانت تمد يد المحونة لفرنسا منذ بداية حربها مع إنجلترا في حرب المائة عام بحارته الماهرين الذين شاركوا في جميع المعارك البحرية إلى جانب فرنسا ضد الأسطول الإنجليزي، كما قاتل الرماة الجنوة ذوي الكفاءة العالية مع الجيوش الفرنسية في المعارك البرية^(١).

وما زاد في التعارب بين جنوة وفرنسا وبالتالي ترجيح الاعتماد على الأخيرة في هذا المشروع هو الظروف التي أحاطت بجنوة في تلك الفترة، فهزمتها أمام البندقية وتهديدات دوق ميلان لها ثم انقسامها على نفسها وازدياد حدة الفتن الداخلية فيها وتخذ خاصة إثر اشتراك حاكمها الدوج أنطونيوتو أدورنو (Antoniotto Adorno) في مؤامرة تعذيب وقتل ستة من الكرادلة أرسلوا مؤثقين بالقيود إلى جنوة بأمر بابا روما أوربان السادس كعقاب لهم لانحيازهم إلى جانب بابا أفينون كلمنت السابع إثر الانشقاق الديني الكبير، الأمر الذي أدى إلى غضب الحزب الآخر حتى بات الوضع فيها ينذر بنشوب حرب أهلية مما جعلها تتطلع أكثر فأكثر إلى جارتها الكبيرة فرنسا، هذا التطوع والتقارب الذي استمر في التزايد حتى أدى فيما بعد إلى استسلام جنوة الكامل لفرنسا في سنة ١٣٩٦م وتعيين المارشال بوكيكو (Marshal Boucicaut) حاكماً للمدينة من قبل شارل السادس ملك فرنسا^(٢). فكان تطلع جنوة إلى فرنسا لإنقاذها من التهديد الخارجي والمشاكل الداخلية سبباً هاماً في

(١) انظر عن ذلك : L. Mirot : Op. Cit., P. 9-10. كذلك محمد عوني بس : المرجع السابق، ص : ٩٣.

(٢) انظر : A.S. Atiya, P. 403., Delaville le Roulx : la France en Orient au XIV Siecle. Op. Cit., P. 400.

اعتمادها أيضاً عليها في تنفيذ مشروعاتها الكبرى في إفريقيا.

وكانت ظروف فرنسا في تلك الآونة مواتية لتنفيذ هذا المشروع، إذ كانت منذ عقد معاهدة بريثاني (Bretigny) بينها وبين إنجلترا في سنة ١٣٦٠م والتي أنهت المرحلة الأولى من مراحل حرب المائة عام، قد بدأت تتمتع بنوع من السلام والاستقرار إلى حد بعيد، وقد استطاعت تحت قيادة ملكها شارل الخامس (١٣٦٢-١٣٨٠م) الحكيم أن تسترد عافيتها التي أنهكتها الضربات القوية والعديدة التي تلقتها في عهد أسلافه^(١)، وعندما اعتلى ابنه شارل السادس (١٣٨٠-١٤٢٥م) الحكم، استمرت حركة الازدهار والنمو فيها باضطراب مستمر خاصة في الفترة الأولى من حكمه التي سهقت إصابته بالجنون في أوائل القرن الخامس عشر، وقد ساعدتها الظروف التي كانت تمر بها غربتها إنجلترا في تلك الآونة على ذلك^(٢)، لهذا أخذت تبسط نفوذها حينذاك في أكثر من اتجاه، ففي الداخل كانت هنالك حكومة قوية قادرة على وضع حد لثورة الفلاحين وثورة أبناء المدن في باريس والرون والمدن الأخرى في الشمال، وعلى حل مشكلة الوصاية على الملك الصبي شارل السادس^(٣)، وأما سياستها الخارجية فقد تركزت في اتجاهين رئيسيين أولهما دعم حركة

(١) لمزيد من التفصيل انظر: د. سعيد عاشور: أوروبا العصور الوسطى، ج ١، ص: ٥٩٩ وما بعدها.
(٢) كانت إنجلترا في عهد ملكها ريتشارد الثاني (١٣٧٧-١٣٩٩م) الذي كان صبيّاً لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره تعيش فترة صراع داخلي كبير، إذ امتلأت البلاد آنذاك بالقلق الشديد والحزبية البغيضة والهرطقة الدينية التي أذاعتها تعاليم ويكيليف وجماعة اللولارديّة، تلك التعاليم التي تحدت نظم البابوية والكنيسة معاً، وأيقظت وعي الطبقات الكادحة وألقتهم على مساوئ النظم الاجتماعية والاقتصادية السائدة في إنجلترا وفتحت أعينهم على ما هم فيه من يؤس وشقاء وحرمان، فقاموا بثورتهم المشهورة سنة ١٣٨١م التي انتشرت في أنحاء إنجلترا وأحدثت هزة اجتماعية خطيرة كادت تمصّب بعرض ريتشارد الثاني، والتي ترجع أسبابها إلى الآثار السلبية التي خلفها وباء الموت الأسود على الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية فيها، إذ نقص عدد سكان البلاد بسبب ذلك الوباء بمقدار الثلث وارتفعت أسعار المواد الغذائية ارتفاعاً مخيفاً، وقتل الأيدي العاملة غارات الأراضي الزراعية، لذلك طالب العمال الزراعيون برفع أجورهم وتحطيم نظام الإقطاع ومنحهم الحرية الشخصية وحرية الانتقال من مزرعة إلى أخرى، فكانت هذه المشاكل تتفاعل في الداخل وتخلق المتاعب للحكومة.

(انظر: د. نظير حسان سعداوي: تاريخ إنجلترا ص ١٥٤).

(٣) انظر: A. S. Atiya: Op. Cit., p. 399، محمد عوني يس: المرجع السابق، ص ٤٠.

التوسع في الأراضي المنخفضة والتي تولاها فيليب الحسور (أو القاسي) Philippe le Hardi دوق برجنديا الذي تمكن وبدعم من ملك ونبلأ فرنسا من إحراز نجاح كبير في خططه التي وضعها لهذا الأمر، إذ ألقى الهزيمة بجيش الفلمنكيين في معركة روزيك (Rosebecka) في ٢٧ نوفمبر سنة ١٣٨٢م^(١)، ووجه حملة أخرى إلى الفلاندرز في سنة ١٣٨٣م أحرزت عدة انتصارات الأمر الذي مكّنه من فرض السلام في تلك البلاد بهدنة تورناي (Tournai) سنة ١٣٨٥م، كما احتل دوقية جلدز (Gueldres) سنة ١٣٨٨م بالرغم من مساعدة الانجليز لها^(٢)، وكان ثانيهما الاتجاه إلى إيطاليا، ذلك أنه في سنة ١ٳ٨٢م كان لويس الثاني الأنجوي ابن عم الملك يهاجم إيطاليا، بمساعدة الفرنسيين ويتوغل فيها حتى تمكن من احتلال مملكة نابلي، هذا الاحتلال الذي باركه أيضاً البابا كلمنت السابع (بابا أفينون) منهياً بذلك حكم شارل دورازو (Charles of Durazzo) سليل الفرع الآخر من البيت الأنجوي المناوئ لنفوذ الملك الفرنسي في شبه الجزيرة والذي لم يلبث أن اغتيل في هنغاريا في فبراير سنة ١٣٨٦م محروماً من قبل بابا أفينون^(٣). وبناء على ذلك فلم تكن الرغبة في التقارب من قبل جنوة فقط، وإنما أيضاً من قبل فرنسا لأن ذلك كان يسير وفق سياستها في إيطاليا، ولهذا كانت الظروف مهيأة لفرنسا للإقدام على تنفيذ مشروع صليبي كبير كالحملة على المهدية.

وفي أواخر عام ١٣٨٩م^(٤) وأثناء جولة كان يقوم بها الملك الفرنسي في جنوب مملكته يرافقه أخوه دوق تورين وخاله لويس الثاني دوق بوربون^(٥) ليمحو الآثار السيئة التي خلفها عمه جان دوق ييري (Jean Duc de Bery) في إقليم لانجودوق (Languedoc)^(٦) وتلقني ولاء بعض أفضاله الإقطاعيين في تلك المنطقة، ثم للتأكد من

(١) انظر د. سعيد عاشور: أوروبا العصور الوسطى، ج ١، ص: ٥٠١، كذلك: A.S.Atiya: Op. Cit., p. 399.

(٢) انظر: A.S.Atiya: Ibid, p. 399، كذلك محمد عوني بس: المرجع السابق، ص: ٧٥.

A.S. Atiya: Ibid, p. 399.

(٣) انظر

(٤) غادر الملك الفرنسي باريس في جولته هذه في يوم ٢ سبتمبر سنة ١٣٨٩م انظر:

Maurice Hiem : la passion d'un Roi Charles VI le Fol. P. 29.

L. Mirot : Op. Cit., p.9 - 10., A.S.Atiya : Ibid, p.402. Note 1.

Maurice Hiem : Ibid, p. 90.

(٥) انظر :

A.S.Atiya : Ibid. p. 402.

(٦) انظر عن ذلك :

ولاء بعض الباورنات الأقوياء الذين كانوا لا يدبنون له بكامل الطاعة مثل جامستون فوبس (Gaston Phocbus) كونت فويكس (Conte de Foix)، وكذلك للاجتماع بالبابا كلمنت السابع في أفينون لتنصيب ابن عمه لويس الثاني الألف الذكر كونت أنجو وكونت بروغانس ملكاً على نابلي من ناحية، وللعمل على إنهاء الانشقاق الديني من ناحية ثانية^(١)، وبعد رحلة طويلة^(٢) وصل إلى أفينون يوم ٣٠ أكتوبر سنة ١٣٨٩م حيث تم بحضوره تتويج لويس الثاني وسلمه التاج بنفسه إبرازاً لدوره في هذا التتويج، وبعد أن صادق البابا على البراءة التي عينه بها الامبراطور شارل الرابع نائباً امبراطورياً في مملكة آرل (Arles) غادر أفينون إلى طولوز التي وصلها في ٢٩ نوفمبر سنة ١٣٨٩م وأقام بها حتى يناير سنة ١٣٩٠م، وخلال إقامته في هذه المدينة وفدت عليه سفارة من جنوة ضمت مجموعة من أبرز شخصيات تلك المدينة حيث عرضت عليه تبني مشروع الحملة الصليبية على المهدية، وإذا كان الكتاب الفرنسيون الذين عاصروا تلك الحملة. وأرخوا لها مثل جان فرواسار (Jean Froissart) الذي عاصر حوادثها، وكاباريه دورفيل Cabaret D'Orville الذي قام بعد حوادثها بأربعين سنة بتجميع ذكريات أحد المشاركين فيها هو جان دي كاستيلوس (Jean de Castellus) صاحب شاتو موران (de Chateaumurand) في كتابه عن تلك الحملة، قد أشاروا في مؤلفاتهم إلى ما دار بين الملك الفرنسي وتلك السفارة باقتضاب دون ذكر تفاصيل عن هذا الموضوع، بل اقتصر الأخيران على القول بأن الجنوين عرضوا على الملك تزويد الحملة التي يقترحونها بالسفن اللازمة لنقلها إلى إفريقيا ثم تزويدها بما يلزمها من تموين فضلاً عن دعمها بالثني عشر ألفاً من الرماة^(٣). فإن مؤرخي جنوة الذين عاصروها كانوا أكثر اهتماماً وأكثر وضوحاً من الكتاب الفرنسيين في هذا الموضوع، إذا أسهبوا في ذكر تلك التفاصيل، وبذلك أملونا بمادة تاريخية بالغة الأهمية سدت الكثير من الفجوات

L.Mirot : Op. Cit., P.9., A.S.Atiya : Op. Cit., P. 402.

(١) انظر

محمد عوني يس : المرجع السابق، ص : ٧٦.

Maurice Hiem : Op. Cit., p. 89-92.

(٢) لمزيد من التفصيل عن هذه الرحلة انظر :

Cabaret D' Orville : la Chronique du Bon Loys de Bourbon. P. 218 - 220.

(٣)

J.Froissart : Chronicles of England, France, Spain and the adjoining Countries, Vol.2.p. 446-7.

Delaville le Roulx : Op. Cit., p. 168., L.Mirot : Ibid., p.10, A.S.Atiya : Ibid.p.402-3.

في تاريخ تلك الحملة وأتمت ما جاء في حولية فرواسار ومذكرات كاهاربه دورفيل^(١).

فقد ذكر المؤرخ الجنوي (Agostino Guistiniani) أن هذه السفارة مثلت بين يدي الملك الفرنسي حيث قام رئيسها بإلقاء خطاب طويل منمق أورد نصه في مؤلفه^(٢)، وقد أسخ في على الملك الشاب كثيراً من صفات التمجيد لإثارة حماسه لقتال المسلمين، فوصفه بأنه الملك العظيم، المتصبر دائماً^(٣)، وأنه حامي الدين وأن اسمه على كل لسان وفي شتى البقاع وأن ذلك الاسم يخشاه كافة الأقوام غير المسيحية^(٤)، ثم تطرق بعد ذلك إلى وصف أوضاع العالم المسيحي في ذلك الوقت وما أسماه بتطاوّل المسلمين عليه والذين كانوا في السابق لا يجروون على ذلك لأن الفرنسيين كانوا لهم بالمرصاد، حتى أصبحت كلمة فرنسي لدى هؤلاء مرادفة لكلمة مسيحي^(٥)، ولكن شأن المسيحية قد تضاعف لانشغال فرنسا عن نصرتها الأمر الذي جعل هؤلاء والمقصود بهم المسلمين بالطبع يسودون في أفريقيا وآسيا ثم يهبطون إلى أوروبا فيقيمون مملكة لهم في غرناطة ثم يعملون على الاستيلاء على القسطنطينية ويهربون بلاد المغرب، ولم يكتفوا بذلك بل أصبحت مراكبهم تجوب البحار وتهاجم شواطئ فرنسا وتهدد شعبها^(٦)، مثيراً بذلك نخوة الملك ومؤكداً أن الفرنسيين

(١) انظر L.Mirot : Ibid,p.10, A.S.Atiya : Ibid, p. 402.

محمد عوني يس : المرجع السابق ، ٩٧-٩٨.

(٢) انظر نص هذا الخطاب في Agostino Guistiniani : Op. Cit., vol.II,p.163-167 أي (حريات جمهورية جنوة) ونقله محمد عوني يس إلى اللغة العربية . (انظر محمد عوني يس : المرجع السابق ملحق رقم ٢، ص : ٢٥١ وما بعدها).

(٣) انظر Agostino Guistiniani : Ibid,vol.II,p.163.

(٤) إن ما ورد في نص هذا الخطاب كما أوردته جستينياني وغيره (انظر L.Mirot : Ibid, p.10) أن ذلك الخطاب ما يترجم حرفياً بلطف (الكفار)، والمعروف أن المصادر المسيحية تطلق صفة الكفر على غير المسيحيين وفي مقدمتهم المسلمين، فترجمنا هذا اللفظ بما هو مذكور في المتن تنزيهاً للمسلمين عن صفة الكفر التي وردت في النص الأصلي.

(٥) في هذا القول تجاوز واضح للحقيقة قصد به إثارة حماس الملك الفرنسي وشعبه، اللهم إلا إذا كان يعني كلمة (فرنجيه) وهو لفظ أطلقه المسلمون على المسيحيين الأوروبيين لفظ، ومثله لفظ (الإفرنجي) ولفظ (الفرنجي) وليس على كافة المسيحيين.

(٦) انظر : Agostino Guistiniani : Ibid, vol 2, p. 164.

والجنوبيين ميتمكنون من إحراز النصر في حربهم المقدسة ضد المسلمين^(١)، وتوضيحاً للملك وليبت له بأن ما يطلبه من تعاون بين فرنسا وجنوه ليس بالأمر الجديد أو المستحدث لإقناعه بقبول مطلبه يعود في خطابه إلى الأهم الأولى للزحف الصليبي على المشرق مبنياً دور جنوه في مساندة فرنسا في ذلك الوقت بكل قواها حيث قاما معاً آنذاك بتحقيق إنجاز عظيم في حربهما ضد المسلمين على حد قوله^(٢)، ومنذ ذلك الوقت لم تتوقف جنوه عن مساعدة فرنسا في حروبها المقدسة ضد المسلمين بكل قواها وبكل إخلاص ومحبة وتضامن، ولذلك ولما كان شعب جنوه الحالي هو من سلالة أولئك الجنوبيين القدامى زملاء أسلاف الملك الفرنسي في السلاح وعضدهم في حروبهم المجيدة التي قاموا بها للدفاع عن المسيحية والتي حازوا بها المجد والشرف على حد قوله، فإنه من الضروري التآزر في الحرب الجديدة ضد المسلمين التي يرى أنها أصبحت ضرورية^(٣)، مبنياً وجهة نظر جنوه في هذه الحرب والتي تلخص في وضع حد لنشاط غزاة البحر المسلمين الذين في رأيه جعلوا السفر في البحر الأبيض المتوسط محفوفاً بالمخاطر مما عرقل حركة التجارة الدولية^(٤)، ثم ينتقل بعد ذلك لبيان ما مشترك به حكومة جنوه في هذه الحرب المقترحة من سفن ومحارير^(٥). وبعد أن استمع الملك الفرنسي لمطالب أعضاء هذه السفارة، وعندهم بأنه سيفكر في الأمر ويتداول الرأي مع مستشاريه ثم يبلغهم قراره النهائي بشأنه بعد يومين^(٦).

ولدى خلو الملك بمستشاريه وأعضاء المجلس الملكي المرافقين له طرح هذا الموضوع على بساط البحث حيث ظهرت في ذلك المجلس وجهتا نظر متباينتين، الأولى والتي كان من أبرز أصحابها مستشارا الملك بيير دي لا ريفير (Burca de la Riviere) وجان لو

(١) (٢) انظر : Agostino Guistiniani : Op. Cit., p. 165.

(٣) Agostino Guistiniani : Ibid,p.165-166.

(٤) انظر ، Agostino Guistiniani : Op. Cit., p.166., J.Delaville le Roux : Op. Cit.,p.168.,

L.Mirot : Op. Cit., p.10, A.S.Atiya : Op. Cit., p. 402.

Agostino Guistiniani : Ibid,p. 166-67. See Also L.Mirot : Ibid,p.10.

(٥) انظر كذلك رواية المؤرخ الجنوبي فولتاي في محمد عوني يس : المرجع السابق، ملحق ١، ص :

٣٣٩ وما بعدها . A.S.Atiya : Ibid,402-3.

(٦) انظر : Cabaret D'Orville: Op. Cit., p.200.A.S.Atiya : Ibid,403.

ميرسييه (Jean le Mercier) اللذين كانا أصلاً من أبناء الطبقة الوسطى فرفعهما الملك شارل الخامس وقربهما إليه ثم عينهما شارل السادس مستشارين له، تعارض الاشتراك في الحملة المقترحة نظراً لأن فرنسا في اعتقاد أصحاب هذا الرأي كانت في حاجة للاحتفاظ بكل قوتها، لأن السلام الدائم بينها وبين إنجلترا لم يتم تثبيت أركانها بعد، بل إن المفاوضات من أجل هذا الغرض كانت لا تزال جارية بين البلدين وأنه ليس من المصلحة الموافقة على إرسال جيش فرنسي إلى أرض أجنبية في مثل هذا الظرف^(١). وأما الثانية والتي كانت وجهة نظر غالبية النبلاء وخاصة الشبان منهم الذين كانت تحذوهم الرغبة - كما تقول العديد من المصادر والمراجع الغربية - في الشهرة وحب المغامرة ورؤية الشرق فضلاً عن الكسب وامتلاك الأراضي، فكانوا يرون أن توقف القتال مع إنجلترا فوت عليهم الفرصة لإظهار شجاعتهم ومهارتهم في فنون الفروسية والقتال، فعليهم أن يقتنموا هذه الفرصة الثمينة لوضع هذه الشجاعة والمهارة في خدمة مهمة مقدسة^(٢)، لذلك أبدوا الموافقة على اقراح الجنويين. وبعد مناقشات مطولة لكلا الرأيين تغلبت وجهة النظر الثانية، فوافق الملك على المشاركة في الحملة المرتقبة، ولكنه أخذاً منه في الاعتبار وجهة نظر الفريق الأول رأى فرض قيود تحدّد عدد الفرنسيين المشاركين فيها خلاصتها أن كل فارس أو نبيل يرغب في الاشتراك، عليه أن يجهز نفسه على نفقته الخاصة، ولن تتحمل الدولة في ذلك أي شيء، كما أنه يحظر على النبلاء استخدام محاربين من خارج إقطاعاتهم، ثم إن هذا الاشتراك مقصور على الفرسان والنبلاء باستثناء الشبان الذين لم يبلغوا سن الرشد منهم، وعلى أن لا يتجاوز عددهم في مجموعه عن (١٥٠٠) فارساً^(٣)، وفي الموعد المحدد اجتمع بالمعقراء

(١) انظر : A.S.Atiya: Op. Cit.,p.403. د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢، ص: ١٢٤٢، محمد عوني يس : المرجع السابق، ص: ٩٩-١٠٠.

(٢) انظر د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢، ص: ١٢٤٣.

(٣) انظر L.Mirot : Op. Cit.,p.١2.A.S.Atiya: Ibid,p.404.

د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج٢، ص: ١٢٤٣. محمد عوني يس : المرجع السابق، ص: ١٠٠-١٠١. وتجدر الإشارة في هذا المقام إلى أن الدكتور عزيز سوريال عطية ذكر أن عدد المحاربين الفرنسيين (١٥٠٠) خمسة عشر ألف، في حين أن ميرو (L.Mirot: Ibid,p.12) يذكر أن هذا العدد هو خمسة عشر مائة أي (١٥٠٠) ألف وخمسمائة، وللوقوف بين القولين نرى أن الرقم الذي ذكره ميرو هو عدد الفرسان فقط بينما ما ذكره الدكتور عطية في رأينا هو مجموع =

الجنويين وأبلغهم قراره فعمتهم الغبطة والسرور عند سماعهم بذلك القرار^(١).

ونعتمد الإشارة هنا إلى عدة ملاحظات هامة يلاحظها الباحث في هذا المقام، أولها هو ما تردده العديد من المصادر والمراجع الغربية وحتى المراجع العربية التي اطلعت عليها من أن جنوه هي التي تتحمل النصيب الأكبر من وزر هذه الحملة وأن دور فرنسا قد اقتصر على تقديم المعونة لها فقط^(٢)، وبعبارة أخرى تقليص مسؤولية فرنسا إلى حد كبير، وكأنها لم تكن تفكر في هذا الأمر حتى أرسلت جنوه تلك السفارة وأقنعت الملك الفرنسي بالفكرة. والحقيقة كما أراها هي أنه لا رغبة الملك الفرنسي في رد الجميل لجنوه في وقت كانت فيه بحاجة لمساعدة فرنسا، ولا الخطاب البليغ المنق المضمن لعبارات التفتيح والتلمع هما اللذان دفعا الملك لاتخاذ قراره الآنف الذكر، بل إن السبب الحقيقي أعمق من ذلك بكثير يعود في جذوره إلى ذلك الترابط الوثيق والتلاحم بين فرنسا والحركة الصليبية، إن ما تشغل فرنسا التي كانت بمثابة العمود الفقري للحركة الصليبية عن الاستمرار في خدمة أهداف هذه الحركة بعد فشل حملة لويس التاسع على إفريقيا، هي أمور خارجة عن إرادتها والتي كان أهمها حرب المائة عام والمشاكل الداخلية التي نشبت فيها الأمر الذي كان له أبلغ الأثر في الحيلولة دون استمرارها في تقديم العطاء لتلك الحركة، أما وقد تحسن وضعها في تلك الآونة وخطت خطوات واسعة على درب الانتعاش والازدهار كما سبق ذكره، فلم بعد هنالك ما يمنع من استئناف هذا العطاء من جديد. ودليلنا على هذا القول هو أن غيليب دي ميزير ذلك الصليبي العريق أذاع مشروعه الصليبي في سنة ١٣٨٩م وقبل وفود السفارة الجنوية على الملك الفرنسي ببضعة أشهر، فهل كان ذلك من قبيل المصادفة أم أن ذلك الصليبي كان يهرع عن أفكار الساعة أم أنه كان ينيه لمعاودة المبادرة للعمل على خدمة الحركة الصليبية؟ إن احتمال الصدفة في رأينا هو احتمال بعيد، والأقرب إلى الصواب هو أحد الاحتمالين الآخرين، فإن

— عدد المقاتلين ذلك أن الفرسان كان يلحق بهم مساعدون، ثم هنالك أيضا فئة المشاة، ولذلك من غير المستبعد بل هو الأرجح في اعتقادنا أن ما ذكره الدكتور عطية هو الأقرب إلى الصواب .

(١) انظر J.Froissart : Op. Cit., p.447., Cabaret D'Orville: Op. Cit., 220.

(٢) انظر على سبيل المثال : J.Froissart : Ibid.vol.2,p.447.

Cabaret D'Orville: Ibid,p.220, L.Mirot : Op. Cit., p.10., R.Brunschvig : Op. Cit., Tom I,p.200.
A.S.Atiya : Op. Cit., p.403,N.Daniel : Op. Cit., p.309,W.Heyd : Op. Cit., Tom 2,p.722.

كان أولهما فإن ذلك يدل على أن نية استغفار العمل الصليبي كانت موجودة قبل أن تتصل جنوة بالملك الفرنسي، وإن كان الاحتمال الثاني هو الصحيح فإنه أدى إلى نفس النتيجة التي أدت إليها الاحتمال الأول، فعلاقة فيليب دي ميزير بكل من الملك الفرنسي ولويس الثاني دوق بوربون كانت أوثق ما تكون، إذ أنه كان مؤدب الأول الذي أسرف على تعليمه وتربيته كما سبق ذكره، وصديقاً حميماً للثاني الذي كان خال الملك والوصي عليه طوال مدة الوصاية وعضواً في جمعية أحياء عيسى المسيح التي أسسها ميزير، فإذا لم يبنه ميزير هذين الشخصين فمن المقصود بالنتيجة إذن؟ ولذلك نعتقد أن نية العمل الصليبي لدى الملك الفرنسي والعديد من رجال دولته كانت موجودة، وما كان سفير جنوة في خطابه إلا معبراً تعبيراً واضحاً عن تلك النية أكثر منه مجاملاً ومثيراً لحماس الملك ونخوته.

ذلك من ناحية ، ومن ناحية ثانية فإن نشاط غزاة البحر المسلمين في جنوب فرنسا لم يكن ليقابل من الملك الفرنسي بالترحاب بطبيعة الحال أو ليتغافل عنه أو يسكت عليه خاصة وأن فرنسا كانت في تلك الآونة مطلقة اليدين، فهل من المعقول أن يقوم المجلس البلدي في مرسيليا بمناقشة موضوع غزوات المسلمين للمدينة ونواحيها ويبحث عن وسائل التصدي لها فيشدد الحراسة ويسلح سفناً لقتال هؤلاء الغزاة كما سبق ذكره، ويغفل الملك عن هذا الأمر؟ وهو الذي كان يسعى لبسط نفوذه في أكثر من اتجاه كما أشرنا إلى ذلك أيضاً، فمن باب أولى إذن أن يسارع لاتخاذ الإجراءات الكفيلة بكفهم عن مملكته كما يفرضه المنطق. ثم إن هنالك ناحية هامة أخرى تدعم هذا الرأي، هي السرعة اللامعتولة في اتخاذ قرار المشاركة في الحملة، فهل يعقل حقاً أن يتخذ مثل هذا القرار الخطير في مدة لا تتجاوز اليومين لولا أن النية معقودة على ذلك؟ كل هذه الدلائل تعطي انطباعاً قوياً على الأقل إن لم تكن كافية للتأكيد بأن فكرة قيام فرنسا بحملة صليبية وعلى إفريقية بالذات كانت ماثلة في أذهان أولى الأمر فيها، وربما كانت البابوية في أفنون على علم بهذه النية والدليل على ذلك أنها لم تحتشر قبل البت في هذا الموضوع كما جرت العادة عليه بالنسبة للمحملات الصليبية. وما يدعم وجهة نظرنا بوجود هذه النية لدى فرنسا هو قول ابن خلدون في مطلع حديثه عن هذه الحملة وحديثه كان منصّباً على نشاط غزاة البحر المسلمين في سواحل

فرنسا الجنوبية : (. . . وتطارحوا مسهمهم ونكلهم وتنادعوا لنزول المسلمين والأخذ بالثأر منهم^(١) . وأما عدم وجود دليل قاطع على هذا الأمر في المصادر المسيحية ولا سيما الفرنسية وما اعتمد عليها من مراجع غريبة، فهو أمر حددته نتيجة تلك الحملة. فقد تم تجاهل ذلك عمداً لأن الحملة فشلت في تحقيق أهدافها، ولو أنها نجحت في ذلك لتغير الأمر وظهرت الحقيقة بوضوح. وأما دور جنوه فكان هو إظهار هذه النية إلى حيز الوجود ووضعها موضع التنفيذ. لقد التقت مصلحة جنوه بمصلحة فرنسا ووافقت هواها فأثمر ذلك هذا التعاون بين الطرفين. ولا يحتاج بطبيعة الحال بقله القوة الفرنسية المشاركة في الحملة بالنسبة لدورها في الحملات الكبرى السابقة كدليل على دورها الثانوي في الحملة لأن ذلك أمر فرضته علاقاتها مع إنجلترا آنذاك فلم يكن في مقدورها أن تفعل أكثر من ذلك تحسباً للطوارئ، ومع ذلك فإن القوة الفرنسية كانت أكبر القوى المشاركة فيها.

وأما الملاحظة الثانية حول هذا الموضوع فهي ما تردده هذه المصادر والمراجع بأن هذه الحملة ما كانت إلا رد الفعل تجاه نشاط غزاة البحر المسلمين وأن هدفها كان هو تأديبهم نافية بذلك الصفة الصليبية عنها، والحقيقة هي غير ذلك، فهي حملة صليبية بكل ما تعنيه الكلمة وأن هذه الحقيقة بدت بوضوح حتى في العديد في تلك المصادر وإن كان ذلك عن غير قصد، وأول دليل على هذه الحقيقة هو ما جاء في خطاب رئيس السفارة الجنوبية الذي ألقاه أمام الملك الفرنسي حيث يقول : وإنا الآن نرى أنفسنا ملزمين بشن حرب مقدمة ضد المسلمين . . . وإذا تمكثتم من كسب هذه الحرب فإن ذلك سيكون دفاعاً عن المسيحية^(٢) . ثم قوله : لقد حارب أجدادك مع القديسين لتصرة المسيحية فتقبلها أنت بقلب مؤمن^(٣) . ومن ذلك يتضح أنها حملة قصد بها إشعال حرب مقدمة من وجهة نظر مسيحي غرب أوروبا أي صليبية. وثمة دليل آخر على ذلك هو قول قائد تلك الحملة دوق بوربون الذي ورد في خطابه الذي وجهه إلى الفرسان المشاركين فيها والذي أعرب فيه عن رغبته في الاقتداء بلويس التاسع والقتال في البلاد التي قضى فيها ذلك القديس - على حد تعبيره - أواخر أيامه مدافعاً عن واجب كان يراه مقدساً، ثم

(١) ابن خلدون : المصدر السابق، ج ٦ ص ٤٠٠.

Agostino Guistiniani : Op. Cit., vol. 2, p. 166.

(٢) انظر

Agostino Guistiniani : Ibid., vol. 2, p. 167.

(٣) انظر

استطرد قائلاً : لنذهب جميعاً في خدمة الرب^(١)، وهل كان لويس التاسع الذي اتخذ دوق بوربون مثلاً أعلى له إلا صليبياً؟ وهل كانت حملة لويس المذكور التي قضى نحبه إبانها إلا حملة صليبية؟ وهناك دليل ثالث يقطع الشك باليقين على الآمال العريضة التي كانت معقودة على هذه الحملة وأنها لم تكن تهدف إلى تأديب غزاة البحر المسلمين بل كانت لتحقيق أهداف صليبية أكبر من ذلك بكثير الأمر الذي يؤكد صفتها الصليبية هو ما جاء في رواية فرواسار Froissart عن ما جاء في مداولات الصليبيين التي جرت في جزيرة كونيبرا القريبة من المهديّة وقبل الهجوم عليها مباشرة كما سيذكر فيما بعد، إذ يقول فرواسار إن قادة الحملة قالوا لبحارة الأسطول الجنوئين أن أمراء الممالك النصرانية المجاورة سوف يزودون الحملة بالمؤن والمخارين (حتى إذا ما انتصرنا أصبح هذا الموضوع - المهديّة - قاعدة لجميع الفرسان والمخارين يتابعون منه حربهم ضد المسلمين واحتلال أراضيهم)^(٢)، ثم قوله بأن هؤلاء القادة وصفوا المهديّة في تلك المداولات بأنها ليست هي مفتاح إفريقية فحسب بل وأقطار المغرب العربي بأسره. ولذلك فإن استيلائهم عليها سيجعل المسلمين حتى في بلاد النوبة وسوريا يرتعدون خوفاً^(٣). يضاف إلى ذلك دليل آخر هو ما ذكره فرواسار أيضاً في معرض حديثه عن المناقشة التي دارت بين مندوب المسلمين وبعض قادة الحملة في مقر القيادة وبحضور دوق بوربون كما سيأتي ذكره حيث يقول إن ذلك المندوب سأل قادة الحملة عن سبب حضورهم لقتال المسلمين فردوا عليه بأنهم إنما جاؤوا لقتالهم لأن أسلافهم قتلوا المسيح^(٤) عليه السلام، ولأنهم لا يؤمنون بقدسية العذراء المقدسة أم المسيح، وأنهم يعتبرون كافة المسلمين على اختلاف مذاهبهم أعداء لهم ولذلك فقد جاؤوا للانتقام منهم^(٥). كل هذه الأدلة تؤكد الصفة الصليبية لتلك الحملة، وأما ما تردده العديد من المصادر والمراجع الغربية بهذا الشأن فما هو إلا من قبيل صرف الأذهان عن المفزى الحقيقي لها. ولعل بالبرغميك كان أكثر وضوحاً من غيره من الكتاب الغربيين المحدثين في

(١) انظر Cabaret D'Orville : Op. Cit., p.13 كذلك محمد عوني يس : المرجع السابق، ص : ١١٧.

J.Froissart : Op. Cit., vol.2,p.446.

(٢) انظر

J.Froissart : Ibid, vol.2,p.446.

(٣) انظر

(٤) من الواضح أن هذا الاتهام هو اتهام غير صحيح حتى من وجهة النظر المسيحية، ذلك أن المسيحيين يقولون بأن اليهود هم الذين يتحملون وذر دم المسيح على حد قولهم وليس المسلمين.

J.Froissart : Ibid,vol.2,p.471.

(٥) انظر

هذا الموضوع وإن كان هو الآخر يحاول إلقاء ستار الغموض على الحقيقة إذ يقول : (واختلط عند البعض تنصير الكفار 11 - المسلمين - وإرادة الدفاع عن مصالح المسيحيين وحماية مجد المسيحية بطعم المغامرة والميل إلى إظهار البطولة وتحقيق المصالح الشخصية)^(١)، فهو بذلك يشير إلى الطابع الصليبي لتلك الحملة.

ولمة ملاحظة أخرى تجدر الإشارة إليها هي ما تردده تلك المصادر والمراجع عن نشاط غزاة البحر المسلمين والأثر السيئ لذلك النشاط على حركة التجارة الدولية، وتنهته بشئى التبعات القبيحة كالإرهاب وممارسة الابتزاز للنصارى ومصدر الرعب وأنه كان شيراً للفرع والهلح إلى غير ذلك، وتصمت عن ما كان يفعله قراصنة النصارى في إفريقيا. لقد ظلت إفريقيا تتعرض لغارات أولئك القراصنة مدة قرن من الزمن تقريباً قبل هذه الفترة دون أن تشر تلك المصادر والمراجع إلا نادراً إلى ما ذاقته إفريقيا على أيديهم من ويلات من سفك دماء ونهب وإحراق وتدمير وخطف وأسر وسبي بل واحتلال أحياناً، وتنسى أو تتناسى أن نشاط غزاة البحر المسلمين ما كان إلا حرباً وقائية بدأت للدفاع عن شواطئ إفريقيا ضد هجمات هؤلاء القراصنة، وكان ذلك أمراً طبيعياً في أن تتولى الرعية الدفاع عن نفسها وممتلكاتها بهذه الوسيلة ما دامت السلطة المركزية عاجزة عن حمايتها بالوسائل المتعارف عليها والمتبعة في شن حروب كبيرة كما هو المفروض نظراً لما كانت تواجهه تلك السلطة من مشاكل. هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية، أن قراصنة النصارى لم يكفوا يدهم عن إفريقيا وكانوا هم وخاصة الجنوية الذين عفنوا البحر الأبيض المتوسط بأعمال القرصنة على حد تعبير موريس هيم - Mau- rice Hiem^(٢) ولم يكفوا يدهم إلا بعد أن عجزوا عن مقارعة غزاة البحر المسلمين، فهل

العدوان مشروع للنصارى في عرف هؤلاء الكتاب، والحرب الوقائية للدفاع عن النفس إرهاب وابتزاز وعمل منكراً لا يطاق؟ ومن ناحية ثالثة تركيز تلك المصادر والمراجع دائماً على إغفال الدافع الديني لحروب المسلمين ضد النصارى صغرت تلك الحروب أو كبرت مسقطه بذلك من حسابها هدفاً سامياً وتنبلاً للكثير من المسلمين المشاركين في تلك الحروب ألا وهو الجهاد،

R.Brunschvig : Op. Cit., Tom I, p. 200.

(١) انظر

Maurice Hiem : Op. Cit., p.93.

(٢) انظر

وجرت عادة كتاب الغرب القدامى والمحدثين أن ينعثوا تلك الحروب بالنعت الصليبي فهي في البر غارات نهب وفي البحر قرصنة ذلك أنهم لا يعون ذلك الهدف السامي وإن عود لا يقرّون به ولا يعترفون أن دوافع المسلمين كثيراً ما تكون أكثر سمواً من ردود الفعل التي يقابلها بها الأعداء على حد تعبير الدكتور فياكر مصطفى^(١)، وأخيراً هل المسيحية الحقّة تجيز لأتباعها ممارسة الأعمال المشينة التي كانت ترتكب في حق المسلمين باسمها؟

الإستعدادات للحملة الصليبية الجديدة :

بعد اتخاذ قرار مشاركة فرنسا في الحملة المرتقبة وإبلاغه إلى سفراء جنوه، طرحت مسألة اختيار قائد تلك الحملة للبحث، فأبدى السفراء رغبة بلدهم في أن يتولى هذه المهمة الملك الفرنسي بنفسه أسوة بأسلافه ملوك فرنسا العظام على حد قولهم الذين قادوا الحملات الصليبية الكبيرة من قبل، ولكن الملك اعتذر عن قيادتها لانشغاله بأمور بلاده الداخلية وتدعيم السلام مع إنجلترا، فطلب السفراء حينذاك وإلحاح أن يقودها أمير من البيت الملكي الفرنسي والهدف من ذلك واضح إذ أن حملة يقودها ملك فرنسا أو على الأقل أحد أقربائه سيجري إعدادها الإعداد الحسن حصاً مما يجعل إمكانية نجاحها كبيرة، هذا من ناحية. ومن ناحية ثانية إذا دعت الحاجة إلى طلب الدعم والمساعدة أثناء احتدام القتال مع المسلمين، فإمكانية تلبية ذلك الطلب سواء من فرنسا أو من خارجها ستكون أكبر بكثير مما لو كان قائدها من غير البيت الملكي، ثم إن حملة يقودها ملك فرنسا أو أحد أقربائه ستضيق أنبأؤها في أوروبا وستجذب جمعاً غفيراً من المتحمسين للفكرة الصليبية للمشاركة فيها، كما أن حملة يقودها مثل هذا القائد ترفع من الروح المعنوية للجنود المشاركين فيها وتعملهم يتحلون بقدر أكبر من الانضباط وال ضبط والرهط العسكري مما يجعلها أقدر على تحقيق أهدافها. وحياح إلحاح الجنويين على طلبهم هذا، عرض الملك على مجلسه إسناد القيادة إلى شقيقه لويس دوق تورين وكونت فالوا، ولكن صغر سن هذا اللوق الذي كان في الثامنة عشرة من عمره، وبالتالي قلة خبرته بأمر القتال الأمر الذي يعرض الحملة لخطر الفشل حال دون الموافقة عليه^(٢)، فطرح اسم عم

(١) انظر شاخيت وبوزورث : المرجع السابق، ق ١، ص: ٣٣٢ حاشية ١.

(٢) J.Proissart : Op. Cit., vol.2,p.447, A.S.Atiya : Op. Cit.,p.404.

انظر

الملك جان دوق بري (Jean Duc de Berry) وكونت بواتييه، ولكنه سرعان ما استبعد أيضاً لأنه لم يكن يتصف بصفات تؤهله لهذه المهمة لا في مجال الحرب ولا في السياسة ولا الإدارة، كما أن سلوكه المشين في لاغمدوق كان لا يزال عالماً في الأذهان^(١)، فانجذبت الأنظار حينذاك إلى عم الملك الآخر فيليب (Philippe le Hardi) دوق برجنديا وكونت الفلاندرز الذي كان أكبر شخصية مرموقة بين سياسيين فرنسا ومن أغنى نبلائها، ولكن اهتمام هذا الدوق بمشروعاته الخاصة في شمال شرق فرنسا ثم رغبته في البقاء قريباً من البلاط الملكي لتدعيم نفوذه صرفاه عن التفكير في الاعتماد عن فرنسا في حملة صليبية^(٢).

وأخيراً أعرب الجميع عن اعتقادهم بأن لويس الثاني دوق بوربون^(٣) خال الملك هو الرجل المناسب لتولي القيادة. كان دوق بوربون يمتلك عدة مؤهلات أهله لأن يكون موضع هذا الاختيار، فقد كان من أشد الناس وفاءً وإخلاصاً للملك^(٤) وغنياً وقائداً ماهراً مقداماً وسياسياً بارعاً ومحكماً عركته التجارب وكرماً متحلياً بأخلاق الفروسية الأمر الذي كان السبب في تلقيه بالدوق الطيب (la Bon Duc)^(٥)، والناحية الهامة الأخرى في شخصيته أنه كان مفعماً بالروح الصليبية مما يقدم دليلاً آخر على صليبية هذه الحملة، فقد

= كذلك محمد عوني يس : المرجع السابق، ص: ١١٥.

A.S.Atiya : Ibid,p.404.

(١) انظر

(٢) انظر A.S.Atiya: Ibid,p.405 كذلك محمد عوني يس : المرجع السابق، ص: ١١٦.

(٣) كان دوق بوربون في ذلك الوقت في الثالثة والخمسين من عمره حيث إنه ولد في سنة ١٣٣٧م، وقد شارك المذكور في عدة معارك ضد إنجلترا في حرب المائة عام تحت لواء ملك فرنسا حنا الثاني المعروف بحنا الطيب، وأخذ رهينة إلى إنجلترا بدلاً من الملك المذكور حينما وقع في الأسر (انظر عن ذلك د. سعيد عامر : أوروبا المصور الوسطى، ج١ ص: ٤٩٦) وأقام فيها من سنة ١٣٦٠م حتى سنة ١٣٦٨م ولما عاد إلى فرنسا اشترك في حملات برتاني وجوين، وقد عين وصياً على الملك شارل السادس عند وفاة أبيه شارل الخامس وحارب تحت لوائه في معركة روزيك سنة ١٣٨٢م وكان من مساندي الحملة الإسبانية سنة ١٣٨٦م.

انظر : Cabaret D'Orville: Op. Cit., p.12-15, L.Mirot: Op. Cit., p.11, A.S.Atiya: Ibid,p.405.

محمد عوني يس : المرجع السابق، ص: ١١٦.

Maurice Hiem: Op. Cit.,p.93.

(٤)

Cabaret D'Orville: Ibid,p.12-15, L.Mirot: Ibid,p.11, A.S.Atiya: Ibid,p.405-6.

(٥)

نشأ وترى في ظل المفاهيم الصليبية إذ كان جده لويس الأول دي بوربون من المهتمين بالفكرة الصليبية، ولذلك قدم إليه مارينو سانودو نسخة من مشروعه الصليبي كما سبق ذكره، كان ذلك في أيام طفولة حفيده لويس الثاني القائد المقترح للحملة الأمر الذي جعل الأفكار الصليبية ترسخ في أعماقه، وعندما شب تعرف على الداعية الصليبي المشهور فيليب دي ميزير كما سبق ذكره أيضاً، وزاد الصلة وثوقاً بينهما كونهما الاثنين من رجالات شارل الخامس المقربين حيث تأثر دوق بوربون بأفكار فيليب دي ميزير إلى حد كبير، يدل على ذلك انضمامه إلى جمعية أجباء عيسى المسيح، ولذلك دفعته هذه الروح الصليبية التي كان مشبعاً بها لأن يكون أول المتحمسين لاشتراك فرنسا في تلك الحملة وأكبر المشجعين للملك على اتخاذ قراره بهذا الشأن، وعلاوة على ذلك فإنه أخذ يتوسل إلى الملك ليستند إليه قيادتها راجياً إياه أن يتيح له الفرصة للحرب في خدمة المسيحية، حيث إنه لا فخر لديه يعادل الاقتداء بلويس التاسع والقتال في نفس الأرض التي قضى نحبه فيها كما كان يقول^(١). ويبدو من رواية كاباريه دورفيل أن الملك تردد في موافقة دوق بوربون على رأيه مبرراً ذلك بكثرة العمل الذي كان عليه أن يقوم به في فرنسا، ثم الصعوبة في الحصول على الحاربين اللازمين لهذه المهمة، ولكن النوق أقنع الملك بأن فرسان إقطاعاته لن يخذلوه بل سيتبعونه في حملته المقدسة^(٢). وأخيراً وافق الملك على تعيين خاله دوق بوربون المذكور قائداً للحملة وعين صاحب كوسي مساعداً له. فباشر دوق بوربون من فوره في التباحث مع سفراء جنوة في شأن الامتعضادات وما التزمت به جنوة من أسطول ومؤن ومحاربين، وما أن تم الاتفاق على هذه الأمور حتى أسرع أولئك السفراء إلى بلدهم يزفون البشرى لمواطنيهم بنجاح مهمتهم، في حين باشر دوق بوربون من جانبه في استعداداته، وأما البابا كلمنت السابع فلم يتوان هو الآخر حينذاك عن المبادرة إلى دعم الحملة بمنح الغفران لنوق بوربون وكافة المشتركين فيها وحللهم من الخطايا والذنوب^(٣)، كما جرى العرف إبان

Cabaret D'Orville: Op. Cit., p.221., A.S.Atiya : Op. Cit., p.406.

(١)

Cabaret D'Orville: Ibid, p.221., A.S.Atiya: Ibid p.406.

(٢) انظر

كذلك محمد عوني يس : المرجع السابق، ص : ١١٧.

Cabaret D'Orville: Ibid, p.221., A.S.Atiya: Ibid, p.406.

(٣)

الاستعداد للحملات الصليبية الأمر الذي يعتبر دليلاً آخر على صليبية تلك الحملة. ولم تكد تمضي فترة وجيزة حتى شاعت أخبار الحملة في أنحاء أوروبا الغربية وانهاالت الطلبات على الدوق من النبلاء والفرسان ومساعدتهم والمحاربين من كافة الفئات من فرنسا وخارجها كلهم يرجون السماح لهم بحمل الصليب تحت قيادته^(١).

وما يسترعي انتباه الباحث حقاً في هذا الموضوع هو أنه بالرغم من أن الانشقاق اللدني الكبير (١٣٧٨ - ١٤٠٩م) كان مخيماً على أوروبا آنذاك، وأنها كانت منقسمة إلى حزبين متنازعين كل منهما يدعم أحد البابين القائمين كما سبق أن أشرنا إلى ذلك، إلا أن الحماس للحملة لدى كلا الفريقين كان متساوياً ولم يتم إغارة هذا الانشقاق أي اهتمام لا على المستوى الرسمي ولا على المستوى الشعبي، بل إن المحاربين من كلا الطرفين أخذوا يتأهبون لحرب المسلمين الأمر الذي يؤكد حقيقة هامة هي أن مصالح الحركة الصليبية كانت فوق مستوى الخلاف. لذلك شارك فيها إلى جانب القوات الفرنسية والجنوبية قوات من إنكلترا والأراضي المنخفضة وبيزا وأرغونة^(٢). والجليل بالذكر أن أرغونة كان لها دوافعها وأسبابها الخاصة للمشاركة في هذه الحملة والتي نولها لما شاركت فيها لعدة أسباب أهمها طبيعة ملكها المسالمة ثم لعداوتها مع جنوه بسبب مشكلة سردينيا وكورسيكا ثم لتزاعها مع فرنسا على صقلية. وأما سبب اشتراكها فكان هو الخشية من أن تتحول تلك الحملة إلى بعض ممتلكاتها أكثر منه تعاوناً مع جنوه وفرنسا^(٣)، إذ حينما علم جان الأول عاهل تلك المملكة بأبناء الاستعدادات ساورته الشكوك في النوايا الحقيقية للقائمين عليها، خاصة وأن هذه الأنباء كانت تصل إليه مشوشة، وكلما زادت هذه الاستعدادات ازدادت شكوكه الأمر الذي جعله يكتب في أول مايو سنة ١٣٩٠م إلى سفيره في بلاط بابا روما يستوضح حقيقة الأمر، ثم إصدار تعليماته إلى حكام الجزر التابعة له للاحتراز الشديد والبقاء على أهبة للدفاع، وبالرغم من أن الدوق فيليب دي بار (Philippe de Bar) كتب إليه يعطمته ويعلمه بأن الحملة موجهة

A.S.Atiya : Op. Cit., p.408, Note 2-4.

(١)

Agostino Guistiniani : Op. Cit., Vol.2 .p.164, A.S.Atiya : Op. Cit., p.408., R. Brunshvig : (٢)
Op. Cit., Tom I.p.200

د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية، ج٢، ص: ١٢٤٣.

A.S.Atiya : Ibid.p.408.

(٣)

ضد إفريقية، إلا أن ذلك لم يزل مخاوة سيما وأن دي بار كان مجاوراً لممتلكاته، كما أن الماركيز دي مونفرات (Marquis de Montferrat) الذي كان يطالب بمبورقة وسواها من الجزائر الشرقية قد انضم للحملة^(١)، لذلك أمر حكام سردينيا وكورسيكا والجزائر الشرقية بأن يستقبلوا قادة الحملة إذا ما مروا ببلدانهم بالخفاوة اللاتقة بهم على أن لا يسمحوا لجندهم بالنزول إلى اليابسة. وبقيت هذه المخاوف ملازمة له حتى قبل إقلاع الحملة بأيام إذ في ٢٠ يونيو سنة ١٣٩٠م أرسل رسالة إلى حاكم سردينيا يحذره فيه من الغياب عن الجزيرة ويستعد للدفاع عنها^(٢). لذلك، ومن منطلق الخوف على ممتلكاته سمع لقوات أرغونية يقودها بعض أقاربه بالانضمام للحملة ليظل على علم بما يجري بالنسبة لها، ومن ناحية ثانية كان يرغب في إثبات وجوده حتى إذا ما حققت الحملة أهدافها لا ينسى من الغنيمة خاصة أن مطامع أرغونة وصقلية في إفريقية كانت كبيرة كما تقدم ذكره.

وأياً كان الأمر، فإن الاستعدادات كانت منذ أواخر يناير سنة ١٣٩٠م / سنة ٧٩٢هـ تجري على قدم وساق، فقد عاد دوق بوربون إلى باريس في فبراير سنة ١٣٩٠م / ٧٩٢هـ ليعمل على تدبير الأموال اللازمة، فباع قصره الذي كان في باريس، واقترض من دوق تورين شقيق الملك مبلغ عشرين ألف فلورين، كما حصل على منحة مالية من الملك مقدارها اثنا عشر ألف فلورين، فضلاً عن مبلغ آخر تبرع به الملك للمشاركين في الحملة مقداره عشرون ألفاً وستمائة وثلاثون فرنكاً ذهبياً، كما تبرع شقيقه دوق تورين لأفضاله الإقطاعيين من النبلاء المشاركين في الحملة بمبلغ ثلاثة عشر ألف وخمسمائة وثلاثين فرنكاً ذهبياً لمساعدتهم في تجهيز أنفسهم^(٣)، وقدم الدوق فليب Philippe le Hardi إلى الدوق فليب دي بار بصفة خاصة ألفي فلورين منحة منه لمساعدته^(٤). وبعد أن تم جمع هذه المبالغ وسواها من تبرعات المحسنين الأغنياء سافر دوق بوربون إلى ممتلكاته للإشراف على إعداد

(١) انظر L.Mirot : Op. Cit., p.19 كذلك محمد عوني يس : المرجع السابق ، ص: ١٠٣.

(٢) انظر L.Mirot: Ibid,p.19 كذلك محمد عوني يس : المرجع السابق، ص: ١٠٤.

(٣) انظر Cabaret D'Orville: Op. Cit.,p.221,L.Mirot: Op. Cit.,p.13., A.S.Auya: Op. Cit., p.407.

(٤) محمد عوني يس : المرجع السابق، ص: ١٠٤.
Cabaret D'Orville: Ibid,p.221,L.Mirot: Ibid,p.13.

فرسانه وأفضاله ثم لإجراء الترتيبات المتعلقة بإدارتها أثناء غيابه، وبعد القيام بتلك الترتيبات حيث ولى أمر إدارة ممتلكاته إلى أحد أتباعه المخلصين هو بيير دي نوريس (Pierre de Norris) وأطمأن على حسن استعداد فرسانه وكتب وصيته الأخيرة استعداداً للمجهول^(١) عاد إلى باريس. وعلى صعيد آخر كانت الاستعدادات المماثلة تجري في جنوه بنشاط، وقد رأت جنوه التي كانت ملتزمة بتوفير الأسطول والتموين اللازمين أن تحاول قصر المشاركين على المحاربين فقط فأعلنت أنها لن تنقل في سفنها الخدم والحاشية ليبدو رجال الحملة أنهم رجال عمل وحرب فقط^(٢)، ولما كان دوق بوربون يخشى أن يكون عدد السفن التي ستقدمها جنوه لا يكفي لنقل جميع الجند، نذب بعض مساعديه ليكونوا على اتصال دائم بتلك المدينة والتنسيق معها لاتخاذ التدابير اللازمة للرحيل وتذليل كافة العقبات التي قد يؤدي ظهورها إلى تأجيل قيام الحملة^(٣) حيث تم تحديد الموعد النهائي للرحيل في الأسبوع التالي لعيد القديس يوحنا المعمدان أي في نهاية يونيو سنة ١٣٩٠م/ رجب ٧٩٢هـ^(٤).

ومن أهم العقبات التي ظهرت وقطعت والتي لم تكن متوقعة، كان عدم تمكن جنوه من توفير ما يلزم من المؤن من أراضيها وبصفة خاصة القمح والحبور مما جعل دوج جنوه يكتب لدوق بوربون قائلاً له إنه إذا لم يتوسط لدى كونت بروفانس وملك نابلي الذي لم يكن يتعاطف مع الجنويين ليسمح للدوق بشراء هذه المواد وغيرها من المواد الضرورية الأخرى التي يفترق إليها إقليم ليجوريا من أراضي الملك المذكور فإن الاحتمال كبير في حدوث نقص خطير فيها^(٥)، فسارع دوق بوربون الذي أقلقه هذا الخبر إلى إيفاد أحد مساعديه هو شارل دي

(١) انظر Cabaret D'Orville: Op. Cit., p.224, L.Mirot : Op. Cit., p.13.

Delaville le Roulx: Op. Cit., p.170.A.S.Atiya : Op. Cit., p.407.

(٢) محمد عوني يس : المرجع السابق، ص: ١٠١.

Delaville le Roulx: Op. Cit., p.170.

(٣)

(٤) انظر Cabaret D'Orville: Op. Cit.,p.255 محمد عوني يس : المرجع السابق، ص: ١٠٥، لما

كان عيد القديس يوحنا المعمدان (هو نبي الله يحيى عليه السلام) في التقويم المسيحي الغربي يصادف ٢٤ يونيو من كل عام، فمعنى ذلك أن الموعد المحدد للرحيل كان في أواخر شهر يونيو.

Cabaret D'Orville: Ibid.,p.225., L.Mirot: Op. Cit.,p.17

(٥) انظر

Delaville le Roulx: Ibid.p.170-171., A.S.Atiya : Op. Cit.,p.408.

هانجست (Charles de Hangast) إلى بروفانس ونابلي للسعي لدى الملك المذكور للموافقة على طلب جنوه هذا الأمر الذي تم بالفعل ومرت الأزمة بسلام^(١)، وتم الاتفاق على أن تكون مرسيليا هي ميناء التجمع للقوات الفرنسية، وجنوه ميناء التجمع للقوات المشاركة الأخرى، ومنذ أواخر شهر أبريل سنة ١٣٩٠م بدأت هذه القوات تتوالى في الوصول إلى هاتين المدينتين، وفي أوائل مايو سنة ١٣٩٠م / ٧٩٢هـ غادر دوق بوربون باريس عقب احتفال كبير أقيم لوداعه^(٢)، قاصداً مرسيليا بصحبة كبار مرافقيه والتي ربما يكون قد وصلها حوالي يوم ٢٠ يونيو سنة ١٣٩٠م^(٣)، حيث وافقه السفن الجنوية والتي كان عددها (٢٢) سفينة من نوع جالي (Galley)^(٤). وخلال البضعة أيام التي قضاها في مرسيليا قبل الرحيل، بحث مع الجنويين المسائل المتعلقة بالإبحار تفصيلياً كما استكمل بعض المواد التموينية، وبذلك اطمأن على أن كل شيء يسير على ما يرام^(٥). وقد ظهرت أثناء ذلك كفاءة الدوق بوربون وقدرته الإدارية بجلاء، دل عليها النظام الذي ساد أثناء تجمع القوات وصعودها إلى السفن، فقد وجد كل فرد منها لدى وصوله إلى مرسيليا بياناً واضحاً بإقامته سواء في المدينة أو على ظهر السفن يعكس ما جرى أثناء تجمع قوات لويس التاسع إبان حملته على إفريقية كما سبق ذكره. وشحنت السفن بمعدات الجند وأمتعتهم، حيث تيمها الجند بعد ذلك، وفي اليوم الأول من يوليو سنة ١٣٩٠م / رجب سنة ٧٩٢هـ أفلح هذا الأسطول من مرسيليا متجهاً إلى جنوة لاصطحاب باقي القوات التي كانت قد تجمعت هنالك^(٦) والتي كانت تتأهب للرحيل تحت

(١) انظر Cabaret D'Orville: Op. Cit., p.225., L.Mirot : Op. Cit., p.17., A.S.Atiya : Op. Cit., p.408.

محمد عوني يس : المرجع السابق، ص : ١٠٥-١٠٦.

Maurice Hiem: Op. Cit., p.93.

(٢) انظر

(٣) Cabaret D'Orville: Ibid,p.227,A.S.Atiya: Ibid,p.408، محمد عوني يس : المرجع السابق،

ص : ١٠٦.

(٤) الجالي بالإنكليزية وجالير (Galere) بالفرنسية يقابلها لفظ لبنيني باللغة العربية وجمعها شواني. والثنيني سفينة كبيرة الحجم استخدمها المسلمون والأوروبيون في أساطيلهم في العصور الوسطى وهي تحمل عدداً من الجند لا يقل عن ٢٥٠ جندياً عدا البحارة، ويجدف فيها بما لا يقل عن مائة مجداف. (انظر د. سعد ماهر : المرجع السابق، ص: ٣٥٢-٣٥٣).

(٥) Cabaret D'Orville: Ibid,p.227.L.Mirot: Ibid,p.17-18., A.S.Atiya: Ibid,p.408.

محمد عوني يس : المرجع السابق، ص: ١٠٧.

(٦) =Cabaret D'Orville: Ibid,p.227, A.S.Atiya: Ibid,p.408, L. Mirot: Ibid,p.18.

إشراف بعثة أرسلها الدوق بوربون إليها في ١٣ مايو سنة ١٣٩٠م / جمادى الأولى سنة ٧٩٢هـ لهذا الغرض من ضمنها الدوق فيليب دي بار Philippe de Bar وجاي دي لا ترموي Guy de La Tremouille^(١)، فوصلها الدوق بوربون بقواته في اليوم الثالث لخروجه من مرسيليا، فرست السفن على بعد ثلاثة أميال من المدينة^(٢) مصدراً أوامره بعدم نزول الجنود إلى البر تلافياً لضياح الوقت وحدثت أي بلبلة أو اضطراب، أما هو فقام بصحبة كونت دو Conte d'Eu وسير دي كومي، وسير دي تراو بزيارة سريعة للدوج حيث استقبله مواطنو المدينة استقبلاً حافلاً وقدّموا الهدايا له والمرافقية^(٣). وسرعان ما انتهت الاستعدادات التي كانت تجري في المدينة، وأخذت السفن التي كانت قيادتها قد أسندت إلى جيوفاني ستريوني (Giovanni Centurione) الملقب ألترا مارينو (Oltra Marino)^(٤)، ولم يبق إلا مباركة البابا للحملة كما جرت بذلك العادة عند رحيل الحملات الصليبية، وهنا برزت مشكلة، فمن من الباهوين سيقوم بهذه المباركة؟ ذلك أن الحملة قد ضمت محاربين من كلا الحزبين الذين يعترف كل منهما بأحد الباهوين المتنافسين ولا يعترف بالآخر، وبعد مباحثات مطولة في هذا الموضوع سويت هذه المشكلة قبل أن تتفاقم فأرسل كل من الباهوين مندوباً عنه قام كل منهما بهذه المباركة، وبذلك نالت الحملة بركة كلا الباهوين^(٥). وبعد ذلك وفي أوائل

= د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية، ج ٢، ص: ١٢٤٣.

(١) J.Froissart: Op. Cit., vol.1, p.448. Cabaret D'Orville: Ibid, p.227., L.Mirot: Ibid, p.18, A.S.Atiya: Ibid, p.409.

(٢) Cabaret D'Orville: Op. Cit., p.226., A.S.Atiya: Ibid, p.409.

(٣) J.Froissart: Ibid, vol.2, p.448., Cabaret D'Orville: Ibid, p.228-9, A.S.Atiya: Ibid, p.409.

محمد عوني يس: المرجع السابق، ص: ١٢١.

(٤) كان جيوفاني ستريوني قريب أنطونيو أورنو Antoniotto Adorno دوج جنوه، وهو من عائلة عريقة اشتهرت بخدماتها لبلدها جنوه منذ القرن الثالث عشر، وقد تولى المذكور قبل اشتراكه في هذه الحملة عدة مناصب سياسية واقتصادية هامة في بلده، كما شارك في الحملة التي احلّت جربة سنة ١٣٨٨م وقام آنذاك بدور بارز في ذلك الاحتلال مما أهله لقيادة هذا الأسطول.

انظر عن ذلك A.Guistiniani: Op. Cit., vol.2, p.163 ورواية أوبوتي فوليتي (U.Folietae) في محمد عوني يس: ملحق ١، ص: ٢٤٥، p.20. L.Mirot: Ibid, p.410, A.S.Atiya: Ibid, p.410.

محمد عوني يس: المرجع السابق، ص: ١٢٠.

(٥) L.Mirot: Ibid, p.20, A.S.Atiya: Ibid, p.410., R.Brunschvig: Op. Cit., Tom 1, p.200.

شهر يوليو سنة ١٣٩٠م / رجب سنة ٧٩٢هـ أقلعت تلك الحملة قاصدة إفريقيا^(١).

إنه لمن الأمر الصعب تحديد عدد المشاركين في هذه الحملة نظراً لأن المعلومات التي وردت في المصادر المسيحية عن ذلك غير دقيقة وغير محددة، كما أن المصادر الإسلامية لم تمدنا بمعلومات كثيرة، فضلاً عن عدم وجود إحصائيات دقيقة في ذلك العصر تعين على التوصل إلى رأي محدد بهذا الشأن، فقد ذكر فرواسار أن عدد الفرسان الفرنسيين كان ألفاً وأربعمائة^(٢) الأمر الذي يبدو معه وكأن العدد الذي حدده الملك شارل السادس قد روعي فعلاً، ولكن الحقيقة أن ذلك العدد لم يكن كامل القوة الفرنسية المشاركة فهناك الجند المشاة، فالملك حدد عدد الفرسان فقط وأما عدد المشاة فقد تركه مفتوحاً، والمشاة في النظم العسكرية في ذلك الوقت كانوا يعتبرون قوام الجيش، ذلك أن الفرسان كانوا يشكلون القوة الضاربة في الجيوش فتصدم العدو لتشق الطريق أمام المشاة الذين يتولون الإجهاد عليه، في حين كان للرماة مهمة أخرى هي نضج العدو بالنبال قبل الاشتباك لإصابة أكبر عدد ممكن من أفرادهم وإشاعة الفوضى والاضطراب في صفوفه لتسهيل مهمة الفرسان، وعند التحام القتال ينضمون إلى صفوف المشاة، وما دام أن الرماة يستقدمهم جنوه حسب الاتفاق الآف الذكر مع أن رواية المؤرخ الجنوي أوبرتي فوليتاي (Uberti Folietae) تشير إلى أنه كان هنالك عدد من الرماة الانجليز في الحملة وهم الذين قاموا بحماية نزول الصليبيين بساحل المهديّة^(٣)، إذن كان لا بد من أن تكون هنالك فرق من المشاة الفرنسيين صاحبت الفرسان، وما يدل على ذلك هو أنه إذا كان الأسطول الذي أقل الفرنسيين من مرسيليا هو (٢٢) قطعة بحرية من نوع الشيني (Gally)، وأن حمولة كل قطعة منها في حدود (٣٠٠) جندي

(١) تختلف المصادر والمراجع الغربية في تحديد يوم إقلاع الأسطول الصليبي من جنوه فلم يحدد فرواسار (J.Froissart : Op. Cit., vol, 2 p.443) ذلك اليوم بل قال ما معناه أنه في أوائل يوليو، ويقول ميرو (L.Mirrot : Op. Cit., p.31) إنه كان يوم ٣ يوليو سنة ١٣٩٠هـ، وأما (Delaville le Roux : Op. Cit. p.178) فيقول إن الفرنسيين وصلوا جنوه بعد ثلاثة أيام من رحيلهم عن مرسيليا، وإذا كنا قد حددنا ذلك الرحيل بنهاية شهر يونيو أو يوليو فمعنى ذلك أنهم وصلوا جنوة يوم ٢ أو ٣ يوليو، وما اعتقده أن هذا الإقلاع كان في أوائل الأسبوع الثاني من شهر يوليو سنة ١٣٩٠م.

(٢) J.Froissart: Op. Cit., Vol.2, p.447.

(٣) انظر رواية فوليتاي في محمد عوني يس: المرجع السابق، ملحق ١، ص: ٢٤٥.

- ولا يحجج بوجود المعدات والمؤن لتقليل عدد الركاب في كل قطعة بطبيعة الحال لأن ذلك قد تهملت به جنوه وسيتم تحميله من ميناها - هذا عدا عن عدد البحارة الجنويين لهذه السفن بالطبع، لوجدنا أن عدد القوة الفرنسية لم يكن يقل عن سبعة آلاف جندي وإذا أضفنا إلى هذا الرقم عدد الجنويين الذين كانوا حسب ما أوردته حولية دير القديس دينيس ألف رام وألفي مقاتل وحوالي أربعة آلاف بحار^(١) علاوة على عدد الجند من البلدان الأخرى، تبين لنا أن العدد الإجمالي للمشاركين في الحملة كان في حدود خمسة وعشرين ألف جندي، وهو عدد كبير لا يقل كثيراً عن عدد المشاركين في حملة لويس التاسع على إفريقية، على عكس ما تزعمه العديد من المصادر والمراجع الغربية إخفاء منها للحقيقة للتقليل من شأن تلك الحملة نظراً لفشلها كتوسع من المداراة والتبرير لذلك الفشل. وكان من مشاهير الفرنسيين المشاركين في تلك الحملة بالإضافة إلى دوق بوربون ومساعدته سير دي كوسي، اللوق فيليب دي يار (Philippe de Bar)، وكونت دو (Conte d'Eu)، وكونت دي اركو (Comte de Harcourt)، وكونت سمسير (Conte de Sansarre)، وفين دي فوا (Yvain de Foix)، وكونت أفيران (Dauphin d'Avvergne)، ومقدم الأسطول جان دي فين (Jean de Vienne)، وصاحب تراو (Trau)، والأخوان تروموي (Tremouille)، وأما مشاهير الإنكليز فكان منهم جان هاريدن (Jean Harpedeart)، وجون بوفورت (John Beaufort)، وهو ابن غير شرعي للوق لانكستر، وفيلبون بلورد (Philippon Pe-lourde)، ولويس كليفوردي (Lewis Clifford)، ولورد نيفيل (Lord Neville)، ومن الفلاندرز كونت دي وستريفانت (Comte d'Ostrevant)، وجان دي لانوي (Jean de Lannoy)، وجان دي لين (Jean de Ligne)^(٢).

وأما العدد الإجمالي لقطع الأسطول الذي أقل هؤلاء الصليبيين فهو أيضاً موضع خلاف بين المصادر التاريخية، فيروي فرواسار أنه كان مكوناً من مائة وعشرين شيني (Galley) ومائتي قطعة أخرى مختلفة الأنواع والأحجام كلها قد خصصت لنقل الجند

(١) انظر A.S.Aliya : Op. Cit., p.409. See Also R.Brunschvig: Op. Cit., Tom 1, p.200.

(٢) انظر L.Mirot : Op. Cit., p.41-50, A.S.Aliya: Op. Cit., p.519-22, R.Brunschvig : Ibid, Tom 1, p.200.

محمد عوني يس : المرجع السابق، ص : ١٠٦ وملحق ٢، ص: ٢٥٧ وما بعدها.

وأكثر من مائة سفينة أخرى لنقل المؤن والمعدات^(١)، ومن الواضح أن في هذا القول كثيراً من المبالغة والمغالاة، وأما حولية دير القديس دينيس فتذكر أن عدد السفن التي أقلت الجنويين والقوات التي تجمعت في جنوه، كان ثمانين قطعة، وإذا أضيف ذلك الرقم إلى عدد السفن التي أقلت الفرنسيين فإن مجموعها جميعاً يتعدى المائة قليلاً^(٢). وأما مؤرخو جنوه فتقديراتهم لهذا الأسطول أقل بكثير، فيروي جستنياني A.Guistiniani أنه كان من أربعين شيني وعشرين سفينة أخرى^(٣)، ويؤيده في ذلك أويرتي فوليتاي (U.Folietae)^(٤)، وأما Delaville le Roulx فيقول إنه كان من اثنتين وعشرين قطعة من نوع شيني وثمانية عشرة سفينة أخرى^(٥)، ويؤيده في ذلك برنجفليك^(٦). وأما المصادر الإسلامية، فيذكر الزركشي أن ذلك الأسطول كان من مائة قطعة^(٧)، ويؤيده في ذلك الوزير السراج^(٨) وابن مقديش الصفاقسي^(٩)، وأما ابن أبي دينار فيقول إنها كانت ثمانين قطعة^(١٠)، ويجعلها ابن التمام ثمانية فقط^(١١). وفي اعتقادنا أن ما رواه الزركشي والوزير السراج والصفاقسي هو الأقرب إلى الصواب لتوافقهم تقريباً مع ما جاء في حولية دير القديس دينيس، وبذلك يكون عدد قطع هذا الأسطول في حدود مائة قطعة. وأياً كان الأمر فإنه وبعد إبحار شاق نتيجة لعاصفة هبت على الأسطول المذكور في عرض البحر بعثرت قطعه^(١٢)، وصل

J.Froissart : Op. Cit., vol. 2,p.448.

(١)

A.S.Atiya : Op. Cit., p.409 - 410.

(٢) انظر

Agostino Guistiniani: Op. Cit., vol.2. p.163.

(٣)

(٤) انظر محمد عوني يس : المرجع السابق، ملحق رقم ١، ص : ٢٤٥.

Delaville le Roulx: Op. Cit., p.178.

(٥)

R.Brunschvig: Op. Cit., Tom 1, p.200.

(٦)

(٧) الزركشي : المصدر السابق، ص : ١١٢.

(٨) الوزير السراج : المصدر السابق، ج ١، ق ٤، ص : ١٠٧.

(٩) ابن مقديش الصفاقسي : المصدر السابق ورقة ٢٠١.

(١٠) ابن أبي دينار : المصدر السابق، ص : ١٥٣.

(١١) ابن التمام : المصدر السابق، ص : ١٤١.

J.Froissart: Op. Cit., vol.2,p. 448-9

(١٢) لمزيد من التفصيل عن ذلك انظر

A.S.Atiya: Op. Cit.,p.410-11,R.Brunschvig: Op. Cit.,Tom 1,p.200.

محمد عوني يس : المرجع السابق، ص : ١٢٣ - ١٢٤.

الصلبيون إلى جزيرة كونلييرا (Conigliera) وهي جزيرة صغيرة واقعة قبالة المنستير وكانت في ذلك الوقت تابعة لفرسان مالطه^(١)، وكان الإنهاك قد بلغ بهم حداً كبيراً حتى إن بعضهم تمنى العودة إلى بلاده مما جعل دوق بوربون يبذل جهوداً كبيرة لرفع الروح المعنوية لديهم^(٢). فأقاموا في تلك الجزيرة تسعة أيام للراحة، دارت خلالها مناقشة الخطة العسكرية بين القادة وأميرال ومقدمي الأسطول فضلاً عن حث الجند على التمسك بالمبادئ الصليبية كما سبق ذكره، وقد ذكر فرواسار جانباً من تلك المناقشات^(٣) وبعد ذلك ألقوا إلى المهديّة حيث وصلوها في يوم الثلاثاء ٢١ يوليو سنة ١٣٩٠م / ٥ شعبان ٧٩٢هـ.

نزول الصليبيين بساحل المهديّة :

إن المصادر التاريخية لا توضح الوقت الذي وقع فيه الاختيار على المهديّة لتكون هدفاً لهذه الحملة الصليبية، ولم يعرف فيما إذا كان ذلك قد تم أثناء وجود السفارة في طولوز أو أثناء الاتصالات التي كانت تجري بين دوق بوربون والجنوئين، وعلى أية حال فقي اعتقادي أن هذا الاختيار تم في وقت مبكر، ربما بعد موافقة الملك الفرنسي على الاشتراك في الحملة بوقت قصير، ذلك أنه من المستبعد أن يكون قائد مجرب كدوق بوربون قد باشر في الإعداد لحملة لا يعرف هدفها. وأما الأسباب التي أدت إلى هذا الاختيار فهي كثيرة أهمها أن المهديّة كانت أكثر مدن إفريقية شهرة في أوروبا حتى إنها عرفت في العديد من المصادر المسيحية بمدينة إفريقية^(٤)، فالاستيلاء عليها يعطى الحملة شهرة واسعة في أوروبا الغربية مما

(١) انظر : J.Froissart : Op Cit., vol.2, p.448. Cabaret D'Orville : Op. Cit., p.229., L.Mirot : انظر

Op. Cit., p.21. Delaville le Roulx: Op. Cit., p.179,A.S.Atiya : Op Cit., p.410.

محمد عوني من : المرجع السابق، ص : ١٢٤.

Delaville le Roulx : Ibid,p.179.

(٢) انظر

(٣) انظر J.Froissart : Ibid, vol.2,p.466-7,See Also, L.Mirot : Ibid, p.21,R.Brunschwig : Op. Cit., Tom I, p. 200.

محمد عوني من : المرجع السابق، ص : ١٢٤ وما بعدها.

J.Froissart : Ibid,vol.2,p.466

A.Gustiniari: Op. Cit.,vol.2,p.163.

A.S.Atiya : Ibid,p.411.

كنلك :

يجذب ذوي النزعة الصليبية إلى السفر إليها والانضمام إلى الصليبيين فيها، فتوفر بذلك الطاقة البشرية اللازمة لتثبيت الاحتلال ومن ثم التوسع. كما أنها كانت أصحح مدينة في إفريقيا لتكون قاعدة لتوسع مستقبلي نظراً لحصانتها وتوسط موقعها، فإذا ما تم احتلالها والتمركز فيها فإنه يسهل على حامية صغيرة الدفاع عنها إذا ما هوجمت من قبل المسلمين، وليس أدل على صحة هذا القول من أن الصليبيين وفقاً لرواية فرواسار اعتبروها في مداورات كونلييرا المفتاح الرئيسي ليس لإفريقية فحسب، وإنما للمغرب العربي بأسره وأن سقوطها في أيديهم سيجعل المسلمين حتى بلاد النوبة وبلاد الشام يرتعدون خوفاً كما سبق ذكره^(١)، كما أن المهديّة كانت مركزاً هاماً لغزاة البحر المسلمين وكان أكثر نشاط هؤلاء الغزاة الذين كانوا يتركزون فيها يوجه ضد إقليم ليجوريا الإيطالي الذي كانت تتزعّمه جنوة، ولذلك فالاستيلاء عليها يحرم هؤلاء الغزاة من قاعدتهم الهامة وبذلك تستريح جنوة من مصدر هام لمتاعبها^(٢)، يضاف إلى ذلك أنها كانت ميناء تجارياً هاماً على البحر الأبيض المتوسط في العدوة المغرية، وكان لها علاقات تجارية نشطة مع الاسكندرية وبلاد الشام وصقلية وإيطاليا وإسبانيا، فكانت بذلك مركزاً هاماً للتبادل التجاري، يدل على ذلك كثرة الفنادق والقياسيات فيها مما أكسبها الغنى والروعة^(٣) الأمر الذي أطمع الصليبيين فيها، ولعل من المفيد أن نذكر أنه لما كان من الطبيعي أن لا يفكر الصليبيون في مهاجمة تونس العاصمة نظراً لأن الكارثة التي حلت بلويس التاسع وحملته كانت لا تزال ماثلة في أذهانهم من ناحية، ولأنها كانت مركز الدولة مما يجعل القوات المدافعة عنها كثيرة إلى حد بعيد من ناحية ثانية، فإنه من غير المستبعد أن يكون ذلك سبباً آخر في اختيار المهديّة هدفاً لهذا الهجوم الصليبي.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن بعض المؤرخين المسلمين المشاركة ذكروا في مؤلفاتهم أن هذه الحملة كانت موجهة إلى المشرق وأنها نزلت على طرابلس الشام ثم بعد ذلك سارت

J.Froissart: Op. Cit., vol.2. p.466.

(١) انظر :

A.Guistiniani : Op. Cit., vol.2. p.163., L.Mirot : Op. Cit., p.8,

(٢)

R. Brunschvig : Op. Cit., Tom I. p.200.A.S.Atiya : Op.Cit., p.402.

ابن خلدون : المصدر السابق، ج٦، ص : ٣٩٩-٤٠٠، د. سعيد عاصور : الحركة الصليبية ج٢ ص١٢٤٢.

(٣) انظر : د. سعيد عاصور، الحركة الصليبية، ج٢، ص : ١٢٤٢.

إلى إفريقية وهاجمت المهديّة، فيقول المقرئزي في حوادث شهر رمضان سنة ٧٩٢هـ/٣٩٠م أن الفرغ نزلوا بسمعين مركباً على طرابلس فأرسل الله عليهم ريحاً عاتية أغرقت لهم مركباً بما فيه وفرقت المراكب الأخرى^(١)، ويقول بعد ذلك في حوادث شهر شوال من ذلك العام : (وفيه قدم الخير من الاسكندرية بأن الفرغ الذين مزقت الريح مراكبهم على طرابلس ، ساروا إلى إفريقية، وحاصروا المهديّة، وبها ولد أبي العباس صاحب تونس، فكانت حروباً شديدة، انتصر فيها المسلمون على الفرغ، وقتلوا كثيراً منهم^(٢))، ويقول ابن الصيرفي في ذلك أيضاً في حوادث شهر رمضان سنة ٧٩٢هـ/٣٩٠م (وفيه ورد البريد من سكندرية - الاسكندرية - بأن عدة من مراكب الفرغ مشحونة بالسلاح والرجال نزلوا على طرابلس وعدتها سبعون مركباً فأرسل الله عليهم ريحاً عاتية أغرقت لهم مركباً بما فيه وفرقت البقية، فردوا مدحورين خائبين ولله الحمد رب العالمين^(٣))، ثم يقول بعد ذلك : (وفيه - شوال سنة ٧٩٢هـ - ورد الخير من الاسكندرية أن الفرغ اللغام - عليهم لعائن الله إلى يوم العرض والقيام - الذين أغرقت الريح مركبهم ومزقتهم كل بمزق توجهوا إلى إفريقية وحاصروها - يقصد المهديّة - وبها ولد أبي العباس صاحب تونس فوقع بينهم حروب شديدة، وانتصر المسلمون عليهم وقتلوا عدداً كبيراً، قلله الحمد على ذلك^(٤)). وهو وهم واضح من هؤلاء المؤرخين لأن المؤرخين المسيحيين المعاصرين والمؤرخين المسلمين المغاربة الذين عاصروا الحملة مثل ابن القنفذ فضلاً عن ابن خلدون الذي كان في ذلك الوقت في مصر وكان حسن الإطلاع على حوادث المشرق والمغرب على حد سواء، ثم الطبقة التي تلت هؤلاء مثل ابن الشماخ والزركشي وغيرهما، كل هؤلاء لم يشيروا إلى ذلك، ولو كان هذا الأمر قد تم بالفعل لما أغفلوا ذكره خاصة ابن خلدون والذي يطابق مفهوم روايته ما جاء في المصادر المسيحية التي تقول إن الحملة قد أقلت من جنوة قاصدة المهديّة مباشرة، فهو يقول : (وأقلعوا من جنوه فحطوا بمرسى

(١) المقرئزي : السلوك، ج٣، ق٢، ص: ٧٢٣.

(٢) المقرئزي : السلوك، ج٣، ق٢، ص: ٧٢٥.

(٣) ابن الصيرفي : نزعة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، ص: ٣١٣.

(٤) ابن الصيرفي : نزعة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، ص: ٣١٤.

المهدية . . .)^(١)، ولو قال أولئك المؤرخون المشاركة أن فحة من الفرغ بعد انسحاب الحملة من المهديّة قصّدت بلاد الشام لصحت أقوالهم ذلك أنه بعد انسحاب الصليبيين من المهديّة اتجه البعض منهم إلى الديار المقدسة لزيارتها كما سيأتي ذكره.

وعلى كل حال، فإنه عند ظهور الأسطول الصليبي أمام المهديّة كان المسلمون قد استعدوا للقائهم، إذ تفيد المصادر الإسلامية^(٢)، أن السلطان الحفصي كان قد علم بأنباء تلك الحملة قبل وصولها إلى المدينة، فأرسل يستنفر المقاتلين من جميع أنحاء مملكته، وأرسل في نفس الوقت ابنه وولي عهده أبها فارس عبد العزيز على رأس جيش إلى المهديّة، وكلّفه بمراقبة سواحلها وموافاته بالأخبار أولاً بأول، كما أمر بتجديد تحصينات تلك المدينة وشحنها بالمقاتلة وال سلاح والأقوات استعداداً لحصار طويل، وعندما وصل الصليبيون إليها كانت قد استكملت استعداداتها، وكان أبو فارس قد عسكر بظاهرها، فطير الخبر لأبيه بقنوم الصليبيين، وما هي إلا بضعة أيام حتى أخذت القوات الإسلامية تتوالى في القدوم عليه لشد أثره في الدفاع عن المدينة إذ قدم إليها أمير بجاية^(٣) بجنده والعديد من أمراء الهلالية بقبائلهم كما خرج إليها المجاهدون والمرابطون والصلحاء لجهاد العدو^(٤)، وكانت القيادة العليا لهذه القوات لأبي يحيى زكريا شقيق السلطان وحاجبه^(٥)، وقد اختلفت المصادر

(١) ابن خلدون : المصدر السابق، ج ٦، ص : ٤٠٠.

(٢) ابن خلدون : المصدر السابق، ج ٦، ص : ٤٠٠.

(٣) بضيف المذكور عزيز سوربال عطية (A.S.Atiya : Op. Cit., p.418) اعتماداً على قول ميرو (L.Mirot : Op. Cit., p.25) أن سلطان تلمسان قد أسهم بجنده في هذه الحرب، والحقيقة أن ذلك وهم من ميرو والدكتور عطية سيما وأن ميرو لم يذكر المصدر الذي أخذ عليه في هذا القول، ذلك أن بني زيان (عبد الواد) سلاطين تلمسان كانوا وقتئذ في وضع سيئ لا يمكنهم من تقديم هذه المساعدة لحربهم مع بني مرين من ناحية، ثم المشاكل الداخلية التي واجهوها من ناحية ثانية، فضلاً عن أنهم كانوا على عداء مع بني حفص وكانت لهم حروب مع أبي العباس باللات، ثم أن أباً من المؤرخين المسلمين المعاصرين للحملة وقولهم هو الأصح بطبيعة الحال لأنهم أدرى بما كان يدور في الجانب الإسلامي من المؤرخين المسيحيين، لم يشر إلى اشتراك سلطان تلمسان في هذه الحرب.

(٤) كان من بين هؤلاء (الشيخ الصالح الورع أبي العباس أحمد الفلجاني) (الزركشي : المصدر السابق، ص : ١١٣).

(٥) انظر ابن خلدون : المصدر السابق، ج ٦، ص : ٤٠٠، ابن الشماخ : المصدر السابق ص : ١٤١، الزركشي : المصدر السابق، ص : ١١٣، الوزير السراج : المصدر السابق ج ١، ق : ٤، ص : ١٠٦٩.

المسيحية في تقدير عدد هذه القوات فيذكر فرواسار أنها كانت مكونة من عشرة آلاف فارس وثلاثين ألف رام^(١)، وتزيد حولية دير القديس دهنيس هذه الرواية^(٢)، وأما (Delaville le Roulx) فيقول إنهم كانوا في حدود ستين ألف مقاتل^(٣)، ولا يستبعد الدكتور عزيز سوريال عطية أن يكون عددهم ما بين أربعين ألف إلى ستين ألف مقاتل^(٤). ولما كانت المصادر الإسلامية لم تتعرض لهذا الموضوع، فإنه ليس في استطاعتنا تحديد هذا العدد بدقة، ولكننا نرجح أن يكون ما ذكره كل من فرواسار وحولية القديس دهنيس هو الأقرب إلى الصواب.

لم تكن حصانة المهدي واستعدادات المسلمين لتخفى على الجنويين الذين كانوا على صلة وثيقة بها، وقد هال دوق بوربون وكبار مرافقيه ما شاهدوه من تلك الحصانة، ومن كثرة الجند الإسلامي المحيط بها^(٥)، لذلك أثر عدم الاقتراب بالأسطول، فألقت السفن مراسيها على بعد فرسخ منها لتبقى بعيدة عن نطاق مرمى المدافع المنصوبة على أسوارها وفي أبراجها. ثم عقد مجلس حربه للبحث في كيفية النزول إلى البر، حيث اتخذ قراره على ضوء ما دار في ذلك المجلس من مناقشات بعدم المغامرة بالنزول دفعة واحدة، فقسم قواته إلى ثلاثة أقسام، طليعة تكونت من ثمانمائة جندي ومائة رام قادهم سير دي كوسي (Enguerand de Coucy) وكونت دو (Conte D'Eu) وتولى دوق بوربون قيادة القسم الثاني وهو القوات الرئيسية المكونة من الفرنسيين بما فيهم محاربو إقطاعاته، والقسم الثالث المؤخرة أو المسافة وكان يشمل الانكليز والجنوية وفرسان جاسكونيا، وكانت بقيادة سوديك صاحب تروا (Soudic Trau)، وسير كاستيلون (Sire Castillon) وكونت دوفن (Conte Dauphin)^(٦)، والتي كانت مهمتها الحماية ومشاغلة المسلمين بالسهام فيما إذا

J.Froissart : Op. Cit., vol.2.p.470.

(١)

A.S.Atiya : Op. Cit., p.418.

(٢) انظر

Delaville le Roulx: Op. Cit., p.186.

(٣)

A.S.Atiya : Ibid.p.418

(٤) انظر

J.Froissart: Op. Cit., vol.2.p.466.L.Mirot: Op. Cit., p.25.

(٥) انظر

L.Mirot : Ibid. p.25. Cabaret D'Orville : Ibid. p.229. A.S. Atiya : Op. Cit., p.415.

(٦)

وكذلك محمد عوني، ي، المرجع السابق، ص : ١٤٢.

بادروا بالهجوم حتى تتم عملية الإنزال. وفي صباح اليوم التالي الأربعاء ٢٢ يوليو سنة ١٣٩٠م/٦ شعبان سنة ٧٩٢هـ تقدم سير كوسي بقواته في قوارب صغيرة ونزل إلى البر دون مقاومة تذكر اللهم إلا من بعض القذائف التي أطلقت من البرج الكبير^(١)، ذلك أن قادة الجند الإسلامي كانوا حينما ظهر الأسطول الصليبي في الأفق قد عقدوا مجلس حربهم لبحث سبل الدفاع، فطرحوا في ذلك المجلس وجهتي نظر متباينتين إحداهما ترى التصدي للصليبيين ومنعهم من النزول^(٢) والثانية تقول بالسماح لهم بذلك ليسهل حصرهم والقضاء عليهم أو إجبارهم على الرحيل وتوفير الجهد لحماية المدينة نفسها لأن الصليبيين كانوا كثيري العدد وعلى درجة عالية من الكفاءة والتسلح والحماس، وما دام الأمر كذلك فالأفضل في رأي أصحاب هذا القول هو تركيز قوات المسلمين داخل المدينة ودفع العدو عنها^(٣)، وقد تقرر أخيراً الأخذ بالرأي الثاني والسماح للصليبيين بالنزول إلى البر بما يذكرونا بخطة المستنصر أمام نزول الصليبيين بقرطاجة لذلك لم يتعرضوا لطليعة الصليبيين إلا بمناوشات بسيطة. وعندما اتخذت تلك الطليعة مواقع لها في البر بدأت القوات الصليبية الأخرى تتلوها في القدوم بالقوارب الصغيرة تحت حماية تلك الطليعة حيث تكامل نزولهم في اليوم التالي الخميس ٢٢ يوليو سنة ١٣٩٠م/ ٧ شعبان سنة ٧٩٢هـ، ويدعو من رواية فوليتاي أنه حدثت بعض المناوشات بين المسلمين والصليبيين أثناء عملية النزول كما سبق ذكره والتي يؤديها الزركشي بقوله: (فاتفق للمولى أبي فارس عبد العزيز وقائع منها يوم نزولهم)^(٤) ولكنها لم تكن ذات أهمية تذكر. وعسكر الصليبيون في الشريط الذي يصل المهدي بالبر لقطع اتصالها بالمسلمين في حين بقيت سفن الأسطول راسية قبالتهم في عرض البحر والمؤن والمعدات تجلب لهم يومياً منها بالقوارب^(٥). وقضى دوق بوربون ذلك اليوم

(١) A.S.Atiya : Op. Cit., p.415.

(٢) J.Froissart : Op. Cit., vol.2. p.467.

(٣) J.Froissart : Ibid, vol.2, p.467. Delaville le Roux : Op. Cit. 181

ج ٢، ص: ١٠٤٢-١٠٤٣، ويورد فرواسار تفاصيل كثيرة عن ما دار في ذلك المجلس من مناقشات والتي ترجح أن يكون خياله قد لعب دوراً كبيراً في تسجيلها. (J.Froissart : Ibid, vol.2. p. 466-8.)

(٤) الزركشي : المصدر السابق ص: ١١٢.

(٥) J.Froissart : Op. Cit., vol.2. p.470, Cabaret D'Orville : Op. Cit., p.231, A.S.Atiya: Op. Cit., p.416.

في ترتيب المعسكر الصليبي^(١) وتوزيع المهام على القادة، ثم وكما جرت عليه العادة في مثل هذه الحالات قام برسم عدد من المحاربين برتبة فارس^(٢). وفي صباح اليوم التالي الجمعة ٢٤ يوليو سنة ١٣٩٠م / ٨ شعبان سنة ٧٩٢هـ أمر قواته بالزحف لحصار المدينة فحوصرت برأ وبحر^(٣).

مواجهة المسلمين للغزاة :

انقضت ثلاثة أيام على حصار الصليبيين للمدينة دون أن يقوم المسلمون سواء حامية المدينة أو قواتهم المعسكرة بالقرب منها بأي بادرة للاشتباك مع الصليبيين^(٤)، وعلى ما يبدو أنهم آثروا الانتظار قليلاً حتى تتجمع قواتهم، ذلك أن أي اشتباك كبير مع الصليبيين وهم في ذروة حماسهم بقوات قليلة يعتبر مغامرة غير مأمونة العواقب، وعند غروب شمس اليوم الثالث ٢٦ يوليو ١٣٩٠م / ١١ شعبان ٧٩٢هـ حدث أول اشتباك جاد بين الفريقين، إذ انتهزت حامية المدينة^(٥) فرصة انشغال الصليبيين في تناول طعام العشاء وهدوء الحركة في

= محمد عوني يـ : المرجع السابق ص: ١٥٢.

(١) لمزيد من التفصيل انظر L.Mirot: Op. Cit., p.27. J.Froissart: Op. Cit., vol.2, p.469. محمد عوني يـ : المرجع السابق ص: ١٥٠ وما بعدها.

(٢) كان من بين هؤلاء الفرسان الجند جان دي لين Jean de la Ligne من هويلت، وابن عمه هنري دي أنزو (J.Froissart: Ibid, vol.2, p.469, A.S.Atiya: Op. Cit., p.416. انظر Henri D'Anzioing

(٣) J.Froissart: Ibid, vol.2, p.470. Cabaret D'Orville: Op. Cit., p.231. A.S.Atiya: Ibid, p.416. د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية، ج ٢ ص: ١٢٤٤.

(٤) A.S.Atiya: Ibid, p.416.

(٥) تقدر حولية دير القديس دينيس (انظر A.S.Atiya: Op. Cit., p.417.) عدد هذه الحامية بستة آلاف جندي في حين يقول كباريه دورفيل (Cabaret D'Orville: Op. Cit., 229) وميرو (L.Mirot: Op. Cit., p.38.) أنها كانت اثني عشر ألف جندي، وفي تقدير المؤرخين الآخرين (انظر : A.S.Atiya: Ibid, p.417) أن السلطان حشد في المدينة ألفي جندي، ونحن نعتقد من جانبنا أن القول الأخير أقل بكثير من الواقع على مدينة مشهورة كالمهنية تستعد لاستقبال حملة صليبية، أما إذا كان المقصود بالقول الثاني هو الجيش النظامي فقط فإننا نميل إلى الأخذ به، وأما إذا كان المقصود به هو مجموع القوات الموجودة في المدينة فإن ذلك في اعتقادنا أقل من العدد الفعلي، وعلى ذلك نرجع القول الأول إذا ما أعطينا في اعتبارنا إضافة حوالي ستة آلاف آخرين على ما ذكرته حولية دير-

معسكرهم وشنّت هجوماً قوياً ومباغضاً عليهم، إذ فتح الباب البري للمدينة واندفعت قوة كبيرة من جند الحامية نحو الصليبيين، ولكن دوق بوربون القائد الذي عرّكته الحروب لم يكن بالذي يؤخذ على غرة إذ كان قد احتاط لمثل هذا الأمر فأقام نوبة للحراسة مكونة من مائتي جندي وألف رام تحت إمرة هيوغ دي كاستيلوس (Hugues de Castellus) صاحب شاتوموران (de Chateaurand) وولديه جان (Jean) وجيشارد (Guichard) فانبرى هؤلاء لمواجهة المسلمين واشتبكوا معهم، ولم يصدوهم فحسب، بل طاردوهم حتى باب المدينة بعد أن كبّدوهم في هذه المعركة التي دامت ساعتين حوالى ثلاثمائة قتيل كما تقول المصادر المسيحية^(١) التي تبالغ عادة في تضخيم انتصارات المسيحيين، ويبدو أن السبب في هذه الهزيمة كان هو عدم وجود التنسيق الكامل بين حامية المدينة والقوات الإسلامية الأخرى المعسكرة خارجها، وأن الحامية اتخذت مسؤولية هذا الهجوم على عاتقها ظناً منها أنه في إمكانها مفاجأة الصليبيين وتوجيه ضربة قوية لهم، ولو تم التنسيق بينها وبين المعسكر الإسلامي لساندتها تلك القوات ولربما تمكن الجميع من ضرب الصليبيين ضربة موجعة، ولعل ذلك يفسر عدم تحرك المسلمين في ذلك المعسكر لمساعدة الحامية في هذا الهجوم. وعلى كل حال كانت هذه المحاولة من الحامية هي الأولى والأخيرة لم تكررهما مرة أخرى مكثفية بالدفاع عن المدينة وتاركة مهمة شن الغارات على الصليبيين ومشاغلتهم للقوات الإسلامية الأخرى .

كان الأمير أبوفارس عبد العزيز معسكراً بقواته قبالة المعسكر الصليبي في انتظار القوات الرئيسية، وما هي إلا بضعة أيام حتى وصلت هذه القوات تحت إمرة عمه زكريا، وباشرت في إقامة معسكرها على تل قبالة المعسكر الصليبي وعلى بعد مرمى سهم منه^(٢)، وكان دوق بوربون قد علم بقرب وصولها من صفتين جنويتين كانا تجوبان الشواطئ

= القديس دنيس، هم من المجاهدين وغزاة البحر الذين كانوا يتركزون في المدينة، ولذلك فإننا نرجح أن تكون رواية كباريه دورفيل وميرو هي الأقرب إلى الصواب .

(١) انظر 472 p. 2, v. 2. Froissart : Op. Cit., p. 231. Cabaret D'Orville : Op. Cit., والذي يقول أن ذلك حدث في اليوم الثاني وليس الثالث، A.S.Aiya : Ibid. p. 417, R.Brunschvig : Op. Cit., Tom I. p. 200-1.

(٢) انظر L.Mirot : Op. Cit., p. 28. R.Brunschvig : Op. Cit., Tom I. p. 201.

القرية للتجسس على تحركات المسلمين^(١) الأمر الذي أفلقه، وزاد قلقه حينما رأى هذه القوات الضخمة تمسك بقلعه^(٢) إلى حد أن فصائل منها تقنعت وانسحبت مع الصليبيين، ومع أن ذلك الاشتباك كان محدوداً انتهى بحلول الظلام ولم يسفر عن شيء يذكر^(٣)، إلا أنه حسب أن ذلك مقدمة لهجوم كبير يزعم المسلمون شنه عليهم، ويبدو أن قلق دوق بوربون انتقل إلى الجند الصليبي، فسرت بينهم همسات تدعو إلى رفع الحصار عن المدينة لمواجهة الهجوم المرتقب، ولكن دوق بوربون رفض الفكرة بحزم ولقي في ذلك التأييد من صاحب كوسي وكونت دو^(٤)، لذلك عقد مجلس حربه لدراسة الموقف، وقد اقترح الجنوة الذين كانوا أكثر من غيرهم معرفة بأساليب القتال التي يتبعها المسلمون، اقترحوا تحصين المعسكر بسياج من الخشب والحبال بارتفاع أربعة أقدام ليأمنوا من غارات المسلمين المفاجئة، وقد نال هذا الاقتراح استحسان الجميع ويوشى في تنفيذه بالفعل، فأحضرت مجاديف السفن ودقت متشابكة في الرمال حول المعسكر بحيث يسهل على الرماة رمي السهام من الفتحات^(٥) التي كونها هنا التشابك، ولعل ذلك السياج هو الذي عناه ابن خلدون بقوله : (وضربوا عند أول طرقهم سوراً من الخشب بينه - البحر - وبين البنى)^(٦)، كما قسم جند حراسة المعسكر إلى مجموعات كل واحدة منها مكونة من مائة مقاتل وخمسين رام ووزعت حول المعسكر بحيث تبعد كل مجموعة عن الأخرى مسافة مائة وعشرين قدماً. وتمرکز في الجانب المواجه للمدينة ألف مقاتل وخمسمائة رام جنوي تحسباً لأي غارة من حاميتها^(٧). ولكن بالرغم من هذه التحصينات بدأ المسلمون في تنفيذ خطتهم بشن الغارات المفاجئة على الصليبيين دون الدخول معهم في معركة حاسمة فأخذوا يغيرون

A.S.Atiya : Op. Cit., p. 418. (١)

Delaville le Roux : Op. Cit., p.186. (٢)

Cabaret D'Orville: Op. Cit., p.236., A.S.Atiya: Ibid, p.418. (٣)

Delaville le Roux : Ibid, p.186 (٤)

Cabaret D'Orville: Ibid, p.233-4., L.Miort : Op. Cit., p.28. (٥)

A.S.Atiya: Ibid.p.419., R.Brunschvig : Op. Cit., Tom I, p.201.

(٦) ابن خلدون : المصدر السابق، ج٦، ص ٤٠٠.

Cabaret D'Orville : Op. Cit., p.234., L.Miort : Op. Cit., p.28., A.S.Atiya : Op. Cit., p.419. (٧) انظر :

عليهم يوماً كلما وانتهت فرصة المباغلة حتى تكررت الغارات في اليوم الواحد فضلاً عن الغارات الليلية التي كانوا يشنونها^(١) حيث كانوا يكيّدون العدو فيها الحساثر الجسيمة ويستشهد منهم من كتب له الحسنى. ويروي فرواسار أن المسلمين عزموا في إحدى الليالي على شن غارة من هذه الغارات الليلية بأعداد كبيرة، ولم ينفذ الصليبيون منهم إلا نباح كلب حراسة للجنوبيين نبههم لهذا الخطر الداهم، الأمر الذي جعل المسلمين يدركون أن فرصة المباغلة قد فاتتهم فقفلوا عائدين إلى معسكرهم^(٢). كما يصف محاولة هجوم ليلي آخر حاول المسلمون القيام به فيقول إنهم بينما كانوا يزحفون بحذر تحت جنح الظلام، اعترضتهم مجموعة من السيدات يرتدين ملابس بيضاء ويحملن أعلاماً رسم عليها صليبان حمراء فذعر المسلمون وولوا الأدبار^(٣)، والحقيقة أن هذه الخرافة إن لم تكن من نسج خيال فرواسار، فهي قد اختلقت لبث الحماس في نفوس الصليبيين، واختلاق مثل هذه الخرافة لم يكن بالأمر المستهجن على الصليبيين، ولها مثيلات كثيرة في تاريخ الحروب الصليبية. وعلى أية حال فقد أدت هذه الهجمات الغرض المتوخى منها، إذ أزعجت الصليبيين وبدأت تفتّر من حماسهم وتحط من معنوياتهم. وقد حاولت قيادتهم القيام بإرسال فصائل منهم في طلعات ضد المسلمين لرفع تلك المعنويات، ولكن المسلمين الذين كانوا يتقنون هذا النوع من الحرب كانوا يفشلونها؛ الأمر الذي جعلها تأتي بنتائج عكسية^(٤).

وتبعاً لذلك ازدادت جرأة المسلمين على أعدائهم فأقضوا مضاجعهم واضطروهم للبقاء في أسلحتهم ودروعهم الثقيلة طوال اليوم مما جعل تلك الدروع تصبح عبئاً ثقيلاً على أجسادهم التي ألهبها حرارة الشمس في ذلك الفصل القاطط فزادتهم الحرارة ضيقاً على ضيق، وكلما شعر المسلمون بهذا الضيق زادوا من غاراتهم التي كان يقوم بها فرسانهم الخفيفو الحركة نظراً لخفة دروعهم وأسلحتهم وسرعة خيولهم حيث كانوا يهاجمون

Cabaret D'Orville: Op. Cit., p.238., A.S.Aliya : Op. Cit, p.420, (١)

R.Brunschvig : Op. Cit., Tom 1 .p.201.

J.Froissart: Op. Cit., p.473. (٢)

J.Froissart: Ibid.vol, 2,p.473. (٣)

J.Froissart : Op. Cit., vol.2,p.471. (٤) انظر

الصليبيين تحت حماية رماةهم الذين كانوا ينضحون العدو بزخات متلاحقة من النبال ثم يرددون على الأرض انقاء لسهام رماة الجنوية لينهضوا بعد ذلك ويميدوا عملية الرمي من جديد في سرعة خاطفة^(١)، يكررون هذه العملية عدة مرات، حتى إذا ما وصل فرسانهم إلى المعسكر الصليبي والتحموا مع العدو كفوا عن الرمي، ويتنظرون فروغ هؤلاء الفرسان من مهمتهم، وعند انسحاب هؤلاء كان الرماة يستأنفون عملية الرمي من جديد لتغطية ذلك الانسحاب، حتى بات الصليبيون يضيّقون ذرعاً بهذه الغارات الخاطفة والمتلاحقة والتي لا ينرون متى وأين تشن عليهم، والتي لم يكونوا يملكون حيالها إلا مجرد العمل على صدها أو تقليل الخسائر الناجمة عنها بقدر الإمكان.

ولدى تكرار هذه الهجمات وقفل المحاولات التي كان يبذلها الصليبيون لحر المسلمين للدخول معهم في معركة حاسمة، بدأ دوق بوربون يفكر في أن يقوم هو بهجوم قوي على المسلمين بدلاً من انتظار هجومهم، لعله بذلك يكسب نصراً يرفع به معنويات جنوده، وفي نفس الوقت يحطم المقاومة الإسلامية المترايدة ويقتحم المدينة، ذلك لأن الوقت لم يكن في صالحه، فقوات المسلمين تتزايد كل يوم، على العكس من قواته التي كانت تتناقص سواء بفعل الحرب أو المرض دون تعويض، وواتته الظروف إذ عمل على استغلال حادث بسيط حدث في حدود منتصف أغسطس/ رمضان من ذلك العام، ذلك أنه وفقاً لرواية فرواسار المفرم بإضفاء مسحة درامية على الحوادث، جرت مناقشة لأوضاع الحرب بين مجموعة من الشبان المسلمين فأبدى أصغرهم سناً ويسميه فرواسار (Agadinquor)^(٢) ابن (D'Oliferne) والذي يقول عنه إنه يحب ابنة السلطان الوحيدة التي يسميها (Alsala)، أبدى رغبته في مبارزة الصليبيين ليبرهن لمحبوبته أنه يتمتع بشجاعة كبيرة ليكون جديراً بها، وقال لصاحبه إنه ما دام أن الحق في جانبه فإنه سينتصر إذا ما أُتيحت له الفرصة لمبارزة متكافة مع أحد الصليبيين، لذلك تقدم إلى المعسكر الصليبي بصحبة مترجم وطلب المبارزة،

L.Mirot : Op. Cit., p.29.

(١) انظر

(٢) إنه لمن الصعب التعرف على هذه الأسماء التي أوردتها فرواسار في اللغة العربية مع هذا التحريف الكبير عن الأصل العربي هذا إذا لم تكن من نسيج خيال فرواسار.

وتصادف أن كان قريباً من نخبة صليبي يدعى أفرنال (Affernal)^(١) فخرج إليه، وعندما فهم غرضه وافق على مطلبه بحيث يخرج عشرة من الصليبيين لمبارزة عشرة من المسلمين، وتم الاتفاق بينهما على أن تجري تلك المبارزة بعد أربع ساعات من ذلك الوقت يقوم كل منهما بخلافها باختيار شركائه التسعة الآخرين. وشاع خبر هذه المبارزة في المعسكر الصليبي حتى علم بها صاحب كوسي مساعد القائد العام للجيش الصليبي، فأنكر على أفرنال موافقته على مبارزة المسلمين بحجة أنهم قد لا يكونون أنداداً للصليبيين، فلربما كانوا من العبيد أو الخدم وتساءل عن عن جدواها، فإنهم إذا ما انتصروا فيها فلن يؤدي ذلك إلى دخولهم المهديّة فضلاً عن أنه سيعرض أرواحاً عديدة هامة للخطر، إذ لربما كان المسلمون قد نصبوا كميناً للصليبيين، وأنحى باللائمة على أفرنال مبنياً له أنه كان ينبغي عليه اصطحاب ذلك الشاب المسلم إلى القيادة بعد أن يمنحه الأمان في ذهابه وإلما به كي تقوم القيادة بمناقشته ومعرفة نواياه الحقيقية، وترد عليه بما تراه مناسباً، وطلب منه عدم إتمام تلك المبارزة إلا بعد ترو وكشف خصومهم المسلمين عن شخصياتهم، وذهب إلى دوق بوربون ليعلمه بالأمر فوجده على علم به وقد اجتمع ببعض القادة لبحثه^(٢).

وفي الوقت الذي كانت فيه بعض فصائل الصليبيين تستعد للذهاب لمشاهدة المبارزة، خرج دوق بوربون مع بعض مرافقيه للحيلولة دون إتمامها، وعندما اقترب من الحلبة رأى أعداداً صغيرة من المسلمين قد خرجت لتشاهد هي الأخرى تلك المبارزة، فرأى دوق بوربون أن هذه فرصة ثمينة ينبغي عليه استغلالها فأسرع بقوة تقدر بألقي جندي وهاجم معسكر المسلمين الذي كان شبه خال من القوات وأعمل فيه النهب وأشعل النار فيه، وقد تبعه كومت دو بقرة أخرى ليكون ردعاً له في حين بقي صاحب كوسي ببعض القوات في المعسكر الصليبي لحراسته والذي كان هو الآخر شبه خال إلا من المرضى وبعض الجنود، وفوجئ المسلمون بهذا الهجوم ولكنهم سرعان ما تمالكوا أنفسهم، فهرع قسم منهم إلى معسكرهم لإنقاذه في حين قام القسم الآخر بشن هجوم مضاد على المعسكر الصليبي،

(١) يذكر كل من (Delaville le Roux : Op. Cit., p.188) و (L.Mirot : Op. Cit., p.29) و (A.S.Atiya : Op. Cit., p.420) أن اسم هذا الفارس كان بوكيكو .Baucicaut.

J.Froissart: Op. Cit., vol.2, p.474-5.

(٢) انظر

واحتدم القتال في كلا المعسكرين، الأمر الذي اضطر دوق بوربون أخيراً إلى التراجع لحماية معسكره وانسحب المسلمون هم الآخرون من المعسكر الصليبي، وهكذا انتهت هذه المعركة بعد أن تكبد كلا الفريقين خسائر كبيرة^(١). ولما كانت المصادر الإسلامية المعاصرة لم تعرض لحوادث هذه الحملة إلا ببضعة سطور لا تتضمن إلا القليل جداً من المعلومات عنها والتي يعتبر تاريخ ابن خلدون على قلة المعلومات الواردة فيه عنها أكثرها تفصيلاً، وحيث إنها كلها لم تعرض لهذه الحادثة، فلا ندري مدى صحة الروايات المسيحية عن هذا الموضوع، وعلى كل حال فإن ما يمكن تأكيده من هذه الحادثة هو الهجوم المتبادل على كلا المعسكرين اعتماداً على ما ذكره الزركشي من أنه وقعت بين المسلمين والصليبيين حروب كثيرة (كان للمسلمين فيها جولة بحيث أملوا المحلة ودخلها العدو ولم يجد فيها عيناً تطرف عدا رجلاً واحداً مشياً قتلوه. وبينما هم في سبي الأزواد والأسباب إذا بالمولى أبي فارس نادى في المسلمين وجميع القواد ومن حضرهم من الجند وكر راجعاً تجاه العدو حتى أخذ المحلة من أيديهم قهراً فحميت العرب وانصرف العدو منهزماً وقتل منهم نحو خمسة وسبعين فارساً . . .)^(٢)، وكادت هذه الحادثة تنقلب إلى كارثة على المسلمين، ذلك أن أبا فارس الذي كان يقود الهجوم الإسلامي المضاد بنفسه كما هو واضح من رواية الزركشي، وأثناء تراجع المسلمين عن المعسكر الصليبي، رأى بعض المسلمين يقعون أسرى في أيدي الصليبيين، فلم يكن من أبي فارس إلا أن كر ببعض جنده لتخليصهم، ويدل أن الحماس استحوذ على كامل انتباهه، فلم يشعر إلا والصليبيون قد أحاطوا به من كل جانب وبأمرونة، وكانت عاداتهم في الحرب كما يقول الزركشي أنهم إذا أسروا ملكاً أو ابن ملك لا ينزلونه عن فرسه احتراماً له (فأخذوا بنان فرسه وساروا به، فألهمه الله سبحانه فأخلع عنان فرسه وألح على الغرس وهمزه فخرج من بينهم فرموه بسهام وأسنة وأنبوه بخيل وأعنة وهو لا يلتفت إلى أن وصل إلى المسلمين وسلمه الله عز وجل فكانت نجاته نصراً

J.Froissart : Op. Cit., vol.2, p.475-7.

(١) انظر عن ذلك :

Cabaret D'Orville: Op. Cit., p.245, Delaville le Roux : Op. Cit., p.188-190. L.Mirot : Op. Cit., p.29 A.S.Atiya: Op. Cit., p.420-1., محمد عوني يس : المرجع السابق، ص: ١٦٢ وما بعدها.

(٢) الزركشي : المصدر السابق، ص: ١١٢-١١٣.

آخر للمسلمين في ذلك اليوم^(١).

ولما لم تؤد هذه المعركة إلى النتيجة التي أملها الصليبيون، أدرك دوق بربرون أن بقاء جيشه في هذا الوضع دون الوصول إلى نتيجة حاسمة سيما وأنه كان قد مضى على وجودهم في إفريقية مدة تقارب السبعة أسابيع، سيؤدي إلى كثير من المخاطر نظراً لكون الصليبيين أصبحوا شبه محصورين بين المدينة والقوات الإسلامية المسلحة في خارجها والتي توالي الإغارة عليهم، فرأى ضرورة العمل على احتلال المدينة قبل تفاقم الوضع، فعقد مجلس حربه للبحث في هذا الموضوع، حيث تم اتخاذ قرار بالهجوم على المدينة بعد مناقشة مطولة أبدى الجنوية أثناها استعدادهم لصنع برج خشبي كبير من ثلاث طوابق وسلمين من نوع ما يسمى بمنقار الصقر (Bec de Falcon)^(٢) من الأخشاب التي أحضروها معهم^(٣)، وذلك من أجل نصبها على أسوار المدينة لاحتحامها، كما اتفق على خطة هذا الاحتحام والتي خلاصتها بدء الهجوم أولاً من البر، فإذا ما تركز دفاع الحامية على تلك الناحية وخلت ناحية البحر من المدافعين أو قل عددهم على الأقل قام القسم الآخر من القوات الصليبية بمهاجمة تلك الناحية فيتم احتحام المدينة^(٤)، وتبعاً لذلك دب النشاط في المعسكر الصليبي لتجهيز هذه المعدات مما جعل ذلك ينعكس على الجند فعلمهم الفرع والاستبشار واعتقدوا أن سقوط المهديّة في أيديهم قد بات وشيكاً^(٥).

(١) الزركشي : المصدر السابق، ص: ١١٣، انظر كذلك ابن خلدون : المصدر السابق، ج ٦، ص: ٤٠٠، الوزير السراج : المصدر السابق، ج ١، ق ٤، ص: ١٠٦٩. ويقتد برنجنفيل (R.Brunschvig: Op. Cit., Tom I, p.201) أن ذلك الحادث جرى يوم الهجوم على المهديّة في أوائل سبتمبر، هذا الهجوم الذي ستعرض له فيما بعد، ولكن الأصح هو أنه جرى يوم المباراة كما ذكرناه في المتن اعتماداً على رواية الزركشي.

(٢) يتكون هذا النوع من السلالم من سلم ذو غطاء خشبي بحيث يصبح وكأنه اسطوانة، ويتصل بطرفه الأعلى مشبك حديدي قوي على هيئة منقار الصقر ليثبت في حافة السور، ويتسع لحوالي خمسة عشر جندياً يتقلدون عبره إلى الأسوار وهم محميون من مقلوبات المدافعين .

انظر (A.S.Atiya : Op. Cit., p.422) ، محمد عوني يس : المرجع السابق، ص : ١٦٥ حافية ٨٦).

(٣) Cabaret D'Orville: Op. Cit., p.239., A.S.Atiya : Ibid, p.422.

(٤) L.Mirot : Op. Cit., p.30., A.S.Atiya : Ibid, p.422.

(٥) = Cabaret D'Orville: Ibid, p.240.

وبعد اكتمال هذه الاستعدادات التي استغرقت أسبوعاً، شرع الصليبيون في أوائل سبتمبر سنة ١٣٩٠م / رمضان سنة ٧٩٢هـ في شن هجومهم على المدينة من ناحية البر حسب تلك الخطة، وعلى ما يبدو أن الجنوية المقيمين بها كانوا يزودون الصليبيين بالمعلومات ويدلونهم على عورات البلد ونقاط الضعف عند المدافعين عنها، فيعتقد أنه بناء على توجيهاتهم استقر الرأي على جر البرج الخشبي إلى حد أبراج السور المواجهة للبر لأنه^(١) أقل استعداداً من غيره. وبدأ الهجوم شديداً واحتدم القتال عند (باب الفتوح) البوابة الرئيسية للمدينة وهي التي تدعى حالياً (السقيفة الكحلأ)، وتصدت الحامية للمهاجمين بقوة وبمالة واستماتت في الدفاع، وما أن تحرك البرج الخشبي باتجاه هدفه الذي رسم له حتى أدركت الحامية وجهته مما جعلها تسرع في نقل عدد من المدافع وتركزها في مواجهته، وبدأت تطره بقذائفها الملتهية، وقد استمر قذفه مدة يوم وليلة حتى اشتعلت فيه النار فحولته إلى كومة من الرماد قبل أن يصل إلى السور، ويصف ابن خلدون احتراق هذا البرج الخشبي وأثره على ذلك الهجوم بقوله : (وصنعوا برجاً من الخشب من جهة البرج يشرف على أسوار المعقل ليحطم نكايتهم، وتحصن أهل البلد وقاتلوهم صابرين متحسين . . . ثم تداركت عليهم الحجارة والسهام والنفض من أسوار البلد فاحرق البرج المظل عليها من جهة البحر فوجموا لحريقه . . .)^(٢). وزاد ضغط المهاجمين على البوابة الرئيسية أي عند السقيفة الكحلأ إلى حد أنهم تمكنوا من كسرها، ولكن حصانيتها^(٣) من ناحية واستماتة المسلمين

A.S.Atiya: ibid,p.422-3.

(١)

محمد عوني يس : المرجع السابق، ص : ١٦٦.

(٢) ابن خلدون : المصدر السابق، ج ٦، ص : ٤٠٠، انظر كذلك :

A.S.Atiya: ibid,p.422 - 3, R.Brunschvig : Op. Cit. Tom I,p.201.

(١) محمد عوني يس : المرجع السابق، ص : ١٦٨.

(٣) عابنت هذه البوابة عند زيارتي للمهدية، وهي من نوع ذي الأبواب المزدوجة بين الباب الأول والباب الثاني مسافة لا تقل عن الثلاثين متراً، وتصل مسافة دهليز هذه البوابة إلى ما لا يقل عن خمسين متراً ويملؤها برج حصين لا زالت آثاره ماثلة إلى وقتنا الحاضر، ونظراً لهذه الحصانة فإنه يصعب اقتحام المدينة من هذه الناحية.

لمزيد من التفصيل انظر : حسن حسني عبد الوهاب، وقات ق ٣، ص : ٣٧٤ وما بعدها.

في الدفاع عنها من ناحية ثانية فوثت على الصليبيين الفرصة في اقتحامها، إذ أن المدافعين قاموا بإصلاحها فوراً في الوقت الذي كانوا فيه لا زالوا يحيطون المهاجمين بقذائفهم من البرج الذي يعلوها^(١). وفي غضون ذلك بدأ الهجوم من ناحية البحر فتحركت سلاسل منقار الصقر على أربع سفن من نوع الصال^(٢) يتبعها عدد غفير من المشاة والرماة في القوارب، ولكن المسلمين كانوا متيقظين لحطة عدوهم ووضعوا خططهم المضادة لها فأدخلوا برج الميناء من المدافعين بعد أن غطوه بأرضية من الخشب بها فتحات متقاربة صغيرة اختفى تحتها عدد من الرماة، وتركز الدفاع على الأسوار في تلك الناحية التي استهدفها سلما منقار الصقر، ولدى اقتراب المهاجمين بدأ المسلمون يحيطون عدوهم بالقذائف والسهم والحجارة، وبالرغم من تمكن الجنوية من الوصول إلى الأسوار وتركيز أحد المسلمين عليها، فإن أول جنديين صعدا به وكانا من النورمان أمسك المسلمون بهما وقتلوهما وألقوا بجثتيهما إلى المهاجمين لإلقاء الرعب في نفوسهم^(٣)، ولم يلبثوا أن حطموا هذا السلم، وأما الثاني الذي نصب على البرج وصعد المهاجمون به إلى البرج المذكور، فما أن وطأت أقدامهم أرضيته الخشبية حتى بدأت سهام جند الكمين تنهال عليهم مما اضطرهم للتراجع^(٤)، وما هي إلا فترة وجيزة حتى احترق هذا السلم هو الآخر أيضاً، فاضطر المهاجمون إلى الانسحاب، كما انسحب المهاجمون من ناحية البر في ذلك الوقت أيضاً تحت ضغط هجوم مضاد قامت به القوات الإسلامية الموجودة خارج المدينة على المعسكر الصليبي لتخفيف حدة الهجوم على أسوارها، وبذلك فشل هذا الهجوم بالرغم من شدته وضرارته بعد أن تكبد كلا الفريقين خسائر كبيرة، وكانت

(١) انظر : A.S.Atiya : Op. Cit., p.192, L.Mirot : Op. Cit., p.31, Delaville le Roux : Op. Cit., p.423.

محمد عوني يس : المرجع السابق، ص: ١٦٨.
(٢) الصال جمع صالات وهي نوع من السفن يشبه الطوف يتسع لحوالي أربع مائة جندي (انظر محمد عوني يس : المرجع السابق، ص: ١٦٦ حاشية ٨٨).

(٣) A.S.Atiya: Ibid,p.423.

(٤) L.Mirot Ibid,p.31,A.S.Atiya: Ibid, p.423., Brunshvig: Op. Cit., Tom I,p.201.

محمد عوني يس : المرجع السابق، ص: ١٦٩.

النتيجة الوحيدة التي حققها الصليبيون هي تمكنهم من صد الهجوم الإسلامي على معسكرهم^(١). وقد حاول دوق بوربون تجهيز معنات جديدة لمعاودة الهجوم، ولكن الجنوية أخبروه بنفاذ كمية الأخشاب التي كانت لديهم^(٢) الأمر الذي جعله يشعر بالعجز عن تحقيق نتيجة حاسمة.

مناعب دقي بوربون وعقد الصلح :

بدأ دوق بوربون يواجه العديد من الصعوبات والمناعب منذ وصوله بحملته إلى إفريقية فضلاً عن المناعب التي واجهها من قبل سواء في مرسيليا أو في عرض البحر خاصة هبوب العاصفة الهوجاء على أسطولها التي بعثت قطعه واضطرت للتوقف في جزيرة كولنيرا تسعة أيام، الأمر الذي أضاع عليه فرصة أفضل لمفاجأة المهدية، وفسح المجال أمام المسلمين للمزيد من التآعب والاستعداد لمواجهة الحملة^(٣)، ومع أنه تمكن من إنزال جنده إلى البر دون مقاومة تذكر، ثم فرضه الحصار على المدينة، إلا أن جيشه قد أصبح هو في حكم المحاصرين القوات الإسلامية خارج المدينة وبين حاميتها، وهذا الوضع لم يفسح له المجال لقتل كبير من المناورة فقلما جاء محصور بخير كما يقال، وبدأت المناعب بعد ذلك تتوالى عليه وعلى جنده، فقد فشل في جر المسلمين للدخول معه في معركة فاصلة يحرز فيها نصراً عليهم يمكنه من احتلال المدينة، وبدلاً من ذلك وقع جيشه تحت رحمة المسلمين يوجهون إليه الضربة تلو الأخرى هذا من ناحية، ثم فريسة لحرارة الشمس في صيف إفريقية القائل الذي لم يتعمده جنده، فضلاً عن اضطرابهم وخاصة الفرسان منهم للبقاء في أسلحتهم ودروعهم الثقيلة تحمباً من غارات المسلمين مما زاد في عبء الحرارة على أجسامهم، حتى أخذ الكثير منهم يعاني من الإرهاق وحتى المرض إن صححت الروايات المسيحية^(٤) من ناحية ثانية،

Cabaret D'Orville : Op. Cit., p.241-242.

(١)

L.Mirot : Op. Cit., p.31, A.S.Atiya : Op. Cit., p.423.

(٢)

R.Brunschvig : Op. Cit., Tom I, p.201.

(٣)

Delaville le Roux : Op. Cit., p.190.

(٤) انظر عن ذلك :

R.Brunschvig: Ibid, Tom I, p.201.

ويأتي عامل هام آخر ليزيد من تلك المتاعب هو سوء التغذية لعدم وصول إمدادات التموين إلى الجيش الصليبي بانتظام، إذ أن المؤن التي زودت جنوه بها الحملة لم تكن كافية لمدة طويلة، حيث كان من المأمول أن يتم الاستيلاء على المهديّة في غضون أيام قليلة وقيل نفاذ تلك المؤن وبذلك يمكن للصليبيين الحصول على ما يلزمهم منها من المدينة ومن المناطق الأخرى التي كان من المأمول أن يقوموا باحتلالها تبعاً أثناء تقدمهم في إفريقية، ولكن صمود المدينة أكثر مما كان متوقّعاً جعل خطر احتمال نفاذ الأقوات التي أحضروها معهم يبرز بوضوح، حتى نوعية تلك الأقوات المجلوبة لم تكن كلها لتتناسب أذواق الفرنسيين فالخمر الذي أحضره الجنويون من إقليميّ أبوليا وقلورية (كلابريا) بجنوب إيطاليا مثلاً وهو مادة ضرورية ني طعام الأوروبي لم يكن يناسب ذوق الفرنسيين لقوته^(١)، مما زاد في ضيقهم وتبرمهم، وحيال خطر نفاذ المؤونة، كان على دوق بوربون العمل على استحضارها من الدول المسيحية القريبة من إفريقية، وقد عملت السلطات الحاكمة في نابلي وصقلية والجزر القريبة الأخرى كسردينيا وكورسيكا وحتى كريت شرقاً وبرشلونة غرباً على مد الصليبيين بحاجتهم من هذه المؤن إما طمعاً ني الربح المادي أو شعوراً منهم بالواجب تجاه هذا الجند الذي يحارب المسلمين وتضامناً معه. فوصل إليهم الخمر من كانديا (Candia)^(٢) كما وصلتهم شحنة من الفواكه ومعظمها من البرتقال والرمّان من برشلونة^(٣) علاوة على بعض أصناف المواد الغذائية الأخرى من مناطق أخرى، ولكن هذه الشحنات لم تكن تصل بانتظام حسب قول المصادر المسيحية^(٤) مخفلة ذكر السبب في ذلك، والذي أراه أن ذلك يعود إلى نشاط غزاة البحر المسلمين، فإذا كان معظم الذين يتركزون في المهديّة من هؤلاء الغزاة قد حصروا فيها قاصرين نشاطهم في تلك الفترة للدفاع عنها، فإن نظرائهم في بجاية وغيرها من مدن إفريقية الساحلية كانوا لا يزالون مطلقي الأيدي، ومن غير المنطقي أن يروا

A.S.Atiya : Op. Cit.,p.425.

(١)

(٢) كانديا هي مدينة الخندق التي أسسها غزاة البحر الأندلسيين حينما قاموا بفتح جزيرة كريت (أقريطش) بقيادة أبي حفص عمر البلوطي، وحرف هذا الاسم حتى أصبح كانديا.

J.Froissayri : Op. Cit., vol.2, p.469.

(٣) انظر

(٤) انظر مثلاً : J.Froissart: Ibid,v.2,p.469. كذلك رواية أوبرتي فوليتاي (U.Polietae) في محمد

عوني يسن: المرجع السابق، ملحق ١، ص : ٢٤٦.

العدو يهاجم بلادهم ويقفون موقف المتفرج من تلك الحرب، فلا بد أن يكونوا قد وجهوا نشاطهم لقطع إمدادات العدو وأخذوا بتصليدون غالبية السفن المقلّة لهذه المؤن حتى لا تصل للصليبيين. ثم يضاف إلى تلك المتاعب صعوبة أخرى واجهها الصليبيون وقطع هي أنهم في موقعهم على الشاطئ كانوا يجدون صعوبة بالغة في الحصول على المياه العذبة الصالحة للشرب، وقد حاولوا التقلب على ذلك بحفر العديد من الخفر في رمال الشاطئ لتجميع المياه الجوفية، ولكن ما كانوا يحصلون عليه منها كان قليلاً وعكراً تعافه النفس^(١)، وزاد في تلك المتاعب إنباء الحشرات والهوام لهم، فيذكر فرواسار أن أسراباً من الحشرات هاجمت الصليبيين مدة أسبوع، ولم ينقذهم منها إلا عاصفة قضت عليها بعد أن تسببت لهم تلك الحشرات في كثير من المضايقات^(٢).

لقد كان لهذه المتاعب أثرها بلا شك في الخط من معنويات الصليبيين، ولكنها تبقى عوامل ثانوية إذا ما قورنت بسبب هام رئيسي جعلهم يدركون فشل مساعيهم تحاول العديد من المصادر والمراجع الغربية إخفاءه تحت ستار هذه العوامل الثانوية ألا وهو شدة المقاومة الإسلامية، لقد أقام الصليبيون محاصرون المهدية مدة تزيد عن الشهرين دون أن يتمكنوا من تحقيق أي نتيجة تذكر، فلا هم نجحوا في اقتحام المدينة، ولا هم نجحوا في القضاء على الجيش الإسلامي المسلح خارجها، وقد حاولوا ذلك في كلا الاتجاهين فباؤوا بالفشل. فشلوا في تحقيق نصر كاسح على الجيش الإسلامي في المعركة المفتوحة التي نشبت يوم المبارزة في منتصف شهر أغسطس، كما فشلوا في اقتحام المهدية في هجومهم الكبير الذي شنّه عليها بعد ذلك بحوالي أسبوعين، فكان لكلا الفشلين أثره القوي على معنويات الجند الصليبي، لذلك كانت شدة المقاومة هي السبب الرئيسي في تردي هذه المعنويات، ولعل ابن خلدون كان خير من عبر عن ذلك، فقد بين بوضوح أن احتراق البرج الخشبي الذي هو رمز لفشل الهجوم الكبير على المدينة كان له أبلغ الأثر في شعورهم بالفشل ومن ثم انسحابهم إذ يقول : (فوجموا لحريقه ثم ركبوا من الغد أسطولهم وأقلعوا إلى بلادهم)^(٣). ولا يعني ابن خلدون بقوله من الغد أي في صبيحة

L.Mirot : Op. Cit., p.30.

(١) انظر

J.Froissart : Op. Cit., vol.2, p.473

(٢)

(٣) ابن خلدون : المصدر السابق، ج٦، ص: ٤٠٠.

اليوم التالي، قالقد ينسحب بطبيعة الحال على المستقبل، ويؤكد هذه الحقيقة ابن القنبل بقوله: (وخب الله سعيهم وانصرفوا... وافقت عليها - المهدية - وقائع...)^(١)، ويؤكد تأكيداً كل من ابن التمام حين يقول: (. . . فولى حربهم ولده الأنجب وخلاصة عنصره المنتخب مولانا أبا فارس عبد العزيز فيدل نفسه وماله في الجهاد وأظهر من نفسه الجلد عند الجلال حتى صرف الله الكافرين إلى بلادهم المدمرة خاسفين)^(٢)، ثم المقرري بقوله: (فكانت حروباً شديدة، انتصر المسلمون فيها على الفرنج وقتلوا كثيراً منهم)^(٣).

وكان لقنبل دوق بوربون في إحرار نصر حاسم وسريع أثره القوي على فقدان الجنود للثقة به حتى بدأت روح التذمر منه تسري بينهم ويوجهون النقد إليه علناً فأخذوا عليه حسب قول فرواسار أنه كان متعاليّاً عليهم محتجباً عنهم لا يكثر بهم كثيراً ولم يكن يترك مقره ليحترف على مشاكلهم ويعمل على حلها أو حتى يهتم براحة فرسانه، ولم يكن لأحد أن يتصل به إلا عن طريق سلسلة من الوسطاء على عكس مساعده صاحب كوسي الذي كان كريماً من كافة الوجوه ذا طريقة محبة في التعامل، ويضيف فرواسار أن بعض فرسان الحملة أخبروه أنه لو قدر لصاحب كوسي أن يقود الحملة بدلاً من دوق بوربون لتغيرت نتائجها ولحالفها التوفيق، لأن كثيراً من الوقائع التي جرت بين الصليبيين والمسلمين فشلت في تحقيق أهدافها نتيجة أخطاء دوق بوربون وغروره، ويعتقد الكثيرون أنه لولا قيادته غير الحكيمة لأمكن الاستيلاء على المدينة^(٤). ويؤكد جستنياني الذي يمثل وجهة نظر جنوه بطبيعة الحال ذلك ويلقي باللائمة على الفرنسيين، فيقول إنه نظراً لسوء النظام الذي ساد بين الفرنسيين فشلت الحملة وعاد الأسطول من حيث أتى^(٥). وهكذا بدأ الصليبيون

(١) ابن القنبل: المصدر السابق، ص: ١٨٨، انظر كذلك ابن التمام: المصدر السابق، ص: ١٤١، الزركشي: المصدر السابق، ص: ١١٣، الوزير المراج: المصدر السابق، ج: ١، ق: ٤، ص: ١٠٧٠، ابن مقديش الصفاقسي: المصدر السابق، ورقة ٢٠١.

(٢) ابن التمام: تكميل التاريخ المسمى الأدلة البيئة النورانية، مخطوط، تونس، ١٠١١، ورقة ٨٥.
(٣) المقرري: السلوك، ج: ٣، ق: ٢، ص: ٧٢٥، انظر أيضاً ابن الصيرفي: المصدر السابق، ص: ٣١٤.

(٤) انظر J.Proissart: Op. Cit., vol.2, p.472 - 473, L. Mirot: Op. Cit., p.30.

محمد عوني يس: المرجع السابق، ص: ١٧٦.

(٥) انظر Agostino Guistiniani: Op. Cit., vol.2, p.163.

يشعرون أن آمالهم في الاستيلاء على المهدية قد خابت وأن إقامتهم في إفريقية أصبحت عديدة الجدوى والأفضل لهم أن ينسحبوا عائدين إلى بلادهم قبل حلول فصل الشتاء حيث يتعذر عليهم حينذاك السفر في البحر.

ولم يكن المسلمون أقل رغبة من الصليبيين في إنهاء هذه الحرب، صحيح أن الزمن كان في صالحهم ولكن لفترة محدودة، إذ لو أقام الصليبيون على المهدية حتى فصل الربيع التالي لأمدتهم أوروبا بقوات جديدة حيث تكون حامية المدينة وأهلها قد ضعفوا عن المقاومة الأمر الذي يوفر للصليبيين فرصة اقتحام المدينة وهم يدركون سلفاً نتيجة ذلك الاقتحام إذ أن دماءهم متسفك وأموالهم مستتهب وأعراضهم مستتهك، وبعد تمركز الصليبيين في المدينة يصعب إخراجهم منها، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية فإن السلطان الحفصي الذي واجه منذ اعتلائه العرش العديد من الثورات حتى إنه قضى الشطر الأكبر من عهده يعمل على إخمادها، لم يكن يأمن من نشوب ثورة جديدة يقوم بها أحد الطامعين بالعرش منتهزاً فرصة انشغاله بالصليبيين الأمر الذي يهدد سلطانه بالزوال، لا سيما وأنه كان هنالك بعض النواحي في إفريقية لم تكن قد خضعت له تماماً بعد، والتي قام بإخضاعها بعد رحيل الصليبيين مثل طرابلس وقفصة، كما كان يدرك صعوبة الاحتفاظ بالأعراب الهلالية الذين كانوا قوة كبيرة في جيشه في حرب طويلة الأمد ولربما تركوا القتال إذا ما انقضى فصل الصيف للنجعة في مراعيهم بالجنوب، وذلك يحمل في طياته خطر تغلب الصليبيين على قواته المتبقية، فإذا كان قد عجز عن طرد الصليبيين بوجود الهلالية فهو بدونهم أعجز عن ذلك.

لذلك، فقد كان لكلا الطرفين متاعبه التي جعلته راغباً في إنهاء هذه الحرب وعقد الصلح، وكان الجنوبية الأكثر رغبة في ذلك في الجانب الصليبي، لقد كانوا يشعرون أنهم الشريك الأكثر خسارة في هذا المشروع الذي كلفهم الكثير دون أن يحقق لهم شيئاً مما كانوا يطمعون فيه، فقد أنفقوا كثيراً من الأموال في تجهيز الحملة كان من الممكن أن تستمر في أعمال تجارية تدر عليهم الربح، وجمدوا أسطولهم موسمياً كاملاً كان من الممكن أن يستخدم في الأعمال التجارية أيضاً فيعود عليهم بأرباح وافرة، والأهم من هذا وذاك أنهم

غامروا بمصالحهم التجارية الكثيرة مع إفريقية في سبيل هذا المشروع الفاضل والتي من المؤكد أنهم سيفقدونها، وقد انعكس هذا الشعور على تصرفاتهم فأخذوا يظهرن الاستياء من بطء سير العمليات الحربية ونتائجها ويتذمرون من القيادة ويوجهون النقد لدوق بوربون، ويقول فرواسار في ذلك إنهم كانوا لا يخفون شعورهم باليأس من النصر وأن بعضهم كان يقول للفرنسيين : (إنكم أيها الفرنسيون شجعان في الحروب، وكنا نعتقد عندما غادرنا جنوه أنكم مستولون على المهديّة خلال أسبوع أو أسبوعين، وها نحن ذا قد أمضينا الآن شهرين دون أن نحقق شيئاً، ويبدو لنا جلياً على ضوء المعارك التي خضناها أن المدينة لن تخضع لكم، وإنكم لن تتمكنوا منها أبداً)^(١).

ووصل بهم الأمر حدّاً أن قالوا لدوق بوربون نفسه الذي كان يصبر على مواصلة الحصار أن الأمل غداً ضعيفاً جداً في تحقيق أهداف الحملة لأن المهديّة مدينة في غاية الحصانة، وأن المسلمين يطاولون في القتال عمداً إلى وقت غير معروف وأن الزمن في غير صالح الصليبيين، فضلاً عن أنهم لم يعودوا يملكون المواد اللازمة لصنع المعدات لشن هجوم آخر على المدينة، ولم يكفوا بذلك بل أبغضوا استياعهم من التأخير في تحقيق النصر ومن تعطيل أرزاقهم^(٢) ونظراً لهذا الاستياء والتذمر الذي أشاعه الجنويّة بين الصليبيين^(٣) أصبح دوق بوربون على ما كان له من مهابة وتأثير قوي على جنده، وقد تقلص نفوذه عليهم واحترامهم له إلى حد كبير حتى ارتفعت أصوات الكثيرين منهم قائلة بأن بقائهم أصبح عديم الفائدة لأنهم لن يتمكنوا بهذه المناوشات البسيطة مع المسلمين من احتلال المهديّة، الأمر الذي جعله يدرك أن هذه الظروف تحتم عليه البحث عن حل سريع^(٤). ويبدو أن الجالية الجنويّة التي كانت مقيمة في المهديّة إدراكاً منها بأن فشل الحملة قد بات أمراً محتوماً، وتحسباً من احتمال انتقام المسلمين منها بعد رحيل الصليبيين^(٥)، استلمت زمام

J.Froissart : Op. Cit., vol.2, p.482. (١)

L.Mirot : Op. Cit., p.23. محمد عوني يس : المرجع السابق، ص: ١٧٧ - ١٧٨. (٢)

J.Froissart : ibid, vol.2, p.482. (٣)

Delaville le Roulx : Op. Cit., p.193. (٤)

(٥) يقول ميرو (L.Mirot : Op. Cit., p.30) إن المسلمين في المهديّة كانوا يهددون الجنويّة بأنهم=

المبادرة، فوجهت بالرجاء لقائد الأسطول الجنوي جيوفاني ستريوني وبقية القادة الجنويين للعمل على الوصول إلى اتفاق مع المسلمين فهو الأمر الأسلم عاقبة، وعلى ذلك دخل الجنوية في مفاوضات مع المسلمين دون علم دوق بوربون لعقد صلح يكفل لهم تأمين مصالحهم التي هي في نظرهم الأهم بالنسبة لهم ضاربين بمصالح الحركة الصليبية عرض الحائط في سبيل مصلحتهم الذاتية^(١) الأمر الذي جعل بعض المؤرخين المسلمين يعتبرونه غدراً من الجنوية بالفرنسيين، فيقول الزركشي في ذلك : (لم أن النصرى اختلوا فيما بينهم وأراد الجنوي الغدر بالفرنسيين)^(٢)، ويؤيد الوزير السراج ذلك بقوله: (لم أن النصرى أنفسهم اضطربت أحوالهم لأنهم كانوا من فرقين أهل جنوه وفرانسه، وأراد أهل جنوه الغدر بالفرنسيين ولكن لا قوة لهم وتفرقوا شذراً بعد أن أقاموا شهرين ونصفاً)^(٣). وقد قامت جالية جنوه في المهديّة وعبد الله الترجمان بدور هام في هذه المفاوضات فكانت تلك الجالية الوسيط بين المسلمين والقادة الجنوية في الحملة، وتذكر المصادر المسيحية أنه عندما توصل الطرفان إلى اتفاق مبدئي يقوم على أساس انسحاب الصليبيين مقابل تعهد من السلطان بعدم القيام بأي عمل عدائي ضد الدول المشاركة في الحملة وهذا الأمر هو في صالح الجنويين أكثر من غيرهم، إذ يكفل لهم ما كانوا يصبون إليه من تأمين حرية التجارة، عرض قادتهم هذا الأمر على دوق بوربون الذي رفض هذا العرض بكبرياء قائلاً بأنه وجنده لم يحضروا إلى إفريقية لإقامة سلام مع سلطانها أو حتى لجرد الغنيمة، وإنما جاء للاستيلاء عليها، الأمر الذي جعل الجنوية يبحثون عن أسس أخرى للصلح يرضى بها دوق بوربون^(٤). وبعد جهود مكثفة ومفاوضات دامت أربعة أيام توصلوا إلى اتفاق آخر مع المسلمين يحلوا الصليبيين بموجبه عن المهديّة مقابل عقد اتفاقية مع السلطان مدتها عشر سنوات تتضمن الشروط التالية :

= سيقومون بإعادتهم في السجون انقائاً لما فعله بنو جنسهم بهجومهم على بلادهم، أما المصادر الإسلامية فلم تشر لشيء من هذا القليل.

(١) Caharet D'Orville : Op. Cit., p.247, A.S.Atiya : Op. Cit., p.426. Maurice Hiem : Op. Cit., p.93.

(٢) الزركشي - المصدر السابق، ص: ١١٣.

(٣) الوزير السراج : المصدر السابق، ج ١، ق ٤، ص: ١٠٧٠.

(٤) L.Mirot : Op. Cit., p.32. محمد عوني بن : المرجع السابق، ص: ١٨٢.

١- يتعهد السلطان بعدم إلحاق أي ضرر بالمسيحيين المقيمين في بلاده خلال مدة هذه الاتفاقية.

٢- يدفع السلطان إلى جنوة عائدات ميناء المهديّة لمدة ١٥ سنة.

٣- يدفع السلطان للدوق بوربون وبقية المشاركين في الحملة مبلغ (٢٥) ألف دوكانت^(١) خلال سنة كتعويض حرب.

٤- أن يضمن تجار قطلونية وسردينيا ونابلي المقيمين في المهديّة السلطان في تنفيذ هذا الاتفاق^(٢).

وأعطى الصليبيون مهلة أربعة أيام لإبداء رأيهم بشأن هذا الاتفاق، ولدى عرضه على دوق بوربون عقد مجلس حربه لمناقشته^(٣)، حيث تقرر قبول عقد الصلح بموجب هذه الشروط التي اعتبروها نصراً يعادل امتلاكهم للمهديّة، وقرروا الانسحاب من إفريقية على أمل إعداد حملة صليبية جديدة توجه إليها، حيث عبر صاحب كوسي عن ذلك بقوله للجنوبة بأن مشيئة الله قضت بالعودة إلى فرنسا لإحاطة ملكها الشاب علماً بأحوال هذه البلاد، وأضاف قائلاً بأنه لما كان ليس للملك الفرنسي خطة محددة في الاستفادة من جيشه بعد عقد السلم بينه وبين ملك إنجلترا، فإنه سوف يتصحه بإعداد حملة أخرى إلى نفس هذا البلد، كما وأنه يتوحي مواجهة ملك صقلية لنفس الغرض^(٤)، وبعد إمضاء هذا الاتفاق حدد

(١) الدوكات وحدة نقد عرفت في أوروبا في العصور الوسطى كان متوسط قيمتها في تلك الآونة نصف جنيه إنكليزي تقريباً. (انظر محمد عوني يـ: ص: ١٨٤).

(٢) Cabaret D'Orville : Op. Cit., p.247, L.Mirot : Op. Cit., p.32, Delaville le Roulx : Op. Cit., p.94, A.S.Atiya Op. Cit., p.426, R.Brunachvig : Op. Cit., vol 2, p.202.

محمد عوني يـ: المرجع السابق، ص: ٢٤٨-٢٤٩.

وأما فوليتاي U.Folietae (انظر محمد عوني يـ: المرجع السابق، ملحق رقم ١، ص: ٢٤٨-٢٤٩) فيذكر في روايته شرطاً ينص على إطلاق سراح جميع الأسرى المسيحيين الذين كانوا لدى السلطان، ويفضل ذكر حصول جنوه على عائدات ميناء المهديّة، كما يجعل قيمة التعويض عشرة آلاف دوكانت بدلاً من خمسمائة ألفاً، ولعله يقصد بذلك المبلغ الذي دفع بالفعل، إذ أن السلطان لم يدفع إلا عشرة آلاف فقط في العام التالي سنة ١٣٩١م.

(٣) لمزيد من التفصيل عن ما دار في هذا الاجتماع انظر: Delaville le Roulx: A.S.Atiya: Ibid, p.426, L.Mirot : Ibid, p.31-32.

محمد عوني يـ: المرجع السابق، ص: ١٨٥-١٨٦.

J.Froissart : Op. Cit., vol.2 p.482.

(٤)

الصلبيون موعد رحيلهم بنهاية شهر سبتمبر سنة ١٣٩٠م / شوال ٧٩٢هـ ومذ ذاك فرعوا في الاستعداد للرحيل. أما المصادر الإسلامية فلا تتعرض لشروط هذا الصلح، ولكن يستشف من رواية ابن القنفذ ما يؤيد الشرطين المتعلقين بدفع المال للصلبيين على الأقل، وقد اكتفى في ذلك بالتلميح دون التصريح لموقعه من السلطان أبي العباس وابنه أبي فارس الذي خلفه في الحكم والذي قام بدور كبير في كلا الحرب والمفاوضات، فهو يقول : (وكان السلطان - رحمه الله - يحاول الأمر في ذلك بالإتفاق وغيره)^(١).

انسحاب الصليبيين وفشل الحملة :

وفي الموعد المحدد بدأ الصليبيون يعودون إلى سفنهم، وكان دوق بوربون آخر من غادر بر إفريقيا بناء على رغبته^(٢). ويبدو أنه كان يخشى من مهاجمة المسلمين لجيشه أثناء الانسحاب، فاحتاط لذلك بأن أخفى كميناً من مائتي مقاتل ومائة رام لتغطية هذا الانسحاب عند اللزوم، وكان هذا الاحتياط ذا نفع للصلبيين بالفعل، ذلك أنه تقدمت قوة من المسلمين وهاجمت القوات الصليبية، فخرج ذلك الكمين عليها واشتبك معها حتى تمكن من صدها بعد أن قتل مائة من أفرادها كما تقول بعض المراجع الغربية وما عدا ذلك الحادث تم الانسحاب بدون متاعب^(٣)، حيث أقبلوا بعد ذلك إلى جزيرة نيبيرا، بعد إقامة دامت (٧٣) يوماً (٥ شعبان - ٢٠ شوال سنة ٧٩٢هـ / ٢٢ يوليو - ٣ أكتوبر سنة

(١) ابن القنفذ : المصدر السابق، ص: ١٨٨ .

(٢) Cabaret D'Orville: Op. Cit., p.250, J.Froissart : Op. Cit., vol.2, p.483, A.S.Atiya : Op. Cit., p.427. (٢)

Delaville le Roulx : Op. Cit., p.194-5, L.Mirot : Op. Cit., p.33. (٣)

(٤) إن مدة إقامة الصليبيين على المهدية هي موضع خلاف بين المصادر التاريخية الإسلامية والغربية على حد سواء، وخلاصة ما تقوله المصادر والمراجع الغربية إن هذه الإقامة كانت في حدود شهرين من ٢٢ يوليو إلى ٢٣ سبتمبر، ويؤيد هذا القول من المصادر الإسلامية ابن أبي دينار (المصدر السابق، ص: ١٥٣). ويقول ابن الشماخ (المصدر السابق ص: ١٤١) إنها كانت شهرين وعشرة أيام، أما ابن القنفذ (المصدر السابق : ص١٨٨) وروايته هي التي اعتمدنا عليها في الملغ لأنه كان معاصراً للحملة وكتب مؤلفه بعد حوادثها بفترة وجيزة، فيقول إن إقامتهم كانت شهرين ونصف، دون أن يحدد يوم النزول أو الانسحاب ويؤيده في ذلك الزركشي (المصدر السابق ص: ١١٣)، وابن مقديش الصفاقسي : (المصدر السابق ورقة ٢٠) والوزير السراج (المصدر السابق ج١، ق٤، ص٤٤٠).

١٣٩٠م^(١) الأمر الذي أبهج المسلمين، وقد عبر ابن خلدون عن ذلك بقوله: (وخرج أهل المهديّة يتباشرون بالنجاة ويتنادون بشكر الأمراء على ما اعتملوه في نصرهم)^(٢). ويبدو أن الصليبيين حينما غادروا المهديّة لم يكونوا قد وضعوا خطة واضحة لعودتهم، ولذلك دارت بينهم مناقشات مطولة في جزيرة كونييرا حول هذا الموضوع والتي أقاموا فيها يوماً لتحديد وجهة سيرهم، فأبدى بعضهم رغبته في العودة إلى وطنه، ورغب فريق آخر في الرحيل إلى نابلي، بينما أصّر فريق ثالث على نقله إلى صقلية أو قبرص أو ردوس للتوجه منها لزيارة الديار المقدسة^(٣)، وكان قادتهم الذين ماءهم فشلهم في احتلال المهديّة يرغبون في إحراز نصر ما على المسلمين قبل عودتهم إلى أوروبا يحفظ عليهم ماء وجوههم، فسارع الجنوة إلى استغلال هذه الرغبة لتحقيق مصالحهم الذاتية، فأقنعوا دوق بوربون الذي أبدى استعداده لخاربة المسلمين في أي مكان يريده الجنوة^(٤)، بالتوجه إلى سردينيا لتحقيق مطامعهم فيها على حساب أرغونة ويزا، إذ زعم قائد الأسطول جيوفاني منتريوني للوق بوربون بأن غزاة البحر المسلمين الذي يهاجمون شواطئ إيطاليا الغربية وجنوب فرنسا يتزودون من هذه الجزيرة بالماء والمؤن^(٥)، فاحتلال الحملة لهذه الجزيرة هو خدمة للمسيحية عامة ولجنوه بصفة خاصة، وبذلك أصبحت هذه الحملة النوعية في يد الجنوةين يوجهونها حسب أهوائهم، وعلى أية حال وافق دوق بوربون على اقتراح الجنوة وغادر الصليبيون الجزيرة في اليوم التالي حيث اتجه قسم إلى المشرق واتجه القسم الآخر وهو الأكبر مع دوق بوربون إلى جزيرة سردينيا^(٥)، وهكذا انتهت حوادث آخر حملة صليبية كبرى توجه إلى إفريقية في العصور الوسطى.

= ص: ١٠٧٠) ولما كان ابن الشماع قد حدد يوم تزولهم على المهديّة يوم ٥ شعبان فإن انسحابهم كان في حدود يوم ٣٠ شوال كما أثبتناه في المتن.

(١) ابن خلدون: المصدر السابق، ج ٦، ص: ٤٠٠.

(٢) Delaville le Roux: Op. Cit., p.195, R. Brunshvig: Op. Cit., Tom I, p.202.

(٣) Cabaret D'Orville: Op. Cit., p.251.

(٤) Cabaret D'Orville: Ibid, p.251-252. L.Mirot: Op. Cit., p34, Delaville le Roux: Ibid, p.196.

(٥) لمزيد من التفصيل عن رحلة العودة انظر:

Cabaret D'Orville: Ibid, p.251, A.S.Atiya: Op. Cit., p.428-9, R. Brunshvig: Ibid, Tom I, p.202

محمد عوني يس: المرجع السابق، ص: ١٩٣ وما بعدها.

وأما نتائجها، فقد اتفق المؤرخون المسلمون والغربيون على حد سواء على أنها منيت بالفشل النريع، فلا هي حققت أيًا من أهداف الحركة الصليبية في إفريقية، ولا وضعت حداً لنشاط غزاة البحر المسلمين ولا أشبعت طمع الذين جرهم هذا الطمع في النهب والغنيمة من أولئك الذين شاركوا فيها، ولا هي حافظت على مصالح جنوه التجارية، فقد علق ابن خلدون^(١) على هذا الفشل بالآية الكريمة: ﴿ورد الله الذين كفروا يغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال﴾، وعلق ابن القنفذ بقوله: (وخبب الله معهم)^(٢)، ويقول دلافيل ليرود (Delaville le Roux) في هذا الموضوع إن هذه الحملة لم تؤت ثمارها ولم تحقق أي هدف من أهدافها بالرغم من كل ما بذله الصليبيون المتحمسون من جهود^(٣)، ويقول برنغفيك - مع تحفظنا على قوله لأنه قصر أهداف الحملة على معاقبة غزاة البحر المسلمين - لقد فشلت الحملة في تحقيق هدفها الأساسي المتمثل في عقاب قراصنة إفريقية ووضع حد لنشاطهم^(٤)، ويعترف شارل أندري جوليان صراحة بهذا الفشل حين يقول: (... وقشل الهجوم ولكن قد تكون المهنية اضطرت إلى دفع الأثاوة...) ^(٥)، ويقول نورمان دانيال Norman Daniel: (لقد كانت نتائج هذه الحملة غير مقنعة، لقد فشل الهجوم كحملة صليبية، وقرر العرب بحق أنه قد تم صد الأوروبيين، وقد وجد الفرنسيون بعد ذلك حجة ليزعموا بأن النقود التي أغلنوها هي جزء من جزية دائمة فرضت على المدينة، وهو أمر غير صحيح)^(٦)، ويؤكد W.Heyd هذه الحقيقة بقوله: (ولسوء الحظ فشلت حملة دوق

(١) ابن خلدون: المصدر السابق، ج ٦، ص: ٤٠٠.

(٢) ابن القنفذ: المصدر السابق، ص: ١٨٨، وقال نحو قوله كل من الزركشي (المصدر السابق) ص: ١١٣، وابن الضماخ (المصدر السابق، ص: ١٤١) وابن أبي دينار (المصدر السابق ص: ١٥٣)، وابن مقديش الصفاقسي (المصدر السابق ورقة ٢٠١) والوزير السراج (المصدر السابق ج ١، ق ٤٤، ص: ١٠٧٠)، والبايجي المسعودي (المصدر السابق، ص: ٨٨).

(٣) Delaville le Roux: Op. Cit., p.200.

(٤) R.Brunschvig: Op. Cit., Tom I.p.202.

(٥) شارل أندري جوليان: المرجع السابق، ج ٢، ص: ١٩٧، ويقول كل من (A.S.Aziya: Op. Cit., p.432) والدكتور سعيد عاشور (الحركة الصليبية ج ٢، ص: ١٢٤٢) نحو هذا القول.

(٦) N.Daniel: Op. Cit., P. 309

يوربون فتسجع ذلك قراصة البربر وضاعف إقبالهم على السلب^(١).

وقد كان لهذه النتيجة أثرها القوي في تدعيم مركز السلطان الحفصي في الخارج وفي الداخل على حد سواء، أما في الخارج فقد رأت جنوه نفسها مرغمة على أن تتبع الأسلوب السلمي في إعادة علاقاتها التجارية مع إفريقية بدلاً من أسلوب القوة، فأخذت تحاول عقد صلح دائم مع السلطان، فأرسلت سفيرها أليف مارتيني (Olivier Martini) إلى تونس لهذا الغرض والذي ظل يحاول ذلك من ٢٠ مايو - ٨ يوليو سنة ١٣٩١م / ٧٩٣هـ دون أن يفوز من السلطان بباطل^(٢)، في حين نجح قنصل البندقية بتونس (Jacques Valresso) بتاريخ ٤ يوليو سنة ١٣٩١م / ٧٩٣هـ في الحصول على معاهدة تجارية لبلاده من السلطان الحفصي مدتها عشر سنوات مكافأة لها لعدم اشتراكها في تلك الحملة، كما نجح أيضاً في إطلاق سراح أسرى بلاده الذين كانوا في إفريقية دون فدية^(٣). الأمر الذي حفز جنوه للمحاولة مع السلطان من جديد، فأرسلت سفارة أخرى إلى تونس بعد شهر واحد من عودة مارتيني إلى جنوه، كان على رأسها Gentile de Grimdi و Luchino Bonavey وبعد مفاوضات مضية وفي ١٧ أكتوبر سنة ١٣٩١م / ٢٠ ذي الحجة سنة ٧٩٣هـ وافق السلطان على تجديد اتفاقية سنة ١٣٨٣م / ٧٨٥هـ الموقعة بين الطرفين لفترة عشر سنوات أخرى، وقد نصت المعاهدة الجديدة في أحد بنودها على انهزام الجنويين في المهديّة^(٤) مما يقدم دليلاً آخر على اعتراف الغربيين بفشل الحملة المذكورة، كما أن السلطان رفض إطلاق الأسرى الجنويين إلا لقاء الفدية فأطلق بعضهم مقابل كل الأسرى من مسلمي إفريقية الذين كانوا لدى جنوه، وقبض مقابل الآخرين وكانوا بضع مئات مبالغ نقدية^(٥) وبذلك استعاد المبلغ الذي دفعه كتمويض للصليبيين^(٦) إن لم تزد عنه. وجاء بعد ذلك دور ييزا التي أرسلت سنة

R.Brunschvig : Op. Cit., Tom 1, p.203.

(١) انظر

R.Brunschvig : Op. Cit., Tom 1, p.203.

(٢)

A.S.Atiya : Op. Cit., p.432-3, R.Brunschvig : Ibid, Tom 1, p.203-4.

(٣)

R.Brunschvig : Ibid, Tom 1, p.203, L.Mirot : Op. Cit., p.39, A.S.Atiya : Op. Cit., p.432-433.

(٤)

R.Brunschvig: Ibid, Tom 1, p.203.

(٥)

(٦) صحيح أن معاهدة الصلح قد نصت على أن يدفع السلطان للصليبيين غرامة كتمويض حرب=

١٣٩٣م سفيرها نيقولا لانفريدوسي (Nicolas Lanfreducci) إلى تونس للحصول على معاهدة مماثلة، ولكن استياء السلطان منها بسبب اشتراكها في الهجوم على جربة سنة ٧٩٠هـ/١٣٨٨م كما سبق أن ذكرنا حرّمها من ذلك بالرغم من التبرير الذي قدمته للسلطان بأن المشتركين في ذلك الهجوم كانوا قد اشتهروا بصفة شخصية ولا يمثلون وجهة النظر الرسمية للمدينة تجاه الدولة الحفصية، هذا التبرير الذي لم يقتنع به السلطان، وعادت سفارتها خائبة، ولم تحصل على المعاهدة المنشودة إلا في عهد السلطان الجديد أبي فارس عيد العزيز^(١). يضاف إلى ذلك ارتفاع مكانة السلطان أبي العباس في العالم الإسلامي، وعلو شأنه نظراً لتصديه للصليبيين خوّفت علاقات إفريقية مع العديد من الأقطار الإسلامية وبصفة خاصة مع مصر والمغرب الأقصى^(٢). وأما في الداخل فقد أتيحت له الفرصة لبسط نفوذه على كامل إفريقية بقضائه على طموح حاكمي قفصة وطرابلس في الاستقلال، كما أنه استطاع استعادة جزيرة جربة إلى حظيرة الدولة بعد أن كان أهلها قد ثاروا بالخامية الصقلية التي بقيت فيها إثر احتلالها سنة ٧٩٠هـ/١٣٨٨م، وبذلك فإنه حين وفاته في ٣ شعبان سنة ٧٩٦هـ/١٣٩٤م كانت الدولة الحفصية قد استعادت مجدها حيث واصل ابنه أبو فارس من بعده تدعيم أركانها، وكانت النهاية التي آلت إليها هذه الحملة خاتمة للمرحلة التي اختصت بها هذه الدراسة من مراحل الحروب الصليبية في إفريقية.

= مقدارها (٢٥) ألف ذوكات، ولكنه لم يدفع في الواقع سوى مبلغ عشرة آلاف ذوكات فقط في سنة ١٣٩١م.

R.Brunschwig : Op. Cit., Tom I ,p.202.

انظر :

R.Brunschwig : Ibid,Tom I ,p.204.

(١)

R.Brunschwig : Ibid. Tom I.p.205

(٢) لمزيد من التفصيل انظر :

﴿هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلوه عليهم آياته ويزكيهم
ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾ * وآخرين منهم
لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم﴾ .

[سورة يونس : آية ٢ ، ٣]

وَبَابُ الْخَمْسِ

إفريقية معبر حضاري في عصر الحروب الصليبية

— القيروان أول مركز لإشعاع الحضارة الإسلامية في المغرب.

— أثر إفريقية في معبري الأندلس وصقلية.

— إفريقية معبر مباشر للحضارة الإسلامية إلى أوروبا :

أ - النواحي الاقتصادية.

ب - النواحي الثقافية.

ج - النواحي الاجتماعية.

الأنصار^(١)، وأبو ذر الغفاري^(٢)، وأبو عبد الله عمرو بن عوف المزني^(٣)، وأبو سعيد المسيبي بن حزن بن أبي وهب الخزومي^(٤)، وأبو عبد الرحمن جرهد بن خويلد الأسلمي^(٥)، وعبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وعبد الله بن عباس، لذلك سميت تلك الغزوة بغزوة العبادة لكثرة من اشترك فيها من الصحابة ممن كان اسمه عبد الله، ثم عبد الرحمن بن أبي بكر، وسلمه بن عمرو بن الأكوخ الأسلمي، وفضالة بن عبيد الأنصاري الأوسي، وعقبة بن عامر الجهني، ورويف بن ثابت بن السكن بن عدي الأنصاري، وحمزة بن عمر الأسلمي وبلال بن الحارث المزني، والمصور بن مخزومة بن نوفل الزهري القرشي، وجبله بن عمرو الأنصاري وغيرهم رضي الله عنهم، وكان من أشهر من غزا إفريقية في غير هذه الغزوة من الصحابة، معاوية بن حذيف إذ غزاها قائداً للجيش ثلاث مرات، ثم أبو زمعة عبيد بن أرقم البلوي، غزاها مع معاوية بن حذيف سنة ٣٤هـ، ومات بالقروان ودفن بها بالبقعة التي تعرف بالبلوية سميت به منذ ذلك الوقت، ودفت

= (انظر الدباغ : المصدر السابق، ج ١، ص ٧٦ - ٧٧).

(١) صحب رسول الله ﷺ، وصلى معه القبلتين، وبعثه النبي ﷺ لخالد بن سفيان سرية وحده فقتله، شهد فتح إفريقية مع عبد الله بن أبي السرح. توفي سنة ٥٤هـ ودفت معه مخصصة كان أعطاها له رسول الله ﷺ وقال له : (تخضر بها حتى تلقاني بها يوم القيامة فإن أقل الناس الشخصرون يومئذ)، روى عنه أبو أمامه وجابر بن عبد الله، وروى عنه من التابعين : الليث بن سعد وبنوه : عطية وعمرو وضمرة، وعبد الله بن عبد الله بن أنيس الجهني.

(انظر المالكي : المصدر السابق ج ١، ص ٤٥، الدباغ : المصدر السابق ج ١، ص ٧٧ وما بعدها).

(٢) من كبار الصحابة وأفاضلهم ومن السابقين الأولين في الإسلام، أسلم بمكة وعاد إلى قومه فاقام معهم إلى ما بعد غزوة الخندق ثم قدم على النبي ﷺ وصحبه. شهد فتح إفريقية، توفي سنة ٣٢هـ بالريدة.

وعى علماً كثيراً. (المالكي المصدر السابق : ج ١، ص ٤٧، الدباغ المصدر السابق : ج ١، ص ٧٥).

(٣) هو من أهل الصفة، قديم الإسلام يقال إن أول مشاهدته كانت غزوة الخندق وصلى مع الرسول صلى الله عليه وسلم القبلتين.

(انظر الدباغ : المصدر السابق، ج ١، ص ٩٢ وما بعدها).

(٤) هو والد سعيد بن المسيب، كان أبوه حزن من المهاجرين ومن أشرف قريش في الجاهلية. أما المسيب فكان ممن بايع تحت الشجرة وشهد غزو إفريقية مع عبد الله بن أبي السرح.

(انظر المالكي : المصدر السابق ج ١، ص ٥٤، الدباغ : المصدر السابق، ج ١، ص ١٠٤).

(٥) من أهل الصفة وشهد الحديبية، وبايع بيعة الرضوان، شهد فتح إفريقية مع عبد الله بن أبي السرح وتوفي سنة ٣٦هـ.

(انظر المالكي : المصدر السابق ج ١، ص ٥٤، الدباغ : المصدر السابق ج ١، ص ١٠٤).

القيروان أول مركز للإشعاع الحضارة الإسلامية في المغرب :

كانت مدينة القيروان أول مدينة أسسها المسلمون في المغرب الإسلامي، وكان الهدف من تأسيسها تثبيت أركان الفتح الإسلامي ليس في إفريقية فحسب، وإنما في بلاد المغرب بأسرها. وجاء ذلك وفقاً لمقتضيات الخطة العامة التي وضعها المسلمون لتحرير البلاد المفتوحة ونشر الإسلام وحضارته فيها. فكان أن أسسوا في موجة الفتوح البصرة والكوفة في العراق، والقسطنطين في مصر والقيروان في إفريقية، ولا أدل على الهدف من تأسيس مدينة القيروان من قول مؤسسها عقبة بن نافع لأصحابه حينما عزم على إنشائها (إن إفريقية إذا دخلها أمير تحرم أهلها بالإسلام، وإذا خرج منها عادوا إلى الكفر، وإنني أرى أن أتخذ بها مدينة تجعلها معسكراً وقيرواناً تكون عزاً للمسلمين إلى آخر الدهر)^(١)، وهكذا غدت هذه المدينة مركزاً لإدارة المناطق المفتوحة، وقاعدة لعملية الفتوحات الجديدة، ومقرّاً لنشر الإسلام في غرب المتوسط. والإسلام بمفهومه الواسع هو دين وفكر وحضارة، لذلك فإن نشره يدعوا إلى وجود تعليم وتعلم، ومن هنا كان لا بد من ظهور حركة علمية في هذه المدينة منذ تأسيسها.

بدأت الحركة العلمية في القيروان خاصة وفي إفريقية عامة بإبان الفتح بوجود العديد من الصحابة والتابعين - رضي الله عنهم - في الجيوش الإسلامية التي نهضت بأعباء هذا الفتح، فكان من ضمن الجيش الذي قاده عبد الله بن أبي السرح إلى إفريقية سنة ٢٧هـ عدد كبير منهم من بينهم المقداد بن عمرو (أو ابن الأسود كما عرف أحياناً)^(٢)، وأبو اليسر كعب بن عمرو الأنصاري^(٣)، وعبد الله بن أنيس الجهني حليف

(١) ابن الشباط : المصدر السابق، ص ١٧٩، انظر أيضاً الديباغ : المصدر السابق، ج ١ ص ٨.

(٢) من المسلمين الأوائل ومن فضلاء الصحابة ونجباءهم، وهو أول من غزا به فرسه في سبيل الله، شهد بدرًا والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وتوفي في الجرف بأرضه وحمل إلى المدينة فعلى عليه عثمان بن عفان رضي الله عنه ودفن بها وكان ذلك سنة ٣٣هـ، يروي عنه جماعة كبيرة من كبار التابعين منهم طارق بن شهاب وعبد الرحمن بن أبي ليلى وعبد الله بن عدي بن الحمار. (انظر ترجمته في المالكلي : المصدر السابق، ج ١ ص ٧١ وما بعدها).

(٣) شهد العقبة وبدرًا وهو ابن عشرين سنة، وهو الذي أسر العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه في غزوة بدر، شهد العديد من المشاهد مع الرسول ﷺ، وشهد صفين مع علي كرم الله وجهه وتوفي بالمدينة سنة ٥٥هـ، روى عنه حنظلة بن قيس، وعبادة بن الوليد وربيعة بن خراش.

معه قنيسوته وفيها من شعر رسول الله ﷺ^(١)، وكان من بين صغار الصحابة الذين أسهموا في فتح إفريقية والمغرب عبد الرحمن بن الأسود القرشي، وعاصم بن عمر بن الخطاب، وعقبة بن نافع، وعبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الرحمن بن زيد بن الخطاب، وعبد الرحمن بن العباس ابن عبد المطلب، وعبد الرحمن بن صبيحة الليثي، ومروان بن الحكم الأموي القرشي، وزهير بن قيس البلوي، وأبو ذؤيب خويلد بن خالد الهذلي، وأبو منصور الفارسي، وكيسان المقبري. ومن التابعين رضي الله عنهم، أمراء الجيوش أنفسهم مثل أبي المهاجر دينار، وحسان بن النعمان، وموسى بن نصير، ومن غير الأمراء حنش بن عبد الله الصنعاني^(٢)، ومحمد بن أوس الأنصاري^(٣)، وعياض بن عقبة بن نافع^(٤)، وعبد الرحمن بن ولة السبائي المصري^(٥)، والمغيرة

(١) انظر المالكى: المصدر السابق، ص ٥٤، الدباغ: المصدر السابق، ج ١، ص ٩٨.

(٢) وقبره رضي الله عنه معروف بالقبروان، عليه بناء فخم ويدعوه العامة حالياً «السيد الصحي».

(٣) كان من أعلم التابعين يروي عن علي بن أبي طالب، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمرو بن العاص، ورويفع بن ثابت الأنصاري. وروى عنه الحارث بن يزيد، وعبد الرحمن ابن أنعم، وقيس بن الحجاج، وعامر بن يحيى الماعري، وخالد بن أبي عمران، وصلاح بن عبد الله ابن هيرة السهمي، وأبو مروان، كان من أصحاب علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وخرج مع عبد الله بن الزبير علي عبد الملك بن مروان، شهد فتح إفريقية، وهو الذي فتح جزيرة شريك من أرضها، كما صاحب موسى بن نصير في حروبه في المغرب وشهد فتح الأندلس، سكن القبروان وانحط بها داراً ومسجداً، توفي بإفريقية سنة ١٠٠هـ.

(٤) انظر المالكى: المصدر السابق ج ١، ص ٦٤، الدباغ: المصدر السابق ج ١، ص ١٨٧ وما بعدها، الضبي: المصدر السابق، ص ٢٥٣، أحمد أمين: المرجع السابق، ج ٣، ص ٤٨.

(٥) كان من أهل الدين والفضل معروفاً بالفقه، يروي عن أبي هريرة وروى عنه الحارث بن يزيد وكذلك محمد بن عبد الرحمن بن نوفل الأمدي، دخل إفريقية سنة ٩٣هـ وغزا المغرب والأندلس، مع موسى بن نصير، كما تولى بحر إفريقية سنة ١٠٢هـ.

(٦) انظر الحميدي: جنوة المتقنين، ص ٤٢، الدباغ: المصدر السابق ج ١، ص ١٨٩.

(٧) كان من خيار التابعين وفضلاء المؤمنين يروي عن عبد الله بن عمرو بن العاص وغيره من الصحابة والتابعين، وروى عنه يزيد بن أبي حبيب، وإسحق بن أبي بردة، وأخوه أبو عبيد بن عقبة سكن القبروان مع أبيه، ثم انتقل في آخر عمره إلى مصر فمات بها سنة ١٠٠هـ.

(٨) انظر المالكى: المصدر السابق ج ١، ص ٨٤، الدباغ: المصدر السابق ج ١، ص ١٩٠.

(٩) من فضلاء التابعين يروي عن عبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس، وروى عنه زيد بن أسلم، ويحيى بن سعيد، والقعقاع بن حكيم، وعبد الرحمن بن أنعم والنسائي وأبو داود كان شقيقاً بمصر ثم سار إلى إفريقية وأقام بها.

إبن أبي بردة الكنانى^(١)، وعلى بن رباح بن قصير اللخمي^(٢)، وأبو عثمان مسلم بن يسار الأنصاري^(٣)، وأبو علقمة مولى عبد الله بن عباس^(٤)، وغيرهم كثير ممن ذكرتهم كتب التراجم والطبقات.

كان هؤلاء رضي الله عنهم جنوداً في جيوش الفتح، وهم مع ذلك حملة علم، عنهم أخذ العديد من جنود الفتح اللين استقروا في المناطق المفتوحة، وعندهم وعن تلاميذهم أخذ أهل البلاد من البربر منذ أن بدأت قلوبهم تفتح للإسلام، فكانوا يعلمونهم الدين والفقه واللغة، وقد اهتم ولاية إفريقية منذ البداية بنشر الإسلام بين البربر، فقد ترك عقبة بن نافع بينهم بعض أصحابه يعلمونهم القرآن منهم تابعه شاكر^(٥)، وفي عهد أبي المهاجر دينار أسلم كيلة وعبد كبير من قومه، وكان تعريب حسان بن النعمان للدواوين خطوة هامة في إقبال العديد من غير العرب على تعلم اللغة العربية، وتعمزت هذه الحركة بجهود موسى بن نصير الذي أدرك أن استقرار الفتح لا يتم إلا بنشر الإسلام بين البربر، فيذكر الرقيق القيرواني - مؤرخ القيروان - أن

= (انظر المالكي: المصدر السابق ج ١، ص ٨٠، الدباغ: المصدر السابق ج ١، ص ١٩٥).

(١) روى عن أبي هريرة وغيره، وروى عنه موسى بن الأشتت البكري، وعبد الرحمن بن أنعم، وابنه عبد الله بن المغيرة، ومن أهل مصر يزيد بن أبي حبيب والحارث بن يزيد وسعيد بن مسلمة، صاحب موسى بن نصير في غزواته في المغرب وفي الأندلس، ولما قتل يزيد بن مسلم والي إفريقية اجتمع أهل الدين والفضل على أن يولوه ولايتها لما عرفوا من فضله ودينه وحزمه، فأبى ذلك.

(انظر المالكي: المصدر السابق ج ١، ص ٨٠، الدباغ: المصدر السابق ج ١، ص ١٩٦).

(٢) كان يروي عن عمرو بن العاص وابنه عبد الله بن عمرو، وعن فضالة بن عبيد وعقبة بن عامر وأبي هريرة وعائشة أم المؤمنين، وروى عنه ابنه موسى وأبو هاني الحولاني وغيرهما كثير، كانت له منزلة عند عبد العزيز بن مروان فولاه إفريقية، فسكن القيروان وانحط بها داراً ومسجداً وانتفع به أهل القيروان. توفي بالمدينة متوجهاً إلى الحج سنة ١١٧ هـ.

(انظر المالكي: المصدر السابق ج ١، ص ٧٧، الدباغ: المصدر السابق ج ١، ص ١٩٩).

(٣) كان يروي عن عبد الله بن عمرو وأبي هريرة، وسفيان بن وهب، وروى عنه عمرو بن أبي نعمة، وشراشل ابن يزيد، وحמיד بن هاني، وعبد الرحمن بن أنعم، سكن القيروان واستوطنها وبها كانت وفاته.

(انظر المالكي: المصدر السابق ج ١، ص ٨٦، الدباغ: المصدر السابق ج ١، ص ٢١٤).

(٤) هو من كبار التابعين، استوطن القيروان وكان يروي عن ابن عباس وعبد الله بن عمر، وأبي هريرة، وروى عنه ابن أنعم وإخالد بن أبي عمر من إفريقية، والحارث بن يزيد وعلى بن عطاء من مصر.

(انظر المالكي: المصدر السابق ج ١، ص ٨٥، الدباغ: المصدر السابق ج ١، ص ٢١٨).

(٥) انظر حسن حسني عبد الوهاب: وفيات ق، ١، ص ٧٩.

موسى ابن نصير (أمر العرب أن يعلموا البربر القرآن وأن يفقهوهم في الدين)^(١)، وذكر غيره أنه (ترك سبعين رجلاً من العرب يعلمون البربر القرآن وشرائع الإسلام)^(٢)، فكان ذلك بداية للحركة العلمية في القيروان إلى حد أنه وجد فيها في هذا الوقت المبكر من تاريخها كتابات للتعليم، يؤكد هذه الحقيقة ما ذكره الدباغ الذي يقول : حكى غياث بن أبي شبيب، قال : (كان سفيان بن وهب - صاحب رسول الله ﷺ - يمر علينا ونحن غلطة بالقيروان، فيسلم علينا في الكتاب وعليه عمامة قد أرخاها من خلفه)^(٣)، ومن المعروف أن دخول سفيان بن وهب رضي الله عنه إلى إفريقية كان سنة ٦٧٨هـ/٦٩٧م في خلافة عبد الملك بن مروان، الأمر الذي يدل دلالة واضحة على وجود الكتابات في القيروان في ذلك الوقت، ولم يكن قد مضى على تأسيسها أكثر من ربع قرن. وقد قام الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه بعد ذلك بفترة وجيزة بخطوة هامة أخرى في دفع الحركة العلمية في القيروان بإرساله عشرة من أجلاء التابعين إلى إفريقية والمغرب لنشر الإسلام بين البربر فاتخذوا من القيروان مقراً لهم، وهم : أبو عبد الرحمن عبد الله بن يزيد الماعفري الحلي^(٤)، وأبو مسعود سعد بن مسعود التجيبي^(٥)، وإسماعيل بن عبيد الأنصاري المعروف بتاجر الله^(٦)، وأبو

(١) الرقيق القيرواني : المصدر السابق، ص ٧٦.

(٢) حسن حسيني عبد الوهاب : ورقات ق ١، ص ٧٨.

(٣) انظر الدباغ : المصدر السابق، ج ١، ص ١٢٠.

(٤) روى عن أبي أيوب الأنصاري، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وفضالة بن عبيد الأنصاري وحقبة بن عامر وضميرهم، وروى عنه يزيد بن عمرو وأبو هاني الحولاني وعامر بن يحيى الماعفري، شهد فتح الأندلس مع موسى بن نصير، ثم بعثه عمر بن عبد العزيز ليفقه أهل إفريقية في الدين فسكن القيروان واختلط بها ذراً ومسجداً واتفّع به الكثير. (انظر المالكي : المصدر السابق ج ١، ص ٦٤، الدباغ : المصدر السابق ج ١، ص ١٨٠).

(٥) روى عن جماعة من الصحابة خاصة عن أبي الدرداء، وعندما بعثه عمر بن عبد العزيز إلى إفريقية سكن القيروان وبث فيها علماً كثيراً، روى عنه جماعة منهم عبد الله بن زحر.

(انظر المالكي : المصدر السابق ج ١، ص ٦٦، الدباغ : المصدر السابق ج ١، ص ١٨٤).

(٦) كان من أهل الفضل والعبادة والتسك مع علم وفقه، روى عن ابن عباس وعبد الله بن عمرو بن العاص، وروى عنه من أهل إفريقية بكر بن سوادة الجذامي وعبد الرحمن بن زياد بن أنعم، ومن أهل مصر عمران بن عوف الخافقي والحارث بن أبي كريمة وعبد الله بن جعفر. ومن مواليه عبد الله ابن أبي كريمة، سكن القيروان عندما بعثه عمر بن عبد العزيز واتفّع به خلق كثير من أهلها. وهو =

الجهم عبد الرحمن بن رافع التنوخي^(١)، وأبو سعيد جعثل بن هاعان بن عمير الرعيني^(٢)، وإسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر الخزومي^(٣)، وحبان بن أبي جيلة القرشي مولى بني عبد الدار^(٤)، وموهب بن حبي الماعفري^(٥)، وطلق بن جابان الفارسي^(٦)، وأخيراً بكر بن سودة الجذامي^(٧)، فكان هؤلاء وأمثالهم ومن سبقهم هم الذين بذروا البذرة الأولى للعلوم

= الذي بنى جامع الزيتونة أحد المساجد المشهورة السبعة بالقيروان، مات غرقاً في البحر أثناء غزوة عطاء بن رافع لصلقية سنة ١٠٧.

(انظر المالكى: المصدر السابق ج ١، ص ٦٩، الدباغ: المصدر السابق ج ١، ص ١٩١).

(١) كان يروي عن عبد الله بن عمرو بن العاص، وروى عنه عبد الرحمن بن زياد بن أنعم وغيره، وهو أول من استقضى بالقيروان بعد بنائها، ولاء ذلك موسى بن نصير سنة ٨٠هـ، وحينما بطل عمر بن عبد العزيز إلى القيروان بقي فيها حتى وفاته سنة ١١٣هـ.

(انظر المالكى: المصدر السابق ج ١، ص ٧٢، الدباغ: المصدر السابق ج ١، ص ١٩٨).

(٢) كان قفياً صالحاً كان يروي عن أبي تميم عبد الله بن مالك الجيشاني، وروى عنه بكر بن سودة، وعبيد الله بن زحر وعبد الرحمن بن زياد بن أنعم، ولي قضاء جند إفريقية لهشام بن عبد الملك، سكن القيروان وتوفي قريباً من سنة ١١٥هـ.

(انظر المالكى: المصدر السابق ج ١، ص ٧٥، الدباغ: المصدر السابق ج ١، ص ٢٠٢).

(٣) كان يروي عن عبد الله بن عمرو بن العاص وفضالة بن عبيد، وروى عنه الأوزاعي وسعيد بن عبد العزيز وابن أنعم، أرسله عمر بن عبد العزيز إلى إفريقية سنة ٩٩هـ وقيل سنة ١٠٠هـ وأسلم على يديه عامة البربر وكان حريصاً على إسلامهم.

(انظر المالكى: المصدر السابق ج ١، ص ٧٥، الدباغ: المصدر السابق ج ١، ص ٢٠٣).

(٤) روى عن ابن عباس وعمرو بن العاص وابنه عبد الله بن عمرو، وعن أبي قتادة، وروى عنه عبد الرحمن بن زياد بن أنعم وعبيد الله بن زحر وعبد الرحمن بن يحيى الصديقي سكن القيروان وتوفي ودفن بها سنة ١٢٥هـ.

(انظر المالكى: المصدر السابق ج ١، ص ١٣، الدباغ: المصدر السابق ج ١، ص ٢٠٩).

(٥) كان يروي عن ابن عباس وغيره وروى عنه عبد الرحمن بن زياد بن أنعم وعباس بن عيسى القتباني، سكن القيروان وبث بها علماً كثيراً وبها كانت وفاته.

(انظر المالكى: المصدر السابق ج ١، ص ٧٣، الدباغ: المصدر السابق ج ١، ص ٢١٣).

(٦) كان قفياً عالماً روى عن جماعة من الصحابة، وروى عنه موسى بن علي، وعبد الرحمن بن زياد ابن أنعم، ومن أهل مصر يزيد بن أبي أيوب.

(انظر المالكى: المصدر السابق ج ١، ص ٧٦، الدباغ: المصدر السابق ج ١، ص ٢١٥).

(٧) من فضلاء التابعين وفقهاءهم وصلحائهم، يروي عن عتبة بن عامر، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وسهل بن سعد، وسفيان بن وهب، وأبي ثور الفهمي، وسعيد بن المسيب، وابن شهاب الزهري، =

في القيروان، وكانت هذه العلوم آنذاك دينية كما هو الأمر بالنسبة للبصرة التي بذرت في المشرق، فكانت عبارة عن قرآن كريم يتلى ويحفظ ويقرأ بالقراءات، وحديث يفسر عن النبي ﷺ وعن الصحابة، والحديث يتضمن أحكاماً دينية، وأخباراً عن مسيرة الرسول ﷺ وغزواته وأعماله، وأخبار أصحابه وآراءهم ورواياتهم إلى ما شابه ذلك، فالثقافة الأولى في المشرق وفي المغرب فيها دين وفيها أخلاق وفيها تاريخ وغير ذلك^(١). وكانت هذه الأقوال تنتشر انتشاراً كبيراً حتى لترجم إلى اللغة البربرية، ويتقف بها العرب والبرابرة والمولودون، وكان هذا عملاً جليلاً قام به هؤلاء الصحابة والتابعون، وكانوا يعدون الرجيل الأول، وباتهاء القرن الأول الهجري استقر الفتح وزاد تبعاً لذلك الإقبال على العلم.

ففي أوائل القرن الثاني للهجرة، تلت هذه الطبقة طبقة ثانية كان من أشهرها عبد الرحمن بن زياد بن أنعم المعافري الذي كان أول مولود ولد للمسلمين بعد فتح إفريقية^(٢)، كان من أجلاء المحدثين والعلماء المتقدمين ذا ورع وزهد وصلاح مع تقف في علم العربية والشعر، أخذ عن جملة من التابعين منهم أبوه زياد بن أنعم الذي روى عن أبي أيوب الأنصاري وغيره^(٣)، كما روى عبد الرحمن أيضاً عن أبي عبد الرحمن الحليبي، وعبد الرحمن بن رافع التنوخي وبكر بن سودة، وحنس الصنعاني، وعبد الرحمن ابن ولة السبائي المصري، وإسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر الخزومي وغيرهم، وروى عنه جماعة منهم: سفيان الثوري، وابن لهيعة، وعبد الله بن وهب، وعبد الله بن المبارك، ومن أهل القيروان: عبد الله بن غانم القاضي، والبهلول بن راشد، وعبد الله بن أبي حسان ومعاوية الصمادحي وغيرهم، ولي قضاء القيروان مرتين أولاهما كانت لمروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، والثانية لأبي جعفر المنصور، وبقي في هذا المنصب إلى أن عزل نفسه في إمارة يزيد بن حاتم المهلب أي قبيل وفاته، وكانت وفاته في شهر رمضان سنة ١٦١ هـ،

= روى عنه بمصر ابن لهيعة، استوطن القيروان، فروى عنه العديد من أهلها، وانتفعوا بعلمه.

(انظر المالكي: المصدر السابق ج ١، ص ٧٤، الدباغ: المصدر السابق ج ١، ص ١٦١ وما بعدهم).

(١) أحمد أمين: ظهر الإسلام، ج ٣، ص ٤٨.

(٢) الدباغ: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٣٠.

(٣) انظر ترجمته في المالكي: المصدر السابق، ج ١، ص ٨٣، الدباغ: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٢٠.

وصلى عليه يزيد بن حاتم ودفن في القيروان بباب نافع^(١). ومن هذه الطبقة أيضاً موسى بن علي بن رباح اللخمي، ولد بالقيروان وروى عن جملة من التابعين منهم أبوه علي بن رباح وغيره، وروى عنه جماعة من أكابر العلماء منهم الليث بن سعد، وابن المبارك، وابن وهب وغيرهم وتوفي بالاسكندرية سنة ١٦٣ هـ^(٢)، ثم عبد الله بن فروخ الفارسي، والذي كان فقيهاً ورعاً فاضلاً متواضعاً قليل الهيبة للملوك لا تأخذه في الله لومة لائم، يقال إن مولده كان بالأندلس سنة ١١٥ هـ ثم انتقل إلى القيروان واستوطنها وأخذ عن علمائها ثم رحل إلى المشرق في طلب العلم فسمع من أبي زكريا بن أبي زائدة، ومن الإمام مالك بن أنس، وسفيان الثوري والأعمش وهشام بن حسان وجريح والإمام أبي حنيفة، وكان الإمام مالك يجعله ويوقره، وحينما وفد عليه في رحلته الثانية قام له، وكان لا يفعل ذلك لكثير من الناس، وأجلسه إلى جانبه، وقال له : لو علمت بقدمك لأتيت إليك، وجعل الإمام مالك لا ترد عليه مسألة - وعبد الله في مجلسه - إلا قال له : أجب يا أبا محمد، فيجيب ثم يقول مالك للسائل : هو كما قال لك. وكان الإمام مالك يقول لأصحابه عنه، هذا فقيه المغرب، وتوفي بمصر أثناء منصرفه من الحج سنة ١٧٥ هـ وقيل سنة ١٧٦ هـ ودفن بالمقطم^(٣). ثم عبيد الله بن زحر الكنتاني، كان فاضلاً صالحاً، ولد بإفريقية وهو معدود من شيوخها، وروى عن عبد الله بن مسعود التميمي، وخالد بن أبي عمران التونسي^(٤)، وجعل بن هاعان بن عمير الجهني، وحبان بن أبي جبلة القرشي، ثم رحل إلى الشرق فأخذ عن الأعمش، وأبي هارون العيدي، والربيع بن أنس، وروى عنه يحيى بن سعيد، ورقبة بن مصقلة، وخلاد الصنفار، وليث بن أبي سليم، ويحيى بن أيوب، والمفضل بن فضالة. فكان هؤلاء وأمثالهم هم ناشري العلم الأولين في إفريقية، وهم مؤسسو مدرسة القيروان العلمية التي ازدهرت فيما بعد.

وجاء بعدهم طبقة أخرى قدمت العلم في القيروان بخاصة وإفريقية والمغرب بعامة

(١) انظر : المالكي : المصدر السابق، ج ١، ص ٩٦، الدباغ : المصدر السابق، ج ١، ص ٢٣٠.

(٢) انظر المالكي : المصدر السابق، ج ١، ص ١١٢، الدباغ : المصدر السابق، ج ١، ص ٢٣٧.

(٣) انظر المالكي : المصدر السابق، ج ١، ص ١١٣، الدباغ : المصدر السابق، ج ١، ص ٢٣٨، القاضي عياض : المصدر السابق، ص ٤٠.

(٤) أخذ عن علقمة مولى ابن عباس، وعن جماعة أخرى من الصحابة رضي الله عنهم.

خطوة عظيمة جديدة، وكان من مشاهير هذه الطبقة رباح بن يزيد بن رباح اللخمي، والبهلول بن راشد، وشمقران بن علي الهمداني، وعبد الله بن عمر بن غانم، وأسد بن الفرات ابن سنان، ومحمد بن عبد الله بن قيس بن مسلم الكنتاني، والإمام سحنون بن سعيد بن حبيب التنوخي، فقد أخذ هؤلاء وأمثالهم عن علماء الطبقة التي تقدمتهم، ثم رحلوا إلى المشرق في طلب العلم في مراكز الثقافة الإسلامية في مصر والحجاز والعراق والشام، وامتدت رحلة بعضهم إلى أبعد من العراق شرقاً، وعادوا إلى إفريقية بعلم غزير أخذوا يشره في نواحيها، وقد استقر معظمهم في القيروان، فكان لهم أثر كبير في دفع الحركة العلمية فيها إلى الأمام. فاما رباح بن يزيد فكان عالماً صالحاً فاضلاً سمع من علماء القيروان ثم رحل إلى المشرق فأخذ عن الأوزاعي وسفيان الثوري وغيرهم وقد اعتبره بعض العلماء رابع أربعة علماء في العالم الإسلامي في عصره هم ابن عون بالبصرة، وسفيان الثوري بالكوفة، والأوزاعي بالشام، وهو بإفريقية، ومن أشهر من أخذوا عنه أبو خراجة الفافقي وتوفي سنة ١٧٢هـ ودفن بباب مسلم بالقيروان^(١). وأما البهلول بن راشد، فقد أخذ عن الإمام مالك وسفيان الثوري، والليث بن سعد، ويونس بن يزيد، وموسى بن علي بن رباح اللخمي، والحرث بن نبهان، وعبد الرحمن بن زياد بن أنعم، ووصفه الإمام مالك بأنه عابد بلده، وأخذ عنه الإمام سحنون بن سعيد، وعبد المتعال، وعبد الله بن مسلمة القعنبي، وعون بن يوسف، وأبو زكريا الحفري، ويحيى بن سلام وغيرهم، وكانت وفاته بالقيروان سنة ١٨٣هـ، وهو ابن خمس وخمسين سنة ودفن بباب مسلم أيضاً^(٢). وأما أبو علي شمقران بن علي الهمداني فإنه أخذ عن علماء القيروان وتفقّه بها وكان مواخياً للبهلول بن راشد وقيل عنه إنه كان واحد الزمان عبادة وزهداً وعلماً بالفرائض، وله في ذلك كتاب فيكون بذلك من أول من ألفوا الكتب، وكان ضريباً فأقتلته علته عن الترحال، ولكن أمره اشتهر فقصدته تذب العلم من الأمصار، فكان ممن قصدته من مصر ذو النون المصري وأخذ عنه علماً كثيراً، ومن أشهر من أخذ عنه من القيروان الإمام سحنون بن سعيد، كما أخذ عنه أيضاً

(١) انظر للملكي: المصدر السابق، ج ١، ص ٢١٠، الدباغ: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٥٣.

(٢) انظر للملكي: المصدر السابق، ج ١، ص ١٣٢، الدباغ: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٦٤، القاضي

عياض: المصدر السابق، ص ٢٧.

عون بن يوسف، وتوفي بالقيروان سنة ١٨٦هـ ودفن بباب سلم^(١).

وأما عبد الله بن غانم فقد ولد بالقيروان، وبها تفقه فأخذ عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم وخاله بن عمران وغيرهما ثم رحل إلى المشرق، ف لازم الإمام مالك بن أنس حتى عرف بصحبته، وكان إذا دخل عليه أجلسه إلى جانبه، وقد عرض عليه أن يوجه من اهتبه ولكن ابن غانم قال له إذا خرجت إلى القيروان تزوجتها، وأخذ عن جلة من العلماء غير الإمام مالك مثل سفیان الثوري وإسرائيل بن يونس وعثمان بن الضحاك المدني وأبو يوسف صاحب الإمام أبي حنيفة وغيرهم ثم عاد إلى بلده، وقد ولي قضاء إفريقية لهارون الرشيد سنة ١٧١هـ وبقي في هذا المنصب حتى وفاته سنة ١٩٠هـ ودفن بباب نافع بالقيروان، وكان من أشهر من أخذ عنه الإمام مسنون^(٢)، وأما أسد بن الغرات فقد ولد بخران سنة ١٤٢هـ وكان أبوه من جند خراسان وقدم به إلى إفريقية مع جند محمد بن الأشعث وكان عمره وقتئذ عامين، فأقام بالقيروان خمس سنوات ثم انتقل إلى تونس وأقام بها نحو تسع سنوات. تفقه بإفريقية فأخذ عن عدد من علمائها من أشهرهم علي بن زياد^(٣)، ثم رحل إلى المشرق فأخذ عن الإمام مالك ويحيى بن زكريا بن أبي زائدة، والمسيب بن شريك وهيثم بن بشير، وعن أصحاب أبي حنيفة مثل أبي يوسف ومحمد بن الحسن، وأسد بن عمرو، وسمع بمصر من عبد الرحمن بن قاسم صاحب الإمام مالك وعنه كتب (المثبوتة)، إذ أنه أخذ عن أبي يوسف الأسفلة التي كان يثيرها الحنفية ويضعون لها الأحكام على مقتضى مذهبهم، فجردها أسد من أحكامها وعرضها على ابن القاسم وتلقى منه أحكامها، على مذهب مالك أو اجتهد ابن القاسم نفسه، أو اجتهد أذهب، ودون ذلك كله في الكتاب المشهور المسمى بالمثبوتة، فالمسائل المجردة مسائل الحنفية، والأحكام أحكام الإمام مالك وصحبه، وكانت تتألف من ستين كتاباً تحتوي على ست

(١) انظر المالكي: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٢٢، الديباغ: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٧٩.

(٢) انظر المالكي: المصدر السابق، ج ١، ص ١٤٣، الديباغ: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٨٨، القاضي عياض: المصدر السابق، ص ٨.

(٣) كان من أهل تونس ثقة كثير العبادة، برع في الفقه، روى عن الإمام مالك وسفيان الثوري والليث بن سعد وغيرهم، ولم يكن بإفريقية في عصره مثله وهو الذي أدخل موطأ الإمام مالك وجامع سفيان إلى المغرب.

(انظر القاضي عياض: المصدر السابق، ص ٢١).

وثلاثين ألف مسألة^(١) وقدم بها إلى القيروان وسماها (المدونة) و(الأسدية)، وما تجدر الإشارة إليه هو أنه حينما عزم أسد على الرحيل إلى إفريقية بالأسدية سأله أهل مصر أن يسمح لهم باستنساخها فأبى عليهم فشكروا أمره إلى القاضي، وبعد أخذ ورد سمح لهم بذلك فنسخوها، كما أرسل منها نسخة فيما بعد لابن القاسم نفسه. ولما قدم أسد إلى إفريقية أظهرها فكانت من أوائل المصنفات الفقهية التي انتشرت بين الناس، وكان من انتفع بها الإمام سحنون، ومحمد بن رشيد وغيرهما. وتولى قضاء إفريقية بعد ابن غانم وغزا سردينيا، كما تولى قيادة الجيش الذي قام بفتح صقلية، وتوفي وتخذ أثناء حصاره لسرقوسة من أثر جراحات أصابته وذلك في شهر ربيع الآخر سنة ٢١٣هـ ودفن في ذلك الموضع^(٢).

وأما محمد بن عبد الله بن قيس الكنتاني، فقد كان فاضلاً ورعاً فصيح اللسان بصيراً باللغة والشعر فضلاً عن سعة علمه في الفقه، روى عن عبد الرحمن بن زباد بن أنعم، وعبد الله ابن فروخ ثم رحل إلى المشرق فسمع من الإمام مالك بن أنس وغيره، وعاد إلى القيروان، وقد تولى القضاء سنة ١٩١هـ خلفاً لعبد الله بن غانم ولم يزل قاضياً إلى أن مات سنة ٢١٤هـ، وكان من أشهر من أخذ عنه ابنه أحمد بن أبي محرز عالم إفريقية وقيدها المعروف^(٣). ونحتم مشاهير هذه الطبقة بالإمام سحنون بن سعيد التوغخي، واسمه عبد السلام، وسحنون (وهو اسم لطائر حديد النظر) لقب غلب عليه لحدثه في المسائل، وأصله شامي من حمص، قدم أبوه سعيد إلى إفريقية في جند حمص، ولد ونشأ بالقيروان، وبها تفقه فأخذ عن عبد الله بن غانم، والبهلول بن راشد، وأبي خارجة، وابن أبي حسان، وابن أبي كريمة، وأخيه حبيب، وأبي زيد الرعيني، وعبد الرحيم (العباس) بن أثرس، ومعاوية الصمادحي، وأخذ عن علي بن زباد بتونس، وأخذ عن أسد بن الفرات مدونته (الأسدية)، ورحل إلى المشرق فسمع بمصر من عبد الرحمن بن القاسم، وابن وهب، وأشهب، وابن عبد الحكم، وشعيب بن الليث، ويوسف بن

(١) انظر ابن خلدون : المقدمة، ص ٣٧٥، كذلك أحمد أمين : ظهر الإسلام، ج ١، ص ٢٩٨، د.حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام، ج ٢، ص ٣٣٢ - ٣٣٣.

(٢) انظر المالكي : للمصدر السابق، ج ١، ص ١٧٢، القاضي عياض : للمصدر السابق، ص ٥٢، الدباغ : المصدر السابق، ج ٢، ص ٣.

(٣) انظر ترجمته في المالكي : المصدر السابق، ص ٣٠٦، الدباغ : المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٠.

عمر، وسمع بالمدينة من عبد الله بن عبد الله بن نافع، ومن بن عيسى، وأنس بن عياض، وابن الماجشون، والخيرة بن عبد الرحمن، ومطرف وغيرهم، وبكة من سفيا بن عينة، وعبد الرحمن بن مهدي، ووكيع بن الجراح، وحفص بن غياث، وي زيد بن هارون، ويحيى بن سليمان، وأبي داود الطيالسي، وأبي إسحق الأزرق، وبالشام من الوليد بن مسلم، وأيوب بن سويد، وعاد إلى القيروان سنة ١٩١ هـ بعلم كثير، وكان في مصر قد قرأ الأسدية على ابن القاسم وناقشه في مسائلها، فرجع ابن القاسم عن كثير منها، وكتب سحنون مسائلها ودونها في الكتاب الذي سمي (بالمدينة)، وقد أثبت فيها ما رجع عنه ابن القاسم، وعاد بها إلى القيروان، وهي المدونة المشهورة في الفقه المالكي، وقد كتب ابن القاسم لأسد بن الفرات أن يأخذ بمدونة سحنون فأنف من ذلك، فترك الناس الأسدية وأقبلوا على مدونة سحنون على ما كان فيها من اختلاط في المسائل وفي الأبواب فكانت تسمى المدونة المختلطة نظراً لذلك، وعكف أهل القيروان على المدونة كما عكف أهل الأندلس على (الواضحة)^(١) و(العتية)^(٢)، وتناولوها بالشرح والاختصار والتلخيص فيما بعد، فقد اختصرها ابن أبي زيد القيرواني^(٣) في كتابه (المختصر)، ولخصها أبو سعيد البرادعي الذي ستعرض لذكره فيما بعد في كتابه (التهذيب) الذي (أعتمدته المشيخة من أهل إفريقية وتركوا ما سواه)^(٤)، ولم يزل علماء المذهب المالكي يتعاهدون هذه الأمهات بالشرح والإيضاح والجمع، فكتب علماء إفريقية في المصور التالية على المدونة الكثير من المؤلفات مثل ابن يونس واللخمي وابن محرز التونسي وابن بشر وأمثالهم^(٥). وقد يز سحنون علماء عصره علماء وفقهاً وكان قد أجمعت فيه خصال قلما

(١) الواضحة : من أقدم كتب الفقه المالكي ألفها عبد الملك بن حبيب السلمي.

(انظر ابن الغرضي : تاريخ علماء الأندلس، ص ٢٦٩).

(٢) العتية : من أمهات مصنفات الفقه المالكي ألفها محمد بن أحمد الحبي اقرطبي وهي المستخرجة من الأسمعة المسووعة من الإمام مالك.

(انظر الفهبي : المصدر السابق، ص ٣٧).

(٣) هو أبو محمد عبد الله بن أبي زيد النفزوي القيرواني، إمام المالكية في زمنه، كثير التأليف واسع الفقه حتى لقب بمالك الصغرى، رحل إليه للعلماء للأخذ عنه، له كتاب الزيارات على المدونة ومختصر المدونة توفي سنة ٣٨٦ هـ كما ستعرض لذكره فيما بعد.

(٤) ابن خلدون : المقدمة، ص ٣٧٦.

(٥) ابن خلدون : المقدمة، ص ٣٧٦.

اجتمعت في غيره منها الفقه البارع، والورع الصادق، والصرامة في الحق، والزهد في الدنيا، والتخشن في الملابس والمطعم، والسماحة، وعفة النفس، والشدة على أهل اليدع، والجرأة في قول الحق لايهاب سلطاناً أو غيره، لذلك أجمع أهل عصره على تقدمه وفضله وانتشرت إمامته. وانتشر علمه في أنحاء المغرب الإسلامي فصار (زمانه كأنه مبتدأ. وقد محا ما قبله فكان سراج القيروان)^(١)، وقد ولي قضاء إفريقية مدة بعد تمتع طويل، وتوفي في رجب سنة ٢٤٠هـ ودفن بباب نافع بالقيروان^(٢)، وكان من أشهر من أخذ عنه ابنه محمد بن سحنون الذي كان كثير التأليف حتى إنه صنف ما يزيد عن الخمسين مؤلفاً في الفقه والتاريخ والحديث ونحوها، ثم يحيى بن عمر، وابن مسكين، وابن أبي سليمان وغيرهم كثير حتى عد العلماء الذي تخرجوا عليه بنحو السبعمائة^(٣)، وقد وافق عصره هذه الطبقة أوائل العصر الأغلي الذي منذ بدايته بدأت الحركة العلمية في القيروان تسير بخطى حثيئة.

كان تولي إبراهيم بن الأغلب إمارة إفريقية لهارون الرشيد سنة ١٨٤هـ / ٨٠٠م نقطة تحول هامة في تاريخ هذه الإمارة، إذ بدأ فيها منذ ذلك الوقت عهد نعمت فيه بالاستقرار الذي هو شرط أساسي لانتطلاق الحركة العلمية بل وانتعاش الحضارة بصفة عامة وازدهارها في أي مكان وزمان، فمنذ ذلك الوقت عملت هذه الدولة الفتية على النهوض بإفريقية نهضة شاملة، فبدأت في إنشاء الحصون (الرباطات) وتحصين المدن وتدعيم الأسطول وإنشاء المسالح ودور الصناعة ثم تمهيد الطرقات وتعبيد المسالك الرومانية القديمة وإصلاح الجسور، وتنظيم أسواق المدن ودروبها ومجاربها الصحية وإنشاء المستشفيات^(٤) وجر المياه من الأماكن البعيدة بطرق هندسية محكمة، إلى غير ذلك، وأما بالنسبة للحركة العلمية، فإن الأمراء الأغلبية لم يدخروا جهداً في سبيل تشجيع هذه الحركة رغبة منهم في العلم وتقدير

(١) الديباج: المصدر السابق، ج ٢، ص ٨٣. انظر أيضاً القاضي عياض: المصدر السابق، ص ٩٣.

(٢) انظر ترجمته في المالكي: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٤٩. القاضي عياض: المصدر السابق، ص ٨٦. الديباج: المصدر السابق، ج ٢، ص ٧٧.

(٣) أحمد أمين: ظهر الإسلام، ج ١، ص ٢٩٩.

(٤) عن المستشفيات في عهد الأغلبية وكانت تدعى دمنات (مفردها دمنة) انظر: حسن حسني عبد الوهاب: وراثة ق ١، ص ٢٧٣ وما بعدها.

منهم له لأن غالبيتهم كانوا ممن طلبوه وتلقوه، فقد كان إبراهيم بن الأغلب مؤسس هذه الأسرة في صغره وقبل قدومه إلى إفريقية ممن درس العلم في مصر حتى برع ونبغ فيه، وكان من مشاهير من أخذ عنهم الليث بن سعد إذ لازمه مدة طويلة، والليث هو الذي وهبه (جلاجل) أم ابنه زيادة الله^(١)، فكان من المتفقيين في الدين ومن الشعراء المجيدين والخطباء البلقاء المترسلين البارعين^(٢)، وابن زيادة الله الأول الذي تولى الإمارة من سنة ٢٠١-٢٢٣ هـ كان من أعلم أهل بيته وأصحهم لساناً، وكان أبوه إذا قدم عليه أحد من الأعراب والعلماء بالحرية والشعراء أصحهم لساناً وأمرهم بملازمته^(٣)، فنشأ عالماً بالحرية وشاعراً مجيداً، وإبراهيم الثاني الذي كان قد تعلم اللاتينية في صغره حتى أتقنها، وكان يتكلم بها مع فتيانه وجواريه من الصقالية، أضف إلى ذلك أنه كان يحسن علم الفلك ويرصد النجوم ويرسم أزياجها وحساباتها^(٤)، كما كان ابنه عبد الله الثاني عاقلاً أديباً مشاركاً في العلوم، له نظر جيد في الجدل وعناية باللغة والأدب وقد أخذ ذلك عن كبار أساتذة القيروان مثل أبي العباس القيار الحنفي وغيره^(٥)، والأمير محمد بن زيادة الله الثاني والي طرابلس، وكان عالماً أديباً شاعراً خطيباً لا يتادم إلا أهل الأدب، وقد ألف كتباً كثيرة في الأدب والتاريخ منها كتابه في تاريخ بني الأغلب الذي لم يصلنا مع الأسف^(٦)، لذلك كان من الطبيعي أن يكون أمراء هذه الأسرة من أكبر مشجعي الحركة العلمية في القيروان بل وفي إفريقية بصفة عامة، وبلغ من تشجيعهم للعلم أنهم بعد نقل مقر سكناهم إلى (العباسية) ثم (رقادة) القريتين من القيروان، كانوا يحرصون على زيارة القيروان يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع، لتفقد العاصمة وحضور صلاة الجمعة بمسجدها أو لتشجيع جنازة عالم كبير، وكان من عادتهم أن يأتوا جامع القيروان ليلة نصف شعبان وليلة نصف

(١) حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق ١، ص ٨٤.

(٢) حسن حسني عبد الوهاب : ورقات، ق ١، ص ٨٤.

(٣) حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق ١، ص ٨٤.

(٤) حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق ١، ص ٨٥.

(٥) حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق ١، ص ٨٦.

(٦) انظر الديباغ : المصادر السابق، ج ٢، ص ٧٥، حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق ١، ص ٨٦.

رمضان فيعطون الصدقات ثم يخرجون من الجامع فيزورون دور الزهاد والعلماء والكتاتيب والحدائق والدمنة - وهي مستشفى القيروان - فيوزعون الأموال والعطايا السخية^(١). وفي ذلك العهد تزاوجت الآراء والمذاهب بإفريقية مما كان له أكبر الأثر في الحركة العلمية فيها، ذلك أن العلماء الذين سبق أن ذكرناهم والذين كان لهم الفضل الأول في تأسيس مدرستها الفكرية كانوا من أهل السنة، وكان جُلهم قد أخذوا عن الإمام مالك وأصحابه، وبجهودهم انتشر المذهب المالكي ليس في إفريقية فحسب بل في المغرب الإسلامي بأسره، وعلى ذلك كانت الغالبية العظمى من أهل إفريقية على هذا المذهب، ولكن ذلك لم يمنع تسرب المذاهب الأخرى إليها خاصة في ذلك العصر كالمدب الحنفي الذي كانت تأخذ به الخلافة العباسية نتيجة لجهود أبي يوسف منذ توليه القضاء في دار الخلافة، ثم آراء المعتزلة التي مال إليها المأمون والمعتصم من بعده، إذ أن إفريقية بالرغم من استقلالها الذاتي كانت ولاية عاصمة ملتزمة رسمياً بما تأخذ به الخلافة، لذلك كانت القيروان وتونس ورقادة وغيرها من مدن إفريقية تعج في ذلك العصر بالعلماء وطلاب العلم المختلفي العقائد والتزعات والميول، فمنهم المالكية، ومنهم الأحناف، ومنهم من كان يميل إلى أقوال الأوزاعي، وسفيان الثوري، والشافعي، ومنهم من يرى رأي المعتزلة، ومنهم من أناء البربر من كان متمسكاً بالنحل الخارجية كالصغرية والإباضية، ثم المتكلم المتفلسف مما لا يتقيد بمدب ما^(٢)، وكلهم عاكفون على الدراسة أو التدريس أو المناظرة، كل ذلك دون تعصب وفي ظل تسامح بين أصحاب المذاهب والآراء تميزت به إفريقية عن غيرها مما أوجد بينهم الألفة على اختلاف ميولهم^(٣)، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية فإنه منذ مطلع هذا العصر أخذت الحركة العلمية في القيروان في التفرغ والتنوع، ذلك أن هذه الحركة كانت في البداية دينية الصبغة اقتصت بدراسة الفقه والحديث واللغة وما إليها من العلوم التقليدية، ولكن منذ أواخر القرن الثاني الهجري بدأت هذه الدراسات تشمل العلوم العقلية من طب وفلسفة ورياضيات وفلك وغيرها، وعلى ذلك أصبحت الحركة العلمية في القيروان تماثل نظيراتها في المراكز

(١) انظر الديباغ: المصدر السابق، ج٢، ص ٧٥، حسن حسني عبد الوهاب: وراقات ق١، ص ٨٧.

(٢) حسن حسني عبد الوهاب: وراقات ق١، ص ٧٣ - ٧٤.

(٣) انظر عن ذلك أحمد أمين: ظهر الإسلام ج١، ص ٢٩٦ - ٢٩٧.

العلمية الهامة في المشرق.

لذلك، وتشجيعاً من الأمراء الأغالبة لهذه الحركة المباركة، بذلوا جهوداً كبيرة في اجتذاب العلماء من المشرق إلى بلاطهم، فكانوا يشجعون قدومهم بما يذلونهم من عطاء سخّي وتقدير لعلومهم، حتى أصبح هذا البلاط صورة مصغرة عن بلاط الخلفاء العباسيين ببغداد، ومن مشاهير هؤلاء العلماء الذين قدموا إلى إفريقية في ذلك العهد، أبو اليسر النشيباني البغدادي، وإسحق بن عمران الطيب المشهور، وإسحق بن سليمان الإسرائيلي الطيب أيضاً، ومحمد بن أحمد بن الفرج البغدادي، الذي فضلاً عن طول بابه في فنون العلم والأدب كان متخصصاً في الفنون الجميلة والصناعات المستظرفة^(١)، وغيرهم، هذا بالإضافة إلى أن هؤلاء الأمراء بالغوا في الاهتمام باستجلاب الكتب من المشرق وحتى من بعض البلاد المسيحية، وكانوا يتفقون في ذلك الأموال الطائلة، فالأمير إبراهيم الثاني المعروف بالأصغر مثلاً كان يرسل كل عام - وأحياناً مرتين في السنة - سفارة إلى بغداد لتجديد ولائه للدولة العباسية، وكان يكلف هذه السفارة بشراء الكتب النفيسة من بغداد ومن مصر بما لا نظير لها في إفريقية من ناحية، ثم يأخذ العلماء للقدوم إلى بلاطه من ناحية ثانية، وكان يزودها بالمال الوفير لهذا الغرض^(٢)، وكان لكلا الأمرين أثره القوي على الحركة العلمية في إفريقية وجعلها تواكب ركب الثقافة الإسلامية في المراكز الأخرى، وتهدر الإشارة في هذا المقام إلى أن هذه المواكبة كانت حتى في أعمال الترجمة لكتب علوم الأمم الأخرى إبان عصر الترجمة، حيث كانت حركة الترجمة في القيروان وبشجيع ورعاية الأمراء الأغالبة لا تقل في مستواها عن ما كان يجري في مراكز المشرق إن لم تفق بعضها، ولعل من المفيد أن نشير هنا إلى أن أعمال الترجمة التي تمت في إفريقية كانت عن اللاتينية على خلاف ما جرى في المشرق. فما ترجم في المشرق من كتب كان عن اللغات التي كانت راجعة هناك في زمن الفتح كال يونانية والسريانية والفارسية والهندية، ولم تقف البتة على اسم كتاب واحد ترجم عن اللاتينية هناك إذ أنها لم تكن منتشرة وقتئذ في ربوعه. وأما

(١) حسن حسني عبد الوهاب : بساط المقيص، ص ٣٥.

(٢) حسن حسني عبد الوهاب : ورقاق ق١، ص ١٩٦.

بلاد المغرب من الأندلس إلى برقة فإن اللغة التي كانت سائدة فيها عند الفتح هي اللاتينية سواء في الشؤون الرسمية أو الرسوم الدينية، ولذلك اضطر كثير من العرب الذين استقروا في هذه البلاد إلى تعلمها وإتقانها تكلماً وكتابة لما يفرضه عليهم امتزاجهم بالعناصر المحلية ومجاورتهم المستمرة لبقايا الرومان والمسيحيين المقيمين في بلادهم سواء في المغرب العربي أو الأندلس أو صقلية^(١)، وقد ظلت هذه اللغة معروفة في إفريقية إلى ما بعد الفتح بعهد طويل، يؤكد ذلك قول الإدريسي عن قفصة : (وأهلها متبريرون وأكثرهم يتكلم باللسان اللطيني الإفريقي)^(٢)، لذلك كان كل ما ترجم من المؤلفات الأعجمية في إفريقية بل وفي الأقطار المغربية إما كان عن اللاتينية، فقد نشط الأمراء الأغالية خاصة إبراهيم الثاني الأصغر، وابنه عبد الله الثاني، وزيادة الله الأخير الذين ثبتت المصادر التاريخية أنهم كانوا يحسنون هذه اللغة^(٣) في تشجيع الترجمة، ويعتقد حسن حسني عبد الوهاب اعتقاداً يرقى إلى حد اليقين، أن الأمير إبراهيم الأصغر الذي كان شغوفاً بالعلوم، تعلقت همته بترجمة المؤلفات اللاتينية المناسبة للذوق وميوله، وأنه تخير بنفسه بعض المؤلفات في العلوم الرياضية التي اطلع عليها، وكلف بترجمتها بعض الرهبان الصقليين المتكلمين باللغة العربية، وألحق بهم بعض علماء اللغة من أهل إفريقية، وعهد إليهم بمهمة تنقيح عباراتهم وصياغتها في قالب عربي صحيح، رغبة منه في تعميم فائدتها ونشرها بين الناس. وما يؤيد لديه هذا الاعتقاد أن الحسن الوزان رأى في إفريقية ترجمة كتاب بلينيوس الروماني (Plinius) في علم النبات باللغة العربية، ومن المؤكد أن هذا الكتاب المفيد جداً والذي نقل عنه العشابون المغاربة كثيراً فيما بعد، لم تتم ترجمته في الأندلس لا في عهد عبد الرحمن الناصر ولا في عهد ابنه الحكم الثاني^(٤)، وبالتالي فالأرجح أن يكون قد ترجم في إفريقية في هذا العصر، كما عثر في المكتبة العتيقة في جامع عقبة بالقيروان على نسخة من ترجمة عربية لكتاب (تاريخ الأمم

(١) حسن حسني عبد الوهاب : وقات ق، ١، ص ٢٠٢.

(٢) الشريف الإدريسي : المصدر السابق، ص ٧٥.

(٣) حسن حسني عبد الوهاب : وقات ق، ١، ص ٢٠٠، والمقصود باللغة اللاتينية هنا هي اللغة اللاتينية المتأخرة أو الرومانية الدارجة في ذلك العصر في الممالك الإفريقية الغربية والتي كانت راجعة الاستعمال بين سكان إفريقية النصراني.

(٤) حسن حسني عبد الوهاب : وقات ق، ١، ص ٢٠١ - ٢٠٢.

القديمة) المنسوب لجيرونم (Saint Gerome) المتوفى سنة ٤٢٠م وهي النسخة الوحيدة المعروفة لغاية الآن، وقد رسم على هوامشها كلمات بالحروف اللاتينية منها اسم المؤلف (أي جيرونم)^(١) مما يرجع أن ترجمة هذا الكتاب تمت في إفريقية في عصر الترجمة أيضاً وليس بعده، ذلك لأن المسلمين بعد انقضاء ذلك العصر لم يعودوا في حاجة إلى مزيد من الترجمة إذ انطلقوا هم لوحدهم يحلقون في سماء الإبداع.

وكانت المأثرة الهامة الأخرى للأغالية هي إنشاءهم (بيت الحكمة) في إفريقية على غرار ميمية في بغداد، وهو أكبر مؤسسة وجدت قديماً في إفريقية لدراسة العلوم الفلسفية والرياضية والفلكية والطبية وغيرها، كان الأمير إبراهيم الثاني الأصغر (سنة ٢٦١-٢٨٩هـ) هو الذي أنشأ هذه المؤسسة العلمية الهامة التي كانت أثبت ما تكون بجامعة كبيرة تدرس فيها مختلف العلوم، فكانت تتألف من عدة مجالس (قاعات) فسيحة، منها ما كان للتدريس والمطالعة ومنها ما كان لنسخ الكتب والترجمة، وقد ضمت إحداها مكتبة ضخمة جمعت كتبها من أنحاء العالم الإسلامي عدا ما كان يترجم فيها فضلاً عن خزانة لحفظ الآلات الفلكية لحساب سير الكواكب ورصدها كالإصطربالات والمقنطرات والجرب وما يشبهها من أدوات البحث وتحقيق الأوقاف، وضبط الأطوال والعروض مما يستعمل في الفلك والتنجيم^(٢). وكان أول من تولى رئاسة هذه الجامعة - وكان يطلق على شاغل هذا المنصب (صاحب بيت الحكمة) - هو أبو اليسر الشيباني البغدادي^(٣)، ومن أشهر من كان لهم علاقة بهذه الجامعة سواء بالتدريس فيها أو بحضور

(١) حسن حسني عبد الوهاب: ورقات ق، ص ٢٠٣.

(٢) حسن حسني عبد الوهاب: ورقات ق ١، ص ١٩٧.

(٣) هو إبراهيم بن محمد الشيباني ويكنى بأبي اليسر ويعرف (بالرياضي) الكاتب، أصله من بغداد وبها نشأ ودرس على جلة من محدثيها وفقهائها وتلمذ إلى كبار أدياء عصره كالملاحظ والمبرد وطلب وابن قتيبة وأخذ عنهم مصنفاتهم ولقي من فحول الشعراء أبا تمام والبحتري وعلي بن الجهم وروى عنهم دواوينهم مباشرة، وجالس من مشاهير الكتاب: معبد بن حميد، سليمان بن وهب، أحمد ابن أبي طاهر وغيرهم، رحل إلى الأندلس واتصل بأبيها محمد بن عبد الرحمن الأموي ثم لحق بالأمير الأغلب إبراهيم الأصغر فأكرم وقادته واتخذة رئيساً لديوان الرسائل بولته فاستقر بإفريقية وتوفي بها سنة ٢٩٨هـ، ومن مؤلفاته الأدبية (سراج الهدى) في معاني القرآن وإعرابه ومشكله، -

المجالس العلمية والدروس والمحاضرات التي تلقى فيها بالإضافة إلى أبي اليسر الشيباني،
عبد الله بن الصائغ^(١)، إسحق بن عمران^(٢)، إسحق بن سليمان الإسرائيلي^(٣)، بني

= (مسند في الحديث)، (لقط المرجان) في الأدب على نسق عيون الأخبار لابن قتيبة. (انظر ابن
عذاري : المصدر السابق ج١، ص ١٥٠، ١٦٢، مقري : المصدر السابق ج٢، ص ١١٥، حسن
حسني عبد الوهاب : ورفات ق١، ص ٢٤٤ وما بعدها).

(١). هو أحد وزراء وخوادم الأمير زيادة الله الثالث الأغلب، من القبروان وبها نشأ وتلقى علومه،
استخدمه منصور بن إسماعيل رئيس ديوان الخراج في عهد إبراهيم الأصغر في كتابة رسائله ثم
استوزره زيادة الله الثالث بعد ذلك وأُسند إليه وظيفة صاحب البريد وهي من الوظائف الهامة في
الدولة وقتئذ كان كاتباً بليغاً وشاعراً مجيداً، تعلمذ إلى كبار الكتاب في إفريقية مثل أبي اليسر
الشيباني ومحمد بن الفرج البغدادي، وأبى محمد عبد الله المنكفوف كبير اللغويين والنحاة في
القبروان في القرن الثالث الهجري، وكان من أعيان المحدثين على بيت الحكمة، مات مقتولاً سنة
٢٩٦ (انظر ابن الأبار : المصدر السابق ص ٢٦٦، ابن عذاري : المصدر السابق، ج١، ص ١٣٦،
١٤٣، حسن حسني عبد الوهاب : ورفات ق١، ص ٢٣٠ وما بعدها).

(٢) طبيب ببغداد في الولادة والنشأة والدراسة، مسلم يعكس ما قد يظن البعض بأنه يهودي لشابه اسمه
بأسماء اليهود، حذق العلوم الطبية ولا يستبعد أن يكون قد أخذ عن يحنشوع وحنين بن إسحاق
وأمثالهما، مارس الطب في العراق، ثم استدعاه الأمير إبراهيم الأصغر الأغلب إلى إفريقية فالتحق به
سنة ٢٦٤هـ. ومن أشهر من أعلنوا عنه ابنه علي المولود بالقبروان، وزيد ابن خلقون، وإسحق بن
سليمان الإسرائيلي وأبو بكر محمد بن الجزائر، وأبو سعيد عثمان بن الصيقل، وغيرهم، وقد ألف
عدة مؤلفات منها كتاب للمانخوليا في وصف أمراض الوماس وغيره (انظر ابن أبي أصيبعة :
عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٤٧٨، حسن حسني عبد الوهاب : ورفات ق١، ص ٢٣٣
وما بعدها).

(٣) نشأ في مصر وبها تعلم الطب ومارس مهنة الكهانة (أمراض العيون) في عهد أحمد بن طولون،
استقدمه الأمير زيادة الله الثالث إلى إفريقية فوصلها سنة ٢٩٢هـ، ولزم إسحق بن عمران يحضر
دروسه في بيت الحكمة وتعلمذ له، وبعد انتضاء دولة بني الأغلب خدم خلفاء الفاطميين أثناء
مقامهم في إفريقية فخدم المهدي، والقائم والنصور والمعز، وكان ذا حظوة لديهم، وكان مع علمه
بالطب بصيراً بالمنطق وغيره من المعارف، وكان يهود إفريقية يحلون حتى إنهم أسندوا إليه رياستهم
الدينية، وقد ألف لهم كتاباً في تفسير تعاليمهم وكانت وفاته في منتصف القرن الرابع الهجري قبل
انتقال المعز الفاطمي إلى مصر، ودفن بمقبرة اليهود بالمهدية، وقد أخذ عنه جماعة من أهل إفريقية
منهم الطبيب الشهير (أحمد بن الجزر) ومن أهم مؤلفاته كتاب (الحميات) كتاب (البول) كتاب
(البص) كتاب (الحدود والرسوم) في الطب وغيره. (انظر ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ص
٤٧٩ وما بعدها، ابن عذاري : المصدر السابق، ج١، ص ١٤١، حسن حسني عبد الوهاب :
ورفات ق١، ص ٢٣٧ وما بعدها).

الجزار^(١)، زياد بن خلفون^(٢)، ابن ظفر^(٣)، محمد بن حيون المعروف بالبريدي^(٤)، أبي سعيد عثمان بن سعيد المعروف بالصيقل^(٥)، ابن القمودي^(٦)، إسماعيل بن يوسف المعروف

(١) هم أفراد بيت واحد برعوا في علم الطب وتألفوه لمدة تزيد عن القرن أولهم أبو بكر محمد ابن أبي خالد بن الجزار - عم أحمد بن الجزار المشهور - وقد تلقى علومه الطبية عن إسحق بن عمران وعن تلميذه إسحق الإسرائيلي، وزياد بن خلفون وغيرهم، وقد خدم الخليفة الفاطمي الأول المهدي وتوفي في النصف الأول من القرن الرابع الهجري، ويبدو أنه كان له مؤلفات في الطب والبيات لم تصلنا. ثم أخوه إبراهيم بن أبي خالد بن الجزار، تلقى علومه مع أخيه، ومعه كان يمارس الكحالة في القيروان، وهو والد أحمد الذي ستعرض للذكره فيما بعد. (انظر حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق١، ص ٢٣٩ وما بعدها).

(٢) كان من موالى بني الأغلب، وكان يسكن القيروان، وبالحج الأمراء، وكان يزور مرضى الدمنة - مستشفى القيروان - في أيام مينة، ثم انتقل للسكنى في رقادة عندما بناها إبراهيم الأصغر وذلك ليكون قريباً من حاشية الأمير، ويبدو أنه تلقى علومه من سليمان بن عمران، وبعد انقضاء دولة الأغلبة التحق بالفاطميين فخدم المهدي، وتوفي متأثراً في القيروان سنة ٣٠٨ هـ.

(انظر ابن عذاري : ج١ ص ١٥٠، ١٨٣، حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق١، ص ٢٤١).

(٣) هو الفضل بن علي بن ظفر، طبيب وأديب وحكيم وشاعر قيرواني، درس الفلسفة والطب على مشاهير علماء عصره، كما درس على أعيان علماء الأخاف في القيروان، وكان من أصحاب ابن الصايغ الأندلسي الذكر، وصديقاً لأبي جعفر البغدادي وتدل علاقاته بكبار رجالات دولة الأغلبة على أنه كان من أعيان المترددين على بيت الحكمة ويحضر مجالس كبار علماء من الأطباء كإسحاق ابن عمران وإسحق الإسرائيلي وزيادة بن خلفون علاوة على علاقاته بأعيان أدباءه كأبي اليسر الشيباني وأبي جعفر البغدادي ونظرائهما وتوفي سنة ٣٢٣ هـ (انظر ابن عذاري : المصدر السابق، ج١، ص ٢٧١، حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق١، ص ٢٤٣ - ٢٤٤).

(٤) كان من مشاهير كتاب الدولة وأدبائها وقد ترأس ديوان الرسائل قبل قتلهم أبي اليسر إلى إفريقية، وقد سخط عليه الأمير إبراهيم الأصغر فسجنه ثم أمر بقتله سنة ٢٧٦ هـ. (انظر ابن عذاري : المصدر السابق، ج١، ص ١١٥، حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق١، ص ٢٤٧ - ٢٤٨).

(٥) من موالى إبراهيم الأصغر أخذ عن ثعلب في بغداد وعن أبي اليسر في بيت الحكمة وصحبه فترة طويلة وحلق صناعة الآلات الفلكية والرياضية وصناعة الورق، خدم المهدي الفاطمي بعد انقضاء دولة الأغلبة ثم رحل إلى الأندلس واستقر بقرطبة في كتف الناصر الأموي ونال حظرة لديه حتى أصبح مؤدب أبنائه وفي مقدمتهم ولبي عهده الحكم، وتوفي في حدود سنة ٣٣٠ هـ (انظر المقرئ : المصدر السابق ج٢، ص ١١٥، حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق١، ص ٢٤٩ - ٢٥٠).

(٦) أبو بكر القمودي المشهور بالفيلسوف نشأ بالقيروان وبها تلقى علومه وتخصص في الجدل والمناظرة ودرس كتب الفلسفة للأوائل وبحث آراءهم وصحب سعيد بن الخلداء مدة طويلة وتلمذ له

بالطلاء المنجم^(١)، أبي العباس أحمد بن القيار^(٢)، بكر بن حماد^(٣)، ابن خنيس اليوناني
الترجمان^(٤)، أبي عثمان معيد بن محمد بن صبيح المعروف بابن الحداد الفسائي^(٥)،

= وغيره من المفكرين وكان يميل إلى المعتزلة وكثيراً ما شارك في المناظرات المذهبية التي كانت تلور
في بيت الحكمة، ناظر أبا العباس الشيعي الداعي الفاطمي فأفحمه فخشى منه على نفسه فانضم
للدعوة الفاطمية فولوه رئاسة دار الضرب (السكة) ويدل أنه مات في عهد المهدي . (انظر ابن
عذارى : المصدر السابق، ج ١، ص ١٤٨، ١٥١، حسن عبد الوهاب : ورقات ق ١، ص ٢٥١).

(١) ولد بالقيروان وتلقى علومه الأولية بها ثم رحل إلى العراق ودرس علم الفلك والتنجيم حتى برع
فيهما كما حقق صناعة عقاير التجميل فعرف بالطلاء، وتجول في بلاد الشام ومصر يدرس العلوم
السانية والأدب والفلسفة والفنون الرياضية ثم عاد إلى القيروان يعلم غزير والحق بخدمة الأمير
إبراهيم الأصغر، ومن غير المستبعد أن يكون قد ألحقه بيت الحكمة، وقد سحب الأمير إلى صقلية
ثم عاد إلى إفريقية وعند سقوط دولة الأغابة هاجر إلى الأندلس كما سيأتي ذكره، (انظر حسن
حسني عبد الوهاب : ورقات ق ١، ص ٢٥٢-٢٥٤).

(٢) من علماء القيروان وفقهائها على المذهب الحنفي، سحب الإمام سحنون وأخذ عنه العلم، برع في علم
الكلام والجدل، واختص بصحة الأمير عبد الله بن إبراهيم الثاني، ومات سنة ٢٩٠ هـ . (انظر ابن عذارى :
المصدر السابق، ج ١، ص ١٧٣، كذلك حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق ١، ص ٢٥٤-٢٥٥).

(٣) نشأ بمدينة تاهرت بالمغرب الأوسط ثم أرغمل إلى القيروان ودرس على نخبة من محدثيها وفقهائها،
ثم رحل إلى المشرق فسمع من جلة علماء البصرة والكوفة وبغداد، وأتقن علم الحديث وفنون
الأدب وبرع في الشعر ومدح للمصم فوصله بصلات جزيلة واجتمع بأبي تمام ومسلم بن الوليد
ودعبل الخزاعي وعلي بن الجهم وغيرهم من شعراء العراق، وعاد إلى إفريقية ولفق بالبلاط الأغلبي
فأقام مدة طويلة يمدح الأمراء حتى انتفضاء دولتهم فوجه عائداً إلى بلده فاعتزله قطاع الطرق
وقتلوه سنة ٢٩٦ هـ . (انظر ابن عذارى : المصدر السابق، ج ١، ص ١٥٣-١٥٤، حسن حسني
عبد الوهاب : ورقات ق ١، ص ٢٥٥ وما بعدها).

(٤) رومي الأصل من موالي زيادة الله الثالث وكان في خدمة ذلك الأمير وترجمانه عند استقاله
للسفارة البيزنطية سنة ٢٩٥ هـ، ومراقفاً له في أسفاره وتحركاته ولا يستبعد أن يكون قد أسهم في
تحرير المصنفات التي ترجمت في بيت الحكمة.

(انظر حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق ١، ص ٢٥٧-٢٥٨).

(٥) من كبار متكلمي القيروان في عصره إن لم يكن أشهرهم وأعلمهم، أخذ علومه الدينية عن الإمام
سحنون وأبي سنان وأبي الحسن الكوفي، ثم مال بكنيته للفلسفة وأتقن فن الكلام والجدل، وتلمذ
له العديد منهم أبو بكر بن اللباد وابنه عبد الله وأبو العرب وأحمد بن موسى الصار وغيرهم، وكان
عابداً زاهداً ورعاً عالماً بالعربية، كان يشارك في المناظرات ببيت الحكمة، وبعد انتفضاء عهد دولة
الأغابة ناظر دعاة الفاطميين فكانت له معهم أربعين مناظرة. وتوفي سنة ٣٠٢ هـ. له عدة مؤلفات
منها (إيضاح المشكل)، (المقالات)، (الاستيعاب)، (الأمالي). =

ومحمد بن زرزور الفارسي^(١)، وغيرهم والذين كانوا في الوقت نفسه من أشهر علماء إفريقية في ذلك العصر وكلهم سابق ومجل في ميدانه. لذلك، وما لا شك فيه أن الأغالبة بتأسيهم لبيت الحكمة قد دفعوا بحركة النهضة العلمية في القيروان بصفة خاصة وإفريقية بصفة عامة دفعة قوية إلى الأمام، إذ وقف صرحاً شامخاً للعلم إلى جانب المعاهد العلمية الأخرى. وما تجدر الإشارة إليه في هذا المقام هودور الرباط في هذه الحركة العلمية النشطة في هذا العصر، ذلك أن الأغالبة أولوا الرباطات قدراً كبيراً من عنايتهم كما تقدم ذكره، وحيث إن جل علماء إفريقية كانوا يخرجون للمرابطة في هذه الرباطات طوال فصل الصيف لجهاد العدو كما تقدم ذكره أيضاً، فإن تلك الرباطات كانت تصبح في ذلك الفصل أشبه بالمعاهد العلمية، إذ كانت تجذب طلاب العلم للاستحقاق بهؤلاء العلماء والأخذ عنهم، وكان من هؤلاء العلماء من يشغل نفسه بنسخ الكتب لتيسيرها للطلبة مثل حملون بن مجاهد الكلبي الذي حكى عنه صاحبه أبو بكر مَسْرُة بن مسلم، أنه قال عن نفسه، بأنه نسخ ثلاثة آلاف وخمسمائة كتاب بيده^(٢)، ومن هذه الكتب ما كان يحبس (يوقف) على نزلاء الرباط^(٣). لذلك انتشر العلم في هذا العصر بين الخاص والعام، وتجاوز الرجال إلى

= (انظر الديباغ: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٩٥ وما بعدها، حسن حسني عبد الوهاب: وقرات ق ١، ص ٢٦١).

(١) كان عالماً فقيهاً على مذهب أبي حنيفة، يصفه ابن عذارى بقوله: (كان حافظاً ليلاً، ونظر في التجريم والحساب)، توفي سنة ٢٩١هـ.

(انظر الديباغ: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٤٧، ابن عذارى: المصدر السابق، ج ١، ص ١٣٦).

(٢) عالم فقيه ورع زاهد مرابط، استوطن رباط المنستير، كان من أصحاب عيسى بن مسكين وهو راويته، وأخذ عن الإمام سحنون ورحل إلى المشرق في طلب العلم وعاد إلى إفريقية كتب من الكتب العلمية قدراً عظيماً، وكان ملازماً للعبادة، كان إذا انصرف من المغرب يوجد موضع سجدته قد ابتل من دموعه، كان يحب نشر العلم وإذا فعله للملك استغل بنسخ الكتب. أخذ عنه مسرة بن مسلم، وعمر بن المثنى وروى عنه نخبة من علماء مصر والمغرب توفي سنة ٣٢١هـ.

(انظر ترجمته في المالكي: ج ١، ص ٧٦، القاضي عياض: المصدر السابق، ص ٤٢٠).

(٣) يقول حسن حسني عبد الوهاب في ذلك (لاني كثيراً ما رأيت أجزاء مخطوطة على الرق يرجع تاريخها إلى القرن الرابع والخامس مرسوماً تحت عنوانها (حبس على جماعة المرابطين بقصر . . . كذا) ويذكر حصن الرباط الموقوف عليه، وأحياناً تكون عبارة التحبيس هكذا (حبس على من يسكن حجرتي رباط . . . كذا، وهلم جرا).

النساء، إلى حد أن برزت منهن فيه عدة نساء اشتهرن بالعلم، مثل خديجة بنت الإمام سحنون في الفقه، ومهرية بنت الحسن بن غلبون في الأدب والتي كانت إلى جانب ذلك شاعرة مجيدة^(١)، وغيرهما.

وانقضى عهد الدولة الأغلبية ليتبدى العصر الفاطمي، وبالرغم من بعض المعوقات التي عرقلت مسيرة الحركة العلمية في ذلك العصر، والتي كان من أهمها محاولة الفاطميين صيغ تلك الحركة بما يتفق مع دعوتهم الشيعية بل والعمل على تسخيرها لخدمة تلك الدعوة والقضاء على كل ما يعارضها، وظهر ذلك بوضوح في الحرب الشعواء التي شنوها على المذاهب الدينية المعارضة لهم خاصة المذهب المالكي الذي كان يأخذ به معظم أهل إفريقية قتلوا وامتنحوا الكثير من أفاضل العلماء خاصة في عهد خليفتهم الأول عبد الله المهدي علاوة على ما كان يقتل منهم في الحركات المناوئة لهم، فقد قتل في حركة أبي يزيد مخلد ابن كيداد وحدها مثلاً خمسة وثمانون من نخبة علماء القيروان^(٢)، الأمر الذي كان سبباً هاماً في هجرة العديد من العلماء من إفريقية فراراً من هذا الاضطهاد هذا بالإضافة إلى الذين كانوا قد فروا منهم ممن خدموا الأمراء الأغالة خوفاً على أنفسهم من الفاطميين، هذا من ناحية، ثم محاولتهم تحويل بيت الحكمة عن مهمته الرئيسية في خدمة الحركة العلمية المحضة والحررة، وفرض القيود الثقيلة عليه حتى إن داعيتهم أبا عبد الله الشيعي جعله مركزاً لنشاطه، فكان يجري فيه مناظراته الدينية مع الفقهاء المتكلمين من غير الشيعة مثل مناظراته مع ابن الحداد وغيره، مما جعل الكثير من العلماء والفقهاء يعزفون عن هذه المؤسسة العلمية الهامة علاوة على تخرج بعض المتزمتين من فقهاء المالكية أصلاً عن إرثيادها وتشجيعها نظراً لما كان يدرس فيها من علوم نظرية وفلسفية لا يترونها، مما جعل مكانة هذه المؤسسة تأخذ في التراجع، حتى آل أمرها إلى الاندثار وذلك حينما انتقل الفاطميون إلى مصر وأخذوا محتويات مكتبتها معهم فدرست وطواها النسيان.

= (انظر حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق ١، ص ٣٣٩-٣٤٠).

(١) انظر حسن حسني عبد الوهاب : بساط العقيق، ص ٣٦.

(٢) انظر ابن عذاري : المصدر السابق، ج ١، ص ٣١٧ - ٣١٨، كذلك أحمد أمين : ظهر الإسلام، ج ١، ص ٣٠٠.

ولكن بالرغم من هذه المعوقات، فقد واصلت الحركة العلمية بل والحركة الحضارية مجملها في إفريقية نشاطها المستمر، ذلك أن الخلفاء الفاطميين لم يكونوا يرغبون في الظهور في مستوى أقل من مستوى خصوصهم العباسيين في بغداد حاضرة الدنيا آنذاك، أو الأمويين في قرطبة التي كانت هي الأخرى قد بلغت شأواً بعيداً في الحضارة والرقى في تلك الفترة التي كانت بمثابة عصرها الذهبي في ظل الخليفة الناصر وابنه الحكم، لذلك دفع الفاطميون بعجلة الحركة الحضارية في إفريقية إلى الأمام دفعة قوية، زاد من قوتها ما عرف عنهم من بليغ وترف. وأما القيروان فبالرغم من ظهور مركز حضاري جديد في إفريقية في ذلك العصر هو المهدية التي نقل خلفاء الفاطميين مقرهم إليها حيث اجتذب بلاطهم فيها نخبة من العلماء في مختلف نواحي المعرفة، ثم بروز تونس كمركز آخر حيث أصبح جامع الزيتونة بها مركزاً علمياً نشطاً يرفد الحركة العلمية في إفريقية بقوة، إلا أن القيروان ظلت هي المركز الرئيسي لهله الحركة، وظلت الحاضرة الأولى في غرب العالم الإسلامي بأسره، يؤكد هذه الحقيقة ما وصفها به المقدسي إذ قال عنها إنها كانت في القرن الرابع الهجري : (مصبأً بهياً عظيماً قد جمع أضداد الفواكه، والسهل والجبل، مع علم كثير، لا ترى أرفق من أهلها، ليس بينهم غير حنفي ومالكي مع ألفة عجيبة ، لا شغب بينهم ولا عصبية، فهي مفخرة المغرب ومركز السلطان وأحد الأركان، أرفق من نيسابور، وأكبر من دمشق، وأجل من أصبهان . . .)^(١). وتبعاً لذلك ظهر في إفريقية في ذلك العصر العديد من العلماء المبرزين الذين كان لهم أثر كبير ليس في الحركة العلمية في إفريقية فحسب، وإنما أيضاً في الحضارة العربية الإسلامية بوجه عام.

ومن مشاهير هؤلاء العلماء الذين ظهوروا في هذا العصر نذكر أباً جعفر أحمد بن إبراهيم بن أبي خالد بن الجزار، والذي يعتبر أحد مفاخر علم الطب لدى العرب والمسلمين، وهو ثالث الأطباء في أسرته كما سبق أن ذكرنا حينما أقررنا إلى أبيه وعمه. وقد ولد في القيروان سنة ٢٨٥ هـ / ٨٩٨ م في عهد الأمير الأغلبي إبراهيم الثاني الأصغر أي في زمن ذروة نشاط الحركة العلمية في العصر الأغلبي، فأخذ عن أبيه وعمه، ثم صحب إسحق بن

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ٢٢٤ - ٢٢٥.

سليمان الإسرائيلي المتقدم ذكره، حيث أخذ عنه واستفاد كثيراً من علمه كما يذكر ذلك في مصنفاته، فبرع في الطب والطبيعة والفلسفة والتاريخ، وعندما آتس من نفسه العلم الكافي والخبرة المطلوبة افتتح في بيته شبة عيادة لامتقبال المرضى، إذ بنى عند باب داره محلاً مستقلاً خصص منه قسماً للصيدلة جعل فيه غلاماً له يسمى (رشيقي) أعد بين يديه الأدوية من معجنات وأشرطة ومراهم وغيرها من المستحضرات يصرفها للمرضى لقاء ثمنها بموجب وصفات طبية كان يكتبها له ابن الجزار بعد فحصه للمريض، فقال بذلك شهرة واسعة حتى أصبح أشهر أطباء عصره، ومع ذلك فيبدو أنه كان متقبضاً عن الدولة الفاطمية فلم يذكر أنه اتصل بأحد خلفائها وإن كانت ربطته علاقة ببعض رجالائها، كما أنه كان متواضعاً مع الناس يشهد جنازات الفقراء ويحضر أعراسهم، وكان يهض في كل عام للمرابطة في رباط المنستير فيقيم فيه فصل الصيف ثم يعود بعد ذلك إلى القيروان على ما جرت به عادة العلماء الزهاد، وقد قرضه العديد من كتاب التراجم والطبقات مثل ابن جلجل في طبقاته وياقوت في معجمه والمالك في طبقاته وابن أبي أصيبعة في طبقاته، وأحمد الخميري الطبيب في (تحفة القادِم) وقد صنف العديد من المصنفات ترجم عدد منها إلى اللاتينية واليونانية والعبرية والفرنسية، وظلت عملة لأطباء أوروبا في العصور الوسطى كما سيذكر فيما بعد، وقد عمر طويلاً حتى بلغ الثمانين وتوفي بالقيروان سنة ٣٦٩هـ/٩٨٠م، وقد ترك مكتبة ضخمة قيل إنها كانت عشرين قنطاراً من الكتب بين طبية وغيرها^(١).

ومن أشهر مؤلفاته الطبية (زاد المسافر وقوت الحاضر) في علاج الأمراض وميائتي التعريف به فيما بعد، وكتاب (العدة لطول الملة) قال عنه ابن أبي أصيبعة: (هو أكبر كتاب وجدناه له في الطب)^(٢) وهو كتاب لم يصلنا، ثم كتاب (الاعتماد) في الأدوية المفردة و- يأتي ذكره، وكتاب (البنية) في الأدوية المركبة، لا نعلم عنه شيئاً، وكتاب (نصائح

(١) انظر ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص ٤٨١ وما بعدها، كذلك حسن حسني عبد الوهاب: ورفات ق١، ص ٣٠٦ وما بعدها، أبو القاسم محمد كرو، وعبد الله شريط: عصر القيروان، ص ٤٠.

(٢) ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص ٤٨٢.

الأبرار)، و(قوت المقيم) وهو غير زاد المسافر الآتف الذكر، قال ابن أبي أصيبعة نقلًا عن جمال الدين بن القفطي أنه كان عشرين مجلدًا، ثم كتاب (المعدة وأمراضها وسلواتها)، وكتاب (أصول الطب)، وكتاب (معربات) في الطب، (المختبرات) في الطب، (البلغة) في حفظ الصحة، (أبدال الأدوية) رسالة موجودة في خزانة أحمد خيرى في البحيرة بمصر^(١)، (التحذير من إخراج الدم من غير حاجة دعت إلى إخراجها) رسالة، (طب الفقراء والمساكين) موجود في مكتبة غوطة والأمسكوريال ومنه نسخة في خزانة عبد الحى الكنانى بفاس وقد ترجم قديمًا إلى العربية^(٢)، (النصح) قال عنه في (طب المشايخ) أنه جمع فيه أدوية الملوك والخواص، (طب المشايخ) رسالة في عشرين ورقة عالج فيها الحالات التي تعترى المسنين والعمرين وما يجب عليهم فعله للمحافظة على صحتهم، توجد في مكتبة أحمد خيرى في البحيرة بمصر، (مياسة الصبيان وتدريبهم)، (الخواص) وترجم قديمًا إلى العربية، (الزكام) رسالة في أسبابه وعلاجه، (الجدام) مقالة، (الوباء ونعت الأسباب المولدة له في مصر، وطريق الحيلة في دفع ذلك وعلاج ما يتخوف منه) وغير ذلك^(٣)، وله في التاريخ والجغرافية، (التعريف بصحيح التاريخ) وهو مفقود، قال عنه ابن أبي أصيبعة بأنه يشتمل على وفيات علماء زمانه وبعض أخبارهم^(٤)، وقال عنه ياقوت إنه في عشر مجلدات وينقل عنه في معجم البلدان^(٥)، (تاريخ الدولة) أي الدولة الفاطمية بسط فيه حوادث نشأة الدولة الفاطمية في إفريقية وهو في عداد المفقود، نقل عنه المقرئ في كتابه (اتعاظ الخلفاء) وغيره من المؤرخين^(٦)، كتاب (مغازي إفريقية) في أخبار الفتح الإسلامي لإفريقية وهو مفقود أيضاً ذكره البكري في مسالكة، (طبقات القضاة) ترجم فيه لقضاة إفريقية في عصره ونقل عنه القاضي عياض في مداركه، (عجائب البلدان) وقيل (عجائب الأرض) وهو في تقويم البلدان ووصفها، ورد ذكره مراراً في الكتاب المعروف بجغرافية المأمون المنسوب إلى

(١) حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق ١، ص ٣١٦.

(٢) حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق ١، ص ٣١٦.

(٣) حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق ١، ص ٣١٧ - ٣١٨.

(٤) ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ص ٤٨٢.

(٥) انظر ياقوت : المصدر السابق (اسم طبلة) ج ٢، ص ٦١.

(٦) حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق ١، ص ٣١٨ - ٣١٩.

الفزاري، كما نقل عنه ابن البيطار^(١)، وله في الأدب وغيره (المكمل) في الأدب والسياسة، (الفصول) في سائر العلوم والبلاغات، (الأحجار) في الأحجار الكريمة ومعادنها ومنافعها وخواصها، (العرط)، (النفس واختلاف الأوائل فيها) رسالة، (النوم واليقظة) رسالة، (الاستهانة بالموت) رسالة أيضاً^(٢). ومما لا شك فيه بناء على ما تقدم أن ابن الجزار كان أحد أعلام علماء المسلمين لا يقل في مستواه عن ابن سينا والبيروني ونظرائهما.

ومن هؤلاء المشاهير أيضاً أبوسهل دونش بن تميم، وهو يهودي ويدعى عند بني ملته (أدنيهم) وينعت بلقب الشفلجي الإسرائيلي، وقد ولد في القيروان في أواخر القرن الثالث للهجرة، وأخذ عن إسحق بن سليمان الإسرائيلي وتخرج عليه في الطب والفلسفة والرياضيات والفلك وبرع فيها جميعاً وأتقن اللغتين العربية والعبرية ودرس الديانة اليهودية وتفقه فيها حتى عد من كبار أبحارها، فكانت الاستفتاءات ترد إليه من يهود الأندلس ومصر والعراق فضلاً عن إفريقية، واتصل دونش بخدمة الخلفاء الفاطميين فخدم المنصور وابنه المعز قبل انتقاله لمصر، وقد وضع دونش عدة مؤلفات في الطب والرياضيات والفلك وكانت هنالك مراسلات جارية بينه وبين يهود الأندلس خاصة مع (حسداي بن إسحق الإسرائيلي) طبيب الحكم الثاني^(٣) بقرطبة كما سيأتي ذكره، وكانت وفاته في حدود سنة ٣٦٠ هـ / ٩٧١ م ويقال إنه مات على الإسلام^(٤)، ومن أشهر مؤلفاته كتاب (التخليص) في الأدوية المفردة، الذي نقل عنه ابن البيطار الصيدلي الأندلسي المشهور (١١٩٧ - ١٢٤٨ م) في كتابه (جامع المفردات) الذي يعتبر من خيرة الكتب التي صنفها العرب في الصيدلة والأدوية^(٥)، ثم كتاب في الحساب الهندي المعروف بحساب الغبار وهو من أقدم المؤلفات في هذا الموضوع، وكتاب في حركة الفلك والكواكب، ومصنف في علم الفلك قدمه لمخدومه المنصور بن القائم الفاطمي، كتاب في المقارنة بين اللغتين العربية والعبرية، وشرح على (سفر التكوين) في

(١) حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق ١، ص ٣١٩ - ٣٢٠.

(٢) حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق ١، ص ٣٢٠ - ٣٢١.

(٣) انظر ترجمته في ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ص ٤٩٨.

(٤) انظر حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق ١، ص ٢٩٧ وما بعدها.

(٥) انظر د. سعد عاشور : المدينة الإسلامية ص ١٦٥.

التوراة، وقد وضعه دونش بالعربية الفصحى سنة ٣٤٥هـ / ٩٥٥م ثم نقل إلى العبرية بعد ذلك، وتوجد من هذه الترجمة عدة نسخ في بعض مكتبات أوروبا، أما الأصل العربي فمفقود، وله عدة رسائل أخرى محفوظة في مكتبة يوديان باكسغورد منها (المستلحق)، (التنبيه)، (التسوية)، وغير ذلك^(١).

ومن هؤلاء أيضاً موسى بن العازر اليهودي أيضاً، وكان حاذقاً في صنعه الطبية، ويبدو أنه كان قد وقع في الأسر وهو صغير، فتلقى علومه في إفريقية ونيغ حتى إنه أصبح هو وآل بيته أطباء الخلفاء الفاطميين، وقال عنه ابن أبي أصيبعة نقلاً عن ابن القفطي إنه كان طبيباً عالماً بصناعة العلاج وتركيب الأدوية وطبائع المفردات^(٢)، وقد ألف عدة مؤلفات منها (المعزى) في فن الطبخ أي الغذاء الطبي وخواص كل لون وفوائده وحالات استعماله وقد ألفه للمعز لدين الله الفاطمي، ثم (السعال) وهي مقالة، ثم (الأقرباذين) أي علم الأدوية في جزء، ومن تخرج عليه أنهاؤه عون الله وإسحق وإسماعيل، وقد خدموا المعز لدين الله الفاطمي وانتقلوا معه إلى مصر، ثم يعقوب بن إسحق بن موسى الذي خدم المعز أيضاً^(٣)، ومن أطباء إفريقية في هذا العصر أيضاً (أعين بن أعين) وكان كحالاً أي طبيب عيون، ومارس هذه الصناعة في القيروان واشتهر بمعالجة الرمد المزمن وعوفي على يده الكثير منهم الشريف أحمد بن عوانه وابنه، وعبد الله بن أبي زيد فقيه المالكية المشهور، وقد خدم المعز الفاطمي وانتقل معه إلى مصر، واستقر بها إلى أن وافاه أجله في ذي القعدة سنة ٣٨٥هـ / ديسمبر سنة ٩٩٥م، ومن مؤلفاته كتاب (أمراض العين ومدلاواتها)، (كناش في الطب)^(٤). ونيغ في هذا العصر من علماء الفقه أبو القاسم حماس بن مروان بن سمالك^(٥)، ومحمد بن

(١) انظر حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق ١، ص ٣٠٠.

(٢) ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق، ص ٥٤٥.

(٣) ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ص ٥٤٥. انظر أيضاً حسن حسني عبد الوهاب ورقات ق ١، ص ٣٠١ وما بعدها.

(٤) انظر ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ص ٥٤٦. حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق ١، ص ٣٠٥ وما بعدها.

(٥) أخذ عن محمد بن عبدوس بن وسيم من سحنون وهو صغير ومن ابن عبد الحكيم بمصر، كان قتيلاً ورعاً عابداً زاهداً، ولي قضاء القيروان سنة ٢٩٠هـ وتوفي سنة ٣٠٢ وقيل ٣٠٧هـ.

محمد بن الإمام سحنون، ثم أبوبكر محمد بن محمد المعروف بابن اللباد الذي اشتهر بالحفظ والانتقان وسعة العلم وسعيه لنشر المذهب المالكي في المغرب الإسلامي وتكوين علماء حملوا علمه، وقد اضطهده الفاطميون وسجنوه، وكانت وفاته في سنة ٣٣٣هـ^(١)، ثم أبو محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني إمام المالكية في زمنه والذي سبق أن أشرنا إليه، وكانت وفاته في سنة ٣٨٦هـ^(٢)، وعبد الله بن أبي هاشم بن مسرور التجيبي، من تلاميذ عيسى بن مسكين، ومن أشهر من أخذ عنه ابن أبي زيد الآنف الذكر^(٣)، ومن الأدباء أبو عبد الله محمد بن جعفر القيرواني شيخ ابن رشيقي، وقد نقل ابن رشيقي في كتابه (العمدة) كثيراً من دروسه ومحاضراته في اللغة والأدب^(٤)، وعبد الكريم النهشلي وغيرهما، ومن الشعراء ابن هاني الأندلسي الملقب بمتنبي المغرب^(٥)، وعلي بن عبد الله التونسي، ومقداد بن الحسن الكتامي، وفي ميدان التاريخ والتراجم والطبقات ظهر أبو العرب محمد بن أحمد التميمي صاحب كتاب الطبقات المشهور وحامل لواء تاريخ القيروان كما يقول عنه الدباغ في معالم الإيمان^(٦)، فقد كان كثير الكتب حسن الخط والتقييد واسع الاطلاع ويقال إنه كتب بيده أربعة آلاف كتاب وتوفي سنة ٣٣٣هـ، ثم القاضي النعمان بن محمد صاحب كتاب (المجالس والمسائر) المتوفى سنة ٢٦٣هـ، والذي كان علاوة على تبحره في فقه الشيعة ومن أكبر دعاة الفاطميين والمدافعين عن دعوتهم، كان من أبرز مؤرخي دولتهم

= (انظر ترجمته في الدباغ: المصدر السابق ج ٢، ص ٣٢٠ وما بعدها).

(١) انظر ترجمته في الدباغ: المصدر السابق ج ٣، ص ٢١ وما بعدها.

(٢) انظر ترجمته في الدباغ: المصدر السابق ج ٣، ص ١٠٩ وما بعدها.

(٣) انظر ترجمته في الدباغ: المصدر السابق ج ٣، ص ٥٧.

(٤) انظر أبو القاسم محمد كرو، وعبد الله فريظ: المرجع السابق ص ٤٠.

(٥) لقب بالأندلسي لشأنه بالأندلس، فهو من إفريقية ومن المهديّة باللدات، وهاجر أبوه منها إلى الأندلس فولد بها ابن هاني ونشأ، وقضى بها شطراً من باكورة شبابه ثم انتقل إلى إفريقية وفيها نضجت موهبته، واتصل بالمرز لدين الله الفاطمي وملحه بقصائد كثيرة، وكان منه كما كان المتنبي من سيف الدولة، ولحق بالمرز حينما انتقل إلى مصر ولكنه اغتيل في بركة، وقد أسف المرز كثيراً حينما علم بمقتله، وكان مما قاله وقتئذ: كنا نريد مفاخرة شعراء المشرق به.

(٦) انظر ترجمته في الدباغ: المصدر السابق ج ٣، ص ٣٦ وما بعدها، انظر كذلك حسن حسني عبد

الوهاب: ورفات ق ١، ص ٣٤٠.

وكتاب مير أكتهم. ومن أكثر الخلفاء الفاطميين اهتماماً بالعلم في تلك الفترة المعز لدين الله الفاطمي الذي كان هو نفسه على درجة كبيرة من العلم والاطلاع، يقول القاضي النعمان في ذلك : (وأما الطب والهندسة وعلم النجوم والفلسفة فأهل النفاذ في كل فن من ذلك بين يديه، وكلهم في ذلك عيال عليه. يخترع في كل يوم لهم من الصنائع ويدع لهم فيه البدائع من دقائق معانيه وما تحار أذهانهم فيه فيما لو أخذت في تقصي معانيه ووصف ما آثره الله عز وجل به وجعله من العلم والحكمة فيه، لقطع هذا الكتاب بما بينته عليه)^(١)، وكان يحسن عدة لغات، وضم قصره بالمصنوعة مكتبة ضخمة جمعت كتبها من نواحي عديدة فضلاً عما ورثه منها عن الأغالبة، وكان لشدة تعلقه بها يعرف مواضيع الكتب فيها وما يحويها كل جزء منها من فنون العلم والمعرفة^(٢)، وكان يقول على ما ذكره القاضي النعمان : (إنني لأجد من اللذة والراحة والمسرة، في النظر في كتب الحكمة ما لو وجده أهل الدنيا لأطرحوها لها، ولولا ما أوجب الله سبحانه عليّ من أمور الدنيا لأهلها وإقامتها ظاهرها ومصلحهم فيها لرفضتها بالتلذذ بالحكمة والنظر في كتبها، والله ما تلذذت شيئاً تلذذي بالعلم والحكمة)^(٣)، وبالإضافة إلى شغفه بالعلوم والفنون ارتقت الصناعات في عهده إلى حد كبير حتى إنه هو نفسه كان له باع طويل في هذا المضمار، فقد كان أول من صنع قلم حبر يخزن يخزن المداد، فقد ذكر القاضي النعمان أنه قال : (نريد أن تعمل قلماً يكتب به بلا استمداد من دواة، يكون مداده من داخله : فمتى شاء الإنسان كتب به فأمدده وكتب بذلك ما شاء، ومتى شاء تركه، فارتفع المداد، وكان القلم نائفاً منه، يجعله الكاتب في كفه أو حيث شاء فلا يؤثر فيه ولا يرشح شيء من المداد عنه، ولا يكون ذلك إلا عندما ينتهي منه ويراد الكتابة به)^(٤)، وفعلاً قام بعمل التصميم لذلك القلم وأعطاه لأحد الصناع لديه فصنعه كما أراد، وبذلك يكون قد سبق الأوروبيين إلى هذا الاختراع بشمانية قرون، ذلك أن أول قلم حبر يخزان عرف في أوروبا كان قلم F.B.Foelsh سنة ١٨٠٩ ثم قلم J.Schaffer سنة

(١) القاضي النعمان : كتاب المجالس والمساربات ص ١٤٨.

(٢) انظر القاضي النعمان : كتاب المجالس والمساربات، ص ٥٣٣.

(٣) القاضي النعمان : كتاب المجالس والمساربات، ص ٩١.

(٤) القاضي النعمان : كتاب المجالس والمساربات ص ٣١٩ - ٣٢٠.

١٨١٩م، وقلم J.H.Lewis الذي صنع له خزاناً من المطاط وذلك في سنة ١٨١٩ أيضاً^(١).

وكما كان قيام الدولة الفاطمية سبباً في ظهور بعض المعوقات للحركة الحضارية، كان انتقالهم إلى مصر سنة ٣٦٢هـ سبباً في ظهور معوقات أخرى لهذه الحركة، ذلك أنهم أخذوا معهم كثيراً من دعائم الحركة المذكورة حتى كان فعلهم هذا أقبيح ما يكون بنهب لإفريقية، أخذوا جل أموالها التي بها تمضي الحضارة قدماً في مسيرتها في كل زمان ومكان، وأخذوا الكتب من مكتبي بيت الحكمة وقصر المنصورة وسواهما، فحرمت إفريقية من هذا العنصر الهام اللازم لاستمرار تقدم الحركة العلمية، وأخيراً وليس آخراً أخذوا كثيراً من خيرة علمائها وصناعها ممن كانوا على صلة ببلادهم فضلاً عن أشياء هامة أخرى كمعظم الأسطول والجيش والنوابين وما إلى ذلك، ومع أن هذا كان له بلا شك أثره السلبي على الحركة الحضارية في إفريقية، إلا أن هذه الحركة بالرغم من ذلك لم تلبث أن واصلت مسيرتها، إذ سرعان ما استطاع أمراء بني زيري تجاوز هذه المعوقات والهوض بها لما عرف عنهم من إنفاق بيد مبسطة^(٢) - فصدوا به أكثر ما قصدوا الاستلاء على خصوصهم وجذب الأنصار - نهضة كبيرة شملت جميع نواحيها، فشهدت إفريقية في عهد أمرائهم الأول بالرغم من المشاكل السياسية التي واجهتهم والتي سبق أن أشرنا إليها، شهدت عصرراً من الرقي والتمدن يعتبر من أزهى عصورها الحضارية، يقول ابن خلدون في ذلك : (واستبحر عمران القيروان وقرطبة، وكان فيهما للعلوم والصنائع أسواق نافقة وبحور زاخرة، ورسخ فيهما التعليم لامتداد عصورهما، وما كان فيهما من حضارة)^(٣). وأصبح بلاط أمرائها لا سيما في الشطر الأول من عهد المعز بن باديس من أزهى بلاطات حكام المسلمين، ولعل خير دليل على ذلك هو ما قاله ابن خلدون أيضاً عن المعز في هذا الموضوع

(١) لمزيد من التفصيل انظر القاضي النعمان : المصدر السابق ص ٣١٩ وما بعدها.

(٢) يقول ابن خلدون في ذلك : (نقل ابن الرقيق من أحوالهم في الولائم والهدايا والحبائز والأعطيات ما يشهد بذلك - أي البذخ والترف - مثل ما ذكر أن عطية صندل عامل باقانة حمل مائة حمل من المال وأن بعض توابيت الكهراء منهم كان من العود الهندي بمسامير الذهب وأن باديس أعطى فلفل بن مسعود - أي فلفل بن سعيد - اثنتين ثلاثين حملاً من المال وثمانين تختاً).

ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦، ص ١٥٨-١٥٩.

(٣) ابن خلدون : المصدر السابق ج ١، ص ٣١٠.

حيث يقول : « واستمر ملك المعز بإفريقية والقيروان وكان أضخم ملك عرف للبربر بإفريقية وأثره وأبذخه »^(١).

وتبعاً لذلك ظهر العديد من العلماء المبدعين في شتى فروع العلم والمعرفة نذكر من مشاهيرهم على سبيل المثال في علوم الرياضيات والهندسة : أبو الطيب عبد المتعم محمد الكندي المتوفى سنة ٤٣٥ هـ الذي كان له تأليف عديدة في فنون شتى إلا أن المنية عاجلته عن تهذيبها، ولكن أكثر ما يميزه هو تصميمه لمشروع هندسي ضخم لثقب قناة من البحر إلى القيروان، فقد قال عنه القاضي عياض إنه كان دبرٌ جلب ماء البحر من الساحل إلى القيروان وسوقه خليجاً من هناك ينظر هندسي ظهر له، ولكن اخترته المنية قبل إنفاذ رأيه فيه، وظهر ما دبر منه^(٢) هذا علاوة على سعة علمه بالفقه والحديث واللغة والغريب وعلم الكلام^(٣). ثم علي ابن أبي الرجال وزير الدولة الزيرية الشهير، الذي كان عالماً أديباً لغوياً فقيهاً، وأكثر ما اشتهر به هو تبحره في علم الفلك، وله في ذلك مؤلف نال شهرة واسعة هو (كتاب البارع في الفلك) كما سيأتي ذكره، ومثله أحمد بن يوسف التفاشي القفصمي الذي كان من خيرة من أنجبتهم إفريقية في علم الفلك، فضلاً عن إتقانه لعلوم أخرى. ثم عالم الطبيعيات أبو الصلت أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت، ومع أنه كان أندلسياً من دانية إلا أنه أقام شطراً كبيراً في إفريقية وبها نضجت موهبته كما أنه مات ودفن فيها لذلك عد من أهلها، وقد كان إلى جانب علمه الواسع في الطبيعيات يتقن عدة علوم أخرى كالفلسفة والموسيقى والرياضيات والطب وغيرها، بالإضافة إلى أنه كان شاعراً مجيداً، قال عنه ابن أبي أصيبعة : (من أكابر الفضلاء في صناعة الطب وفي غيرها من العلوم وله التصانيف المشهورة والمآثر المذكورة، قد بلغ في صناعة الطب مبلغاً لم يصل إليه غيره من الأطباء، وحصل من معرفة الأدب ما لم يلوكه كثير من سائر الأدياء. وكان أرحم في العلم الرياضي، متقناً لعلم الموسيقى وعمله)^(٤)، وكان من أبدع ما نظمه قصائده في علم الهيئة، وقد عده ابن خلدون من قمم هذا العلم عند المسلمين، إذ يقول

(١) ابن خلدون : المصنر السابق ج٦، ص ١٥٨.

(٢) عن ذلك انظر أبو القاسم محمد كرو، وعبد الله شريط : المرجع السابق ص ٤٤.

(٣) انظر ترجمته في الدباغ : المصنر السابق ص ١٨٤ - ١٨٥.

(٤) ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ص ٥٠١.

في معرض حديثه عن هذا العلم: (ومن أحسن التأليف فيه كتاب المجسطي منسوب لبطليموس . . . وقد اختصره الأئمة من حكماء الإسلام كما فعله ابن سينا وأدرجه في تعاليم الشفاء وخصه ابن رشد أيضاً من حكماء الأندلس وابن السمع وابن الصلت في كتاب الاقتصار^(١)، وقد حكى ابن أبي أصيبعة في طبقات الأطباء عنه شيئاً كان يعتقد أنه من أنكار العصر الحديث، وهي فكرة رفع المراكب الغارقة من قعر البحار، فيذكر أن مركباً مملوءاً بالنحاس غرق بالقرب من الاسكندرية، فزم ابن أبي الصلت على رفعه، فاجتمع بالأفضل أمير الجيوش وأطلعه على ما جال في خاطره، وطلب منه أن يهيئ له ما أراد، فأحضر له الأفضل الآلات اللازمة، فوضهها في مركب كبير سار به حتى وازى المركب الغارق، ثم أمر غواصين كانوا معه ليفوضوا ويوقفوا ربط حبال من الأبريسم (الحري المبروم - لأن الحبال القوية المصنوعة من الأسلاك المعدنية لم تكن معروفة - في المركب الغارق، وكان قد صنع آلات بأشكال هندسية لرفع الأثقال في المركب الذي هم فيه، وأمرهم بما يفعلونه في تلك الآلات، ولم يزل شأنهم ذلك، والحبال ترتفع إليهم أولاً بأول وتنطوي على حوالب بين أيديهم، حتى بان لهم المركب الذي كان قد غرق، وارتفع إلى قريب من سطح الماء. ثم عند ذلك انقطعت الحبال، وهبط راجعاً إلى قعر البحر، لقد تلطّف ابن أبي الصلت فيما صنعه، وفي التحيل لرفع المركب، إلا أن القدر لم يساعده. وغضب عليه الأفضل لما غرقه من الآلات وأمر بحبسه، وبقي في سجنه إلى أن شفّع فيه بعض الأعيان فأطلق مسراحه وعاد إلى إفريقية^(٢). وأما في الفقه والعلوم الدينية فقد اشتهر علي بن محمد بن خلف المعافري المعروف بابن القاهسي، صاحب الآراء القيمة في الترية والذي كان واسع الرواية عالماً بالحديث فقيهاً مالِكياً أصولياً متكلماً له تأليف كثيرة منها (كتاب المهد) في الفقه، (والنقد من شبه التأويل)، (وكتاب المعلمين والمتعلمين)، (وكتاب رتب العلم وأحوال أهله) وغيرها، وقد مات بالقبروان في سنة ٤٠٣ هـ^(٣)، ثم أبو القاسم خلف بن أبي القاسم الأزدي المعروف بابن البراذعي، وكان من كبار أصحاب ابن أبي زيد

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٤٠٧.

(٢) انظر ابن أصيبعة : المصدر السابق ص ٥٠١ - ٥٠٢، كذلك أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٢، ص ١٩٥ - ١٩٦.

(٣) انظر ترجمته في النبأغ : المصدر السابق ج ٣، ص ١٣٤ وما بعدها.

وابن القابسي الأنف الذكر، ومن حفاظ المذهب المالكي والمؤلفين فيه، له كتاب (تمهيد مسائل المدونة)، وكتاب الشرح والتسامات، (واختصار الواضحة)^(١). ثم أبو علي الحسن بن خلدون البلوي، الذي كان ركناً من أركان أهل السنة مع فقه كثير وصدقة ومعروف وهمة عالية وإحسان إلى العلماء، وهو الذي تزعم الثورة ضد الشيعة في القيروان في مطلع عهد المعز بن باديس حيث آل أمره إلى أن اغتيل في مسجده سنة ٤٠٧هـ كما سبق ذكره^(٢). وأبو القاسم عبد الرحمن بن علي بن محمد الكتاني المعروف بابن الكاتب وكان أحد الفقهاء المستبطين والعلماء الراسخين وكانت له فتاوى مشهورة وتوفي سنة ٤٠٨هـ^(٣). وأبو عمران موسى بن عيسى بن أبي حاج الغفجومي القاسي^(٤)، وأبو بكر أحمد بن عبد الرحمن بن عبد الله الخولاني^(٥)، ومحرز بن خلف وغيرهم. وفي ميدان الأدب اشتهر في هذا العصر إبراهيم الحصري الضري، والإمام محمد بن جعفر بن القزاز صاحب المعجم الكبير المسمى (الجامع في اللغة) وهو من أمهات كتب اللغة^(٦)، ومحمد بن عطية بن حيان الكاتب، وابن الربيب المعروف بالقاضي التاهرتي، وأبو الحسن علي بن رشيق (٣٨٥ - ٤٥٦هـ / ٩٩٥ - ١٠٦٣م) الذي كان شاعراً مجيداً، وناقداً أدبياً مبدعاً، وكاتباً بليغاً، خدم المعز بن باديس وكان من أركان دولته، وبعد محنة القيروان في ظل الهجرة الهلالية انتقل مع المعز إلى المهديّة. وبعد وفاة المعز سنة ٤٥٣هـ خدم ابنه تميم، وآل به الأمر بعد ذلك أن هاجر إلى صقلية وأقام بها آخر أيام حياته، وتوفي سنة ٤٥٦هـ / ١٠٦٣م^(٧). وقد ترك ابن رشيق ثروة عظيمة من الكتب في مختلف فنون الأدب نذكر منها كتاب (قراضة الذهب في نقد أشعار العرب) وقد اعتنى فيه بالخصوص بسرقات الشعراء، وكتاب (الأموذج)، وكتاب (الشذور)، ولكن أشهرها على الإطلاق هو كتاب (العمدة) ويقع في

(١) انظر ترجمته في الديباغ: المصدر السابق، ج ٣، ص ١٤٦ وما بعدها.

(٢) انظر ترجمته في الديباغ: المصدر السابق، ج ٣، ص ١٥١ وما بعدها.

(٣) انظر ترجمته في الديباغ: المصدر السابق، ج ٣، ص ١٥٥.

(٤) انظر ترجمته في الديباغ: المصدر السابق، ج ٣، ص ١٥٧ وما بعدها.

(٥) انظر ترجمته في الديباغ: المصدر السابق، ج ٣، ص ١٦٥ وما بعدها.

(٦) أبو القاسم محمد كرو، وعبد الله شريط: المرجع السابق، ص ٥٤.

(٧) أنظر أبو القاسم محمد كرو، وعبد الله شريط: المرجع السابق، ص ٩٧ وما بعدها.

جزأين بحث فيه كل القضايا المتعلقة بالأدب والنقد كمنزلة النثر والشعر والدفاع عن الشعروأثره في حياة العرب وفي حياة الشعراء، وذكر مشاهير الشعراء، والتعريف بالشعر وأنواعه واختلاف المذاهب الجمالية فيه إلى غير ذلك^(١)، ولعل خير من يبرز أهمية هذا الكتاب في ميدان النقد الأدبي هو ابن خلدون بقوله عنه : (وهو الكتاب الذي انفرد بهله الصناعة وإعطاء حقها ولم يكتب فيها أحد قبله ولا بعده مثله)^(٢). ثم ابن مفر (٣٩٠هـ - ٤٦٠هـ / ٩٩٩ - ١٠٦٧م) الذي يعتبر أحد مفاخر أدباء إفريقية في ذلك العصر، تتلمذ ابن شرف لأساتذة كبار مثل ابن القاسبي، وإبراهيم الحصري الضريير والإمام محمد بن جعفر ابن القراز وغيرهم، وهو صو ابن رشيق ومنافسه جمعهما بلاط المعز بن باديس، ولحق هو أيضاً بالمعز إلى المهديّة حين خروجه إليها من القيروان إثر الهجرة الهلالية وبعد موت المعز هاجر إلى صقلية، ثم انتقل منها إلى الأندلس متنقلاً بين ملوك الطوائف مادحاً لإهاهم، حتى استقر به المقام أخيراً في بلاط ابن عباد بإشبيلية وبها كانت وفاته سنة ٤٦٠هـ / ١٠٦٧م^(٣). أما مؤلفاته فكثيرة ولكن لم يصلنا منها إلا القليل، منها كتاب (أبكار الأفكار) ويتضمن إنتاجه الخاص من نثر ونظم وهو مفقود توجد منه شذرات متفرقة في كتب الأدب، وكتاب (أعلام الكلام) وكتاب (رسائل الانتقاد)^(٤). وفي التاريخ يبرز أبو إسحق إبراهيم بن القاسم الرقيق القيرواني المتوفى بعد سنة ٤١٧هـ والذي يعتبر من أحسن من كتبوا في تاريخ إفريقية والمغرب حيث تناول في مؤلفه التاريخي المشهور (تاريخ إفريقية والمغرب) الحوادث التاريخية التي جرت في إفريقية والمغرب منذ الفتح الإسلامي، وعنه نقل العديد من المؤرخين الذين جاؤوا من بعده مثل ابن عذارى وابن خلدون وغيرهما. وفي ما ذكرنا يكفي لتوضيح ما وصلت إليه القيروان خاصة وإفريقية بصفة عامة من رقي وحضارة.

وظلت مسيرة هذه النهضة المباركة في تقدم مستمر حتى كانت الهجرة الهلالية إلى

(١) انظر أبو القاسم محمد كرو، وعبد الله شريط : المرجع السابق، ص ١٠١ وما بعدها.

(٢) ابن خلدون : المقدمة ص ٥٠٣، انظر كذلك أحمد أمين : ظهر الإسلام، ج ٢، ص ١٠٩ - ١١٠.

(٣) انظر أبو القاسم محمد كرو، عبد الله شريط : المرجع السابق، ص ١٠٧ وما بعدها، حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق، ص ١٨٤.

(٤) انظر أبو القاسم محمد كرو، وعبد الله شريط : المرجع السابق، ص ١٠٩.

إفريقية فأصبحت الحركة الحضارية فيها في ظل تلك الهجرة بنكسة قوية، فخربت القيروان ودرست معاهدها، وهجرها علماءها، وغابت بذلك شمس هذا المركز الحضاري الذي يعتبر أحد مراكز الحضارة العربية الإسلامية الرئيسية، وتخلت عن دورها الحضاري القيادي في غرب العالم الإسلامي للمراكز الحضارية الأخرى كقرطبة في الأندلس وفاس في المغرب الأقصى وتلمسان في المغرب الأوسط وبلرم (بلرمو) في صقلية، أما في إفريقية فقد انتقل نشاط الحركة الحضارية فيها إلى المراكز الفرعية والتي كان أهمها المهديّة وبجاية وطرابلس وتونس، فبان انتقال المعز بن باديس إلى مدينة المهديّة سنة ٤٤٩هـ وجعلها حاضرة لإمارته عادت إليها بعض أهميتها التي فقدتها منذ انتقال الفاطميين إلى مصر مع حفظ التعارف بين كونها حاضرة للدولة الفاطمية التي كانت تسيطر نفوذها على القسم الأكبر من المغرب العربي بأسره، وكونها مقراً لإمارة صغيرة من ضمن دويلات إفريقية العديدة التي تخضعت عنها الهجرة الهلالية تكافح من أجل البقاء خصوصاً عديدين، ومع ذلك فقد شهدت المهديّة في عهد تميم بن المعز وخلفائه نشاطاً حضارياً ملحوظاً عززه العلماء الصقليون الذي غادروا بلادهم فراراً من النورمان كما سبق ذكره، ولكنه ظل نشاطاً محدوداً إذا ما قورن بنشاط مركز القيروان السالف، وجاء الاحتلال النورماني بعد ذلك ليضع حداً له، ولم يعد إليها تحريراً من هذا الاحتلال سنة ٥٥٥هـ / ١١٦٠م أهميتها الحضارية إذ انتقل مركز الثقل في إفريقية في العهدين الموحد والحقصي إلى تونس وأصبحت هي مقراً لولاية من ولاياتها فحسب، وأما بجاية فمئذ أن أصبحت حاضرة الدولة الحمادية شهدت نشاطاً حضارياً متواصلاً عززه التنافس الذي كان محتتماً بين الحماديين وبني عمهم الزييريين ورغبة أمراء هذه الدولة في مجارة بني عمهم في الترف والبخذ وتشجيع الحركة العلمية، ولكنها مع ذلك لم تستطع أن تخلف القيروان فظلت مركزاً حضارياً فرعياً في إفريقية سواء في العهد الحمادي أو ما بعده، وأما طرابلس فإن كونها لم تصبح مقراً للدولة كبيرة أو إمارة قوية منذ الفتح وحتى انقضاء العصر الحقصي فإن ذلك كان سبباً قوياً في أن دورها كمركز حضاري بقي محدوداً إذا ما قورن بدور القيروان الأنف الذكر أو تونس فيما بعد، وأما تونس فإن الحركة العلمية بدأت فيها منذ مطلع عصرها الإسلامي، وكان من أعلام هذه الحركة في ذلك العهد المبكر عباس بن الوليد القارسي الذي كان من كبار المحدثين، سمع من سفيان بن

عينية، والفضيل بن عياض، وقتل لما دخلت تونس في ثورة منصور الطنبيذي سنة ٢١٨هـ^(١). وعلي بن زياد العبيسي التونسي، الذي أخذ عن نخبة من أوائل علماء القيروان من أشهرهم خالد بن أبي عمران، ثم رحل إلى المشرق فسمع من الإمام مالك، ومفياث الثوري، والليث بن سعد، وابن لهيعة وغيرهم، وأخذ الموطأ عن الإمام مالك، وهو أول من أدخله هو وجامع سفيان إلى إفريقية والمغرب، وكان من أول من صنفوا المؤلفات، إذ ألف كتابه المسمى (كتاب خير من زنته)، ويذكر القاضي عياض أن أهل العلم بالقيروان كانوا إذا اختلفوا في مسألة كتبوا بها إليه (ليعلمهم بالصواب فيها)^(٢)، ومن مشاهير من أخذوا عنه البهلول بن راشد، والإمام سحنون، وأسد بن الفرات وشجرة، وكانت وفاته سنة ١٨٣هـ^(٣). ثم عبد الرحيم بن أقرس، سمع من الإمام مالك ومن تلميذه ابن القاسم، وعبد الله العمري وغيرهم، كان من أحفظ أهل إفريقية للرواية وكان شديد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى جانب علم وفقه واسع، ومن أشهر من أخذوا عنه ابن وهب، وسعيد بن تليد، ومهدي بن جعفر، والإمام سحنون، ثم عمران بن هارون بمصر^(٤). وواصلت هذه الحركة - التي كان جامع الزيتونة مركزها الرئيسي - نشاطها بثبات حتى أصبحت تونس مركزاً حضارياً في إفريقية يلي مركز القيروان في الأهمية، وعند محنة القيروان أصبح هذا المركز يقف على قدم المساواة مع المهدية وبجاية. وفي العصر الموحدى برزت أهمية تونس كمركز حضاري بشكل أوضح حينما أصبحت مقر ولاية الموحدين، ولكنها بلغت أوج مجدها الحضاري في العصر الحفصى خصوصاً في عهد أبي زكريا الأول وابنه المستنصر، وتدعم هذا المركز بما وفد إليه في تلك الآونة من الأندلسيين الفارين من ضغط النصارى الإسبان وهو ما عرف بالهجرة الأندلسية إلى إفريقية، وتفاعلت العناصر الوافدة مع أهل البلد مما كان له أثر فعال على الحركة الحضارية في تونس حتى أصبحت هذه المدينة في عهد هذين الفاهلين الحاضرة الأولى في غرب العالم الإسلامي، وبذلك أصبحت خير خلف

(١) انظر ابن عذاري: المصدر السابق، ج ١، ص ١٠٥، القاضي عياض: المصدر السابق، ص ٦٢ و ١٤٢.

(٢) القاضي عياض: المصدر السابق، ص ٢٣.

(٣) القاضي عياض: المصدر السابق، ص ٢١ وما بعدها.

(٤) انظر ترجمته في القاضي عياض: المصدر السابق، ص ٢٦ - ٢٧.

للقيروان، ومع أن القرن التالي على وفاة المستنصر كان عهد فوضى واضطراب سياسي كما سبق أن بيناه، الأمر الذي شكّل عائقاً قوياً لمسيرة الحركة الحضارية لا في تونس وحدها وإنما في إفريقية بوجه عام، إلا أن إفريقية أنجبت في ذلك القرن نخبة من العلماء ممن يعدون من مفاخر الحضارة الإسلامية مثل ابن خلدون، وابن عرفة فقيه المغرب الإسلامي المشهور وإمام المالكية في عصره، وابن منظور صاحب معجم (لسان العرب) الذي يعتبر أكبر موسوعة في مادة اللغة العربية، وغيرهم.

وتبعاً لما تقدم، فلا عجب أن تكون القيروان أول مركز لإشعاع الحضارة العربية الإسلامية في غرب العالم الإسلامي، إذ منذ بدء نشاط الحركة العلمية فيها في عهد مبكر من تأسيسها كما سبق ذكره، أصبحت محط رحال طلاب العلم في المغرب الإسلامي، ساعد على ذلك أن هذا العلم كان آنذاك ديني الصبغة، فكان هؤلاء يفنون إليها للتحقق في دينهم وزيادة معرفتهم به على ذلك الرعيل الأول من التابعين وتلاميذهم رضي الله عنهم الذين استقروا بها ثم عن تلاميذهم من بعدهم كما سبق أن ذكرنا، وكان في ذلك فقه وتاريخ ولغة وقراءات وحديث، ومن هؤلاء من كان يكفي بما حصل عليه فيها من علوم، ومنهم من كان يستأنف رحلته إلى المشرق ثم يعود إليها ثانية في طريقه إلى بلاده، الأمر الذي جعلها تسهم بنصيب وافر في نشر الثقافة الإسلامية في تلك النواحي، وبالتالي يكون لها دور كبير في تأسيس المراكز الحضارية الأخرى كقرطبة وفاس وبلرم، وكلما ازداد نشاط الحركة العلمية في القيروان كان ذلك حافزاً أقوى لهؤلاء الطلاب للرحيل إليها، فكان تنوع العلوم فيها منذ بداية عهد الأغلبية سبباً هاماً في اجتذاب المتشوقين لمعرفة العلوم الجديدة فضلاً عن الدينية وما إليها واستساخ كتبها ومن ثم العودة إلى بلادهم لبث ما لفتوه من علوم وحصلوا عليه من كتب في نواحيها، وظل الأمر كذلك حتى إلى ما بعد ظهور قرطبة وفاس وبلرم كمراكز رئيسية للحضارة العربية الإسلامية، بل إن هذا الاتصال الحضاري المستمر لكل من الأندلس وصقلية بالقيروان كان سبباً هاماً في نضوج الحضارة العربية الإسلامية في كلا القطرين وهو ما ستعرض له فيما يلي.

أثر إفريقية في مصير الأندلس وصقلية :

رأينا أن الحركة الصليبية دخلت في أواسط القرن الخامس الهجري (الحادي عشر للميلاد) طورها النشاط والذي غطى فترة تاريخية امتدت من ذلك الوقت حتى نهاية العصور الوسطى، وإذا كانت تلك الحركة قد أخفقت في ذلك الطور في تحقيق الكثير من أهدافها، إلا أنها أحرزت مكسباً في غاية الأهمية كان له انعكاس قوي على الحياة البشرية بوجه عام هو إتاحة الفرصة للأوروبيين للتدخل من مناهل الحضارة العربية الإسلامية في شتى ميادين صراع تلك الحركة مع المسلمين. فقد كان من حسن حظ هؤلاء الأوروبيين أن هذه الحضارة كانت قبيل بداية ذلك الصراع قد نضجت وبلغت ذروة ازدهارها واستعدت لعطائها السخي، في وقت كانت فيه أوروبا تعاني من آثار التخلف الحضاري. وفي عصر الحروب الصليبية بالذات أخذ الغرب الأوروبي يتطلع إلى آفاق حضارية جديدة بعد أن ضاق ذرعاً بترمت الكنيسة الغربية، فكان أن أدى احتكاك الأوروبيين بالمسلمين في الأندلس وصقلية والشرق الأدنى وإفريقية إلى وقوفهم على معالم حضارة جديدة أسمى مستوى وأوسع أفقاً وأكثر انفتاحاً على مشاكل الحياة ومتطلباتها، الأمر الذي جعلهم يقبلون في شغف ونهم على الاستفادة من حضارة المسلمين. وكانت نتيجة هذا الاتصال الحضاري أن تعرض غرب أوروبا لطفرة حضارية شاملة نقلته من ظلمة العصور الوسطى إلى فجر عصر جديد هو عصر النهضة الأوروبية الحديثة، وإذا كان بعض المؤرخين الغربيين المغرضين يحاولون في كتاباتهم إخفاء الدور الهام لهذا الاتصال الحضاري أو التقليل من أهميته، فإن هنالك بعضاً آخر من منصفهم لا يقرهم على ذلك بل يعترف بأهمية هذا الدور ويشيد به، ومن هؤلاء وعلى سبيل المثال لا الحصر المؤرخ الفرنسي غوستاف لوبون الذي يقول : (إذا ما نظرنا إلى تقدم العلاقات التجارية المطرد بين الغرب والشرق وإلى ما نشأ من تحاك الصليبيين والشرقيين من النمر في الفنون والصناعة تجلّى لنا أن الشرقيين هم الذين أخرجوا الغرب من التوحش وأعدوا النفوس إلى التقدم بفضل علوم العرب وآدابهم التي أخذت جامعات أوروبا تحول عليها فينبثق عصر النهضة منها ذات يوم)^(١)، ويؤكد المؤرخ الإنجليزي هرنشو هذه الحقيقة بقوله : (فكما

(١) غوستاف لوبون : حضارة العرب، ص ٣٣٩ .

أن بلعام خرج يدعو على بني إسرائيل فإذا به يدعو لهم، فكذلك الصليبيون خرجوا من ديارهم لقتال المسلمين، فإذا هم جلوس عند أقدامهم يأخذون عنهم أفانين العلم والمعرفة، لقد بهت أنبياء الهمج من مقاتلة الصليبيين عندما رأوا الكفار الذين ينكرون من الناحية اللاهوتية ديانتهم على حضارة دنيوية ترجح حضارتهم رجحاناً لا تصح معه المقارنة بينهما^(١). ويقول بارتلمي سانت هيلير : (لقد هذبت طبائع أرائنا الإقطاعيين الخشن في العصور الوسطى بفضل علاقاتهم بالعرب وتقليدهم لهم، فتعلم أشرافنا وفرساننا رقة العواطف ولين الطبائع وحسن الأخلاق دون أن يفقدوا شيئاً من شجاعتهم، ورائني أشك في أن النصرانية وحدها كانت تستطيع أن تأتي مثل هذا التأثير مهما يبالغ في إكراهها)^(٢). أما الباحث برينولت فيقول : (ليس لروجر بيكون ولا لسميه الذي جاء بعده (فرانسيس بيكون) الحق في أن ينسب إليهما الفضل في ابتكار المنهج التجريبي، إذ لم يكن روجر بيكون إلا رسولاً من رسل العلم والمنهج الإسلاميين إلى أوروبا المسيحية، وهو لم يمل قط من التصريح بأن تعلم معاصريه للغة العربية وعلوم العرب هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقة)^(٣).

وإذا كان العرف قد جرى بين معظم المؤرخين على التركيز على ثلاثة معايير سلكتها الحضارة العربية الإسلامية إلى أوروبا هي الأندلس وصقلية وبلاد الشام، فإن هنالك في رأينا معبراً رابعاً أسهم في عملية انتقال هذه الحضارة إلى الغرب الأوروبي له أهميته، هو إفريقية، ومن الواضح أن هذا المعبر لم يلق العناية الكافية من المؤرخين، ولعل ذلك كان هو السر في أن المصادر والمراجع التاريخية المتيسرة لا تستعف الباحث بالمعلومات الكافية لإبراز أهمية هذا المعبر بوضوح من ناحية، ولصعوبة تتبع مسيرة الحضارة الإسلامية عبر كل معبر من هذه المعابر على حدة نظراً لأن اتصال الأوروبيين بالمسلمين تم عن طريق هذه المعابر في آن واحد، يضاف إلى ذلك أن سمة بارزة اتصفت بها الحضارة الإسلامية في جوانبها الفكرية والاجتماعية والاقتصادية، وغيرها، هي صفة التجانس بسبب تأثير الدين من جهة ووحدة اللغة من ناحية أخرى، فأسلوب المسلمين في حياتهم الاجتماعية أسلوب واحد في المشرق

(١) هرنشو : علم التاريخ ص ٥٠ .

Barhelmy Saint Hilaire : Mohomet et le Coran.

(٢)

Briffault : Making of Humanity, p. 201-202.

(٣)

والمغرب وهو أسلوب يستظل بآداب الإسلام وأحكامه، ونظرة المسلمين إلى مشاكل الحياة وطرق علاجهم لها واحدة. وهكذا فإننا عندما ننظر إلى أثر الحضارة الإسلامية في الغرب الأوروبي يصعب في كثير من الحالات تمييز المؤثرات الإسلامية الوافدة من المشرق من تلك الوافدة من بلاد المغرب.

ومع هذه الصعوبات فإننا نستطيع بشيء من المثابرة تتبع العديد من المؤثرات الحضارية الإسلامية التي انتقلت من إفريقية إلى بلاد الغرب الأوروبي، ذلك أن أهمية إفريقية كمعبر حضاري تكمن في ناحيتين رئيسيتين أولاها أنها كانت معبراً حضارياً غير مباشر في بعض الجوانب، وثانيها أنها كانت معبراً مباشراً في جوانب أخرى. أما كونها معبراً حضارياً غير مباشر، فإن ذلك قد تأتى من أنها كانت الشريان الأساسي الذي ربط المغرب الإسلامي بقلب بلاد الإسلام في المشرق، وأنها كانت الطريق الرئيسي الذي سلكه المسلمون وحضارتهم إلى المغرب والأندلس من ناحية وإلى صقلية من ناحية أخرى، لذلك فإن أهم الأسس التي قامت عليها الحضارة العربية الإسلامية في كل من الأندلس وصقلية وهما اللذين كانا أهم معبرين سلكتهما هذه الحضارة إلى أوروبا فيما بعد، قد دخلت إليهما من إفريقية، ففي البدء انطلقت منها جيوش الفتح، وكان معظم الذين استقروا فيهما بعد هذا الفتح من مسلميها، فكان هؤلاء أشبه بالأنفحة أو البذرة الأولى للحضارة المذكورة في تلك الربوع، يضاف إلى ذلك أن الهجرة من إفريقية إلى هذين القطرين لم تقتصر على موجة الفتح، وإنما ظلت مستمرة سواء هجرة فردية أو جماعات لأسباب مختلفة الأمر الذي كان وفود كل مجموعة يحقنهما بدم جديد. لقد حمل هؤلاء دينهم إلى تلك البلاد وامتزجوا بأهلها الأصليين وانصهر الجميع في بوتقة في ظل الفكر الإسلامي فهيئوا بذلك التربة التي نبتت فيها تلك الحضارة فيما بعد، وانقضى جيل الفتح، وجاء جيل جديد فيهما سواء من أبناء الفاتحين أو المولدين أو من الذين اعتنقوا الإسلام، فأخذ هذا الجيل يتشوق إلى زيادة معرفته بهذا الدين لما في ذلك من صلاح في دنياه وآخرته، فوجد أن القيروان هي المركز الأقرب إلى موطنه الذي يليب حاجته، فأهلها هم الذين حملوا قسماً كبيراً من علم الصحابة الذين دخلوا إفريقية إبان الفتح، وفيها استقر العديد من التابعين الأجلاء وتابعيهم رضي الله عنهم أجمعين والذين أخذ عنهم نظراؤهم من القيروانيين الراغبين في العلم طبقة بعد أخرى،

فقصدها ليقبسوا من هذا العلم الذي كان مشعله يزهر فيها، ومن هؤلاء من كان يكتفي بما تحصل عليه من العلم فيها، ومنهم من كانت تمكنه ظروفه بعد ذلك من مواصلة رحلته إلى المشرق للأخذ عن شيوخه في مصر والمدينة ومكة والعراق وبلاد الشام وربما أوغل بعضهم في رحلته شرقاً إلى فارس وبلاد ما وراء النهر ليعودوا بعد ذلك إلى بلادهم لينثوا ما لقنوه من علوم في نواحيها. وكانت القيروان مركزاً هاماً لكلا الفريقين سواء من اكتفى بها أو من رغب في الاستزادة إذ كانت محطة في طريقه في الذهاب والإياب يحرص على التزود منها بأكبر قسط من العلم تتيحه له طاقاته، لذلك فلا عجب أن تتبرأ القيروان مكانة هامة في عملية انتقال العلوم - لا سيما وأنها كانت في البداية دينية - بل ومؤثرات الحضارة الإسلامية بشكل عام إلى هذين القطرين.

فيالنسبة للأندلس، فبعد انقضاء عهد طبقة التابعين الذين شاركوا في أعمال فتح تلك البلاد والتي كان من أشهرها روفيع بن ثابت الأنصاري، وعلي بن رباح^(١)، وحنش بن عبد الله الصنعائي رضي الله عنهم، جاءت الطبقة الثانية والتي من أشهرها عبد الملك بن حبيب المسلمي^(٢)، ويحيى بن يحيى الليثي^(٣)، وعيسى بن دينار^(٤) فكانوا ممن رحلوا في طلب

(١) تابعي بصري، كان له مكانة عند عبد العزيز بن مروان كما سبق ذكره، صاحب موسى بن نصير أثناء فتح الأندلس.

(٢) روى عن صهصعة بن سلام والغازي بن قيس وزيد بن عبد الرحمن وفي رحلته سمع من عبد الملك ابن الماجشون ومطرف بن عبد الله وإبراهيم بن المنذر الجذامي وأصبح بن الفرج وانصرف إلى الأندلس بعلم كثير، كان مشاوراً في الأندلس حافظاً للمذهب مالك له مؤلفات كثيرة في الفقه والتواريخ والآداب منها (الواضحة) التي سبق أن أشرنا إليها، والجماع، وكتاب فضل الصحابة، وكتاب غريب الحديث وكتاب تفسير الموطأ وكان يقال له عالم الأندلس. (انظر ترجمته في ابن القرضي: تاريخ علماء الأندلس ص ٢٦٩ وما بعدها).

(٣) روى عن زيد بن عبد الرحمن ويحيى بن مضر ورحل إلى المشرق فسمع من الإمام مالك، وسفيان ابن عيينة، والليث بن سعد، وعبد الله بن وهب، وابن القاسم، وأسن بن عياض وعاد إلى الأندلس وتوفي سنة ٢٣٤هـ.

(انظر ترجمته في ابن القرضي: المصدر السابق: ص ١٧٩ وما بعدها).

(٤) روى عن ابن القاسم وغيره وعاد إلى الأندلس، كان عالماً مفتناً مشاوراً كان يقال عنه إنه فقيه الأندلس، توفي بطليلة سنة ٢١٢هـ.

(انظر ترجمته في ابن القرضي: المصدر السابق ص ٣٣١).

العلم إلى المشرق وفي رحلاتهم توقفوا في القيروان وسمعوا من بعض أعلام العلم فيها، ومنهم من استوطنها، بعد تفقهه فيها مثل إبراهيم بن زرعة شيخ الإمام سحنون والذي توفي فيها سنة ٢١٢هـ^(١)، كان هؤلاء هم طلاب العلم الأولين في الأندلس، وبجهودهم بدأت الحركة العلمية فيها بالظهور، صحيح أن المشرق كان يشهد انتباه هذه الطبقة لوجود العديد من التابعين كانوا لا يزالون على قيد الحياة فيه، ولكن الصحيح أيضاً أن القيروان كانت المركز الوحيد في غرب العالم الإسلامي آنذاك - إذ لم تكن المراكز الأخرى قد ظهرت بعد - في حين أنه كان في المشرق مراكز عديدة، وعلى ذلك لو قورن بين القيروان وأي من هذه المراكز بالنسبة لأثره في الحركة العلمية الإسلامية في الغرب لرجحت كفة القيروان على العديد منها.

وتزامن ظهور الطبقة الثانية في الأندلس مع بداية العصر الأغلبي الذي شهدت فيه الحركة العلمية في القيروان نشاطاً كبيراً، ولذلك نجد أن كثيراً من أعلام هذه الطبقة التي قدمت العلم خطوة جديدة، أخذوا عن علماء القيروان بنسبة أكبر، ومن مشاهير هذه الطبقة، يحيى بن مخلد، الذي سمع بالأندلس من محمد بن عيسى الأعشى، ويحيى بن يحيى الليثي، ثم رحل في طلب العلم فسمع في القيروان من الإمام سحنون، وعون بن يوسف وغيرهما، وسمع في المشرق من جماعة من أئمة المحدثين وكبار المستندين منهم : إبراهيم بن محمد الشافعي صاحب صفيان بن عيينة، وأبو المصعب الزهري، وإبراهيم بن المنذر الجذامي، ويحيى بن عبد الله بن بكير صاحب الإمام مالك، والإمام أحمد بن محمد ابن حنبل، وأبو ثور صاحب الإمام الشافعي وغيرهم وعاد إلى الأندلس فملأها حديثاً ورواية، وقد انفرد بإدخاله إلى الأندلس مصنف أبي بكر بن أبي شيبة، وكتاب الفقه للإمام الشافعي، وتاريخ خليفة بن خياط وغيرها وتوفي سنة ٢٧٦هـ، ومن أشهر من أخذوا عنه في الأندلس أسلم بن عبد العزيز، ومحمد بن عمر بن لبابة^(٢)، ومن مشاهير هذه الطبقة أيضاً إبراهيم بن يزيد بن قازم، وقد أخذ عن الإمام سحنون أيضاً بالقيروان، وكانت وفاته

(١) انظر ترجمته في ابن القرضي : المصدر السابق ص ٨، الضبي : المصدر السابق ص ٢٠٤ .

(٢) انظر ابن القرضي : المصدر السابق ص ٩١ وما بعدها.

بالأندلس سنة ٢٦٨^(١)، ثم إبراهيم بن قاسم بن هلال القيسي، وكان محدثاً مشهوراً مذكوراً بالخير والصلاح وسعة العلم وقد سمع بالأندلس من يحيى بن يحيى الليثي، والقيروان من الإمام سحنون وغيره وعاد إلى الأندلس ومات بها سنة ٢٨٢هـ، ومن أشهر من أخذ عنه ابن اخته يحيى ابن زكريا بن الشامة^(٢)، ثم قاسم بن أصبغ بن محمد ويعرف بالبياني وهو قرطبي سمع بقرطبة من بقي بن مخلد، وأبي عبد الله الخشني، ومحمد بن وضاح وغيرهم، وفي القيروان من أحمد بن يزيد المعلم وبكر بن حماد الذي سبق ذكره، وساح بمصر والعراق والحجاز وسمع من نخبة من علمائها ثم عاد إلى الأندلس وقد ملأ وطابه علماً أخذ يشه بين مواطنيه، فكان بصيراً بالحديث والرجال، نبلاً في النحو والغريب والصعر، وكان يشار في الأحكام، ألف كتاباً طويلاً ثم اختصره وسماه (المجتبى) قدمه للحكم المستنصر وفيه من الحديث المسند ألفين وأربعمائة وتسعين حديثاً في سبعة أجزاء، فهو كذلك أكثر من الحديث، وصنفه على أبواب الفقه، وكان له الفضل في نظر العلم في الأندلس على هذه الطريقة، وله مصنف آخر جليل القدر احتوى على بيان صحيح الحديث وغيره، كما ألف في أحكام القرآن، وفي فضائل قریش، وفي التامخ والمنسوخ، وقد سمع منه الكثير من الأندلسيين منهم الخليفة الناصر الأموي قبل ولايته وابنه الحكم المستنصر وطال عمره فسمع منه الشيوخ والكهول والأحداث، وألحق الصغار الكبار في الأخذ، وتوفي سنة ٣٤٠هـ عن سنة بلغت ٩٢ عاماً^(٣). ومنهم أيضاً أبو عبد الله محمد بن أحمد العتيبي الذي كان من أشهر علماء هذه الطبقة، سمع من يحيى بن يحيى الليثي، ومسجد بن حسان وغيرهما في الأندلس، ثم رحل فسمع من الإمام سحنون وأصبغ بن الفرج وغيرهما في القيروان، وعاد إلى الأندلس، وكان حافظاً للمسائل جامعاً لها، عالماً بالنوازل، وهو الذي جمع المستخرجة وأكثر فيها من الروايات المطروحة والمسائل الغريبة الشاذة وهي التي سميت (العتيبة) والتي تعتبر من أمهات المصنفات الفقهية في الفقه المالكي، وقد انتشرت في الأندلس انتشاراً كبيراً وتناولها العلماء بالدراسة والشرح والتقد في زمنه وبعد

(١) انظر الضبي : المصدر السابق ص ٢١٢ .

(٢) انظر الضبي : المصدر السابق : ص ٢٠٩ .

(٣) انظر ابن الفرضي : المصدر السابق ص ٣٦٥ وما بعدها، أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣، ص ٥٠ - ٥١ .

وفاته، فكانت هي والواضحة ذات أثر كبير على الحركة العلمية في الأندلس كما قال ابن خلدون في النص الذي سبق أن أوردناه، وتوفي المصنف سنة ٢٥٥هـ وقيل ٢٥٤^(١).

ومنهم محمد بن وضاح بن يزيد مولى الأمير عبد الرحمن بن معاوية الأموي (عبد الرحمن الداخل)، من أهل قرطبة، روى بالأندلس عن محمد بن عيسى الأعشى، ومحمد ابن خالد الأشج، ويحيى بن يحيى الليثي، وسعيد بن حسان، وعبد الملك بن حبيب وغيرهم، ورحل إلى المشرق رحلتين أولاهما في سنة ٢١٨هـ لقي فيها سعيد بن منصور وسمع منه، كما سمع من آدم بن أبي أياس الهسقلاني، ويحيى بن معين، والإمام أحمد بن حنبل، وإبراهيم بن حسان الطرابلسي وغيرهم، ولكن رحلته الثانية كانت هي الأهم بالنسبة لحياته العلمية فقد سمع فيها من عدد كبير من العلماء، ففي إفريقية أخذ عن الإمام مسنون، وعون بن يوسف، وسعيد بن عبدوس، كما سمع من نظرائهم في مصر والحجاز والعراق والشام، فكان مجموع من أخذ عنهم في هذه الرحلة (٧٥) عالماً من الرواة المكثرين والأئمة المشهورين، وعاد إلى الأندلس فحدث بها مدة طويلة، ونشر بها علماً جليلاً فقد كان عالماً بالحديث بصيراً بطرقه متكلماً على علمه، كثير الحكاية عن العباد، ورعاً زاهداً فقيراً متعففاً صابراً على الإسماع، محسباً في نشر علمه، فبه وببقي بن مخلد صارت الأندلس دار حديث على حد تعبير ابن الفريسي، وقد سمع الناس منه كثيراً، وروى عنه بالأندلس من أهلها جماعة رفقاء مشهورون مثل وهب بن مسرة وابن أبي دليم، وقاسم بن أصبغ، وأحمد ابن خالد بن يزيد، ومحمد بن المسور، وعلي بن عبد القادر بن أبي شبة وأحمد بن زياد بن شبطون وغيرهم، وتوفي سنة ٢٨٦هـ وقيل سنة ٢٨٧هـ^(٢).

ولا يسعنا بطبيعة الحال الاسترسال في ذكر علماء هذه الطبقة الذين أخذوا عن علماء القيروان لأن ذلك يخرجنا عن موضوع هذه الدراسة، وحمينا ما أوردناه للدلالة على أثر القيروان الهام في نشاط الحركة العلمية في الأندلس، ويكفي أن أقول إنني بنظرة سريعة أحصيت عدد من أخذوا عن الإمام مسنون وحده من الأندلسيين، فوجدته ما يزيد عن

(١) انظر ابن الفريسي: المصدر السابق: ص ٦ - ٧.

(٢) انظر ابن الفريسي: المصدر السابق ص ١٦ وما بعدها، المصنف: المصدر السابق: ص ١٢٣ - ١٢٤.

السبعين من علماء هذه الطبقة، ولا شك أن المدقق في كتب التراجم والطبقات سيجد أن عددهم يفوق ذلك بكثير، ففي مدينة البصرة وحدها وجد سبعة من تلاميذ الإمام سحنون في آن واحد هم إبراهيم بن خلاد اللخمي، وإبراهيم بن خالد الأموي، وعمر بن موسى الكناني، وسعيد بن النمر الغافقي، وإبراهيم بن شعيب، وسليمان بن نصر، وأحمد بن سليمان بن أبي الربيع^(١)، فما بالك بأمهات المدن الأندلسية كقرطبة وإشبيلية وطليطلة وسرقسطة وغيرها^(٢)؟ وجاءت بعد ذلك طبقة أخرى أخذت عن تلاميذ الإمام سحنون ونظرائه، فمن أخذ عن أبي الحسن علي بن القاسبي : محمد بن قاسم بن محمد الجالطي كما أخذ أيضاً عن ابن أبي زيد القيرواني^(٣)، وحام بن محمد الأضرابلي، وإبراهيم بن قاسم الأضرابلي^(٤)، ووليد بن سعيد بن وهب الحضرمي^(٥)، ومن أخذ عن ابن أبي زيد القيرواني الأنف الذكر : محمد بن مطرف^(٦)، وأحمد بن محمد بن سعدي^(٧)، وأحمد بن فتح بن عبد الله التاجر^(٨)، وحامد بن عمار الزاهد^(٩)، وخلف بن أحمد بن خلف الرحوي^(١٠)، والقاضي أبو الوليد عبدالله بن محمد بن يوسف المعروف بابن الفرضي، الذي تخصص في تراجم علماء الأندلس وهو من مشاهير المحدثين والمؤرخين، ولد في قرطبة سنة ٣٥١هـ ودرس الفقه والحديث والتاريخ فيها، ثم خرج من الأندلس للحج وطلب العلم

(١) انظر الضبي : المصدر السابق ص ٢٠٣ .

(٢) نذكر من مشاهير هؤلاء العلماء : إبراهيم بن زياد، أبو بشر عبد الله بن حمادة، عبد الملك بن أيمن ابن فرجون، عبد المجيد بن عنان البلوي، عميرة بن عبد الرحمن بن مروان العتيقي، مطرف بن إبراهيم بن قيس، أحمد بن الوليد بن عبد الحقائق قاضي طليطلة، إبراهيم بن محمد المعروف بابن القزاز، وغيرهم.

(٣) انظر ترجمته في الضبي : المصدر السابق ص ١١٤ .

(٤) انظر الضبي : المصدر السابق ص ٢١٢ .

(٥) انظر ترجمته في الضبي : المصدر السابق ص ٤٦٧ .

(٦) انظر ترجمته في الضبي : المصدر السابق ص ١١٩ .

(٧) انظر ترجمته في الضبي : المصدر السابق ص ١٤٤ .

(٨) انظر ترجمته في الضبي : المصدر السابق ص ١٨٦ - ١٨٧ .

(٩) انظر ترجمته في الضبي : المصدر السابق ص ٢٦١ .

(١٠) انظر ترجمته في الضبي : المصدر السابق ص ٢٦٧، انظر أيضاً ابن الفرضي : المصدر السابق ص ٤١٥ .

فطوف ببلاد كثيرة منها القيروان والقاهرة ومكة والمدينة، وفي القيروان لقي ابن أبي زيد القيرواني وسمع منه كثيراً، كما أخذ عن أبي الحسن علي بن محمد بن القاسمي وغيرهما، ولما عاد إلى الأندلس درس بها مدة طويلة، وولي قضاء بلنسية، وكانت وفاته سنة ٤٠٣ هـ حيث قتل بداره أيام ثورة البربر، وقد اشتهر بعلمه في فن الحديث، وعلم الرجال والأدب، واطلع على كتب كثيرة في رحلاته، ومن أشهر مؤلفاته كتابه المشهور (تاريخ علماء الأندلس) الذي نشر ضمن سلسلة المكتبة الأندلسية والذي أفدنا منه في هذه الدراسة، وهو الكتاب الذي أكمله ابن بشكوال فيما بعد بكتابه المسمى (الصلة) الذي نشر أيضاً ضمن سلسلة المكتبة الأندلسية، وأفاد منه أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضبي في كتابه (بغية الملتصق في تاريخ رجال أهل الأندلس) الذي كان من بين المصادر التي اعتمدنا عليها في هذه الدراسة، ولابن الغرضي كتاب آخر كبير في (المؤتلف والمختلف) وسواه^(١). ولم يقتصر العلماء القيروانيون الذي أئروا في العلماء الأندلسيين من هذه الطبقة على ابن أبي زيد، وابن القاسمي، وإنما كان هنالك العديد سواهم نذكر منهم محمد بن الإمام سحنون الذي أخذ عنه الكثير من هؤلاء مثل عبد الله بن محمد بن أبي الوليد، وهو من العلماء الأجلاء ومات بالأندلس في حدود سنة ٣١٠ هـ^(٢). ومنهم أحمد بن ملول صاحب الإمام سحنون الذي كان من أشهر من أخذوا عنه سعيد بن عثمان التجيبي المعروف بالأعناقى أو الأعناقى أحد شيوخ ابن حزم، وقد توفي سنة ٣٠٥ هـ^(٣)، ومنهم أيضاً بكر بن حماد الذي سبق أن تعرضنا لذكره، ثم أبو عمران القاسمي، وأبو عبد الله محمد بن يحيى بن مناس، وأبو محمد بن قاسم القرشي، وأبو إسحق إبراهيم بن قاسم بن يونس المعافري، وحماس بن مروان بن حماس قاضي القيروان، ومحمد بن محمد بن اللباد وغيرهم. كل هؤلاء كانوا من شيوخ هذه الطبقة الأندلسية، ونختم هذه الطبقة الأندلسية بعالمين من أجل علمائها هما أبو حفص عمر بن بريق الأندلسي الذي رحل إلى القيروان ولازم ابن الجزار شيخ أطباء

(١) انظر الضبي : المصدر السابق ص ٣٢١ - ٣٢٢، انظر أيضاً أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣، ص ٢٧٨ - ٢٧٩ .

(٢) انظر الضبي : المصدر السابق ص ٣١٧ .

(٣) انظر ابن الغرضي : المصدر السابق ص ١٦٤، الضبي : المصدر السابق ص ٢٩٥ .

إفريقية وأخذ عنه وعاد إلى الأندلس بعلم غزير في الطب وأصبح من أشهر أطبائها وخدم عدداً من أمراء الأمويين خاصة عبد الرحمن الناصر الذي استخلصه لنفسه، وابن بريق هو الذي أدخل كتب أستاذه إلى الأندلس حيث تلقاها عنه العديد من الأندلسيين المختصين بالطب ما بين مسلمين ونصارى ويهود كان منهم سليمان بن جليل صاحب كتاب طبقات الأطباء، وراجت كتب ابن الجزار بين أطباء الأندلس وترجمت إلى اللاتينية والعبرية^(١). ثم أبو مروان عبد الملك بن محمد بن زهر أول طبيب في أسرة بني زهر الأندلسية التي اشتهرت بالطب، فقد رحل من الأندلس إلى القيروان طلباً للعلم ثم رحل إلى مصر ومنها عاد إلى الأندلس، وشهر فيها كطبيب، واتصل بمجاهد العامري فمينة طبيباً خاصاً له، وعنه أخذ ابن أبو العلاء الذي رويت له عجائب في تشخيص الأمراض^(٢).

لقد قامت الحركة العلمية بل والحضارة العربية الإسلامية في الأندلس على أكتاف هؤلاء وأمثالهم من رجالات هذه الطبقات وعلى أكتاف تلاميذهم. والكل منهم قد تأثر بالحركة العلمية في القيروان إما تأثراً مباشراً بالأخذ عن علمائها مباشرة أو غير مباشر بالتلمذة على من رحلوا إليها، فعالم مثل يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمرى الذي كان فقيهاً حافظاً مكرماً عالماً بالتراجم والخلاف في الفقه وعلوم الحديث والرجال والذي يعتبر من أجل علماء الأندلس وأكثرهم أثراً في الحركة العلمية فيها، لم يخرج من الأندلس، وإنما أخذ عن علماء قرطبة ومن الوافدين إليها، فقد أخذ عن جماعة تلاميذ قاسم ابن أصبغ الباني وغيره، ومن أشهر تلميذه عبد الوارث بن سفيان تلميذ قاسم بن أصبغ، ثم ابن الفرضي وهما ممن رحل إلى القيروان وأخذوا عن علمائها كما أسلفنا القول. وقد كان ابن عبد البر المذكور من أكثر علماء الأندلس تصنيفاً، ومن هذه المصنفات نذكر (كتاب التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد) في عشرة أسفار، والذي قرضه ابن حزم بقوله لا أعلم في الكلام على فقه الحديث مثله فكيف أحسن منه. ومنها (كتاب في الصحابة والتعريف بهم وتلخيص أحوالهم ومنازلهم وعيون أخبارهم) على حروف المعجم في ٤ مجلدات، وقد تجاوزت شهرته المغرب إلى المشرق فكان علماء المشاركة يستحسنونه

(١) انظر حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق، ص ٣١٨ .

(٢) انظر ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ص ٥١٧، كذلك أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣، ص ٢٤١ .

ويقدمونه على ما ألف في بابيه، ومنها (كتاب جامع بيان العلم) في مجلدين، وكتاب (الدور في اختصار المغازي والسير) في سفر واحد، وكتاب (الشواهد في إثبات خبر الواحد)، وكتاب (أئمة الأمصار) في سبعة أجزاء، وكتاب في التجويد والقراءات، وكتاب (الكافي في الفقه) وغيرها^(١)، كل هذا الإنتاج الغزير إنما يدل دلالة واضحة على مدى سعة الثقافة التي تحصل عليها من شيوخه والذين بدورهم كانوا قد اكتسبوا قدراً كبيراً منها من شيوخهم القيروانيين. ومثل ابن عبد البر الكثير الذين لا تسع هذه العجالة لذكرهم.

ولم يقتصر أثر علماء القيروان على الحركة العلمية في الأندلس على ما تقدم ذكره أي على الذين رحلوا إليها أو على من أدخلوا عن الذين رحلوا إليها فحسب، بل يضاف إلى ذلك طريق ثالث لاتقل أهميته وأثره على تلك الحركة عن هذين الطريقين، وأعني بذلك هجرة العديد من علماء إفريقية إلى الأندلس نتيجة لعوامل عديدة أهمها الحوادث السياسية التي شهدتها إفريقية في القرون الخمسة الأولى للهجرة. ذلك أن عهد الاضطراب السياسي الذي أظلمها بل وأظل المغرب الإسلامي بصفة عامة منذ أوائل القرن الثاني للهجرة نتيجة للممارسات المخاطفة لبعض ولائها الأمويين مما أدى إلى نجاح دعاة الفرق والأحزاب المناوئة للدولة الأموية في اجتذاب أعداد غفيرة من البربر لدعواتهم الأمر الذي أدى بدوره إلى كثير من المشاكل والفتن، ثم ما أعقب ذلك من سقوط الدولة الأموية وقيام دولة بني العباس التي أخفقت في إعادة الهدوء والاستقرار إلى كامل ربوع المغرب العربي فضلاً عن انفصال الأندلس عنه، هذا العهد الذي امتد في إفريقية حتى قيام دولة الأغالبة سنة ١٨٤هـ، كل ذلك جعل العديد من العلماء يغادرون إفريقية إلى الأندلس التي بدأ يسود فيها الاستقرار منذ قيام الدولة الأموية فيها، فكان لهذه الهجرة أثرها بلا شك في تلك الحركة في نواحيها، وتظهر هذه الهجرة بشكل أكثر وضوحاً إثر سقوط دولة الأغالبة وقيام الدولة الفاطمية في إفريقية، إذ أن كثيراً من علماء القيروان خاصة وإفريقية عامة هاجروا وقتئذ بكتبهم وعلومهم إلى الأندلس وصقلية إما كراهية منهم للفاطميين ودعوتهم الشيعة وخوفاً من بطشهم، أو تحت تأثير الإغراءات التي قدمها لهم الأمراء الأمويون، وكان أن استقر هؤلاء العلماء في

(١) انظر الضبي: المصدر السابق ص ٤٧٤ وما بعدها.

مدن الأندلس يشون فيها علومهم وما حذقوه من صناعات وفنون، ومن بين هؤلاء تذكر إسماعيل بن يوسف الطلاء الذي سبق أن ذكرناه، الذي منذ سقوط الأغلبية ابتعد عن بلاط الحكام الجدد وأقام في القيروان يتكسب بصناعة مستحضرات التجميل، ولكن الفاطميين لم يتركوه وشأنه نظراً لعلاقته السابقة بالأغلبية فسرعان ما اتهمه صاحب السكة الفاطمي بصنع دنانير ودراهم مزيفة، وهي أكثر تهمة يمكن أن تلصق به قابلة للتصديق نظراً لبراعته في الكيمياء، فلم يجد بداً من الهرب من إفريقية فراراً من العقاب الذي ينتظره، فلجأ إلى الأندلس في عهد الخليفة الناصر الأموي، وغير معروف على وجه التحديد فيما إذا كان قد خلع خلفاء بني أمية كسائر المهاجرين من رجال الأغلبية ومواليهم أم أنه أقام يعمل في تحضير المواد الكيماوية والارتزاق من بيعها. والأمر الذي نعلمه هو أنه مات بقرطبة في الربع الأول من القرن الرابع الهجري^(١)، ثم أبو جعفر أحمد بن سليمان، وكان ممن أخذ عن الإمام سحنون، دخل الأندلس واستقر ببجاية وبها توفي، قيل في سنة ٢٩٦هـ. وقيل بعد ذلك، وقد أخذ عنه سعيد بن فحلون^(٢). ومنهم أيضاً أبو زيد عبد الرحمن بن بكر بن حماد، رحل إلى الأندلس بعد مقتل أبيه بكر بن حماد كما سبق أن أشرنا إلى ذلك، وكان أديباً وشاعراً ومحدثاً، يقول ابن الفرضي : (وكتب عنه غير واحد شعر أبيه ومن حديثه)^(٣) وكانت وفاته بقرطبة. ثم أبو القاسم عبد الرحمن بن سعيد القيرواني وقد أقام بقرطبة وبها توفي وكان ممن أخذ عنه عبد الرحمن بن عبيد الله^(٤)، والكثير غير هؤلاء.

ونخص بالذكر في هذا المقام صناعة الورق بالذات التي انتقلت من إفريقية إلى الأندلس في تلك الفترة، نظراً لما ترتب على انتشارها في الأندلس من تيسير تداول الكتب وكرتها وسهولة انتقالها مما يعكس آثارها على حركة التأليف والترجمة والنشاط الثقافي بوجه عام. فقد كان من بين الذين ارتحلوا إلى بلاط الأمويين في قرطبة وقتل عثمان بن سعيد الصبيل مولى الأغلبية الذي سبق أن تعرضنا لذكره، لقد نشأ عثمان في بلاط الأغلبية

(١) انظر حسن حسني عبد الوهاب : ورفقات ق ١، ص ٢٥٣ - ٢٥٤ .

(٢) انظر ابن الفرضي : المصدر السابق ص ٦٠ - ٦١ .

(٣) انظر ابن الفرضي : المصدر السابق ص ٢٦٨ .

(٤) انظر ابن الفرضي : المصدر السابق ص ٢٦٨ .

وتتلمذ لأبي اليسر الشيباني صاحب بيت الحكمة وتبحر في عدة علوم، كما حذق عدة صناعات، وعند سقوط دولة مواليه التحق بالخليفة الناصر الأموي في الأندلس ونال لديه حظوة كبيرة يدل على ذلك أنه جعله مؤدباً لأولاده، فأقام معزاً في بلاط قرطبة حيث أخذ عنه العديد من علماء الأندلس من بينهم أبو بكر الزبيدي إمام اللغويين والنحاة بقرطبة^(١)، وغالب بن عمر التيان الأديب المشهور الذي روى عنه أشعار أبي تمام وغيره^(٢)، فضلاً عن أخذوا عنه في الرياضيات والفلك. وكان أثناء ذلك يصنع للأمير الحكم الورق الرفيع والآلات الفلكية والرياضية، فكان بذلك أول من أدخل صناعة الورق إلى الأندلس، وظل موضع الاحترام والتقدير حتى وفاته في سنة ٣٣٠هـ / ٩٤١م^(٣)، ومثله إبراهيم بن سالم التونسي المعروف بالوراق، الذي كان ممن درس في تونس والقهروان وحذق إلى جانب العلم صناعة الورق كذلك، ورحل إلى الأندلس واتصل بالأمير الحكم الأموي أيضاً^(٤). ثم محمد بن حارث الحثني وهو من شيوخ ابن رشيقي وكان مشهوراً بالنحو واللغة بصيراً بغيرهما من العلوم، كما كان شاعراً مطبوعاً، وبالإضافة إلى ذلك كان يتقن صناعة الورق كما حذق تركيب الأصباغ والأدهان ومعالجة حل الذهب والفضة^(٥) اللازم لكتابة الكتب النفيسة، والذي رحل إلى الأندلس والتحق بالبلاط الأموي بقرطبة، ثم محمد بن يوسف التاريخي الوراق الذي احتواه بلاط الحكم الأموي أيضاً، وقد ألف للحكم كتاباً ضخماً في مسائل إفريقية وممالكها، وألف في أخبار ملوكها وحروبهم والقائمين عليهم كتباً كثيرة، كما ألف في قرطبة زيادة على ذلك كتباً في أخبار تاهرت ووهران وتسن وسجلماة ونكور والبصرة (بصرة المغرب وليمت بصرة العراق) وغيرها وتوفي ودفن في قرطبة^(٦).

(١) كان من الأئمة المشهورين في اللغة ألف في النحو كتاباً نال شهرة واسعة أسماه (الواضح) واختصر كتاب (المن) اختصاراً حسناً، توفي قريباً من سنة ٣٣٠هـ وكان ممن أخذ عنه ابنه أبو الوليد، وإبراهيم ابن محمد بن زكريا الزهري المعروف بابن الأفلح. (انظر الضبي: المصدر السابق ص ٥٦).

(٢) حسن حسني عبد الوهاب: ووقات ق٣، ص ٢٥٠.

(٣) حسن حسني عبد الوهاب: ووقات ق٢، ص ١٦١ - ١٦٢.

(٤) حسن حسني عبد الوهاب: ووقات ق٢، ص ١٦٢.

(٥) حسن حسني عبد الوهاب: ووقات ق٢، ص ١٦٢.

(٦) انظر الضبي: المصدر السابق ص ١٣١.

وكان إلى جانب ذلك كله يتقن صناعة الورق، وأخيراً نذكر عباس بن عمر بن هارون الكنانى الوراق وهو من أهل صقلية رحل إلى القيروان سنة ٣١٥هـ وأقام بها مدة طويلة حيث أخذ عن جملة من علمائها وحذق بها صناعة الورق ثم رحل إلى الأندلس سنة ٣٣٦هـ فانصل بالأمر الحكيم الأموي، فألحقه به (وتوسع له في صناعة الورق وصار من جملة الوراقين)^(١)، وبقي في قرطبة إلى أن توفي بها سنة ٣٧٩هـ. وكان من أشهر شيوخه أحمد بن سعيد الصقلي، وأبو بكر الدهنوري، ومحمد بن معاوية القرشي. وأخذ عنه في الأندلس جملة من أهل العلم منهم ابن الفرضي^(٢)، وعن طريق هؤلاء جميعاً دخلت صناعة الورق إلى الأندلس.

وكانت كلما امتدت وطأة الفاطميين على مخالفيهم من ذوي المذاهب الأخرى في إفريقية، كلما زادت أعداد المهاجرين منها إلى الأندلس وصقلية، فقد هاجر إليها بعد هؤلاء عدد آخر نذكر منهم الحكم بن محمد بن هشام القرشي المقرئ^(٣)، وتميم بن محمد بن أحمد التميمي الذي استوطن قرطبة وكانت وفاته بها سنة ٣٦٩هـ^(٤)، ومحمد بن الحسين بن محمد بن أسد التميمي الحصاني الطنجي وهو من طبنة وكانت شاعراً ومكثراً وأديباً متفتناً ومن بيت أدب وشعر وجلالة ورياسة حافظاً للأنسب عالماً بالأخبار وقد وصل إلى الأندلس سنة ٣٣١هـ وكان مولده سنة ٣٠٠هـ وولي الشرطة فترة من حياته وتوفي سنة ٣٩٤هـ^(٥)، وإبراهيم بن قاسم الأطرابلسي^(٦)، وأبا محمد حباشة بن حسن اليحصبي وهو من أهل القيروان سمع بها من أبي الحسن زياد بن عبد الرحمن بن زياد، ومن إبراهيم بن عبد الله الزبيدي المعروف بالقلانسي، دخل الأندلس وأقام بها مدة ثم رحل إلى المشرق حاجاً فلقى في رحلته جماعة من محدثي المشرق، فسمع كتاب البخاري من أبي زيد

(١) : ابن الفرضي : المصدر السابق ص ٢٩٩ .

(٢) انظر ترجمته في ابن الفرضي : المصدر السابق ص ٢٩٩ .

(٣) انظر عنه ابن الفرضي : المصدر السابق ص ١٢١ .

(٤) انظر عنه ابن الفرضي : المصدر السابق ص ٩٩ .

(٥) انظر ابن الفرضي : المصدر السابق ص ١١٨، الضبي : المصدر السابق ص ٥٨ .

(٦) انظر الضبي : المصدر السابق ص ٢٠٩ .

المروزي ثم عاد إلى الأندلس فلزم العبادة ودراسة العلم وتدريسه والجهاد. كان فقيهاً في المسائل حافظاً للاختلاف عالماً بالسنة والآثار، وقد حاوله الأمير الأموي أن يخصص له جارية ليجلس للفتيا فرفض ذلك، ومع أن إقامته كانت بقرطبة، إلا أنه كان كثير التردد إلى إشبيلية، وتوفي بقرطبة سنة ٣٧٤هـ^(١). ثم أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد الفارسي المعروف بابن الخراز، من أهل القيروان أخذ بها عن أحمد بن زباد، وأحمد بن محمد القصري ونظر الهماء، ثم رحل إلى المشرق فسمع بمكة من العقيلي وابن الأعرابي وغيرهما. وبالإسكندرية من ابن أبي مطر، وعاد إلى إفريقية ثم رحل إلى الأندلس فكان يتجول بين قرطبة وشذونة وإشبيلية وأخيراً استقر بقرطبة، وقد روى عنه الكثير مثل إسماعيل بن إسحق، وعبيد الله بن الوليد وسليمان بن عبد الرحمن وغيرهم، وكانت وفاته في سنة ٣٥٩هـ^(٢).

ثم الشاعر عبد الله بن أبي طاهر بن أبي إسحق بن أحمد بن علي بن سالم السفاقي، ذكر ابن رثيق في (الأنموذج) أنه رحل إلى الأندلس فاتصل بمجاهد العامري فأكرمه وعظمه وقربه منه فحصد له البعض على هذه المنزلة وآل أمره أن وجد مذبوحاً في منزله سنة ٤١٥هـ^(٣). ثم أبو عبد الله محمد بن الحسن بن محمد بن إبراهيم بن النعمان الملقب، وهو من أهل القيروان، أخذ عن نخبة من علمائها وقد عني بالقرآن، ورحل إلى مصر حيث أخذ بها القراءة على ابن بذهن، وأبي أحمد السامري، وجودها، وقد اشتهر بحسن صوته، قدم إلى الأندلس في حدود سنة ٣٦٠هـ وكان الناس يقرؤون عليه، وتوفي بها سنة ٣٦٨هـ^(٤). وأخيراً وليس آخراً تذكر أبا عمر بن أبي بكر بن حمود الصديقي المعروف بابن الضابط، الإمام المحدث الشاعر، كان قد رحل إلى المشرق وأخذ عن جماعة من العلماء يطول تعدادهم، منهم الحفاظ أبو نعيم سمع منه بأصبهان وكتب عنه كثيراً، ذكر أنه كتب عنه مائة ألف حديث، ثم عاد إلى بلاده ومنها رحل إلى الأندلس سنة ٤٣٦هـ فأقرأ بها وأخذ علماءها عنه وأثنوا عليه^(٥)، وقد

(١) انظر ابن الغرضي : المصدر السابق ص ١١٢ .

(٢) انظر ابن الغرضي : ص ١٣٩ .

(٣) انظر التجاني : المصدر السابق ص ٨٢ .

(٤) انظر ابن الغرضي : المصدر السابق ص ١١٣ - ١١٤ .

(٥) انظر التجاني : المصدر السابق ص ٧٨ وما بعدها .

أقام بالأندلس نحو عامين متقللاً بين مدينتيها، ثم عاد إلى القيروان فأرسله المعز بن باديس في سفارة إلى القسطنطينية فمات في الطريق إما وإراداً وإما صادراً بعد سنة ٤٤٠ هـ، وهو أول من أدخل كتاب (غريب الحديث) للخطابي إلى الأندلس^(١)، وبالإضافة إلى ما تقدم فقد دخلت إلى الأندلس من إفريقية في تلك الفترة بعض المؤثرات الفنية عن طريق بعض مشاهير فناني إفريقية الذي رحلوا إليها مثل أبي القاسم بن أخت الغساني الموسيقي الذي خدم الناصر الأموي، وحمونون الدباغ المعروف بابن زبيبة ونظرالهما^(٢).

وفي أواسط القرن الخامس الهجري (الحادي عشر للميلاد) حدث حادث سياسي هام آخر في إفريقية تسبب في هجرة ثانية للعديد من علمائها إلى كل من الأندلس وصقلية، ونعني به دخول الهلالية إلى إفريقية وإصابة القيروان بالهنة القاسية من جراء ذلك الحادث، فكان من بين الذين هاجروا إلى الأندلس وقتل علي بن عبد الغني الفهري الضريبي القيرواني وكان ذلك في سنة ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م حيث تنافس ملوك الطوائف في إكرامه، ولكنه آثر للمقام أخيراً في بلاط ابن عباد بإشبيلية^(٣). ثم ابن شرف القيرواني الأنف الذكر الذي غادر القيروان سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م إلى صقلية ومنها إلى الأندلس فاتصل بالعديد من ملوك الطوائف ففرغوا فضله وأجلّوه وأجزلّوه له العطاء واستقر به المقام أخيراً في بلاط ابن عباد بإشبيلية أيضاً وبها توفي سنة ٤٦٠ هـ / ١٠٦٧ م كما سبق ذكره، وعبد الدائم بن مرزوق بن خير الذي رحل من إفريقية إلى المرية وأقام فيها فترة، ثم انتقل منها إلى إشبيلية واستقر بها، وقد أخذ عنه نخبة من علماء الأندلس منهم عبد الله بن محمد السيد البطلوسي^(٤)، ومحمد بن الحكم السرقسطي وغيرهما. ثم أبو محمد عبد القادر بن محمد الصافي المعروف بابن الحناط، وكان فقيهاً محدثاً ولد بالقيروان سنة ٤٢٤ هـ وبها نشأ وتفقّه ورحل

(١) انظر التجاني: المصدر السابق ص ٧٨ وما بعدها.

(٢) انظر حسن حسني عبد الوهاب: ورقات ق، ص ٢٠٠.

(٣) انظر الضبي: المصدر السابق ص: ٤١٢ - ٤١٣، كذلك محمد النيفر: عنوان الأريب ج ١، ص ٥٦.

(٤) كان إماماً في اللغة والأدب سابق مبرز ومصنفاته تدل على رسوخه وطول باعه وسعة علمه. كان ثقة مأموناً على ما قيد وروى ونقل وضبط، ولد سنة ٤٤٤ هـ وتوفي في رجب سنة ٥٣١ هـ. (انظر الضبي: المصدر السابق، ص ٣٢٤، أحمد أمين: ظهر الإسلام ج ٣، ص ٩١).

إلى الأندلس وكانت وفاته بالمرية في ربيع أول سنة ٥٠٧هـ^(١). ثم أبو طالب مكي بن محمد بن حموش، وهو من القيروان وبها ولد وعلى شيوخها نشأ وتفقّه، رحل إلى الأندلس واستوطن قرطبة وأقرأ بها، وكان إماماً في علوم اللغة نحوياً أديباً حافظاً له تأليف كثيرة في هذه العلوم تزيد عن خمسة وثمانين مؤلفاً^(٢). ثم يوسف الوريجلاني الذي أقام في قرطبة يث علمه الغزير كما صنف فيها تأليف عديدة من أشهرها كتابه المسمى (الدليل لأهل العقول) وهو صورة مصغرة لدائرة معارف إسلامية إذ اشتمل على فنون من الحكمة والفلسفة والإلهيات وعلم الكلام والمنطق والهندسة ومناقشة المذاهب والتفسير، وقد طبع هذا الكتاب في مصر مؤخراً^(٣)، وغير هؤلاء كثير مما لا يتسع المجال للاسترسال في ذكرهم خشية من استطراد قد يخرجنا عن خطّة الدراسة، ولعل مما يزيد في أهمية هذه الهجرة أنها تزامنت مع مرحلة ازدهار الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس ونضوجها، وبالتالي استعدها للعطاء السخي لأوروبا والذي بدأ عصره بعد فترة وجيزة، إذ أن المؤثرات الحضارية التي انتقلت إلى الأندلس عن طريق هؤلاء وسواهم تفاعلت مع غيرها مما كان موجوداً في تلك البلاد فساعدت بذلك على توسيع قاعدة هذه الحضارة، وجعلتها أكثر شمولاً بما حققتها به من دم جديد.

وهناك ثمة طريق آخر كان له أهميته في توثيق الصلات الحضارية بين إفريقية والأندلس، وبالتالي زيادة عطاء إفريقية للحركة الحضارية في ذلك القطر وبصفة خاصة تنشيط الحركة العلمية فيه، هو الاتصال المباشر بين علماء إفريقية ونظرائهم في الأندلس عن طريق الرسائل التي كانوا يتبادلون فيها وجهات النظر في الأمور العلمية، بل إن من علماء إفريقية من كان يؤلف كتباً علمية خصيصاً لأصدقائه من علماء الأندلس، يبعث بها إليهم فينتفعون هم وتلاميذهم بها، ومثال على النوع الأول أي المرسلات تبادل وجهات النظر هو تلك المرسلات التي دارت بين دونش اليهودي الطبيب القيرواني الذي أشرنا إليه من قبل وبين أحبار اليهود في الأندلس في مفهوم المسائل المعقدة من الشريعة اليهودية، وفي حساب

(١) انظر الضبي: المصدر السابق ص ٣٨١.

(٢) انظر الضبي: المصدر السابق ص ٤٥٥.

(٣) انظر د. إبراهيم العدوي: المرجع السابق ص ٣٠٦.

مواقيت أعيادهم ومعرفة سني تاريخهم، وكان من أعيان مراسليه الأندلسيين يوسف حسداي بن إسحق الإسرائيلي طيب الأمير الحكيم الثاني الأموي بقرطبة كما سبق ذكره، وكان فصل القول في النهاية لدونش^(١). ثم تلك المراسلات التي جرت بين أحمد بن رشيق الأندلسي مدير دولة مجاهد العامري والذي كان يقول الضبي أدياً بارزاً، حسن الخط، بسق في صناعة الرسائل وشارك في سائر العلوم ومال إلى الفقه والحديث^(٢)، وبين أبي عمران موسى الغاسي، وأبي بكر بن عبد الرحمن اللذين كانا وتعد من أبرز علماء القيروان، والتي كان من بينها رسالة تداولها الناس في الإصلاح بين هذه العالمين حينما وقع بينهما الخلاف^(٣). ومثال على النوع الثاني نذكر أن دونش اليهودي الآنف الذكر كتب كتاباً في الفلك وحركة الكواكب إلى صديقه يوسف حسداي بن إسحق الإسرائيلي الآنف الذكر أيضاً بحث به إليه، وفيه تعديل السنين الشمسية بحساب الشهور القمرية^(٤)، ولا يستبعد أن يكون الشرح الذي وضعه على سفر (بصيرا) أي سفر التكوين الذي يعتبر من دعائم الشريعة اليهودية كما سبق ذكره، ثم مصنفه في بيان المشابهة القرية بين اللغتين العربية والعبرية والذي نقل عنه الطبيب الغرناطي موسى بن عمره الإسرائيلي في كتابه (المحاضرة والمذاكرة) نبذاً في بيان تلك المقارنة^(٥)، لا يستبعد أن يكون وضعهما بناء على طلب من يهود الأندلس للانتفاع بهما في أمور دينهم بالنسبة للأول وأمور الترجمة بالنسبة للثاني ذلك أنه يسهل عليهم أعمال ترجمة الكتب العلمية عن العربية والتي كما لا يخفى على أحد أن اليهود أسهموا بنصيب لا يستهان به في تلك الأعمال.

وما تجدر الإشارة إليه في هذا المقام هو أن هجرة علماء إفريقية إلى الأندلس إثر محنة القيروان لم تكن خاتمة الاتصال الحضاري بين إفريقية والأندلس، بل ظل هذا الاتصال مستمراً في القرون التالية على ذلك، ولعل السبب الرئيسي في ذلك يعود إلى أن إفريقية

(١) انظر حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق١، ص ٢٩٧ - ٢٩٨ .

(٢) انظر الضبي : المصدر السابق ص ١٦٧ .

(٣) انظر الضبي : المصدر السابق ص ١٦٧ .

(٤) انظر حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق١، ص ٢٩٩ .

(٥) انظر حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق١، ص ٣٠٠ .

كانت في طريق الأندلسيين من وإلى المشرق في رحلة الحج أو طلب العلم أو التجارة وما إلى ذلك، فكانوا يتوقفون فيها ذهاباً ولأياً لمدة تطول أو تقصر حسب ظروف كل منهم، وخلال هذا التوقف كانوا يتفاعلون مع أهل البلاد حضارياً سيما وأن ركب الحركة الحضارية فيها كان ماضٍ في سيره كما سبق أن أشرنا إلى ذلك، فكانوا يتأثرون ويؤثرون، ويعودون إلى بلادهم بكل جديد اكتسبوه من علم ومعرفة. كما أن طلاب العلم الأندلسيين لم يتوقفوا أيضاً عن الرفود إلى إفريقية للأخذ عن شيوخ العلم فيها ثم يعودون إلى بلادهم يضحون الحركة العلمية فيها بما لقتوه، الأمر الذي كان يساعد على تطور الحركة الحضارية فيها وتجديدها باستمرار وبالتالي يجعل حركة العطاء لأوروبا في تجدد دائم، وبكفي للتدليل على صحة هذا القول أن نضرب المثل بأي عبد الله محمد بن يوسف بن سعادة القاضي الأندلسي الذي كان فقيهاً محدثاً خطيباً عارفاً مشهوراً، والذي بدأ رحلته العلمية في سنة ٥٢٦هـ. وقد لقي بالمهدية الإمام المازري وقرأ عليه (كتاب المعلم بفوائد مسلم) وسمع منه ثم عاد إلى الأندلس بعد ذلك^(١). ثم أبو يعقوب يوسف بن محمد بن أحمد القرشي الأموي المشهور بابن اندارس الطبيب الأندلسي الذي رحل في مطلع حياته العلمية إلى تونس وأخذ عن ابن زيتون عالم إفريقية المشهور، وحصل فنوناً من العلم وتفقه بأي محمد عبد الوهاب بن عبد القادر الزواوي الذي كان إماماً في العلوم خصوصاً المنطق، عاد بعد ذلك إلى بلاده حيث نال شهرة واسعة فيها بعلمه، وأخذ عنه العديد من مواطنيه، وبعد إقامة طويلة فيها ونظراً لاشتداد ضغط النصارى الإسبان على المسلمين فيها هاجر إلى إفريقية واستوطن مدينة تونس، وبها كانت وفاته سنة ٧٢٩هـ / ١٣٢٨م، يقول ابن فرحون عنه إنه كان (طبيباً عالماً بعلم أقلدس، وتصانيفه في الحكمة والطب والهيئة وعلوم الأوائل مما يطول عداها لكثرتها)^(٢). ثم القلصادي الرياضي الأندلسي المعروف الذي رحل إلى تونس في طلب العام وأخذ عن عدد من خيرة علمائها خاصة إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن عقاب الحزامي تلميذ ابن عرفة، ثم عاد إلى بلده بسطة بالأندلس فأقام بها مدة ثم انتقل إلى غرناطة واستقر بها، وعند سقوطها بيد النصارى احتال في الخروج منها وعاد إلى إفريقية فأدركه

(١) انظر ابن فرحون : المصدر السابق ج ٢، ص ٣٧٢.

(٢) انظر ابن فرحون : المصدر السابق ج ٢، ص ٣٧٢.

المنية بمدينة باجة سنة ٨٩٨هـ / ١٤٩٣م. يقول ابن القاضي في ترجمته للقاضي عن ذلك : (... إمام في الفرائض والحساب، أصله من بسطة، وبها تفقه، وانتقل إلى غرناطة وأخذ عن علمائها، وإلى تونس وأخذ من علمائها...) (١).

ومما لا شك فيه أن انضواء إفريقية والأندلس تحت لواء الدولة الموحدية منذ أواسط القرن السادس الهجري (الثاني عشر للميلاد) كان عاملاً هاماً في توثيق عرى الصلات الحضارية بين البلدين لإتاحة الحرية التامة للمستقلين بالعلم في كلا البلدين للتنقل فيما بينهما من ناحية، واهتمام خلفاء الموحدين بالعلوم من ناحية ثانية حتى كان بلاتهم لا سيما في عصر المنصور الموحدي يضم نخبة من العلماء في دولتهم بما فيها إفريقية والأندلس حيث كان هؤلاء العلماء يؤثرون ويتأثرون ببعضهم البعض (٢)، ولعل خير دليل على ذلك، هو تلك العلاقة القوية التي ربطت في ذلك البلاط بين الفيلسوفين المشهورين، ابن طفيل (ت سنة ٥٩٢هـ / ١١٨٥م) صاحب قصة (حي بن يقظان) والذي يقال إن أصله من إفريقية، وابن رشد الأندلسي. فابن طفيل هو الذي قدم ابن رشد للخليفة الموحدي، وهو الذي حجب إليه أيضاً تلبية رغبة الخليفة في شرح فلسفة أرسطو التي نال بها شهرته الواسعة، وابن رشد أيضاً هو الذي حل محله لما طعن في السن (٣)، وغير خاف على أحد مدى تأثير ابن رشد على فلاسفة أوروبا العصور الوسطى. وقد ورث حكام الدول التي قامت على أنقاض الدولة الموحدية في المغرب الإسلامي هذا التقليد، فكانوا يسعون جاهدين لاجتذاب ما أمكنهم من العلماء البارزين إلى بلاطاتهم خاصة في عهد زكريا الأول وابنه المستنصر بالنسبة للدولة الحفصية، وأبي حمو موسى الزياني بالنسبة للدولة الزيانية، وأبي الحسن المريني بالنسبة للدولة المرينية (٤)، ولعل في سيرة ابن خلدون الذي تنقل بين هذه البلاطات

(١) ابن القاضي : درة المجال ج٣، ص ٢٥١ - ٢٥٢ .

ولمزيد من التفصيل عن القاضي انظر محمد السويدي : بحث بعنوان : (عالم رياضي أندلسي تونسي - الاقتصادي)، حوليات الجامعة التونسية، المجلد التاسع، سنة ١٩٧٢ .

(٢) انظر محمد المتوني : العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين، ص ٣٩ وما بعدها.

(٣) انظر عن ذلك أحمد أمين : ظهر الإسلام ج٣، ص ٢٤٢ وما بعدها، كذلك محمد التوني : المرجع السابق ص ٩٧ وما بعدها.

(٤) رافق أبا الحسن المريني حينما زحف إلى إفريقية عدد ضخم من علماء المغرب والأندلس وانضم=

جميعاً وربطته صلات قوية بالعديد من العلماء فيها ما يؤكد هذه الحقيقة. وظل هذا الاتصال الحضاري بين إفريقية والأندلس مستمراً حتى إلى ما بعد سقوط غرناطة بيد النصارى، وكان من القوة بحيث إن الإمام محمد العبدري القرشي الشهير بالمواق الأندلسي الغرناطي قال : إن شيوخه وصفوا العلاقة بين علماء كل من غرناطة وتونس بأنها كانت (عقد نكاح أفاضل كل من الحضرتين بأفاضل الأخرى، وتشرف كل واحدة منهما بصاحبتها ويتوادون ويتحابون، ولقد رأيت من أهل هذه الحضرة العلية التونسية ومن أهل الأخرى كثيراً من الناس الأكابر، ولم ينقطع من بينهما الوصال)^(١).

وأما صقلية فقد كانت في عصرها الإسلامي أكثر ارتباطاً وأشدّ تصاقاً من الأندلس بإفريقية، فالصلات والتفاعل بينهما كانا كاملين لامتراج عناصر السكان وكثرة الانتقال والعلاقات التشاكية المختلفة بينهما، فمنذ أن بدأت جيوش الأغالية بفتحها في سنة ٢١٢هـ / ٨٢٧م قامت بينها وبين إفريقية علاقة خاصة امتدت إلى ما بعد خروجها من يد المسلمين بزمان طويل كما سبق أن أشرنا إليه، وكانت هذه العلاقة سبباً في اتصال حضاري قوي بينهما، بحيث إن صقلية بالرغم من كونها جزيرة كبيرة تحيط بها مياه البحر الأمر الذي أدى إلى أن تتكيف الحضارة العربية الإسلامية بها وفق ظروف البيئة، وتتخذ لنفسها طابعاً خاصاً وسمات بارزة وفق أوضاع هذه البيئة، إلا أنها لم تكن في حقيقتها إلا امتداداً حضارياً لإفريقية. فالحضارة العربية الإسلامية بها لم تنشأ ولم يشتد عودها ثم لم تنضج إلا بفعل مؤثرات هذه الحضارة المتسربة إليها من إفريقية في الدرجة الأولى على مر السنين. لقد بدأ ركب هذه الحضارة في صقلية في مسيرته مع بداية الفتح الإسلامي لها، لقد كان من حسن حظ صقلية أن فتحها تم في عهد الأغالية، ذلك العهد الذي بلغت فيه الحضارة العربية الإسلامية في إفريقية درجة عالية من الرقي والازدهار، مما جعلها تستفيد من ثمرة ناضجة،

= إليهم الكثير من علماء إفريقية أثناء إقامته في تونس، ولكن مع الأسف حلت بهؤلاء العلماء كارثة كبيرة إذ مات منهم الكثير بوباء الموت الأسود ومن لم يمت بالبواباء مات غرقاً في البحر حينما هبت على أسطوله عاصفة أغرقته في طريق عودته منسحباً إلى المغرب.

(١) انظر عبد الحميد الركحي : وثائق من الهجرة الأندلسية الأخيرة إلى تونس، حوليات الجامعة التونسية،

العدد الرابع سنة ١٩٦٧، ص ٥٣ - ٥٤ .

وجنبها بذر بذرة هذه الحضارة وتمهدها وانتظار ثمرتها مدة تقارب القرن، كما حدث بالنسبة للأندلس وحتى إفريقية ذاتها، ولعل خير دليل على ذلك هو أن الحملة الأولى التي بدأت بفتحها كانت أشبه ما تكون بحملة علماء مجاهدين نظراً لكثرة ما ضمته من علماء في صفوفها من الذين كانوا قد تبحروا في شتى أنواع العلوم التي كانت قد انتشرت في العالم الإسلامي آنذاك، وفي مقدمة هؤلاء يأتي قائد الحملة أسد بن الفرات عالم إفريقية وفتيها وقاضيه المعروف كما سبق أن أشرنا إلى مكانته العلمية، ومنهم الكثير ممن كانوا على شاكلته علماء وقضلاء وصلاحياء، نذكر منهم محمد بن قادم الذي كان قد سمع من أسد بن الفرات نفسه ومن غيره من علماء إفريقية، وكان على درجة عالية من العلم والمكانة الرفيعة بين جند الحملة بحيث إنهم حينما أضر بهم القتال والجوع بسبب المقاومة الشديدة التي أبدتها الروم، مشوا إليه وطلبوا منه إقناع أسد بالعودة بالناس إلى إفريقية، فمضى ابن قادم إلى أسد وباحثه في الأمر فاختلعت وجهتا نظرهما في موضوع مواصلة القتال إلى أن حسم أسد الأمر بسلطته كقائد^(١). ومنهم أيضاً أحمد بن محمد بن قادم الآنف الذكر والذي أخذ عن أسد بن الفرات أيضاً وعن أبيه وغيرهما، يقول الدباغ في ترجمته له : (كان حافظاً لمذهب أهل العراق، ومذهب أهل المدينة، صحب أسد ابن الفرات ولازمه وشهد معه فتح صقلية، وكان له بها آثار حسنة)^(٢)، والمستفاد من هذا النص أنه كان عالماً بالفقه على المذهبين الحنفي والمالكي كأستاذه أسد، وقد شارك في أعمال الفتح وبقي في صقلية، وطوال إقامته فيها لم يكن له مشغلة إلا بث العلم فيها، ولعل ذلك هو الذي عناه الدباغ

(١) يروي الدباغ ما دار بين أسد وابن قادم في هذه المحادثة فيقول : (فمشى الناس إلى ابن قادم، فمضى إلى أسد فقال له : فارجع بنا إلى إفريقية فإن حياة رجل مسلم أحب إلينا من أهل الشرك كلهم، فقال له أسد : وما كنت لأكسر غزوة عن المسلمين فني المسلمين غير كثير) فأبى الناس ذلك فأراد إحراق المراكب فبدت من ابن قادم كلمة فقال : وعلى أقل من هذا قتل عثمان رضي الله عنه فنزل به أسد بالمرط فضره، ولم يجرده وإنما ضربه أسواطاً يسيرة قدر الثلاثة أو الأربعة، وتنادت عزمته وبصيرته، فقاتل الروم قتالاً شديداً حتى قتلهم وهزمهم وسباهم وغنم أموالهم وفتح صقلية وأباد الروم واستأصلهم، وسكنها المسلمون واستوطنوها).

(انظر الدباغ : المصدر السابق ج ٢، ص ٢٤ - ٢٥، كذلك المالكي : المصدر السابق ج ١،

ص ١٨٨).

(٢) الدباغ : المصدر السابق ج ٢، ص ١١١ .

بقوله إنه كان له بها آثار حسنة، وكانت وفاته سنة ٢٤٧هـ. ثم ابن أبي الفضل، وكان هو الآخر ممن أخذ عن أسد، ويبدو أنه كان ممن روى أخبار فتح تلك الجزيرة وأخذها عنه الناس، إذ يقول الدباغ : (قال ابن أبي الفضل : فرأيت أسداً في يده اللواء وهو يزعم فتحها علينا - يعني الروم - فكانت فينا روعة شديدة، وأقبل أسد على قراءة «يس» فلما فرغ منها قال للناس «هؤلاء عجم الساحل هؤلاء عبيدكم لا تهابوهم» فحمل وحمل الناس معه فهزم الله تعالى «بلاطه» وأصحابه فلما انتصرف أسد رأيت الدم وقد سال مع فتاة اللواء مع ذراعه حتى صار تحت إبطه^(١)، وغير هؤلاء كثير، وقد استوطن العديد منهم المناطق المفتوحة في الجزيرة وأخذوا يثرون علومهم فيها.

ومنذ ذلك الوقت، أولى الأمراء الأغالية ولايتهم الجديدة صقلية قدراً كبيراً من عنايتهم، فكان ولائها في معظم الأحيان من أمراء البيت الأغلب نفسه، ولا يخفى أن شغف أمراء هذا البيت بتشجيع العلوم وتعلقهم بأسباب الرقي والحضارة كان له انعكاس قوي على هذه الجزيرة، فلم تكن تمضي فترة وجيزة حتى أصبحت الحركة الحضارية فيها بجهود هؤلاء تواكب الحركة الحضارية الأم في إفريقية، فنقلوا إليها زراعة الكثير من المحاصيل الزراعية التي لم تكن معروفة، في أوروبا في ذلك الوقت والتي أتوا بها من المشرق مثل الأرز وقصب السكر والقطن والليمون والبرتقال، فضلاً عن الأساليب الجديدة في الزراعة والري وما إلى ذلك، كما نقلوا إليها العديد من الصناعات مثل صناعة المنسوجات الرفيعة لا سيما المنسوجات الحريرية، وما يتبعها من الصباغة والغزل والتبييض... إلخ، ثم صناعة الورق، والصابون، والدباغة، والزجاج لا سيما الملون وغيرها من روائع ما أنتجته الحضارة العربية الإسلامية آنذاك.

وأما بالنسبة لنشاط الحركة العلمية فيها، فزيادة على العلماء الذين استقروا بها منذ بداية الفتح كما أشرنا، أخذ العديد سواهم من علماء إفريقية يتوافدون إليها منذ ذلك الوقت لأغراض مختلفة، إما لتبوء منصب رسمي فيها أو للمشاركة في أعمال الجهاد، ذلك أن

(١) انظر الدباغ : المصدر السابق ج٢، ص ٢٢، والمقصود بقوله عن الروم إنهم عجم الساحل : أي إنهم هم الذين هربوا من ساحل إفريقية عندما فتحها المسلمون.

الحملة الأولى لم تفتح إلا جزءاً منها واستكمال فتح الجزء الباقي استغرق مدة طويلة نظراً لمناعة حصونها والمساعدات التي كانت تتوالى على أهلها من الدولة البيزنطية التي كانت لاتزال وقد تمتع بقدر من القوة، فكانت أعمال الجهاد مستمرة في الجزيرة، فضلاً عن أنها أصبحت قاعدة لأعمال الفتح في جنوب إيطاليا وإقليم بروفانس في فرنسا، أو فراراً من قحط أو وباء واللذين كانا كثيراً ما يتأبان إفريقيا مما كان يضطر أهلها إلى الهجرة مؤقتاً منها لا سيما إلى صقلية، أو للتعرض لرفد أولي الأمر فيها، أو للالتحاق بأمرائها ومصاحبهم، أو فراراً من اضطهاد أو حوادث سياسية، أو رغبة من بعض الخلفاء والمتكئين من الشراء والأدباء في الفرار والتحرر من قيود التزمت التي كانت مفروضة عليهم في إفريقيا إلى رهبان الأديرة التي كانت ماثرة في ربوعها حيث يجنون بغيتهم من الحمر، وينالون مطلبهم من الفسق والفجور ومطارحة الغرام لحسانها، وما يتبع ذلك من قرض الشعر في الغزل والحمر مما لا تسمح به بيئة إفريقية، فكان قلوب هؤلاء جميعاً له أثره القوي بلا شك في تشييط الحركة العلمية فيها ودفعها نحو الازدهار والتقدم.

وفي مقدمة هؤلاء العلماء الذين قصدوا تلك الجزيرة نذكر أحمد بن أبي محرز الذي يقول عنه ابن ناجي إنه (كان بهراً من بحور العلم، حافظاً للسنن، جامعاً لها، إماماً فيها، عارفاً بأصول الديانات، من أهل الورع والكرامات، على هدى وسنة واستقامة، كثير البكاء غزير الدمعة، وكان سيفاً مجرداً على أهل الأهواء والبدع، قانعاً لهم، غيراً على الشريعة، شديداً في ذات الله تعالى)^(١)، أخذ عن أبيه أبي محرز محمد بن عبد الله بن قيس بن مسلم الكناني كما سبق أن ذكرنا، وعن غيره من نظرائه، وقد أجبره الأمير زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب على تولي القضاء على غير رغبة منه في هذا المنصب تعففاً وخشية من الله شأنه في ذلك شأن الكثير من فقهاء إفريقية^(٢)، ويبدو من نص لابن عدارى أنه تولى قضاء صقلية

(١) انظر ابن الدباغ المصدر السابق ج ٢، ص ٤٠.

(٢) يقول الدباغ في ذلك إن الأمير زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب (٢٠١ - ٢٢٣هـ) عرض القضاء على جماعة من العلماء فامتنوا فجمعهم وقال لجلسائه : «انظروا من يقدمون لصلاتهم؟ فلما كان وقت الصلاة قدموا أحمد بن أبي محرز، فجلس بهم، فقال زيادة الله : «قد رضوا لديهم من رضيت أنا لدي». فجبره على القضاء انظر الدباغ : المصدر السابق ج ٢، ص ٤٠ - ٤١).

لفترة من الزمن فوصفه بقاضي صقلية إذ يقول : (وفي سنة ٢٢١ توفي قاضي صقلية ابن أبي محرر)^(١)، وأما ما يستفاد من رواية الدباغ أنه تولى القضاء جبراً لمدة تسعة أشهر هي الأخيرة في حياته ومات وهو في هذا المنصب^(٢)، وللتوفيق بين القولين نقول إنه ربما عند توليه القضاء أقام في صقلية مدة، أو ربما كانت إقامته فيها في فترة سابقة على هذه الولاية، وأياً كان الأمر فإننا نرى في إقامته في تلك الجزيرة فائدة كبيرة للحركة العلمية فيها.

ومنهم دعام بن محمد، وكان فقيهاً متبحراً في العلوم الدينية واللغوية، ومن أشهر شيوخه الإمام سحنون، وقد ولي هو الآخر قضاء صقلية لمدة طويلة وأقام بها وكانت وفاته سنة ٢٩٧هـ^(٣). ثم ابن القياري الذي كان متمكناً في الفقه وعلم الكلام واللغة وقد اختص بصحبة الأمير عبد الله بن إبراهيم الثاني الأعلى وأقام عنده طوال مدة إقامة الأخير والياً على صقلية من قبل أبيه، وهو الذي علمه الفقه ولقنه وسائل المناظرة، وعندما عاد هذا الأمير إلى القيروان باستدعاء من أبيه الذي تنازل له عن الإمارة رغبة منه في التفرغ لأعمال الجهاد في جنوب إيطاليا، عاد ابن القياري إلى إفريقية بصحبة مخدومه وأقام ببلاط الأغالة في رقادة حتى وفاته^(٤). ثم لقمان بن يوسف، وهو من أهل تونس، سمع من يحيى بن عمر^(٥)، وعيسى بن مسكين^(٦)، ورحل إلى المشرق فسمع بمصر من عدد من شيوخ العلم فيها، وعاد إلى إفريقية فأقام بها فترة ثم انتقل إلى صقلية واستوطنها وكانت وفاته بها في سنة ٣١٩هـ. ثم خلف بن أبي القاسم الأزدي المعروف بابن البرادعي الذي سبق أن ذكرناه والذي كان من تلاميذ ابن أبي زيد القيرواني وابن القابسي، وكان من كبار فقهاء المالكية في عصره، وقد نال كتابه التهذيب في اختصار المدونة شهرة واسعة في غرب العالم الإسلامي،

(١) ابن عذاري : المصدر السابق، ج ١، ص ١٠٦ .

(٢) الدباغ : المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٢ .

(٣) ابن عذاري : المصدر السابق، ج ١، ص ١٦١ .

(٤) انظر حسن حسني عبد الوهاب ورفقات ق ١، ص ٢٥٥ .

(٥) انظر ترجمته في القاضي عياض : المصدر السابق ص ٢٦١ وما بعدها، الدباغ : المصدر السابق ج ٢، ص ٢٣٣ وما بعدها.

(٦) انظر ترجمته في القاضي عياض : المصدر السابق ص ٢٣٢ وما بعدها، ابن فرحون : المصدر السابق ج ٢، ص ٦٦ .

واعتمده مشيخة المذهب المالكي فأقبل عليه طلبة الفقه (وتيمينوا بدرسه وحفظه وعليه معول أكثرهم بالمغرب والأندلس)^(١)، وله غيره (كتاب الشرح والتمامات) وكتاب (اختصار الواضحة) وغيرها، وكان سبب خروجه إلى صقلية أنه اتهم بقبول هدايا الفاطميين فانقبضت أنفُس علماء القيروان عنه وأبغضوه حتى إنهم ألقوا برفض كيبه وترك قراءتها لتهمة لديهم، فرحل إلى صقلية قاصداً أميرها فحصلت له عنده مكانة فاستوطنها مشتغلاً بالتدريس والتأليف إلى أن وافته منيته بها، وقيل إنه عاد إلى القيروان في أواخر حياته وتوفي ودفن بها^(٢)، ثم أبو عمرو ميمون بن عمرو القاضي الزاهد الذي كان من تلاميذ الإمام سحنون، وكان صالحاً ذا فضل ودين وعلم كثير، وقد ولي القضاء في صقلية لبني الأغلب وقد ذكر الدباغ أنه حينما وصل إلى سوسة للإبحار منها إلى صقلية لتولي منصبه خاطب أهلها بقوله : (يا أهل سوسة هذا كسائي وجعيتي وخرجي، فيه كيب، وهذه السوداء تخدمني معها كساؤها وجبتها، بهذا خرجت، وانظروا بأي شيء أرجع)^(٣)، فلما وصل إلى صقلية لم ينزل الدار التي كانت مخصصة لمن يتولى القضاء، تعففاً، فنزل في حجرة، وكانت جاريته الآفة الذكر تغزل وتبيع غزلها وتطعمه، واتخذ مجلسه ياب تلك الحجرة يقابل فيه الناس يقضي بينهم ويرد على أسئلتهم، ويأخذ عنه طلاب العلم، وأقام على ذلك سنين إلى أن اعتل فاستعفى من القضاء فأعفى وغادر صقلية مأسوفاً عليه إلى القيروان، وعند وصوله سوسة أشهد أهلها على ما كان معه وأنه لم يزد عما أخذه إلى صقلية شيئاً فائلاً لهم : ما تعلقتم من دنياكم بشيء، ولم يلبث أن توفي في القيروان ودفن بها سنة ٣١٠ هـ^(٤).

ومنهم أيضاً أبو جعفر محمد بن الحسين المروزي الذي كان فقيهاً عالماً وقد تولى القضاء فيها واستوطنها وبها كانت وفاته سنة ٢٩٣ هـ^(٥)، ثم إسحق بن أبي المنهال الذي كان من علماء الحنفية في القيروان، وقد أخذ عن أبيه الذي كان شيخ علماء هذا المذهب في

(١) الدباغ : المصدر السابق، ج ٣، ص ١٤٧.

(٢) انظر ترجمته في الدباغ : المصدر السابق ج ٢، ص ١٤٦ وما بعدها.

(٣) الدباغ : المصدر السابق ج ٢، ص ٣٥٦.

(٤) انظر ترجمته في الدباغ : المصدر السابق ج ٢، ص ٣٥٦ وما بعدها.

(٥) ابن عذاري : المصدر السابق ج ١، ص ١٤٢.

إفريقية، والذي كان قد أخذ عن أسد بن الفرات وغيره، وقد ولي إسحق بن أبي المنهال قضاء صقلية لبني الأغلب وأقام بها، وعند انقضاء عهد الأغلبة انضم للدولة الفاطمية فولى القضاء للمهدي الفاطمي في سنة ٣٠٧هـ، وعزل في سنة ٣١١هـ ثم أعيد في العام التالي ٣١٢هـ وبقي قاضياً للفاطمين حتى وفاته في زمن الخليفة أبي القاسم الفاطمي^(١)، ثم الشاعر محمد بن عبدوس السوسي، وهومن سوسة وأصله من القيروان، رحل إلى ثقة الدولة أبي الفتح يوسف بن عبد الله بن محمد الكلبي أمير صقلية، فاستدحه بعدة قصائد نال بها حظوة لديه وألحقه بابنه جعفر فأدناه وقربه وكان من أكرم الناس عنده، وطالت إقامته لدى الأمير الكلبي فتشوق للرجوع إلى أهله ووطنه ولكن جعفر تمسك به ولم يسمح له بالرحيل، فاضطر أن يوسط الأمير أبا الفتح في الأمر، ولكن هذا لم يسعه بما طلب، الأمر الذي اضطره أخيراً إلى الخروج من الجزيرة خلصة دون رغبة أمرائها^(٢). ونختم هذه السلسلة من العلماء بإسماعيل بن يوسف الطلاء المنجم الذي سبق أن ذكرناه، والذي صحب الأمير إبراهيم الثاني (الأضمر) إلى صقلية حينما غادر القيروان مجاهداً بعد تنازله لابنه عبد الله عن الإمارة، وشهد معه فتح طبرمين (Taormine) وغزوته لمسينا ورافقه في جميع حروبه في جنوب إيطاليا، ولم يعد إلى إفريقية إلا بعد وفاة الأمير إبراهيم في شعبان سنة ٢٨٩هـ / أغسطس سنة ٩٠١م^(٣).

لقد كان لهؤلاء العلماء وأمثالهم الفضل الأكبر في نشر الثقافة العربية الإسلامية في نواحي تلك الجزيرة، ولم تكن تمضي فترة وجيزة حتى ظهرت طبقة من أبناء البلاد أخذت تقوم برحلاتها العلمية إلى خارج الجزيرة في طلب المزيد، وكانت إفريقية بطبيعة الحال أول ما كان يقصده هؤلاء للدراسة في معاهدها والأخذ عن شيوخها، تعود بعد ذلك إلى بلادها لتدفع بالحركة العلمية فيها إلى الأمام، وجاءت بعدها طبقة أخرى وسعت من مجال الرحلة حتى أخذت تشمل مصر وبعض بلدان المشرق الأخرى فضلاً عن إفريقية، ومن هذه الطبقة نذكر محمد بن الحسن بن علي الكركنتي (الجرجنتي) نسبة إلى كركنت (أو

(١) ابن عذارى : المصدر السابق ج ١، ص : ١٨٨، ١٨٩ .

(٢) انظر الجبائي : المصدر السابق، ص : ٣٨ وما بعدها.

(٣) انظر حسن حسني عبد الوهاب : ورقائق ق ١، ص : ٢٥٣ .

جرجنت) وهي مدينة بصقلية. الفقيه المالكي الصقلي المعروف الذي تفقه بصقلية وإفريقية ثم رحل إلى مصر وأخذ عن نخبة من علماء الاسكندرية^(١)، وعاد إلى بلاده، ثم محمد بن خراسان الصقلي مولى بني الأغلب الذي درس في إفريقية وتبحر في علوم اللغة ثم رحل إلى مصر فأخذ عن أبي جعفر النحاس في النحو، وروى عنه مصنفاته وعاد إلى بلاده وأقرأ بها النحو حتى وفاته سنة ٣٧٩هـ^(٢). ثم محمد بن علي بن الحسن بن عبد البر الصقلي التميمي اللغوي والذي ولد ونشأ بصقلية وتلقى علومه الأولية بها ورحل عنها إلى إفريقية في طلب العلم ثم إلى المشرق حيث عاد بعد ذلك إليها، وكان موجوداً بها سنة ٤٥٠هـ، وكان من أشهر تلاميذه ابن القطاع الصقلي أحد أئمة الأدب واللغة والنحو والعروض ومؤلف (الدرة الخطيرة، والمختار من شعراء الجزيرة)^(٣)، ومنهم عبد الحق بن محمد بن هارون السهمي القرشي الذي يقول عنه الدباغ إنه تفقه بالشيوخ القيروانيين كأبي بكر بن عبد الرحمن، وأبي عمران الفاسي، وعبد الله الأجنابي^(٤)، وغيرهم، وكانت له رحلة إلى المشرق أدى فيها فريضة الحج كما لقي فيها القاضي عبد الوهاب، وأبا ذر الهروي، وعاد لبلده فمكف على التدريس والتأليف ومن أشهر مؤلفاته (كتاب النكت والفروق لمسائل المدونة)، وهو أول مؤلف له، يقول عنه الدباغ إنه (كتاب مفيد عند الشادين من حلق الطلبة، ويقال : إنه ندم بعد ذلك على تأليفه؛ ورجع عن كثير من اختياراته وتعليقاته، واستدرك كثيراً من كلامه فيه وقال : ولو قدرت على جمعه وإخفائه لفعلت)^(٥)، والمستفاد من النص أن هذا الكتاب لقي رواجاً كبيراً بحيث إنه لم يعد في إمكان المؤلف جمعه وإخفائه، كما ألف كتابه الكبير المسمى (تهذيب الطالب) وله استدراك على مختصر البرادعي المنوه عنه آنفاً؛ وله جزء في شرح ألفاظ المدونة، وبعد أن أسن وكبر حج مرة ثانية فلقني في مكة أبا المعالي الجويني إمام الحرمين آنذاك فباحثه في أمور علمية عديدة

(١) انظر أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ١، ص ٣٠٩.

(٢) أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ١، ص ٣٠٩.

(٣) انظر أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ١، ص ٣١٠.

(٤) انظر الدباغ : المصدر السابق ج ٢، ص ٥٦.

(٥) انظر الدباغ : المصدر السابق ج ٢، ص ٥٦.

وسأله عن مسائل أجابه عليها هي المشهورة في أيدي الناس كما يقول الدباغ، وكانت وفاته بالاسكندرية سنة ٤٥٦هـ^(١).

ومنهم محمد بن عبد الله بن يونس التميمي الصقلي الذي كان فقيهاً إماماً عالماً فرضياً أخذ عن أبي الحسن الحصري القاضي، وعتيق بن الفرضي، وابن أبي العباس، وغيرهم، وكان إلى جانب سعة علمه ملازماً للجهاد موصوفاً بالنجدة، له مؤلفات كثيرة منها كتاب في الفرائض، وكتب كتاباً جامعاً للمدونة أضاف إليها غيرها من أمهات الكتب، وعليه كان اعتماد طلبة العلم للمذاكرة، وقد راج رواجاً كبيراً في أنحاء المغرب الإسلامي، ويذكر ابن فرحون أن أول من أدخله إلى سبته هو الشيخ محمد خطاب، فاستنسخه من القاضي محمد بن عيسى التميمي، وعن طريقه كثر عند الناس، وكانت وفاته سنة ٤٥١هـ^(٢). ومثله ابن ظفر الصقلي مؤلف كتاب (ملوان المطاع)، وابن القطاع الصقلي الذي ذكرناه آنفاً. ونذكر أخيراً إمام عصره وعالم زمانه، الإمام محمد بن علي بن عمر التميمي المازري، المعروف بالإمام المازري، وهو من (مازر) أو (مازرة) بصقلية أخذ بإفريقية عن اللحمي، وعبد الحميد السومسي، وغيرهما حتى فقه، فعاد إلى بلده حيث تصدر لتدريس أصول الفقه والدين في بلده، وعندما دخل النورمان إلى صقلية عاد إلى إفريقية واستوطن المهدية، وذاعت شهرته حتى أصبح إمام أهل إفريقية وما وراءها من بلاد المغرب، وصار الإمام لقباً له فلا يعرف بغير الإمام المازري^(٣)، ولم يكن أحد للمالكية في أقطار الأرض في وقته أفقه منه، ولا أقوم لمذهبهم، روى الحديث حتى أصبح إماماً فيه، واطلع على علوم كثيرة منها الأدب والحساب والطب، وقد أتقن الطب إلى حد أنه كان يفرع إليه فيه كما يفرع إليه في الفقه^(٤)، وكان رحمه الله مع سعة علمه حسن الخلق،

(١) انظر ترجمته في الدباغ : المصدر السابق ج ٢، ص ٥٦ .

(٢) انظر ترجمته في ابن فرحون : المصدر السابق ج ٢، ص ٢٤٠ - ٢٤١ .

(٣) ابن فرحون : المصدر السابق ج ٢، ص ٢٥٠ .

(٤) ابن فرحون : المصدر السابق ج ٢، ص ٢٥١ .

ويقول ابن فرحون : إن سبب دراسته الطب هو أنه مرض فكان يعالجه طبيب يهودي فقال له اليهودي يوماً : يا سيدي مثلي يطلب مثلكم؟ وأي قرية أجدها أتقرب بها في ديني مثل أن أتقدم للمسلمين؟ فمنا ذلك الوقت بدأ في دراسة الطب فبرع فيه.

أنيس المجلس لطيف العشرة، كثير التأليف، شرح كتاب مسلم في كتابه المسمى (المعلم بفوائد كتاب فوائد مسلم)، وكتاب (الطقين) للقاضي أبي محمد عبد الوهاب في الفقه المالكي، كما فُرح كتاب (البرهان) لأبي المعالي الجويني، وسماه : (إيضاح الموصول من برهان الأصول) وغيرها وقد انتشرت هذه الكتب في المغرب الإسلامي، ومنها ما عرف في المشرق أيضاً، كما أخذ عنه الكثير من العلماء مثل محمد بن يوسف بن سعادة الأندلسي الذي سبق أن ذكرناه، والتجيني شيخ أحمد بن الفهري اللبلي النحوي، وكان من أشهر من أخذوا عنه بالإجازة القاضي عياض، وكانت وفاته سنة ٥٣٦هـ، ودُفن في رباط المستير، وقبره معروف إلى وقتنا الحاضر^(١).

وكما أفادت حركة الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس من محنة القيروان إبان الهجرة الهلالية في أواسط القرن الخامس الهجري، حدث الأمر ذاته بالنسبة لهذه الحركة في صقلية، إذ أن كثيراً من علماء إفريقية هاجروا إليها وقضد واستقروا فيها، نذكر منهم ابن رشيقي القيرواني الذي رحل إليها واستوطن مازرة حتى وافته منيته بها سنة ٤٥٦هـ / ١٠٦٣م كما سبق ذكره، ثم صنوه ومنافسه ابن شرف القيرواني الذي رحل إليها وأقام بها مدة ثم رحل عنها إلى الأندلس كما مر ذكره، ويبدو أن التقاء ابن رشيقي وابن شرف في الغربية بصقلية أنساها ما كان بينهما من خصام وضاغان، فحاول ابن شرف إقناع زميله بمرافقته إلى الأندلس فرفض وقال له يبيته المشهورين :

مما يزهدني في أرض أندلس سماع متضدٍ فيها ومعتمدٍ
ألقاب منطيةٍ في غير موضعها كالهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد

ومثلهما العديد ممن ذكرتهم كتب التراجم والطبقات، وكلما كانت المشاكل والفن تتوالى وتشتد في إفريقية، كلما كان ذلك سبباً هاماً في الهجرة إلى صقلية سيما وأن ملوك النورمان منذ عهد مؤسس مملكتهم في صقلية رجار الأول كانوا يقدرون الثقافة العربية الإسلامية ولم يدخروا جهداً في ميليل اجتذاب النابهين من علماء المسلمين إلى بلاطهم ليس

(١) انظر ترجمته في ابن فرحون : المصدر السابق ج٢، ص ٢٥٠ وما بعدها.

للاستفادة من علومهم فقط وإنما لأغراض سياسية أيضاً، وقد بلغ هذا الأمر ذروته في عهد رجار الثاني الذي اجتذب مفخرة علم الجغرافية عند المسلمين الشريف الإدريسي كما سيأتي ذكره، ثم تلميذ الثقافة العربية الإسلامية جرجي الأنطاكي وآل بيته الذين استفادهم من المهديّة كما سبق ذكره. وكان ممن رحل إلى صقلية في تلك الفترة أيضاً الشاعر يحيى التيفاشي القفصي متعزّضاً لرغد آل حمود الأشراف العلويين بها (كما كان الكثيرون من شعراء إفريقية يفتلون)^(١).

ولم يكن هذا الاتصال بين إفريقية وصقلية مقصوراً على الطبقة المثقفة، وإنما تعداه إلى المستوى الشعبي، ذلك أنه بالإضافة لما أحدثته الحركة التجارية النشطة بين البلدين من تعزيز الروابط بين شعبيهما، كانت هنالك هجرات جماعية متبادلة تطول مدتها أو تقصر حسب الظروف، فقد ذكر الإخباريون الأفارقة من مؤلفي كتب التراجم مثل المالكي والدباغ وابن ناجي وغيرهم أن أهل إفريقية كانوا إذا أصابتهم سنوات جدد من جراء انحباس الغيث يعمدون إلى مراكبهم فينقلون فيها أسرهم وحيواناتهم ويرتحلون إلى صقلية ويقيمون فيها حتى تخضب بلادهم فيعودون إليها^(٢)، وفي المقابل كان الصقليون إذا ألم بهم طارئ أو دهمهم خطر بادر الكثير منهم للهجرة إلى إفريقية حتى تنجلي تلك الغمة، كما حدث إبان جثوم الخطر البيزنطي على تلك الجزيرة في أوائل القرن الخامس الهجري، ثم جثوم الخطر النورماني عليها منذ أواسط ذلك القرن، فضلاً عن تلك الهجرة التي دعا إليها رجار الثاني عند احتلاله لساحل إفريقية ولياها جمع غفير من رعاياه في صقلية وجنوب إيطاليا كما سبق ذكره. فكانت هذه الهجرات المتبادلة تقوي وشمائج هذا الاتصال وتعمم مستواه مما كان له بلا شك أثر قوي على حركة الحضارة في صقلية لما كان يحمله هؤلاء معهم من مؤثرات حضارية.

وبعد هذا العرض الموجز لأثر إفريقية في نشأة ونضوج الحضارة العربية الإسلامية في كل من الأندلس وصقلية أهم معبرين سلكتهما تلك الحضارة إلى أوروبا، وفي ضوء

(١) د. حسين مؤنس: الجغرافية والجغرافيون في الأندلس ص ٢٨٥ .

(٢) انظر حسن حسني عبد الوهاب: زفقات ق٣، ص ٣٨٧ - ٣٨٨ .

المعطيات المستفادة منه تتضح أبعاد دور إفريقية كمعبر حضاري غير مباشر للحضارة العربية الإسلامية إلى أوروبا، ومع أن ظروف البيئة لكل من الأندلس وصقلية قد استوعبت المؤثرات الحضارية المتسربة إليها من إفريقية وطبعتها بظاهرها الخاص الذي تميزت به وجعلت مؤثرات الحضارة العربية الإسلامية التي انتقلت إلى أوروبا عبر هذين المعبرين تبدو وكأنها أندلسية أو صقلية محضة هي وليدة يفتتها، إلا أنه بقليل من التمعن والتدقيق يستطيع الباحث تتبع أصول العديد من هذه المؤثرات فينتضح له أن لإفريقية دوراً كبيراً في نشأة هذه المؤثرات، ونكتفي بضرب مثل واحد للتدليل على صحة ما ذهبنا إليه هو الكتاب الذي ألفه ابن حزم الأندلسي (ت سنة ٤٥٦هـ) في أسماء الله الحسنى، فإن حزم قد تأثر كثيراً بتألفات بقي بن مخلد^(١) الذي أخذ عن نخبة من علماء القيروان كما سبق أن ذكرنا، فضلاً عن أنه هو نفسه قد أخذ عن شيوخ سمعوا من بعض علماء القيروان، وقد اكتسب بذلك حصيلة علمية ممتازة في علوم الدين والجندل والمناظرة مكنته من الرد على أقوال الفرق الإسلامية^(٢)، وبحكم البيئة الأندلسية التي كان يتجاور فيها المسلمون والنصارى واليهود وتدور بينهم المناظرات الدينية وهو الأمر الذي لم يكن موجوداً في إفريقية كما سبق ذكره، فهذه الثقافة والحصيلة العلمية انبرى ابن حزم للدفاع عن الإسلام ضد المسيحية واليهودية، واعتمد على العقيدة الإسلامية بأن التوراة والإنجيل حرفا عن أصلهما اعتماداً كبيراً، وحاول بكل إمكانه أن يجد تناقضاً في كتبهم ليبرر أقواله في أنهم حرفوا النصوص، فألف في هذا الموضوع كتابه المسمى (كتاب إظهار تبديل اليهود والنصارى للتوراة والإنجيل وبيان تناقض ما بأيديهم من ذلك مما لا يحتمل التأويل) الذي قال عنه الحميدي إنه كان مما سبق إليه^(٣)، ومن ضمن مؤلفاته في إبراز صحة العقيدة الإسلامية كان كتابه في أسماء الله الحسنى الذي يبدو فيه أثر علماء القيروان على ابن حزم واضحاً، والذي قرضه الفزالي بقوله : (إنه يدل على عظم

(١) انظر عن ذلك أحمد أمين : ظهر الإسلام ج٣، ص ٥١ .

(٢) وفي ذلك ألف كتابه (الفصل في الملل والأهواء والنحل).

(انظر الحميدي : جذوة المقتبس ص ٣٠٩، الضبي : المصدر السابق ص ٤٠٣ .

(٣) انظر الحميدي : جذوة المقتبس ص ٣٠٩، الضبي المصدر السابق ص ٤٠٣، كذلك انظر عن هذا

الموضوع أحمد أمين : ظهر الإسلام ج٣، ص ٥٧ .

حفظه، وسيلان ذهنه^(١)، وكان ممن تأثروا كثيراً بأبن حزم كل من ابن عربي، وابن رشد^(٢)، وكان من أبرز الجوانب التي تأثر ابن عربي به فيها أنه ألف كتاباً في أسماء الله الحسنى نحى فيه منحاه، وعن ابن عربي أخذ رامون لول، بل غرف من فلسفته وعلمه بقدر ما استطاع، واستفاد منه في تكوين جانب كبير من آرائه ونظرياته التي ذاعت في أوروبا، ومن ذلك أن كتابه الذي ألفه في أسماء الله الحسنى هو الآخر ما كان إلا تأثراً بأبن حزم وابن عربي^(٣) بل رداً عليهما، وأما ابن رشد فإن أثر فلسفته في فلاسفة أوروبا أشهر من أن يعرف وأكبر من أن تستوعبها هذه المقالة، ويكفي القول بأنه بشرحه لفلسفة أرسطو عرف الأوروبيين بهذا الفيلسوف، وأن فلسفته شغلت الدارسين في جامعة باريس - أكبر مركز للدراسات الفلسفية في أوروبا في العصور الوسطى - طوال القرنين الثالث عشر والرابع عشر بين مؤيد ومعارض مما حرك الكنيسة ضد ابن رشد وفلسفته حتى أصدرت قرارها بلعن ابن رشد وأرسطو معاً وحظرت دراسة فلسفتهم^(٤)، ولكن بالرغم من ذلك ظلت فلسفة ابن رشد تؤثر في الفلسفة الأوروبية إلى عهد قريب. وما هذا إلا مثلاً واحداً له أشباه عديدة كلها تؤكد مدى أهمية إفريقية كمعبر حضاري غير مباشر إلى أوروبا.

إفريقية معبر مباشر للحضارة الإسلامية إلى أوروبا :

من المعروف أن الاتصال المباشر الطويل الأمد والاستقرار شرطان أساسيان لتجانب الحضاري بين الشعوب، وإذا كان الجانب المنظور من الاتصال الذي تم بين الصليبيين والمسلمين في إفريقية قد اتسم بالعداء وتغلب الصفة العسكرية عليه المتمثلة في الهجمات التي كانت تشنها القوى الصليبية على إفريقية من ناحية، وقصر أمد هذه الهجمات التي لم تفسح المجال لاحتلال دائم كما حدث بالنسبة للأندلس وصقلية أو طويل الأمد كما حدث بالنسبة لبلاد الشام، إذ لم تزد مدة أي من هذه الهجمات عن بضعة أشهر باستثناء الاحتلال

(١) انظر عن ذلك أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣، ص ٥٧ .

(٢) انظر عن ذلك أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣، ص ٦٣ .

(٣) انظر د. سعيد عاشور : المدنية الإسلامية ص ٩٣ .

(٤) المزيد من التفصيل عن هذا الموضوع انظر د. سعيد عاشور : المدنية الإسلامية ص ٩٠ - ٩١، أحمد

أمين : ظهر الإسلام ج ٣، ص ٢٦٠، محمد الترنوي : المرجع السابق، ص ٩٩ .

التورماي الذي دام حوالي (١٢) سنة فقط، أي أنه لم يكن هنالك استقرار صليبي في إفريقية من ناحية ثانية، إلا أنه كان هنالك جواناتب أخرى من هذا الاتصال كان فيها التعويض الكافي عن هذين الشرطين، هما الاتصال المباشر من خلال العلاقات التجارية المستمرة والطويلة الأمد بين إفريقية والبلدان المسيحية من ناحية، ثم نشاط دعاة الصليبية السلمية ولا سيما أنصار حركة التنصير في ربوعها من ناحية ثانية. فمنذ بداية عصر الحروب الصليبية إن لم يكن قبل ذلك وحتى نهاية العصور الوسطى كانت تربط إفريقية بدول جنوب غرب أوروبا علاقات تجارية نشطة ومستمرة لم تكن تتوقف إلا لفترات محدودة ومع بعض تلك الدول، وعلى وجه التحديد إبان الهجمات أو الحملات الصليبية التي كانت توجه إليها فقط، ثم تعود تلك العلاقات بعد انتهاء الهجمة أو الحملة لتستأنف من جديد، وتبعاً لذلك وجدت جاليات أوروبية مستقرة أو شبه مستقرة في معظم مدن إفريقية الهامة^(١) تدفع بهذه الحركة التجارية نحو النمو والازدهار باستمرار.

فمنذ بداية تحول السيطرة على مياه البحر الأبيض المتوسط لصالح القوى البحرية المسيحية في أوائل القرن الخامس الهجري (الحادي عشر للميلاد) أخذت هذ القوى وأهمها المدن البحرية الإيطالية وبصفة خاصة جنوة ويزا وإلى حد ما البندقية تعمل على تأسيس علاقات تجارية مع إفريقية وتتطلع دوماً إلى تطويرها وتدعيمها، ولعل ما ورد في بنود المعاهدة المعقودة بين تميم بن المعز بن باديس ورجار الأول سنة ٤٦٨ هـ / ١٠٧٥ م وشروط الصلح المعقودة بين تميم أيضاً والصليبيين إبان الهجوم على المهدية سنة ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م كما أسلفنا القول ما يؤكد هذه الحقيقة، وإذا كانت الحوادث التي تلت هذا الهجوم والتي تمثلت في الزحف الصليبي إلى المشرق قد جذبت جل اهتمام المدن البحرية الإيطالية إلى شرق البحر الأبيض المتوسط للحصول على أكبر نصيب من التجارة الشرقية، فإن ذلك لا يعني إصابة هذه العلاقات التجارية بين إفريقية وتلك الدول بالفتور، ذلك أن التورمان هم الذي استأثروا بأكبر نصيب من هذه العلاقات وبالتالي من تجارة إفريقية منذ مطلع القرن التالي أي السادس للهجرة (الثاني عشر للميلاد) والتي بلغت أوج ازدهارها في تلك الفترة وفي ظل الاحتلال التورماني

R.Brunschwig : Op. Cit., Tom I, p. 432-39.

(١) لمزيد من التفصيل انظر :

لساحلها كما سبق أن ذكرنا. ولا يعني ذلك أن النورمان احتكروا هذه التجارة، بل كان لإفريقية علاقات تجارية مع جهات أخرى، فقد احتفظت جنوة بنصيب كبير من نشاطها التجاري مع العديد من مدنها الساحلية^(١)، إذا بلغ مجموع العقود التجارية التي أبرمتها مع إفريقية خلال الفترة من سنة ٥٥١هـ إلى ٥٦٠هـ / ١١٥٥ - ١١٦٤م (٧٣) ثلاثة وسبعين عقداً^(٢)، كما أن بيزا وقعت في سنة ٥٥٢هـ / ١١٥٧م معاهدة تجارية مع عبد الله بن خراسان صاحب تونس آنذاك تعبر إحدى أقدم المعاهدات التجارية والبحرية التي عقدت بين إفريقية والدول المسيحية^(٣)، يضاف إلى ذلك نشاط بني حماد أصحاب بجاية في هذا الميدان والذين ربطتهم علاقات مماثلة مع هاتين المدينتين وغيرهما من البلدان المسيحية.

ومع أن سياسة الدولة الموحدية التي أصبحت إفريقية إحدى ولاياتها منذ سنة ٥٥٥هـ / ١١٦٠م قد اتصفت بالتحفظ تجاه الدول المسيحية بل والتزمت أحياناً نظراً لما كانت تواجهه من ضغط الحركة الصليبية ومؤامراتها، إلا أن الحركة التجارية بين إفريقية وهذه الدول استمرت على حالها إن لم نقل إنها نمت وتطورت، فقد نجحت كل من بيزا وجنوة والبندقية وصقلية ثم مرسيليا في وقت لاحق في عقد المعاهدات التجارية مع خلفاء الموحدين، ومنها ما عقد معاهدات مماثلة مع ولاية إفريقية بتفويض من هؤلاء الخلفاء تكفل استمرار التبادل التجاري بينها وبين إفريقية^(٤).

ففي سنة ٥٥٦هـ / ١١٦١م وقعت جنوة معاهدة تجارية مع عبد المؤمن بن علي خليفة الموحدين الأول كانت تجديداً للمعاهدة المبرمة بين الطرفين في سنة ٥٤٨هـ / ١١٥٣م، وفي سنة ٥٦٣هـ / ١١٦٨م حصلت بيزا على معاهدة مماثلة من أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن مدتها عشرون عاماً، والتي جددتها ابنة المنصور سنة ٥٨٢هـ / ١١٨٦م ثم الناصر سنة ٦٠٨هـ / ١٢١١م^(٥)، وكانت هذه المعاهدات التي عقدت مع هؤلاء الخلفاء شاملة

D.Abulafia : Op. Cit., p. 108-9.

(١) انظر :

D.Abulafia : Ibid, p. 99.

(٢)

R.Brunschvig : Op. Cit., Tom II, p. 25.

(٣)

R.Brunschvig : Ibid, Tom II, p. 25.

(٤) انظر :

(٥) د. عبد الله المروري : المرجع السابق، ص ١٨٧ .

لجميع ولايات دولتهم وفي طبيعتها إفريقية بطبيعة الحال. ومنذ تولي أبي زيد عبد الرحمن ولاية إفريقية (تحو سنة ٥٩٧ - ٥٩٩هـ / ١٢٠٠ - ١٢٠٢م) كان لمدينة ييزا مثلاً علاقات متواصلة مع هذا الوالي ومع الذين تولوا الولاية من بعده، وفي سنة ٦٠٨هـ / ١٢١١م بعثت هذه المدينة سفيراً لها إلى تونس للتفاوض مع والي إفريقية الشيخ أبي محمد عبد الواحد بشأن تدعيم العلاقات بين الجانبين^(١)، وخطت صقلية وعلى رأسها الملك الشاب فردريك الثاني خطوة هامة في هذا المضمار بعد ذلك بعشر سنوات، إذ في منتصف جمادى الآخرة سنة ٦١٨هـ / ٥ أغسطس سنة ١٢٢١م أرسل سفيره فيبالد (Vibald) إلى تونس حيث استطاع هذا عقد معاهدة تجارية مع الوالي أبي إسحق إبراهيم تنسم بالدفعة والوضوح، إذ من ضمن ما ورد فيها من بنود، وجدت شروط تقتضي بإقرار السلام بين الجانبين لمدة عشر سنوات وحق البلدين في ممارسة النشاط التجاري^(٢)، وقد أصبحت هذه الشروط نموذجاً احتذي به في المعاهدات التجارية التالية بين إفريقية والدول المسيحية. وفي سنة ٦٢٠هـ / ١٢٢٣م تمكن سفيرا جنوة (Marchisio Scriba et Simon de Bulgaro) من الحصول على معاهدة تجارية لبلدهما من والي إفريقية السيد أبي العلاء المؤمني كان من شروطها حصول الجنوين على فندق وحمام ومخيز في مدينة تونس أسوة باليازنة الذين كانوا قد حصلوا على مثل ذلك منذ مدة طويلة، وبعد أربع سنوات من هذا التاريخ أرسلت البندقية سفيراً لها إلى تونس لنفس الغرض، ومن غير المعروف فيما إذا كان هذا السفير قد نجح في مهمته أم لا^(٣).

ومنذ استقلال الأمير أبي زكريا الأول الحفصي بإفريقية عن الدولة الموحدية وشروعه في إرساء قواعد الدولة الحفصية، استحوذت العلاقات التجارية لدولته الفتية مع الدول المسيحية على قسط كبير من اهتمامهم وبذل جهوداً كبيرة في سبيل تنشيط تجارة إفريقية مع تلك الدول، يدل على ذلك كثرة المعاهدات التجارية التي عقدها معها، وقيام الدول المذكورة بتعيين

(١) انظر : R.Brunschvig : Op. Cit., Tom II, p. 25-26

كللك د. سعيد عاشور : بعض أضواء على العلاقات بين ييزا وتونس، ص ٤٤ .

(٢) انظر : R.Brunschvig : Ibid, Tom II, p. 26.

(٣) انظر : R.Brunschvig : Ibid, Tom II, p. 26-27.

قناصل لها في إفريقية^(١) لرعاية مصالحها التجارية، فقد عقد معاهدات مع كل من البندقية (أكتوبر - نوفمبر سنة ١٢٣١م / ٦٢٩هـ)، وبيزا (أواخر أغسطس سنة ١٢٣٤م / ٦٣١هـ)، وجنوة (في ١٠ يونيو سنة ١٢٣٦م / ٦٣٣هـ) على يد سفرائها وهم على التوالي (Pierre Delfino) و(Tediccio Lamberti Ugocime) و(Conrad de Castro) تنظم علاقات إفريقية التجارية مع الدول الثلاث وكانت مددها أربعين سنة مع البندقية، وثلاثين سنة مع بيزا، وعشر سنوات فقط مع جنوة^(٢)، كما أن هنالك عدة دلائل تشير إلى أن تجار مدينة مرسيليا أيضاً كانوا يترددون على موانئ إفريقية بانتظام، إذ أن قوانين تلك المدينة المؤرخة في يناير سنة ١٢٢٩م / ٦٢٦هـ تنظم بيع الحبوب لفنادق مدينتي تونس وبجاية، كما أنها في سنة ١٢٢٣م / ٦٣٠هـ أوفدت (Guillaume Charvel) في مهمة تجارية إلى بجاية ثم عينته قنصلاً لها في تلك المدينة في نفس ذلك العام، وكان من أشهر من عرف من أهل مرسيليا بعلاقاته التجارية مع إفريقية بل والمغرب العربي بأسره عائلة (Manduel) التي سيطرت على تجارة مرسيليا مع المغرب العربي لمدة تزيد عن النصف قرن^(٣)، كما يمكننا القول بأن لاجندوق ومونيليه وناربونة كانت لها هي الأخرى وتقتد نشاطات تجارية مع إفريقية^(٤). وأما صقلية فقد توثقت العلاقات بين أبي زكريا الأول والإمبراطور فردريك الثاني، فأرسل الإمبراطور في سنة ١٢٣١م / ٦٢٩هـ قنصلين إلى تونس هما (Henricus Abbas) و(Peter Capuanus)^(٥)، ثم عقدت في سنة ١٢٣٩م معاهدة بين الطرفين هي التي سبق أن تعرضنا لها. وقد أتاح الاستقرار السياسي الذي نعمت به إفريقية في عهد الأمير المذكور الفرصة للتبادل التجاري بينها وبين الدول المسيحية للنمو باضطراد حتى بلغت أوج نشاطها في عهد ابنه وخليفته المستنصر الأول^(٦)، وإذا كان هذا النشاط قد توقف لفترة بسيطة إبان

R.Brunschvig : Op. Cit., Tom I,p. 435-9.

(١) لمزيد من التفصيل عن ذلك انظر :

R.Brunschvig : Ibid, Tom I,p.27-9.

(٢) لمزيد من التفصيل عن ذلك انظر :

Gisele Chovin : Op. Cit., p.274.

(٣) لمزيد من التفصيل عن ذلك انظر :

R.Brunschvig : Ibid, Tom I,p.29

(٤)

G.P. Guttuno : English Diplomatic Administration, 141,

(٥) انظر :

Thomas C.V. Celve : Op. Cit., p. 271., N. Daniel : Op. Cit., p. 162-3.

(٦) لمزيد من التفصيل انظر : C.E. Dufourcq : Op. Cit., p. 93-99, R.Brunschvig : Op. Cit.,

حملة لويس التاسع عشر على تونس سنة ٦٦٩هـ / ١٢٧٠م فإنه لم يلبث أن استؤنف كما سبق ذكره. وبالرغم من أن إفريقية شهدت عصراً من الفوضى والاضطراب السياسي بعد وفاة المستنصر الأول، إلا أن هذا النشاط التجاري الذي دخل التجار القطلان رعايا مملكة أرغونة طرفاً نشطاً فيه منذ بداية الربع الأخير من القرن السابع الهجري (الثالث عشر للميلاد)^(١) لم يتوقف، يدل على ذلك كثرة المعاهدات التجارية التي عقدت بين سلاطين بني حفص والدولة المسيحية ثم المراسلات بين الطرفين التي سبق أن تعرضنا لبعضها مما يخفي عن التفصيل الذي لن يتسع له هذا العرض الموجز.

وخلاصة القول، إن التبادل التجاري النشط بين إفريقية ودول جنوب غرب أوروبا بدأ مع بداية عصر الحروب الصليبية واستمر إلى ما بعد نهاية العصور الوسطى، وكانت أهم السلع التي تصدرها إفريقية إلى أوروبا في هذا التبادل هي التمور والملح والصوف والمرجان والرصاص والجلود والقش والشمع وزيت الزيتون والأسماك والسجاد، ثم منتجات قلب القارة الإفريقية كالذهب وريش النعام والعاج والرقيق، وتستورد في المقابل الحبوب عند الضرورة والبلور والخشب المصنوع والمعادن والأسلحة وبعض أنواع المنسوجات، ومن خلال هذه العلاقات التجارية المزدهرة تسربت العديد من مؤثرات الحضارة العربية الإسلامية إلى أوروبا، إذ وكما يقول الأستاذ الدكتور سعيد عاشور من الصعب الفصل بين التبادل التجاري والتبادل الفكري والثقافي^(٢) وبخاصة في تلك العصور، وإذا أضفنا إلى ذلك نشاط رهبان حركة التنصير في إفريقية، ذلك النشاط الذي غطى فترة طويلة من عصر الحروب الصليبية كما سبق أن ذكرنا، والذين لم يكونوا يقلون ثقافة بل وتخصصاً عن طلاب العلم الذين انتجعوا معبري الأندلس وصقلية، ثم الفئات الأخرى من الأوروبيين الذي قضوا في إفريقية فترات من حياتهم سواء طالت تلك الفترات أو قصرت مثل الحرس المسيحي في البلاط الحفصي وأسرى الحروب وبصفة خاصة نتيجة لنشاط غزاة البحر

Torn I,p.42-53.

R.Brunschvig : Op. Cit., Torn I,p.63-64

C.E. Dufourcq : Op. Cit., p. 422-448.

(١) لمزيد من التفصيل انظر

(٢) د. سعيد عاشور أوروبا العصور الوسطى، ج١، ص ٢٨ .

المسلمين وما يقابلهم من أسرى مسلمي إفريقية الذين كانوا يؤخذون إلى أوروبا، ثم أعضاء المنظمات التي تخصصت في فداء الأسرى الذين كانوا يتوافدون إلى إفريقية باستمرار، وأخيراً أقارب جوارى سلاطين وأمراء بني حفص وأكابر رجالات دولتهم كما سبق ذكره، لأدركنا أن اتصال الأوروبيين بإفريقية كان وثيقاً خلال ذلك العصر مما جعلها تكون معبراً حضارياً مباشراً وتصبح بذلك المعبر الرابع من معايير الحضارة العربية الإسلامية إلى أوروبا، والذي تنجلي أهميته في النواحي التالية : الاقتصادية، والثقافية، والاجتماعية.

أ - الناحية الاقتصادية :

شهد الاقتصاد الأوروبي في عصر الحروب الصليبية طفرة كبيرة نتيجة لازدهار التجارة بين أوروبا الغربية والمسلمين لا سيما في إفريقية والمشرق شملت جميع نواحيه، الأمر الذي أحدث تغييرات جذرية في مجتمع غرب أوروبا ودفعت بهذا المجتمع دفعة قوية نحو التحرر من قيود العصور الوسطى وجعلته يسير بخطى حثيثة للتقدم الذي تمخض عن النهضة الأوروبية الحديثة. فقد أدى ازدهار التجارة إلى ازدياد الثروة في يد التجار الأمر الذي أدى بدوره إلى بروز الطبقة الوسطى. ولم تلبث هذه الطبقة أن أخذت تناضل من أجل الحصول على امتيازات تتناسب وإمكاناتها المادية ضد طبقة النبلاء التي كانت تملك الامتيازات دون أن يكون لدى الكثير من أبنائها مثل تلك الإمكانات بسبب نظام الوراثة الذي كان يمتنع الابن الأكبر كل شيء ويترك باقي الأبناء صفر اليدين من ناحية، ثم لإفلام العديد من هؤلاء بسبب صرفهم على الحملات الصليبية من ناحية ثانية، هذا النضال الذي دخل فيه الملوك الذين كانوا هم الآخرون يرغبون في التخلص من نفوذ النبلاء، دخلوا طرفاً ثانياً إلى جانب التجار، والذي أسفر عن انهيار نظام الإقطاع، وانهيار هذا النظام وازدياد سلطة الملوك أدى إلى ضعف نفوذ البابوية، إذ بخروج الملوك أقوى من صراعهم مع النبلاء والإقطاعيين بدأت فكرة الدولة القوية التي يقف على رأسها ملك قوي تتضح في أذهان الأوروبيين الذين لمسوا الفرق الشاسع بين هذه الدولة وما كان في السابق من إمارات إقطاعية متعددة ومتنازعة، فأصبح الناس يشعرون بأن مثل هذه الدولة ضرورية للحياة الآمنة المستقرة، فكان هذا التأييد الشعبي للملوك عاملاً هاماً في ازدياد نفوذهم مما جعل البابوية لا

تقرى على مناوأتهم. وأدى تركيز التجار في المدن إلى اجتذاب الصناع والحرفيين إلى تلك المدن، فقد وجد التجار في إنتاج هؤلاء سلعة رابحة فشحجهم على زيادة إنتاجهم الأمر الذي كان له أثر فعال في ازدهار الصناعة. وكما اجتذبت المدن الصناع والحرفيين، اجتذبت أيضاً الرقيق وأتقان الأرض الذين كانوا يجدون فيها الحرية والحياة الكريمة التي كانوا يحلمون بها حيث رحبت تلك المدن بهجرة هؤلاء إليها لأنهم كانوا يزيدون من قدراتهم الإنتاجية ثم الدفاعية في نضالها ضد الإقطاعيين، فأدى ذلك إلى نمو تلك المدن وازدهارها المستمر، ومن رحاب هذه المدن انبثقت النهضة الأوروبية الحديثة، فهي التي أسست الجامعات واحتضنت العلوم والفنون ورجال الفكر والثقافة. وبتجمع هذا الخليط من الناس في هذه المدن ظهرت النقابات الحرفية (Gilds) إذ انتظم أصحاب كل مهنة في نقابة لحماية مصالحهم^(١). ولم يكن لازدهار المدن أية آثار سلبية على الزراعة، بل العكس هو الصحيح إذ كانت حافزاً قوياً للفلاحين لزيادة إنتاجهم، ذلك أن سكان المدن أخذوا يعتمدون على الرفيف في مذهبهم بحاجتهم من الغذاء، مما حفز الإقطاعيين على إلغاء السخرة واعتماد الإيجار النقدي لزيادة الإنتاج.

ولم يقتصر أثر التجارة على ذلك، وإنما تعداه ليؤثر بشكل مباشر في رأس المال الأوروبي، فكان أولاً أن ظهر رأس المال التجاري مستقلاً عن رأس المال الزراعي، ذلك أن الأرض كانت في السابق هي أساس الثروة وهي وحدها رأس المال، وكان المال السائل في ذلك الوقت متعطلاً، فكبار الملاك من الدنوبيين والكنسيين الذين تركز في أيديهم ما كان يجري التداول به من مبالغ قليلة، لم يكن بوسعهم استثمار ذلك المال، وإن كانت بعض الأديرة تفرضه بالربا للنبلاء الذين كانوا يحتاجون إليه إبان الأزمات، ولأن القانون الكنسي يحرم ذلك، كانت هذه الوسيلة للاستثمار مؤقتة، والقاعدة العامة كانت هي اختزان المال أو تحويله إلى أوعية وحلي للكنيسة، فإذا ما دعت الحاجة إليه أعيد صهره من جديد^(٢)، فقام التجار بإطلاق هذا المال المجدد وأعادوه إلى وظيفته الصحيحة، فأخذوا يستثمرونه في

(١) جيمس وستفال تومسون وآخرون : حضارة عصر النهضة، ص ٢٠ - ٢١.

(٢) د. السيد الباز العربي : الحضارة والنظم الأوروبية في العصور الوسطى ص ٢١٠.

التجارة، وبذلك ظهر أنه قابل للنمو والزيادة، فأصبح رأس المال التجاري مستقلاً عن رأس المال الزراعي، كما أصبحت التجارة مصدراً آخر من مصادر الثروة. ثم لم يلبث أن برز بعد ذلك رأس المال الصناعي، فقد كان الغرض من الإنتاج الصناعي قبل ذلك الوقت هو توفير اللازم من المواد المصنعة للاستهلاك المحلي وليس للبيع في الأسواق الخارجية، ولكن التجار وجدوا في المنتجات الصناعية سلماً رائجة فجمعوا الصناع على زيادة إنتاجهم، فأصبح عمل هؤلاء مقتصرأ على إنتاج بضائع للبيع، في حين كانت الزراعة والصناعة من قبل مهنتين متداخلتين^(١)، فكان هذا التطور هو بداية التخصص الصناعي المستمر إلى الوقت الحاضر، وهو الذي يمثل القوة الهائلة في الإنتاج. وكانت المصنوعات تصنع في السابق تلبية لتكليف خاص، فأصبحت تصنع لتباع حسب العرض والطلب، فظهرت الرأسمالية الصناعية تبعاً لذلك لتمويل الحصول على المواد الخام وتسويق المنتجات المصنعة. ومضى رأس المال الصناعي في النمو حتى استقل بذاته عن رأس المال التجاري، وكانت هذه التغييرات التي طرأت على رأس المال هي من أهم العوامل التي دفعت بالاقتصاد الأوروبي إلى الأمام كما كانت في الوقت ذاته هي التربة التي نبتت فيها بذرة الاستعمار الأوروبي الحديث، إذ كان الحصول على المواد الخام اللازمة للصناعة والوصول إلى أسواق جديدة لتصريف الإنتاج أهم دوافع هذا الاستعمار.

ولمواجهة متطلبات هذا النشاط الاقتصادي المتزايد، بدأ التجار يستعملون طريقة التعاقد الكتابي حفظاً للحقوق، وهي طريقة نقلوها عن المسلمين، واختفت المحاكمات التي كانت شائعة في عصر الإقطاع كالمبارزة والكي بالنار لتحل محلها المحاكم التجارية التي تنظر في خصومات التجار على ضوء العادات والتقاليد التي اصططلحوا عليها والتي تطورت لتصبح فيما بعد قواعد قانونية في القانون التجاري^(٢)، كما بدؤوا في استعمال الصكوك (الشيكات Cheques) والسفانج (الحوالات Bills of Exchange) وهي نظم إسلامية^(٣)، وظهرت المصارف والبيوتات المالية واتخذت لها فروعاً في إفريقيا والمشرق وأصبحت

(١) ج. كرامب، أ. جاكوب: تراث العصور الوسطى، ج ٢، ص ٦١٦.

(٢) د. السيد الباز العربي: الحضارة والنظم الأوروبية في العصور الوسطى، ص ١٢٩.

(٣) روم لاندو: الإسلام والعرب، ص ١١٦.

تساعد التجار في عقد الصفقات التجارية وتقبل الودائع وصرف الشيكات وإقراض الأموال للعملاء^(١). وقد لمت في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر للميلاد) عدة أسماء من التجار الذين كانوا يتعاملون مع إفريقية في هذا المضمار منهم آل أكياولي (Acciaiuoli) وبروجي (Pernuzi) من فلورنسة الذين فتحوا في تونس وكالات مستقرة^(٢). كما ظهر نوع من الشركات التجارية لم تكن معروفة من قبل كانت الأصل الذي انبثقت عنه الشركات المساهمة فيما بعد، ومع أنه لم يعرف بالتجديد متى نشأت هذه الشركات في أوروبا، إلا أنه يعتقد أنها تطورت لعملية المشاركة في السفن التي ظهرت في جنوة في القرن الثاني عشر^(٣)، ولما لم يكن هذا النوع من المشاركة معروفاً قبل الحروب الصليبية، فأغلب الظن أن التجار الإيطاليين نقلوه عن المسلمين، إذ تطورت عملية المشاركة في السفن إلى أن أصبحت مشاركة في التجارة نفسها، وهي ما سمي (Compagnia)^(٤)، وكانت في البداية تتم بين الأقارب ثم تعدت الأقارب للآخرين، وتقوم هذه المشاركة على أساس إسهام جماعة من التجار في رأس مال تجارة معينة وأن يمهّلوا لأحدهم أو لبعضهم بالسفر وقيم الباقيون في أرض الوطن، ويتفق الشريك المقيم مع الشريك المسافر على نسبة من الربح أو نسبة معينة من الفائدة على رأس ماله، وفي الحالة الأولى يكون شريكاً مساهماً أو حامل أمهم، أما في الحالة الثانية فيكون شريكاً دائماً أو حامل سندات، والنوع الأول هو أصل الشركات المساهمة، وأشهر الأمثلة لهذا النوع من الشركات كان مصرف سانت جورج في جنوة الذي تأسس سنة ١٤٠٩م، كما طبقت هذه الفكرة في صناعة الحديد في ليون سنة ١٤١٥م^(٥).

ولسنا نزعم بطبيعة الحال بعد هذا العرض السريع للتطورات التي جددت على الاقتصاد الأوروبي في عصر الحروب الصليبية، بأن هذه التطورات إنما كانت نتيجة لاتصال الأوروبيين بإفريقية فقط، ولكن مما لا شك فيه هو أن التبادل التجاري مع إفريقية الذي سبق

(١) ج. كرامب، أ. جاكوب: المرجع السابق، ج٢، ص ٦٢٢.

(٢) شارل أندري جوليان: المرجع السابق، ج٢، ص ١٩٦.

(٣) ج. كرامب، أ. جاكوب: المرجع السابق، ج٢، ص ٦٢٢ وما بعدها.

(٤) د. السيد الباز المريني: الحضارة والنظم الأوروبية في العصور الوسطى، ص ١٢٨.

(٥) ج. كرامب، أ. جاكوب: المرجع السابق، ج٢، ص ٦٢٤.

أن أشرنا إليه قد أسهم بنصيب فيه، وعلاوة على هذه المساهمة، فإن إفريقية قد انفردت بجوانب أخرى من هذا التأثير، ذلك أن الغنيمة الضخمة التي حصلت عليها كل من جنوة وبيزا نتيجة للحملة على المهديّة سنة ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م في ذلك الوقت المبكر من تاريخ نشاطهما التجاري قد وفر لكلا المدينتين جزءاً لا يستهان به من رأس المال الذي باشرنا باستثماره في التجارة سواء في السلع التجارية أو في إنشاء سفن جديدة وتوظيف بحارة جدد دعمتا بكلّهما أسطوليهما التجاريين فضلاً عن تنفيذ بعض المشاريع الكبرى في كلا المدينتين، كما أن رجاء الثاني والإمبراطور فريدرىك الثاني من بعده قد كسبا أرباحاً كبيرة من تجارتها مع إفريقية خاصة تجارة القمح كانت السبب في تدعيم اقتصاد مملكة الصقليتين في عهد كلا العاهلين وثباته وعدم تأثره بالأزمات، وظل اقتصاد هذه المملكة تبعاً لذلك يتمتع بمكانة مرموقة في أوروبا حتى انقضاء عهد الهوهنشتاوفن، وقد أمدت الغرامات الحرة من جراء الحملات الصليبية والأتاوات والخصص من عائدات الجمارك والموائى في إفريقية خزائن الدول الأوروبية التي استفادت منها بمصدر جديد للمال خاصة صقلية وأرغونة الأمر الذي كان له أثره بلا شك على اقتصادهما، وقد أسهمت الغنائم والفدية التي حصلت عليها جنوة حين حملتها على طرابلس الغرب سنة ٧٥٥هـ / ١٣٥٤م في إنقاذ اقتصادها من الانهيار بعد هزيمتها الساحقة أمام البندقية قبل تلك الحملة بفترة وجيزة كما سبق أن أسلفنا فضلاً عن أن إفريقية أصبحت المتنافس الهام لتجارة جنوة بعد حرمانها من سوق المشرق بسبب تلك الهزيمة وينطبق نفس القول على نتيجة حملتها على جربة سنة ٧٩٠هـ / ١٣٨٨م. هذا بالإضافة إلى أن صوف إفريقية الخام الذي كانت تنقله جنوة وبيزا إلى الأراضي المنخفضة كان يسد جزءاً لا يستهان به من حاجة مصانع النسيج في بروج من هذه المادة إلى جانب الصوف الإنجليزي.

وقد أسهمت إفريقية بدور فعال في إعادة استعمال الذهب في النقد في أوروبا، ذلك أنه بعد انهيار الإمبراطورية الرومانية اختفى النقد الذهبي من غرب أوروبا إلى حد بعيد، ومنذ بدء الفتحوات الإسلامية في غرب البحر الأبيض المتوسط وحتى بداية عصر الحروب الصليبية كان الذهب لا يستعمل في النقد في أوروبا الغربية باستثناء الأندلس وصقلية

الإسلاميتين إلا في أضيق الحدود، وكانت النفود الفضية هي الشائعة في تلك المنطقة، نظراً لقلة الذهب، ومنذ بداية اتصال نورمان صقلية بمسلمي إفريقية ظهرت حاجتهم للنقد الذهبي لكسب ثقة التجار المسلمين كما جرى الأمر بالنسبة للإمارات الصليبية في المشرق، وكلما ازداد حجم التبادل التجاري بين إفريقية وصقلية الثورمانية اشتدت الحاجة لهذا النوع من النقد، فكان أن سك رجار الثاني عملته الذهبية سنة ٥٣٥هـ / ١١٤٠م، وعقب احتلاله لساحل إفريقية وحرصاً منه على تنشيط حركة التجارة بين شطري مملكته، قام بضرب دنائير ذهبية في المهديّة والتي كانت تقليداً للدنائير الفاطمية فكانت إسلامية الصيغة والوزن والطراز، واقتضى ابنه وخليفته وليام الأول أثره في ذلك فضرب هو الآخر في المهديّة عملة مشابهة^(١)، وتلاهما بعد ذلك الإمبراطور فردريك الثاني حيث أصدر نقوداً ذهبية لمواجهة متطلبات الحركة التجارية النشطة بين صقلية وإفريقية في عهده، ثم قلّدت فلورنسة فسكت عملتها الذهبية المسماة الفلورين في سنة ٦٥٠هـ / ١٢٥٢م، وسك لويس التاسع الليرة الذهبية سنة ٦٦٥هـ / ١٢٦٦م، والبندقية سنة ٦٨٢هـ / ١٢٨٣م، وبذلك شاع استعمال هذا النقد في أوروبا وأصبح هو أساس التعامل من جديد مما جعل الاقتصاد الأوروبي يصبح قائماً على النقد، وبذلك استكملت أوروبا أساس التي قام عليها اقتصادها المتين.

وبالإضافة إلى ما تقدم، فإن وجود الأسرى من كل طرف في بلاد الطرف الآخر طوال هذا العصر عاد على أوروبا بفوائد كثيرة، ذلك أن الأسرى من مسلمي إفريقية الذين كان يأخذهم الصليبيون أو يتخطفهم القراصنة في هجماتهم كانوا يباعون في أسواق الرقيق في أوروبا فكانوا يسخرون في أعمال الفلاحة أو الصناعة، فبالإضافة إلى أنهم كانوا يوفرّون أيد عاملة مدريّة كل في مجال اختصاصه رخيصة التكاليف مما يزيد في القدرة الإنتاجية، كانوا يدربون المحيطين بهم على طرق ووسائل متقدمة في أعمال الفلاحة والصناعة فضلاً عن إسهامهم في نقل صناعات وفنون صناعية جديدة، وأما الأسرى الأوروبيين الذين كانوا يؤخذون إلى إفريقية فكانوا هم الآخرون يتعلمون من المسلمين حتى إذا ما عادوا إلى بلادهم نشروا ما تعلموه بين مواطنيهم، فكان لذلك أثره بلا ريب على الاقتصاد الأوروبي فضلاً عن

(١) لمزيد من التفصيل عن هذه العملة انظر حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق، ص ٤٥١ - ٤٥٢ .

ونتيجة لهذا الاتصال الطويل والمباشر بين الأوروبيين ومسلمي إفريقية، تعلم الأوروبيون بعض الصناعات ونقلوها إلى بلادهم، فقد نقل أهل بيزا صناعة الشمع من بجاية إلى بلادهم ومنها انتقلت صناعه إلى البلدان الأوروبية الأخرى، ولا يزال مسمى الشمع عندهم هو بوجي (Bougie) وهو اسم بجاية في نطقهم الإفرنجي^(١)، كما يعتقد أن بعض الفنون الصناعية^(٢) قد تسربت إلى أوروبا من خلال هذا الاتصال مثل صناعة بعض أنواع الخزف الذي اشتهرت به إفريقية، وبعض أماليب الحفر على الخشب والتكفيت والتطعيم والكتابة المذهبة على الجلد بواسطة أداة محماة وغيرها. ثم بعض الصناعات المتعلقة بالملع الاستهلاكية كدباغة الجلود بأماليب لم تكن معروفة في أوروبا من قبل، والصباغة ومزج الألوان اللازمة لها بوسائل كيميائية تثبتها على النسيج واستحداث ألوان أخرى جديدة، ثم تطهير بعض أنواع العطور، وصناعة الزراي الرفيعة المستوى، وهي صناعة اشتهرت بها إفريقية من بين أقطار المغرب الإسلامي، إلى غير ذلك.

ب - الناحية الثقافية :

من الثابت أن احتكاك الأوروبيين بالمسلمين منذ بداية عصر الحروب الصليبية كان له أثر فعال في فتح أعين الأوروبيين على ماكانوا فيه من تخلف، وجعلهم يضيقون بتزمت الكنيسة التي حصرت تفكيرهم داخل إطار ضيق، مما جعلهم يأخذون في التطلع إلى حياة علمية وفكرية أخصب وأوسع أفقاً وأكثر تنوعاً، فولوا وجوههم شطر حضارة أعدائهم المسلمين، وأقبلوا على دراسة علومهم في شراهة بالغة وحماسة كبيرة، على أن استفادتهم من خلاصة الفكر العربي الإسلامي لم تتم إلا عن طريق حركة ترجمة واسعة، عكف فيها فريق من المستعربين على نقل الكثير من المؤلفات العربية إلى اللاتينية، وبذلك تمكن أهل

(١) انظر عبد الرحمن الجيلالي : المرجع السابق، ج ١، ص ٣٨٤ .

(٢) الفنون الصناعية هي جميع المنتجات المصنوعة بطرق يدوية وتكون مشربة بروح الفن الجميل مثل الزجاج الفني والخزف والتجارة والصباغة والتكفيت والتطعيم وغير ذلك (انظر غوستاف لوبون : المرجع السابق، ص ٣٣٧).

أوروبا الغربية من الاستفادة مما أنتجته قرائح العرب المسلمين على نطاق واسع^(١)، ومن هذا المنطلق يمكننا القول بأن إفريقية تميزت بدور طليعي في حركة نقل العلوم العربية الإسلامية إلى أوروبا، فمنها وصلت الخرجة الأولى من تلك العلوم إلى أوروبا عن طريق واحد من أوائل هؤلاء المستعربين الذي اضطلعوا بهذا الدور ومن أكثرهم شهرة، وإليها ينسب، هو قسطنطين الإفريقي Constantinus Africanus الذي فتح بجهوده عصر ترجمة العلوم العربية الإسلامية إلى اللاتينية.

ولد قسطنطين الإفريقي في قرطاجة سنة ٤٠٦ هـ / ١٠١٥ م وكانت آنذاك قرية صغيرة، وتلقى علومه الأولى في مدينة تونس، ثم انتقل بعد ذلك إلى القيروان التي كانت وقتئذ في أوج مجدها الحضاري، فأقام بها مدة طويلة يأخذ عن علمائها حتى لقى علوم العربية والرياضيات والطب والفلك، وتزعم العديد من المصادر المسيحية والتي استقت معظم معلوماتها عنه من المصنف الذي وضعه بطرس الشماس Peter the Deacon أحد رهبان دير مونت كاسينو عن حياة قسطنطين وأعماله، أن قسطنطين رحل من القيروان إلى مصر ومنها إلى الشرق ليدرس علوم المنطق والرياضيات والفلك والروحانيات والموسيقى وعلم النفس عند الكلدان والعرب والغرس والهنود، وتورد قصصاً تخفي على شخصيته هالة مزجت فيها البطولة بالغموض والتشويش كما هو دأبها حين تعرضها لسير من تعتبرهم أبطالاً للمسيحية بحيث تخفي في ثنايا هذا التمجيد الأبعاد الحقيقية للشخصية التي تؤرخ لها، ومن أغرب ما تنسبه هذه المصادر لقسطنطين أنه وصل إلى الهند ثم سافر منها إلى أثيوبيا لاستكمال دراسته فيها^(٢)، ولا يمتعنا بطبيعة الحال قبول هذه المزاعم التي تعتبر في عداد الأساطير ولا تدخل في نطاق التاريخ، ولكن ما هو ثابت تاريخياً أنه رحل إلى مصر شأنه في ذلك شأن العديد من طلاب العلم في المغرب الإسلامي، ومن غير المستبعد أن يكون قد رحل من مصر إلى العراق وبلاد الشام، وأياً كان الأمر، فإن ما ترمي إليه الأساطير التي أوردها هذه المصادر عن رحلاته هو إبراز جهوده في طلب العلم للتدليل على سعة

(١) انظر د. سعيد عاشور: المدنية الإسلامية ص ٥٩ - ٦٠ .

N.Daniel : Op. Cit., p.143.

(٢) انظر عن ذلك :

ثقافته، وهو أمر ثابت فعلاً إذ أن الكثير من الدلائل تشير إلى أنه اكتسب حصيلة علمية ممتازة، وبعد استكمال تحصيله العلمي عاد إلى بلده.

لم يشتغل قسطنطين بالعلم عند عودته، وإنما احترف التجارة، وبحكم طبيعة هذه المهنة كانت له صلات بصقلية وجنوب إيطاليا، وأثناء إحدى رحلاته إلى إيطاليا سعيًا وراء تجارته أتاحت له فرصة الاتصال بـجيزولف أمير سالرنو^(١) الذي حينما لمس سعة ثقافته أكرمه ورفع من شأنه، ورغب في إبقائه عنده إعجاباً بشخصيته وسعة علمه، ولكن قسطنطين رغب في العودة إلى بلاده، وتفيد روايات عديدة أنه بعد عودته أثار كراهية مواطنيه له دون أن تبدي أسباب ذلك^(٢)، وربما كان ذلك نتيجة للنشاط المشهور الذي بدأ بممارسه، ولم يطلق حبال هذا الوضع البقاء في إفريقية طويلاً، فغادرها إلى صقلية مصطحباً معه كنزاً ثميناً من الكتب العلمية، والتحق بأمير سالرنو الذي رحب به، وكان أن التحق بدير مونت كاسينو (Monte Cassino) كراهب أولاً ثم رئيساً له بعد ذلك. وفي ذلك الدير عكف على دراسة اللغة اللاتينية حتى أجادها، وبذلك اكتملت له عناصر المؤهلات التي ساعدته في إنجاز العمل الضخم الذي أهله لأن يتبوأ مكانته السامية في عملية نقل العلوم العربية الإسلامية إلى أوروبا، إذ أنه منذ ذلك الوقت بدأ في ترجمة الكتب العلمية التي أحضرها معه إلى اللغة اللاتينية، والتي تعتبر من أفضل إنتاج الترجمة العربية الإسلامية، وكان من أهم ما ترجمه عدد من الكتب الطبية التي تلقفتها جامعة سالرنو التي لم تكن آنذاك جامعة، وإنما مدرسة تعتمد الدراسة فيها على بعض كتب أطباء اليونان القدامى مثل هيبوقراط وجالين التي ترجم بعضها إلى اللاتينية في القرن السادس^(٣)، والتي كان كثير من المعلومات الواردة فيها متخلفة عما وصل إليه أطباء المسلمين، لذلك وبفضل هذه الكتب أخذت هذه المدرسة تنال شهرة واسعة في العلوم الطبية مما يجعله المؤسس الحقيقي لتلك المدرسة، وبناء على هذه الشهرة قصدوا المرضى للاستشفاء والطلاب للمدرسة، وواصلت نموها في ظل النورمان الذين أحاطوها بما أحاطوا به بقية

(١) حسن حسني عبد الوهاب وركات ق٣، ص ٣٩٣، أحمد توفيق المدني : المسلمون في صقلية وجنوب إيطاليا، ص ٢٠٠ .

(٢) انظر عن ذلك : N.Daniel : Op. Cit., p. 144.

(٣) انظر د. سعيد عاشور : الجامعات الأوروبية في العصور الوسطى، ص ٧٤ .

المؤتمرات والدراسات العربية من رعاية وتشجيع، لتصبح جامعة سالرنو الشهيرة فيما بعد، والتي ظلت زهاء قرنين تتمتع بشهرة واسعة في ميدان الطب^(١)، وكان من أشهر من قصدوا للاستشفاء في تلك الآونة روبرت جيسكارد النورماني في سنة ١٠٩٩م بعد أن أصيب بجراح في الحروب الصليبية^(٢). ومن مدرسة سالرنو شاعت تلك الكتب وتناقلتها الجامعات الأوروبية واحدة عن الأخرى، فمنها إلى جامعة نابلي، ثم إلى جامعة بادوا وهكذا راجت رواجاً كبيراً وظلت هي المعول عليها لمدة طويلة^(٣)، وعندما أدركته منيته سنة ١٤٨٠هـ / ١٠٨٧م كان قد ترجم ما يزيد عن اثنين وعشرين كتاباً من نفاث الكتب العلمية كانت الغذاء الفكري والعلمي للطبقة المثقفة في أوروبا لبضعة قرون.

إن جهود قسطنطين الإفريقي في نقل العلوم العربية الإسلامية إلى أوروبا جعلت إفريقية تحرز قصب السبق كمعبر لهذه العلوم، فقد سبقت معبري الأندلس وصقلية بمدة تزيد عن النصف قرن، فكان لتلك الجهود أثرها في تهيئة أذهان الأوروبيين لتقبل ميل العلوم الذي تدفق عليهم فيما بعد من مختلف المعابر. يقول الأستاذ الدكتور سعيد عاشور في وصفه لأهمية هذه الجهود : إنه كان لقسطنطين الإفريقي (فضل كبير على علم الطب في أوروبا)^(٤)، ويقول نورمان دانيال (N. Daniel) في ذلك : إن أعمال قسطنطين (كانت هي الجرعة الأولى من تأثير جسر الثقافة العربية على المعرفة الأوروبية)^(٥)، وأما توماس فان كليف (Thomas Curtiz Van Cleve) فيقول : (إنه ليس هنالك ثمة شك في أهمية قسطنطين في ازدهار الدراسات الطبية في سالرنو من خلال ترجماته عن العربية واليونانية)^(٦)، ويقول حسن حسني عبد الوهاب : إن أعمال قسطنطين (كانت المادة الأولى لتدريس

(١) انظر د. سعيد عاشور : المدنية الإسلامية، ص ١٦١ .

(٢) انظر د. سعيد عاشور : الجامعات الأوروبية في العصور الوسطى، ص ٧٤ .

(٣) شاخنت وبوزورث : المرجع السابق، ق ١، ص ١٢٥، حسن حسني عبد الوهاب : ورقاق في، ص ٢٨، ق ٣، ص ٣٩٣ - ٣٩٤، أحمد توفيق المدني : المسلمون في صقلية وجنوب إيطاليا ص ٢٠٠ - ٢٠١ T.C.Cleve : Op. Cit., p. 287, N.Daniel : Op. Cit., p.144

(٤) د. سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ج ٢، ص ١٤٩ .

N.Daniel : Ibid, p. 263.

(٥)

Thomas C. V. Cleve : Ibid, p. 288

(٦)

تقنيات وطرق لا يملكها في ذلك الوقت إلا المسلمين^(١). وتزداد أهمية إفريقية كمعبر حضاري إلى أوروبا بقدر أكبر فيما إذا علمنا أن الغالبية العظمى من الكتب التي قام قسطنطين الإفريقي بترجمتها، إنما كانت من إنتاج قرائع علماء القيروان مثل أحمد بن الجزاري، وإسحق بن عمران، وإسحق الإسرائيلي، وأبي الحسين بن أبي الرجال كما سيأتي ذكره، ولم يعرف له ترجمة كتب لغبر علماء القيروان إلا كتاباً واحداً في الطب هو (الكتاب الملكي) أو (كامل الصناعة) كما يدعى أحياناً لعلي بن العباس المجوسي، ومن غير المستبعد أن يكون قد استنسخه من القيروان أيضاً لأنه كان معروفاً بها.

وأما ما يؤخذ على قسطنطين الإفريقي من أخطاء في الترجمة فإن ذلك ليس بالأمر المستهجن في ترجمة كتب علمية محضة جافة المادة في ذلك العصر، وربما كان ذلك يعود إلى أنه قد يكون قام بترجمة الكتب التي ظهرت فيها هذه الأخطاء ولم يكن قد تمكن من اللاتينية بعد، أو ربما رغب في تبسيط مصطلحاتها لتيسير فهمها في ذلك العصر الذي ندرت فيه الثقافة في أوروبا فوقع فيها، وأما كونه قد نسب تلك الكتب لنفسه فلعل السبب في ذلك يعود إلى أنه كان يخشى إذا نسبها لأصحابها المسلمين أن يحول التعصب المسيحي دون اهتمام الناس بها بل وربما محاربتها وبالتالي عدم انتشارها، فكانت نسبتها إليه كراهب من دير مونت كاسينو تفتح أمامها الأبواب ويقبلها الناس القبول الحسن ويتفهمونها^(٢). وعلى أية حال فإن كلا هذين المأخذين لا يقللان من أهمية هذه الجهود، إذ أن أوروبا أفادت منها فائدة كبيرة. وما تجدر الإشارة إليه في هذا المقام هو أن الدراسات قد كشفت عن جانب هام آخر من جوانب شخصية قسطنطين هو ميوله الصليبية، فبالإضافة إلى أنه كان المخطط والموجه للحملة الصليبية التي وجهت إلى المهدية سنة ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م كما سبق ذكره، كان يسعى إلى تسخير العلم والمعرفة لخدمة الحركة الصليبية، فقد كان أول من نادى بضرورة الاطلاع على ثقافة المسلمين لزيادة المعرفة بهم وبالتالي تسهيل مهاجمة معتقداتهم، وكان يرى أن أفضل وسيلة لذلك هي تعلم اللغة العربية، لهذا كان يحث رهبان دير مونت كاسينو دائماً على

(١) حسن حسني عبد الوهاب : ووقات ق ٣، ص ٣٩٤ .

(٢) انظر شاخت وبوزورث : المرجع السابق، ق ١، ص ١٢٥ .

تعلمها بل إنه كان يقوم بتدريسها لهم بنفسه، فكان بذلك قد وضع حجر الأساس لفكرة الصليبية العلمية التي سعى رامون لول وأمثاله لتحقيقها بعد ذلك.

ولم يقتصر أثر قسطنطين الإفريقي على الحركة العلمية في أوروبا على ما ترجمه من كتب، وإنما تعداها إلى جانب آخر هو تلمذة نخبة من علماء أوروبا على يده، حيث أخذوا عنه في فروع مختلفة من العلم والمعرفة والذين خطوا بالحركة العلمية الأوروبية خطوة واسعة نحو التقدم، ومن أشهر هؤلاء حنا فلافيوس (John Afflacijs) الذي بالرغم من القموض الذي يكتنف شخصيته شأنه في ذلك شأن أستاذه، لما نسج حوله من أساطير وما نسب إليه من خوارق، إلا أن من الثابت أنه ظل يؤثر في تلك الحركة تأثيراً قوياً طوال القرن الثاني عشر بأمره^(١)، ثم ألفانوس (Alfianus) الذي كان له هو الآخر أثر قوي على تلك الحركة، والذي دلت الدراسات الحديثة أنه تلمذ عليه بعكس ما كان يعتقد في السابق أنه لم يكن له علاقة بقسطنطين^(٢)، وبالرغم من أن العلوم العربية الإسلامية أخذت تسرب إلى أوروبا بعد قسطنطين من المعابر الأخرى، إلا أن ذلك لم يعطل معبر إفريقيا الذي استمر في أداء دوره وهو ما سنتناوله بشيء من التفصيل فيما يلي :

الطب والصيدلة :

كان كتاب (زاد المسافر وقوت الحاضر) الذي صنفه أحمد بن الجزار شيخ أطباء إفريقية في طليعة الكتب الطبية التي قام قسطنطين الإفريقي بترجمتها، ويحبر هذا الكتاب من أهم الكتب الطبية العلمية التي صنفها المسلمون، ويوجد منه حالياً عدة نسخ محفوظة في المكتبات الأوروبية والشرقية العمومية والخصوصية، منها المكتبة الوطنية بباريس وفي الجزائر ودرسدن بألمانيا وفي مكتبة بودليان بأكسفورد، ومكتبة هافانا بهولندا وفي رنبر بالهند^(٣). يقع هذا الكتاب في مجلدين ويتضمن عدة أقسام منها كتاب الملعدة، وكتاب العيون، وكتاب النبات الطبي، وكتاب الحمية للمرضى، وكتاب طبيعة الإنسان ووظائف

N.Daniel : Op. Cit., p. 263.

(١) انظر عن ذلك :

Thomas C.V. Cleve : Op. Cit., p. 287.

(٢) انظر عن ذلك :

N.Daniel : Ibid, p. 263.

(٣) حسن حسني عبد الوهاب : رقائق ق ١، ص ٢١٣ .

الأعضاء، وكتاب الحيوان وما إلى ذلك، وحينما ترجمه قسطنطين إلى اللاتينية سماه (Peragrinantis Viaticum) وتعني زاد المسافر، ومنذ ذلك الوقت شاع أمره في أوروبا وظهرت له عدة ترجمات، فبالإضافة إلى ترجمته اللاتينية، ترجم إلى اليونانية باسم (Ephodes) ويوجد من هاتين الترجمتين نسخ عديدة بمكتبات أوروبا، منها في المكتبة الوطنية بباريس، وفي المتحف البريطاني بلندن، وفي فلورنسا بإيطاليا، وأقدم هذه النسخ جميعاً هي تلك المحفوظة بمكتبة الفاتيكان بروما وتاريخها أواخر القرن العاشر للميلاد (الرابع للهجرة) أي بعد وفاة ابن الجزار بقليل. كما قام طبيب يهودي أندلسي يسمى موسى بن طيبون بترجمته إلى العبرية بعنوان (تزداد هاشم)، ويوجد من هذه الترجمة بضع نسخ في إيطاليا وإنجلترا^(١). كما أعيدت ترجمة بعض فصوله عدة مرات إلى لغات مختلفة وكتب عنه مقالات عديدة^(٢)، وكانت هذه الترجمات سبباً رئيسياً في شيوخ طريقة ابن الجزار في تشخيص المرض وأساليب معالجته وجعلها الطريق المعتمدة في أوروبا لمدة طويلة.

وبالإضافة إلى كتاب (زاد المسافر) قام قسطنطين بترجمة (كتاب المالتخوليا Melancolia) والذي ألفه الطبيب إسحق بن عمران، وهو في وصف أمراض الومواس أو المرض السوداوي، وطرق معالجته، وهو من أشهر كتب الطب الإسلامية التي تعرضت لهذا المرض، وقد قال ابن جليل في طبقاته: إنه (لم يسبق إلى مثله)، وقد راج هذا الكتاب في أوروبا رواجاً كبيراً، فكان أول كتاب طبي بأسلوب علمي يصل إلى أوروبا عن هذا المرض، وكان سبباً رئيسياً في القضاء على الأسلوب الذي كان متبعاً بها في معالجة هذا المرض بالذات والذي كان أكثر اعتماده على الخرافات وأعمال الشعوذة والتي ما كانت تزيد المريض إلا شقاء وطول معاناة دون ما شفاء. كما ترجم كتاب الحميات باسم (Liber de Febribus)، وكتاب البول باسم (Liber de Urinus)، وكتاب العناصر باسم (Liber de Elementis)، وكتاب الحنود والرسوم باسم (Liber de Definitionibus) وسبع مقالات أخرى في الطب وكلها من تأليف الطبيب إسحق بن سليمان الإمبراطلي، وقد طبعت الترجمة اللاتينية

(١) حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق ١، ص ٣١٣ - ٣١٤، كذلك أحمد توفيق المدني :

المسلمون في صقلية وجنوب إيطاليا ص ٢٠١ - ٢٠٢ .

(٢) انظر حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق ١، ص ٣١٤ .

لها في ليون سنة ١٥١٥م بعنوان (Opera Isaci)^(١) كما أعيد طبعها في مجلدين ضخمين بمدينة بال بسويسرا ما بين سنة ١٥٣٦ وسنة ١٥٣٩م، سمي الأول منهما باسم (Morborum Cognitione) والثاني (Opera Reliquat)^(٢)، ولم يكشف قسطنطين بترجمة كتب أطباء إفريقية بل ترجم قسماً من (الكتاب الملكي) أو (كامل الصناعة) لعلي بن العباس الذي كان مؤلفه قد أهدها إلى السلطان عضد الدولة البويهى، وهو في الطب العملي بين فيه طرق العلاج، والذي كان من أحسن ما وصفه فيه مرض الجدري وأسبابه الظاهرية والباطنية وطرق علاجه، أما قسطنطين فقد سمي ترجمته (Practica Pantegni)، وقد أعاد أسطفان الأنطاكي (Estienne D'Antioche) ترجمته فيما بعد، وكانت هذه الترجمة هي التي كشفت حقيقة قسطنطين بأنه مترجم وليس مؤلف.

ولم تكن جهود قسطنطين الإفريقي هي الوحيدة التي انتقلت من خلالها كتب أطباء القيروان إلى أوروبا، بل تلتها جهود أخرى، ففي سنة ٧٣٤هـ \ ١٣٣٣م قام قسيس إسباني يدعى أسطفان السرقسطي بترجمة كتاب آخر لابن الجزار إلى اللاتينية هو (كتاب الاعتماد) في الأدوية المفردة التي يعتمد عليها الأطباء في معالجة الأمراض، ويشتمل على أربع مقالات في (١٤٠) ورقة، وقد أطلق أسطفان على هذه الترجمة اسم (Pantegni) وسمى المؤلف (ابن زيزار)، وتوجد نسخة منها في مكتبة ميونخ بألمانيا، كما نقله موسى بن طيرون إلى العبرية أيضاً^(٣)، ويبدو أن كتاب الاعتماد هذا قد أحرز شهرة واسعة بين أطباء الأندلس بدليل هاتين الترجمتين اللتين تمنا في الأندلس، فضلاً عن تناول العديد منهم له بالشرح والتقد، فكان من أشهر من نقده منهم الطبيب عبد الرحمن بن إسحق بن الهيثم الأندلسي في كتابه المسمى (الاقتصاد والإيجاد في خطأ ابن الجزار في الاعتماد) الذي يحير في عداد المفقود، ولعل هذه الشهرة كانت هي السبب في إقبال الإسبان على ترجمته وبذلك يكون قد أفاد منه أطباء الأندلس ما بين مسلمين ونصارى ويهود.

(١) انظر حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق ١، ص ٢١٢ .

(٢) أحمد توفيق المدهني : المسلمون في صقلية وجنوب إيطاليا ص ٢٠١ .

(٣) حسن حسني عبد الوهاب : ورقات ق ١، ص ٣١٥ .

الفلك والهيئة :

يعتبر علم الفلك ومثله علم الهيئة من العلوم التي امتأثرت بنصيب كبير من اهتمام المسلمين وقدروه حق قدره، يقول ابن خلدون في الهيئة : (وهذه الهيئة صناعة شريفة... وإنه علم جليل وهو أحد أركان التعاليم)^(١)، ولعل اهتمام المسلمين بتعيين القبلة وتحديد أوقات الصلاة التي يؤدونها خمس مرات في اليوم، ثم تحديد منازل القمر الذي يرقبونه لصيامهم وعيد فطرهم، ثم معرفة بلادهم الواسعة كانت كلها حوافز قوية لهم للاهتمام بالفلك ودراسته دراسة سليمة، هذا إلى أن تقدمهم في العلوم الرياضية ساعد على تفوقهم في هذا العلم الذي عنوا به عناية عظيمة، تدل عليها المراصد العديدة التي انتشرت في مختلف أنحاء العالم الإسلامي والتي زودوها بمختلف الأجهزة والمعدات البالغة الدقة كقياس الارتفاع والاسطرلاب والمزولة وغيرها^(٢)، مكتتهم من إعداد الأزياج الفلكية الدقيقة، والتي سارت أوروبا على هداها مدة طويلة، وقد برز في إفريقية نخبة من علماء الفلك والهيئة تبرؤوا مكانة سامية بين علماء المسلمين نذكر منهم أمية بن أبي الصلت، وأبو الحسين علي بن أبي الرجال، ودونش اليهودي، وكان عثمان بن سعيد الصيقل قد تخصص في صنع الأجهزة والمعدات الفلكية كما سبق ذكره.

وفي ظل هذه البيئة كان لا بد أن يخص قسطنطين الإفريقي هذا العلم قدراً من عنايته خاصة وأنه عاصر بعض هؤلاء العلماء مثل ابن أبي الرجال وابن أبي الصلت وكان قريب عهد بالآخرين، لذلك فلا عجب أن قام بترجمة أحد الكتب الهامة في هذا العلم إلى اللاتينية هو (كتاب البارح في الفلك) لابن أبي الرجال، ويتضمن هذا الكتاب معلومات هامة عن الكواكب والنجوم والهيئة والتنجم^(٣)، ونظراً لأنه كان أول كتاب يصل إلى أوروبا في هذا العلم، فقد أحرز شهرة واسعة وظل يدرس في جامعاتها لمدة طويلة، وقد أعيدت ترجمته في بلاط قشتالة، ثم ترجمه بعض الإسبان مجدداً إلى اللاتينية للمرة الثالثة

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٤٠٧ .

(٢) د. سعيد عاشور : المدنية الإسلامية، ص ١١٠ - ١١١ .

(٣) اطلعت أثناء زيارتي لمكتبة بودليان باكسفورد على شرح وضعه ابن القنفذ القسطنطيني لهذا الكتاب قد حفظ في تلك المكتبة (مخطوط رقم HumL 192 / CMLXXI).

باسم De Fudiciis Astrorum^(١) الأمر الذي يدل دلالة واضحة على شدة عناية الأوروبيين به. ولا يغفرتنا أن نذكر مؤلفات أحمد بن يوسف التفاضلي القفصي في علم الفلك التي انتقلت إلى أوروبا وترجمت وظلت معتمدة عند علماء الفلك فيها إلى عهد قريب^(٢).

العلوم الرياضية :

اعتنى المسلمون بالعلوم الرياضية عناية بالغة، صحيح أنهم بنوا معارفهم في هذه العلوم على أساس من علوم اليونانيين والهنود^(٣)، إلا أنهم لم يلبسوا أن طوروها بجهودهم وأضافوا إليها من النظريات مالم يكن معروفاً من قبل، حتى فاقوا غيرهم من الأمم، وخطوا بها خطوات واسعة نحو الأمام حتى ظهر منهم علماء ميرزون مثل الخوارزمي (ت سنة ٩٤٤)، وثابت بن قرة (ت ٩٠١)، والبزجاني (ت ٩٨٨)، والحيام (ت ١١٣٢) في المشرق، ومسلمة المجرطي (ت ١٠٠٧) وتلميذه ابن السمع (ت ١٠٣٤) في الأندلس، وأمية بن أبي الصلت، وابن النمر الطرابلسي، وعبد المنعم بن محمد الكندي، في إفريقية، وما بعثهم على المهارة في هذه العلوم هو حل المسائل المعقدة في الميراث وهو ما يسمى بعلم الفرائض فضلاً عن شعورهم بالحاجة إليها في حياتهم اليومية بعد أن اتسعت رقعة بلادهم واحتكوا بغيرهم من الشعوب وتشابكت المصالح خاصة في أمور التجارة التي نهضوا بها نهوضاً لم يسبق له مثيل، ثم في أعمال الدواوين وتقدير الخراج وما إلى ذلك، وقد ظهرت فحة من الفقهاء الرياضيين تخصصت في الفرائض قاموا بتصنيف المؤلفات حسب آراء المذاهب المختلفة، يقول ابن خلدون في معرض حديثه عن هذا العلم : (وأما الفرائض العينية فكثيرة وقد ألف الناس في هذا الفن قديماً وحديثاً وأوعبوا ومن أحسن التأليف فيه على مذهب مالك رحمه الله كتاب ابن ثابت ومختصر القاضي أبي القاسم الحوفي وكتاب ابن النمر والجعدي والصردى وغيرهم)^(٤)، ومن المعروف أن من مستلزمات هذا العلم إتقان الحساب والجبر في

(١) انظر : N. Daniel : Op. Cit., p. 288، حسن حسني عبد الرهاب : وراقات ٣، ص ٣٩٤ .

(٢) انظر أبو القاسم محمد كرو، وعبد الله شريط : المرجع السابق، ص ٣٣ .

(٣) د. سعيد عاشور : المدنية الإسلامية ص ٩٧ .

(٤) ابن خلدون : المقدمة ص ٤٠٥ .

الدرجة الأولى، وأما الهندسة فقد خصها المسلمون بقدر كبير من الاهتمام يؤكد ذلك ما قاله ابن خلدون عنها : (وكان شيوخنا رحمهم الله يقولون ممارسة علم الهندسة للفكر بمثابة الصابون للشرب الذي يغسل منه الأقدار وينقيه من الأوضار والأدران)^(١).

ونظراً للعلاقات التجارية المستمرة بين إفريقية والعديد من الدول الأوروبية وبصفة خاصة المدن البحرية الإيطالية أدرك تجار هذه المدن تفوق تجار إفريقية عليهم في العمليات الحسابية اللازمة للأموال التجارية، وأن طرقهم في هذه العمليات أسهل بكثير من الطريقة المعقدة التي يتبعونها هم في أعمالهم، فلا عجب إذن أن يتوالى قدوم طلاب العلم والمعرفة من الأوروبيين على إفريقية لدراسة العلوم الرياضية فيها. وكان من أشهر من قصدها لهذا الغرض ليوناردو فيبوناتشي (Leonardo Fibonacci) أو ليونارد البيزي (Leonardo Pisano) كما يدعى أحياناً. ولد ليوناردو في مدينة بيزا (١١٧٠ - ١٢٤٠م) الإيطالية، وكان أبوه أحد تجار هذه المدينة الذين يترددون على إفريقية، وكان يميل إلى تعليمه أصول مهنته ليخلفه في تجارته، لذلك وبعد أن نال قسطاً من الثقافة في بلده اصططحبه أبوه في إحدى رحلاته إلى مدينة بجاية، وفيها عكف علي دراسة الرياضيات وبصفة خاصة الحساب على بعض علماء المسلمين، ثم تالت نفسه للمزيد فرحل إلى المشرق، فالتقى في مصر برياضي حذق علم الجبر تسميه المصادر المسيحية أبو كامل^(٢)، فلازمه مدة أغفلت هذه المصادر تحديدها، وإن كنا نحقد أنها لم تكن قصيرة، بل دليل الحصيلة الكبيرة التي اكتسبها منه في هذا العلم، ولا نستبعد أن يكون قد اتصل أيضاً أثناء إقامته في مصر بعلماء آخرين وسع بما أخذه عنهم من معارفه فيه بخاصة وفي العلوم الرياضية بوجه عام، وأياً كان الأمر فقد أخذ ليوناردو عن أبي كامل جوانب هامة في علم الجبر كحساب الأس والجلدور والمعادلات والتربيع والتكعيب^(٣)، ثم طاف ببلاد الشام وعاد بعد ذلك إلى بلاده وقد لقن العلوم الرياضية الإسلامية.

ومنذ عودته بدأ في تأليف كتبه الرياضية التي أحرز بها شهرته حتى اعتبر أول عالم

(١) ابن خلدون: المقدمة ص ٤٠٥ .

(٢) انظر د. سيجريد هونكه: شمس الله تسطع على الغرب، ص ٩٣ .

(٣) انظر د. سيجريد هونكه: المرجع السابق، ص ٩٣ .

رياضيات في أوروبا، والذي كان له أثر كبير على العلوم الرياضية فيها، فقد قدم للأوروبيين بهذا الحساب طرقاً في العمليات الحسابية أسهل بكثير من الطريقة المعقدة التي كانوا يعرفونها. وتوضح هذه السهولة إذا ما قارنا بين النظام العددي في علم الحساب العربي وبين النظام العددي اللاتيني الذي لم تكن أوروبا تعرف سواه، ذلك أن نظام الأعداد العربي الذي تعلمه ليوناردو يمكن أن تتغير قيمة الرقم الواحد فيه حسب وضعه في خانة الأحاد أو العشرات أو المئات أو الألوف وهكذا في حين أن قيمة الرقم في النظام اللاتيني لا تتغير بتغير خانته، فرقم (١) مثلاً لا يمكن أن يعني عشرة أو مائة أو ألف بل يبقى كما هو، وبناء على ذلك كان المرء إذا أراد أن يكتب رقم ٣٨٨ مثلاً بالأرقام اللاتينية كعبه على هذا الوضع (CCCLXXXVII)^(١)، ولنا أن تتصور مدى التعقيد الذي يصيب العمليات الحسابية من جمع وطرح وضرب وقسمة عند استخدام هذا النظام فكيف بالأعداد الكبيرة من الآلاف والملايين أو في الجداول الرياضية والمعادلات؟^(٢) كما أن وجود الصفر في النظام العددي العربي قد سهل ترتيب الخانات اللازمة في العمليات الحسابية الطويلة، إذ لولاها لاضطر كاتب الحسابات إلى إجراء عدة عمليات اختصرها وجود الصفر في عملية حسابية واحدة. وتعتبر كلمة (صفر) التي ترجمها ليوناردو (Ciphirum) هي الأصل للألفاظ الدالة عليه في اللغات الأوروبية، فهو (Cipher) و(Zero) في الإنجليزية، و(Chifferieen) في الفرنسية، و(Zeller) في الألمانية^(٣) وهكذا مما يدل دلالة واضحة على أثر ليونارد على علم الحساب في أوروبا. يضاف إلى ذلك ما أوجده علم الحساب العربي من تسهيل آخر باستعمال طريقة الإحصاء العشري ووضع علامة الكسر العشري اللذين هما من مبتكرات العرب المسلمين^(٤).

ومن الثابت أنه كانت هنالك محاولة لنقل النظام العددي العربي إلى أوروبا سبقت

(١) الأرقام اللاتينية هي: I = ١, V = ٥, X = ١٠, L = ٥٠, C = ١٠٠, D = ٥٠٠, M = ١.٠٠٠.

(٢) انظر د. سعيد عاشور: المدنية الإسلامية ص ٩٨ - ٩٩.

(٣) انظر د. سيجريد هونكه: المرجع السابق ص ٧٣، كذلك د. سعيد عاشور: المدنية الإسلامية ص ١٠١ - ١٠٢.

(٤) د. سعيد عاشور: المدنية الإسلامية ص ١٠١.

جهود ليوناردو فيبوناتشي هي تلك التي قام بها البابا سلفستر الثاني الذي كان قد تلقى علومه قبل اعتلائه كرسي البابوية في جامع القرويين بفاس، ولكنها كانت محدودة الأثر إلى حد بعيد، لأن ذلك البابا لم يدعمها بالتطبيق العملي الذي يوضح مدى الفائدة من استخدام هذا النظام في الحياة اليومية، لذلك ظلت هذه المحاولة محصورة في إطار التعليم الأكاديمي الضيق، لكن جهود فيبوناتشي هي التي أخرجت هذا النظام من ذلك الإطار الضيق وأعطته للممارسة العملية، وبذلك وصل بين العلم النظري والمنهج الاقتصادي، وبالتالي مسخره لمواجهة متطلبات الحياة التي كانت وقتها آخذة في التطور السريع، وبصفة خاصة أعمال طبقة التجار، وهذه الممارسة هي التي يسميها ابن خلدون بالمعاملات، فيقول عنها : هي (تصرف الحساب في معاملات المدن في البياعات والمساحات والزكوات ومائر ما يعرض فيه العدد من المعاملات بصرف في ذلك صناعتا الحساب في المجهول والمعلوم والكسر والصحيح والجنور وغيرها)^(١). ولذلك سرعنا ما أدخل علم الحساب العربي في المناهج التعليمية في المدارس، وأولاه الصرافون والمشتغلون بالأموال المالية عناية خاصة مما جعله ينتشر بين الأوروبيين وقد سار في البداية جنباً إلى جنب مع النظام اللاتيني، فظهرت كتب الحساب متضمنة لجداول الأرقام العربية إلى جانب الأرقام اللاتينية مع تراجم للألفاظ العربية المستعملة آنذاك. وبقي هذا النوع من الكتب معروفاً حتى أيام آدم ريزه في القرن السادس عشر حيث تغلب النظام العددي العربي في تلك الآونة وحل محل النظام العددي اللاتيني^(٢).

ولم تقتصر جهود فيبوناتشي على ما تقدم، بل إنه كان أول من أدخل علم الجبر والمقابلة إلى أوروبا^(٣). ويتجلى ذلك في مؤلفه في هذا العلم الذي قدمه إلى الإمبراطور فريدريك الثاني، إذ أنه حينما ذاعت شهرته كرياضي استدعاه ذلك الإمبراطور إلى بلاطه الذي كان يضم نخبة من علماء أوروبا في ذلك العصر مثل ميخائيل سكوت، وديميوس هيسبانوس عالم الفلك المعروف، وماجستير يوحنا اليرمي، وتيودور الأنطاكي وغيرهم فكان أن أُلّف رسالة في الجبر التكعبي أهداها للإمبراطور سنة ١٢٠٠م، وفي سنة ١٢٠٢م

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٤٠٤ .

(٢) د. سيجريد هونكه : المرجع السابق، ص ٧٤ وما بعدها.

(٣) انظر د. سعيد عاشور : المدنية الإسلامية ص ٥٩ .

ألف كتابه المسمى (La Liber Abbaci) الذي أملاه على ميخائيل سكوت الإنكليزي الآنف الذكر، والذي كان من مشاهير المهتمين بنقل العلوم العربية الإسلامية إلى أوروبا، ومن قاموا بترجمة العديد من كتبها إلى اللاتينية، وقد نشر ذلك الكتاب في نفس ذلك العام، وأعيد نشره سنة ١٢٢٨م، وفي سنة ١٢٢٠م ألف كتابه (La Practica Geometriae)^(١)، فأحرزت هذه المؤلفات شهرة واسعة في أوروبا، وراجت رواجاً كبيراً، وبدئ بتلويدها في الجامعات، وتناولها المهتمون بالعلوم الرياضية جيلاً بعد جيل بالدراسة والشرح والتحليل حتى ظل أثرها واضحاً في مؤلفات عصر النهضة، مثل أعمال المعلم يعقوب الفلورنسي (Master Jacob)، وحتى في مؤلفات ليوناردو دافنشي (Leonardo de Vinci)^(٢).

الفلسفة والفكر الديني :

من المعروف أن المسلمين خطوا بالعلوم الفلسفية خطوات واسعة نحو التقدم، وقد دفعهم إلى الاهتمام بهذه العلوم عوامل عديدة منها أنه كان من بين الأقاليم التي اختصرها ما كان يعتبر مراكز هامة للفلسفة مثل الاسكندرية وأنطاكية وحران وجنديسابور وغيرها، فكان على المسلمين أن يستوعبوا هذه العلوم للرد على أصحاب المعتقدات الأخرى المسلحين بها، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية أدى اهتمامهم بالطب والفلك لأن يسلمهم ذلك إلى الفلسفة إذ أنهما كانا فرعين من فروعها، وقد علل الأستاذ أحمد أمين ذلك بأن الطبيب يحتاج بالضرورة لمعرفة النباتات وخصائصها والعقاقير وما إليها وبالتالي فإنه يحتاج إلى المنطق لمعرفة الأقيسة والاستنتاجات الصحيحة في معالجة الأمراض، ومتى اتصل بذلك اتصل بجالن (جالينوس) وأفلاطون وأرسطو، فاتصل بالفلسفة اليونانية، ومن اشتغل بالفلك اتصل ببطليموس، ثم يرى نفسه بحاجة إلى رياضة دقيقة وهندسة عميقة، فيتصل بأقليدس وفيثاغورس ثم بأفلاطون وأرسطو^(٣). لذلك أقبل المسلمون على دراسة فلسفة الأمم التي سبقتهم من يونانيين وفرس وهنود، وامتدحوها وتناولوها بالشرح والنقد والتحليل وأضافوا

(١) انظر ألدوميلي : العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي، ص ٤٧٩ وما بعدها، كذلك : N.Daniel : Op. Cit., p. 295.

(٢) روم لاندو : الإسلام والعرب ص ٢٥١ وما بعدها.

(٣) انظر أحمد أمين : ظهر الإسلام، ج ٣، ص ٢٢٢.

إليها من آرائهم ونظرياتهم الشيء الكثير، وظهر منهم فلاسفة عظام مثل الفارابي (ت سنة ٨٥٠م) والكندي (ت ٨٧٣م)، وابن سينا (ت ١٠٣٧م)، وابن باجة (ت ٥٣٣هـ)، وابن طفيل (ت ٥٩١هـ) وابن رشد (ت ٥٩٥هـ) وغيرهم، أمدوا الفكر الأوروبي بنتائج فكرهم، فاثروا فيه تأثيراً كان من العمق بحيث قال عنه ترند : إن أعظم ما خلفه المسلمون للفكر الأوروبي هو أعمال فلاسفتهم^(١).

وكانت العلوم الفلسفية قد بلغت عصر الحروب الصليبية شأواً بعيداً، وحيث إن هذا العصر كان هو عصر انتقال الحضارة العربية الإسلامية إلى أوروبا، فلا عجب أن يقبل المفكرون والفلاسفة الأوروبيون على أعمال فلاسفة المسلمين ينهلون منها، ونخص من هؤلاء بالذكر أنصار الصليبية السلمية مثل رامون البنيافورتى، ورامون مارتى، وروجر بيكون، ورامون لول وغيرهم الذين أقبلوا على دراسة الدين الإسلامى والفلسفة الإسلامية بعمق لفهم الفكر الذي انبثق عن هذا الدين والتعرف إليه لتسهيل عليهم محاربته. ويعتبر رامون البنيافورتى من أوائل من أقبلوا على دراسة الفلسفة الإسلامية، وظهر أثرها جلياً في أعماله، وليس ذلك فحسب، وإنما أثر في العديد من المفكرين الأوروبيين مثل توما الإكويني، ورامون مارتى، ورامون لول، وأما رامون مارتى الذي قضى فترة طويلة من حياته في تونس يتعلم اللغة العربية وأستاذاً للدراسات الشرقية في المدرسة التي أسست بها كما سبق ذكره، فقد ظهر أثر الفلسفة الإسلامية بجلاء في كتابه (The Pugio Fide) الذي كان يتضمن دفاعه عن المسيحية ضد الإسلام واليهودية، وأما رامون لول، فهو أشهر هؤلاء جميعاً ومن أكثرهم تأثيراً في الفكر الأوروبي، لقد مكنته معرفته باللغة العربية من دراسة مؤلفات العديد من فلاسفة المسلمين ومتصوفهم، ولكنه تأثر أكثر ما تأثر بالفيلسوف والصوفي الأندلسي محيي الدين بن عربي، فقبس منه الكثير من آرائه، ويظهر ذلك بوضوح في كتابه عن أسماء الله الحسنى كما ذكرنا، وإذا كان قد تأثر بآراء عربي في تكوين العديد من آرائه ونظرياته، فإن اتصالاته ومناقشاته ومناظراته للمسلمين في إفريقيا خلال رحلاته الثلاث إلى تلك البلاد كان لها الفضل الأكبر في صقل هذه الآراء والنظريات، إذ أن تجربته

(١) انظر د. سميد عائور : المدنية الإسلامية ص ٨٦ .

العملية في تطبيقها والتي وضتها على الملح إنما كانت في إفريقية، وقد ظهر ذلك بوضوح في مؤلفاته التي ألّفها منذ عودته من رحلته الأولى، إذ أن تلك المؤلفات امتازت عن سابقتها بعمق النظرة وشموليتها ووضوح الهدف، وفيها أيضاً ألف كتباً نالت شهرة أوسع من العديد من مؤلفاته الأخرى. لقد اكتسب مشروعه الصليبي الذي ضمّه كتابه الشهير (النهاية Libre de Fine) في بعض جوانبه صفة عملية خاصة فيما يتعلق بإفريقية كطريق للحملة الصليبية التي اقترحها، وكان كتابه الذي ألفه في بداية في رحلته الثانية إلى إفريقية وسماه : (الخلاف بين رامون المسيحي وعمر المسلم Disputatio Raimundi Christiana et Homari saracani) عبارة عن سلسلة من المناظرات أبرز فيها جميع المسيحية ومميزاتها ودراسة مقارنة بين الديانتين الإسلامية والمسيحية بأسلوب جذلي فلسفي اعتمد فيه على علم المنطق، وأما كتابه (Libre de Majori Fine Intellectus Amoris et Homoris) الذي أهداه إلى قاضي تونس فكان يتضمن شرحاً للعقيدة المسيحية جاء أثر الفكر الإسلامي فيه واضحاً. فكانت هذه الكتب الثلاثة بصفة خاصة مراجع للمفكرين الأوروبيين الذين جاؤوا من بعده وتعرضوا لموضوع محاكمة غير الكاثوليك من أصحاب المعتقدات الأخرى والهرطقة، فأراؤه هذه التي سجلها في هذه الكتب ومثلاتها أو في مقالاته ورسائله العديدة أو نادى بها في محاضراته ودروسه التي ألقاها في مختلف الجامعات والمعاهد العلمية أو البيوتات التابعة للهيئات التصيرية أثناء تجواله في أوروبا لا سيما في باريس التي كانت في عهده المركز الرئيسي في أوروبا المسيحية للدراسات الفلسفية وعلوم المنطق واللاهوت قبلت بعناية كبيرة من الأوساط العلمية في أوروبا، فضلاً عن تلك التي ضمّنها تقاريره التي رفعها إلى البابوات والكاردينالات والملوك والأمراء والجالس الكنسية والتي شغل بها الأوساط الدينية والسياسية والثقافية الأوروبية لفترة طويلة. لذلك فلا عجب أن يعتبر أحد الأعلام الذين أثروا في الفكر الأوروبي في العصور الوسطى.

وأما أثره الكبير في هذا الفكر، فإنه يعود لسببين رئيسيين أولهما ما اكتسبه من الفكر الإسلامي من ثقافة كانت له المعين الذي لا ينضب في كل ما كتب، وثانيهما شهرته الواسعة التي أحرزها في أوروبا فضلاً عن علاقاته القوية بأعلام الفكر المسيحي في عصره مثل روجر بيكون وتوما الأكويني وغيرهما، ثم مع المنظمات التصيرية كالدومنيكان

والفرانسيسكان حتى إن كلاً منهما ادعته لنفسها، مع أنه كان في حقيقة أمره مستقلاً عنهما وإن اتفق مع كل منهما في جانب من آرائه، ولذلك راجت مؤلفاته في أوروبا رواجاً كبيراً حتى إنها أصبحت ميداناً هاماً للدراسة والبحث في حياته وبعد مماته، ففي حياته كانت رسائله وكتبه التي يرفعها للبابوات والملوك تحال إلى لجان مختصة لدراستها وتقديم التقارير عنها، حدث ذلك أكثر من مرة في البلاط البابوي، وبلاط فيليب الرابع ملك فرنسا، وبلاط ملك أرغونة، كما أن كتبه كثيراً ما أحييت إلى مفكرين بارزين لتقييمها كما حدث عندما أحال خايمي الأول ملك أرغونة بعضاً منها إلى رامون البنيافورتي لهذا الغرض، وفي مرة أخرى أحيّل بعضها إلى لجنة في جامعة باريس، وبناء على نتيجة تقييمها سمح له بالمحاضرة في تلك الجامعة، وحدث نفس الأمر في جامعة مونبلييه ولدى منظمتي الدومنيكان والفرانسيسكان حيث أذن له بإلقاء محاضراته في الجامعة المذكورة، وفي البيوتات التابعة لهاتين المنظمتين، فكان لذلك أثره بلا شك في تعريف الطبقة المثقفة بما اقتبسه من الفكر الإسلامي، وتجدر الإشارة في هذا المقام إلى أنه أثناء إقامته في باريس احتدم الجدل بينه وبين أنصار فلسفة ابن رشد، ذلك أن جامعة باريس كانت أكبر مركز للدراسة هذه الفلسفة في أوروبا، ولما كان رامون لول من المتعصبين للكنيسة الكاثوليكية التي تحارب هذه الفلسفة كما سبق ذكره، لذلك انبرى يناظر هؤلاء ويحاول تفنيد حججهم والرد عليهم، وكان في ذلك يرد عليهم بآراء ابن عربي وفلسفته التي غرف منها بكلتي يديه لا سيما في القول بوحدة الوجود والأديان، ثم بآراء الإمام الغزالي التي وصلت إليه عن طريق متقفي إفريقية الذين اتصل بهم أثناء ترده عليها، ثم عن طريق توما الإكويني خاصة فيما يتعلق بالعقل والعقيدة وعجز العقل وحده عن إدراك الأسرار الإلهية، والتي لم تكن إلا مقابلاً لما كتبه ابن رشد في باب «فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة»^(١)، فكان لذلك أثره القوي بلا شك على العلوم الفلسفية في أوروبا، ذلك أنه قد تأثر بآرائه وآراء أساتذته المسلمين العديد من فلاسفة أوروبا الأول نتيجة لهذه الجهود، فبرى المستشرق الأسباني بلاكيوس أنه جانباً هاماً من آراء (دانتي) الدينية لا سيما ما يتعلق منها بالحياة الآخرة إنما استمدته من ابن عربي^(٢)، ثم

(١) د. سعيد عاشور : المدنية الإسلامية، ص ٩١ .

(٢) د. سعيد عاشور : المدنية الإسلامية، ص ٩٢ .

إن هنالك تشابه شديد بين آراء (جوهان إكههارت) الألماني الذي يعتبر أول الفلاسفة الصوفيين في الغرب الأوروبي، وآراء ابن عربي أيضاً فيما يتعلق بالحقيقة الإلهية وصلة الروح بالله^(١)، ولما كان إكههارت قد درس في جامعة باريس في تلك الآونة فإن من المنطقي أن يكون قد اكتسبها عن طريق رامون لول.

وقد استمر تأثيره في الفكر الأوروبي بعد مماته عن طريق مؤلفاته وتلاميذه، ومن أشهر هؤلاء كان تلميذه سيمون (Simon de Puigcarda) الذي كان من أقربهم إلى لول فضلاً عن أنه كان المترجم لأعمال أستاذه من العربية إلى اللاتينية، ذلك أن لول كان يكتب كتيبه الجدلية ومناظراته بالعربية، فيترجمها سيمون إلى اللاتينية الأمر الذي يؤكد إجادته للغتين، ولما كان سيمون قد لحق بأستاذه في إفريقية كما سبق ذكره، فإن من المنطقي أن يكون هو الآخر قد تأثر بالفكر الإسلامي عن طريق علمائها ومثقفها الذي اتصل بهم أستاذه وحاورهم. وقد حفظ سيمون قدراً كبيراً من مؤلفات أستاذه وعمل على نشرها، ولكن أهم من حافظ على تراث لول الفكري كان هو (Thomas le Myesier) الذي كان رئيساً للمسؤولين وربطته برامون لول علاقة قوية، وقد قضى شطراً من حياته عاكفاً على دراسة أعمال لول ومؤلفاته، وكان له الفضل الأول في انتشارها. ومنذ القرن الرابع عشر وجدت مراكز لدراسة فكر لول في بالما بميورقة وبرشلونة ومونبلييه وباريس، وكان مركز باريس هو أهمها حتى وجد الكثير من بين أساتذة جامعة باريس والدارسين فيها من اهتم بهذا الفكر وتأثر به، وقد استمر أثر لول في الفكر الأوروبي في القرنين التاليين الخامس عشر والسادس عشر للميلاد، حتى أنه استحدثت كراسي لتدريس ما سمي بالفكر اللوليان (Lullianism) في جامعتي بالما ورنده وسواهما من الجامعات الأوروبية الأخرى^(٢)، وفي سنة ١٥١٢م تبنى مجمع لاتيران منهجه في محاربة الهرطقة^(٣)، كما أن مؤلفاته أصبحت مرجعاً للمفكرين الذين كانوا ينادون بإصلاح الكنيسة منذ أوائل القرن الرابع عشر، إذ أنهم استمدوا منها آراء هامة ضمنوها برامجهم الإصلاحية، وعلى ذلك فإن أثر لول في الفكر

(١) د. سعيد عاشور: المدينة الإسلامية، ص ٩٢.

J.N Hillgarth : Op. Cit., P.125-48.

(٢)

J.N.Hillgarth Ibid, P.135.

(٣)

الأوروبي كان عميقاً ومتشعباً بحيث إن كثيراً من مفكري أواخر العصور الوسطى وعصر النهضة قد تأثروا به من قريب أو بعيد.

الجغرافية والرحلات :

لا شك في أن اتساع الدولة الإسلامية التي شملت قسماً كبيراً من العالم القديم قامتدت من حدود الصين شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً ومن جنوب أوروبا وأواسط آسيا شمالاً إلى قلب القارة الإفريقية جنوباً، ورغبة المسلمين في التنقل في أرجائها في سبيل التجارة وطلب العلم أو أداء فريضة الحج قد جعلهم يهتمون بعلم الجغرافية وينبغون فيه فطافوا بالبلاد من شرق آسيا إلى مجاهل إفريقيا وأقاموا علاقات تجارية مع بلاد لم يسمع الأوروبيون بها في العصور الوسطى أو شكروا في وجودها^(١)، وبرز منهم في هذا العلم من ألفوا المؤلفات التي ظلت الهدى للأوروبيين لمدة طويلة، ومن هؤلاء نذكر على سبيل المثال لا الحصر الإصطخري، واليعقوبي، والمسعودي، والبلخي، والبيروني، والنضر البصري، والمقدسي، والقزويني، وابن حوقل، وياقوت الحموي، وأبو حامد الغرناطي، وابن خرداذبه، والإدريسي، وابن بطوطة، وغيرهم الكثير في كل قطر من أقطار العالم الإسلامي، وفي كل عصر، الأمر الذي يؤكد رفعة المستوى الذي وصل إليه المسلمون في علم الجغرافية وعظم محصولهم منه، فهم أولاً حفظوا معلومات الأمم التي سبقتهم ولا سيما اليونانيين في العلوم الجغرافية، وهي التي لم يعرفها الأوروبيون إلا من الكتب العربية في أواخر العصور الوسطى^(٢)، ثم ما قدموه هم للبشرية من معلومات جادت بها قرائحهم استناداً إلى تجاربهم الذاتية ومشاهداتهم، فصحيح ما وقع فيه اليونانيون من أخطاء مما جعلهم يسهمون بنصيب وافر في بناء علم الجغرافية وفي زيادة محصول المعلومات الجغرافية، ويظهر لنا هذا الأمر بوضوح في نواحي عديدة، فبالمقارنة بين أماكن المدن التي عينها اليونانيون وتلك التي عينها المسلمون، نجد أن تقدير المسلمين يطابق الحقيقة أو يقترب منها ولا يختلف عنها إلا في بضع دقائق، بينما كانت أخطاء اليونانيين واضحة في نواحي

(١) د. سميد عاشور : المدنية الإسلامية، ص ١١٨ .

(٢) د. سميد عاشور : المدنية الإسلامية، ص ١١٩ .

عديدة، حتى إن خطأ بطليموس السكندري في تقدير طول البحر المتوسط بلغ أربعاً مائة فرسخ^(١). وإلى الشريف الإدريسي يرجع الفضل في توضيح حقيقة منابع النيل بعد أن تضاربت الأقوال في هذا الشأن منذ أقدم العصور، ففي خريطة له محفوظة في أحد متاحف فرنسا رسم النيل نابعاً من بحيرات كبيرة جنوبي خط الاستواء، فكان ذلك أول بيان حقيقي لمتابع هذا النهر في التاريخ^(٢)، كما أنهم كانوا أول من وضع أصول الرسم على سطح الكرة، مما كان له أثر كبير في تصوير معالم الكرة الأرضية تصويراً دقيقاً، فضلاً عن أنهم كانوا قد تمسكوا بفكرة كروية الأرض، فابن خردادبة في القرن التاسع للميلاد يقول : (إن الأرض مدورة كتدوير الكرة موضوعة في جوف الفلك كالخلة في جوف البيضة)^(٣)، ويقول ابن رسته المعاصر له أيضاً : (إن الله عز وجل وضع الفلك مستديراً... كاستدارة الفكرة أجوف دواراً، والأرض مستديرة أيضاً كالكرة مصمتة في جوف الفلك)، والمعهودي يعبر عن الأرض بعبارة (كرة الأرض)^(٤)، كما قالوا بدوران الأرض حول الشمس إلى غير ذلك من المفاهيم التي أثبت العلم الحديث صحتها.

وإذا كانت جهود المسلمين في هذا العلم كما هو ثابت هي الأساس القوي الذي بنى عليه الأوروبيون معارفهم الجغرافية، فإن للحروب الصليبية في جبهة إفريقية أثر قوي ومباشر في هذا الأمر، ذلك أنه بالإضافة إلى المعلومات الجغرافية القيمة التي اكتسبوها عن إفريقية والمغرب العربي بصفة خاصة وعن باقي القارة الإفريقية بوجه عام نتيجة للنشاط التجاري المستمر بين الطرفين من ناحية، ورحلات رهبان حركة التنصير وأعضاء منظمات فداء الأسرى الذين كانوا يجربون أنحاء المغرب العربي منذ مطلع القرون السابع الهجري (الثالث عشر للميلاد)، فقد أفادوا من جهود واحد من أعظم علماء الجغرافية في العصور الوسطى هو الشريف الإدريسي، صحيح أن الإدريسي لم يكن من إفريقية، وأن مؤلفاته وصلت إلى أوروبا عن طريق صقلية، وأن علاقته بإفريقية لم تختلف كثيراً عن علاقته بالأقطار التي زارها، ولكن

(١) د. سعيد عاشور : المدينة الإسلامية، ص ١٢٠ .

(٢) د. سعيد عاشور : المدينة الإسلامية، ص ١٢١ .

(٣) انظر عن ذلك د. سعيد عاشور : المدينة الإسلامية ص ١٢١ .

(٤) انظر د. سعيد عاشور : المدينة الإسلامية، ص ١٢١ .

أهمية الإدريسي بالنسبة لموضوعنا تكمن في كنه علاقاته برجار الثاني ملك الصقليتين لقد زار الإدريسي صقلية مرتين ثانيتهما وهي الأهم كانت في حدود سنة ٥٣٣هـ/ ١١٣٨م حيث أنجز خريطته المعروفة على لوح من الفضة^(١)، ثم ابتداءً في تصنيف مؤلفه المشهور (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) الذي زوده بأكثر من أربعين خريطة، وما يعيننا من ذلك التاريخ هو أن رجار الثاني كان آنذاك قد بدأ في تنفيذ المرحلة الأخيرة والهامية من مراحل احتلاله لإفريقية. لقد اختلف المؤرخون في تحديد الهدف الحقيقي لرجار الثاني حينما تمسك بالإدريسي وألح عليه بالبقاء في بلاطه وكلفه بإعداد خريطته ومصنفه الآنف الذكر، فقد ذهب تاوديتس ليفيكي إلى رأي خلاصته أن اهتمام رجار باستدعاء الإدريسي إلى بلاطه لم يكن بسبب علمه في الجغرافية، وإنما لشخصه كرجل من بيت الأُداسة يمكن أن يكون مطالباً بعرض أو منافساً فيه، وذلك للافتتاح به في تحقيق مآربه في غزو الأندلس والسيطرة على غرب البحر الأبيض المتوسط، ويعلل ذلك بأن مكانة الإدريسي كجغرافي ورحالة لم تكن قد تقرر بعد^(٢)، ويستند في رأيه هذا إلى نص للصفيدي جاء فيه أنه عندما وفد إلى صقلية لم يكن ينوي الإقامة فيها، ولكن رجار رغبه في ذلك بقوله : (أنت من بيت الخلافة، ومتى كنت بين المسلمين عمل ملوكهم على قتلك ومتى كنت عندي أمنت على نفسك)^(٣).

ويرى الدكتور حسين مؤنس بعد نقده القيم لرأي ليفيكي^(٤)، أن رجار الثاني كان يستخدم النابهين من المسلمين ومواعم لتثبيت أركان دولته، ويضع العلاقة بين الاثنين في هذا الإطار، فالإدريسي في رأيه قد (قصد باباً مفتوحاً على مصراعيه لأمثاله من النابهين، وكان إلى جانبه مسلمون كثيرون يعملون في البلاط النورماني ويشاركون في شؤون القيادة والإدارة، وكانت الجزيرة عامرة بالمسلمين ومعالم الإسلام، وكان شعور الإدريسي أنه عالم يهدي العلم إلى من يقدره)^(٥). ويستند في رأيه هذا على نص للصفيدي أيضاً جاء

(١) عن هذه الخريطة انظر محمد المتوني : المرجع السابق، ص ٧٩ - ٨٠ .

(٢) د. حسين مؤنس : الجغرافية والجغرافيون، ص ٢٦٩ .

(٣) انظر د. حسين مؤنس : الجغرافية والجغرافيون، ص ٢٦٩ .

(٤) د. حسين مؤنس : الجغرافية والجغرافيون، ص ٢٦٩ وما بعدها.

(٥) د. حسين مؤنس : الجغرافية والجغرافيون، ص ٢٧٤ .

فيه أن رجار أكرم منزلته وبالح في تعظيمه ويسر له طريق العمل حيث بدأ الإدريسي تبعاً لذلك يعمل صورة الأرض على الفضة، فلما فرغ منها كافأه مكافأة سنوية، وألح عليه في الاستقرار في صقلية والاستمرار في العمل معه فاستجاب، ويخلص بعد ذلك إلى أن الإدريسي لم يكن مجرد عالم يخدم ملكاً يعلمه، بل كان صدقاً له أثراً لديه، ثم بعد ذلك يفترض افتراضاً آخر هو أنه ربما كان من أسباب إقبال رجار على الإدريسي هو علوته وشرف محتده، مما يعود على رجار بالنفع فيما لو استقر في بلاطه إذ أن (وجود ذلك الشريف العلامة إلى جانبه يعلي جاهه بين رعاياه من المسلمين ويؤيد سلطانه في نظرهم)^(١).

ومع تقديرنا لرأي الدكتور حسين مؤنس في هذا الموضوع، إلا أننا نرى أن سبب استدعاء رجار للإدريسي ونمسه به يعود إلى سبب أعمق من حبه وتقديره للعلم والعلماء أو لرفع جاهه بين رعاياه، وعلى ذلك فإننا إذ نتفق معه في ما ذهب إليه من تقيده لرأي ليفيكي بأن رجار استدعى الإدريسي لتحقيق مطامعه في الأندلس، فإننا نخلف معه في تحديد الإطار الذي وضعه لهذه العلاقة، ونرى أن ليفيكي على حق في أن سبب هذه العلاقة كان رغبة رجار في تحقيق طموحاته السياسية ولكن ليس في الأندلس وإنما في مكان آخر. إذ أن الحركة الصليبية التي وزعت الأدوار على القوى الأوروبية في صراعها مع المسلمين جعلت حربها في الأندلس من نصيب النصارى الإسميان. لقد كانت طموحات رجار ومطامعه واسعة، ولذلك كان من الطبيعي أن يبدل قصارى جهده للتعرف على عالم البحر الأبيض المتوسط موضع هذه الطموحات والمطامع، فلم يجد أفضل من الإدريسي الذي كان خبيراً بالمغرب العربي والبحر الأبيض المتوسط كما يقول الدكتور حسين مؤنس^(٢) ليزوده بما يحتاجه من معلومات لم يستطع غيره توفيرها له، ولعل فيما يقوله الدكتور نقولاً زيادة من أن رجار (كان يريد أن يحصل على معلومات دقيقة عن بلاده وجيرانه والبلاد التي تربطها بمملكته علاقات تجارية أو التي يفكر بالسير إليها، فوجد أن الإدريسي هو الرجل الذي باستطاعته أن يقوم بذلك)^(٣) ما يدعم وجهة نظرنا في هذا الموضوع، ولما كان رجار

(١) د. حسين مؤنس : الجغرافية والجغرافيون، ص ٢٧٤ .

(٢) د. حسين مؤنس : الجغرافية والجغرافيون، ص ٣١٥ .

(٣) د. نقولاً زيادة : لهات من تاريخ العرب، ص ٦٩ .

بصد احتلال إفريقية ثم اتخاذها قاعدة للتوسع في بلدان المغرب العربي كما سبق ذكره، فإنه كان بلا شك بحاجة لمعرفة كل شيء عن تلك البلاد التي يخطط لاحتلالها، وكما كانت له طموحات في المغرب كانت له طموحات أخرى في المشرق بدليل محاولته الاشتراك في الحملة الصليبية الثانية، مما يحتم عليه أيضاً معرفة المشرق، فكان أن وجد في الإدريسي ضالته للحصول منه على هذه المعلومات متمتراً بحبه للعلم، وما كان لإكرامه له في رأينا وتخويفه إياه من ملوك المسلمين مع أنه محق في ذلك، إلا من قبيل الترغيب والترهيب لإبقائه في بلاطه. وعلى ذلك فإننا نعتقد أن مطاعم رجار في إفريقية وسواها كانت دافعاً قوياً لشمسه بالإدريسي هذا التمسك الذي عاد بشرة طيبة على أوروبا في علم الجغرافية، إذ ظل كتابه (نزهة المشتاق) عمدها في هذا العلم لمدة طويلة، فقد ترجم إلى عدة لغات وطبع أكثر من مرة. فقد طبع مختصره العربي في روما سنة ١٠٠١هـ / ١٥٩٢م، ونشر في باريس سنة ١٠٢٩هـ / ١٦١٩م ترجمة لهذا المختصر باللاتينية قام بها المارونيان جيريل سيونيتا، وجون هرتينا، كما ترجم أصل الكتاب إلى الفرنسية قام بها أمديه جوير ونشرت بباريس سنة ١٢٥٢هـ / ١٨٣٦م - ١٢٥٦هـ / ١٨٤٠م، وقد نشرت منه عدة أقسام بالعربية منها القسم المختص بمكة الذي طبعه المعلم بابوكا وأعاد نشره المعلم غزيري، وطبع قسم منه في بانور سنة ١٢٠٥هـ / ١٧٩٠م، كما طبع القسم المختص بالأندلس مع ترجمة كوندي له للإسبانية في مدريد سنة ١٢١٤م / ١٧٩٩م، وأعيدت طباعته وترجمته للإسبانية في مدريد سنة ١٢٩٩هـ / ١٨٨١م إلى غير ذلك^(١).

وكما أفادت أوروبا من الإدريسي، أفادت من رحالة آخر نال شهرة واسعة في العصور الوسطى هو الحسن بن محمد الوزان الزياني المشهور بليون الإفريقي الذي شاعت له الأقدار أن يقع في أسر النصارى في جزيرة جربة أثناء توقفه فيها قادماً من المشرق، إذ أسره القرصان الصقلي يترو بوقا ديفليا وأخذه إلى إيطاليا سنة ٩٢٤هـ / ١٥١٨م حيث قدم هدية لليابا ليون العائس الذي عرف بحبه للعلم حتى إنه كان يعتبر حامياً للعلوم والآداب والفنون في عصره، فلما رأى منعة علم الوزان أكرمه وأحسن إليه، ثم حملته فيما بعد على اعتناق

(١) عن هذا الموضوع انظر محمد المنوني : المرجع السابق، ص ٨٢ - ٨٣ .

المسيحية حيث عمده بنفسه في كنيسة القديس بطرس بروما في ٦ يناير سنة ١٥٢٠م / ٩٢٧هـ، وأطلق عليه اسم جوهانيس ليو دوميديس نسبة إليه، إلا أنه عرف فيما بعد باسم ليون الإفريقي^(١). ولد الحسن الوزان بغرناطة، وعند سقوطها بيد التصاري رحل منها مع أسرته إلى فاس حيث كان لا يزال صغيراً، وفي فاس تلقى علومه، ويبدو أنه كان لأسرته صلة ببلاد عاهلها مما أتاح له الفرصة لتبيل ثقافة واسعة، ومنذ مطلع شبابه بدأ في رحلاته فزار ممالك قلب القارة الإفريقية ثم رحل إلى المشرق عبر إفريقية وعاد إليها بعد إقامة في المشرق دامت بضع سنين حيث وقع في الأسر، وقد أكسبه تجواله حسن اطلاع على الثقافة الإسلامية في مراكزها المختلفة، وفي إيطاليا عكف على دراسة اللغتين اللاتينية والإيطالية حتى أجادهما، ويبدو أنه كان ملماً أيضاً باللغة الإسبانية إلى جانب العربية، ولذلك لم يجد صعوبة في نقل ثقافته وعلمه إلى معاصريه من الإيطاليين، فقد كانت تربطه صلات قوية بالعديد من رجالات الأدب والعلم في إيطاليا، وعلاوة على ذلك فقد تصدر لتدريس اللغة العربية في مدينة بولونا الإيطالية، ولكن الأهم من ذلك هو مؤلفاته العديدة التي ألفها أثناء إقامته في إيطاليا في علوم مختلفة، ففي سنة ٩٣٠هـ / ١٥٢٤م ألف معجماً عبرياً عريباً لاتينياً من أجل طبيب يهودي يدعى يعقوب بن سيمون لا تزال مخطوطته محفوظة في مكتبة الاسكوريال، كما عثرت الأستاذة كودازي على رسالة له في القياس المسطح مما يشهد على اتساع دائرة معارفه الموسوعية^(٢)، وفي ١٠ مارس سنة ١٥٢٦م / ٩٣٣هـ أنجز كتابه (وصف إفريقية)، وفي سنة ٩٣٤هـ / ١٥٢٧م ألف كتاباً باللاتينية جامعاً لسير ثلاثين من مشاهير العرب المسلمين في العلوم الفلسفية والطبية الذي نشره هوتينغر سنة ١٦٦٤م في زيوريخ بسويسرا ثم أعيد نشره في هامبورج سنة ١٧٤٦م وكان أول سفر يقدم معلومات ذات أهمية بالنسبة لأوروبا في تاريخ تطور العلوم عند العرب المسلمين، هذا وتحوي مكتبة الاسكوريال نسخة مخطوطة في نحو اللغة العربية ربما يكون قد ألفها لتلاميذه الطليان أثناء تدريسه اللغة العربية في بولونا. كما يذكر في مناسبات عديدة كتابه (الوجيز في الشريعة الإسلامية)، و(الوجيز في التواريخ الإسلامية) ولكن لم يصلنا منها

(١) انظر الحسن الوزان : وصف إفريقيا، ص ٢٢ - ٢٣ .

(٢) انظر الحسن الوزان : المصدر السابق، مقدمة المترجم، ص : هـ.

شيء. مثلما يذكر اعترافه إصدار ثلاث مؤلفات أحدها (وصف إفريقيا) والآخر عن أوروبا، والثالث عن الأقطار التي زارها في جزيرة العرب وأرمينيا وبلاد فارس والشر والقسطنطينية^(١)، وتبعاً لذلك فقد نال الحسن الوزان مكانة علمية مرموقة في الأوساط العلمية الأوروبية، وزاد في أهمية تلك المكانة أنه صنف كتبه تلك في فترة كانت تتمخض عن عصر النهضة.

أما كتابه (وصف إفريقيا) الذي يهمننا في هذا المقام، فقد كتبه بالإيطالية، ويرجح أكثر الباحثين أنه وضعه اعتماداً على أصل كان قد دونه بالعربية على شكل مذكرات على الأقل، ويرى آخرون مثل ش. شيفر أن الأصل العربي لهذا الكتاب كان معه عند وقوعه في الأسر^(٢)، وعلى أية حال فإن هذا الكتاب قد حظي بشهرة واسعة في أوروبا، فقد نشره راموزيو في البندقية سنة ١٥٥٠م أي بعد مدة لا تزيد عن ٢٤ سنة من تصنيفه وأهداه إلى شخصية علمية وسياسية كبيرة هو جيروم فراكاستور، وفي سنة ١٥٥٥م ترجمه تامبورال إلى الفرنسية، وترجمه جان فولريان في العام التالي سنة ١٥٥٦م إلى اللاتينية، وفي سنة ١٦٠٠م ترجمه جون بوري إلى الإنجليزية وفي سنة ١٦٦٥م نقل إلى اللغة الهولندية، وترجم في سنة ١٨٠٥م للألمانية، وظهرت له طبعة إيطالية حديثة سنة ١٨٩٦م كما أعاد براون نشره بالإنجليزية في نفس ذلك العام اعتماداً على طبعة بوري، بينما كان شيفر يعمل وقتئذ على نشره في باريس، وبعد ذلك تناوله العديد من الباحثين بالدراسة والتحليل^(٣). ويعتبر هذا الكتاب فريداً في نوعه في ذلك العصر إذ تضمن معلومات هامة عن جغرافية المغرب العربي والسودان الغربي طبيعياً وبشرى وإنتاجياً بأسلوب علمي تميز بروح نقدية مما يضيف على مؤلفه طابعاً ذا أصالة إذ يجد فيه كلا الجغرافي والمؤرخ مصدراً غنياً بالمعلومات، ولعل ذلك يفسر شدة اهتمام الأوساط العلمية في أوروبا به منذ تصنيفه والذي بدا جلياً في تعدد الترجمات والنشر المتكرر الذي أشرنا إليه آنفاً. وأما عن الحسن الوزان فتشير الكثير من المصادر التاريخية إلى أنه استطاع الإفلات من إيطاليا بين عامي ١٥٢٨م و١٥٣٠م

(١) انظر الحسن الوزان : المصدر السابق، مقدمة المترجم، ص : هـ.

(٢) انظر الحسن الوزان : المصدر السابق، مقدمة المترجم، ص : هـ.

(٣) انظر الحسن الوزان : المصدر السابق، مقدمة المترجم، ص : أ-ب.

وقصد إفريقية حيث وصل إليها بعد إقامة في الغربة تتراوح بين عشرة أعوام والثاني عشر عاماً وأقام في مدينة تونس ونبت المسيحية وعاد إلى دينه الإسلامي، إلى أن كانت وفاته فيها في حدود سنة ٩٤٤هـ / ١٥٣٧م عن عمر يناهز الخمسين سنة، وفي قول آخر إنه توفي سنة ٩٥٩هـ / ١٥٥٢م عن ستين سنة، وهناك ثمة قول ثالث مفاده أن إقامته في إيطاليا امتدت إلى فترة أطول حيث قاربت الاثنتين وثلاثين سنة وعاد إلى تونس وعمره ٦٤ سنة تقريباً، وفي قول آخر إنه لم يغادر إيطاليا وظل يدرس اللغة العربية فيها حتى وفاته^(١) وهو رأي ضعيف لا يستند إلى دليل مقنع، والأرجح عند غالبية المؤرخين أنه عاد إلى تونس وتوفي بها. ويرى بعض الباحثين أن أصدقاءه من الكراذلة أرسلوا إليه وفداً لإقناعه بالعودة إلى إيطاليا ولكن دون جدوى، وعلى أية حال فقد كان له أثر كبير على معارف الأوروبيين الجغرافية فضلاً عما سواها من فروع المعرفة الأخرى، وبذلك تكون أوروبا قد جنت فائدة عظيمة في هذا العلم من اتصالها بإفريقية في عصر الحروب الصليبية.

يضاف إلى ما تقدم ما اكتسبه من معلومات هامة في الملاحة كمعرفة المياه والأنواء وهبوب العواصف واتجاهات الرياح الأمر الذي أفاد بدون شك علم الخرائط للملاحة ولعل فيما سبق أن ذكرناه أن لويس التاسع كان أثناء حملته على تونس يمتلك خريطة لملاحة دقيقة تمكنه من تحديد أي موضع يكون فيه وهو في عرض البحر، ما يدعم هذا القول.

حركة الاستشراق :

اختلف الباحثون في تحديد مفهوم حركة الاستشراق وماهيتها ونشأتها ودوافعها وتعددت آراؤهم في ذلك وكثرت الدراسات التي تعرضت لهذه الأمور، ولا تزال هذه الدراسات تظالمنا بين فترة وأخرى بآراء جديدة. فأما بالنسبة لمفهوم هذه الحركة وماهيتها فقد ناقش الدكتور أحمد سمائلوش هذا الموضوع بإسهاب واستعرض العديد من آراء العلماء ما بين شرقيين وغربيين، عرب وغير عرب ومسلمين وغير مسلمين، وعقد موازنة بينها وخلص إلى نتيجة مفادها أن الاستشراق علم مستقل له ذاتيته وكيانه ويقوم بدراسة كل ما يتعلق بالشرق وحضارته وأنه لا بد للمستشرق من معرفة كاملة بإحدى اللغات

(١) لمزيد من التفصيل انظر الحسن الوزان : المصدر السابق، مقدمة المترجم، ص : د.

الشرقية وآدابها، ثم أنه إذا كان هنالك البعض من المستشرقين المنصفين، فإنه وجد ما يقابلهم من ذوي التطرف والتعصب نظراً لصلتهم الوثيقة بحركة التنصير ومهمتها. ومع ذلك فقد اتفقت الآراء على أن حركة الاستشراق قامت بدور كبير في تعريف الغرب بحضارات الشرق عامة، وحضارة العرب والمسلمين وآدابهم بصفة خاصة وأثرهما في الغرب نفسه ونهضته العلمية والفكرية على حد سواء^(١). وأما عن نشأة هذه الحركة، فإنه إذا كان قد وجد هنالك من الباحثين من يقول إنها نشأت في القرن العاشر حينما أدرك الغرب الأوروبي تلك المعجزة الحضارية التي شاهدها العرب المسلمون فاندفعوا إليها ليتعلموها ويتسلحوا بها ويستفيدوا منها فأخذوا يدرسون لغتها وآدابها ويترجمون كتبها وينقلون علومها إلى بلادهم^(٢)، ويضربون المثل على ذلك بالبابا سلفستر الثاني^(٣) الذي عاش في ذلك القرن، وكان من أوائل المترجمين لعلوم العرب المسلمين وآدابهم، فإن هنالك من يرى منهم مثل إبراهيم مذكور أن الاستشراق بالمعنى العلمي الكامل لم يبدأ إلا في منتصف القرن التاسع عشر إذ يقول: (لنا لا نستطيع أن نتحدث عن دراسات إسلامية بالمعنى الكامل سابقة على النصف الأخير من القرن الماضي لا في الغرب أو في الشرق، ذلك لأن الغربيين في اتصالهم بالشرق شغلوا أولاً بنواحيه السياسية والاقتصادية، ولم يتجهوا إلا أخيراً إلى نواحيه الثقافية)^(٤)، لذلك وحيال هذه الآراء المتعددة والمتباينة حول هذا الموضوع^(٥)، ليس من السهل على الباحث التوصل إلى رأي قاطع بشأنه، ذلك أنه إذا كانت الأدلة التي استند إليها أصحابها فيها تعتبر مقنعة من عدة وجوه، فالعديد منها لا يثبت للنقد من وجوه أخرى.

(١) انظر عن هذا الموضوع د. أحمد سمائلوفتش: فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر ص ٢١ وما بعدها.

(٢) حمد الاسكندري وآخرون: المفضل في تاريخ الأدب العربي ج ٢، ص ٤٠٨.

(٣) سبق أن أشرنا إلى هذا البابا عند حديثنا عن العلوم الرياضية، وكان اسمه جريدي أورالبياك (٩٣٨ - ١٠٠٣م) فرنسي من مقاطعة أكتانيا متواضع الأصل نهل من الثقافة العربية الإسلامية في الأندلس ثم في جامع القرويين بفاس، وتدرج في المناصب فأصبح ناظراً للمدرسة رمز الأسقفية، ثم أساقفاً وناصباً للأباطرة ثم أسقفاً لرافنا، ثم اعتلى أخيراً كرسي البابوية (٩٩٩ - ١٠٠٣).

(٤) إبراهيم مذكور: في الفلسفة الإسلامية، ص ٢٥.

(٥) فريد من التفصيل انظر د. أحمد سمائلوفتش: المرجع السابق، ص ٥٤ وما بعدها.

والذي نعتقده، أن حركة الاستشراق واكبت في نشأتها دخول الحركة الصليبية في طورها النشط في أواسط القرن الحادي عشر الميلادي، وإذا كان هنالك ثمة جهود قد سبقت هذه الفترة مثل جهود البابا سلفستر الثاني، فإنها بالرغم من كونها جهود محدودة، إلا أنها كانت لها أهميتها، فهي التي نبهت الحركة الصليبية إلى أن صراعها مع المسلمين ليس صراعاً سياسياً وعسكرياً وحسب، وإنما هو صراع فكري وحضاري أيضاً، ولذلك فإن النشاط الذي شهدته حركة الاستشراق في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين حينما أقبل الأوروبيون على ترجمة كتب العلوم والآداب العربية الإسلامية ونقلها إلى بلادهم، إنما كان نتيجة للجهود دعاء الصليبية السلمية الذين كانوا هم أنفسهم من أبرز أعلام الاستشراق مثل بطرس المكرّم (أو المَبْجَل) (١٠٩٤ - ١١٥٦م)، توما الأكويني (١٢٢٥ - ١٢٧٤م)، رامون مارتى (١٢٣٠ - ١٢٨٤م) رامون البتافورتي (١١٧٦ - ١٢٨٠م) روجر بيكون (١٢١٤ - ١٢٩٤م)، رامون لول (١٢٣٢ - ١٣١٥ / ١٣١٦م) وغيرهم، ومضت حركة الاستشراق في تقدمها وتطورها بعد ذلك.

وأما بالنسبة لدوافع تلك الحركة فقد حددها الدكتور أحمد سمائلوفتش بسبعة دوافع رئيسية : نفسية، وتاريخية، واقتصادية، وأيدلوجية، ودينية، واستعمارية، وعلمية^(١)، ومع تقديرنا لهذا الرأي فإنه إذا كان هذا التحديد ينطبق على ما هو عليه الأمر في عصرنا الحاضر، فإنه لا يتوافق مع ما كان عليه واقع الحال في عصر الحروب الصليبية الذي سبق أن أشرنا إليه الذي شهد نشأة حركة الاستشراق حينما كانت الروح الصليبية متمكنة من نفوس الأوروبيين وكانت الكنيسة هي المهيمنة على الحياة الفكرية في أوروبا، وحتى بعد تراخي هذه الهيمنة في مطلع العصور الحديثة، لذلك فإن الدافع الديني هو الذي كان وراء نشوء هذه الحركة وتطورها حتى عهد قريب، لقد نبثت فكرة دراسة اللغة العربية والدين الإسلامي والثقافة الإسلامية لخدمة أهداف الحركة الصليبية منذ بداية ذلك العصر، وكان قسطنطين الإفريقي الذي يعتبر من أوائل المستشرقين هو أيضاً من أوائل من نادوا بهذه الفكرة ووضعوها موضع التنفيذ أثناء مقامه بدير مونت كامينو كما سبق ذكره. وإذا كانت

(١) لمزيد من التفصيل انظر د. أحمد سمائلوفتش : المرجع السابق ص ٤٠ وما بعدها.

حمى الحماسة لقتال المسلمين التي سرت في أوروبا آنذاك قد طفت على هذه الفكرة، فإنها لم تستطع كتبها إلا لمدة محدودة، إذ منذ بدء تطرق الضعف والوهن إلى الكيان الصليبي في المشرق في أواخر القرن السادس الهجري (الثاني عشر للميلاد) وانكباب العديد من مفكري الحركة الصليبية على دراسة أسباب هذا الضعف وعوامل فتور الحماسة للحركة الصليبية في أوروبا الغربية والعمل على إزالة هذه الأسباب، برزت هذه الفكرة إلى حيز الوجود من جديد ويشمول أوسع لتحقيق هدف أكبر هو فرض المسيحية الكاثوليكية على العالم، ذلك أن هؤلاء المفكرين مثل جوكيم، وتوما الأكويني، ووليم الطرابلسي، ورامون البنايفورتى، ورامون مارتى، ورامون لول، أدركوا المصاعب المهمة التي كانت تعترض سبيل تحقيق هذا الهدف عن طريق الصليبية المسلحة، فأخذوا يتأدون بتحويل قسط من جهود الحركة الصليبية من الاتجاه العسكري إلى اتجاه آخر هو العمل على تنصير غير المسيحيين وكثلكة غير الكاثوليك من المسيحيين عن طريق الإقناع، بحيث يكون هذا الاتجاه مكملاً للاتجاه الأول وليس بديلاً له، وهو ما عرف بالصليبية السلمية، وتبعاً لذلك رأوا ضرورة دراسة لغات الشعوب الشرقية وعقائدها وثقافتها وبصفة خاصة اللغة العربية والثقافة الإسلامية لأنهم كانوا يرون في المسلمين العدو الأول للمسيحية والأشد خطراً على المسيحيين لمواجهتهم لهم، ثم تدريسها للربان المنصرين ليكونوا أقدر على النهوض بالمهمة الموكلة إليهم سواء في بلاد المسلمين أو سواهم. كان ذلك هو الأساس الذي قامت عليه الدراسات الشرقية التي عرفت فيما بعد بالاستشراق. ومن ذلك يتضح وجود تلاحم قوي بين حركتي الاستشراق والتنصير منذ نشوء الحركة الأولى منهما، هذا التلاحم الذي لم ينقسم أبداً في العهد التالية.

وإذا كانت حركة الاستشراق التي لم تقم أصلاً إلا لخدمة الحركة الصليبية قد ارتبطت منذ البداية بمفكرين كان لهم نشاط صليبي في إفريقيا من أبرزهم قسطنطين الإفريقي، ورامون مارتى، وهمبرت الرومانسي، ورامون البنايفورتى، ورامون لول، الذين كانوا فضلاً عن مكانتهم البارزة بين مفكري الحركة الصليبية، يحضرون من أبرز أعلام الاستشراق، فإنه مما لا ريب فيه أنه كانت هنالك علاقة وطيدة بين النشاط الصليبي في إفريقية ونشوء حركة الاستشراق، والدلائل التاريخية التي تؤكد ذلك كثيرة، منها أنه كان من بين المدارس الأولى

الخمس التي أنشئت للدراسات الشرقية وبصفة خاصة لدراسة الثقافة الإسلامية وتعليم الرهبان المنصرين اللغة العربية Studium Arabicum واحدة في تونس أسست سنة ١٢٥٠ وربما كانت أقدمها، لقد أسست هذه المدارس بجهود من رامون البيافورتى الذي جمع بين النشاطين التنصيري والاستشراقي، وبصفة خاصة مدرسة تونس التي حظيت منذ إنشائها بقسط كبير من جهود أحد كبار القائلين على حركة الاستشراق هو رامون مارتى الذي سبق أن أشرنا إليه، فظلت هذه المدرسة طوال مدة نشاطها مركزاً هاماً لحركة الاستشراق وفي الوقت نفسه مركزاً للحركة التنصيرية في إفريقيا. ولعل جهود رامون لول في هذا المجال تقدم دليلاً آخر على هذه العلاقة، إذ أن تشجيع هذه الدراسات كان هدفاً رئيسياً من أهدافه الثلاثة التي نذر لها حياته كما سبق أن أشرنا، ولذلك منذ أن وضع نفسه في خدمة الحركة الصليبية رأى أن إفريقيا هي الميدان الأول لنشاطه، وتحقيقاً لهذا الهدف تم إنشاء كلية ميرامار بميورقة سنة ١٢٧٦م من أجل تدعيم الاتجاه للاستشراق الذي يكون في خدمة حركة التنصير، فباشرت هذه الكلية منذ ذلك الوقت في تعليم الرهبان المنصرين اللغة العربية وتدريبهم أكبر قدر ممكن من الثقافة الإسلامية ومن ثم لإطلاقهم لممارسة نشاطهم، ولم يكف بذلك بل إنه سعى جاهداً لحمل البابوية وملوك وأمرأ أوروبا على تبني هذا الاتجاه، حتى نجح أخيراً في استصدار قرار من مجمع فينا (١٣١١ - ١٣١٢م) يقضي بإنشاء كراسي لتدريس اللغات العربية والعبرية والكلدانية واليونانية في جامعات روما وبولونا وشلمنقة وباريس وأكسفورد التي كانت أكبر الجامعات الأوروبية وقتئذ كما سبق ذكره. ومنذ ذلك الوقت أخذ الاهتمام بهذه الدراسات خاصة الإسلامية منها يشق طريقه ويتشر في الجامعات الأوروبية في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلادين بتأثير من فكر رامون لول ونظرائه، ثم جاءت الحركة الإنسانية (Humanism)، فبرزت هذا الاتجاه أثناء محاولاتها البحث عن ثقافة عالمية، ومن خلال اهتماماتها السياسية والتجارية إذ وسعت هذه الدراسات لتصبح مجموعة من الدراسات الإسلامية المتخصصة.

وكان وليام بومتل (Guillaume Postel) (١٥٠٥ - ١٥٨١م) من أشهر من أسهموا بتنصيب وافر في دفع حركة الاستشراق إلى الأمام، وهو فرنسي نذر نفسه لخدمة المسيحية عن طريق نشاطه الجهم في هذه الحركة، فسخر علمه الواسع وحدة ذهنه وإتقانه

الجدل والمحاورة لهذا الغرض، وجد في تعلم اللغات فأجاد اللاتينية واليونانية والإيطالية والإسبانية والبرتغالية والعبرية والكلدانية والسريانية والأرمنية والجيشية والعربية، وقد ألحقه فرانسوا الأول ملك فرنسا بسفارته في استانبول لدى السلطان سليمان المشرع (القانوني) فكانت تلك فرصة له للاطلاع على نفائس الكتب في ثنتي فروع المعرفة الإسلامية، وحينما أنشئ أول كرسي للغة العربية في الكوليج دي فرانس في باريس (سنة ١٥٣٩) شغله يومتيل^(١) حيث تربي على يده تلاميذ كان لهم أثرهم في حركة الاستشراق كان من أشهرهم جوزيف سكاليجيه (Joseph Scaliger) (١٥٤٠ - ١٦٠٩م) الذي كان عالماً موسوعياً شديد الحماس للتصوير، فسار على نفس خطى أستاذه في العناية بحركة الاستشراق ودعم النشاط التصوري بهذه الوسيلة، وكان من أبرز أعماله في هذا المجال أنه أغنى المكتبات مجموعات من المخطوطات اللازمة للمشتغلين بالعلم من الأوروبيين لينمي معارفهم^(٢) ويفتح أمامهم آفاقاً جديدة. وفي سنة ١٥٨٦م خطت حركة الاستشراق خطوة واسعة في تعزيز نشاطاتها وذلك بالاستفادة من المطابع العربية التي أسسها دوق توسكانيا فيردناند دي مديشي الذي أعلن بوضوح عن أن تلك المطابع لم تنشأ إلا لمساعدة حركة التصوير^(٣)، فبدأت أعمال المستشرقين منذ ذلك الوقت تطبع فيها بكميات كبيرة لتنتشر بين المسلمين تحت ستار نشر تراثهم، والتي كان الكثير منها حافلاً بالمغالطات والدس الحبيث بهدف زعزعة العقيدة الإسلامية لدى المسلمين ومن ثم اجتذابهم للمسيحية، ثم تواصلت الجهود في تنشيط هذه الحركة وتدعيمها حتى وصلت إلى ما هي عليه في وقتنا الحاضر. وما دامت نشأة حركة الاستشراق قد تمت بجهود أبرز القائلين على حركة التصوير في إفريقيا، فإنه ما من شك في أهمية دور الحروب الصليبية في إفريقية في نشأة تلك الحركة وتطورها.

الأدب :

بالإضافة إلى ما تقدم فإن هذه الحروب قد تركت آثاراً لها في الأدب الأوروبي، ذلك

(١) انظر د. أحمد سمائلووش : المرجع السابق ص ٦٠ - ٦١ .

(٢) انظر د. أحمد سمائلووش : المرجع السابق ص ٦٠ - ٦١ .

(٣) شاخت وبوزورث : المرجع السابق، ق ١، ص ٦١ - ٦٢، د. أحمد سمائلووش : المرجع السابق، ص ٧٧ - ٧٨ .

أن أعمال الصليبيين وحروبهم في إفريقيا قد أمدت هذا الأدب بمادة ومصدر إلهام جديدين، ولعل خير مثال على ذلك ما أثاره موت لويس التاسع في إفريقيا من قصص وأساطير، منها ما وجد طريقه إلى الكتب التي ألقت في سيرته والتي كان منها ما حفل بتعداد الأعمال الخارقة التي نسبت إليه وكراماته مثل ما حفل به مؤلف وليام دي سانت باثو (Guillaume de Saint Pathus) المسمى (La Vie et les Miracles de Monseigneur Saint-Louis) هذا بالإضافة إلى الأساطير العديدة التي جعلته لم يمض بلى تقول إنه اعتنق الإسلام وغادر خيمته في ثياب مرابط ليعيش بين المسلمين مدة أخرى يموت بعدها ويدفن في زاوية سيدي بوسعيد، فضلاً عن القصائد التي نظمها الشعراء المتحمسون للفكرة الصليبية إبان الاستعداد لحملة لويس التاسع على إفريقيا تأييداً للملك الفرنسي، مثل قصائد الشاعر (Rutebouf) وبصفة خاصة قصيدته المعنونة (خصام بين صليبي ومعارض Dispute du Croise et De-croise)، ثم قصيدته المعنونة (أنشودة ما وراء البحر Complainte D'Outmer) اللتين كان يحث فيهما الملك الفرنسي على إسكات صوت المعارضة لتلك الحملة كما سبق ذكره، ثم ما تركته مؤلفات عبد الله الترجمان من آثار في ذلك الأدب سواء من ناحية الإلهام أو المادة، وبصفة خاصة مؤلفه (en Tunisie de Barberia) ثم مؤلفه (Disputato de Lase) اللذين كانا بالقطانية أولهما نظمهما شعراً وثانيهما محاورات بين الكاتب وحمار يتضمن رد عبد الله الترجمان على النصاري، وقد ترجم هذا الكتاب إلى الفرنسية في القرن الخامس عشر أي بعد وفاة المؤلف بقليل، يضاف إلى ذلك أن قصة رونسون كروزو قد أخذت كما يقول المستشرق الألماني جورج يعقوب عن قصة (حي بن يقظان) التي كتبها الفيلسوف ابن طفيل، والتي ترجمت إلى اللاتينية سنة ١٦٧١م، وإلى الإنجليزية سنة ١٧٠٨م^(١). هذا بالإضافة إلى تلك القصص التي نسجت عن موت من لاقوا حتفهم في إفريقيا من مهووسي الشهادة من رهبان حركة التنصير والمنظمات الرهبانية الأخرى، وعن أعمالهم وبطولاتهم، ثم تلك الحوافز التي أذكته هذه الحروب في نفوس الدعاة الصليبيين، فانعكس ذلك بوضوح في أعمال العديد منهم التي كانت من أبرز مؤلفات ذلك الأدب

(١) د سعيد عاشور : المدنية الإسلامية، ص ٨٢ .

الذي ظهر في القرن الرابع عشر والذي عرف بالأدب الدعائي. ثم ما كسبه اللغات القومية الأوروبية من ألفاظ عربية في تلك المرحلة التي كانت فيها تلك اللغات في طور التكوين سواء ما كان منها ما يتعلق بمصطلحات علمية أو أمور تجارية، وإذا صح ما نسب إلى رامون مارتى من تأليفه معجماً عربياً لاتينياً، فإن ذلك يكون من أول المعاجم التي ألغت في أوروبا في هذا الموضوع، مما جعله مثلاً احتذى فيما بعد، وإذا كان هنالك ثمة شك في تأليف مارتى لهذا المعجم، فإنه من الثابت أن الحسن الوزان قد ألف في سنة ٩٣٠هـ / ١٥٢٤م وأثناء مقامه في إيطاليا معجماً عربياً لاتينياً للطبيب اليهودي يعقوب بن سيمون لا تزال مخطوطته محفوظة في مكتبة الاسكوريال حظي بشهرة في الأوساط الأدبية في أوروبا كما سبق ذكره.

وأما في مجال التاريخ فقد كثرت المؤلفات التاريخية التي تناولت حوادث الحروب الصليبية في إفريقية سواء منها ما كان ترجمة ذاتية لشخصيات اشتركت في هذه الحروب مثل تلك التي ألغت عن حياة لويس التاسع كمصنف سانت باثو الآنف الذكر ومثله تاريخ بيليه (Geoffroi de Beaulieu) ثم الحولية التي ألفها كاباريه دورفيل (J. Cabaret D'Orville) عن حياة لويس الثاني دي بوربون واستوعب فيها حوادث حملته الصليبية على المهدي سنة ٧٩٢هـ / ١٣٩٠م وسماها (La chronique du bon Duc Loys de Bourbon) أي «حولية لويس الطيب دوق بوربون»، يضاف إلى ذلك كتاب الحسن الوزان التاريخي (الوجيز في التواريخ الإسلامية) الذي ألفه أثناء مقامه في إيطاليا فقدم به للأوروبيين مادة تاريخية جديدة عن المسلمين.

جـ - الفاحية الاجتماعية :

إنه مما لا شك فيه أن وجود الأوروبيين في إفريقية في عصر الحروب الصليبية بهذه الأعداد الكبيرة إما تجاراً أو جنوداً أو أسرى حروب قد جعلهم يكتبون بعض المؤثرات الاجتماعية من المسلمين وينقلونها معهم إلى مواطنهم عند رحيلهم إليها، فمن طريق هؤلاء عرف الأوروبيون بعض أنواع الأطعمة والأشربة وترتيب المائدة وطريقة تقديم الطعام، ثم استعمال بعض أنواع الملابس وبعض الألعاب الرياضية واستعمال الحمامات العامة وأساليب

جديدة في الصيد بالجوارح، ثم اكتساب بعض النواحي الأخلاقية الحميدة كالعطف على الضعفاء، ونصرة المظلوم، واحترام المرأة التي كانوا من قبل يعتبرونها شيئاً مهملًا مما كان يجردها من صفة الإنسانية، وغير خاف على أحد مدى أهمية هذه الأمور في تخلص المجتمع الأوروبي من التخلف الذي كان يسوده في العصور الوسطى، ومدى آثارها في دفعه نحو التقدم والرقى.

﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ .

[سورة الحاقة : آية ١٢]

خاتمة

وبعد، فإن الحروب التي شنها الغرب الأوروبي على إفريقية على مدى قرون طويلة داخل إطار الحركة الصليبية، لم تكن تقل في شرستها أو تختلف في دوافعها ونتائجها عن تلك التي اشتعلت في جبهات الصراع الإسلامي الصليبي الأخرى. لقد استهدفت تلك الحروب إفريقية لتحقيق أهداف دينية واقتصادية وسياسية واجتماعية تماماً مثلما استهدفت الحملات الصليبية في الأندلس وصقلية وبلاد الشام ومصر. والملاحظ أن بداية الحروب في إفريقية سبقت الزحف الصليبي إلى المشرق، ذلك أن إفريقية حظيت باهتمام الحركة الصليبية منذ وقت مبكر نظراً لأهميتها الجغرافية والدينية والاقتصادية والسياسية والاستراتيجية بالنسبة للكنيسة والعالم المسيحي، وتبعاً لذلك كانت منذ الفتح الإسلامي لها جبهة مواجهة بين المسلمين والقرى المسيحية كما بينته في التمهيد. وإذا كانت الحركة الصليبية قد استغلت العاطفة الدينية لدى مسيحي غرب أوروبا التي بلغت ذروتها في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر للميلاد) نتيجة للصهوة الدينية التي انطلقت من دير كولوني، وسافتهم تجاه بلاد الشام لارتباطهم بها روحياً وكونها مهد المسيحية والاحتوية على مقدساتها، فإنها استغلت كذلك ما يكنه هؤلاء لإفريقية من عاطفة دينية مماثلة نظراً لكونها هي الأخرى ذات روابط روحية قديمة مع الغرب الأوروبي الكاثوليكي، إذ أنها مقر كنيسة قرطاجنة إحدى الكنائس الأولى الست في العالم، والتي نظراً لنضالها المجيد في سبيل المسيحية ولما قدمته لهذه الديانة من مفكرين تبوؤوا مكانة رفيعة بين مفكري المسيحية الأول الذين يطلق عليهم آباء الكنيسة، فوجهتهم إليها لانتزاعها من المسلمين تحت هذا الشعار مخفية أهدافها الأخرى كما فعلت بالنسبة لاحتلال بلاد الشام.

وقد حرصت في هذا البحث على أن أكشف النقاب عن أنه منذ انقلاب ميزان القوى

في عالم البحر الأبيض المتوسط لصالح القوى المسيحية في أواسط القرن الخامس الهجري (الحادي عشر للميلاد)، احتلت إفريقية مكانة خاصة في نشاط الحركة الصليبية، فكانت في طليعة أقطار المغرب الإسلامي التي تعرضت للعدوان الصليبي الكبير الذي بدأ في أواسط ذلك القرن، حينما وجهت إليها المدن البحرية الإيطالية المدعومة من البابوية حملة كبيرة هاجمت المهديّة سنة ٤٨٠هـ/ ١٠٨٧م والتي كانت حملة صليبية بكل ما تعنيه الكلمة كما يئته أثناء تعرضي لحادثها على خلاف المفهوم السائد بأنها كانت غارة لردع عدوان غزاة البحر المسلمين. ومنذ ذلك الوقت توالى عليها الغزوات والحملات المتلاحقة من قوى صليبية متعاقبة، كلما أفل نجم قوة منها أو شغلت عنها حلت محلها قوة أخرى في شن العدوان. وقابل هذا الإصرار من الحركة الصليبية على احتلالها إصرار مماثل إن لم نقل أشد من مسلميها على الدفاع عن بلادهم ضد مطامع هذه الحركة فيها، وليس الأمر كذلك فحسب، وإنما أيضاً العمل على مواجهتها في جبهات القتال الأخرى، إذ أن مسلميها بتجاوبهم مع إخوانهم في بقية العالم الإسلامي مشرقه ومغرب، أسهموا بنسب وافر في التصدي للعدوان بما قدموه لهم من مساعدات مادية ومعنوية طوال عصر الحروب الصليبية، وهو ما توصلت إليه وحاولت توضيحه بقدر الإمكان. وفي الوقت الذي بدأ فيه الزحف الصليبي على المشرق، كانت إفريقية قد بدأت تستحوذ على اهتمام قوة صليبية جديدة ظهرت قبيل ذلك في عالم البحر الأبيض المتوسط وأخذت تتطلع إليها بعين طامعة، وأعني بها النورمان، الذين استفعلوا تردّي الأوضاع فيها في ظل الهجرة الهلالية وبدؤوا في مهاجمتها، ففي الوقت الذي كانت فيه المعارك محتدمة بين المسلمين والصليبيين في المشرق، كانت إفريقية تتعرض للعدوان النورماني الشرس، والذي كان صليباً خالصاً كما يئته وبالأدلة التاريخية بخلاف ما ترددده العديد من المراجع والتي تحاول تجريده من صفته الصليبية تبعاً لمفهوم أصحابها للحركة الصليبية. ومع أن رجاء الثاني النورماني نجح في احتلال معظم شاطئ إفريقية بما فيه من مدن هامة، إلا أن ذلك الاحتلال لم يدم طويلاً، فسرعان ما هب المسلمون لمقاومته، ولم تكد تمضي بضعة سنوات حتى كانت هذه المدن قد حررت نفسها باستثناء المهديّة التي قام بتحريرها عبيد المؤمن بن علي خليفة الموحدین الأول، ولعلّي في هذا أكون قد أزلت التباساً شائعاً في أن هذا الخليفة هو الذي نهض بعبد تحرير

إفريقية، فهو لم ينل في الحقيقة إلا شرف تحرير المهديّة فقط آخر معاقل النورمان في إفريقية. ومن خلال فصول هذه الرسالة أوضحت أنه إذا كان طرد النورمان من إفريقية وما أعقبه من انضوائها تحت لواء الدولة الموحدية المجاهدة التي أخذت على عاتقها مقارعة الصليبيين في غرب العالم الإسلامي قد خفف من حدة نشاط الحركة الصليبية في جبهة إفريقية، فإن هذه الحركة ما كادت تشعر بسريان الضعف والوهن في تلك الدولة حتى عاودت هذا النشاط من جديد، ففي عام ٦٦٨هـ / ١٢٧٠م أي بعد انهيار الدولة الموحدية ببضعة أشهر، توجهت إليها حملة صليبية ضخمة هي التي قادها لويس التاسع ملك فرنسا، وعرفت في التاريخ بالحملة الصليبية الثامنة، هذه الحملة التي لم تلق ما تستحقه من عناية من الباحثين، فبقيت جوانب من حوادثها مجهولة وهو ما حاولت أن ألقى عليه الضوء ما وجدت إلى ذلك سبيلاً. لم تكن إفريقية هدفاً في حد ذاته لهذا الصليبي العريق الذي لم تنه الهزيمة التي مني بها في المنصورة بمصر ولا فشل مؤامراته التي صرف السنوات الأربع التي قضاها في بلاد الشام بعد إطلاق سراحه من الأسر في نسجها، لم يشته كل ذلك عن عزمه على تحقيق أهداف الحركة الصليبية التي نلر نفسه لخدمتها، فقصّد إفريقية بجموعه ليجعل منها نقطة ارتكاز يتوسع منها في الغرب على حساب المسلمين، ثم يخلق دولة المماليك في الشرق ثم يجهز عليها بعد ذلك، ولكن قدره كان في انتظاره، إذ هلك متأثراً بجراح أصيب بها في إحدى المعارك مع المسلمين بعكس ما هو شائع من أنه مات بالوباء الذي تفشى في جيشه. وبالرغم من فشل تلك الحملة في تحقيق معظم أهدافها، إلا أنها نجحت في فتح أبواب إفريقية أمام نشاط حركة التصير، وهو أمر تين لي بوضوح من خلال دراستي لوثيقة الصلح الذي عقد بين المستنصر الحفصي والصليبيين والذي أنهى حوادث تلك الحملة، هذا من ناحية، والتي لم تدرس دراسة علمية من قبل على الأقل من وجهة النظر الإسلامية، ومن ناحية ثانية فإن انجاه لويس التاسع إلى إفريقية أصبح مثلاً احتذى في العديد من المشاريع الصليبية التي حفلت بها الفترة التي امتدت من أواخر القرن السابع الهجري (الثالث عشر للميلاد) وشملت القرن الثامن الهجري (الرابع عشر للميلاد).

كذلك أوضحت أنه كان لطرد الصليبيين من بلاد الشام انعكاس قوي على نشاط

الحركة الصليبية في إفريقية، وظهر ذلك جلياً في المشاريع الصليبية التي وضعت في تلك الآونة، الأمر الذي يؤكد مكانة إفريقية في الخطط الصليبية وحضورها القوي والدائم في أذهان القائمين على تلك الحركة، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى في النعمة التي صيها عليها الغرب الأوروبي مثلاً بمملكة أرغونة التي تولت مهمة شن العدوان عليها طوال مدة شملت معظم عصر القوضى والفن فيها الذي أعقب وفاة المستنصر الأول وامتد إلى ما يقارب القرن، وذلك في صورة مؤامرات صليبية حاكتها ضدها والتي كان من أبرزها إلحاق الحرس المسيحي بخدمة ملاطين بني حفص الذي بينت أنه كان مشروعاً صليبياً علقت عليه تلك المملكة بصفة خاصة والحركة الصليبية بوجه عام آمالاً كبيرة بعكس ما هو شائع من أنهم كانوا جنوداً مرتزقة لا يمتون لتلك الحركة بصلة، وتبينها لجهود حركة التنصير فيها والتي بلغت ذروة نشاطها في تلك الآونة، ثم في صورة حملات عسكرية كان من أهمها تلك الحملة التي قادها ملكها بطرس الثالث بنفسه على مرسى القل، واحتلال رجار دي لوريا قائد أسطول هذه المملكة لجزيرة جربة، وغارات تخريبية أكثر من أن يحيط بها حصر كان يوجهها القراصنة القطلان والصقليون رعايا تلك المملكة وكان أكبر مشجع لها على هذه الأعمال العدوانية هو حالة الضعف التي انتابت إفريقية في عصر القوضى والفن الذي أضرنا إليه آنفاً.

ولم يخفف من حدة النشاط الصليبي في جبهة إفريقية انشغال مملكة أرغونة بمشاكلها في شبه جزيرة أيبيرية بصفة خاصة وأوروبا بعامة في أواسط القرن الرابع عشر الميلادي، إذ حلت جنوة محلها في هذا العدوان، ذلك أنها وجدت في إفريقية المتنافس الوحيد لها بعد خروجهما مهزومة من صراعها الطويل مع منافستها البندقية، حيث كانت هذه الهزيمة سبباً رئيسياً في حرمانها من التجارة الشرقية، فامتثلت نشاطها العدواني بتوجيه حملة صليبية كبيرة احتلت طرابلس الغرب سنة ٧٥٥هـ / ١٣٥٤م، ثم أعقبها بحملتها هي وحليفاتها التي احتلت بها جربة سنة ٧٩٠هـ / ١٣٨٨م، وإسهامها بتصيب كبير في الحملة الصليبية التي قادها لويس الثاني دي بوريون على المهدي سنة ٧٩٢هـ / ١٣٩٠م، والتي كان دورها فيها دور الشريك الأصغر وليس الأكبر كما تردده العديد من المراجع لا سيما الفرنسية

حفاظاً على سمعة فرنسا وهبتها على ما يبدو لما صادفته تلك الحملة من الفشل، فضلاً عما تنسبه تلك المراجع لجنوة خطأ من أنها كانت المحرض على تلك الحملة، لأن كثيراً من الدلائل تشير إلى أن فرنسا كانت تفكر في القيام بها، وما كان دور جنوة إلا عاملاً مساعداً فقط وهو ما يتتبعه بوضوح أثناء دراستي لحوادثها. كما أن بمقابلتي الروايات المسيحية بما ورد في المصادر التاريخية الإسلامية تبين لي جوانب من تلك الحوادث لم يسبق لها أن بحثت من وجهة النظر الإسلامية على الأثر، فألقيت عليها مزيداً من الضوء لعلّي بذلك أكون قد أوليتها ما تستحقه من الدراسة.

ومن خلال متابعتي لتاريخ نشاط الحركة الصليبية في إفريقية في هذا البحث، أوضحت أن الضعف الذي كان يصيب إفريقية نتيجة للمشاكل والفتن الداخلية هو الذي كان يحفز تلك الحركة ويشجعها على شن العدوان عليها، ولكن لسوء حظ تلك الحركة كانت الظروف دائماً تحول دون ما تشتهي، فكانت الحملات التي توجهها إليها وتعتقد عليها الآمال الكبيرة، لا تلبث نظراً لتلك الظروف أن تقفل وبطنى هذا القفل على تلك الأهداف ويخفيها فتبدو لغير المحقق تبعاً لذلك وكأنها غارات كبيرة لا تختلف عن غارات القراصنة إلا من حيث كبر حجمها، وأنها بعيدة عن نطاق النشاط الصليبي، ولكنها في حقيقة أمرها كانت صليبية الدوافع والأهداف بكل ما تعنيه الكلمة، ولو أنها كانت تصادف النجاح لبرز هذا الأمر فيها بوضوح، لقد كانت هذه الظروف خارجة عن إرادة الحركة الصليبية، فدخلت الهلالية ميدان المعركة إلى جانب تميم بن المعز إبان الهجوم الأول على المهديّة سنة ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م ورفض رجاء الأول النورمان التعاون مع المدن البحرية الإيطالية التي قامت بهذا الهجوم ورفضه قبول تلك المدينة منها حينما احتلتها لأنه كان مشغولاً باستكمال استيلائه على صقلية، وضعف إمكانيات تلك المدن وشعورها بالعجز عن الاحتفاظ بالمهديّة ناهيك بالتوسع قلب حسابات تلك المدن وجعلها تقبل الانسحاب مقابل فدية ضخمة وامتيازات تجارية، الأمر الذي جعل تلك الحملة الصليبية تبدو وكأنها غارة للردع والحصول على الغنيمة. وأدى ظهور الدولة الموحدية إلى إنهاء الوجود النورماني في إفريقية بهذه السرعة لاخفاء الأهداف الصليبية من وراء ذلك الاحتلال، والتي كانت قد

بدأت تظهر وقتئذ، كما وأن الحملتين الكبيرتين اللتين وجهتهما الحركة الصليبية إليها واللتين كانت قد توفرت لهما إمكانيات كبيرة وهما حملة لويس التاسع، وحملة لويس الثاني دي بوربون، قد أرسلتا في وقت غير مناسب، إذ كانت إفريقية في زمن كلتا الحملتين تمر في عهد قوة مما مكنتها من مواجهتهما، حيث كانت الأولى في عهد المستنصر الأول الذي كانت الدولة الحفصية وقتئذ في أوج مجدها، والثانية في عهد أبي العباس أحمد الثاني الذي نعمت تلك الدولة في عهده بفترة صحوة بعد طول اعتلال، فلو تأخرت الحملة الأولى عقداً من الزمن حيث بداية عهد القوضى والفتن، أو تقدمت الثانية عقدين أي قبل انقضاء ذلك العهد لكان من الممكن لأي منهما تحقيق أهدافها. وبالتالي يبرز تلك الأهداف الصليبية لهما بوضوح، والتي ألقى ذلك الفضل عليها متاراً كثيفاً، بحيث لم تعد تظهر بسهولة. وكان انشغال أرغونة بمشاكلها مع جيرانها بصفة خاصة وفي أوروبا بصفة عامة هو الذي أجبرها على صرف النظر عن إفريقية مؤقتاً بالرغم من أنها كانت قد بدأت في ربطها بعجلتها بل وباشرت في احتلالها بالفعل حينما أقدم أسطولها على احتلال جزيرة جربة. كما أن ظروف جنة الداخلية وأوضاع القوى الأوروبية في أواسط القرن الرابع عشر الميلادي لم تتح لجنوة الاستفادة من احتلالها لطرابلس الغرب سنة ٧٥٥هـ / ١٣٥٤م، فاضطرت لأخذ الفدية والانسحاب منها. وتبعاً لكل ذلك فشلت الحركة الصليبية في تحقيق أهدافها في إفريقية.

وكما فشلت هذه الحركة عسكرياً فإنها فشلت كذلك سلمياً، إذ تمسك مسلمو إفريقية تمسكاً قوياً بدينهم في مواجهة حركة التصير، فمقطت حجج الرهبان المنصرين، ولم تصمد أمام الفكر الإسلامي الذي كان يتسلح به عامة مسلمي إفريقية وخاصتهم على حد سواء، مما جعل تلك الجهود تذهب هباء وتختفي في تصير أحد يذكر من المسلمين، ولم يكن الأمر كذلك فحسب، بل إن تلك الجهود أدت إلى نتائج عكسية، ذلك أن الكثير من النصارى الذي كان لهم صلة بإفريقية على اختلاف أنواعها، ومن بينهم رهبان في حركة التصير ذاتها قد انفتحت قلوبهم للإسلام فاعتنقوه، ومن هؤلاء من لم يكتف بذلك بل أصبح من دعاة الإسلام ومن المدافعين عنه، ويؤلف المؤلفات يرد فيها على النصارى ويفند حججهم ويقدم الأدلة من التوراة والإنجيل على نبوة سيدنا محمد ﷺ.

ولعلّي أكون قد ألفت أضواء في هذا البحث على حقيقة هامة هي أن الحركة الصليبية إذا كانت قد فشلت في الوصول إلى أهدافها في إفريقية، فإنها قد أحرزت مكسباً هاماً هو إتاحة الفرصة للأوروبيين للاحتكاك بالمسلمين الذي كانوا يفوقونهم حضارياً، مما جعلها معبراً رابحاً للحضارة العربية الإسلامية إلى أوروبا يضاف إلى معابرها الأخرى الثلاث الأندلس وصقلية وبلاد الشام. فبالإضافة إلى الدور الكبير الذي قامت به القيروان أول مركز لإشعاع الحضارة العربية الإسلامية في الغرب في نشأة تلك الحضارة في كل من الأندلس وصقلية ورفلها المستمر لهما بمؤثراتها حتى بعد نضجها فيهما واللذين كانا أهم معبرين لهذه الحضارة إلى أوروبا مما جعلها والحالة كهذه تصبح معبراً حضارياً غير مباشر، فإنها نظراً لاحتكاك الأوروبيين بمسلميها طوال عصر الحروب الصليبية سواء عن طريق الاتصال التجاري المستمر بين الطرفين أو عن طريق الجاليات الأوروبية التي أقامت فيها إما للتجارة أو كحرس سلطاني أو أسرى حروب، أو طلاب علم، أو رهبان تنصير وسواهم، كل ذلك جعلها تصبح معبراً مباشراً للحضارة العربية الإسلامية إلى أوروبا، تسربت منها الكثير من مؤثراتها في النواحي الاقتصادية والثقافية والاجتماعية، مما يجعل من ذلك تعويضاً للحركة الصليبية عن ما منيت به من فشل.

ولكن، هل كان فشل حملة لويس الثاني دي بوربون هو نهاية للحروب الصليبية في إفريقية؟ الحقيقة أن ذلك لم يكن نهاية لهذه الحروب كما أوضحت ذلك في البحث، وإنما كان خاتمة مرحلة من مراحلها، فقد أعقب تلك الحملة مباشرة بدء مرحلة تالية حمل لواء العدوان فيها النصارى الإسبان الذي ظلوا مغممين بالروح الصليبية إلى حد الإنسحاق، لقد بدأت هذه المرحلة منذ أواخر ذلك القرن بالذات (القرن الرابع عشر الميلادي) وامتدت إلى أواسط القرن السادس عشر الميلادي، حيث شهدت إفريقية خلالها العديد من الهجمات الصليبية التي كان يشنها هؤلاء على نواحيها، وحفرهم سقوط غرناطة في أيديهم على تشديد تلك الهجمات ملاحقة منهم للمسلمين في العدو إلى أن تمكنوا من احتلال مدينة تونس ذاتها حيث نشبت قلوبهم ما كانت تطفح به من حقد أسود على الإسلام والمسلمين في صورة فظائع ارتكبوها في تلك المدينة، حتى إن جامع الزيتونة الذي كان له مكانة خاصة

في قلوب المسلمين نظراً للدور الديني والحضاري الهام الذي قام به، لم يسلم من فظائعهم، فانتهكوا حرمة، وأخرجوا ما كان به من كتب بما فيها المصاحف الشريفوقداسوها بأقدامهم وبعثوها أوراقاً في الشوارع والأزقة، فضاعت تلك الثروة العلمية الضخمة التي لا تقدر بشئ، وأثبتوا بذلك أنهم كانوا لا يختلفون كثيراً عن هولاءكو حينما دخل بغداد، وعلى ذلك كادت الحركة الصليبية في هذه المرحلة أن تنجح في تحقيق أهدافها، إلا أن تدخل العثمانيين في أواسط القرن العاشر الهجري (السادس عشر للميلاد) فوت عليها الفرصة وحرمها من إحراز هذا النجاح.

والحمد لله رب العالمين

الملاحق واللوحات والخرائط

وثيقة الصلح بين المستنصر الحفصي والصليبيين

بسم الله الرحمن الرحيم
 في سنة ١١٨٥ من الهجرة النبوية
 صلح بين المستنصر الحفصي والصليبيين
 على ما يلي:
 ١- صلح على ما يلي:
 ٢- صلح على ما يلي:
 ٣- صلح على ما يلي:
 ٤- صلح على ما يلي:
 ٥- صلح على ما يلي:
 ٦- صلح على ما يلي:
 ٧- صلح على ما يلي:
 ٨- صلح على ما يلي:
 ٩- صلح على ما يلي:
 ١٠- صلح على ما يلي:

بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على سيدنا محمد النبي وآله وصحبه وسلم تسليماً.

هذا ما اتفقوا عليه وعقدوه على يد الشيخ الأجل الأكرم أبو زيان محمد بن عبد القوي : الملك الأجل المعظم المختار فليب بنعمة الله تعالى ملك افرنسة ابن الملك الأجل الأقدس لويس، والملك الأجل المعظم جبارل بنعمة الله تعالى ملك صقلية، والملك الأجل المعظم تيبلط. ملك تنغاره، أمدهم الله تعالى لتوفيقه، والخليفة الإمام المؤيد المنصور أمير المؤمنين أبو عبد الله محمد بن الأمراء الراشدين أمدهم الله بنصره وأمدهم بمعونته ورضي عنهم وأبقى للمسلمين بركتهم، على شروط يأتي ذكرها وهي : أن يكون جميع من يتردد من المسلمين الذين من بلاد أمير المؤمنين وما هو تحت طاعته وما ينضاف إلى طاعته إلى بلد من بلاد الملوك المذكورين والأقطاط والزعماء، أو إلى جزيرة من الجزائر المعروفة بهم، أو ما هو تحت طاعتهم أو ما ينضاف إلى طاعتهم، في أمان الله تعالى لا يعترض أحد منهم في نفس ولا مال كبير أو قليل وأن يكفوا عادية كل من يخرج من بلادهم وما هو تحت طاعتهم، وما ينضاف إلى طاعتهم من مسطحات وقطع وشياطي وغيرها من سائر الأجفان كبيرها أو صغيرها، لضرر أو تعد على شيء من بلاد أمير المؤمنين وما ينضاف إلى طاعته وما بينهما من جميع البلاد والجزائر والسواحل والمراسي، أو على أحد من ساكنيها، فمتى أصيب أحد من المسلمين المذكورين في نفس أو مال قليل أو كثير فعليهم جبر ذلك على المسلمين ورده، سواء كان المسلمون واردين على البلاد المذكورة أو صادرين عنها، وعلى أنهم لا يمدون أحداً يريد ضرر بلد من بلاد أمير المؤمنين ولا ما ينضاف إليها ولا أحد من أهلها، وعلى أنه متى اتكسر لأحد من المسلمين المذكورين جفن، أو جفن للنصارى وفيه أحد من المسلمين المذكورين في مرسى من مراسي بلادهم وفيما يكون تحت طاعتهم، فعلى كل واحد منهم حفظ ما يصل من ذلك إلى بر طاعتهم من المسلمين أو من أموالهم ورد جميع ذلك إلى المسلمين، وعلى أن يكون جميع من يحل من مراكب المسلمين والنصارى من غير البلاد المذكورة وما ينضاف إلى طاعة المسلمين في مرسى من مراسي أمير المؤمنين في أمن مثل أمن أهل البلاد المذكورة ما داموا في المرسى المذكور أو مقلعين واردين أو

صادرين، وعلى أن يكون جميع من يصل من تجار أهل بلاد الملوك المذكورين، وجميع النصارى الذين هم أصدقائهم، في أمن الله تعالى في أنفسهم وأموالهم على اليهود المتعارف فيما لهم وعليهم من يبيعهم وأشريتهم، محفوظين في ترددهم وإقامتهم، ما داموا مقبلين على تجارتهم محافظون على رباط هذا الصلح، ويكون لهم من الشروط مثل ما اشترط على الملوك المذكورين سوا حرف بحرف، وعلى أن يكون رهبان النصارى أو قسوسهم مكاناً في بلاد أمير المؤمنين، وهو يعطيهم موضعاً يعمرون فيه دياره ويوت الصلاة، ومواضع لدفن موتاهم، والرهبان والقسوس المذكورين يعظون ويصلون مجهرأ في كنائسهم، يخدمون الله بما يلزم شريعتهم وبما هم معودون في بلدهم، وعلى أن جميع التجار الذين في بلد أمير المؤمنين من بلاد الملوك المذكورين وغيرها من النصارى يكونون على عوايدهم في جميع أمورهم، ويرد لهم كل شيء لهم عند الناس وعلى الناس، وعلى أن الملوك المذكورين لا يقبلوا في بلادهم من يكون عدواً لأمر المؤمنين ولا ينجدوا لمن يصحرك لضرر أو لتعد على شيء من بلاده، وعلى أن من حصل من الأسرى بلك المسلمين أو بيد الملوك المذكورين وبقي حياً فبرد كل أسير إلى أهل دينه، وعلى أن يقطع الملوك المذكورين وجميع من إليهم وفي محلته من أهل طاعتهم ومن غيرهم من كل من تحرك بحركتهم أو وصل في صرختهم أو معرفتهم أو يصل بعدهم مثل الملك إدوارد أو غيره كائناً من كان، ولا يبقى في بر المسلمين أحد إلا إن بقي لهم أتعال أو بعض ناس فيكونوا في موضع معون لهم من جهة أمير المؤمنين، ويكونوا محفوظين منه إلى حين رجوع المراكب إليهم، وعلى أن مدة انعقاد الصلح بين أمير المؤمنين والملوك المذكورين وغيرهم من الأقطاط والزعماء إلى تمام خمسة عشر عاماً شمسية، أولها شهر نوفمبر المتصل بأكبر الموافق لشهر التاسع، وعلى أن يعطي لهم مايتا ألف أوقية ذهباً وعشر آلاف أوقية، كل أوقية منها يقبض عنها من الفضة ما قدره خمسون درهماً من دراهمهم في الوزن والطيب، يجعل لهم منها نصف العدد محضراً، والنصف الثاني مقسط بين عامين شمسيين من تاريخه، نصف المقسط يقبض آخر كل عام من العامين المذكورين، والذين يقولون في بر أمير المؤمنين بعد سفر الملوك وأجنادهم على ما ذكرناه يكونون محفوظين من جهة أمير المؤمنين، وإن تعرض لهم عارض في أنفسهم وأموالهم فعلى أمير المؤمنين رد ذلك إليهم. والانبورور الأجل بادئين صاحب

قسطنطينية والكمث الأجل ألفوس كمت طلوزة، والكمث الأجل كي كمت دافلندر، والكمث الأجل هري كمت لوسنبرك، وجميع من حضر من الأقماط والزعماء والفرسان داخلون في ذلك كله ولازم لهم ذلك. شهد على جميع من ذكر في الأعلام المشهودين بما فيه بعد تقريرهم عليهم وفهمهم جميع ما نسب إلى كل واحد منهم بمحضر الجميع. وليعطي أمير المؤمنين على المال المتبقي ضماناً من تجار النصارى للملوك المذكورين وإن كل من يكون عدواً للملوك والأقماط المذكورين يصرف ويخرج من بلاد أمير المؤمنين ولا يعاد يقل. وشهد أيضاً من حضر من القسوس والرهبان والأساقفة بجميع ذلك. وأمير المؤمنين أيده الله تعالى، وولده المبارك الأسعد، والشيخ الأجل أبو زيان بن عبد القوي، وعدوا على دينهم وأمانتهم لتمام ذلك، بتاريخ الخامس لربيع آخر عام تسعة وستين ومستمائة. ويضاف إلى هذا العقد أن يودى إلى الملك الأجل جازل بنعمة الله ملك صقلية عن الخمسة أعوام الماضية المتصل آخرها بهذا التاريخ ما كان يودى للأنبرور سواء، ويودى للملك الأجل المذكور من اليوم رجاء في كل عام ما كان يودى للأنبرور مثلياً.

والحمد لله تعالى، شهد بانعقاد الصلح وصحته وثبوته عبد الحميد بن أبي البركات بن عمران بن أبي الدنيا الصديقي، وعلي التميمي بن إبراهيم بن عمر، وأبو القسم بن أبي بكر التجيبي.

بسم الله الرحمن الرحيم
صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه
وسلم تسليماً
والحمد لله وحده

من عید الله عمر أمير المؤمنين ابن سيدنا الأمير أبي إبراهيم بن أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين أيدهم الله تعالى بنصره وأمدهم بمعونه إلى مطاع ملوك النصرانية ومعظم عظماء الأمة الرومية وقيم الملة المسيحية ووارث رياستها الدينية البابية ابنه سانس أش أنار الله تعالى بصيرته بتوقيفه وإرشاده وجعل التقوى التي أمر عز وجل بها عدته لحياه ومعاده وأناله من سابق الهداية ما يفضي لمدى الغاية بأتم انفساحه وامتداحه تحية كريمة نراجع بها ما تقدم من تحياتكم الواردة علينا وترجم لكم أرجها عما تعتمدكم به المبار لدينا. أما بعد فإننا نحمد الله الذي لا إله إلا هو حمد من علم أنه الرب الواحد الذي دلت على وحدانيته البراهين القاطعة والشواهد ونزهته العقول الراجحة عن أن يكون له ولد أو يدعى أنه الوالد تعالى الملك الرحمان عما يقول الثلث والمثبه والمجاهد وتصلى على سيدنا محمد رسول المصطفى الكريم الذي وضحت به للنجاة المذاهب والمقاصد وخرقت له بظهور المعجزات الباهرة على يديه العوائد ونصر بالرعب فألقى له يد الاستسلام كل من كان يتأوى ويعاند وعلى آله وصحبه الكرام الذين ازدانت بهم المحاضر والمشاهد ووصلت قصار صوارمهم في مواقف الحروب السواعد وأنهزت لهم في استيلاء الإسلام على مشارق الأرض ومقارها المواعد ونسأل الله عز وجل رضاه عن الإمام المعصوم المهدي المعلوم الذي جذبه لدين الله تعالى الشباب المعاندين وأهلت بهدياته بعد إقفارها المعاهد وباء بالخسران المختل لأمره والمكاييد وعن الخلفاء الراشدين المهتدين الذين تولى منهم إتمام بدايته الإمام الراشد فالراشد وعلت بهم لأمر الله تعالى المراقبي والمصاعد وعن سيدنا الأمير الطاهر أبي إبراهيم بن سيدنا الخليفة أمير المؤمنين بن سيدنا الخليفة أمير المؤمنين الذي طابت منه العناصر والمخاتد واشتق من نعمة للخلافة قد أوردق نضارة وغضارة فننها المائد وزهد في الدنيا الفانية ورغب في الآخرة الباقية فنعيم لأرغب الزاهد. وهذا كتابنا كتب الله تعالى لنا حظوظاً من رضاه تزكو وتتوفر واستعملنا وإياكم بكل ما نتهيا به لإحراز الفوز لديه ونتيسر من حضرة مراكش حرمها الله تعالى ودين الله عز وجل عال مسماه ومصعده والتوحيد حال بالظهور جيده ومقلده والسعي معمل في ابتغاء رضاء الله تعالى موفقه ومسدده والحمد لله رب العالمين حمداً

يتوالى على الألسنة تكرره وتردده ونستدعي به من مزيد النعماء أفضّل ما وعد به تعالى من يشكره ويحمده وإلى هذا يسر الله تعالى بتوفيقه إسماعلكم وجعل في طاعته التي تعبّر بها خلقه أصداركم وإيرادكم فإنه سبقت منا إليكم مراجعات عن كتبكم المؤثرة الواصلة إلينا وأرسلنا نحوكم من الجواب عنها ما تمنّا به بركم ووفينا وعرفناكم أننا نوجب لمنصبكم الذي أبر في ملتكم على المناصب وأقر لرتبتكم فيه أهل دينكم.

الهاش:

بالشغوف على سائر ما لهم من المراتب فأنتم عندنا لذلك بالكرمة الحفيلة ملحوظون وبالعناية الجميلة ملحوظون يؤكد من أسباب المواصله لكم ما حقه أن يؤكد ونجدد من جهود الحفاية بكم ما شأنه أن يجدد ونشكر لكم ما توالى علينا من حسن إيثاركم لمجانبتنا وتردد وفي سالف هذه الأيام انصرف عن حضرة الموحدين أعزهم الله البشيب* الذي كان قد وصل بكتابتكم إلينا انصرافاً لم يعده منا فيه بر وإكرام ولم يفبه فيه اعتناء به واهتمام كما أنه في المدة التي قضى له فيها لدينا بالمقام لم نزل نتعهده أثناءها بالإحسان والإنعام وتحمل كتابنا إليكم تعريفاً بما اختار من انصرافه وتوخيّاً في ما أثره من ذلك لإسعافه وما قصر له في حاله نقامه ورحيله ولا عدل به عن حفيّ البر وحفيله وسنيّ المن وجزيله ذهاباً لتكرّم إيثارتكم السابقة في حقه وسلوكاً به من البر على أوضح طرفه والله تعالى يرشد في كل الأحوال لأزكى الأعمال لديه وينجد من الأقوال والأفعال على ما يقرب إليه بمنه ومتى منيح لكم أسعدكم الله تعالى بتقواه أن توجهوا لها ولواء النصارى المستخدمين ببلاد الموحدين أعزهم الله من ترويه برسم ما يصلحهم في دينهم ويجريهم على معتاد قوانينهم فتحيروه من أهل العقل الراجح والسمت الحسن ومن يستلذ في النزاهة على واضح السنن ومن يتميز في الخدمة بالمذهب المستجاد والقصد المستحسن وذلك هو الذي إذا تعين من قبلكم مستجعماً للصفات المذكورة ومتحلياً بالخلال المذكورة حسن في كل ما يستخدمه الرب.

ه البشيب : الأسقف.

الظهر :

وتسنى له بذلك أجزل الخير وأوفره وأنتم تفون بهذا المقصود في ما تعلمون من اختياركم متى ظهر لكم التوجه بهذا الاسم لأحد وتعتمدون فيه أجمل معتمد وشكرنا لكم على كل ما تذهبون إليه في جانبنا من تمشية الأغراض والمذاهب وتحفلون فيه من المساعدة الصادرة منكم عن كرم الضرائب وتبادرون إلى بذله من المكارمة المناسبة لما لكم في نحلنكم من انافاة المناصب مما نكافئ به صدق مصادقكم وتنوحي منه ما لا يعدل عن موافقتكم جزاء لبركم بأمثاله واعتناء بما يقضي لولائكم بدوامه واتصاله بحول الله تعالى وقوته وهو سبحانه ييسرنا لنيل الحمى والزيادة من فضله ويأخذ بنا في ديننا وديننا على أقوم سبله ويجعلنا وإياكم بما يمنحنا من التوفيق في أول ربيع من حزب الحق وأهله بمنه وكرمه لا رب سواه وكتب في الثامن عشر من شهر ربيع الأول عام ثمانية وأربعين وستمائة.

دافة الظهر :

إلى مطاع ملوك النصرانية ومعظم عظماء الأمة الرومية وقيم الملة المسيحية ووارث رياستها الدينية البابا ابنه مانس أش أنار الله تعالى بصيرته بالتوفيق والإرشاد ومنحه بتقواه معادة الحميا والمعاد.

رسالة من أبي يحيى زكريا بن اللحْياني إلى خايي الثاني ملك أرغونة

وهي من تحرير أبي الفضل محمد بن أبي الحسين بن إبراهيم النجاشي مؤرخة في ٢٩ رمضان سنة ٧١٢هـ / ٢٨ مايو سنة ١٣٩٣م، وهي مشهورة ضمن وثائق تاج أرغونة، وأعاد نشرها الدكتور محمد الطاهي ضمن بحثه (الهجرة الأنطولية إلى إفريقيا ص ٨٧ - ٩٠) وعنه أخذت مسودة هذه الرسالة الذي أخذها بدوره عن الأصل مباشرة.



بسم الله الرحمن الرحيم
صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه
والسلم تسليماً الحمد لله والشكر لله

من عبد الله زكريا أمير المؤمنين أهدى الله بنصره وأمدّه بمعونته إلى السلطان الحبيب
الكبير الشهير الرفيع الأثير الخطير جاقمة ملك أرغون وبلنسية وميوزة ومربية وقمط برجلونة
وقبطان جنرال عن الكنائس وعن الباب ابن السلطان الحبيب الكبير الشهير الرفيع الأثير
الخطير بطرو ملك أرغون وبلنسية وميوزة وقمط برجلونة وفق الله قصده وأجمل رشده. أما
بعد فكتابتنا هذا إليكم من حضرتنا تونس حرسها الله ونعم الله سبحانه علينا مستمرة وآلاءه
بدوام الشكر ثابتة مستقرة - والحمد لله - حمداً يؤذن بالمزيد ويشعر بالجدد من نعمه فالجدد
والى هذا أرشدكم الله فإننا كتبنا إليكم مقررين لصفاء ودادنا وخلوص محبتنا واعتقادنا ما
أردنا أن يكون معلوماً عندكم مقدمين ومعرّفين أن ابن عمكم الملك الحبيب الكبير الشهير
الخطير صاحب ميوزة وجه إلينا رسالاً من قبله في شأن الصلح فمقدناه معه وأبرمناه لعلمنا أن
الحال منه وسفكم واحدة وأن نيتكم له في جميع ما يفعله مساعدة وطلب منا في صلحه أن
يكون لمن يصل من ميوزة فندق لسكانهم وقصيل يحكم بينهم فأجبناه لذلك بعد أن ذكر لنا
رسوله أنه تحدث معكم في هذا فوافق رضاكم ونحن لا نعمل إلا ما يكون باختياركم ويحيى
بوفق مرادكم لما بيننا من المحبة المتصلة قبل جلوسنا هذا للموضع وبعده وذلك متوارث عن الآباء
متصل فيما بعد بين الأبناء إن شاء الله تعالى والصلح الذي كنتم عقدتموه قبل هذا على يدنا مع
ابن عمنا وجددتكم بعد ذلك جدير منكم أن تثبوه وتمكنوه وتزيدوا على ما عقدتم فيه لأننا
باقون عليه وقد اتصل بنا أن النداء شاع ببلادكم بأن من أحب القطع على بلاد المسلمين ما
عدى بلاد الأندلس فليخرج فعجبنا من كونكم لم تستثنوا بلادنا مع ما بيننا من الصلح المفقود
وبقاء مدة من أمدّه المحدود بل نعتقد أن المدة لو فرغت لكنتم من يجدهد ويمنع بلادنا من القطع
بكل سبب يجده هذا هو ظننا فيكم واعتقادنا في مودتكم وتصافيتكم وقد أمرنا عبدنا وقائدنا
برناط دفس أن يشرح لكم ما لم نشرحه في كتابنا هذا فصدقوه بحول الله فيما يكتبه
واسمعوا منه ما يقوله والواصل إليكم بكتابنا هذا د. رنس بركة كاتب التصاري لدينا توجه
ليصل بجوابكم ويعود إلينا بكتابكم بما تعتقدونه فيكم إن شاء الله وهو سبحانه يرشدكم كتب
في التاسع والعشرين لشهر رمضان المعظم من عام اثني عشر وسبعماية.

رسالة من أبي يحيى زكريا بن الحسين إلى خاتمي الثاني ملك أرغونة

وهي من تحرير أبي الفضل محمد بن أبي الحسين بن إبراهيم التجاني مؤرخة في ٩ محرم سنة ٧١٦هـ / ٣ أبريل سنة ١٣١٦م، وهي منشورة ضمن وثائق تاج أرغونة. وأعاد نشرها الدكتور محمد الطائي ضمن بحثه (الهجرة الأندلسية إلى إفريقيا ٨٤ - ٨٦) وعنه أخذت صورة هذه الرسالة الذي أخذها بطوره عن الأصل مباشرة.



بسم الله الرحمن الرحيم
صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه
وسلم تسليماً والحمد لله والشكر لله

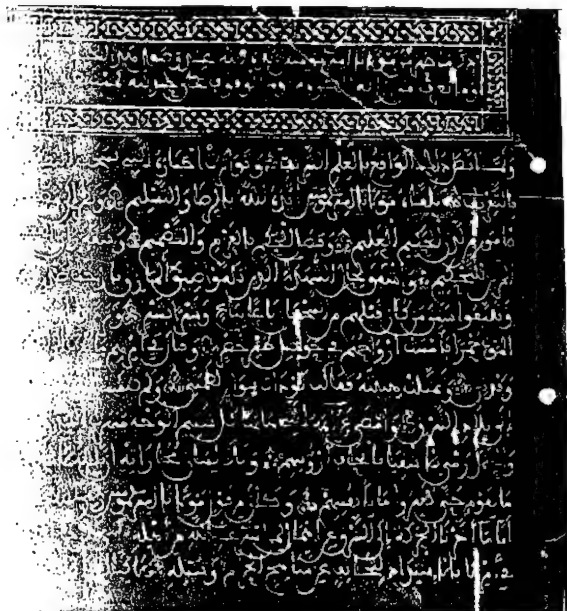
من عبد الله زكريا أمير المؤمنين أيده الله بنصره وأمه بمعنوته إلى السلطان الحبيب
الكبير الشهير الرفيع الأثير الخطير جاقمة ملك أرغون وبلنسية وميوزة ومرمية وقمط
برجلونة وقبطان جنرال عن الكنائس وعن الباب ابن السلطان الحبيب الكبير الشهير الرفيع
الأثير الخطير بطرو ملك أرغون وبلنسية وميوزة وقمط برجلونة وفق الله قصده

أما بعد فكاتبنا هذا إليكم من منزلنا المبارك بطرابلس بمته الله ونعم الله سبحانه قبلنا
مستمرة، وآلاه بدوام الشكر ثابتة مستقرة والحمد لله حمداً يؤذن بالمريد ويشعر بالجدد من
نعمه فالجدد وإلى هذا أرشدكم الله فإنه وصل إلينا القسيس الحبيب الكبير الثقة الأمين يير
د من ملن فتحادثنا معه فيما بيننا وبينكم من الرد الصميم والاعتقاد الخالص السليم وثاقفناه
بما يلقيه إليكم في ذلك فالذي يلقيه لكم نحن أمرناه بإلقائه وهو يبلغه لكم على أكمل أنحائه
لعلنا بصدقه وأمانته وحسن أدائه ولما تحققه من انقطاعه إليكم وإلى الأخ الأعز علينا
السلطان الحبيب الكبير الشهير الرفيع الأثير الخطير فديرك ملك صقلية أسعده الله تعالى

وقد أكدنا عليه في أن يبلغ فيما يلقيه لكم من تقرير المحبة والصداقة على نحو ما كان
بين أسلافنا وأسلافكم وعلى ما يكون بين عقبن وعقبكم إن شاء الله تعالى وبهنا معه كتبنا
لملك المغرب أعزه الله تعالى في شأن ما لحقنا من أذية أهل مبنية بوصول قطعهم إلى جهتنا
وإفسادهم لمراسينا وأخذهم أجفاننا للنصارى الذين هم منا وإلينا فإن من صالحناه من
النصارى حكمه حكمنا وصون دمه وماله واجب علينا كما نصون دماءنا وأموالنا وملك
المغرب أعزه الله عند وصول كتابنا إليه يقطع عنا هذا الضرر بأن يأمر أهل مبنية أن لا يقرروا
ببلادنا ولا يصلوا إلى جهتنا بوجه من الوجوه فإن احتاج القسيس الحبيب الكبير ييرد من
ملن إلى التدبير معكم في وصول الكتاب المذكور إليه فأعينوه على ذلك والله يعين الجميع
على ما يصلح الأحوال هو سبحانه ولي التوفيق

كتب في التاسع لشهر محرم عام مئة عشر وسبعماية وهو الموافق لليوم الثالث من
أبريل - مئة ١٣١٦ م -

عَزَمَ أَبِي عَثَانَ الْمُرِينِي عَلَى الزَّحْفِ إِلَى إفريقية فِي المَحاوِلَةِ المُرِينِيَّةِ الثَّانِيَةِ لِتَوْحِيدِ
المَغْرِبِ العَرَبِيِّ (مَنْ فِيضُ العُتْبَابِ وإِهاضَةُ قِداحِ الآدابِ فِي الحَرَكَةِ السَّعِيدَةِ إِلَى
قَسْطِطِيَّةِ وَالزَّابِ) مُؤَلَّفَهُ ابْنُ الحَاجِ النُّمَيْرِي



ذكر ما ظهر من مولانا أمير المؤمنين أيده الله عن وصول هذا الخبر وما تعرف من آرائه
الكريمة يوم الوقوف على حديثه المستظهر

ولما اتصل ذلك الواقع بالعلم الشريف، وتواترت بأخباره التي نسخت التفكير
بالتعريف، تلقاه مولانا أمير المؤمنين أيده الله بالرضا والتسليم، ونظر إلى مصادر الأمور من
لدى الحكيم العليم، وفصل الحكم بالعمز والتصميم، وسفه رأي القعدى المزين للتحكيم،
وأشفق لحال الشهداء الذين تلقوا ضيق المآزق بأرحب صدر، وتتبعوا من من كان قبلهم من
الشجعان باعاً بياع وشيراً بشير، وتردوا أودية الموت حمراً فأمسدت أرواحهم في حواصل
طير خضر، وقال في أمرهم ما يقرب إلى الله ويدني، وتمثلت هيته فقالت لو ذات سوار
لطمنتي، ولم ينشب أن أشاد بالحركة إلى بلاد الشرق، وأمضى عزائم التي هابها كل شتيم
الوجه...^(١) الشدق، واعتل رمي الأتقياء بأحقاف رؤسهم، وتلا لسان مجازاته أن الله
لا يغير ما بقرم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وكان من قول مولانا أمير المؤمنين رضى الله عنه إنا
ما أخرنا الحركة إلى الشرق عن إهمال لمن انتزى بالله من أهله، ولا أرجأنا الأخذ في أمرها
بالاشتداد لتجانب عن مناهج الحزم وسبله، ولكننا أثرنا الاشتغال (ورقة ٨ب) ... اللزوم...
والتمكن ورأينا الأهم أن نهض لإذعان من عادى في الدين، وامتننا قول العزيز الجبار، ﴿ها
أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار﴾، وأرصدنا لهم ما يعود عليهم بالثبور
والويل ويجمع لهم... أهضام الوادي والليل، وأعدنا لهم ما استطعنا من قوة ومن رباط
الخيال، والآن والحمد لله قد ألفت إلينا ملوك الروم أيدي الإذعان، ورغبوا جميعاً في المهادنة
التي تضي مدارع الأمن وتصفي مشارع الأيمان، فأمعفناهم بذلك إسعافاً علت به كلمة
الإيمان، وجنحنا للسلم بعد جنوحهم لها امتثالاً لأمر الرحمن، واطمأنت نفوس المسلمين
بهذه المكيفات الجميلة والصنائع البديعة الجليلة أحسن الاطمئنان، فلم يبق إلا أن نصرف
وجوه نظرنا إلى البلاد الشرقية، ونوفي في جبر أهلها المطيعين بالأذمة المرعية، ونبتغي رضا
الله مبعثه في إنقاذهم من أيدي الفتن، والأخذ بأضباعهم من نوء الحن، وإذهاب ما ملأ
تلك الأرض من الجور والظلم، ودهمها من الخطوب الممضة الكلم، وأكثرث رضى الله عنه

(١) النقط التلاحمة تعني كلمات غير مقروءة نظراً لكونها إما ممسوحة أو غير واضحة.

من أحوالها التي جاست خلال الاختلال، وكان عليها من موارد الاعتلال، وأمورها التي انفجر جرحها بعد الاندمال، وعاد أشمري صلاحها إلى الاعتزال^(١)، وذكر ما حل بإفريقية من الحوادث العظام، والدواهي التي تشظت بها القلوب القاسية تشظي المراجع، ولقيت على آثارها الفوارس العوايس ما لقيه شقي البراجم، وشاهد بعين اليقين نصره تحولاً، ويومه في قهر العرب أغر محجلاً، ودعا على سليم^(٢) آخراً كما دعى النبي ﷺ على أحياء منهم أولاً، وأبهن أنه سيري بفضل الله حديث قهرهم مسلسللاً، وحكم عليهم معللاً، وضعف أمرهم مدلاً، وحسام (ورقة ١٩) بغيهم مغللاً، ورأس رياستهم بالسيف مجلاً، وقال أيده الله إن حركتنا السعيدة في هذا العام إلى قسنطينة التي أظهرت إباء وجاهرت بالعناد اجتراماً واجتراءً، وأن المواظ من قلوب أهلها قيعاناً لا تمسك ماء، ولانبتت كلاً، وأما إفريقية فلها احتفال لشميدها إن شاء الله أعظم، والاحتفاء بأمرها أنسق للعرائم وأنظم^(٣)، وسوف نجعلها إن شاء الله للأمنة قراراً، ولجميل الإدارات داراً، ونأخذ من عربها الذين ثار بغيهم ثاراً، ولم يلبث أيده الله أن أمر بتجهيز الأساطيل، والشواني السوابق لأهل الأباطيل والأجفان التي تنهض نحو القال والقيل، نهوض العيس المراقيل، وتطأ صفحات خد البحر الأسيل، كالعقاق النجيبات المراسيل، وقدم رضي الله عنه قائداً على قواد بلاده البحرية، وصناديد أبطالها الغربية والشرقية الرئيس محمد بن يوسف بن الأحمر، الذي أحياء... ولتعتظيمه عظماً ناخراً، وورد بحر الجنود كالبحر الذي ركه زاخراً، وأظهر المضأ والغناء فامتاز بحسن الأحداث أولاً.. آخراً، وأشخص الرئيس المذكور إلى ستة ليكون هنالك على قدم الحركة، ناظراً للقواد في المصالح المشتركة، معتمراً لقهر الأعداء الذين ألقوا بأيديهم إلى التهلكة، وباؤوا بالحرجم المستباح والحرمة المنتهكة، وأمر مولانا أيده الله بإقبال الجيوش

(١) الأشاعرة والمعتزلة هما من فرق أهل السنة.

(٢) سليم بنون من بطون الهلالية.

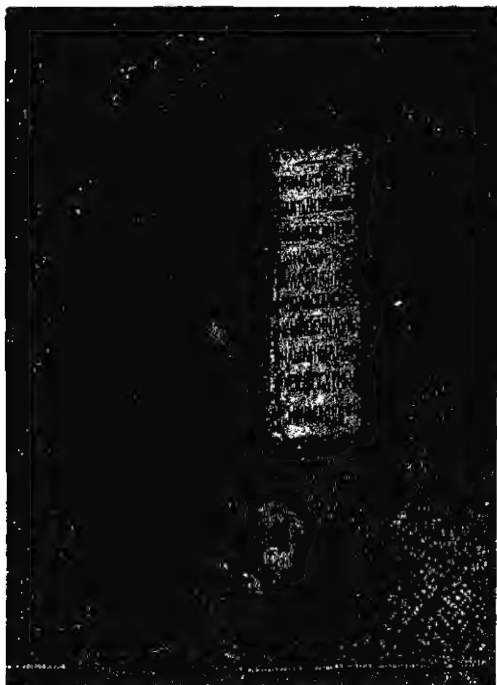
(٣) يخفي ابن الحاج الحقيقة هنا عبداً مجارة لأي عنان، فالحركة كانت تستهدف كامل إفريقية وليس قسنطينة فقط، بدليل أن أبا عنان أقام في قسنطينة وأرسل أسطولاً لاحتلال تونس كما ذكر في مروضه، وكما يذكره ابن الحاج نفسه فيما بعد، وكان عزم على الزحف عليها براً والبحاق بأسطولها ولكن جيشه خالفه في ذلك. وقصر ابن الحاج هذه الحركة على قسنطينة والزاب لأن أبا عنان تمكن من احتلالهما بالفعل.

والعساكر، وجمع الكتائب التي ترى الأكم فيها سجداً للحوائر، وأفاض بحور العطاء... برأي طالبه رضي الله عنه في فعاله البيضاء، وبالغ في الزيادة والاعتناء... العين مخافة العين... ولقطع الغلاة، وقطع الجبال والنجاد... التي قللت الحذر وتخللتها الحاسن... الذي كسى الجبل، وجهزهم بما يحتاجون إليه من الخيل التي تظهر... (ورقة ٩ب) السيوف التي تضرب كان وصلها خطاهم، والبيضات التي حفظت بها بيضة الإسلام، والمصفحات التي زلت على صفواتها أقدام الحمام، وأصدر أيده الله الأوامر الكريمة بحشد القبائل، وحشر الرامح والقافل، واستقدام العالي والسائل، واجتماع البازغ والآل، وجعلهم لصلوات جيوشه كالنوافل، ووسم أغفال الكماة العواقل، ومسح بالساعد الأشد على الضروع الحوافل، واستنهض أبطالاً تسرع خيولهم كالنعام الحوافل، وسلط مع الرعايا في تقسيط الجنود مسالك العدل، وأمرهم بالجري في التجاوز على أوضح السبل، وقال لهم اقتضوا بالتوفية دينكم، واتركوا في قهر الأعداء دينكم، ولا تتكاسلوا إن قالت الحرب... ودعوا بعدكم عن مأزق... وبينكم، وتلا عليهم لسان حاله الكريمة ولا تنسوا الفضل بينكم، وما زال أيده الله يعمر بهذا التدبير... ليله ونهاره، ويساوي في إبرام معاهده إعلانه وإسراره، ويرأى إلى الله من قوته وحوله، ويضرع إليه في فعله وقوله، ويلظ بالدعاء ويستوهب بركة خواطر الصلحاء، ويشكر نعم الله التي أسبغها عليه ظاهرة وباطنة، وصنائه الجميلة التي لم تزل... آمنة ومواهب إحسانه التي تسوغها هادئة هادئة، وعوارف الآية التي زاد خمائلها ميمونة آمنة، وعواطف عنايته التي... حافظه سادنة (ورقة ١٠أ).

لوحة (١)

لوحة فسيفساء تمثل جرجي الأنطاكي يرتقي على أقدام السيدة العذراء موجودة في الكنيسة
التي بناها في بلرمة والمماسة حالياً كنيسة مرتورانا.

(من كتاب : D.C. Douglas : the Norman Fale)



لوحة (٢)

لوحة فسيفساء تصور تنويج رجار الثاني من قبل المسيح عليه السلام موجودة في كنيسة
مرتورانا أيضاً.

(من كتاب D.C. Douglas : the Norman Fate)



لوحة (٣)
جانب من بقايا سور المهدية
(تصوير خاص)



لوحة (٤)

جانب من مدخل ميناء المهديّة القديم (الميناء الداخلي)

(تصوير خاص)



لوحة (٥)

جانب من بقايا البرج الذي يعلو باب الفتح والسقيفة الكحلَاء بالمهدية.

(تصوير خاص)



لوحة (٦)

جانب آخر من بقايا البرج الذي يعلو باب الفتوح بالمهدية

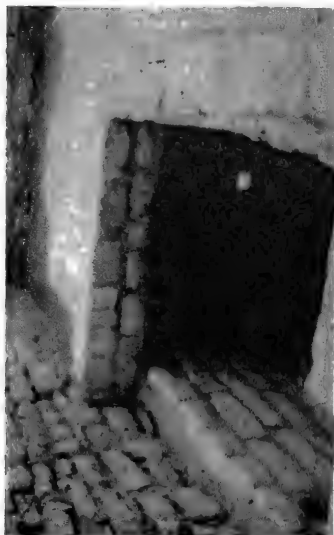
(تصوير خاص)



لوحة (٧)

مطلع البرج الذي يعلو باب الفتوح بالمهدية

(تصوير خاص)



لوحة (٨)

منارة رباط المنستير (القرن الثالث الهجري)

(من كتاب سليمان مصطفى زيس : المنستير - ص ١٦)



لوحة (٩)

منظر عام لرباط المنستير والقرية

(من كتاب سليمان مصطفى زيس : المنستير - ص ٤١)



لوحة (١٠)

لوحة تمثل لويس التاسع في أيامه الأخيرة يملئ القسم الثالث والأخير من وصاياه وتوجيهاته
لولي عهده

(من كتاب : CL. Hachette : Le Siecle de Saint Louis, p. 292)



لوحة (١١)

لوحة تمثل لويس التاسع مسجى على فراش الموت

من كتاب

(Gullaume de Saint Pathus : La Vie et les Miracles de Monseigneur Saint Louis.)



لوحة (١٢)

صورة للصندوق الذي نقلت فيه رفات لويس التاسع من قرطاجة وهو محفوظ في المتحف الوطني بباريس.

(من كتاب : CL. Hachette : Le Siècle de Saint Louis, p. 241)



لوحة (١٣)

لوحة تمثل حادث التحول في حياة رامون لول، وهي من ثلاثة أقسام، الأول يمثل إلى جوار فراشه يكتب قصيدة غرامية حينما ظهرت له الرؤيا، والثاني والثالث زيارته للمقدسات.

من كتاب

(J.N. Hillgarth : Ramon Lull and Lullism in Fourteenth Century France, p. 505)



لوحة (١٤)

لوحة تمثل قصة لول مع مملوكه المسلم، القسم الأول يبين دراسة لول على ذلك المملوك،
والثاني محاولة المملوك اغتياله والثالث انتحار المملوك.

من كتاب

(J.N. Hillgarth : Ramon Lull and Lullism in Fourteenth Century France, p. 507)



لوحة (١٥)

رحلة رامون لول الأولى إلى إفريقيا، ويمثل القسم الثاني منها مناظرته لعلماء المسلمين في تونس.

من كتاب

(J.N. Hillgarth : Ramon Lull and Lullism in Fourteenth Century France, p. 513)



لوحة (١٦)

لوحة تمثل جهود رامون لول الصليبية، يمثل القسم الأول مقابله للبابا بونيفاس الثامن،
والقسم الثاني مقابلاته لملوك أوروبا وهم في الصورة ملوك فرنسا وأرغونة ونابلي، حيث
كشفت تروسمهم المينة في أعلى اللوحة عن شخصياتهم.

من كتاب

(J.N. Hillgarth : Ramon Lull and Lullism in Fourteenth Century France, p. 512.)



لوحة (١٧)

رحلة رامون لول الثانية إلى إفريقية، ويمثل القسم الثاني منها رد الفعل عند المسلمين بسبب استنارته لهم.

من كتاب

(J.N. Hillgarth : Ramon Lull and Lullism in Fourteenth Century France, p. 514.)



...et de la ...
...et de la ...
...et de la ...
...et de la ...
...et de la ...
...et de la ...
...et de la ...
...et de la ...
...et de la ...
...et de la ...

لوحة (١٨)

رجم رامون لول في بجاية

(من كتاب ا. Liam Brophy :So Great a Lover, p. ١)



لوحة (١٩)

قبر عبد الله الترحمان

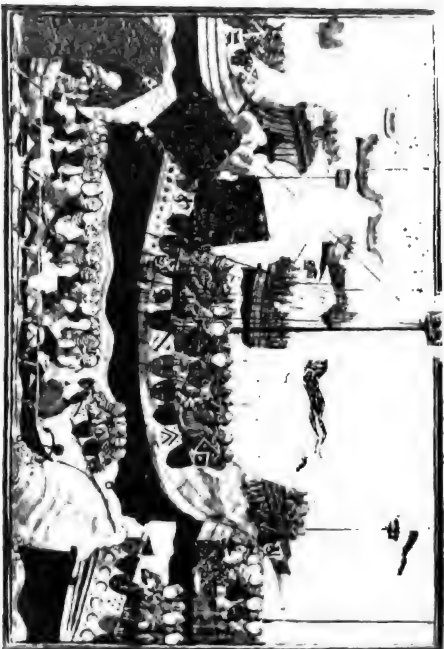
(تصوير خاص)



لرحلة (٢٠)

الحملة الصليبية على المهدية سنة ٧٩٢ هـ / ١٣٩٠ م

(من كتاب : A.S. Aiyā : the Crusade in The Later Middle ages, p.1)



لوحه (٢١)

حصار المدينه سنة ١٧٩٢هـ / ١٨٢٩م

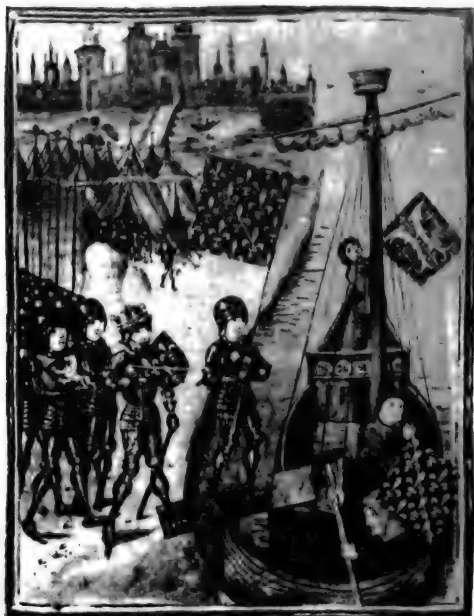
(١) Froissart : Chronicles of England, France, Spain and the Adjoining Countries vol. 2, p.470 : كتاب



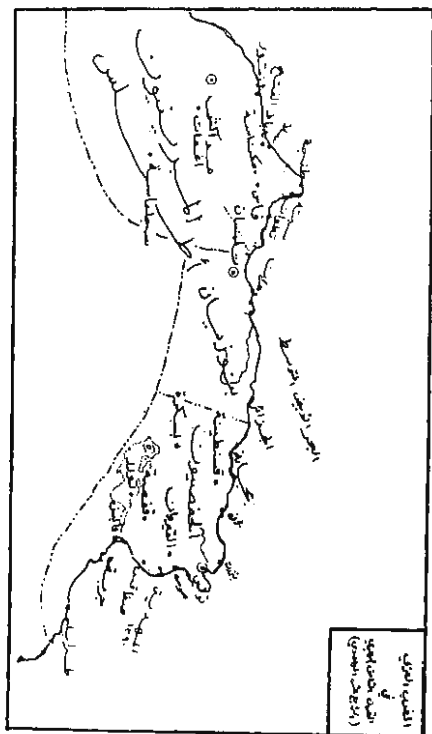
لوحة (٢٢)

رفع الحصار عن المهدية سنة ٧٩٢هـ / ١٢٩٠م

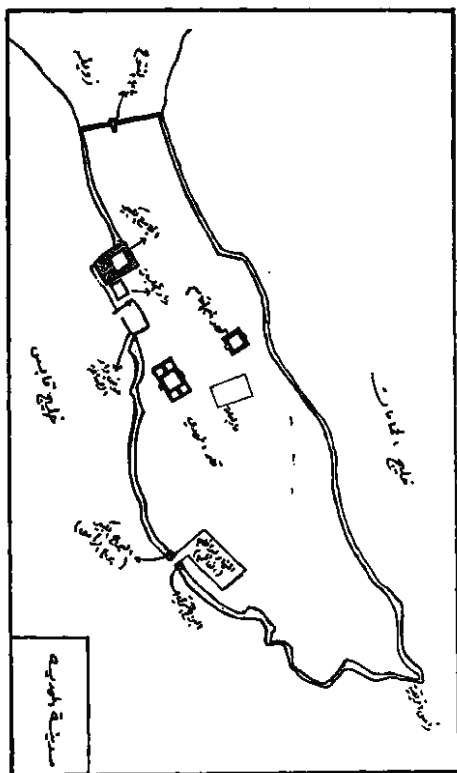
(من كتاب : A.S. Atiya : the Crusade in The Later Middle ages, p.426)



خريطة المغرب العربي

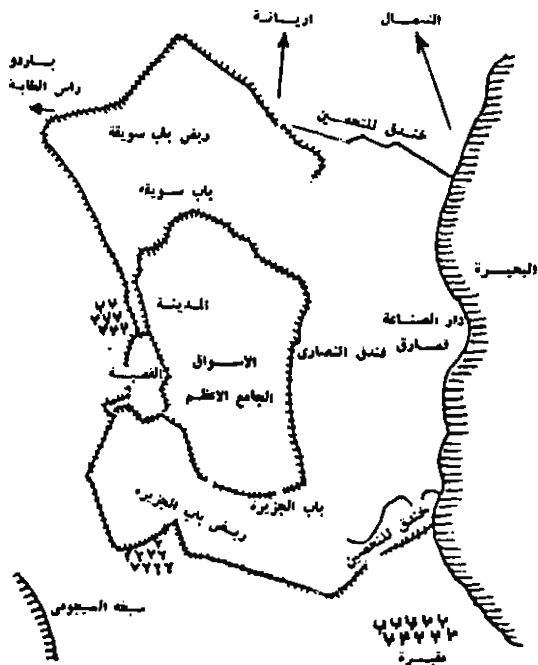


خريطة مدينة المهديّة



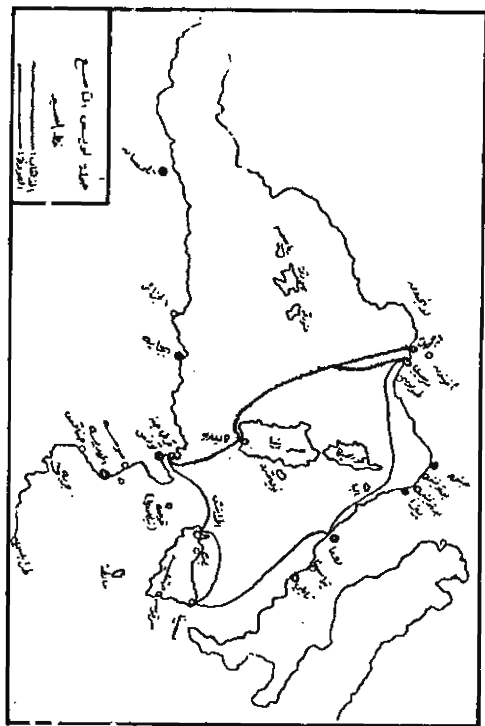
مدينة تونس في العصر الحفصني

(من كتاب شارل أندري جوليان : تاريخ إفريقيا الشمالية ج ٢، ص ١٣٥)



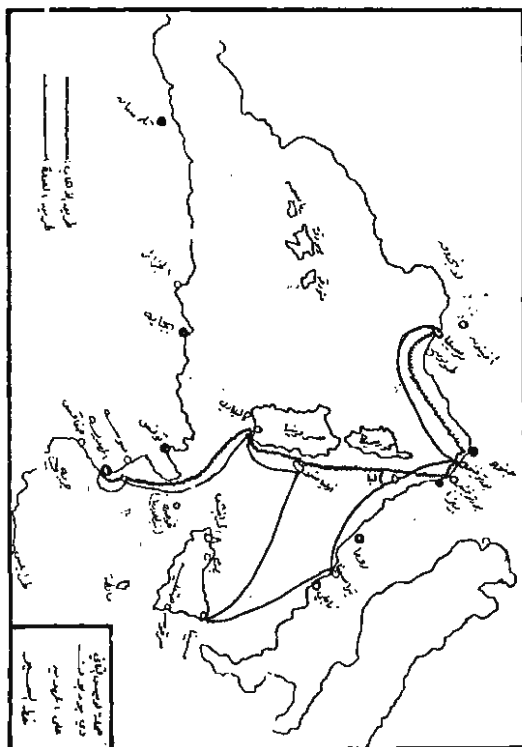
خريطة حملة لويس

التاسع

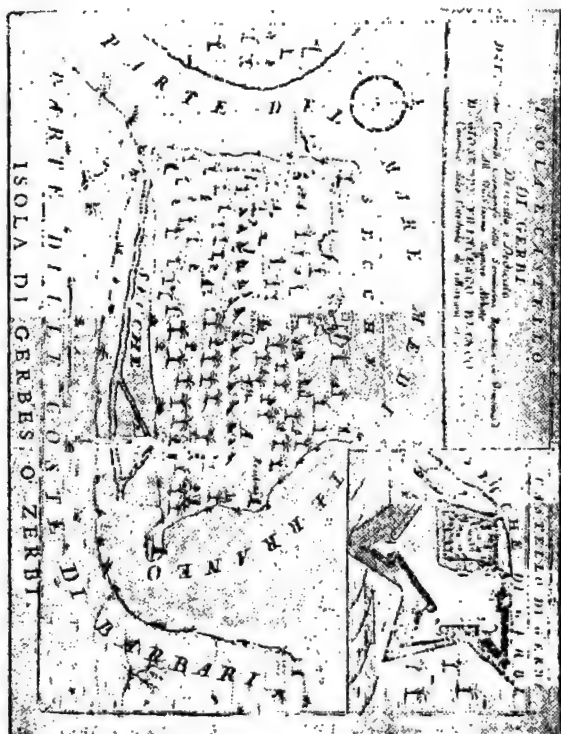


خريطة حملة لويس

الثاني دي بوربون



أقدم خريطة لجزيرة جربة، وقد وضعها الإسبان حينما احتلوا الجزيرة
(من كتاب محمد أبو راس المغربي : مؤنس الأحبة في أخبار جربة ص ١)



فَهَارِسُ الْكِتَابِ

قائمة المصادر العربية

- القرآن الكريم.
- إنجيل متى.
- ابن الأبار : أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي (ت ٦٥٨هـ).
- الحلة السيرة، تحقيق وتعليق د. حسين مؤنس، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، سنة ١٩٦٣ .
- ابن الأثير : أبو الحسن عز الدين علي بن أبي الكرم محمد الشيباني (ت ٦٣٠هـ).
- الكامل في التاريخ، دار صادر - دار بيروت، بيروت، سنة ١٩٦٦ .
- الإدريسي : أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله الشريف (ت ٥٦٢هـ).
- وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية، مأخوذة من نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، صححه هنري يريس، دار الكتب، الجزائر، سنة ١٩٥٧ .
- ابن أبي أصيبعة : موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي الحزرجي (ت ٦٦٨هـ).
- عيون الأنباء في طبقات الأطباء، شرح وتحقيق د. نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، سنة ١٩٦٥ .
- الأنصاري : النائب أحمد
- المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، مكتبة الفرجاني، طرابلس الغرب، بدون تاريخ.

- ابن بشكوال : أبو القاسم خلف بن عبد الملك (ت ٥٧٨هـ).
كتاب الصلة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة سنة ١٩٦٦ .
- البكري : عبيد الله الأندلسي، (ت سنة ٤٨٧هـ).
المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، مأخوذ من كتاب المسالك والممالك، نشره دي ملان، الجزائر، سنة ١٩١١ .
- البيهقي : أبو بكر بن علي الصنهاجي
أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط سنة ١٩٧١ .
- التجاني : أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد (ت حوالي سنة ٧١٧هـ).
رحلة التجاني، تحقيق وتقديم حسن حسني عبد الوهاب، كتابة الدولة للمعارف، تونس، سنة ١٩٥٨ .
- الترجمان : عبد الله (ت سنة ٨٣٢هـ).
تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب، مطبعة التمدن، القاهرة، سنة ١٩٠٤ .
- ابن خاتمة : علي، (كان حياً في أواسط القرن الثامن الهجري).
تحصيل غرض المقاصد في تفصيل المرض الوافد، مخطوط المكتبة الوطنية، مدريد رقم 1-MSS5067.
- ابن الخطيب : لسان الدين محمد بن عبد الله السلماني الوزير الغرناطي (ت سنة ٧٧٦هـ).
أ - أعمال الأعلام فيمن بوقع قبل الاحتلال من ملوك الإسلام وما يجر ذلك من شجون الكلام، القسم الأول مخطوط، والثاني بتحقيق أ. ليفي برونفيسال، معهد الدراسات العليا، الرباط، سنة ١٩٣٤، والثالث تحقيق د. أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني، الدار البيضاء سنة ١٩٦٤ .

ب - الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية (المسوب لابن الخطيب)، تونس، سنة ١٩١١ .

- ابن خلدون : أبو زيد ولي الدين عبد الرحمن (ت سنة ٨٠٨هـ).

أ - كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، بولاق، القاهرة، سنة ١٩٧١ .
ب - المقدمة، طبعة دار الشعب، القاهرة.

ج - التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً، دار الكتاب اللباني، بيروت، بدون تاريخ.

- ابن خلكان : أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر، (ت ٦٨١هـ).
وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.

- خليفة : حاجي

تقويم التواريخ، مخطوط المتحف البريطاني رقم ADD23307.

- الدباغ : أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري الأميدي (ت ٦٩٦هـ).
معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، أكمله وعلق عليه أبو الفضل أبو القاسم بن عيسى بن ناجي التنوخي (ت ٨٣٩هـ).
ج ١ : تحقيق وتعليق إبراهيم شيوخ، مكتبة الخانجي، القاهرة، سنة ١٩٦٨ .

ج ٢ : تحقيق د. محمد الأحمدى أبو النور، ومحمد ماضور، مكتبة الخانجي، القاهرة - المكتبة العتيقة، تونس، بدون تاريخ.

ج ٣ : تحقيق وتعليق محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس سنة ١٩٧٨ .
أبو بكر بن عبد الله بن أيك : أبو بكر بن عبد الله بن أيك

كنز الدرر وجامع الفرر، ج ٨ (الدرة الزكية في الدولة التركية)، تحقيق أولرخ هارمان، القاهرة، سنة ١٩٧١ .

- ابن أبي دينار : أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني
المؤنس في تاريخ إفريقيا وتونس، تحقيق وتعليق محمد شمام، المكتبة
العتيقة، تونس، ط ٣، سنة ١٣٨٧هـ.
- الرقيق : أبو إسحق إبراهيم بن القاسم القيرواني (ت بعد سنة ٤١٧هـ).
تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق وتقديم المنجي الكعبي، نشر رفيع
السقطي، تونس، سنة ١٩٦٨.
- ابن جبير : أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكنايني
رحلة ابن جبير المسماة (تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار)، دار
صادر - دار بيروت، بيروت، سنة ١٩٦٤.
- الجبري : محمد أبو راس (توفي بعد سنة ١٢٢٢هـ).
مؤنس الأحبة في أخبار جربة، حققه ومهد له وعلق عليه محمد
المرزوقي، قدم له حسن حسني عبد الوهاب، تونس، سنة ١٩٦٠.
- ابن الحاج : إبراهيم بن عبد الله بن إبراهيم النعمري المعروف بابن الحاج، (كان
حيّاً في أواسط القرن الثامن الهجري).
فيض العباب وإفاضة قدامح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة
والزاب، مخطوط الخزانة الملكية بالرباط، رقم ٣٢٦٧.
- الحلبي : شهاب الدين بن حبيب
درة الأسلاك في دولة الأتراك، ج ٣، مخطوط مكتبة بودليان
بأكسفورد رقم DCCXXXIX.
- الحموي : أبو عبد الله شهاب الدين ياقوت بن عبد الله (ت ٦٢٦هـ).
معجم البلدان، دار صادر - دار بيروت، بيروت، سنة ١٩٥٧.
- الحميدي : أبو عبد الله محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله الأزدي (ت ٤٨٨هـ).
جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس، الدار المصرية للتأليف
والترجمة، القاهرة، سنة ١٩٦٦.

- ابن أبي زرع : أبو الحسن علي بن عبد الله الفاسي (ت سنة ٧٤١هـ).
- أ - الأئیس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، سنة ١٩٧٢ .
- ب - الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، سنة ١٩٧٢ .
- الزركشي : أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللؤلؤي (ت بعد سنة ٨٩٤هـ).
- تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق وتعليق محمد ماضور، تونس، سنة ١٩٦٦ .
- الزيري : الأمير عبد الله بن بلقين بن باديس (ت بعد ٤٨٣هـ).
- مذكرات الأمير عبد الله، آخر ملوك بني زيري بفرناطة المسماة كتاب التبيان، تحقيق أ. ليفي برونفسال، القاهرة، سنة ١٩٥٥ .
- السبتي : محمد بن عمر بن رشيد
- رحلة ابن رشيد السبتي المسماة : ملء العيبة فيما جمع بطول الغيبة في الرحلة إلى مكة وطيبة، ج٣، مخطوط الإسكوريال رقم MSS1737.
- السراج : محمد بن محمد الأندلسي الوزير (ت سنة ١١٤٩هـ).
- الحلل السندسية في الأخبار التونسية، تحقيق وتقديم محمد الحبيب الهيلة، الدار التونسية للنشر، تونس، سنة ١٩٧٠ .
- ابن سعيد : علي بن موسى بن سعيد الأندلسي (ت سنة ٦٧٢هـ).
- المغرب في حلي المغرب، تحقيق د. شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، القاهرة، بدون تاريخ.
- الشابشتي : أبو الحسن علي بن محمد المعروف بالشابشتي
- الديارات في الإسلام، تحقيق كوركيس عواد، مطبعة المعارف، بغداد، سنة ١٩٥١ .

- أبو شامة : أبو محمد شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي (ت ٦٦٥هـ).
- الروضتين في أخبار الدولتين، دار الجليل، بيروت، بدون تاريخ.
- ابن الشباط : محمد بن علي بن محمد المصري التوزري (ت ٦٨١هـ).
- صلة السط وسمه الرمت، قطعة منه : شرح القصيدة الشقرافية، مخطوط المكتبة الوطنية بتونس، رقم ٣٢٠٨، قطعة أخرى، تحقيق د. أحمد مختار العبادي، معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، سنة ١٩٧١.
- ابن السماع : أبو العباس أحمد (ت ٨٦٩هـ).
- أ - الأدلة البيئة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، تحقيق عثمان الكعك، تونس، سنة ١٩٠٤ .
- ب - تكميل التاريخ المسمى الأدلة البيئة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، مخطوط المكتبة الوطنية بتونس، رقم ١٠١١ .
- ابن مقديش : أبو التناء محمود بن سعيد مقديش الصفاقسي
- نزعة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، مخطوط المكتبة الوطنية بتونس، رقم ١٠٣٨٠ .
- ابن الصيرفي : علي بن داود بن إبراهيم المعروف بالخطيب الجوهري (ت سنة ٩٠٠هـ).
- نزعة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تحقيق د. حسن حبشي، مطبعة دار الكتب، القاهرة، سنة ١٩٧٠ .
- الضبي : أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة (ت ٥٩٩هـ).
- بنية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، مطبعة روض مجريط، (مدريد)، سنة ١٨٨٤ .
- ابن أبي الضياف : أبو العباس أحمد بن الحاج بالضياف بن عمر بن أحمد بن نصر (ت شعبان ١٢٩١هـ).

إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، ج ١، الدار التونسية للنشر، ط ٢، سنة ١٩٧٦ .

- العبدري : محمد الحاحي، (كان حياً سنة ١٦٨٨هـ).

الرحلة المغربية تحقيق د. محمد الفاسي، الرباط، سنة ١٩٦٩ .

- ابن عبد الحكم : عبد الرحمن بن عبد الله (ت ٢٥٧هـ).

فتوح إفريقيا والأندلس، تحقيق وتقديم عبد الله أنيس الطباع، دار الكتاب اللبناني، بيروت، سنة ١٩٦٤ .

- ابن عبد العزيز : الوزير الحاج حمودة بن محمد (توفي سنة ١٢٠٢هـ).

التاريخ البائسي في الدولة التونسية، الجزء الأول مطبوع بتحقيق محمد ماضور، الدار التونسية للنشر، تونس سنة ١٩٧٠، والباقي مخطوط، المكتبة الوطنية بتونس رقم ٣٥١ .

- ابن عذاري : أحمد بن عذاري المراكشي (كان حياً سنة ٧١٢هـ).

البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب، ٣ أجزاء الجزء الأول والثاني في ٤ مجلدات : مجلد ١ و ٢ تحقيق ومراجعة ج. م. كولان، أ. ليفي برونفمان، دار الثقافة، بيروت، سنة ١٩٦٧ .
مجلد ٣ : تحقيق أ. ليفي برونفمان، دار الثقافة، بيروت، سنة ١٩٦٧ .
مجلد ٤ : تحقيق وتعليق د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت ١٩٦٧ .
ج ٣ : (القسم الخاص بالموحدين)، تحقيق هوسي ميرانده، ومشاركة محمد بن ناويت، ومحمد إبراهيم الكتاني، معهد مولاي الحسن، تطوان، سنة ١٩٦٠ .

شهاب الدين أحمد بن حجر (ت سنة ٨٥٢هـ).

- المسقلاني : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، حققه وقدم له ووضع فهرسه،

محمد سيد جاد الحق، دار الكتب الحديثة، القاهرة، سنة ١٩٦٦ .

- العمري : ابن فضل الله
وصف إفريقية من المسالك، نشر حسن حسني عبد الوهاب، تونس
بدون تاريخ.
- عياض : القاضي أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض (ت ٥٤٤هـ).
ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك،
مقتطفات منه بعنوان : (تراجم أغلبية من المدارك)، تحقيق د. محمد
الطالبي، نشر جامعة تونس، سنة ١٩٦٨ .
- الغريبي : أبو العباس أحمد بن أحمد (ت ٧٠٤هـ).
عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق
رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، سنة ١٩٧٠ .
- ابن فرحون : القاضي برهان الدين إبراهيم بن علي بن محمد (ت ٧٩٩هـ).
الدياج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق وتعليق
د. محمد الأحمد أبو النور، دار التراث، القاهرة، سنة ١٩٧٤ .
- أبو الفدا : الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل (ت ٧٣٢هـ).
المختصر في تاريخ البشر، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت،
بدون تاريخ.
- ابن القاضي : أبو العباس أحمد بن محمد المكتاسي (ت ١٠٢٥هـ).
أ - ذيل وفيات الأعيان للمسي درة الخجال في أسماء الرجال،
تحقيق محمد الأحمد أبو النور، المكتبة العتيقة بتونس، دار التراث
بالقاهرة، سنة ١٩٧٠ .
- ب - جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام بمدينة قاس، دار
المصور للطباعة والوراقة، الرباط، سنة ١٩٧٣ .
- ابن القنفذ : أبو العباس أحمد بن حسن بن علي بن الخطيب بن القنفذ القسنطيني
(ت ٨١٠هـ).

- الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تقديم وتحقيق محمد الشاذلي التيفر، وعبد المجيد التركي، الدار التونسية للنشر، تونس، سنة ١٩٦٨ .
- ابن الكردبوس : أبو مروان عبد الملك الوزري (عاش في أواخر القرن السادس الهجري). تاريخ الأندلس، قطعة من كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء، تحقيق د. أحمد مختار العبادي، معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، سنة ١٩٧١ .
- الكواش : الشيخ أبو الفلاح صالح بن حسن : تاريخ تونس، مخطوط المكتبة الوطنية بتونس، رقم ٣٣٨ .
- المالكي : أبو بكر عبد الله بن أبي عبد الله (ت أواخر القرن الخامس الهجري). رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم وعبادهم ونساجهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم، ج ١، تحقيق د. حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، سنة ١٩٥١ .
- مجهول : ذكر بلاد إفريقية ولم سميت إفريقية، مخطوط الخزانة العامة بالرباط، رقم ٧٨٧٥ .
- مجهول : مؤرخ مراكشي عاش في القرن السادس الهجري. كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، تحقيق د. سعد زغلول عبد الحميد، جامعة الامكندرية، كلية الآداب، الإسكندرية، سنة ١٩٥٨ .
- مجهول : ذكر الباقوتة الجلية في النظرية السعيدية المرينية، مخطوط المكتبة الوطنية بمدريد، رقم MSS. 5180 .
- أبو الحسن : جمال الدين يوسف بن تغري بردي الأتابكي (ت ٨٧٤هـ). النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، بدون تاريخ.
- ابن مرزوق : محمد بن أحمد الخطيب (ت ٧٦٨هـ). المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن، مقتطفات منه، نشر أ. ليفي برونفيسال، مجلة هيسبريس عدد ٥، سنة ١٩٢٥ .

ومقتطفات أخرى نشر ماريا خيسوس فيغيرا : بحث (أخبار إفريقية
في المسند لابن مرزوق)، أعمال الملتقى الثالث التونسي الإسباني،
كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة تونس، عدد ١٠٣ - ١٠٤،
تونس سنة ١٩٧٨ .

- المسعودي : محمد الباجي
الخلاصة النقية في أمراء إفريقية، تونس سنة ١٢٨٣هـ.
- المعسكري : محمد بن أحمد أبو راس
عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، مخطوط المكتبة الوطنية بتونس،
رقم ٢٦٢ .
- المقدسي : أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي المعروف بالبشاري
أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تصحيح دي خويه، مطبعة بريل،
ليدن، ط٢، سنة ١٩٠٩ .
- المقرئزي : تقي الدين أبو العباس علي بن أحمد (ت ٨٥٤هـ).
أ - السلوك لمعرفة دول الملوك، ٣ أجزاء كل منها في ٣ أقسام، ج ١ و ٢
تحقيق د. محمد مصطفى زيادة، القاهرة، سنة ١٩٣٤ - ١٩٤٢، ج ٣،
تحقيق د. سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة، سنة ١٩٧٠ - ١٩٧٢ .
- المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، القاهرة، بدون تاريخ.
- أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد المقرئ القرشي التلمساني :
(ت ١٠٤١هـ).
أ - روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيه من أعلام
الحضرتين مراكش وفاس، المطبعة الملكية، الرباط سنة ١٩٦٤ .
- ب - نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق محمد محيي
الدين عبد الحميد، دار الكتاب العربي، بيروت، بدون تاريخ.
- ابن منظور : جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري

لسان العرب، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، بلون تاريخ.

- النعمان : القاضي أبو حنيفة النعمان بن محمد بن منصور بن أحمد بن حيون التميمي (ت ٣٦٣هـ).

كتاب المجالس والمسائرات، تحقيق الحبيب الفقهي وآخرون، نشر كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الجامعة التونسية، تونس سنة ١٩٧٨ .

- الوزان : الحسن بن محمد الوزان الزيتاني، المعروف بليون الإفريقي (ت في حدود سنة ١٥٥٠م).

وصف إفريقيا، ألفه بالإيطالية، وترجمه من الإيطالية إلى الفرنسية ترجمة جديدة آ. إيولار، وعلق عليها آ. إيولار وآخرون، ترجمه من الفرنسية إلى العربية د. عبد الرحمن حميدة، راجعه د. علي عبد الواحد، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، سنة ١٣٩٩هـ.

- الوسياني : أبو الربيع سليمان بن عبد السلام بن حسان بن عبد الله (ت في حدود سنة ٥٥٥هـ).

كتاب السير، مخطوط دار الكتب المصرية، القاهرة رقم ٩٠٣٠خ.

قائمة المراجع الحديثة

العربية والمصرية

- أرسلان : الأمير شكيب
تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر
المتوسط، دار مكتبة الحياة، بيروت، سنة ١٩٦٦ .
- أرنولد : سير توماس
الدعوة إلى الإسلام، ترجمه وعلق عليه د. حسن إبراهيم حسن
وآخرون، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، سنة ١٩٧٠ .
- الإسكندري : أحمد، وآخرون
المفصل في تاريخ الأدب العربي، مطبعة مصر، القاهرة، سنة ١٩٣٤ .
- أثباخ : يوسف
تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ترجمة محمد عبد الله
عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة ط٢، سنة ١٩٥٨ .
- أماري : ميخائيل (ميشيل)
المكتبة العربية الصقلية، نصوص في التاريخ والبلدان والتراجم
والمراجع، جمعها وحققها المستشرق الإيطالي، ميخائيل أماري،
ليبسك، سنة ١٨٥٧ .
- أمين : أحمد
ظهر الإسلام، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط٤، سنة ١٩٦٦ .

- أمين

: د. محمد محمد

أ - تطور العلاقات العربية الإفريقية في العصور الوسطى، فصل من كتاب العلاقات العربية الإفريقية، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، سنة ١٩٧٧ .

ب - شمال إفريقية والحروب الصليبية، بحث مستخرج من مجلة الدراسات الإفريقية، العدد الثالث، ١٩٧٤، معهد الدراسات والبحوث الإفريقية، القاهرة، سنة ١٩٧٥ .

- برنيط

: خوان

بحث : هل هناك أصل عربي إسباني لفن الخرائط الملاحية، ترجمة د. أحمد مختار العبادي، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمديرية، العدد الأول، سنة ١٩٥٣ .

- بل

: ألفرد

الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم، ترجمة د. عبد الرحمن بدوي، دار ليبيا للنشر والتوزيع بنغازي، سنة ١٩٦٩ .

- بونصي

: ج.

أسطورة الكارثة الهلالية، تقديم المنصف الشنوفي، بحث في حوليات الجامعة التونسية، العدد الخامس، سنة ١٩٦٨ .

- التازي

: د. عبد الهادي

جولة في تاريخ المغرب الدبلوماسي، المحمدية، مطبعة فضالة، ١٩٦٧ .

- التركي

: عبد المجيد

وثائق من الهجرة الأندلسية الأخيرة إلى تونس، حوليات الجامعة التونسية، العدد الرابع، سنة ١٩٧٦ .

- تومسون

: جيمس وستفال وآخرون

حضارة عصر النهضة، ترجمة د. عبد الرحمن زكي، دار النهضة

العربية، القاهرة، سنة ١٩٦١ .

- ابن الخوجة : د. محمد الحبيب
قصائد ومقطعات صنعة أبي الحسن حازم القرطاجني، تقديم وتحقيق د.
محمد الحبيب بن الخوجة، الدار التونسية للنشر، تونس، سنة ١٩٧٢ .
- الجندحاني : د. الحبيب
أ- من قضايا الفكر، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، سنة ١٩٧٥ .
ب- تاهرت عاصمة الدولة الرستمية، بحث في المجلة التونسية للعلوم
الاجتماعية، مركز الأبحاث والدراسات الاقتصادية والاجتماعية،
جامعة تونس، عدد ٤٠ - ٤٣، تونس، سنة ١٩٧٥ .
- جوليان : شارل أندري
تاريخ إفريقيا الشمالية، ترجمة محمد مزالي، البشير سلامة، الدار
التونسية للنشر، تونس، ج ١، ١٩٦٩، ج ٢، سنة ١٩٧٨ .
- الجيلالي : عبد الرحمن بن محمد
تاريخ الجزائر العام، مكتبة الشركة الجزائرية - الجزائر، مكتبة دار
الحياة - دار بيروت، بيروت، ط ٢، سنة ١٩٦٥ .
- الحجي : د. عبد الرحمن علي
التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، دار
القلم، دمشق، سنة ١٩٧٦ .
- حسن : حسن إبراهيم
تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، مكتبة
الهضبة المصرية، القاهرة، ط ٨، سنة ١٩٧٣ .
- حسين : طاهر راغب
الدولة الحفصية بالمغرب إلى آخر القرن الثامن، رسالة ماجستير لم
تطبع، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة.

- ريتسيانو : د. أمبرتو
العلاقات بين النورمندين وبنو زيري من الفتح النورمندي لصقلية
حتى وفاة رودجير الثاني (رجار) سنة (٤٥٣ - ٥٤٨هـ / ١٠٦١م)
- (١١٥٤م)، بحث مستخرج من مجلة كلية الآداب بجامعة
القاهرة، المجلد الحادي عشر، الجزء الأول، مايو سنة ١٩٤٩ .
- زامبور : إدوارد فون
معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، أخرجه
د. زكي محمد حسن وآخرون، القاهرة، سنة ١٩٥١ .
- الزاوي : الطاهر أحمد
تاريخ الفتح العربي في ليبيا، دار المعارف بمصر، القاهرة، ط٢،
سنة ١٩٦٣ .
- زيبس : سليمان مصطفى
المنستير - معالم الأثرية، الدار التونسية للنشر، تونس، بدون تاريخ.
- زيادة : د. نقولا
لحات من تاريخ العرب، دار الكتاب اللبناني، بيروت، سنة ١٩٦١ .
- مالم : د. السيد عبد العزيز
المغرب العربي الكبير - العصر الإسلامي، الدار القومية للطباعة
والنشر، الإسكندرية، سنة ١٩٦٦ .
- ستودارد : لوثرروب
حاضر العالم الإسلامي، ترجمة عجاج نويهض، تعليق وحواشي
الأمير شكيب أرسلان، دار الفكر، ط٣، سنة ١٩٧١ .
- سعداوي : د. نظير حسان
تاريخ إنجلترا وحضارتها في العصور القديمة والوسطى، دار النهضة
العربية، القاهرة، سنة ١٩٦٨ .

- سمائلوتش : د. أحمد
فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، مطابع دار المعارف، القاهرة، سنة ١٩٧٤ .
- ابن سودة : عبد السلام بن عبد القادر
دليل مؤرخ المغرب الأقصى، معهد مولاي الحسن، تطوان، سنة ١٩٥٠ .
- السويسي : محمد
عالم رياضي أندلسي تونسي - القلصادي، بحث في حوليات الجامعة التونسية، العدد التاسع، سنة ١٩٧٢ .
- شاخت : جوزيف، سي. بوزورث
تراث الإسلام، ترجمة د. حسين مؤنس، إحسان صدقي العمدة، مراجعة د. فؤاد زكريا، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سنة ١٩٧٨ .
- الشرفي : عبد الحميد
بيولوجرافيا في مجلة إسلاميات مسيحية، روما، عدد سنة ١٩٧٦، وعدد سنة ١٩٧٨ .
- الشناوي : د. عبد العزيز محمد
أوروبا في مطلع العصور الحديثة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط٢، سنة ١٩٧٥ .
- الصحرلوي : عبد القادر
جولات في تاريخ المغرب، دار الكتاب، الدار البيضاء، سنة ١٩٦١ .
- صفر : أحمد
مدنية المغرب العربي في التاريخ، دار النشر، تونس، سنة ١٩٥٩ .
- الطالبي : د. محمد
الهجرة الأندلسية إلى إفريقية أيام الحفصيين، بحث مستخرج من حوليات الجامعة التونسية، عدد سنة ١٩٧٥ .

- طرخان : د. إبراهيم علي
أ - إمبراطورية غانة الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر،
القاهرة، سنة ١٩٧٠ .
- ب - المسلمون في أوروبا في العصور الوسطى، مؤسسة سجل
العرب، القاهرة، سنة ١٩٦٦ .
- عاشور : د. سعيد عبد الفتاح
أ - أوروبا العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ج١،
ط٥، ١٩٧٢، وج٢، سنة ١٩٧٦ .
- ب - الحركة الصليبية - صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في
العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ج١، ط٣، سنة
١٩٧٥، وج٢، ط٢، سنة ١٩٧١ .
- ج - العصر المالكي في مصر والشام، دار النهضة العربية،
القاهرة، سنة ١٩٦٥ .
- د - بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، جامعة بيروت
العربية، بيروت، سنة ١٩٧٧ .
- هـ - الظاهر بيبرس، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة
والطباعة والنشر، القاهرة، سنة ١٩٦٣ .
- و - قبرس والحروب الصليبية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة،
سنة ١٩٥٧ .
- ز - الجامعات الأوروبية في العصور الوسطى، مكتبة النهضة
المصرية، القاهرة، سنة ١٩٥٩ .
- ح - المدينة الإسلامية وأثرها في الحضارة الأوروبية، دار النهضة
العربية، القاهرة، سنة ١٩٦٣ .
- ط - بعض أضواء على العلاقات بين ييزا وتونس في عصر الحروب
الصليبية، بحث مستخرج من حوليات كلية الآداب، جامعة

القاهرة، المجلد ٢٧، سنة ١٩٦٥ / ١٩٦٦ .

- ابن عامر : أحمد
الدولة الصنهاجية، الدار التونسية للنشر، تونس، سنة ١٩٧٢ .
- العامري : محمد الهادي
تاريخ المغرب في سبعة قرون بين الازدهار والذبول، الشركة
التونسية للتوزيع، تونس، سنة ١٩٧٤ .
- العبادي : د. أحمد مختار، د. السيد عبد العزيز سالم
تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، دار النهضة العربية،
بيروت، سنة ١٩٦٩ .
- ابن عبد الجليل : محمد
كيف قاومت الملكية التشيع من أول عهد الدولة الزيرية إلى عهد
المعز بن باديس الصنهاجي، بحث في أعمال الملتقى التونسي
الإسباني، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة تونس،
تونس، عدد ١٠٣ - ١٠٤، مجلد ٢٥، سنة ١٩٧٨ .
- عبد الحميد : د. سعد زغلول
أ - تاريخ المغرب العربي، ليبيا، وتونس والجزائر والمغرب من الفتح
العربي حتى قيام دولة الأغالية والرستميين والأدارسة، دار المعارف،
القاهرة، سنة ١٩٦٤ .
- ب - العلاقات بين صلاح الدين الأيوبي والمنصور الموحدي، بحث
مستخرج من مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، سنة ١٩٥٣ .
- ج - هاشم على مصادر تاريخ الإباضية في المغرب، دراسة لكتاب
السير، بحث نشر في أشغال المؤتمر الدولي الأول لتاريخ المغرب
العربي وحضارته مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية
والاجتماعية، جامعة تونس، ج ١، سنة ١٩٧٩ .

- ابن عبد الله : عبد العزيز
تاريخ الحضارة المغربية، الرباط، سنة ١٩٧٠ .
- ابن عبود : محمد عبد السلام
تاريخ المغرب، دار الطباعة المغربية، تطوان، ط٢، سنة ١٩٥٧ .
- عبد الوهاب : حسن حسني
أ - بساط العقيق في حضارة القيروان وشاعرها ابن رشيقي، تقديم محمد العروسي المطوي، مكتبة المنار، تونس، ط٢، سنة ١٩٧٠ .
ب - خلاصة تاريخ تونس، المنار التونسية للنشر، تونس، سنة ١٩٧٦ .
ج - شهيرات التونسيات، مكتبة المنار، تونس، ط٢، سنة ١٩٦٥ .
د - ورفات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية، مكتبة المنار، تونس، ط٢، سنة ١٩٧٢ .
- العروي : د. عبد الله
تاريخ المغرب محاولة في التركيب، ترجمة د. ذوقان فرغوط، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، سنة ١٩٧٧ .
- العريني : د. السيد الباز
أ - الدولة البيزنطية، دار النهضة العربية، القاهرة، سنة ١٩٦٥ .
ب - الحضارة والنظم الأوروبية في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، القاهرة، سنة ١٩٦٣ .
- بو عزيز : د. يحيى
الموجز في تاريخ الجزائر، المطبوعات الوطنية الجزائرية، الجزائر، سنة ١٩٦٥ .
- العدوي : د. إبراهيم أحمد
بلاد الجزائر تكوينها الإسلامي والعربي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، سنة ١٩٧٠ .

- عنان : محمد عبد الله
 دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المراهطي، مكتبة الخانجي،
 القاهرة، ط٢، سنة ١٩٦٩ .
- غريب : رشيد
 برج الفازي مصطفى بحرية، بحث في المجلة التاريخية المغربية،
 تونس، عدد٤، سنة ١٩٧٥ .
- فيخيرا : ماريا عيسوس
 انظر ابن مرزوق.
- فشر : هـ. أ. ل.
 تاريخ أوروبا العصور الوسطى، ترجمة د. محمد مصطفى زيادة
 وآخرون، دار المعارف بمصر، القاهرة، ق١، ط٥، سنة ١٩٦٩،
 وق٢، ط٣، سنة ١٩٦٦ .
- كرامب : ج. أ.، أ. جاكوب
 تراث العصور الوسطى، ترجمة قسم الترجمة والألف كتاب، وزارة
 التعليم العالي بمصر، مراجعة د. محمد بلران، د. محمد مصطفى
 زيادة، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، سنة ١٩٦٥ .
- كرو : أبو القاسم محمد، عبد الله شريط
 عصر القيروان، دار المغرب العربي، تونس، سنة ١٩٧٣ .
- لانترو : روم
 الإسلام والعرب، ترجمة منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت،
 سنة ١٩٦٢ .
- لوبون : غوستاف
 حضارة العرب، ترجمة عادل زعير، مطبعة دار لإحياء الكتب
 العربية، ط٢، سنة ١٩٤٨ .

- لويس : أرشيبالد
القوى البحرية والتجارية في حوض البحر الأبيض المتوسط، ترجمة
أحمد محمد عيسى، مراجعة وتقديم محمد شفيق غربال، مكتبة
النهضة المصرية، القاهرة، سنة ١٩٦٠ .
- مارينو : د. مارتينو مورينو
المسلمون في صقلية، منشورات الجامعة الليتانية، قسم الدراسات
التاريخية، بيروت، سنة ١٩٦٨ .
- ماهر : د. سعاد
البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية، دار الكتاب العربي
للطباعة والنشر، القاهرة، سنة ١٩٦٧ .
- المجنوب : عبد العزيز
الصراع المذهبي بإفريقية إلى قيام الدولة الزيرية، تقديم علي الشابي،
الدار التونسية للنشر، تونس، سنة ١٩٧٥ .
- مذكور : إبراهيم
في الفلسفة الإسلامية، دار المعارف بمصر، ط٢، ١٩٦٨ .
- المرهبي : عبد الحق
الجيش المغربي عبر التاريخ، الرباط، سنة ١٩٦٩ .
- المدني : أحمد توفيق
أ - حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا، الشركة الوطنية للنشر
والتوزيع، الجزائر ط٢، سنة ١٩٧٦ .
ب - المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا، الشركة الوطنية
للنشر والتوزيع، الجزائر، سنة ١٣٦٥ هـ.
- المطوي : محمد العروسي
الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، نشر دار الكتب الشرقية،
تونس، سنة ١٩٥٤ .

- المنجد : د. صلاح الدين
أ - المشرق في نظر المغاربة والأندلسيين، دار الكتاب الجديد، بيروت، سنة ١٩٢٣ .
ب - دمشق في نظر الأندلسيين، بحث في صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمديرية، المجلد السادس، سنة ١٩٥٨ .
- المنوني : محمد
العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين، معهد مولاي الحسن، الرباط، ط٢، سنة ١٩٧٧ .
- مؤنس : د. حسين
أ - رحلة الأندلس، حديث الفردوس الموعود، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، سنة ١٩٦٣ .
ب - صبح وثائق جديدة عن دولة المرابطين، بحث في صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمديرية، عدد ٢، سنة ١٩٥٣ .
ج - الجغرافية والجغرافيون في الأندلس - الشريف الإدريسي قمة علم الجغرافية عند المسلمين، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمديرية، مجلد ٩ - ١٠ .
- مبلي : ألكس
العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي، ترجمة د. عبد الحليم النجار، د. محمد يوسف موسى، مراجعة د. حسين فوزي، دار القلم، دمشق، سنة ١٩٦٢ .
- النيفر : الشيخ محمد
عنوان الأريب عما نشأ بالمملكة التونسية من عالم أديب، تونس، سنة ١٣٥١ هـ.
- نويهض : عادل.
معجم أعلام الجزائر، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر

- والتوزيع، بيروت، سنة ١٩٧١ .
- هرنشو : هـ. أ. : علم التاريخ، ترجمة د. عبد الحميد العبادي، القاهرة، بدون تاريخ.
- هونكه : د. سيجريد : شمس الله تسطع على الغرب، ترجمة د. قّواد حسنين، دار النهضة العربية، القاهرة، بدون تاريخ.
- الهيلة : محمد الحبيب : الزاوية وأثرها في المجتمع القيرواني، بحث في المجلة التونسية للعلوم الاجتماعية، جامعة تونس، عدد ٤٠ - ٤٣، سنة ١٩٧٥ .
- يس : محمد عوني : حملة لويس البريوني على المهديّة، رسالة ماجستير لم تطبع، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، سنة ١٩٧٩ .
- يوسف : د. جوزيف نسيم : لويس التاسع في الشرق الأوسط، مؤسسة المطبوعات الحديثة، القاهرة، ط٢، سنة ١٩٥٩ .

قائمة المصادر والمراجع الأجنبية

- **Abulafia, D.,**
The two Italies, Economic Relations Between the Norman Kingdom of Sicily and Northern Communes, London - New-York, 1977.
- **Al- Aracon, M.A. & De Linares, S.R.G.,**
Los Documentos A'rabes Diplomaticos Del Archivo de la Corona de Aragon, Madrid, 1940.
- **Atiya, Dr. A.S.,**
The Crusades in the Later Middle Ages. London, 1938.
- **Bailly, A.,**
Saint Louis, Paris, 1965.
- **Basset, M.M.A.,**
Initiation a la Tunisie, Paris, 1950.
- **Beaulieu, Geoffroi de.,**
Vita et Sancta Conversatio Piac Memoriae, Ludovici Noni Regis, Francorum. ED. Hist. de Fr. XX, 1-27.
- **Belkhodja, K.,**
Les Normands de Sicile en Ifriqiya, Les Cahiers de Tunisie, Faculte des lettres et des Sciences Humaines, Universite de Tunis, N. 47-48, Tunis, 1964.

- **Briffault,**
Making of Humanity.
- **Brundgr, J.A.,**
Holy War in the Medieval Ages, Columbus.
- **Brunschvig, R.,**
La Berberie Orientale Sous les Hafsides des Origines a la Fin du XV
Siecle., Paris, 1940 - 1947.
- **Chovin, G.,**
A Perca Sur Les Relations de La France avec Le Maroc, des Origines a la
fin du Mayon Age, Hesperies, Tom XLIV, 1957.
- **Cleve, T.C.V.,**
The Emperor Frederick II of Hohenstaufen. Oxford. 1972.
- **Clissoide, S.,**
The Barbary Slaves, London, 1977.
- **Condet, P. de,**
Refere la Duc de Levis Mirepoix.
- **Cristiani, L.,**
→ Saint Louis Roi de France, Paris, 1958.
- **Cuttino, G.P.,**
English Diplomatic Administration (1259 - 1339). Oxford, 1971.
- **Daniel, E.R.,**
The Franciscan Consept of Missions in the High Middle Ages.
- **Daniel, N.,**
The Arabs and Mediaval Europe., London, 1975.
- **Dufoureq, C.E.,**
L'Espagne Catalne et La Magrib aux XIII et XIV Siecles., Paris, 1966.

- **Douglas, D.C.,**
The Norman Fate 1100-1154, London, 1976.
- **Epalza, M. de,**
La Tuhfa, Autobiograficy Polemica Islamica Cont'a el Cristianismo de
Abdullah Al - Turyuman (Fray Anselmo Turmeda), Rome, 1971.
- **Fawtier, R.,**
The Capetian Kings of France, Monarchy and Nation 987-1328.,
Translated by : Lionel Burter & R.J. Adam., London, 1976.
- **Friossart, J.,**
Chronicles of England, France, Spain and the Adjoining Countries.
Translated by Thomas Johnes., London, 1839.
- **Hachette, A.N. Cl.,**
Le Siecle de Saint Louis, Paris, 1970.
- **Hamdy, Dr. A.H.,**
Philippe de Meziens and the New Order of the passion, Bulletin of Faculty
of Arts, Alexandria University, Vol. 18, 1964.
- **Heyd, W.,**
Histoire du Commerce du Levant, Leipzig, 1923.
- **Hiem, M.,**
La passion d'Un Rio Charles VI, le fol, Paris, 1955.
- **Hilaire (B.Saint)**
Mohomet et la Coran, Paris, 1865.
- **Hillgarth, J.N.,**
Ramon Lull and Lullism in fourteenth Century France, Oxford, 1971.
- **Garreau, A.,**
Saint Louis et son Royame, Paris, 1949.

- **Grousset, R.,**
 1 - Bilan de l'Histoire, Paris, 1946.
 2 - Histoire des Croisades et du Royaume France de Jerusalem, Paris, 1939.
- **Gullemain, B.,**
 The Early Middle Ages, London, 1960.
- **Guistiniani, A.,**
 Annali Della Republica di Genova, Terza Edizione Gevonese, Vol. 2.,
 Genova, 1854.
- **Guth, P.,**
 Saint Louis Roi de France, Paris, 1960
- **Joinville, J.,**
 The Life of Saint Louis, Translated by M.R.B. Show, Penguin., London, 1976.
- **Labal, P.,**
 Le Siecle de Saint Louis, Paris, 1972.
- **Lane poole, S.,**
 A History of Egypt in the Middle Ages, London, 1936.
- **Larcena, J.,**
 Saint Louis de France, Paris, 1964.
- **Lopez, R.S.,**
 The Commercial Revolution of The Middle Ages, 950 - 1350., London -
 New York, 1976.
- **Mayer, H.E.,**
 The Crusades, Translated by John Gillingham., Oxford, 1972.
- **Miropoix, La Duc de Levis.,**
 Saint Louis Roi de France, Presente par La Duc de Levis Mirepoix, de
 l'Academic Francaise, Le Memorial des Siecles, Etabli par Gerard Walter,

XIII Siecle Les Hommes, Textes de Saint Louis, Joinville, Jean Sarrasin.
Pierre de Condet, Makrizi et le Livre Des Metiers D'Etienne Boileau.
Editions Albin Michel, Paris.

Mirot, L.,

Le Siege de Mahdia (1390), Paris, 1932.

- Nangls, Guillaume de,

Vita Sancti Ludovici Regis Franciac. Ed. Hist. de Fr., XX, pp. 312 - 465.

- Pathus, G. de Saint.,

La Vie et Les Miracles de Monseigneur Saint Louis, Paris, 1971.

- O' Connell, D.,

Les Propose de Saint Louis, Presentes par David O'Connell, et Prefaces
par Jacques Le Goff., Paris, 1974.

- d' Oreville, Cabaret Jehan

La Chronique du Bon Duc Loys de Bourbon, Ed. A.M. Chazaud., Paris 1876.

- Raley-Smith. J.,

What Were The Crusades, London, 1977.

- Rothelin,

Continuation de Guillaume de Tyre du Manuscrit de Rothelin (1229 -1261).
Vol. 2., Paris, 1859.

- Delaville le Roulx, J.,

Le France en Orient au XIV, Siecle., Paris, 1886.

- Setton, K.M.,

A History of The Crusades, London 1969 - 1974.

- Talbi, Dr. M.,

Document Divers Relatifs a La Croisade de Saint Louis Contre Tunis, Les
Cahiers de Tunisie, Faculte des Lettres et Sciences Humaines de Tunis,
Universite de Tunis, Tunis, Tom, XXV, 1977.

- Tisserant, E. & G. Wiet,

Une Lettre de l'Almohade Murtada au Pape Innocent IV., Hesperis, Tom VI, 1926.

- Tyre, W. of,

A History of Deeds Done Beyond The Sea, Translated and Annotated by Emily A. Bad Cock and A. C. Kreg., New york, 1943.

- Walter, G.,

Refere Le Duc de Levis Miropoix.

فهرس اللوحات

لوحة ١ :	لوحة فسيفساء تمثل جرجي الأنطاكي يرتقي على أقدام السيدة العذراء	٧٢٩
لوحة ٢ :	لوحة فسيفساء تصور تنوير رجار الثاني من قبل السيد المسيح عليه السلام	٧٣٠
لوحة ٣ :	جانب من بقايا سور المهدية	٧٣١
لوحة ٤ :	جانب من مدخل ميناء المهدية القديم	٧٣٢
لوحة ٥ :	جانب من بقايا البرج الذي يعلو باب الفتوح بالمهدية	٧٣٣
لوحة ٦ :	جانب آخر من بقايا البرج الذي يعلو باب الفتوح	٧٣٤
لوحة ٧ :	مطلع البرج الذي يعلو باب الفتوح	٧٥
لوحة ٨ :	منارة رباط المنستير	٧٣٦
لوحة ٩ :	منظر عام لرباط المنستير والمقبرة	٧٣٧
لوحة ١٠ :	لوحة تمثل لويس التاسع في أيامه الأخيرة	٧٣٨
لوحة ١١ :	لوحة تمثل لويس التاسع مسجى على فراش الموت	٧٣٩
لوحة ١٢ :	صورة للصندوق الذي نقلت فيه رفات لويس التاسع من قرطاجة ..	٧٤٠
لوحة ١٣ :	لوحة تمثل حادث التحول في حياة رامون لول	٧٤١
لوحة ١٤ :	لوحة تمثل قصة رامون لول مع مملوكه المسلم	٧٤٢
لوحة ١٥ :	لوحة تمثل رحلة رامون لول الأولى إلى إفريقية	٧٤٣
لوحة ١٦ :	لوحة تمثل جهود رامون لول مع البابوية ومملوك أوروبا لتبني مشاريعه الصليبية	٧٤٤

- لوحة ١٧ : لوحة تمثل رحلة رامون لول الثانية إلى إفريقيا ٧٤٥
- لوحة ١٨ : لوحة تمثل رجم رامون لول في بجاية ٧٤٦
- لوحة ١٩ : صورة لقبر عبد الله الترجمان ٧٤٧
- لوحة ٢٠ : لوحة تمثل الحملة الصليبية على المهدية سنة ٧٩٢هـ ٧٤٨
- لوحة ٢١ : لوحة تمثل حصار المهدية سنة ٧٩٢هـ ٧٤٩
- لوحة ٢٢ : لوحة تمثل رفع الحصار عن المهدية سنة ٧٩٢هـ ٧٥٠

فهرس الخرائط

- ١ - خريطة المغرب العربي في القرن الثامن الهجري ٧٥١
- ٢ - خريطة مدينة المهدية ٧٥٢
- ٣ - خريطة مدينة تونس في العصر الحفصي ٧٥٣
- ٤ - خريطة ممر حملة لويس التاسع ٧٥٤
- ٥ - خريطة ممر حملة لويس الثاني دي بوربون على المهدية ٧٥٥
- ٦ - أقدم خريطة لجزيرة جربة ٧٥٦

الفهرس

٥	هذا الكتاب : تقديم الدكتور مصطفى شاكر
٩	مقدمة
٤٩	تمهيد
٤٩	جغرافية إفريقية وأثرها في تاريخها
٥٧	أهمية إفريقية بالنسبة للكنيسة والعالم المسيحي في العصور الوسطى
٧٢	فتح المسلمين لإفريقية
٨٣	دور إفريقية في الجهاد

الباب الأول

إفريقية والحروب الصليبية

١٠٣ حتى منتصف القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي)

الفصل الأول

١٠٥	إفريقية والهجوم الصليبي على غرب العالم الإسلامي
١٠٥	انقلاب ميزان القوى في غرب البحر الأبيض المتوسط
١٠٦	بنو زيري وضماع وحادثة المغرب العربي
١١٣	انفصال إفريقية عن الدولة الفاطمية
١٢٩	هجرة الأعراب الهلالية إلى إفريقية وآثارها
١٢٩	الهجوم الصليبي في الغرب
١٣٠	أ - الأندلس

١٣٣	ب - صقلية
١٣٨	ج - إفريقية
١٤٠	مهاجمة المهديّة سنة ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م

الفصل الثاني

١٤٩	الهجوم الصليبي على المشرق وصداه في المغرب
١٤٩	اتجاه النشاط الصليبي إلى المشرق وأمّابه
١٥٠	أثر نجاح الحملة الصليبية الأولى على المغرب الإسلامي
١٥٢	إفريقية والدعوة لتوحيد الجهود لمواجهة العدوان
١٥٨	إفريقية ومواجهة الحركة الصليبية
١٥٩	أ - الأندلس
١٧١	ب - صقلية
١٨١	ج - المشرق

الفصل الثالث

١٩١	هجوم نورمان صقلية على إفريقية
١٩١	العلاقات بين النورمان وبنو زيري حتى مطلع القرن الثاني عشر
١٩٤	ظهور مطامع النورمان في إفريقية
٢٠١	مهاجمة المهديّة سنة ٥١٧هـ / ١١٢٢م
٢٠٥	فرض الحماية النورمانية على إفريقية
٢١٠	الامتلاء على ساحل إفريقية
٢١١	احتلال مفاقس
٢١٢	احتلال طرابلس
٢١٣	احتلال قابس

٢١٥	احتلال المهدي
٢١٩	إفريقية في ظل الاحتلال
٢٢٢	الثورة وبداية التحرير
٢٢٦	الموحدون واستكمال التحرير

الباب الثاني

٢٣٣	حملة لويس التاسع على إفريقية
	الفصل الأول

٢٣٥	نشاط لويس التاسع الصليبي بعد فشل حملته على مصر
٢٣٥	محاولات تدعيم صرح منهار
٢٤٤	نذر الكارثة
٢٥٤	الدعوة إلى حملة صليبية جديدة
٢٥٧	الظاهر بيبرس والحملة الصليبية الجديدة
٢٦٠	بين المستنصر الحفصي ولويس التاسع
	إفريقية طريق إلى بيت المقدس

الفصل الثاني

٢٨٣	الصليبيون في قرطاجة
٢٨٣	رحيل لويس التاسع من باريس
٢٨٥	اجتماع كالياري
٢٩٠	نزول الصليبيين في قرطاجة
٢٩٧	المستنصر الحفصي ومواجهة الحملة
٣٠١	المقاومة الإسلامية
٣٠٨	تفشي الوباء وموت الملك

٣٠١٧ المللك شارل ومفاوضات الصلح
٣٢٣ عقد الصلح وانسحاب الصليبيين

الفصل الثالث

٣٢٧	معاهدة الصلح
٣٢٧ الوفد الإسلامي في المفاوضات
٣٣٠ تعريف بوثيقة المعاهدة
٣٣٢ ملاحظات عامة على الوثيقة
٣٣٥ أسس الصلح :
٣٣٥ أ - الناحية الاقتصادية
٣٤٥ ب - الناحية السياسية
٣٥٠ ج - الناحية الدينية

الباب الثالث

٣٥٧	التآمر الصليبي على إفريقية في القرن الثامن الهجري
	(الرابع عشر للميلاد)
	الفصل الأول

٣٥٩	إفريقية والمشاريع الصليبية
٣٥٩ قرب نهاية الصليبيين في الشام وأثره على إفريقية
٣٦٠ الحركة الصليبية في طور جديد
٣٦٣ إفريقية في مشاريع الدعاة
٣٦٣ مشروع هيثوم
٣٦٥ مشروع رامون لول
٣٧١ مشروع بروكارد

٣٧٥ مشروع فيليب دي ميزير
٣٨١ فكرة فرض الحصار الاقتصادي على إفريقية
٣٨١ مشروع شارل الثاني
٣٨٢ مشروع مارينو سانودو
٣٨٥ الحرس السلطاني مشروع صليبي

الفصل الثاني

٤٠٣	نشاط حركة التنصير في إفريقية
٤٠٣ جهود المنصرين في إفريقية في القرن الثالث عشر
٤١٥ رامون لول داعية تنصير
٤٣٠ أرغونة وحركة التنصير
٤٣٧ فشل حركة التنصير ونجاح الحركة المضادة

الباب الرابع

٤٤٩	الحملات الصليبية على إفريقية في القرن الرابع عشر
-----	--

الفصل الأول

٤٥١	أرغونة قوة عدوان جديدة في جبهة إفريقية
٤٥١ إفريقية منذ وفاة المستنصر الأول حتى تولي أحمد الثاني
٤٦٨ محاولة احتلال قسنطينة
٤٧٧ احتلال جزيرة جربة
٤٨٠ مهاجمة المهدية
٤٨١ حركة ابن أبي دبوس
٤٨٤ غارات قراصنة أرغونة وصقلية على إفريقية
٤٩٦ فشل خطط أرغونة وتحرير جربة

الفصل الثاني

٤٩٩	تجدد هجمات الإيطاليين على إفريقية
٤٩٩	التنافس بين جنوة والبندقية وأثره على إفريقية
٥٠١	تطلع جنوة لإفريقية من جديد
٥٠٢	هجوم الخنويين على طرابلس الغرب
٥١٥	حملة جنوة وحلفائها على جربة

الفصل الثالث

٥٢٧	حملة لويس الثاني دي بوربون على المهديّة
٥٢٧	جنوة محرك لقرى العدوان الصليبي
٥٤٠	الاستعدادات للحملة الصليبية الجديدة
٥٥١	نزول الصليبيين بساحل المهديّة
٥٥٧	مواجهة المسلمين للفرقة
٥٦٧	متاعب دي بوربون وعقد الصلح
٥٧٥	انسحاب الصليبيين وقشل الحملة

الباب الخامس

٥٨١	إفريقية معبر حضاري في عصر الحروب الصليبية
٥٨٣	القيروان أول مركز لإشعاع الحضارة الإسلامية في المغرب
٦٢٠	أثر إفريقية في معبري الأندلس وصقلية
٦٥٢	إفريقية معبر مباشر للحضارة العربية الإسلامية إلى أوروبا :
٦٥٨	أ - الناحية الاقتصادية
٦٦٤	ب - الناحية الثقافية
٦٦٩	الطب والصيدلة

٦٧٢ الفلك والهيئة
٦٧٣ العلوم الرياضية
٦٧٧ الفلسفة والفكر الديني
٦٨٢ الجغرافية والرحلات
٦٨٩ حركة الاستشراق
٦٩٤ الأدب
٦٩٦ ج - الناحية الاجتماعية
٦٩٩ خاتمة

٧٠٧	الملاحق واللوحات والخرائط
٧٠٩ الملحق الأول : وثيقة الصلح بين المستنصر الحفصي والصليبيين
٧١٣ الملحق الثاني : رسالة من المرتضى الموحيدي إلى البابا أنوسنت الرابع
٧١٨ الملحق الثالث : رسالة من أبي يحيى زكريا بن اللحياني إلى خاتمي الثاني ملك أرغونة .
٧٢٠ الملحق الرابع : رسالة من أبي يحيى زكريا بن اللحياني إلى خاتمي الثاني ملك أرغونة .
 الملحق الخامس : عزم أبي عنان على الزحف على إفريقية (من مخطوط فيض
٧٢٢ العباب وإفاضة قداح الآداب)

فهارس الكتاب

٧٥٩ قائمة المصادر العربية
٧٧٠ قائمة المراجع الحديثة العربية والمعرفة
٧٨٢ قائمة المصادر والمراجع الأجنبية

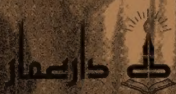


عمان - ساحة الجامع الحسيني - سوق البسترة
تلفاكس ٤٦٥٢٤٣٧ - ص. ب ٩٢١٦٩١ عمان - الأردن

Bibliotheca Alexandrina



0201026



عمان - ساحة الجامع الحسيني
سوق البتراء - تلفاكس ٤٦٥٢١٢٧
ص ب ٩٢١٦٩١ عمان - الاردن